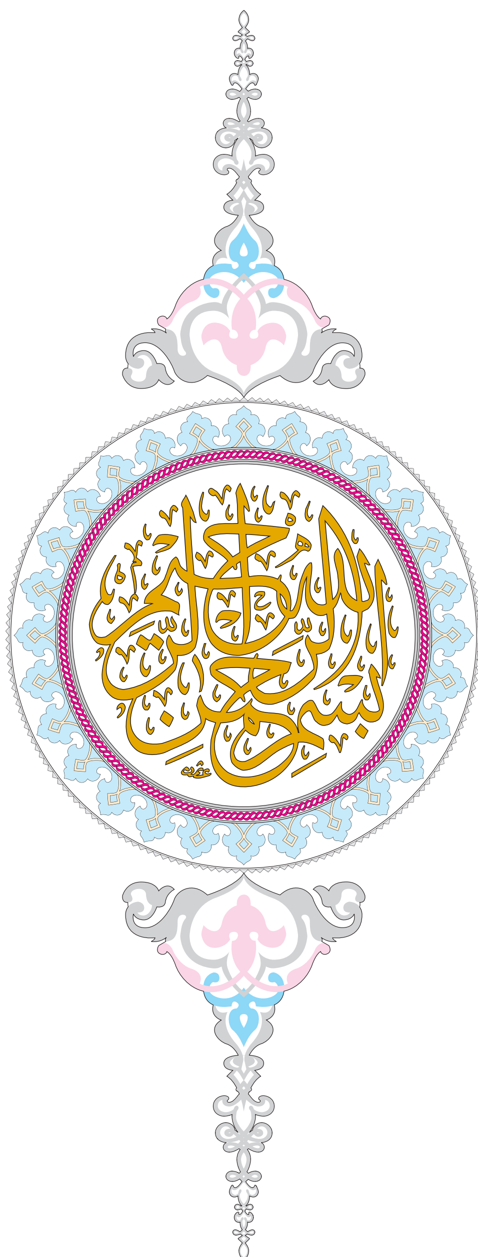
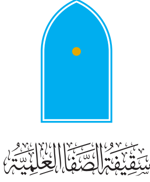
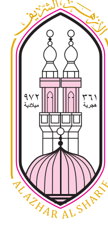




٨


بسم الله الرحمن الرحيم

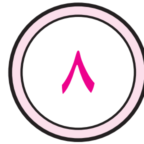




مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

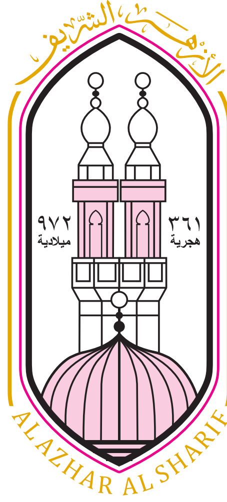


المجلد الثامن

السنة ١٣٥٦هـ

سقيفة الصفا العلمية

الأزهر الشريف



مشيخة الأزهر الشريف
تليفون : 25899823 / 25907497
فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123
www. azhar. eg

١٤٤٥هـ ـ ٢٠٢٣م

سقيفة الصفا العلمية
SAQIFAT AL-SAFA TRUST
لبوان ـ ماليزيا
www.saqifat-alsafa.org
E-mail: info@saqifat-alsafa.org

مجلة الأزهر

مجلة دينية علمية خلقية تاريخية حكمية

تصدرها مشيخة الأزهر

في كل شهر عربي

الجزء الأول	المحرم سنة ١٣٥٦	المجلد الثامن

مدير ادارة المجلة ورئيس تحريرها

محمد فريد وجدي

الادارة

ميدان الأزهر

تليفون : ٨٤٣٣٢

الرسائل تكون باسم مدير المجلة

الاشتراك

		قرش
داخل القطر المصرى		٣٠
خارج القطر المصرى		٤٠
للعلماء غير المدرسين وائمة المساجد والمأذونين ومعلمى المدارس الاولية والطلاب ومصالح الحكومة ومجالس المديريات	داخل القطر	٢٠
للطلاب وائمة المساجد	خارج القطر	٣٠

ثمن الجزء الواحد ٣ قروش صاغ داخل القطر و ٤ خارجه

مطبعة الازهر

١٣٥٦ هـ — ١٩٣٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة السنة الثامنة

الحمد لله على ما هدانا اليه من الدين القويم ، وأقامنا عليه من الصراط المستقيم ، وما حبانا من وصاياه المحببة للقلوب ، وتعاليمه الجامعة بين أشتات الشعوب ، حمدا يرشحنا للمزيد من حسناته ، ويؤهلنا للفوز بمرضاته .

والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ، بما حمله اليهم من النور المبين ، والحق الدامغ لبطلان المبطلين ، وعلى إخوانه النبيين ، وآله وصحبه وأتباعه من أقاموا الدين ، وحاطوه من العلم بسياج متين .

(أما بعد) فإن هـذه المجلة مافتئت منـذ تأسست تعمل على أداء رسالتها من الدفاع عن الدين ، والدعوة اليه ، مستمدة من الله العون على ما انتدبت له ، غير وانية ولا مُتَلَوِّمة ، حتى كسبت رضاء العالم الاسلامى فى مشارق الأرض ومغاربها ، فأصبحت لسانهم الناطق بحجتهم ، الداعى الى شرعتهم ، المنافح عن حقيقتهم . فلا غرو أن بلغت فى هذا المدى القصير الى حد من الانتشار لم تبلغه مجلة شهرية فى الشرق الى اليوم .

وإن ارتياح الناس الى هـذه المجلة يقترن دائما بالابتهال الى الله جـل وعز بحفظ حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق معززا فى ملـكه ، مؤيدا فى حكمه ، حاصلا على كرامة ربه ، فإن ما يتوالى على الأزهر وعلمائه من سيب فضله ، وما ينالهم من حسن إقباله ، وما يحفظه له الناس من احترامه الدين ، وقيامه بحقوقه ، كل ذلك كان له أكبر تأثير فى قيام الأزهر بمهمته ، وقيام أعلامه بواجباتهم ، وانتظام جميع ما يتصل اليه واليهم بسبب ، أو يمت بعمل .

ولا يذكر الأزهر وعلماؤه وما يتصل به إلا ويذكر الأستاذ الأكبر ، الامام المصلح العظيم ، حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى ، فقد أفاض من عبقريته العالية على هذه الجامعة الكريمة من روح النظام ، وبواعث النهوض ، وعوامل التطور ، ما أقامها على جادة أكمل الجامعات العالمية ، وضمن لها الوصول الى أبعد غاياتها .
وقد لا تمضى سنوات معدودة حتى تظهر آثار جهوده العظيمة جايلة باهرة ، تحل الأزهر مكانته من تمثيل الدين الحق ، تمثيلا يتفق ورسالته العامة للأمم كافة .

هذا ونسأل الله ونحن فى مستهل السنة الثامنة لهذه المجلة ، أن يوفقنا ويوفق أصحاب الفضيلة الذين يعاوننا فى تحريرها ، لأن نتابع خطوات هذا الإصلاح الجالل ، وأن ييسر لنا مهمتنا من بيان الدين والادلاء بحجته ، ونشر كلمة الله والدعوة الى محجته ، إنه ولى الكفاية ، وهو المستعان ؟

مدير مجلة الازهر
محمد فريد وجدى

العام الهجرى الجديد

يفتتحه الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى
شيخ الجامع الأزهر بنصائح من صميم الدين ولباب الحكمة

يذكر المسلمون فى مستهل كل عام قمرى هجرة خاتم النبيين من مكة الى المدينة ، ويذكرون بهذه المناسبة تاريخ الاسلام وما كان من نتائج انتشاره من الانقلابات الفكرية والدينية والاجتماعية بين شعوب الأرض قاطبة .

أمضى محمد صلى الله عليه وسلم من عمره أربعين سنة لا يحدث نفسه بأن يقوم بدعوة ، ولكنه لم ينشأ جامد القلب ، ولا خامد العقل ، على ما كان عليه الناس المحيطون به ، فشعر بما هو فيه من الحيرة بين أديان قائمة لا يسيغها عقله ، وحقائق خفية لم يوصله اليها إدراكه ، فكان يعتزل الناس ويأوى الى غار فى الجبل ، يتجرد فيه من جميع علائق الدنيا ، لاجئا الى مبدعه أن يهديه لما تتوق اليه نفسه ، ويطمئن به قلبه . فبينما هو فى جولة من جولات تفكيره إذ فجئه من عالم الروح مافجئه ، فانكشف له ما انكشف لكل نبى قبله ، وكانت ثمرة ذلك تكليفه بدعوة قومه الى الدين الحق ، والى الطريقة المثلى للحياة ثم ما لبث أن كلف بدعوة الخلق كافة الى دين الفطرة .

مهمة كان مجرد الفكر فيها يوقع فى اليأس ، ويوجب الحيرة . عالم يغلى بالاضطرابات والفتن ، ويفور بالسخائم والإحن ، وأمم تتناحر تناحر الضوارى ، وطوائف تتزاحم تزاحم الهيم على الأوشال ، وانصراف عن التفكير والتعقل لايدع لصاحب دعوة أملا فى أن يُصغَى له فضلا عن أن يجاب الى ما يدعو اليه ، وجمود على التقاليد والموروثات لا تترك لمجدد خيالا من توقع الفوز فيما هو بدهى ، فما ظنك بما يحتاج لروية ؟

مضى صلى الله عليه وسلم فى الدعوة الى الاسلام كما أمره ربه ، فكان جواب قومه

عليها كما ذكره الله تعالى عنهم : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هـذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، إنّ هـذا لشيء يراد . ما سمعنا بهـذا فى الملة الآخرة إنْ هـذا إلا اختلاق » « وقالوا يأيها الذى نُزّل عليه الذكر إنك لمجنون ، لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين » الخ الخ .

هذا كان جواب قومه الأقربين ، الذين كانوا يلقبونه قبل الدعوة بالأمين ، ويعرفون أنه على خلق متين ، فما ظنك بالبعداء عنه والأبعدين ؟ فكان الله يحثه على الصبر ، ويحضه على المضى فيما ندبه له ، غير مبال بجمود الجامدين ، وغفلة الغافلين ، ولا آبه بتهديد المهـددين ، وعدوان العادين ، حتى تآمر القوم على قتله غيلة ، وتفريق دمه فى القبائل . فأمره الله بالهجرة الى المـدينة ، وكان قد هدى الى الاسـلام نفرا من أهلها بثوا فيها دعوته . فخرج اليها فى جنح الظلام الدامس ، وأوى فى طريقه الى غار موحش ، فلما تعقبوه ورأوا انقطاع أثره عند ذلك الغار ، تآمروا أن يقتحموه ، فتهيبوا ذلك لهول ما كان عليه من الظلمة وكثرة الهوام ، واستعظموا أن يكون قد أوى اليه الرسول ، فتركوه . وخرج صلى الله عليه وسـلم وصاحبه قاصـدين المدينة ، فبلغوها سالمين ، فاستقبلهم أهلها باحتفاء عظيم ، وعاهـدوه على أن يحموه ويحموا دعوته ضد الأبيض والأحمر ، حتى يظهر الاسلام أو يموتوا أجمعين .

إيمان راسخ لم يعهـد له شبيه فى جزيرة العرب ، ونزوع مدهش من طائفة ممزقة الأوصال ، تـكاد لا تـكفى وسائلها لحماية نفسها ، تنتدب لأن تقف فى وجه العالم أجمع ذيادا عن دعوة لا ينتظر من ورائها مغنم ، ولا يتوقع أن يجاوز صداها البقعة التى تقوم عليها فى وسط شعاب وهضاب لا يعرف العالم لها وجودا ، ولا يسمع عن أهلها ذكراً .

كل شيء عجيب فى هـذا الدين ، ولا يقبل التعليل بالأمور العادية : رجل يقوم فى بيئة هى أبعد البيئات عن النظم الاجتماعية ، والأصول العلمية والفلسفية . يدعي أنه

أرسل خاتما للمرسلين، ليصلح ما فسد من الشرائع، ويعدل ما انعكس من الأوضاع، ويبعث بالروح فيما مات من النفوس، وبالنور الى ما أظلم من القلوب، فلا يرفع قومه بدعوته رأسا، فيأوى الى قوم آخرين هم أقل من قومه عددا، وأضعف مددا، فيلهمون أن يؤيدوه، وأن يعرضوا أنفسهم لمعاداة العالم كله، أو على القليل لمعاداة العرب أجمعين!

لاجرم أن هذا مجال بعيد الأرجاء لدراسة حالة نفسية خطيرة لم يسمح تاريخ الاجتماع بمثيل لها، وخاصة فى البلاد العربية.

إن أهل المدينة الذين انتدبوا لهذا الأمر الجلل يتألفون من قبيلتين: بنى الأوس وبنى الخزرج، من القبائل اليمنية التى هجرت ديارها واستقرت فى شمال بلاد العرب، وكانت الحرب بينهما دائمة الاشتعال على مثال جميع قبائل العرب، وزاد فى اشتعالها نزوح جماعات يهودية من سورية الى تلك المدينة هربا من الاضطهاد الدينى هنالك

كانت هاتان القبيلتان كسائر القبائل العربية تعيش معيشة أهل البداوة، على الماشية، وما تسمح به الأراضى المجدبة من التمر، وليست على شىء يذكر من الثروة ولا العدد، وليس لها فى نظر العرب ميزة تجعلها منيعة الحوزة، مرعية الجانب. وكانت كسائر القبائل العربية تحفظ وجودها حيال القبائل المعادية لها بعقد المحالفات، والتعاون على دفع الغارات. نخفوفها والحالة هذه للدفاع عن دعوة دينية، ظهرت بوادر مزعجة لنفور العرب منها، بما حدث من موقف قريش حيالها، يعتبر مجازفة منها بوجودها، وليس فيما بين يدينا ما يقفنا على سبب هذه المجازفة الجبارة، إن أردنا تفهمها على ضوء الأمور العادية.

لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم بذى مال يطمع فى نواله، ولا لأصحابه من الجاه ما يغرى أهل المدينة باستثماره، فقد كان أكثرهم فقراء، ومن كان منهم على شىء من الثروة، تركها وراءه وفر بدينه لا يملك غير نفسه، فما الذى يحفز قبيلتى الأوس والخزرج على الأخذ بناصر قوم على هذه الحال من الفقر وقلة الوسائل المادية؟

اللهم لا شيء غير ما أشرق فى قلوبهم من الايمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وما فاض عليهم من روح الله للقيام بمهمة عالمية كان لابد منها لتدارك الأمم من الفوضى ، والعمران من الخراب فى تلك الأيام المظلمة .

ولكن هذه طفرة ، نعم ! والطفرة محال ، نعم ! إلا فى عهود النبوات حيث يتجلى العالم الروحانى على العالم المادى بواسطة الرسول القائم بالدعوة ، فتحدث مفاجآت وخوارق عادات تعتبر من آيات الله الكبرى .

وأى شيء فى تاريخ الدعوة الاسلامية لا يعتبر من خوارق العادات ؟ إن العشر السنين التى عاشها النبى صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة ، تم فيها من الأعمال مايقتضى كل واحد منها قرونا متوالية . فقد تم فيها بناء دين ، وتأسيس دولة ، ووضع دستور ، وسن شريعة ، وقيام أمة . وكل عمل من هذه الأعمال تم على أكمل حال ، ولم يُترك ناقصا ليتم تدريجيا فى خلال أجيال متعاقبة ، كما جرت عليه الأحوال الانسانية فى الأمور العادية .

ومما يجب لفت النظر اليه أن الدعوة الاسلامية التى نكصت عنها قريش ، وخيل لها أنها تقضى عليها فى المهجر الذى أوت اليه ، وحذا حذوها العرب أجمعون ، ولم يقبل الدفاع عنها إلا قبصة من الرجال ، قد تأيدت بروح من عند الله ، وبورك عليها حتى طافت المعمور كله فى سنين معدودة ، مما لم يحدث مثله لدعوة تقدمتها فى تاريخ الأمم كافة ، وآتت ثمراتها فقبلتها أمم من أصول ولغات وألوان مختلفة ، لا تمت الى العرب ولا الى لغتهم بسبب .

فأى إنسان يسعه أن يتخيل أن دعوة تقوم فى بقعة هى أبعد بقاع الأرض عن العمران ، تقوى وتشتد ، وتطوف العالم كله ، وتأخذ بها شعوب كان يجهل بعضها وجود بعض ، وتخترق سور الصين المنيع فيرن لها فيها صدى يسمعه كل من له أذنان ؟

على هذا النحو من الإعجاز يؤيد الله الحق ، ويعلى مكانته بين الخلق . ومما يجب أن

يعلم أن هذه المعجزات المحمدية تبقى ما بقيت السموات والأرض ، ويزيدها تقدم العلوم النفسية والاجتماعية قوة على قوتها ، وتكون أدلة قاطعة على صدق رسالة محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .

هذه كلمة سقناها فى مناسبة العام الهجرى الجديد الذى احتفلت به مشيخة الأزهر احتفالا عظيما ، افتتحه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى بكلمة قيمة أودعها نصائح ثمينة من لباب الدين ، وصميم الحكمة ، كان لها تأثير فى السامعين يعجز القلم عن وصفه ، وإنا حرصاً على هذه الدرر الثمينة نجعلها قلادة فى جيد هذا العدد :

كلمة الأستاذ الأكبر

حضرات السادة : إخوانى العلماء ، أبنائى الطلبة :

أحييكم بتحية الاسلام ، وأهنيكم بالعام الهجرى الجديد ، وأسأل الله أن يكون خيراً من سابقه ، وأن يكون عام خير وسعادة ومجد للاسلام والمسلمين وللأمة المصرية الكريمة .

وأوصيكم وأوصى نفسى بالتخلق بأخلاق الرسول الكريم ، صلوات الله عليه ، الذى نحتفل الليلة بهجرته ، وأن تتدبروا ما فى الهجرة وما أحاط بها من معان وأغراض سامية حملت المسلمين على أن يعتبروها مبدأ للتاريخ .

وليس من غرضى الليلة أن أعرض لهذه المعانى ، وستسمعون من حضرات الخطباء والشعراء ما فيه غناء ، إن شاء الله .

ادخلوا فى العام الجديد على بركة الله ، وفى رعاية الله ، وتوفيق الله ، معتمدين عليه ، واثقين من أن مردّ الأمور جميعها اليه وحده ، عاملين على طاعته وطاعة رسوله وإعزاز كلمته وإعلاء كتابه .

واعلموا أن الدين عقيدة ، وخلق ، وعمل ؛ وأن سعادة البشرية لا تنال إلا فى ساحته وتحت ظلاله .

وفى العبادات إذا حسن أداؤها تهذيب للنفس وردع عن الشرور ، وفيها لذة الوصل والقرب من الواحد الأحد جل شأنه . وفى الأخلاق الدينية تعويد على احتمال المكاره وتسلية عما فى الحياة من مصاعب . ولا تطمئن النفس إلا إذا آمنت بما فى الحياة من حكمة ، وبما فى الآخرة من جزاء . فتقوية روح التدين سعى لإيجاد وسيلة من وسائل السعادة ، وأداة من أدوات الطمأنينة والاستقرار .

والشواهد أمامكم ماثلة تدلكم على اضطراب الحياة العامة حتى عند أقوى الدول بسبب البعد عن الدين . فقد أوجد البعد عنه مذاهب تشعر الانسانية الآن بقسوتها ووحشيتها وبعدها عن العقل والفضيلة . ولولا أولئك الذين زعموا لها أسانيد من الفلسفة والعلم ما نبتت ولا أفرخت ولا عاشت .

ونحن الآن فى مصر نشعر بقسوة الحياة بالقياس الى الماضى ، لأن المدنية خلقت ألوانا من العيش لم نعهدها من قبل . والألوان البعيدة عن الدين منها هى التى تطلبت نفقات لم يقو على احتمالها من انغمسوا فيها ، فاستدانوا وأسرفوا ، وذلوا أمام دائنيهم ، ومكنوا الدائنين من التصرف فيهم دون رحمة ولا شفقة .

وإنى لأخشى أن ينحدر الفلاحون فيما انحدر اليه غيرهم ، فتكون المصيبة عظيمة لاتقف عند إضعاف الفلاح فى جسمه وإنتاجه ، بل تتعداه الى ضعف النسل والذرارى .

فليتدبر العقلاء هذا ، وليحاربوه بكل القوى : بقوة الدين ، وبقوة السلطان .

أوصيكم أيها الاخوان ألا تهجروا القديم لأنه قديم ، وألا ترفضوا الجديد لأنه جديد .

خذوا من كل شىء أحسنه . خذوا ما يوافق العقل والدين والعادات القومية التى أثبتت التجارب الطويلة صحتها ، وارفضوا كل مرذول يجانب الدين والفضيلة والعادات الصحيحة ، ويجانب صفات الجد والوقار وما يجب أن يكون عليه الرجال .

إياكم أن تدخلوا فيما لاتعلمون ولاتفقهون ، وإياكم والغرور والطيش ، فهذه صفات لا يصلح معها عمل ، ولا يستقيم بها أمر فرد أو أمة ، وليعرف كل امرئ قدر نفسه ، فان معرفة النفس أصل من أصول السعادة ورقى المجتمع .

أبنائى الطلبة :

هبوا حياتكم للعلم ، وللخلق الكريم ، وللجد ، وروضوا أنفسكم على الصبر وعلى احتمال المكاره ، وقووا أجسامكم وعقولكم لتقدروا على الكفاح فى هذه الحياة .

أما أنتم أيها الإخوان من العلماء ، فلاحظوا الأمانة التى وضعت بين أيديكم :

أخلصوا لله فى تعليم أبنائكم وتهذيبهم ، وتقويم أخلاقهم ، وإرشادهم الى الطريق الحق .
وكما أوصيت بالمحافظة على الدين فإنى أوصى كل مصرى بالإخلاص لوطنه ، وأن يجود كل واحد للوطن بما يقدر عليه .
وكل شخص أتقن عمله وأحسنه وراقب الله فيه فهو مخلص لوطنه ؛ وكل شخص أنفق ما يقدر عليه لمجد الوطن فهو مخلص لوطنه .
أصلح الله أحوالنا ، ووقانا سوء المنقلب ، وهدانا الى سبيل الخير :
هـذا وإنى أسأل الله جلت قدرته أن يكلأ حضرة صاحب الجلالة الملك ، ويرعاه بعنايته ، ويجعل أيامه على هذه البلاد أيام سعادة وطمأنينة واستقرار ، وأن يوفق القائمين بأمور الدولة الى خير العمل ، ويلهمهم طريق الصواب .

بعـد ما أتم فضيلته ما تفضل بالقائه نهض علماء أعلام ، فذكروا من تاريخ الهجرة وآثارها العالمية ما كان له أعظم موقع فى النفوس مما سنعود الى الالمام به .
ونكتفى اليوم بنشر قصيدة عصماء لفضيلة الاستاذ الموقر الشيخ عبد الجواد رمضان المدرس بكلية اللغة :

مُحَيَّاكَ أسنى فى العيـون وأبدع	وذكرك أسمى فى القـلوب وأروع
رجعتَ الى الاسـلام ذكرى شبابه	فهل ما مضى من سالف المجد يرجع ؟
فيا طالما ، زان الوجودَ جمـاله	لعـــلك بالنُّجح المؤمَّل تطلع
حشدنا لك الآمال غُرا تقودها	نوازع فى آلاء عهـدك تطمع
ويسمو بهـا فى أفق سـعدك نهضة	مسـددة المـرمى ، وشمـل مجمـع
إذا الأزهـر المعـمور قام خطيبه	أصاخ له الشرق المقـدس أجمـع
تنَادى بنوه ، والحـوادث تلتـقى	ووجـه الليـالى والأمانىّ أسـفع
هلموا بنـا ، نجمع شتات جهـودنا	فإن اجتماع الرأى للضيم أدفـع

ضمان على مجد العروبة أن نُرى وأعلامنا فوق المجرة ترفع
دعا الدين ، فلتأت الأمانى خواضعا ويادهر فلتقبل ، وياعرب فاسمعوا
فداء العلاء المحض كلٌّ موا كل إذا سيم وِردَ الذل لا يتورع

* * *

بنى الشرق ، هذا الغرب قد طار مجده يطاول زهر النيرات ويَفرَع
مفاتنه تسبى العقول ، وسحره يروق العيون الناظرات فتتبع
وللشرق آداب بناها قديمُه تَسن سبيل المكرمات وتشرع
هى السؤدد الباقى على الدهر فخره هى الدر فى اللبات ، بل هى أبدع
فإن لم تصنها عزة عربية مضى ببناها سيله المتدفع

* * *

وهذى وفود الدين تغدو على اسمه تجدد من بنيانه وترقع
ففى الشرق أعلام يفيض هداهمو كما فاض هطال من الغيث ممرع
وفى الغرب رواد ، هم النحل أبكرت تطوّف فى روض العلوم وتجمع
هم الجند : جند الله ، فى الله جاهدوا وبالنصر والتوفيق منه تدرعوا
تَوحّدُ فى القصد النبيل جهودهم وتُنثر فى طرق العلا وتَنوع

* * *

رعى الله أيام المراغى وعهده فذلك عهد بالمفاخر مُترَع
سما فيه للعرفان شمس منيرة وللدين والأخلاق حصن ممَنّع
يظلله عهد لفاروق أقبلت بشائره من مطلع الملك تسطع
مليك كسا الدنيا جمالا شبابُه وأضحى على هام السُّها يَتَرَبّع
سَيُبْلِي الليالى والسِّنين ، وعرشه سيبقى جديدا ، نشرهُ يتَضوّع

عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

قصيدة عصماء أخرى

لحضرة الشاعر الكبير ، والأديب المشهور ، الأستاذ احمد محرم ، فقد حوت من عبر التاريخ فى معرض من بديع القريض مالا يتاح إلا لألمعى مثله من أعلام الأدب ، قال أثابه الله :

أقبل ، عليك من الشعوب سلام ... فزع (الصليب) إليك و (الاسلام)
(عيسى) يناجى فيك سيف (محمد) ... والدمع سيل ، والهموم ركام
الأرض ولهى ، والممالك رجف ... والناس حرب ، والزمان خصام
دنيا تموج بها الشرور ، وعالم ... تطغى على جنباته الآثام
لا الحل حل فى شرائع أهله ... عند القضاء ، ولا الحرام حرام
عبث (الفلاسفة الكبار) بأمنه ... وجنى عليه (السادة الأعلام)
أقبل كعهدك موقظا ومنبها ... إن البصائر والعقول نيام
وانشر كتابك هاديا ومهذبا ... فالناس ضلّال ، وأنت إمام
هذا كتاب للحياة مفصل ... وضحت به الآيات والأحكام
مضت الدهور ، وما يزال كأنه ... بمكانه ، مافض عنه ختام
نمت الممالك فى ظلالك واجتلت ... أمم الزمان سناك والأقوام
أشرقت ، والدنيا ضلال مطبق ... والكون شر شامل وظلام
وطلعت ، والحق المبين مشرد ... يبغى المقام ، وأين منه مقام ؟
القتل يطلبه ، ويركض خلفه ... والسبل حيرى ، والخطوب جسام
والجاهلية فى مظاهر عزها ... ما ينقضى صلف لها وعُرام
بطل تأهب للجهاد يقيمه ... ومضى ، فلا خور ولا استسلام
ما الظن بالضرغام سار مهاجراً ؟ ... ضاق العرين ، فهاجر الضرغام

يمشى وصاحبه ، وما من ثالث — إلا الإله الواحد العلام
لم تلهه الدنيا ولم يلعب به — منها متاع زائل وحطام
الحق من دنيا الهوى وخبالها — للنفس حرز مانع وعصام
ولقد ينال الفردُ فى إيمانه — ما لا ينال الجيش وهو لُهام
النفس ملء الدهر ، أو هى ذرة — مما تثير وتنفض الأقدام
ما يستبين مكانُها فتُرى ولا — هى بالتى يُعنى بها فتُسام
حررت من رق الجهالة أنفسا — لبثت يهان عزيزها ويضام
محن الحياة على النفوس كثيرة — وأشدها الأهواء والأوهام
يا منقذ الضعفاء من آلامهم — أمم البسيطة كلها آلام
جرحى على جرحى تئن ، ألا يد — تأسو الجراح ، لعلها تلتام !
هات الرسالة من يمين (محمد) — إنا نسينا الدين كيف يقام
وإذا الحياة تنكرت أعلامها — فالدين (دستور) لها و (نظام)
إنا جهلناها ، وعندك علمها — والجهل داء للشعوب عُقام
هو إن سألت أولى المعارف : ما اسمه؟ — سُل يذيب حياتها وجذام
زاغت بصائرنا ، فأصبح أمرنا — بيد الألى نام الحماة وقاموا
نمضى على هُون بكل مضلة — حتى كأنا فى البلاد سَوام
والقوم إن عصفت بهم أهواؤهم — هفت العقول ، وطاشت الأحلام
لا (الجاهلية) إذ تقادم عهدها — درست معالمها ، ولا (الأصنام)
أقبل على الدنيا بعهد صالح — تحيا به الآمال ، وهى رمام
بالمسلمين ، وأنت من آمالهم — ظمأ إليك مبرح وأوام
هم فى المنابر ألسن وجوانح — وعلى المآذن أعين أوهام
نظروك فازدلفوا تُهل شعوبهم — فلكل شعب ضجة وزحام
أوَما لمست صدورهم فعرفتها ؟ — ومن الترائب والصدور ضرام

حال الزمان ، ودارت الأيام فمضى الجبان ، وأحجم المقدام
نامت سيوف الفاتحين فحازها يقظ الأسنة والسيوف هِمام
لِهج بأخبار السماء ، يهيجه عند الكواكب مطلب ومرام
جمع الأزمة للصعاب يقودها فلكل صعب فى يديه زمام
ولكل شعب إن توثب أو مضى يبغى الفريسة مصرع وحمام
يأيها العام الوليد ، ورثتها دنيا ورثناها ، ونحن كرام
ثم انطوت عنا وزال نعيمها فكأننا من بعدها أيتام
كم مات قبلك من وليد وارث وكذا تموت وتولد الأعوام
بشّر شعوب المسلمين بطائر سعد ، فما للنحس منك ذمام
زالت عن الشرق السعودُ ، فلم تدم أيكون فيه للنحوس دوام ؟
اضرب لنا مثل الجهاد ، وسر بنا نغشى الوقائع ، فالحياة صدام
هل أسلم (الهادى الأمين) قياده أم كان منه النقض والإبرام ؟ ؟
يبنى ويهدم جاهداً ، ما مثله فى الدهر بناء ولا هدام
رفع الحياة على أساس صالح و (السيف) ركن و (الكتاب) دعام
(أحُد) و (بدر) شاهدان ، فما على من يسفح الدم فى الحقوق ملام
هل جال فى تلك المشاهد (مصحف) أم جال فيها (مصحف وحسام) ؟
إنا لنلمح فى جبينك آية مما يخط الوحى والإلهام
تلك البشارة ، إن تغب فدليلها هذا الهلال المشرق البسام
إن يخلف الزمنُ الكنود فربما وفت الجدود ، وبرت الأقسام
إنا أخذنا للحياة عَتادها ومضت بنا همم تجيش عظام
لا يأتمر منا الرماة بمقتل فلنا نبال مثلهم وسهام
نسعى ونعمل دائبين لقومنا نبغى التمام ، وللأمور تمام

احمد محرم

التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : (إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ، وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ ، وَمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ، وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَاحِ ، وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَرْضِ ، لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) :

رأينا أن نفسر لك الآية الكريمة تفسيرا يوضح معناها ويبين مغزاها وإن كان موجزا ، ثم نذكر لك بعد ذلك متممات فيها فوائد بديعة وأنظار رفيعة ، فنقول :

« إن فى خلق السموات والأرض » وما فيهما من الآيات البينات والبدائع المدهشات ـ التى ستسمع بعضها ـ وتخصيصها بخصائصها التى كان يجوز عليها ألا تكون بها ، وأن تتصف باضدادها .

« واختلاف الليل والنهار » أى تعاقبهما وكون كل منهما خلفا للآخر ، أو اختلاف كل منهما فى نفسه ازديادا وانتقاصا أو ظلمة ونورا .

« والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس » من التجارات المختلفة وتبادل المنافع بين الامم ، فيأخذ الشرقى ما نبت فى الغرب ، ويأخذ الغربى ما نبت فى الشرق .

الفلك يستعمل مفردا كقوله تعالى : « فى الفلك المشحون » وجمعا كما فى قوله : « فى الفلك وجرين بهم » . أما الاستدلال به فمن حيث إن إلهام صنعته من الله تعالى ، وكذا العلم بكيفية إجرائه وتسخير الريح والبحر لذلك ، أو أنه سبب الاطلاع على البحر وعجائبه . وعلى كل حال ففائدة

الفلك والبحر والريح وفعل الانسان وإصلاح أمره كله من خلق الله تعالى « والله خلقكم وما تعملون » « اليه يرجع الأمر كله » .

« وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض » بتهييج قواها النامية ، وإظهار ما أودع فيها من أنواع النبات والازهار والاشجار « بعد موتها » باستيلاء اليبس عليها حسبما تقتضيه طبيعتها .

« وبث فيها من كل دابة » : معنى بث الدواب تكثيرها بالتوالد والتولد .

« وتصريف الرياح » أى تقليب الله تعالى لها جنوبا وشمالا ، وقبولا ودبورا ، حارة وباردة ، وعاصفة ولينة ، وعقيما وملقحة ، مرة بالرحمة ومرة بالعذاب. وليس يخفى ما فى تصريف الرياح من تربية النبات وبقاء حياة الحيوانات التى تدب على وجه الارض .

« والسحاب المسخر بين السماء والارض » : معنى تسخير السحاب أن الله يمسكه بين السماء والارض ، مع أن الطبع يقتضى صعوده إن كان لطيفا وهبوطه إن كان كثيفا ، ثم يسوقه الى ما شاء من بلد ميت فيحيي به الارض بعد موتها .

« لآيات » أى آيات عظيمة كثيرة دالة على القدرة القاهرة والحكمة الباهرة والرحمة الواسعة .

« لقوم يعقلون » : فيه تعريض بان من لم يتفكر فى آيات الله فهو بمعزل عن العقل .
« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » « لهم قلوب لايفقهون بها » الخ.

هذا وقد أخرج ابن أبى الدنيا وابن مردويه عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية قال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » . وإنما قيل آيات بصيغة الجمع نظرا الى المذكورات كلها ، ويصح أن يراد كل واحد منها على حدته ، فان من تأمل فى هذه الآيات وجد كل واحدة منها مشتملة على وجوه كثيرة من الدلالة على وجوده تعالى ووحدانيته وسائر صفاته الكمالية ، إذ كل منها قد وجد على وجه خاص من الوجوه الممكنة دون ما عداه مستتبعا لآثار معينة وأحكام مخصوصة من غير أن تقتضى ذاته وجوده ، فضلا عن وجوده على الوجه الخاص المستتبع لتلك الآثار الجليلة وهاتيك المنافع الجيلة .

وبعد : ففى الآية إثبات الاستدلال بالحجج العقلية ، وتنبيه على شرف علم الكلام وفضل أهله ، وربما أشارت إلى شرف علم الهيئة .

مثمهات :

١ — إذا نظرت الى النهار والليل فى السنة كلها وجدتهما يتساويان . أى أن ساعات أحدهما فى السنة تساوى ساعات الآخر .

٢ — اختلاف الليل والنهار بقرب الشمس وبعدها فى البروج الشمالية والجنوبية يدعو الى اختلاف الحرارة والبرودة فى الاقطار المتباينة وهبوب الرياح ، فترى الامطار تتساقط من السماء تبعا لنواميس الحرارة والبرودة المسخرين لدوران الافلاك وسير الشمس فى البروج . وبذلك الترتيب البديع تنشأ ممالك النبات والحيوان والانسان . أما الرياح فتهب فتسير السفن كما تسير السحب ، فلا يتحرك السحاب إلا بالرياح ، وهى المسخرة بالحرارة المنبعثة من الاجرام العلوية .

ولاشك أن هذا العالم على هذا النسق يحتاج أدناه الى أعلاه ، فالأعلى مفيد للاسفل ، والاسفل مستمد من الأعلى ومستفيد منه ، وعليه أصبح هذا العالم كجسم واحد .

ومادورة المياه والرياح المسخرات ودورات الشموس أو الاقمار إلا كدورة الدم فى أجسامنا . ولا جرم أن الجسم الواحد مدبره واحد . فارتباط العوالم واستمدادها يدل دلالة واضحة على أن مدبرها واحد لا شريك له . وقد جعل الحكماء من أدلة التوحيد وحدة النظام : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » . « إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » .

فهذه الآية دليل على ما نطقت به الآية السابقة فى قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد » . فارتباطها بما قبلها كارتباط الدليل بالدعوى . وإذا نظرت الى ما فيها من النعم الكبرى والرحمة العظمى وجدتها مثيرة لمحبة الله عز وجل من أعماق القلوب : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة » . ولذلك عقبها بقوله تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله » . فما أعظم هذا التناسق ، وما أبدع هذا الارتباط ! وبهذا تعلم أن ارتباطها بما بعدها كارتباط السبب بالمسبب والمقدمات بالنتيجة التى هى غاية الغايات ونهاية النهايات ، وهى محبة الله تعالى التى هى حياة القلوب وألذ من كل مطلوب . وربما أطلنا الحديث معك فيها بعد إن شاء الله .

وحدثتنى يا سعد عنهم فزدتنى   شجونا فزدنى من حديثك ياسعد
هواهم هوى لايعرف القلب غيره   فليس له قبل وليس له بعد

٣ — لو جعل الله الارض على غاية القرب من الشمس لم يعش عليها نبات ولا حيوان ،

فانها على ذلك الفرض تكون قطعة من جهنم . ولو جعلها على غاية البعد لم يعش عليها نبات ولا حيوان ، لأن الشمس ضرورية للحيوان والنبات .

فانظر الى تلك الحكمة الباهرة والنعمة الظاهرة !

وإذا نظرت الى أن الارض كانت جزءا من الشمس ثم انفصلت عنها على ما يقررونه الآن ، أخذ منك العجب كل مأخذ من تلك الارض التى أودع الله فيها بذور الحياة لكل نبات وحيوان وإنسان مع كونها قطعة من الشمس التى هى نار ملتهبة — وليت شعرى ما للنار وبذور الحياة — ثم جعلها مخزنا لكل ما نريد . فسبحان من جعلها كنزا ثمينا نستخرج منه كل ما نحتاج اليه من الدواء والغذاء والفواكه الشهية والرياض البهية وكل ما نشاء « حتى الرجال والنساء » لأن النطفة من الغذاء والغذاء من النبات والنبات من الارض « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » . أليس من العجب العاجب أن تكون فى الأرض هذه العجائب كلها التى لا يعرف لها أول ولا آخر ! أما جنس الحيوان والنبات ففيهما من العجائب ما لا يدركه سائر الناس مهما عاشوا دهورا وأجيالا . وانظر الى ما قالوه من أن آلاف الآلاف من الحيوانات تعيش فى نقطة ماء صغيرة وتنمو هناك وتتكاثر كما تعيش حيوانات البر فى القفار .

فانظر رعاك الله الى مسألة الحياة : تجد أمرا مدهشا ، ونبأ محيرا . ستجد أنها لا تتوقف على حال من الاحوال . فان قلنا لابد لها من فقار كالبقر والطير والضفادع والسمك ، ينقضه أننا وجدنا الحياة بلا فقار فيما هو أسفل منها كالعنكبوت والحشرات والشبت وأمثالها . وإن قلنا إن الحياة لا بد فيها من قشور فى ظاهر الحيوان رأينا الحيوانات الهلامية لا قشر لها . وإن قلنا إنه لا بد أن يكون الحيوان صلبا وجدنا النقاعيات والاسفنجيات ليست كذلك .

ثم انظر نظرة بسيطة فى جسم الانسان تجد فيه العجائب الناطقة بحكمة مبدعه وقدرة خالقه . فان فى الجسم الانسانى أكثر من مائتى عظم ، ولكل منها شكل مخصوص ، ولولا ما فيها من الاتقان والحكمة لعاقت حركاتنا التى نأتيها كل وقت كما نشاء . ثم انظر الى ما هو أدق من هذا : تجد الخالق الحكيم قد جعل لأجل وصول الاصوات إليك عجائب وغرائب من صيوان وصماخ وطبلة وثلاث عظيمات ودهاليز وقنوات هلالية وأخرى قوقعية ، وسائل ورملات حافظات للصوت ، وعصى وشعرات فى القوقعة ، وأعصاب سمعية ، الى آخر ما لا يمكننا تفصيله . والعين فى تركيبها وطبقاتها وفائدة كل طبقة منها أعجب وأغرب . فسبحان الحكيم العليم القادر العظيم !

وهى أمور لا يسعنا إلا الالماع اليها والدلالة عليها ، أما تفصيلها فلا تفى به المجلدات . وهل العلوم على كثرتها والكتب على تنوع ما فيها من يوم خلق الله العالم الى أن تقوم الساعة ،

والمكتشفات التى برز فيها المبرزون وسيرون منها أكثر مما يتخيلون ، هل كل ذلك إلا شرح لتلك العوالم التى أشارت اليها الآية الكريمة ؟

وحاصل القول : أننا غارقون فى الآيات البينات ، والنعم الفائضات ، من مبدع الارض والسموات ، ولكن لاعتيادها وعدم انقطاعها لانلتفت اليها ، لأن كل مبذول لا تأبه له النفس ولا ينفعل به القلب .

وقد رأينا أن نختم هذا المقال بشيء عن اللورد افبرى الانكليزى الفيلسوف الشهير فنقول :

كلام اللورد افبرى :

« تتالت العصور ، وتولت الدهور ، والبشر معجبون مسحورون بجمال القبة الزرقاء وجلالها ، يتطاولون الى إدراكها بالخيال ، ويستنزلونها الى الارض بالقرائح ، فلم يستطلعوا من أمرها ويخبروا من خبرها إلا بما هو مشوب بالأوهام وشبيه بالاحلام » .

الى أن قال فى الكلام على الشمس :

« إنها محور نظامنا السيارى ، ومصدر حياتنا أيضا ، فهى التى تبخر مياه البحر وترفعها غيوما فى الجو وتنزلها أمطارا على الأرض حيث تجرى جداول وأنهارا تروى زرعنا وتنمى غرسنا ، وتثير الرياح وتهيج الأنواء فتطهر الهواء وتنقيه ، وتزجى السفن والمراكب فى عباب المحيط » الى أن قال :

« أما عدد النجوم فمضرب المثل لما لايحصى ولا يحصر ، وقولنا : كنجوم السماء ورمال البحر عدآ ، مالوف متداول . والحقيقة أن النجوم التى ترى بالعين المجردة معدودة محصورة ، وهى نحو ٣٠٠٠ فقط ، ولكن المنظار المقرب يرينا نحو ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ والمنظر الطيفى أظهر ملايين الملايين » . الى أن قال :

« أما أبعاد النجوم وأحجامها فتقضى بالعجب العجاب ككثرتها الفائقة الحصر . فالشعرى اليمانية نجمة أثقل من الشمس جرما بعشرين مرة ، ونورها خمسون ضعف نور الشمس ، وهى أبعد منها مليون ضعف بعدها عنا » . الى أن قال :

« وثلاث من بنات نعش : مايا وألكترا وألسيون ، يفضحن الشمس ويفقنها نورا ونارا : الأولى بأربعمائة ضعف ، والثانية بأربعمائة وثمانين ، والثالثة بألف ضعف . أما سهيل فهو أسنى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة . والسماك الرامح « المرزم » أسطع منها ثمانية آلاف مرة » .
الى أن قال :

« أما السماك الرامح فهو على حد علمنا أسرع النجوم سيرا وأشدها تألقا وأكبرها حجما، تقدر سرعته بثلاثمائة ميل فى الثانية الواحدة . ونوره ثمانية آلاف ضعف نور الشمس ، وحجمه ثمانون ضعف حجمها . أما بعده عنا فتخيله لنفسك عند ما تعلم أن نوره لا يصلنا فى بضع دقائق كنور الشمس وهى على « ٩٢٥٠٠٠٠٠ ميل منا » بل فى سنين (وفى لا أقل من مائتين من السنين) . ويزعم الفلكيون أن بعد الثريا نحو ألف وخمسمائة بليون من الأميال » . الى أن قال :

« إن السماك الرامح يسير ٢٢٠٠٠ ميل فى الدقيقة ، أو ٣٢٠٠٠٠٠٠ ميل فى اليوم » . الى أن قال :

« ولنعلم أيضا أن فى السماء غير العوالم التى تبدو للعيان ما لا يعد ولا يحصر من الاجرام الخفية ، إما لفرط بعدها أو صغر حجمها أو ضعف نورها » . الى أن قال :

« وقد اتخذ الفلكيون سرعة النور مقياسا عليه وأساسا لتقدير تلك المسافات العظيمة فقالوا مثلا : إن سرعة النور ١٨٠٠٠٠ ميل فى الثانية ، ومئات من السنين تمضى وتمر قبلما ينتهى إلينا نور نرى به مصدره السديمى » . الى أن قال :

« ولئن أخذتنا الحيرة واستولى علينا الذهول لدى تأمل أبعاد الأجرام السماوية وضخامة أحجامها وعظمة تلك العوالم التى لا تعرف لها نهاية . فكم عسى أن تحير أذهانا وتذهل عقولا إذا بحثنا فى الوقت الذى انطوى دون وجودها والزمان الذى مضى عليه » . الى أن قال :

« هنا ليكسر الحساب قلمه ، وليضرب التاريخى بيراعه عرض الحائط ، وليقف الذهن كليلا والعقل مخبولا ، وليطلق الخيال فى هذا المجال ولا إخاله إلا رائدا مردودا يؤثر الاحتباس تحت القبة الزرقاء المشهودة يخبط خبط عشواء فى ظلمات الأزل الشديدة » اه

ولنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان فهو بحر لا ساحل له ، وسنعود إليه إن شاء الله .

ولنتل هنا قوله تعالى : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » .

يوسف الدجوى
من جماعة كبار العلماء

جمع المذاهب الفقهية

نشر الاستاذ القانونى الكبير الدكتور عبد السلام ذهنى بك منذ ردح من الزمان، بحثا قيما تحت عنوان (التوثب للنهوض الفقهى وعدته)، ثم شرفنا بزيارة وتحدث الينا طويلا فى ضرورة جمع المذاهب الفقهية كلها فى مجموعة واحدة، لما يتوقع من وراء ذلك من التأثير العظيم فى البيئات الفقهية فى العالم كله، عند ما يرى رجالها رأى العين سبق المسلمين الى وضع مبادئ لم تكن معروفة فى الشرائع القديمة التى تعتبر مصادر لجميع الشرائع الوضعية فى العصر الحاضر، وأرادنا على إعادة نشر هذا البحث القيم ليكون تحت نظر أعلام الشريعة الاسلامية، ورجانا أن نبدى رأينا فيه.

الموضوع جد خطير، وخاصة فى هذا العهد الذى تقدر فيه أقدار الأمم بما قدمته من آثار ماجدة، فى إقامة صرح المدنية العالمية، وبما كان لعبقرية بعض آحادها، أولجهود بعض طوائفها من ثمرات عقلية زادت بها مادة التراث الأدبى للانسانية قاطبة.

وقد أثبتت البحوث الاستقرائية فى تاريخ المسلمين، أنهم أمدوا هذا التراث العام فى كل منحى من مناحى النشاط العقلى والعملى، بما لم تجارهم فيه أية أمة كانت قبلهم، فسجلت لهم علوما ابتكروها، وصناعات اخترعوها، وفنونا أوجدوها أو جددوها، مما أتينا على ذكر الكثير منه فى هذه المجلة، مثبتا بالأدلة التاريخية عن الاجانب أنفسهم. ألا يدهش القارئ حين يقف على قول الاستاذ دريبر المدرس فى جامعة نيويورك فى كتابه (المنازعة بين العلم والدين): « إننا لندهش حين نرى فى مؤلفاتهم (أى المسلمين) من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم فى هذا العصر » ؟ وقول الفيلسوف الكبير جوستاف لوبون فى كتابه (تاريخ العرب): « إنهم فى كثير من فنون الصنائع قد برعوا براعة لم يلحق لهم شاو فيها للآن » ؟ وقول المؤرخ الانجليزى الكبير جيبون: « كان من أثر تنشيط الأمراء المسلمين للعلم أن انتشر الذوق العلمى فى المسافة الشاسعة التى بين سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة » ؟ وأنت خبير بما يقوم فى كل هذه المسافة من أمم وشعوب مختلفة اللغات والأجناس والألوان.

غير انه توجد ناحية من نواحى النشاط العقلى لآبائنا الأولين، لم يتأت للباحثين الأوربيين سبر غورها، وليست بأقل من سواها قيمة تاريخية، فخبطوا فيها خبط عشواء، ألا وهى الناحية الفقهية. ومن أبشع مظاهر هذا الخبط، زعم جمهورهم أن الشريعة الاسلامية منقولة عن القوانين الرومانية.

أما السبب فى هذا الخبط فى نظرنا فهو يرجع الى الصعوبة العظيمة التى يعانيها كل مستشرق فى تفهم الكتب الفقهية، وفى الوقوف منها على أصولها الاولية، فكتبنا الفقهية لا تزال

من ناحية الترتيب على النحو الذى كانت عليه أيام صدورها لغة وتبويبا ونظاما ، وزادها الشراح والمحشون والمعلقون تركبا ، فأصبحت صعبة المآخذ ، ملتوية المسالك ، لا يسهل الأخذ منها إلا على العلماء المشتغلين بها ، فاذا اعتبر العمل الذى قام به المرحوم قدرى باشا من تلخيص مذهب الامام أبى حنيفة عظيما ، فما ذلك إلا بسبب الجهد الذى عاناه فى استخلاص ما تصدى لجمعه من أحكام ذلك المذهب من كتبه المقررة .

فاذا كان هذا شأن العالمين بالعربية ، والمجاورين لأعلامها ، فما ظنك بالاوربيين الذين لم يالفوا هذا الضرب من التاليف ، ولم يسعفوا بمن يهديهم الى طرق الاخذ منه ، فاضطروا الى الانصراف عنه ، وصار كل ما يقولونه عنه رجما بالغيب ، ليس فيه أثر من التمحيص ولا التحليل ؟

وعليه فالحاجة أصبحت ماسة جدا الى وضع كل مذهب على حدة ، وضعا يتفق وما اعتاد أهل العصر الحاضر أن يروا عليه المؤلفات العلمية ، ثم جمع تلك المذاهب وجميع الآراء الفقهية التى سبقتها وتلتها فى مجموعة واحدة ، ليسهل على المشتغلين بالامور الفقهية الاستمداد منها ، ويستطيع الاجانب الاطلاع عليها . وهذا ما يدعو اليه المستشار الفاضل عبد السلام ذهنى بك فى مقالته المنشورة هنا . ولست بعد ذلك أشك فى أن شبهة القائلين باشتقاق الفقه الاسلامى من الفقه الرومانى تضمحل وتتلاشى ، وتتجلى عظمة الشريعة السمحة جلية واضحة تبهر الانظار ، وتستهوى الألباب ، ويشهد الوجود لها بانها الشريعة الخالدة ، فتحل محل الفقه الرومانى فى إمداد جميع الشرائع بالاصول والمبادىء القانونية .

الفقه الرومانى :

لا أنكر أن الرومانيين وجهوا عناية خاصة الى دراسة الامور الشرعية ، وكان لهم من اتساع دائرة ملكهم ، واختلاف الاجناس الواقعة تحت سلطانهم ، وضرورة سن نظم لحفظ هذه الجماعات المتباينة أصولا وعادات ولغات فى دائرة معاملات مرنة ، مسرح فسيح للنظر الفقهى ، ومجال صالح لتربية الألمعية الاشتراعية ، ولكنهم مع كل هذه الوسائل لم يخرجوا فى تاصيل أصولهم ، وبناء قواعدهم ومبادئهم عن الدائرة التى كانت محصورة فيها جميع الشرائع ، وهى دائرة الحق للقوة حيث كانت القوة فى الفرد أو فى الجماعة . فالسراة والمحاربون كانوا أقوى من العامة ، ولذلك خصوا بامتيازات وحقوق حرم منها أفراد الشعب ، حتى كان العامة يضطرون للدخول تحت حماية السراة ، فكان لكل منهم حام يحميه إذا لحقه ضيم .

ومبدأ الحق للقوة يقتضى تقسيم الناس الى طوائف ، لأن القوة تتفاوت درجاتها ، فكانت هذه الطوائف تنعم بالامتيازات ، على حين أن عامة الشعب يرزحون تحت جميع الأعباء الاجتماعية .

وكانت العقوبات مناسبة لهذا التقسيم ، فما تحكم فيه الشريعة بالقتل على أحد العامة ، كانت تخفف فيه العقوبة إذا صدرت من أحد أفراد الخاصة ، حتى قد لا يحكم عليه بأكثر من التعزير الكلامى .

ولما كان الأب أقوى أفراد الأسرة فقد خول كل حق على زوجته وأولاده وعبيده ، حتى حق معاقبتهم بالقتل .

أما الأرقاء والاجانب فلم يكن لهم أدنى حق أمام القانون .

ولما كانت الدولة أقوى من ممتلكاتها ومستعمراتها ، فقد كان لا حد لسلطانها عليها .

نعم إن هذه الشريعة قد هذبت من مبادئها فى خلال القرون الكثيرة التى عاشتها ، ولكنها فعلت ذلك تحت ضغط ضعفائها الذين كانوا كثيرا ما يهجرون المدن ويعتصمون بالجبال ، مضربين عن الحياة مع الخاصة ، فكانوا يسترضون بتلطيف بعض الاحكام الشرعية . وعلى كل حال فان هذه الشريعة لم تخرج قط عن مبادئها الاولية ، وأصولها القانونية .

ولكن الشريعة الاسلامية بنيت من أول وجودها على الحق المطلق ، فهى لا تعتد بالاحوال والملابسات التى تحيط بالناس ، وتعنى بتقرير الحق لصاحبه أيا كانت حاله وجنسه وديانته ولغته ولونه . فامامها الشريف والوضيع والخاصى والعامى ، والعالم والجاهل ، والحر والعبد ، والكبير والصغير ، والرجل والمرأة ، سواء .

هذا المبدأ الاسلامى كما سرى على الافراد ، سرى كذلك على الجماعات ؛ فالأمة صاحبة السيادة ، والامم التابعة لها سواء كذلك فى الحقوق والواجبات ، وقد صرح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بهذا المبدأ عند ما أمر أن يقتص أحد المصريين من ابن عمرو بن العاص قائلا له : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » ؟ وخطب يوما فقال :

« أيها الناس : إنى والله ما أرسل عمالا اليكم ليضربوا أبشاركم ، ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكنى أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ، ويقضوا بينكم بالحق ، ويحكموا بينكم بالعدل ، فمن فعل به شىء سوى ذلك فليرفعه الى ، فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه (أى لأجعلنه يقتص منه أى يضربه كما ضربه) .

فوقف عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين : أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته ، فادب بعضهم ، إنك لتقصنه منه ؟

فقال عمر : « إى والذى نفس عمر بيده ، إنى لاقصنه منه . وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه » .

فالشريعة الاسلامية لا ترمى إلا الى تحقيق العدالة باخص معانيها . وأين هذا من الشرائع

الوضعية التى تقدمتها ، وهى لا تنظر الى العدالة إلا من خلال حجب كثيفة من السيادة القومية ، والفوارق الطائفية ، والامتيازات الوضعية ؟ فاذا كانت العدالة فى الشريعة الاسلامية تعتبر أمرا عمليا لا معدى عنه على إطلاقه ، فانها فى الشرائع الوضعية تعد مثلا أعلى يتقرب منه ولا يوصل اليه ، والفرق بين الحالتين كما بين الحقيقة الواقعة والخيال . ومدى هذا الفرق يتبين من الحادثة الآتية :

أسلم جبلة بن الأيهم ملك غسان وكان نصرانيا ، وبينما هو يطوف بالبيت وطئ بدوى على ذيل ردائه ، فعز ذلك على جبلة فلطم البدوى على وجهه ، فرفع هذا أمره الى عمر ، فاحضر جبلة وساله فاعترف ، فحكم عليه أن يلطمه البدوى كما فعل به . فقال له جبلة : أتسوون بين السوقة والملوك ؟ فقال له أمير المؤمنين : ليس فى الاسلام أمام العدالة سيد ومسود .

فعمر طبق المثل الأعلى من العدالة ، لم تقطعه عنها الملابسات والاوضاع البشرية ، ولكن هذا التطبيق محال فى جميع الشرائع الوضعية ، وربما عده بعضهم لغلبة الأهواء على نفوسهم عملا وحشيا .

فاساس العدالة فى الشريعة الاسلامية تطبيق المثل الاعلى نفسه ، ولكن أساسها فى الشرائع الوضعية تطبيق ما يقرب منه ، وربما قذفت بها الأحوال الى ما يبعد عنه . وهذا مشاهد محسوس حتى فى شرائع هذا العصر ، فما ظنك بشريعتى اليونان أو الرومان فى العصور البعيدة عنا ؟

فكيف يطوف برأس متخيل أن الشريعة الاسلامية مشتقة من الشريعة الرومانية ، مع اختلافهما فى فهم معنى العدالة وتطبيقها ؟

فالذى يجوزه العقل أن يقتبس الفقهاء من الشرائع السابقة بعض الاساليب والوسائل المؤدية لتحقيق الجرائم ، أو لكشف شبهاتها ، أو لتنظيم نظر القضايا والمرافعات الخ الخ . كما يقتبس فقهاؤنا الآن الطرق الجديدة المفضية الى تنظيم عمل المحاكم الشرعية . فهذا وأمثاله لا يقال عنه أخذ شريعة من شريعة ، فان الشرائع شيء وما يحيط بها من نظم التحقيق والمرافعات والتطبيق أشياء أخرى لا تمس الجوهر فى شيء ، بل لا مناص منه لأمة تنشأ نشاة جديدة ، وقد اقتبس النبي صلى الله عليه وسلم كل ما بلغه من الاساليب الحسنة فى الحرب ، وأمر باقتباس كل حسن من كل قبيل ولو كان مشركا .

***

نعود الى ذكر جمع المذاهب الفقهية فنقول : إن تحقيق هذه الرغيبة يعتبر من أجل الاعمال وأبعدها أثرا فى خدمة الشريعة الاسلامية . فاذا كان نجباء المسلمين ينزعون اليوم الى بناء القوانين والنظم على مبادئها القويمة ، فهذا لا يمكن حصوله إلا بعد أن يتجلى لائمة المشترعين

فى هذا العصر أنها أجمع الشرائع لأقوم الاصول، وأسمى المبادئ الاشتراعية، وهذا لا يتحقق وكتبها على الحالة التى هى عليها اليوم من التأليف والوضع، فلا بد من إعادة صياغتها على الاسلوب الذى يالفه جمهرة المتعلمين فى هذا العهد، ووضع جميع أصولها ومبادئها مرتبة بحيث يسهل فهمها ومراجعتها عند الحاجة، مع التنبيه على مآخذها من الكتاب والسنة والاجماع والقياس، وبيان وجوه الخلافات فى جميع المذاهب وعللها. إذا تم هذا العمل فلا شك فى أن العالم سيدهش من تفوقها على جميع الشرائع الوضعية، وسبقها الى الاصول والمبادئ التى تحسب عصرية بحتة، ويكون ذلك باعثا لاراكين الشئون الفقهية فى العالم المتمدن الى الاعتراف بفضلها والاقتباس منها، فان نزعنا بعد ذلك الى جعلها أما لقوانيننا ونظمنا، لم يخالج أحداً شك فى أننا نتحرى بذلك أحسن المصادر وأكملها.

ولكننا نخالف الدكتور العلامة ذهنى بك فى توجيه طلب هذه الرغبة الكريمة الى معالى وزير الحقانية، ونرى وجوب توجيهها لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر، فانه يعتبر قيم الشريعة الاسلامية وشيخ أشياخها وأعلامها، وهو أعرف من سواه بالصالحين من رجالها للقيام بهذه المهمة الخطيرة. ومن حسن الاتفاق أن تصدر هذه الامنية فى عهد الاستاذ الامام المصلح الكبير الشيخ المراغى، فهو يقدر عظمة هذا المشروع حق قدره، ويستطيع بما أوتيه من اطلاع بعيد المدى على أسرار الشريعة، وقدرة فائقة على تذليل العقبات، أن يهون كل صعب فى سبيل تحقيقه، متى رأى أن الوقت قد آن للشروع فيه؟

محمد فريد وجدى

فقرات بليغة لبعض الاكابر

قال ابن عباس رضى الله عنه: الرخصة من الله صدقة، فلا تردوا صدقته.

وقال: لكل داخل هيبة، فابدءوا بالتحية، ولكل طاعم حشمة فابدءوا باليمين.

وقال ابن مسعود: الدنيا كلها هموم، فما كان منها فى سرور فهو ربح.

وقال عمرو بن العاص: من كثر إخوانه كثر غرماؤه.

وقال: أكرموا سفهاءكم فانهم يكفونكم العار والنار.

نقول: لسنا نرى هذا الرأى فان السفهاء إذا أكرموا استهتروا فى غيهم، وأمعنوا فى بغيهم، فما يكفوننا من العار والنار يكفينا الله إياه بكمال الرجولة، وتمام الفضيلة.

وقال المغيرة بن شعبة: العيش فى لقاء الحشمة. وفى كل شىء سرف إلا فى المعروف.

وقال مصعب بن الزبير: التواضع من مصايد الشرف.

التوثب للنهوض الفقهى وعدته

الرقى الفقهى عنوان التشريع السليم

عصر التجميع أول مراحل النهوض القانونى الفقهى والتشريعى — التجميع الرومانى وجوستنيان والتجميع الاسلامى والعهد الحاضر — خلود الفقه الرومانى وذيوعه العالمى من القرن السادس الميلادى للآن — ضرورة التجميع للفقه الاسلامى فى المعاملات هى ضرورة خلود وذيوع — التجميع الرومانى وجوستنيان والتجميع الاسلامى وفاروق

كان الملك بوخوريس مؤسس الاسرة الرابعة والعشرين أول من جمع شتات القوانين وأمر بتعديلها تعديلا يتماشى مع مقتضيات زمانه ، وقد سميت مجموعته بمجموعة قوانين بوخوريس ، وكان التعديل التشريعى مشبعا بروح قوانين حلفائه الآشوريين والكلدانيين ، وكان أظهر مكان للتعديل والاخذ بالاصول الكلدانية والآشورية هو الجزء الخاص بالالتزامات على اعتبارها الاصل الاول للقانون ، وعليها تتركز أسس المعاملات ، وفيها تتجلى وحدة التشريع العالمى إن صحت الاحلام يوما واعتنقت الشعوب جمعاء أصولا واحدة فى المعاملات مصدرها أصول الالتزامات العامة ، كما يرغب فى ذلك الاستاذ المعروف ادوار لامبير فى بحوثه المستفيضة ، وسميت مجموعة بوخوريس فيما بعد عند الاغريق بقانون العقود .

ومن سنة ٥٦٩ الى سنة ٥٢٥ قبل الميلاد حكم مصر أحمس الثانى أحد ملوك الاسرة السادسة والعشرين ، وأصدر هو الآخر مجموعة سميت باسمه ، أى مجموعة أحمس .

ومن سنة ٤٠٥ الى سنة ٣٩٩ جاء الملك نفريت مؤسس الاسرة الثامنة والعشرين وأعاد العمل بمجموعة بوخوريس بعد تعديلها وتهذيبها .

ويقول المؤرخون بل يؤكدون أن العمل بمجموعة بوخوريس نفريت — ظل قائما فى بعض العصور الرومانية حتى سنة ٢١٢ ميلادية .

وقد تأثرت تشريعات البلاد القائمة على شواطىء البحر الابيض المتوسط بالاصول التشريعية المصرية بالرجوع الى بوخوريس ، وبوخوريس نفريت . وقد أخذت التشريعات الاغريقية شيئا كثيرا عنها ، أى أن الاخذ التبادلى التشريعى كان معروفا لدى المصريين والاغريق . وظل للتشريعات المصرية القديمة أثر ظاهر فى التشريعات الرومانية حتى سنة ٢١٢ م كما تقدم . وأكثر الاغريق من الأخذ عن التشريع المصرى القديم عندما حضر لمصر مشرعهم المعروف سولون ، ثم عاد لبلاده بعد ذلك وهو يحمل فى رأسه ما شاءت له قدرته العلمية القانونية من

الآثار التشريعية المصرية ، حتى ذاعت الاصول القانونية المصرية القديمة ذيوعا ظاهر الاثر في التشريعات الاغريقية .

لم يقف أثر التشريع المصرى القديم عند الاغريق فحسب ، بل ذهب الى روما كما تقدم ، ولما قام هيرودوت وأشاد فى الالعاب الاولمبية بمتانة التشريعات المصرية ، وأخصها مجموعة أحمس ، التفت الرومانيون الى ذلك واقتبسوا منها شيئا كثيرا وأودعوها مجموعة الاثنتى عشرة لوحة الموضوعة سنة ٤٥٤ — ٤٤٩ قبل الميلاد ، وهو الوقت الذى كان فيه أحمس الثانى يحكم مصر باعتباره أحد ملوك الاسرة السادسة والعشرين .

ومجموعة الاثنتى عشرة لوحة الموضوعة قبل التاريخ الميلادى بأربعة قرون ونصف قرن هى أول مرحلة من مراحل عهد التجميع عند الرومان ، حيث قامت بعملها جماعة من أشراف الرومان، وعدد أفرادها عشرة ،صاغوها وأفرغوها فى قالب تشريعى وقدموها لمجلس الشعب ، وعلقت بعد ذلك بالسوق العام ، ثم أحرقها الغاليون عندما أحرقوا روما سنة ٣٩١ قبل الميلاد . واللوحات الموجودة بعد إنما هى صورتها لا أصلها .

من هذا يتبين أن التشريع المصرى القديم دخل بلاد الاغريق وبلاد البحر المتوسط ودخل روما وظل العمل آخذا باصوله حتى سنة ٢١٢ م .

ولعل السبب فى هذا التسرب التشريعى إنما يرجع الى قاعدة التجميع ، وهى حصر الاصول المشتتة وتعديلها وتهذيبها تعديلا وتهذيبا يتناسب مع ظروف عصر التجميع ، مع بيان الاصل منفردا والتعديل بعده . وأخذ الرومان من أربعة قرون ونصف قبل الميلاد الى القرن السادس بعد الميلاد — أى عصر جوستنيان — يعملون فى تهذيب الاصول القانونية وشرحها شرحا مستفيضا ، حتى استفاضت البحوث ، وذاعت التفسيرات العلمية ذيوعا عظيما ، وكثرت المؤلفات الى أن بلغت ألفى مجلد تقريبا . فأمر الامبراطور جوستنيان بتلخيصها فقها وتشريعا ، وجمعت فى أربع مجموعات فى النصف الاول من القرن السادس . وكان ومازال أهمها المجموعة الفقهية فى تقرير الاصول القانونية ، وهى مجموعة الديجست أو الباندكت ، عصارة ما أخرجته أدمغة مشترعى الرومان مدة عشرة قرون ، أربعة قبل الميلاد وستة بعد الميلاد ، وقد أصبحت هدى للشعوب الحاضرة حتى قال عنها المشترع « اهرنج » الالمانى : إن القانون الرومانى أصبح عنصرا لازما من عناصر المدنية .

وقد عنيت به درسا وتحليلا الأمم الأوربية فى القرون الوسطى ، وعلى الاخص جامعة بولونيا فى القرن الحادى عشر ، وأطلق على أساتذتها الشارحون اسم جماعة الشارحين أو أصحاب الحواشى ، وعلى رأسهم العالم الايطالى « اينيريوس » ، وجاء بعده الشارحون الاربعة المعروفون ودون الكل أبحاثهم فى مجموعة عرفت بمجموعة « آكورس » . ثم أعقبهم الشارحون

للشارحين السابقين وظهروا فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا . ولعل أشهرهم الايطالى « بارتول » الذى كان له القدح المعلى فى التحليل والشرح . وفى القرن السادس عشر نبغ فى القانون الرومانى من حيث الشرح والتحليل وتعقب المصادر عدد غير قليل من العلماء فى ايطاليا وألمانيا وهولاندا وفرنسا ، وعرف فى هذه الاخيرة على الاخص العالمان « دوما » و « بواتييه » الذى طبقت شهرته الآفاق العلمية والاوساط القانونية حتى اعتبر مصدرا للقوانين الفرنسية الموضوعة سنة ١٨٠٤ وأخصها القانون المدنى . وفى ألمانيا نبغ فى القانون الرومانى من الناحية التاريخية والفلسفية ، وذلك فى القرن التاسع عشر ، العالمان الشهيران « سافينى » و « اهرنج » .

وفى الوقت الذى بلغ فيه الفقه الرومانى والتشريع الرومانى هذا المبلغ العظيم ، وهو القرن السادس بعد الميلاد ، لما يظهر بعد التشريع الاسلامى ، ولما تظهر العلوم الفقهية الاسلامية . ونريد هنا بعبارة الاصول الفقهية الاحكام القانونية والمبادئ الاصلية الخاصة فقط بالمعاملات وتنظيم علاقات الافراد بعضهم ببعض أو علاقاتهم بالحكومات ، أى بحثنا مقصور على غير ما يتناوله البحث الدينى البحت .

ويظهر لنا من استقراء التاريخ أن الأصول العلمية الفقهية والأحكام التشريعية الاسلامية لم تظهر ظهورا جليا معينا إلا فى العصر المسمى بالعصر العلمى الذى بدأ بظهور الدولة العباسية حوالى أوائل القرن الثامن الميلادى (سنة ١٣٢ هـ ٧١٣ م) حيث ظهر الأئمة الاربعة وراجت مذاهبهم ، وأذاعها تلاميذهم ومريدوهم ؛ وآخر المذاهب الاربعة مذهب الامام ابن حنبل ، إذ ظهر فى أوائل القرن التاسع الميلادى .

وفتح العرب مصر ، وكانت مصر قبل دخولهم مسوسة بالاصول القانونية الرومانية . وبدخول العرب زال التشريع الرومانى ، وحل محله التشريع الاسلامى ، وأخذ فيها على الاخص بمذهب الامام الشافعى ، ثم بمذهب الاسماعيلية ، وأخيرا سادت المذاهب الاربعة فى القرن الميلادى الثالث عشر فى عهد الظاهر بيبرس (سنة ١٢٤٤ م) .

ولما دخل المماليك مصر حملوا معهم القوانين التترية ، وفى طليعتها مجموعة الأحكام التى وضعها ملك التتر جنكز خان ، وهى المعروفة عند المصريين فى ذلك العهد بالسياسة ، واسمها الحقيقى الياسة ، على أنهم أبقوا العمل بالشريعة الاسلامية بجانب القوانين التترية .

ولما فتح العثمانيون مصر سنة ١٥١٦ م أخذوا فى تطبيق الأحكام الشرعية الاسلامية ، واعتبروا مذهب الامام أبى حنيفة المذهب الرسمى .

ولما دخل الفرنسيون مصر فى حملتهم المعروفة أحدثوا انقلابا خاصا فى النظم المألوفة ، ولكنهم عادوا وأخذوا بنظام القاضى الشرعى من حيث تحديد دائرة اختصاصه .

وفى عهد محمد على ذاعت أحكام الشريعة الاسلامية ، ووضعت قوانين أخرى بجانبها كانت تدعو اليها حالة تطور البلاد ، وأخيرا وضعت القوانين المختلطة سنة ١٨٧٥ أخذا عن القوانين الفرنسية ، ووضعت القوانين الأهلية سنة ١٨٨٣ أخذا عن القوانين المختلطة مع بعض التعديل عن القانون الايطالى فى المرافعات .

ومن هـذه اللمحة السريعة نرى أن التشريع المصرى القديم دخل بلاد الاغريق وبعض بلاد البحر الابيض المتوسط ، وتسرب الى روما ، وانساب الى القوانين الرومانية من أربعة قرون قبل الميلاد وقرنين بعد الميلاد . وظهرت الشريعة الاسلامية بمذاهبها الأربعة المعروفة ابتداء من القرن الثامن للميلاد ، أى بعد مضى قرنين على عهد التجميع التشريعى الرومانى فى عصر الامبراطور جوستنيان . ثم دخلت الشريعة الاسلامية مصر بفتح العرب لها ، وبقيت بها بعد فتح العثمانيين ودخول الحملة الفرنساوية فيها ، وظلت قائمة للآن .

ولما قامت المذاهب الأربعة وتعددت التفاسير بعد ذلك ، وأخذت طوائف العلماء تجول وتصول فى البحث والتحليل فى أصول الأحكام الشرعية من حيث المعاملات ، غمرت الكتب البلاد العربية ، وتشعبت البحوث ، وفاضت الآراء حتى كثرت كثرة زادت بكثير على الكثرة الفقهية الرومانية . وإذا كان الرومان قد أحسوا فى القرن السادس للميلاد بضرورة التجميع واختصار المؤلفات العديدة للالمام بها إلماما سريعا ، ولحفظها مع الزمن حتى لا تفنى فيه فناء يطويها لا تعود بعده الى الوجود ، فكان أجدى الآن على أهل النظر فى مصر أن يفعلوا فى مؤلفاتهم الاسلامية الشرعية مافعله جوستنيان ، وعلى الاخص فى هذا العصر عصر الاستقلال والنهوض بمصر بعد تحريرها من قيود غلت أيديها زمانا طويلا .

وإذا كان وزير المعارف الحاضر قـد عنى العناية كلها بالاشراف على طبع بعض الكتب الأدبية العربية القديمة ، والمساهمة فى النهضة العربية مساهمة ستكون لها آثار قيمة فيما بعد تسجل له أريحيته وتخلد له ذكراه فى الايام المقبلة ، فان وزير الحقانية الحاضر ، وقد عرفت له نخوته لبلاده ، وقدرت له عزته للحق ، جدير به أن يعنى هو الآخر بأمر أحكام الشريعة الاسلامية فى المعاملات ، وأن يعمل على تكوين لجنة على رأسها قانونى بارع معروف ، كما فعل جوستنيان فى أوائل القرن السادس للميلاد ، لتقوم تلك اللجنة فى ظرف أشهر معدودة فى جمع الكتب الخاصة بالقانون وأحكام المعاملات لتلخيصها جميعها ، والاشارة فى كل مبدأ الى واضعه وشارحه ، ووضعها وضعا موجزا محكما بالاسلوب الذى سار عليه جوستنيان ، فتذيع بعد ذلك الأصول الشرعية الاسلامية ذيوعا يحيى مواتها ، ويعيد اليها حياة الماضى المجيد ، وتصبح بعد الآن مراجع سهلة للقاصدين وجماعات الباحثين ، ويكون لها من الشأن ما كان للاصول الرومانية من الذيوع والشهرة وبعد السمعة بعدا جعل روح التشريعات الرومانية فى أصولها ومبادئها

يتغلغل حتى الآن فى الشرائع العصرية الحاضرة . وأصبحت الاحكام الرومانية فى الوقت الحاضر وقبله أحكاما عامة دولية اعتنقها وتعتنقها الشعوب ، على ما بين هذه الشعوب من الاختلافات فى التقاليد والعادات والاخلاق .

ومهمة التجميع التشريعى الاسلامى فيما يتعلق بالمعاملات أصبح ميسور العمل الآن بعد هذا الجهد الجليل الذى قام به وحده المشترع المصرى القدير قدرى باشا . وتلك مواده التى وضعها فى المعاملات والوقف وغيرها خير هاد ومرشد لما نشير اليه .

إن بحوث أهل الشريعة الاسلامية فى المعاملات مستفيضة بكثرة لاحد لها ، وفيها كنوز قيمة من البحوث العلمية والعملية فى المعاملات هى أكبر تراث تركه الآباء فى البلاد الناطقة بالضاد .

ولما كنت بمدينة ليون طالبا فى قسمى الدكتوراه فى سنة ١٩١١ الى سنة ١٩٢٠ كان أستاذنا « لامبير » يشير دائما على المصريين أن يعنوا بوضع رسائل الدكتوراه فى الشريعة الاسلامية ، وكان يرى ولا زال يرى أن الكتب والمؤلفات الموضوعة فى الشريعة الاسلامية فى المعاملات هى كنز لا يفنى ومنبع لن ينضب ، وأنه خير ما يلجأ اليه المصريون فى العصر الحاضر فى البحوث العلمية ، حتى يعيدوا لمصر ولبلاد العرب هذا المجد العلمى الذى أخذ الزمن يطويه بحكم الاهمال وعدم العناية به .

وقد أثمرت نصيحة الأستاذ لامبير عند أول طالب مصرى تتلمذ عليه وأخذ القانون عنه ، وهو المرحوم الدكتور محمود فتحى المحامى ببنى سويف ، إذ وضع رسالته فى الدكتوراه فى مذهب الاعتساف فى استعمال الحق والخروج عن حدود الحق فى غير ماشرع له الحق ، وذلك عند فقهاء الاسلام . وما كاد يظهر كتابه سنة ١٩١١ ويذيع فى ألمانيا على الأخص حتى نفد فى نصف عام . وكتبت عنه المجلات القانونية فى ألمانيا كثيرا ، وأشادت بالعظمة القانونية الاسلامية . وأذكر أن مجلة نشرت مقالا لعالم ألمانى فى القانون وهو « كهلر » ذكر فيها أن الألمان كانوا يتيهون عجبا على غيرهم فى خلق نظرية الاعتساف فى استعمال الحق والتشريع لها فى القانون المدنى الألمانى الذى وضع سنة ١٧٨٧ . أما وقد ظهر كتاب الدكتور فتحى وأفاض فى شرح هذا المبدأ عند رجال التشريع الاسلامى وأبان بان رجال الفقه الاسلامى تكلموا عنه طويلا ابتداء من القرن الثامن للميلاد ، فانه يجدر بالعلم القانونى الالمانى أن يترك مجد العمل بهذا المبدأ الى أهله الذين عرفوه قبل أن يعرفه الالمان بعشرة قرون ، وأهله هم حملة الشريعة الاسلامية .

وهاهو ذلك المصرى الآخر الدكتور محمد صادق فهمى بك القاضى بالمحاكم المختلطة قد خأرج رسالته فى الاثبات باللغة الفرنسية سنة ١٩٢٣ ، وأرصد الجزء الأهم فيها لما قرره علماء

الشريعة الاسلامية ، وعلى رأسهم ابن قيم الجوزية فى كتابه أعلام الموقعين . فلما عرض على اللجنة وأقرته ، مهره أستاذه « ليفى أولمان » الاستاذ المعروف بكلية الحقوق بباريس بمقدمة نشرت فى صدر الكتاب فيما بعد يكفى فى مطالعتها أن يدرك المصرى مالشأن المؤلفات العربية القديمة من حسن التأثير فى أذهان الاجانب ، الأمر الذى جعل صاحب المقدمة لا يتردد فى القول ، لما رآه من متانة الاستنتاج وقوة التدليل . إن كتاب الدكتور صادق جدير بأن يلحق بالكتب المكونة للمجموعات العلمية القانونية الحاضرة كمجموعة « سالى » وغيره من رءوس القانون فى عصر النهضة القانونية الحاضرة . كل ذلك على اعتبار الشريعة الاسلامية فى المعاملات مصدرا حيا للقانون العصرى ، ومناطا للحق فى أدواره المختلفة .

وأذكر أنه عند ما هم أحد المصريين سنة ١٩١٤ بوضع رسالة فى مسئولية الدولة بكلية الحقوق فى ليون ، وأراد أن يعالج هذا البحث فى كتب الشريعة الاسلامية ، اتسعت وقتذاك أمامه وجوه التمحيص حتى رأى أن يقصر رسالته مؤقتا على حصر الموضوع فى القوانين الحاضرة على أن يرجع فيما بعد الى معالجته فى الشريعة الاسلامية . وقد كتب رجال الفقه الاسلامى فى مسئولية بيت المال ، وهى نظرية مسئولية الدولة فى أحدث رأى لها الآن ، وهو الرأى القائل بمبدأ المخاطر ، شيئا كثيرا بحيث لو لخص وجمع وشرح لخرج البحث بما يجد عمل من تقدمنا من الآباء والأجداد ، وبما فيه إحياء لمجد يحتضر لولا عناية تأتى فى مثل هذا الظرف الذى تسير فيه بلاد مصر الآن ، فتدعو الضرورة فى وقت التجميع الى جمع الأصول القانونية الاسلامية المشتتة ، وحصرها فى ملخصات معينة ، فيعود للشريعة مجدها التالد ، وتحيا عظمتها حياة ترفع رءوس الناطقين بالضاد فى وقت نحن أحوج فيه الى الجمع بين مجد نبغيه ، ومجد سابق فى أيدينا نستبقيه . وإن أنس فانى لا أنسى أن ذلك المصرى لما أراد أن يضع بحثا مستفيضا فى نظرية المسئولية الخاصة بين الأفراد ، وأراد أن يرجع فيها الى ما كتبه علماء الشريعة الاسلامية ، وجد كتابا موضوعا فى ذلك البحث وحده ، أذكر الآن أن عنوانه « مجمع الضمانات » أعاد طبعه بالمطبعة الحكومية مستشار سابق بمحكمة استئناف مصر الأهلية حوالى سنة ١٨٩٨ . وفى هذا الكتاب وحده أتى واضعه بما شاءت له قدرته العلمية من آراء مختلفة فى المسئولية ، وحوادث القضاء والقدر ، والحوادث القهرية والقوة الاجبارية ، وذهب فى تخيل الأحوال التى يمكن أن تقع فى عالم الحياة ، مذاهب شتى ؛ وكان يرجع فى تقرير الرأى ووضع الحكم الى أصول علمية قانونية تحير الفكر ويقف القارئ أمامها معجبا لا يحد إعجابه حد .

وكلنا يعلم أن هناك من الكتب الاسلامية فى المعاملات ما لا يكاد يحده حصر ويحيط به بحث . فماذا تكون عظمة مصر لو جمعت هذه الكتب فى ضوء مجموعات قدرى باشا ، ذلك الرجل الخالد حقيقة ، ولخصت وأوجزت كما وضعت الديجست الرومانية ؟ إنها تكون عظمة بدء تاريخ مجد جديد لمصر . وهل لوزير الحقانية رجل القانون والفقه والدرس والاريحية أن يكون له

البدء فى إقامة صرح هذا المجد ، فيأمر بالعناية بالمعاملات فى الشريعة الاسلامية وتكوين لجنة أو لجان لتلخيصها ؟ إن الأمر ليس مستحيلا . وها قدرى باشا قد عمل وحده بعد اثنى عشر قرنا من عمل جوستنيان ما يعد الآن صرحا قانونيا خالدا فى الحق والواقع .

إن البلاد تشرع الآن تشريعات جديدة لعهدها الجديد ، أو ليس من الجدير بعظمة مصر العربية وعظمة أجدادها حملة العلوم القانونية الاسلامية ، أن يكون بين المشرعين الحاضرين « ديجست » و «باندكت» إسلامية تعيد مجد الاقدمين ، وتذكر الحاضرين بعلو كعبهم وتفوقهم القانونى الخالد ؟

إن الفرصة سانحة لدى وزير الحقانية ، إذ تستطيع اللجنة التى تشتغل لسن قوانين عصرية فى الاحوال الشخصية تلتئم مع العصر الحاضر ونزعاته وملابساته ، أن تقوم أيضا هى بنفسها أو تقوم بجانبها لجنة أخرى تعمل على جمع الكتب وتلخيصها فيما يتعلق بالمعاملات ، وتتعاون اللجنتان معا على الجمع والاختزال ، إذ درج علماء الشريعة الأسبقون على الجمع معا فى الشرح بين المعاملات والاصول الدينية . فاذا عملت اللجنتان الواحدة بجانب الثانية أخرجت لنا كل منهما ديجست وباندكت إسلامية : إحداها خاصة بالاحوال الشخصية ، والاخرى خاصة بالمعاملات . والامر فى ذلك ميسور كما قدمنا ، لأن كتب قدرى باشا من خير ما يلجأ اليه العاملون فى وضع هذه الموجزات الاسلامية . وستكون الديجست والباندكت الاسلامية خير معوان أيضا للجنة القوانين المدنية ، إذ تستطيع هذه اللجنة الاخيرة أن تهتدى وتسترشد بما يوجز فى هذه الموسوعات الاسلامية فى المعاملات ، فتخرج القوانين المدنية الجديدة وقد أشبعت بروح الاصول الاسلامية التى تغلغلت فى البلاد من قديم تغلغلا ظهرت آثاره بالقوانين المدنية المصرية الموضوعة سنة ١٨٨٣ — كما فى الصور المشتركة والحوالة ، وأشبعت أيضا بجانب روح الشريعة الاسلامية بروح أصول علم القانون المقارن بالمعنى الذى أراده الاستاذ القدير « ادوار لامبير » والذى عمل على إذاعته وإنمائه من سنة ١٨٩٥ الى الآن حتى بعد بلوغه سن التقاعد سنة ١٩٣٦ ؛ وأشبعت أخيرا بالاصول التى قررتها أحكام القضاء الاهلى والمختلط بما لا يتنافى مع النهضة القومية الحاضرة ، وبما لا يتعارض مع النزعة الاستقلالية الواسعة التى أخذت بادمغة الافراد وأصبحت عقيدة راسخة لا تتزعزع .

إن عمل وزير المعارف من جانبه فى الأخذ بيد النزعة الادبية الحاضرة فى إحياء موات الحياة الادبية الغابرة ، وفى إذكاء نور النهضة الحاضرة ، من إعادة طبع كتب قديمة ، ومن الاحاطة بمجهودات أهل الفكر والانتاج الادبى فى عصرنا الحاضر — هذا العمل له وجاهته من الناحية الادبية ، وله أثره فى تغذية النهوض الحاضر من ناحية الادب ولا محالة .

وإذا قام وزير الحقانية بما رجوناه منه ، وساهم هو الآخر من جانبه فى إقامة صرح النهضة

الحاضرة ، فاحيا موات الاصول القانونية التى أقرها علماء الشريعة الاسلامية فى المعاملات ، وشاد لنا صرحا فخما من صروح العظمة القانونية ، وهو قائم بها على ما نعلم ، وما عرفناه فيه من ماض مجيد ، ونزعة قومية وثابة ، وخلود الى القومية المصرية ، فان مصر تغتبط إذ ذاك كل الاغتباط حقا ، وتعترف لبنيها باخلاصهم لها وحبهم إياها .

إنا نحن المصريين من قانونيين وغيرهم نرقب توثب النهضة الحاضرة عن شغف ورغبة فى الوصول الى المبتغى ، ونرجو أن ينصف وزير الحقانية مصره الخالدة باحكامها الشرعية الخالدة ، وقدرى باشا خالد ، ونرجو أن يخلد بجانبه غالب باشا ، والخلود ثمرة الاخلاص القومى . وقد أخلص غالب كما أخلص من قبله قدرى ، والله ولى المخلصين .

نرجو أن تتحقق هذه الامنية ، ونامل أن تكون النهضة القانونية نهضة محبوكة الاطراف تستند الى مجد الاسبقين كما تستند الى جهود الحاضرين .

هذا العهد الجديد عهد إنشاء وتجديد فى عهد استقلال جديد .

وإذا كان لكل أمة ناهضة فى ماضيها وحاضرها جولات وثابة فى ميادين الحياة ومجالات العمل يسجلها لها التاريخ فيقول عنها بعصر التجديد والانشاء وعصر النهضة الاقتصادية وعصر القوة الحربية — فانه يسجل لها أيضا عصر النهضة القانونية .

وقد سجل التاريخ فى القرن السادس الميلادى عصر التجميع القانونى للامبراطور جوستنيان ، فقد حيي القانون الرومانى بعده حياة نشهد الآن نحن جميعا آثارها الخالدة فى القوانين العصرية الحاضرة .

فهل نبخل على مصر ، والظرف الآن موات ، أن نهيئ الفرصة السانحة لمصر حتى يسجل التاريخ لها عصر التجميع فى عهد فاروقها الاول ؟!

إن حكومة الاستقلال ، وحكومة مصطفى وصحبه ، وحكومة المعاهدة ، وحكومة النهضة القومية الوثابة الحاضرة ، جديرة بتحقيق هذه الامنية . والله الموفق ؟

عبد السلام ذهنى

المستشار



الاسلام والفلسفة

— ٩ —

تتمة البحث فى فلسفة ابن سينا :

يرى ابن سينا أن حركة الأفلاك خالدة ، لأنها ترمى الى الكمال بطبيعة خلقتها ، فهى لا تقف طبعا عن الحركة ما دامت لم تلحق الغرض الذى خلقت له وإن كانت قد لحقت منه شيئا لا يستهان به ، ولا تزال سائرة فى سبيل الكمال فى الدائرة الممكنة . وقد رد عليه الامام الغزالى فى هذه النقطة أيضا بما دحض حجته من الناحية الفلسفية ، ولولا أننا سردنا لك فى الفصول الماضية كثيرا من ردود الامام الغزالى على ابن سينا لأثبتنا هنا رده عليه فى نظرية خلود الحركة ، لأنه رد قيم جدير بالعناية والالتفات ، ولكننا نكتفى بالاشارة اليه محيليك على كتب الامام الغزالى .

وعنده أن علم الله يشمل جميع الاشياء من غير استثناء ، ولكن بطريقة كلية عامة لا أثر فيها للتفصيلات الجزئية : كأن يعلم مثلا أن الانسان فى عمومه من شأنه أن يفكر ، وأن يأكل ويتناسل ، ويموت ، ويؤمن ويكفر ، ولكنه لا يعلم أن زيدا بعينه ولد فى يوم كذا أو فكر فى موضوع كذا أو مات فى يوم كذا أو كان مؤمنا أو كافرا أو غير ذلك من الامور المتعاقبة على هذا الانسان تعاقبا عمليا فى الحياة . وحجة ابن سينا فى هذا هو أن هذه المعلومات الجزئية متعاقبة ، وتعاقبها يستلزم تغيرها ، وتغير المعلوم يقتضى تغير العلم ، وتغير العلم يستتبع بالضرورة تغير العالم ، والتغير على الله محال ، فالعلم بالجزئيات إذاً محال إذا استثنينا من تلك الجزئيات مالا يتخصص بزمان ولا بمكان ، ولا يوجد بعد أن لم يكن ، ولا ينعدم بعد أن كان .

ونحن إذا نظرنا الى هذه الحجة فى ذاتها وجدنا أنها أميل الى المغالطة منها الى المنطق المستقيم ، لأن تغير المعلوم لا يقتضى بوجه من الوجوه تغير العلم كما يزعم الشيخ الرئيس ، إذ المعروف أن هذا العلم كان قبل وجود الشىء الذى سيوجد ، متعلقا به على سبيل أنه سيوجد بعد أن لم يكن موجودا ، وأن تعلقه بعد وجوده هو تعلق به على سبيل أنه وجد بعد أن كان معدوما ، وإذاً ، فتغير المعلوم أو تعلق الزمان به يقتضى تغير نواحى التعلقات فى العلم ، لا تغير العلم نفسه ، وبالتالى لا سبيل الى تصور تغير العالم بحال من الاحوال .

على أن هذه الحجة ليست هى الوحيدة التى يستند اليها ابن سينا وأضرابه فى نفى العلم بالجزئيات عن البارى ، بل هناك حجة أخرى يركنون اليها فى هذا النفى ، وهى أن العلم هو انطباع المعلوم فى ذات العالم ، ولما كان هذا الانطباع يستلزم قابلية فى الذات المطبوع فيها وكانت القابلية

أولى خواص الحوادث أو خواص الممكنات التى تنزه البارى عن الاتصاف بها ، فقد وجب الجزم بتنزيه البارى عن العلم بالجزئيات الذى هو انطباع مستلزم للقابلية التى هى من خواص الممكنات . فاذا أضفنا الى هذا استحاله تصور قيام العلم الحادث الممكن بالبارى الأزلى الواجب الوجود لذاته ومن ذاته ، فقد تحتم القول بنفى علم الجزئيات عن المبدع الأول .

ولا شك أن الباحث المفكر لا يجد عناء فى الرد على ابن سينا فى هذه النقطة أيضا ، إذ يسأله أولا : لم خصصت هذا الانطباع بالعلم الجزئى دون الكلى ؟ وما الفرق بينهما من جهة المعلومية ؟ وسواء أأجاب ابن سينا على هـذا السؤال أم لم يجب فان الحجة فيه قـد لزمته ، ولا ينجيه من لزومها إياه مغالطته بان العلم بالكليات هو علم من جهة سامية لا تتصل بزمان ولا بمكان ، وهذا السمو هو منشا الفرق بينه وبين العلم بالجزئيات .

على أننا لا نسلم له بان العلم هو انطباع المعلوم فى ذات العالم إلا بالنسبة إلى الممكنات إذا تسامحنا فى هذه المجاراة ، أما بالنسبة الى البارى فاننا نرى أن التعريف الصحيح للعلم هو ذلك التعريف الذى وضعه « أوكليد الميجارى » وهو : « العلم هو استيلاء العالم على المعلوم » . فاذا أخذنا بهذا التعريف ، وهو ما يوجب المنطق علينا فعله ، فقد سقطت حجة ابن سينا من أساسها ، إذ لا يكون هناك انطباع ولا قابلية ولا إمكان .

غير أن ابن سينا حينما أحرجه — فيما يظهر — بعض المتكلمين ، لجا الى مغالطة أخرى وهى قوله : إن البارى يعلم الكليات بطريقة مباشرة ، ويعلم الجزئيات بوساطة النفوس الفلكية .

ولا ريب أن هذا رأى فى منتهى الخطأ والضلال ، بل هـو مستوجب للهزؤ والسخرية ، إذ كيف يعقل أن يظل الاله جاهلا بما يجرى فى ملكه حتى تنطبع تلك المعلومات الجزئية فى النفوس الفلكية ثم يطلع عليها فى هذا الوقت المتأخر ، فمن الذى قدرها إذاً ؟ ومن الذى طبعها فى هـذه النفوس ؟ وهل يقدر أحد شيئا لا يعلمه ؟ ولكن يجب ألا ننسى أن هؤلاء الفلاسفة الاسلاميين يرون أن البارى — تعالى عما يقولون علوا كبيرا — لا يشتغل بجزئيات هـذا العالم ، وإنما العقل العاشر هـو الذى يدبرها تبعا للنواميس الطبيعية التى لا يملك هو ولا غيره تبديل شىء منها !

وبناء على هذا يكون علم الله بالجزئيات عن طريق المحرك المباشر متمشيا مع منطقهم الواهى المحطم القواعد والأركان . على أنى أريد أن أناقشهم بآرائهم نفسها ، وألزمهم الحجة من عين أقوالهم التى صرحوا بها فى كتبهم كثيرا ، فأقول لهم : إنكم تجزمون بأن العقول أقل كمالا من البارى ، وأن النفوس الفلكية أقل كمالا من العقول ، أفلا توافقوننى على أن الناقص معرض للخطأ والضلال وطوارئ الحوادث ؟ وإذاً ، فمن الجائز أن يكون بعض ما انطبع فى هـذه النفوس خطأ فيعلمه البارى على هـذا الخطأ ، وهذه أحط مراتب النقص والضعة . ثم ألا ترون معى

أن البارى حتى إذا كان كل ما نقلته إليه النفوس الفلكية صحيحا يكون مفتقرا فى علم شىء الى بعض خلقه ، وهل يصحب الافتقار كمال ؟ ولكن ينبغى ألا يغيب عن بالنا أن ابن سينا ومن على شاكلته اندفعوا فى مثيلات هذه المسائل فى التيار الأهوج الذى خلقه أرسطو ، فهوت بسببه فلسفته الالهية فى حضيض يستوجب الرحمة والاشفاق أكثر مما يستوجب النقد والتأنيب ، إذ زعم أن علم المحرك الأول لا يتعلق بالعالم ، لأن تعلقه بالناقص يحط من قدره ، فأعطانا بهذا صورة غريبة لاله المضحك الذى لم يخلق العالم ولا يعلم به !

على أنى لا أدرى كيف يتفق قول ابن سينا بأن الله لا يعلم الجزئيات إلا عن طريق النفوس الفلكية مع قوله : « إن الأول موجود لا فى مادة ، وكل موجود لا فى مادة فهو عقل محض ، وكل ما هو عقل محض فجميع المعقولات مكشوفة له ، فان المانع عن درك الأشياء كلها التعلق بالمادة والاشتغال بها ، ونفس الآدمى مشغولة بتدبير المادة أى البدن ، وإذا انقطع شغله بالموت ولم يكن قد تدنس بالشهوات البدنية والصفات الرذيلة المتعدية إليه من الأمور الطبيعية ، انكشفت له حقائق المعقولات كلها .

فاذاً ، الخلوص من المادة هو علة كشف كل شىء ، والبارى خالص من المادة خلوصا تاما ، فما الذى يحجب علمه جل شأنه عن الجزئيات ؟ ! ولكنه الخلط والوهم والتناقض والاضطراب .

النفس عنده :

أما النفس عند ابن سينا فهى جوهر شفاف هبط الى الأجسام البشرية من عالم الأزل وحكم عليه البارى بالبقاء فيها زمنا محدودا ، وكان فى أول الامر آسفا شاعرا بغربته ، متضايقا من حصره فى هذه الدائرة المادية الضيقة ، ولكنه لم يلبث أن شعر بسرور عظيم ، لأنه رأى ما لم يكن يرى لو أنه استمر فى عالمه العلوى ، وهى فى الأصل من عالم الكمال ، ولكنها قد تصاب بنقص من اصطحابها للجسم فتصبح مفتقرة الى التطهر والنقاء اللذين لا تعود الى مرتبتها الاولى الابهما ، وهى لا تبلغ هذه المنزلة إلا بالشرطين الآتيين : (١) أن تتخذ الفضائل شعارا لها . (٢) أن تتثقف حتى تصير عالمة بكل ما من شأنها أن تعلمه ، وهو يتحقق فى أن تحيط بالأنظمة العقلية والمعارف الذهنية ، وأن تتلقى فى ذاتها كل المعقولات العالية حتى ينطبع فيها شبه صغير بالمبدع الاول ، وتصبح قادرة على خلق صور عقلية لكل ما فى هذا الكون من حقائق محسة . وإليك ما قاله ابن سينا فى تصوير النفس :

هبطت إليك من المحل الارفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما ... كرهت فراقك وهى ذات تفجع
أنفت وما أنست فلما واصلت ... ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهودا بالحمى ... ومنازلا بفراقها لم تقنع

حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها ... فى ميم مركزها بذات الاجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت ... بين المعالم والطلول الخضع
تبكى إذا ذكرت ديارا بالحمى ... بمدامع تهمى ولما تقطع
وتظل ساجعة على الدمن التى ... درست بتكرار الرياح الأربع
إذ عاقها الشرك الكثيف وصدها ... قفص عن الاوج الفسيح الأربع(١)
حتى إذا قرب المسير الى الحمى ... ودنا الرحيل الى الفضاء الأوسع
سجعت وقد كشف الغطاء فأبصرت ... ما ليس يدرك بالعيون الهجع
وغدت مفارقة لكل مخلف ... عنها حليف الترب غير مشيع
وبدت تغرد فوق ذروة شاهق ... والعلم يرفع كل من لم يرفع
فلاى شىء أهبطت من شاهق ... سام الى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أرسلها الاله لحكمة ... طويت عن الفطن اللبيب الأروع
فهبوطها إن كان ضربة لازب ... لتكون سامعة بما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية ... فى العالمين ، نخرقها لم يرفع
وهى التى قطع الزمان طريقها ... حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنها برق تألق للحمى ... ثم انطوى فكأنه لم يلمع

لا ريب أن من يرى هذا الرأى لابن سينا فى النفس ، وهو ذلك التلميذ الوفى ، والمريد المخلص لأرسطو ، يدهش كل الدهش إذ يراه يستن غير سنته وينتهج عكس منهجه ، ولكنه حين يعلم أن ابن سينا فى رأيه هذا متأثر بتلك الرسالة المصنوعة التى لفقها الاسكندريون من مختلف المذاهب ونسبوها الى أرسطو ، تزول دهشته ، ويقف على منشأ هذا السمو « الأفلاطونى الأفلوطينى » الذى ظهر جليا فى تلك العينية المتقدمة .

نظرية المعرفة عنده :

لا يكاد رأى ابن سينا فى المعرفة يختلف عن رأى الفارابى ، لأنه يرى مثله أن وسيلة المعرفة هى الحواس الخارجية والحواس الداخلية ، أو هى الحواس والعقل ، غير أنه يقسم المعرفة الى ثلاثة أقسام : (الاول) معرفة المبادىء الأولى ، و(الثانى) معرفة جواهر المعقولات ، و(الثالث) معرفة المستقبل . والقسمان الاول والثانى هما اللذان يصلان الى الانسان عن طريق الوحى والالهام ، ويسمى مدرك القسمين الاولين بالاداة الطبيعية ، أما أداة القسم الثالث فوسيلة خارقة للعادة . والاداة الطبيعية عند ابن سينا قسمان : فطرية واكتسابية . فأما الفطرية فهى ملكة مشتملة على قوة خاصة مستعدة لادراك المبادىء الاولى ، مثل قواعد : الكل أعظم من الجزء ، والواحد نصف الاثنين ، وإذا ساوى ثالث أحد القسمين المتعادلين وجب أن يساوي

(١) الاربع بضم الباء : جمع ربع .

الثانى . أما القسم المكتسب فيحتاج فى إدراكه الى مجهود أكبر من مجهود القسم الاول . ويجب أن تبتدأ عملية التفكير فيه بالشعور الوثيق بوجوب انفصال الصور التجردية عن عالم المحسات . وكيفية الابتداء أن يتصور الشخص أن ما فى عقله ليس هو الحجر ولا الحيوان ، وإنما هو صورتهما . أما الالهام فوسيلته الفضيلة والتنسك ، لان الروح لا تعرف المستقبل إلا بمقدار اتصالها بالكائن الاعلى ، وهى لا تتصل به إلا إذا تغلبت على الجسم . ولذلك فهى فى حالة النوم تكون أكثر اتصالا بالملا الاعلى منها فى حالة اليقظة ، وهى بعد الموت أكثر منها فى حالة النوم .

الأخلاق :

يرى ابن سينا — كبقية إخوانه من الفلاسفة والمعتزلة المتأثرين بتعاليم ارسطو — أن الخير هو ما حسنه العقل ، والشر ما قبحه العقل ، بل هو يرى أن العقل إذا تهذب وارتقى استطاع أن يحول الشر الظاهر الى خير ، لأن الشر الحقيقى غير موجود ألبتة ، إذ الله عنده خير محض ، ولهذا لا يتعلق به إلا خير ، أما الشر فهو ناشىء من المادة وحدها ، وهو لذلك يجزم بأنه لا يوجد فى الكون شر محض ، لأن المادة لا توجد وحدها بدون صورة . على أن كل شر فى هذا الوجود خير فى ذاته ، وإنما يحوله سوء التصرف بواسطة المادة الى شر ، فمثلا : لا تحرق النار إلا غير المتبصر ، ولكنها هى فى ذاتها خير ، وإحراقها لهذا السيء التصرف لا يخرجها عن خيريتها . وإذا ، فلا يملك الانسان إصدار حكم مطلق على خيرية الاشياء وشريتها بناء على ما يراه من نتائجها التى هى وليدة الظروف لا وليدة الطبيعة . وهو فى هذا كله أفلاطونى أكثر منه أرسطو طاليسيا ، وتظهر أفلاطونيته جلية فى الاخلاق النظرية حين يقرر أن الفضيلة تستطيع أن تكشف للنفس أسرار الكون ، وأن الالهام الذى يختص به الله الاخيار من عباده هو إحدى وسائل المعرفة البشرية ، وأن النبوة مكتسبة يفوز بها كل من توفرت فيه شروطها ، الى آخر ما قرره فى هذا الشأن .

أما أخلاقه العملية فكانت — فيما روى التاريخ — صورة صادقة لمذهبه النظرى ، إذ يحدثنا المؤرخون أنه كان إذا حزبه فهم مسألة من المسائل العويصة ، اتجه توا الى المسجد وظل فيه راكعا ساجدا مبتهلا لا يغادر المحراب حتى يقف على سرها .

ولا ريب أن هذا هو معنى قوله : إن الالهام إحدى وسائل المعرفة ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

السليقة العربية

وقـواعد اللغة

كان العرب فى جاهليتهم يجرون فى أحاديثهم ومحاوراتهم وخطبهم وأشعارهم على مقتضى سليقتهم التى امتازت باخراج الكلام صحيح الوزن مستقيم الاعراب ، فلما جاء الاسلام واتسعت الفتوحات ، وخرج العرب من جزيرتهم ، واختلطوا بغيرهم من الامم ، وكثرت فيما بينهم حمراء الاعاجم ، وانتشرت بحكم الاسلام فى بيئاتهم ومجتمعاتهم ، تسرب اللحن الى اللغة ، والتوت الألسنة عن جادة السليقة الصحيحة ، وشاع الخطأ فى المفردات والتراكيب ، حتى وصل الى تلاوة القرآن الكريم ، فأفزع ذلك العلماء ، ودفعهم الى التفكير فيما يصون قواعد اللغة ، ويحفظ على السليقة العربية أصولها وما جرت عليه من استقامة بناء الكلمات ، وصحة إعرابها ، فشمروا عن ساعد الجد ، ووضعوا قوانين النحو . واختلفت الروايات التاريخية فى أول من فكر فى ذلك ، وأشهر الروايات تسنده الى امير المؤمنين على بن أبى طالب وتلميذه أبى الأسود الدؤلى ، وبعضها يسنده الى زياد بن أبى سفيان ، وأغربها تلك الرواية التى يحدثنا بها ابن الانبارى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيقول : قدم أعرابى فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : من يقرئنى شيئا مما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأقرأه رجل سورة براءة فقال : « إن الله برىء من المشركين ورسوله » بالجر فى لفظ « رسوله » فقال الاعرابى : أو قد برئ الله من رسوله ؟ إن يكن الله تعالى برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ! فبلغ عمر عليه السلام مقالة الاعرابى ، فدعاه فقال له : يا أعرابى : أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ! فقال : يا أمير المؤمنين : إنى قدمت المدينة ولا علم لى بالقرآن ، فسألت من يقرئنى ؟ فأقرأنى هذا سورة براءة فقال : « إن الله برىء من المشركين ورسوله » فقلت : أو قد برئ الله تعالى من رسوله ؟ إن يكن الله تعالى برئ من رسوله فأنا أبرأ منه . فقال عمر رضى الله عنه : ليس هكذا يا أعرابي ، فقال : كيف هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « إن الله برئ من المشركين ورسوله» بالرفع ، فقال الاعرابى : فأنا أبرأ ممن برئ الله ورسوله منهم . فأمر عمر رضى الله عنه أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الاسود الدؤلى أن يضع النحو .

وهذه القصة — إذا صحت — تدلنا على مكانة الاعراب من اللغة العربية ، وأنه من أهم العوامل فى تحديد المعنى المقصود ، ورفع الاشتباه واللبس عن القارئ والسامع ، خلافا لمن يزعم من الباحثين المعاصرين أن الاعراب لافائدة منه إلا التعقيد ، وكأنهم برموا بقواعده فأرادوا التحلل من قيوده ليترك لهم الأمر سبهللة بلا ضابط ، وهذا بلا شك من أخطر ما تصاب به اللغة العربية ، وقاها الله شره !

وتذكرنا قصة الاعرابى وما فيها من التدليل على قيمة الاعراب بما وقع لبعض الخوارج مع عبد الملك بن مروان ، فقد روى أن الخوارج على عهده بايعوا بالخلافة رجلا من زعمائهم يقال له شبيب من بنى أشجع ، فقال شاعرهم :

فمنا يزيد والبطين وقعنب ومنا أمير المؤمنين شبيب

فطلبه عبد الملك ، ولما وقف بين يديه قال له : أنت القائل : ومنا أمير المؤمنين شبيب ؟ فقال : لم أقل هكذا ، إنما قلت : ومنا أميرَ المؤمنين شبيب ، وفتح الراء يوهم أنه أراد النداء ، فضحك عبد الملك وعفا عنه لحسن تخلصه بفطنته ، فهذا أيضا من محاسن الاعراب فى اللغة .

وتدلنا أيضا قصة الاعرابى على ما فى الفطرة العربية من دقة الاحساس ، وسرعة الخاطر فى إدراك معانى الكلام واختلاف أغراضه باختلاف عوامل الاعراب وأماراته . وتدلنا على أن اللحن أسرع السير الى اللغة فاستقبلها وهى لا تزال فتية : وتدلنا على أن العامل الدينى أو بالحرى القرآن الكريم كان هو الباعث الأول على وضع قواعد اللغة ، وأن أبا الاسود الدؤلى كان محور الروايات كلها فى اتفاقها على أنه عميد المدرسة النحوية الاولى ، وقد تتلمذ عليه جماعة من الموالى ، من أشهرهم « عنبسة بن معدان » ويقال له عنبسة الفيل ، وأصله من أهل ميسان ، و « ميمون الاقرن » و « عبد الرحمن بن هرمز » و « يحيى بن يعمر » وهو عربى مضرى ، وكان يتفاصح ، ويتشادق بالغريب ، وقدولى القضاء بخراسان من قبل يزيد بن المهلب ، فيحكى أن امرأة خاصمت اليه زوجها فقال للرجل : أإن سألتك ثمن شكرها وشبرك أنشأت تطلها وتضهلها ؟

وجاء بعد هؤلاء جماعة أخذوا العلم عنهم ، ولكنهم توسعوا فيه بحثا ودرسا ، وكان من أبرعهم عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى الذى مال الى القياس ، وعيسى بن عمر الثقفى شيخ سيبويه الأول قبل الخليل بن أحمد ، وهو أول من ألف فى علم النحو ، وأبو عمرو بن العلاء ، وهو أوسع رجال حلبته علما بكلام العرب ولغاتها ، وأصدقهم لهجة ، وهؤلاء ومن شايعهم زعماء مدرسة البصرة . ولما أسست مدرسة الكوفة ، وسلكت طريقا فى التفريع والاستنباط جديدا يختلف عن طريق البصريين ، قوى النزاع بين المدرستين ، واشتد الخلاف فى القواعد اللغوية ، فعمد كل فريق الى العرب فى مضارب خيامهم يروى عنهم ، ويستند الى كلامهم ، وكثرت الرواية وراجت سوقها حتى كان ذلك من أسباب الانتحال فى الشعر الذى اشتهر عن الكوفيين فى آخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى ، حتى إن نحويى الكوفة زعموا أنهم يعرفون من شعر العرب ما لا يعرف البصريون ، لأنه — فيما زعموا — كان لديهم ديوان الشعر الذى مدح به النعمان بن المنذر وأهل بيته ودون فى الطنوج « الكراريس » .

كان هم هؤلاء وأولئك المحافظة على اللغة وحمايتها من اللحن ، فوضعوا لها القواعد ، ومهدوا القياس ، ودرسوا الأدب العربى على هذا الاساس ، وعنوا برواية الشعر ودراسته على منهجهم فى التعصب للجانب اللغوى ، وإيثار الغريب ، مما حملهم على المنافسة فى جمع غرائب اللغة والتشدد فى المحافظة على قواعدهم ، ورفض كل ما ند عنها ، واعتباره شاذا لا يعول عليه ، وقد انتقدوا العرب أنفسهم إذا حادوا عن سنن تلك القواعد ، وأخذوا على الشعراء الأقدمين مآخذ رأوها خارجة على ما تواضعوا عليه من أقيسة وأصول ، فأخذوا على امرئ القيس قوله :

فاليوم أشرب غير مستحقب إثما من الله ولا واغل

إذ جزم الفعل المضارع « أشرب » ولا جازم له ، وقد روى أبو العباس المبرد فى كامله هذا البيت فاليوم « أسقى » ، واختلاف الروايات الى حد الكثرة الطاغية مما ابتلى به الادب العربى ، وليس ببعيد أن يكون بعضه متعمدا ليحتج به على قاعدة نحوية أو مسألة علمية ، فبيت امرئ القيس المذكور يبعد أن يكون التغيير فيه من « أشرب » الى « أسقى » أو من « أسقى » الى « أشرب » غير مقصود ، لأنه ليس للفظتين اشتباه خطى أو لفظى يمكن أن يستند إليه الظن فى التغيير لمجرد الرواية ، والشاعر لا بد أن يكون قد قال واحدة منهما فقط ، ونحن بين أمرين : فاما أن يكون الشاعر قال : « أشرب » فجزم بغير جازم ، فجاء من يزعم أن السليقة العربية لاتخطئ وغيره الى « أسقى » ، وإما أن يكون الشاعر قال « أسقى » فجاء من يجوز أن السليقة العربية قد تحيد عن الأعم المألوف فغيره الى « أشرب » مجزوما بدون جازم ، وقد ردد أبو العلاء المعرى البيت بين الروايتين ، وحاول تخريج رواية «أشرب» على وجه يجعلها متمشية مع القواعد . وزعم بعض العلماء أنه يجوز أن يكون ثم إشارة الى الضم لا حكم لها فى الوزن ، ونقل عن سيبويه أنهم يفعلون ذلك فى قول الراجز :

متى أنام لا يؤرقنى الكرى ليلا ولا أسمع صوت المطى

ويسميه ابن فارس اختلاس الحركات ، وهذا كله تكلف جر إليه اضطراب الامر فى الرواية والتعصب المذهبى .

وأخذوا على طرفة بن العبد قوله : قد رفع الفخ فماذا تحذرى .

فقد حذف نون الفعل المضارع وهو «تحذرى» من غير موجب لهذا الحذف . وأخذوا على النابغة الذبيانى قوله :

فبت كأني ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم ناقع

لأنه رفع كلمة « ناقع » وحقها النصب على الحال . وبعض النحاة يصحح ما قال النابغة ,

وقد لج الخصام بين الشعراء المتقدمين وعلماء اللغة ، وكان من أعجبه ما وقع بين الفرزدق وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي الذي كان يتتبع سقطات الفرزدق ويعيب عليه شعره ، والفرزدق يضيق به ذرعا ، قال ابن الانباري : وكان ابن أبي إسحاق يرد كثيرا على الفرزدق ، ويكلمه في شعره ، فقال فيه الفرزدق :

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له الحضرمي : ولقد لحنت أيضا في قولك « مولى مواليا » . قال يونس بن حبيب : كان أبو عمرو بن العلاء أشد الناس تسليما للعرب ، وكان عبد الله بن أبي إسحاق ، وعيسى بن عمر يطعنان على العرب ، وقد كان أبو عمرو يدافع عن الفرزدق ويجتهد في تخريج كلامه على وجه صحيح ، حكى أبو عمرو أن ابن أبي إسحاق سمع قول الفرزدق :

وعض زمان يا بن مروان لم يدع من المال إلا مسحتا أو مجلف

فقال له : على أي شيء ترفع « أو مجلف » ؟ فقال: على ما يسوءك وينوءك . قال أبو عمرو : فقلت للفرزدق : أصبت ، وهو جائز على المعنى . أي أنه لم يبق سواه ، وكان الفرزدق إذا اعترض عليه أحد يقول : على أن أقول ، وعليكم أن تحتجوا .

وقد اختلف العلماء قديما : هل يقع الغلط في كلام العرب الخلص ؟ فقال قوم : لا يقع ذلك في كلامهم ، وما يروى منه عنهم فانما هو من الضرورات الجائزة ، وقال آخرون : لا مانع من وقوع ذلك منهم ، وهم ناس كغيرهم ليسوا معصومين ، وإذا وقع فلا يتابعون عليه ، قال العلامة الألوسي في كتاب الضرائر : « العرب قد غلطوا في كلمات أوردوها في شعرهم ... فعد ذلك بعض أئمة العربية من الضرائر الشعرية ، منهم الامام أبو سعيد القرشي ، والسيد المرتضى ، وذهب الجمهور الى أن أغلاط العرب ليست من قبل الضرورة ، وأنها لا تغفر لهم ، ولا يعذرون فيها ، ولا يتابعون عليها كما يتابعون في الضرائر » . وقال ابن فارس : « والشعراء أمراء الكلام يقصرون الممدود ، ويمدون المقصور ، ويقدمون ويؤخرون ، ويومئون ويشيرون ، ويختلسون ويعيرون ويستعيرون ، فأما لحن في إعراب وإزالة كلمة عن نهج صواب فليس ذلك لهم ... ما جعل الله الشعراء معصومين ، يوقون الغلط والخطأ ، فما صح من شعرهم فمقبول ، وما أبته العربية فمردود » .

وقد نقل الامام ابن جنى عن أستاذه أبي على الفارسي السبب في وقوع الغلط من العرب فقال : إنما دخل هذا النحو في كلامهم لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها ، ولا قوانين يستعصمون بها ، وإنما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ، فربما استهواهم الشيء فزاغوا به عن القصد .

وربما كان قريبا من الصواب — إن شاء الله — أن كل ماصح عن العرب قبل الاسلام يجب التسليم له والاخذ به ، ويتفاوت فى الاجودية فقط بحسب الكثرة والشيوع ، والقلة وعدم الذيوع ، فالاول نعده أجود ، والثانى نعده صحيحا جيدا ، ولكنه دون الاول ، ولا يقال لمتابعه من المولدين غالط مخطئ ، فمثلا إذا صح أن شاعرا عربيا قبل الاسلام قال : ولكنى سليقى أقول فأعرب . فنسب الى فعيلة على لفظها فعيلى ، فلا بأس على من يقول من المولدين فى النسب الى طبيعة مثلا : طبيعى ، وأجود منه من يقول : طبعى متابعة للأكثر الأشهر . أما اللحن فى الاعراب فلا أكاد أفهم وقوعه من العربى القح ، وإنما هى ألسنة صنعها الله تتحرك بالاعراب فى غير صنعة ولا تكلف .

صادق ابراهيم عرجون

مداعبات بالكنايات

قال معاوية بن أبى سفيان للاحنف بن قيس سيد بنى حنيفة : أخبرنى عن قول الشاعر :

إذا ما مات ميت من تميم ... فسرك أن يعيش فجئ بزاد
بخبز أو بتمر أو بسمن ... أو الشىء الملفف فى البجاد
تراه يطوف فى الآفاق حرصا ... ليأ كل رأس لقمان بن عاد

ما هذا الشىء الملفف فى البجاد ؟

قال الاحنف : السخينة يا أمير المؤمنين .

قال معاوية : واحدة بأخرى والبادى أظلم .

والسخينة طعام كانت تعمله قريش من دقيق وهو الحريرة فكانت تسب به . وفيه يقول حسان بن ثابت :

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... وليغلبن مغالب الغلاب

وقال غيره : تعشوا من سخينتهم فناموا .

ولما عزل عثمان بن عفان رضى الله عنه عمرو بن العاص عن مصر وولاها ابن أبى سرح ، دخل عمرو على عثمان وعليه جبة محشوة ، فقال له عثمان : ما حشو جبتك يا عمرو ؟

قال عمرو : أنا يا أمير المؤمنين .

قال الخليفة : قد علمت أنك فيها . ثم قال له يا عمرو : أشعرت أن اللقاح درت بعدك ألبانها ؟

فأجابه عمرو : لأنكم أعجفتم أولادها (أى أهزلتموهم)

فكنى عثمان عن خراج مصر باللقاح وهى النوق الحلوب ، وكنى عمرو عن إرهاق الوالى لأهلها باهزال أولادها .

ما هو الاثير

حدث فى الشهر الماضى أن أحد المحاضرين فى بعض الجماعات الادبية انتدب لتفسير بعض الآيات القرآنية المتشابهة والواردة فى لفت الانظار الى بعض الظواهر الطبيعية ، فجعل الاثير معوله فى التفسير والتعليل ، وكان بين الحضور جم غفير من طلبة العلم والعلماء ، فلم تقع منهم تلك المحاضرة موقع القبـول لاعتمادها على مادة افتراضية ، وأقبل علينا بعضهم يرجوننا أن نكتب كلمة فى حقيقة الاثير ، فلم يسعنا إلا تلبية الطلب ، فنقول :

تتردد كلمة الأثير فى أفـواه العلماء عند كلامهم على أصل المادة وعلى النور والحـرارة والكهرباء وغيرها من القوى الطبيعية ، فيحلون به ما أشكل عليهم حله من معميات الكون ، ويفكون ما استبهم من طـلاسمه .

ما الذى دعا الطبيعيين الى افتراض شىء لا يدرك بالحواس ، ولا يخضع للتجربة ، ويناقض بخصائصه وبصفاته كل ما يعرف من اشياء الطبيعة ؟

الذى دعاهم لذلك هو :

كان الطبيعيون الاقدمون يظنون أن النور والحرارة ينتقلان من بعض الاجسام إلى بعض بتأثيرهما الذاتى من بعد ، فلما تأملوا فى ذلك فى العصور الحديثة وجدوه مما لا يعقل ولا يفهم ، فافترضوا أنهما يسريان من الأجسام المنيرة والحارة على صورة أمـواج ، فأجمعوا على قبول هذا الافتراض ، وكان أول من قال به الطبيعيون من المسلمين (راجع ما قاله العلامه دريبر) .

ولكن العلماء اعترضهم أمر جلل وهو : جهلهم على أى حامل تسرى هذه الامواج الضوئية والحرارية الينا من الشمس والكواكب ، وليس بيننا وبينها هواء ؟ فان الهواء جسم غازى يحيط بالكرة الارضية الى نحو خمسة وعشرين كـيلو مترا منها . ولو كان الهواء مالئا للفضاء الموجود بيننا وبين الكوكب لبلغ ثقله على الارض حدا لا تمكن المعيشة فيه ، ولصد الكواكب الاخرى عن الجولان كما تصدها الحجب الفولاذية .

وإن افترض العلماء أن ذلك الحامل ليس بالهواء ولكنه شىء مادى ألطف منه ، لزم منه كل ما يلزم من الهواء ، لانه ما دام ذلك الشىء ماديا فان لانهائيته تجعله أكثف من الصوان . وإننا إنما نرى ما وراء الهواء من الكواكب والشموس لان طبقته قليلة السمك ، ومع ذلك فهو يلون السماء باللون الازرق ويكسر الاشعة المنبعثة الينا من الكواكب ، فيخدعنا عن أماكنها ، ويرينا أجرامها قبل أن تظهر على الافق . فما ظنك به لو كان مالئا لهذه اللانهاية ؟

لما آنس العلماء كل هذه الصعوبات من افتراض الحامل للاشعاعات ماديا ، اضطروا

أن يفترضوه غير مادى ، لا بمعنى أنه روحانى ، بل بمعنى أنه شيء لم يصل لدرجة المادية فلا تسرى عليه قوانينها . وهم لأجل أن يخلصوا من كل الايرادات التى يمكن أن توجه الى ذلك الشيء فتحول بينهم و بين التعليل به ، أخذوا فيه لانفسهم كل حيطة ، فافترضوه شيئا مالئا للوجود كله لا يخلو منه قدر ذرة فى الارض ولا فى السماء ، لا وزن له ولا مسام ، وغير قابل للانضغاط وغاية فى اللطافة . بل قالوا إن كل شيء مادى ناشيء منه فهو أصل جميع الموجودات الكونية .

فى عهد الشعور بالضرورة الماسة لافتراض الاثير ، كان العقل يجد لوجدان نظرية جديدة غير نظرية الجوهر الفرد الذى جعلوه أصلا للمادة ، لعدم انطباق هذه النظرية على بداهة العقل ، فما نسوا فى الاثير مخرجا لهم من الترطم فى عقبات تصورها ناشئة من جواهر مادية لا تقبل الانقسام ؛ فتخيلوها حركة زوبعية فى الاثير ، أى أن جزءا من الاثير يتحرك ، بسبب غير معلوم ، حركة سريعة للدرجة القصوى على هيئة زوبعة ، وبانضمام عدد كبير من هذه الزوابع بعضها الى بعض تتألف منها المادة ، وإنما تتنوع بتنوع درجات تلك السرعة ، ونظام تآلف وحداتها .

ولما رأى العلماء أن بعض القوى تستحيل الى بعض كاستحالة الحرارة الى كهرباء أو نور أو العكس الخ ، قرروا أن هذه القوى كلها ليست بشيء سوى حركات حاصلة فى ذلك الاثير .

فالأثير بكل هذه الاعتبارات هو فى نظر العلماء الطبيعيين : الموجود المطلق الذى لا أول لوجوده ، ولا آخر لبقائه ، مصدر كل موجود ، ومستقر كل قوة ، ومستودع كل إبداع .

أشعر وأنا أكتب هذا بأن القارئ البعيد عن المسائل العلمية قد أخذ منه العجب كل مأخذ من إجماع رجال يعتبرون أبعد الناس عقولا عن الأوهام على القول بوجود شيء خلقوه بخيالهم ، ونحلوه كل الصفات التى يحتاجون اليها فى تعليلاتهم ، وليس لهم على ذلك دليل ولا شبه دليل . ثم يتساءل ذلك القارئ بعد هذا : إذا كان هذا شأن علماء الطبيعة فى اللجأ الى افتراض الخيالات للوصول الى تعليل وجود الكائنات ، فلم يثورون على المتدينين فى اعتقادهم بوجود واجب الوجود المنزه عن المادة والماديات ، الاول الذى لا موجود قبله ، والآخر الذى لا موجود بعده ؟

ما الذى بقى من الفروق بين الصفات التى يوصف بها الخالق عز وجل ، وبين الصفات التى تمنح للاثير فى هذا العصر ؟ الفرق أن المتدينين يعتقدون أن خالق الكون ومدبره حكيم مريد ، ولكن العلماء الطبيعيين لا ينحلون الاثير هاتين الصفتين . ولا أدرى كيف إذا جردوا الاثير من هاتين الصفتين يستطيعون أن يعللوا وجود المادة بعد أن لم تكن موجودة ، وبلوغ الكائنات من الابداع الى هذه الدرجة التى لا غاية بعدها ، وكيف يعللون وجود العقل البشرى وليس له ما يستمد وجوده منه فى الكون ؟

كل هذه المعاضل لا يمكن أن يحلها افتراض وجود الاثير ، الا إذا افترضت له الصفات

المطلقة التى أدركها العقل البشرى لواجب الوجود نفسه ، وإذن فما ضرورة تسمية الخالق جل وعز بالاثير ، وما وجه هرب الماديين من الايمان بالغيب وهم يؤمنون بهذا الاثير وخصائصه ؟

لقد لحظ هذا التناقض اشدهم تعصبا للفلسفة الطبيعية ، وعلى رأسهم الاستاذ الكبير هيكيل الألمانى Haekel المدرس بجامعة يينا ، فكتب فى كتابه (وحدة الوجود) قوله :

« إن هذا الترقى فى إدراك الاثير يكسب فلسفة وحدة الوجود قوة عظيمة . ذلك أن الآراء الضالة التى كانت تقول بوجود الفراغ وبتأثير المواد بعضها على بعض من بعد ، قد زالت الآن . وهذه اللانهاية الوجودية وإن كانت المادة لا تشغلها كلها فانها برمتها مشغولة بالاثير » . ثم قال :

« نعم : إن نظرية الاثير إذا أخذت كقاعدة للايمان يمكنها أن تعطينا شكلا معقولا للدين ، ذلك إذا جعلنا إزاء هذه الكتلة الجامدة الثقيلة أى المادة ، ذلك الأثير الشامل لجميع الاحياز الوجودية المتحرك ، الذى هو الاله الخالق » . ثم أيد الاستاذ هيكيل رأيه هذا برأى الاستاذ خليسنجر الالمانى الذى أبداه فى خطابة ألقاها فى التنبورغ من المانيا فذكر عنه أنه قال :

« إن أحقر مظهر من مظاهر الطبيعة غير الآلية ، وأكبر مجلى من مجالى الحياة الآلية ، يمكن أن يعلل وجودهما على السواء بفعل قوى طبيعية واحدة ، ولما كانا من ناحية أخرى يشتركان فى الصدور من الأصل الأصيل المتوحد الذى يملأ الوجود اللانهائى ، وهو الأثير ، فيمكن اعتبار هذا الاثير (إلها عاما) ويكون نتيجة ذلك هو الحكم بان الاعتقاد بالخالق يتفق والعلوم الطبيعية » .

الى هذا الحد وصل الاعتداد بالاثير لدى العلماء المعاصرين لنا ، فهم إن كانوا لم يجمعوا على ألوهيته ، فقد أجمعوا على ضرورته ، لفهم كل صغيرة وكبيرة فى الكون .

والذى يتبادر للعقل أن العلماء الذين قالوا بألوهية الاثير كان الاولى بهم أن يقبلوا العقيدة النظرية المنبثة فى النفوس الانسانية من ضرورة وجود إله منزه عن الجسمانية قادر حكيم أوجد الوجود وأمده بكل القوى العاملة فيه ، ولا يزال يربه ويرقيه ليبلغ الى أرقى ما قدره له من كمال وجلال .

أما تخيل وجود سيال سموه الاثير وتصوره لطيفا غاية اللطف مالئا للكون كله وليس فيه مسام ولا يقبل الضغط ولا وزن له الخ من الصفات المتناقضة ، ثم رفع هذا السيال الى درجة الالوهية ، فلعب بالالفاظ لا يصح صدوره من كبار الرجال ؟

محمد فريد وجدى

حياة المتنبي

تنبؤه (١)

ليس فى حياة أبى الطيب مسألة أشد غموضا من سر هذا اللقب الذى نبزوه به ، ومهما يكن فى حياته من الدقة والغموض فانا نعترف بقوة الدقة والغموض اللذين أحاطا بهذا اللقب ؛ وآية ذينكم أن الكتاب مازالوا يكتبون عن أبى الطيب منذ كان الى يوم الناس هذا وهم يختلفون فى الابانة عن حقيقة هذا اللقب ، وكتاب عصرنا هذا مختلفون أيضا فى الاستنتاج والتعليل ؛ ولقد حاولت أن أقف على الوضع الحقيقى لهذه المسألة متخذا من شعره وأخباره نبراسا أستضىء به فأعيانى تطلابه ، ووقعت فى حيرة ولبس هما شر من الاعراض عنه ؛ ذلك أنه لم يعن أحد ممن عاصر المتنبى أو قرب من عصره بالبحث عما يشوقنا اليوم أن نعرفه ، بحثا يثلج صدر الحقيقة ويملأ قلب الناس يقينا بصحة أسبابه ونتائجه ؛ فكل ما بين أيدينا كلمات منثورة فى بطون الكتب جرى بعضها على ألسنة قوم عرفوا بالهوى فيه والتعصب له الى حد التغاضى عن القبيح ، وجرى بعضها الآخر على لسان قوم لم يعرف الناس عنهم شيئا أو عرفوا عنهم الكراهية له الى حد تشويه محاسنه . فمهمة الباحث اليوم من أشق ما يتصوره عقل . وكل ما يمكن أن يصل اليه باحث ، ظنون قد لا يطول به الأمد حتى تتكشف له عن نفسها كخدعة من خدع الغرور .

حكى أبو الفتح عثمان بن جنى قال : سمعت المتنبى يقول : إنما لقبت بالمتنبى لقولى :

أنا ترب الندى ورب القوافى وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود

وفى هذه القصيدة يقول :

مامقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وليس هذا الذى ذكره أبو الفتح إلا كالتمحلات التى يرتكبها بعض الناس باخراج الألفاظ عن أوضاعها ومعانيها ، ذلك بأن أبا الطيب نفسه كان يتألم إذا نبزوه بهذا اللقب ؛ فهو يعلم أن الناس لا يطلقون عليه ذلك تشبيها له بالانبياء ، وإن كانت هذه الصيغة قد تستعمل فى العربية لافادة معنى التشبيه .

وذكر أبو العلاء فى رسالة الغفران ما كان أعداء أبى الطيب يتحدثون به عنه ، فقال : « وحدثنى الثقة عنه حديثا معناه أنه لما حصل فى بنى عدى وحاول أن يخرج فيهم قالوا له

(١) تتمة البحث المنشور فى العدد السابق

وقد تبينوا دعواه : هاهنا ناقة صعبة فان قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل ، وأنه مضى الى تلك الناقة وهى رائحة فى الابل فتحيل حتى وثب على ظهرها ، فنفرت ساعة وتنكرت برهة ، ثم سكن نفارها ومشت مشى المسمحة ، وأنه ورد بها المحلة وهو راكب عليها ، فعجبوا له كل العجب ، وصار ذلك من دلائله عندهم . وحدثت أيضا أنه كان فى ديوان اللاذقية ، وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين فجرحته جرحا مفرطا ، وأن أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر ، وقال للمجروح : لا تحلها فى يومك ؛ وعد له أياما وليالى ؛ وأن ذلك الكاتب قبل منه فبرئ الجرح ؛ فصاروا يعتقدون فى أبى الطيب أعظم اعتقاد ، ويقولون : هو كمحيي الاموات . وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده فى اللاذقية ، أو فى غيرها من السواحل ، أنه أراد الانتقال من موضع الى موضع ، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما فى النباح ، ثم انصرف ، فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : إنك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فلما عاد الرجل ألفى الامر على ما ذكر . ولا يمتنع أن يكون أعد له شيئا من المطاعم مسموما وألقاه له وهو يخفى عن صاحبه ما فعل » اه

وقال أبو العلاء فى رسالة الغفران مرة أخرى : « وحدثت أنه كان إذا سئل عن حقيقة هذا اللقب قال : هو من النبوة بمعنى المرتفع عن الارض ؛ وكان قد طمع فى شيء قد طمع فيه من هو دونه ، وإنما هى مقادير ، يديرها فى العلو مدير ، يظفر بها من وفق ، ولا يراع بالمجتهد أن يخفق . وقد دلت أشياء فى ديوانه أنه كان متألها ، ومثل غيره من الناس متدلها ، فمن ذلك قوله :

... ... ولا قابلا إلا لخالقه حكما

وقوله : ما أقدر الله أن يخزى بريته ولا يصدق قوما فى الذى زعموا

« وإذا رجع الى الحقائق ، فنطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الجنان ؛ لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق ، ويحتمل أن يظهر الرجل تدينا ، وإنما يجعل ذلك تزينا ، يريد أن يصل به الى ثناء ، أو غرض من أغراض الخالبة أم الفناء » اه

وأبو العلاء فى هذه العبارات مضطرب كل الاضطراب ؛ فبينا هو يقص عليك معجزات أبى الطيب التى مخرق بها على بنى عدى ؛ إذا هو يذكر لك أنه إنما طمع فيما طمع فيه من هو دونه بعد همة وعلو نفس ، ولا يمكن أن يكون مقصوده بذلك النبوة ، ثم هو بعد ذلك يعود فيذكر لك أن أبا الطيب كان يعترف بالله تعالى ، ويرشدك الى دلائل هذه العقيدة من شعره ، ويعود الى التشكك فى دلالة هذه الاقوال على ما فى نفسه لان نطق اللسان لاينبئ عن اعتقاد الجنان ؛ وكأن أبا العلاء كان يعانى ما نعانيه اليوم من غموض حال المتنبي وشدة خفائها .

والذى نستطيع أن نعقله أن هذا اللقب قد نبزه به أعداؤه ، وليس له حقيقة برزت

فى الوجود ، وان أبا الطيب كان يقوم بدعوة سياسية : كان يطلب الملك ويمنى نفسه به ، ويعد له عدته التى ظن أنها تصل به اليه : من المران على الحرب ، وجمع المال ، والاستكثار من الاعوان ، وتدبير المؤامرات ؛ ولم يكن يجسر على الجهر بذلك فى عواصم الملك التى عاش فيها ؛ فكان يخرج الى البوادى يتحين الفرصة ويستجمع للوثوب وتحقيق ما فى نفسه من آمال ، وهذا سر من أسرار انتقاله من ملك الى ملك ، وقد ساعده على هذا الحلم اللذيذ ما كان يقع تحت نظره كل يوم من ثورات وفتن وانقلاب ، وقوة إيمانه بأنه أفضل من سعت به قدم ، وكان ربما قنع بأقل من الملك فرغب فى ولاية من الولايات يخلعها عليه كافور ، ولعل هذه القناعة لم تكن إلا لأنه فهم أن الولاية سبب يصل من طريقه الى الملك كالذى كان يراه فى جماعة من ملوك عصره ، ولعل كافورا لم تخف عليه سريرته فحرمه الولاية التى كان وعده إياها ، ولعله هو نفسه قد شعر بأن كافورا فطن لدخيلة نفسه ففر من مصر تحت جنح الليل ؛ أفلست تراه يقول لكافور أول وروده عليه :

وغير كثير أن يزورك راجل ... فيرجع ملكا للعراقين واليا

حتى إذا تأخر عنه جواب كافور ، وخشى أن يفوته المأمول ، أو أن يظن به عدم الكفاية للاضطلاع بأعباء الولاية ؛ عاوده بقوله :

فارم بى حيثما أردت فانى ... أسد القلب آدمى الرواء

وفؤادى من الملوك وإن كا ... ن لسانى يرى من الشعراء

ولم يزل يظهر لكافور تلهفه على إنجاز موعوده ، بالتعريض مرة وبالتصريح مرة أخرى حتى أدركه اليأس وعلم أن فى الامر شيئا ؛ انظر الى قوله :

إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية ... فجودك يكسونى وشغلك يسلب

ثم انظر الى قوله :

وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا ... ودون الذى أملت منك حجاب

وفى النفس حاجات وفيك فطانة ... سكوتى بيان عندها وخطاب

قال أبو منصور الثعالبى : « وما زال فى برد صباه الى أن أخلق برد شبابه وتضاعفت عقود عمره ؛ يدور حب الولاية والرياسة فى رأسه ، ويظهر ما يضمر من كامن وسواسه ، فى الخروج على السلطان ، والاستظهار بالشجعان ، والاستيلاء على بعض الاطراف ، ويستكثر من التصريح بذلك فى مثل قوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر ... فالآن أقحم حتى لات مقتحم

لأتركن وجوه الخيل ساهمة ... والحرب أقوم من ساق على قدم

وكقوله :

سأطلب حقى بالقنا ومشايخ ... كأنهم من طول ما التثموا مرد
ثقال إذا لاقوا خفاف إذا دعوا ... كثير إذا شدوا قليل إذا عدوا
وطعن كأن الطعن لا طعن بعده ... وضرب كأن النار من حره برد
إذا شئت حنت بى على كل سابح ... رجال كأن الموت فى فمها شهد

« وكان كثيرا ما يتجشم أسفارا بعيدة أبعد من آماله ، ويمشى فى مناكب الأرض ، ويطوى المناهل والمراحل ، ولا زاد إلا من ضرب الحراب على صفحة المحراب » اهـ

هذه فيما نعتقد حقيقة حاله ؛ فأما ادعاء النبوة فلا نستطيع أن نتقبله مهما زعم الناس أن العصر الذى عاش فيه ورغبته فى أن يكون أبعد أهل عصره أملا ، وكثرة الدعوات الدينية والسياسية كل أولئك تقرب الى العقل أنه ادعى النبوة ؛ نقول ذلك بعد علمنا تقدير الناس لمقام النبوة ورسوخ عقيدة الاسلام فى أذهانهم ، ومنها أن محمد صلى الله عليه وسلم ختام الانبياء ، حتى إن الدعوات الدينية التى ادعاها المدعون بعد ذلك لم تكن إلا فى نواحى الامامة ومايتصل بها ؛ ونحن نرى كل هذه الدعوات كانت تستند الى نصوص يزعم الراوون لها أنها صدرت عن رسول الله ، أو أفهام فى نصوص أخرى ثابتة ، ولو أن أبا الطيب كان قد ادعى النبوة لما وجد من الناس من ينتظر عليه حتى يتم دعواه ؛ ولعله لم يكن من الحكمة فى دعواه التى ارتضينا أمرها بحيث يخفى شأنه ، فكان لذلك لا يأمن جانب أحد ، وكان لا يدخل بلدا إلا لتقذف به الى بلد ، ثم كانت بعد ذلك نهايته المحتومة .

أبو الطيب والنحاة :

ليس يسوغ لى فى مستهل هذا البحث أن أغفل أن أبا الطيب كان قد أخذ من العربية بأوفر حظ ؛ فهو حافظ لغريبها حفظ الباحث المستقصى حتى ليسأله أبو على الفارسى : كم لنا من الجموع على وزن فعلى ؟ فيبادره بقوله : حجلى وظربى ، ويبحث أبو على ليلته فى كتب اللغة لعله يعثر لهما على ثالث فلا يجد ؛ ويقول أبوعلى فى شأنه : « ما رأيت رجلا فى معناه مثله » . وهذه الشهادة من أبى على الذى كان يناصبه العداوة ويتحامل عليه كافية للدلالة على قدره . وكان مع اطلاعه على مفردات اللغة وغريبها عالما بمواطن استعمالها متمكنا من قواعدها خبيرا بلغات القبائل ؛ وله شعر جزل لا نظير له فى شعر أحد من شعراء العربية ، وقد خلا كثير من شعره من كل مأخذ وتجانب كل انتقاد ، ولكن له مع ذلك شعرا قد جانب الطرق المشهورة فى العربية الى طرق لايقرها النحاة الذين جعلوا مهمتهم تتبع المعروف الجارى على الألسنة ، ورسموه قواعد أرادوا أن تكون هى لسان الناس عامة . وإن يكن أحد قد نال من أبى الطيب فى حياته وبعد موته منالا له وجه صحيح وقد بقى أثره والدليل عليه ، فأولئك هم النحاة ؛ ولسنا نعنى

بالنحاة علماء الاعراب فحسب ، وإنما نريد بهم كل من كان يتكلم فى فرع من فروع العربية ؛ فهؤلاء هم الذين جرحوا عزة المتنبي وطامنوا من كبريائه ؛ وهؤلاء هم الذين كان أبو الطيب يضيق بهم ذرعا وتتألم نفسه إذا وجه واحد منهم خطابه اليه . وكيف لا يضيق صدره وشعره هو وسيلته التى يكتسب بها رضا الناس وهم يعمدون الى هذه الوسيلة فيضعفون من شأنها ويحاولون أن يقللوا من قيمتها ؟ ولم يكن النحاة فيما نعتقد قد أكثروا من تعقبه والحملة عليه لوجه العلم ولا انتصارا للحق ، وإنما كان ذلك منهم سلاحا من أسلحة السياسة التى وجهت الى الرجل ؛ وليس يعنينا بحث ذلك الآن ، ولكننا نذكر أنه — مع عدم توفر حسن النية — قد أمكن للنحاة أن يجدوا فى شعر أبى الطيب ما يستمسكون به عليه ويتخذونه ذريعة للتشفى منه ولارضاء سادتهم ، وكانوا يجبهونه بذلك أحيانا ، وكانت تأخذه العزة فيسب ويقذع فى سبابه أحيانا ، شأن المغيظ المحنق الذى يداخله الشك فى أمرهم ، وكان ربما ضن عليهم بالاجابة فأحالهم على بعض أصدقائه من النحاة . حدثوا أن ابن خالويه وجه الى أبى الطيب نقدا فى حضرة سيف الدولة فقال له أبو الطيب : اسكت ويحك فانك أعجمى فمالك وللعربية ! وكان مع ابن خالويه مفتاح فضربه به فشج رأسه . وحدثوا أن سائلا سأله عن قوله فى مطلع قصيدة مدح بها أبا الفضل بن العميد :

باد هــواك صبرت أم لم تصبرا   وبكاك إن لم يجر دمعك أوجرى

فقال له : كيف قلت لم تصبرا ؟ فقال : لو كان أبو الفتح حاضرا لأجاب ؛ يريد أبا الفتح عثمان بن جنى وكان صديقا حميما له . وبعض المآخذ التى أخذها عليه النحاة تافه أو لا وجه له كالذى حدثوا أن ابن خالويه سمعه ينشد سيف الدولة :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه   بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

فقال له : يا أبا الطيب ، إنما يقال شجاه ، يتوهمه فعلا ماضيا ، فقال له أبو الطيب : اسكت فما وصل الامر اليك ، يعنى أنه أفعل تفضيل .

وبعض المآخذ التى أخذوها عليه صحيح لا شبهة فى أنه أخطأ فيه الجادة ، كالتعقيد اللفظى والمعنوى ، واستعمال الغريب الوحشى والعدول عن سنن القياس ، وقبح بعض المطالع وبعض المقاطع ، واستعمال اللغات المهجورة ، وأمثلة ذلك كله ميسورة قريبة التناول .

وفى كتب علماء البلاغة أمثلة وشواهد كثيرة من شعر المتنبي يعدون بعضها فى عيون الشعر ومحاسنه ، ويعدون بعضها الآخر فى رذيل الشعر ومستكرهه .

أما علماء الاعراب فقد جروا على قاعدتهم فى عدم الاحتجاج بشعر المولدين مع أبى الطيب ؛ ولكن كثيرا منهم يذكر أبياتا من شعره فى موطن من ثلاثة مواطن : موطن التمثيل لا الاستشهاد ، وموطن مخالفة القياس ، وموطن التطبيق وذلك فى المعقد من شعره . وقد

ذكر العلامة رضى الدين فى شرح الكافية بعض أبيات للمتنبى على أنها مخالفة للقياس ، وللعلامة المحقق جمال الدين بن هشام صاحب مغنى اللبيب ولا بى السعادات بن الشجرى فى أماليه شروح وتخريجات لأبيات كثيرة من معقد أبيات أبى الطيب ، وقد كان لا بى الفتح عثمان بن جنى صديق المتنبى اليد الطولى فى توجيه أنظارهما الى هذه الناحية بما بذله من جهد فى تخريج شعر المتنبى ، حتى كان أبو الطيب نفسه يقول له : « إنى لم أقل هذا الشعر لهؤلاء النحاة ، وإنما أقوله لك » .

أيها السادة : هذه كلمتى التى كتبتها على عجل ، وإنى لسعيد بأن أتشرف بالقائها بين يديكم ، وأشكر لجنة المهرجان التى أتاحت لى هذه الفرصة النادرة للتعرف اليكم . والسلام عليكم ورحمة الله .

محمد محيي الدين عبد الحميد
المدرس فى كلية اللغة العربية

أطروفة من كلام المأمون

اجتمع أمير المؤمنين المأمون يوما بثنوى يقول بوجود إلهين اثنين ، فقال له المأمون : أسالك عن حرفين لا أزيد عليهما : هل ندم مسىء قط على إساءته ؟

قال الثنوى : بلى .

قال المأمون : فالندم على الاساءة إساءة أم إحسان ؟

قال الثنوى : بل إحسان .

قال الخليفة : فالذى ندم هو الذى أساء أم هو غيره ؟

قال المعدد : بل هو الذى أساء .

قال أمير المؤمنين : فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر .

قال الرجل : فانى أقول الذى ندم غير الذى أساء .

قال المامون : فندم على شىء كان منه ، أم على شىء كان من غيره ؟

ثم قال له أيضا :

أخبرنى عن قولك بالهين اثنين : هل يستطيع أحدهما أن يخلق خلقا لا يستعين فيه بصاحبه ؟

قال الثنوى : نعم .

قال المأمون : فما تصنع باثنين ؟ واحد يخلق كل شىء خير لك وأصح !

المطالب العالية فى النفس الناطقة

وصلتها بالانسان

عرضنا فى البحث السابق كعجالة للمشهور من المذاهب فى النفس الناطقة لا فرق بين المتكلمين وبعض فرق الصوفية والفلاسفة الاقدمين منهم والمتاخرين ، ولم يتسع بنا المجال للكشف عما هو الباطل منها وما هو الحق لظروف مفاجئة . لكن يبقى بعد ذلك أن أصحاب هذه المذاهب افترقوا فى اتجاهاتهم الى مناح شتى لها أوثق اتصال بصميم كل مذهب والمدى الذى ينتهى اليه وما يستتبعه من آثار مترتبة أو نتائج لها مقدمات متصلة بقضايا علوم النفس وأقيستها ، فاغرق أصحاب هذه المذاهب فى بحوث متصلة بعلوم النفس بما لا يجد الباحث عنه غناء ، وما يفتح أعين رواد الحقائق العلمية على نظريات قيمة ذات أثر بين فى علوم الاخلاق وعلوم النفس وعلوم التربية .

من تلك النظريات أنهم قالوا : هل النفوس الناطقة مجردة أو مادية ؟ وهل هى عين المزاج أم غيره ؟ ومنها أنها هل هى قديمة أو حادثة ؟ وهل مع ذلك تبقى بعد خراب البدن أو يعرض لها الفناء فتفنى ؟ وهل هى متحدة بالحقيقة فى أفراد النوع الانسانى أو هى مختلفة الحقائق فيه ؟ ثم هى بعد ذلك هل تنتقل فى الابدان على معنى أن تتناوبها فى عروضها لبدن بعد آخر حين يحل الفناء بالبدن السابق ، أو أنها تفنى لأول بدن حلت فيه ؟ وهل هى المدركة للكليات والجزئيات أم هى مدركة للكليات فحسب ، وأن مدرك الجزئيات هى الحواس دون النفس الناطقة ؟ وهل هى متناهية أو غير متناهية ؟

فالقائلون بقدم النفوس الناطقة يذهبون إلى أن تعطلها وعدم تعلقها بالبدن مستحيل الوجود ، ويرتبون على نظريتهم أنها متنقلة من بدن الى بدن . وهذا هو عين القول بالتناسخ .

ثم إن المعتنقين لهذا الرأى بعد ذلك افترقوا على مناح شتى :

فذهب بعضهم الى أن النفوس دائمة التردد فى الابدان من غير تمحض الى عالم المجردات أبدا ، على معنى أنها متاثرة أبدا بما يحيط بها من البدن ، فكلما استدبرت بدنا عرض له الفناء ، استقبلت آخر يستوحى البقاء ، فهى منقطعة عن عالم المجردات بما هيئ لها من ذلك التناوب فى الابدان حتى أحالها مثقلة بالاجرام وعلائقها والطبيعة وغاشياتها .

ويرى البعض الآخر نقيض هذا الرأى ، فيذهب الى أن النفس الانسانية إما أن تكون كاملة فى ذاتها ، وإما أن تكون ناقصة ، فعلى الاول تكون كمالاتها المتلاحقة قد برزت من القوة الى الفعل فى آثارها المترتبة عليها وفيوضاتها التي تخلعها على الانسان ، فهى تبقى

مجردة بعد المفارقة . وإما أن تكون ناقصة فتتردد فى جسم أفراد النوع الانسانى بالتعاقب عليها، تنتقل من تدبير بدن إنسانى الى تدبير بدن إنسانى آخر بينهما اتصال ووجه شبه فى الاخلاق والملكات ، فلا تزال ترقى فى هذا النوع حتى تبلغ الغاية القصوى فى أخلاقها وملكاتها ، ويسمى أصحاب هذا الرأى ذلك الانتقال (نسخا) .

والعجيب من أصحاب هذا المذهب القائلين بقدم النفوس الناطقة أنهم يذهبون الى أن النفوس الناقصة الرديئة منها قد تنحط الى منزلة أقل من مستواها فتتعلق مثلا ببدن حيوان يكون أليق بها وأقرب اليها كبدن الاسد للشجاعة والارنب للجبن والحقد للجمل والضعف والخور للحمل والشراسة للنمر ، ودعموا نظريتهم تلك ببعض ما يشاهد فى الحيوانات من الاحوال الدالة على أن لها نفوسا مجردة كاتخاذ النحل رئيسا فى كوارة العسل ، وتلذذ الابل بسماع مايشوقها ويثير فيها شهوات متنوعة ، وتلذذ بعض الخيل بالايقاع وبالمشاهد التى تحرك فيها نوازع الوجد إلى أليف غريب ، وتحنانها الى صاحبها البعيد ، وباخلاقها العجيبة فى بعض أفراد الحيوان كالكبرياء فى فصيلة السبع وكلفه بالرياسة وتجنبه مغاضبة ماعداه من الحيوان ترفعا واستكبارا ، ويسمون هذا الانتقال (منحا) .

وقد تتنزل هذه النفوس التى لم تستكمل أجناس الفضائل الى عالم النبات ، ويسمى ذلك التنزل (رسخا) . وقد تتنزل الى الاجسام الجمادية ، ويسمى ذلك التنزل (فسخا) .

ومما يبعث على العجب العاجب من تفكير أصحاب هذا المذهب أنهم زعموا أن الأولى لقبول ذلك الفيض الهابط من النفوس الناقصة هو النبات لا غير ، ورتبوا على تلك النظرية نظرية أخرى هى أن كل نفس تفيض على النبات ثم ينتقل منها بعد ذلك الى ماهو أرقى ، وهكذا حتى ينتهى الى المرتبة المتاخمة لأولى مراتب الحيوان ، ثم يتردد بعد ذلك فى مراتب الحيوان مترقية منها الى الأعلى فالأعلى حتى تصل الى اخر مرتبة ، وهكذا تترقى رويدا رويدا حتى تصعد الى مرتبة الانسان متمحضة إليها ، ثم إنها تتردد بعد ذلك فى المراتب الانسانية مترقية من مرتبة من الاعلى فالاعلى حتى تبلغ أعلى المراتب ، وهنا قد تخلص من حكم الابدان بصيرورتها كاملة فى الانسانية ، وقد تتعلق ببعض الاجرام السماوية لكن لا على سبيل التصرف والتدبير لها كما هو ظاهر ، بل تعلق شوق وهيام ومشاهدة وحالات قدسية تهبط إليها من الملأ الأعلى فتفوز بالسعادة السرمدية . وفى الحق أن أصحاب هذه الآراء قد أخطاوا المحجة وتنكبوا الصراط السوى .

فما لا مرية فيه أن هذه المذاهب وتلك الآراء — حاشا مذهب المتكلمين وبعض فرق الصوفية — باطلة ألبتة .

فقد أورد المتكلمون على المذاهب القائلة بالتناسخ تعقيبات لامحيص لأصحاب هذه الآراء

من التزامها . وإذ يلتزمونها تقوم عليهم الحجة . فالمتكلمون يقولون فى معرض تدليلهم على فساد مذاهب التناسخ فى سائر مناحيها : لو أمكن التناسخ لكانت النفس المتعلقه الآن مثلا ببدن مسبوقة التعلق ببدن آخر ، ولو كانت كذلك لكان من مستلزماتها أن تتذكر الآن أنها كانت متعلقة قبل ذلك ببدن آخر ، لما تضافرت عليه الأوضاع من أن جوهر النفس الناطقة محل للعلم والحفظ والتذكر ، فهى صفات قائمة بذاتها لا تختلف بتعاقب أحوال البدن ، ضرورة أن النفس فى ذاتها وصفاتها مجردة عن البدن ، فينبغى أن تبقى علومها بعد المفارقة عن ذلك البدن حتى تذكر فى هذا البدن كيفية أحوالها وملابساتها والأعراض المتعاقبة عليها . وغنى عن البيان أنها لم تتذكر شيئا كان لها ثم انفصل عنها ، وهذا يدل على أنها لم تكن موجودة فى بدن آخر .

ونقل الخوجة الطوسى عن جمهرة من أهل التحقيق تعقيبا على القائلين بالتناسخ يتلخص فى أنه لو تعلقت النفس الناطقة بعد مفارقتها ببدن آخر لزم أن يكون عدد الهالكين مساويا لعدد الكائنين وإلا بقيت بعد المفارقة مجردة ، فيلزم عن ذلك التجرد تعطلها ، وقد تضافر علماء الطبيعة على منع المعطل فى الطبيعة مع أنه قد يهلك فى الطوفان الكلى أو الوباء العام على افتراض حدوثهما أبدان كثيرة لا تقع نظائرها إلا فى أزمان متطاولة وآماد متباعدة ، وهذا بطبيعته ينتقص من إحدى الكفتين أبدا نا لا يتيسر إلحاقها بابدان كائنة حية . لكن أوردوا على هذا التعقيب تعقيبات أخرى ، فقالوا : لا نسلم أن يكون عدد الهالكين مساويا لعدد الكائنين ضرورة أن التعلق ببدن آخر ليس مشروطا فيه أن يكون لازما من فوره ، فاما إذا كان جائزا أو لازما ولو بعد زمان فلا يمكن أن يقوم عدم التساوى بين الهالكين والكائنين برهانا على بطلان التناسخ لا مكان أن تنتقل نفوس الهالكين بعد حدوث الأبدان الكثيرة على التراخى . وأيضا فقد منعوا كون الفاسدات أكثر من الكائنات ، ووقوع الوباء العام أو الطوفان الكلى الذى يهلك فيه كل ذى نفس حتى تحقق معه زيادة الهالك عن الكائن ، غير معلوم الوقوع بالضرورة .

وأورد على القائلين بالتناسخ تعقيب آخر ينقض رأيهم من أساسه ويحيله مجرد خيال ليس له من الواقع منزع ولا من الحقيقة مرد ، فاستدل أصحاب هذا التعقيب على بطلان التناسخ بان النفوس حادثة وحدوث العوالم لاسيما الجواهر منها لابد أن ينتهى إلى علل قديمة ، ولابد أن يكون حدوث تلك العوالم عن تلك العلل فى وجودها موقوفا على حدوث استعدادات القوابل ، والقابل للنفس إنما هو البدن ، فيلزم عن ذلك أن يكون حدوث النفس عن عللها القديمة موقوفا على حدوث الأمزجة الصالحة لقبولها ، حتى إذا تكون فى البدن مزاج صالح لقبولها أفاضت عليه النفس المدبرة ، فاذا حدث البدن وفرض أن نفسا تعلقت به على سبيل التناسخ فلا بد أن تفيض عليه نفس أخرى ، كما يستتبع ذلك مذهبهم ، فيلزم بالتالى أن يكون لكل بدن نفسان وذلك بدهى البطلان لما ثبت من أن لكل نفس واحدة بدنا واحدا .

على أن للقائلين بالتناسخ شبهات استنفدت شطرا غير قليل من بحوثهم ودراساتهم ، وعنى كثير من علماء الكلام بدحض هذه الشبهات ، فمن حق الاستقصاء على كل باحث أن يعرض لجانب من تلك الشبهات حتى يكون القارىء على بينة منها . فقدا ستدلوا على التناسخ بوجوه عدة لاباس أن نورد جانبا يسيرا منها ، قالوا : من المسلم به ألامعطل فى الوجود ، فاذا لم تتعلق النفس بعد المفارقة ببدن آخر كانت معطلة البتة ، وأن الشان الأول للنفوس والمطمح الاعلى لها إنما هو الاستكمال من خصائص الوجود ومميزاته ، والاستكمال فى أقل مراتبه لا يكون إلا بتعلقها بالبدن .

ودعموا نظرياتهم بجملة آيات من الفرقان ساقوها فى معرض تعزيز ما ذهبوا اليه من الآراء ، قال تعالى : « وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » على معنى أنها كانت شعوبا وطوائف مثلكم فى الصور والمعايش والخلق وغيرها من الصناعات المختلفة التى يمارسها البشر فى سائر مناحيه ومختلف آفاقه ، غير أن تلك الامم وهذه الشعوب قد انخلعت نفوسهم عن الصورة الانسانية واستحالوا منها الى حالتهم الراهنة المائلة لعيونكم . كذلك فى قوله تعالى : « فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » أى بعد كونهم أناسى جرى عليهم الخطاب تغليظا لهم وتنويها بفادح عقوبتهم حتى استحالوا من أناسى مخاطبين الى قردة خاسئين . وفى قوله تعالى : « وجعلنا منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت » . فهذه الآيات تدل على التناسخ فى جملتها . ولعل القائلين به يعتزون بتلك الآيات فى معرض تدليلهم وسوق براهينه ، لكن قال العلامة الشيرازى فى شرح كتاب حكمة الاشراق : ليس فى هذه النصوص الكريمة على كثرتها مايصلح أن يكون مرجحا لرأى التناسخية ، ضرورة أنها رموز نبوية وأسرار إلهية قصد بها زجر الامم الخارجة عن محجة الصواب ، وإلقاء أفضل المثل على الامم الرشيدة التى أخذت بافضل أنماط التعاليم الالهية ، حتى قال الغزالى : إن المراد بالمسخ هو المسخ الخلقى لا المسخ التصويرى . من أجل ذلك قال سعد الدين فى بعض شروحه على المقاصد : مما لا مراء فيه أن المتنازع عليه هو أن النفوس بعد مفارقتها الابدان تتعلق فى الدنيا بابدان أخر للتدبير والتصرف والاكتساب فحسب ، وليس ذلك على معنى أن تتبدل صور الابدان كما فى المسخ ، أو بجمع ذراتها الاولى بعد التفرق ، فترد اليها النفوس كما فى المعاد ، على توهم بعضهم . وبدهى أن تبدل صور الابدان مستتبع لقبولها قطعا ، فان تمام كل شىء بصورته لا بمادته ، فاذا تبدلت الابدان فى هذا العالم بابدان أخر فلا محيص عن لزوم التناسخ ، لكن تبدل الابدان بابدان أخر مستحيل الوجود ، فكذلك التناسخ كما لا يخفى على من له مسكة فى هذه الصناعة .

واستيفاء البحث موعدنا به العدد القادم إن شاء الله .

عباس طه
المحامى الشرعي

العلم والدين (١)

يظن بعض من لا خبرة له بالعلم أو بالدين الاسلامى أو بكليهما ، أن هـذه العلوم المسماة بالعلوم الطبيعية ، والتى يصح تسميتها بعلوم الفطرة ، علوم مستحدثة ، وأنها غريبة عن الدين ، وأن من الجائز وجود تناقض بين حقائقها وحقائقه . لكن ظنهم هذا باطل ، لأن هذه العلوم الطبيعية هى فى الواقع علوم إسلامية ، لأنها فى الواقع علوم قرءانية ، قرءانية فى موضوعها ، قرءانية فى طريقتها ، بل قرءانية فى اسمها ، لأن مادة (علم) بهـذا المعنى الطبيعى المعروف واردة أيضا فى القرءان .

فأما ورود مادة (علم) فى القرءان الكريم بمعنى العلم الكونى الذى يسمى الآن بالعلم الطبيعى فذلك نراه فى القـرءان فى أكثر من آية . ففى سورة الانعام وردت آيات كثيرة موضوعها الحث على طلب هـذا العلم بآيات الله فى الكون ، نذكر منها قوله تعالى : « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » . كذلك وردت آيات عدة فى سورة الروم ، نذكر منها قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختـلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين » . كذلك فى سورة فاطر آيات كونية ، نذكر منها قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال جـدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور » .

وواضح من السياق أن المراد بالعلماء هنا هم العالمون بالآيات وأسرار الخلق التى أودعها الله سبحانه فيما أشارت اليه هذه الآيات الكريمة .

هـؤلاء العلماء إذا كانوا مؤمنين حماهم علمهم بأسرار الفطرة على خشية الله فاطر الفطرة ، لأنهم يكونون بعلمهم أبصر بعظمة الله سبحانه وجـلاله وقدرته المتجلية فى آيات صنعه . وهذا فى الواقع هو الحـكمة الكبرى التى من أجلها أمر الله الانسان فى كثير من آيات القرءان بالنظر فيما خلق الله فى السموات والارض من خلق . وهناك طبعا الى هذه الحكمة الكبرى حكم أخرى هى مايتبع طلب هذه العلوم الكونية من منافع مادية دنيوية آتية من استخدام حقائق العلم فى شئون الانسان ، كالانتفاع مثلا بخواص الكهرباء والبخار والحديد فى هذه القطارات والسفن البخارية ، وهذه المركبات والمصابيح الكهربائية . والحكم كلها مرادة

(١) هذا هو الباب الاول من كتاب جليل الفائدة وضعه حديثا الاستاذ المحترم محمد احمد الغمراوى المدرس بكليتى الطب وأصول الدين تحت عنوان (فى سنن الله الكونية) ننشره إدلالا على فضـله ، وهو من أحسن ما يكتب تحت عنوان العلم والدين .

لله سبحانه حين أمر الانسان بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، إلا أن الحكمة الاولى حكمة خشية الله المشار إليها فى « إنما يخشى الله من عباده العلماء » هى الحكمة الكبرى ، إذ عبادة الله وخشيته هى الغاية الأولى والآخرة من وجود الانسان .

العلم قرءانى بموضوعه :

وأما قرءانية موضوع هذه العلوم الطبيعية فذلك واضح من الآيات السابق ذكرها ، ومما لا يتيسر الآن ذكره من نحو خمس آيات القرءان وإن تيسر ذكر بعضه ، مثل قوله تعالى من سورة النحل : « وإن لكم فى الأنعام لعبرة ، نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئا ، إن الله عليم قدير » . ومثل قوله تعالى من سورة الجاثية : « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

فموضوع هذه الآيات الكريمة ، ما ذكر منها وما لم يذكر ، هو نفس موضوع العلم الطبيعى بأوسع معانيه ، ما عرف الانسان منه وما سيعرفه .

فالعلم الطبيعى ، كما قلنا ، يبحث عن الاشياء الكونية : طبائعها وخواصها ، والعلاقات بينها ، ثم عن حقيقتها إن أمكن ، أى عن آيات الله المودعة فى هذه الأشياء . ففى آية فاطر مثلا لا يعرف سر نزول الماء من السماء إلا بعلم الطبيعة ، ولا يعرف تركيبه وخواصه إلا بعلم الكيمياء ، ولا يعرف الانبات والأثمار وأثر الماء فيهما إلا بعلم النبات ، ولا يعرف ما الجبال ولا ما طرائقها البيض والحمر والسود إلا بعلم طبقات الأرض ، ولا يعرف اختلاف أجناس الناس والدواب والانعام إلا بعلمى أصل الشعوب والحيوان الخ . وعلى هذه الآية فقس غيرها . فهذه العلوم الطبيعية ليست قرءانية الموضوع فقط ، بل هى لا بد منها لتفسير الآيات الكونية فى القرءان .

العلم قرءانى بطريقته :

أما أن طريقة العلم فى طلب أسرار الفطرة هى نفس الطريقة التى أمر بها القرءان فيتبين مما يأتى :

أولا : أن العلم لا يقـول عن شيء إنه حق إلا إذا قام عليـه البرهان اليقيني القـاطع ، والقرءان الـكريم يأمر كذلك بأن لا يقبل الانسان شيئا على أنه حق إلا إذا قام عليه البرهان . يتبين ذلك من مثل قوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، تلك أمانيهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » وقوله تعالى : « سيقول الذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » . والعلم هنا هو الحق اليقيني القائم الثابت بالحجة القاطعة ، بدليل عيبه عليهم إنزالهم الظن والتخمين منزلة الحجة واليقين في قوله تعالى : « إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » .

ثانيا : أن العلم يحاذر كل المحاذرة أن يجعل يقينيا ما ليس بيقيني ، وأن ينزل الظن منزلة اليقين ، أو أن ينزل الفرض والتخمين منزلة الظن والترجيح . فهو يقيس مقدار اقتراب القضية من الحق بمقدار متانة الحجة التي تشهد للقضية ، فاذا كانت الحجة قاطعة فالقضية حق ، وإذا كانت غير قاطعة فالقضية ظن ، ويسميها العلم في هذه الحالة نظرية إذا كانت أرجحيتها كبيرة ، إذ من الواضح أن هناك في الرجحان مراتب بعضها أرقى من بعض . أما إذا تساوى ما يشهد للقضية وما يشهد عليها ، فتلك هي القضية المجهولة التي وقعت موقعا وسطا بين الحق والباطل لا يدرى الى أيهما هي أقرب . وأمثال هـذه القضية وما قبلها من القضايا الواقعة في منطقة الرجحان ، قل حظها من الرجحان أو كثر ، هي موضع النظر العلمي والبحث ، لا يزال العلم يبحث عنها ويمحصها حتى ينتهي فيها الى حـكم قاطع فيلحقها إما بالحق اليقيني وإما بالباطل اليقيني . وهذا التفريق من العلم في المنزلة بين ما هو حق وما هو راجح وما هو دون الراجح يتفق تماما مع روح القرءان الـكريم في النظر ، ومع طريقته المتجلية في القرءان الـكريم كله ، خصوصا تلك الآيات منـه التي من قبيل ما ذكر تحت : (أولا) مثل قوله تعالى من سورة النجم : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألـكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذاً قسمة ضيزى ، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى » . ومثل قوله تعالى من سورة الجاثية « وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلـكنا إلا الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » وقوله تعالى من سورة يونس : « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لا يغني من الحق شيئا ، إن الله عليم بما يفعلون » .

ثالثا ، وهو ملتحق بالأصلين السابقين : أن العلم يمنع التقليد في النظر من غير وقوف على الدليل واقتناع به ، والعلم الحديث يخالف العلم قديما في هـذا ، لأن العلماء قديما ، خصوصا في القرون الوسطى ، كانوا كثيرا ما يقنعون في الاستدلال على الصحة أو البطلان باثبات أن

القضية توافق أو تخالف رأى فلان أوعلان من المشاهير ، فكان ما يثبت عن أرسطو مثلا يتخذ حجة قاطعة فى موضوعه من غير أن ينظر فى رأى أرسطو هذا فى ذاته ، ومن غير أن يسأل مادليل أرسطو . وكان هذا منبع شر كبير ، ولعله كان سبب كثير من الشبه الكلامية التى قامت بين علماء المسلمين ، بعد أن ترجمت كتب اليونان فى العصر العباسى ، فيما يتعلق بالعلاقة بين الشريعة وما كانوا يسمونه الحكمة ، يريدون بالحكمة غالبا ما أخذوه عن حكماء اليونان مثل أفلاطون وأرسطو وأضرابهما ، حتى جاء أمثال الغزالى من المسلمين فوضعوا الأمر فى نصابه .

والعلم فى منعه التقليد الاعمى يتفق تمام الاتفاق مع القرآن الكريم الذى شدد النكير على أناس كانوا يستمسكون بالرأى ، لا لأنهم عقلوه ، ولكن لأن آباءهم فعلوه . ترى ذلك من مثل قوله تعالى من سورة البقرة : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » وقوله تعالى من سورة المائدة « وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » أو قوله تعالى من سورة الزخرف « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ، فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » ، فالتقليد الاعمى ، أى الاخذ بالرأى من غير دليل او رغم الدليل متابعة لزيد أو لبكر من الناس ، محرم على أهل النظر فى حكم العلم وفى حكم القرآن .

والأصل الجامع لذلك كله فى العلم وفى الدين هو تحكيم العقل فى كل ما يعرض للانسان من أمر . والمراد بالعقل ليس هو العقل الخاص عقل الفرد ، ولكن العقل العام أو العقل المطلق الذى ضبطت قوانين تفكيره عن طريق الاستقراء وأودعت ما يسمى بعلم المنطق . هذا العقل هو الحكم فى العلم ، وهو الحكم فى الدين . فالقرءان دائما يحاكم الى العقل وينعى على من لا يستعمله . بل إن العقل قد أكبره الاسلام إكبارا دونه أى إكبار ، حتى لقد أوجب الشرع تأويل النص الى ما يطابق العقل إذا كان ظاهر النص يناقض ما ثبت قطعيا بالعقل . وكلمة « قطعيا » هنا مهمة ، فلا يجوز تأويل النص من أجل ما هو راجح عند العقل ، لان العقل نفسه يجيز بطلان ذلك الراجح ، فلا حكمة هناك إذاً فى تأويل النص الشرعى من أجل ما قد يثبت المستقبل أنه من الباطل . والامثلة التى ضربت فى الشرع لوجوب التأويل كلها من باب قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » فان نسبة الجارحة الى الله تعالى محال ، فوجب تاويل الآية عن ظاهرها الى معنى من المعانى المجازية اللائقة به تعالى ، فأولوا اليد الى القدرة . لكن من الممكن

أن يقال إن هذا النوع من التأويل غير لازم عند النظر فى الآيات الكونية القرءانية . بل كثيرا ما يكون المعنى الحرفى للآية الكريمة هو المنطبق على ما ثبت عند العلم بالبرهان .

رابعا : أن العلم فى تطبيقه قوانين التفكير المجموعة فى علم المنطق القياسى يتخذ أصلين اثنين يبنى عليهما :

الاول : أنه لا تناقض مطلقا بين الحقائق ، فليس من الممكن أن ينقض حق حقا ، وما ينقض حقا إذاً فهو باطل . وهذا يصح أن يسمى بأصل توافق الحقائق .

الثانى : أصل اطراد الفطرة . فما ثبت أنه حق فى وقت ما سيكون دائما حقا ، أو بعبارة أخرى أن الحق مستقل عن الزمان والمكان .

وليس عند العلم برهان على هذين الأصلين إلا تجاربه الماضية ، فانه لم يشاهد مطلقا أن قضية حقيقية نقضت أخرى حقيقية ، أى لم يشاهد مطلقاتنا قضا بين حقائق العلم ، سواء اكتشفت تلك الحقائق فى الماضى أم فى الحاضر ، فى الأرض أم فى كوكب من الكواكب ، بل كثير من حقائق العلم إنما استنتج بناء على هذين الأصلين : أصل اتساق الحقائق أو امتناع التناقض بينها ، وأصل اطراد الفطرة ، وكانت التجربة دائما تؤيد الاستنتاج . بل من الواضح أن العلم يصبح مستحيل الوجود ومستحيل النمو لو انهار أحد هذين الاصلين أو كلاهما . وهذا سبب آخر يجعل العلم يستمسك بهذين الاصلين محافظة على وجود نفسه ، وإن عجز العلم عن إقامة الدليل على صحتهما فيما يتعلق بالمستقبل .

هذان الاصلان اللذان يستمسك العلم بهما هذا الاستمساك هما أصلان قرءانيان أكدهما منزل القرءان سبحانه كل التأكيد ، وهو سبحانه أعلم بما خلق . فأصل اطراد الفطرة ثابت قرءانيا من مثل آية الاحزاب : « سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » او آية فاطر : « فهل ينظرون إلا سنة الاولين ؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » وآية الروم : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله». فهذه آيات صريحة فى اطراد الفطرة وبقاء سنن الله فيها على الزمان كله من غير تحويل ولا تبديل . والفطرة وسننها هنا تشمل كل ما وجد فى ملكوت الله ، سواء فى ذلك ما تعلق بغير الانسان من جماد ونبات وحيوان ، أو ما تعلق بالانسان من ناحية النفس والروح فى الفرد والجماعة مما لم يرتق العلم اليه الى الآن .

أما أصل توافق الحقائق أو استحالة تناقضها فثابت قرءانيا من الآيات السابقة ، لأن تناقض الحقائق يستلزم تناقض الفطرة ، ويزداد ثبوتا بقوله تعالى من سورة تبارك : «ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » ، فان التناقض هو أكبر التفاوت ، فاذا ما انتفى التفاوت فى خلق الله لزم أن ينتفى التناقض فى خلق الله أيضا .

خامسا : أصل المشاهدة .

عرفنا أن العلم فى بحثه عن الحقيقة يسلك سبيل العقل ، فلا يعتبر حقا إلا ما قام البرهان على أنه حق . فالعلم دائب البحث إذاً عن البراهين التى تثبت حقائق الأشياء . هذه البراهين عرفنا من أنواعها النوع القياسى ، أى الذى يتوصل اليه بالقياس الصحيح . لكن القياس الصحيح إنما يؤدى الى نتيجة صحيحة إذا صحت المقدمتان كلتاهما . أما إذا كانت إحداهما باطلة أو مشكوكا فيها فان النتيجة يصيبها من البطلان أو الشك مثل ذلك ، وإن صحت طريقة الاستنتاج . وبعبارة أخرى يلزم لصحة النتائج شرطان : صحة المقدمات كلها ، وصحة طريقة الاستنتاج التى هى نفس القياس . أما صحة طريقة الاستنتاج فقد تكفل بها المنطق القياسى ، لكن المقدمات ما شأنها وما طريق التثبت من صحتها ؟

كثير من المقدمات ناتج عن طريق القياس من مقدمات أولية بدهية الصحة لا يختلف فى صحتها العقلاء ويصلون اليها مستقلا بعضهم عن بعض . وعلم الهندسة النظرية على تعقد نظرياته مستفتح كله من أمثال هذه البديهيات . لكن ليس كل المقدمات يمكن رده الى بدهيات كهذه عند إثبات صحته . ولا بد إذاً فى إثبات صحة هذا النوع الثانى من طريق آخر غير طريق الاستنتاج من البدهيات . هذا الطريق الآخر هو طريق المشاهدة الصحيحة . وهو الطريق الذى سلكه الى حد ما العلم قديما ، ويسلكه دائما العلم حديثا حتى صار طابعه الذى طبع به وميزته التى امتاز بها .

هذه المشاهدة العلمية تستعمل فيها الحواس خصوصا السمع والبصر ، لكن بشرط تربيتها وتدريبها من ناحية ، وإعانتها على دقة الملاحظة بالآلات الدقيقة من ناحية أخرى . هذه الآلات هى فى الواقع وسائل هدى الله إليها الانسان ليزيد فى مدى حسه ، فيزيد فى مدى إبصاره مثلا بالمجاهر أو (المكرسكوبات) التى يستطيع الانسان بها أن يرى من الأجسام ما صغر حتى دق عن أن تبصره العين المجردة ، كالجراثيم وكرات الدم وخلايا الأجسام الحية ، أو يزيد فى مدى إبصاره بالمراقب (التلسكوبات) التى تقرب للانسان الأجسام البعيدة فيرى منها مالم يكن يراه من قبل . فأما المجاهر فتستعمل كثيرا فى المعامل ، وأما المراقب فتستعمل غالبا فى المراصد .

هذا الأصل أصل المشاهدة الصحيحة هو إذن الطريق الثانى الذى يسلكه العلم الطبيعى للوصول الى مقدمات صحيحة ، ولولاه ما اتسعت العلوم الطبيعية هذا الاتساع ولا نمت هذا النمو ولا كشفت ما كشفت من أسرار الخلق . فالمشاهدة أصل علمى عظيم ، وهى أيضا أصل قرءانى عظيم ، فان الآيات التى تأمر بالمشاهدة واستعمال السمع والبصر والعقل كثيرة فى القرءان ، نذكر منها ما يأتى :

(١) استعمال البصر مع العقل :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » العنكبوت . « أو لم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن » تبارك . « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ؟ » الآيات — الغاشية .

(٢) استعمال السمع مع العقل :

« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ؟ » الحج .

(٣) استعمال السمع والبصر مع العقل :

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لايبصرون بها ، ولهم آذان لايسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » الاعراف .

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » النحل .

« ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » الاسراء .

(٤) استعمال جميع وسائل المشاهدة مع العقل :

« أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء » الاعراف .

فهذه الآيات القرءانية الكريمة تحض الانسان على استعمال العقل والسمع والبصر وما إليها من طرق المشاهدة الصحيحة بجميع أساليب الحض ، ثم هى مع ذلك تؤدبه من حيث استعمال هذه المواهب على وجهها الصحيح . فآية « ولا تقف ما ليس لك به علم » الآية : تنهاه من ناحية أن يجرى مع الوهم أو الظن ، وتدله من ناحية أخرى على طريق الوصول الى ما ليس بوهم ولا ظن ، أى إلى اليقين والحق عن طريق إحسان استعمال السمع والبصر والعقل . « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » وفى قوله سبحانه « كل أولئك كان عنه مسئولا » ليس فقط أمر شديد باحسان استعمال البصر والسمع والعقل وعدم إهمالها ، بل فيه أيضا أمر بالاستمساك بما يهتدى إليه الانسان من الحق عن طريقها . ففى هذه الآية وحدها ثلاثة أصول هى جماع أصول النظر العلمى :

الأول : ألايتبع الانسان إلا الحق المعلوم يقينا « ولا تقف ما ليس لك به علم » .

الثانى : أن طريق الوصول الى هذا الحق هو المشاهدة الصحيحة والتفكير الصحيح
الثالث : أن على الانسان أن يستمسك بما يصل إليه من الحق عن طريق هذه المشاهدة والتفكير الصحيحين

« إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »

على أن علم الانسان كله مصدره العقل والمشاهدة الصحيحة . بل إن العقل لا يقوى ولا ينمو إلا عن طريق التجارب والمشاهدات . فلو أخذ طفل وحبس عن العالم إلا فيما يكفى لحياته من طعام وشراب ، فانه وإن نما جسمه حتى يبلغ جسم الرجال لا ينمو عقله عن عقل الطفولة . بهذا يقول علماء التربية ، والى هذا تشير الآية الكريمة « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » ، فان هذه الآية تكاد تكون صريحة فى أن ما يحصله الانسان من علم بعد أن يولد إنما يكسبه عن طريق السمع والبصر والعقل .

مقارنة بين العلم القديم والعلم الحديث :

وأصل المشاهدة الصحيحة هذا هو من أهم الفروق بين العلم الحديث والعلم القديم ، فان القدماء كانوا فى جملتهم يعتقدون أن من الممكن أن يصل الانسان الى ما يشاء من علم عن طريق العقل وحده ، أى لم يكونوا يقولون بضرورة المشاهدة لحصول العلم ، بل منهم من كان يرى أن المشاهدة تضل العقل لان الحواس غير مأمونة فى أنبائها ، ترى الشىء صغيرا كالنجم مثلا وهو كبير . لذلك كانوا كثيرا ما يكتفون فى طلب العلم وأسرار الفطرة بالجلوس والتفكير ، فكانوا يصلون الى قضايا كلية يزعمون أنها حقائق ، ولما يقم عليها دليل ، إنما كان دليلهم فروضا يفترضونها يرونها حقا ويركنون اليها فى الاثبات ، ففيثا غورث مثلا يقول عن الكون : إنه متفرد كامل كروى لأن الكرة أكمل الاشكال ، وإنه حى عاقل لان ما هو حى وعاقل خير مما ليس بحى ولا عاقل . فمثل هذا النوع من الاستنتاج الخيالى غير المرتكز على حقائق يقينية ينكره العلم الحديث كما ينكره القرءان .

ومن هنا وقع قدماء الفلاسفة من اليونان فى أغلاط كثيرة من حيث لا يشعرون ، كقولهم : إن للاجرام السماوية فى أفلاكها نغمات يطرب لها من يسمعها ، وإن لهذه الاجرام أثرا كبيرا فيما يصيب الانسان من نحس أو سعود . وقد سقط كثير من المسلمين فى نفس هذه الاغلاط حين أخذوا علم اليونان كله على أنه حق من غير أن يطيعوا الله فيه فيمحصوه ، ومن غير أن يردوه الى القرءان . بل بلغ بهم الامر أنهم كانوا يردون القرءان اليه ، كقول إخوان الصفا : إن إدريس عليه السلام هو هرمس المثلث بالحكمة ، صفت نفسه فصعدت الى السماء

وطافت مع بعض أجرامها ثلاثين عاما ، وشاهدت من العجائب ما لا يشاهده إلا من يطوف ذلك الطواف ، وأن الى هذا فى زعمهم يشير القرءان الكريم فى قوله تعالى : « ورفعناه مكانا عليا » . وهذا نوع من فهم القرءان لا يجيزه القرءان كما رأيت ولا العقل . ولعلنا لو بحثنا فى تاريخ الفلسفة الاسلامية ، وما كان بين علماء المسلمين من خلافات كلامية ، لوجدنا أكثر هذه الخلافات إن لم يكن كلها راجعا الى قضايا فلسفية أخذها المسلمون عن اليونان من غير تمحيص .

كان قدماء الفلاسفه إذن يرون العقل مصدرا للحقائق مستغنيا بذاته عن المشاهدة ، أما محدثوهم فيرونه وسيلة . أما الحقائق نفسها عند العلم الحديث فهى خارج النفس ، خارج العقل . كان القدماء لا يرون امتحان الأشياء نفسها ضروريا لطاب الحقيقة ، أما المحدثون فلا يرون سبيلا للوصول الى الحقيقة إلا امتحان الأشياء تحت إشراف العقل . والعلم الحديث باختراعاته واكتشافاته قد ولد حين ترك الانسان مذهب الأقدمين فى طلب العلم عن طريق التفكير البحت ، وبدأ هو بطلب العلم عن طريق المشاهدة مع التفكير . لذلك كان الدور الأول من أدوار نشوء العلم الحديث هو دور مشاهدة تكاد تكون بحتة ، ليس للتفكير فيها إلا بقدر ما يضمن صحتها .

ما قيل فى الشيب

قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : عجل عليك الشيب يا رسول الله . قال شيبتنى هود وأخواتها (يريد سورة هود وأخواتها لما فيهن من الاوامر والنواهى)

وقيل لعبد الملك بن مروان : قد عجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين .

قال : شيبنى ارتقاء المنابر ، وتوقع اللحن .

وقيل لرجل من الشعراء : عجل عليك الشيب .

فقال : وكيف لا يعجل وأنا أعصر قلبى فى عمل لا يرجى ثوابه ، ولا يؤمن عقابه .

وقال حبيب الطائى :

غدا الشيب مختطا بفودى خطة ... طريق الردى منها الى النفس ضيع
هو الزور يخفى والمعاشر يحتوى ... وذو الالف يبلى والحبيب يرقع
له منظر فى العين أبيض ناصع ... ولكنه فى القلب أسود أسفع

وقال محمود الوراق :

بكيت لعزب الأجل ... وبعد فوات الامل
ووافد شيب طرا ... بعقب شباب رحل
شباب كان لم يكن ... وشيب كان لم يزل

تاريخ الادب العربى فى العصر الاموى (١)

فى الشام والعراق

لم تصادف فنون الأدب الاجواء الهادئة فى الممتلكات العربية من الشام الى العراق مثل التى صادفتها فى بلاد العرب الأصلية إبان حكم الأمويين ، ولم تشذ الحال فى ذلك عن تطورات الحياة بالمستعمرات فى جميع أطوار التاريخ ، فان التقدم السريع المصحوب بعواصف الحماس والمنازعات كان دائما أبدا من مظاهر الحياة ومميزاتها فى الاصقاع التى اكتسبت بطريق الغزوات ، بعكس التطور الهادئ والتقدم المعتدل على الوتيرة القديمة فى الأوطان الأصلية ، خصوصا أن العرب كانوا قد ضموا بفتحهم تلك البلاد الى حضارتهم حضارتين قديمتين ، فكانت الحياة المتوطنة والسكنى الدائمة فى بلدين مثل العراق ودمشق بما فيهما من تغاير فى أسباب المعيشة وأساليبها عن حياة البدو المترحلة ، مدعاة للعواصف السياسية الشديدة التى لم يقو على كبح جماحها أحد قبل عبد الملك والحاكم الحديدى الحجاج بن يوسف ، ولم تمر هذه العواصف دون أن تترك أثرا ظاهراً فى تطور فنون الشعر ، وتطبعها بطابعها الخاص فى هاتين البلدين .

وأول من استحق مركزا ممتازا بين الشعراء فى هذا العصر هو الأخطل غياث بن غوث شاعر ملوك بنى أمية ، وهو من قبيلة تغلب التى هاجرت قبل الاسلام واستوطنت العراق ، وكان الأخطل مسيحيا مثل عشيرته التى ينتمى اليها ، وبقى أبدا مخلصا لدين آبائه ، ولم يحقد عليه ولى نعمته عبد الملك بسبب عقيدته وهو شاعره المصطفى ، بل على عكس ذلك بالمرة فانه كان يستعمله فى أغراضه كلما أراد الرد على متطرفى السنية من أهل المدينة .

بدأ الأخطل حياته الشعرية فى عهد معاوية الاموى يهجوه الشاعر المدنى عبد الرحمن بن الحكم ، الذى نفرت منه البيوتات المكية القديمة بسبب أشعاره الغزلية المدعاة فى بناتهم ، الى أن تجاسر أخيرا بمهاجمة إحدى أميرات بنى أمية بشعره ، فلما صده الاخطل وقضى عليه اكتسب ثناء يزيد وعطفه ، وكان إذ ذاك وليا للعهد ، فلما صار اليه الحكم عام ٦٠ ﻫ أخذه فى بطانته وبقى بالبلاط كذلك فى عهد خلفائه وخاصة عبد الملك .

وكما كان حسان بن ثابت بشعره فى خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولتحقيق أغراضه ،

---

(١) تكملة المقال المنشور فى الجزء العاشر من المجلد السابع (١٣٥٥ﻫ) مترجما عن الالمانية نقلا عن كتاب « تاريخ الادب العربى » للمستشرق الالمانى الكبير الاستاذ الدكتور « بروكلمان » .

كانت أشعار الاخطل دائما فى خدمة أغراض سيده وولى نعمته لتهيئة الرأى العام ، وقيمته السياسية هذه تفسر لنا مركزه الممتاز .

وكانت الروح البدوية تغلب على الاخطل بين آونة وأخرى ، فكان يقيم حينا بين عشيرته فى البادية ، وتزوج هناك عدة مرات ، ولم تكن ديانته المسيحية بعائقة له عن الطلاق ، واشترك مع قبيلته فى منافراتها بالقول والفعل ، وكثيرا ما حاق به الاذى بسبب ذلك .

واشترك كذلك زمنا طويلا فى المنافرة الشهيرة التى قامت بين شاعرى العراق الكبيرين جرير والفرزدق ، وحكم فى صالح الاخير ، ومات معمرا عام ٩٢ ﻫ .

وأجمع نقاد العرب على وضعه فى مرتبة هذين الشاعرين دون أن يتفقوا على أى الثلاثة أفضل ، وكان علماء العرب اللغويون يرفعون منزلته ويعلون من قيمته بسبب انقياده الاعمى وتقليده للاسلوب القديم ، مما يجعلنا أقرب للحكم على ضعف شعره ، ولو أننا لا نغمطه حقه فى السيطرة التامة على اللغة والصناعة الشعرية ، ونعترف بتفوقه فى هذا الفن خصوصا فى السخرية اللاذعة .

وتمتع بمثل شهرة الاخطل جرير بن عطية بن الخطفى شاعر الحجاج بن يوسف حاكم العراق، ولد جرير فى أسرة كليب من قبيلة تميم فى خلافة على بن أبى طالب ، واكتسب عطف يزيد بن معاوية ، وانضم بعد ذلك الى بطانة الحجاج ، وأكثر من مديحه بقصائد عديدة ، واشتهر بمنافراته الشعرية التى أنزلت من قدر الفن الشعرى القديم فى الهجاء ، ولقد اشتبك مع جميع الشعراء من معاصريه ولم يتغلب عليه أحد .

لم يجد جرير من هو فى منزلته من الشعراء سوى الفرزدق، فدارت بينهما المنافرات العنيفة حتى وفاته ، وكانت محور حديث جميع طبقات الشعب ، وقام الجدل طويلا فى الافضل منهما بين معاصريهما ، بل دام الى أبعد من ذلك ، فشغل كثيرا من علماء اللغة المتاخرين .

وبالرغم من النجاح الباهر الذى أحرزه جرير ، فانه لم يكتسب عطف ملوك بنى أمية ورضاهم ، فلم يستقبله عبد الملك فى بلاطه إلا بعد إلحاح طويل من محمد بن الحجاج وكان قد قدم بصحبته ، ولما صادفه الوليد بن عبد الملك بالمدينة أمر بحبسه مع أحد الشعراء لتشهيرهما بسيدات من بطانة الملك ، ولم يعف عنه سوى عمر بن عبد العزيز الذى كان دائما يحيد عن جميع خلفاء بنى أمية فى تصرفاته فى كل الامور ، فوجد منه عطفا كبيرا ، وتوفى جرير عام ١١٠ ﻫ بضيعته باليمامة فى بلاد العرب الوسطى .

وأما الفرزدق همام بن غالب ، ويعتبر ثالث الشعراء العظام فى هذا العصر ، فترجع شهرته الى منافراته مع جرير التى أثبت فيها الفرزدق موهبته الممتازة فى الهجو ، وهو من عشيرة دارم من قبيلة تميم ، وولد عام ٢٠ ﻫ من أسرة بدوية عريقة كانت استوطنت البصرة من قبل ،

وكان يجمع كل الخصال الذميمة التى امتاز بها العرب الذين استوطنوا العراق : من شهوات قوية وشغف بالمتاع الدنيوى ، وعدم تقيد بالقواعد الخلقية أو الروابط القانونية ، حتى كبحت جماحها الحكومة الحازمة ، ولم يحد الفرزدق عن مواطنيه فى الصفات الخلقية إلا بتمسكه الحميد بالاخلاص لآل على بن أبى طالب وتبجيلهم حتى فى أحرج المواقف وأشد الازمات ، فلما كان شيخا فى السبعين من عمره تقابل مع هشام بن عبد الملك بمكة وأنشده قصيدته المشهورة فى مدح حفيد على رضى الله عنه ، وهو يعلم علم اليقين أن أقل جزاء على ذلك هو السجن .

وكانت أول أعماله الشعرية هجاء بنى نهشل ، وهم سلالة أسرة عالية فى الحسب بالبصرة ، وكان لهم مركز ممتاز إبان حكم زياد بن أبى سفيان والى العراق ، فخشى بأسه ونقمته عليه فهرب الى المدينة حيث انغمس فى المغامرات الدنيوية التى كانت فاشية بالمدينة موطن شعراء الغزل ، وأخذ قسطا وافرا من هذا الفن دون أن يترك الهجاء ، مما أثار عليه حقد مروان بن الحكم الذى أمر بنفيه بعد أن صارت اليه حكومة المدينة ، وبلغه خبر وفاة زياد وهو فى طريقه الى مكة فعاد حراً طليقا الى موطنه بالعراق .

وكانت النساء تلعب دورا هاما فى حياته ، فأكثر من شعر الغزل والتشهير بهن ، خصوصا ما أنشده فى علاقته بنوار إحدى قريباته التى أرغمها على الزواج منه فيما بعد ، وكانت حياتها معه ملأى بالمتاعب ، التى استغلها منافسه جرير فى حملته عليه ، ويرجح أنه توفى عام ١١٠ هـ

كان الهجاء أبرز أشعار الفرزدق ، فانه بالرغم من مغامراته العديدة كانت قصائده الغزلية لا تحتل إلا مراكز ثانويا بين أشعاره ، بينما بذه جرير فى هذه الناحية من الشعر مع أنه لم يعرف عن علاقاته النسائية شىء ، وامتاز الفرزدق بسيطرته المطلقة على اللغة ومترادفاتها الكثيرة ، ولكنه كان قليل التحرج فى الناحية الأدبية ، فلم يكتف بتقليد الشعراء القدماء بل لم يخش سرقة معاصريه بكل جرأة .

والى جانب هؤلاء الشعراء الذين ظهروا فى الحياة السياسية العاصفة وبرزوا فى فنون الهجو الشخصى ، كان يوجد أيضا بالشام شعراء استهوتهم الحياة بملاذها ، واستعذبوا متاع الدنيا ، فبرز فى ناحية الغزل ببلاط الوليد بن عبد الملك : عبد الرحمن بن اسماعيل الوضاح وهو من شعراء جنوب بلاد العرب ، واشترك بشمال الشام فى مناوشات الحدود ضد البيزنطيين ، ثم استوطن دمشق ، وذاعت بها قصائده الغزلية ، الى أن اجترأ على امرأة الخليفة بقصائده الغرامية ، فقتله الوليد شر قتلة .

وأما الخمريات الشعرية فانها كانت ممثلة فى هذا العصر خير تمثيل فى الأمير الاموى الوليد ابن يزيد بن عبد الملك ، وولد عام ١٠٥هـ وفقد أباه وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وانغمس في ملاذ الشباب وشهواته ، وكان يريد له عمه وراثة الملك ، ولكنه عدل عن رأيه وأوصى بها

لابنه مسلمة ، فلما أراد إبعاده طلب منه قيادة قافلة الحج بغية استبعاده الى مكة فيبقى بها إشباعا لنزواته الجنونية ، وقد تمت له هذه المكيدة ، فاستعذب الوليد بها حياة المجون ، وفقد بذلك حقه فى الخلافة ، إلا أن الحكم قد آل اليه بالرغم من ذلك بعد وفاة هشام عام ١٢٥ ﻫ وروى عنه فى أيام حكمه القصيرة خروج على الدين والتقاليد الاسلامية ، ولم تقو أخلاقه الضعيفة على الوقوف أمام عواصف هذا العصر وتياراته الجارفة فحيكت حوله الدسائس من الاحزاب المعارضة فى جنوب بلاد العرب ، وقتل بعد مضى عام على توليه الحكم .

وكانت أغلب أشعاره فى وصف الخمر متخذا له مثلا من عدى بن زيد ، وهو مسيحى اشتهر باشعاره فى هذا المضمار قبل الاسلام ، وله كذلك عدة قصائد غزلية ، كما أنشد مقطوعات فى فنون الغناء الذى حاول أن يبرز فى ميدانه ببعض الألحان والمؤلفات الموسيقية .

أما المراثى ، وكانت فى الجاهلية سببا فى ذيوع اسم الخنساء وشهرتها الشعرية ، فانها وجدت فى هذا العصر أيضا من عنصر النساء فى ليلى الأخيلية من يحمل لواءها وينشر فنها ، وهى من قبيلة بنى عامر ، وكانت تبادل أحد أبناء عشيرتها الغرام ، فسقط قتيلا فى غزوة بنى عوف بن عقيل عام ٨٥ ﻫ ، فحزنت عليه حزنا شديدا وتنبهت ملكتها الشعرية بفجيعتها عليه ورثته بقصائد عديدة ، وذاعت بذلك شهرتها ، فقربها الخلفاء من دورهم ، وكانت موضع إكرام عبد الملك وعطف الحجاج ، وتوفيت عام ٨٩ ﻫ وهى فى طريقها الى خراسان للقاء القائد المعروف قتيبة بن مسلم بميدان القتال ، وكان يمت لها بصلة القرابة .

وكما شغلت المفاضلة بين الشعراء الثلاثة الذين برزوا فى هذا العصر نقاد اللغة ، فان الأدب العربى حفل كذلك بالمفاضلة بين الخنساء وليلى الاخيلية ، فنسب الى الاولى دقة الشعور وإخلاصها ، والى الثانية قوة التعبير ورشاقة العبارة .

ولم تكن فنون الشعر فى هذا العصر مقصورة على بطانات الملوك وحواشيهم ، بل إنها ازدهرت كذلك بعيدة عن ظلهم غنية عن رعايتهم وتشجيعهم ، فاننا نجد أن الروح البدوية القديمة والنفس العربية الابية بقيت حرة طليقة تحيا حياة زاهرة فى رجال الصحراء ، وأنتجت من الثمار الادبية ما لا يزال مذكورا بين أحسن المجهودات الفنية الرائعة ، وظهر من بين هذه الفئة قطرى بن الفجاءة ، وهو من الابطال الشعراء ، وقائد فرقة الازارقة الخارجة التى ثارت على نظام الملك الوراثى دفاعا عن المبادئ التى تضمن لكل مسلم حق الانتخاب فى الخلافة ، وسقط وهو على رأس فرقته فى ميدان القتال أمام القائد الاموى سفيان الكلبى عام ٧٨ ﻫ ببلاد الفرس ، وامتازت أشعاره بالعبارة المثيرة والحماس الحربى .

واشتهر كذلك من بين أعداء الأسرة الاموية الحاكمة الكميت بن زيد من قبيلة سعد بن ثعلبة ، وولد عام ٦٠ ﻫ ، وله قصائد عديدة فى مناقب الهاشميين ومديحهم ، وهم الذين يعلنون

أحقيتهم فى الخلافة لقرابتهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت إحدى قصائد مديحه فيهم سببا فى إثارة حقد الخليفة هشام الاموى فأمر بقتله ، واعتقله حاكم الكوفة ، ولكنه تمكن من الهرب ثم عفى عنه ، إلا أنه قتل بعد ذلك فى ثورة قامت ضد رجال الحكومة .

أخذت فنون الشعر بعد ذلك فى العصر الاموى فى فقدان صبغتها العربية الوطنية بسبب اختلاط الشعوب فى البلدان التى فتحها العرب ، فدخل الشعر عناصر جديدة ، أهمها من أصل فارسى ، كانت فيما بعد ذات أثر بعيد فى تطور تاريخ الادب العربى . وأهم من يستحق الذكر فى هذا العصر حماد بن سابور الراوية ، وولد بالكوفة عام ٧٥ هـ من والدين ديلميين ، ولو أن إنتاجه فى الشعر لم يكن هو كل ما يستحق الثناء ، بل إن أكبر شهرته إنما ترجع الى روايته للاشعار القديمة ، فكان بذلك مرجعا هاما لها ، كما كانت معلوماته الكثيرة فى هذه الناحية سببا فى رعاية ملوك بنى أمية له ، وعلى الاخص هشاما الذى أكثر من إكرامه ، على خلاف ما لاقاه من الاساءة بعد ذلك من الخليفة المنصور ، وتوفى عام ١٥٥ هـ وقيل فى بعض الروايات عام ١٥٨ هـ .

تصحيح خطأ فى العدد العاشر

جاء فى السطر العاشر من صفحة ٧٣٠ من العدد السابق :

كتب وقت نزوله . والصواب : كتب به وقت نزوله

بسم الله الرحمن الرحيم

مشكلة الشبان المتعلمين فى مصر

قرأت فى « الاهرام » يوم الجمعة الماضى ، تحت هذا العنوان ، تلغرافا مطولا من مراسله بلندن ، لخص فيه مقالا للمستر روم لاندوفال ، نشره فى جريدة «سبكتاتور» ، ألم فيه بمشكلة الشبان المتعلمين فى مصر من ناحية العطل ، والعاطفة الوطنية ، والسياسة الحكومية ، والروح الدينية . ولست بمعنى من كل ما كتبه إلا بالمسألة الاخيرة ، فهى التى تحتاج فى نظرى لمناقشة جدية ، مبنية على الحقائق . وقد اعترف هو نفسه بأن هـذه المسألة أولى بالعناية من سواها فقال : « ولكن الأهم من هذا كله الوجه الروحى للمسألة » .

ثم مضى فى معالجة هذا الموضوع فقال :

« إذا كان كثيرون من الطلبة متمسكين بالمظاهر الخارجية ، فان الدين لم يعد عاملا مهما فى حياتهم ، أو يجدوا فيه (فلسفة) يمكن تطبيقها على الأحوال التى تبدلت وتغيرت . بل إن كثيرين يعدونه الملجأ الأخير للمحافظة على التقاليد الدينية العتيقة ، والخزعبلات فى الشرق » .

قال : «ولقد أعرب لى الدكتور طه حسين بك — وهو على الارجح يعرف مصر الحديثة أكثر من أى رجل آخر — عن ارتيابه الشديد فى هل للاسلام نفوذ إنشائى ما فى شباب اليوم . مما يدل على أنهم يجدون أنفسهم فى الهواء تماما ، حتى إنه يمكن القول بان عجزهم الظاهرى عن تكوين معتقداتهم الروحية ، أو مطامعهم ، كان نتيجة مباشرة لذلك .

«ولكن فى البلدان الاسلامية ، من السهل أن يصبح الدين والوطنية شيئا واحدا . وإذا كان ليس من الصواب القول أن الشبان المصريين ماديون ملحدون ، فكذلك ليس من الصواب القول أنهم شديدو العناية بالأمور الروحية » .

ثم قال المستر روم لاندوفال :

«وهناك آخرون يشعرون بقلق ، من جراء الميل بين معلمى الاسلام المصريين ، الى التوفيق بين تعاليم القرآن الكريم والعلوم المادية والعقلية ، وهم يتساءلون : ألا يفقد الاسلام بذلك نفوذه بين كثيرين من أنصاره والمتمسكين به من القدماء ، دون أن يستميل اليه أنصارا جددا ؟ وليست هذه أول مرة يتبين فيها أن مسايرة العلم المادى تعود بالنوائب على الدين » .

ثم ختم المستر روم مقالته بهذه العبارة :

« لا يعتقد منصف بأن مشكلة الشبان فى مصر يمكن حلها من دون إصلاح روحى بعيد الأثر ، يتناول الشبان وزعماءهم السياسيين على السواء » انتهى .

نقول : بصرف النظر عما فى هذه العبارات من الغموض والمتناقضات ، يتضح للقارئ منها أن المستر روم لاندوفال حريص أشد الحرص على أن يصبح الشبان المسلمون وزعماؤهم متمسكين بالاسلام على أكمل ما يكون ، ولكن بعد إحداث إصلاح روحى عظيم يتناولهم هم وزعماءهم السياسيين .

لم هذا الاستدراك ؟ لأن الاسلام فى حالته الراهنة ليس له (فلسفة) يمكن تطبيقها اليوم على شئون الحياة التى تبدلت عما كانت عليه من قبل ، حتى أن كثيرا من المتعلمين أصبحوا فى الهواء لايرون فى دينهم إلا أنه قرارة لتقاليد بالية وخزعبلات شرقية !

وقد استأنس المستر روم فى حكمه هذا بما أفضى به اليه الدكتور طه حسين بك ، من أنه لم يعد للاسلام نفوذ إنشائى فى شباب اليوم ، وكان من آثار ذلك عليهم أنهم عجزوا عن تكوين معتقدات روحية لأنفسهم .

ثم ذكر ما أفضى به اليه حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى من أنه أدخل المواد العلمية الى الازهر ، ولكن المستر روم يشك فى فائدة ذلك ، لأن التوفيق فى نظره بين تعاليم القرآن والعلوم المادية والعقلية ، يفقد الاسلام سلطانه على المتمسكين بالقديم ، دون أن يستميل اليه أنصارا جددا ، لأن مسايرة الدين للعلم المادى كثيرا ما عادت عليه بالنوائب . ولم يذكر سبب طرء هذه النوائب . ولكن المتبادر للذهن أن سببها من استحالة التوفيق بين مقررات الاسلام ومقررات العلم ، فيستتبع ذلك إلحاد جمهرة المتعلمين كما حدث لدى الاوربيين حين هموا بعمل هذا التوفيق بين دينهم والعلم .

وبعد :

إننا نشكر للمستر روم لاندوفال اهتمامه بالشئون الاسلامية ، وغيرته على الشبيبة المصرية وزعمائها الى هذا الحد . ولكننا نستأذنه فى أن نقول : إن بحثه هذا كان يستدعى منه أن يعرف ماهية الاسلام ، وكنه الاصول التى يقوم عليها ، وحقيقة الغرض الذى يرمى اليه من قيادة النفوس فى معمعان التطورات العقلية والاجتماعية .

الاسلام لا يفرض على الناس (فلسفة) كلامية غير قابلة للتطور ، تتحجر وتنحل بمرور الزمان وتغير الاحوال ؛ ولم يعين لوضع هذه (الفلسفة) طائفة تستأثر بالسلطان الروحى على النفوس ، وتجمع بينه وبين السلطان المادى ، أو تتنازل عنه لبعض المتغلبين ، وتقوم حيالهم على قدم التصارع والنزاع . ولكن الاسلام فرض على الناس كافة أصولا خلقية ، وآدابا نفسية ، ومبادئ حيوية ، هى أقصى ما يمكن أن يتخيله العقل من الاطلاق والسمو ، مثلا عليا

لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، تؤدى الآخذين بها الى السمو المادى والأدبى معا ، تاركا لهم حرية تكييف أحوالهم على موجبها ، مخليا الطريق فى وجوههم لجميع التطورات والانتقالات المعنوية والصورية .

هـذه قضية يتسع فيها مجال القول ، ولا يقبلها العقل إلا بسلطان ، فاليك هـذا السلطان فى مثال محسوس :

انظر الى جماعة المسلمين الأولين فى أول نشوئها ، وإلى الحال التى قامت عليها ، وإلى العوامل التى دفعتها للحركة ، وإلى ما تطورت اليـه بالانقياد لهـا . فان هـذا النظر يكشف من معنى الاسلام ، ومن اتجاه الاصول التى أقام جماعته عليها ، والأغراض التى تؤدى اليها تأدية طبيعية لا تكلف فيها ، ما لا تكشفه البحوث المستفيضة ، والمناقشات المطولة .

ترك النبى صـلى الله عليه وسـلم الجماعة التى ألفها وليس فيها شريعة مدونة ، ولا شكل حكومى مقـرر ، ولا طائفة مختارة ، ولا هيئات مسيطرة ، بل لم يعين من يقوم بالأمر من بعده . ولـكنه وكلها الى تأثير الأصول الأولية ، والمبادئ الحيوية التى بثها فيها وعاهدها على أن تعمل بها ، فانظر ماذا كان أثر ذلك :

كان أول ما فكرت فيه هـذه الجماعة أن تؤلف لنفسها حكومة ، وكان أول ما شعرت به أن تستكمل وجودها كأمة . فدفعها هذا الشعور لاسترداد أطراف بلادها شمالا وشرقا وجنوبا من المتحكمين فيها . فوقعت فى حرب مع الرومانيين والفرس فى آن واحـد . وكانت نتيجة هذه الحرب استرداد شمال بلاد العرب ، والاستيلاء على الشام ومصر وشمال أفريقيا ، واسترجاع اليمن والعراق ، وحل دولة الفرس ، كل هذا ولم يمض عليها بعد انتقال رسولها ، عشر سنين .

كانت هذه الفتوح سببا فى احتكاك أفراد تلك الجماعة بأمم لديها علوم وصنائع وفنون ، فالتهموها التهاما وقربوا أئمتها وأكرموهم . وما زالت هذه الجماعة سائرة على هذا النحو حتى أتى عليها قرنان ، فاذا بها زعيمة العالم كله ، فى كل ناحية من نواحى النشاط العلمى والعملى والسياسى .

هذا التطور المحير للعقل من جماعة ساذجة لم يكن لديها سطور مكتوبة ، غير آيات كتابها المقدس ، ولم يكن قـد جمع حين توفى رسول الله بين دفتين ، الى دولة لم تبلغ شأوها فى سعة الملك أمة الى اليوم ، كانت غاصة بالعلماء والفلاسفة والمشترعين والسياسيين الخ فى مدى أقل من قرنين ، يرينا من ماهية الاسلام ، وتأثير مبادئه ما لا تريناه أية دراسة علمية فى الأرض .

وهل وصلت جماعة المسلمين الى ما وصلت اليه من العلم وسعة السلطان ، إلا بنقل كتب المعارف الأجنبية الى لغتها ، ونشر ما فيها بين خاصتها وعامتها ، وفيها ما كان فيها من الآراء العلمية ، والمذاهب الفلسفية ، والشبهات الدينية ؟ أما تناولت كل ذلك وهضمته وتمثلته واحتملت بنيتها كل ما أثمرته من حركات فكرية ، وانقلابات أدبية ، وتطورات عقلية واجتماعية ؟ فان كان

قد أدركها الفتور بعد أكثر من ألف سنة أمضتها فى التفوق على الأمم ، فقد كان ذلك ، باعترافها ، بسبب انحرافها عن أصولها الأولية .

تلك الأصول والمبادئ الاولية التى أحدثت هذا التطور المعجز ، لا تزال حية سليمة من التحريف ، مستعدة لأن تثمر ثمراتها الطبيعية فى كل عصر بما يناسبه ، متى التفت اليها وعنى بالأخذ بها .

فلو كان للاسلام فلسفة معينة غير قابلة للتطور على مثال ما هو موجود منها فى كل الأديان المعروفة ، لبقيت جماعته الاولية على ما كانت عليه على عهد مؤسسها الأول ، ولبادت تلك الجماعة تحت تأثير الصروف المختلفة وهى فى حالة تحجر لا مخلص لها منه .

يروى المستر روم لاندوفال عن الأستاذ طه بك حسين : أنه يرتاب أشد الارتياب فى تأثير الاسلام فى نفوس الشباب تأثيرا عمليا . ولسنا نرى محلا لهذا الارتياب بعد ما تبين للخاص والعام أن الاسلام مجموعة أصول ومبادئ خالدة ، هى المثل العليا للايصال الى الحسنيين مادة ومعنى . لا أنه فلسفة معينة ، أو مذهب مقرر ، يفرض على الناس فرضا ولا يجوز لأحد أن يتخطاه الى غيره . فاذا كانت هذه الشبيبة لا تستطيع تكوين عقائد لها فى رعاية المثل العليا ، وتحت ظلال هــذه الحرية ، ففى رعاية أية فلسفة قابلة للتحجر تستطيع ذلك ؟ وإذا كانت تعجز عن تــكوين معتقدات لها تحت ضوء المثل العليا ، فتحت أى ضوء تنتظر أن لا تعجز إذن ؟

لم يقل أحد فى الاسلام منذ وجد الى اليوم ، وقد مضى عليه نحو أربعة عشر قرنا ، إن مذهبا بعينه يجب الأخذ به دون غيره ، أو إن ما عمله الاوائل لا يمكن أن يعمل أكمل منه . فتركت للعقول حريتها تصل الى أرقى ما يمكن أن تصل اليه فى حدود الأصول الخالدة ، وفى كل زمان بما يناسبه ، فهل نحد بأنفسنا هذه الحرية فنتخذ لنا فلسفة ونفرضها على الناس فرضا ؟ هل مثل هذا القول يسهل وقعه على الأسماع فى البيئات العلمية فى العصر الراهن ؟

إن الأزهر الذى يوصف ظلما بأنه ملجأ التقاليد العتيقة والخزعبلات الشرقية ، ليس فيه رجل واحــد يخالفنى فيما أذهب اليه من هذا الرأى ، الذى قــد يعتبره المستر روم لاندوفال مكفرا فى رأى أقطاب القديم فى الازهر .

كل ما فى الأزهر أنه لم يرزق مصلحا يرقى أسلوب التعليم فيه ، فبقى خاملا فى القرنين الأخيرين . أما وقد رزق اليوم هذا المصلح العظيم فى شخص الامام المراغى فسيكون له شأن جلل بعد سنين قليلة . فهل بلغ المستر روم ، وهذا الامام المجدد يسرى عليه أصول الجامعات الكبرى ، ويدخل اليه اللغات الأجنبية ، ويرسل منه طلابا الى أوربا ، أن واحدا من أقدم رجال الازهر يرى أن هــذه الاصلاحات بدعة ؟ أليس الازهر نفسه هو الذى طلب أن يسلم مقاليده لهذا الامام المجدد ؟

نعم : إن شيوخا فى الأزهر عارضوا قبل ثلاثين سنة فى إدخال أوليات العلوم الطبيعية اليه ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك باعتبار أن هذه العلوم تنافى نصوص القرآن أو تضره ، ولكن باعتبار أنها قد تصرف طلبته عن التفرغ للعلوم الدينية .

ألم يعلم المستر روم أن (محمد على) موجد مصر الحديثة ، وهو بسبيل بناء صرح العلم الطبيعى ، وإقامة مدنيته ، استنجد بالأزهر ، فأنجده بنفر من أنجب طلابه ، أرسلهم الى أوربا ليعبوا من مواردها ، فلما آبوا بنى على أكتافهم هذا الصرح العلمى الذى نفخر به اليوم ؟

وإنى منذ أكثر من ثلاثين سنة ، أعلنت موافقة الأصول الاسلامية لأرقى أصول الفلسفة الأوربية ، فما وجدت من شيوخ الأزهر ، حتى القدامى منهم ، إلا تشجيعا وإطراء ، بل كانوا هم أشد طوائف الأمة إعجابا بما كتبت .

وقبل أن أختم هـذه العجالة أسأل المستر روم : على أى أساس يؤكد أن الشبيبة المصرية تعجز عن تكوين معتقداتها ؟

أيظن أن ذلك يكون لأن مئات من الآيات القرآنية تدعوها للنظر فى الكون والكونيات ، وللتأمل فى القوى العاملة فيها ، والنواميس السائدة عليها ، دون أن تحد لها حدا تقف عنده ، أو تعين لها مجالا لا تتعداه الى غيره ، ناهية إياها عن التقليد الأعمى ، والجمود على الموروثات ، مؤكدة لها أنها تؤجر على ثمرة جهادها وإن أخطأت فيه ؟

إن كان لا مناص من أن يتهم المستر روم الشبيبة الاسلامية بعجز ما ، فهى تعجز ، وقد وصلت الى هذا المستوى من العلم العصرى ، أن تتخيل أن الاسلام يصدها عن أى ترق علمى أو فلسفى ، أو لا ينير طريقها للوصول الى أسمى عقيدة كتبت للبشر .

بقيت لنا كلمة :

يرى المستر روم لاندوفال أن الاسلام لا يصلح مقوما للنفوس إلا بعد إحداث إصلاح عظيم فيه ، وهو لم يذكر كلمة (إصلاح) إلا لأنه يتخيل أن الاسلام كسائر الأديان يقوم على (فلسفة) مؤلفة من آراء القدماء ومذاهبهم ، وشروحهم وتأويلاتهم ، فرضت على عقول أهله فرضا ، وحرم عليهم النظر فى أدلتها ، وفى مبلغ مناسبتها لأحوال الزمان والمكان ، وفى تعديلها كلما احتاجت الى تعديل فى حدود الأصول الاسلامية .

ولو كان المستر روم يعلم أن الاسلام يقوم على أصول ومبادئ هى نواميس الحياة الانسانية الكاملة التى لا تتبـدل ، وأن المسلمين الاولين بنوا آراءهم ومذاهبهم فى حدودها ، وانهم لا أقول لم يحرموا نقدها وتعديلها فحسب ، بل حرموا على الناس أن يأخذوا بها تقليدا بغير نظر ، وأن يعتبروها نهايات ليس بعدها مذهب ، قات : لو كان المستر روم اما هذا ، لما ذكر

كلمة (إصلاح) لأنه لا موجب له مع وجوده عنصرا رئيسيا فى تركيب هـذا الدين ومعترفا به من جميع المسلمين ، ويعدل عن كلمة إصلاح الى كلمة (عمـل) ، فنصح للمسلمين أن يعملوا بدينهم ، مذكرا إياهم باصوله الاولية الخالدة التى تسع فى حدودها كل ما يمكن أن يتصوره العقل من تكمل مادى وأدبى دون أن يصادف السالك اليه أى حرج ؟

محمد فريد وجدى

لا غلو فى الدين

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله بعثنى بالحنيفية السمحة ، ولم يبعثنى بالرهبانية المبتدعة ، سنتى الصلاة والنوم ، والافطار والصوم ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ، فان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى »

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « خير هـذه الامة النمط الاوسط ، يرجع اليهم الغالى ، ويلحق بهم التالى »

وقال مطرف بن عبد الله الشخير لابنه ، وكان قد تعبد : « يا بنى إن الحسنة بين السيئتين (يعنى الدين بين الافراط والتقصير) ، وخير الامور أوسطها ، وشر السير الحقحقة .

وقال بعض العلماء : « عامل البر كآكل الطعام إن أكل منه قوتا عصمه ، وإن أسرف منه بشمه » أى أتخمه .

وروى عن عيسى عليه السلام كما ذكره ابن عبدربه فى العقد ، أنه لقى رجلا فقال له : ما تصنع؟ قال : أتعبد . قال : فمن يعود عليك ؟ قال : أخى . قال عيسى عليه السلام : هو أعبد منك .

قال ابن عبد ربه : ونظير هـذا أن رفقة من الاشعريين كانوا فى سفر فلما قدموا قالوا : ما رأينا يا رسول الله بعدك أفضل من فلان : كان يصـوم النهار فاذا نزلنا قام من الليل حتى نرتحل ، قال : فمن كان يمهن له ويكفله ؟ قالوا : كلنا . قال النبى صلى الله عليه وسلم : كلكم أفضل منه .

وروى على بن عاصم عن أبى إسحق عن الشيبانى قال : رأيت محمد بن الحنفية واقفا بعرفات على برذون وعليه مطرف خز أصفر .

وروى السدى عن ابن جريجة عن ابن عباس قال : كان يرتدى برداء بألف .

تدل هذه الروايات على أن ليس فى الاسلام حرج على طعام أو كاس إلا إذا خرج عن حد الاعتدال ، أو كان من المحرمات .

التفسير

سورة لقمان

— ٤ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قل الله تعالى : (خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ، وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ، وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) :

قد سبق أن توعد الله الذين يحيدون عن آياته الحكيمة التى هى هـدى ورحمة الى لهو الحديث ، مضلين عن سبيل الله ، هازئين بالآيات البينات ، مستكبرين معرضين عنها كأن لم يسمعوها ، توعدهم بالعذاب الاليم ؛ وساق ذلك الوعيد بلفظ البشرى ليبكتهم ويغيظهم أشد الغيظ ، وليصورهم وهم فى مرحهم ولهـوهم بأنهم ينتظرون فى تلك الحالة أن تتصل حلقات مرحهم بمسرات تتلوها ، فاذا سمعوا كلمة « بشره » اشرأبت اليها أعناقهم ، فاذا صدموا بعدها بأن البشرى إنما هى بالعذاب الاليم كانت النكاية بهم أبلغ ، وكانت حالهم حينئذ أشنع .

ثم أردف ذلك الوعيد بالوعد الحسن للذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم جنات النعيم ، أى أن الجنات بما فيها لهم يتمتعون فيها بما يشاءون غير مدافعين ولا منازعين ، تمتع الملاك بما يملكون ، كما يؤخـذ من اللام فى لهم ، ومن الاسناد الى الجنات نفسها ، وهو أبلغ من الاسناد الى نعيمها ، فمن ملك الشيء كان استمتاعه بكل ما فيه أتم ، بخلاف من ملك صفة من صفاته فان تصرفه يقتصر على تلك الصفة ، وذلك كما ترى من الفـرق بين المالك والمستأجر ، ونرى من هذا دقة الفرق بين لهم جنات النعيم ، ولهم نعيم الجنات .

ثم أردف كلا من الوعيد والوعد بما يقرر تنفيذهما ، إذ قال عز وجل : « وعد الله حقا » فقرر أن هـذا الوعد من الله ، ومن أوفى بعهـده من الله ! وزاده بقـوله : « حقا » زيادة

فى التقرير والتثبيت ، وختم الآية بقوله : « وهو العزيز الحكيم » أى هو القادر الغالب على أمره ، الذى لا يرد له مراد لعزته ، الحكيم الذى يضع الاشياء فى مواضعها ويقرها فى نصابها .

وقد أردف هذا بقوله : « خلق السموات بغير عمد ترونها » الخ ، تقريراً لعزته وباهر قدرته ، وتوضيحا لحكمته وإتقان صنعته . يتجلى الاول وهو كمال القدرة فى «خلق السموات بغير عمد » ويتجلى الثانى وهو كمال الحكمة فى « ألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم » الخ الآية ، بل كل منهما عند التأمل يظهر فيه القدرة والحكمة .

والخلق : أصله التقدير ، يقال : خلق الخياط الثوب إذا قدره قبل أن يقطعه ؛ ومنه قول الشاعر :

وأراك تفرى ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفرى

ولكنه كثر استعماله فى الإيجاد ، ولا سيما فيما يسند منه الى الله عز وجل ، وكأن فى ذلك إشارة الى أنه جل شأنه متى قدر أمرا وأراده على وجه خاص وجد لا محالة « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

فمعنى خلق السموات إيجادها على وجه مقدر محكم لاخلل فيه ولا نقص ولا تفاوت .

والسموات : جمع سماء ، وهى كما سبق لنا فى تفسير سورة الرعد عند أكثر العلماء الاسلاميين : هذه الأجرام الفلكية المحيطة بنا ، المتحلية بلون الزرقة ، وذلك ما يدل عليه ظواهر النصوص والأخبار الكثيرة .

وبعضهم يرى أن هذا اللون ليس لون السموات ، فانه يحدث من أسباب عدة : كأن يكون أجزاء بخارية جوية يسطع عليها ضوء الكواكب ويليها طبقة مظلمة ، فيحصل من امتزاج الضوء الكوكبى بالأجزاء المظلمة لون متوسط بين السواد والبياض هو لون الزرقة ؛ أو من تعاقب ذرات ذات ألوان متعددة ، فيحصل من امتزاجها ذلك اللون المخصوص ، فلا يلزم أن يكون هذا المرئى هو لون السماء .

ويمكن الرد على هذا الوجه بأن حصول لون الزرقة لهذا السبب الذى ذكروه لا يمنع أن يحصل لسبب آخر ويكون هو لون السماء حقيقة ، فيكون كلا الأمرين فى نظر العقل جائزا ، وقد جاءت ظواهر النصوص مفيدة أن ما نراه هو السماء ، فلا موجب لصرفها عن ظاهرها .

وأصحاب هذا الرأى الثانى منهم من يفسر السموات بأنها الكواكب ، وكل ما ارتفع فهو سماء ؛ ومنهم من يفسرها بأنها المناطق التى تسبح فيها الكواكب ، وهى أيضا مرتفعة . ولا يخفى عليك أن ظهور آثار القدرة إنما يكون فى رفع شيء ذى وجود حقيقى ، أما المناطق الخالية

التى لم تزد عن أنها فراغ تسبح فيه السموات ، فليس فى ارتفاعه وهو خلو أثر للقدرة ، ولا يقال : إنا نراه مرتفعا .

وبعد : فالذى ينقدح فى الذهن وتطمئن اليه النفس ، هو أن هذا المرئى هو السماء ، وذلك ظاهر النصوص ، فاذا قام الدليل العقلى على انتفاء ذلك وأثبت أنه ليس هناك سماء بالمعنى الجرمى المتعارف، صح المصير الى التأويل ، وإلا كان التأويل والصرف عن الظاهر تشهيا بلا موجب . ولتتنبه الى أنه فرق بين قيام الدليل العقلى على انتفاء السموات وبين عدم قيامه على وجودها، فالأول يصلح صارفا للنصوص عن ظواهرها بخلاف الثانى ، كما أن هناك فرقا بين الدليل الموجب للجزم والدليل المحصل للتخمين والظن ، فالاول يصلح لتأويل النصوص بخلاف الثانى .

« بغير عمد ترونها » :

العمد : اسم جمع عمود أو عماد ، وقيل جمع عمود كأديم وأدم . ومعلوم أن فعيلا وفعولا متشاركان فى الأحكام غالبا . والعمود : ما يعتمد عليه ويستند اليه . وقوله : « ترونها » أى تبصرونها ، ضميره عائد على السموات ، والجملة مستأنفة كأنها دليل على أنها ليس لها عمد ، أو جواب لمن يقول : ومن أين لنا أنها لا عمد لها ؟ فيقال : ها أنت ذا تراها ولا عمد لها ولو كان لها عمد لرأيت عمدها كما رأيتها . وبعضهم أرجع ضمير ترونها الى عمد ، وكأن المعنى : خلق السموات بغير عمد مرئية ، فلا مانع أن يكون لها عمد غير مرئية ، فقيل : والعمد غير المرئية هى قدرته عز وجل ، وهو بعيد عن بلاغة الاسلوب القرآنى كما ترى ، فان تسمية قدرة الله عمدا للسموات لا يكاد يسيغه الذوق السليم . وقيل بل العمد غير المرئية عمد حقيقية لا نراها، وقد وردت بها الاخبار . ومثل هذا القول لا يلتفت اليه ، فلم يصح فيما نعلم خبر فى هذا ، وما يرويه بعض المفسرين من إسرائيليات مستغربة فذلك مما ابتلى به المفسرون قديما ، وأفسد على كثير منهم أمرهم ، فلا تعويل على مثل تلك الروايات . وكأن الحامل لهم على جعل الضمير عائدا على العمد أنه جاء فى قراءة « بغير عمد ترونه » ولا يمكن أن يعود على السموات لأنها مؤنثة ، فتعين عوده على العمد ، والقراءات يفسر بعضها بعضا . وأنت خبير بأن هذا لا يتعين فى عود الضمير على العمد ، فقد يكون عائدا على الخلق الذى جاء فى « خلق » أى ترون أثر ذلك الخلق فيما تشاهدون ، ألستم تبصرونها ولا عمد لها ؟

« وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » :

الالقاء : الوضع ، وفى الغالب يكون حطا من أعلى الى أسفل ، وإذا كان الملقى ذا قوة وبطش استدعى إلقاؤه ثبات الملقى غالبا . والرواسى : جمع راسى ، من رسا يرسو ثبت واستقر ، وهو قريب من معنى الرسوخ . وقوله : « أن تميد بكم » : مثل هذا التركيب يقع كثيرا فى عبارات الناس فيقدر معناه بقولهم : خشية أن يحصل كذا ، أو حذر

أن يحصل كذا ، ولما كانت الخشية والحذر مما لايليق نسبته الى الله استبدلوا بها كلمة «كراهة» أى كراهة أن تميد بكم . ومنهم من يقول : إن المعنى على حذف «لا» أى لئلا تميد بكم ، ولا داعى لزيادة لامع ظهور المعنى بدونها ، وليس هذا من موضع حذفها مع مراعاة معناها .

والميدوالميدان : الاضطراب والتزلزل . والظاهرأن المراد به هنا تزلزل أجزائها وتحولها إذا لم تكن متماسكة بما يضبطها ويربط بعضها ببعض . والجبال هى تلك الأجرام الأرضية المتماسكة الصلبة من الحجارة وما فى معناها ، تظهر على وجه الأرض سائخة القواعد فى داخلها ، فيكون فى تماسكها فى ذاتها وتشابك أطرافها بعضها ببعض إمساك للأرض أن تنهار أجزاؤها وتضطرب فى أحياز متعددة تمنع كمال الانتفاع بها والطمأنينة عليها . وفى التعبير بقوله : « بكم » بعد تميد ، إظهار لموقع النعمة الموجبة للشكر والاعتراف بالجميل ، من حيث كان منع الاضطراب فى مصلحة المخاطبين ، أى حتى لا تكونوا مزلزلين غير مستقرين فتتعرضوا للأخطار ويلحق مصالحكم البوار .

وقوله : « وبث فيها من كل دابة » لفت الأنظار الى أثر آخر من آثار الاقتدار ، وهو إيجاد الحياة المتنوعة منتشرة فى أرجائها ، فأينما تنقلتم فيها صادفتم نوعا من الاحياء جديدا يدل على عظمة قدرته عز وجل ، واستطعتم أن تنتفعوا منها بما يتيسر لكم الانتفاع به ، فكل مسخر لكم ، وقد أعطيتم من قوة العقل وسعة الحيلة ودقة البحث مايمكنكم من الانتفاع بها فى عدة وجوه ، وإذا أعوزكم الانتفاع ببعض منها فلعله يوجد بعدكم من يهتدى الى وجوه منفعة لم تدركوها ، فحرمانكم من منفعة بعضها لا يمنع من انتفاع من هو أدق نظرا وأوسع عقلا . على أن وجوه الانتفاع إنما تلزم حين يراعى ما فيها من معنى الرحمة والنعمة عليكم ، وإلا فهى شاهدة فى تركيبها وتنوع أجناسها وألوانها وطبائعها وقواها بعزة مبدعها وكمال قدرته ، وشاهدة فى استكمال كل نوع منها قوى تحفظ نوعه وتحمى أفراده وتنظم حياته ، شاهدة فى ذلك بكمال حكمته ، فهو العزيز الحكيم ، وهو الرءوف الرحيم .

قال : « وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » :

دليل إثر دليل ، حتى تمتلئ النفس يقينا وإيمانا ، والأدلة المترادفة تجد لكل منها أثرا خاصا فى تنمية اليقين ، حتى ينتقل النظرى الى الضرورى ، والمستدل عليه الى ما يقارب المشاهد.

والعدول فى هذا من ضمير الغائب فى : خلق ، وألقى ، وبث ، الى ضمير المتكلم «أنزلنا» «أنبتنا» يسمى فى البلاغة التفاتا ، ونكتته أن تنويع الكلام من طريق الى طريق من شأنه أن يجدد من نشاط السامع ويقوى انتباهه ويدفع عنه سآمة التكرار على وتيرة واحدة . ويمتاز هنا بميزة أخرى وهى إظهار الامتنان من المتكلم على السامعين وسوقه مساق مالا مساغ لتداخل متداخل فى إبرازه ، فما كان لأحد أن يدعى أن له مدخلا فى تكوين الامطار وإنزالها من

السماء ، فى حين أن بث الدواب قد يخون امرأ عقله فيه فى بعض الأحيان فيقول : قد كان لى من حسن القيام على دوابى وأنعامى باستيلادها وتغذيتها وحمايتها من العوادى ما جعلها تنمو وتنتشر ، وما أكثر غرور الانسان ، وما أقرب انخداعه بما يتوهم أن له فيه مدخلا !

والسماء : جهة العلو ، ولا تكاد تجد ماء يحصل للانبات إلا ماء المطر النازل من السماء حيث تضربه الرياح فتنقيه من الأملاح ، فاما استخدم فى الانبات مباشرة ، وإما تشربته الأرض فسلك ينابيع فيها ثم ظهر فى عيون نابعة فى جهات متفرقة ، وإما جرى أنهارا على وجه الارض فنقل مطرا من جهة جبلية لاتنتفع به فى الانبات الى أرض سهلة ضبطته وانتفع به أهلها ، أوكان زائدا على مواقعه فيجرى ليعم نفعه جهات ثانية . وعلى الجملة فأكثر ما يسند الانبات الى الماء المنزل من السماء ، وأما الماء المحيط بمعظم سطح الأرض وهو ماء المحيطات والبحار لمنفرعة منها ، فلا يكاد يستند اليه الانبات .

وقوله تعالى : «فأنبتنا» بضمير المتكلم ليأخذ الطريق على الناظر المتأمل ، حتى لا ينخدع بالظواهر السطحية ويزعم أن هذا الماء هو المنبت فيقصر نظره على ما شاهدته حواسه ويعطل عقله عن أن ينفذ الى الحقائق من ورائها . وناهيك بقوم عبدوا الأنهار وقدسوها لأنها مظهر الانبات الذى عاد عليهم بالفوائد ، فمثلهم كمثل رجل حكم عليه قاض بحكم وسجله بقلمه فلم يرضه الحكم ، فأخذ القلم يكسره ، أوحكم له بحكم أرضاه فأخذ القلم يقبله ، فما للقلم وما للحكم له أو عليه ؟! ولكنه النظر القصير لا يعدو طرف الأنف ، بل العمى والعمه فى البصائر والأبصار !

وقوله « فيها » دون أن يقول : « به » كما فى موضع آخر ، لأن الآية وإن سيقت للاستدلال فالغرض توجيه النفوس الى شكر المنعم المتفضل .

وقوله : «من كل زوج كريم» : الزوج هو الشىء ينضم الى غيره ويتزاوج ليكون من بين انضمامهما إنتاج مقصود ، وقد يطلق على مجموع المتزاوجين كلمة زوج ، ولكن معناه الاصلى هو الشىء المنضم الى غيره ، فهما زوجان ، وكل منهما زوج . ومعنى الكريم : المنتج الصالح للانتفاع به ، الكامل فى وجوده . والاتيان بمن هنا كما فى قوله « من كل دابة » للاشارة الى أن فى قدرته تعالى أن يضاعف من الخلق أضعافا ، وأن هـذا الذى أوجده إنما هو شىء مما تسعه قدرته .

ثم الفاء فى قوله : «فأنبتنا» للتفريع على كل من إنزال الماء ، وحفظ الأرض من أن تميد . أما الأول فظاهر ، وأما الثانى فلأن فى سكونها عونا على استقرار البذر فى موضعه منها حتى يختمر ويكمل استعداده للنبات ، وإلا فلو كانت أجزاؤها مائدة متحركة ما حصل نبات البذر فيها ، كما يقولون : الحجر المتدحرج لا ينبت عليه زرع . وبهذا ترى كيف كانت أجزاء الآية متماسكة متصلة أكبر تماسك وأقوى اتصال . والله أعلم ؟

ابراهيم الجبالى

محبة الله عز وجل

ذكرنا فى مقالنا السابق تفسير قوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض الخ » كلمة عن سعة الملك الالهى الذى يبهر العقل ما فيه من عجائب المصنوعات وبدائع المخلوقات :

إن آيات ربنا بينات ما يمار فيهن إلا الكفور

وقد وعدنا القارئ الكريم أن نكتب كلمة تثير محبة الله من القلوب ، فانا نرى القرآن قد تعرض عقيب تلك الآية التى ذكر فيها دلائل التوحيد لذكر تلك المحبة حيث يقول : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله » ، وكأنه يشير الى أن محبة المؤمنين تنبنى على معرفة الآيات والدلائل ، بخلاف محبة غيره فانها مبنية على تقليد الآباء واتباع الأوهام والأهواء .

ولنخض بك غمار الموضوع فنقول :

بادر لدرك الذى قدفات من عمرك ولتتخذ زادك التوحيد فى سفرك
أيا مليك الورى يا منتهى أملى ما أشوق السر والمعنى الى خبرك
ماظل لى أمل فى غير مشهدكم ولا قرأت كتابا ليس فى سيرك

إذا كنت تحب احدا لما يبهرك من علمه وسعة نظره من علماء الأمم ، فأحب الله تعالى الذى أتقن كل العوالم وأودع فيها من الأسرار ما أدهش فلا سفة أوربا إشراق شعاع من نور شمسه ، حتى قال سبنسر الانجليزى ما ترجمته : « ليس الغرض من علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر الطبيعية ، وإنما الغرض الاسمى أن يشرف الانسان على ذلك السر الباهر ، ويستطلع تلك العظمة الالهية من وراء تلك الحدود التى ينتهى إليها علم الطبيعة » .

ويكفيك ما اشتمل عليه الانسان من الأسرار المدهشة التى تكفل بها علم التشريح وعلم وظائف الاعضاء مما بهر علماء الفزيولوجيا فطأطؤا له الرءوس ، وعشوا أمامه كما يعشو الخفاش أمام الشموس .

وإن كنت تحب أحدا لمزيد شجاعته وعظيم قدرته وحسن تدبيره من القادة والساسة ، فأحب أحكم الحاكمين ، وأقدر القادرين ، وقيوم السموات والأرضين ، ورب العالمين ، ومدبر الخلق أجمعين ، من أمره بين الكاف والنون ، وإذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون .

وإن كنت تحب احدا لاحسانه ومزيد إنعامه وعظيم تبريزه فى باب الفضل والمكارم ، فأحب منبع النعم ومعدن الكرم . وأين كل ما تتخيله إذا قسته نقطة من بحار فضله ؟ وماذا

نعدد لك من نعمه أو نسرد عليك من آثار كرمه بعد ما علمت أنه المفيض لكل نعمة فى الوجود ، وأنه رب الكرم والجود؟ « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » .

ولعمر الانصاف إن هذا لمقام يجب أن تتكسر فيه الأقلام ، وتخرس فيه الألسن ، فلن تطيق شرح نعمة واحدة من نعمه .

وانظر إن شئت لنعمة الهواء التى يتوقف عليها وجود كل حى الى آخر ما يتفرع منها ويتشعب عنها وإن شئت فانظر الى نعمة الضياء أو الماء ، وما أودعه فى الأشياء من الكهرباء بباهر حكمته وعظيم تدبيره : « ذلك تقدير العزيز العليم » « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار » .

وقد أحس بتلك العظمة المدهشة وذلك الانعام الفائض على كل من فى الوجود ، ذلك الرجل العظيم صاحب النفس المطلقة من القيود الفيلسوف (لينه) الفزيولوجى الفرنسى الذى كان يدعوه وجدانه فيجيبه ، ويناجيه شعوره الحى فلا يتغافل عنه — وهو عندى مؤمن لا محالة — قال : « إن الله الازلى الكبير العالم بكل شىء قد تجلى لى ببديع صنائعه حتى صرت مدهوشا مبهوتا ! فأى قدرة وأى حكمة وأى إبداع أودعه مصنوعات يده لا فرق بين أصغر الاشياء وأكبرها ! إن المنافع التى نستمدها من هذه الكائنات تشهد بعظيم رحمة الله الذى سخرها لنا ، كما أن جمالها وتناسقها ينبئ بواسع حكمته ، وكذلك حفظها عن التلاشى وتجددها يشعر بجلالته وعظمته ! » .

ولنرجع الى أصل الموضوع فنقول :

إذا كنت تحب نفسك وكمالها ، فأحب من أوجدها فى أحسن تقويم ، وشق سمعها وبصرها وأسبغ عليها نعمه ظاهرة وباطنة ، ولم يقتصر كرمه على إفاضة الضروريات والحاجيات ، بل أعطاك من الكماليات ما تتنوع به لذتك وتتم به بهجتك ، فليس من الوفاء أن تعرض عنه وقد غمرتك نعماؤه ، وأشرق عليك ضياؤه ، وعذب لك ماؤه ولطف هواؤه ، وأنعشتك بدائع أكوانه : من رياض غناء ، وصحار فيحاء ، وأثمار شهية ، وألوان بهية ، ونغمات شجية ، ومناظر تطير بالقلوب الى حضرة علام الغيوب ، من شموس وأقمار ، وأطيار وأزهار ، وليل ونهار ، أما يجب أن تقول عند رؤية تلك الآيات المدهشات والدلائل الناطقات والنعم الفائضات ما قال ذلك البدوى الذى لم تشغله المدنية وزخرفها عن أن يرجع الى قلبه ويستمع من حديث لبه حيث يقول :

هاج للقلب من هواه ادكار ... وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات ... وعيون مياههن غزار
ونجوم تلوح فى جنح ليل ... مشرقات فى كل يوم تدار

وشمـوس مضيئـة للـبرايا في نهار وفى الدجا أقمار
ورياح تهب من كل فج وبروق وراءها أمطار
إن شأن الأله شان كبير جـل ربا وجلت الآثار
والذى قد ذكرت دل على اللـ ـه نفوسا لها هـدى واعتبار

أو نقول كما قال غيره مخاطبا نفسه مستحثا لها على العبرة وإطالة الفكرة حيث يقول :

تبصر حيث كان لك التبصر وفى ذات الاله دع التفكر
وإن ترد المهيمن حين تذكر تأمل فى نبات الأرض وانظر
الى آثار ما صنع المليك

فأنوار المهيمن ساطعات وأفكار الخلائق حائرات
ولكن الأدلة واضحات أصـول من لجين زاهرات
على أغصانها ذهب سبيك

شمـوس فى البرية مشرقات نجوم فى الدياجى لامعات
بطـول الدهر دوما سابحات إلى مالست أدرى طائرات
يطـير بها له الجرم السميك

رياض مـونقات منعشات وألوان لعينك مـدهشات
وأغصان تسرك ناضرات على قضب الزبرجـد شاهـدات
بأن الله ليس له شريك

أو يقول وقدامتلأت نفسه بالوجود الحق ، الذى ظهر فى جميع الاشياء ، وتجلى نوره فى عوالم الارض والسماء ، وإن غاب عن الأبصار وجل أن يدرك بالأنظار :

ظهر الوجـود الحـق فى الأشياء متجليا جهرا بغـير خفاء
إن الوجود عن البصائر غائب من حيث ما هو ظاهر للرائى
والفيء يكشف أن ثمـة شاخصا متحكما فيـه بغـير مراء
فرأيتـه من حيث لم تعـلم به وعلمتـه فى رتبـة الأسماء
والشمس لا تسطيـع رؤية ذاتها لتألـق فيها وفـرط ضياء

أو يقول ما قال ذلك الرجل الذى رآه ظاهرا فى آثاره ظهور الشمس ، وإن تعالى بحقيقته عن العقول :

حسن تراءى فى المرائى وبه تحـير كل راء
والـــكائنات جميعها مـوج على صفحات ماء
والأمر أمر واحـــد فيـه التقارب والتنائى

والـــكون عــرس زينت ذى الارض فيه مع السماء
بكواكب ومواكب والنجم خفاق اللـواء
والطـبل أجسام الملا والزمر أرواح الفضـــاء
وصـدا جميـع الـكائنـا ت أخى من أشهى الغنـاء
هـو باطـن هـو ظـاهـر فاحـذره مـن وجـه الخفـاء
واطـلبه من وجـه الظـهو ر تجـده فى كل المـرائى
شمس وكل الخـلق فى أنوارهـا مثـل الهبـاء
لـكن إذا أنـكرتها أصبحت من حمقى الخلائق لا من العقلاء
ياقوم كيف عقـــولنا لا تضمحل مـن البهـاء

أو يقول عند ما يرى الأشجار تتهادى فى حلل الأوراق والأزهار معجبا برؤيتها متعجبا من قدرة خالقها :

ياصاحبى تعجبا لمـلابس قد حاكها من لم يمـد لهـا يدا

فقـل لى بعيشـك هل من الحياء ، والحيـاء خلق كل كريم ، أن تتمتع بما خلق الله لك من الاضواء والاصباح والامساء ، وما أوجدلك من بديع الاشـياء وسخر لك من الارض والسماء ، وكان الأمر على ما يقول عز وجل : «وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ثم لا تؤدى شكره ولا تعرف قدره ؟

إنى لأعجب ممن قد رأى طرفا من فرط لطفك ربى كيف ينساكا

فان كان لا يؤثر فى نفسك فائض إنعامه ومزيد إحسانه ولا ما هو عليـه من قدرة يتحير فيها الناظرون ، وعظمة لا يصفها الواصفـون ، وعلم لا يعـزب عنـه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ، وحكمة أتقن بها جميع الاشياء ، ولا ما هو متصف به عز وجل من نعوت الجلال وصفات الـكمال ، وكان لا يستولى على نفسك سلطان الحسن الذى تشاهده بعينك أو تلمسه بيدك ، فاعلم أن كل جمال يقع عليه حسك أو يتصل به لمسك فانما هو ظل من ظلال ذلك الجمال المطلق الذى يجل عن الحدود ويتعالى عن القيود ، وليس يعطيك أى مظهر من مظاهره إلا بعض سرائره ، ولا تمثل لك أى مرآة من مراياه إلا بعض مزاياه . وأنى يسع المحدود من لا يقبل التحديد ؟ وكيف لا يضيق المقيد ممن لا يدخل فى سجن التقييد ؟

إن قلت هذا فان الحد يحصره أو قلت ذا فـكلام لست أدريه
أو قلت عندى جاء الظارف يطلبه والظرف حق ولـكن ليس يحويه
ما إن رأيت وجودا لست أدريه إلا الذى أنا معنى من معانيـه

فطوبى لمن شم عرف شذاه أو شام برق سناه ، وهنيئا لمن شرب قليلا من مدامه ولو مزجا، أو نظر اليه ولو شذرا ، فاذا لم يدرما هو تائق اليه ومتلهف عليه قال :

شيء به فتن الورى وهو الذى ... يدعى الجمال ولست أدرى ما هو

وقد قال بعض الحكماء لتلاميذه : إن الناس كلهم يشتاقون الى الله ، أتدرون لماذا ؟ لأنهم يتوقون الى إصلاح لايتناهى وجمال لا يتناهى وكمال لا يتناهى ، وليس ذلك إلا لله .

فارجع الى سلامة فطرتك ، وحدق ببصر بصيرتك ، وطالع ذلك الجمال الالهى الذى تجلى على صفات الموجودات ، واقرأه بين سطور تلك المبدعات ، ثم انظر رعاك الله الى أى حد انتهيت، ولا أظنك إن كنت رقيق الوجدان لطيف الشعور قوى الاحساس بالجمال إلا وقد وصلت الى معنى يصغر بجانبه اسم الحسن ، إذ تجدك أحسست بجمال لايتناهى ، وغرقت فى بحر من الجلال لا يحد ولا يأتى عليه التعبير :

فطورا فى الجلال على التذاذ ... وطورا فى التذاذ بالجمال

وعند ذلك ينطق لسان حالك منشدا :

عجبت لعاقل فى الناس أضحى ... يرى هذا الجمال ولا يهيم

ويترنم بلبل روحك مغردا :

لعمرك كل الحسن من بعض حسنه ... وما حسن كل الحسن إلا جماله

فاستجل هذا الحسن رعاك الله فى كل شيء تراه من العلويات أو السفليات :

إن شئت فى فلك أو شئت فى ملك ... أو شئت فى مدر أو شئت فى حجر
فالكل ينطق أن الله خالقه ... وهو المليك ورب النفع والضرر

وهل الشمس وهى أظهر ما علمت ، وأظهر ما رأيت ، وأجمل ما وقع عليه البصر ، وأبهى ما وصل اليه النظر ، إلا أثر من آثاره ونور من أنواره ، قد كتبت عليها سطور البهاء والجمال ، والعزة والجلال ، فنحن نقرأ فيها قدرة نخر لها ساجدين ، وحكمة نقف أمامها مبهوتين ، وجمالا يذوقه الوجدان وإن كان لا يكتنهه ، فتمتلئ به النفوس وإن كانت لا تعرفه ، ونطالع فيها رحمة تجعلنا قائلين بلسان الشاكرين : «تبارك الله أحسن الخالقين» ! وحقه ، وما أكبر حقه ، لو تفرغت من الشواغل التى أخذتك ولم تدع منك شيئا لعشقت فذقت فنطقت فقلت :

تراه إن غاب عنى كل جارحة ... فى كل معنى لطيف رائق بهج
وفى مساقط أنداء الغمام على ... بساط نور من الأزهار منتسج
وفى مسارح غزلان الخمائل فى ... برد الأصائل والاصباح فى البلج
وفى مساحب أذيال النسيم إذا ... أهدى الى سحيرا أطيب الأرج

عظم والله البرهان وامتلأ الوجدان ووصل الامر الى حد العيان وليس بعد العيان بيان ، ولكن قويت الانوار فغشيت الابصار ! وكل ما اعتيدت مشاهدته وتكررت رؤيته سقط عن القلب وقعه وإن عظم نفعه ، ولكن الهمة أن تكون من المستبصرين لا ممن أخلد الى الارض من الغافلين والجامدين .

خليلى قد طال المقام على القذى   وحال على ذا الحال ياقوم أحوال
يمر زمانى بالأمانى وينقضى   على غير ما أبغى ربيع وشوال

فاطلب رعاك الله مرافقة سكان الملكوت وعشاق الجبروت . فان كنت تحب أحدا لما بينك وبينه من التشاكل والتناسب فأحب الملأ الأعلى سكان ملكوت الله تعالى فان فيك ما يشاكلهم تمام المشاكلة « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » . وليس غذاء هذا الجوهر النفيس إلا العلوم والمعارف ، ولا مطلبه إلا الصفاء والهناء ، ولا أمنيته إلا الاطلاق من جميع التقييدات والاطلاع على جميع المغيبات ، وهو من عالم التقديس والتطهير ، ولكنك نسيت عالمك الاول منذ فارقته واشتغلت بمطالب هذا الهيكل الجسمانى الذى لا بد له من الفناء ، فأنست بالظلمات وتمرنت على احتمال الآفات :

من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت إيلام

ولذلك يصف القرآن من هذا حاله بالموت لأنه أمات أفضل غريزة فيه ، بل أمات خاصيته التى هو بها إنسان على الحقيقة ، فيقول : « أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » ؟

وقد استولت عليك هذه المطالب الجسمانية حتى أنستك عالم البهجة والبهاء ، وصرت لاتعرفه ولا تحس به ، وإنه لموطن روحك ومحل أنسك ، وليست الروح تحب هذه الملاذ الجسمانية إلا لأجل بدنها لا لأجل ذاتها . وأما مطلبها الذاتى وغذاؤها الأصلى فهو الأسرار والأنوار . ولما طال بها العهد وهى فى سجن الظلمات ومحل الآفات نسيت ماهى مستعدة له ومخلوقة لأجله ، وهو فى الحقيقة نسيان لنفسها « نسوا الله فأنساهم أنفسهم » فكأن لم يكن لها عهد بالصفاء ولا علاقة بعالم الجمال :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا   أنيس ولم يسمر بمكة سامر

أسأل الله أن يعيد لأرواحنا صحتها الأولى ، ويخلصها من أمراضها التى أضعفت منها تلك الحاسة العليا التى هى مناط لذتها الكبرى وشرفها الاعلى وخاصيتها الاولى ، ويرزقنا محبة الله ومحبة الانبياء الذين هم أطباء الارواح وأساتذة النفوس بمنه وكرمه ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالاجابة جدير !

يوسف الدجوى
من جماعة كبار العلماء

أسباب الهجرة النبوية وآثارها

عندما احتفلت مشيخة الازهر برأس السنة الهجرية كان العدد الأول من هذه المجلة قد تم إعداده للطبع ، فلم نستطع أن ننشرفيه كل ما ألقى فى تلك الليلة من الخطب القيمة . فاليوم وإن كانت المناسبة قد زالت فاننا نؤثر أن ننشر خطبة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ محمد محيي الدين المدرس بكلية اللغة العربية ، حرصا على ما فيها من فوائد تاريخية ، وتفصيلات محلية ، وبيانات اجتماعية . وهى هذه :

لعل حادث الهجرة : هجرة الرسول وأصحابه من مكة ، بلدهم الذى فيه نشأوا ، وموطنهم الذى درجوا منه وألفوه ، وفيه أموالهم وأهلوهم ، ولهم بسكناه شرف وزعامة على سائر العرب ، لأن فيه حرم الله الآمن ، وبيته المطهر من عهد أبيهم إبراهيم ؛ مع ما جبلت عليه طبيعة العربى من حب الوطن وإلفه ، والحرص عليه والذود عنه وتفديته بالأنفس والأموال ؛ الى المدينة ، وهى إذ ذاك بلد وبيء معروف بالحمى ، ولم يسبق لأ كثرهم به عهد . لعل هذه الهجرة أظهر الأحداث فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ؛ ولعل أصحاب الرسول أنفسهم كانوا يرونها بهذه المثابة ويقدرون لها هـذا القدر ؛ فانا لنراهم — بعد أن انقضت إقامة الرسول بينهم بما كان فيها من جلائل الأعمال وخطير الأحداث — يعودون اليها وحدها ، فيذكرونها ويتخذونها رمزا خالدا لحياة الاسلام ، ويسجلون ذكراها فى معاهداتهم ومبايعاتهم وسائر شئونهم ، وما يزال المسلمون الى يوم الناس هذا يجدون فى هـذا الحادث من المعنى السامى ما وجده سلفهم فيه ؛ ذلك بأنهم يرون فيه صورة التضحية العظيمة فى سبيل الحق ، والمثل الواضح للجلاد الدائب فى نصرة العقيدة ، والاستهانة بمـا فى الحياة من راحة ودعة فى سبيل الدعوة الى الله ، ويرونه أخيرا مبدأ الطريق للصيحة العاتية فى وجه الباطل ، والصريخ الملتهب لدحر الظلم والعدوان .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يأتيه الوحى بالمنزلة التى لا يجحد فيها فضله : من أكرم قريش نسبا ، وأفضلهم بيتا ، وأحسنهم خلقا ؛ فلما جاء قومه بما عرفوا من الحق حال الحسد بينهم وبين اتباعه وتصديقه ؛ فعتوا على الله ولجـوا فى كفرهم وعنادهم ، وظهر ما كان مستورا من العداوات القديمة التى كانت بين بطون قريش وبنى هاشم ، وقام رءوس بنى عبد شمس يظاهرهم رءوس بنى مخزوم وغيرهم ؛ فأخذوا يؤرثون العداوة ويثيرون الحفائظ ، ويصدون النـاس عن الاستماع لدعـوة النبى ؛ فيقول أبو جهل الحـكم بن هشام المخزومى : « تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحمـلوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ،

حتى إذا تحاذينا على الركب قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هـذه ؟ ! والله لا نؤمن به أبدا » !

لم يكونوا يشكون فى صدقه ؛ لأنهم لم يجربوا عليه كذبا قط ، ولأنه ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله ، ولأن هذا الكتاب الذى يتلوه عليهم ويدعوهم الى الايمان به مما لا عهد لآذان بسماع مثله ؛ ولكنهم يخافون أن يظهر أمره ، ويخشون إن آمنوا به أن ينبه ذكره فيخمل ما لهم من ذكر ؛ فكانوا إذا خلا بعضهم الى بعض اعترفوا بالحق وذكروا وجه الصواب فيه ؛ فاذا صاروا فى ملأ من الناس كذبوا على أنفسهم وعلى الناس ورموه بالسحر والكهانة والشعر والجنون ، وفى ذلك يقول لهم النضر بن الحارث : « يا معشر قريش : إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة قط ، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، وكان أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ؛ حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر ؛ لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم ؛ وقلتم : كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ؛ لقد رأينا الكهنة وتخالجهم وسمعنا سجعهم ؛ وقلتم : شاعر ، لا والله ماهو بشاعر ، لقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها ؛ وقلتم : مجنون ، لا والله ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه ؛ يا معشر قريش ، انظروا فى أمركم ، فانه والله قد نزل بكم أمر عظيم ! » .

حاولوا أن يغروه أول الأمر بمتاع الحياة الدنيا وزينتها ليرجع عما يباديهم به من الدعوة الى توحيد الله ؛ فيقول له عتبة بن ربيعة : « إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا فلا نقطع أمرا دونك ؛ وإن كنت تريد به ملكا ملكناك » فلا يجيبه على ذلك إلا إجابة الساخر بما عرض عليه ، الموقن بانتصار حقه على باطلهم ، يتلو عليه القرآن ، وفيه الدعوة الى الله والتحذير من عقابه وتسفيه عقول قومه ، فيقول له : « أقد فرغت يا أبا الوليد » ؟ فيقول : « نعم » قال : « فاستمع منى » قال : أفعل ، قال : « بسم الله الرحمن الرحيم . طسم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرءانا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الى إنما إلهكم إله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه ، وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون» . فاذا انتهى من قراءة السورة قال له : « قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ؛ فأنت وذاك » .

ثم يرفعون أمره الى عمه أبى طالب الذى يظاهره ويدفع عنه ، ويعرضون على عمه مثل ما عرضوه عليه ، ثم يخوفونه عاقبة تماديه فى نصرة ابن أخيه ، فيقول له عمه : « يا ابن أخي ،

إن قومك قد جاءونى فى أمرك ، فابق على وعلى نفسك » فيقول له : « ياعم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هـذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيـه ما تركته ! » ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك عمه وقـد ظن أنه خاذله ، فناداه عمه ثم قال له : « اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبدا » !

فاذا يئسوا من إغرائه وعلموا أنه صلب القناة ، وأنه جاد فى طريقه غير آبه لما يتهددونه به ، دافعوه بالقوة والـكيد والقطيعة ؛ فأغـروا به سفهاءهم فنالوه وأصحابه بالأذى ، وأعلنت بطون قريش مقاطعة بنى هاشم ، وكتبوا بذلك عهدا علقوه فى الـكعبة توثيقا لأمره بينهم ؛ فـكان لا يصل شىء الى بنى هاشم إلا سرا يستخفى به من أراد صلتهم من قريش ؛ ومشوا الى أختان رسول الله فأمروهم أن يطلقوا بناته ليشغلوه بهن ؛ وهو لذلك كله صابر رابط الجأش شديد الثقة بالله ، عالم أنه لا بد ناصره ومؤيده ، وهو لا يفتأ يأمر أصحابه وقومه بمثل ذلك من الصبر ورباطة الجأش .

فاذا رأت قريش أن ذلك كلـه لا يفت فى عضده ولا يهن من قوته وعزمه ، بيتوا قتله ؛ ولقد هموا بذلك أكثر من مرة ، ولـكن الله تعالى منعه فى كل مرة مما يريدون ؛ فقد اجتمع يوما جماعة منهم ، فقال أبو جهل بن هشام : « يامعشرقريش ، إن محمدا قد أبى إلا ما ترون : من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وسب آلهتنا ؛ وإنى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر ما أطيق حمله ، فاذا سجد فى صلاته فضخت به رأسه ، فاسلمونى عند ذلك أو امنعونى ؛ فليصنع بعد ذلك بنوعبد مناف ما بدالهم » ! فقالوا : « والله لا نسلمك لشىء أبدا ، فامض لما تريد » . وأبى الله تعالى عليه ما عقد نيته عليه ؛ وأتت أم جميل حمالة الحطب زوج أبى لهب وفى يدها فهر من حجارة تريد أن تلقيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فما هو إلا أن بلغت المسجد حتى أخذ الله بصرها فلا ترى إلا أبا بكر رضى الله عنه ، فتقول : « يا أبا بكر : أين صاحبك ؟ فوالله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه » .

وقد كان يشجعه على احتمال هذا الأذى والصبر على ما ينالونه به من المـكاره عمه أبو طالب ، وكان له عضدا وحرزا فى أمره ، وكان له منعة وناصرا على قومه ؛ وزوجه خديجة بنت خويلد التى كانت تواسيه وتدعوه الى الجلد والصبر ؛ فلما ماتا واشتد إيذاء قريش له ، وتفاقمت شرورهم عليه ، ونالوا منه بعدهما ما لم يكونوا لينعلوه ، فـكر فى الرحلة عنهم ، وتمنى أن يؤذن له بالانتقال ؛ وأراد الله به وبدينه خيرا ؛ فبدأ أول الامر بعرض نفسه على قبائل العرب ، فـكان يخرج اليهم فى مواطنهم أحيانا ، ويتلقاهم فى مواسم الحج أحيانا أخرى ؛ وكان أهل يثرب من الأوس والخزرج أسرع الناس الى قبول دعوته ، لأنهم كانوا قد عرفوا بعض شأنه مما كان اليهود يحدثونهم به

عنه ؛ فما هو إلا أن ذكر لهم أمره ودعاهم الى الايمان به ، حتى قال بعضهم لبعض : « ياقوم : تعلموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود ، فلا يسبقنكم اليه » .

فأجابوه الى ما دعاهم إليه وصدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام ، ورجوا أن يؤلف الله به بين قلوبهم ؛ فلما اعتزموا العودة الى يثرب أرسل معهم مصعب بن عمير بن هاشم ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الدين ، فكان له أثر عظيم فى دعوة أهل المدينة الى دين الله ؛ فلما كان الموسم من العام الثانى لقى النبى ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من أهل المدينة ، فدعاهم الى الله ورغبهم فى الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، وبايعهم على السمع والطاعة فى العسر واليسر ، وألا ينازعوا الأمر أهله ، وأن يقولوا الحق أينما كانوا لا يخافون فى الله لومة لائم ؛ فلما تم له ذلك وأصبح له أنصار فى بلد آخر يرحل إليهم ويأنس بهم ؛ ويطمئن الى جوارهم ، ويمتنع بهم ممن أراده بسوء ، اطمأن الى الهجرة ، وأمر أصحابه الذين كانوا يؤذون فى مكة بأن يهاجروا ، وقال لهم : « إن الله قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها » فخرجوا أرسالا ، وأقام هو بعدهم ينتظر إذن الله له بالخروج .

ولم يكن مشركو قريش يحبون أن يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أصحابه من بين أظهرهم ؛ لأنهم كانوا يحذرون عاقبة هذه الهجرة ؛ فكانوا كلما رأوا جماعة من أصحابه خرجوا من مكة ، حاولوا إعادتهم ليؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم إن استطاعوا ؛ فان أفلتوهم أخذهم القلق وساورتهم المخاوف . ولقد اجتمعوا يتشاورون فى الأمر ويديرون الرأى فيه ؛ فقال أحدهم : « احبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله من الموت » فأجابوه : « والله ماهذا لنا برأى ، لئن حبسناه كما تقول ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقنا دونه الى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا علينا فينتزعوه من بين أيدينا ثم يكاثرونا به حتى يغلبونا على أمرنا » وقال قائل منهم : « نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا ، فاذا أخرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ولاحيث وقع » فقالوا : « والله ما هذا لنا برأى ، ألم تروا حسن حديثه وحلاوة منطقه وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به ؟ والله لوفعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ثم يسير بهم اليكم » وإذ ذاك ينبرى أبو جهل من بين القوم فيقول : « أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى جليدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه ؛ فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا ، فرضوا منا بالعقل ، فعقلناه لهم » فاذا سمعوا ذلك من أبى جهل وافقوا عليه ، وتفرقوا وهم مجمعون له ؛ ولكن الله يريد أن ينصر رسوله ويؤيده ويظهر دينه فيأذن لرسوله بالخروج فيخرج وهم ببابه راصدون له متهيئون لتنفيذ قرارهم فيأخذ الله بأبصارهم فلا يرونه .

وكان الذى خافت قريش أن يكون ؛ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، ولو أخرجوه كما قال قائلهم لكان أشرف لهم وأبقى على سمعتهم ، وعصمه الله منهم فلم ينالوا منه ماطمعوا فيه . وكانت لهذه الهجرة المباركة آثارها التى توقعوها ، وآثار أخرى لم تكن تخطر لأحدهم ببال ؛ فقد أصبحوا يخافون أهل المدينة وهم فى طريقهم فى تجاراتهم إلى الشام . وهؤلاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون كل يوم ، وهذا رسول الله بحسن حديثه وكريم أخلاقه وسمو مبادئه ونبيل غايته ، يفعل فى نفوس العرب وعقولهم فعله ؛ وحبه يجرى منهم مجرى الدم من العروق ، حتى إن أحدهم ليرى الرسول أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين ؛ ويقظتهم لما يأتى به وحرصهم على معرفة مبادئه تبلغ الغاية التى لامطمع وراءها ، فهم يحصون ألفاظه ، ويحيطون بأحواله كلها ، فلا تغيب عن وعيهم حركة من حركاته . وللنبى وأصحابه فى كل حين صرعى من صناديد الشرك وأبطال الضلال ، وأخيراً يجىء هذا الذى آذوه وألبوا عليه وألجأوه إلى الفرار بدينه فيقتحم عليهم مكة ويدخلها ، كما كانوا يخافون ، بمن اجتمع إليه من قبائل العرب .

وكان من آثار هذه الهجرة أن هدأت الحال ، وأصبح للمسلمين وجود اجتماعى ؛ فاطرد نزول الوحى على الرسول يضع له ولأمته أسمى ما عرفته الانسانية الى يوم الناس هذا من قوانين العدل والمساواة والحرية ؛ فألف بين قلوب أهل دعوته فأصبحوا بنعمة الله إخوانا ، وهذب نفوسهم وراض ما صعب من أخلاقهم ، وجنبهم حمية الجاهلية الأولى ، وجعل رابطة الدين والعقيدة فوق كل رابطة ، وسوى بينهم فى الحقوق والواجبات ، فلا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، وجعل الكبير صغيراً حتى يؤخذ الحق منه ، والصغير كبيراً حتى يؤخذ الحق له ؛ وضمن حماية العقل والنفس والمال ، وحذر من الفحشاء والمنكر والبغى ، ودعا الى الاخلاص فى السر والعلن ، ولم يترك مبدأ ساميا إلا أخذ الله لنبيه منه بأوفر حظ ، وأرشده الى المثل الأعلى فيه .

فاذا احتفى المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها بذكرى هذا الحادث فانهم إنما يذكرون أثره العظيم فى بناء هذا الدين ، ويذكرون مع ذلك عزيمة قائدهم الأعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعزيمة أصحابه رضوان الله تعالى عليهم ، تلك العزيمة الماضية التى أبت أن تخضع لغير الحق ، واعتصمت بالله وحده ، فأخذ الله بناصرها حتى بلغ بها أسمى مكان .

ونحن نضرع الى الله تعالى فى مستهل هذا العام أن يجعله مقرونا باليمن والبركة على مصر وسائر بلاد المسلمين ، وأن يؤيد برعايته حضرة صاحب الجلالة الملك فاروقا الأول ، وأن يوفق رجال حكومته الى ما فيه خير الامة وسعادتها ، آمين ؟

محمد محيي الدين عبد الحميد

محمد صلى الله عليه وسلم

فى تقدير قادة الآراء فى العالم (١)

« لنتحول الآن من الكلام عن حياة مؤسس الاسلام الى الكلام عن الاسلام نفسه وإنما قدمنا بيان حياة مؤسسه لأنه لا يجوز جهل مؤسس أى نحلة عند الكلام عنه ، فان ذلك قلب كل دين والروح المحرك له .

« أما وقد آن لنا أن نتكلم عن الاسلام فان الأصل الذى له المكانة الأولى فيه هو توحيد الله ، وهو أساس كل دين سماوى . أما ما هو خاص بالدين الذى جاء به النبى العربى فى هذا الموطن ، فهو أن توحيد الله يقتضى كونه الملك والمولى والمشترع ، وهو ما نسميه نحن معشر التيوصوفية: إشفارا ، أى الكلمة العليا . فقد تكرر فى القرآن مدلول هذه السورة : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » . فهذا هو صميم هذا الدين ، ورسالته السامية . ولكل دين كلمة خاصة يقولها ، ورسالة ذاتية يؤديها . فكما أن الكلمة العليا فى الهند وستانية هى عمومية الذات الالهية ، فهى فى كل شىء وكل الخلق فيه ، كذلك للاسلام كلمة عليا هى وحدة الله باعتبار أنه السيد المطلق ، ليس له شريك فى الملك ، ولا ثانى يليه فى الدرجة . وإنى لأستطيع أن أستشهد بآيات كثيرة من القرآن على صحة ما أقول ، ولكن ليست الحاجة تدعو الى ذلك فأكتفى بآيتين اثنتين وهما : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ، ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم » . إن جلالة هذه الآية ظاهرة للعيان رغما عن قصور الترجمة عن بلوغ شأوها . اليك الآية الثانية : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

« ثم يلى هذه العقيدة فى الرتبة الاعتقاد بالأنبياء ، لا بنبى واحد فحسب ، ولكن بجميع الانبياء . فقد صرح القرآن فى مواطن كثيرة أنه لا يجوز التفرقة بين الانبياء ، فكلهم مرسلون من قبل الله ، وقد خص كل منهم بأمة ، وقام بما عهد اليه نحوها . وقد دل الكتاب الذى جاء به محمد جملة وتفصيلا على أنه كان يعتقد بجميع المرسلين ، ولا يحاول أن يتدخل فى أعمالهم : « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » ، « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم

(١) تابع ما نشرناه قبل هذا من البحث القيم الذى نشرته مدام أنى بيزانت رئيسة جمعيات التيوصوفية العالمية .

وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » ، « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدن أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفورا رحيما » .

« إن ما كان يعنيه النبي من كلمة إسلام تتفق اتفاقا تاما وهذه الروح الحرة التى قمنا باقامة الدليل عليها هنا . فقد كان يقول دائما إنه لا يوجد إلا دين واحد هو الاسلام ، ولكن ماذا يعنى الاسلام وعلى أى مراد كان يطلقه محمد ؟ الاسلام يعنى لغة ، الاستسلام والخضوع ، وفى الاصطلاح الدينى ، يعنى الخضوع لارادة الله . وإذا كان الرسول يقول إنه هو الدين الوحيد الصحيح ، فهو كذلك فى الواقع . ولكن هل هذا يعتبر تجديدا أو جده النبي فى البلاد العربية ؟ اللهم لا ، فانه هو نفسه لا يقول بذلك . فقد جاء فى الكتاب : « إن الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم » ، « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين . إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين » ، « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا ، واتخذ الله ابراهيم خليلا » .

« فالاسلام بهذا المعنى وحده يصبح الدين الوحيد فى العالم ، فالناس جميعا على اختلاف أديانهم إذا خضعوا لارادة الله أصبحوا أبناء الاسلام حقا بالمعنى الذى كان يطلقه النبي على هذه الكلمة . ولا يهمنا بعد ذلك إن كان أتباعه قد ضيقوا من هذا المعنى فى الأزمان الأخيرة . وإنى لأشكو الى النبي أتباعه على هذا التضييق الذى ارتكبوه ، كما شكوت النصارى الى المسيح ، والهندوسيين الى الريشيين : « يوم ندعو كل أناس بامامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولايظلمون فتيلا » ، « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، إن الله على كل شيء شهيد» ، « ولوشاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت عليهم بوكيل . ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغيرعلم » ، « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولوشاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون »

« كذلك نهى الاسلام عن مخاصمة أهل الأديان الأخرى وإن كانوا على الوثنية ، لأنهم جميعا كما يقول سيحشرون الى الله يوم القيامة فيبين لهم ما كانوا فيه يختلفون . فما أجل هذه العبارة وهي قوله : « الى الله مرجعكم جميعا » والمراد منها أن نترك منازعاتنا حتى يشرق علينا النور

الالهى فتتجلى لنا الحقيقة كاملة لاننا لا نرى منها الآن إلا جزءا . فلنترك منازعاتنا كما يأمر به هـذا الـكتاب حتى ينير العقل الالهى بصائر الناس ليروا كيف لا تعنى العقائد المختلفة إلا عقيدة واحدة .

« لنجاوز الآن هذا الموطن الى المظهر الخارجى للاسلام : فنجد فيه وجوب الايمان بالأربع الملائـكة الأعلين الذين يتولون شئون العالم بأمر من الله ، وهم ميكائيل الموكل بحماية الخليقة ، وجبرائيل المـكلف بابلاغ رسالات الله ، وعزرائيل المعهود اليه قبض الأرواح ، وإسرافيل الذى عليه أن ينفخ فى الصور يوم القيامة ، فهؤلاء الاربع الملائـكة الأعلون يشبهون الديفاراجا Devarâjas عند الهنود . ثم يليهم المبلغون الذين يكتبون أعمال الناس ، وقد خص كل إنسان باثنين منهم ، ويأتى بعدهم جماعات من الملائـكة تحيط بنا من جانب ، وهم ينفذون أوامر الله فى ملـكه ، وينفذون إرادته ، ويرشدون الناس الى الخير ، ويحمونهم من الأخطار ، وهؤلاء يشبهون الديفا Devas عند الهنود . ثم تجىء بعدهم الطبقات السفلية وهم الجن الذين نسميهم نحن معشر النيوصوفيين بالـكائنات العنصرية السفلى ، وهم خمس طوائف ، واحدة منها لـكل عنصر من العناصر الطبيعية ، وهذا مطابق كل المطابقة لتعاليم علم الباطن .

« وفى الاسلام أيضا المذهب السباعى كالطباق السبع للسماء ، والدركات السبع لجهنم ، كما هو الشأن فى التعاليم الظاهرية لـكل دين .

« وأخيراً نجـد ذكرا عن إبليس الذى عصى أوامر ربه هو وقبيله من الجنة العاصين ، وقد أهبط الى الارض وصار أميرا للهواء وعدوا للناس أجمعين .

« لنتكلم الآن عن واجبات الفرد فى الاسلام: فأولها وأعلاها قيمة هى الاستقامة. وقد ورد فى هذا الموضوع آية جليلة القدر أتلوها عليكم وهى : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولـكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، والملائكة والـكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والمـوفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ». وآية أخرى وهى : « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظـكم لعلـكم تذكرون ». وآية ثالثة وهى : « ألم نجعل له عينين ، ولسانا وشفتين ، وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أومسكينا ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنـوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة » . وقد خطب النبي محمد فقال : « إن أفضل ما يدخره الانسان لمعاده ، هو ما يسديه من الخير لاخوانه

فى هـذه الحياة . فانه إذا مات ابن آدم تساءل النـاس ماذا أخر ، وتساءل الملائكة فى القبر ماذا قدم ؟ » .

« ومما يحسن بكل باحث فى هذا الدين أن يفعله هو أن يتذكر الحالة التى وجد النبى عليها أمته ، وهى الحالة التى وصفناها فى مقدمة هذه المحاضرة ، وأن يتذكر أيضا بعد ذلك أن هذه الامة نفسها قد عملت بمـا وصاها به من هذه التعاليم .

(مجلة الأزهر) : لقد وصلت السيدة الجليلة (أنى بيزانت) الى فهم معنى الاسلام كما يفهمه أهله ، ولكننا نأخذ عليها أنهـا اتهمتهم بتضييق معناه ، ولعلها تؤاخـذهم جميعا بمـا وجدت عليه طائفة من غلاتهم فى الهنـد أو غيرها . وقد سبق لها أن قالت فيما نشرناه لها فى العدد العاشر : « احكموا على الاديان بالنظر الى سيرة أرقى ممثليها ، لا الى انحرافات أحط الآخذين بها » . ونحن نطالبها بالجرى على هذه القاعدة التى وضعتها .

أما قولها : « كذلك نهى الاسلام عن مخاصمة أهل الاديان الاخرى وإن كانت على الوثنية ، لأنهم جميعا سيحشرون الى الله يوم القيامة فيبين لهم ما كانوا فيه يختلفون . » فان كانت تقصد بالمخاصمة هنا مقابلتهم بالعدوان ، ومعاملتهم بالعسف ، فهى مصيبة فيما تقول ، وإن كان غرضها ترك دعوتهم الى الهدى ، وإنارة بصائرهم لتعرف الحق ، على أسلوب لا يثير نفوسهم ، ولا يجرح كرامتهم ، فيكون فى قولها صد عن بث النور فى العائشين فى الظلام البهيم وقد وضع الاسلام لبث هذا النور بين المحرومين منه قاعدة لا يعقل أن يكون أعدل منها وهى قوله تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعـلم بالمهتدين » . وليس بث أية دعوة بالحكمة بمستنكر فى الذوق العام ، بل هو أمر لابد منه ، فان أمر الانسان قد بنى على فهم الحقائق وتعرفها ، ودوام الترقى فى تذوقها ، لا على الجمـود والتحجر انتظـارا ليوم القيامة حيث يبين الله للنـاس فيه ما كانوا فيه يختلفون .

محمد فريد وجدى

رذيلة السعاية

سأل رجل عبـد الملك بن مروان الخلوة . فقال لأصحابه : إذا شئتم فقوموا . فلما تهيأ الرجل للكلام قال له عبد الملك : إياك أن تمدحنى فأنا أعـلم بنفسى منك ، أو تكذبنى فانه لا رأى لكذوب ، أو تسعى الى بأحد ، وإن شئت أقلتك . فقال الرجل : أقلنى يا أمير المؤمنين وانصرف .

النقد الادبى

فى صدر الاسلام

النقد يرجع فى حقيقته العامة الى غريزة حب الاستطلاع ، والكشف عن حقائق الأشياء التى تقع تحت حواسنا ، فهو مركوز فى الفطرة الانسانية منذ خلق الله فى الناس إحساسا وشعورا ، وعقلا يميزون به بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والضار والنافع ، وكان نظام الحياة العام وما جرت به سنن الله تعالى فى الكون يوحى الى الطبائع الانسانية النقد الفاحص والنظر المميز فى ظواهر الوجود التى تغمر الانسان أول ما يتصل بالحياة ، ليتعرف منها ما يلائم خصائصه .

والنقد الأدبى نوع من هذا النظر ينصب على الآثار الادبية لمعرفة موافقتها لأصول الكلام الجيد وما تشتمل عليه من معنى جميل مستحسن ، أو رذل مستهجن ، ومقدار صلة هذا المعنى بالحياة ، ومعرفة ما أضاف اليها من صور جديدة ، أو ما كشف عنه من مناحيها المجهولة ، وتبيان الاثر الذى يحدثه فى نفس القائل أولا ، والسامع ثانيا ، وما قيمته من الصدق والشعور ؟ وفى أى طرز وضع ؟

وإذا كان لا بد لنا من سلوك طريق التعريف فنستطيع على هذا الأساس أن نعرف « النقد الأدبى » بأنه : « النظر فى الآثار الادبية وتحليلها لمعرفة موافقتها لقوانين البلاغة ، وما فيها من المعانى ، وما لها من الاثر للوصول بالادب الى غايته من الكمال » . ولا شك أن هذا النحو من البحث لم يعرف لدى عامة العرب قبل الاسلام قائما على قوانين علمية ، وقواعد فنية ، وإنما عرفت عنهم خطرات فطرية ، وسانحات سليقية ، كالذى يحكيه الرواة عن « طرفة بن العبد » وقد سمع « المسيب بن عنس » يقول :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره ... بناج عليه الصيعرية مكدم

فقال : «استنوق الجمل» . قال فى اللسان : والصيعرية اعتراض فى السير ، وهو من الصعر ، والصيعرية سمة فى النوق خاصة ... ولما سمع طرفة هذا البيت من المسيب قال : استنوق الجمل ، أى أنك كنت فى صفة جمل ، فلما قلت « الصيعرية » عدت الى ما توصف به النوق .

أما خاصة الشعراء الذين عرفوا بالتنقيح كزهير والحطيئة فمذهبهم فى الشعر يدل دلالة قوية على أن لهم منهجا فى نقد الكلام غير السليقة المجردة ، ولكننا لا نستطيع تحديد ذلك المنهج تحديدا علميا لأننا بعيدون عن أن نجد قاعدة ثابتة يقوم عليها عندهم ، وكل الذى نعرفه أن نفرا

من شعراء الجاهلية كانوا يحفلون بأشعارهم وينقحونها تنقيحا يذهب ببعضها ويبقى على بعضها ، ثم تظهر للناس فى صورة يرضى عنها الشاعر ويطمئن الى نسبتها اليه . قال أبو هلال العسكرى : «وكان هذا (التنقيح) دأب جماعة من حذاق الشعراء المحدثين والقدماء ، منهم زهير ، كان يعمل القصيدة فى ستة أشهر ، ثم يهذبها فى ستة أشهر ، ثم يظهرها ، فتسمى الحوليات . وكان الحطيئة يعمل القصيدة فى شهر ، وينظر فيها ثلاثة أشهر ثم يبرزها » . فذلك التهذيب من زهير فى ستة أشهر ، وهذا النظر من الحطيئة فى ثلاثة أشهر، لابد أن يكون قائما على شىء أزيد من السليقة والفطرة .

ومهما يكن فالنقد الأدبي كان معروفا عند العرب قبل الاسلام معرفة عامة لاتتضح معالمها إلا بمقدار ما سمحت به الحياة إذ ذاك . فلما نزل القرآن الكريم ، وفتح على العرب أبوابا فى المعاني والحقائق جديدة ، تناولت التشريع والعقيدة ، والسياسة ، والاجتماع ، والأخلاق ، والأدب ، وكان فى أسلوبه طرزا فريدا لا يبارى ، اتخذه فصحاء العرب نبراسا لأساليبهم الأدبية ، وتأثروه فى كلامهم ، وإلى جانبه البلاغة النبوية لها من المميزات والخصائص ما ليس لغيرها من كلام البشر ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان أنفذ الناس بصيرة ، وأحمدهم مذهبا ، وأعرفهم بطرائق الخطاب ، ومواقع الكلام من النفوس ، وهو القائل : « إن من البيان لسحرا ، وإن من الشعر لحكمة » ، والقائل : « إياى والتشادق » ، وفى حديث آخر : « إن أبغضكم الى الثرثارون المتفيهقون » ، وروى أن رجلا تكلم بين يديه فى شأن جناية على جنين فقال : كيف ندي من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهل ، أليس ذلك دمه قد يطل ؟ فقال النبى صلوات الله عليه : أسجعا كسجع الكهان ؟ ! وهذا نحو من النقد الادبي البارع ، فانه صلى الله عليه وسلم لم يحمد من المتكلم هذا المذهب فى الكلام لما فيه من التكلف والغثاثة ، وكد النفس من غير موجب .

وذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الاحزاب : من يحمى أعراض المسلمين ؟ فقال كعب : أنا يارسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنك محسن الشعر ، وقال حسان : أنا يا رسول الله ، قال : نعم اهجهم أنت فسيعينك روح القدس ، وهذه موازنة صامتة بين شاعرى الاسلام ، والموازنة من أخص ضروب النقد فى الأدب ، والنبى صلى الله عليه وسلم معلم ومرشد ، يعلم أمته الحكمة ، ويرشدها الى طرائق الخير ، فى أفعالها وأقوالها ، فكما طهر عقيدة الأمة ، وجاءها بأكمل شريعة ، أدبها فى مناهج خطابها ، وأرشدها الى أفضل أساليب الكلام بما جبله الله عليه من السمو فى هذا المقام .

وقد جرى أصحابه على سنته ، فكان فيهم ناقدون عبقريون ، لم يشغلهم الدين عن الدنيا ، ولا صرفهم علم الشريعة عن النظر فى الادب ، فهذا عمر بن الخطاب ، وهو من هو فى الدين

وسياسة الامة : كان من آدب الناس وأنقدهم ، روى أنه قال لابن عباس : أنشدنى لأشعر شعرائكم ، قال : من هو ؟ قال الذى يقول :

ولو أن حمدا يخلد الناس أخلدوا   ولـكن حمـد الناس ليس بمخلد

قال ابن عباس : ذاك زهير ، قال : فذاك أشعر الشعراء ، قال : وبم كان أشعر الشعراء ؟ قال : لأنه كان لايعاظل فى المنطق ، وكان يتجنب وحشى الـكلام ، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه .

وهنا نحب أن نقف مع القارئ الاديب قليلا لنتأمل فى هذا القانون الذى اسـتنه عمر ابن الخطاب فى النقـد الادبى ، فهو يرى أن مقياس الجودة فى الادب التجافى عن التعقيد والتعويص فى المعانى ، والتزام السلاسة والسهولة فى التعبير ، وصدق الاحساس والشعور ، وهذه الاسباب الثلاثة هى جماع الاصلاح الادبى التى يجب أن يقـوم على أساسها النقد حتى يؤتى ثمرته المرجوة .

وكان أبو بـكر الصديق رضى الله عنه أديبا حـكيما ، وناقدا صيرفيا ، قال السيوطى فى المزهر : وكان أبو بكر رضى الله عنه يقدم النابغة ، ويقول : هو أحسنهم شعرا ، وأعذبهم بحرا ، وأبعـدهم قعرا ، وهو مذهب فى النقـد يتجه بالشعر الى عمق التصوير ، والوصول بالمعانى الى غاياتها ، وحلاوة الرنين الموسيقى فى الألفاظ ومناسبة الوزن للمعنى . أما على كرم الله وجهه فحسبك به من أديب خبير وناقد بصير ، قال صاحب العمدة : حكى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال : لو أن الشعراء المتقدمين ضمهم زمان واحد ، ونصبت لهم راية ، فجروا معا ، علمنا من السابق منهم ، وإذا لم يكن ، فالذى لم يقل لرغبة أو لرهبة . فقيل : ومن هو ؟ فقال : الـكندى ، قيل : ولم ؟ قال : لأنى رأيته أحسنهم نادرة ، وأسبقهم بادرة . هذه الشرعة فى النقد المبنى على الموازنة بين الشعراء من أصدق وأحسن قواعد النقد ، لأن اجتماع الشعراء فى زمان واحد معناه تساويهم فى التأثر بروح العصر ، والبيئات العامة والخاصة ، ونصب راية لهم فى تسابقهم معناه اتفاق الغرض حتى تصح الموازنة ، وإذا لم يكن ذلك فالميزان الصادق ، الشعور وصـدق العاطفة ، وعـدم الرغبة أو الرهبة بالنظر الى عوامل خارجية عن ضمير الشاعر . ولايتسع لنا المقام لاستقصاء الروايات الادبية التى تنسب الى كثير من أجلاء الصحابة فى النقد الادبى : كابن عباس ، والسيدة عائشة ، وعروة بن الزبير وسواهم ، وحسان ابن ثابت على براعته فى الشعر فانه كان ناقداً حاذقا ، قيل له : لان شعرك فى الاسلام ، فقال : إن الاسلام يحجز عن الـكذب . وعرف له سيدنا عمر بن الخطاب هذه المـكانة الأدبية فـكان يحكمه فى مواقف الهجاء . روى أن النجاشى الشاعر هجا بنى العجلان ، فاستعدوا عليه عمر ، فقالوا : يا أمير المؤمنين لقد هجانا النجاشى ، فقال : وما قال ؟ فأنشدوه :

إذا الله عادى أهـل لؤم ورقـة   فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر : إنما دعا عليكم ولعله لا يجاب له ، فقالوا : إنه قال :

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليتنى من هؤلاء ، قالوا : فانه قال :

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر : ذلك أقل للزحام ، قالوا : فانه قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر : كفى ضياعا من تأكل الكلاب لحمه ، فقالوا : فانه قال :

وما سمى العجلان إلا لقولهم خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : كلنا عبد ، وخير القوم خادمهم ، فقالوا : يا أمير المؤمنين هجانا ، فقال : ما أسمع ذلك ، فقالوا فاسأل حسان بن ثابت ، فسأله ، فقال حسان : ما هجاهم ، ولكنه سلح عليهم . وهذه القصة إذا صحت تفيد أموراً من العلم والأدب ، فان عمر رضى الله عنه كان فيها رجل الاسلام الذى لا يريد تأريث العداوات بين بطون العرب وقبائلهم ، وهو أعلم بأن النجاشى هجا بنى العجلان هجاء جاهليا ممضا ، فهم فى جاهليتهم كانوا يرون المثل الأعلى فى نحو قول زهير :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وكأنه رضى الله عنه كان يريد توجيه أفكار الشاكين فى رفق ولطف الى مبادئ التسامح وترك العنجهيات ، وهو فى حديثه معهم يجعل نفسه محلا لهذا ، فيقول : ليتنى من هؤلاء ، ويقول : كلنا عبيد ، وخير القوم خادمهم ، أما حسان فكان فى حكمه أديبا فنيا ، وشاعرا يعلم مواطن الاصابة والألم فى الكلام تطبيقا على المألوف من العادات .

وروى أن ابن عباس سأل الحطيئة : من أشعر الناس ؟ قال : من الماضين أم من الباقين ؟ قال : من الماضين ، قال الذى يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

وما بدونه الذى يقول :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

ولكن الضراعة أفسدته ، كما افسدت « جرولا » يعنى نفسه ، والله لو لا الجشع لكنت أشعر الماضين . وأما الباقون فما أشك أنى أشعرهم ، قال ابن عباس : كذلك أنت يا أبا مليكة .

وموضع الدقة فى مذهب الحطيئة النقدى عرفانه بأثر الجشع فى إفساد الفطرة الانسانية ، وقتله للاباء والكرامة ، مع صراحته فى الاعتراف به على نفسه ؟

صادق ابراهيم عرجون

الفقه الاسلامي

إنشاء مجمع فقهي ملكي لخدمته — إيجاد دائرة معارف منه
اقتراح على مشيخة الازهر الجليلة

يدعونى ما نشرته مجلة الازهر الشريف فى عددها الصادر فى المحرم سنة ١٣٥٦ لحضرة العلامة الجليل مدير تحريرها تحت عنوان « جمع المذاهب الفقهية » ولحضرة القانونى الكبير الدكتور عبد السلام ذهنى بك المستشار تحت عنوان « التوثب للنهوض الفقهى » الى أن ألقى بدلوى فى الدلاء ، وأعرض ما يلى :

ما من ريب فى أن الفقه الاسلامى محيط أعظم لا ساحل له ، ولا تبلغ أكبر دائرة من دوائر المعارف القانونية الاوربية بالنسبة له غير بحيرة الى هذا المحيط .

حوى هذا الفقه من النظم والاحكام ما يكفى المجتمع البشرى فى التشريع فى كل زمان ومكان . وما من حكم عادل أو نظام صالح إلا ولعالم من علماء المذاهب الفقهية قول فيه .

ومع غنى هذا الفقه وإحاطته التى لا نظير لها لم يعن به المتأخرون ، ولم ينظموه التنظيم الحسن الذى يمكن من الاستفادة منه بسهولة ، ولم يعرضوه العرض المشوق الذى يدعو الى الرغبة فيه والاقتباس منه ، لأنهم لو عنوا به لألفوا منه دائرة معارف فقهية خاصة بكل مذهب ، ودائرة معارف كبرى تحيط بجميع المذاهب بأدلتها ، وتجمع جميع الفتاوى والأقوال منسقة تنسيق دوائر المعارف القانونية الاوربية ، لتعين الباحث وتسهل له المراجعة ، وتوفر له الوقت والمجهود ، ويقف منها القارئ فى دقائق معدودة على ما قاله العلماء فى نحو أربعة عشر قرنا فى المعنى الذى ينشده من غير أن يتكبد المشاق ويضيع الوقت الطويل فى مراجعة عشرات المجلدات للوصول الى ذلك المعنى المنشود كما هو حاصل الآن .

فاذا كان السالفون لم يفكروا فى وضع دائرة معارف فقهية خاصة بكل مذهب ، و« دائرة المعارف الفقهية » الكبرى المحيطة بجميع المذاهب ، فان الناس فى هذه الايام يتوقعون أن يقوم الازهر الشريف ، فى عصر مليكنا المفدى فاروق الاول ، وعلى يد مولانا الاستاذ الاكبر والامام المصلح الشيخ المراغى بهذا الواجب ، وسد هذا النقص .

فان فضيلة مولانا الامام ، وهو من أركان النهضة ، وفى مقدمة رجال الاصلاح ، وقد عرف بالمسارعة الى عمل كل ما فيه الخير والرقى والتقدم ، هو الذى يستطيع أن يعمل على إصدار مرسوم بانشاء « المجمع الفقهى الملكى » على مثال المجمع اللغوى الملكى لخدمة الفقه الاسلامى

وإنشاء دوائر المعارف الخاصة والعامة منه، وهو الذى يمكنه أن يرصد المبالغ فى ميزانية الازهر سنويا للقيام بهذا العمل العلمى الجليل . وهو الذى يمكنه أن يكلف علماء كل مذهب فى الازهر بانشاء دائرة معارف خاصة بمذهبهم ؛ وهو الذى يستطيع أن يكون اللجان الرئيسية والفرعية من علماء الازهر الشريف ورجال القضاء والقانون الذين اطلعوا على دوائر المعارف القانونية فى اللغات الاوربية ، ويقسم أبواب الفقه على هذه اللجان ليساهم كل فى هـذا العمل العظيم الشأن الذى لم يوفق أحد من قبل للقيام به ، مع أن الفقه وطلابه الباحثين فيه ، وعالم التشريع والقانون فى شدة الحاجة اليه .

إنى أتقدم بهذا الاقتراح لحضرة صاحب الفضيلة مولانا الاستاذ الامام المصلح الاكبر شيخ الازهـر الشيخ المراغى ، فانه كما قال الاستاذ رئيس التحرير هو الذى يقـدر عظمة هذا المشروع حق قدره ، ويستطيع بما أوتيـه من اطلاع بعيد المدى على أسرار الشريعة ، وقدرة فائقة على تذليل العقبات ، أن يهون كل صعب فى سبيل تحقيقه .

ولقد تشرفت بعرض هـذا الاقتراح على فضيلة مولانا فى سنة ١٩٣٥ فتفضل بتشجيعى عليه ، وإبداء الارتياح منه ، مما يدل على ان فضيلته فكر فى هـذا الموضوع قبل أن يفـكر غيره فيه ، وأنه عازم على تنفيذه من غير أن يطلب أحد منه ذلك ، متى رأى أن الوقت قد ان للشروع فيه .

أبقاه الله وأدامه ، وأعز به الاسلام والمسلمين !

السيد عفيفى
بمحكمة مصر الشرعية

من حديث الاجواد

بينا خالد بن عبـد الله القسرى جالس فى مظلة له إذ نظر الى أعرابى يخب به بعيره مقبلا نحوه ، فقال لحاجبه : إذا قدم فلا تحجبه ، فلما قدم أدخله عليه ، فسلم وقال :

أصلحك الله قـل ما بيـدى فما أطيـق العيال إذ كثروا
أناخ دهر ألقى بكلـكله فأرسـلونى إليك وانتظـروا

فقـال خالد : أرسلوك وانتظروا ، والله لا تنزل حتى تنصرف إليهم بمايسرهم ، وأمر له بجائزة عظيمة وكسوة شريفـة

وخرج رجل من الشعراء الى يزيد بن حاتم ، فلما بلغ مصر وجده قد مات ، فقال فيه :

لئن مصر فاتتنى بما كنت أرتجى وأخلفنى منها الذى كنت آمل
فما كل ما يخشى الفتى بمصيبه ولا كل ما يرجو الفتى هو نائل
وما كان بينى لو لقيتك سالما وبين الغنى إلا ليال قـلائل

استحضار الارواح فى أوربا

نشرت مجـلة الدنيا الاسبوعية حديثا عن حضرة الاستاذ الـكبير ابراهيم الهلباوى بك المحامى ، ذكرت فيه أنه لما شخص الى أوربا فى سنة ١٨٩٥ رأى هو ولطيف سليم باشا رحمه الله ، أن يجربا مسألة استحضار الأرواح التى شاعت فى أوربا من سنة ١٨٤٧ وحققها علماء كثيرون هنالك واعتقدوا صحتها ، فقصدا الى وسيطة مشهورة فى باريز ، فجلست وهما معها حول منضدة واضعة يديها عليها ، وفعل لطيف باشا مثل ما فعلت ، ولم تمض هنيهة حتى وقعت فى غيبوبة ، ثم أفاقت وقالت للاستاذ : ها هى الروح التى طلبت فى نفسك أن تحضر قد حضرت . فسألها : روح من هى ؟

فقالت : روح محمد .

فسألها : أهى روح محمد توفيق باشا ؟

فقالت : لا ، ولـكن روح محمد النبى ، وأخذت تصفها بأوصافها التى وردت عنها فى كتب السير . ثم قالت لهما : سلاها ما شئتما .

قال الهلباوى بك : فحرت فى أمرى ، واعـترانى تهيب عظيم ، لم أملك معه قياد نفسى . ولم أسـتطع أن أنبس بكلمة . فقلت للطيف باشا : كلمها أنت . فاذا به قد اعتراه مثل ما اعترانى فلم يزد على أن قال : يا ... ر ... سو ... ل الله . ثم أرتج عليه وصمت .

فلما شق علينا الأمر ، استعفينا الوسيطة من الاستمرار ، معتذرين بما أصابنا ، وخرجنا .

قال فلما كان اليوم التالى أعدنا الـكرة ، وعزمت على أن أستحضر روح زوجتى . فـكان من الوسيطة ما كان بالأمس من الغيبوبة ثم الافاقة . وقالت لى : هاهى الروح التى طلبت فى نفسك أن تـكلمها . فقلت ما اسمها ؟ قال : فأخبرتنى عن اسم زوجتى المتوفاة . ثم أخذت تفيض فى وصف صورتها ، فلم تخطئ فى شىء من حليتها ، وهى لا تعرف عنها شيئا قبل ذلك .

قال : فـكلمتها بما أردت وصرت من ذلك اليوم أعتقد بصحة استحضار الأرواح .

ثم قال : فلما عدنا الى مصر أخبرنا معارفنا بما شاهدناه ، وكان منهم بطرس غالى باشا ، فوعى ما قلناه ، ولما ذهب الى باريز قصد الى تلك الوسيطة وغيرها ، وتحقق من صحة اتصال الاحياء بعالم الموتى .

ثم قال : ولم يقف لطيف باشا عند هذا الحد ، فتوصل الى إيجاد وسيط واتفق أن كان خادما عنده ، فحضرت إحدى تجاربه معه ، وطلبت فى نفسى أن تحضر روح على بن أبى طالب ،

فقال الوسيط : هاهى قد حضرت . فكلمتها فكان جوابها كلاما عاليا من نوع الكلام المعزو الى على بن أبى طالب فى نهج البلاغة ، وكان الوسيط أميا .

ثم ختم الاستاذ الكبير حديثه بأنه من المؤمنين بامكان مناجاة الأرواح ، بعد ماظهرت له صحتها بالدلائل المحسوسة ، وأن هذه المسألة سيكون لها تأثير كبير فى العالم .

هذا ما نشر من حديث شيخ المحاماة فى مصر ، وماكاد يذيع بين القراء حتى وافانا من غير واحد منهم سؤال عن مبلغ مسألة اتصال الاحياء بالارواح من الصحة ، وعن حكمها من الدين ، فلم يسعنا إلا إفاضة الكلام فيها نزولا على إرادة حضرات السائلين ، فنقول :

أصل هذه المسألة من التاريخ :

أثبت التاريخ أن مناجاة الأرواح كانت معروفة لدى القدماء منذ ألوف من السنين . فقد تبين أن المصريين والصينيين والهنديين وغيرهم كانوا يتصلون بأرواح الموتى ، ويخاطبونهم على نحو ما عليه الحال فى أوربا الآن ، وقد بلغوا فيها شأوا أبعد مما بلغناه فى هذا العصر . ولا تخلو أساطير أمة فى الأرض من ذكر ظهور أرواح الموتى للأحياء ، بل لا يخلو بلد فى الأرض من حوادث ، تروى عن ظهور كائنات مجردة عن المادة للناس فى دور مأهولة أومهجورة أو خارجها فى الخلوات والطرقات . ولكن العلم لم يكن يعبأ بكل ذلك ، ذهابا منه أنها من توليدات الخيال ، وأوهام الجهال .

فلما كانت سنة ١٨٤٧ حدثت ضجة فى صحافة أمريكا حول حادث ظهور روح فى بيت ، وثبوت ظهورها لرجال الشرطة والنيابة . فأغرى ذلك كثيرا من رجال العلم والسياسة والقضاء الى التحقق من هذا الأمر ، فكان كل من يزور أسرة المستر فوكس فى بيتها بمدينة هيدسفيل بقرب نيويورك ، يشهد حوادث لا يجد الى إنكارها من سبيل ، ويعلن ما رآه غير خاش فى الحق لومة لائم . من هؤلاء المشترع أدموندس Edmonds رئيس مجلس الشيوخ الأمريكى ، والاستاذ (ميبس) Mapes أستاذ الكيمياء بالمجمع العلمى . والاستاذ (روبيرت هير) R. Hare وغيرهم من كبار المفكرين ، ولم يكتفوا بما اعتقدوه فى أنفسهم ، كما فعل إخواننا المصريون الذين رأوا بعض حوادثها ، بل نشر كل منهم بحثه على رءوس الأشهاد . حتى أنه لما اشتدت لهجة الجرائد فى حق المشترع أدموندس ، كان عليه إما أن يترك هذه المباحث أو يستقيل ، فاستقال من منصبه الخطير وعرض بنتيه للتجارب ، وكانتا قد ظهرت فيهما خاصة الوساطة . وهكذا تفوز الحقائق بالظهور فى بلاد الغرب ، وتجد لها جوا صالحا للازهار والاثمار ، وتخفى فى الشرق وتنطمس معالمها ولا تجد لها نصيرا .

لم يكن ما أثبته الباحثون فى منزل المستر فوكس أن الحادثة تنحصر فى حدوث طرقات واضطرابات لا يمكن تعليلها إلا بنسبتها الى عالم غير منظور ، ولكنها تتجاوز ذلك الى التفاهم

بين أفراد من ذلك العالم وبينهم . فقـد اتفقت مدام فوكس ومحدث الاضطراب على الجواب بواسطة الطرق : طرقة واحدة للنفى ، وطرقتان للاثبات ، ثم سألته قائلة : هل أنت روح ؟ فأجابت أن نعم ، بواسـطة طرقتين . وما زالت تسألها وهى تجيب بنعم ولا ، حتى علمت منها أنها روح ساكن سابق لهذه الدار ، قتله جار له وسلب ماله ودفنه بجوار جدار فيه . فما وسع مدام فوكس إلا أن أشهدت على هـذه الاجابات بعض الجيران ، ثم قصدت الى دار الشرطة وأخبرت رئيسها بما حدث . واتفق أن إدارة الشرطة كانت تبحث عن مفقود كان يسكن منزل مدام فوكس قبلها فلم تهتد اليه . فشخص الضابط الى تلك الدار على رأس كتيبة من رجاله وحاصرها من كل مكان ، واحتل بعض أفراد الكتيبة السطح والغرف المجاورة . ولكن على الرغم من كل هذه التحوطات أحدثت الروح الطرقات ، وأجابت على كل ما وجه اليها من السؤالات ، ودلت على القاتل . فلم يسع ضابط الشرطة إلا أن أبلغ الخبر الى النيابة ، فحضر بعض رجالها واتخذوا ما أمكنهم اتخاذه من التحوطات ، وسمعوا أقوال الروح . وألقى القبض على المتهم فاعترف بجريمته .

وكان لمدام فوكس بنتان ، أكبرهما فى الرابعة عشرة ، أنستا بهذه الروح فكانتا تبادلانها السؤال والجواب ، ثم اتفقتا وإياها على طريقة أخرى للتفاهم ، وهى أن تسرد واحدة منهما حـروف الهجاء ، فتطرق الروح طرقتين عند كل حرف تريده ، وتتولى الأخـرى إثباته على الورق حتى ينتهى ما تريد الافضاء به ، ثم تركب من تلك الاحرف المنثورة كلمات ، ثم تقرأ فيكون الجواب .

أمضت البنتان فترة من الزمن وهما تشتغلان بمداعبة الروح بالمسائل التافهة ، فما راعهما إلا أنها قالت لهما يوما : إنها لم تتكلف الظهور لهما إلا لأجل أن تقـوم بواجب خطير ، البشر فى أشد الحاجة إليه فى هـذا العصر ، وهـو أن تثبت هى وأخواتها اللاتى كانت تأتى معها ، للذين لا يعتقدون بحياة الأرواح بعد المـوت ، أن الأرواح حية ترزق ، وأنها فى عالم أرفع من هذا العالم . وعلى هذا فهى تكلف البنتين بأن تعلنا فى الصحف عن حفلة روحية تقيمانها فى إحـدى حجر المحاضرات العامـة . ومتى حضر الناس وجلسا على المسرح قامت الروح باحداث خوارق مدهشة ، تثبت بها للنظارة أنهم من الحادهم فى ضلال مبين ، وأن عالم الأرواح حق لا شبهة فيه .

فريعت البنتان من هـذا الطلب ، وكبر على أمهما أن تعرضهما لتهمة الشعوذة ، فأجبن الروح مجمعات بعدم إمكان قبول طلبها .

فأجابتهم الروح قائلة : إذا كان الأمر كما تقلن ، فانى لن أحضر اليكم بعد اليوم ، وودعتهن وانصرفت . وانقطع اتصالها بهن . ووجـد البنتان وحشة من فراقها لهما ، وكانتا تأنسان بالاتصال بها كل الأنس . وفـكرتا فى تعـديل الطلب وجعـله أقل تعرضا لقالة الجماهير .

وطلبتا الروح لحضرت ، فقالتا لها : إن التعرض للجماهير علنا امر لم تتعوداه ، وقد رأتا مرضاة لصديقتهما الروح أن تتوسطا فى الأمر فتجاسا فى حفلات تتخذ فى أبهاء دور بعض الأسر الكبيرة .

قبلت الروح هذا الاقتراح فكانت الاسر الكبيرة تدعو الاختين ، فتقبلان الدعوة وتجلسان بين سائر المدعوين من علية الناس ، فتحدث خوارق تحمل من يراها على التصديق بعالم الارواح .

وقد تبين من اتصال الروح بهاتين الفتاتين ، ومما عمله العلماء من البحوث فى هذه الأمور ، أن الاتصال بعالم الأرواح لايمكن أن يكون إلا بوسيط آدمى ، فيه استعداد خاص لأن تستمد منه الروح مادة تستطيع معها أن تؤثر فى الاشياء تأثيرا يحس به الاحياء . وقد يكون الوسيط هو المجرب نفسه ، كما تبين للكثير من كبار الرجال ، فقد اتضح أن الاستاذ الطبيعى (مورجان) والكاتب الفيلسوف (وليم ستيد) ، والعالم اللاهوتى ستنتون موزس ، وسطاء ، وكلهم من أعيان الانجليز ، وأن بنتى أدموندس رئيس مجلس الشيوخ الامريكى ، وامرأة أكزأكوف الوزير الروسى وغيرهن من كرام العقائل ، وسيطات أيضا .

فاذا لم يكن المجرب نفسه يصلح للوساطة ، وجب أن يبحث عن وسيط غيره ، وليست الوساطة بالأمر الهين ، فقد تستولى الروح على يده فتخرجها عن إرادته وتكتب بها ما تشاء ، وقد تستولى على لسانه أو سمعه ، وقد تغطسه وتوقعه فى غيبوبة وتأتى ما تأتيه أمام المجربين ، وهو غافل عما تفعل . وقد شوهد أن بعض الارواح تتجسد مستعيرة جسدها من الوسيط ، فاذا وزن وهى متجسدة ، ظهر أن جسده آل الى نصف ما كان عليه . وقد شوهد أن الروح تتجسد بتحليل النصف الأسفل من جسم الوسيط ، لتكون لنفسها منه جسدا تظهر به للمجربين . وقد رئي أن الروح تضمر جسد الوسيط فتقصر أذرعته وساقيه ، وتفرغ جسمه من بعض العضلات والشحم ، ثم ترده الى حالته متى انصرفت .

هذه مسائل محيرة للعقل شغلت بال كثير من علماء أوربا ، فوقفوا حياتهم على دراستها ، وبذلوا الاموال الوفيرة لتهيئة أسبابها . ألفوا لها جمعيات وأقاذيميات ، وأقاموا مؤتمرات كان آخرها مؤتمر برشلونه سنة ١٩٣٥ ، ولهذه البحوث مئات من المجلات الخاصة بها . وهى كما ترى خليقة بان ينفق فى سبيلها كل جهد . لذلك تراها قد شغلت من العقول مالم تشغله مسألة أخرى من قبل .

إنى أرى أن من واجباتى ، وقد عرض ذكر هذه المباحث ، أن أعطى قراء هذه المجلة صورة كاملة عنها ، وكل ما ذكرته من هذه الخوارق ، مشاهدات حققها رجال من أقطاب العلم ، وعملوا عنها محاضر مذيلة بتوقيعاتهم ، وتناقلوها فى مؤلفاتهم ، والقراء أحرار فى أن يتتبعوها فى تلك المؤلفات ، أو ينفوها بدون بحث ، كما يفعل علماء أوربيون كثيرون ، بحجة أنها منافية

للنواميس الطبيعية المعروفة التى لا يؤمنون إلا بها ، ولا يتخيلون أن فوقها قوة تستطيع ان تحولها عن مجراها العادى .

من أشهر الجمعيات التى تشتغل بهذه الامور جمعية المباحث النفسية التى ألفها مدرسو جامعة كمبردج فى سنة ١٨٨٢ ، ولا تزال موجودة ، وقد جمعت من تجاربها وتجارب سواها أكثر من خمسين مجلدا ، تعتبر ثروة علمية لا تقدر بثمن .

ومنها مجامع المباحث النفسية فى باريس ونيويورك وبرلين وروما وغيرها ، وكلها يديرها العلماء ، وهذه غير جمعيات لا يحصى لها عدد منبثة فى جميع عواصم الأرض .

ولا غرو فان موضوعها من أمس المواضيع بالانسان ، وأدعاها لتفكيره وعنايته ، فهى تبحث فى هل له روح تبقى بعد موت جسده ، وتخلد فى عالم غير هذا العالم أم لا ؟

وقد نشأ من الخوارق التى تاتيها الأرواح مواضيع لدراسات فيزيولوجية وبيولوجية ونفسية من الخطورة بمكان عظيم، بحيث ينتظر أن يترقى العلم بحلها الى درجات لم يكن يحلم بها أحد من قبل، وتحل بواسطتها شبهات دينية كانت أكبر عقبة فى سبيل الأديان فى عصور النهضات العلمية فى الامم .

تقرير اللجنة العلمية عن هذه الخوارق :

لما انتشرت هذه المباحث فى أوربا ، وأعلن كثير من العلماء تصديقهم لها ، طالب الرأى العام البريطانى المجمع العلمى بابداء رأيه فيها ، فندب اثنين وثلاثين عالما من أعلامه لفحصها ، وإبداء رأيهم فيها . فقاموا بما عهد اليهم ، ودأبوا ثمانية عشر شهرا على دراستها ، ثم كتبوا عنها تقريرا وقع فى أكثر من خمسمائة صفحة ، جاء فى آخره ما يأتى :

« كل الاجتماعات التى عقدت لفحص هذه المسألة كانت فى الدور الخاصة باعضاء هذه اللجنة ، لنفى كل احتمال فى إعداد آلات لاحداث هذه الظواهر ، أو أية وسيلة من أى نوع كان .

« وقد عملنا تجاربنا فى ضوء الغاز ، ما عدا عددا قليلا منها ، اقتضى شانه الخاص أن نعمله فى الظلام دقائق معدودة .

« وقد تحاشت اللجنة أن تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه المهنة فى الخارج ، أو الذين يأخذون أجرا على عملهم هذا . فكان واسطتنا الوحيد أحد أعضاء اللجنة ، وهو شخص جليل الاعتبار فى الهيئة الاجتماعية ، وحاصل على صفة النزاهة المطلقة ، وليس له غرض مالى يرمى إليه ، ولا أى مصلحة فى غش اللجنة . (نقول : هذا الاستاذ هو العالم الطبيعى مورجان رئيس شركات التلغرافات البريطانية) .

« كل تجربة من التجارب التى عملناها بما أمكن لمجموع عقولنا أن تتخيله من الدقة ،

عملت بصبر وأناة . وقد دبرت هذه التجارب فى أحوال كثيرة الاختلاف ، واستخدمنا لها كل المهارة الممكنة ، لأجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا وإبعاد كل احتمال لغش أو توهم .

« وقد بدأ نحو أربعة أخماس اللجنة التجارب وهم فى أشد درجات الانكار لصحة هذه الظواهر ، وكانوا مقتنعين أشد اقتناع بانها نتيجة التدليس أو التوهم ، أو أنها حادثة بواسطة حركات غير إرادية للعضلات . ولم يتنازل هؤلاء الاعضاء المتشددون فى الانكار عن فروضهم إلا بعد ظهورها بوضوح لا تمكن مقاومته ، وفى شروط تنفى كل فرض من الفروض السابقة ، وبعد تجارب وامتحانات مدققة ومكررة ، اقتنعوا مضطرين بأن هذه المشاهدات التى حدثت فى خلال هذا البحث الطويل هى مشاهدات صحيحة لا غبار عليها » انتهى .

بعد صدور هذا التقرير مذيلا بتوقيع اثنين وثلاثين قطبا من أقطاب العلم الرسمى فى انجلترة ، أدرك الناس كافة أنهم حيال آية جديدة أراد الله أن تظهر لتخليص الانسانية من شبح المادية التى كادت تهوى بها الى مكان سحيق .

ما هى طبيعة الكائنات التى تحدث هذه الخوارق :

الصعوبة فى نظر المسلمين وغيرهم من الدينيين ليست فى حدوث هذه الخوارق أو أعظم منها ، لأنهم يعتقدون أن الوجود مشحون بكائنات روحانية علوية وسفلية ، قد يظهر بعضها من نفسه لبعض المستعدين لرؤيتها ، ويستحضر بعضها الآخر بوسائل قررها الروحانيون منهم ، ولكن الصعوبة هى فى ادعاء هذه الكائنات أنها أرواح الموتى الذين كانوا عائشين على الأرض ، وفى إمكان المجربين استحضارها فى أى وقت يريدون ، حتى ولو كانت فى عليين ، وهم من الأدنين .

والذى أنكره جمهور قراء مجلة الدنيا من المسلمين ينحصر فى هذه النقطة . فقد عز عليهم أن يصدقوا أن روح محمد صلى الله عليه وسلم تتنزل من عليائها الروحانى ، وتلبى دعوة واحد من الناس بوساطة امرأة قد لا تكون من المكانة الروحانية بحيث تصلح لمثل هذه الوساطة ، وباستدعاء رجال قد لا يكونون لاستدعائها أهلا .

هذه المسألة لم تفت كبار المجربين من الاوربيين ، فحذروا الناس من الانخداع بالأسماء الكبيرة التى تنتحلها بعض الكائنات الروحانية المنحطة ، فتدعى أنها أرواح علوية وهى فى الحقيقة من الأرواح السفلية التى دأبها تضليل الباحثين . فكثيرا ما اتصلت بهم كائنات مجردة من هذا الطراز وانتحلت شخصيات سقراط وأفلاطون ونابليون وغيرهم ، ثم اتضح من البحث أنها من درجات منحطة ولا تقصد غير السخرية من المجربين .

وهنا يجب علينا أن ننبه القارئين الى أمر جدير باهتمامهم ، وهو أن هذه البحوث يشتغل بها فى أوربا فريقان من الناس : فريق المستطلعين العاديين ، وهؤلاء ينخدعون بالظواهر ، وليس

لهم قدرة على تحليلها ، فيصدقون كل ما يقال لهم وكل ما يرونه ، فيتحمسون له ولا يقبلون فيه تشكيكا ؛ وفريق العلماء والمثقفين ؛ وهؤلاء يعنيهم قبل كل شىء التحقيق والتمحيص ، وبناء الاحكام على أساس علمى ركين .

فما اكتفى به الاستاذ الهلباوى بك ولطيف باشا سليم من الذهاب الى دار الوسيطة ، والجلوس اليها على منضدة ، وسماع أقوالها مما يكتفى به السواد الاعظم من المجربين، لا يرضى به العلماء المحققون ، ولا يعدون نتيجته تجربة يصح أن تذاع عنهم .

ذلك لأنها تعلل فى نظرهم بعلل طبيعية تنفى صلتها بالعالم الروحانى ، فيقولون : إن الوسيطة توقع نفسها فى نوم مغناطيسى ، وقد حذق بعضهم طريقة ذلك بدون منوم ، فيتصل عقلها الباطن بعقول المجربين ، فتعرف كل ما يجيش فى صدورهم من صور وأقوال . فكما قرأت فى نفس الهلباوى بك أنه يطلب روح النبى صلى الله عليه وسلم أو روح زوجته ، قرأت كذلك كل ما يعلمه من تاريخهما ، وما عرفه من حليتهما ، فرددته له بدون تحريف ، فخيل اليه أنه فى حضرة روح النبى الكريم ، أو روح زوجته المرحومة ، وما هو إلا خيال ما اختزنه عقله الباطن عنهما مردودا عليه .

وقد جاوز العلماء المجربون هذه الدائرة فى التعليل الى ما هو أوسع منها ، إذا أتى الوسيط أو الوسيطة بما لا يعلمه المستحضر من تاريخ الروح التى يستحضرها ، فقالوا : إن العقل الباطن للوسيط بما متع به من خاصتى السريان والكشف ، يستطيع أن يطلع على ما يريده من كتب التاريخ أو من عالم المثال نفسه ، حيث تمثل جميع الحوادث فيه قبل وقوعها ، كما يرى المنوم بعض الحوادث المستقبلة وينبئ عنها فتقع كما أنبأ . وما هو إنباء بالغيب وإنما هو رؤية حوادث خلقت ولما تصل الى العالم المحسوس ، وليس هو كذلك صادرا من الروح التى يطلبها المجرب ولكن من روح الوسيط نفسه .

وفى مجموعة التجارب الروحية ألوف من مثل تجربة الهلباوى بك لا يرفع العلماء الممحصون بها رأسا ، ولا يعدونها من الادلة التى يعتد بها فى هذا الشأن الخطير .

أما وقد وصلنا الى هذا الحد فقد وجب علينا أن نسرد أهم ضروب التحوطات التى يتخذها العلماء المجربون لعدم الانخداع بظواهر هذه المسائل ، تمييزا لما يمكن أن يحدث بالقوى الذاتية لروح الوسيط ، عما يرجح أنه آت من أرواح مستقلة عنه ، لأن التمييز بين هاتين الحالتين من أشق الأمور ، وفى حاجة الى خبرة واسعة بالمعارف النفسية ، وخصائص العقل الباطن .

بعض ضروب التحوطات التى يتخذها العلماء المجربون :

أول شرط عند العلماء لتمحيص التجارب أن يأتى الوسيط الى دورهم الخاصة أو الى معاملهم ، وأن يخضع لما يسومونه إياه من ضروب التحوطات .

فيجردونه من ثيابه ويلبسونه سواها ، ويفحصون فمه وأذنيه خشية أن يكون قد أخفى فيها أداة صغيرة أومادة تميده فيما هو بصدده .

ويشدون يديه ورجليه الى الكرسى الذى يجلس عليه شـدا وثيقا ، ويسمرون أطراف الأربطة فى الارض ، ويختمونها بالشمع الاحمر ، ويطبعونها بخاتم ، ويضعون عليه قفصا من الحديد مسمرا على الارض .

ويصلون جسمه بجهاز كهربائى (جلفانومتر) ، يسجل عليه كل حركة مهما صغرت من حركاته .

ويوكلون به رجلين منهم يراقبانه .

ويفتشون الحجرة التى هم فيها ويقفلون بابها ونوافذها ويأخـذون مفتاحها ، ويختمون كل ذلك بالشمع الاحمر .

فان كان الوسيط امرأة ، وكلوا بها نساءهم لتفتيشها وإلباسها ألبسة غير التى جاءت بها .

وقدأثرعنهمأنهم أضجعوا الوسيطة مرة علىالارض ، وسمروا شعرها فيها ، بحيث لا تستطيع الحركة .

بعد أن يتخذوا هذه التحوطات أو ما يماثلها على حسب الاحـوال ينتظرون ما يكون . وكثيرا ما تجسدت أمامهم ، والوسيط على تلك الحال ، أيد الى المعاصم تسلم عليهم وتكتب ، أو أذرع كاملة ، أو رءوس لا اجساد لها تكلمهم وتقبلهم ، أو أنصاف أجساد ، أو أجساد كاملة . وهم فى كل هذه الاحوال يستأذنونها فى أن يفحصوها ؛ فتأذن لهم ، فلا يدعون فى جسدها شعرا ولا عضلا ولا وزنا إلا فحصوه وقدروه .

وهم يرونها تتجسد أمام أعينهم ، فينشأ أولا فى جو الحجرة نحو بخار أبيض لا شكل له ، يأخذ بعـد ثوان شكلا إنسانيا نورانيا ، ثم يزداد جسمها كثافة حتى يكون جثمانا كامل الخلقة ، ذكرا أوأنثى ، فاذا أمسك أحد بيدها ، أحس بيد إنسانية ذات عضل وعظام وحرارة ، فان أصر على أن لايتركها ، أفلتت منـه بتحليل يدها وهى فىقبضة يده ثم تعيدها الى ماكانت عليه حرة طليقة .

فاذا طلب منها أن تزول ، ذابت أمامهم كمايذوب الثلج ، ولـكن فى ثوان ، فاذا استعادوها الظهور ظهرت فى ثوان أخرى .

هؤلاء العلماء لم يتركوا ضربا من ضروب التجارب إلافعلوه ، وقد أودعوا تجاربهم كتبا تعد بالألوف . ومع كل هذا (لم يجمعوا) بأن هذه الـكائنات هى أرواح الموتى الذين تنتحل أسماءهم . ورغما عن ظهور أمهات وآباء وأخوات وإخوان وبنات وأبناء لأهليهم من المجربين ،

بصورهم التى كانوا عليها بين ظهرانيهم ، وبمميزات عقلياتهم وعواطفهم ، وطرز أحاديثهم ، وجميع خصائصهم ، رغما عن كل هذا لا يزال بعض العلماء من المجربين يتردد فى أنهم صادقون فيما يدعون ، لاشكا فى أنهم من عالم الروح ، ولكن فى أنهم الذين كانوا بين ظهرانيهم عائشين .

فبعضهم يظن أن روح الوسيط تتجرد وتظهر لهم بصور أهليهم .

وبعضهم يخشى أن تكون أرواحا خبيثة تتشكل بأشكال ذويهم وليست هم .

وبعضهم لا يستبعد أن يكون ما يرونه صور ما استكن فى ضمائرهم .

وقد رد العلماء المصدقون على هذا الفريق من العلماء الشاكين بقولهم : إذا كانت روح بعض الوسطاء تكذب فلا يعقل أن تكذب أرواحهم أجمعين ، ومنهم من هم أقارب للمجربين .

وردوا على شبهة الارواح الخبيثة بقولهم : لا يعقل أن تجمع تلك الأرواح على هذا الخبث فى كل بلد ، وفى مدى تسعين سنة مرت فى البحث والتنقيب .

وأما شبهة التوهم فقد دفعه الناقدون بقولهم : إن تلك الكائنات ترفع الأخونة الثقيلة وتضع عليها الكراسى والمناضد ، وتكسر الاشياء الجامدة ، وتظهر صورها بالفوتوغرافيا ، فهل يرفع الوهم الأجسام الصلبة ويكسرها ، وهل يقبل الوهم التصوير ؟

يسع كل من يستبعد من المسلمين خضوع الارواح الانسانية للوسطاء والمجربين ، أن ينضموا الى فريق العلماء الشاكين ، أو يعزوها للشياطين .

فسواء أصح أن هذه الكائنات هى أرواح إنسانية أم أرواح شيطانية ، فقد أصاب إثبات وجودها الفلسفة الالحادية فى مقتلها ، فقد كانت تزعم أن الوجود لا يعمره غير المادة ، وأن كل ما يقال عن كائنات روحانية عائشة فى عالم غير مرئى ، فهو هراء ولده الخيال ، وجمد عليه الناس فى خلال الاجيال .

فاذا قال قائل : وماذا يهم المؤمنين من مزاعم الماحدين ؟ نقول : يهمهم ظهور خطئهم فيما كانوا يزعمون من أن المؤمنين ما جعلهم يتمسكون بما ورثوه من وجود العالم الروحانى ، إلا أنهم لم يتذوقوا العلم ، ولم يصدروا عن أسلوبه الصارم فى التمحيص ، وهذه شبهة قد أثرت أقوى تأثير فى نفوس المتعلمين على الطراز الحديث . ولكنهم اليوم لا يستطيعون أن يستندوا فى نفى العلم الروحانى على العلم ولا على أسلوبه ، فقد تولى العلم منذ تسعين سنة البحث فى هذا الموضوع على موجب دستوره المقرر فثبت له وجوده ثبوتا لا يمكن التشكك فيه .

قال الاستاذ (ميرس) H .W .Myers المدرس بجامعة كامبردج الانجليزية فى كتابه الشخصية الانسانية (The human personality) .

« حوالى سنة ١٨٧٣ حيث كان المذهب المادي قد أوغل فى الأرض حتى وصل

الى سواحلنا ، وبلغ أوج سطوته على العقول ، اجتمع ثلة من الزملاء فى جامعة كمبردج ، وأجمعوا على أن هذه المسائل العويصة المتنازع عليها (يريد المباحث الروحية) تستحق التفاتا ، وجهدا جديا ، أكثر مما عولجت به الى ذلك الحين . إذ كنت أرى أنا أن محاولة جديرة بهذا الاسم لم تعمل الى ذلك الوقت للبت فيما إذا كنا أهلا أوغير أهل للالمام بشيء يختص بالعالم غير المرئى ، (أى العالم الروحانى) . وكنت مقتنعا بأنه لوأمكننت معرفة شيء من ذلك العالم على أسلوب يستطيع العلم أن يقبله ويحفظه ، فلا يكون ذلك بالتنقيب فى الأساطير القديمة ، ولا بمجرد التفكر فيما بعد الطبيعة ، ولكن بواسطة التجربة والمشاهدة ، وبتسريتنا على الظواهر التى تحدث فينا وفيما حولنا أساليب الامور اليقينية نفسها ، وهى الأساليب النزيهة المتروى فيها ، أى تلك الأساليب التى نحن مدينون لها بمعارفنا الطبيعية عن العالم المحسوس .

« فالبحث الذى علينا أن نقوم به ، لا يمكن أن يقتصر فيه على تحليل ساذج للأسانيد التاريخية ، أو التى صدرت عن هذا الوحى أو ذاك ، مما كان يوحى به فى الزمان الماضى ، ولكن يجب أن يؤسس هذا البحث قبل كل شيء ـ ككل بحث علمى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ـ على تجارب يمكننا تكرارها اليوم ، مؤملين أن نزيد عليها غدا . وهذا البحث لا يمكن أن يكون إلا بحثا مؤسسا على هذه القضية ، وهى : أنه إذا كان يوجد عالم روحانى ، وكان هذا العالم الروحانى موجودا فى أى عهد كان ، وكان قابلا لأن يظهر ويستكشف ، فيجب أن يكون كذلك فى أيامنا هذه .

« فمن هذه الوجهة ، وقياما على هذه الاعتبارات العامة ، واجهت الجمعية التى أنا عضو منها هذه المسألة » .

نقول : وهذه الجمعية هى جمعية المباحث النفسية الانجليزية ، وهى قائمة الى اليوم ، وقد مر ذكرها .

نقول : وقد مضى على تأسيس هذه الجمعية أكثر من خمسين سنة ، كشف البحث فى خلالها أمورا لا يكفى فى بيانها أقل من مجلد ضخم ، وكلها تثبت بأدلة عيانية وجود العالم الروحانى ، وهو ما كان يعوز الناس على وجوده الدليل العلمى القاطع . أما وقد وجد هذا الدليل فقد انفتح الطريق أمام الدين الحق ، ولم يبق بين الناس والانسانية الكاملة ، والمدنية الفاضلة ، إلا أن يعملوا بتعاليمه الجامعة بين سعادتى الحياتين ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ؟

محمد فريد وجدى

باب الأسئلة والفتاوى

فى الوقف

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الازهر الاستفتاء الآتى :

رجل وقف جميع أملاكه على زوجته ، وعلى ما عسى أن يتزايد لها من أولاد وأولادهم وأولاد أولادهم ... الخ ، فاذا انقرضوا ولم يوجد لها عقب ، رجع ذلك الى أقرب الناس بالحبس عليها يوم الرجع ، ثم على أعقابهم وأعقاب أعقابهم ما تناسلوا ، وإذا انقرض العقب أو الذرية رجع ذلك حبسا على زاوية الوالى الصالح (فلان) ، وقد احتفظ الواقف بغلة الموقوف مدة حياته . ثم توفى الواقف دون أن يعقب من زوجه الموقوف عليها ، وانتقلت جميع الاعيان الموقوفة بجميع مشتملاتها وغلاتها الى الزوجة ، ثم اقترنت الزوجة بزوج آخر ، ورزقت منه بغلام ، وتوفيت على أثر ذلك ، فتقدم أخوها مع إخوة له ، وادعوا أنهم أصبحوا مستحقين لريع الوقف المذكور ، لأن الواقف ما كان يقصد بالطبع إلا الاولاد الذين ترزق بهم زوجته منه ، لا من آخر بعد وفاته ، وإذاً فتعتبر الموقوف عليها كأنها توفيت دون عقب ، وقد نص فى الوقف على أنه إذا توفيت دون عقب ، فان الموقوف يرجع الى أقرب الناس اليها ، وهؤلاء هم إخوتها الأشقاء . ويقول زوج المتوفاة : إن الوقف بجميع مشتملاته قد أصبح حقا لولده من المتوفاة الموقوف عليها طبقا لنص الواقف ، فالى من يؤول هذا الوقف ؟

علي محمود السرجانى

الجواب :

الأصل أن اللفظ العام يحمل على عمومه الذى يتبادر منه ، ولا يجوز تخصيصه إلا بمخصص ملفوظ فى الكلام ، أو ملحوظ قامت عليه القرائن الكافية .

وبالرجوع الى ما ورد فى السؤال نجد أن الواقف جعل وقفه على زوجته ، وعلى ما عسى أن يتزايد لها من أولاد ، وهذا عام يشمل جميع من ولد لزوجته منه أو من غيره ، ولا يختص بأولادها منه ، إذ لا دليل فى كلامه على هذا التخصيص ، بل فى كلامه ما يدل على أنه أراد التعميم وعدم الفرق بين أولادها منه وأولادها من غيره ، وهو قوله : « فاذا انقرضوا عن آخرهم ، ولم يوجد لها عقب رجع ذلك الى أقرب الناس بالحبس عليها يوم الرجع » إذ أن هذا النص واضح منه أن رجوع الوقف الى أقرب الناس مشروط بعدم وجود أى عقب للزوجة ، سواء أكان ذلك العقب من الواقف أم من غيره ، والمطلع على كتاب الوقف يتبين أن الواقف يريد أن يبر بزوجته ويمن يمت إليها بصلة القرابة أيا كان ، وأنها هى وأولادها مقدمون فى الاستحقاق على من عداهم ، فلا يستحق أحد ما دامت الزوجة أو واحد من أولادها على قيد الحياة .

وبناء عليه يكون الوقف لولدها المذكور ، وما تزايد لها من ولد ، وإن لم يكن من الواقف ، والله أعلم .

وجاء أيضا الى لجنة الفتوى ما يأتى :

رجل وقف أملاكه على زوجته من بعده ، واشترط لنفسه الشروط العشرة وحق تكرارها أكثر من مرة ، وأباح لزوجته من بعده الشروط العشرة ، ولم ينص على التكرار ، وقد أدخلت الزوجة بعد أن آل اليها الوقف مستحقا جديدا خصمت استحقاقه من استحقاق من يؤول اليه الوقف من بعدها ، لأن الواقف ذكر طبقات المستحقين بعد الزوجة طبقة بعد طبقة . وبعد أن أدخلت لزوجة المستحق الجديد توفى ، فجعلت مآل الوقف لمستحق آخر ، وحرمت باقى المستحقين بعدها ، وتنازلت فى حجة إدخال المستحق الجديد بدل المستحقين الأصليين عن الشروط العشرة ، والمطلوب معرفته هو :

(أولا) هل إدخال المستحق الأول الذى توفى يعتبر من الشروط العشرة ، وكذلك إحلال المستحق الثانى محل المستحقين الأصليين يعتبر من الشروط العشرة ؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يجوز للزوجة تكرار الشروط العشرة مع أنه لم ينص فى الحجة على التكرار ؟

(ثانيا) هل للزوجة الحق فى التنازل عن الشروط العشرة ؟ وهل لاتستطيع بعدها إجراء أى شىء منها ، أو أن هذا ليس من حقها ؟

(ثالثا) هل للزوجة المذكورة الحق فى العدول عما سبق أن كررت من إحلال مستحق بدل المستحقين الأصليين ، والعودة الى ما هو مدون بحجة الواقف الاصلية من الاستحقاقات بعد أن تنازلت عن الشروط العشرة ، أولا ؟ محمد طلعت الفرنساوى

الجواب :

يتبين من كتاب الوقف أن الواقف قد جعل لنفسه حق إعطاء الشروط العشرة لمن شاء ، ولكنه لم يجعل لنفسه حق إعطاء غيره تكرارها ، بل جعل حق تكرارها لنفسه خاصة ، وإذاً لا يسوغ له أن يعطى السيدة كايرى زوجته إلا نفس الشروط العشرة دون أن يكون لها حق تكرار العمل بها .

وبناء على ذلك يكون ما عملته السيدة المذكورة أولا من إدخال الحاج عبد اللطيف أغاراًفت ضمن مستحقى هذا الوقف عملا صحيحا تملكه ، وأن ما عملته ثانيا بعد ذلك من إدخال الجمعية الجغرافية الملكية غير صحيح . أما تنازلها عن الشروط العشرة بعد ذلك فهو تنازل صحيح لا تملك الرجوع عنه ، ولا التصرف فى شىء من الشروط العشرة بعد هذا التنازل ، والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

الاسلام والفلسفة

— ١٠ —

ابن رشـــــد

نسبه — حياته :

هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد ، ولد فى قرطبة فى سنة ١١٢٦ من أسرة ماجدة عالية الشأن توارث أفرادها منــذ زمن بعيد بعض المناصب الراقية فى الدولة ، فـكان ابوه قاضيا فى قرطبة وورث القضاء عن جده ، وقد مكنه ثراء والده من أن يتلقى دراسة عالية فى كثير من العـلوم والفنون : مثل الفلسفة والرياضة والفقه وعلم الـكلام والنحو والموسيقى والطب والفلك حتى صار أعلم أهل عصره قاطبة بكل هــذه العلوم . وفى سنة ١١٦٩ تولى ابن رشد منصب قاضى القضاة فى قرطبة بعد وفاة أبيه ، فحمدت سيرته ، وأثنى الناس عليه لعدالته ، وذاع ذكره فى أنحاء العاصمة ، فسمع به الامير أبو يوسف الموحدى فقربه من مجلسه ، وأنعم عليه بما شجعه وزاد فى إقباله على دراسة الفلسفة .

ولمـا رأى نبوغه وشاهد عبقريته رغب فى أن ينتفع به العلم فى عصره ، فجعل يوجه اليه أسئلة فى المنطق وما وراء الطبيعة ، لأن هــذا الأمير كان لا يقل ثقافة عن علماء عصره . وحين آمن بعلم ابن رشد ، صرح أمام ابن طفيل بأنه فى حاجة الى فيلسوف ذكى يشرح كتب « أرسطو » ويوضح مراميها ؛ فاعتذر ابن طفيل عن هذه المهمة بأن لديه من مشاغل حياته ما يمنعه من مزاولتها ، ثم ذكر أمامه ابن رشد بخير وأثنى على عبقريته وأنبأه بأنه قمين بتحقيق إرادة الامير . ولمـا خلا بابن رشد أبلغه رغبة صاحب العرش، وطلب اليه أن ينزل عند إرادته ، فأجاب سؤله ، وكان عنــد ظنه به ، فاخذ يصول ويجول فى كتب أرسطو، فألقى على ظلمتها الحالـكة شعاعا قويا من نور ذكائه الوقاد وعلمه الفياض ، وآرائه الفقينية الثابتة حتى كشف غامضها ، وأوضح مبهمها ، وجعلها فى متناول أذهان كل من له إلمام بالحـكمة بعد أن كانت مقصورة على تلاميذ أرسطو فى معهد « الليسيه الأثينى » . ولهذا قال عنــه بعض فلاسفة أوروبا : « ألقى أرسطو على كتاب الـكون نظرة صائبة ففسره وشرح غامضه ، ثم جاء ابن رشد فألقى على فلسفة أرسطو نظرة ثاقبة ففسرها وشرح غامضها » .

ولمـا تولى الخليفة المنصور بالله كان ابن رشد قد انقطع لدراسة الفلسفة ووقف نفسه على بحوث الحـكمة ، وأفرغ جهــده فى توجيه فلسفة أرسطو وتعليلها وإعلاء شأنها ، وكان

هـذا الأمير قـد خالف نهج سالفه ، فهجر الفلسفة ومال الى التصوف ، وجعل حوله بطانة من شيوخ الطرق الذى لقحوا رأسه بما أحنقه على ابن رشد وبغضه فيه . ومن سوء حظ هذا الفيلسوف أن جماعة من أعدائه قد اندسوا بين هؤلاء المتصوفين وأخذوا يكيدون له من وراء ستار الدين حتى إذا استحكم العداء فى نفس الامير أمر بالقبض على ابن رشد وتلاميذه المخلصين له ، فجىء بهم وحوكموا أمام مجلس علنى ، ولم يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم، وأسفرت المحاكمة عن نفيهم فنفوا الى « أليسانا » .

وقد انتهز خصومه هذه الفرصة وشنعوا عليه ، وأذاعوا أن الأمير نفاه الى بلاد أجداده اليهود ، غير أن هذا النفى لم يدم طويلا ، إذ لم يلبث جماعة من أعيان اشبيلية أن شهدوا بأن مانسب اليه غير صحيح ، فندم الأمير على مافرط منه نحوه ، وأعاده وتلاميذه الى بلادهم معززين موفورى الكرامة بعد سنة واحدة من نفيهم . وفى سنة ١١٩٨ خبا كوكب حياة ابن رشد بعد أن ظل يتلألأ فى سماء الأمة العربية زهاء أربعين سنة قضاها فى عالم التفكير والتأليف ، وكانت سنه ثنتين وسبعين سنة ، وقدقيل عنه إنه لم يترك فى حياته مذاكرة العلم إلا ليلتين : ليلة وفاة والده ، وليلة بنائه بزوجته .

مؤلفاته :

كانت مؤلفات ابن رشد مكتبة بتمامها ، فقد كتب فى الفلك والطب والفقه وعلم الكلام والنحو ، وكل هذا لايعنينا فى بحثنا الحاضر ، وإنما الذى يهمنا هو الفلسفة ، وخير ما كتبه فيها المؤلفات الآتية : (١) « تهافت التهافت » (٢) « فصل المقال فيما بين الحكمه والشريعة من الاتصال » (٣) « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة » (٤) « سعادة النفس » . وفى هذه الكتب ظهرت آراء ابن رشد الفلسفية فى الالهيات والنفس والعالم من حيث القدم والحدوث ، وفى علم الله وإحاطته بالجزئيات ، وفى البعث وهل هو للأرواح أو للأجسام . ولوأننا حاولنا أن نتعقب هذه الآراء فى مواطنها الأصلية وهى كتب ابن رشد ، لطال بنا المدى وترامت أمامنا أطراف المجال ، ولكننا سنقتصر على إيجاز رأيه فى هذه النقط عند الكلام على فلسفته . أما الآن فاننا نكتفى مع الاشارة الى ما سبق من كتبه بذكر ما لخصه وشرحه من كتب أرسطو . وإليك بعض هـذه الكتب : « تلخيص السماع الطبيعى » . « تلخيص السماء والعالم » . « تلخيص الكون والفساد » . « تلخيص الآثار العلوية » . « تلخيص كتاب النفس » . « تلخيص تسع مقالات من كتاب الحيوان » « تلخيص الحس والمحسوس» . « تلخيص ما بعد الطبيعة » . « تلخيص كتاب الأخلاق » . « شرح كتاب السماء والعالم » . « شرح السماع الطبيعى » . « شرح كتاب النفس » . « شرح كتاب البرهان » . « تلخيص المنطق » . « شرح ما بعد الطبيعة » . « شرح كتاب القياس » .

فلسفته :

يعـلم الواقف على تاريخ الحركة العقلية العالمية أن أهم ما كان يشغل فـلاسفة العرب هو (١) « قدم العالم وخـلوده أو حدوثه وفناؤه » . (٢) تعلق عـلم الله بالجزئيات أو اقتصاره على الـكليات » . (٣) « حشر الأرواح فى الأجسام أو وحدها » . (٤) « نظرية المعرفة » . وهذه النظريات كلها لا تظهر واضحة عند فيلسوف آخر ظهورها فى فلسفة ابن رشد ، فهو الذى أبان غامضها ، وأوضح مشكلها ، ووضع بها الحد الفاصل بين الفلاسفة والمتكلمين فى الاسلام ، وبين المسيحيين والمشائين فى أوربا ، فـكانت سببا فى اشتعال حرب ضروس بين الدين والفلسفة وبين كثير من الطبقات عدة قرون . ولم يقتصر ابن رشد على ذكر رأيه فى هـذه النظريات القديمة ، بل أتى بمذهب جديد مستقل كان مبعث النهوض ومنبع أشعة نور العـلم فى أوربا طوال القرون الوسطى . وإليكم هذه الفلسفة الرشدية فى شىء من الايجاز :

بعد هـذا الجهاد الطويل الذى قامت به الفلسفة العامـة فى البحث عن أسرار الـكون ومبدعه ، وصلت فى عهد ابن رشد الى نظريتين جوهريتين : أولاهما أن المـادة قديمة ، والعالم أزلى ، وأن الحركة الموجودة بها هى طبيعية فيها ، وأن الاله لايزيد على أنه صانع مصور يضع التصميم لمـادة موجودة ويمنحها الصورة التى تقتضيها الحـكمة ، وهومحرك أول غير محدود ، وأن الانتاج الجبلى الموجود فى الـكون هو آت عن طريق التناسل والتوالد ، لا عن طريق الخلق والايجاد ، وأن مهمة البارى فى هـذه الأحوال هى تخليص الأبنـاء من الآباء ، لا الخلق والانشاء .

وأما النظرية الثانية ، فهى ترى أن الله وحده هو الأزلى ، وأن كل ما عداه محدث مخلوق له . وبناء على ذلك يكون الله جل شأنه هو الخالق الحقيقى ، ويكون تعاقب الأجيال إيجادا محضا ينشىء الله الأفراد فيه من عـدم بطريقة مباشرة . وبالرأى الأول قال بعض الفلاسفة ومنهم ابن رشد ، وبالرأى الثانى قال المتكلمون .

وكيفية نشوء الافراد من المـادة القديمـة هى أن تلتقى عناصر الوجود بعضها ببعض بواسطة حركة طبيعية قوامها الحرارة الموجودة فى الـكون . فكلما التقت الحرارة بعنصرى المـاء والتراب الباردين نتج من ذلك نبات أوحيوان ، وهى لاتلتقى بهما إلا فى أوقات وحالات محدودة ، ولـكن هـذا التماس الذى يحدث بين العناصر يقع بطريقة منظمة كأنه تسيره قوة عاقلة مدبرة مع أن طبيعة العناصر فى ذاتها محرومة من كل عقل وتدبير ، وليس فيها إلا الشوق الطبيعى الموجود فى كل كبيرة وصغيرة من أجزاء الـكون ، وإنمـا المسير المباشر لهذا النظام هو تلك القوى المتغلغلة فى الأفـلاك .

وبنـاء على كل هـذا ، فالبارى لم يستحدث شيئا ، لأن الاستحداث من العدم مستحيل

ما دمنا نؤمن بان العدم لا ينتج وجودا . وعلى ذلك يكون الامام الغـزالى ومن نحا نحوه من المتكلمين القائلين بأن البارى هو منشىء الكون من عدم ومانح الصور مخطئين فى رأى ابن رشد .

أما ابن سينا فهو يعتبره من أجـل تعبيره بكلمة الخالق إما مخطئا أو تقويا ، وإنما الحق الذى لا ريب فيه عنده هو أن هناك أزليين: البارى ، والمادة المشتملة على قوة كامنة ، ولكن أزلية البارى تختلف عن أزلية المادة ، لأن الأول علة فى الثانية ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

ما قيل فى مسايرة الايام

قال حكيم : « اصحب الايام بالموادعة ، ولا تسابق الدهر فتنكب » .

وقال الشاعر :

من سابق الدهر كبا كبوة   لم يستقلها من خطا الدهر
فاخط مع الدهر إذا ما خطا   واجر مع الدهر كما يجرى

لا أظن أن الشاعر يقصد من مسايرة الدهر ومجاراته أن يندفع فى التيار الذى ينشئه أهل الفساد فيه ، فان ذلك فضلا عن منافاته للكرامة الشخصية ، فهو شديد الخطر على المجموع ، فان المدنية الفاضلة تقتضى أن تسود الفضائل ، وأن يعلو شأن المحامد ، فاذا وطن كل إنسان نفسه على أن ينقاد لشهوات أهل الشهوات ، تغلبت الرذائل على المجتمع ، وباد كما باد غـيره ولا كرامة .

وقال بشار العقيلى :

أعاذل إن الدهر سوف يفيق   وإن يسارا من غد لخليق
وما كنت إلا كالزمان إذا صحا   صحوت وإن ماق الزمان أموق

هذا يجب أن يعتبر زجرا للذين على هـذه الشاكلة ، فان من يحمق إذا حمق الزمان كان شاهدا على نفسه بأنه من الذين يعيشون لينعموا وإن اقتضت النعمة أن يبذلوا فى سبيلها كرامتهم ومروءتهم . ولا يخيل لى أن إنسانا يذم نفسه بأشنع من هذا .

السنة

الاخلاص

عن أبى أسامة قال : « جاء رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر : ماله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا شيء له ، فأعادها ثلاث مرار ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا شيء له ، ثم قال : إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغى به وجهه » . رواه أبو داود والنسائى بسند جيد — من كتاب الترغيب والترهيب .

هذا الحديث صريح فى أن الله لا يقبل الأعمال إلا إذا كانت خالصة ؛ ويتعلق بذلك أمور . (١) فضل الاخلاص وقيمته فى نظر الدين الاسلامى (٢) حقيقة الاخلاص ما هى (٣) بيان حكمة مشروعية الاخلاص (٤) هل عدم الاخلاص يحبط أجر العمل فقط أو يستلزم مع ذلك الاثم ؟

١ — فأما فضل الاخلاص فى نظر الدين الاسلامى فانه يدل عليه كتاب الله وسنة رسوله أوضح دلالة ؛ وقد ورد فيهما ما يفيد أن الاخلاص هـو الأساس الذى تنبنى عليه الأعمال الصحيحة المقبولة ؛ فمن لم يخلص فى اعتقاده وقوله وعمله فانه لا يحق له أن يطمع فى قبول شيء منها لا قليلا ولا كثيرا ، بل قد تكون عند الله شرا ووبالا عليه كما ستعرفه بعد . فعلى أساس الاخلاص أمر الله الناس بعبادته ، قال تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » ، وذلك صريح فى أن الذى يعبد الله غير مخلص لا يكون محصلا للعبادة التى أمره الله بها قطعا . وعلى أساس الاخـلاص وعد الله التائبين من المنافقين بالقبول والأجـر العظيم مع المؤمنين العاملين ، قال تعالى : « إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما » .

وهذا المعنى قد جاء فى كثير من الأحاديث الصحاح ، ومنها حديث أسامة الذى نتكلم فيه هنا . ويؤخـذ من مجموع الأحاديث أن الانسان لا يحسب فى عـداد المؤمنين العاملين إلا إذا كان مخلصا فى عقيدته ، مخلصا فى معاملة الخالق والمخلوق حسبما أمره الله تعالى . وكفى بذلك دلالة على فضل الاخـلاص وقيمته فى نظر الدين . ولذا قال بعض علماء الأخلاق : إن

أمر الدين كله يرجع الى أصلين : عمل من الله لعبده ، وعمل من العبد لربه ، فمن أراد أن يظفر بالسعادة الخالدة فعليه أن يرضى بعمل خالقه ، ويخلص هو فى عمله له . فمدار الدين كله على الرضا والاخلاص .

٢ — أما حقيقة الاخلاص فقد بينها علماء الأخلاق الدينية بيانا حسنا ؛ وإليك توضيح ما قالوا : إن الاخلاص هو عبارة عن تخليص العمل عن كل ما يمكن أن يخالطه من شوائب الشرك بجعله مقصورا على السبب الذى حصل الفعل من أجله . وهذا السبب يجب أن يكون صحيحا ممدوحا فى نظر الدين ، فاذا عمل الانسان عملا مقصورا على سبب فاسد كما إذا قصد بعبادته الحصول على لذة من اللذات كشهرة أو مال أو جاه ، فانه لا يكون مخلصا فى عبادته لربه ، وإنما يكون مخلصا لذلك الغرض الذى بعثه على العبادة ، وهذا لا يسمى إخلاصا شرعيا طبعا .

ويتضح من هذا البيان أن الاخلاص أمر يتعلق بالقلب ؛ وإن شئت قلت يتعلق بالنية ، وذلك لأن النية وهى الارادة صفة نفسية يترجح بها تحصيل الفعل المرغوب فيه ، فاذا مالت إرادة الانسان الى أمر يرغبه وتعلقت به ، سخرت القدرة لتحصيل ذلك الأمر ، فاذا تعلقت الارادة بالفعل لسبب باعث صحيح بدون أن يزاحمه سبب آخر ، كانت تلك النية خالصة والفعل المترتب عليها خالصا . وقد يسمى الفعل فى هذه الحالة إخلاصا . مثلا إذا تعلقت إرادة الانسان بالجهاد فى سبيل الله ، أو بالحج الى بيت الله ، فتحركت أعضاؤه لتحصيل ذلك الفعل ، فان انبعاث الارادة وتعلقها بالجهاد أو الحج لا بد أن يكون لغرض من الأغراض ، فان كان ذلك الغرض مقصورا على ابتغاء مرضاة الله كما ورد فى الحديث ، كانت النية خالصة ، وكان الفعل المترتب عليها خالصا ، وكان الفاعل مخلصا . ومثل ذلك ما إذا تعلقت نيته بالجهاد لغرض تحصيل الثواب الأخروى الذى وعد الله به المجاهدين ، فان ذلك السبب يرجع الى مرضاة الله . أما إذا تعلقت إرادته بالجهاد لتحصيل الثواب وليكون له ذكرى حسنة كأن يقال عنه : إن هذا الرجل شجاع يحمى الذمار ، وبذلك يعظم قدره فى أعين الناس ، فان عمله هذا لا يكون فيه إخلاص ، وذلك لأنه بناه على سببين : قصد الثواب ، وقصد الشهرة وعلو المكانة فى أعين الناس ؛ والسبب الثانى غير صحيح فى نظر الدين ، فكانت نتيجة بناء العمل عليه حبوط أجر ذلك العمل وضياعه حتى كأنه لم يكن .

وهذا المعنى هو كقول بعض علماء الأخلاق : إن الاخلاص فى العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا ، بل يعمل لمجرد الغرض الدينى الذى بعثه الى العمل . وعلى أى حال فالاخلاص أمر يمكن تحصيله بسهولة متى كانت النفس مهذبة نشأت على حب الفضيلة ومجافاة الرذيلة ؛ بل ربما كان العمل بدون الاخلاص أشق على تلك النفوس الطاهرة من غيره ، فلا يجدون اللذة الحقيقية إلا فى العمل الخالص لخالقهم . ولا ريب فى أن الذى يعمل لمرضاة الاله القادر الذى

بيده مكافاة العاملين ، سينال من الجزاء أحسنه ، ومن المـكافاة ما تقر به عينه من غير أن يتكلف قصد المـكافأة والجزاء . على أن الأغراض الدنيوية إذا كانت مما يترتب على عمله فانها تتحقق بدون أن يقصدها ، وقد يتحقق منها أضعاف ما يمكن أن يتصور وهو غافل عنه . فمن سوء التربية الخلقية أن يجعل الانسان أعمال البر مبنية على الشهوات الفاسدة .

ويتبين من هـذا أن الاخـلاص كغيره من الفضائل الممـكنة التى كلف الله بها عباده . ولـكن بعض علماء الاخلاق قد توسع فى ضرب الأمثلة التى يتميز بها الاخلاص عن غيره ، فأتى منها بما يصوره فى صورة الأمر المتعـذر الذى يـكاد يـكون تحصيله مستحيلا ، اللهم إلا على الخواص والمقربين ، حتى نقل عن بعضهم أنه قال : من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة نجا . ومن الامثلة الدقيقة التى رويت أن رجـلا مكث يصلى فى الصف الأول ثلاثين سنة ثم عرض له ذات يوم عذر فصلى فى الصف الذى يليه ، فاعتراه الخجل من الناس الذين رأوه على هذه الحالة فعرف بذلك أن صلاته فى الصف الأول كان لها علاقة بنظر الناس اليه ، فأدرك أن صلاته كل هـذه المدة لم تـكن خالصة وهو لا يدرى . ولـكن الواقع غير هذا ، لأن الله تعالى قد أمر العقلاء المـكلفين بالاخلاص فى دينهم وفى عبادتهم كما ذكرنا آنفا ، لا فرق فى ذلك بين خاصة الناس وعامتهم ؛ وهو سبحانه لم يكلف عباده عسيرا بل كلفهم يسيرا ؛ فليس من المعقول حينئذ أن يؤاخذ الله الانسان بما خفى عليه ، وإنما يؤاخذه بما هو معلوم له قادر عليه ، قال تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

ولعـل السبب الذى حمـل هؤلاء المرشدين على التشدد فى بيـان الاخـلاص هو المبالغة فى تحذير الناس من خلط الأغراض الصحيحة بالفاسدة فى أعمال البر ، لأنها تحبطها وهم غافلون . أو لعلهم يريدون أن يضربوا الأمثـال بالصالحين الذين يتحرجون من خفايا الأمور ودقائقها ليكون للناس منهم أسوة حسنة ، وإلا فالاخلاص فى ذاته أمر سهل ، ولا يصعب إلا على من أشرب قلبه حب الشهوات ، وغفل عن الفضائل الخلقية التى اجلها الاخلاص لله الواحد القهار .

(٣) أما حكمة مشروعية الاخلاص فانها ترجع الى أمرين عظيمين : (أحدهما) البعد عن الوثنية وما يشاكلها ولو ظاهـرا . (ثانيهما) اسـتمرار أعمال البر ودوامها . فأما الأول فان الدين الاسلامى قد جاء بتوحيد الاله وتنزيهه عن كل ما لا يليق به ، وانه هو وحده المستحق للعبادة لـكونه موجدا للعالم وموجدا للوسائل التى بها يبقى العالم الى الأجل الذى يريده . فهو الخالق الرازق . أما الاصنام والآلهـة التى يشركونها مـع الاله فى العبادة فانها مخـلوقة لا خالقة ، ولا تملك لهم رزقا ، فهى عاجزة عن إيجادهم وعن إيجاد ما به يعيشون ، فمن السفه عبادتها ، ولذا قال تعالى : «إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفـكا ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملـكون لـكم رزقا ، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه» . من أجل ذلك فرض الله الاخلاص

ونهت الشريعة الاسلامية عن بناء الاعمال الدينية على أسباب غير مشروعة نهيا جازما لما فيها من التشبه بالوثنيين الذين تحملهم تقاليدهم وعاداتهم على عبادة الاوثان . ومن المضحك أنهم كانوا يعبدونها مشركين فى عبادتها من نواح كثيرة . فمنهم من كان يجعل السبب فى عبادتها الخوف من لوم الناس واتهامهم إياه بالمروق من دين آبائه وأجداده . ومنهم من كان يعبدها خوفا من أن تنهار سلطته ويضيع جاهه . ومنهم من كان يعبدها لأنها تقرب الى الله . وقد جاء كل ذلك فى القرآن الكريم والسنة . فجاء الاسلام لمحاربة الوثنية والشرك من جميع نواحيه ، وجعل من أول واجبات المؤمنين والمؤمنات أن يجتنبوا كل ما يشتم منه رائحة الوثنية ، أو يكون فيه تشبه بالوثنيين ولو ظاهرا . ولذا نهى الدين نهيا جازما عن تعظيم الأشجار والأحجار والهيا كل ونحو ذلك لما فيه من التشبه بالوثنيين ، وفرض على الناس أن يخلصوا لله سبحانه ، فلا يحل لمؤمن ولا مؤمنة أن يبنى عمله الدينى على سبب فاسد لا يقره الدين ، بل لا بد من قصر أعماله الصالحات كلها على مرضاة الله تعالى امتثالا لامره واجتنابا لما نهى عنه .

وأما الثانى وهو استمرار العمل الصالح وعدم انقطاعه ، فذلك لأن الدين قد جاء بكل فضيلة ونهى عن كل رذيلة ، فحث الناس جميعا على تحصيل كل ما فيه سعادة المجتمع فى الدنيا والآخرة . فكل أعمال البر التى يترتب عليها عز الأمم ومجدها وهناؤها فى حياتها أمر بها الاسلام ، فقد فرض الاتحاد والتعاون على أعمال البر ، ونهى عن الفرقة والتخاذل ، وأمر بالعطف على الفقراء والمساكين وذوى الحاجات ، وفرض للمحتاجين قدرا معينا فى أموال الأغنياء . قال تعالى : « وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » ، وأمر باغاثة الملهوف وإنقاذ المكروب ، وإعانة الضعيف ، والاخذ بناصر المظلوم ؛ وأمر بالتسامح فيما يترتب عليه تقوية الروابط بين الناس ؛ وأمر بصلة الارحام ومراعاة حقوق الجوار ، والصدق والعفاف والعدل ، الى غير ذلك من الاعمال التى يسعد بها المجتمع سعادة حقيقية .

وبديهى أن هذه الأعمال التى يتوقف عليها صلاح المجتمع وتنبنى عليها سعادته فى الدنيا والآخرة يجب أن تستمر وتبقى ، فلا يصح أن تنقطع مادام الانسان ، وهى لا تبقى إلا إذا كانت مرتكزة على سبب دائم مستمر ، وإلا انقطعت بانقطاع أسبابها الزائلة ، وهذا السبب الدائم الذى لا يتغير أبدا هو مرضاة الله ، فاذا عمل الانسان هذه الاعمال امتثالا لأمر الله وابتغاء مرضاته كانت لازمة دائمة لا تنقطع ؛ أما إذا عملها لغرض شهوى فانها تنقطع بانقطاعه طبعا . مثلا : إذا تصدق على الفقراء ليمدحه الناس بالسخاء فانه لا يتأخر عن قطع هذه الصدقة إذا استغنى عن سماع مديحهم بعارض آخر أو يئس من ذلك المديح ، وكذا إذا أنفق بعض ماله فى أعمال البر للحصول على منصب أو جاه ، كما إذا شيد مدرسة أو مصحا أو أعان طلبة العلم أو نحو ذلك من أعمال البر ، فانه يقطع ذلك الانفاق بمجرد الحصول على المنصب أو اليأس منه ، وفى ذلك غبن ظاهر للمجتمع . ومثل ذلك ما إذا جاهد فى سبيل الله ليظهر بمظهر الشجاع

فى عين امرأة يرغب فى زواجها ، فانه يستغنى عن الجهاد ويقطعه حتما متى ظفر بها أو يئس منها ؛ ولذا قال صلى الله عليه وسلم فى الهجرة : « فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه » .

وبالجملة فكل أعمال البر إذا لم تكن مبنية على سبب دائم فانها تنقطع عند انقطاع سببها . ومن مصلحة الأفراد والجماعات أن تستمر أعمال البر فيما بينهم ، فلا تنقطع مادامت الحياة الدنيا . فمن أجل ذلك فرض الله الاخلاص كى يقصر الناس أعمالهم على مرضاة الله تعالى ، ويروضوا أنفسهم على أن يتسابقوا على أعمال البر طمعا فى مرضاة الله تعالى بصرف النظر عن الغايات والأغراض الأخرى ، لتدوم الاعمال الصالحة ، ويحظى العاملون بأعلى الدرجات ؟

«يتبع» عبد الرحمن الجزيرى
من علماء الازهر

فضل الحنكة

قيل لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : إن فلانا لا يعرف الشر . قال : ذلك أحرى أن يقع فيه .

وقال عمرو بن العاص : ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر ، إنما العاقل الذى يعرف خير الشرين .

وفى مثل هذا قول الشاعر :

رضيت ببعض الذل خوف جميعه كذلك بعض الشر أهون من بعض

وسئل المغيرة بن شعبة عن عمر بن الخطاب فقال : كان والله له فضل يمنعه من أن يخدع ، وعقل يمنعه من أن ينخدع .

وقال إياس : لست بخب والخب لا يخدعنى .

وقال أبو أيوب : من أصحابى من أرتجى بركته ولا أقبل شهادته .

ومن هذا قولهم : حاب فلان الدهر أشطره ، وشرب أفاويقه إذا فهم خيره وشره ، فاذا نزل به الغناء عرفه ، وإذا نزل به البلاء لم ينكره .

وفى ذلك قول الشاعر :

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أتمنى الشر والشر تاركى ولكن متى أحمل على الشر أركب

هل يلغى الوقف الاهلى

من مزايا القوة أن يرى الناس كل ما عليه أهلها حسنا وإن لم يكن بحسن ، وكل ما ليسوا عليه قبيحا وإن لم يكن بقبيح . هذا ضرب من السحر شعر به الضعفاء قديما وحديثا ووقعوا تحت تأثيره مرغمين .

ولكن إذا هان أن يقع فيه الافراد فيما بينهم ، فليس يهون أن تقع فيه الجماعات ، وخاصة إذا كانت بصدد إحداث انقلاب فى أمر تشريعى قال به وقام عليه أكثر رجالاتها الأولين .

طبع الانسان على أن يعنى بأسرته ، وبمن يمت اليه بصلة من رحم أو مودة ، ويكره إن كان له عقار من بناء أو مزرعة أن يدعه بين أيديهم بعد موته نهبا للناهبين ، وفيهم الطفل الناعم والمخدرة الخفرة ، والعجوز القعيدة ، والشيخ الكبير .

ألا يحب كل إنسان إذا طاف مثل هذا الفكر فى راسه أن يجد وسيلة تكفل بها لهؤلاء أن يعيشوا بسلام ما بقى من أيامهم التى قدرت لهم فى هذه الحياة ؟

لا تقل بحسبه أن يترك لهم ما يملكه من مال وعقار ، لأنه يرى بعينيه أن الثروة مهما بلغ قدرها رهن ولد غير نجيب يتولاها فيذريها فى الهواء ، أوصهر غير صالح يبددها حيث شاء .

ولا تقل أيضا لو كان فى نظام الوقف خير لهدى اليه المتمدنون ، فكم من نظم قيمة لم يهتدوا اليها ، وهل قصر المتمدنون فى تطلب خير مما هم فيه ، وهم يقيمون على تبرمهم بشئونهم كل يوم ألف دليل ؟ ألا ترى رءوس زعمائهم وقادتهم تغلى بالمذاهب والآراء ، وبلادهم تفور كالمراجل بالثورات والانقلابات ، مما لو تأمل فيه المتامل لا عتراه الدوار من هول ما يقرأ وما يسمع ؟ فلو كانت الاحوال مستقرة لديهم لما كان ثمة داع لكل هذه الصيحات التى تدوى بصداها الآفاق ويسمعها الصم من مكان سحيق .

فهل نهدم نحن ونبنى على مثل هذا القرار المضطرب من أحوالهم ونكون مصيبين ؟

ما هى العيوب التى يراها خصوم الوقف الاهلى فيه ويبنون عليها وجوب إلغائه ؟

يقولون : إنه قد يحمل على مخالفة الشريعة فى توزيع الأنصبة ؛ وينشىء طائفة من العاطلين يعيشون عالة عليه ؛ ويفضى الى خراب الاعيان وضياع فائدتها ؛ ويمكن النظار عليه من اغتياله وحرمان المستحقين فيه ؛ وتؤول أنصبة مستحقيه بتوالى نموهم الى أقدار لا تسمن ولا تغنى من جوع .

نقول : أما مخالفته للشريعة فليس لخصومه أن يحتجوا به ، لأن هذه المخالفة مرت فى جميع الأجيال على أئمة الدين فلم يروا فيها بأسا . على أن علاج المخالفة لا يكون بالالغاء وإنما يكون بالمطالبة برد القسمة الى أصول الشريعة إن كانوا يدافعون عنها .

وأما أنه ينشىء طائفة من العاطلين ، فليس بعلة تقتصر على الوقف وحده ، ولكنها تسرى على نظام الوراثة أيضا . وهى من حجج الاشتراكيين الغلاة والشيوعيين ، ولسنا منهم فى شىء .

أما أنه يفضى الى خراب الاعيان ، فليس بحجة قويمة ، لأن الخراب سببه الاهمال ، والاهمال كما يكون وصفا لمستحقى الاوقاف يكون كذلك وصفا للمالكين . وإنه لتوجد فى القاهرة وسواها ألوف من الدور تركها أصحابها لمعاول البلى لسبب من الاسباب . ودواء هذا ليس إلغاء الوقف ولا إلغاء الملكية ، ولكن أن تسن الحكومة قانونا يقضى بوجوب إصلاح كل متخرب . فان لم يستطع المالك أو المستحق إصلاح ما تحت يده من العقار فيجبر على بيعه إن كان ملكا ، واستبدال غيره به إن كان وقفا . هذا إن كان يعنى الحكومة هذا الامر .

وأما أنا يمكن النظار من اغتياله ، فليس هذا بعيب للوقف نفسه ، ولكنه نقص فى التشريع الخاص به ، وعلاجه أن تطالب الحكومة بوجوب معاملة ناظر الوقف كمعاملة مدير الشركة سواء بسواء . وقد طالبت المحاكم الشرعية منذ سنين بوضع مثل هذا التشريع فلم يلب أحد لها طلبا .

ولو عومل مديرو الشركات كما يعامل نظار الأوقاف لعلت شكوى المساهمين منهم كما تعلو شكوى المستحقين من النظار سواء بسواء . وإذا كان الامر كذلك أكان يوجد فى مصر عاقل يطالب بحل جميع الشركات ؟

أما مسالة استحالة الانصبة بمرور الزمن الى أقدار لا تذكر ، فهذه مسألة تستحق النظر ، ولكنها لا توجب إلغاء الوقف ، وإنما توجب وضع نظام للوقف يمنع من إضاعة الثمرة المقصودة منه بعد حين ، وتطلق به يد الحكومة فى تحويله الى غرضه الخيرى متى كانت الضرورة تقضى به .

أليس نظام الوقف لدى المسلمين يفضل نظام الوصية عند الاوربيين ؟

نعم : وذلك من عدة وجوه وجيهة :

(أولها) أنه يحفظ الأسر من الانحلال بعد موت عائلها ، خلافا للوصية فان الموصى اليه يستطيع أن يبدد الثروة فى أيام معدودة ، فتنحل بذلك أسرة كانت كريمة فى المجتمع ، ويصبح أفرادها عالة على الناس . وحفظ الأسر مما تعنى الامم العظيمة أكبر عناية لأنها دعامات للهيئة الاجتماعية تحفظها من خطر التقلبات الفجائية . وأمامنا انجلترة ، وهى أقوى أمم الارض بنية ، تلجا فى حفظ الأسر الى وسيلة فذة لا تقوم عليها أمة سواها ، وهى اختصاص الابن

الاكبر بالتراث كله دون سائر أفراد الاسرة فاذا كان من أهم أغراض الوقف حفظ الاسرة من الانحلال فهو غرض يجب أن يقابل بالاكبار ، وخاصة فى هذا العصر الذى أصبحت فيه الثروات مهددة بخطر الاغراق فى الشهوات ، وبخطر التسرب الى خارج البلاد .

(ثانيها) أنه بعد انقراض الأسرة يصبح ملكا للامة ، فيصرف ريعه فى وجوه البر بها والاحسان اليها ، خلافا للوصية ؛ فعلى فرض أنها تحفظ الثروة من الضياع تصبح بعد انقراض مالكها ملكا للحكومة تصرفه فى شئونها ، ولايخفى الفرق بين الحالتين . فاذا علمت أن الداء الاجتماعى العضال الناشب أظفاره اليوم فى الجماعات والدافع لأفرادها الى انتحال المذاهب المتطرفة هو الفاقة ، رأيت أن كل ثروة تؤول الى سد مفاقر الناس تعتبر عملا اجتماعيا لايعدله عمل فى شرف الغاية ، وحفظ الاجتماع .

(ثالثها) أن الوقف يحفظ الثروة للامة التى اكتسبت منها ، ولا يتسرب الى أمم أخرى ، وحكمته فى الوقت الحاضر من أظهر الحكم وأدعاها للاعجاب ، خلافا للوصية فان الثروة التى تتحصل منها قد تتسرب الى خارج البلاد . وخصوم الوقف من أعلم الناس بوجوه هذا التسرب المالى وخطره على المجتمعات .

بعد كل هذا بقيت عقدة يعوزها الحل وهى :

الى أى وسيلة يلجأ رب أسرة يعول نسوة ضعافا وأطفالا صغارا وشيوخا هرمى ، ليضمن الضروريات لهم بعد وفاته ، وهو يرى أن له أولادا معوجى السيرة يتربصون به الموت ليستولوا على تركته فيبددوها فى سبيل شهواتهم فى أيام معدودة ؟

ربما يقال : يسع هذا الرجل ما يسع كل إنسان غيره من أبناء الامم الأخرى .

ولماذا نسقيه هذه الكأس المريرة وفى أوضاعه الشرعية ما يدفع عنه هذه الكاس ، ولا يجعله يرهب الموت كلما ألم به طائف منه ؟

لقد جال هذا الخاطر فى رءوس كثير من رجالات هذه الأمة فى الصدر الاول من الاسلام ، فحبس كثير من الصحابة دورا ومزارع على أسرهم بعد موتهم ، وجرى على نهجهم التابعون ومن تلاهم الى هذا العهد الحديث ، فوقف أكثر رجالات الأسر الكبيرة أملاكهم على ذويهم ومن يلوذ بهم ، فحموا بذلك بيوتهم من الانحلال . وكان أكثرهم يقف جزءا من ممتلكاتهم ويترك باقيها ملكا حرا لوارثيهم . فكانت النتيجة أن أكثر هؤلاء الوارثين بددوا ما ورثوه شذر بذر فى سبيل شهواتهم ، ولم تبق لهم إلا الأملاك الموقوفة ، فعاشوا بفضل غلتها مستورين ، ولولاها لتصدعت دعائم تلك البيوتات ، وتفرق نسوتها أيامى يلتمسون العيش إما باراقة ماء وجوههم فى السؤال ، أو باحتراف المهن الحاطة من كرامة تلك البيوت ، وهذا مشاهد لايحتاج لبحث طويل .

وهل يصح فى المعقول أن يعتبر الوقف شينا الى الحد الذى يصوره به خصومه ، بعد أن رأى الناس أن كبراء هذه الامة وصفوة متعلميها عولوا عليه مختارين حتى فى هذا العهد الذى تحمل عليه فيه طائفة منا حملات عنيفة ، وتعده رزءا اجتماعيا يجب تلافيه ؟

إن هذا الشعور القوى بالحاجة الى حماية الاسرة لا يمكن أن يتلاشى من القلوب ، فان سد فى وجهه سبيل الوقف تحرى سبيلا آخر اليها ، وأول ما تفكر فيه حرية الايصاء ، والبيوع الصحيحة والصورية ، وأشد ما أتوقعه تسرب الثروة للمصارف الاجنبية من طريق إيداع الأموال فيها واشتراط توزيع رباها على الورثة بعد موت عائلهم ، وأكثر ما يتسرب من هذا الطريق الثروات الكبيرة التى يملكها كبار المثرين .

فعلى الذين يعملون جاهدين على إلغاء الوقف الأهلى أن يزنوا كل ماذكرناه بميزان المصلحة الاجتماعية ، وأن لا يحملهم ما سببته له العادات من العيوب على الاندفاع فى طريق إلغائه ، فان هذه العادات يمكن سد الطريق عليها باحاطته بتشريع حكيم مستمد من روح الشريعة السمحة ، فيتجرد الوقف بهذه الوسيلة من عيوبه الكثيرة ، ويصبح وضعا إسلاميا جميلا قد تقتبسه عنا الأمم ويصبح لنا الفضل فيه .

أما هدم الأوضاع الصالحة التى شوهتها عادات السوء هربا من عناء إصلاحها وبحجة أنها لا توجد عند سوانا ، فليس من السداد ، ولا هو من عمل المصلحين .

نحن فى هذه العجالة لا نبحث فيما يجب أن يوضع للوقف الاهلى من التحفظات التى تمنع من استحالته الى الحالة التى لا تتفق والمصلحة العامة والغرض المقصود منه ، ولكننا نقول إن الشريعة السمحة لا تضيق ساحتها عن قبول كل نظام يكفل القيام على أكمل الحالات فى أى أمر من الأمور ، لأن مرماها الكمال حيث وجد ، وأصولها صريحة فى وجوب مسايرة كل إصلاح ، وهى تستنهض الهمم لنشدان خير الأمور فى كل ما له علاقة بالانسانية والانسان .

وإذا كانت الشعوب الاسلامية اليوم محفوزة بروح نهضة قوية لبلوغ أقصى شأو بلغته الامم المعاصرة فلا يستدعى ذلك أن نأتى على جميع أوضاعنا التى ليس لديها شبيه لها ، فان ذلك يفضى الى فنائنا فيها من أقرب طريق .

ومما يجب أن يعرفه العاملون على إصلاح العادات والاوضاع عندنا أن اللحاق بالامم الراقية يكفى فيه إصلاح النفوس وبث روح الفضائل فيها وتعميم التعليم ، فلا تلبث الأمة أن ترقى رقيا مطردا لا تكلف فيه . وفى نهضة الامة اليابانية عبرة المعتبرين ، فقد بلغت أبعد شأو فى المدنية ، ولا تزال مبقية على أكثر عاداتها وأوضاعها ، وذلك مصداق لقوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

محمد فريد وجدى

حول مشروع قانون العقوبات الجديد

وصلته بتنفيذ أحكام المحاكم الشرعية فى مواد النفقة بانواعها المختلفة

نقلت الاهرام مؤخرا الى قرائها فيما نقلت أن اللجنة المنوط بها وضع مشروع قانون العقوبات قد فرغت من وضعه ولم يبق إلا أن ترفعه الى الجهات المسئولة للانتهاء من مراحله الأخيرة ، وقد رأت اللجنة رغبة فى حماية الأسرة إضافة نص جديد بمعاقبة كل من يلزم بالانفاق على أحد من ذويه بحكم قضائى ويمتنع عن أداء هذا الواجب ، بالحبس لمدة لا تزيد عن سنة ، وبغرامة لا تزيد على مائة جنيه . فرأينا أن نأتي فى هذه المناسبة على ضروب النفقة فى الاسلام تنويرا للأذهان ، وتنويها بفضل شريعة القرآن فى بناء العمران :

نوع التشريع الاسلامى النفقة الى ثلاثة أنواع : نفقة واجبة على الزوج لزوجته ، ونفقة واجبة للأبناء ومن فى حكمهم على الآباء ومن فى حكمهم ، ونفقة واجبة للأبوين ومن فى حكمهما على الأبناء ومن فى حكمهم . ففرض فى باب نفقة الزوجية تلك النفقة على الزوج لزوجته ولو فى بيت أبيها ما لم يطالبها الزوج بالنقلة وتمتنع بغير حق ؛ وفرضها كذلك فى حالة ما إذا كان الزوج موسرا وكانت لامرأته خادمة تجب عليه نفقتها بقدر مايكفيها على حسب العرف ، بشرط أن تكون الخادمة مملوكة لها ملكا تاما ومتفرغة لخدمتها لا شغل لها غيرها ، وإذا زفت اليه بخدم كثير استحقت نفقة الجميع عليه إن كان ذا يسار ، وإذا رزق أولادا لا يكفيهم خادم واحد يفرض عليه نفقة خادمين أو أكثر على قدر حاجة أولاده . وفى حالة ما إذا مرضت المرأة مرضا يمنع من مباشرتها بعد الزفاف والنقلة الى منزل زوجها أو قبلها ثم انتقلت اليه وهى مريضة أو لم تنتقل ولم تمنع نفسها بغير حق فلها النفقة عليه ، فلو مرضت فى بيت الزوج ثم انتقلت الى بيت أهلها فان طالبها الزوج بالنقلة ولم يمكنها الانتقال لمخافة أو نحوها فلها النفقة .

وقد أوجب التشريع الاسلامى النفقة للابناء على الآباء بانواعها الثلاثة : فاوجب للابن النفقة على الأب الحر ولوذميا لولده الصغير الفقير ذكرا كان أوأنثى حتى يبلغ الذكر حد الكسب وحتى تزف الأنثى الى بعلها . وأوجب على الأب النفقة لابنه الكبير الفقير العاجز عن الكسب كزمن وذى عاهة تمنعه عن الكسب ، ومن كان من أبناء الاشراف أو من فى حكمهم ولا يستأجره الناس فى عمل من شانه أن يغض من سمعة بيته أو يزرى بكرامته ، وللانثى الكبيرة الفقيرة ولو لم تكن بها زمانة أو عاهة إلا إذا تزوجت ، فاذا تبين أن الأب معسر عاجز عن الكسب أو به عاهة تحول دون استدرار النفقة على غيره ، ألحق بالميت ، وتجب فى هذه الحالة النفقة على من يليه فى المرتبة مع تحقق شرائط الوجوب . ومعلوم أن النفقة تعتمد الجزئية والارث فى وجوبها.

أما إذا كان الأب معسرا ولازمانة به ولا عاهة تحول دون اكتسابه فلا تسقط عنه النفقة لمجرد إعساره لولده ، بل مفروض عليه أن يكتسب وينفق عليه بقدر الكفاية ، فان نفقة الأقارب معتبرة عند الفقهاء ضرورة طارئة ، وإنما تقدر الضرورة بقدر ملابساتها . فان أبى مع قدرته على الاكتساب يجبر على ذلك ويحبس في نفقة ولده ، فان لم يف اكتسابه بحاجة الولد أولم يكتسب لعدم تيسر الكسب ، أمر القريب بالانفاق على الولد بالنيابة عن أبيه ليرجع على الوالد إذا أيسر مستقبلا. والأم فى حالة إعسار الأب أولى من سائر الأقارب بالانفاق على ولدها ، فاذا كانت موسرة مع إعسار الأب أمرت بالانفاق على ولدها ولايشاركها الجد ، فان كان الأبوان معسرين ولهما أولاد يستحقون النفقة أمر بها القريب من منزلتهما كما أسلفنا ، فاذا أبى الانفاق عليهم مع يسره أجبره القاضى عليها ، ويكون إنفاق القريب فى هذه الحالة دينا على أبيهم المعسر يرجع به القريب عليه إذا أيسر ، سواء كان المنفق أما أو جدا أو غيرهما ، فان كان الأب معسرا أو زمنا عاجزا عن الكسب فلا رجوع لا حد عليه بما أنفقه على ولده ، وإذا كان أبو الصغير الفقير معدوما وله أقارب موسرون من أصوله فان كان بعضهم وارثا له وبعضهم غير وارث وتساووا فى القرب والجزئية يعتبر الأقرب جزئية ويلزم بالنفقة ، فان كان له أم وجد لأم فنفقته على الام ، وإن كانت أصوله وارثين كلهم فنفقته عليهم بقدر استحقاقهم فى الارث ، فلو كان له أم وجد لأب فنفقته عليهما أثلاثا : على الام الثلث وعلى الجد الثلثان . فان كانت أقارب الطفل الفقير المعدوم أبوه بعضهم أصول وبعضهم حواش فان كان أحد الصنفين وارثا والآخر غير وارث يعتبر الأصل لا الحاشية ويلزم بالنفقة سواء كان هو الوارث أم لا ، فلو كان للولد جد لأب وأخ شقيق فنفقته على الجد ، ولو كان له جد لام وعم فنفقته على الجد لأم ، فان كان كل من الاصول والحواشى وارثا يعتبر الارث وتجب عليهم النفقة على قدر أنصبائهم فى الارث ، فلو كان للصغير أم وأخ عصبى أو أم وابن أخ كذلك أو أم وعم كذلك فنفقته عليهما أثلاثا : على الأم الثلث وعلى العصبة الثلثان .

فان غاب الاب وله أولاد ممن تجب نفقتهم عليه وله مال عندهم من جنس النفقة ، جاز للقاضى أن يأمر بالانفاق منه عليهم . وكذلك الحال إذا كان للغائب مال مودع عند أحد أو فى بعض المصارف المالية أو كان له دين وكان من جنس النفقة وأقر المودع عنده أو المدين بالمال أولم يقر وقرائن المشاهدات قائمة على وجود تلك الوديعة عند المودوع وبالدين عند المدين بواسطة صكوك ومستندات تثبت ذلك . أما إذا كان مال الغائب ليس نقودا من جنس مايحكم به بان كان عقارا أو عروضا فلا يباع منه شيء بالنفقة ، بل تؤمر الأم بالاستدانة عليه للاولاد . لكن حقق صاحب ملتقى الابحر وصاحب كتاب أنفع الوسائل أن للقاضى فى هذه الحالة أن يقدر الملابسات المحيطة بتلك الحالة الواقعة ، فاذا تعذر استدانة الأم على العقار أوالعروض وتحققت حالة استثنائية وهى خشية تعرض الاولاد للجوع والفاقة ، جاز أن يباع العقار وأن تباع

تلك العروض بالقدر الذى يدفع عن الاولاد غائلة المخمصة، والضرورة تقدر بقدرها، بدليل أن الفقهاء أجازوا فى بعض الحالات للولد الذى لم يبلغ حد الكسب أن ينفق من مال أبيه الغائب إذا كان هذا المال من جنس النفقة على قدر كفايته من غير رجوع فى ذلك الى قضاء القاضى .

وتبدو رحمة الشارع الحكيم مقرونة بالعدل الشامل فى حالات كثيرة من أبواب النفقة، كحالة ما إذا كان الولد الفقير معسرا وله أب غنى، فقد أوجب نفقة زوجته على أبيه الموسر إذا ضمنها فى العقد، وأوجبها عليه إطلاقا على أن يرجع بها على ولده إذا أيسر، لأنها تكون دينا فى ذمته لا تبرأ منها إلا إذا أداها بعد يساره .

فان بلغ الولد حد الاكتساب فان كان ذكرا جاز للاب أن يؤجره على ما يحتمل ممارسته من الاعمال، أو أن يدفعه الى حرفة ليكتسب بها، وإذ ذاك ينفق منها أبوه عليه، ومابقى من كسبه يحفظه أبوه له ليسلمه إليه بعد بلوغه، وإن لم يف كسب الغلام بمرافقه الضرورية كان على أبيه الموسر إتمام كفايته منها . وإذا استغنت الأنثى كذلك بكسبها من الخياطة أو الغزل أو نحوهما فنفقتها فى كسبها إن وفى بحاجتها، وإن قصر كسبها عن شئونها الضرورية فعلى أبيها إتمامها .

وإن شكت الأم امتناع الأب عن الانفاق أو التقتير على ولدها منه جاز للقاضى أن يفرض النفقة ويأمر باعطاء الصغير لأمه لتنفق عليه حتى اذا تحققت خيانتها فى الانفاق عليه تحرى القاضى أمثل الطرق فى إيصال النفقة الى الولد . وهنا يرى بعض الفقهاء أن تسلم النفقة الى الأم وجبة بعد أخرى من وجبات اليوم أو تسلم لها النفقة على دفعتين فى اليوم، واحدة فى الصباح وأخرى فى المساء، لكن ماعليه عمل المحاكم الشرعية اليوم غير ذلك كما هو مشاهد، لأن فى عمل المحاكم اليوم تيسيراً أعم على الناس وترذيباً لهم أعاق بالمصاحة من هذا الرأى، فان وقعت المصالحة بين الام وزوجها على الاولاد فيما يتعلق بالانفاق عليهم أو صالحت الحاضنة أب الصغير عليه كذلك، وقع الصلح صحيحا فى حالة واحدة وهى ما إذا كان المصطلح عليه قائما بكفاية الاولاد، أما إذا كانت غير داخلة فى تقدير أسقطها القاضى من حساب الصلح وفرضها بالقدر الملائم، وإن كان القدر المصالح عليه أقل من نفقة الكفاية زادها القاضى الى ذلك القدر الذى يكفيهم .

وعليه يتفرع حال آخر وهو ما إذا قضى القاضى للزوجة على زوجها أو للحاضنة على أب الصغير أو أحد قرابته الواجبة عليه نفقته فهى فى حكم نفقة الزوجة فى عدم سقوطها بمضى شهر فاكثر من تاريخ الفرض حتى ولو فرضت بغير استدانة من القاضى، وعليه عمل كثير من المحاكم الآن، وهو الارفق بمصالح المتقاضين وأمس بحاجاتهم المتجددة بخلاف سائر المحارم .

فأن فرض القاضي تلك النفقة للصغير على أبيه ومضت مدة دون أن تقبضها الام من الاب حتى مات فأن كانت مستدانة بامر القاضى كان للأم الرجوع بها فى تركة أبيه كما

ترجع بها عليه لو كان حيا ، فان لم يقض القاضى باستدانة هذه النفقة وكان فى ذمة والد الصغير متجمد حتى مات سقط هذا المتجمد ولم يجز للام أن تطالب به ورثة الميت اتفاقا .

فلما تطور التشريع فى الاحوال الشخصية وروعى قدر الأمكان ما يجب للأسر من حرمة ، عنى المشرعون بايجاد ضوابط كانت أوسع نطاقا وأكثر تيسيرا وأفضل تحريا لصوالح الأسر وإحاطة الاحوال الشخصية بسياج صفيق يكفل لها الخير فى أوسع حدوده ، ويدرأ الشر فى أضيق صوره . فرضت لائحة ترتيب المحاكم الشرعية رقم ٧٨ صدر بها مرسوم فى ٢٤ ذى الحجة سنة ١٣٤٩ هـ موافق ١٢ مايو سنة ١٩٣١ م فكانت تلك اللائحة صورة أقرب الى مصلحة الأسر والعائلات مما سبقها من اللوائح ، وكفلت خيرا كثيرا يعود على المجتمع بقسط غير قليل من الرفاهية والاستقرار فى حالات الزوجية ، وبخاصة ما يتعلق منها بالنفقات فى مختلف حدودها وأنواعها

وقد يكون من المفيد جدا لقراء المجلة أن نضع على أعينهم جانبا مما كفلته لائحة ترتيب المحاكم الشرعية وإجراءاتها الصادر بها مرسوم رقم ٧٨ سنة ١٩٣١ فى باب النفقات :

المادة الخامسة من الباب الأول من الكتاب الثانى .

(أ) تختص تلك المادة لبيان ما يقع فى اختصاص المحاكم الجزئيـة الشرعية (وهى أقل درجات القضاء المبثوثة فى أنحاء القطر) .

(١) نفقة الزوجة :

(٢) نفقة الصغير بجميع أنواعها إذا لم يزد ما يطلب الحكم فى كل نوع على مائة قرش صاغ فى الشهر أو لم يحكم باكثر من ذلك إن كان الطلب غير معين . وكل ذلك بشرط ألا يزيد مجموع ما يحكم أو يطلب الحكم به للزوجة أو للصغير على ثلثمائة قرش صاغ فى الشهر .

(ب) النفقة عن مدة سابقة على رفع الدعوى إذا لم يزد مجموع ما يطلب على ألفى قرش أو لم يحكم بأكثر من ذلك إن كان الطلب غير معين . ثم إن اللائحة كفلت فى الكتاب الرابع بيان حالات التنفيـذ والاعلانات ، وجاءت تعليمات الحبس فى مواد النفقات بمنشور أذاعه وزير الحقانية على المحاكم ، وانتدبت وزارة الحقانية لكل محكمة قاضيا يفصل فى مواد الحبس .

عباس طه
المحامى الشرعى

تاريخ الادب العربى

فى العصر العباسى (١)

كان لظهور الاسلام أثر بعيد المدى فى حياة العرب من الوجهة السياسية ، فتناولها التغيير الكثير وخضعت للتطورات الخطيرة ، ولكنها بقيت بالرغم من ذلك إبان حكم الأمويين محتفظة فى جوهرها بصورتها القديمة ، فصمدت أمام الحضارة الآرامية فى الشام وبابل ، حيث اختلط البدو بمدنية العمران ونشأوا فيها مع تمسكهم الشديد بمميزاتهم القومية وتقاليدهم القديمة زمنا طويلا ، وكانت الأسرة المالكة تستند الى التقاليد العربية القديمة وتستعين بها على الحكم ، وبها قويت على مكافحة المطالب الدخيلة التى كانت تثيرها جماعة المتطرفين من رجال الدين .

تغيرت هذه الحال مع ظهور العباسيين الذين آلت اليهم السلطة بفضل مساعدة المسلمين من غير العرب على أثر ضعف الامويين عن المقاومة الجدية ، وكانت حكومة الأمويين تخضع لشعور العرب غير مراعية لأصول الاسلام الاولى التى كانت تدعو الى المساواة فى الحقوق بين جميع المؤمنين ، مما أثار عليها شرق البلاد الاسلامية فى خراسان حيث لم يكن للعرب شان خطير ، اللهم إلا نفر قليل منها فى الوظائف العامة أو بين الجند ، فكانت مستودعات الانفجار متوفرة بين أهالى هذه النواحى من الآريين ، خصوصا أنهم نشأوا على احترام المبدأ الوراثى خلال مئات السنين العديدة فى ظل حكومة ملوكهم الوطنيين ، وعلى هذا النظام الوراثى قامت دعوة الدولة العباسية فى المطالبة بالسيادة لقرابتهم بالنبى صلى الله عليه وسلم .

وكانت الفرس أول من ساعد العباسيين على تولى عرش الخلافة ، فكان لهم حظ وافر ونفوذ كبير فى بلاطهم ، فوصلوا الى أعلى مناصب الدولة وأقرب بطانة الخليفة ، بعد أن كان نصيب هؤلاء الغرباء خلال حكم الأمويين لا يتجاوز بعض مسائل الادارة الداخلية لخبرتهم الواسعة وحضارتهم القديمة .

وهكذا كانت الحال فى الحياة الفكرية ، فان هذا التغيير فى السيادة القومية قد طبعها بطابعه الخاص ، فما كان من مزاحمة الممتلكات العربية إبان حكم الأمويين وتفوقها على موطن العرب الأصلى ، أصبح فى حكم العباسيين أمراً واقعا وحقيقة مستقرة ، فتركزت الحياة الفكرية ببلاد العراق ، وعلى الأخص فى بغداد حاضرة الدولة العباسية الجديدة ، وأما مزاحمة الأفكار

(١) مترجمة من الالمانية نقلا عن كتاب « الادب العربى » للمستشرق الالمانى الكبير الاستاذ الدكتور « بروكلمان » .

والعبارة الجديدة التى بدأت فى العصر الأموى وظهرت على الاسلوب البدوى القديم ، فانها تغلبت عليه نهائياً حتى أصبح فى العصر العباسى لا يجد من يمثله إلا من تعمد التقليد ، ولم يقدره إلا العلماء العارفون ، وبذلك اضمحل شانه وهبطت قيمته ، وضاع أثره فى تطور الأدب على مرور السنين ، فالقصائد ، وكانت لا يربط أجزاءها منذ القدم إلا رباط ضعيف ، تفككت بعضها عن بعض كل التفكك ، وظهرت أنواع جديدة فى أبواب الشعر أهمها المرح والصيد ، وأخذت مكانها فى الأدب العربى بدلا من كل من المراثى ، وكانت تحيا منذ عهد بعيد حياة مستقلة ، ومن أشعار الغزل والخمريات التى كان قد مهد لها سبيل الاستقلال والتطور عمر بن أبى ربيعة ورفاقه من ناحية ، والوليد الثانى من ناحية أخرى .

وأظهر ما امتاز به الشعر فى هذا العصر هو أثر الديانة الاسلامية فيه الى حد بعيد ، بعد أن كانت بعيدة عنه كل البعد ، وإنما يرجع السبب فى ذلك الى رغبة خلفاء الدولة العباسية فى إظهار الدين فى جميع مرافق الحياة العامة ، هذا فضلا عن تعبير الشعوب الآرية بما امتازت به من مشاعر دينية .

وكذلك تقدم النثر فى الأدب العربى بخطوات واسعة بفضل المؤثرات الفارسية ، فكانت تمده فى أغلب الأحيان بأغنى المواد . ونهج المؤرخون على مثال من سبقهم فى الفرس ، فنشطت علوم التاريخ وأثمرت ثمارا غنية ، كما كان للفرس أيضا النصيب الوافر فى بناء مضمار العلوم الفلسفية والدينية التى اتسع نطاقها بعد ذلك ، ولو أن السبب الأول فى نهجهم هذا المنهج كان بفضل اختلاطهم بالحضارة الغربية .

وكانت بغداد وهى الحاضرة الجديدة التى أنشأها الخليفة المنصور للدولة العباسية قد اجتذبت اليها جميع الشعراء النابهين من النواحى المختلفة للبلاد الاسلامية ، وأول من عرف ممن تحرر فى الشعراء من الأسلوب البدوى القديم هو مطيع بن أياس ، وهو من أصل سامى ، ولكن نشأته بالكوفة وتلقيه العلم بها ساعده على التعرف بأصول الحضارتين فى بدء امتزاجهما. ولقد حاول الظهور فى أول أمره فى عهد الأمويين ، ولكنه رأى شروق شمس العباسيين فآثر الانضمام اليهم ، وظهرت موهبته الشعرية وهو فى بطانة الخليفة المنصور ، وكانت أشعاره سهلة تنسجم فى أوزانها مع ما اختص به فى الموضوعات الغزلية والخمريات ، كما كان لايتقيد بصياغة المقدمات الشهوانية لقصائده الغرامية مثل من سبقه من المتقدمين ، بل كان يتهكم على من نحا نحوهم من المقلدين .

ولقد بذه فى فنون الشعر فى صدر هذا العصر بشار بن برد ، فكان أغنى منه فكرة وأحكم وزنا للشعر ، وهو ابن أحد أرقاء الفرس ، وكان كثير الزهو بما يدعيه من نسبه الى الملوك ، وقد جرى كذلك فى صناعته الشعرية ، على تحطيم قيود التقاليد القديمة ، نشا ضريراً بالبصرة ،

وأول مابدأ حياته الشعرية ، بالغزل ، وكانت قصائده فى هذا المضمار رائعة ذات جاذبية ساحرة ، خشى أثرها الخليفة المهدى فصده عنها اجتنابا للفتنة ، وكان كثير الاختلاط بأصحاب العقائد الحرة فى موطنه ، الذين يريدون تفسير العقائد الاسلامية على حسب المبادئ الفلسفية ومراميها ، كما كان يظهر عطفه على ديانة آبائه على مبادئ زاروسترا ، ولما اكتملت رجولته تقرب من الخليفة المهدى ونظم له قصدائد عديدة فى مدحه ، ولكنه ما لبث بعد أن اتضح له بخله أن تهكم عليه وعلى وزيره يعقوب ، فأمر بقتله عام ١٦٧ هـ .

وجاء من بعده أبو نواس الحسن بن هانئ الحكمى ، و بظهوره بلغت شعراء الملوك أعلى درجات الكمال ، ولد أبو نواس فى أواخر النصف الأول من القرن الثانى من الهجرة بمدينة الأهواز ، وكان يجرى فيه الدم الفارسى من ناحية أمه على الأقل ، جاء أبو نواس الى البصرة فى مقتبل عمره ، وتلقى بها علوم اللغة على أكبر علماء هذا العصر ، فساعده ذلك كثيرا على سيطرته التامة على دقائق اللغة العربية ، وجريا على مثال هؤلاء العلماء اللغويين أقام أبو نواس عاما بالصحراء حيث كانت لغة أهلها من البدو تمثل العربية الصحيحة ، وأخذ صناعة الشعر عن والبه الذى اصطحبه الى الكوفة حيث أكمل دراساته اللغوية ، وبعد أن اشتهرت قصائده الأولى رحل الى بغداد فكان موضع إكرام هارون الرشيد وخلفه الأمين ، وامتازت من بين أشعاره الخمريات فبلغت درجة فى الكمال لم تبلغها من قبل ، ولو أنه لم يكن فى هذا المضمار مبتكرا مجددا ، بل إنه كان ينهل من موارد من سبقه من أمثال الوليد ورفاقه ، كما أنه أخذ عن الحسين ابن الضحاك وكان زميلا له فى الدراسة بالبصرة ، وقد نسبت بعض أشعاره خطأ الى أبى نواس . والمعروف أن الاشعار التى خصصت فى وصف الخمر لم تتسع دائرتها الفكرية لمعانى كثيرة ، وإنما كانت تمتاز بدرجة حيويتها وصدق مشاعرها ، وكانت حياة أبى نواس ملأى بمغامرات الخمر والعشق ، وبذا كانت أشعاره التى تلى الخمريات فى القيمة تنصب فى حياة المجون والعشق التى لاحد لها ولا رادع ، فكانت كثيرا ما تخرج عن دائرة المشاعر الهادئة الجميلة الى القول الغليظ والعبارة الجارحة التى ينبو عنها الفن الجميل ويمجها الذوق الادبى السليم ، وكانت علاقته ببلاط الخليفة تحمله فى بعض الاحايين على صياغة قصائد مديح الخلفاء ، فكان يلجأ اليها احترافا ، وهنا كانت تظهر براعته اللغوية التى أثبتت سيطرته التامة على فنون الكلام وصياغة الألفاظ ، ولم يكن بها مايدعو للأعجاب بشاعريته الصادقة . وأما المراثى فكانت أعلى قيمة من الناحية الشعرية ، فكانت قلما تخلو من تعبير عن شعور صادق وإحساس مخلص وكان أبو نواس أول من أوجد للصيد بابا مستقلا فى الشعر ، ظهرت فيه صور رائعة فى وصف حياة الحيوانات وطباعها ، وملاذ الصيادين ولهوهم ، ولم يأت أبو نواس أيضا فى هذا المضمار دائما بالجديد المنقطع النظير ، فان قصائد العصر الجاهلى كانت ملأى بالصور الفاتنة فى وصف حيوانات البيداء ، التى عرفها شعراؤهم عن طريق المشاهدة المباشرة ، كما أن هذا الغنى لم يكن

قد صار الى الفناء التام فى عصر الأمويين ، ولو أننا لا نعرف الآن أسماء من اتخذهم أبونواس مثالا له فى هذا المضمار ، بعكس الحال فى خمرياته كما سبق لنا التنويه .

استغرق أبونواس طويلا فى حياة المجون ، ولم يترك من ملاذ الحياة منهلا إلا ملأ منه كأسه حتى أشبع شهوته ، ولما لم يبق له منها مطاب ارتمى فى شيخوخته فى أحضان الديانة ، ولم يخرج بذلك عن الظاهرة العجيبة التى امتاز بها الشرق بدون شذوذ ، خصوصا بين الفارسيين حتى العصر الحاضر ، فصار من مادح للخمر والعشق لدرجة التبذل ، الى ناسك متقشف ، ولم يبق له من ذكريات الشباب الماجن والحياة الطروبة سوى ما جعله يحمل ألم فراق الحياة والحسرة عليها . ولم يشذ أبو نواس عن رفاقه فى هذا الفن ، فجعل منه حملات ماكرة ضد من كرههم من الناقدين له بأشعار مقذعة ، أثارت عليه غضب أسرة فارسية عريقة كانت تقيم ببغداد بسبب أشعاره التهكمية ، فأثارت عليه من ينتقم منه ، وكان من جراء ذلك أن عومل بالأذى وبولغ فى الاساءة اليه حتى توفى بسبب تكرار الانتقام منه ، ومات عام ١٩٨ هـ .

وظهر من المعاصرين لأبى نواس من الشعراء النابهين أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم ، فامتاز عنه باتساع دائرة الفكرة ولو انه كان أبسط منه فى الأسلوب . أقام أبو العتاهية فى شبابه بالكوفة ، وجاء الى بغداد فى عهد الخليفة هارون الرشيد ، وجرفه تيار ملاذ الحياة فى أول الأمر ، فأخذ قسطا وافرا من متاع الدنيا ، وأنشد أغلب قصائده فى الغزل ، ولكنه سرعان ما تحولت نفسه عن هذه الحياة ، وانقطع للأشعار الدينية ، ووجدت أشعاره ذيوعا بين طبقات الشعب المختلفة أكثر من تداولها بين بطانة الخليفة وحاشيته ، فنجح الى حد بعيد فى تهذيب الأفكار العامة ، ولم يتجاوز بأشعاره الدائرة الدينية إلا قليلا ، فكان كثير التشاؤم يتردد حديث الموت وعذابه فى أشعاره ، ولم يذكر البعث مما جعل الكثيرين فى حيرة من أمره ، وحمل بعض المتشككين على الريبة فى صحة عقيدته وثبات إيمانه ، ولم يستطع أبو العتاهية أن يبرز دائما فى ميدان الشعر بقريحة مجددة أو ذهن مبتكر ، ولو أن ذلك لا يقلل من قيمة عمله ، فهو أول من عرف أن يجعل أشعاره فى أسلوب سهل قريب من فهم عامة الناس مبتعد عن الفنون المصطنعة فى صياغة الألفاظ التى كانت تتجه اليها أغراض من سبقه من شعراء الملوك ، ولكنه لم يكن موفقا فى هذا الطريق الذى أراد تمهيده ، فلم يكن لغرسه ثمار ، ولم يقو على إيقاف فساد الذوق الفنى الذى كان تياره آخذا فى النمو شيئا فشيئا ، ومات أبو العتاهية عام ٢١١ هـ .

وآخر من ظهر من الشعراء البارزين الذين كانوا يمثلون هذا الفن فى بلاط خلفاء الدولة العباسية هو أبو العباس محمد بن المعتز ، وهو ابن الخليفة المعتز ، ولد عام ٢٤٧ هـ ولم تكن له فى أول الأمر مطامع سياسية ، فانقطع لاشباع ميوله الفنية والعلمية ، الى أن اجترفه تيار

الحوادث السياسية التى كانت تتوالى فى هذا العصر ، فانتزعته من حياته الشعرية ، وبايعه بالخلافة بعض الأنصار من المعارضين فى الحكم عام ٢٩٦ هـ . ولكنه لم يبق بها طويلا ، إذ تمكن حرس الخليفة المقتدر فى أسرع وقت من التغلب على أنصاره وتشتيتهم ، ففر هاربا وبقى مختبئا فى بيت أحد رعاياه المخلصين الى أن عثروا عليه وقتلوه خنقا فى الثانى من ربيع الثانى عام ٢٩٦ هـ .

وكان ابن المعتز فى شعره مخلصا لعصره ، فكان على شاكلة زملائه فى محاكاة القدماء فى هذا الفن والسير على منهاجهم ، ولم يخرج عنهم إلا فيما أنشده فى الغزل والعشق ، فان هذا الموضوع كان يستدرجه الى طريق أبى نواس وأتباعه الحديثين ، وأهم أعماله الشعرية التى استحقت تقديرا ممتازا قصيدته المعرفة فى مدح الخليفة المعتضد ، وقد نظمها فى أربعمائة وتسعة عشر بيتا من الشعر تحقيقا للرغبة التى أبداها الخليفة لتدوين أعماله فى الحكم ، وهذه القصيدة على جانب كبير من الأهمية ، فهى تمثل نوعا خاصا هو القصص المنظوم الذى لم يظهر فى الأدب العربى كامل النضوج فى أى وقت آخر من الأوقات ، وكان العرب منذ القدم يعنون بهذا النوع من الشعر ، فظهرت بدايته فى نظم بعض الموضوعات القصصية فى أخبار الحروب القديمة ، ولكنه لم يتقدم إلا فى عصر ازدهار الفنون الشعرية ، فعالج بعض الشعراء الحوادث التاريخية ، وأهم ما عرف من ذلك القصيدة المشهورة التى نظمها أبو يعقوب الخزيمى فى وصف حالة بغداد أثناء حصارها فى الحرب التى قامت بين ولدى هارون ، وكان الوصف هو الناحية الغالبة فيها بعكس القصة التاريخية التى أهملت وأخذت المرتبة الثانية من الاهمية ، وأما القصيدة التى وضعها ابن المعتز لتدوين تاريخ الخليفة المعتضد فكانت آية فى الكمال الفنى ، وفيها وصف دقيق للحالة السيئة التى كانت قد صارت اليها البلاد قبل خلافة المعتضد ، ثم جاء على سرد أعماله لصالح الأمبراطورية بالفاظ بليغة وعبارة سامية ، وبقيت هذه القصيدة بدون أثر يذكر فى تطور الأدب العربى زمنا طويلا ، الى أن جاء فى العصور المتأخرة بعض الشعراء المحترفين ونظموا بعض قصص الأبطال التى نشات عن الروايات العربية القديمة .

ولم يقتصر ابن المعتز فى أعماله الادبية على الشعر ، بل إنه دون تاريخ الشعراء من الأمراء ، وجمع أعمال أصحاب الخمريات بعد دراسة وافية للشعر القديم ، ووضع مؤلفا هاما فى تاريخ الشعر الحديث على نمط مؤلفات علماء اللغة ؟

« يتبع »

المرأة فى الاسلام

لا يعدم الحق نصيرا

فى شمال أفريقيا التابعة لفرنسا حركة للمطالبة بالاصلاح ، اتخذت شكلا مقلقا لحكومة الجمهورية ، فهب رجال من خيرة النواب الفرنسيين يطالبون وزارتهم باعارة تلك الشكايات آذانا مصغية ، وبقبول ما يمكن قبوله من مطالبهم ، وقد اقترح النائب المسيو فيولت أن تعطى طائفة من الجزائرين الحقوق المدنية التى تساوى أفرادها بالفرنسيين أنفسهم ، وهو لا يزال يحاول حمل الحكومة على تحقيق غرضه فاثار هذا الاقتراح ثائرة الجرائد الاستعمارية ، فكتبت فصولا مستفيضة فى التشنيع على هذا التجديد ، متذرعة بانحطاط المرأة فى الاسلام ، قائلة إن الاسلام وضع النساء فى مستوى أحط من مستوى الرجال ، فاذا عومل هؤلاء الناس بالقانون الذى يعامل به الفرنسيون ، فلا يمكن تطبيقه على النساء اللاتى يعتبرن فى نظر أزواجهن فى حكم الأسيرات .

فانبرت لهذه الصحف سيدة فرنسية تدعى (ماريا فيرون) فى جريدة (فاندريدى) البارزية ، وكتبت ردا عليهم نترجمه على علاته للقارئين ، قالت :

« منذ ظهور مسالة منح الجزائرين حقوق الانتخاب ، مع الاحتفاظ بقانون الاحوال الشخصية لديهم ، أهرق مداد كثير فى بيان حالة المرأة المسلمة ، وخاصة من جانب كثير من الذين لم يهتموا فيما مضى من الزمان بتغيير حالة هؤلاء المسكينات اللاتي تؤلمهم حالتهن الآن . وقد طال ما كتب بعض الناس هنا كتابات كان الغرض منها التدليل على أن عرب شمال أفريقيا أكثر شعوب المسلمين تاخرا ، ولكن الحكومات المتعاقبة لم تعر هذه الكتابات آذانا صاغية ، وقد حذا حذوهم القائمون بالأمر هنالك ، ولم تفز بشىء من الاصلاح إلا نساء القبائل ، وهن بائسات كغيرهن على السواء . ولم يلتفت الرأى العام الى الحالة التى تعامل بها النساء الغربيات فى بلد عد منذ أكثر من قرن من الممتلكات الفرنسية .

ولقد تيقظ المسلمون كافة بعد فتور دام عدة قرون ، فبدأت النهضة فى تركيا الكمالية ، وبين يوم وتاليه رأينا النساء يخرجن من سجن الحريم ، ويصرن مساويات للرجال ، ويدخلن فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسة .

قد يعترض علينا هنا معترض فيقول : هذا أثر من أثر البعد عن الدين ، فان أحكام القرآن لا تسرى الا ن على الحكومة والأفراد هناك .

وقد ذكرت السيدة مارية فيرون ان تاريخ المسلمين يحفظ أسماء نساء شواعر ، وفاتها أن تقول : ونساء عالمات أيضا .

وذكرت أن الاسلام سمح لها بالتعلم ، وفاتها أن تذكر أنه سمح لها بالتعليم أيضا ، وسمح لها فوق ذلك بتولى الافتاء والقضاء ، ولكن فى غير الدماء . وهذا حق لا تزال أرقى نساء العالم محرومات منه .

وذكرت أن الاسلام سمح لها بحرية التصرف فى ملكها ، وفاتها أن تذكر بأن هذا حق لم تفز به المرأة الأوربية الى اليوم متى كانت متزوجة .

ولكن السيدة (مارية فيرون) مهما قصرت فى بيان حقوق المرأة فى الاسلام ، فهى تشكر كل الشكر على ما صرحت به من القدر الذى ألمت به عنها ، وهذه فضلة عظيمة القيمة وخاصة فى بيئة كباريز لا تعرف عن الاسلام كبير شىء . وليس جهل هذه البيئة تقع تبعته عليها وحدها ، ولكن على جمهور المسلمين أيضا ، فانهم لجهل سوادهم الاعظم بدينهم يجرون فى معاملة نسائهم مع العادات المحلية ، والأهواء النفسية . وأولو الامر فيهم لا يبالون بما تجره هذه الحالة من السمعة السيئة على دينهم وعلى كتابهم .

أليس من نكد الدنيا على العارفين ، أن يكون الاسلام قد بلغ الغاية فى تخويل المرأة بحقوقها المهضومة ، حتى إنه سبق الامم كافة الى أصول من ذلك لو انكشفت للاوربيين لأصبحت فى نظرهم من الادلة على أن القرآن ليس من وضع البشر ، ويتهم الاسلام مع ذلك بانه حط من قيمة المرأة وأغرق فى هضم حقوقها .

هذا غريب ومؤلم للنفس فى آن واحد ، ولكن سببه معروف وهو إهمال خاصة المسلمين أمر عامتهم ، وتركهم وما توحيه اليهم عاداتهم ، وما توجبه عليهم جهالتهم . ولا يوجد فى الأرض دين جنى أهله عليه مثل هذه الجناية . فان الذى نراه على عكس هذا الأمر ، ذلك بأن بين أيدينا أديانا ليست على شيء من سلامة الأصول ، ولا من صحة المبادئ ، ولكن أهلها حاطوها بمعارفهم ، وصحة رجولتهم ، فانعكس عليها منهم مظهر من السمو ليس لها نصيب منه لولاهم .

وقد نبه كتابنا الكريم ، تفاديا من مثل هذه الحالة ، الى وجوب الاتصال بالعامة وتعليمهم وتهذيبهم ، ونهيهم عن المنكر ، وأمرهم بالمعروف ، وأوصى القائمين بالأمر بان لا يقروا المنكرات ، وأن لا يغضوا الطرف عنها ، وقد وصف الله قوما من الغابرين فقال : « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم فتنا كقطع الليل المظلم تدع الحكيم حيرانا »

وقد رأينا السلف شديدى الحرص على إزالة المنكرات ، حتى أنشأوا لها خطة خاصة تعرف

هذا صحيح ، ولكن من يجيل نظره فى الشرق يرى أن ترقيات محسوسة قد تمت فى كل مكان من العالم الاسلامى .

ففى مختلف الولايات الهندية تعطى المرأة صوتها فى الانتخابات على مثال الرجال ، وفى بلاد العجم وسورية توجد نساء قد هجرن عادة التحجب ، وألفن جماعات نسوية ، وهن يجتمعن على شكل مؤتمرات لتحرير مطالبهن الاجتماعية .

وفى مصر نجد الحياة النسوية قد تطورت تطورا كاملا بفضل المدارس الخاصة التى تعدهن لأن يلتحقن بالكليات المختلفة ، ليصرن محاميات وطبيبات .

ألم نر فى العهد الأخير أن فتاة مصرية قد حصلت على شهادة ربان ؟ والرجال كيف يقابلون هذه الانقلابات ؟ هل احتجوا عليها باعتبار أنها مخالفة للدين ؟ لا مشاحة فى أن بعضهم قد راعه ذلك ، ولكن الاكثرين على عكس ذلك قد سرهم أن يروا بلادهم تقوم بقدم ثابتة على طريق التقدم .

ومما هو جدير بالتعجب ، أنك تصادف أشد المنتصرين للمرأة من الذين هم أكثر من سواهم اعتقاداً بصحة الدين ، وهم يدعون أنهم بموقفهم هذا يحسنون القيام بوصايا نبيهم وتعاليمه . فلنصغ إذن الى ما يقولون .

إنهم يقولون : إن المرأة قبل بعثة محمد كانت لا تعتبر شيئاً يذكر . فقد كانت عادة وأد البنات شائعة بقصد التخلص من إعالتهن . وقد حرم الاسلام ذلك . ولما لم يكن ممكنا أن يحرم الاسلام تعديد الزوجات ، فقد توسط النبى فى الأمر فحصر عدد الزوجات فى أربع مع التوصية بالاكتفاء بواحدة ، بحجة أن الانسان لا يستطيع مراعاة قواعد العدل بين النساء ولو حرص على ذلك أشد الحرص .

وأما من الناحية الوراثية فقد قرر القرآن حصة البنت والام والزوجة ، وأما مسألة التحجب فقد علم أنه ليس فيه إجبار .

وقد سمح الاسلام للمرأة بأن تتعلم ، وقد حفظت أسماء نساء شواعر مشهورات .

ويجب التنويه بصورة خاصة بأن الزوجة حق التصرف بما لها دون أن تكلف الانفاق على نفسها وهى على ذمة زوجها .

فيأيها الفرنسيون ألا تخجلون إذا قرأتم ما ذكرت !

(مجلة الازهر) نقول : إننا ترجمنا هذه القطعة على علاتها ، وفيها هنات لا تخفى على القارىء ، ولكنها تعتبر فى جملتها دفاعا عن الاسلام فى بيئة ترى أنه أشد على المرأة من كل نظام اجتماعى فى الأرض .

باسم الحسبة عملا بقوله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الاثم والعدوان». فكل مسلم مكلف بهذا النص الصريح بالمعاونة على إقامة دولة الاحسان والصلاح ، وإزالة أصول الشر والفساد ، مما لو أخذ به المسلمو اليوم لأصبح كل إنسان مهيمنا على الفضيلة فى الناحية التى هو فيها ، فلاتبقى للرذائل باقية ، وتكون ثمرة ذلك كله أن الأمة تقوى روحها ، وتشتد أوصالها ، فتصبح لها شخصية معنوية سامية تعجب الناظر اليها ، وتكون حجة لما هى عليه من دين ومذهب .

وقد ال أمر المدافع عن الاسلام اليوم الى موقف غير منيع ، فهو كلما اضطر لدفع فرية توجه اليه ، عمد لا الى توجيه نظرصاحبها لحالة الآخذين بهذا الدين من السداد والرشد ، ولكن الى سرد أصوله الكريمة ، ومبادئه القويمة التى بينها وبين ما عليه السواد الاعظم بون بعيد .

محمد فريد وجدى

التماس الرزق

قال النبى صلى الله عليه وسلم « العائد على أهله وولده كالمجاهد المرابط فى سبيل الله » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول » .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول ، اللهم ارزقنى ، وقد علم ان السماء لاتمطر ذهبا ولا فضة ، وإن الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض ، وتلا قوله تعالى : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .

وقال الشافعى : أحرص على ما ينفعك ودع كلام الناس فانه لا سبيل الى السلامة من ألسنة العامة . ومثل هذا قول مالك بن دينار : من عرف نفسه لم يضره ما قال الناس فيه .

وكان أبو عبيد القاسم بن سلام ينشد :

لا ينقص الكامل من كماله   ما ساق من خير الى عياله

وقال عمر بن الخطاب : يا معشر القراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس .

وقال أكثم بن صيفى : من ضيع زاده اتكل على زاد غيره .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « خيركم من لم يدع آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته » .

وقال عمرو بن العاص : اعمل لدنياك عمل من يعيش أبدا واعمل لآخرتك عمل من يموت غدا .

كتب جديدة

مقام ابراهيم :

هو اسم خطبة ألقاها الاستاذ الجليل محمد اسعاف النشاشيبي بدمشق فى حفلة تأبين فقيد العرب البطل المجاهد ابراهيم هنانو . وقد أحسن بطبعها على حدتها ، فانها قطعة من الادب العالى الذى يقرأ ويحفظ . وقد زادها حلى بتعليقات لغوية وتاريخية وعلمية على كل ما غمض فيها تربى على الاصل نحو ثلاثة أضعاف. فله الشكر على ما أحسن ، وله الشكر على ما أهدى .

القرآن والقصص :

هو خلاصة درس ألقاه فضيلة الشيخ محمد البشير النيفر المدرس بمسجد الزيتونة بتونس . فقد قسم القصص فى القرآن ، وذكر طريقته فى إيرادها وفوائدها الادبية وحكمها ، وإنه لدرس مفيد لطلبة العلم الدينى. فنشكر لفضيلة الاستاذ هذه الخدمة الأدبية .

شرح ديوان علقمة الفحل :

من فحول شعراء الجاهلية وأحد الذين يجب أن يذاع شعرهم بين طلاب العربية . عنى بشرحه وطبعه الاستاذ السيد احمد صقر فأحسن كل الاحسان، وكتب عليه الدكتور النابه زكى مبارك مقدمة قال فيها : « فلا تستقلوا هذه القصائد والمقطوعات والابيات ، فان الجوهر الجيد ليس فيه قليل » .

كمال أتاتورك :

هذا عنوان ملحق لمجلة الهلال نشرته فى نهاية سنة ١٩٣٦ على عادتها فى نهاية كل سنة من سنى حياتها المباركة . وموضوع هذا الملحق من أجل الموضوعات وأنفعها ، درس حياة عبقرى أنقذ أمته من مخالب الهلاك ، وزاد على ذلك بان دفعها للتقدم بخطوات لم يعهد لها مثيل ولا فى تقدم الامة اليابانية . فهذا الكتاب آخذ باللب من رواية ، وأنفع للقارئ من كتاب علمى .

الملك هنرى الخامس :

هذا اسم رواية وضعها شكسبير ، ويكفينا أن نذكر هذا الاسم فيدرك القارئ مبلغ قيمتها من الأدب والحكمة . فان انجلترة الى اليوم صورة من صور عقلية شكسبير . وقد قام

الاديب البليغ سامى افندى الجريدينى بترجمة هـذه الرواية ترجمة تتناسب وعبارة الاصل ، ونشرتها دار الهلال ملحقا لها من الملاحق الكثيرة التى تمنحها قارئيها .

سير العظماء :

هى رسالة صغيرة وضعها حضرة الاستاذ الفاضل حسان أبو رحاب افندى ناظر مدرسة فاروق الاول الابتدائية ، وضعها على شكل قصصى يحفز لمطالعتها ، ويغرى بتفهمها ، وغرضه منها أن ينشئ الرجولة فى قلوب النابتة ، ويبعث فيها حب الاخلاق النبيلة ، ويوقظ بجانبها غرائز الطموح وتطلب التفوق . فهذه القصة التى تدبجها يراعة رجل خبر النفوس الناشئة ، ودرس طرق التأثر فيها ، من خير ما يعول الآباء والامهات والمربون فى تقويم طباع أبنائهم وتلاميذهم .

المسيح والتثليث :

كتاب يقع فى ٢٢٧ صفحة مطبوع طبعا نظيفا على ورق جيد . موضوعه دينى جدلى كما يدل عليه اسمه لم نتفرغ بعد لقراءته حتى نعطيه حقه من النقد والتقريظ . ألفه حضرة النابه الدكتور محمد وصفى يتبين لنا من قراءة فهرسه أنه تعمق فى دراسة الديانة النصرانية . فأتى على المسيح عليه السلام والاناجيل ، وحياة بولس وكتبه ، ودعوى ألوهية المسيح وقد أفاض فيها وألم بعقائد الفرق المسيحية فيها . وذكر الاقانيم ، ومباحث مجمع نيقة . وخرج من ذلك لدراسة أصل التثليث من العقائد الهندية وغيرها . ومر بعقيدتى الفداء والصلب . وختم كتابه بما جاء عن المسيح فى القرآن .

رسول العواطف :

هو اسم ديوان شعر للشاعر الناشئ النجيب الاستاذ محمد محمد الجندى ، قد طالعنا نتفا منه فاذا نحن نرى شاعرية تتمشى نحو التكميل ، ونفسية مؤمنة هادئة بعيدة عن التشاؤم ، وما رأيناه فى هذا الديوان يبشر بمستقبل حسن فى هذا المجال الادبى الجميل .

مفكرة الأمير :

اعتاد حضرة المجتهد عباس افندى عبد الرحمن بشارع محمد على إصدار مفكرة متقنة الصنع فى رأس كل سنة . وقد أهدانا مفكرة هذه السنة فاذا بها من أجمل المفكرات شكلا ، وأرقاها وضعاً . فنثنى على همته ، ونرجو له النجاح فى صناعته .

his nostrils, and washed his face and arms, after which he let the water flow over his head, and washed his body. Finally he shifted his place and washed his feet.

I brought him a napkin, but he refused it and proceeded to rub the water off with his hand."

Chapter 17.

If a man remembereth in lhe mosque that he is in a state of ritual uncleanness through sexual intercourse, he should go out just as he is, and not merely perform a dry ablution.

We are informed by ᶜAbdullâh b. Muhammad, who had it from ᶜUthmân b. ᶜUmar, who received it from Yûnus, through Az-Zuhri, through Abu Salamah, through Abu Hurairah, who said:

" The call for standing to prayer had been made, and the ranks of the Faithful had stood up in order, when the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) came out to us *from his house*. When he stood up to prayer in his place, he remembered that he was in a state of ritual uncleanness through sexual intercourse, so telling us to keep our places, he returned home and performed a ghusl. He then came out to us again with his head dripping, whereupon he called the takbîr and we performed our prayer with him."

This hadîth is confirmed by ᶜAbdu-l-Aᶜlâ as fellow-witness with ᶜUthmân b. ᶜUmar, through Maᶜmar, through Az-Zuhri. It is also related by Al-Auzâᶜi, through Az-Zuhri.

وَذِرَاعَيْهِ ، ثُمَّ أَفَاضَ عَلَى رَأْسِهِ الْمَاءَ ، ثُمَّ غَسَلَ جَسَدَهُ ، ثُمَّ تَنَحَّى فَغَسَلَ رِجْلَيْهِ .

قَالَتْ : فَأَتَيْتُهُ بِخِرْقَةٍ فَلَمْ يُرِدْهَا فَجَعَلَ يَنْفُضُ الْمَاءَ بِيَدِهِ».

— ١٧ —

بَابٌ : اذا ذَكَرَ فِي الْمَسْجِدِ أَنَّهُ جُنُبٌ يَخْرُجُ كَمَا هُوَ وَلَا يَتَيَمَّمُ :

حدثنا عبد الله بن محمد قال حدثنا عثمان بن عمر قال أخبرنا يونس عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال :

« أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَعُدِّلَتِ الصُّفُوفُ قِيَامًا فَخَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَلَمَّا قَامَ فِي مُصَلَّاهُ ذَكَرَ أَنَّهُ جُنُبٌ فَقَالَ لَنَا : مَكَانَكُمْ ، ثُمَّ رَجَعَ فَاغْتَسَلَ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْنَا وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ ، فَكَبَّرَ فَصَلَّيْنَا مَعَهُ » .

تَابَعَهُ عَبْدُ الأَعْلَى عن معمر عن الزهرى ، وَرَوَاهُ الأَوْزَاعِي عن الزهرى.

he began by washing his hands and performing the wudûs as for prayer, after which he proceeded to the ghusl, passing his wet fingers through his hair, until when he thought he had moistened his skin, he poured water over his hair three times. Finally he washed the rest of his body.

The Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) and I used to wash from the same vessel, scooping water from the it together."

اغْتَسَلَ ثُمَّ يُخَلِّلُ بِيَدِهِ شَعَرَهُ حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ قَدْ أَرْوَى بَشَرَتَهُ أفاضَ عليهِ الماءَ ثلاثَ مرَّاتٍ ثُمَّ غَسَلَ سَائِرَ جَسَدِهِ،

وقالت : كُنْتُ أَغْتَسِلُ أنا ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم من إناءٍ وَاحدٍ نَغْتَرِفُ مِنْهُ جميعاً ».

Chapter 16.

On one who performed the wudûs in a state of ritual uncleanness through sexual intercourse, and then washed the rest of his body without repeating the action for the parts covered by the wudûs.

We are informed by Yûsuf b. cIsâ, who had it from Al-Fadl b. Mûsa, who received it from Al-Acmash, through Sâlim, through Kuraib the freedman of Ibn cAbbâs, through Ibn cAbbâs, through Maimûnah, who said:

"The Messsenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) set ready the water for his ghusl in consequence of ritual uncleanness through sexual intercourse. He poured water with his right hand on to his left two or three times and washed his parts. He then struck the ground or the wall with his hand two or three times, rinsed his mouth, cleansed

— ١٦ —

بَابٌ مَنْ تَوَضَّأَ فِي الجَنَابَةِ ثُمَّ غَسلَ سَائِرَ جسدِهِ وَلَمْ يُعِدْ غَسْلَ مَوَاضِعِ الْوُضُوءِ مَرَّةً أُخْرَى :

حدثنا يوسف بن عيسى قال أخبرنا الفضل بن موسى قال أخبرنا الأعمش عن سالم عن كريب مولى ابن عباس عن ابن عباس عن ميمونة قالت :

« وَضَعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وَضُوءاً لِجَنَابَةٍ فَأَكْفَأَ بِيَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً ، ثُمَّ غَسَلَ فَرْجَهُ ، ثُمَّ ضَرَبَ يَدَهُ بِالأَرْضِ أَوْ الْحَائِطِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً ، ثُمَّ مَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ وَغَسَلَ وَجْهَهُ

"When I mentioned to ᶜAˢishah the words of Ibn ᶜUmar: 'I do not care to rise in the morning in a state of ihrâm, reeking with perfume, and questioned her on them, she replied: 'I did perfume the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace), after which he visited his wives in turn, and then rose in the morning in a state of ihrâm.'"

2. We are informed by Adam, who had it from Shuᶜbah, who received it from Al-Hakam, through Ibrâhîm, through Al-Aswad, through ᶜAˢishah, who said:

"I still seem to see the sheen of the perfume on the parting of the Prophet's hair (Allâh bless him and give him peace) when he was in a state of ihrâm."

CHAPTER 15.

On one passing his wet fingers through his hair, until when he thought that he had moistened his skin, he poured water on his hair.

We are informed by ᶜAbdân, who had it from ᶜAbdullâh, who received it from Hishâm b. ᶜUrwah, through his father, through ᶜAˢishah, who said:

"When the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) used to perform a ghusl in consequence of ritual uncleanness through sexual intercourse,

«سألتُ عائشةَ فذكرتُ لها قولَ ابنِ عمرَ: ما أُحبُّ أنْ أُصبحَ مُحرِماً أنضخُ طيباً - فقالتْ عائشةُ: أنا طيّبتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ثمّ طافَ في نسائه ثمّ أصبحَ مُحرِماً».

٢ - حدثنا آدم قال حدثنا شعبة قال حدثنا الحكم عن ابراهيم عن الأسود عن عائشة قالت:

«كأنّي أنظرُ إلى وبيصِ الطيبِ في مفرقِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وهوَ مُحرِمٌ».

— ١٥ —

باب تخليلِ الشعرِ حتّى إذا ظنَّ أنّهُ قدْ أروى بشرتَهُ أفاضَ عليهِ:

حدثنا عبدانُ قال أخبرنا عبد الله قال أخبرنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت:

«كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا اغتسلَ منَ الجنابةِ غسلَ يديهِ وتوضّأ وضوءَهُ للصلاةِ ثمّ

When Qatâdah asked Anas if he was capable of it, he replied: 'We used to say among ourselves that he was endowed with the strength of thirty men.' "

قال قلتُ لأنس: أوَكانَ يطيقهُ؟ قال كُنّا نتحدّثُ أنّهُ أُعطِيَ قُوّةَ ثلاثين».

Sacîd related through Qatâdah that Anas told them it was nine wives. (1)

وقال سعيدٌ عن قتادةَ إنّ أنسا حدّثهُم: تِسعُ نِسوةٍ.

Chapter 13. — ١٣ —

On washing away prostatic secretion and performing the wudûs in consequence of it.

باب غَسلِ المذي والوُضوءِ منهُ:

We are informed by Abu-l-Walîd, who had it from Zâsidah, through Abu Hasîn, through Abu cAbdu-r-Rahmân, through cAli, who said:

حدثنا أبو الوليد قال حدثنا زائدة عن أبي حصين عن أبي عبد الرحمن عن علي قال:

"I was subject to prostatic secretions, so I charged a certain man to ask the Prophet (Allâh bless him and give him peace) — owing to his daughter's connection with me. He did so, and the Prophet replied: 'Perform the wudûs and wash thy member.' "(2)

«كُنتُ رَجلاً مَذّاءً فأمرتُ رجلا أنْ يسألَ النّبيَّ صلى الله عليه وسلم لمكان ابنَتِه، فسَألَهُ، فقال: توضّأْ واغسِلْ ذكرَكَ».

Chapter 14. — ١٤ —

On one who hath perfumed himself and later performed the ghusl, with the traces of the perfume remaining on him.

باب مَن تطيَّبَ ثُمّ اغتَسَلَ وبَقِيَ أثرُ الطّيبِ:

1. We are informed by Abu-n-Nucmân, who had it from Abu cAwânah, through Ibrâhîm b. Muhammad b. Al-Muntashir, through his father, who said:

١ ـ حدثنا أبو النعمان قال حدثنا أبو عوانة عن ابراهيم بن محمد بن المنتشر عن أبيه قال:

---

(1) The eleven wives presumably include two slaves, namely Maria and Raihânah, since the Prophet never had more than nine wives at the same time.

(2) The washing of the member should precede the wudûs, which would be nullified by touching the member. The waw (و) here is a mere connective which does not imply sequence. In At-Tahâwi's and Râfic's narrations, however, the logical order is observed.

CHAPTER 12.

On whether one ghusl is sufficient if a man have sexual intercourse *with his wife* and then repeat it; and on one who cohabiteth with his wives in turn, performing a single ghusl.

1. We are informed by Muhammad b. Bashshâr, who had it from Ibn Abu ᶜAdiyy and Yahyâ b. Saᶜîd, through Shuᶜbah, through Ibrâhîm b. Muhammad b. Al-Muntashir, through his father, who said :

"When I related to ᶜAˢishah the words spoken by Ibn ᶜUmar, (1) she replied : 'May Allâh have mercy on Abu ᶜAbdu-r-Rahmân (Ibn ᶜUmar) ! I used to perfume the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace), after which he visited his wives in turn, and then rose in the morning in a state of ihrâm, reeking with perfume."

2. We are informed by Muhammad b. Bashshâr, who had it from Muᶜâdh b. Hishâm, who was told it by his father, through Qatâdah, who received it from Anas b. Mâlik, who said:

"The Prophet (Allâh bless him and give him peace) used to visit his wives in turn in a single space of time, during the night or the day, their number being eleven.

— ١٢ —

بابٌ إِذَا جَامَعَ ثُمَّ عَادَ ، وَمَنْ دَارَ عَلَى نِسَائِهِ فِى غُسْلٍ واحدٍ :

١ ـ حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا ابن أبي عدى ويحيي بن سعيد عن شعبة عن ابراهيم بن محمد بن المنتشر عن أبيه قال :

« ذَكَرْتُهُ لعائشةَ فقالت : يَرْحَمُ اللهُ أبا عبدِ الرحمنِ ! كُنْتُ أُطَيِّبُ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم فيَطُوفُ عَلَى نِسَائِهِ ثُمَّ يُصْبِحُ مُحْرِماً يَنْضَخُ طِيباً » .

٢ ـ حدثنا محمد بن بشار قال حدثنا معاذ بن هشام قال حدثنى أبي عن قتادة قال حدثنا أنس بن مالك قال :

« كانَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يَدُورُ عَلَى نِسَائِهِ فِى السَّاعَةِ الوَاحدة مِنَ اللَّيْلِ والنَّهارِ وهُنَّ إِحْدَى عَشْرَةَ .

---

(1) Namely — ما احب ان اصبح محرما انضخ طيبا = I do not care to rise in the morning in a state of ihrâm, reeking with perfume.

CHAPTER 11.

On one who poured water with his right hand over his left during the ghusl.

We are informed by Mûsa b. Ismâ'îl, who had it from Abu 'Awânah, who received it from Al-A'mash, through Sâlim b. Abu-l-Ja'd, through Kuraib the freedman of Ibn 'Abbâs through Ibn 'Abbâs, through Maimûnah bint Al-Hârith, who said:

"I placed ghusl-water before the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace), and covered his head.(1) He then poured water over his hand which he washed once or twice (Sulaimân (2) said he was uncertain whether Sâlim mentioned three times or not). After that, pouring water with his right hand over his left, he washed his parts. Then rubbing his hand on the ground or the wall, he rinsed his mouth, cleansed his nostrils, and washed his face, hands, and head. Next he poured water over his body, and shifting his place he finally washed his feet. I offered him a napkin, but he made a gesture of refusal and did not take it."

— ١١ —

بَابٌ مَنْ أَفْرَغَ بِيَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ فِي الغُسْلِ :

حدثنا موسى بن اسماعيل قال حدثنا أبو عَوانة حدثنا الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن كريب مولى ابن عباس عن ابن عباس عن ميمونة بنت الحارث قالت :

« وَضَعْتُ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم غُسْلاً وَسَتَرْتُهُ ، فَصَبَّ عَلَى يَدِهِ فَغَسَلَهَا مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ (قال سلَيمانُ : لاَ أَدْرِي أَذَكَرَ الثَّالِثَةَ أَمْ لاَ) ، ثم أفرغ بِيَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ فَغَسَلَ فَرْجَهُ ، ثُمَّ دَلَكَ يَدَهُ بالأَرضِ أَوْ بالحَائِطِ ، ثُمَّ تَمَضْمَضَ واسْتَنْشَقَ وَغَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ ، وَغَسَلَ رَأْسَهُ ، ثُمَّ صَبَّ على جَسدِه ، ثُمَّ تَنَحَّى فَغَسَلَ قَدَمَيْهِ ، فَنَاوَلْتُهُ خِرْقَةً فقال بِيَدِهِ هَكَذَا وَلَمْ يُرِدْهَا » .

---

(1) Or — screened him off.
(2) i.e. Al-A'mash, one of the narrators.

Muslim and Wahb relating this hadîth through Shuʿbah, add من الجنابة (required after sexual intercourse).

زَادَ مسلم ووهب عن شعبة « من الجَنَابَةِ » .

CHAPTER 10.

— ١٠ —

On the lawfulness of interrupting the ghusl and the wudûʾ;

بَابُ تَفْرِيقِ الغُسْلِ والوُضُوءِ :

and on the statement transmitted by Ibn ʿUmar that he washed his feet after the wudûʾ-water had dried upon him.

وَيُذْكَرُ عن ابنِ عُمَرَ أَنَّهُ غَسَلَ قَدَمَيْهِ بَعْدَ مَا جَفَّ وَضُوءُهُ .

We are informed by Muhammad b. Mahbûb, who had it from ʿAbdu-l-Wâhid, who received it from Al-Aʿmash, through Sâlim b. Abu-l-Jaʿd, through Kuraib the freedman of Ibn ʿAbbâs, through Ibn ʿAbbâs, who stated that Maimûnah said:

حدثنا محمد بن محبوب قال حدثنا عبد الواحد قال حدثنا الأعمش عن سالم ابن أبي الجعد عن كريب مولى ابن عباس عن ابن عباس قال قالت ميمونة :

"I placed water before the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) for his ghusl. He poured water over his hands and washed them twice severally or three times, after which he poured it with his right hand over his left and washed his parts. Then after rubbing his hand on the ground, he rinsed his mouth, cleansed his nostrils, and washed his face and hands, and his head three times. (1) Next he poured water over his body, and then shifting his place, he washed his feet."

«وَضَعْتُ لِرَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم مَاءً يَغْتَسِلُ بِهِ ، فَأَفْرَغَ عَلَى يَدَيْهِ فَغَسَلَهُمَا مَرَّتَيْنِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ، ثُمَّ أَفْرَغَ بِيَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ فَغَسَلَ مَذَاكِيرَهُ، ثُمَّ دَلَكَ يَدَه بالأَرضِ ، ثُمَّ مَضْمَضَ واسْتَنْشَقَ ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ وَيَدَيْهِ وَغَسَلَ رَأْسَهُ ثلاثًا، ثُمَّ أَفْرَغَ عَلَى جَسَدِهِ، ثُمَّ تَنَحَّى مِنْ مَقَامِهِ فَغَسَلَ قَدَمَيْهِ » .

(1) The three times may apply either to the head only, or to all three parts.

AL-AZHAR REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR UNIVERSITY, Cairo.

ترجمة جامع صحيح البخارى

للأستاذ ابراهيم حسن الموجى

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

by

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

The Book of GHUSL

CHAPTER 9. *(continued)*

3. We are informed by Abu-l-Walîd, who had it from Shucbah, through Abu Bakr b. Hafs, through cUrwah, through cAsishah, who said:

" I used to perform my gusl together with the Prophet (Allâh bless him and give him peace) from the same vessel, after pollution by sexual intercourse."

This hadîth is also related through cAbdu-r-Rahmân b. Al-Qâsim, through his father, through cAsishah to the same effect.

4. We are informed by Abu-l-Walîd, who had it from Shucbah, through cAbdullâh b. cAbdullâh b. Jabr, who heard Anas b. Mâlik say :

" The Prophet (Allâh bless him and give him peace) and any one of his wives used to perform their ghusl together from the same vessel".

كتاب الغسل (تابع ما قبله)

٣ - حدثنا أبو الوليد قال حدثنا شعبة عن أبي بكر بن حفص عن عروة عن عائشة قالت :

«كُنْتُ أغْتَسِلُ أنَا وَالنَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مِنْ إناءٍ واحدٍ من الْجَنَابَةِ».

وعن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة مِثْلَهُ .

٤ - حدثنا أبو الوليد قال حدثنا شعبة عن عبد الله بن عبد الله بن جبر قال : سمعت أنس بن مالك يقول :

«كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم والمَرْأة مِنْ نِسَائِهِ يَغْتَسِلانِ من إناءٍ وَاحِدٍ».

مولد محمد خاتم المرسلين

تهيئة العلم والفلسفة العقول والقلوب لقبول الاسلام دينا عالميا

مصداقا لقوله تعالى : «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ »

إننا معشر المسلمين نستقبل هذا العيد فى كل عام بقلوب يعمرها الحب والإكبار لصاحبه صلى الله عليه وسلم ، فنحتفل به فى مشارق الأرض ومغاربها ، لما حصلنا بهديه من هداية ، وما بلغنا من كرامة ، وليس العهد الذى يكون فيه هذا اليوم عيدا للبشرية كافة ببعيد . فإن العقل الذى أطلقه محمد صلى الله عليه وسلم من إساره ، والعلم الذى حرره من ربقته ، لا يفتآن يعملان ، على غير قصد منهما ، على لفت الأنظار الى النور الذى جاء به . ومتى أتما العمل الذى بدآه من إلقاء نير التقليد الأعمى عن الأعناق ، ورفع حجاب التعصب المذموم عن الصدور ، وإزالة غشاوة الجهالة الوراثية عن العيون ، تجلّت للناس الآية الكبرى من آيات الروح المحمدية العالمية ، فوجد الناس أنفسهم مسلمين ، ولسان أمثالهم يقول كما قال العبقرى الألمانى (جوت) قبل نحو قرن من الزمان: « إذا كان الاسلام هو هذا فنحن إذن فيه » ، وسيكون هذا تحقيقا لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ » .

نعم : إن العالم بفضل تحرره من الوراثات والتقاليد ، وإمعانه فى النقد والتمحيص ، يتمشى على غير قصد منه الى الاسلام بخطوات متزنة ثابتة ، لا توجد قوة فى الأرض تردّه عنه ، إلا إذا انحل عصام المدنية ، وارتكست الجماعات الانسانية عن وجهتها العلمية . هذا إجمال يحتاج لبيان ، فإليك :

قُذِف بالانسان الى هـذا العالم جاهلا به غاية الجهل ، عَمِياً عن أسراره كل العماية ، ولولا أن الخالق جل شأنه أوجده حيث الماء والنبات لمات ظمأ وسَغَبا ، ولولا أنه منحه معارف ضرورية يستطيع بها أن يهرُب من الضواري التي كانت تتعقبه ، ويحتمى من العوارض الطبيعية التي كانت تنصب عليه ، لما أمكنه أن يبقى أكثر من أيام معدودة ، ولكنه وهِب عقلا ليس لسلطانه حد يقف عنده ، فأخذ يستهدى بنوره يسيراً يسيرا حتى استطاع أن يأمن شر العوادى ، وأن يجتمع على أمثاله ، وأن يكتشف أوليات العلم ، ومبادئ الحكمة ، ثم ما برح يرقى حتى أسّس الأمصار ، وأوغل فى المعارف ، وسخر قوى الكون ، وسبر مساتير الوجود ، واخترع الآلات المعجبة ، وهو اليوم يحدّث نفسه بالصعود الى الكواكب ، وكشف عالم الروح ، والتحكم فى نواميس الحياة .

هـذا كله مشاهد محسوس لا يحتاج لتدليل ، ولكن الذى يحتاج لتنبيه هو أن الانسان فوق كل ما يحصله من علم ، وما يكتشفه من مستور ، يزداد معرفة بما يجب أن يكون عليه الدين الحق ، وما يلزم أن تؤخذ به النفس من الآداب القويمة ، وما ينبغى أن يقيمه لتوثباته من المثل الأعلى للانسانية الصحيحة .

فى أثناء تمشّى الانسان فى هذه السبيل الأدبية ، تحت ضوء العلم والفلسفة ، تسقط فى نظره ، الواحدة بعد الأخرى ، جميع الأوهام الموروثة ، والتعصبات التقليدية ، فيرى الخضوع لها عارا عليه ، وسقوطا لكرامته ، ويعمل على تطهير قلبه منها ، واجتثاث جذورها المنبثة فى أقصى ثناياه ، عادًّا ذلك من متممات وجوده الأدبى .

فتكون النتيجة الحتمية من وراء هـذه المحاولات الثقافية فى هذه الناحية تأسس الأصول الآتية :

(أولاً) زوال آثار الوراثات الدينية .

(ثانيا) انمحاء التعصب المذموم للعقائد الباطلة .

(ثالثا) قيام النظر العقلى مقام التقليد الأعمى.

(رابعا) قبول كل عقيدة تَسْلَم من النقد وتنهض بها حجة.

(خامسا) الميل الى إيجاد زمالة عامة بين الناس كافة ، ومحاربة كل العقائد المفرقة للأمم ، والجاعلة إياها شيعا .

(سادسا) الاتجاه الى نصب العلم فاروقا بين الحق والباطل ، بغير اعتداد برأى أية طائفة من الطوائف أو فرد من الأفراد .

هذه الأصول الستة لامحيص من تولدها كثمرة طبيعية للثقافة العصرية . وقد تولدت فعلا وصارت جزءا من الدستور العلمى لدى ألوف من المشتغلين بجميع الفروع العلمية ، وليس بينها وبين أن تصبح عنصرا رئيسيا من عناصر العقلية الأوربية إلا أن تنتشر فيها المبادئ الفلسفية ، وهى لا تزال بعيدة عن الدهماء لأسباب اقتصادية ، ولكن لا بد من بلوغها هذه المنزلة بعد قرنين أو ثلاثة .

فإذا بلغ العالم هذه المرتبة من التعقل ، والخلاص من آثار الوراثة ، ثم لاح له أن ينظر فى الأديان التى يعتبرها إذ ذاك بقايا أثرية للعقلية البشرية ، تبين له أنه فى صميم الاسلام ، وأنه فى جهاده العلمى الطويل كان يعمل لإقامة دولته ، وإعلاء كلمته ، وهو يتوهم أنه يهدمه فيما يهدم من العقائد الباطلة ، والوساوس المعطلة .

هذا مصداق الآية القرآنية التى أتينا بها فى صدر هذا البحث . وكما جاءت الحوادث مصدقة لقوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات لَيَستخلفنّهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ولَيُمكننّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، ولَيُبَدّلنّهم من بعد خوفهم أمنًا . الآية » ، وقد كانوا يعبدون الله سرا ويخشون أن يتخطفهم أعداؤهم ويمزقونهم شذر مذر ، فآتاهم الله خلافة الأرض ، وجعل دينهم ظاهرا على الأديان كلها ، كذلك ستُصَدِّق الحوادث ما وعد الله به من أنه سيرِى الناس آياته فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أن هذا الدين هو الحق ، وقد ظهرت بوادر

ذلك فى أقوال الكثيرين من كبار العلماء فى الغرب ، وقد رأى بعضهم أن أوربا قد لايمضى عليها قرنان حتى تكون قد اتخذت الاسلام دينا .

لو كان أحد المسلمين قال هذا القول لاعتبر منه مبالغة فى التفاؤل ، ولكن الذى قاله الكاتب الفيلسوف الأرلندى (برنارد شو) ، وهو لم يقله ليهزأ به قارئوه ، ويحسبوه من سقطاته ، ولكنه قاله بعد اقتناع به . وأى شيء يعدّ بعيدا فيه ؟ أليست الأصول الستة التى أثبتناها هنا ، وهى أخص نتائج الدستور العلمى ، هى نفسها أخص أصول الاسلام ، بل هى معناه وروحه ، والموجب لجعله دينا للعالمين كافة فى كل زمان ومكان ؟

لقد كلّف الاسلام كل داخل فيه أن يكون متجردا من كل ما يربطه بالماضى من دين ووراثة وتقليد ووهم وخيال ، وأن يُقبل عليه خالى القلب من كل صورة ذهنية ، ورأى سابق ، على مثال ما يكون عليه الطفل ساعة تضعه أمه .

فإذا تمّت له هذه التصفية ، ولقن أمور الدين ، أُمِر أن يتعقلها ، وأن ينظر فى أدلتها ، و نهى أن يأخذ بها تقليدا مهما كانت مكانة الرجل الذى يقلده ، وكُلِّف أن يتأمل فيما نصبه الله فى الكون من معالم الحق ، وأن يدرسها دراسة المتتبع لأسرار الخالق ، مخضعا كل ما يحصله لأدق أساليب التمحيص والتحليل ، حتى لا يتورط فى الأخطاء فيَضِل و يضل ، وهو مسئول عن كل ما يسخره فى هذا السبيل من حواسه ومشاعره ، ومحاسب حتى على جيشات خواطره . وإنا لمقتبسون لك آيات من الكتاب تريك مكان هذه الأصول منه ، فاليك :

قال الله تعالى فى ماهية الدين الحق : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرةَ الله التى فَطَر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيّم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وقد شرح النبى صلى الله عليه وسلم هذه الفطرة ، فقرر أنها مثل الحالة التى يكون عليها الطفل ساعة ميلاده ، فقال : « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسانه » ، أى أن كل مولود يولد على الدين الحق المطلق ، ولكن أبويه ينقشان فى عقله من الصور ما يغيّران به هذه الفطرة السليمة لتعلق به فلا يستطيع عنها حولا .

وقال تعالى فى ذم اتباع الظنون والأوهام : « إنْ يتّبعون إلا الظن وإن هم إلا يَخْرُصون » وقال : « وما يتّبع أكثرُهم إلا ظنا ، إن الظن لايغنى من الحق شيئا » .

وقال تعالى فى النهى عن اتباع الهوى : «ولا تتّبع الهوى فيُضلّك عن سبيل الله» .

وقال فى وجوب إقامة سلطان العقل : « أفلا تعقلون » وكرر ذلك فى آيات كثيرة بألوان مختلفة عشرات من المرات .

وقال تعالى فى ذم الذين لا يعرفون للعقل حقه : « إنّ شرّ الدواب عند الله الصمّ البُكم الذين لا يعقلون » . وقال : «صمّ بكم عمى فهم لايعقلون» . وقال : «ويجعل الرجسَ على الذين لايعقلون» . وقال : «وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحْقاً لأصحاب السعير » .

وقال تعالى فى المسئولية الشخصية ، وفى عدم جواز الاعتماد على الغير : « كل نفس بما كسبت رهينة » . وقال : «وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يُرَى ، ثم يُجْزاه الجزاء الأوفى » . وقال : « واتقوا يوما لا تَجزِى نفس عن نفس شيئا ، ولا يُقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عَدْل (أى فداء) » .

وقال تعالى فى ذم التقليد الأعمى : « وقالوا (أى يوم القيامة) ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » . وقال : « إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا (أى يوم القيامة) من الذين اتبَعوا ورأوُا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب . وقال الذين اتَّبَعوا لو أنّ لنا كَرّة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ، كذلك يُريهم الله أعمالَهم حسراتٍ عليهم وما هم بخارجين من النار » .

وقال تعالى فى وجوب طلب الدليل القاطع على كل عقيدة ، وفى النعى على الذين يعتقدون تقليدا بغير حجة : « ومَن يَدْعُ مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه » . وقال فى وجوب تقاضى الدليل من كل صاحب قول : «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » .

وقال فى تسفيه أحلام الذين يجمدون على ما ورثوه من آبائهم من الأباطيل : « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألْفَينا عليه آباءنا ، أوَلو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ؟ » ، وقال : « بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أُمّة وإنا على آثارهم مهتدون » .

هـذا دستور دينى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فى زمن لم يكن فيه لدستور أيا كان نوعه دولة فى الأرض ، لا من الناحية السياسية ، ولا من الناحية العلمية . أما من الناحية الدينية فقد كان لا يعرف أحد أن للاعتقاد دستورا قط . فكان الناس من أمر السياسة غرقى الى يآفيخهم فى حكومة الفرد ، لا يعرفون لهم حقوقا عليها ، ولا وجودا معها . بادت دساتير اليونان والرومان قبل عهد البعثة المحمدية بأكثر من ألف سنة ، فكانت الأمم تجهل أنها كانت لها جمهوريات ومجالس نيابية ودساتير مدونة . وكانوا من أمر العلم فى غيهبة مظلمة لا يعرفون له حَفَظة غير زعمائهم الدينيين ، وناهيك بهم وفى هذا الموطن .

أما أمر الدين فكان دستوره عندهم : « اعتقد وأنت أعمى » ، كما قاله العلامة لاروس فى دائرة معارف القرن التاسع عشر . أما هذا معقول وهذا غير معقول ، وهذا يحتاج لدليل ، فعبارات كانت تجر الى النار المحرقة فى تنانير أعدت لذلك .

جاء محمد صلى الله عليه وسلم بذلك الدستور الدينى والناس قاطبة على ما وصفنا من العمايات المتراكبة بعضها على بعض ، وقد جمدوا على ما كانوا عليه حتى صار حالا ملازما لهم لا يتصورون الحياة على حال غيره ، بل ولا يحبون أن يسمعوا داعيا يدعوهم الى نقيضه ، وإذا أقدم على ذلك وصموه بالجنون . وقد حكى الله ما قالوه للنبى صلى الله عليه وسلم حين دعاهم الى النور ، فقال تعالى : « وقالوا يأيها الذى نُزّل عليه الذكر إنك لمجنون » . وقالوا : « أإنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون » ؟ فرد الله عليهم بقوله : « أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق وأكثرُهم للحق كارهون » .

فإذا كانت ثمرة هذا الدستور الإلهى فى البقعة الفسيحة من الأرض التى استولى

عليها المسلمون فى أول الاسلام دخول أمم برمتها فيه ، بغير إجبار ، بل بغير دعاية منظمة ، والعقول لم تصقلها العلوم ، والنفوس لم توقظها الشكوك ، فماذا ينتظر أن يكون عليه حال العالم المتمدن إذا عرف الاسلام حق معرفته ، وتبين الناس أنه لا ينطبق على الدستور العلمى فحسب ، ولكن أصوله الأولية هى ذلك الدستور نفسه ، بالغاً أكمل ما يمكن أن يصل اليه من السمو والإحاطة بكبريات الأمور وصغرياتها ، بحيث لا تفلت منه حتى همسات السرائر ، وحركات الضمائر ؟

العالم المتمدن يحاول حل مسألة الدين :

قد يقول معترض : إنكم تنفقون أوقاتكم فى الكلام عن العالم المتمدن من ناحية الدين ، على حين أنه قد فرغ منها ، ولم يعد يخطرها بباله ، وقد محض نفسه للبحوث المادية ، وتسخير قوى الكون لحياته الدنيوية .

الحقيقة أن المعترض غير مصيب فيما يقول ، فإن العالم المتمدن اليوم أشغل ما يكون بالمسألة الدينية من جميع نواحيها ، فإن كان لابد من الاستشهاد بأقوال أقطابه ، فإليك ما كتبه الأستاذ (هنرى بيرانجيه) فى المجلد الرابع والعشرين من مجلة المجلات الفرنسية ، قال :

« إن المسألة الدينية أهم ما يشغل العالم المتمدن اليوم ، لأن مستقبل الأمم المتحضرة يتوقف على حلها » .

ثم قال :

« إذا كان النقد التاريخى قد حطم كل الأشكال المتحجرة فى الأديان ، فانه لم يستطع أن يعدو على العاطفة الدينية ، بل اعترف باستمرارها وشيوعها فى كل دور من أدوار التاريخ ، ورأى أن كل تلك الآلهة المختلفة المتعاقبة ، تشهد بأن الانسان مفطور على الاعتقاد بالله رغم أنفه . ففى كل جهة وكل زمان قد شوهدت حاجة الانسان الى الدعاء والعبادة والتضحية فى أخس الأديان الوثنية ، كما هى فى أرقى المذاهب الروحانية . هذه

هى الشرارة البسيكولوجية (النفسية) التى استخلصها من رماد العصور الماضية ، تاريخ المقارنة بين الأديان ، فمن المحال أن يطفئها ، ولكنه سينقلها الى المستقبل» .

ثم قال :

«إننا نأمل الوصول الى حل المسألة الدينية ، وبخاصة لأن الديانة الفطرية قد ولدت منذ مائة عام ، ودرست بواسطة بعض كبار الفلاسفة الفرنسيين ، فجان جاك روسو ، ولمرتين ، ولامنيه ، وميشليه ، وكينيه ، كانوا من كبار المبشرين بهذه الديانة الجديدة . وقريب منا إرنست رينان ، وجيو ، وشوريه ، وسبتييه ، قد أمدوها بقوة جديدة عظيمة» .

نقول : ما هى هذه الديانة الفطرية التى يعتقد المفكرون فى الغرب بأنها الديانة العالمية العلمية المستقبلة ؟

نأتيك بها عن لسان أحد كبار أشياعها وهو الفيلسوف (كارو) فقد قال فى كتابه : (البحوث الأدبية على الزمان الحاضر) :

« أصول الديانة الطبيعية هى الاعتقاد بوجود إله مختار خالق الكائنات وعنى بها ، وهو متميز عن العوالم الكونية وعن النوع الانسانى ؛ ووجود روح للانسان متصفة بالإدراك والحرية ، ومحبوسة فى هذا الجثمان المادى أمدا لتبتلى فيه . وهذه الروح تستطيع بإرادتها أن تطهر هذا الجثمان وتنقيه ، إذا عرجت به نحو السماء ، ويمكنها أن تسفله بإخلادها الى المادة الصماء ؛ والاعتقاد المطلق بسمو العقل على الحس ، ووضع الحرية الخلقية التى هى ينبوع وأصل جميع الحريات تحت سيطرة الاعتدال ، وإعطاء الصفات الفاضلة اسمها الحقيقى وهو الامتحان والابتلاء ، وتحديد غرضها الصحيح ، وهو التخليص التدريجى للنفس من علائق الجسم ، والتهيؤ لساعة الموت بالزهادة . وأخيراً الاعتراف بناموس الترقى ، ولكن بدون فصل ترقى الانسان فى مدارج السعادة المادية عن العواطف الفاضلة التى هى وحدها تبرر تلك السعادة » انتهى

نقول : هل يَعنى كل هذا الجهد الجاهد من الفلاسفة والمفكرين غير محاولة الرجوع

لدين الفطرة ، تحت تأثير حوافز من أنفسهم ، ومن تجلى آيات الله لهم ، فى الآفاق المحيطة بهم ، مصداقا لتلك الآية الكريمة ؟

فالدين الفطرى آت لا محالة ، مثله كمثل كل ما يدعو الى وجوده القلب والعقل ، والدين الفطرى هو الاسلام بنص كتابه ، وبموجب أصوله ، فإذا آنس الناس تلكؤا فى التمشى اليه ، فذلك أمر طبيعى ، لأن أكثر الناس عوام يجمدون على ما ورثوه ، ويستميتون فى تأييده وإن كانوا لا يعقلونه ، ولكن بوتقة الوجود دائبة على صهر العقول جيلا فجيلا ، ونفى الكدر العالق بها طبقة بعد طبقة ، والحقائق فى الوقت نفسه تزداد ذيوعا بينهم ، فلا يزال الأمر جاريا على هذه الوتيرة حتى لا يبقى فى الناس من يعتقد ما لا يعقل ، وإذ ذاك تحل الروح الاسلامية فى العالم بكل ما قامت عليه من أصول عقلية ، ومبادئ علمية ، فيتحقق أعظم إصلاح عالمى يتمناه المصلحون فى العصر الراهن .

فى ذلك اليوم لا يستطيع مفكر كالأستاذ (هنرى بيرنجيه) المتقدم ذكره أن يقول : « لما كانت الأديان ليست بشىء غير مظاهر رمزية للعاطفة الدينية فستتلاشى الأديان آجلا أو عاجلا ككل الآثار الانسانية ، ولكن تلك العاطفة لن تتلاشى أبدا إلا مع الانسان نفسه » .

نعم لا يستطيع أن يقول ذلك ، لانه يجد الدين الأخير منها ، هو تلك العاطفة نفسها ، كما ينص عليه كتابه فى قوله : « فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، ويجد أن كل ما تستدعيه تلك العاطفة الدينية من معتقدات وعبادات ومعاملات ، مشروط فيه الرجوع به الى حكم العقل والعلم ، لا الى تحكم الهوى والجهل . فكل حق وهدى وعلم وخير وترق ، فهو فى شرعة هذا الدين الفطرى دين ، وكل باطل وضلال وجهل وشر وتدلٍّ ، فهو فى شرعته كفر .

هذا هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم دينا عاما للبشر كافة ، فهل تجد محيصا للبشر عنه ؟

كيف يعقل ذلك والفطرة أساسه ، والعقل نبراسه ؟ وهل للبشر محيد عنهما مهما حاولوا ذلك وتكلفوه ؟ فإن كان فى العالم أصلان كلما أمعنت فى البعد عنهما ، ازددت قربا منهما ، فهما الفطرة والعقل .

أفلا يحق لنا بعد هذا أن نقول : إن اليوم الذى يحتفل فيه العالم أجمع بميلاد خاتم المرسلين ليس ببعيد ؟

فاللهم صل وسلم وبارك على محمـــد فى الآخرين ، كما صليت وسلمت وباركت على ابراهيم فى الأولين ، إنك حميد مجيد ! محمد فريد وجدى

ذم البخل

قال الله تعالى : « فاما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى (أى للفضيلة الموجبة لليسر) ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى (أى للرذيلة المؤدية للعسر) .

وقال تعالى : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، هو خيرا لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض، والله بما تعملون خبير » . نقول سيطوقون ما بخلوا به : أى سيلزمون به لزوم الطوق فى الأعناق .

ومما هو جدير بالتدبر الطويل فى هذه الآية قوله تعالى : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم ، بل هو شر » فان فى صميمها علما جما . ذلك أن الذى يضن بماله عن الانفاق يخيل اليه أن ذلك داع الى نمائه ، والواقع أنه داع الى نفاده . فان الذين يضنون بأموالهم عن بذلها فى المنافع العامة تضعف جماعاتهم وتذل حيال الجماعات المزاحمة لها ، فيقتضى نظام الوجود أن يستولى الأقوى على الأضعف ويمتص عصارته ، فلا يبقى له ولا يذر. ومن شاء الدليل فليتأمل الأمم التى يبذل آحادها الملايين فى سبيل المرافق العامة ، تجدهم لا يزدادون إلا ثروة ، خلافا لأفراد الجماعات الذين يدخرون المال ولا ينفقونه ، فتراهم يتدهورون جماهير وفرادى فى تيهور الفاقة . فان استطاع مؤسس الأسرة فيها أن يحتفظ بثروته بتقتيره على نفسه ، خلفه عليها من ينفقها بددا فى أهواء بدنه .

الاحتفال بالمولد النبوى بالازهر

خطبة إصلاحية جامعة لفضيلة الأستاذ الامام

احتفل الجامع الأزهر فى مساء السبت ١٢ ربيع الأول بذكرى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، فاحتشدت فيه جماهير من العلماء والوجهاء والطلاب يستمعون لآيات من التنزيل الحكيم ، وما وافت الدقيقة الخامسة والأربعون بعد الساعة الثامنة حتى نهض حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، فألقى خطبة من لباب الحكمة الاسلامية ، جمعت من أصول الاصلاح الدينى والخلقى والاجتماعى ، فى بلاغة تسترعى الأسماع ، وبيان يستهوى الألباب ، ما المسلمون فى العالم قاطبة فى أشد الحاجة للأخذ به والقيام عليه . ولسنا نشك فى أن هذا القبس من النور الذى ألقاه فضيلته على هذه الأصول سيسرى فى الجماعات الاسلامية ، فتستنير به عقول ، وتحيا قلوب ، وتنتعش آمال . قال حفظه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة على رسوله .

وبعد : فان الأمم تعنى بذكرى عظمائها للاشادة بأقدارهم ، وتقدير أعمالهم ، وفاء لحقهم عليها ، وتذكيرا للحاضرين بأعمال الماضين ، ليحفزوا هممهم على الاقتداء بهم ، والسعى لبلوغ درجات المجد التى استحقوا عليها التكريم .

وتختلف هذه الذكريات فى أشكالها تبعا لاختلاف الأمم فى أمزجتها وميولها وعاداتها .

وسيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم فى غير حاجة الى تكريم الناس بعد أن كرمه الله ، فرفع ذكره ، واعلى قدره ، وخلد اسمه فى كتابه الكريم ، وفى أنواع من العبادات مفروضة وغير مفروضة . ففى كل يوم وفى كل لحظة له عند المسلمين تعظيم وإجلال يفوقان كل إكبار وتقدير .

ومقام النبى الكريم ليس بالمقام الذى ينال بالكسب ، ولا بالمقام الذى تشرئب اليه الأعناق وتشخص اليه الأبصار ، فهو منحة الله وفضله يختص به من يشاء من عباده الذين أعدهم لهاتيك الدرجات ، ونشاهم لمثل هذه النفحات .

فذكرى مولده صلى الله عليه وسلم يجب أن تكون باحياء سنته ، وإحياء المبادىء السامية والأخلاق الكريمة التى اتصف بها ودعا الناس اليها . فلا يكفى أن تتلى قصة المولد وترتل ، وأن

تضاء المصابيح وتنظم ، وأن تلقى العظات والسير ثم تنسى . فلم يكن صاحب الذكرى قوالا ، بل كان فعالا ، وكان فعله أكثر من قوله . والكلام إذا لم يتبعه العمل ولم يحدث فى النفس أثره بحيث يحملها على المصابرة والمثابرة ، كان الايمان به ضعيفا ، أو كان كما يقول أهل النظر: تصورات لا تصديقات .

ولا يكفى المحبوب أن تقول له : إنى أحبك ، بل هو يقاضيك تبعات الحب وما يكلفه الحب من المتابعة واحتمال المصاعب وتجشم المشاق فى سبيل رضا المحبوب : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم. قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين » .

وما ابتليت أمة من الأمم بشر من كثرة القول وقلة العمل . ذلك هو الداء الدوى ، والعقاب الذى ينزله الله تعالى على من غضب عليه من عباده ، وحاد عن الجادة وعن السنن الالهية ، وغفل عن سنن الكون وعن هدى الاجتماع .

الأمة الاسلامية مبتلاة منذ أزمان طويلة بهذا ، ومبتلاة بالجدل العقيم : تجادل فى أصول العقائد ، وتجادل فى الفروع ، وتجادل فيما هو أقل شأنا من الأصول والفروع ، راضية بهذا الجدل ، لاهية عن سر الاسلام وسر عظمته ، وعن سر دعوة الرسول الأكرم ، وعن مقومات الأمم التى لا تستطيع أمة أن تحيا وترفع رأسها إلا بها ، ولا أن تسمع الناس كلمتها إلا بها ، ولا أن تجد مكانها فى العز والمجد إلا بها .

سحرت بالطعام وبالشراب ، وتلهت بالأحاديث وبالمظاهر الكاذبة الخادعة ، وانصرفت عن طرق المجد الصحيحة ، وغفلت عن الكون وعما أودعه الله فيه من أسرار ، ومن قوى خلقت للانتفاع بها ، وابتعدت عن التحلى بالعزائم الصادقة والأخلاق القويمة التى كانت عماد الرسول الأكرم فى دعوته وإبلاغ رسالته .

ولم تكتف بهذا بل انقسم أبناؤها وتعادوا ، وأقاموا الحروب بعضهم على بعض ، كل له مذهب ينصره ورأى يدافع عنه ، وكل ينظر الى مصلحة خاصة فردية أو قومية أو جنسية أو مذهبية ، فصارت القوى من عوامل فناء الأمة لا من عوامل بقائها ، ومن أسباب شقائها لا من أسباب سعادتها .

هذا والقرآن الكريم يدعو الى الوحدة ، ويدعو الى رد ما اختلف فيه الى الله ورسوله . وصفهم بالأخوة وقال : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله » فلم يمتثلوا أمره ولم يتقوا الله ، بل عملوا على التفريق ، وعلى توسيع شقة الخلاف . ووصف النبى صلى الله عليه وسلم المؤمنين بأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ،

فلم يكن منهم إلا أنه إذا اشتكى عضو زادوا ألمه وسروا بنكباته ، وانتهزوا فرصة مرضه لا نتزاع ما بيده .

لم يقف أمر التخاذل بينهم عند التخاذل بين الأمم ، بل تخاذلوا جماعات ، وتخاذلوا أفرادا ، وتقطعت الروابط بينهم ، فلا يعنى المرء إلا بنفسه ، لا يبالى فى سبيل مجده أن يهدم غيره ولو لم يقف له فى طريق ، ولا يبالى بمن مرض ولا بمن جاع ولا بمن ابتلى ، كأن الدنيا كلها شخصه ، فاذا سلم فقد سلمت الدنيا جميعها .

إذا كان الناس جادين وقد آن أوان الجد ، فيجب أن تكون ذكرى صاحب هذا المولد الشريف وافية بالغرض من الذكرى ، محققة لمبدأ الوحدة الاسلامية، محققة لمبدأ التعاون والتناصر، وللغرض الأسمى الذى نزل به الوحى وجاهد محمد صلى الله عليه وسلم فى سبيله طول حياته . فتؤلف الجماعات من المفكرين والقادة فى الأقطار الاسلامية للبحث عن أدواء الأمم الاسلامية وأمراضها ، فى الدين والاجتماع والأخلاق والسلطان ، وتفنى فى هذه الجماعات أنانية الأفراد بل وأنانية الجماعات والأجناس ، وينظر الى الأمة باعتبارها طائفة واحدة يحدها الاتجاه الى القبلة والصلاة اليها ، فلا ينظر الى جنس ولا الى مذهب ، بل الى وحدة خلع الاسلام عليها ثوبه وجمعها تحت رايته ، فاصطبغت بصبغته ودانت بكتابه .

ولدى الأمة الاسلامية قضايا كثيرة معقدة : قضية الرجوع بالدين الى كتاب الله وسنة رسوله وأعمال الراشدين ؛ وقضية التعليم الدينى وغير الدينى على وجه صحيح يوافق ما أثمرته التجارب فى الحياة ، وما أخرجته العقول من ثمرات ناضجة ؛ وقضية حماية الدين من العدوان والدعوة اليه كما أمر الله بالحكمة ؛ وقضية نظام الأمم الاسلامية وارتباطها بعضها ببعض ارتباط تعاون وتناصر ؛ وقضية الفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين وتدبير أمرهم بحيث تخفف عنهم آلام الحياة وينتفع المجتمع بهم .

وهناك قضية هى أهم القضايا ، وهى مقومات الأمم الاسلامية التى يجب أن يحافظ عليها ويبنى المجد على أساسها ، وهى قضية دقيقة يثور من أجلها ، عن قصد أو غير قصد ، خلاف بين المتعلمين وغير المتعلمين ، والمتدينين وغير المتدينين ، ويترتب عليها نظام الاجتماع وقوانينه ، ونظام التقاليد والعادات .

ولدى الأمة الاسلامية ماض يجرر أثواب الفخر والشرف فى كل ميادين الحياة : فى ميدان العلم ، وفى ميدان الفنون ، وفى ميدان السلطان والعز ، وميدان التشريع والقانون ، لكن بعض الناس يحاولون طمس أعلام هذا الماضى والتخلص منه والزراية عليه والحط من شأنه ، ويحاولون بناء مجد جديد على أرض بيضاء بحيث لا يكون بين الحاضر والماضى صلة .

وليس أدعى الى الدهشة ولا أبعث على اللوم من هذه المحاولات التى فيها عقوق الأبناء

للآباء ، ونكران الجميل وإنكار التاريخ ، وفيها لؤم الطباع وسفه الجاهل وطيش المغرور .

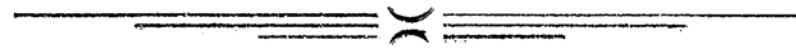
وهل يستطيع عاقل أن ينكر أن لنا أسساً صحيحة قويمة من دين وعلم وتقاليد ومقومات ، من حقها أن نحافظ عليها ، وأن نعتبرها تراثا عزيزا لا يليق أن نبدده كما يفعل الوارث السفيه ؟

يحاول بعض الناس هذا مع أن بعض الأمم التى ليس لها ماض ، تحاول أن تخلق لها نسبا بماض مجيد . وبعض الأفراد الذين لهم ذكر نابه بأعمالهم وليس لهم نسب معروف بالمجد يحاولون أن يخلقوا لهم أنسابا معروفة بالمجد والشرف ، ليحدثوا فى نفوس الأبناء شعورا بعظمة من حقها أن يحافظ عليها .

من الحق علينا أن نعتبر بامم خلت ، وأمم باقية قذفت بماضيها فى النار فاحرقتها تلك النار وأصاب غيرها من الأمم شواظ منها ، ثم هى تحاول الخلاص مما وقعت فيه فلا تجد الطريق .

فليعتبر أولو البصائر بعبر الماضى والحاضر ، وليفكر أولو الشأن فى الأمم الاسلامية ، فان الله سائلهم فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

هذا وأسأل الله أن يديم لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول توفيقه ورعايته ، وأن يجعل عهده السعيد عهد يمن وبركة ، وأن يوفق القائمين بأمر هذه الأمة الى ما فيه رضاء الله ورضاء العباد .



ذكرى المولد النبوى الكريم

هو فى الكون نوره وبهاؤه ... وهو للعقل رشده وسناؤه
واحد الدهر أنجبته العرانيـ ... ـن عظيما إيمانه ومضاؤه
جاء والكون جهلة وضلال ... كل شعب تقوده أهواؤه
كل قلب فى حقده يتنزى ... ليس يشفى إن لم تطل دماؤه
وائد البنت يستطيل فخارا ... لو درى قرح الجفون بكاؤه
لم تؤلف قلوبهم وحدة الديـ ... ـن ولم تهن ربعهم نعماؤه
أرأيت السماء تمطـر قوما ... بعد جدب يطول فيهم ثواؤه
أرأيت الشفاء وافى مريضا ... بعد ما أياس الأساة شفاؤه ؟
أرأيت الربيع يخطر فى الرو ... ض فيهـتز نوره ورواؤه ؟
أرأيت الصباح يبسم فى الكو ... ن فيسمو فوق الوجود لواؤه ؟
إنه أحمد النبيين وافى ... فزها الكون واستنارت سماؤه
مشرق الشمس دون مولد فذ ... فاض فى الكون بالسلام ضياؤه
وضياء القلوب أجدى وأبقى ... من ضياء الى الجفون انتهاؤه

***

رب قلب يمور بالشك مورا ... زال بالدين ريبه ومراؤه
فاطمأنت من الصدور قلوب ... طاح عنها الهوى وطار عماؤه
يكدر القلب إذ يداخله الشك ... ويبدو عند اليقين صفاؤه
وكذاك النفوس بالشك حيرى ... وضياء الايمان فيها جلاؤه

***

رب ذكرى تبث فى القلب روحا ... هى من دائه الدوى دواؤه
وبذكرى محمد يشرق الكو ... ن ويبدو مثل الصباح مساؤه
قف الى المجد وانشد الشعر يسعفـك ... بيانا رقراقة أنداؤه
من سماء الخيال يهبط وحيا ... فوق عرش القلوب عز استواؤه

***

يابنى الدين والحياة جهاد دينكم بالجهاد تم علاؤه
صيحة الحق فى القلوب تدوى فالام الضلال يطغى بلاؤه ؟
لن تروا كالنهوض بالخلق والدين عمادا يعز منكم بناؤه
إن فى أنفس الأنام فسادا عبثت فى صميمها أدواؤه
فلتكونوا من الفساد أساة إن ذاك المريض طال شقاؤه

***

فى ظلال الفاروق تخطون بالسعد ظليلا رفافة أفياؤه
ذاك عام فى ظله قد تقضى فتوالت بيمنه آلاؤه
ظفر النيل بانتصار مبين أخلص السعى للعلا زعماؤه
والمراغى شيخ مصر المفدى نافذ الذهن والحجا وضاؤه
فاستجيبوا لقائد لا يبارى بهر الدهر علمه وذكاؤه

احمد شفيع السيد
المدرس بكلية اللغة العربية

الشكر على المعروف

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يشكر الله من لا يشكر الناس » .

وقال بعض الأدباء : من لم يشكر لمنعمه ، استحق قطع النعمة .

وقال غيره : من كفر نعمة المفيد ، استوجب حرمان المزيد .

وقال آخر : من أنكر الصنيعة ، استوجب قبح القطيعة

وأنشد بعض الشعراء :

من جاوز النعمة بالشكر لم يخش على النعمة مقتا لها
لو شكروا النعمة زادتهم مقالة الله التى قالها
لئن شكرتم لأزيدنكم لكنما كفرهم غالها
والكفر بالنعمة يدعو الى زوالها والشكر أبقى لها

ذكرى المولد الشريف

أميلاد الرسول ، كرمت عيدا   فاشرق رحمة ، وابسم سعودا

دنت بك شرعة الهدى المصفى   وطابت مصدرا ، وصفت ورودا

وراحت باسمك الأيام نشوى   تردده ، ورحت لها نشيدا

سنا ، أضفى على الدنيا جمالا   وألبسها من النعمى برودا

وعقد مكارم ضمنت حلاه   طريف المجد ، والمجد التليدا

تلاقت فيه أشتات المعالى   فسار بأفقها مثلا شرودا

***

ويوم أجمل الأيام سبقا   غدا فى الدهر جوهره الفريدا

سرت نسماته فى الكون روحا   أظل الغور ، وانتظم النجودا

ومادت من مهابته عروش   أبت عند الصواعق أن تميدا

تولى الله جلوته ، فجلى   وقلده الزعامة والخلودا

تجلت فيه مكة ، وهى عرس   غدت زهر النجوم له بنودا

أطل على البرية من ذراه   محمد ، اكرم الدنيا وليدا

فما روما ، إذا فخروا بروما   وما الأيوان ، تياها مشيدا ؟

هنا مهد ، بعرش الله نيطت   عراه ، فراح يخترق الحدودا

هنا سر الحياة ، هنا هداها   هنا القطب الذى أرسى الوجودا

فذاك العرش لا عرش هواء   تولى النار وادرع الحديدا

به شقى العباد وما أفادوا   وشر الناس من أشقى العبيدا

***

أمولد أحمد ذكراك طيب   يفيض أريجه ندا وعودا

طلعت على الوجود وكان قفرا   فعاد الكون بساما سعيدا

وكان العرب فى غمرات ضعف   فكنت النصر والفتح المجيدا

مخايل فيك لم يحجب سناها   أتاحت للأذلاء الصعودا

عــذيرك من قــريش يزدهيها ... رداك وأنت تمنحها الخــلودا
بنيت لهم على الأيام مجــدا ... تطاول لن يميــد ولن يبيدا
كذاك الجهــل يصمى ما تولى ... وكان الجهــل شيطــانا مريدا

***

بنفسى سيــد الثقلين تلقى ... رسالته التجهم والصــدودا
أهــذا النور تنكره عيــون ... أهــذا الحق يحتمل الجحودا ؟ !
سوافر من بديع الآى غــر ... عن الأفــكار حطمت القيودا
وعــدل مثل حد السيف عمت ... شريعته المسود والمسودا
وأخــلاق كما رقت شمــال ... وداعبت الخمــائل والورودا
وآلاء كما انهملت غيوث ... كفلن الأمن والعيش الرغيدا
عــوارف ليس يحصيهن عــد ... بهرن فلسن يقبلن المزيدا
غــدا الاسلام منها فى جنود ... إذا عــدموا الأسنة والجنودا

***

شفيت بذكر خير الخلق نفسى ... ولم أرد المــديح ولا القصيدا
ولــكن غنت الدنيا احتفاء ... بمولده فــرددت النشيدا

عبد الجواد رمضان
المدرس بكلية اللغة العربية

الحلم وما قيل فيه

الحلم ضبط النفس عند ثوران الغضب . وقد قالت الحكماء : ثلاثة لا يعرفون إلا فى ثلاثة مواطن : لا يعرف الجواد إلا فى العسرة ، والشجاع إلا فى الحرب ، والحليم إلا فى الغضب .

وقال الشاعر :

ليست الأحــلام فى حال الرضا ... إنما الاحــلام فى حال الغضب

وقال آخر :

من يدعى الحلم أغضبه لتعرفه ... لايعرف الحلم إلا ساعة الغضب

دعوته صلى الله عليه وسلم الى الاتحاد

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) :

الدعوة الى الاتحاد شعار كل مصلح ، ومقصد كل ناصح ، وغاية كل واعظ ومرشد ، وقلما تجد امرءا يدعو الى فضيلة ، بل قلما تجد من يدعو الى سلوك خطة ، وانتهاج شرعة مهما قام فى وجهه مخالف وعانده معاند ، إلا وهو يدعو الى الاتحاد . غير أن الدعاة المختلفين إذا سئلوا : علام يتحد الناس ؟ فسر كل منهم الاتحاد الذى يدعو اليه بالاندماج فى خطته والاذعان لرأيه وانتهاج منهجه ، ويقابله معاندوه بمثل دعوته ، ويفسرون الاتحاد فى رأيهم بالاقبال على ما هم عليه وترك ما عداه ، فتراهم دائما فى أمر مريج ، وترى دعوتهم غالبا تذهب أدراج الرياح ، وتراهم قد اتحدوا فى أن لا يتحدوا . ذاك أن كلا منهم حين يدعو الى الاتحاد لم يترك أنانيته ، ولم يقصد بالاتحاد أكثر من أن يندمج رأى غيره فى رأيه ويترك كل امرئ ما عنده الى ما عند ذلك الداعى ، وأنى له ذلك وعند كل منهم من الاعتداد بنفسه والحرص على تقديس رأيه ما عند صاحبه سواء بسواء ؟

فهل كانت دعوته صلى الله عليه وسلم الى الاتحاد على هذا الوجه الذى تكرر له الفشل وحق له أن يفشل وأن يفشل ؟؟ لا لا ، ما كان مسلكه صلى الله عليه وسلم هذا المسلك ، ولا نحا هذا المنحى ، ولكنه سلك مسلكا ممهدا ، وانتهج طريقاً معبدا ، أوضحه بالبينات والهدى ، ودعا الجميع الى السير فيه عن بينة وبصيرة ، وبرهن عليه بالبرهان الساطع والحجة الدامغة ، فاذا السالكون فيه قد اتحدوا من تلقاء أنفسهم ، وإذا هم قلب واحد واتجاه واحد ، ووجدان واحد ، وإذا هم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، وإذا هم كالبنيان يشد بعضه بعضا .

هاك شريعته التى أوحاها اليه ربه وأمره أن يبلغها لكافة الخلائق ، فانظر اليها فى أصل عقيدتها وفروع عباداتها وأنواع معاملاتها ومظاهر أخلاقها ، انظر الى كل قسم من ذلك على حدة ثم استوضحها جملة واحدة ، وانظر اليها متناسقة وبعد ذلك احكم عليها بما تراه من حكم عادل فى جملتها وتفصيلها .

تامل فى خطابه للمعاندين المعتزين بما أوتوا من كتاب أنزل عليهم ، فهم لا ينفكون يدعون

اليه لا لشئ سوى أن فى يدهم كتابا، فلا تسمح نفوسهم بان يتركوه الى غيره مهما وضح الحق وقامت الحجة، انظر الى خطابه لهم تجده يقول فيما أوحى اليه ربه وأمره به: «قل يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله» ثم يقول عقبها: «فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» فماذا ترى فى هذا؟ تراه وقد اطرح الأنانية، واطرح استمساك كل واحد بما عنده لمجرد أنه عنده، وقال: «تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم» لا على وجه أنكم خضعتم لنا أو أنا خضعنا لكم، وإنما على أنا جميعاً خضعنا لاله واحد لا نعبد إلا إياه ولا نشرك به شيئاً، فنمتثل الأمر لأنه أمره لا لأنه أمر بعضنا بعضاً، فاذا كان هذا الأمر قد علمتموه عن طريقنا فلأنه قد أمرنا ان نبلغكموه، وأيدنا وصدقنا فى دعوانا بما شاهدتموه من آيات بينة وحجة قاطعة لاتجد نفوسكم الى الطعن فيها سبيلا، ولا يجد الشك معها الى النفوس المفكرة مسلكا، فماذا يحول بينكم وبين أمر ربكم؟ تعالوا وأطيعوا الرسول لا لأنه هو فلان بن فلان، وإنما لأنه رسول الله، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله. وعلى هذا تجد الأنانية التى من شأنها أن تحول بين المرء وبين الاذعان للدعوة والاستجابة لها قد زالت وقضى عليها.

وينخرط فى هذا السلك ما تقرأ فى قوله تعالى: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون» ماذا تفهم منها بعد التأمل الصحيح والتفكر الصادق؟ إنك حين تتأمل فيها وتفهمها حق فهمها تجدها تناديك باطراح الأنانية وإظهار أن المسألة ليست مسألة: نحن، وأنتم، وهم، وأمثال ذلك مما يستمسك فيه كل فريق بما عنده، حتى يقال عنهم: كل حزب بما لديهم فرحون، وإنما الأمر أمر القانون العام والحجة الواضحة التى يجب أن تكون الحكم الفاصل بين الجميع، وهو أن من صدق عليه أنه آمن بالله حق الايمان، وآمن بيوم الجزاء حيث لا يفيد المرء إلا ما عمل، وقام بالعمل الصالح حق القيام، فهو الذى لاخوف عليه ولاحزن يلحقه، فأينما يتحقق فيه هذا الوصف فهو صاحب هذا الحكم حتما، هل تجد من ينفر من حكم هذه القضية الصادقة العادلة؟ كلا، اذاً فتعالوا نعرض إيماننا بالله وإيمانكم الذى تزعمون، على محك النظر الصحيح. إنا نجد أنفسنا قد أسلمنا أمرنا لله ورضينا بكل ما حكم الله، وامتثلنا كل ما أمرنا به الله، ولكنكم أنتم اتخذتم إلهكم أهواءكم، وقلتم: «إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا» وآمنتم ببعض وكفرتم ببعض، إذاً ليس الممتثل عندكم هو أمر الله، وليس إيمانكم هو الايمان بالله، وإلا لاطرد الامتثال فى كل ما قامت الحجة عليه أنه أمر من الله، وإذا فأنتم لم تؤمنوا حق الايمان باليوم الآخر، وإلا لحذرتم خطر الجزاء العدل لمن خالف أمر ربه مالك يوم الدين، وإذا فلم يكن القصد فى عملكم الى الصالحات، ولا صالح الا مارضيه لكم ربكم وأمركم به المهيمن عليكم، وإنما أنتم تجيبون داعى أهوائكم وتقومون بما مالت اليه نفوسكم.

هذا نموذج واضح جد الوضوح فى بيان كيفية الدعوة الى الله ، وأنها كانت تظهر على وجه اطراح الأنانية ، وأنها إنما كانت توجه الى الحق من حيث هو الحق بقطع النظر عمن قام به ودعا اليه ، وهى أشبه شىء بقولهم : انظر الى مايقال لا الى من قال . وهل بعد هذا منهج يرفع الخلاف وأسبابه ، ويمكن للاتحاد فى النفوس فضل تمكين ؟

تعال وانظر معى بعد ذلك فى فروع العبادات ، تجدها قد بنيت على ما يثبت روح الاتحاد فى القلوب ويمكنها من النفوس . وها نحن أولاء نجلوها عليك فى أركان الاسلام الخمسة :

١ — «شهادة أن لا إله إلا الله» :

ماذا تقول فى قوم جزموا جزم اليقين ، وعلموا علم الشهود أن إلههم جميعا واحد لا يعبدون إلا إياه ، فهم يشعرون جميعا بأنهم خاضعون أمام عظمة واحدة هى مصدر وجودهم ، ومنشأ ما هم فيه من نعم جلت أو دقت ؟ إنها أكبر داع الى توحيد قلوبهم ، وتوحيد اتجاههم ، وتوحيد غايتهم ، وهى الفوز بالزلفى إليه واكتساب مرضاته .

٢ — « إقام الصلاة » :

ماذا تشهد فى جموع متصافة متراصة كالبنيان تنطق بلسان واحد « الله أكبر » وتقوم فى وقت واحد بتحميده وتمجيده ، وتوجه اليه خالص العبادة ، وتسأله كلها فى آن واحد أن يمنحها معونته ، ويهديها اليه الصراط المستقيم ، فاذا ركعت خضوعا لعظمته كانت جميعا فى خضوعها ، وإذا استكانت أمام علو مجده كانت جميعا فى استكانتها وذلتها ، وإذا وقفت قانتة لربها مطيعة لأمره كانت كلها معا خاشعة قانتة ، ثم هى تتجه الى جهة واحدة أمرها ربها أن تتجه اليها ، أليس الاشتراك فى هذا كله مدعاة الى اتحاد الاتجاه ، واتحاد الأعمال والأقوال ، وبالتالى يثمر اتحاد القلوب ؟

٣ — « إيتاء الزكاة » :

ماذا تراه فى قوم تعاطفوا وتراحموا ، وشارك فقيرهم غنيهم فيما أنعم الله عليه به من رزق فأخذه من يده حلالا طيبا : هذا يؤدى أمانة ائتمنه الله عليها ، وهى حق الفقير فى ماله ، طيبة بها نفسه ، وهذا يتسلم وديعة من الوديع عن طيب خاطر فيتفاصلان وكل منهما قد امتلأ قلبه محبة نحو أخيه : هذا بما استفاد من رزق ، وهذا بما كسب من أجر ، وكلاهما بما ساد بينهما من عطف ، أليس فى هذا أكبر داع الى اتحاد القلوب ؟

٤ — «صيام رمضان» :

بخ بخ ! تصور يارعاك الله قوما قد دعوا الى توحيد أذواقهم ووجداناتهم الخصوصية : فكلفوا أن يكفوا عن مشتهياتهم فى وقت واحد ، وأن يتناولوها فى وقت واحد ، كم يكون

بينهم من الشعور باتحاد الوجدان واتحاد الميول والاتحاد فى المنح والحرمان ؟ إن من جرب حالة قوم جمعتهم ظروف خاصة قاسوا فيها معا مرارة ما فى الحياة وأفرج عنهم دفعة واحدة فنعموا معا فى وقت واحد، يجد أنهم اعتبروا هذا الاشتراك جامعا بينهم لا يزالون يذكرونه طول حياتهم ولو صادفهم فى العمر مرة ، فكيف وهذا يتكرر على المسلمين فى كل عام مرة بل فى كل عام ثلاثين مرة ؟ إن قليلا من الانتباه يجلو لك هذا المعنى بمنتهى الوضوح إذا كنت من المنصفين .

٥ — « حج البيت من استطاع اليه سبيلا » :

ناهيك بهذا المؤتمر العام يعقده المسلمون فى كل عام ليشهدوا منافع لهم ، وليطوفوا بالبيت الحرام ، هل يخفى عليك ما فيه من توكيد الربط بينهم والوئام ؟ سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، والحمد لله الذى أنعم علينا بنعمة الايمان والاسلام !

أما إذا نظرت الى قسم المعاملات بين الناس فيكفيك منه اجتلاء ناحية عامة فيه ، هى أنه بنى على العدل ، ودعى فيه الى الفضل ، وأى اتحاد ينبت من بين إقامة العدل وزيادة الفضل ؟ ارجع بنفسك أنت الى أثر هذين المبدأين الجليلين فستعرف أنت بنفسك أكثر وأكثر مما نستطيع أن نسطره لك فى هذه الكلمة الوجيزة .

ولا يقتصر هذا على قسمة المعاملات المدنية ، بل تجده ساريا فى باب روابط الأسرة والحياة المنزلية ، انظر الى أحكام الزوجين وما دعوا اليه ، واتل إن شئت قوله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » ثم التفت الى باب نفقات الأقارب وما تضمنه من مغزى ربط القلوب وتحبيب أفراد الأسرة بعضهم لبعض ، وتحبيب كل منهم أن يكون الباقى فى نعمة ويسار ، إما ليكفى مؤنته أو ليستفيد معونته . بل انظر الى أحكام الجنايات والمقاصات تجد العدل فى قوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » وفى قوله تعالى : « فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا » وتجد الفضل يتجلى فى قوله تعالى : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » وتجدهما قد تجليا معا على وجه يأخذ بالالباب فى قوله جل شأنه : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

هذا قليل من كثير من دواعى الاتحاد فى المعاملات ، وكلما تاملت فى باب منها وجدت ما يملأ قلبك اقتناعا ، ونفسك هدى ونورا . والاساس فيه كما قلنا تقرير العدل والترغيب فى الفضل ، ولا يكون الفضل فضلا مثمرا إلا إذا نشأ عن رغبة واختيار .

فاذا أنت رجعت الى الأخلاق التى بعث صلى الله عليه وسلم لتتميمها فكم يتجلى لك هذا واضحاً جلياً . اقرأ إن شئت قوله تعالى : « يايها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » ومتى تعارفوا تآلفوا ، واقرأ ما يحفها من آيات فى سورة الحجرات .

وليتك تراجع ما نشرناه على صفحات هذه المجلة من تفسير هذه السورة الكريمة . واستعرض ما شئت من مثل حديث « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وحديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وحديث « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه الخ » وحديث « لا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانا » الى غير ذلك مما لا يكاد يأتى عليه الحصر فى مثل هذه الكلمة .

نعم: لقد جاءت الدعوة الى الاتحاد ، وقررت عوامل تنميته فى النفوس مستفيضة متفشية فى كل أبواب الشريعة الغراء ، وليس لمعترض أن يقول : فما بالنا نرى المسلمين متفرقين إلا قليلا منهم ؟ فانا نجيبه بأن هذا كقولك : فما بالنا نرى الكثير من المسلمين قد تركوا العمل بأحكام دينهم وغرتهم ملاهى غيرهم ؟ والجواب عن هذا وذاك أن مرجع هذا الى نفوسهم واتباع أهوائهم ، لا لنقص فى ضوء دينهم ونور هديهم :

ما ضر شمس الضحى فى الأفق طالعة ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

نسأل الله أن يوفقنا برحمته الى اتباع هدى شريعته ، والعمل بسنة نبيه ، إنه هو الفعال لما يشاء ؟

ابراهيم الجبالى

فضيلة الحياء

روى أبو سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الحياء من الايمان ، والايمان فى الجنة ، والبذاء من الجفاء ، والجفاء فى النار » .

وقال بعض الحكماء : « من كساه الحياء ثوبه ، لم ير الناس عيبه » .

وقال صالح بن عبد القدوس :

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير فى وجه إذا قل ماؤه
حياؤك فاحفظه عليك وإنما يدل على فعل الكريم حياؤه

يظن بعض الغفل أن الحياء ضعف فى النفس ، والحقيقة أن عدمه هو الضعف ، فان التوقح لا يزال يدفع صاحبه لغشيان المخجلات حتى يسقط اعتباره ، ومن انتهى الى هذه الدركة هلك لا محالة .

عظمته صلى الله عليه وسلم

وشيء من سيرته الباهرة وآياته الظاهرة

تعرف عظمة الرجل بتحليل نفسيته الكبيرة ، وأخلاقه الرفيعة ، ثم بآثاره الخالدة. ولا نجد نفسية أعظم من نفسيته عليه السلام ولا آثاراً كآثاره . وكل من تتبع شريف أحواله وما اشتملت عليه سيرة حياته ، وطالع جوامع كلمه وحسن شمائله وبدائع سياسته ولطف دعوته ، ورفيع حكمته ، وعلمه بجامع السعادات ، وسوقه اليها بالوسائل المختلفة والطرق العجيبة التي تفوق كل ما جاء فى حكمة الحكماء وسير العلماء ، وما تم له من سياسة الخلق وتقرير الشرائع وتأصيل الآداب الكريمة والشيم الحميدة ، الى فنون العلوم المختلفة دون تعليم ولا مدارسة ، ولا مطالعة كتب من تقدم ، ولا الجلوس الى العلماء والحكماء ، بل هو نبي أمي لم يعرف شيئا من ذلك ، حتى شرح الله صدره وأبان أمره ، وعلمه مالم يكن يعلم ، وكان فضل الله عليه عظيما ، وقد أشير الى ذلك بقوله تعالى : « وما كنتَ تتلو مِن قبله مِن كتاب ولا تَخُطُّه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون » . «وكذلك أوحينا إليك رُوحا من أمرنا ما كنتَ تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لَتهدى الى صراط مستقيم » . « هو الذى بَعث فى الأُميّين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإنْ كانوا من قبلُ لَفى ضلال مبين » . « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

نقول : كل من درس سيرة هذا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم دراسة مدققة ، وعرف تاريخ حياته الشريفة معرفة تامة ، لم يخالجه أقل ريب فى أنه واسطة عقد الكمال ، وأنه سيد الأولين والآخرين ، وأفضل الخلق أجمعين . على أن من يريد بيان كماله واستقصاء أحواله فإنما يحاول عدّ ما فى البحر من درر ، أو استقصاء ما فى السماء من نجوم :

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفم

ولنقرب لك ذلك بعض التقريب ، ولنفصله شيئا من التفصيل ، فنقول :

إن فيما أتى به من الأوامر الحكيمة التى تكفل مصالح الدنيا والآخرة ، وفى إرشاده الى ما يكفل سعادة الأبد وراحة المجتمع وصفاء العيش ، وفيما بَيَّنه من الحقائق وهدى الخلائق ، وفيما أتى به مما يعرفه العقل جملة ويعجز عنه تفصيلا ـ ما يعلم به المنصف البصير أنه من العلم والمعرفة والخبرة فى الغاية التى باين بها الخلق ، فكل ما يعلم الناس أنه حق وأنه خير فهو أعلم منهم به . وهو بعد ذلك أنصح الخلق للخلق ، وأبر الناس بالناس ، وأصدقهم فيما يقول ، وأقومهم فيما يفعل .

وبعبارة أخرى نقول : إنه جمع مالم يجتمع لأحد ، ولم يعهد مثله فى السنن الطبيعية لإنسان . فإن من نظر الى تدبيره الحروب مثلا وعرف أنه أتى فيها بأحسن الخطط ، قال إنه رجل حرب وجّه كل همه وفكره لمجالدة الأعداء ورسم خطط الحروب ، ومن كان كذلك لا يكاد يحسن غير ذلك .

فإذا نظرت الى زهده وعبادته حتى تورمت قدماه ، وكان يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء فى الصلاة ، وكان يطيل السجود حتى تظن عائشة أنه قد مات ، تقول إنه رجل ترك الدنيا وما فيها ، فهو جاهل بها لا يحسن تدبيرها ولا العمل لها بوجه من الوجوه ، فضلا عن إعداد الوسائل لقوم جهال متفرقين متوحشين لأن يكونوا خير أمة أخرجت للناس ، تَغلِب ، ولا تُغلَب وتَقهر ولا تقهر ، ما دامت متمسكة بما جاء به .

وإذا نظرت الى وعظه الذى يأخذ بمجامع القلوب ، قلت إنه لا يحسن غير ذلك .

وإذا نظرت الى حسن ترتيبه وتعليمه الذى جعل السيدة عائشة تكون من أعلم العلماء ، بحيث تجرؤ على أن تخطئ عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وهم من أكبر الصحابة وأعلمهم ، وقد مات عنها وهى بنت ثمانى عشرة سنة ، وقد صار بفضل هذه التربية الحكيمة وتلك الأساليب العجيبة أبو هريرة أكبر من روينا عنه الشريعة فى أربع سنين .

إذا نظرت الى ذلك كله قلت إنه من أكبر أساتذة علم النفس، حيث جاء بتلك النتائج الباهرة التي لم تعرف لأحد من علماء التربية وأساتذة علم الاجتماع حتى الآن. بل نقول: كان يجيئه الأعرابي فلا يمكث معه إلا قليلا من الزمن حتى يرجع عالما في نفسه معلما لقومه.

وإذا صادفك التأييد ونظرت الى ما كان من تأثيره في الأمة العربية، رأيت العجب العجاب، فقد تبدلت طبائع العرب على اختلاف قبائلهم ونزعاتهم بهدايته صلى الله عليه وسلم: من الظلم الى العدل، ومن الجهل الى العلم، ومن الفسق الفاحش الى العدل العظيم الذي لم يبلغه أعظم الفلاسفة، وقد أسقطوا كلهم أولهم وآخرهم بفضل تعاليمه صلى الله عليه وسلم طلب الثأر، وصحب الرجل منهم قاتل ابنه وأبيه وأعدى الناس له، صحبة الإخوة المتحابين دون خوف يجمعهم، ولا رياسة ينفردون بها دون من أسلم من غيرهم، ولا مال يتعجلونه.

وقد علم الناس كيف كانت سيرة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وليس يغيب عنك أن جمهور أتباعه غرباء من غير قومه، لم يمنّهم بدنيا ولا وعدهم بملك، بل بايعهم على ألا ينازعوا الأمر أهله، وأن يوطنوا أنفسهم على الأثرة عليهم، ولم يفعل ذلك لأقاربه أنفسهم، ولا ترك لهم ميراثا يورث عنه. (وهذا لا ينكره أحد من الناس).

وخلاصة القول أنه صلى الله عليه وسلم لم يشغله ظاهر عن باطن، ولا إصلاح الدنيا عن إصلاح الآخرة، ولا ما يهم النفوس والأبدان عما يهم الأرواح والأسرار، ولا موجبات الغضب عن استعمال الحكمة (ولا غرو فهو ينظر في الأشياء بنظر الله فسيان حربه وسلمه).

ثم انظر بعد ذلك الى ما جاء به من مجامع السعادة للفرد والمجتمع، فتراه أوصاك بخاصتك من أهل بيتك وأقاربك، ثم أوصاك بجيرانك والأباعد عنك، ثم على المسلمين وأهل الذمة، ثم أوصى الرئيس أن يرحم المرءوس، والمرءوس أن يطيع الرئيس.

ومما ينبغى أن نعـرفه من حكمته صلى الله عليه وسلم أنه كان يستعمل الشـدة فى موضعها والرحمة فى موضعها ، ولـكنه متخلق بأخلاق الله القائل : «سبقت رحمتى غضبى». الى غير ذلك مما ينبغى أن يوضع فيه كتاب مخصوص . وهذه أنظار واسعة لا يتأتى فى العادة أن يحيط بها إنسان ، وحكمة عالية تضع الأشياء فى مواضعها بموازين القسط الدقيقة ، وأكثر الحـكماء إن أصابوا التشريع لم يمكنهم استعمال الحـكمة ولا القدرة عليها عند التنفيذ والتطبيق ، فقلّما يطابق العلم العمل ، وقلّما يطابق العمل الصواب ، وقلّما يستطيع الانسان الضغط على نفسه فى ظروف كثيرة ، وقلّما ينجو العقل من تلبيس الهوى وجهل النفس وسلطان الشهوة التى تزين القبيح حتى تغطى العقل بغطاء كثيف لا يكاد ينفذ منه بصره الى الحقيقة (حبك الشىء يعمى ويصم). وإذا لا يستمد العقل إلا من العاطفة ، وتـكون هى المسيطرة عليه المملية له ، فلا ينظر إلا بعينها ولا يسمع إلا بأذنها . ولديك أرباب العواطف من الأحزاب المختلفة فى الدين والدنيا .

وبالجملة فسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لمن تدبرها تقضى بتصديقه ضرورة ، وتشهد له بأنه رسول الله حقا ، فلو لم تكن له معجزة غير سـيرته عليه السلام لـكفى . فإنه صلى الله عليه وسلم نشأ فى بلاد الجهل لا يقرأ ولا يكتب ، ولا خـرج عن تلك البلاد إلا خرجتين : إحداهما الى الشام وهو صبى مع عمه الى أول أرض الشام ثم رجع ؛ والأخرى أيضا الى أول أرض الشام ولم يطل بها البقاء ، بل رجع بشهادة حبر من أحبار أهل الـكتاب بنبوته عليه السلام وهو بحيرا الراهب ، وحبر آخر وهو نسطورا الراهب كما هو معروف .

وناهيك ما وصلت اليه أمته بفضل تلك التربية ، حتى إنها فى أقل من عشر سنين بعـد وفاته فتحت أعظم ممالك الأرض إذ ذاك (مملـكة الفرس ومملـكة الرومان) . وفى أقل من قرن وصلت من آسيا الى الهند والصين ، ومن إفريقيا الى أرض مراكش ثم تخطتها الى أوربا فأسست بها تلك المملـكة الفيحاء (مملـكة الأندلس) ، ووصلت

الى بردو من أرض فرنسا ، الى غير ذلك مما دهش له التاريخ وعجب له فلاسفة أوربا ، وكل ذلك بفضل تلك التربية النبوية الحكيمة .

وقد قال جوستاف لوبون الفرنسى فى حقهم وهو من أعظم فلاسفة أوربا : « إن ملكة الفنون لا تستحكم فى أمة من الأمم إلا فى ثلاثة أجيال : جيل التقليد ، وجيل الخضرمة ، وجيل الاستقلال . وقد شذ العرب فوصلوا الى الاستقلال فى جيل واحد » . وقال أيضا : « ما عرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » .

وقد أذكرنى ذلك قول صاحب الهمزية فى أصحابه صلى الله عليه وسلم :

أغنياء نزاهة فقراء علماء أئمة أمراء

ثم نقول بعد ذلك :

إن قوانين العالم المتمدين الى الآن لم تصل الى تلك الغايات السامية ، ولا أتت بتلك السعادة المنشودة ، ولا أورثتنا هناء ولا صفاء . بل يمكننا أن نقول :

إن تلك القوانين وهاتيك المدنيات الفاسقة مازادت العالم إلا شقاء وبلاء . على أن سبب نهضتهم من كبوتهم واستيقاظهم من نومهم وإنقاذهم من جهالتهم إنما هو علم المسلمين والاحتكاك بهم كما هو معروف من تاريخ الأندلس وتاريخ الكنيسة وتاريخ الحروب الصليبية ، فكانت القرون الوسطى أو القرون المظلمة على ما يقولون فى ذلك العهد عندهم لا عندنا (وإن كان شباننا بكل أسف لا يعرفون ذلك لأنهم جهلوا تاريخ آبائهم ونبغوا فيما جاء عن الأجانب فناءً فيهم وافتتانا بهم) ! فإن مدنيتهم لا تعنى إلا بالماديات . فمحورها الذى تدور عليه هو المادة ، فمنها يبدءون واليها ينتهون . أما إصلاح النفوس وسعادة الانسانية ، وراحة القلوب وهدوء الأفكار ، والتنعم بتلك الإحساسات الشريفة والملكات الفاضلة ، فهم بمعزل عنها ، بل سرت عدواهم الينا ، فأقفرت نفوسنا من فضائل ديننا وآداب أسلافنا ، ولم تصل أيدينا الى مثل دنياهم وقوتهم واتحادهم ونشاطهم ،

فأصبحنا مستعبدين وقد كنا السادة، وجاهلين وقد كنا العلماء، وأذلة وقد كنا الأعزاء!

وقد شط بنا القلم، ولكنها نفثة مصدور، فلنرجع الى ما كنا فيه، فنقول:

إن تشريعه صلى الله عليه وسلم لم يصل اليه تشريع الى الآن وقد مضى عليه أربعة عشر قرنا تقريبا. ذلك التشريع الذى تكفّل بإصلاح النفوس والأبدان، وضمن سعادة الدنيا والآخرة، وحرّم على أبنائه أن يكونوا أذلاء، فقال: «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» وقال فى وصفهم أيضا: «أذلةٍ على المؤمنين أعزةٍ على الكافرين»، وقال لهم بعد ما سلّحهم بتلك الأسلحة وحلاّهم بهاتيك المكارم: «كنتم خير أمّة أُخرِجت للناس تأمرون بالمعروف وتَنهوْن عن المنكر وتؤمنون بالله». وقد قال فى آية أخرى فى وصفهم: «أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم رُكّعا سُجّدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا».

وما أبهر هذه الآية فى نفسى! فإنها تشير على ما بها من إيجاز الى ما يجب أن تكون عليه الأمة مع أعدائها، وقد أشير الى ذلك بقوله: «أشداء على الكفار»، وإلى ما يجب أن يكون قانونها الداخلى بين أبنائها. وقد أشير الى ذلك بقوله: «رحماء بينهم»، وإلى ما يجب أن يكون بينهم وبين الله، وقد أشير الى ذلك بقوله: «تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا» فماذا بقى بعد هذا؟ أصلح ظواهرهم وبواطنهم، ثم أرشدهم الى ما يجب أن يعملوا مع أعدائهم، وما يجب أن يكونوا عليه فيما بينهم، وما يجب أن يتحلوا به أمام خالقهم. وكم للقرآن من إيجاز وإعجاز!

وقد أذكرنى ذلك قول سديو الفرنسى: «لو وجد المصحف فى فلاة لقلنا إنه كلام الله». وكم للمنصفين منهم من شهادات لدين الاسلام ونبى الاسلام!

ويلتحق بذلك معجزات طبية وعلمية لا يمكننا أن نشير إليها إلا إشارة وجيزة. فإن الذى حرّمه كلحم الخنزير مثلا تبيّن أن فيه ضررا كبيرا. فقد عرفوا الآن أن فيه ديدانا كثيرة، وأنه يولد الدودة الوحيدة. ووراء ذلك شىء كثير كالخمر الذى حرمته أمريكا لما عرفت أضراره الكثيرة (والخمر تكنى عندنا بأم الخبائث).

ومن تلك الآيات العلمية قول القرآن : «وأرسلنا الرياح لَوَاقِح » . وما عرف تلقيح الرياح للأشجار إلا من عهد قريب . وقوله : « ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ إلا فى كتاب مبين » . ولم يكن فى ذلك العهد شىء أصغر من الذرة وإن كانت الميكروبات التى عرفناها أخيرا هى أصغر من الذرة . وكقوله : « ومِن كلِّ شىء خلقنا زوجين » ولم يعرف أن فى النباتات ذكرا وأنثى إلا منذ عهد قريب : «سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .

وبعد : ففى القرآن من التعبير عن الحقائق ماتقضى منه العجب ، حيث يعبر بالعبارات التى تساير كل عصر وتتفق وكل اكتشاف ، حتى إذا تبين خطأ فى تفسيرها بمقتضى اكتشاف جديد نسب لمفسرى الآيات لالها ، ووُجدت هى أكثر انطباقا على ما قضى به العلم الممحص والاكتشاف الجديد ، مما يدهش اللب ، وينطق بأنه ما أنزله إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض .

أفلا يحق له أن يقول بعد ذلك : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ؟ وإنى أستحلفك بعلمك وإنصافك أن تنظر فى هذه الآية نظر الباحث المدقق حتى تعلم أن مثل ذلك التحدى لا يجوز أن يكون إلا من الله تعالى العالم بكافة الأشياء وما عليه عباده من القوى والقُدَر . ولا يتصور أن يقول ذلك مخلوق ولا يتحدى جميع الخلق بمثل هذا عاقل ؛ فان العاقل لا يعرض نفسه للهزء والسخرية بتحدى الجن والإنس ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

ومن هذا القبيل فى الدلالة على صحة دعوته وصدق رسالته قوله : « يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل » ، وقوله فى حق أهل الكتاب : « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » . وليس يعقل أن يعتقد مثل عبد الله بن سلام وهو من أكبر علماء التوراة كذب النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك ثم يؤمن به ، أو يعتقد نصارى نجران

كذبه ثم لا يجيبوه الى المباهلة ، بل ليس من المعقول أن يقيم صلى الله عليه وسلم برهانا على كذبه فيخاطبهم والتوراة بين أيديهم بمثل ذلك الخطاب ، ثم يوبخهم ويقرعهم ويشافههم بأنهم يجدونه فيها ، وأنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم . ولا من المتصور أن يجترئ على ذلك وهو يعلم كذب نفسه ، إلى غير ذلك مما ينفرهم غاية التنفير ، ويضعفه لديهم ويهون شأنه عليهم (والكاذب ضعيف حتى عند نفسه). ولو فعل ذلك من غير أن يكون له حقيقة لكان أول السفهاء وأكبر الجهلاء ولطمعت فيه أعداؤه ، وما أسرع ما كان ينتقض بناؤه . إلى آخر ما لا يمكننا الإفاضة فيه ، ولا الوصول إلى خوافيه .

آية أخرى (وما نريهم من آية الا هى أكبر من أختها) :

ومن عجيب أمره وبديع حكمته صلى الله عليه وسلم أنه كان يأخذ القلوب الى الله تعالى ، ويملأ النفوس رغبة فى ثوابه ورهبة من عقابه ، ومع ذلك يرغب فى العمل للمجتمع ، ولم يحرم زينة الدنيا التى أخرج الله لعباده والطيبات من الرزق ، بل فضل الأمور العامة التى ينتفع بها الناس على العبادات الخاصة ، كما قال فى حق الذين خدموا إخوانهم فى السفر فى يوم شديد الحر : إنهم فازوا بالأجر كله ، ولم يجعل ذلك للصائمين المتعبدين فى ذلك اليوم . وقد ورد موقوفا أو مرفوعا : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » . وقال تعالى : « فامشوا فى مَنَاكِبها وكلوا من رزقه » « فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله » . ولكنه مع هذا حوّل كل شىء من أمور الدنيا للآخرة بالنية الصالحة والإخلاص لله ، فصار كل شىء عند المسلمين طاعة بفضل هذا التعليم العالى ، وأصبح من المقرر أن العمل المتعدى أفضل من العمل القاصر ، فجمع لنا صلى الله عليه وسلم بذلك بين مصلحة الدنيا ومصلحة الآخرة على أتم الوجوه . وفى الوقت نفسه حفظنا من سفاسف الأخلاق ، ودنايا الخصال ، بفضل تلك المراقبة وذلك الإخلاص ، فصار كل إنسان يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ويعتبر منفعة أخيه منفعة له إن لم يكن ذلك فى الدنيا كان فى الآخرة .

وقد أذكرنى هذا قول بعض العلماء : لم يبق بعد بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم أخلاق فاسدة أصلا ، لأنه صلى الله عليه وسلم أبان لنا عن مصارفها كلها : من حرص وحسد ، وشر وبخل وخوف ، وكل صفة مذمومة . فمن أجراها على تلك المصارف عادت كلها مكارم أخلاق وزال عنها اسم الذم . فإذا صرفت مافيك من الحرص والطمع الى اكتساب الدرجات وفعل الطاعات ، وما فيك من الحسد والمنافسة الى النبوغ فى العلم والحكمة وإحراز الزلفى عند الله تعالى ، وما فيك من الغضب ومحبة الانتقام الى أعداء الله وبذل الوسع فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، ومافيك من شهوة السرف الى صلة الأرحام وإغاثة الملهوف ومواساة الجيران والإخوان الخ الخ ، كنت شخص الفضل ومثال الكمال ، وعادت هذه الرذائل فضائل ، وتلك المنكرات وسيلة لأعظم الطاعات وعظيم الدرجات .

وانظر الى قوله صلى الله عليه وسلم لمن ركع دون الصف : زادك الله حرصا ولا تعد . فعرفك بذلك فضيلة الحرص وأبان مصرفه الذى ينبغى أن يكون فيه .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الخير ، ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به ويعلمه الناس » . فانظر كيف وجّه من فيه غريزة الحسد الى أى ناحية وصرفه عن بقية النواحى . وغريزة الغبطة التى يذكرها العلماء فى شرح هذا الحديث هى بعينها غريزة الحسد ، وإنما غايرتها بصرفها لغير مصرفها ، وتوجيهها الى غير وجهتها .

هذا وقد حثنا صلى الله عليه وسلم على التزام نقطة الوسط التى هى نقطة الكمال ، وحذرنا من الانحراف عنها الى الإفراط أو التفريط ، فتراه يقول : « والذين إذا أنفقوا لم يُسرفوا ولم يَقتُروا وكان بين ذلك قَوَاما » ويقول : « ولا تجعل يدك مَغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » ، ويقول : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ،

ويقول : « إن الدين متين فأوغل فيه برفق » ويقول : « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ولهذا شرح طويل لا تسعه هذه العجالة .

وبعد : فإن الأمم التي يسمونها راقية لم تأتنا في باب العدل والمساواة والحرية التي يتمدحون بها إلا بدعاوى مجردة وقضايا كاذبة . وليس العهد ببعيد من تلك الطنطنة التي كانت لشروط الدكتور (ولسن) وما سارت عليه بعد ذلك جمعية الأمم التي تمثل خمساً وسبعين دولة ، وما يعانيه العالم من جراء عدالتها وإنصافها . فانظر ذلك وقارن بينه وبين ما يقول القرءان : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدَين والأقربين » ، وقوله تعالى : « ولا يَجْرِمَنّكم شَنَآنُ قوم أَنْ صدُّوكم عن المسجد الحرام أن تَعتَدُوا ، وتعاوَنوا على البر والتقوى ولا تَعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب » وقوله : « وإمّا تخافَنّ من قوم خيانةً فانبِذ اليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » ، وقوله : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهَى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون » الخ .

وانظر الى قصة عمرو بن العاص وولده عند ما ضرب رجلا بمصر من السوقة فشكاه لعمر بن الخطاب وقال : إنه ضربني ، ثم قال : اذهب وأنا ابن الأكرمين . فأعطاه عمر الدرة وقال له : اضرب بها ابن الأكرمين . فقارن بين هذا وبين ما تراه وتسمعه . وقد قال جوستاف لوبون : « لم يعرف التاريخ فاتحا أعدل ولا أرحم من العرب » كما قدمنا . ويعجبني قول غاندى : « إن أوربا اليوم لا تمثل روح الله ولا روح المسيحية ، ولكنها تمثل روح الشيطان ، وإنما يفلح الشيطان أكثر ما يفلح حينما تلوك شفتاه اسم الله ، وإن أوربا اليوم مسيحية بالاسم ، وفي الحقيقة لا إله عندها إلا إله المال »

هذا وقد تعرف أن للفقراء نصيبا من الزكاة يأخذونه من الأغنياء قهرا بسيف الشريعة الاسلامية . يقابل هذا أن للأغنياء نصيبا من الربا في مال الفقراء يأخذونه قهرا بسيف القوانين الأوربية . فقارن بين الأمرين ، ووازن بين الطريقتين !

ولعمرى إن خروج هذا النبي الكريم الذى أتى بتلك السعادات كلها من تلك البيئة ، وهى على أسوأ الخلال ، معجزة كبرى ، وآية عظمى لدى العظماء والحكماء .

ومن عجيب أمره وشريف خلاله التى خرقت السنن المعروفة ، أنك ترى النفوس تتكبر وتتعاظم بأقل الأشياء ، وتراه صلى الله عليه وسلم مع ذلك كله يتواضع شكرا لله ، ومعرفة بعظمة الله ، واعترافا بفضله عليه . وقد كان يطأطئ رأسه يوم فتح مكة تواضعا لله ، حتى إن رأسه ليكاد يمس رحله . وكانت العجوز من نساء المدينة تكلمه فى الطريق فيقف لها حتى تقضى ما أرادت منه ، وربما انطلقت به الى حيث تريد . وكان ذلك من دلائل نبوته عند عدى بن حاتم ، فإن ذلك من شأن الذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا (بخلاف الملوك وأهل الدنيا) .

آية أخرى هى أعجب منه كل ما سمعت :

ومن عجيب أمره الذى يدهش الباحثين أنه يشير الى الأسرار الغامضة والعلوم العالية بما لا ينفر منه العامة ، بل ينتفعون بظواهره وجها من الانتفاع ، ويعرفه الخاصة ، وربما كان خفيا لا يكشف إلا بعد زمن طويل كهذه المسائل التى كشفها العلم حديثا مما أشرنا الى بعضه ، فوجدناها لا تنافى القرآن ولا تجافى ماجاء فيه ، بل وجدناه أشار لها إشارة خفية أو ظاهرة ، ولا نجده فى مسألة من تلك المسائل صرح فيها بنص يقوم الدليل على خلافه ، مع أن كل عالم وفيلسوف إذا أراد أن يبين ما فى نفسه لم يمكنه أن يسلك هذه الطريقة التى تنفع العامة والخاصة جميعا ، ولا يتسنى له أن يظفر بهذه العبارات التى لا تمجها أذواق العامة ولا تصادمها العلوم الفلسفية ولا المكتشفات المستقبلة . (ومن ذا الذى يكون فرحا بنتائج فكره وولائد عقله ثم لا يفصح عنه إفصاح المبتهجين به المتبجحين بالوصول اليه ، فيكون محصورا فى حدود ضيقة لا يتخطاها بوجه من الوجوه ؟ اللهم إن هذا هو المعهود فى البشر المعروف فى نوع الانسان) .

أما ذلك الذى ينطبق على ما يقرره العلم بعد مئات السنين ، وهوفى الوقت نفسه مشتمل على ما ينفع العامة ويفيدهم تطهيرا وتنويرا ، فلا يعقل إلا من العليم الحكيم . ولعمرى إنها لآية كبرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ومن عجيب أمره أنه نص على أن فى القرآن محكما ومتشابها ، وأن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم . وقد أمرنا أن نتمسك بالمحكم ولا نتعرض للمتشابه ، فأدى بذلك حق العلم من جهة ، وحفظنا أن نقع فى الزيغ من جهة أخرى . وما ذا علينا أن نتوسع فى المتشابه أكثر مما قالوا . وبالضرورة لم ينزل ذلك المتشابه فى القرآن عبثا ، وحاشاه من العبث « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

فمن أكبر آيات القرءان أن كان فيه المحكمات والمتشابهات ، لأنه لو جاء على غير هذا الوجه لم يناسب من الأزمان إلا زمنا واحدا ، وقد جاء للأزمان كلها وللناس كلهم . وقد فتح بذلك فوق هذا كله باب التفكير والتأويل والأخذ والرد ، فارتقوا من العلم الى أسمى درجة ، ومن المنطق والحجة الى أرقى مكان . فكأنه لما أراد أن يُعدّهم الى هذه الغاية السامية وتلك الذروة الرفيعة ، كان الأمر على ما ذكرنا . وكم له من آية فى الحث على الفكر والنظر مما لا نطيل بذكره .

الخلاصة :

والخلاصة أن شريعته صلى الله عليه وسلم تشتمل على دعوة الخواص والعوام ، لأن المراد منها هداية كل منهما وانتفاعه بها على قدر استعداده « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وهى بعد ذلك بحر لا ساحل له . ولو جمعنا ما كتبه العلماء فى فقه الشريعة المحمدية ، وما قاله صلى الله عليه وسلم فى الآداب ومكارم الأخلاق ، وما كتبوه فى أصول الفقه وأصول الدين ، وما رووه عنه من أحاديث وما كتبوه فى سيرته ، وما دونوه فى علم الحديث دراية ورواية ، وما صنفوه فيما يتعلق بالقرءان الكريم

من تفسير وتأويل وما يلتحق بذلك كله ، لملأ الوهاد والنجاد ، ولناءت به السفن فضلا عن الإبل ، وأظنك تعرف ذلك ولا تنكره . ولا بأس أن نسوق لك هنا شهادة الفيلسوف برنارد شو الانكليزى فى حقه صلى الله عليه وسلم :

شهادة برنارد شو الانكليزى :

قال الكاتب الكبير برنارد شو :

« كنت فى كل الأحيان ولا زلت أتناول دين محمد فأقدره تقديرا عظيما ، وذلك لروحيته العجيبة وحيويته العظيمة . إنه الدين الوحيد الذى يملك القدرة على هداية الغير وملاءمة الأزمنة ، فهوحرى لأن يكون دين الجميع فى كل دور وطور . ويجب على العالم دون شك أن يقدر ويعلق أهمية عظمى على ذلك .

« لقد تنبأت عن دين محمد أنه سيكون مقبولا وملائما لأوربا فى الوقت الحاضر . إن قساوسة القرون الوسطى إما لجهلهم المطبق وإما لتعصبهم الأعمى قد رسموا الدين الاسلامى بألوان سوداء مظلمة ،وكانوا فى الحقيقة قد تطبعوا على كره محمد ومقت دينه الحنيف ، لأن محمدا كان يظهر لهم أنه ضد المسيحية . أما أنا فقد درست الدين الاسلامى وشخصية محمد ، تلك الشخصية العظيمة اللامعة ، فوجدت محمدا بعيدا عما يلحقونه به من التهم . ويجب أن يسمى فى الحقيقة مخلّص الانسانية ومنقذها .

« إنى أعتقد أن رجلا مثله لو أخذ على نفسه قيادة شعوب العالم الحاضرة وكان حاكما مطلقا ، لتمكن أن يقود العالم أحسن القيادة ، ولتمكن من تسيير العالم نحو طريق السعادة ، وتمشيته نحو شاطىء العدل والسلام .

« إن أوربا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد ، وإنها بادئة فى عشق دينه وفلسفته ، كما أنها ستبرىء العقيدة الاسلامية عما اتهمت به من أراجيف رجال أوربا فى القرون الوسطى . سيكون دين محمد النظام الذى يؤسس عليه العالم دعائم السلام والسعادة ، ويستند على فلسفته فى حل المعضلات وفك المشاكل والعقد . إن كثيرا من مواطنى

ومن الأوربيين الآخرين يقدسون تعاليم محمد، ولذلك يمكننى أن أؤكد نبوءتى فأقول: إن بوادر العصر الاسلامى الأوربى قريبة لا محالة ».

الكلمة الختامية :

وآخر القول أن من شاهد أحواله صلى الله عليه وسلم، وأصغى الى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه وأفعاله وأحواله وعاداته وسجاياه، وسياسته لأصناف الخلق، وهدايته الى ضبطهم، وتألفه أصناف بنى الانسان وقوده إياهم الى طاعته، مع ما يحكى من عجائب أجوبته فى مضايق الأسئلة، وبدائع تدابيره فى مصالح الخلق، ومحاسن إشاراته فى تفصيل ظاهر الشرع الذى يعجز العلماء عن إدراك دقائقها فى طول أعمارهم، لم يبق له ريب ولا شك فى أن ذلك لم يكن مكتسبا بحيلة تقوم بها القوة البشرية، بل لا يتصور ذلك إلا باستمداد من تأييد سماوى وقوة إلهية، وأن ذلك كله لا يتصور لكذاب ولا ملبس، بل كانت شمائله وأحواله شواهد قاطعة بصدقه، حتى إن العربى القح كان يراه فيقول : والله ما هذا بوجه كذاب ! فكان يشهد له بالصدق بمجرد مشاهدته، فكيف من عرف أخلاقه ومارس أحواله فى جميع مصادره وموارده، لا سيما وقد علم أنه أمى لم يمارس العلم ولم يطالع الكتب ولم يسافر قط فى طلب العلم؟ فمن أين حصل له محاسن الأخلاق والآداب، ومعرفة الله تعالى وملائكته وكتبه وغير ذلك من خواص النبوة لولا صريح الوحى؟ ومن أين لقوة البشر الاستقلال بذلك؟ فلو لم يكن له إلا هذه الأمور الظاهرة لكان فيه كفاية. فما أعظم غباوة من ينظر فى أحواله، ثم فى أقواله ثم فى أفعاله، ثم فى أخلاقه، ثم فى معجزاته، ثم فى استمرار شرعه إلى الآن، ثم فى انتشاره فى أقطار العالم، ثم يمارى بعد ذلك فى صدقه وعلو منصبه الذى لم يصل إليه فيلسوف ولا نبى من أول تاريخ العالم الى الآن. وأمامك تواريخ العظماء والحكماء فاستعرضها واحدا واحدا. وما أعظم توفيق من آمن به وصدقه واتبعه فى كل ما ورد وصدر !

ولنجعل آخر كلمتنا هذه الحديث الذى روى عن عائشة رضى الله عنها :

قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة رضى الله عنها فسألتها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن .

فانظر الى مثل قوله : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون الخ » . « خذ العفو وأمر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين » . « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » . « واصبر وما صبرك إلا بالله الخ » . « ولَمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » . « ولْيَعفُوا ولْيَصفحوا ألا تحبون أن يغفرَ الله لكم والله غفور رحيم » . « ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىٌّ حميم » . « والكاظمين الغيظَ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » . « لا يسخَرْ قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهن » . « اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجَسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا »

ولنقهر القلم على ترك الجولان فى هذا الميدان عملا بمقتضى الحال ونظرا الى ضيق المجال ، ولندع القرآن يثنى عليه فى مثل قوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » . « وكان فضل الله عليك عظيما » . « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفى ضلال مبين » .

إذا الله أثنى بالذى هو أهله عليه فما مقدار ما تمدح الورى

أسأل الله أن يجعلنا من عارفى قدره ، المتمسكين بسنته ، المتشرفين بعظيم محبته بمنه وكرمه !

يوسف الدجوى
من جماعة كبار العلماء

محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

إذا احتفلت الأمم الحيـة بميلاد عظمائها لما قدموه لها من حسنات معـدودة ، وأسباب للسعادة محدودة ، فان منشأ هـذه الحفاوة هو ما أودع فيهم من سر العظمة ، وما عرف عنهم من معانى البطولة .

ولما كانت عظمة « محمد » صلى الله عليه وسلم لا ساحل لها ، وما أسداه للمجتمع يعدو الحصر ، وجب أن يكون له فى كل يوم عيد ، وفى كل طلعة شمس حفاوة ، لأن كل يوم قضاه فى هذه الحياة كان خيرا وبركة على العالم أجمع ، وكل لحظة مرت به وهو فى هـذه الدار قدم فيها للانسانية من ضروب السعادة ما برحت تنعم بثمارها ، ومن ألوان النعيم ما زالت تتقلب فى بحبوحتها . وإنى سائر بالقارئ على ناحية خصبة من نواحى هذه الشخصية العامرة بالعظمة ، ويكفيها جلالا أنها أبرز ناحية من نواحى العظمة الالهية التى تجلت بأبهى صورها فى هذه الشخصية المحمدية ، ولله در البوصيرى إذ يقول :

فمبلغ العـلم فيـه أنه بشر — وأنه خـير خلق الله كلهم

وهذه الناحية هى :

فى غـرب القارة الاسيوية رقعة من الأرض واسعة قاحلة ماحلة ، تغطيها رمال مترامية الأطراف ، تخترقها الجبال الممتدة من الجنـوب الى الشمال ، صهرتها حرارة الشمس المسلطة عليها آلاف السنين ، وصبغتها الايام والليالى بألوان مختلفة ، فمن جبالها جدد بيض ، وحمر مختلف ألوانه ، وغرابيب سود ، يقضى الانسان فيها حياته لا تقع عينه على نهر يجرى ، ولا على ماء إلا فى أعماق الآبار وساعة نزول الامطار .

يتوسط هذه الرقعة المقفرة بلد قديم يدعى « مكة » إذا علوت ظهر هذا البلد ، وصعدت النظر فيما حولك ، لا ترى إلا رمالا وجبالا ، وإذا سرت منها شمالا وجنوبا ، وشرقا وغـربا حتى أعياك السير الليالى والشهور ، لا يقع ناظرك إلا على ماهـو طبعى لا يد للصنعة فيـه ، فـلا مدارس ولا جامعات ، ولا معامل ولا مصانع ، ولا أثر للحضارة ولا معالم للعمران ، يقطن هذا البلد وما حوله أمة عربية ، نزحت اليه من عهد اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام .

انتصف القرن السادس الميلادى ، وهـذه الأمة العربية خامدة ، خاملة متفرقة متنابذة ، تتناهبها الفـرس والروم ، يسخرها كل منهما لأغراضه ، تخوض غمـار الفوضى ، وتضرب فى فيافى الجهالة ، لا تعرف للحضارة معنى ، ولا يربطها بالنظام سبب ، فـكل مظاهر الحضارة

بعيد عنها ، فلا نقود باسمها مضروبة ، ولا صناعة لها معهودة ، ولا قوانين تضبطها فى تسيير أمورها ، فكانت تتعامل بنقود الفرس والروم ، وتستعين ببضاعتهما حتى فى بناء الكعبة المقدسة ، وترى الصناعة عارا تتهاجى به فى خطبها وأشعارها ، وتخضع فى تسيير أمورها للغلبة والقوة ، فالرجل الذى يسودهم هو الذى يجمع بين الشجاعة والكرم والثروة والعدد .

جمعت تلك الأمة العربية الى ما تقدم انغماسا فى الفساد ، وسبحا فى الفوضى ، وانتها كا للحرمات ، وارتكابا لأفظع الجرائم ، دماء تسفك ، وأموال تسلب ، وفتيات على البغاء تكره ، وبنات صغيرات تدفن على الحياة تحت أطباق الرمال ، وتهالك على الخمور والميسر ، الى حد جعلهم يعدون البذل فى سبيلهما من دواعى الكرم والسخاء .

جمعت العرب الى كل هذه الفوضى فى تصرفاتها انتكاسا فى عقائدها ، تنحت من الجبال أحجارا بيدها ، وتنصبها فوق الكعبة آلهة تعبدها ، تنحر لها الذبائح ، وتقدم لها النذور والقرابين .

ومع أن المعروف المرتكز فى طبائع الناس ، أن الانسان لايعبد إلا من يرجو خيره أو يخشى عذابه ، فقد بلغ الجهل بهؤلاء القوم ، أنهم يأملون الخير ويخشون الضر فى قطعة من الحلوى ، يصنعونها تمثالا بأيدهم متى شاءوا وكيف شاءوا ، ثم يتقربون بها الى الله زلفى ، ثم يأكلونها إذا جاعوا .

فى النصف الأخير من القرن السادس الميلادى وفى هذا البلد « مكة » تزوج فتى من أشراف قريش يقال له عبد الله بن عبد المطلب ، بسيدة من كرائم القرشيات ، هى آمنة بنت وهب الزهرية ، ولما بنى بها لم يطل مقامه معها حتى رحل فى تجارة له الى الشام ، وبينما هو راجع وافته منيته بالمدينة ، وكانت امرأته تحمل فى بطنها جنينا قد مضى على حمله شهران .

وفى صبيحة يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول الموافق لعشرين من شهر ابريل سنة إحدى وسبعين وخمسمائة بعد ميلاد المسيح عليه السلام ، وضعت السيدة آمنة مولودا جميل الوجه ، أزهر اللون ، أدعج العينين ، أقنى الانف ، واسع الجبين ، فسيح الصدر ، ضخم العظام ، رحب الكفين والقدمين ، فشمل الفرح والسرور آمنة ومن حولها ، فأسرعت بارسال من يحمل البشرى الى جده عبد المطلب الذى كان جالسا بجوار الكعبة فى انتظار من يبشره بما يخفف عنه لوعة الحزن التى أصابته بموت ولده غريبا صغيرا ، وكانت سن عبد المطلب وقتئذ تبلغ مائة وست عشرة سنة ، فلما أن جاءه البشير ظهر السرور على وجهه ، وسرى ماء الحياة فى جسمه وقال : سموه « محمدا » .

وهو اسم لم تعهده العرب من قبل ، ولعله قصد بهذا الاسم الخير ، والتفاؤل بأن يكون

هذا المولود محل حمد الناس وثنائهم ، فحقق الله الذى أجرى هذا الاسم على لسانه تفاؤله ، ورزق هذا المولود الدرجة الرفيعة والمقام المحمود .

مكث محمد مع أمه ثلاثة أيام ، ثم استرضعته حليمة السعدية بنت أبى ذؤيب من هوازن المقيمة ببادية مكة ، فأقام مسترضعا فيهم نحو أربع سنين ، ثم رجع الى أمه معافى سليما .

وفى السنة السادسة من عمره عليه السلام ، ذهبت به أمه الى المدينة لزيارة أخوال أبيه بنى عدى بن النجار ، وبينما هى عائدة به أدركتها منيتها فى الطريق بالأبواء « قرية بين مكة والمدينة » .

فحضنته بعد امه جارية أبيه « أم أيمن » وكفله جده عبد المطلب . ولما بلغ من العمر ثمانى سنوات توفى جده عبد المطلب وكفله عمه أبو طالب ، وكان أبو طالب رجلا قليل المال ، فكان عليه السلام مدة كفالة عمه مثال القناعة والبعد عن الصغائر التى يتعلق بها الأطفال عادة ، قالت « أم أيمن » حاضنته : كان إذا قدم الطعام وتسابق اليه الأطفال رزينا عفيفا يقنع بما تيسر له .

ولما بلغت سنه اثنتى عشرة سنة وأراد عمه وكفيله أبو طالب السفر بتجارة الى الشام ، تعلق به عليه السلام ، وشق عليه فراق عمه ، فحن له قلب عمه واصطحبه معه ، وهذه أول رحلة له الى الشام ، ولم يطل فيها غيابهم كثيرا .

ولما بلغ خمسا وعشرين سنة سافر للشام للمرة الثانية ، وذلك أن خديجة بنت خويلد الاسدى كانت سيدة ذات شرف عظيم فى قومها ، وكانت غنية تتجر فى تجارة واسعة ، تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم فيه ، فلما سمعت عن محمد وأمانته وصدقه مالم تعهده فى غيره حتى اشتهر بين قومه بالصادق الأمين ، استأجرته ليخرج فى مالها الى الشام تاجرا ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ، فسافر مع غلامها ميسرة ، فباعا وابتاعا وربحا ربحا عظيما ، وتجلى لميسرة من أمانته عليه السلام وشدة محافظته على ما بيده من المال ، ما حببه الى قلبه ، وجعله يقص ما رأى على سيدته بعد عودته .

فرأت خديجة بصائب تدبيرها أن تتخذه لها زوجا ليكفيها تقلب مالها بين أيدى رجال قد لا تتوفر فيهم شروط الأمانة ، وكانت سنه حينئذ خمسا وعشرين سنة وسنها أربعين سنة ، فأرسلت اليه تخطبه لنفسها فقبل .

وذهب مع أعمامه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد ، فخطبها منه عمه أبوطالب ، وقد خطب عمه أبوطالب فى هذا اليوم فقال : « الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وأصل معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته ، وسواس حرمه ، وجعله لنا بيتا محجوجا ،

وحرما آمنا ، ثم إن ابنى هذا محمد بن عبد الله لا يوازن به رجل شرفا ونبلا وفضلا ، وإن كان فى المال مقلا فان المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مستردة ، وهو والله بعد هذا له نبأعظيم وخطر جليل ، وقد خطب اليكم رغبة فى كريمتكم خديجة ، وقد بذل لها من الصداق كذا وكذا». وعلى هذا تم العقد ، وصارت خديجة أرملة أبى هالة زوجا لمحمد بن عبد الله .

معيشته قبل البعثة :

لم يرث محمد صلى الله عليه وسلم من والده شيئا مذكورا ، فقد ولديتيما وعاش عائلا . ولما بلغ مبلغا يمكنه من أن يعمل عملا كان يرعى الغنم مع إخوته من الرضاع فى بادية بنى سعد ، ولما رجع الى مكة كان يرعى الغنم لأهلها على قراريط يأكل منها ، وهذا حال معظم الأنبياء من قبل : لايمدون أعينهم الى ما متع الله به أهل الدنيا ، حتى لايشغلون بها عن العادة الأبدية ، فهذا ابراهيم وعيسى عليهما السلام وزهدهما فى الدنيا معروف مشهور ؛ وهذا موسى قد قضى شطرا من حياته يرعى الغنم فى مدين بأجر معلوم . تلك حكمة الله فى أنبيائه لتكون حياتهم مثلا صالحا لأتباعهم ، فيعينون الضعيف ، ويشفقون على المريض ، ولا يتكالبون على الدنيا ، ولا يتناحرون على متاعها ، فتغرقهم فى بحار مصائبها ومحنها وبلاياها .

ولما شب وبلغ مبلغ الرجال كان يتجر ، وكان ممن شاركه فى التجارة « السائب بن أبى السائب » ، ولما تزوج خديجة كان يتجر فى مالها ، ويأكل من نتيجة عمله ، جمع كل ذلك الكتاب العزيز فى قوله : « ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » .

سيرته فى قومه قبل البعثة :

كان أحسن قومه خلقا ، وأصدقهم حديثا ، وأوفرهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش ، وأفضلهم مروءة ، شهد له بذلك ألد أعدائه بعد البعثة ، عندما اجتمع زعماء قريش ليتفقوا على تهمة يرمونه بها ، ليصرفوا الناس عنه ، فقال أحدهم : نقول عليه ساحر ، فقال النضر بن الحارث من بنى عبد الدار: « قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بماجاءكم قلتم ساحر ، لا والله ما هو بساحر» !

ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن رسول الله عليه السلام قائلا : «هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال » أجاب أبو سفيان «لا » فقال هرقل : « ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله » .

قد حفظه الله فى شبابه من كل أعمال الجاهلية المشينة ، وبغضت اليه الأوثان بغضا شديدا حتى كان لا يحضر لها عيدا .

وقد حدثنا عليه السلام عن نفسه فقال : « لما نشأت بغضت الى الأوثان ولم أهم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله » .

من كل هذا يتجلى لنا صورة واضحة عن حياته صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وسط هؤلاء القوم ، وهو فقير يتيم يقضي جل وقته في بطون الصحاري ورءوس الجبال وراء غنم يرعاها لأصحابها على أجريأكل منه ، زاهد في مجالس القوم ، بعيد عن لهوهم ، نافر من معبوداتهم ، منصرف بكليته الى ما يعنيه ، راغب عما لا يعنيه .

فلم يعرف عنه قبل الأربعين من عمره أنه خاض في نقاش علمي ، ولا عنى بجدل ديني ، ولا فاخر بشعر ولا نثر .

أعده مولاه لتحمل رسالته ، فنشأه بمكة الخالصة للعرب وحدهم بعيدا عن يثرب التي يبعث فيها الجدل الديني احتكاك المشركين بمن حولهم من اليهود ، فكانت حياته هادئة وادعة بعيدة عن عوامل التنافر والتباغض .

ولم يعهد في تاريخ البشر قديمه وحديثه أن شخصا يسلخ من عمره طليعته العامرة بالنشاط ، الحافزة الى التوثب وهو هادئ ساكن ، فاذا ما دخل في دور تفتر فيه القوى وتذبل فيه القرائح ينقلب فتى الفكر صائل العزيمة ، تتفجر منه ملكات جديدة في علوم شتى ومعارف عميقة الغور عويصة المباحث .

ولوضوح هذه الحجة في الدلالة على أنه رسول الله لا بطل عبقري فحسب ، عير الله المشركين بالغفلة عنها حيث أمره أن يجيبهم على قولهم « ائت بقرآن غير هذا أو بدله » بقوله « قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى الى » الى أن قال « فلقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون » .

وفطن لذلك البوصيري فقال :

كفاك بالعلم في الأمي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتم

نعم عند ما استوى على رأس الاربعين عاما من عمره فجأ العالم بما غير مجرى التاريخ وقلب نظام الكون .

فجأ قومه بما يغاير ما هم عليه ، ويخالف ما ألفوه ، فقابلوه بأشد ما عرف من أنواع الايذاء ، وقاوموه بكل ما يملكون من حول وطول ، وألبوا عليه حاضرهم وباديهم ، فكان صبورا قوى الصبر ، مؤمنا صادق الايمان . وستحدثك بعض مواقفه بما يجلي لك أن هذا موقف رجل موقن في دخيلة نفسه بما يقول ويفعل ، يستمد وحي ضميره من السماء ، لا موقف رجل مغامر يختلس النصر اختلاسا .

أنبأتنا الأخبار الصحيحة أن المشركين لما فتكوا بالمسلمين يوم حنين ، وذعر المسلمون

وفروا ، بقى هو وحده على بغلته يقودها أبو سفيان وهو يركضها نحو العدو ويقول : «أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب »

يجهر بذلك حتى سمعه المسلمون ، فرجعوا اليه وكانوا قد ظنوا أنه قتل .

فهل هذا موقف رجل كسائر الرجال ، أو بطل كبقية الأبطال ، أم موقف رجل لا يعرف غير إله السماء ، ولا يرهب غير رب العالمين ؟ جمع أعداؤه عليه جموعهم ، وصبوا عليه كل ما يستطيعون من إيذائهم ، فكان يقابل أذاهم بالصبر ، ويصفح عنهم ، ويستغفر لهم ، ويعتذر عنهم ، فقد أخبرتنا الاحاديث الصحيحة ، أن عمر بن الخطاب قال : «لما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وقد شج وجهه ، وكسرت رباعيته ، قلت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لقد دعا نوح على قومه فقال : «رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا » ، ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا عن آخرنا ، فلقد وطئ ظهرك ، وأدمى وجهك ، وكسرت رباعيتك ، فابيت أن تقول إلا خيرا ، فقلت : اللهم اغفر لقومى فأنهم لايعلمون» . وقد صحت الروايات أن غورث بن الحارث تصدى له ليفتك به وهو نائم فى حر الظهيرة تحت شجرة بعيد عن أصحابه ، وهم جميعا نائمون ، فأحس عليه السلام بحركة فانتبه فاذا برجل قائم على رأسه ، والسيف مصلت فى يده ، قائلا: مايمنعك منى يا محمد؟ فقال : الله ! فسقط السيف من يد الرجل، فتناوله عليه السلام وقال للرجل: ما يمنعك منى؟ فقال :كن خير آخذ ،فتركه وعفا عنه ، فرجع الرجل الى قومه يقول : جئتكم من عند خير الناس .

وحدثنا أنس بن مالك قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وعليه وسلم برد غليظ الحاشية ، فجذبه أعرابى بردائه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد فى صفحة عاتقه ، ثم قال : يامحمد احمل لى على بعيرى هذين من مال الله الذى عندك ، فانك لا تحمل من مالك ولا من مال أبيك ، فسكت عليه السلام ثم قال : المال مال الله ، وأنا عبده ، ويقادمنك ياأعرابى مافعلت بى ؟ قال : لا ، قال : لم ؟ قال: لأنك لا تكاوء بالسيئة السيئة ، فضحك عليه السلام ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر .

هذا الحلم والثبات والثقة بالنفس والدقة فى الحكم دليل على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ليس من عند نفسه ولا يد له فيه .

وإلا فأى عقل فى أى رأس يستطيع أن يتصور رجلا يأتى فى مدى ثلاثة وعشرين عاما كلها حروب وأسفار ، وتعب وآلام وأهوال ،لا يؤوب من سفر حتى يستلمه سفر ، لايكاد يرى النوم الهادىء ، ولا العيش الناعم ، ومع ذلك فهو رجل أمى من أمة أمية ، فقيرة مشتتة جاهلة متوغلة فى الجهالة ، رجل هذا حاله يأتى بما حير العقول ، وأعجز الفحول ، من يوم أن جاء الى يوم يقوم الناس لرب العالمين ؟ كل يوم تجتمع مجالس نيابية وتصدر تشريعات ، بعد تمحيص

وتدقيق من كبار المشرعين ، ورجال القوانين ، ثم لا تلبث عشية أو ضحاها حتى يعتريها الخلل ، ويعتورها الفساد ، ويظهر فيها من العيوب ما يوجب محوها ، وإبدالها بغيرها ، وهكذا دواليك .

قانون يبطل قانونا ، وتشريع يقوم على أنقاض تشريع ، وشرع محمد ثابت لا يتغير ، وقانونه راسخ لا يتحول ، تتكسر تحت أقدامه قوانين الانسان ، وتتحطم على صخرته تشريعات البشر ، تدور كلها حوله ثم ترجع صاغرة اليه ، وتزهو مرتفعة ثم ترتمى بين قدميه .

وهاهى تلك شريعة شامخة تقارع العقول فى أوج قوتها ، وتتحدى الأفكار فى عز نشأتها ، فى كل باب من أبواب الحياة ، وفى كل لون من ألوان الأخلاق والعادات ، وفى كل ناحية من نواحى الاجتماع .

فبينما تراها تنظم العلاقة بين الخالق والمخلوق ، فاذا بها تشرح واجب المرء نحو نفسه ، ونحو أهله ، ونحو زوجه وولده ، ثم نحو المجتمع كله ، لم تترك فضيلة إلا طلبتها ، ولا رذيلة إلا حظرتها .

هذا هو محمد صلى الله عليه وسلم ، صاحب هذه الرسالة ، التى لم تقتصر على طائفة دون طائفة ، ولا على المسلمين دون غيرهم ، بل تناولت روابط المسلمين بغيرهم من جميع الملل والنحل ، مما يجعل هذا النبى الكريم مبعوث الانسانية ، ورحمة العالمين ، ويتيح لكل فرد من بنى الانسان أن يقرأ فى صحيفة هذا النبى الكريم أسمى المبادئ ، وأنبل المقاصد ، وأشرف الغايات .

جاء خاتم النبيين ، وأرسل للناس كافة ، فدعا الى الاخاء والسلام ، وحبب الى الناس المودة والوئام ، فكان مع خصومه مثلا أعلى للانسان الكامل .

فيايها الناس ، اذكروا هذا النبى الكريم ، واستعرضوا حياته وسيرته . لتخرجوا منها بما ينفعكم ، فكلها دروس وعظات ، ويأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

عبد الجليل عيسى أبو النصر
شيخ معهد دسوق

محمد صلى الله عليه وسلم

وهل تنسى عظمته ؟

في شهر ربيع الأول من عام ٥٧٠ لميلاد المسيح عليه السلام ، وفي مكة من قرى بلاد العرب ، ولد « محمد » من أبوين كريمين ، يتصل نسبهما بنبي الله اسماعيل ، وقد مات أبوه عبد الله بن عبد المطلب وهو في بطن أمه آمنة بنت وهب ، لم تنفخ فيه روح الحياة ، ومكث بعد ولادته الى السنة الخامسة من عمره في بني سعد حيث كانت ترضعه حليمة السعدية ، وبعد أن عاد من الصحراء ارتحلت به أمه الى المدينة ، ومكثت به شهرا في ضيافة بني النجار أخوال أبيه عبد الله ، وقد أراد الله ألا يطول أمد اتصاله بأمه كي لا يشتغل قلبه بالأمومة ، كما لم يشتغل قلبه بالأبوة ، فانتزعها منه أثناء أوبتهم الى مكة ، وهكذا نشأه ربه معتمدا على نفسه ، خالى القلب من شواغل الأبوة والأمومة ، متفرغا لما يفاض عليه من حب مولاه .

تولاه الله برعايته ، وصنعه بيده ، آواه من يتم ، وأغناه من عيلة ، وهداه من ضلال وحيرة ، وما زال يغمره بالفضل والاحسان ، حتى بلغ أشده واستوى في أفق الانسانية الأعلى ، وتهيأت نفسه البشرية لتلقى الرسالة العامة التي ختمت بها رسالات الحق الى الخلق ، فأرسله الله رحمة للعالمين ، أرسله بالحق بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، ارسله بدين أساسه الايمان بالله واليوم الآخر ، وقوامه مكارم الأخلاق وصالح العمل « يأيها المدثر ، قم فانذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر »

ظل بعد ذلك بمكة يدعو الى التوحيد ، وعقيدة البعث والجزاء ، ونبذ ما كان عليه الآباء : من الشرك والوثنية ، وسوء الخلق ، وقبيح العادات ، وما كان له من سلاح في تلك الدعوة إلا سلاح الحكمة يغزو بها القلوب ، والموعظة الحسنة يهذب بها النفوس ، ويلطف الطباع .

ولما رأى أن الدعوة لا تتغلغل في النفوس كما يحب ويريد ، وأن موقف المكيين منه وتعصبهم لموروثاتهم ، قد يكون له من النتائج الخطيرة مالا يتفق ونجاح دعوته ، هاجر هو وصحبه الى المدينة ، وقد سبقهم اليها أريج الدعوة ، وتخللت هناك قلوبا عاهدته على أن يمنعوه مما يمنعون منه الأنفس والأبناء والأعزاء . هاجروا اليهم ضما للصفوف ، وتوحيداً للكلمة ، وجمعا للقوى المتحابة في الله . هاجروا اليهم التماسا لوسائل العزة والنصر ، ونزوعا عن مواطن القهر والاذلال :

وفي الارض منأى للكريم عن الأذى   وفيها لمن خاف القلى متحول

وهناك ابتدأت لدعوته حياة جديدة ، أخذت تغزو الناس في عقر دارهم ، وتتابع الوحي

من السماء بالقانون الذى ينظم تلك الحياة ، التى سلخ فى بنائها وتنظيم تشريعها مدة حياته فى المدينة ، وقد أقر الله عينه بثمرة جهاده ، ورأى كلمة التوحيد تعمل عملها فى عناصر الشرك ، وتعفى على مظاهر الضلال والبهتان ، وأنزل عليه فى محكم الكتاب : «اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام دينا » .

هذا هو محمد صلى الله عليه وسلم الذى جرت سنة المسلمين بعد قرونهم الأولى أن يحتفلوا بميلاده فى هذا الشهر من كل عام ، يذكرون الناس بشمائله التى فطر عليها ، وعرف بها فى أهله وقومه ، يوم أن كان غلاما حدثا يرعى الغنم ؛ ويوم أن كان شابا جلدا يحضر مع أعمامه حرب الفجار ، وحلف الفضول ؛ ويوم أن كان رجلا مكتملا وافر العقل ، يرتحل فى تجارة خديجة بنت خويلد ، ويرضاه القوم حكماً فى النزاع الذى شجر بينهم فيمن يضع الحجر الأسود فى موضعه من البيت ؛ ويوم أن كان ناسكا متحنثا يفر من ظلمات الدنيا ، ويلتمس الانس بربه ؛ ويوم أن كان داعيا الى الله مبشرا من أجاب ، ومنذرا من أبى ؛ ويوم أن كان قائدا يتقدم الصفوف ، ويتقى به أصحابه ، ويتلقى النبال والقذائف ، ويوم أن كان حاكما لا يعرف الجور ولا المحاباة ؛ ويوم أن كان هاديا مرشدا يتعهد الناس بالحكمة والموعظة .

وقد أتى على المسلمين حين من الدهر لا يفكرون فى إقامة حفل خاص يذكرون فيه الناس بشمائل رسولهم ، ولابجهات عظمته التى تجلت فى هذه الأطوار كلها ، ذلك لأن عظمته لم تكن عندهم فى مكان هذه العظمة التى تالفها الأمم فى نوابغها وأفذاذها ، ويخشون عليها الموت أو التلاشى فى صحف الأيام الماضية ، وإنما هى عظمة قارة فى نفوسهم ، منقوشة فى قلوبهم ، لها من الآثار ما أدهش العالم فى حياته ، وما بقى بعد مماته يتغلغل فى العالم ، ويسرى فى أرجائه وأعماقه ، حتى أرغم الخصوم فى العهدين على الاعتراف بها والاغتراف من سلسبيلها ، عظمة لم يقتصر أثرها على جانب من جوانب الحياة مهما عظمت ، ومهما تنوعت ، بل لم يقتصر على حدود هذه الحياة ، بل مد سلطانه إلى الحياة الآخرة ، وكشف للناس عن حجب غيبها ، وصور لهم ما سيجدون فيها من نعيم أوشقاء .

ليست عظمته صلى الله عليه وسلم من عظمة الملوك الجبارين ، الذين يستعذبون أنين الانسانية واستعباد الخلق وإذلالهم ، فلقد خرج ذات يوم على أصحابه يتوكأ على عصاه ، فقاموا له إجلالا واحتراما ، فقال لهم : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم ، يعظم بعضها بعضا .

ودخل عليه رجل ، فأصابته رعدة من هيبته ، فقال له : هون عليك ، فانى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش ، كانت تاكل القديد .

وليست من عظمة القواد الطاغين الذين يفسدون فى الأرض ، ويسفكون الدماء ، ولا يرون السعادة إلا فى الفتك بالضعفاء ، والتخريب والتدمير ، وترويع الآمنين ، فلقد دخل مكة

وبيده جميع أسباب النصر والقوة ، ولم ينس ما أصابه فيها ثلاثة عشر عاما من كيد وتنكيل ، فلم يحضره شيء من صلف الفاتحين ، أوجبروت المنتصرين ، ولم تعرف ثورة انتقام الموتور ، وقد أيد بالقوة من كل جانب ، سبيلا الى قلبه الذى امتلأ رحمة وعطفاً ، وشفقة وكرما ، يدخل مكة فاتحا وأعلام النصر تخفق فوق رأسه ، مطأطئا حتى تكاد تمس رأسه قادمة الرحل ، ثم يجلس بعد أن يؤمن الناس ، ويجلس حوله صناديد قريش ، وهم الذين آذوه وأخرجوه من داره بغير حق إلا أن دعاهم الى توحيد خالقهم ، وإعلان إنسانيتهم ، يجلسون بعيون شاخصة ، وقلوب واجفة ، ينتظرون ما هو فاعل بهم ، وأى عذاب يصب فوق رءوسهم ، ويعرف ذلك فى وجوههم ، ويقرؤه واضحا فى جباههم ، ويسمع خفقات قلوبهم ، واصطكاك مفاصلهم ، فيهدئ روعهم ، ويقول لهم : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ فيقولون بلهجة من يستدر العطف والرحمة : أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فيقول لهم تلك الكلمة الخالدة : اذهبوا فأنتم الطلقاء ! تلك هى العظمة التى تنطفئ ببردها وسلامها عظمة نيران المدافع ، وتذوب أمامها قوة العسف والطغيان .

وليست من عظمة الأغنياء الموسرين الذين يستكبرون فى الأرض بغير الحق ، ويمنعون حق السائل والمحروم ، ثم هم يسخرون عباد الله فى شهواتهم وأهوائهم بشىء من حطام الدنيا الزائل ، فقد كان عليه الصلاة والسلام زاهداً فى الدنيا ، قلا فى المال ، ومع ذلك كان أجود من الريح المرسلة . جاءه رجل من جفاة الأعراب ، ومعه بعيران ، فلما دنا منه جذبه بردائه جذبة شديدة أثرت بها حاشية البرد فى صفحة عنقه ، ثم قال له : يا محمد : احمل لى على بعيرى هذين من مال الله الذى عندك ، فانك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك ! أتعلم ماذا كان موقف الرسول من هذا الأعرابى الذى جاء يلتمس منه الاحسان ؟ قال له صلى الله عليه وسلم : نعم يا أعرابى ، المال مال الله ، وأنا عبده ، سنعطيك ما طلبت ، ويقاد منك ما فعلت ، فقال الأعرابى : لا ، فقال النبى : ولم ؟ قال : لأنك لا تكافئ السيئة بالسيئة ، ولكن تكافئ السيئة بالحسنة ، فتبسم النبى صلى الله عليه وسلم وأمر أن يحمل له على أحد بعيريه شعير ، وعلى الآخر تمر ، فساقهما الأعرابى ، وانصرف شاكراً لله ، ولرسول الله ، وهكذا كان خلق الرسول صلى الله عليه وسلم « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة، كأنه ولى حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا ، ومايلقاها إلاذوحظ عظيم».

إن العظمة التى تعرفها الأمم لأفذاذها ، وتقيم لها الذكريات ، لا تعدو فى غالب أمرها أن تكون من هذا الجبروت الغاشم الذى يتخذ من أرض الشعوب الهادئة ودیانا يملؤها بدماء البشرية البريئة ، ومن أجسامهم أشلاء تتراكم بها طبقات الأرض ظلما وعدوانا !

وإذا قدر لأمة أن يكون لبعض أبنائها حظ من العظمة الحقة النافعة ، فهذا الحظ لا يتجاوز

جانبا من جوانب هذه الحياة ، ومع ذلك لا يلبث أن يزول ، أو يغشيه حظ آخر من نوعه ، أو من نوع سواه هو أشد اتصالا أو ملاءمة لحياة الأمة المتطورة .

أما عظمة محمد ، فهي عظمة رحمة وعطف ، عظمة هداية وإرشاد ، عظمة تثقيف وتهذيب ، عظمة إصلاح وتعمير ، عظمة سلم وأمان ، عظمة تهيئ للحياة الفاضلة عاداتها ، وتعبد لها سبلها .

لا أريد أن أحدثك عن عظمته الخلقية التي نشأ فيها ، وشب عليها ، واعترف بها من لا يؤمن به ، فقد تحدث عنها كثير ، وإني أخشى إذا تحدثت بشيء منها أن يقول من ينكر فضل الله ، ويلحد في آياته البينات : عظمة طواها الدهر ، وماتت بموت صاحبها . وإنما أريد أن أتحدث عن تلك العظمة الأخرى التي سايرت آثارها الدهر ، واستقرت في صفحة الخلود ، وأخذ العالم يستمد منها غذاء حياته الروحية والاجتماعية ، هذه العظمة التي تتمثل آثارها في تلك التعاليم التي وحدت بين قلوب متنافرة ، وربطت بين قبائل مبعثرة ، فهذبت من خشونتها وخففت من غلوائها ، وكونت منها أمة مهيبة الجانب ، عزيزة المنال ، عظيمة الأثر ، ذات شخصية ثابتة ، ونظام محكم متين ، استطاعت أن تسوس به شعوب الارض على دعائم قوية من الحكمة والعدل .

هذه التعاليم التي فوجىء بها قوم تمكنت فيهم عوامل الفساد في الأرض ، وحرفوا الشرائع وعبدوا غير الله ، ونسوا يوم البعث والجزاء ، وتحكم قويهم في ضعيفهم ، وانحلت أخلاقهم ، واستباحوا الدماء والأعراض والأموال ، حتى ماد العالم ، واضطربت أركانه ، وتزعزعت عناصر الحياة فيه ، وما هي إلا صرخة الحق عن طريق محمد حتى ملا الايمان قلوبهم ، وتبادلوا العطف والمحبة ، وسادت الرحمة فيما بينهم ، وتبدل شرهم خيرا ، وفسادهم صلاحا ، وأصبحوا بنعمة الله إخوانا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

هذه التعاليم التي أطلقت للعقل البشرى حريته ، ومكنته من السلاسل والأغلال ، وأهابت به أن يتقلب في بديع الكون ، وظواهر الطبيعة ، وينتفع بما أودع فيها من أسرار ومنن ، وأنحت باللائمة الشديدة على التقليد ، وعابت الجمود والتعصب للوراثة « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون »

هذه التعاليم التي سوت بين الذكر والانثى ، والحاكم والمحكوم ، وقررت أن الناس سواسية ، وأنه لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، ونظرت الى الشعوب والقبائل نظرة واحدة ، وجميعهم في ثوب واحد ، لا تفاضل فيه ولا تفاوت ، وهو ثوب الانسانية الشامل .

هذه التعاليم التي قررت مبدأ حرية العقيدة ، وأنه لا سلطان لمخلوق فيها على مخلوق ، وقالت : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها » .

هذه التعاليم التى قررت حق التشريع وتولية الحاكم وعزله للامة صاحبة الشان يتولاه أهل الحل والعقد من أبنائها « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » . « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه الى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

هذه التعاليم التى ما تركت فضيلة إلا حثت عليها ، ولا رذيلة إلا حذرت منها ، ولا أصلا من أصول التشريع الحى الناهض إلا قررته ، وطالبته من الناس شرعا يسعدون به فى الدنيا ، ودينا ينعمون به فى الآخرة .

هذه التعاليم التى كانت شفاء ورحمة للعالم ، وغرست بذور الخير فى نواحيه ، وانتشلت الانسانية من كبوتها ، وسمت بها الى المكانة اللائقة بها — هى آثار العظمة المحمدية ، وهى كما ترى آثار عامة النفع ، خالدة الشأن . وإن عظمة هـذه نتيجتها لا يليق بجلالها ، ومكانة التدين بها أن تنسى من القلوب ، وأن تذهب من النفوس روعتها ، حتى تحتاج فى إحيائها وتجديد ذكراها الى محافل تقام ، وخطب تلقى ، وفصول تكتب !

بهذا امن الأوائل من المسلمين يوم أن كان الايمان قويا ، والشعور بخلود تلك العظمة حادا ، فبذلوا نفوسهم فى ترسم خطاها ، والجد فى نشرها ، والعمل على انتفاع الانسانية بها ، فكانت جميع أيامهم ذكرى لتلك العظمة ، وكانت حركاتهم وسكناتهم ألسنة من نور ، ترسم فى صفحة الوجود العام .

هذه عظمة محمد بن عبد الله ، ولكن لما ضعفت النفوس ، وناءت القلوب بحمل الأمانة ، هان تقدير تلك العظمة ، ووضعوها فى مستوى تلك العظمات الأخرى التى حدثناك عنها ، وظنوا أنها من نوعها ، فكرموها بصور وأساليب ابتدعوها ، وأطلقوا عليها اسم « الاحتفال بالمولد النبوى » ، واتخذوه عيدا من أعيادهم يجتمعون له ، ويتذاكرون فيه سيرة النبى العظيم ، ولم يمنعهم حياء من أن ينعتو ذلك بأنه قصة « المولد الشريف ! » وما كان لعظمة محمد ان تكون قصة ، وما كان لسيرته أن تنسى ، وما كان لآثارها أن تغفل عنها القلوب وهى تؤمن بالله واليوم الآخر .

إن التكريم الحق ، والذكرى الصحيحة لهذه العظمة ، إنما يكون ببث حكمه وآدابه ، ونشر تعاليمه وأحكامه ، والتشمير عن ساعد الجد فى إقامة حدوده وشرعه ، حتى يضمحل الشر ، ويعظم الخير ، وتتحقق إرادة الله فى العالم « ربنا آتنا من لدنك رحمة ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا » !

محمود شلتوت
وكيل كلية الشريعة

محمد خاتم النبيين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتا فاحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة ، وأنا خاتم النبيين » رواه البخارى .

حقا لقد كان محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه اللبنة الأخيرة من البيت الذى بنى بوساطة الأنبياء السابقين ، وكان من أجل ذلك خاتم النبيين . وما دام محمد هو اللبنة الأخيرة من ذلك البيت ، وما دام خاتم النبيين ، فليكن ما أتي به من إصلاح ، وما نزل عليه من تشريع هو الاصلاح الذى لا ينتظر أن يعقب باصلاح ، وهو التشريع الذى يصلح مرجعا للأجيال المقبلة ، والأزمان المتعاقبة .

لذلك لم يدع طائفة من طوائف الأمة إلا أصلحها ، ولا جماعة إلا رسم لها طريق سعادتها . أصلح الحاكم والمحكوم ، أصلح التاجر والصانع ، أصلح جماعة الأغنياء والفقراء ، صلح الأسر التى تتكون منها البيوت ، وفيها الرجل والمرأة ، والأولاد والخدم .

فتراه يرغب ولاة الأمور فى العدل ، وينهاهم عن الظلم : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا » يطلب الى الحكام أن يسووا بين الأفراد والجماعات فى تطبيق القوانين ، وأن لا يفرقوا بينهم فى الحقوق التى يجب أن يتمتع بها الناس على السواء ، حتى لا يحملك بغض رجل من الناس ، أو هيئة من الهيئات ، على أن تحول بينهم وبين حقهم الطبعى « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »

ولو أن الناس انتفعوا بذلك الاصلاح المحمدى ، الذى يضبط النفوس ، ويحول بينها وبين الشهوة ، فأنصفوا خصومهم كما ينصفون أنصارهم ، لكان حالهم أحسن من ذلك الحال الذى تراه . وهل هناك تشريع أعدل من تشريع يوجب عليك أن تدع الخصومة الشخصية جانبا ، وتعطى خصمك من الحق ما هو أهل له ؟ هل هناك تشريع أحكم من تشريع يحرم عليك أن تساير العاطفة ، حتى لا تتغلب على العقل والمصلحة ، وبذلك تكون قواما بالقسط ، شاهدا بالحق وللحق ، وإن كان موقفك هذا فى غير مصلحة آبائك وذويك ؟ « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين »

إن تشريعا هذا حاله ، يقدس الحق ولو لم يكن فى مصلحة النفس أو الآباء والأقارب ،

ويمتهن الباطل ، هو تشريع يجب أن يبقى ويدوم ، وهو التشريع الذى سعد به المسلمون زمنا طويلا ، وشهد لهم من أجله خصومهم أيام فتحهم ، حتى قال قائلهم : « لم تر الأرض فاتحا أعدل من الاسلام » . ولعلهم عائدون إليه بعد أن قتلتهم الشهوات ، وفرقتهم الأهواء والاحن ، وذاق بعضهم بأس بعض .

وكما أوجب الله على الحاكم أن يعدل بين رعيته ، أوجب على الأمة أن تكون عونا للحاكم على إقامة صرح العدل ، وحرم عليها أن تمهد له سبيل الظلم ، وتعينه على الباطل : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » . وروى أبو داود والترمذى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : « يأيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » .

وحسبك فى التنفير من التعاون مع الظالم قول الله تعالى : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » .

أما إصلاحه لجماعة التجار فتراه فى أكثر من موطن من القرءان الكريم : « أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين . وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ، ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما . ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا ، وكان ذلك على الله يسيرا » . فترى القرءان الكريم يتوعد آكلى أموال الناس بغير حق نارا ، ويبيح لهم أن يتجروا بالمال تجارة أساسها الرضا والصدق ، ثم تراه يرينا الحكمة من ذلك النهى ، إذ يقول : « ولا تقتلوا أنفسكم » لأن أكل أموال الناس بالباطل ، وتخريب بيوتهم قتل لأرباب الأموال ، وإذا لم يكن قتلا فهو طريقه الموصل إليه . ولأجل أن يريك أن الأمة متكافلة فى الخير والشر ، وأن العدوان على بعضها عدوان على الجميع ، حتى إن القاتل لأخيه كالقاتل لنفسه ، وهو أسلوب من أساليب تبشيع الجرائم ، لأجل ذلك يقول : « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما » . وأى تشريع أرحم من تشريع يباعد بينها وبين ذلك الشر على النحو الذى ترى ؟

أما إصلاحه للصانع فحثه على الصدق ، وترغيبه فى الأمانة . وفى الحديث « من حمل علينا السلاح فليس منا ، ومن غشنا فليس منا » رواه مسلم .

أما جماعة الأغنياء والفقراء فقد تعجب كيف وضع الدين لهما الدواء ، ونصح لهما بطريق تضمن لهما السعادة ، لأن الفتنة بالمال عظيمة ، فصاحب المال من شأنه أن يطغى ، وصاحب المال من شأنه أن يترفع به عن الفقراء والمعدمين ، وقد يغريه غناه أن يصرفه فى محاربة ربه

وخالقه ، وصاحب الفضل الأول عليه ، ومن أجل ذلك كان المال فتنة وابتلاء ، وكان محكا للنفوس يعرف به طيبها من خبيثها « إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم » .

ولا تقل الفتنة بالفقر عن الفتنة بالغنى ، فكثيرا ما تصل بصاحبها الى السخط ، وتوقعه فى الهلكة ، فلا يرضى قسمة ربه ، ولا نظام مولاه ، وقد يحرمه الصبر والرضا فتزل قدمه ، وينهار إيمانه . فالمال فتنة وابتلاء للحاصلين عليه ، وهو كذلك فتنة للفاقدين له « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » .

جاء خاتم النبيين والابنة الأخيرة من البيت النبوى ، فنصح الى جماعة الأغنياء أن يبذلوا شيئاً من المال هو الزكاة ، ليطهر بذلك البذل نفوسهم ، ويمرنهم على السخاء ، فان النفوس إذا ألفت الشح هلكت ، فأضاعت المصالح ، وعطلت المرافق ، فكان من رحمة الله بالغنى أن يصبح رجلا صالحا للحياة ، إذا دعى الى بذل ماله فى سبيل الخير أجاب ، وإذا اشتبك مع بعض قراباته فى تركة خلفها له أبوه خضع لقسمة الله فى المواريث ، وتعفف عن الدنايا التى يرتكبها بعض الناس لحرمان أخته من ميراث أبيه .

لم تقف آثار الزكاة عند ذلك الحد من تطهير نفوس أصحابها من الشح ، بل هى الى ذلك تستل من نفوس الفقراء والمعوزين حنقهم على أرباب الأموال ، وحسدهم للأغنياء ، فيصبح الغنى محبوبا للفقير ، والفقير خادما للغنى ، يحرس ماله لأن له نصيبا فيه .

وإن الناس يقاسون اليوم من شرور الشيوعية الممقوتة ما لا يقف عند حد ، لأنهم لم يرضوا بالاشتراكية المعقولة التى شرعها الله بالزكاة ، فكان عاقبة أمرهم أن سلط الله عليهم من يقض مضاجعهم ، ويزعجهم فى حياتهم ؛ وتطرف بعض الشعوب فاستولى على رءوس الأموال ، وأخذ يحارب الاستئثار بالثروة ، ويجعلها حقا شائعا للناس ، ونسى أن ذلك من شأنه أن يميت الروح المعنوى فى العامل ، ويقضى على غريزة تنازع البقاء ، والتنافس فى الحياة .

وقد فطنوا لشرور ذلك العمل ، فأخذوا ينظمونه ليصلوا الى ما يزعمون من سعادة ، وهيهات هيهات لما يؤملون ! فان السعادة فيما شرعه له الله ، وفى أن تبقى لكل عامل نتيجة عمله ، وفى أن تصير الحياة ومرافقها حقاً شائعاً يتنافس فيه الناس بمقدار ما تهيئوا له من أسباب ووسائل « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون » .

فأنت ترى كيف تناول ذلك الاصلاح المحمدى جماعة الأغنياء والفقراء ، أما الأغنياء فاصلاحهم بالبذل ، وتطهير نفوسهم بالعطاء ، وحفظ أموالهم بالسخاء .

وأما الفقراء فاصلاحهم بحفظ حياتهم ، والحيلولة بينهم وبين إراقة ماء وجوههم .

وهناك إصلاح آخر لجماعة الفقراء، هو تعهدهم بالترضية، وترويض نفوسهم على القناعة، وعدتهم بان الصابر له من الجزاء عند الله ما هو أهل له، ولئن حرم لذائد هذه الحياة فلن يحرم لذائذ الدار الآخرة.

ولولا ذلك الاصلاح الروحى وأثره فى نفوس الفقراء والمعوزين لانقلبت هذه الحياة جحيما على الكثير من الناس، وشقيت بها المجموعة الانسانية الى حد كبير. فمن فضل الله على البشر إيمانهم بذلك الوعد الالهى، وثقتهم بذلك النعيم الدائم، وأملهم فى الآخرة وما أعده الله لمن لم تهيىء له ظروفه فى هذه الحياة أن ينعم بما نعم به غيره. من فضل الله تعالى ذلك الاصلاح المحمدى الذى أصلح به الغنى كما أصلح به الفقير.

أما إصلاحه للأسرة فحسبك أن الله تعالى يقول فى شان كل من الزوجين: « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة» فيرينا أن للرجل من الحقوق على زوجه مثل ما للمرأة على زوجها من الحق فى حدود المعروف عند الناس فى معاملاتهم ومعاشراتهم، والدرجة التى للرجال هى درجة الرياسة المفسرة بقوله تعالى: «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم».

فلم يدع الحياة الزوجية بدون رئيس يرجع إليه عند الخلاف، واختار الله الرجل لرياسة البيت لأنه أعلم بالمصلحة، وأقدر على التنفيذ بقوته وماله، ومن أجل ذلك كان هو المطالب شرعا بحماية المرأة والانفاق عليها.

وروى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته: الامام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع فى أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته — قال: وحسبت أن قد قال: والرجل راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته، وكلكم راع ومسئول عن رعيته».

ولو أن الناس عملوا بهذه النصائح، وقام كل بما أوجبه الله عليه من زوج وزوجة وولد وخادم، لصلحت البيوت، وبصلاحها تصلح الأمة، ولكنهم لم يقدروا ذلك الاصلاح قدره.

وفقنا الله لما يحبه ويرضاه!

محمد أحمد العدوى

من نفحات النبوة

في صحيح البخارى من حـديث هرقل : « وكان ابن الناطور صاحب إيلياء وهرقل سقفا على نصارى الشام يحدث أن هرقل حـين قدم إيلياء أصبح يوما خبيث النفس ، فقال بعض بطارقته : قد استنكرنا هيئتك ! قال ابن الناطور : وكان هرقل حزاء ينظر فى النجوم ، فقال لهم حـين سألوه : إنى رأيت الليـلة حين نظرت فى النجوم ملك الختان قد ظهر ، فمن يختتن من هذه الأمة ؟ قالوا : ليس يختتن إلا اليهود ، فلا يهمنك شأنهم ، واكتب الى مداين ملـكك فيقتلوا من فيهم من اليهود ، فبينما هم على أمرهم أتى هرقل برجل أرسـل به ملك غسان يخبر عن خبر رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فلما استخبره هرقل قال : اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا ؟ فنظروا اليه ، فحدثوه أنه مختتن ، وساله عن العرب ، فقال : هم يختتنون ، فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر » .

ملك العـرب قد ظهر ، فلا قيصرية الروم فى عظمتها وسلطانها ، ولا كسروية الفرس فى أبهتها وجبروتها ، تسوق لها العناية الالهية هذا الملك ! بل تسوقه للعرب ، تلك الأمة المنزوية فى زاوية من الدنيا بعد أن طالت عليها الأحقاب فأنستها تاريخها ، وبدلتها به حياة من الفوضى الاجتماعية والاضطراب ، فنسيها الزمن وأهمل وجودها من ذكرياته ، فلا يعرف عنها جيرانها أخص عاداتها ، وأعرف مميزاتها ، كأن لم تـكن على صفحة الوجود . يقول هرقل لأصحاب دولته : فمن يختتن من أهل هـذا العصر ؟ فيقولون له : ليس يختتن إلا اليهود ! فاين أمة العرب ؟ هم لا يعرفونها ، أو هم لا يأبهون لهـا ، لأن الحديث حديث ملك يرث دولة القياصرة ، وملك الأكاسرة ، وأين يقع العرب من ذلك ؟

ظهر ملك العرب ! فأين جحافله ؟ وأين عدده وعديده ؟ وأين أسلحته وأساطيله ؟ وأين أريـكته وعرشه ؟ وأين ملوكه وسواسه ؟ وأين صولته وعظمته ؟ لا شيء ، إنما هى الصحراء القاحلة الجرداء ينتثر فيها جماعات من الناس انتثار حبات الجزع انفرط عقدها ، والملك إنما يقوم على قواعد من القوى المتماسكة للجماعة المنظمة ، والمـال المتراكم فى الخزائن ، والجيوش الجرارة ، والعلم والمعرفة يشيعان فى طوائف الأمة ليرفعاها من حضيض الجهالة الى مستوى الرقى الفـكرى ونظام السياسة ، وأنى للعرب شيء من ذلك ؟

ظهر ملك العرب ! فليتجه الفلك فى دورته اتجاها جديدا ، وليقف التاريخ ليملى على الحياة درسا جـديدا فى نظام الجماعات وتاسيس الملك ، وليطو تلك الصفحات البالية التى سئمت الحياة أحاديثها عن ملك القهر والجبروت ، ودول المـلوك والعبيد ، والسيد والمسود ، والذل

والاستعباد ، والظلم والاستبداد ، وليبدأ فى صفحات الخلود ، وأحاديث المثل الأعلى ، وليتحدث عن ملك الرحمة والعدل ، الناس فيه سواسية كأسنان المشط إنما يتفاضلون بعمل الخير والبر والتقوى ، فقد تجاوزت الانسانية سن الطفولة ، وبلغت أشدها ، واستوت أفكارها ، واكتملت عقولها ، واستعدت استعدادا جامعا لتلقى كلمة السماء لتعيش بها على الأرض عيشة الملائكة فى أثواب البشر ، حتى يكون كل فرد منها فى حقيقته إنسانا بروح ملك .

ظهر ملك العرب ! وكأنما جعل الله هذه الأمة الفطرية فى حياتها عنوانا على الانسانية فى مرحلة كمالها ، فاختيرت لتكون أفقا لشمس النبوة الخاتمة إيذانا بكمال فطرتها ، وكأنما كانت عزلتها عن العالم فى جزيرتها إبقاء على إنسانيتها أن يقتلها الترف والاستعباد ، وهما أدوأ الأدواء ، وأفتك الأمراض الاجتماعية بالامم ، إنما مثلها مثل الخامة من الذهب الابريز فى باطن الأرض ، فما هو إلا أن تتناوله أيدى الصاغة المهرة لتفتنه بالصهر حتى تزول عنه أدران منبته وأوضار بيئته ، فيخلص جوهره وتصفو طبيعته .

ظهر ملك العرب ! وطلع نجم النبوة الخاتمة : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض » لتبطل مقاييس الناس فى الماضى ، وتوضع لهم مقاييس جديدة ترجح بها كفة العقل الانسانى ، ويقوم على أساسها ملك من الحق والعدل ، والعلم والاخاء والسلام .

وى كأن الله تعالى أفرغ العرب فى هذه المرحلة من تاريخهم الجاهلى عن هذه الفلسفات الدينية ، والديانات الفلسفية ، والنظم الاجتماعية والسياسية، ليبقيهم على فطرتهم خالصة من تعقيد العقائد ، والتواء التفلسف ، فلم تكن لهم مجوسية الفرس ومزدكيتهم ، ولا أقانيم الروم وتثنيتهم ، ولا نظريات اليونان وفلسفتهم ، بل كانت لهم ديانات وعقائد ، وضروب من التدين تقليدية لا تقوم على شبهة من علم أو تفكير ، تلقفوها تلقفا ، أو ورثوها إرثا كما يرثون عن آبائهم المال ، وكان أكثرها انتشارا تلك الوثنية الوضيعة ، وهى أظهر العقائد بطلانا وسخفا ، فلا تحتاج فى إزالة أثرها وتحويل النفوس عنها الى دين الحق أكثر من النظر الحسى ، وتحريك العقل ، ولهذا كان القرآن الكريم فى حجاجه لهم يتهكم بهم ويزرى بعقولهم « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه » . ولم يكن لهم جدل منطقى فى الدين ، ولا كانت لهم حجة يستندون عليها فى عقائدهم غير التقليد « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » . وكان أكثر ما صدهم عن قبول الحق فى مبدأ أمرهم العصبية الجاهلية ، والجهل بسنن الله تعالى فى شرائعه واختيار أنبيائه ورسله : « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » كأنهم حسبوا النبوة من جنس مراتبهم البشرية لا ينالها إلا العظماء

وأهل الثراء الواسع ، والجاه العريض ، فرد الله عليهم زعمهم بقوله عز وجهه : « أهم يقسمون رحمة ربك » وأفهمهم أن شأن النبوة والرسالة شأن إلهى لا كسب فيه للانسان ، فقال : «الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون »

ظهر ملك العرب ! وبعث الله تعالى خاتم أنبيائه من أشرفهم بيتا ، وأطهرهم عرقا ، وأعزهم أرومة .

إذا اجتمعت يوما قريش لمعشر ... فعبد مناف سرها وصميمها
وإن حصلت أنساب عبد منافها ... ففى هاشم أشرافها وقديمها
وإن فخرت يوما فان محمدا ... هو المصطفى من سرها وكريمها

وقد نشأ الله تعالى نبيه أكرم تنشئة ، ورباه أفضل تربية ، وأدبه أحسن تأديب ، فجنبه أمور الجاهلية كلها ، وحبب اليه الخير ، وأكرمه وعظمه وكمله فى خلقه وخلقه ، وأثنى عليه بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

عرف الله تعالى قبل نبوته ببصيرته ، فعبده بالتفكر فى آياته ، والتدبر فى جلال مصنوعاته ، واعتزل قومه وهجر أعيادهم ، وتعبد لربه حتى كمل سنه أربعين سنة ، فاوحى اليه شريعة الاسلام ، والاسلام فى أصوله شريعة جميع الأنبياء والمرسلين « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ». وإنما تختلف الشرائع فى الفروع والسياسات وما به إصلاح الخلق اختلافا يقوم على أساس استعداد الأمة لقبول التشريع والعمل به ، وأن يكون لذلك التشريع أثر فى إنهاضها وإصلاح حالها فى عقيدتها وأخلاقها وتفكيرها بقدر ما يوائم فطرتها وعقلها ، والشريعة المحمدية خاتمة الشرائع السماوية ، فهى جامعة لخيرى الدنيا والآخرة فى كل زمان ومكان ، ولكل جيل وقبيل ، قامت على تصحيح العقيدة بتوحيد الله تعالى توحيدا خالصا لا تشوبه شائبة إشراك : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » . وسلكت لذلك طريق إيقاظ العقل وتحريره من رق التقليد ، وإرشاده الى مواطن الاستدلال بالنظر فى الكون وبدائعه ، وما فيه من آيات تنطق بجلال الله وتفرده بالخلق والتقدير :

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

ولم يعتمد القرآن الحكيم على أساليب المناطقة من المتفلسفة ، بل خاطب الناس فى وضوح موجها نظرهم الى آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة

فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وقامت الى جانب تصحيح العقيدة وإحسان الصلة بالله تعالى بانواع العبادات المطهرة لأدران النفوس على دعائم الأخلاق الفاضلة توثيقا لروابط المحبة بين الخلق : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم » . ولما نزل قول الله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » سأل النبى صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إن ربك أمرك أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك . وكان رسول الله يقول فى دعائه : اللهم كما حسنت خلقى فحسن خلقى . وقد جعل تتميم مكارم الأخلاق أساس بعثته وقاعدة رسالته ، فقال فى حديث الموطأ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » . وانظر الى التعبير بقوله أتمم وما تجد فيه من اللطف الذى يشعرك بأن الاسلام لا يغمط الفطرة الانسانية حقها ، ولا ينكر عليها ما فيها من خير ، ولكن هذا الخير الفطرى لا يؤتى أكله إلا إذا خلص من طغيان الشر عليه . والذى يتأمل تاريخ الانسانية على عهد البعثة المحمدية يعلم علم اليقين أن الشر استشرى وسد منافذ الحياة ، ولم يعد للخير سبيل الى النفوس ، فجاءت البعثة المحمدية لتحيى فى الفطرة الانسانية أصول الخير وتتمم مكارم الأخلاق . قال العلامة جوستاف لوبون فى كتاب حضارة العرب : « إن التعاليم الأخلاقية التى جاء بها القرآن هى صفوة الآداب العالية وخلاصة المبادئ الخلقية الكريمة ، فقد حض على الصدقة والاحسان والكرم والعفة والاعتدال ، ودعا الى الاستمساك بالميثاق والوعد والوفاء بالذمة والعهد ، وأمر بحب الجار وصلة الرحم وإيتاء ذى القربى ورعى الأرامل والقيام على اليتامى ، ووصى فى عدة مواضع من آيه أن تقابل السيئة بالحسنة ... تلك هى الآداب السامية التى دعا اليها القران ، وهى أسمى بكثير من آداب الانجيل » .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى فى سمو الخلق وجمال الفضائل ، تقول عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا ، ألين الناس ، بساما ضحاكا » وروى أصحاب السير « أنه صلى الله عليه وسلم كان فى سفر فأمر أصحابه باصلاح شاة ، فقال رجل : يا رسول الله على ذبحها ، وقال آخر : على سلخها ، وقال آخر : على طبخها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وعلى جمع الحطب . فقالوا : يا رسول الله نكفيك العمل ، فقال : قد علمت أنكم تكفوننى ، ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه » . ودخل عليه أعرابى فارتاع لهيبته ، فقال له : « خفض عليك فانما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » . فهل تعرف الانسانية ضريبا لمحمد صلى الله عليه وسلم فى كمال خلقه ؟

دع ما ادعتــه النصارى فى نبيهم　　　واحكم بمـا شئت مدحا فيه واحتكم

قال سير وليم موير : امتاز محمد صلى الله عليه وسـلم بوضوح كلامه ويسر دينه ، وأنه أتم من الأعمال ما يدهش الألباب ، فلم يشهد التاريخ مصلحا أيقظ النفوس وأحيـا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة فى زمن قصير كما فعل محمد صلى الله عليه وسلم !

ظهر ملك العرب ! ولم يكن للعرب من وسائل الملك إلا هـذا الدين القويم ، فأشربت نفوسهم تعاليمه وآدابه ، وراحوا يبثونها للناس فى مشارق الأرض ومغاربها ، جاعلين العدل مع العدو والولى شعارهم ، والرحمة مع الـكافة دثارهم «يأيها الذين آمنوا كونوا قـوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى» حتى ضرب الدين بجرانه ، وقام على قواعده ملك لم تغب عنه الشمس . قال الـكونت هنرى دى كاسترى : إن أتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) هم الذين جمعوا بين المحاسنة فى معاملة المغلوبين والرغبة فى انتشار دينهم ، وهذه الرغبة هى التى دفعت العرب الى الفتوحات ، فنشر القرآن رايته خلف جيوشه المظفرة ، ولم يخلفوا فى طريقهم أثرا للجور .

واحر قلباه !! أين ملك العـرب ؟ إنهم سلبوه ، لأنهم لم يحسنوا سياسته ، ولم يحفظوا دينهم الذى أسس لهم ذلك الملك ، فأضاعوا فيما بينهم تعاليمه وآدابه ، فلم يستمسكوا بغرزه ، ولم يعملوا بوصاياه :

أعطيت ملـكا فلم أحسن سياسته　　　كذاك من لا يسوس الملك يخلعه

قال هرقل فى مساءلته لأبى سفيان : وسألتك بمـا يأمركم ، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فان كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين !

كذلك كان أساس الملك فى الصدق والعـفاف والاخلاص لله تعالى ، والعمل الجاد فى كل ما تتطلب الحياة من شئون ، فهل يدرك المسلمون هـذه الحقيقة فيحيوا حياة الجد والعمل والخلق الطاهر حتى يعود اليهم مجـد أسلافهم ؟ عندئذ يصح أن نهتف بمـا هتف به هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر ! !

صادق ابراهيم عرجون

فى ظلال الاسلام

(١)

تفضلت مجلة الأزهر فدعتنى الى كتابة كلمة تتصل بالمولد النبوى ، فنظرت فرأيتنى أفرغت كل ما عندى من هـذه المعاني فى كتاب « المدائح النبوية فى الأدب العربى » الذى نشرته مكتبة الحلبي ، ورجعت أنظر فيما عندى من قـديم المحصول فرأيتنى كما قال الحريرى ، خالى الوفاض ، بادى الأنفاض ، وتلك حال تضجر النفس وترد الخاطر وهو كليل .

ولـكن ما الذى يقهرنى على الطواف حول المولد النبوى ؟ أنا أكتب الى مجلة ، والمجلات يحسن فيها التنويع والتشكيل والتلوين ، فلأتوكل على الله وأكتب عما صنع الاسلام فى إعزاز العقل ، والدعوة الى طهارة الوجدان :

(٢)

الاسلام يدعو الى إعـزاز العقل ، وهى ليست دعوة كلامية ، وإنما هى دعـوة عملية ، فالاسلام هـو الذى سن طرائق المنطق فى الجدل ، وعلم الناس كيف ينكرون ويعـرفون ، وكيف يضلون ويهتدون ، هـو الذى دعا الناس الى درس أنفسهم ، وحبب اليهم السير فى الأرض ، والنظر فى طبائع الأشياء .

لقد اصطدم الاسلام باليهودية والنصرانية ، أفتدرون ما صنع بالتوراة والانجيل ؟

ارفعوا عن أعينكم تلك الغشاوة التى توهمكم أن الرسول كان يتودد الى النصارى واليهود .

ارفعوا عن أعينكم تلك الغشاوة ، فان الرسول انتصر فى زمن قليل ، ولم يبق أمامه إلا التشفى من النصارى واليهود ، إن كان الاسلام يسمح لأهله بمكايدة المنهزمين .

انظروا فى القرآن ، أيها الناس ، فان فعلتم فسترونه تحدث عن موسى وعيسى وعن التوراة والانجيل بأساليب من الرفق لم يعرفها النصارى ولا اليهود .

إن موسى لم يثن عليه اليهود بمثل ما أثنى عليه القرآن ، وعيسى لم يثن عليه النصارى بمثل ما أثنى عليه القرآن . فما معنى ذلك ؟ أليس معناه أن الاسلام دين المنطق والعقل ؟ أليس معناه أن المعانى الباقية هى أول ما يحرص عليه القرآن ؟

كان يستطيع القرآن أن يسخر من الديانة اليهودية والديانة النصرانية ، ولـكنه لم يفعل ، لأن القرآن لم يكن إلا نفحة سماوية تعز الحقائق وتنصر المرسلين .

(٣)

ثم انتقل الرسول الى جوار الرفيق الأعلى ، وبقى المسلمون ينظرون بعيون الناس ، ويفقهون بقلوب الناس .

أتذكرون ما صنعوا ؟

لقد كانوا يملكون الغض من اليهودية والنصرانية ، ولكنهم لم يفعلوا ، لأن دينهم حبب اليهم كلمة الحق ، وأوصاهم بحب الأنبياء .

انظروا فى مؤلفات المسلمين لتروا كيف أثنوا على موسى وعيسى ، وكيف اقتبسوا من التوراة والانجيل .

انظروا ثم احكموا .

إن رجال الدين من النصارى واليهود لا يذكرون الاسلام فى مؤلفاتهم بغير الملام ، أما المؤلفون من المسلمين فلا يذكرون موسى وعيسى بغير الاعزاز والاجلال .

أكان ذلك يقع لو كان الاسلام راض أهله على عقوق العقل ؟

(٤)

آمنت بالله !

إن الاسلام حين يوصى باحترام جميع الأنبياء والمرسلين إنما يشير الى حقيقة أبدية هى التعاون الانسانى على تطهير القلوب من أدران الشرك والرياء .

الاسلام أكبر من أن يقول إنه صنع كل شىء ، فهو يعترف بأنه ليس إلا خطوة سديدة موفقة تؤيد ما جاهد فى سبيله كرام الأنبياء من حرب الشرك ونصرة التوحيد .

وقد فهم المسلمون روح الدعوة الاسلامية ، فأقبلوا على درس ما وصل اليهم من آثار العقول ، ثم انطلقوا فاختلفوا فيما بينهم اختلافا شديدا ، وأغنوا العلم والفلسفة بألوف من المصنفات ، ولا يعرف العالم القديم أمة أوغلت فى الفلسفة على نحو ما صنعت الأمة الاسلامية ، وظل علماؤها وباحثوها يذكرون بالخير ، وإن أطافوا بمعالم الشك وتنكروا لأصول اليقين .

حارب الاسلام كيف شئت ، وخاصم أهله كيف أردت ، ولكن ثق أنك مردود اليهم ما دمت تحتكم الى العقل !

(٥)

قد تقولون : ولكن تاريخ الاسلام لم يخل من أحداث حورب بها العقل .

نعم ، ولكن هل وعدكم القرآن بأن الناس سيأ تلفون على الزمان ؟

إن القرآن نفسه دعا الى احترام الخلاف حين قال :

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

وحين قال :

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم » .

وتلك دعوة صريحة الى احترام الخلاف ، وفيها النص على إعزاز العقل ، فلولا الخلاف ما تقدم الناس فى دنيا ولا دين .

(٦)

أما بعد : ففى ظلال الاسلام تصاولت المبادئ والآراء والعقول .

وفى ظلال الاسلام اختلف أهل الشرق والغرب ، فكانت النحل والشيع والأحزاب .

وفى ظلال الاسلام نهضت دعوات جريئة لو نبتت فى غير حماه لقوبلت بالسيف .

وفى ظلال الاسلام عاشت ديانات حمتها رعايته من الانقراض .

وتحت الراية الاسلامية عاش الزنادقة والملحدون والسفهاء ، لأن الاسلام فى صميم روحه يحترم حق الحياة ، وفى الحياة شك ويقين ، وهدى وضلال .

فان كان فى إخوانى من يخاف على عواقب ما درجت عليه من قسوة الجدل وعنف النضال ، فانى أوجه اليهم هذا القول :

لا تخافوا على أيها الرفاق ، فانى أعيش فى ظلال الاسلام !

زكى مبارك

حسن الاعتذار عن الاصحاب

حكى عن بنت عبد الله بن مطيع أنها قالت لزوجها طلحة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى وكان أجود قريش فى زمانه : ما رأيت قوما ألأم من إخوانك !

قال طلحة : مه ، ولم ذلك ؟

قالت : أراهم إذا أيسرت لزموك ، وإذا أعسرت تركوك .

قال طلحة : هذا والله من كرمهم : يأتوننا فى حال القوة بنا عليهم ، ويتركوننا فى حال الضعف بنا عنهم .

كيف نحيي المولد النبوى ؟

يوم هز جبروت الدنيا الكافرة ، أفلا تهز ذكراه قلوب مسلمين ؟

(١)

على هدى الذكرى ، تشيم عيون البصيرة ، ومآقى القلوب ، نور النبوة ، فاذا طهر أطهر ، وبهاء يبهر ، ونبل يغمر . هذا سنا السماء ، قد محا ظلام الغبراء ، وإنها للمحة يلمحها الحديد البصر ، ونفحة يتنسمها الملهم الحذر . فيأيها الشعراء بالحياة ، عشاق النور ، أولياء الحق ، هذا نعيم النفس فاغتبطوا ، ثم ما هذا النور المتألق ؟ ما هذا الجمع المتدفق ؟ أكلهم يهيم ويشيم ؟ واخجلتاه ! إنما هى جفان الثريد المترعة ، وبضع اللحم المشرعة ، وأقداح الشراب المروقة ، تتحلب لها أشداق ملتهمة ، وتضاحكها أفواه شرسة . هذا اهتزاز الممسوسين ، واختلاج الممرورين ، وخداع الأفاكين ، يصطنع أكثرهم دل الصوفية ، ويتصنع سمت الصالحين . هذه أعلام لا للكتائب ، ومراكب ليست من النجائب ، وجموع لا لحول ولا لصول ، ولا لخير من عمل أو قول ؛ لكنها داهية البطون الدهياء ، وفتنة الأوهام العمياء . وهكذا فى دنيا الكهرباء ، وأسرار الكون مجلوة ، ودقائق العلم مفترعة ، والحياة متلهفة متطلعة ، مناضلة مكافحة . يبتهج المسلمون على هذا النحو ، بذكرى سر النهوض ، وإكسير الغلبة والظفر ، وميلاد الدين والدولة والحضارة والمدنية ، فى شخص محمد عليه صلوات الله وسلامه . فأعذنا اللهم من شر خذلانك !

(٢)

حدثوا أننا تجددنا ، فرحنا نجدد قصة المولد ، نلتمس موقع الحقيقة من التاريخ ، ونصيب الحق من الرواية ، لنقول رشدا ، ونؤيد صوابا ؛ عفا الله عنا ! هل فهمنا ذكرى المولد ، ووجدنا ريح النبوة ؟ ليت ذلك يكون !

وإنى لأسوق هنا حديثا قديما معادا ، يفهم منه الحديث الأخير المجدد ؛ فقد حدثوا أنه لما ولد عليه السلام ، خرج معه نور أضاء له مابين المشرق والمغرب ، فاضاءت له قصور الشام وأسواقها ، وقد رأى العباس رضوان الله عليه ، بعد أكثر من نصف قرن هذا النور ، واستضاء به ، مرجعه من غزوة تبوك ، إذ أراد مدح الرسول عليه السلام ، فقال :

وأنت لما ولدت أشرقت الـ ... أرض وضاءت بنورك الأفق
فنحن فى ذلك الضياء وفى النـ ... ـور وسبل الرشاد نخترق

أما والله لقد كان نورا سارت الدنيا على ضوئه ، واخترقت سبل الرشاد بهديه ؛ فلن يهول الحق أن يقال : سقطت شرفات الايوان لذلك المولد ؛ ففى الحق أن قد سقط الايوان كله بعد حين بذلك المولد . ولن يضير التاريخ أن يقال : خمدت نار فارس بهذا المولد ؛ ففى التاريخ أن قد امحت نار فارس بعد يسير بذلك المولد ؛ وكذلك يأبى المؤرخ المدرك سنن الله فى كونه أن يرد الأحداث لساعتها، ويعللها بأقرب مما يا شرها ؛ وفى مثل هذا من إدراك السبب الصحيح ، والأصل الأول ، يتفاضل الدارسون ، ويتفاوت المفكرون .

وما إخال هذا القديم من حديث النور فى شعر العباس ، إلا أحدث مايفهم به سر التاريخ وعلل الأحداث .

فهل نفهم المولد على ضوء هذا النور؟ وهل نحيي المولد على هدى ذلك النور ؟ !

(٣)

ألا لو أنا ندرك البعيد بالقريب ، ونقيس الغائب على الشاهد ، ونحس وراء ظواهر الدنيا حقائق تسيرهذه الظواهر ، ونواميس تتحكم فى هذا المتبادر ، لأدركنا النور النبوى إدراك العباس له ، وفسرناه تفسير العباس له ، ولأدركنا من قرب أن الشرق قاصيه ودانيه ، قد ألهته ظواهر الكون ، وخفيت عنه معانيه ، ولشعرنا أننا اليوم فى أضيق ممابين حجرى الرحى ، وأقطع من شق المقص ، وما هو إلا نفس غاز خانق ، وآخر محرق ؛ فاذا نحن حديث فى التاريخ ، وعبرة لمن يدرك الحياة ، ويشعر بمكانه فيها .

لو أدركنا هـذه الأسرار التى أحاطها الاسلام فى حياته الأولى حقائق ، وردها وقائع ، لأنفنا وأكبرنا ، وخجلنا وامتعضنا ، من أن يكون إحياؤنا لذكرى المولد النبوى الذى هز أركان الجبروت فى الدنيا ، لا تكفى لتهز قلوبا تزعم الايمان وتراض بالاسلام .

لو أدركنا أن وراء السطح معانى ودقائق ، لأحللنا يوم المولد أجل من يوم عطلة ، ولعبة حلوى ، وقصعة ثريد ، وثريا نور ، وخرقة ملونة ، وهزة مجذوب ، وموكب ذكر ، وموسم نكر . وأن نترك بعض ذلك والسائغ منه للأطفال والسذج والأغرار . فأين من إحياء هـذه الذكرى نصيب المفكرين الكبار ، والمجاهدين الأحرار ؟ !

(٤)

ألا إن هذا المولد ذكرى ميلاد دين ، وأول حياة دولة ، ومشرق حضارة ، ومطلع حرية ، وبشرى اتحاد كلمة ، واجتماع شمل ، وتكون أمة .

وما للشرق اليوم من ذلك كله قل ولا كثر ، فهل يلتمس عقلاؤه مواسم لمولده الجديد ، ومبعث عزه العتيد ، أجل وأسمى ، وأقرب الى القلوب من موسم ذلك المولد !

فمتى ينتهى إحياء الكبار لهذا المولد وذكراه الى عمل يوائم جلالته ، ويلائم عظمته ؟

ومتى نتناول الحياة تناولا جديا ، ونتنظر اليها نظرا عمليا ، ونعرف موقف الاسلام ورسالته فيها ؟

متى نستشعر عظمة تلك البطولة ، ونكبر تقاليدها ، ونقتبس من نورها ، وندرك أنها إنما كانت إحياء للحياة ، وتسييرا للدنيا ، فيكون إحياؤنا لعيدها مظهر إدراك سرها ، وآية فهم لبابها ؟

متى نوقن أن الاسلام خطة فى الحياة ، وشرعة للمجد ، وسبيل الى العزة ، فمواسمه جولات فى الحياة ، وأعياده محافل للمجد ، وذكرياته مظاهر للعزة ؟

متى يكون إحياؤنا للمولد ، إن قولا ، فقول نافع ، لا لغو ذاهب مع الريح ، قول يزيد ثروة المعرفة ، فهو مثلا قول فى تأليف ناضج يقدم يوم المولد عن دور من أدوار حياة الرسول عليه السلام ، أو تاريخ عصر من عصور تلك الحياة ، أو درس لجانب من جوانب عظمة تلك الشخصية ، فيظهر فى ذلك اليوم فيمنح جائزة تجمع ما تفرق من جهد رجال القول اللاغى ، والصحافة الثرثارة ، فى تكرار أقوال معادة مملولة ، ليس فيها جديد ولا بينها مفيد ؟

ومتى يكون إحياؤنا للمولد ، إن عملا ، فعمل من الاحسان المنظم ، يصرف ما يبدد فى الهواء من أموال الاحتفاء الساذج بهذا المولد ، فى موضع الحاجة من حياتنا ، ويسد عوزنا ، من الصحة ، والخلق ، والدين ؟ لقد ولد عليه السلام يتيما ، فما أجمل أن يكون مولده مفتتح منشأة تقى اليتامى وتستحييهم ، وترد على الأمة ضائع نبوغهم واستعدادهم . وعاش عليه السلام فقيرا يجاهد للفقراء ، فما أجمل أن تكون ذكرياته عملا فى مطاردة الفقر ، وتاسيس معاقل القضاء عليه ، وصون ما يبدد من جهد ، وعقل ، وخلق ؟ فكذلك تحيا الذكر ، ويخلد الأثر !

ثم متى يكون إحياؤنا لمولد الأمة والدين والحضارة إحياء لجانب من وجودنا ، وإعدادا لما نستطيع من قوة ، ومن رباط الخيل ، نانى به عوادى الدهر ، وأحداث الزمن ، وجور الظلم ، فنبتهج فى تلك الذكرى بما هو خليق بها من خطا جديدة فى مسيرنا نحو الغاية النبيلة التى كان مولد الرسول عليه السلام الخطوة الأولى فى الاتجاه إليها ؟!

ثم متى يكون هذا المطلب فى إحياء المولد خطة عاملة ، يؤيدها عزم أولى العزم منا ، وتفيض عليها بركة البطولة المحمدية ، وقوة الارادة النبوية ؟!

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

أمين الخولى
المدرس بكلية أصول الدين

أساس الرقى فى الاسلام

إننا نحب العظماء ، ونمجدهم ، ونحيي ذكراهم ، لأنهم ذوو نفع للانسانية ، عاشوا لأجلها وماتوا لأجلها .

ونحن نحب سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ونمجده ، ونعد يوم مولده عيدا نحتفل به لأنه أخرج العالم من الظلمات الى النور ، ووضع بذور الخير والبركة فى الأرض ، وسن من أصول التشريع فى الأخلاق والاجتماع ما على مثله تحيا الأمم ، وترقى الشعوب .

وقد تحرى المسلمون فى العصر الأول التاسى به ؛ والعمل بارشاده ، فسعدوا ، وكانت لهم عمارة الأرض ، ثم تنكب الخلف من بعدهم طريقه شيئا فشيئا ، فبعدوا من الخير والسعادة بمقدار بعدهم عن ذلك السبيل القويم .

وإن خير مايسديه المحتفل بميلاده الى أمته أن يعمد الى سنة من سننه قد درست فيحييها ، والى هدى من هديه قد ضل الناس عنه فيهديهم اليه .

وقد أخذت نفسى بهذا ، وأردت أن أنشر من هديه صلى الله عليه وسلم أبعده أثرا فى إصلاح المجتمع ، وأعظمه بركة فى سعادته .

أردت أن أدرس هديه صلى الله عليه وسلم ، وأعرضه على علم الاجتماع ، وتاريخ الامم والشعوب ، فأعثر على ذلك الأكسير الذى لما أخذ به الأولون من أهل الاسلام كانت لهم العزة فى الأرض ، ولما تنكبوا عنه ضلوا عنها أو ضات عنهم .

لقد اهتديت بعد لأى الى ذلك الاكسير الذى هو سر عظمة الأمم قديمها وحديثها ، ورأيت محمدا لم يغفله ولم يهمله ، بل رأيته قد علمه وحض عليه ، وكانت سنته القولية داعية اليه ، وسنته الفعلية مثالا حيا له ، ليستفيده الناس بالعلم والعمل ، ويتمكن فى نفوسهم فضل تمكن ، فيمكن لهم بذلك فى الأرض .

لن أختزن ذلك الاكسير ، ولن أضن به ، بل سأبينه وأذيعه ، فان أمم الشرق أحوج ما تكون اليه الآن .

ذلك الهدى : هو الرفق بالناس ، وترك الشدة عليهم ، ومعاملة بعضهم بعضا باللين والعدل .

وسأوضح أثر هذه المعاملة فى الممالك والمجتمعات ، وأثر ضدها السيىء فى الناس ، وأذكر معاملة النبي أصحابه وما ورد فى ذلك ، وأبين أن المسلمين كانوا بخير حينما ساروا على هذه السياسة الرشيدة ، فلما أخذوا عنها يمينا ويسارا أخذ عنهم الخير يمينا ويسارا .

ليس شىء أشد ضررا بالأمة ، ولا أضعف لها ، وأدعى الى انحلالها وزوالها ، من معاملة بعضها بعضا بالشدة والقهر والغلب .

ذاك لأن الشـدة والقهر والعنف تضعف النفوس ، وتميت فيها العزة والكرامة ، وتخلق فيها المذلة والهوان ، وإذا وجدت هذه فى الأمة أو فى الأفراد لم تسم نفوسها الى جليل ، ولم تضطلع بخطير ، وكانت حقيرة فى نفوسها هزيلة الأمل ، ولا سؤدد لحقير فى عين نفسه ، ولا عمل لمن فقد الأمل .

فاذا عامل الرجل زوجه ، والوالد أولاده ، والمربى تلاميذه ، والرئيس مرءوسيه ، والوالى من ولى عليهم ، وكل ذى سلطان من سلط عليهم ، بالقهر والشدة ، أفسدوا نفوسهم ، وأذلوهم ، وقتلوا فيهم روح الاعتداد بالنفس والعزة والكرامة ، وهى عدة الفرد والجماعة فى هذه الحياة .

فاذا رأيت شعبا يسير على هذه الخطة فاعلم أنه يحفر قبره بيده ، وأنه يسىء الى نفسه بما لا يقدر أعدى أعدائه أن يسىء به اليه .

وليس شىء أصلح للأمة وأنفع لها وأدعى الى قوتها وبقائها من معاملة بعضها بعضا بالرفق واللين والعدل ، لأن ذلك يقوى نفوسهم ، ويحيى فيهم الكرامة والعزة والاعتداد بالنفس ، والمرء إذا وجدت فيه هذه الصفات سمت همته ، وبعد أمله ، ورأى نفسه ليس يبعد عليه شىء فى الحياة ، وعمل ما يمليه عليه سمو همته ، وبعـد أمله ، وقوة إرادته ، وعاش شخصا قويا مستقلا يقوم بنفسه ، ويأبى أن يكون ظلا لأحد أو محمولا على غيره .

فاذا رأيت الوالد يعامل بنيه بالرفق واللين فاعلم أنه يبنى منهم رجالا أشداء أقوياء أعزاء . وكذلك قل فى المربين والرؤساء والولاة .

هذه قواعد علمتها الأمم العالمة ، فسلكت سبيل النجاة ، وجهلتها الأمم الجاهلة ، فسلكت سبيل الفناء .

وإنى لأستعرض حياة أمم أوربة اليوم ، فأجد الأمة منهم يعامل كل ذى سلطان فيها من هم تحت يده بالرفق واللين ، وأجـدهم يحفلون باستقلال المرء بنفسه ، فيفـرطون فى كل شىء ولا يفرطون فيه ، لذلك حفظت للمرء فيهم ذاتيته كاملة ، واستتبعت هذه الذاتية بعد ذلك آثارها كاملة .

تجد المربى فيهم لا يأخذ المتعلم بالعنف ، إنما يحبب إليه العلم والأخلاق الفاضلة ، ويخلق فى نفسه القوة المحركة الى طريق العلم ، والخلق الفاضل ، فيسعى اليهما من ذاته راغباً مشتاقا ، تحدوه المحبة ، ويبعثه الأمل .

ولا يسلك الى ذلك سبيل العنف والشدة ، لأنه يعلم أنه يفقده بذلك شجاعته واستقلاله

وكرامته ، فيكون مايعطيه بعد ذلك أقل بكثير مما أفقده ، ثم هو بعد ذلك لايتحرك إلا بمحرك خارجى ، فاذا ونى ذلك المحرك أو فقد ، زالت كل بواعث الخير والصلاح التى كانت تحدوه إليهما .

وإنى لأستعرض تاريخ الأمم الاسلامية فاجد فى أولها العزة والمنعة والظفر والانتصار ، لأخذها بمبدأ الرفق والشفقة ، فلما أضاعت هذا المبدأ وعامل الوالد أبناءه بالشدة والغلظة ، وعامل المربون تلاميذهم بالقهر ، وعامل كل ذى سلطان من ولى عليهم بالغلبة ، عملوا على إفساد بعضهم بعضا ، وبلغوا من أنفسهم مالم يبلغه منهم أعداؤهم ، وصاروا الى ما صاروا اليه .

وليست تعاليم أوربا بأشد حرصا على الرفق واللين وأكره للغلظة والشدة من تعاليم الاسلام ، فان الاسلام كان يعلم ما فى الشدة والقهر من شر ، ويعلم ما فى الرفق من خير ، فشدد النكير على الشدة والقهر ، وحض على الرفق واللين ، ولكن المسلمين أضاعوا تعاليم دينهم ، فبعدوا عن الخير بقدرما بعدوا عن هذه التعاليم .

قال الله تعالى : «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » ، فامتن على المؤمنين بأن من أرسل اليهم رءوف بهم رحيم ، لعلمه بما فى الرأفة والرحمة من الخير لهم ، وليعلى من قدر الرأفة والرحمة ، ويحضهم عليها .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كانت بيده جريدة يتسلك بها ، ويروع بها المنافقين ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ما هذه الجريدة التى كسرت بها قرون أمتك وملأت قلوبهم رعبا ؟

لم يرض للمسلمين أن تكون بيد رسولهم جريدة ، لئلا يملأ قلوبهم رعبا ، ويكسر قوتهم ، فلا يصلحوا للاسلام ولا لأنفسهم ، فأى والد بعد ذلك يروح ويغدو على أولاده بالقهر والشدة ؟ إنه لا يفعل ذلك إلا من أراد إفسادهم ، وكسر حدتهم ، وإماتة قلوبهم .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا الى القصاص من نفسه فى خدشة خدش أعرابيا لم يتعمده ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يامحمد إن الله لم يبعثك جبارا ولامتكبرا ! فدعا النبى صلى الله عليه وسلم الاعرابى فقال : اقتص منى . فقال الاعرابى : قد أحللتك بأبى أنت وأمى ما كنت لأفعل ذلك أبدا ، ولو أتيت على نفسى ! فدعا له بخير .

وإنما كان منه ذلك ليعلم المسلمين أنهم سواسية ، وأنهم متساوون فى الحقوق ، وأن أعراضهم ونفوسهم وأموالهم حرام بعضهم على بعض لايحل لهم شىء من ذلك إلا فى حق من حقوق الله .

وذكر ابن سعد فى الطبقات الكبرى فيما أوصى به رسول الله فى مرضه الذى مات أنه دخل المسجد وهو معتمد على الفضل بن عباس فقال : «أيما رجل كنت أصبت من عرضه شيئا فهذا عرضى فليقتص ، وأيما رجل كنت أصبت من بشره شيئا فهذا بشرى فليقتص ، وأيما رجل

كنت أصبت من ماله شيئا فهذا مالى فلياخذ ، واعلموا أن أولا كم بى رجل كان له من ذلك شيء فاخذه أو حللنى فلقيت ربى وأنا محلل ، ولايقولن رجل إنى أخاف العداوة والشحناء من رسول الله فانهما ليستا من طبيعتى ولا من خلقى ، ومن غلبته نفسه على شيء فليستعن بى حتى أدعوله » .

هذه كانت سياسة النبي أصحابه ، فقدسمع فيهم قول الله تعالى: «واخفض جناحك للمؤمنين» وقد سار أصحابه هـذه السيرة : فأقاد أبو بكر من نفسه ، وأقاد عمر من نفسه ، وسار الخلفاء فى رعيتهم سيرة رفق ورحمة ، ثم خلف من بعدهم خلف لم يعلموا مافى الرفق من خير ، أوهم علموا ولـكن غلبت عليهم شهواتهم ، فسفـكوا الدماء ، وشقوا الأبشار ، وخربوا الديار ، وأخافوا الرعيـة ، فأماتوا تلك النفوس الأبية ، وخلقوا أجيالا أذلاء ، فلم يكن فيهم غنى لهم ولا لأنفسهم .

من حقى على الناس وقد بينت لهم أساس رقى الأمم وسـعادتها أن أطلب أجر هدايتهم ، وأجرى عليهم أن يهتدوا بذلك الهدى النبوى ، فيرفق المرء باولاده ، ورب الأسرة بأسرته ، والمعلم بتلاميذه ، وكل ذى ولاية بمن ولى عليهم ، وأن يلزموا ذلك لزوم من يعلم أنه إذا تركه هلك ، وأن يؤمنوا بأن الشدة لاتلد إلاشرا ، وأنها أجدر ألا يعامل بها الأولياء ، وإذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا تلك الحـكمة الذهبية : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء »

محمد عرفة

الادب حلية العاقل

روى الأصمعى أن أعرابيا قال لابنه : يا بنى : الأدب دعامة أيد الله بها الألباب ، وحلية زين الله بها عواطل الأحساب .

وقال حكيم : الأدب صورة العقل ، فصور عقلك كيف شئت .

وقال آخر : العقل بلا أدب كالشجر العاقر ، ومع الأدب كالشجر المثمر .

وقال غيره : الفضل بالعقل والأدب ، لا بالأصل والحسب ، لأن من ساء أدبه ، ضاع نسبه ، ومن قل عقله ، ضل أصله .

وقال بليغ : الادب يستر قبيح النسب .

ذكرى الرسول الأعظم

الكون أشرق نضرة ونعيما ... هذا مكانك فاتخذه كريما
حن الزمان اليك حتى جئته ... فطوى الحنين وردد التسليما
أنت المؤمل للشعوب، وهذه ... دنياك لا تبغى سواك زعيما
خذها من القوم الألى جمحوا بها ... واشرع لهم نهج الحياة قويما
داو السقام فقد تفاقم وانثنى ... طب الألى سبقوك عنه سقيما
هاتيك (مدرسة الحياة) تقدمت ... تلقى أجل شيوخها تعليما
ماذا حملت من المعارف والنهى ... لما حملت كتابها المرقوما؟
(علم الحضارة) كان قبلك خافيا ... فأتيت تظهر سره المكتوما
والحق ما عرف الدعاة سبيله ... حتى أقمت بناءه المهدوما
بلغ رسالة من أقامك هاديا ... وحباك فضلا من لدنه عظيما
ضل الألى جحدوه واتخذوا له ... شركاء من أربابهم وخصوما
ما هذه الأرباب؟ ما لعبادها ... جهلوه ربا واحدا قيوما؟؟
جاء (الأمين الصادق الهادى) فمن ... يكفر بدين الله كان ظلوما
رجفت قلوب المشركين لدعوة ... طفقت تردد فى البطاح هزيما (١)
قالوا: أيطمع أن يضل (محمد) ... منا عقولا رجحا وحلوما؟
أنعزه ونذل من أصنامنا ... ما عظم السلف الأعز قديما؟
إنا لنأنف أن يغير ديننا ... رجل قليل المال شب يتيما
إن يتبع النفر الضعاف سبيله ... فلنحن أمنع بيضة وحريما
إن المطاول بالرجال إذا بنى ... جعل الدعائم سادة وقروما

* * *

هم شاغبوه فكان أعظم قوة ... وأعز منزلة، وأشرف خيما (٢)
وجدوه سمحا لا يضيق بمذنب ... ورأوه موفور الأناة حليما
يدعو لهم: رب اهد قومى إنهم ... لا يعلمون، وكنت أنت عليما
لو شئت ماجهلوا السبيل ولا رضوا ... دينا من النمط الغبى ذميما
إنى رسولك، لن أمل جهادهم ... أويعبدوك، ولن أكون سؤوما

(١) الهزيم: صوت الرعد (٢) الخيم: الطباع.

ياقوم ماذا تعبدون؟ تاملوا … من قبل أن ترووا العذاب أليما
دين الحجارة، وهو من آثامكم … خير لكم، أم دين (إبراهيما)؟
أرسلت بالاسلام دينا قيما … وبعثت خيراً للشعوب عميما
الكفر والبغى الذميم كلاهما … جعلا الحياة على النفوس جحيما
فلأغسلن الأرض من أرجاسها … ولأصدعن ظلامها المركوما

***

بعثوا إليه من المخافة عمه … يزجى الرجاء مخيبا محروما
زعموه حران الجوانح يبتغى … دنيا الغواة ووردها المسموما
قال: اتئد ياعم، إن وراءهم … خطباً يشق على النفوس جسيما
النيران لو انهم جعلوهما … بيدى زدت صرامة وعزيما (١)
والله لن يجدوا لدى هوادة … حتى يفيئوا، أو أكون رميما
عرفوه فاتخذوا السبيل الى الأذى … وتعاوروه مذمما مشئوما
وتألبوا يتعللون بقتله … قتلا يرون قضاءه محتوما
يا بؤس للرأى المضلل إنهم … طلبوا دما من كيدهم معصوما
لاموه وانقلبوا الى شيطانهم (٢) … فقضى القضاء لهم، وكان رجيما
أيكون من كره الضلال لقومه … ووفى لرب العالمين ملوما؟
الله أيده وقام بنصره … فنجا، وأدبر جمعهم مهزوما
بوركت من واف يصاحبه أخ (٣) … صاف، وبورك صاحبا وحميما
محيا النفوس وقى الاله حياته … وسلامها المأمول راح سليما

***

إن الذى أخلى الديار مهاجراً … ملأ النفوس وساوسا وهموما
بعثوا الأسنة والسيوف وراءه … فاعادها تجرى دما وكلوما
رجعت مخيبة تذيب ظنونهم … فتذيب أرواحا لهم وجسوما
ماذا يظن المفسدون بمصلح … يبنى ويهدم ظاعنا ومقيما؟
الكوكب السيار فى آفاقه … ملأ البلاد أهلة ونجوما
أنصار دين الله حول نبيه … وصلوا (بيثرب) حبله المصروما
من (خزرجى) المجد أو (أوسيه) … طابوا فروعا فى العلا وأروما
أحبب به من قادم ما مثله … فى النازلين وفادة وقدوما

---

(١) العزيم والعزيمة بمعنى (٢) هو ابو جهل لعنه الله (٣) أبو بكر الصديق رضى الله عنه.

يافاتح الدنيا ، ومانح أهلها ... ماعز مرجوا وجل مروما
أنقذت هذى الأرض من آلامها ... وشفيت هـذا العالم المحموما
بالساطعات الشافيات من العمى ... يطغى غياهب ، أو يموج غيوما
الله أنزلها عليك دراريا ... طلعت معالم للهدى ورسوما
اوتيت بالفرقان مشرع حكمة ... مازلت تورده النفوس الهيما (١)
خرف الزمان ، وأخطأت حكماؤه ... سبل السداد ومايزال حكيما
لولا بلاغته وروعة نظمه ... جهل الرجال اللؤلؤ المنظوما
كنز البيان ، فمن تطلب للغنى ... كنزاً سواه قضى الحياة عديما
فضت علوم الدهر منه جانباً ... وغـداً تفض الجانب المختوما
متجدد فى كل عصر يبتغى ... أمماً تجىء جـديدة وفهوما
(دستور حق) فى يمين (محمد) ... يحمى الضعيف ، وينصف المظلوما
يتملق المولى المعظم عبده ... فيه ، ويخشى الحاكم المحكوما
قسم الحياة على النفوس وإن أبى ... من لايريد نصيبه المقسوما
لم يخلق الله القوى بملكه ... ليكون وحشى الطباع غشوما
والأرض ما بسطت لتجحد ربها ... وتمد من ظلم العباد أديما

***

يا (مولد المختار) أنت بعثتها ... ذكرى تساجل دمعى المسجوما
أبكى على الاسلام يذهب عزه ... ويبيت مطوى الجناح مضيما !
نهضت شعوب الأرض ترفع مجدها ... وأرى شعوب المسلمين جثوما !
لزموا تخوم بيوتهم ، وغزاتهم ... لايرتضون سوى النجوم تخوما
قوم هم اتخذوا بكل محلة ... كهفاً يضم نيامهم ورقيما
أوكلما جذب المقادة مصعب ... فى الشرق غودر أنفه مخزوما ؟ !
لاهم جنبنا المجاهل واهدنا ... هـذا السبيل المعلم الموسوما
وتولنا فى الحادثات وكن بنا ... فى النائبات إذا تنوب رحيما !

(١) الهيم: العطاش.

احمد محرم

على ذكرى الميلاد النبوى

خلقه صلى الله عليه وسلم ، وأثره فى نجاح الدعوة الاسلامية

هداية الناس ، وإصلاح الأمم ، وترقية العمران ، وتوفير النظام ، وإسعاد المجتمع ، وما يتصل بذلك ، وما يساعد عليه — هذه كلها أمور تعتبر فى جملتها وتفصيلها الغرض الأكبر للديانات والشرائع ، والمقصد الأهم للدعاة والمصلحين .

والذين يختارهم الله تعالى من عباده الممتازين لأداء هذه المهمة العظيمة ، يختار لهم الى جانبها أمضى الاسلحة ، وأنجع الوسائل ، وأقوم السبل ، وأقوى الأسباب ، حتى يكونوا ميسرين لأداء مهمتهم ، ومجهزين بما يعينهم على القيام بأعبائها ، والاحتمال لصعابها .

ولو أننا استعرضنا جميع هاتيك الوسائل والأسباب وما إليها ، ونثرنا كنانتها ، وسبرناها على ضوء التجربة والاختبار ، لما وجدنا بينها وسيلة أصلح لانجاح الدعوة ، ولا سببا أنفع فى إبلاغها آخر مداها ، من الشيم الجميلة ، والأخلاق الكريمة ، والصفات النبيلة . فهى وحدها التى تجتذب القلوب النافرة ، وتذلل النفوس الجامحة ، وتفل حدة العناد ، وتستل السخائم والأحقاد ، وتتغلب على روح العصبية ، وتقضى على بواعث الاستكبار والاستنكاف . وهى وحدها التى تستطيع أن تشق الى التفاهم طريقا معبدا ، وأن تسلك الى الوفاق مسلكا مسددا ، فتسهل على الداعى دعوته ، وتهون أمام المصلح مهمته .

وعلى العكس من ذلك جفوة الخلق ، وخشونة الطبع ، وسوء المعاملة ؛ فانها تباعد بين الناس وبين قبول الحق ، وتملأ نفوسهم بالكراهة له ، والاشمئزاز من صاحبه ، وتزرع فى قلوبهم العداوة والبغضاء ؛ فتتعرض الدعوة للفشل ، ويصاب الداعى بالهزيمة والاندحار .

ونظرة واحدة الى ما اختص الله به نبينا الأكرم محمداً صلى الله عليه وسلم من كريم السجايا ، والى ما حباه إياه من حميد الخلال ، تجعلنا نحكم لأول وهلة بأنه صلى الله عليه وسلم فى طليعة الكملة من الهداة والمرشدين ، وفى مقدمة الخيرة من الأنبياء والمرسلين .

***

وليس يسيرا أن يتحدث المتحدث فى مثل هذا الفصل القصير عن مزاياه كلها صلى الله عليه وسلم فى هذه الناحية الخصبة الوفيرة ، وحسبنا من ذلك أن نقدم غيضا من فيض ، وأن نعرض زهرة من روض :

عرف صلى الله عليه وسلم بين قومه وعشيرته منذ نعومة أظفاره بحسن الخلق ، وكرم

الطباع ، وحلو الشمائل ، والنفرة من عادات الجاهلية وتقاليدها المرذولة فى العقيدة والأعمال . ونشأ مشهورا بينهم بالصدق والأمانة والعفاف ، فسما به ذلك الى مكانة ممتازة بينهم ، جعلته محلا لثقتهم ، وأهلا لتقديرهم . فكانوا يودعون عنده ودائعهم ، ويأتمنونه على أماناتهم ، ويحكمونه فيما شجر بينهم .

حدث سنة خمس وثلاثين من مولده صلى الله عليه وسلم ، أن هدمت قريش الكعبة ، وأعادت بناءها ، فلما بلغ البنيان موضع الركن ، اختلفوا على وضع الحجر الأسود ، وأرادت كل قبيلة رفعه الى موضعه ، طلبا للشرف والفخر ، حتى تحالفوا وتواعدوا للقتال ، ومكثوا على ذلك أربع ليال ، ثم تشاوروا ، فقال أبو أمية بن المغيرة ، وكان أسن قريش : اجعلوا بينكم حكما أول من يدخل من باب المسجد ؛ فكان أول من دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، قد رضينا به ، وأخبروه الخبر ، فقال : هلموا الى ثوبا ، فأتى به ، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعا ، ففعلوا ؛ فلما بلغوا به موضعه ، وضعه بيده ، ثم بنى عليه .

وعندما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غار حراء الى خديجة رضى الله عنها ، بعد مجىء الملك اليه ، وإخبارها بخبره ، قال لها الرسول : لقد خشيت على نفسى ؛ فقالت له خديجة : كلا ، والله مايخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق !

ولما دعا هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب فى ركب من قريش ، ليسأله عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان من جملة ما قاله هرقل لأبى سفيان :

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ؛ فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله . وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ؛ وكذلك الرسل لا تغدر . وسألتك : بما يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ؛ فان كان ما تقول حقا ، فسيملك موضع قدمى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أعلم أنى أخلص اليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ! !

***

هذه ثلاث شهادات صادقات ، تنطق له صلى الله عليه وسلم بكمال سيرته الأدبية ، وبنبل صفاته الخلقية ، قبل البعثة وبعدها ، وتدل أوضح الدلالة على أن أخلاقه الكريمة ، قد خلعت على دعوته ثوبا من حسن الظن بها ، والثقة فيها ، وفتحت الباب على مصراعيه امام نفوذها

الى القلوب والنفوس ، وجاءت أصدق دعاية لها ، وخير تقدمة بين يديها ، ففازت هذه الدعوة بالنجاح ، وظفرت بالنصر .



أما بسط خلقه صلى الله عليه وسلم ، ولين عريكته ، وكرم عشرته ، وجمال أدبه ، وحسن معاملته ، فهذه حديثها يطول ، والقول فيها لا يقف عند حد .

قال قيس بن سعد بن عبادة : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أراد أن ينصرف قرب له سعد حمارا وطأ عليه بقطيفة ، فركب ، ثم قال سعد : ياقيس اصحب رسول الله . قال قيس فقال له عليه الصلاة والسلام : اركب ، فابيت ، فقال : إما أن تركب ، وإما أن تنصرف . فانصرفت .

ودخل عليه رجل ، فأصابته من هيبته رعدة ، فقال له : هون عليك ، فانى لست بملك ، إنما انا ابن امرأة من قريش ، كانت تأكل القديد .

وكان صلى الله عليه وسلم يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يذم أحدا ، ولا يعيره ، ولا يشافهه بمكروه ، ولا يطلب عورته ، ولا يسمع وشاية الواشين . روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئا ، فانى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » .

وكان يقابل السيئة بالحسنة ، ويصبر للغريب على الجفوة فى المنطق والمسألة ، ويتفقد أصحابه ، ويسأل عنهم ، فان كان احدهم غائبا دعا له ، وإن كان شاهدا زاره ، وإن كان مريضا عاده . وكان إذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويعطى كل واحد من جلسائه نصيبه ، حتى لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ، وكان يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويبدأ من لقيه بالسلام ، ويبدأ أصحابه بالمصافحة ، وما أخذ أحد بيده فيرسل يده صلى الله عليه وسلم منه ، حتى يكون الآخذ هو الذى يرسلها ؛ ولم ير قط مادا رجليه بين أصحابه . يكرم من يدخل عليه منهم ، وربما بسط له رداءه ، وآثره بالوسادة التى تحته .

وكان صلى الله عليه وسلم كبير المهابة ، عظيم الوقار ، فكان يبسط أصحابه بالمزاح الحق ، والدعابة الصادقة ، وكان يضحك مما يضحكون ، ويسر بما يسرون .

جاءه صلى الله عليه وسلم رجل ، وطلب أن يحمله على بعير ، فقال له : إنى حاملك على ولد الناقة ؛ فقال : يا رسول الله ما أصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وهل تلد الابل إلا النوق ؟

ويذكر بعض أصحاب السير أن نعيمان بن عمرو الانصارى كان إذا دخل المدينة طرفة ،

اشتراها فى ذمته ، ثم جاء بها الى النبى صلى الله عليه وسلم ويقول : يا رسول الله ، هذه هدية ، فاذا جاء صاحبها يطلب ثمنها ، جاء به الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال له : أعط هـذا ثمن ما جئت به اليك ، فيقـول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أولم تهـد ذلك لى ؟ فيقول : يا رسول الله ، لم يكن عنـدى ثمنه ، وأحببت أن يكون لك ؛ فيضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمر لصاحبه بثمنه .

***

إن المتأمل فى هذه المناقب الشريفة ، والخصال الحميدة ، لا يتردد لحظة واحدة فى القطع بأنها أقدر على جمع القلوب ، وأفعل فى استمالة النفوس ، وأنفذ الى مكامن الشعور والعواطف من أية وسيلة أخرى غيرها من تلك الوسائل العادية المعروفة ؛ وبأن البشرية مهما ابتكرت من أساليب السيطرة والاستيلاء ، وافتنت فى طـرق المغالبة والقهر ، لا يمكن لهـا أن تأتى فى هذا الباب بما يعدل حسن الخلق ، وطيب الصفات ، ولا بما يدانيها قوة وتأثيرا .

ولذلك استطاع صلى الله عليه وسـلم باصالة رأيه ، ورجاحة عقله ، وثقـوب بصيرته ، وجودة سياسته ، وحسن تدبيره ، وما اليها من المزايا العالية المستمدة من جمال الخلق ، وكمال التربية ، أن يسوس العرب ، ويحتمل جفاهم ، وأن يتسع صدره لخشونتهم ، ويصبر على أذاهم ، حتى انقادوا له ، وآمنـوا بدعوته ، والتفوا حـوله ، وقاتلوا وقتـلوا دونه ، وحتى فضلوه على أنفسهم ، وقدموه على أبنائهم وآبائهم وأهليهم . وهكذا يفعل الخلق الطيب ما لا تفعله النار والحديد .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » . « وإنك لعلى خلق عظيم » .

فكرى يس
المدرس بالازهر

ذم البخل وأهله

قال حكيم : البخل جلباب المسكنة .

وقال بعض الأدباء : البخيل ليس له خليل .

وقال غيره : البخيل حارس نعمته ، وخازن ورثته .

ليس المراد من قوله خازن ورثته أن الأجدر بصاحب المـال أن ينفقه على نفسه غير مدخر لورثته ما يعصمهم عن المسألة ، فان هـذا من التبذير ، ولـكن المراد التوسط فى الانفاق ، والقصد فى الاختزان ، وكلاهما معروف لايحتاج لبيان .

ميلاد الرسول

فجر أطل على الوجود فاطلعا شمسين : شمس سنا وشمس هدى معا
ظلت مطالع كل شمس لا ترى من بعده شيئا كمكة مطلعا
قبس من الرحمن لاح فلم يدع لألاؤه فوق البسيطة موضعا
ما كان ميلاد الرسول المصطفى إلا الربيع نضارة وتضوعا
يوم أغر كفاك منه أنه يوم كأن الدهر فيه تجمعا
ويكاد غابر كل يوم قبله يثنى اليه جيده متطلعا
فلو استطاع لكر من أحقابه وثبا على هام السنين ، ليرجعا
ويكاد مقبل كل يوم بعده ينسل من خلف الزمان ليسرعا
فلو استطاع لجاء قبل أوانه وانساب يخترق السنين وأتلعا
تتنافس الأيام فى الشرف الذى ملأ الوجود فلم يغادر أصبعا
خير أفاض الله منه على الورى أني جرى ترك الجناب الممرعا
وسناً جلاه لتعمر الدنيا به من بعد ما كانت خرابا بلقعا
وافى ، وليل الجاهلية مطبق فانجاب عن جنباتها وتقشعا
وكذا الهداية إن قذفت بها على ركن الغواية والضلال تصدعا
نادى الى الحسنى فلما أعرضوا واستكبروا شرع الرماح فأسمعا
والحق أعزل لا يروع فأن بدا مستلئما لاقى الطغاة فروعا
والحق أخفى ما يكون مجرداً وتراه أوضح ما يكون مدرعا
والحق ليس بمعتد لكنه إن دافعته يد الضلال تدفعا
مثل الرياح جرت رخاء ثم لم تلبث فهبت بعد ذلك زعزعا
بعض الأنام إذا رأى نور الهدى عرف الطريق ولم يضل المهيعا
ومن البرية معشر لا ينثنى عن غيه حتى يخاف ويفزعا
إن الرسول محمداً صبح بدا من راح يعثر فى سناه ، فلالعا
وافى بها بيضاء ، عدل كلها لا تلفين بها الضعيف مضيعا
الناس كلهم سواسية بها لا قيصراً تلقى بها أو تبعا
والناس أكرمهم بها أتقاهم ولو انه كان الفقير المدقعا

دخلت على الجبروت وهو مقطب صلفاً فأبصر وجهها فتفـزعا
وأبى له حب البقـاء وطبعــه إلا الصيال ، فصاولت ،فتضعضعا
الفرس ، والرومان لم يعصمهما ملك الممالك كلها أن يصرعا
من لم تزعزعه العواصف قبلها بعثت له بنسيمها فتزعزعا
ثلت عروش الظالمين وملـكهم وبنت لعرش العدل ملكا أوسعا
وجرى العباد على السجية سجداً لله ، لا لمسخريهم ، ركعا
وتراهم حــول النبى فـلا ترى متملقاً أو خائفا متخشعا
دين المسـاواة الصحيحة دينـه يرعاهم فى الله أشفق من رعى
جاءت له الدنيا فأعرض زاهـداً يبغى من الأخرى المكان الأرفعا
ما جر أثواب الحرير ولا مشى بالتاج من فوق الجبين مرصعا
من ألبس الدنيا السعادة حلة فضفاضة ، لبس القميص مرقعا
وهو الذى لو شاء نالت كفه كل الذى فوق البسيطة أجمعا
لم يبغها ملـكا عضوضاً بل دعا لله لا لسواه أفضل من دعا
مسك به اختتم المهيمن رسله وأبان أمر الدين والدنيا معا
يامصطفى أدعوك دعوة شاعر وافى إليك بشعره مستشفعا
هب لى من النفحات ما أشفى به نفساً معــذبة ، وقلبا موجعـا
فلعل صدراً أن تزول همومـه وعليل قوم أن يصح وينفعا
ولعل ذابـلة الرجاء ينالها بلل من الغيث العميم فتينعا
صلى عليك الله جـل جلاله دنيا وأخرى ، شافعا ومشفعا

محمد الأسمر

أعظم مثال لتواضع العظماء

روى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطـاب رضى الله عنه أمر مناديا ينادى : الصلاة جامعة ، فلما اجتمع الناس صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ، ثم قال : أيها الناس لقد رأيتنى أرعى على خالات لى من بنى مخزوم ، فيقبضن لى القبضة من التمر والزبيب ، فأظل اليوم وأى يوم .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : والله يا امير المؤمنين ما زدت على أن قصرت بنفسك . فقال عمر : ويحك يا ابن عوف إني خلوت فحدثتني نفسى فقالت أنت أمير المؤمنين فمن ذا أفضل منك !!

دراسة فى حياة محمد

صلى الله عليه وسلم

إن انتشار اللغات الأجنبية فى الشرق مكن المتعلمين من أبنائه من الاطلاع على ما كتبه الأوربيون فى السيرة النبوية ، وأكثره يحتاج لتقويم ،فاذا بقى على علاته انحرف بهم عن الجادة التى يجب أن يقوموا عليها لفهم سيرة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .

لذلك أصبح من الواجب علينا أن ننظر فيما قاله الكتبة الأوربيـون لنصحح الباطل من آرائهم فينا ، ونقوم المعوج من أحكامهم علينا .

من أسبق هؤلاء الكتبة الى إنصاف الاسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام ، المستشرق الافرنسى المسيو (سافارى) ، فقد وضع سيرة نبوية مختصرة ، اعتمد فيها على ما قاله علماء الاسلام، ثم أتبعها بآرائه وملاحظاته الخاصة .

فرأيناه فى أبحاثه عن النبى صـلى الله عليه وسلم يعترف له بـكل معانى العبقرية والتفوق البشرى سوى النبوة .

قال : « إن محمـدا كان واحدا من أولئـك الأفذاذ الخارقى العادة الذين ولدوا بمواهب سامية ، وكانوا يظهرون فى الأحايين على مرسح هذا الكون لأجل أن يغيروا وجهه ، ولأجل أن يقطروا البشر فى جر مركباتهم » .

نقـول : لا بأس فيما قلته أيهـا الشاب الافرنسى سوى قولك : « لأجل أن يقطروا البشر فى جر مركباتهم » ، فان هذا القول يشعر بأن نبينا صلى الله عليه وسلم إنما قام بدعوته ليسخر البشر فى سبيل حظوظه الدنيوية كما فعل الاسكندر ونابليون .

ولا يمكننا أن نطيل الكلام فى الرد عليك لأن مقام الخطابة لك ، كما لا يمكننا أن نسكت عنك لئلا ينسب العجز الينا ، ولهذا نكتفى بقولنا : إن سيدنا الرسول لو كان يريد أن يكون كالقياصرة والأكاسرة لعاش عيشهم ، ولبذخ فى الحياة بذخهم ، ولخص ذريته بخلافته من بعده مثلهم . ولو فعل لحقت كلمة الاحتجاج عليه .

أما جعله الخلافة فى قومه (قريش) فلأن القرآن عربى ، والشريعة — كما قال صاحب كتاب الموافقات — عربية ، ولا يفهمها حق الفهم ، إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم .

ثم قال العلامة المستشرق :

« إذا تأمل الانسان فى الوسط الاجتماعى الذى نشأ فيه محمد ، وفى قمة العظمة التى بلغها ، تعجب مما تستطيع العبقرية البشرية أن تفعله إذا ساعدتها الظروف » .

لم يخطئ خطيبنا الشاب فى وصف عبقريته صلى الله عليه وسلم ، لكننا نقول : إنها عبقرية نبوة ، لا عبقرية فتوة ، وساعدتها الظروف ، لكنها ظروف سماوية ، لا ظروف اتفاقية .

قال خطيبنا العلامة :

« ولد محمد وثنيا ، وارتقى الى معرفة إله واحد » .

نقول : لو قلت أيها المستشرق الفاضل : « ولد فى قوم وثنيين » لكنت أحسنت ، لأن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لم يسجد لصنم قط ، حتى فى زمن طفولته ، فقد روى علماء السيرة ، أنه لما اجتمع ببحيرا الراهب ـ وكان صبيا ـ استحلفه بحيرا باللات والعزى على شىء ، فقال له النبى : « لا تسألنى باللات والعزى شيئا ، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما ! » .

وقولك « إن محمدا ارتقى الى معرفة إله واحد » كلام حق ، فان التوحيد مركوز فى طبعه منذ ولد ، ثم تأيد هذا التوحيد الفطرى بالوحى الالهى .

قال باحثنا المستشرق :

« وبعد أن هتك محمد حجاب الوثنية فكر فى أن يحدث لقومه دينا جديدا » .

نقول : قولك «يحدث دينا جديدا» المحدث هو الله تعالى . أما تفكيره صلى الله عليه وسلم فى أن يكون لقومه دين جديد فلم تبتعد فيه عن الحقيقة ، لأن نبينا كان يتطلب لقومه منذ صبوته دينا غير الوثنية . فقولك « إنه يفكر » ربما كان فيه إشارة الى آية « ووجدك ضالا فهدى » ، فان بعض حذاق المفسرين فسر ضلال النبى بمعنى تردده فى أية الطرق يسلك الى هداية العرب ، وإنقاذهم من الشرك ، فقد كان صلى الله عليه وسلم فى حيرة من أمرهم ، وتفكير شديد فى إنقاذهم من شقائهم ، حتى أراه الله الطريق الى هدايتهم : بان اوحى إليه دين الاسلام .

قال العلامة : « تعلم محمد بواسطة أسفاره ، ورأى النصارى منقسمين الى طوائف ، كل طائفة تكفر الأخرى ، واليهود هول الأمم L'horreur des nations يدافعون عن شريعة موسى بعناد ، وقبائل العرب غائصين فى ظلمات الوثنية » .

نقول : إذا كنت تريد أيها العلامة ان محمدا ازداد فى أسفاره علما بما كانت عليه الأمم فى عهده من ضلال وشقاء ونزاع وتعصب ، وأن علمه هذا حصل بتدبير الله كى تستعد نفسه الشريفة لتلقى الوحى والنبوة ، كان قولك حسنا . أما إذا أردت بتعلمه فى الأسفار أنه تعلم علوما لاهوتية استعان بها على دعوى النبوة ، كان قولك باطلا ، لأن سيدنا الرسول نشأ أميا والأمية عائق كبير عن طلب العلم وتتبع مسائله وتقييد شوارده ، وكانت أميته هذه حجة على المشركين فى صحة نبوته ، ولم يسمع منهم قط احتجاج عليه بالقراءة والكتابة ، كما لم يسمع منهم انهم قالوا له : إنك تعلمت وتلقنت فى أسفارك علوما لاهوتية ، ولو علموا ذلك لاحتجوا

عليه به ، ولنقل الينا ، وكل ماعلمه قومه أنه لأول مرة سافر الى الشام مع عمه أبى طالب ، وكان يؤمئذ صبيا ، حتى إنه تعلق بزمام ناقة عمه ، وقال له : « ياعم ! الى من تكلنى وأنا لا أب لى ولا أم » وفى عبارته هذه عبقة من الطفولة المقدسة .

ثم سافر صلى الله عليه وسلم فى شبابه الى الشام فى تجارة لخديجة بنت خويلد ، فساوم وباع وربح وعاد ، وكان يهمه فى سفرته هذه أن يرضى السيدة خديجة بحسن تصريف البضاعة ، ووفرة أرباحها ؛ فلا يمكن أن يشغل نفسه بمزاولة العلم والتعلم فلا تعود ترسله مرة ثانية فى تجارتها ، وكان هو وعمه أبوطالب حريصين على إرضائها ، كما يفهم ذلك مما قاله علماء السيرة عند كلامهم على أسباب هذه السفرة .

على أن نبينا صلى الله عليه وسلم كان فطنا ذكيا ، موحدا بفطرته ، محبا للخير والحق والعدل بطبيعته ، فلا يضر إذا قلنا إنه كان يرى فى سفره من الشر ما ينافى طبعه فيأنف منه وينكره ، كما يرى من الخير مايلائم طبعه فيرتاح اليه ويقره ، فيكون علمه فى سفره علم تحقيق وتطبيق ، لا علم استفادة وتحصيل .

قال خطيبنا الافرنسى :

« وقد أثر فى نفس محمد ما شهده من أحوال الأمم ، فانسحب الى عزلته (فى غار حراء) وهيأ فى نفسه فى مدة خمس عشرة سنة طريقة فى الدين يمكنه بها أن يجمع بين المسيحيين واليهود والوثنيين » .

نقول : قولك «هيأ فى نفسه» : المهيئ والمرشد هو الله تعالى . أما قولك : أثر فى نفسه ماشهده من أحوال الأمم ، فحسن جدا ، إذ أنه صلى الله عليه وسلم كان يشق عليه مايراه من ضلالهم وشقائهم . فقولك هذا ينبغى أن نجعله تفسيرا لقولك الأول « إن محمداً تعلم فى أسفاره » ، فلا يكون معنى تعلمه إلا أنه استفاد علماً جديداً بشقاء الأمم ، وحاجتها الى نبى ينقذها من ضلالها .

ثم قال العلامة :

« هذا المشروع الدينى الذى فكر فيه محمد كان واسع النطاق ، غير ممكن التنفيذ ، فرأى أن الممكن إحداث عقيدة بسيطة ، يقبلها العقل ، وتناسب جميع أمم الأرض ، وهذه العقيدة هى الايمان باله واحد ، يعاقب على الرذيلة ، ويكافئ على الفضيلة » .

نقول : ما أحسن ما قلت أيها الشاب الافرنسى الحر ! حقاً إن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم تدرج فى عرض تعاليم دينه على مشركى العرب : فكان يأتيهم أولا بالتعاليم السهلة ، ثم بما يحتاج الى دقة وتأمل . لكن عبارتك تفيد أنه فعل ذلك من عند نفسه ، وهو إنما تلقاه بوحى من الله ، كما كان يتلقى ذلك إخوانه الأنبياء السابقون .

قال المستشرق :

« غـير أن محمداً لما رأى أن النـاس لا يتبعون دينه ما لم يكن هو نبيا مرسلا من الله ، أضاف كلمة « محمد رسول الله » الى كلمة « لا إله إلا الله » .

نقول : مادمت أيها العـلامة غير مسلم فـلا يمكننا أن ننازعك فى قولك نزاعاً ثقيلا . وكل ما يمكننا ، أن نعاتبك عليه عتابا جميلا .

نراك تؤمن بأنبياء التوراة ، مع أن الواحد من هؤلاء الأنبياء قد لا يؤثر عنه من أعمال النبوة وتعاليمها سوى قوله مثلا : « إن الرب أمرنى أن أقـول لملك إسرائيل أن يفعل كذا ويترك كذا » . هذا كل آيات نبوته التى تجعلك تؤمن به ، ولا تؤمن بمحمد الذى أتى بتعاليم وشرائع وآداب وقوانين اجتماعية ، ظهر أثرها فى إصلاح البشر ، ومهدت بين أيديهم سبل الحضارة والعمران ، وأوجدت لهم ثقافة راقية فى كل ناحية من نواحى الحياة . وقد دونت ثقافته هذه وشرحت فى ألوف وألوف من الـكتب التى لو نفضت لـكان فى نفاضتها من المراشد والمنافع ما هو أجدى على البشر من كثير مما فى الـكتب الأخرى . وقـد تبع محمداً ملايين وملايين من البشر يعملون بشرائعه ، وفيهم ألوف وألوف من العلماء والصوفية والفـلاسفة والساسة وقواد الحـروب ، ورجال الفنون ، وأساطين الفقه والتشريع والأدب والشعر ، والمصنفين فى كل فن ومطلب من مطالب الحياة ، وكلهم يعترفون بأنهم إنما استقوا علومهم من ذلك الينبوع الأعظم ، صلى الله عليه وسلم .

فالرجل الذى انبثقت من روحانيته روحانية الحسن البصرى والجنيد والشبلى والسرى السقطى وابن عربى وابن الفارض .

الرجل الذى انبثق من علمه علم الصحابة والتابعين وعلم أبى حنيفة والشافعى والأشعرى والغزالى وابن رشد والفارابى والرازى .

الرجل الذى انبثقت من عبقريته عبقرية الخليل بن أحمد والزمخشرى وأبى العلاء المعرى والجاحظ وابن خلدون .

الرجل الذى انبثقت من فتوته فتوة الامام على ، وخالد بن الوليد ، وصقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وموسى بن نصير فاتح المغرب ، وقتيبة بن مسلم فاتح المشرق ، والمهلب بن أبى صفرة ، وصلاح الدين الأيوبى .

الرجل الذى أثمر وأنتج كل هـذا تبخل عليه بكلمة « نبى » أيها الشاب الحر المنصف وتجود بها على أولئك الذين تعرفهم ويعرفهم التاريخ ؟ !

هذا ما أحببنا أن نعاتب صاحبنا عليه . ونعود الآن الى استماع بقية حديثه فى السيرة ،

فنسمعه يقول :

« وبعد أن وضع محمد أساس طريقته الدينية على هذه الصورة أخذ من تعاليم الديانتين اليهودية والمسيحية ما علم أنه أكثر موافقة للعرب سكان البلاد الحارة .

« أما العرب فلم يكن محمد غافلا عن إدخالهم فى مشروعه ، كيف وهو إنما كان يعمل من أول الأمر لأجلهم ؟

« فأخذ يذكرهم بذكرى عزيزة عليهم : تلك الذكرى هى أبوة إبراهيم وإسماعيل ، وبذلك جعلهم ينظرون الى الدين الاسلامى كأنه دين هذين القديسين » .

نقول : عاد مستشرقنا الى نغمته السابقة ، فزعم أن كل ما كان يفعله نبينا صلى الله عليه وسلم صادر من عند نفسه ، وليس الأمر كما زعم ، وإنما هو وحى يوحى ، لما قامت عليه البراهين من صدقه صلى الله عليه وسلم فى رسالته .

ثم وصف العلامة الافرنسى ما أوتى نبينا صلى الله عليه وسلم من فصاحة وبلاغة فى لغته العربية ، فقال :

« وكان محمد واقفاً على أسرار بلاغة لغته ، تلك اللغة التى هى أغزر مادة وألذ فى السمع من جميع لغات الأرض . تلك اللغة التى بواسطة تأليف مقاطعها يمكنها أن تتابع الفكر مهما حلق فى جو الخيال ، فتصوره أكمل تصوير . تلك اللغة التى بواسطة تناسب نغماتها تسمعك تارة زئير الأسود ، وطوراً هدير الأمواج ، ومرة قصف الرعود ، وأحيانا هبوب النسمات . تلك اللغة التى وجدت من يوم أن خلق الله البشر « depuis le commcement du monde » والتى هذبها وحسن ديباجتها الكثيرون من شعراء الجاهلية . بهذه اللغة كان يخطب محمد قومه ، فكان يعطى حكمه جميع صنوف التأثير السحرى ، ويعطى تعاليمه الروعة التى تناسبها ، ويعطى الأمثال المتداولة بين أهل زمانه مسحة من الجمال جعلتها ذات قيمة غير قيمتها الأولى » .

نقول : هذا ما وصف به المستشرق لغتنا العربية ، وما هى عليه من قوة التأثير فى النفوس ، وصلاحيتها لتقييد أوابد الأفكار ، فلنحرص عليها .

ثم قال العلامة :

« ولما حان الوقت لاظهار الدعوة استعان محمد على أمره بالكتمان الشديد ، فدعا أولا أهل بيته وخادمه الأمين (أم أيمن) ، وأثر بفصاحته على بعض سادات مكة فآمنوا به ، ولما شعر بقوته رفع صوته ضد الوثنية ، وما كانت النكبات التى تنزل به ولا التغريب عن وطنه ، ولا الحكم عليه بالموت إلا لتزيد فى شجاعته ، وإلهاب همته ، وفى آخر الأمر هيأ لنفسه بواسطة مستشاريه السريين ملجأ فى بلاط ملك الحبشة لينحاز اليه حين الحاجة ، ثم ملجأ آخر فى مدينة يثرب ، حتى إذا أحكم التدبيرين ، واستوثق من الملجأين ، ظهر فى رائعة النهار ، وأعلن مقاصده فى طلب المجد والفخار » .

لا بأس فى هـذا الـكلام الذى قاله خطيبنا المستشرق لو لم ينسب التدابير فى نشر الدعوة الى النبى نفسه ، وأن له من وراء ذلك غرضا خاصا به . وقد تقدم ردنا عليه فى أمثال ذلك ، فلنكتف بما تقدم .

ثم قال المستشرق :

« قاومه النصارى وقالوا فيه ما قالوا ، وأنـكره اليهود مستبعدين أن يـكون رجل عادى من أهل مكة هو المسيح المنتظر . أما مشركو العرب فقـد رأوا أن دينهم الوثنى الذى هو أساس سطوتهم قد زعزعه محمد وعرضه للزوال ، ففكروا فى قتله ، ووضعوا رأسه فى المزاد ، ومع هذا فان ضجيج هـذه الطوائف الثلاث وأحقادهم وتسابقهم فى مقاومة محمـد ما كانت لتخيفه . وقد كان ثباته فوق كل النـكبات ، وعبقريته خلقت مستعدة لتذليل كل العقبات . ولما استولى على المدينة سلحها ضد مكة ، وصمم على أن يقهر بقـوة السيف والسنان أولئك المـكابرين الذين لم تفلح فيهم قـوة الحجة والبرهان . كما أنه لما يئس من اجتذاب اليهود والنصارى الى دينه نسخ الشرائع الناظرة الى مصلحتهم ، وعول فى تأييد دعوته على العرب وحدهم : فـكان أول ما فعله من هـذا القبيل تحويل القبلة الى مكة بعـد أن كانت الى بيت المقدس ، فقوبل هذا التشريع من العرب بالتـكبير والتهليل ، وعدوه نعمة سماوية ، أما الشارع فـكان يرى فى هذا التحويل وسيلة الى حمل صحابته على فتح مكة منبت أسلته ، وهدف رغبته .

« وبعد تحويل القبلة الى مكة وجه همته الى أمر أهم : هو توحيد كلمة القبائل المتعادية ، فأنشأ نظام التآخى ، الذى بواسطته أصبح المسلمون أسرة واحدة يتسابق أفرادها الى إعلاء شأن رئيسها

« ولما تم له كل هذا صمد الى أعدائه ، فـكافحهم بتلك الشجاعة النادرة التى اكتسبها فى الحروب تحت إشراف عمه أبى طالب ، فأهلته لأن يكون قائدا حربيا كبيرا . ووصية محمد لرجاله بالظفر أو الموت ، وثقتهم . بمعونة الله الموعودة ، وأملهم بالغنائم التى كانت تقسم بينهم بالعـدل ، كل ذلك ألهب نفوسهم بالبسالة ، وجعل انكسارهم من رابع المستحيلات

« حارب العرب كلهم ، بأهل المدينة وحـدهم ، فـكان استبساله فى الهجوم ، واختياره المراكز المنيعة لنزول جيشه ، وإضرامه نار الحمية فى نفوس أبطاله ، كل هذا جعله يتفوق على أعدائه : فـكنت تراه فى وسط الحروب الموقـدة ، وبين خفقان القـلوب الملتهبة ، بارد القلب ، مطمئن النفس ، واثقا بالنصر

« وكان دقيق النظر فى مراقبة حركات أعـدائه وسكناتهم ، حتى إذا بدرت منهم هفوة اغتنمها حالا ، وعززها بخدعة حربية ، فيكون النجاح ، ويكون الظفر

« ويوم « أحد » هو اليوم الوحيد الذى خانه فيه الحظ ، ومع هذا فقد عرف يومئذ مبلغ ما لمحمد من السلطة على العقول ، وما لعبقريته من المقـدرة على استعمال الخدع والمكايد . وكان من أثر ذلك أن المشركين — مع كونهم غالبين — جبنوا عن الاستفادة من غلبتهم ، وأن صحابة محمد المغلوبين بقوا متمسكين به ، ولم ينفصل واحد منهم عنه » .

هذا الكلام من خطيبنا الشاب الافرنسى حسن ، لكنه مبنى على رأيه فى أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو نفسه مصدر كل هذه التدابير الحربيـة . أما نحن معشر المسلمين فنعتقد أن الله الذى أرسله هو الذى كان يوحى اليه بها .

على أننا لا ننكر أن له ، صلى الله عليه وسلم ، مع صحابته أحيانا تدابير شخصية ترجع الى الاجتهاد وإعمال الرأى وتلمس الخدع الحربيـة وفقا لآية « وأمرهم شورى بينهم » ، وعملا بالحديث المأثور « الحرب خدعة » .

قال خطيبنا الافرنسى :

« أخضع محمد اليهود وجمهرة القبائل العربية ، وفتح مكة . وكان يعلل نفسه بالاستيلاء على الملوك المجاورين ، وأن يراهم مؤمنين به . وكان يهيىء الوسائل لهذا الغرض . من ذلك أنه أرسل اليهم رسلا يدعوهم الى الاسلام ، فان أسلموا وإلا اتخذ من عنادهم عذراً الى مهاجمتهم . وكان عميـق النظر جداً فى معرفة القـلوب البشرية ، فكان عماله وقواده من عظماء الرجال . وكان طموحه الى المعالى يجعله يحـول نظراته الى « سورية » من وقت الى آخر ، ويذكرها بشوق وارتياح ، فاتفق للروم يوما أن حملتهم سفالتهم على قتل رسول أرسله محمد اليهم ، وكانوا معه فى قلب السلم » .

أقول : وهـذا الرسول اسمه « الحـارث بن عمير الأزدى » كان صـلى الله عليه وسلم أرسله الى أمير « بصرى » فى حوران من بلادنا الشامية ، فقتله الأمير . وبسببه نشبت بين الروم والصحابة حرب « مؤتة » . وكان المسلمون ثلاثة آلاف ، والروم أكثر منهم بأضعاف . وقد قتل فى هذه الوقعة أمراء النبى الثلاثة ، على هذا الترتيب الذى رتبهم به : « زيد بن حارثة » ثم « جعفر بن أبي طالب » ثم « عبد الله بن رواحة » حتى أخذ الراية سيف الله «خالد بن الوليد» فبطش بالروم بطشة كبرى . وقد لخص لنـا خبر هذه الوقعة خطيبنا الافرنسى .

فقال :

« قطع خالد بن الوليد رمال جزيرة العرب المحرقة حتى بلغ أرض الروم ، ونال هذا القائد الباسل انتصارا عليهم كان من أعجب الانتصارات التى خـلدت ذكـره فى تواريخ الأجيـال . وهكذا كان دم عدة آلاف من الروم كافيا للانتقام من سفالتهم ، ولم يكن طمعا فى غنائمهم . ومن ذلك الحين عزم محمد على انتزاع سورية من يد هرقل . وبعد قليل من الزمن رأيناه يمشى

اليها على رأس ثلاثين ألف محارب ، وكان قبل ثمان سنوات ، فى وقعة بدر ، لم يمكنه أن يجمع تحت رايته أكثر من ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلا . فاجتاز الصحارى والرمال المحرقة كالبرق الخاطف ، وعسكر فى « تبوك » ومن تلال رمالها أشرف على سورية . وقد كفاه عشرون يوما لاخضاع جميع البلاد التى فى طريقه . ولما لم يسلموا وضع عليهم الجزية ، ورجع الى عاصمته مثقلا بالغنائم ، مجللا بالفخار ثم فى ثالث مرة جهز محمد لفتح « سورية » جيشا عرمرما يبلغ أربعين ألف مقاتل . غير أن المنية اعترضت سبيله ، وحالت بينه وبين المسير إليها ، فتجلببت المدينة بأثواب الحداد على فقده ، وشملت سكانها كآبة لا توصف ، مما برهن على مقدار ما كان لمحمد من التسلط على العقول » .

عبد القادر المغربى
عضو مجمع اللغة العربية الملكى

تناسب الاصحاب

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « الصاحب مناسب » .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « ما من شىء أدل على شىء ولا الدخان على النار من صاحب على صاحب » .

وقال بعض الحكماء : « اعرف أخاك بأخيه قبلك » .

وقال بعض الأدباء : « يظن بالمرء ما يظن بقرينه » .

وقال عدى بن زيد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى
إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

قال الامام الماوردى عقب هذا الكلام : « فلزم من هذا الوجه أيضا أن يتحرز من دخلاء السوء ، ويجانب أهل الريب ، ليكون موفور العرض ، سليم العيب ، فلا يلام بملامة غيره . وهذا قبل التثبت والارتياء ، ومداومة الاختبار والابتلاء ، متعذر بل مفقود . وقد ضرب ذو الرمة مثلا بالماء فيمن حسن ظاهره ، وخبث باطنه ، فقال :

ألم تر أن الماء يخبث طعمه ... وإن كان لون الماء أبيض صافيا

السنة

الاخلاص (١)

ذكرنا لك فى مقالنا السابق نص حديث أبى أسامة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الاخلاص، وبينا بعض ما يتعلق به من فضيلة الاخلاص وحقيقته وحكمة مشروعيته . وبقى الكلام فى شرح ما يقتضيه «ظاهر ذلك الحديث من حبوط أجر العامل غير المخلص» والسكوت عن تأثيمه . وهذا هو موضوع كلامنا الآن .

إن الحديث وإن لم يكن فيه تصريح بنفى الاثم عن الذى جاهد فى سبيل الله يبتغى الثواب من عند الله والشهرة بين الناس، ولكن نفى الاثم مفهوم من المقام حتما، لأن السائل قد سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن أمر دينى محض وهو معرفة ما يترتب على هذا العمل من خير أو شر فى نظر الدين، فلو كان الرجل آثما لقال له صلى الله عليه وسلم: بل هو مأزور لا مأجور . وظاهر أن السائل كان جازما بنفى الاثم وإنما هو متردد فى أجر العمل وثوابه، فأقره صلى الله عليه وسلم على سؤاله، وأجابه بحبوط الأجر . وعلى هذا يمكننا أن نقول إن الحديث يفيد أن الذى يبنى عمله على سببين أحدهما دينى والآخر دنيوى يحبط عمله فقط بدون أن يكون عليه إثم، فلا له ولا عليه .

ولكن هذا «قد ينافى أصلا من أصول الدين القيمة، وهو أن الله سبحانه لا يضيع مثقال حبة من عمل الصالحات الصادرة عن المؤمنين، قال تعالى: «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» . وقال: «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكفى بنا حاسبين» . وذلك لأن الجهاد عمل بر صدر عن مؤمن، وكونه مبنيا على سببين أحدهما دنيوى لا ينفى عنه الخيرية رأسا بحيث لم يبق فيه مثقال ذرة من الخير . وإذا كان كذلك فكيف ينفى الحديث أجر ذلك العمل نفيا باتا؟ ويمكن أن يجاب عن هذا من أول الأمر بأن مصدر وصف الأعمال بالخير والشر إنما هو المشرع، فهو الذى يحكم بأن هذا الفعل فيه مثقال ذرة من الخير أو لا . فلا منافاة

---

(١) تابع لما نشر بهذا العنوان فى العدد السابق .

بين الآية الكريمة وبين الحديث أصلا ، لأنه متى ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صرح بأن العمل المبنى على سببين أحدهما دنيوى ، لا ثواب فيه ، فانه لا يكون فيه مثقال ذرة من الخير قطعا . ولكن الامام الغزالى قد فصل فى الجواب عن مثل هذا تفصيلا حسنا فقال ما ملخصه :

إن أعمال البر التى قد امتزج بها شىء من حظوظ النفس بأن عملت لغرض دينى وغرض شهوى ، فانها لا تخلو عن أحد أمرين : الأمر الأول : أن يكون السببان الباعثان على العمل متساويين بحيث لا يرجح أحدهما عن الآخر عند العامل . الثانى أن يرجح أحد السببين ويضعف الآخر . فان تساويا تساقطا وضاع الأجر وأصبح العامل لا له ولا عليه . وإن رجح السبب الدينى بحيث كان هو الباعث الأصلى على العمل والسبب الآخر جاء تبعا بحيث لو انعدم لا يترتب على انعدامه انقطاع العمل ، فان الثواب لا يحبط ، ولكنه ينقص بقدر رغبة العامل فى الحصول على ذلك السبب الضعيف . أما إذا رجح السبب الدنيوى بحيث إذا لم يوجد كف العامل عن العمل ، فان فى ذلك حبوط أجر العمل وإثم العامل ، لأنه جعل عبادة الله وسيلة للحصول على لذة ، فاذا كانت تلك اللذة محرمة كانت جنايته أشد وإثمه عظيما . وأكبر من هذا جرما من يعمل عملا دينيا لمحض الشهوة بدون أن يلاحظ أمر الله مطلقا ، لأنه فى هذه الحالة إنما يعمل لهواه ولذته ، مع اتخاذ عبادة الله سلما يتوصل بها الى الحصول على لذته ، فهو فى الواقع من شر الجناة المنافقين الذين يعملون على عكس قواعد الدين الذى جاء بالتوحيد الخالص ومحو عبادة الأوثان .

هذا إيضاح ماذكره الامام الغزالى ضمن كلام طويل . ولا ريب أن الحديث الذى معنا ينطبق عليه الأمر الأول وهو تساوى السببين ، لأن السائل ذكر للنبى صلى الله عليه وسلم السببين على السواء : الأجر من الله ، والشهرة عند الناس ، فأجابه عليه الصلاة والسلام بنفى الأجر فقط . ويمكننا أن نحمل جميع الأحاديث المماثلة لهذا على هذا المعنى .

ويؤيد هذا التفصيل الذى ذكرنا أن قواعد الدين الاسلامى تقتضى الترغيب فى أعمال البر وتعظيم اجر العاملين ، حتى ورد فى الصحيح أن من هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فان هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة . وهذا الترغيب يستلزم أن لا يحرم العامل من أجر عمل قام به . فان كانت فيه جهة نقص فانه ينقص من ثوابه بقدرها . نعم إذا كان الباعث له على هذا العمل مجرد الشهوة ، أو كان الباعث الدينى ضعيفا لا يترتب عليه استمرار العمل ، أو كان الباعث الدنيوى مساويا للباعث الدينى بحيث يتوقف عليه العمل ، فان العامل فى هذه الحالة لا يستحق أجره من الله ، لأنه فى الواقع لم يعمل لله . ومن سوء الأدب أن يعمل الانسان لتحصيل شهوة ثم يطلب أجرها من الله . والى هذا يشير الحديث الصحيح ، وهو : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك فى عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده فان الله أغنى الشركاء عن الشرك ».

فهذا الحديث يقول لمن انبعث الى عمل البر بباعث أشركه مع خالقه : إنه لاحق له فى طلب الأجر من الله تعالى ، لأنه لم يعمل له على التحقيق ، وهو سبحانه غنى عن عمله الذى يعمله له مع الشريك ، بل هو غنى عن العالمين جميعا .

وربما يتوهم بعضهم أن هذا الحديث يدل على أن الشرك يحبط أجر العمل مطلقا ، سواء أكان قويا أم ضعيفا ، لأنه عام يتناول كل شرك ، ولكن الواقع أن الشركة التى يترتب عليها أخذ الأجر من الشريك لا تتحقق فى نظر الدين الذى جاء بالعدل المطلق إلا إذا كان العمل موقوفا على الشريكين بنسبة واحدة ، أما إذا كان أحد الشريكين ضعيفا لايتوقف على انعدامه الشروع فى العمل أو الاستمرار فيه ، فليس من العدل أن يقال للعامل : خذ أجرك من هذا الشريك ، وإنما الذى يصح أن يقال له : لماذا لم تجعل العمل مقصورا على الغنى المطلق لتأخذ عليه أجرك كاملا ؟ ومن أجل هذا قلنا إن السبب الدينى إذا كان قويا بحيث لو انعدم السبب الآخر لا ينقطع العامل عن عمله بل يمضى فيه حتى ولو تألمت نفسه لعدم حصول السبب الضعيف ، فان الثواب لا يحبط ولا ينقص أجره بنسبة ذلك التألم وانقباض النفس على ضياع السبب الضعيف . أما إذا كان السبب الدينى ضعيفا فان الثواب يحبط ويأثم العامل ، لأن السبب فى هذه الحالة ينزل منزلة العدم .

وفى قوله : « فان الله أغنى الشريكين عن الشرك » توبيخ لمن يشرك مع الله غيره فى أعمال البر ، لأن العامل الذى يطلب الجزاء الحسن على عمله لا يكون عاقلا إذا ترك الغنى المطلق الذى لا يحتاج الى معونة الشريك فى منح الأجر ، وعمل للمحتاج الذى لا يعطى الأجر إلا بنسبة محدودة وقدر معين .

ولا يخفى أن هذا التفصيل الذى بيناه إنما هو فى أعمال الجوارح : من جهاد وحج وصوم وصلاة ونحو ذلك ، وتسمى عملية . ولكن بقى من أعمال البر أعمال اللسان وتسمى قولية ، وأعمال القلب وتسمى اعتقادية ، فهل ينطبق هذا البيان عليها أولا ؟ والجواب أن عمل اللسان كعمل الجوارح من كل وجه ، فتارة يكون مبنيا على سبب واحد ، وتارة يكون مبنيا على سببين ، فيجب على كل متكلم أن يبنى كلامه على سبب واحد صحيح وهو مرضاة الله تعالى . فاذا بنى قوله الدينى على غرض دنيوى محض فانه يكون آثما لا محالة . مثال ذلك أن يتلو شخص القرآن أو ينطق بالذكر بحضرة من يحب الصالحين ليؤثر عليه بذلك فينال منه منصبا أو مالا أو جاها أو ليقال عنه إن الرجل لا ينفك لسانه عن الذكر وتلاوة القرآن ، ولولا ذلك ماقرأ ولا ذكر ، فهذه الحالة توجب الاثم ، لأن هذا نفاق فى أعمال البر يستحق عليه فاعله سوء العقاب . ومثل ذلك ما إذا نطق بكلمة حق يريد بها باطلا ، كما إذا قال لاحول ولاقوة إلا بالله ليغرى بها ذا سلطان على الوقيعة بمتهم برىء ، فانه يأثم بذلك إثما مبينا .

فاذا بنى الانسان عبادته القولية على سببين أحدهما دنيوى كان فيه التفصيل الذى ذكرناه من جميع الوجوه . وكما أن الشارع قد نهى عن بناء العبادة القولية على سبب لا يقره الدين فكذلك نهى عن كل قول تبعث اليه الشهوة والهوى . فحرام على كل مؤمن ومؤمنة أن يتكلم بما لا يرضى الله تعالى : كأن يمدح ظالما لا يستحق المدح للحصول على غرض دنيوى ، أو يذم شخصا لا يستحق الذم تشفيا وانتقاما ، أو يقول زورا من القول ليقتطع به حقا ، أو ينال به من عرض برئ أو نحو ذلك . ومن يفعل ذلك فانه يكون من المجرمين الذين لهم سوء العذاب .

وأما أعمال القلب وهى الاعتقاد فانه لا يتصور بناؤها على سبب مؤقت ، إذ لا يعقل أن يعتقد الانسان أن الله موجود ليظفر بمال أوجاه حتى إذا ما ظفر بذلك زال اعتقاده ، وإنما الذى يتصور فى ذلك أن يظهر ذلك الاعتقاد كذبا كما كان يفعل المنافقون فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فانهم كانوا يظهرون الايمان بالله ورسوله ليظفروا بالغنيمة أو ينجوا من بطش المؤمنين ، أو يحاولوا إغرار ضعاف الارادة ليردوهم عن دينهم ، أو نحو ذلك من البواعث الفاسدة والشهوات المذمومة . وذلك هو الرياء فى العقيدة ، وهو من أقبح أنواع الرياء ، بل هو عند الله أكبر من المجاهرة باعتقاد إلهين أحدهما يقرب الى الله زلفى ، أو يقوم بمهمة يستحق عليها العبادة كما كان يفعل المشركون المجاهرون . وذلك لأن النفاق فى العقيدة جناية عظمى على المجتمع الانسانى ، فانه أمضى سلاح يستعين به الشرير خبيث النفس فاسد العقيدة على قضاء لبانته ، ولولا أن الله سبحانه كان يوحى الى رسوله صلى الله عليه وسلم بما كان يضمره هؤلاء المنافقون من الشر لكان أثرهم فى محاربة الاسلام والمسلمين يومئذ عظيما ، لأن اختلاطهم بالمؤمنين مكنهم من الاطلاع على مواطن الضعف منهم والكيد لهم وهم غافلون . وها نحن أولاء نرى آثار المنافقين الضارة بالجماعات والأفراد فى كل زمان ومكان ، فكم من منافق تمكن باظهار العقيدة التى يحبها صاحب السلطان كذبا من التنكيل بالأبرياء والقضاء على الحق والعدل ، وكم من منافق أظهر إيمانه للناس فتمكن من الاساءة اليهم فى أغراضهم وأموالهم وهم لا يشعرون .

ثم إن العقيدة تارة تكون متعلقة بالله تعالى ورسله ونحو ذلك من الأصول المعلومة من الدين بالضرورة ، وتارة تكون متعلقة بغير ذلك ، فان كانت متعلقة بالله تعالى فانه يجب أن تبنى على سبب واحد وهو كونه تعالى موجدا للانسان ، وموجدا للوسائل التى بها يبقى فى الحياة الدنيا بقاء مؤقتا ، وفى الآخرة بقاء دائما مستمرا . فالاعتقاد فى أن الله إله واحد واجب الوجود متصف بجميع صفات الكمال لا يصح بناؤه إلا على ما ثبت بالدليل القاطع الذى لا ريب فيه من أنه وحده خالق الانسان وخالق الوسائل التى بها يبقى من سماء وأرض وشمس وقمر وماء وهواء وسائر أجزاء العالم ، فلا يستحق العبادة إلا من كان هذا شأنه ، وقد انحصر ذلك فى الله

وحده . وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك فى مواضع كثيرة ، منها قوله تعالى توبيخا للمشركين « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » وقوله : « أفمن يخلق كمن لا يخلق » وقوله : « إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا » الى غير ذلك من الآيات التى تدل على ان الذى يستحق أن يكون إلها معبودا إنما هو الخالق الرازق دون سواه . فمن يشرك مع الله فى العقيدة إلها آخر لسبب غير الخلق والرزق فهو جاهل بمقام الألوهية ، ولا يليق بالانسان العاقل أن يعبد من لا يخلق أو من يشرك معه إلها آخر يخلق ويرزق ، فهو أشد جهالة من الأول ، لأن الشركة على هذا الوجه تحد من سلطة كل منهما فلا يصلح أن يكون إلها لأن كلا منهما فى هذه الحالة يكون عاجزا عما تعلقت به قدرة غيره ، والاله يجب أن يكون كامل السلطة . وهذا السبب وهو الخلق والرزق دائم مستمر أقره الدين ، فيجب بناء العقيدة فى الله عليه . وإن كانت العقيدة متعلقة بالرسل فانه يجب أن تبنى على السبب الذى أثبتوا به رسالتهم من البراهين القاطعة ، فلا يصح أن يظهر أحد اعتقاده فى الرسول كذبا ليظفر بغرض دنيوى كما كان يفعل المنافقون ، ومن أظهر اعتقاده فى الله ورسله أو فى أصل من الأصول الدينية كذبا للوصول الى غرض من الأغراض فانه يكون كافرا بالله ورسوله ، ومأواه الدرك الأسفل من النار .

أما إذا كان الاعتقاد متعلقا بغير الأصول الدينية فان له جهتين : إحداهما الكلام فى جواز أصل الاعتقاد . ثانيتهما الكلام فى الاخلاص فيه ، فأما الأول فانه لا يحل لمكلف أن يعتقد فى أمر من الأمور إلا إذا أقره الدين على ذلك ، فيحرم أن يعتقد فى شخص مرتكب لجريمة الزنا أو مدمن على شرب الخمر أو تارك للصلاة أنه ولى من أولياء الله بناء على أنه قال له كلمة صادفت الواقع أو عمل أمامه أمرا غير عادى فى نظره ، لأن الدين الاسلامى لم يجعل هذه الأمور سببا للولاية ، بل جعل سبب الولاية الايمان والتقوى وهى اجتناب ما نهى الله عنه وعمل ما أمر به ، وذلك يستلزم بالضرورة تعلم العلم الدينى الذى يشتمل على الأوامر والنواهى . فالولى فى نظر الدين هو المؤمن العالم التقى لاغير ، قال تعالى : « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى » . فمن يعتقد الولاية فى المجاهرين بالفسق أو الجهلة الذين لا يعرفون الدين والايمان فانه يكون آثما بهذه العقيدة لأنه مخالف لقواعد دينه . وأما الثانى فانه إذا اعتقد فى العالم التقى الولاية وجب عليه أن يبنى اعتقاده على سبب واحد وهو مرضاة الله تعالى الذى أمر باحترام المؤمنين الأتقياء ومحبتهم . أما إذا اعتقد فيه الولاية لغرض آخر غير مشروع كأن يشفى له مريضا أو يقضى له حاجة ليس من شأنه قضاؤها ، فانه يكون غير مخلص فى اعتقاده ، لأنه بناه على سبب غير دينى . ومثل ذلك ما إذا أحب شخصا لصفة ممدوحة فى نظر الدين كالعدل ومكارم الأخلاق والعطف على الفقراء والمساكين ونحو ذلك من الصفات التى يرضى عنها الله تعالى ، فانه إذا بنى حبه وحسن اعتقاده فيه على صفة من هذه الصفات ، كان

مخلصا له ، واستحق على هذا أجرا عند الله . أما إذا بنى حبه فيه على غرض خاص مؤقت فاذا قضاه انقطعت محبته أو أظهر له المحبة وهو يبغضه ويحب إساءته فانه يكون منافقا يستحق على ذلك العقاب ، وعلى هذا القياس .

وبالجملة فانه يجب على الانسان أن يجعل أعماله كلها مبنية على الأسباب التى يقرها الشرع فى معاملة الخالق والمخلوق ، وبذلك تكون كلها خالصة لله تعالى الكفيل بجزاء العاملين المخلصين وإعطائهم ما تقر به أعينهم فى الدنيا والآخرة . فاذا عزم على الاخلاص ولكن خطرت له خواطر نفسانية تنافى الاخلاص ، فعليه مقاومتها بقدر المستطاع ، فاذا عجز عن ذلك فانه يمضى فى عمله ولا حرج عليه ، لأن الله تعالى لم يكلف الانسان إلا بما فى طاقته ، قال تعالى: «وما جعل عليكم فى الدين من حرج »

وفق الله العاملين الى الاخلاص فى القول والفعل والاعتقاد ، إنه سميع الدعاء ؟

عبد الرحمن الجزيرى

طلب الرزق بالسفر

روى أن عقبة بن ربيعة شاور أخاه شيبة فى النجعة فقال : إنى قد أجدبت ، ومن أجدب انتجع (أى قصد الى مواطن الخصب) . أخذ هذا المعنى أبو تمام الطائى فقال :

أراد بأن يحوى الغنى وهو وادع ولن يفرس الليث الطلا وهو رابض

وقيل لأعشى بكر الشاعر : الى كم هذه النجعة والاغتراب ، أما ترضى بالخفض والدعة ؟ فقال : لو دامت الشمس عليكم لمللتموها .

أخذه أبو تمام فقال :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فانى رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس إذ ليست عليهم بسرمد

وقال المأمون بن الرشيد : لا شىء ألذ من سفر فى كفاية ، لأنك فى كل يوم تحل محلة لم تحلها ، وتعاشر قوما لم تعاشرهم .

أخذ هذا المعنى شاعر فقال :

لا يمنعنك خفض العيش فى دعة من أن تبدل أوطانا بأوطان
تلقى بكل بلاد إن حللت بها أهلا بأهل وإخوانا باخوان

الاسلام والفلسفة

— ١١ —

ابن رشـــــد

تتمة فلسفته :

يرى ابن رشد أن المشاهد فى الكون هو حركة عامة شاملة ، وأن كل حركة لا بد لها من متحرك تقوم به وتحقق فيه ، وأن كل واحد من هـذه المتحركات معلول لمحرك يؤثر فيه ، وهـذا المحرك إذا اتصف بالحركة كان كذلك متحركا محتاجا الى محرك حتى تصل الى الطرف الذى يحـرك ولا يتحرك ، ويؤثر ولا يتأثر ، وهـو واجب الوجود أو عـلة العلل . وإذاً فالموجودات من حيث الاتصاف بالحركة والتنزه عنها قسمان : الأول هو واجب الوجود الذى تستحيل عليه الحركة المقتضية للتغير والصيرورة اللذين يستلزمان الانحصار والتحدد والامكان وأمثال هـذه النعوت المتعارضة مع جـلال الألوهية ولا محدوديتها . أما القسم الثانى فهو ماعدا واجب الوجود لذاته ، وهذا القسم لا بد له من الحـركة الأزلية الأبدية ، أما أزليتها فهى ضرورية لتحقق معلوليتها للبارى ، وأما أبديتها فلتحقق عليتها لمعلولاتها من ناحية ولسيرها نحو الكمال ، لترضى شوقها الطبيعى من ناحية ثانية . وفوق ذلك فانه لو لم تـكن الحركة أزلية وأبدية ، لا نعدم الزمان ماضيه وحاضره ومستقبله ، لأن كل صف منها مسبوق بما هـو أساسه ومنبعه ، وسابق لما هو ناشىء منه ومتفرع عنه ، ومن السلسلة الأولى نشأ المـاضى ، ومن الثانية ينشأ المستقبل ، إذ الزمان نتيجة لحركات الأفلاك ، وهى ليست إلا جزء الحركة الكونية العامة . والنتيجة من كل هذا أن الـكون سائر فى خضوع تحت راية القانون الطبيعى الذى لا يملك أحد التغيير فيه حتى الله نفسه . ويرمى ابن رشد من وراء هذا التصريح الى غاية معينة وهى أن جميع ما يحـدث فى الـكون ينشأ بطريقة آلية نشوء المعلول عن علته التى متى وجـدت استحال تخلف معلولها مهما كانت الحال ، وهو لهذا ينفى القول بوجود ممـكن الوجود ، ويخطىء جميع المتـكلمين القائلين به . ويرمى ابن سينا حين قسم الـكون الى واجب الوجـود وممـكن الوجود بأنه إنما كان يسايرهم ليرضيهم ، وأن الفيلسوف لا يمـكن أن يقول هذا ، لأن معلول العلة الواجبة الوجود يكون واجب الوجود حتما ، ولا يصبح ممـكن الوجود إلا إذا انعدمت علته .

ويرى ابن رشد كما راى ابن سينـا من قبله ، وكما رأى أستاذهما أرسطو من قبلهما ، أن

الموجودات كلها حلقات من السلسلة العامة التي طرفها هو المحرك الأول أو علة العلل أو واجب الوجود لذاته ، وما يليه من الحلقات معلول له ، وعلة فيما بعده ، حتى تنتهي جميعها على هذا النظام.

أما بطلان نظرية خلق الله للجزئيات فهو يعلله بأنه يلزم عليه أن يكون الاله خالقا لجميع الجزئيات من غير استثناء بطريقة مباشرة ، وهذا يقتضي انعدام الأسباب كلها ، لأنه لا معنى لأن يكون لبعض المسببات أسباب ، والبعض الآخر لا أسباب له ، لأن هذا يلزم عليه ترجيح أحد المتساويات بلا مرجح ، وهو باطل . وإذا ثبت كل هذه المقدمات وجب أن نؤمن بأن الماء لايبل ، وأن النار لا تحرق ، وإنما الذي يبل ويحرق هو الله ، وأن الانسان إذا ألقى حجرا تنسب الحركة في هذا الالقاء الى الله ، وأن الموت كذلك من فعل الله ، مع أن المشاهد عكس ذلك : فالنار تحرق ، والماء يبل ، والانسان هو خالق حركة الالقاء ، والجسم يحمل في ذاته بطبيعته عنصر الموت .

فيثبت إذاً ، أن لكل شيء سبباً مؤثرا فيما بعده ، متاثرا بما قبله ، الى أن نصل الى العلة الأولى . أما نظرية العقول عنده ، فلا تكاد تختلف عنها عند أسلافه ، غير أن كل عقل في رأيه إيجابي بطبيعة وجوده ، أي هو يؤثر في معلولاته تأثيرا مستقلا منقطعاً عن أية صلة أو أي اعتبار خارج عن وجوده ، وهذه نقطة خلاف أخرى بين ابن رشد وأسلافه من فلاسفة المسلمين الذين كانوا يرون — كما قدمنا — أن لكل عقل جهتين أو جهات ثلاثا على ما يختلفون في ذلك ، كجهة اتصال العقل بالبارى ، وتعقله إياه ، وهذه تسمى الجهة العليا ، وكجهة تعقله نفسه ، وهى الجهة الدنيا . فعن العليا يصدر كائن عال مجرد وهو العقل الذي يليه ، وعن الجهة الدنيا يصدر كائن أدنى أو غير مجرد وهو الفلك المعلول له ، ولكن ابن رشد قد خالف هذا الرأى وقال بالايجابية المطلقة . وهو يرى أن أكثر هذه العقول إيجابية إنما هو العقل العاشر المؤثر في هذه الكائنات الدنيا الأرضية ، لأنه دائم العمل . ولا ريب أن رأى الفارابى في هذه النظرية أقرب الى تعاليم الاسلام من رأى ابن رشد ، لأن الفارابى يقول بالاستمداد من البارى ، وابن رشد يقطعه .

النفس عنده :

يتفق ابن رشد مع الفارابى في عنايته بتقسيم النفس الى قوى مختلفة وإن كانت كلها متعاونة متكاتفة ، ويعتبر مذهبه فيها تجديدا في الفلسفتين : اليونانية والاسلامية ، لأنه أول من قال بأن النفس أو القوة العارفة في الانسان هى : فيض العقل العاشر الذي تجلى به على الكون المادى فاتخذه ظرفا له وحل فيه فأكسبه كل ما له من قيمة ، كما سيجئ في نظرية المعرفة عنده . أما الجنة والنار عنده كما عند ابن سينا فهما تمثيلان لأفهام عامة لا حقيقتان ، لأنه يقول مثله ببعث الأرواح فقط ، وهما يعللان هذا الرأى ، وهو منع البعث بالأجسام بالعلل الآتية :

(أولا) لأن الأجسام يختلط بعضها ببعض حين تتفتت وتصير ترابا ، فيتغذى به النبات ثم يأكله الانسان فينمو به ويصبح جزءا من جسمه . فالى أى الشخصين ينسب هذا الجسم الجديد ، وهو بعض من كليهما ؟

(ثانيا) إن الجسم لا يتكون إلا عن طريق طبيعى كتكونه فى المرة الأولى التى طاف فيها بأطوار مختلفة ، ونما أثناء هذه الأطوار بوساطة الأخلاط المركبة من العناصر الأربعة الآتية اليه عن طريق الأغذية ، من: طعام وشراب وهواء ، وهذا لا يتيسر فى العالم الآخر ، فالبعث إذاً للأجسام غير ممكن .

والجواب على المنع الأول هو أنه لا معنى لأن يعترف الفلاسفة لله بالقدرة التامة ثم يستبعدون عليه أن يفصل الأجزاء الآتية الى كل جسم من الخارج ، ثم يرجعها الى المصدر الذى أتت منه ، فان هذا على القادر شىء هين . على أن الشريعة نصت على بقاء قطعة من الجسم وهى عجب الذنب ، لتكون أصلا للجسم المبعوث . وهناك قول آخر بأن الجسم كله يفنى ، والله يعيده مرة أخرى ، وليس بمستعص على من أنشأ أن يعيد . أما أنا فأميل الى الرأى الأول ، لأنه أقرب الى المنطق أن يكون الجسم الذى شاهد الأعمال هو الذى يشاهد ثواب الروح أو عقابها ، ويشهد أمام الله على مارأى . وأما المنع الثانى فيجاب عنه بأنه لامانع من أن يكون لدى الله وسائل أخرى لانشاء الجسم من عدم ، أو لاعادة تكوين الجسم البالى من غير اجتماع الأخلاط وتلاقى العناصر التى يقصرون عليها قدرة الله . ومن حيث إن الزمن يرينا فى كل يوم أن عقائدنا الأولى فى قصر الأجسام على خواص معينة وفى حد الغايات بوسائل خاصة ، عقائد باطلة ، فينبغى ألا يعتمد الفلاسفة على هذا الخيال الواهى ، لاسيما وأن الله هو الذى اختار وسائل جمع الأخلاط لاعادة تكوين الجسم ، فليس يصعب عليه أن يختار لاعادة هذا التكوين وسيلة أخرى لم تدر لهؤلاء الفلاسفة بخلد .

أما الأدلة النقلية على البعث بالأجسام فلا محل فيها للشك ، ولا مجال للتأويل ، مثل قوله تعالى : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون » . وقوله جل شأنه : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » . وقوله تعالى : « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها » . وقوله سبحانه : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » . وقوله تبارك اسمه : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيي العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . الى غير ذلك مما هو جدير باسكات أفصح الألسنة وإخفات أقوى الأصوات ، وإخماد أنصع الحجج وأسطع البراهين . وإذا اتضح أن البعث بالأجسام ، ثبت أن الجنة والنار حقيقتان من الحقائق ، لا تمثيلان لأفهام العامة والجماهير كما رأى أولئك الفلاسفة .

والآن بقى أن نقول لهم جميعا : إنكم حين ترمون القرآن بأنه لا يقصد الحقيقه وإنما يقصد التمثيل لأفهام العامة الذين لا يدركون المعانى العالية إلا إذا صورت لهم بصورة مادية ، تتهمونه بالتمويه والاغراء . ومهما تأولتم فى أحكامكم على القرآن وأتيتم بالبراهين السوفسطائية المؤيدة لهذا التأويل ، فلن يحمل كلامكم على غير الاتهام بالتمويه . وهذا هو سر اتهام الامام الغزالى الأولين منكم بالكفر والمروق عن الدين .

نظرية المعرفة عنده :

بسط ابن رشد فى كتابه (سعادة النفس) وفى شرحه للكتاب الثالث من النفس لأرسطو نظرية المعرفة بسطا فاق فيه كل الذين تقدموه من فلاسفة العرب ، واستحدث فى هذه النظرية أفكارا جديدة لم يسبقه اليها أرسطو نفسه ، إذ نقد المؤلفين الذين شرحوا كتب أرسطو ولا سيما « الاسكندر الافروديزى » ثم أحل مذهبه المستحدث فى هذه النظرية محل ما هدمه من مذاهب أولئك الشراح الذين صوروا كلهم فى مذاهبهم عن أرسطو ثم اختلفوا فى النتائج ، لأنهم بنوها على مقدمات خاطئة .

يرى أرسطو أنه كما أن الانسان مركب من جسم وروح ، وهما جوهران مختلفان ، أحدهما إيجابى والثانى سلبى ، كذلك القوة العارفة مؤلفة من جوهرين متباينين تباين الروح للمادة ؛ وكذلك أحدهما سلبى والثاني إيجابى كالجسم والروح سواء بسواء . ولا ريب أن الايجابى عند أرسطو أرفع من السلبى ، لأن الأول فاعل مؤثر ، والثانى منفعل متأثر كما نص على ذلك فى فلسفته . ولما رأى الشراح هذا الرأى للمعلم الأول ورأوا كذلك أن السلبى الذى كمنت فيه القوة أسبق فى الوجود الذهنى من الايجابى ، وأن ثبوت هذه الأسبقية للسلبى ينافى ما حكم به عليه أرسطو ، صرحوا بأنه يجب أن يبحث عن تحقيق ما حكم به المعلم الأول على هذين النوعين فى غير النفس البشرية . وهذا لا يتيسر إلا إذا جزمنا بأن الشق الايجابى غير شخصى ، وقد قال الشراح بهذا ، ولكنهم وقفوا عند هذا الحد فعقدوا النظرية وأظلموها ، وتركوا العقول حائرة فى توجيه كلامهم عنها . فلما جاء ابن رشد صرح بأن هذا القسم الايجابى هو نفس العقل العاشر ، وهو أقرب العقول إلينا ، فهو يشرف على المعرفة العامة ويفيض علينا أجزاءها .

ملخص كل هذا إذاً ، هو أن أرسطو جزم أولا بان هناك شقين ، أحدهما سلبى والثانى إيجابى . ثانيا ، أنه قال بمادية الأول ولا مادية الثانى ، وأن الشراح استخلصوا من هذا أن القسم الايجابى يوجد خارج النفس البشرية ، وأن ابن رشد وحد بين هذا القسم الايجابى وبين العقل العاشر .

وقد قال الأسكندر الافروديزى : إن الشق السلبى المادى ليس إلا ظرفا للشق الايجابى الذى هو الحاكم المؤثر . وعلى الجملة : فالقسم السلبى فى الكائن هو ما كان يسميه العرب بالهيولى ، والايجابى هو ما كانوا يسمونه بالصورة . أما بالنسبة الى القوة العارفة ، فابن رشد يجزم بأن السلبى هو « هيولى » وأن الايجابى هو فيض العقل العاشر ، وأن ما لدينا من معارف خاصة هو بعض هذا الفيض العام من العقل العاشر .

وأدوات المعرفة البشرية عند هذا الفيلسوف هى العقل ، ورسله التى هى الحواس ، والوسيلة الوحيدة الموصلة الى جعل هذه الاداة تؤدى وظيفتها على أحسن وجه هى التثقيف وحده .

ومن هنا يرى مقدار عمق الطابع الأرسطوطاليس فى فلسفة ابن رشد أكثر ممن سبقوه من فلاسفة الاسلام ، لأن ابن سينا يقول بوسيلتين للمعرفة ، وهما : الثقافة والرياضة . وهذا هو التأثر بالمذهب الملفق الذى دس على أرسطو فى العصر الأسكندرى ، وما هو فى الحقيقة إلا مزيج من مذهبى أفلاطون وأفلوطين ، أما ابن رشد فهو يفرد الثقافة ويختصها بأنها وسيلة المعرفة . وهذا هو نص قول أرسطو : « أنا لا أعرف إلا إنسانين : إنسان مجرب عالم ، وآخر خال من التجربة جاهل » .

أما رأينا فى فلسفة ابن رشد ، فلا يكاد يخرج عن الدائرة التى هاجمنا فيها ابن سينا والفارابى ، لأنهم جميعا ينسجون على منوال واحد وهو منوال أرسطو الذى افتتنوا به فغالوا فى تقليده مغالاة حالت بينهم وبين النظر فى أقواله والروية فيما يخالف العقل السليم من مذهبه . فراجع ما رددنا به على هذين الفيلسوفين فى مسألتى قدم العالم وتوسط النفوس الفلكية فى نقل علم الجزئيات الى البارى .

هذا وقد نعود فى فرصة أخرى فنتحدث اليك عن بعض فلاسفة الاسلام الآخرين الذين لم نتناولهم فى هذه السلسلة ، فالى الملتقى .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

فلسفة ابن رشد

رأيه فى قدم العالم

قرأت ما كتبه حضرة الدكتور محمد غلاب فى رأى ابن رشد فى قدم العالم فلم أره مطابقا لمذهب ابن رشد المعروف لنا فى هذه المسألة ، بل ولا لغيره من مذاهب الفلاسفة الالهيين ، فرأيت أن آتى بنص ما ذكره ابن رشد فى كتابه فصل المقال ، وها هو ذا :

قال فى كتاب فصل المقال ما نصه : « وأما الصنف الموجود الذى بين هذين الطرفين فهو موجود لم يكن من شىء ولا تقدمه زمان ، ولكنه موجود عن شىء أعنى عن الفاعل . وهذا هو العالم بأسره ، والكل منهم متفق على وجود هذه الصفات الثلاث للعالم : فان المتكلمين يسلمون أن الزمان متقدم عليه أو يلزمهم ذلك ، إذ الزمان عندهم شىء مقارن للحركات والأجسام ، وهم متفقون مع القدماء على أن الزمان المستقبل غير متناه ، وكذلك الوجود المستقبل ، وإنما يختلفون فى الوجود الماضى والزمان الماضى ، والمتكلمون يرون أنه متناه . وهذا هو مذهب أفلاطون وشيعته . وأرسطو وفرقته يرون أنه غير متناه كالحال فى المستقبل ، فالموجود الآخر قد أخذ شبها من الموجود الكائن الحقيقى ، ومن الموجود القديم ، فمن غلب مافيه من الشبه بالقديم سماه قديما ، ومن غلب مافيه من شبه المحدثات سماه محدثا ، وهو فى الحقيقة ليس محدثا حقيقيا ولا قديما حقيقيا . ومنهم من سماه محدثا أزليا وهو أفلاطون وشيعته لكون الزمان متناهيا عندهم من الماضى . فالمذاهب فى العالم ليست تتباعد كل التباعد حتى يكفر بعضها أو لا يكفر » انتهت عبارته .

وتوضيح ذلك أنه قسم الموجودات الى ثلاثة أقسام : موجود لا عن علة ولا من مادة وهو الله واجب الوجود الغنى المطلق عن كل ما عداه ؛ وموجود عن فاعل ومن مادة والزمان سابق على وجوده وهى الأجسام التى ندركها بالحس كجسم الماء والهواء والنار والانسان والحيوان والنبات . وهذان القسمان من الموجودات لا خلاف فيهما ، إنما الخلاف فى القسم الثالث وهو الذى ذكرنا لك نص عبارته فيه . وبيانها أن مواد العالم التى لا تدرك بالحس قبل أن تأخذ صورتها الشخصية وما يتعلق بها من الأرواح المجردة عن المواد موجودة عن فاعل وهو الله تعالى باتفاق ، ولكن اختلفوا فى أنها مسبوقة بالزمان فتكون حادثة ، أو غير مسبوقة فتكون قديمة . أما المتكلمون فانهم يقولون إنها حادثة مسبوقة بالزمان . وأما الفلاسفة فمنهم من يسميها محدثا أزليا وهو أفلاطون وشيعته . أما كونها محدثة فلصدورها عن الفاعل ؛ وأما كونها أزلية فلوجودها قبل الزمان المتناهى عنده ، لأن الزمان له نهاية ينتهى عندها فى الماضى ، ومادة العالم والعقول موجودة قبل ذلك . ومنهم من يسميها قديمة وهو أرسطو وفرقته ، لأنهم

يقولون إن الزمان وهو مقدار حركة الفلك الأعظم لا أول له، فهى غير متناهية فى الماضى، فالعالم لا أول له لاستناده الى القديم الذى لا أول له. وسنوضح لك مذهبهم فى مقالنا الآتى

فابن رشد صرح بأن العالم موجود قبل الزمان، ويسمى محدثا لشبهه بالمحدثات الجسمية الصادرة عن الفاعل، وقديما لشبهه بالقديم الذى لم يتقدمه زمان. وقد قال بعد ذلك فى الكتاب المذكور: إن ظاهر القرآن يؤيد هذا، فقد قال تعالى: «وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء». فظاهر هذا يفيد أن العرش والماء كانا موجودين قبل الزمان المقارن لحركات الأجسام، ولكنه سكت عن كونه صادرا عن الاله بطريق الخلق والايجاد، فيكون له أول وإن لم يسبقه زمان، وهو صادر بطريق التعليل بمعنى أن الاله علة فيه فيكون وجوده مقارنا لوجود الاله فى الخارج مقارنة العلة للمعلول بحيث لا ينفكان عن بعضهما، فلا يكون له أول. وفى هذا المعنى الثانى نقص لأنه ينفى الاختيار عن الاله، ولهذا قام الخلف بين المتكلمين وبين الفلاسفة الذين نقلت عنهم نظرية العقول وقدمها وقدم المادة. وقالوا إن الذى يقول ذلك الكلام يكفر لأنه سلب عن الاله أخص صفات الكمال وهو الاختيار. فاذا كان ابن رشد يريد أن يوفق بين المتكلمين والفلاسفة فانه يلزمه أن يقول إن الفلاسفة لم ينفوا الاختيار عن الاله، وأنه لا يلزم من قولهم العالم قديم أنه لا أول له فى الوجود كالاله، وإنما هم يريدون أنه غير مسبوق بالزمان المعروف. وهذه النظرية يسلمها المتكلمون، وعلى هذا يكون الخلاف لفظيا كما قال ابن رشد.

ولهذا قال الدوانى والطوسى إن الفلاسفة لم ينفوا عن الاله الاختيار. وقال بعض علماء الفلسفة إنهم قالوا إن العالم واجب الوجود لغيره بمعنى أن الله تعالى أوجب على نفسه إيجاده أو تعلقت إرادته به فصار واجبا، فرأى ابن رشد التوفيق بين مذهب المتكلمين والفلاسفة فى هذه المسألة، لا أنه يقول إن الاله لم يزد عمله عن كونه صانعا يضع التصميم لمادة موجودة حركتها طبيعية فيها، وأنه يصورها بالصورة التى تقتضيها الحكمة كما يصور صانع الأباريق والقلل أوانيه من موادها الموجودة أمامه، وأنه لا عمل له فى التناسل الجبلى سوى تخليص الأبناء من الآباء، لأن هذا الكلام يفيد ظاهره أن المادة موجودة بطبيعتها غير مستندة الى الواجب، وأن ليس للاله إلا إفاضة الصور، وهو نقص عظيم فى مقام الألوهية ينزه تعالى عنه. فعلى حضرة الدكتور أن يذكر لنا النص الذى يدل على ذلك، أو يؤول عبارته بما يجعلها قريبة من مذهبه إن كانت تحتمل التأويل، كى لا يكون مثل هذا القول سببا فى الجرأة على مقام الاله. هذا وسنكتب فى العدد التالى بيانا لمذهب الفلاسفة وما قيل فيه، إن شاء الله.

عبد الرحمن الجزيرى

التشريع المصرى والتشريع الاسلامى

وضع التشريع الاسلامى مصالح الناس المتشعبة فى المنزلة الأولى من عنايته ، فتناول الكلام عن ملابسات النوع البشرى من فاتحة أمره الى خاتمة عمره ، ثم عقد علماء الفروع البحوث المستفيضة فى تلك المناحى ، فتناولوا الكلام عن النكاح ومقدماته وأحكامه وتوابعه ، وعن النفقة بأنواعها ، وعن الطلاق فى جميع صوره وأحكامه ، وعن العدة وأحوالها وآجالها ، وعن ثبوت النسب ، والرضاعة ، والوصية والحجر والهبة والمواريث . هذا الى أحكام المعاملات وأحكام الوقف ، كل ذلك بما لا مزيد عليه .

ولقد استطاعت المحاكم الشرعية أن تثبت بجلاء فى مدى خمسين عاما تقريبا كفايتها على ممارسة الفصل فى الأحوال الشخصية القائم عليها النزاع بين المتقاضين ، واضطلاعها دون سواها بتلك الأعباء الثقال ، حتى لقد حدثنى مستشار قدير وهو اليوم وزير أنه وقد كان رئيسا لاحدى الدوائر المدنية فى محكمة الاستئناف العالى كانت تعرض عليه قضايا يأتى فى ثناياها طلب حثيث من أصحابها بفرض نفقه لبعض هؤلاء على لسان محاميه ، ومع أنه كان مقتنعا بضرورة فرضية هذه النفقة على أن لا يزيد أجلها عن الضرورة الملابسة ، غير أنه من ناحية أخرى كان يرى أن معالجة هذا الباب من عمل القاضى الشرعى ، فيجب الالتفات عليه فى أخص شئونه ، والقاضى الشرعى إذا فصل فى باب النفقة بأنواعها مثلا فانما يصدر عن استهداء بالمشاهدات ومعالجة للمعضلات وما عرض له من تجاربه فى تطبيق الأحوال الشخصية المتعلقة بذات الانسان ، لا يعوزهم إذا أثبتت التجارب خطأ فى التطبيق أن يتقدموا صفا واحدا الى أولياء الكلمة وأن يطالبوا بادخال تعديل أو تعديلات على ما يجرى به العمل من مذهب أبى حنيفة ، فلا غضاضة عليهم أن يطلبوا الى أولياء الكلمة بتطبيق مذهب أو مذاهب لأئمة وإن لم يكونوا من الأئمة الأربعة متى كان فى تطبيق هذه المذاهب تحقيق لمصلحة المتقاضين وإبقاء على مرافقهم .

لكن ما أسرع أن تمخضت حيل الناس فى تطبيق مواد الطلاق ، ومواد النفقة ، وافتنانهم فى الهرب من تطبيق الأحكام الشرعية على مذهب أبى حنيفة عن عجز القضاة الشرعيين وعدم قدرتهم على تطبيق تلك الأحكام تلقاء ما يبديه المطلق من أفانين وحيل للفرار من طائلة العقاب ، وما يبديه المحكوم عليه بالنفقة ، وما يبرز من حيل المحتالين فى ذلك الميدان المنبسط الذى لا يحده تقنين ، ولا يردع عن العبث به رداع ، فجأر القضاة الشرعيون بالشكوى من فشل هذه التجربة ، وقد شعروا بضرورة البحث فى غير مذهب أبى حنيفة من المذاهب عما يسد حاجة المتقاضين ويفسح المجال للقضاة باعتبارهم المطبقين لأحكام الشريعة والمهيمنين على تنفيذها

فى مواد الأحوال الشخصية نائبين فى ذلك كله عن ولى الأمر فى البلاد ، وما يقطع الطريق على حيل المحتالين ، وما يفتح عيون الباحثين على ثروة غزيرة من العلم كانت ولا تزال منهلا ينهل منه المتقاضون وغير المتقاضين ، وما يقوم دليلا فى كل يوم على أن الفقه الاسلامى كفيل بمسايرة كل عصر وجيل ، وخليق بأن يحمل أمانة البشر فى مختلف مرافقه حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

فوضع مرسوم بقانون رقم ٢٥ سنة ١٩٢٠ خاصا بأحكام النفقة وبعض مسائل الأحوال الشخصية مؤلفا من ثلاث عشرة مادة ، وهو يتناول معالجة الأحوال التالية :

(١) النفقة (٢) العجز عنها وما يترتب على ذلك العجز من الآثار (٣) حكم المفقود وما يترتب عليه قبل الخصوم من حقوق (٤) حكم القاضى بالتفريق للعيب وما يترتب على ذلك العيب من آثار مباشرة وغير مباشرة (٥) الترخيص للزوجة بطلب التفريق من القاضى حال قيام العيب فى زوجها وحاجة المجتمع إليه (٦) أحكام عامة متفرقة . ثم درجت المحاكم على تطبيق ذلك القانون بأمانة وتوفيق ، ودرج المفتشون القضائيون فى وزارة الحقانية على تتبع تطبيق ذلك القانون ، وتبين المدى الذى وصل اليه من إصابة حاجات الجمهور وسد كفاياتهم وإقناعهم بأن فى ثنايا الفقه الاسلامى ما يكفل بعث الطمأنينة الى قلوبهم وإيصال الحقوق الى ذويها ، فلم تمض فترة من الوقت غير طويلة حتى استفاضت تقارير المفتشين القضائيين بأعطر الثناء على ذلك الأثر الطيب الذى تركه قانون سنة ١٩٢٠ فى نفوس المتقاضين .

وهكذا تحررت عقول طلاب الاصلاح من ربقة التقليد من كل قديم ، واقتنعوا بأن تطور الحياة وتشعب مسالكها وما يجد فيها من أحداث وعبر من أقوى الحوافز على تلمس أفضل المناهج فى باب التقاضى وكفالة مصالح الناس وردها الى أمثل طريق وأبلج محجة .

من أجل ذلك اطرد البحث عما يساير مصالح الناس ويماشى رغائبهم ، وما يدفع عن المجتمع علله وأمراضه ، فشعر المصلحون مرة أخرى بضرورة حماية الأسر من تلك الأمراض الفواتك التى لم يدفعها ما هو مدون منها فى لائحة المحاكم الشرعية خاصا بالطلاق وبالتفريق للغيبة وبدعوى النسب وسن الحضانة وما الى ذلك ، فوضع مرسوم بقانون رقم ٢٥ سنة ١٩٢٩ خاصا ببعض الأحوال الشخصية يتألف من ٢٥ مادة ، وهو يقع فى تسعة أبواب : الباب (١) الطلاق (٢) الشقاق بين الزوجين (٣) التطبيق لغيبة الزوج (٤) دعوى النسب (٥) النفقة والعدة (٦) المهر (٧) سن الحضانة (٨) المفقود (٩) أحكام عامة .

ولا تزال الأمة فى مسيس الحاجة الى وضع قانون موضوعى ، فاشير بوضع ذلك القانون ، ثم تألفت لذلك لجنة تحت رئاسة فضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الأزهر ، ونعتقد أنها بالغة ما تصبو اليه الأمة من كفايته لمرافقها وسد عوزها التشريعى .

لجا طلاب الاصلاح الى سن قانون موضوعى يحيط قــدر المستطاع بمرافق الناس ويسد كفايتهم القضائية ويحرر العقول من كل تقليد لا يتفق ومصالح الجمهور .

فالقول إذاً بعدم مسايرة التشريع الاسلامى فى شتى مراحله لتطورات الزمن وملابساته واللجوء الى اقتباس بعض الا نظمة الأوروبية فى معالجة شئوننا المتعلقة بالأحوال الشخصية المتعلقة بذات الانسان أو فى المعاملات القائمة على الحقوق المدنية ، ضلالة من ضلالات العقل ، ووضع للشئ فى غير مركزه اللائق به . فالتشريع الاسلامى قادر على أن يؤلف من أنماطه الصالحة ونظرياته الخـالدة المتمشية مع كل عصر وجيل للعالم كله قوانينه الجنائية والمدنية والتجارية ممـا نحاول بسطه فى بحوث تالية ؟

عباس طه

تصحيح أخطاء فى الجزء الثانى

ص	س	خطأ	صواب
٩١	٢٢	طسم	حم
٩٦	٣	ويريدن	ويريدون
٩٧	٢٧	بالرحمة	بالمرحمة

ووضعت أثناء الطبع صفحة ١٤١ مكان ١٤٠

ذخائر المواريث فى الدلالة على مواضع الأحاديث :

هو فهرس جامع لأحاديث الكتب السبعة يرشد الى مواطنها منه بطريقة سهلة . وهو فوق ذلك قد جمع مرويات كل صحابى وصحابية ، وأسماءهم ، مرتبة على حروف المعجم ، وعدد الأحاديث المختلفة المواضيع فى تلك الكتب جميعا .

قامت بطبعه جمعية النشر والتأليف الأزهرية ، وثمنه ستون قرشا .

تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد :

هو مجموع صالح من الأحاديث النبوية للامام زين الدين أبى الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقى من أهل القرن التاسع الهجرى .

قال فى مقدمته : « لما رأيت صعوبة حفظ الأسانيد فى هذه الأعصار لطولها ، وكان قصر أسانيد المتقدمين وسيلة لتسهيلها ، رأيت أن أجمع أحاديث عديدة فى تراجم محصورة ، وتكون تلك التراجم فيما عد من أصح الأسانيد مذكورة إما مطلقا على قول من عممه ، أو مقيدا بصحابى تلك الترجمة ، الخ الخ »

ثم أخذ فى سرد الأحاديث التى أخذ أئمة الفقه منها مذاهبهم ،وكلها أحاديث صحيحة ،مكتفيا بذكر راويها الأول عن الصحابى أو الصحابية .

وقد علق على هذا السفر الجليل فضيلة مصححه الأستاذ محمود حسن ربيع من علماء الأزهر

الفتح الربانى لترتيب مسند الامام أحمد :

صدر القسم الأول من الجزء الخامس من كتاب الفتح الربانى لترتيب مسند الامام احمد الذى يقوم بوضعه وشرحه فضيلة الأستاذ الشيخ احمد عبد الرحمن البنا ، وقد جاء على غرار ما سبقه من الترتيب الحسن والطبع المتقن ، وهو عمل جليل يشكر عليه الأستاذ . ويطلب منه بعطفة الرسام رقم ٩ بالغورية .

سنن الله الكونية :

نشرنا المقدمة البليغة لهذا الكتاب فى عدد سابق ، ونعود اليوم لتقريظه ، وإنه لعمل موفق قام به الأستاذ الجليل محمد احمد الغمراوى المدرس بكلية الطب والمنتدب لتدريس علم سنن الله الكونية فى كلية أصول الدين . فقد جمع فيه جمهرة من موضوعات علم الطبيعة كالمادة ،

والحرارة وأحوالها ، والسحاب ، والمطر ، والبرد ، والضوء وآثاره الكيماوية ، مفيضا الكلام فى كل منها بعبارة بليغة ، واطلاع واسع ، وبيان شاف . فنشكر لهذا المؤلف النابغة عمله الجليل ، ونرجو أن يوفق للمزيد منه خدمة للعلم .

حركة الكشف :

هذه رسالة تبين ماهية الكشف وفرق الكشافة وما يجب أن يتحلوا به من خلال وخصال ، وفوائد هذه الفرق وحاجة الأمم اليها . ثم يلى ذلك تاريخ الكشف فى الأمم ، وتاريخ الكشافة فى مصر ، وختمت الرسالة بمكان الكشف فى الاسلام .

وقد كتب هذه الرسالة مؤلفها الطالب النجيب الشيخ احمد الشربينى جمعه الشرباصى بعبارة طلية شائقة ، فنشكر له أجتهاده ، ونرجو له التوفيق فيما هو بسبيله من طلب العلم .

القراءة العصرية فى تعليم العربية :

وضع هـذه الرسالة الأستاذ الفاضل زيدان افندى بدران المصرى عضو دار التربيـة والتعليم بوزارة المعارف الافغانية سابقا لتعليم الايرانيين والافغانيين اللغة العربية . وقد سلك فيها مسلكا تعليميا حسنا يوصل الى الغرض المقصود منها من أقرب الطرق . وقد طبعها طبعا جميلا . فنشكر له همته فى خدمة اللغة العربية، ونرجو أن يوفقه الله للمزيد .

اختصار علوم الحديث :

هو كتاب جليل القيمة وضعه المحدث المشهور الحافظ ابن كثير المتوفى سنة (٧٧٤) هـ . وهو لعظم فائدته اختارته لجنة وضع المناهج فى علوم التفسير والحديث ليدرس كله فى كلية أصول الدين وأنواع منه فى كلية الشريعة . وقد قام بتصحيحه والتعليق عليه صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ احمد محمد شاكر القاضى بالمحاكم الشرعية والعضو بتلك اللجنة ، فجاء غاية فى الافادة والتحقيق .

وقد طبع طبعا أنيقا على ورق جيد. فنحث محبى الاطلاع على علوم الحديث على اقتنائه فانه من خيرة الذخائر العلمية .

بسم الله الرحمن الرحيم

الروح الاسلامية ومدى تأثيرها

فى النفس البشرية

— ٩ —

المقومات الجثمانية

لقد عنى الاسلام بالمقومات الجثمانية عنايته بالمقومات الروحية والعقلية ، وهـذه ميزة لم يشاركه فيها دين من الأديان المنتشرة بين جماعات البشر اليوم . فالذى يعرف عنها أنها تهدر المقومات الجثمانية فى جانب المقومات الروحية ، ولكل منها فى ذلك أسلوب خاص اشتهرت به فى هذا العهد شهرة عالمية .

فالبراهمة والبوذيون فى الهند وغيرها ، يرهقون أنفسهم عسرا ، ويسومونها التكاليف والرياضات المضنية ، كسرا لطغيان الجسم ، ومناهـدة لسلطانه ، تذرعا للوصول الى السمو الروحى ، والصفاء الوجدانى . ويروى عن خاصتهم فى هذا المجال ما لم يرو عن سواهم من أصحاب المجاهدات النفسية ، من ضروب التعذيب التى يعاملون بها أجسادهم ، طموحا الى هذه المنزلة . فمنهم من يقللون من طعامهم وشرابهم الى حد أن يصيروا كالهيا كل العظمية هزالا ونحولا ، ومنهم من يضيفون الى هذا إثقال أجسادهم بالسلاسل الحديدية ، بل منهم من يجلسون وينامون على أسنة مشرعة من المسامير ينفذونها متقاربة من أسفل أسرتهم لتباشر أطرافها المحددة أبدانهم .

وأما الاسرائيليون فانهم وإن لم يقـولوا بلعنة المادة ، فان فى ديانتهم ارهاقات جسدية لايتحملها إلا الأتقياء منهم ، وكانت سببا فى خروج الكثرة الغفيرة من إسرائيلى أوربا عن تقاليدهم فى مسألة السبت والشئون الغذائية ، واتباعهم ما يجرى عليه الناس هنالك ، فهم كما يقول المسيو (جـوليان ويل) حاخام باريس فى كتابه عن الديانة الاسرائيلية قد أصبحوا يهود قومية لا يهود ملية .

ونظرا لفداحة التكاليف الجسدية فى الديانة اليهودية ، وعجز أكثر الناس عن القيام بأدائها ، قد كلف كل ربانى يتقدم إليه رجل طالبا الدخول فى هـذه الملة ، أن يحاول رده عن قصده حتى لا يرتد بعد تهوده . قال المسيو جوليان ويل المذكور آنفا : «يجب على كل ربانى أن يرد كل طالب الدخـول فى عـهد ابراهيم ثلاث مرات ، لافتا نظره الى الصعوبات التى سيصادفها ،

والتكاليف الشاقة التى سيتحملها ، والأخطار التى سيتعرض لها . فاذا أصر على طلبه ، وتحقق الربانى بأن الدواعى التى تحدوه للتهود طاهرة ونزيهة ، فيمكنه أن يقبله فى حظيرة البيعة » ثم قال الحاخام المذكور :

« هذا التحفظ فى أمر طالبى التهود دعت اليه طبيعة اليهودية ونظامها الخاص الذى لا يقصد به إلا الاسرائيلى بادق معانى هذه الكلمة ، وأوجبته كذلك ما فى اليهودية من التكاليف الكثيرة التى يستدعى العمل بها نكران الذات والاخشيشان والثبات والشجاعة ، وأحيانا البطولة أيضا » انتهى

أما المسيحية فانها وإن كانت لا تبلغ شأو اليهودية فى التكاليف الشاقة ، فهى بنص كتابها وشروح علمائها ، ديانة زهد وتقشف ، وتخلص من علاقات الدنيا ، واعتداد بالروح دون الجسد .

أما الاسلام فقد امتاز عن جميع الأديان المعروفة بالعدل بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، فهو لا يتقاضى الآخذ به أن يحرم نفسه من متعة مادية ، ولا ملذة جسدية ، ما دام يتناولها من طريقها المشروع ، وفى حدها المعتدل ، بل لا يمنعه أن يبلغ أبعد شأو فى الغنى ما دام يؤدى حق الله منه ، وحق الله هو ما نص عليه فى كتابه من البذل فى سبيله ، والانفاق على عياله ، « الفقراء عيال الله » .

لم يقم الاسلام على هذا الصراط السوى بين الروح والجسد ذهابا منه أنهما سواء فى الدرجة ، أو أن الحياة الدنيا تساوى الحياة الآخرة . لا ، ولكن لأن الحكمة الالهية اقتضت أن يكون الدين العام الخالد مبنيا على قواعد العلم ، ونواميس الطبيعة . وقد قرر العلم ان العقل السليم لا يكون إلا فى الجسم السليم ، وأن السمو الروحانى لا يتأتى من حرمان الجسد من حاجاته ، ولكن من توفية تلك الحاجات فى دائرة الاعتدال ، وأن ذلك السمو ليس فى أن يعيش الانسان حياة سلبية لا أثر لها فى الخارج ، ولكن فى ان يعيش حياة إيجابية تستفيد من الوجود علما وحكمة ، وتفيضهما على من يجاورها من المزاملين لها فى الحياة .

نعم إن السمو الروحانى لا ينال بحرمان الجسم من حاجاته ، فان قصارى من يسلك هذه الطريقة أن ينفق السنين الطوال فى ترويض نفسه على الاقلال ، ذائدا إياها عن التطلع للمتع المادية ، باذلا فى هذا السبيل جميع ما أوتى من مذخور معنوى ، ثم يخرج من هذا الكفاح المضنى غير حاصل إلا على ميزة واحدة ، وهى ضبط النفس عما سوى الضرورى من مقومات الحياة ، ولكنه لا يكون حاصلا على السمو الروحى الذى يجد وراءه أهل الطموح العالى ، وهو أن يكونوا مالكين لقياد أنفسهم يصرفونها فيما يجب من الأعمال ، ومؤثرين فيما حولهم يوجهونهم الى حيث تستدعيه كرامة الحياة ، وشرف الوجود .

فاذا عمدنا هنا الى التشبيه ، فان الأولين يشبهون من يريدون كبح جماح مطاياهم باضعافها

بالمسغبة ، تفاديا من تحمل مشاق الترويض على أصوله المقررة ، فلا يحصلون بعد طول العناء منها إلا على أنضاء رازحة . وأما الأخيرون فيشبهون من يريدون أن يجعلوا من دوابهم سوابق تطير بهم الى الغايات القصية ، دون أن تعرضهم لأخطار الطرق وعقباتها ، فيلجأون الى أصول الرياضة الصحيحة يسومونها إياها فى اعتدال وأناة ومهارة ، فيبلغون ما يريدون منها صلابة عود ودربة ، حتى إذا جد الجد كانت طوع بنانهم فى الكر والفر ، قوية على كل مكاره الكفاح ، تسخو بنفسها على المعاطب كأنها أدوات مسخرة ، لا كائنات شاعرة .

كذلك الرجال إذا لجأوا فى التكمل الى الأسلوب السلبى فى حاجاتهم ، والتدبير الاذلالى لأجسادهم ، خرجوا من مراسهم هذا كالخلال هزالا ، وكالجوامد صبرا على الخسف ، فلم يصبحوا أهلا لأن يحموا حماهم ، ولا أن يردوا ضيما يراد بهم . فاذا لم تضطرهم النوازل الى الشك فى دينهم ، اضطر أخلافهم الى ترك العمل به ، فأصبح فيهم شبحا ذهنيا ، لا دينا عمليا . ومن يتامل فى أحوال الذين تدعوهم أديانهم لمثل هذا الضرب من الرياضة ، يجد ما نقوله جليا واضحا .

أما الاسلام فقصد من الدين أن يكون دستورا عمليا ، لا خيالا وهميا ، وأن تكون ثمرته إنشاء أمة تكون مثلا أعلى للأمم فى حماية بيضتها ، والذياد عن كرامتها ، والجرى على أكرم أصول العدالة ، وأشرف مبادىء الاجتماع ، لتصل الى أبعد شأو من المدنية الفاضلة ، والحياة الكاملة ، ويكون آحادها أعلام هدى فى كرم الطباع ، وسمو الأخلاق ، وشرف المقاصد ، وبعد الهمم ، ينصرفون فى تحقيق مراد الله من تكميل الخليقة ، انصراف النواميس المسخرة ، لا تصدهم عنه خاطرة من شهوة ، ولا بادرة من هوى ، ولا سانحة من وهن .

فلا يتهمنا متهم بأننا نغترف من الخيال ما نلهى به القارئين ، وننتزع من الوهم صورا ليس لها ما يدل عليها من الحوادث . فان الأمة الاسلامية فى صدر الاسلام كانت مثالا حيا لما نقول. ألم تتالف على أكرم المبادىء ، وأشرف الأصول ، طلبا للحق فى ذاته ، لا لدنيا تصيبها ، ولا لسيادة تحصلها ، وكان آحادها من السمو الخلقى ، والأدب النفسى والبطولة الفذة ، بحيث ضربت بهم الأمثال ، وتناقلت سيرهم الأجيال ، فلما اختلطوا بالأمم داخلها من إكبارهم وإعظام شأنهم ، ما حملها على الدخول فى ملتهم طوعا لا كرها ؟ فهل عهدت فى تاريخ البشر أن شرذمة من الناس ، تألفت فى أبعد بلاد الله عن الاجتماع وسياسة الشعوب ، تستهوى فضائلها مائة مليون من البشر فى مدى قرن واحد بدون دعوة غير السمت الصالح ، والمظهر الفاتن ؟

أليس ما نقوله هو ما نطقت به الحوادث ، وقرره التاريخ ، وشهد به حتى الأجانب ؟ فالاسلام قد رمى بأصوله ومبادئه الى إحداث مثل هذا الحدث الضخم فى العالم ، وما كان ليتأتى ذلك جريا على مبادىء رياضة سلبية ، تجرد النفس من أشرف نزعاتها الايجابية ، وتميت

فيها أكرم غرائزها الفطرية ، وتضعف منها أقوى عواملها المعنوية . فما خلق الله فى الانسان هذه القوى الغريزية ، والميول الجسدية ، والشهوات البدنية ، عبثا ، أو لتستوعب رياضتها وقمعها حياة الانسان كلها ، ثم لا تكون ثمرة هذا الجهاد كله فى أمة أو أمم برمتها إلا أن تصبح كالمومياوات المصبرة ، أو كالأشباح التى لاحياة فيها ، ولكنه خلق الانسان على هذه الصورة من تباين القوى ، وتنوع الغرائز ، وتخالف الميول ، ليصل الانسان بامتلاك ناصيتها ، وتصريفها فيما خلقت له ، الى مكانة من السمو وعدالة التصرف ، بحيث يصلح أن يكون خليفة الله فى أرضه .

الذى يراه الناس اليوم أن الجماعات البشرية قسمان : قسم على المبادئ السلبية ، وهى لاتفترق عن قطعان الماشية فى أيدى الأمم المتغلبة ، وقسم على الأصول الاباحية ، وهى قد حصلت على حظ من القوة والبطش ، بيد أنها قد انحطت الى الاباحة البهيمية ، التى لاتتناسب وكرامة الانسانية . وأنا لا أقول ذلك تعصبا لمذهبى ، ولكن الذى يقوله علماؤها وفلاسفتها حتى الماديون منهم .

ولو كانت هذه الحالة الاباحية سليمة من جراثيم العطب ، لأمكن أشياعها أن يدعوا أنها هى المثل الأعلى للحياة الأرضية ، ولكنها مبتلاة بجراثيم الأمراض الاجتماعية ، ومهددة بقارعة حرب عمومية ، لو حدثت لتصوحت زهرة المدنية ، وارتكست الانسانية لأسوأ عهودها البربرية . وقد ارتكست أمم متمدنة مرات عديدة الى البربرية الباحتة ، فمنها من أتيح لها الخلاص منها ، ومنها من بادت أو فنيت فى جثمان أمة أخرى .

فالحالة الوسطى بين الروحانية المتطرفة والمادية الباحتة ، أمر يستدعيه الاتزان الاجتماعى ، والاستقرار العالمى ، ولا يوجد فيما بين أيدينا من التعاليم ما هو حاصل على هذه الميزة فى تركيب هو غاية فى الحكمة غير التعليم الاسلامى .

نعم: قرر الاسلام أن الآخرة خير من الأولى ، وأن الكمال الروحانى هو الغاية التى يجب أن يتجه إليها كل مسلم ، ولكنه أمره أن لايغفل حظه من الكمال المادى ، حتى تكاد لاتجد فى القرآن تحضيضا على منزلة روحية ، إلا مقرونة بتحضيض على نيل مكانة مادية ، قال الله تعالى: « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » وقال : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ، للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير ، ولنعم دار المتقين » . وقال : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » وقال : « والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ، ولأجر الآخرة أكبر ، لو كانوا يعلمون » . وقد دلنا على مايجب أن يكون عليه دعاء المؤمنين من الجمع بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة ، فقال : « فمن الناس من يقول ربنا

آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا ، والله سريع الحساب ».

وفى الكتاب الكريم آيات كثيرة تحض المؤمنين على وجوب العناية بالجسم من ناحية النظافة وحفظ الصحة وعدم إرهاقه بالمشاق ، ولا حرمانه من متع الحياة واللذات المشروعة ، فقال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » . وقال : « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » .

مما يجب لفت النظر اليه فى هذه الآية الأخيرة أنه سمى حرمان النفس مما أحله الله اعتداء ، أى خروجا عن صراط العدل بين الطبيعتين ، وهذه غاية فى عناية الاسلام بالناحية المادية من الحياة الانسانية .

أما السنة فهى حافلة فى هذه الناحية بالحكم الباهرة . من ذلك ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لعبد الله بن عمرو بن العاص وقد بلغه أنه يفرط فى التنسك ، يصوم الدهر ويقوم الليل : «ياعبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ قال عمرو : فقلت بلى يارسول الله . قال : فلا تفعل ، صم وأفطر وقم ونم ، فان لجسدك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا ، وأن لزورك (١) عليك حقا ، وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، فان لك بكل حسنة عشر أمثالها ، فان ذلك صيام الدهر كله . قال عمرو : فشددت ، فشدد على . قلت يارسول الله فانى أجد قوة . قال فصم صيام نبى الله داود ولا تزد . قلت وما كان صيام نبى الله داود عليه السلام ؟ قال رسول الله : نصف الدهر» . فكان عبد الله بن عمرو بعد أن كبر يقول : ليتنى قبلت رخصة النبى صلى الله عليه وسلم .

أرأيت أحكم من هذا ؟ رسول كان يعبد الله حتى تتورم قدماه ، ويربط الحجر على بطنه من ألم الجوع ، ينهى آخذا بدينه أن يبالغ فى العبادة (٢) ؟ أتراه كان يصده عن خير؟ لا ولكنها الحكمة الاسلامية ترشد أهلها إلى أن الكمال الانسانى المنشود ، لا ينال بارهاق الأجساد ، ولكن بالعلم والعمل ، وتحرى الحق ، وتجنب الباطل ، وتطهير القلب ، وتهذيب النفس ، والوصول الى درجة الرجولة الكاملة .

محمد فريد وجدى

---

(١) لزورك اى لزائريك جمع زائر

(٢) لا يعترضن معترض بقوله : كيف ينهى النبى صلى الله عليه وسلم الناس عما كان يفعله هو من المبالغة فى العبادة ، فأن للنبوة باتصالها بالعالم الروحانى شأنا غير شأن سائر الناس .

السنة

بدء الخلق

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض » . اه من حديث رواه البخارى

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور :

(١) بيان معناه (٢) دفع ماعساه أن يوجد من تعارض ظاهرى بينه وبين بعض الأحاديث (٣) المقارنة بين العقيدة الاسلامية فى بدء الخلق وكيفية صدور العالم عن الاله ، وبين ما نقل من ذلك عن بعض الفلاسفة الالهيين .

١ — فأما معنى الحديث ، فهو أن النبى صلى الله عليه وسلم الذى لا ينطق عن الهوى ، بين لنا به قاعدتين عظيمتين ضلت فيهما عقول كثير من الناس :

إحداهما : أن العالم — وهو كل ما سوى الله — حادث مسبوق بالعدم له أول ، وأن الله وحده هو الأزلى الذى لا أول له ، فلم يشاركه فى الأزلية شيء ما ؛ وهذا المعنى يدل عليه صراحة قوله : « كان الله ولم يكن شيء غيره » . فكان بمعنى الدوام والاستمرار .

ثانيتهما : بيان اول المخلوقات ، والى ذلك أشار بقوله « وكان عرشه على الماء » الخ . والذى ينساق اليه الفهم فى هذه العبارة أن العالم المادى ينقسم الى قسمين : علوى وسفلى ، وأن أول المخلوقات العلوية هو العرش ، وأن أول المخلوقات السفلية هو الماء ، وذلك مصرح به فى قوله : وكان عرشه على الماء ؛ فان معناه أن أول المخلوقات عرش على ماء ، وليس المراد أن العرش ملاصق الماء ، بل المراد أن العرش فى جهة العلو ، والماء تحته ، كما تقول : السماء على الأرض . ولكن هل الماء مخلوق قبل العرش ، أو العرش مخلوق قبل الماء ؟ لا نص على هذا فى الحديث ، وإنما قد يؤخذ من ظاهر قوله « وكان العرش على الماء » أن الماء خلق أولا ، على أنه قد ورد فى حديث مصحح مرفوع ، رواه أحمد والترمذى : أن الماء خلق قبل العرش ، وقد ورد التصريح بأن الماء أول المخلوقات على الاطلاق فى أحاديث أخرى بأسانيد مختلفة ، وعلى هذا يمكننا أن نقول : إن السنة الصحيحة تفيد أن أول المخلوقات المادية على الاطلاق هو الماء ، وأن العرش أول المخلوقات العلوية ، خلق بعد الماء ، وتسميه الحكماء فلك الأفلاك . أما كون الماء أصل الموجودات كلها

فاننى لم أعثر على ما يدل عليه فى السنة . وقـد روى الامام الرازى عن كعب الأحبار أن الله خلق قبل كل شىء جوهرة ، ونظر اليها نظر الهيبة ، فارتعدت ، وذابت ، وصارت ماء ، فحصل البخار وظهر على وجهها زبد بسبب الحركة ، وارتفع منها دخان ، فحصل من الزبد الأرض ، ومن الدخان السماء . ولـكن يظهر أن هـذا مأخوذ من الاسرائيليات التى لا ثبت لها . ولذا نقله صاحب المواقف عن الملل والنحل بمعنى غير هذا . فقال : إن ثاليس الملطى يرى أن الماء قد أبدع منه الجواهر كلها من السموات والأرض وما بينهما ، قال صاحب الملل والنحل : وكأنه أخذ مذهبه من الـكتب الالهية ، ففى التوراة أن الله خلق جوهرة ... إلى آخر ما نقله الرازى عن كعب .

على أن التوراة الموجودة بين أيدينا لم تذكر ذلك فى سفر التـكوين ، ولم تشر اليه ، بل الذى يستفاد منها عـكس ذلك على خط مستقيم . ولا دليل على أنه كان موجودا فيها قبل التحريف ، فلا يمـكن التعويل عليه على كل حال . وليس فى قوله تعالى : « ثم استوى الى السماء وهى دخان » ما يؤيد هذا الرأى ، لأن مصدر هذا الدخان يحتمل أن يكون نارا لا بخارا منبعثا من الماء كما هو رأى من قال : إن أصل الموجودات هو النار لشدة بساطتها ، ثم حصل منها الباقى بالتـكاثف ، فالماء أصله نار أضاف الله اليها مادة أثقلته ، وخلق فيه الحرارة ، فهو نار متـكاثفة ، والهواء كذلك ، والأرض كذلك ، وهكذا . وبالجملة فالآراء فى أصل الموجودات لا يمكن إثباتها بدليل عقلى أو نقلى يصح التعويل عليه ؛ وكل الذى تدل عليه الأحاديث الصحيحة هو ما بيناه لك من أن أول المخلوقات المادية الماء ، يليه العرش ، ثم من بعدهما خلقت السموات والأرض ، وما بينهما ، وهذا هو معنى الحديث الذى معنا .

فان قلت : إذا كان العرش والماء مخلوقين كالسموات والأرض ، فلماذا لم يقل : وخلق عرشه على الماء ، كما قال : وخلق السموات والأرض ؟ قلت : إنه عبر بكان فى جانب العرش والماء للاشارة الى أنهما أول المخلوقات المادية كما ذكرنا ، فلو قال وخلق عرشه على الماء ، وخلق السموات والأرض ، لاختلط الأمر على السامع ، فلم يدر أيهما خلق أولا ؛ على أن هذا مجرد تعليل لاختلاف العبارة وإلا فالحديث صريح بأن العرش والماء مسبوقان بالعدم بلا نزاع . فـكان فى قوله : وكان عرشه على الماء ، مقابلة لـكان فى قوله : كان الله ولم يكن شىء غيره ، فهى فى الأول بمعنى الدوام ، وفى الثانى بمعنى الحدوث ، واستعمالها فى المعنيين مشهور ، وهذا ظاهر ، إذ لا يتصور عاقل أن كان الثانية مثل كان الأولى فى الأزلية ، لما فى ذلك من التناقض الظاهر فى نص الحديث ، لأنه قد نفى أن يكون مع الله شىء ما بقوله « ولم يكن شىء غيره » فلا يعقل بعد ذلك أن يقول : وكان معه فى الأزل العرش والماء .

بقى فى معنى الحديث شىء آخر وهو أنه قال « وكتب فى الذكر كل شىء » . فما هو الذكر ؟ وهل الـكاتب هو الله تعالى مباشرة ، أو أمر غـيره ليكتب ؟ والجواب عن الأول أن الذكر

هو اللوح المحفوظ ، وهو جسم عظيم خلقه الله من مادة جميلة (درة بيضاء) كما قال ابن عباس ليكتب فيه كل الموجودات . وبعضهم يرى أنه عبارة عن علم الله تعالى ، فهو الذى تعلق بسائر الموجودات كليها وجزئيها ، صغيرها وكبيرها . وبعضهم يرى أنه مايلوح للملائكة ليفهموا منه. ولكن ظاهر الكتاب والسنة يؤيد القول الأول . والخروج عن الظاهر بدون ضرورة لامعنى له ، فان خلق اللوح ممكن سهل بالنسبة للأجرام الأخرى ، وإثبات الموجودات فيه ليرجع اليها الملائكة عند الحاجة حسن جميل ، فلأى شىء نخرج عن الظاهر؟ . أما الجواب عن الثانى فان الكاتب هو القلم ، ونسبت الكتابة الى الله لأنه هو الآمر . وقد ورد هذا المعنى صريحا فيما رواه احمد والترمذى مصححا من حديث عبادة بن الصامت مرفوعا : « أول ما خلق الله القلم ثم قال اكتب فجرى بما هو كائن الى يوم القيامة » .

والذى أفهمه فى معنى القلم هنا أنه قوة معنوية ، مجردة عن المادة ، خلقه الله تعالى وأودع فيه سرا يدرك به كل معانى الموجودات ؛ ثم أمره أن يكتبها فى اللوح على ما هى عليه . ولعل هذا هو معنى قولهم: إن القلم أمر نورانى ، أى منسوب إلى النور الالهى ومغمور به ، فلا تكتنفه ظلمات المادة . وظاهر مما بيناه أن اللوح والقلم مخلوقان بعد الماء والعرش . فالنبى صلى الله عليه وسلم بين لنا فى أحاديثه الكريمة أول المخلوقات المادية والمعنوية ، وإننى لا أرى معنى لانكار المجردات ؛ وأرى الحق مع الذين يقولون بها من فلاسفة المسلمين ، لأن الأمور المعنوية المعقولة موجودة فى المحسوسات التى بين أيدينا يدركها كل عاقل من غير شك .

٢ — أما الأحاديث التى يتوهم أن بينها وبينه تعارضا ، فمنها ما ذكرناه من أن أول المخلوقات القلم ، ومنها ما رواه فى المواهب من أن أولها نور النبى صلى الله عليه وسلم ، ومنها ما ورد من أن أولها العقل ؛ فكون أحد هذه الأمور أول المخلوقات يتعارض مع كون الآخر أولا . ويمكن أخذ الجواب بسهولة مما بيناه ، وذلك لأن كل واحد من هذه الموجودات أول نوعه : فالماء أول كل شىء ، ومع ذلك فهو أول الموجودات المادية السفلية . والعرش أول الأجرام العلوية ، والقلم أول المخلوقات المعنوية ، ونور نبينا إن كان المراد به وجوده الذى ترتب عليه إخراج الناس من ظلمات الشرك الى نور الايمان ، فيكون معناه أنه صلى الله عليه وسلم أول الأنبياء الهادين وجودا ، بمعنى أن الله خلق روحه قبل أرواحهم ومنها استفادوا وجودهم بتوسطها ، فهو أول الأنبياء وجودا ؛ وإن كان المراد نور النبوة الذى انتفع به العالم من أوله الى آخره ، فهو أول نور خلقه الله تعالى متعلقا بروحه عليه الصلاة والسلام ، ومنه استمدت أرواح الأنبياء نورها . وبالجملة فهو أول النبيين خلقا ، ونوره أول كل نور . أما ما ورد من أن أول المخلوقات العقل ، فقد قال الحافظ ابن حجر : إنه لم يثبت من طريق يصح التعويل عليه ، وعلى فرض ثبوته فاننى أقول : إن المراد به القلم ، وسمى عقلا لأنه عقل كل معاني الموجودات التى أمره الله بكتابتها فى اللوح المحفوظ ، وفهم أسرارها .

٣ — أما المقارنة بين العقيدة الاسلامية ، وبين ما نقل عن شرذمة قليلة من الفلاسفة الالهيين القائلين بقدم العالم ، فانه يحتاج أولا الى شرح مذهبهم هذا ، فنقول: قد عرفت مما بيناه لك أن المسلمين يعتقدون أن العالم بأسره سواء أكان ماديا أم مجردا عن المادة حادث مسبوق بالعدم ، وأن الله فاعل مختار متفرد بالأزلية والقدم ، فلا شيء من الأجسام وصفاتها بقديم ، ولاشيء من المجردات عند من يقول بها بقديم . وهذه العقيدة قد اتفق عليها جميع المليين . قال فى المواقف : إن جميع المليين من مسلمين ويهود ونصارى ومجوس اتفقوا على أن الأجسام وصفاتها حادثة ، ولكن أرسطو ومن تبعه من الفلاسفة المتأخرين كالفارابى وابن سينا قالوا إنها قديمة بذواتها وصفاتها. أما من تقدم أرسطو من الحكماء فانهم قالوا: الأجسام قديمة بذواتها حادثة بصفاتها . وتوقف جالينوس من الحكماء الأقدمين اه . ملخصا من المواقف .

وتوضيح هذا المقام يحتاج الى بيان أمرين: أحدهما معنى قدم العالم الذى قالت به الفلاسفة . ثانيهما ما الذى حمل هؤلاء على الشذوذ فى الرأى عن جميع المليين ؟

والجواب عن الأول : أنهم يقولون إن القديم له معنيان : قديم لذاته ، وقديم لغيره . ويريدون من القديم لذاته ، واجب الوجود لذاته ، وهو الله وحده الذى تقتضى ذاته الوجود والكمال المطلق ،فلا يحتاج الى غيره لا فى وجوده ولا فى كماله التام. أما القديم لغيره ،فهو الممكن الذى لم يسبق بالعدم بل صدر عن الواجب لذاته بطريق التعليل . ولاريب أن المعلول مرتبط بعلته فى الوجود الخارجى ، فلا يمكن أن توجد العلة التامة الآن مثلا ثم يوجد معلولها بعدها بلحظة ، إذ لو انفك المعلول عن علته طرفة عين لم تكن علة تامة له ؛ فواجب الوجود لغيره هو الذى لاينفك وجوده عن وجود القديم لذاته طرفة عين ، وإن كان القديم لذاته متقدما عليه فى التعقل ضرورة تقدم العلة على معلولها عقلا . وإذا أردت أن تعرف مثالا يوضح ذلك فانظر الى أصبع متحركة بها خاتم ، فانك فى هذه الحالة تجزم بأن حركة الأصبع وحركة الخاتم مقترنان فى الوجود الخارجى ، وتجزم الى جانب هذا بأن حركة الاصبع متقدمة على حركة الخاتم بحسب ذاتها ، لأنه لو لا حركة الاصبع ما جاءت حركة الخاتم . فالعالم قديم عندهم بهذا المعنى ، فهو من حيث ذاته ممكن مستفيد الوجود من الواجب لذاته ، ومن حيث كون الواجب ـ تعالى عن ذلك ـ علة فيه قديم . فهذا هو معنى القدم بالغير . وكأن ابن سينا أراد أن يسهل قبول هذا الأمر على النفوس فقال فى الاشارات مامعناه : إن الواجب لغيره قد يكون من المحدثات الشخصية المتفق على حدوثها من الجميع . وذلك لأنه إذا تعلقت إرادة الفاعل بزيد مثلا ، ووجد ، كان وجوده واجبا لغيره لا محالة لاستحالة عدمه حال وجوده ، فالواجب لغيره تارة يكون دائما مستمرا وهو المعلول الذى لم يسبق بالعدم ، وتارة يكون مؤقتا وهى الحوادث المسبوقة بالعدم . ولكن ابن رشد شنع عليه فى فصل المقال وقال إن الممكن المؤقت يستحيل أن يكون وجوده ضروريا وإلا لانقلب الممكن ضروريا ، ووصفه بأنه رجل مخترع كلامه فى غاية السقوط . ولكن الواقع أن

عبارة ابن سينا هذه صحيحة ، وأن المتكلمين يوافقونه عليها، لأن ما تعلقت ارادة الله بوجوده يكون وجوده ضروريا لا محالة . ولكن ابن سينا قد اخطأ خطأ واضحا فى اتباع أرسطو فى نظرية قدم العالم ، بل قد شط فيها شططا مدهشا لامبرر له إلا ما تخيله من حجج واهية وأدلة جدلية فارغة كما ستعرفه بعد . وبيان مذهبهم : أنهم قد قسموا العالم الى قسمين مادى ، ومجرد عن المادة ، والمادى ينقسم الى فلكيات وعنصريات ؛ فأما الأفلاك فهى عندهم قديمة باجسامها وصورها التى وجدت عليها كما هى جزئياتها وكلياتها ، فالفلك الجزئى المشخص معلول القديم بشكله وشخصه ، فلا يتغير ، وإنما الحادث فيه هى حركاته وأوضاعه المترتبة على هذه الأوضاع المتغيرة ، فكل حركة منه مسبوقة بحركة قبلها ، فالحركات الجزئية الشخصية حادثة ، وأما معنى الحركة الكلى الذى يحمل على هذه الأفراد فهو قديم . وكذلك معنى الفلك الكلى فانه قديم عندهم . وذلك لأنهم يقولون إن الكلى أمر وجودى له تحقق فى الخارج ، مثلا زيد الموجود خارجا مركب من التشخص والانسانية وهى الحيوانية والناطقية ، فالحيوانية والناطقية جزء من زيد الخارجى ، وجزء الموجود فى الخارج موجود فى الخارج ، فالمعنى النوعى لزيد ، وهو الانسانية ، موجود فى الخارج ؛ فالأفلاك عند هذه الفرقة قديمة بجزئياتها ومعانيها الكلية وهى أنواعها ، وهذا هو معنى قولهم إنها قديمة بالشخص وبالنوع . وأما العنصريات فانها قديمة عندهم بموادها وصورها الجسمية بالنوع ، مثلا النار مركبة من هيولى ، وهى مادة النار، وهى لا تعقل وحدها ، وصورة جسمية وهى التى تعقل بها مادة النار ، فصورة هذه النار الجزئية الجسمية حادثة ، أما معنى هذه الصورة وهى طبيعة خاصة يترتب عليها الاحراق فانها قديمة بمعنى أن الصور الجزئية تتعاقب على مادة النار فما من صورة إلا وقبلها صورة وهكذا .

ولا يرد على هذا بأن النوع لا يوجد إلا فى إفراده فمتى كانت الأفراد حادثة كان النوع حادثا لان ابن سينا ومن معه يقولون إن الكلى له وجود فى ذاته ، غاية ما هناك أنه لا ينفك عن الجزئى فى الخارج فلا يوجد خارجا إلا مقارنا للجزئى ، هذا معنى قدم العالم المادى عندهم وأما المجرد عن المادة فهم يقولون إنه قد صدر عن الاله عقل مجرد عن المادة وهو أول الموجودات وذلك لان ذات الاله واحدة من جميع الجهات لا تكثر فيها ، فلو صدر عنه جسم لكان متكثرا لان الجسم مركب من أجزاء فيكون الاله باعتبار كونه الاثر فى هذا الجزء غيره باعتبار كونه مؤثرا فى الجزء الآخر، فلا بد أن يصدر عنه عقل بسيط غير مركب يتوسط بينه وبين الموجودات المادية وهذا العقل عندهم مستقل بالتأثير وبالوجود فله وجود مستقل وتأثيره فى غيره مستقل وله جهات ثلاث ، وجوده فى نفسه ، ووجوبه بالغير ، وإمكانه فى ذاته ، فصدر عنه من كل جهة واحد ، فباعتبار وجوده صدر عنه العقل الثانى ، وباعتبار وجوبه بالغير صدرت عنه نفس متعلقة بالفلك ، وباعتبار إمكانه صدر عنه الجسم وهو الفلك الأول ، وهكذا

فى العقل الثانى والثالث إلى أن تكاملت العقول عشرة والأفلاك تسعة . والاخير يسمونه المبدأ الفياض ، هذا هو معنى قدم العالم وترتيبه فى الوجود عند أرسطو ومن تبعه .

أما الجواب عن الأمر الثانى وهو لماذا شذوا بهذا الرأى ؟ فاهم ما اعتمدوا عليه دليلان : أحدهما ما صرح به ابن سينا فى الاشارات من أن كمال واجب الوجود يقتضى أن يكون عاملا لا معطلا ، فاذا قلنا إن العالم مسبوق بالعدم كان الله معطلا بدون عمل . وهذا نقص . لهذا قلنا إن العالم صادر عنه بطريق التعليل على الوجه الذى بيناه . وهذه حجة تنتج عكس المطلوب ، وذلك لأن فى هذا سلب الاختيار عن الاله ، وحكما بأن العالم صدر عنه بطريق القهر ، وذلك يستدعى كونه مغلوبا لا محالة ، فكيف يكون إلها غالبا وهو مقهور على إيجاد هذا العالم ؟ على أن فى ذلك غفلة عن مقام الألوهية ، لأن الاله كامل فى ذاته من جميع الجهات بقطع النظر عن إيجاد العالم وإعدامه ، بل الكمال بالنسبة له تعالى أن يوجد العالم متى شاء ويعدمه متى أراد من غير أن يفيده وجود ذلك العالم كمالا وعدمه نقصا ، فهو سبحانه غنى عن العالمين بكل معانى الكلمة

الثانى صرح به أيضا فى الاشارات ، وهو أن الفاعل الأزلى يجب أن يكون فعله أزليا ، وذلك لأن فعله اذا كان حادثا فلا بد له من مرجح يخصه بالوقت الذى صدر فيه وإلا لزم الترجيح بلا مرجح .مثلا : تعلقت إرادته بايجاد العالم فى زمن آدم فلماذا لم تتعلق به قبل ذلك ، وأى مرجح يرجح هـذا على ذاك ؟ فان وجد مرجح فما الذى رجح هذا المرجح ؟ وهلم جرا فيلزم التسلسل فى الأمور الموجودة وهو محال . واذا كان فعل الأزلى قديما كان أثره قديما .

هذه هى أقوى أدلتهم . وهى سفسطة فارغة ،لأن الله سبحانه قد أوجد حوادث وقتية باتفاق، وقد تعلقت إرادته بايجاد زيد الآن فلماذا لم تتعلق به قبل ذلك بزمن طويل ، فاما أن تكون إرادته كافية فى الترجيح بدون أمر زائد ، وإما أن يكون زيد موجودا بدون مرجح ، او يقال إن المرجح لا يلزم أن يكون وجوديا .

وبالجملة فهذه عقيدة لا قيمة لها ،ولذا قال بعضهم : إن ابن سينا قد اخترعها ليستر بها قول أرسطو : إن الله كامل يترفع عن الدنايا فلا يصح أن يكون مبدأ لهذا العالم القذر ، بل هو مشرف مجرد إشراف . فحاول ابن سينا أن يقرر عبارته على هذا الوجه ، ولكن هذه العبارة لا يمكن إسنادها الى أرسطو على وجه التحقيق ، ولهذا قال فى المواقف : إن ماورد عن الفلاسفة فى هذا الباب من قبيل الرموز التى لا تفصح عن أغراضهم ، وإلا فخير للفيلسوف الذى يقول هذا أن ينكر الاله وتصرفه فى العالم ويكون طبيعيا لا إلهيا . وقد حاول الطوسى أن يبرر رأى ابن سينا فقال إن الفلاسفة لم يقولوا إن الله غير قادر وإن المتكلمين قالوا إن الله علة فى صفاته فهم كالفلاسفة فى هذا الباب ، ولكن ابن سينا ومن معه يلزمه أن يقول إن الله غـير قادر بلاشك لأنه سلب عنه الاختيار ، ومن قال من المتكلمين بأن الله علة فى صفاته مخطئ لا محالة .

وبهذا تعلم أن العقيدة الاسلامية من أن الله تعالى وحده هو المتفرد بالأزلية ، وأن كل ما عداه مسبوق بالعدم له أول ، هي عقيده التنزيه حقا ، فالاله الذي يرغم على كذا أو يقال عنه إنه علة تامة في كذا لا يصح أن يكون إلها. فالمسلمون إنما يعبدون إلها واحدا مجردا عن المواد وعلائقها ليس كمثله شيء ، وأنه هو وحده الأزلي الأبدي وكل ما سواه يستمد منه الوجود ومخلوق من عدم بلا شك ولاريب ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

عبد الرحمن الجزيري

دون الشهد ابر النحل

جاء في كتاب هندي : من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب ، ولم ينل الأمر الذي لعله أن ينال منه حاجته مخافة ما لعله يوقاه ، فليس ببالغ جسيما . وإن الرجل ذا المروءة ليكون خامل الذكر خافض المنزلة ، فتأبى مروءته إلا أن يستعلي ويرتفع ، كالشعلة من النار التي يصونها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعا ، وذو الفضل لا يخفى فضله وإن أخفاه ، كالمسك الذي يختم عليه ، ثم لا يمنع ذلك ريحه من التذكي والظهور .

أخذ ابن عبد ربه هذا المعنى فنظمه :

ختمت فأرة مسـك فأبت إلا التذكي
ليس يخفى فضل ذي الـفضل بزور وبافك
والذي يبرز بالفضـل غني عن مزكي
ربما غم هلال الـفطر في ليلة شك
ثم جلى وجهه النو ر فجلى كل حلك
إن ظهر اليم لا تر كبه من غير فلك
ونظام الدر لا تعـقده من غير سلك
ليس يصفو الذهب الابـريز إلا بعد سبك

حاجة الانسان الى الشريعة

وشيء من آيات الله وعظمته

إن النفوس الانسانية تمرض كما تمرض الأبدان ، بل هى مستعدة لذلك أكثر منها بمقتضى لطافتها ، وشدة تأثرها بكل ما تراه وتسمعه ،وبقوة انفعالها بأميالها وشهواتها. وإن أمراضها لأكثر من أمراض البدن على كثرتها . وقد يصل بها المرض الى حد الموت الروحانى بابطال خاصة الانسانية من العلوم والمعارف والأسرار والأنوار ، وإذا لا ينفعها الارشاد ، ولايجديها التعليم ، ولذلك يقول القرآن- يريد النبى عليه السلام - : «لينذر من كان حيا». وقد سمى الجاهل الضال ميتا فقال :«أو من كان ميتا فأحييناه » ، ويقول : «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » كما أثبت لها المرض فى آيات كثيرة . وكل ضلال فى العالم وكل شر على وجه الأرض ليس منشأه إلا مرضا من أمراض النفوس . وقد أرسل الله الأنبياء عليهم السلام أطباء لتلك الأمراض: يعالجونها بأنواع العلاج ، ويرسمون لها قانون حفظ الصحة إن كانت موجودة ، بالحمية عن دنس الأخلاق، ورذائل العادات ، وتعديل الاميال، ومراقبة النزعات والأهواء ، وردها إن كانت مفقودة . ومعلوم أن الانسان مركب من جزء علوى سماوى وجزء سفلى أرضى ، أو نقول من جزء روحانى ، وجزء جثمانى ، وأن الانسان لايسعى لمطالب الجزء الجسمانى من المطعم والمشرب واتقاء الحر والبرد الى غير ذلك إلا من حيث إنه حيوان لا إنسان فان ذلك مشترك بينه وبين غيره من الحيوانات ، وإن كان هو أوسع منها تفننا يستحق أن يسمى به سيد الحيوانات ،وتعلم- رعاك الله- أنه لا قيمة لما تشاركك فيه الحيوانات ،وأن الانسان لايكون إنسانا على الحقيقة إلا إذا وجدت فيه خاصة نوعه ، وإلا كان إنسانا بظاهره وصورته لا بباطنه ومعناه . ولذلك يقول القرآن فى حق قوم فسدت فطرتهم :«إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل»

فلهذا جاءت الشرائع الالهية ترقيك من حضيض الحيوانية الى أوج الانسانية ، وتذيقك شيئا من حلاوة ذلك العالم الروحانى : عالم البهاء والصفاء ، وتمتعك برياضه المونقة وحياضه المتدفقة ، وتنزهك فى جمال الملك والملكوت والعظمة والجبروت ، فتنفتح عين بصيرتك لاستطلاع ذلك الجمال الالهى الذى ظهر على صفحات الموجودات ، وتجلى بأروع ما يكون فى مرايا تلك المبدعات ، فتارة تقرأ فى خلال تلك السطور من العزة القعساء والعظمة والكبرياء ما تنشرح له الصدور وتبتهج به النفوس ، وتارة تطالع من حكمته تعالى فى خلقه وأسراره فى أرضه وسمائه ، ما تتحير فيه العقول وتخر لعظمته ساميات الأفكار ، وتارة تجول فى سعة الملك وعظمة الملكوت فتعرف أن أرضنا هذه جزء من ألف الف جزء وأربعمائة ألف جزء

تقريبا بالنسبة للشمس ، وأن الشعرى أكبر من الشمس بأضعاف مضاعفة ، وأن نور الشمس جزء من خمسين جزءا من نور الشعرى ، وأن المشترى يقطع فى الساعة الواحدة ثلاثين ألف ميل وزحل يسير فى الساعة ستين ألف ميل ، وأن الآلات الحديثة والنظارات المقربة قد اضمحلت وتلاشت فى جنب ذلك الملك العظيم ، والاكتشافات الحديثة ـ على عظمتها وكبريائها ـ خرت ساجدة تنادى بالعجز والقصور أمام تلك العظمة القاهرة والقدرة الباهرة . ويعلم الله ما وراء الشعرى من العوالم والنيرات « سبحانك ماعرفناك حق معرفتك » ولا يزال استطلاع الأسرار واستفاضة الأنوار ، ومطالعة الجمال غير المتناهى يستولى على قلوب بعض عباد الله المستعدين لذلك ، حتى إنهم ليصلون به الى حد التوله فى محبة ذلك المبدع العظيم ، والتدله بما يبهرهم من جمال ذلك القادر الحكيم ؛ ولا يسارعن الى إنكار ذلك بعض من تراكمت عليه الظلمات وأحاطت به الآفات ، فليس من الانصاف أن ينكر الانسان كل مالم يصل اليه ، بحجة أنه لم يصل اليه .

فما أضعف ذلك احتجاجا ، واسمجه برهانا ؛ فكم من أشياء كنا نجهلها غاية الجهل كالميكروبات وغيرها ، ثم تبين أنها عالم لا غاية له « وما يعلم جنود ربك إلاهو » . فكيف يكون الجهل دليلا على عدم الوجود ؟ ولعل هناك خاصة أخرى باطنية لم تخلق فيك وفى أمثالك .

لعمرك ماهذا بهزء وإنما   حديث غريب من بديع الغرائب

فاعرف قدرك أيها الانسان ، فما أنت إلا مخلوق ضئيل فى مخلوقاته ، وكائن صغير فى جانب مكوناته . وإذ كنت لست إلا عالما من عوالم هذه الأرض الكثيرة العدد ، وأرضك ـ بكل مافيها ـ ليست إلا شيئا يسيرا بجانب الشمس ، وليست الشمس إلا شيئا يسيرا بجانب الشعرى وليس ذلك كله إلا شيئا يسيرا بجانب بقية العوالم التى لم نعرف لها نهاية ، ولا وقفنا لها على غاية وقد جاء فى بعض الكتب الحديثة والمجلات العلمية ، أن أقرب كوكب لنا بعد نظامنا الشمسى يبعد عنا أكثر من ٢٥٠ مليونا من الأميال ، ومن الكواكب مايكون بعيدا جدا حتى إن النور الذى يقطع فى الثانية الواحدة ١٨٦٣٠٠ ميل يحتاج الى الآلاف من السنين حتى يجىء من الكوكب الى أعيننا ، والمنظور بالعين المجردة فى السماء ست آلاف نجمة . منها ثلاثة آلاف ظاهرة وثلاثة آلاف خفية . ويرى بالمنظار المقرب « التلسكوب » مائة مليون من النجوم .

أليس من المدهش أن نرى كوكبا بأعيننا وضوءه لا يصل الينا إلا بعد مائة سنة أو أكثر ؟ وقد عرفت سرعة سيره وأنه يسير فى الثانية الواحدة ٣٠٠و١٨٦ ميل ؛ فتأمل هذه المسافات العظيمة التى لا تستطيع أن تحسبها ، وانظر الى تلك الكواكب التى لا يعلم عددها إلا الله كيف قدرت ، وبأى طريق خلقت ، وبأى علم نظمت ؟ وهل يعقل أن هذه النظامات العجيبة والآيات البديعة تخلق سدى ، وتذهب شعاعا ، وتكون باطلا « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .

وقالوا فى محاسن المنظار المقرب « التلسكوب » إنه يرينا نحـو ١٠٠ مليون من النجوم ولـكن المنظر الطيفى أظهر ملايين الملايين .

ثم قالوا إن كثيرا من النجوم ضئيلة النور لفرط بعدها عنا ، فلا قبل لنا برؤيتها حتى بالمقرب.

وإن الشعرى اليمانية تبعد عن الشمس مليون ضعف بعدها عنا ، وهى تسير فى الدقيقة ألف ميل ، وإن ثلاثا من بنات نعش « مايا » ، « الـكترى » ، « ألسيون » يفضحن الشمس ، ويفقنها نورا ونارا ، الأولى بأربعمائة ضعف ، والثانية باربعمائة وثمانين ، والثالثة بالف ضعف .

أما سهيل فهو أسنى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة ، والسماك الرامح أسطع منها بثمانية آلاف مرة .

فعلى الحقيقة ليست الشمس أم نظامنا السيارى ، وما هى إلا نجمة صـغيرة بالنسبة لتلك الشموس . وكم حسبها الناس أكبر الأجرام السماوية وأسطعها .

أما السماك الرامح فهو ، على حد علمنا ، أسرع النجوم سيرا وأشدها تالقا وأكبرها حجما تقدر سرعته بثلاثمائة ميل وكسور فى الثانية الواحدة ، ونوره ثمانية آلاف ضعف نور الشمس وحجمه ثمانون ضعف حجمها .

أما بعده عنا فتخيله لنفسك عند ما تعـلم أن نوره لا يصلنا فى بضع دقائق كنور الشمس وهى على بعد ٩٢ مليون و ٥٠٠ الف ميل منا ، بل فى سنين كثيرة لا تقل عن مئين من السنين .

وأما الشعرى فنورها الواصل إلينا بعد سفرة طويلة مقدارها ١٦ سنة ، ضئيل جدا بالنسبة الى نورها وما هو إلا جزء من ألفى مليون من نورها الحقيقى .

وأن النجمة المعروفة بعدد ١٨٣٠ « غرومبرودج » تسير ١٢٠٠٠ ألف ميل فى الدقيقة والسماك الرامح ٢٢٠٠٠ ميل تقريبا فى مثل هذا الوقت القصير .

وهنـاك نجوم بعيدة عنا جدا بحيث تمر آلاف السنين ولا يكاد يظهر أدنى تغيير فى منظر القبة الزرقاء .

فلنقل ما قال (اللورد أوفبرى) فى كتابه (محاسن الطبيعة) :

« ليكسر الحاسب قلمه ، وليضرب التاريخى بيراعه عرض الحـائط ، وليقف الذهن كليلا والعقل مخبولا ، وليطلق الخيال فى هذا المجال ، ولا إخاله إلا رائدا مردودا » . ولذلك كله قال بعض فلاسفة الأوربيين من عظمة ذلك الملك : « يا الله ما أعظمك وأجلك وما أبهر قدرتك وأوسع علمك . ليت شعرى من ذلك المجنون الذى اجترأ فسماك لأول مرة . الله ؟ »

فماذا تـكون نسبتك أيها الانسان الشامخ بانفه ، الجـاهل بقدره ، بجانب تلك المخلوقات .

وعلام تتبجح كبرا وتيها وأنت الصغير « وكبير عليك اسم الصغير » أمام عظمة رب الأرض والسموات ؟

وليت شعرى ، بعد هذا ، ما شأن ذلك العرش الذى يصفه القرآن بالعظمة ولم نقف له على عين ولا أثر لا بأبصارنا ولا بنظاراتنا . وناهيك أمر يعظمه القرآن .

الله أكبر هذا البحر قد زخرا وهيج الريح موجا يقذف الدررا

سبحانك ، ما عرفناك حق معرفتك ، لانحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

عطف الكبراء على رجال دولتهم

بلغ المعتصم بن الرشيد ، وقد تولى الخلافة بعد موت أخيه المأمون ، أن أحد قواد الدولة « عبد الله بن طاهر » مريض ، فكتب اليه :

أعزز على بأن أراك عليلا أو ان يكون بك السقام نزيلا
فوددت أنى مالك لسلامتى فأعيرها لك بكرة وأصيلا
فتكون تبقى سالما بسلامتى وأكون مما قد عراك بديلا
هذا أخ لك يشتكى ما تشتكى وكذا الخليل إذا أحب خليلا

وكان شاعر يختلف الى يحيى بن خالد بن برمك ويمتدحه ، فغاب عنه أياما لعلة عرضت له ، فلم يفتقده يحيى ، ولم يسال عنه ، فلما أفاق الرجل من علته كتب اليه :

أيهاذا الامير أكرمك الله وأبقاك لى بقاء طويلا
أجميلا تراه أصلحك الله لكيما أراه أيضا جميلا
إننى قد أقمت عنك قليلا لا نرى منفذا إليك رسولا
ألذنب فما علمت سوى الشكـ ـر لما قد أوليتنيه جزيلا
أم ملالا فما علمتك للحا فظ مثلى على الزمان ملولا
قد أتى الله بالصلاح فما أنـ ـكرت مما عهدت إلا القليلا

فأرسل إليه الوزير يعتذر من ابيات :

دفع الله عنك نائبة الدهر وحاشاك أن تكون عليلا
أشهد الله ما علمت وما ذا لك من العذر جائزا مقبولا
فاجعلن لى الى التعلق بالعذ ر سبيلا أن لم أجد لى سبيلا
فقديما ما جاد ذو الفضل بالفضـ ـل وما سامح الخليل خليلا

أعلام القرآن

الله (١)

— ١ —

تمهيد — معنى لفظ الجلالة — أصله — أمرتجل هو أم منقول ؟
الفرق بين لفظى الاله والله — خواص

١ — تمهيد :

إن من يتصدى لدراسة تفسير القرآن الكريم ، وينصب نفسه خادما لكتاب الله الحكيم ، يعرض له كثير من البحوث المختلفة ، وتتفتح أمامه نواح عدة من الموضوعات المتشعبة ، وتتوارد عليه الفكرة تلو الفكرة ، ويبدوله الرأى إثر الرأى ، وكلها جدير بالبحث والدرس ، خليق بأن يفرد بالتأليف والتصنيف .

ولقد عرض لنا فيما عرض — ونحن نقوم بتدريس مادة التفسير — موضوع الأعلام الموجودة فى القرآن الكريم ، وما يتطلبه التعريف بها من جهد ومشقة ؛ فقد يصادف القارئ « علم » من هذه الأعلام ، فيرغب فى أن يعرف عنه فكرة صحيحة ، وأن يلم بموضوعه إلماما وافيا ، ثم يلتمس ذلك فى كتاب واحد ، أو موضع واحد ، فلا يجد ما يحقق رغبته ، ويقضى طلبته ، بل يجد الكلام عنه مفرقا هنا وهناك ، ومبعثرا فى أشتات الكتب ، وموزعا فى مختلف المقامات ، فما يفتأ يقرأ ويراجع ، ويفتش وينقب ، وينتقل من سفر الى سفر ، ويستوعب كل حرف وكلمة وسطر ، حتى يستطيع ، بعد الجهد الجهيد ، أن يخرج بأثارة من علم عن هذا « العلم » الذى صادفه أثناء قراءته .

عرض لنا هذا الموضوع ، ولم نجد — على ما نعلم — من اختصه بالكتابة ، أو أفرده بالتأليف ، كمبحث خاص من مباحث القرآن الكريم ، مستقل بنفسه ، قائم بذاته ؛ فحفزنا كل ذلك الى خوض غمار هذا الموضوع ـ على ترامى أطرافه ، وتزاحم الشواغل ، وقلة الاستعداد ـ وتحرك فى نفوسنا الميل الى الكتابة فيه على أسلوب ، يلذ القارئ ، ويشبع رغبته العلمية ، ويوفر الوقت على الباحث ، ويغنيه عن طول المراجعة ، ويكفيه مؤونة الحيرة والتردد بين أكداس الكتب ، ويعطيه الفكرة سهلة وافية يسيرة .

(١) من « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ولا ندعى أننا سنأتى فى هـذا الباب بما لم يسبقنا اليـه الأوائل ، أو أننا سنسجل فيه من الأقوال مالم يهتد اليه قائل ؛ وإنما سنعتمد فيما نكتب على كتب التاريخ والسير والانساب، والتراجم والتفسير واللغة والتصريف ودوائر المعارف والمعاجم وغيرها ، فنقرؤها ونستوفيها ونستوعبها ونستقصيها ، ثم نبـدى الرأى متخيرا ، ونسوق القصة صحيحة ، ونسرد الرواية معقولة ، ونذكر الواقعة مقبولة ، ونذلى بالفكرة محررة سليمة .

هذا وإنا نعتبر أن من أكبر أمارات التوفيق والقبول أن يكون أول « علم » نتوج به هذا الموضوع ، ونحلى به هامته ، هو الاسم العظيم الأعظم « الله » .

٢ — معنى لفظ الجلالة :

المأثور فى معنى هذا الاسم الكريم ، أنه اسم للموجود الحق ، الجامع لصفات الألهيـة المنعوت بنعوت الربوبيـة ، المنفرد بالوجود الحقيقى ؛ وقيل : معناه واجب الوجود الذى لم يزل ، ولا يزال ؛ وقيل : معناه الذى يستحق أن يعبد . واختلاف التعبير عن هـذا المعنى ، وتنوع صيغه ، لا يخرج عن أن المؤدى بها واحد ، كما قاله القرطبى فى تفسيره .

٣ — أصله :

نسب بعض المفسرين الى البلخى أنه زعم أن هـذا اللفظ ليس بعربى ، بل هـو عبرانى او سريانى معرب « لاها » ومعناه ذوالقدرة ، وقال بعضهم : إنهم يقولون : « إلها رحمانا ومرحياناً » فلما عرب جعـل « الله الرحمن الرحيم » ؛ ثم ذكروا أن ذلك الزعم باطل ، لأنه لايلزم من المشابهة الحاصلة بين اللغتين الطعن فى كون هـذا اللفظ عربيا أصليا ، واستعمال اليهود والنصارى لا ينهض دليلا ، لأن احتمال توافق اللغات لا يزال قائما ، ومتى كان هـذا الزعم لا دليل عليه ، فلا يصح أن يصار اليه (١) .

والذى عليه الاطباق من العلماء كالشافعى والأشعرى والخطابى، وإمام الحرمين ، والغزالى والرازى ، وأكثر الأصوليين والفقهاء ، وما عليه اختيار الخليل وسيبويه ، والمازنى وابن كيسان أن هـذا اللفظ عربى ، وقد جعل بعضهم ذلك فى رتبة الذى لا يحتاج الى برهان ، واستدل له بعضهم بأدلة لا تسلم من المناقشة .

٤ — أمرتجل هو أم منقول ؟

ذهب كثير من العلماء منهم الشافعى ، وأبو المعالى ، والخطابى ، والغزالى ، والمفضل ، والخليل ، الى أن هذا اللفظ علم مرتجل موضوع لذاته تعالى ، وأنه لا أصل له ، ولا اشتقاق ، حتى لقد قال الغزالى : إن كل ما ذكر فى اشتقاقه وتصريفه تعسف وتـكلف .

(١) مجلة الازهر — العبرية والعربية فرعا أرومة واحدة هى البابلية فلاعجب من توافق معظم ألفاظهما

وهـذا الرأى هو اختيار الجمهرة من قدماء المحققين ، وقد أوردوا له عدة وجوه تؤيد صحته ، وتثبت أرجحيته .

وذهب جماعة من العلماء الى أنه علم منقول من أصل ، ومتصرف فيه نوع تصرف ، ولـكنهم اختلفوا فى ذلك الأصل المـأخوذ منه هذا العلم على أقوال كثيرة ، منها :

(أولا) أنه مـأخوذ من « أله » كعبد « إلاهـة » كعبادة و « ألوهة » كعبودة ، و « ألوهية » كعبودية ، ومنه قرأ ابن عباس « ويذرك وإلاهتك » بكسر الهمز ، أى عبادتك .

فلفظ « الله » على هذا أصله « إلاه » على فعال ، بمعنى مفعول ، لأنه مألوه ، أى معبود ، كـكتاب بمعنى مكتوب ، وإمام بمعنى مؤتم به ، فلما أدخلت عليه أل حذفت الهمزة تخفيفا ، او لأنها عوض عنها ، أو أن ذلك لمعنى اختصت به أل ليس فى غيرها ، كما قيل بكل ؛ وروى المنذرى عن أبى الهيثم أنه سأله عن اشتقاق اسم الله تعالى فى اللغة ، فقال : كان حقه « إلاه » ادخلت الألف واللام تعريفا . فقيل : « الإلاه » ثم حذفت العرب الهمزة استثقالا لها فلما تركوا الهمزة حـولوا كسرتها فى اللام التى هى لام التعريف وذهبت الهمزة أصـلا فقالوا : «أللاه» فحركوا لام التعريف التى لاتكون إلا ساكنة ، ثم التقى لامان متحركتان ، فأدغموا الأولى فى الثانية ، فقالوا « الله » .

(ثانيا) أنه ماخوذ من « أله » كفرح ، ياله ، إذا تحير ، وذلك أن العبـد إذا تفـكر فى صفات الله تعالى ، تحـير فيها ، فالاه على هذا بمعنى مألوه فيه .

(ثالثا) أنه ماخوذ من « أله » بالمـكان كفرح ، إذا أقام به ، قال الشاعر :

ألهنا بدار ما تبين رسومها كأن بقاياها وشوم على اليـد

فالاه بمعنى آله ، أى دائم وباق

(رابعا) أنه ماخوذ من « أله » الى كذا ، ياله اليه ، إذا فزع ، ولاذ ، أى لجأ إليه ، لأنه سبحانه المفزع والملاذ الذى يلجأ إليه فى كل أمر ، قال الشاعر : ألهت إلينا والحوادث جمة

وقال آخر : ألهت إليها والركائب وقف :

فالاه على هذا بمعنى مألوه إليه .

(خامسا) أنه مأخـوذ من « أله » الفصيل ، إذا ولع بامه ، وذلك أن الخلق مولعون بالتضرع إليه فيما ينوبهم ، فيكون إلاه على هذا بمعنى مألوه له .

وأصـل لفظ « الله » على هـذه الأقـوال الخمسة إلاه ، كفعال ، تصرف فيه على نحـو ما ذكرنا أولا .

(سادسا) أنه ماخوذ « من لاه يلوه لوها » جاء فى اللسان «وحكى عن بعضهم : لاه الله الخلق يلوهم ، خلقهم ، وذلك غير معروف »

(سابعا) أنه مأخوذ من « لاه يليه ليها » إذا استتر واحتجب ، أو إذا علا وارتفع ، وهو — تعالى — الذى لا تدركه الأبصار ، والمرتفع عن إدراك العقول . وأصله على هذين القولين ـ السادس والسابع ـ « لوه » أو « ليه » على وزن فعل ، بفتح الفاء ، وسكون العين فقلبت الواو أو الياء ألفا تخفيفا ، فصار « لاه » فأدخلت أل ، وأدغمت اللام فى اللام ، فصار « الله » .

(ثامنا) أنه مأخوذ من « وله » كورث ووجل ووعد ، إذا فرح ، أو إذا طرب ، أو إذا تحير . وأصله على هذا « ولاه » كفعال ، فقلبت الواو همزة ، كما قالوا للوشاح إشاح ، وللوجاح — وهو الستر — إجاح ، فصار « إلاه » وأدخلت أل ، ثم جرى عليه من التصريف ما ذكرنا .

هذه خلاصة محررة لمجموع الأقوال التى قيلت فى أصل هذا اللفظ الكريم واشتقاقه ؛ وقد ذكر صاحب القاموس أنهم اختلفوا فيه على عشرين قولا ، وذكر صاحب تاج العروس أنهم اختلفوا فيه على أكثر من ثلاثين قولا .

وقد رجح بعضهم من هذه الأقوال الثمانية القول الأول ، وهو أنه من « إلاه » كفعال وبنى هذا الترجيح على كثرة دورانه فى الكلام ، واستعماله فى المعبود بحق ، وإطلاقه على الله تعالى .

٥ — الفرق بين لفظى الاله والله :

اختلفوا فى الفرق بين لفظى الاله والله ، فقال السيد هما علم لذاته ، إلا أنه قبل الحذف قد يطلق على غيره تعالى ، وبعده لا يطلق على غيره سبحانه أصلا .

وقال السعد : إن الاله اسم لمفهوم كلى ، هو المعبود بحق ، والله علم لذاته تعالى .

وقال الرضى : هما قبل الأدغام وبعده مختصان بذاته تعالى ، لا يطلقان على غيره أصلا ؛ إلا أنه قبل الادغام من الأعلام الغالبة ، وبعده من الأعلام الخاصة .

وجاء فى اللسان فى الكلام على مادة إله « فاذا قيل الاله ، انطلق على الله سبحانه ، وعلى ما يعبد من الأصنام ، وإذا قلت الله . لم ينطلق إلا عليه سبحانه وتعالى » .

وقال الخليل : « أطبق جميع الخلق على أن قولنا الله مخصوص بالله سبحانه وتعالى ، وكذلك قولنا الاله مخصوص به سبحانه وتعالى ، وأما الذين كانوا يطلقون اسم الاله على غير الله ، فانما كانوا يذكرونه بالاضافة ، كما يقال : إله كذا ، أو ينكرونه ، فيقولون : إله ، كما قال تعالى خبرا عن قوم موسى : « اجعل لنا إلها ، كما لهم آلهة » .

٦ — خواص :

أطال الصوفية وغيرهم فى ذكر خواص هذا الاسم الكريم ، وخواص حروفه الشريفة ، وأكثروا من ذلك إكثارا عظيما ، وأتوا فيه بما نستطيع أن نفهمه ، وبما لا نستطيع أن نفهمه .

ولما كان موضوع بحثنا يقتضينا أن نذكر طرفا من ذلك ، آثرنا أن نورد شيئا من هذا تمشيا مع ضرورة وفاء البحث حقه .

فما قالوا فى خواص الاسم الكريم ، أنك إذا دعوت الله بالرحمن ، فقد وصفته بالرحمة دون القهر ، وإذا دعوته بالعليم ، فقد وصفته بالعلم دون القدرة ، وأما إذا قلت : يا ألله ، فقد وصفته بجميع الصفات .

ومنها أنك إذا قلت فى كلمة الشهادة : أشهد أن لا إله إلا الرحمن ، أو إلا الرحيم ، أو إلا الملك ، أو إلا القدوس ، لم يكف ذلك فى دخول الاسلام ، أما إذا قلت : أشهد أن لا إله إلا الله ، فانه يكفى ، لاختصاص هذا الاسم بهذه الخاصية الشريفة .

ومما قالوه فى خواص حروفه : أن الألف مشتق من الالفة والتأليف ، ألف الله به جميع خلقه على توحيده ومعرفته بأنه إلههم وموجدهم ، وخالقهم ورازقهم ، قال تعالى « لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم » .

واللام الاولى إشارة الى الملك ، قال تعالى :

« لله ما فى السموات وما فى الأرض » وقال : « لله الأمر من قبل ومن بعد » وقال : « قل لمن ما فى السموات والأرض ؟ قل : لله » .

واللام الثانية إشارة الى لام الملك ، قال تعالى :

« له الملك لا إله إلا هو » وقال « له ملك السموات والأرض وما بينهما » وقال « قوله الحق ، وله الملك » .

والهاء هى هاء الاشارة الى مطلق وجود الحق ، وإثبات وحدانيته ، وإحاطته بجميع الأشياء كلها علما وإرادة وقدرة وملكا ، وذلك بعد حذف الألف واللامين ، قال تعالى : « هو ربى لا إله إلا هو » وقال : « إنما هو إله واحد » وقال « هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم » وغيرها وغيرها من الآيات .

هذا أول بحث نبدأ به موضوع « أعلام القرآن » ورجاؤنا فى الله الكريم أن يمدنا بالعون ، ويكلأنا بالتوفيق ، وأن يصرف عنا عوامل التثبيط والتعويق

فكرى يس
المدرس بالازهر

الفقه الاسلامى

والتقول عليه

المصادر :

(١) دائرة المعارف للعلامة محمد فريد وجدى
(٢) تاريخ الكنيسة للعلامة الالمانى « موسهيم »
(٣) تاريخ العرب لسيد يو
(٤) القضاء فى الاسلام لعارف الكندى
(٥) محاضرة فى الحقوق للاستاذ سعيد الغزى
(٦) فجر الاسلام للاستاذ أحمد أمين
(٧) مجموعة رسائل للاسفرنكانى من علماء ما وراء النهر
(٨) الأم للامام الشافعى

ادعى بعض الباحثين أن الفقه الاسلامى تأثر بالقانون الرومانى ، واستمد منه ، ونقل عنه إما مباشرة ، أو عن طريق التلمود الذى أخذ كثيرا من هذا القانون .

واستدلوا على هذه الدعوى بالأدلة الآتية :

١ — إن اتصال المسلمين باليهود مكنهم من الأخذ ببعض أقوال التلمود .

٢ — وإن المقارنة بين بعض أبواب الفقه وبعض أبواب القانون الروماني تقنع هؤلاء الباحثين بأن هذا الفقه نقل عن هذا القانون ، وأن هناك قواعد نقلت من القانون الروماني بنصها . مثل : « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » .

٣ — وإن كلمة الفقه والفقيه استعملتا وفقا لمعنى الكلمة المستعملة عند الرومان ؛ فهم يستعملون كلمة « Juris » وهى تدل على الفهم والمعرفة والحكمة .

٤ — وإنه كان فى الشام مدارس للقانون الرومانى عند الفتح الأسلامى ، وكان هناك محاكم تسير فى نظامها وأحكامها حسب القانون الرومانى ، واستمرت هذه المحاكم فى البلاد بعد الاسلام زمنا طويلا ، وقوم كالعرب حين الفتح لم يأخذوا من المدنية بحظ وافر إذا فتحوا بلادا ممدينة نظروا ماذا يفعلون ، وبم يحكمون ، ثم اقتبسوا من أحكامهم .

وإذا واجهنا هذه الدعوى وادلتها بالحق ، وجدناها غير صحيحة ، ومنقوضة بادلة كثيرة نلخص منها ما يلى :

١ — إن الفقه الاسلامى أصوله مدونة ، ومصادره معروفة ، وهى : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس . فلا يصح أن يقال فيه ، بعد ذلك ، وبعد أن بينت طرق الاستنباط من هذه الأصول ووجوه القياس عليها ، أنه فقه استمد من غيره ، أو نقل عن سواه .

٢ — إن التاريخ أحصى العلوم التى أخذها العرب عن غيرهم من الأمم ، ولم يذكر أن الفقه الاسلامى أخذ شيئا عن القانون الرومانى ، أو عن التلمود ، أو غير ذلك .

٣ — إن العلوم التى نقلت عن اللغات الأجنبية بقيت عليها مسحة من العجمة ، وفى ألفاظها مفردات غريبة عن اللغة العربية ؛ أما الفقه الاسلامى فهو عربى فى مفرداته وتراكيبه ، وإذا وجد فيه لفظ غريب فهو كما يوجد فى العلوم العربية البحتة كالادب مثلا .

٤ — لوكان الفقه الاسلامى استقى من القانون الرومانى لتسرب إليه شىء من الخزعبلات التى كانت تجرى فى مواطن هذا القانون كمثل محاكمة الحيوان والحكم عليه بالنفى أو بالتعذيب أو بالصلب ، وكمثل نبش قبور الموتى ومحاكمتها وإصدار الأحكام عليها ، وهذا ماتعالى الفقه الاسلامى عنه علوا كبيرا .

٥ — إن كلمة الفقه فى أصل اللغة العربية معناها العلم بالشىء والفهم له ، ثم غلبت على معنى العلم بالدين والفهم له ، وفى هذا المعنى استعملها القرآن الكريم قبل امتزاج العرب بالرومان ، فقال تعالى : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين » ثم غلبت هذه الكلمة على « علم التشريع » لأنه يتطلب فقها فى الدين ومعرفة بالكتاب والسنة ؛ وهذا شأن العرب فى أسماء العلوم ، تكون الكلمات عامة ثم تخصص .

٦ — لم يعثر على أى إشارة من فقيه من فقهاء المسلمين إلى القانون الرومانى على سبيل النقد أو التأييد أو الاقتباس أو غير ذلك ؛ فلو كان الفقه الاسلامى استمد من القانون الرومانى لوجد لفقيه مسلم ولو كلمة أو إشارة فى هذا الفقه إلى هذا القانون .

٧ — إنه لو كان الفقهاء تأثروا بالقانون الرومانى لكان اولى الناس بالتأثر بهذا القانون الامام الاوزاعى ؛ فلقد عاش فى بيروت — موطن أكبر مدرسة رومانية فى الشام — وكان أكبر فقيه فيها ؛ ولكنه لم يتأثر مطلقا بهذا القانون . ويدل القدر المنشور فى الجزء السابع من كتاب الأم من مذهبه انه كان من أهل الحديث ، وهى ابعد مظنة من التأثر بالقانون الرومانى .

٨ — إن وجود قواعد فى القانون الرومانى وهى بعينها فى الفقه الاسلامى ، ووجود تشابه فى بعض الأحكام والأبواب من الفقه الاسلامى وهذا القانون ، يدل على أن القانون الرومانى

هو الذى أخذ من الفقه الاسلامى ، وأن الشريعة الاسلامية هى التى أمدت هذا القانون ، وصيرته على الحالة التى هو عليها الآن .

فلقد كان القانون الرومانى مشوشا معقدا ، وعلى أتعس ما يمكن أن يتصوره الانسان كما بسط ذلك المؤرخ الالمانى الشهير « موسهيم » فى تاريخ الكنيسة . وبقى على هذه الحال لم يتغير فى أساسه تغيرا يذكر الى أواسط القرن الحادى عشر الميلادى ، أى بعد ظهور الاسلام بأربعة قرون ونصف .

وفى أوائل القرن الحادى عشر وجد هربرت الفرنسى — المعروف بين الأحبار الرومانيين بسلفستر الثانى « البابا » الذى جلس على كرسى مارى بطرس لغاية سنة ١٠٢٤ ميلادية — مع إخوان له من أنصار العلم والحق معا يتلقون العلوم فى مدارس الاندلس الاسلامية ، وفى جملتها الفقه الاسلامى المأخوذ من منابعه الاربعة : الكتاب ، والسنة ، والقياس ، والاجماع ، وكانوا يترجمون دروسهم الى لغتهم ، وبسبب رداءة الحقوق عندهم فكروا فى أن ينقلوا مايلائمهم ويوافق محيطهم من أحكام الفقه الاسلامى . وأقنعوا ملوك الجهة الجنوبية من بلادهم بضرورة ذلك ، وبعد أن اتفق رأيهم على ذلك اشترطوا عدم عزو المأخوذ عن الفقه الاسلامى اليه خوفا من نفرة العامة من المسيحيين الذين كانوا ينفرون من كل شىء مصدره الاسلام مهما كان حسنا ونافعا ، ومن أجل ذلك أجمعوا على تسمية مايأخذونه عن الفقه الاسلامى باسم : « الشرائع الرومانية » « أو القانون المدنى » « أو القانون الرومانى » وأن يعزوه لعلماء الحقوق منهم كنتيجة لبحثهم ودرسهم .

وهذه الحقائق ثابتة من مصدرين أحدهما شرقى اسلامى ، وثانيهما غربى غير اسلامى .

فأما المصدر الشرقى الاسلامى فقد جاء فى « مجموعة رسائل فى شوارد المسائل » للعالم الباحث « مفضل الاسفرنكانى » من علماء ما وراء النهر : أن أبا الوليد محمد بن عبد الله نقل فى تعليقاته على النهاية شرح الهداية : أن طلبة العلم من الافرنج الذين كانوا يسافرون إلى غرناطة بالانداس لطلب العلم اهتموا كثيرا بنقل « الفقه الاسلامى » الى لغتهم ليستعملوه فى بلادهم لرداءة الأحكام فيها خصوصا فى المائة الرابعة والخامسة من الهجرة ، وقد دونوا الفقه الاسلامى كاملا وحوروه الى ما يوافق بلادهم .

وأما المصدر الغربى غير الاسلامى ، فقد قال العلامة المؤرخ الالمانى الشهير « موسهيم » فى تاريخ الكنيسة فى كلامه عن القرن العاشر الميلادى : إن هربرت السالف الذكر كان مدينا بمعرفته لكتب عرب الأندلس ومدارسهم ، لأنه مضى الى اسبانيا فى طلب العلم وكان تلميذ علماء العرب فى قرطبة واشبيلية وأثرت سفرته فى الأوربيين المتشوقين للعلم ، فقد كان لهم من ذلك الوقت فصاعدا رغبة عظيمة فى أن يقرأوا ويسمعوا علماء العرب الساكنين فى اسبانيا

وبعض نواحى ايطاليا وترجموا كثيرا من كتبهم الى اللاتينية ؛ فعرب اسبانيا هم أصل وينبوع كل معرفة بزغت فى أوربا فى القرن العاشر فصاعدا ؛ وإن علم القوانين هو من أهم التعاليم والمعارف التى اشتهرت فى أوربا فى تلك الأوقات ، وإن ما أخذوه من القوانين المدنية والأحكام القضائية من الفقه الاسلامى هو مالقبوه بالقوانين المدنية الجديدة الرومانية ، أوالقانون الرومانى .

فظهر من هذا أن دعوى « سانتلانا » و « جولد زيهير » وغيرهما بأن الفقه الاسلامى استقى من القانون الرومانى هى دعوى غير صحيحة ، وأنالفقه الاسلامى هو الذى أمد القانون الرومانى وصيره على ما هوعليه الآن ؟

السيد عفيفى
بمحكمة مصر الشرعية

اعرف الشر ولا تعمل به

قيل لعمر بن الخطاب : إن فلانا لا يعرف الشر . قال ذلك احرى أن يقع فيه .

وسئل المغيرة بن شعبة عن عمر بن الخطاب فقال : كان والله له فضل يمنعه من أن يخدع ، وعقل يمنعه من أن ينخدع .

وقال اياس : لست بخب ، والخب لا يخدعنى .

وكان عامر بن عبد الله بن الزبير فى غاية الفضل والدين ، وكان حسن الظن بالناس ؛ فبينما هو جالس بالمسجد إذ أتى بعطائه فنسيه ، وهو منصرف الى منزله ؛ فلما صار فى بيته ذكره فقال لخادمه اذهب الى المسجد فأتنى بعطائى ، فقال له الخادم وأين نجده ؟ قال سبحان الله وبقى احد يأخذ ماليس له ؟

وقال أبو أيوب : من أصحابى من أرتجى بركة دعائه ، ولا أقبل شهادته .

قال ابن عبد ربه صاحب العقد : وكانوا يستحسنون الحنكة للفتى والصبوة للحدث ، ويكرهون الشيب قبل أوانه ، ويشبهون ذلك بيبوس الثمرة قبل نضجها ، وأن ذلك لا يكون إلا من ضرر فيها ؛ فأمتع الاخوان مجلسا ، وأكرمهم عشرة ، وأشدهم حذقا ، وأنبههم نفسا من لم يكن بالشاطر المتفتك ، ولا الزاهدالمتنسك ، ولا الماجن المتطرف ، ولا العابد المتقشف قال الشاعر :

وفتى وهو قد أناف على الخمـ　　سين يلقاك فى ثياب غلام

أسواق العرب

ومجتمعاتهم الأدبية

تقضى طبيعة الاجتماع البشرى أن يكون للعرب — كغيرهم من الناس — مجتمعات عامة، يتبادلون فيها مصالح الحياة؛ فكانت الأسواق مظهرا لتلك المجتمعات، وكانت مكة المكرمة لما لها من القداسة الدينية، موطنا لتلك الأسواق التى جعلتها موردا تجاريا خصبا تؤمه القبائل للارتفاق والمبايعة؛ وكانت هذه التجارة محدودة فى دائرة ضيقة تبعا للبيئة الطبيعية والاجتماعية ووسائل التبادل، فلم تكن تلك الأسواق لتقوم على هذا الغرض المادى المحدود، بل إن الطبيعة العربية استطاعت أن تضيف لها غرضا آخر أعطاها أهمية، وأكسبها نشاطا وحياة قوية، ذلك أن أصارتها مجتمعات أدبية عامة، فاذا قدمت القبيلة السوق كان فى مقدمتها شعراؤها الذين يذيعون مفاخرها، ويباهون بأحسابها، وخطباؤها الذين ينافحون عنها، ويعظمون شأنها وينشرون مجدها، وعندئذ تثور العصبيات ويتقاول الشعراء والخطباء، ويتغلب الأدب على التجارة؛ ولذلك كانت تلك الأسواق مصدر ثروة أدبية عظيمة، نستطيع بسببها أن نسميها «مدارس أدبية» كان لها أثر كبير فى تهذيب الأدب وتنقيحه، وتوجيهه وجهة فكرية عامة الأغراض والمقاصد.

ومن أهم تلك المجتمعات العامة وأبلغها أثرا، وأكثرها فائدة للأدب «سوق عكاظ» التى كانت أعظم أسواق العرب، يؤمها كبارهم وصغارهم، سادتهم وسوقتهم، يتبادلون فيها السلع للمتاجرة، ويتبارون ببليغ القول للمفاخرة؛ وكانت كل قبيلة ترد عكاظ تعد لها من القول عدتها، وتذكر من الفخار مايرفع بين العرب شأنها، وكان فحول الشعراء يردونها ليعرضوا أشعارهم على المحكمين من مقدميهم، فيروى عنهم مايقولون، ويأخذ طريقه الى القلوب فيعلق بها ويشتهر، ولعل هذا هو السبب فى تسمية القصائد العشر المشهورة المعلقات؛ وأما رواية كتابتها فى القباطى بماء الذهب وتعليقها على الكعبة، فلا يسلمها حذاق النقاد من أئمة الأدب، قال أبو جعفر النحاس: «إن الرواة لا يعرفون هذا، وأول من جمعها حماد الراوية، وسماها المشهورات». وقد مال الى مذهب التعليق على الكعبة ابن خلدون وابن رشيق، وصرح به ابن عبد ربه فى كتاب العقد الفريد حيث قال: «وبلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت الى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة وعلقتها بأستار الكعبة».

وقد لفق البغدادى فى «خزانة الأدب» بين المذهبين فقال: «ومعنى المعلقة أن العرب

كانت فى الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر فى أقصى الأرض فلا يعبأ به ، ولا ينشده أحد حتى يأتى مكة فى موسم الحج فيعرضه على أندية قريش ، فاذا استحسنوه روى ، وكان فخرا لقائله ، وعلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر اليه ، وإن لم يستحسنوه ، طرح ، ولم يعبأ به وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت فى القباطى بماء الذهب وعلقت على الكعبة ، ولذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره »

ومما يؤيد ما ذهبنا اليه ما يقوله أبوالفرج فى الأغانى عن قصيدة عمرو بن كلثوم : وبنو تغلب تعظمها جدا ويرويها صغارهم وكبارهم حتى هجوا بذلك . قال بعض شعراء بكر بن وائل :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة ... قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم ... ياللرجال لفخر غير مسئوم

ومهما يكن ، فان التنافس الأدبى جعل « عكاظ » قبلة الشعراء ، وجعل للشعرمكانة لم تكن له من قبل ، ففى « عكاظ » نفق الأعشى بنات المحلق بمدحته . روى ابن رشيق فى « العمدة » أن الأعشى قدم مكة وتسامع الناس به ، وكانت للمحلق امرأة عاقلة ، فقالت له : إن الأعشى قدم وهو رجل مفوه مجدود فى الشعر ، ما مدح أحدا إلا رفعه ، ولا هجا أحدا إلا وضعه ، فلوسبقت الناس اليه ، فدعوته الى الضيافة ، لرجوت لك حسن العاقبة ؛ فسبق اليه المحلق فأنزله ونحر له ، وذكر له بناته فقال الأعشى : كفيت أمرهن ؛ فاصبح بعكاظ ينشد قصيدته :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق ... وما بى من سقم وما بى معشق

ورأى المحلق اجتماع الناس فوقف يستمع وهو لا يدرى أين يريد الأعشى بقوله الى ان سمع :

نفى الذم عن آل المحلق جفنة ... كجابية الشيخ العراقى تفهق
ترى القوم فيها شارعين وبينهم ... مع القوم ولدان من النسل دردق
لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة ... الى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلق
رضيعى لبان ثدى أم تحالفا ... بأسحم داج عوض لا نتفرق
ترى الجود يجرى ظاهرا فوق وجهه ... كما زان متن الهندوانى رونق

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون الى المحلق يهنئونه ، والأشراف من كل قبيلة يتسابقون اليه يخطبون بناته لمكان شعر الأعشى .

وذكر أبو بكر الباقلانى فى كتاب « اعجاز القرآن » أن النبى صلى الله عليه وسلم حضر « عكاظ » وسمع فيها كلام قس بن ساعدة ؛ فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن وفد عبد القيس لما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أيكم يعرف قس بن ساعدة ؟ قالوا :

كلنا يعرفه يارسول الله ، قال لست أنساه بعكاظ إذ وقف على بعير له أحمر فقال : « أيها الناس اجتمعوا ، وإذا اجتمعتم فاسمعوا ، وإذا سمعتم فعوا ، وإذا وعيتم فقولوا ، وإذا قلتم فاصدقوا »

وروى المرزبانى فى « الموشح » : أن النابغة الذبيانى كان تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، فأنشده الأعشى ميمون بن قيس أبو بصير ، ثم أنشده حسان بن ثابت الأنصارى :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى   وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محـرق   فأكرم بنا خالا واكرم بنا ابنما

فقال له النابغة : أنت شاعر ، ولـكنك أقللت جفانك وأسيافك ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك . قال أبو بكر الصولى : فانظر الى هذا النقد الجليل الذى يدل عليه نقاء كلام النابغة ، وديباجة شعره .

وفى الأغانى أن الخنساء أنشدت النابغة بعد الأعشى — وكان عنده حسان — قولها :

وإن صخرا لتأتم الهـداة به   كأنه علـم فى رأسـه نار
وان صخرا لمولانا وسيدنا   وإن صخرا إذا نشتو لنحار

فقال النابغة : لولا أن أبا بصير أنشدنى قبلك لقلت إنك أشعر الناس ، أنت والله أشعر من كل ذات مثانة ، قالت : والله ومن كل ذى خصيتين ، فقال حسان : أنا والله أشعر منك ومنها ، قال : حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول : لنا الجفنات الغر الخ .

تحكيم النابغة بين الشعراء فى عكاظ مما أجمع عليه الرواة وأئمة الأدب ، وقصته مع حسان والخنساء والأعشى مشهورة ، ولـكن كتب الأدب ترويها بروايات مختلفة « كما وكيفيـة » وبعـض النقاد يتشكك فيها ، قال قدامة بن جعفر فى كتاب « نقـد الشعر » : ثم إنى رأيت هؤلاء فى وقت آخر يستحسنون ما يردون من طعن النابغة على حسان بن ثابت رضى الله عنه فى قوله : لنا الجفنات الغـر الخ وذلك أنهم يرون موضع الطعن على حسان فى قوله « الغر » وكان ممـكنا أن يقول « البيض » لأن الغرة بياض قليل فى لون آخر غيره ، وقالوا : فلو قال « البيض » لـكان أكثر من « الغـر » وفى قوله « يلمعن بالضحى » ولو قال « بالدجى » لـكان أحسن ، وفى قوله « وأسيافنا يقطرن من نجدة دما » قالوا : ولو قال « يجرين » لـكان أحسن ، لأن الجرى أكثر من القطر ، فلو أنهم يحصلون مذاهبهم لعلموا أن هـذا المذهب فى الطعن على شعر حسان غير المذهب الذى كانوا معتقدين له من الانكار على مهلهل ، والنمر ، وأبى نواس ، لأن المذهب الأول إنما هو لمن أنكر الغلو ، والثانى لمن استجاده ، فان النابغة « على ما حكى عنه » لم يرد من حسان إلا الافراط والغلو ، وعلى أن من أنعم النظر علم أن الرد على حسان « من النابغة كان أو من غيره » خطأ وأن حسانا مصيب .

فانت ترى قدامة فى كلامه لا يثق برواية الطعن من النابغة على شعر حسان ، ويشير الى ضعفها فى موضعين من كلامه ، ثم هو شديد الحرص فى الدفاع عن شعر حسان لا تأييدا لمذهبه فى استجادة الغلو والافراط فى المبالغة ، لأن شعر حسان ينقضه ، ولكن ردا على منكرى ذلك استمساكا بنقد النابغة .

ولو نظرنا الى القصة كما ترويها كتب الأدب لكان فى اختلاف الروايات ، والتزيد الذى يلجأ اليه بعض الرواة ، وإضافة التعليلات المنطقية الى النابغة ما يدعو الى الشك فى صحة هذا الاستيعاب ، والتحليل الجزئى فى البيت مما لم يعهد فى السليقة العربية مثله ، ثم إن هؤلاء الرواة يذكرون أن النابغة قال لحسان : قللت جفانك مع أن سيبويه ، وهو إمام العربية ، استدل ببيت حسان نفسه على أن الجمع بالتاء قد يراد به الكثرة . وعبارته فى « الكتاب » وقد يجمعون بالتاء وهم يريدون الكثير . قال الشاعر :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فلو كان هذا النقد صدر من النابغة وهو من أفصح من مضغ الشيح والقيصوم ، لما ساغ لسيبويه أن يستدل بالبيت على أن الجمع بالتاء قد يراد به الكثرة دون أن ينبه على قلته أو شذوذه أو يبين مخرجه ، على أن بعض الأدباء يروى هذا النقد المنسوب الى النابغة عن بعض شيوخ الأدب ، فابن الأثير يقول فى كتاب « المثل السائر » : ووجدت أبا بكر محمد بن يحيى المعروف بالصولى قد عاب على حسان بن ثابت رضى الله عنه قوله : لنا الجفنات الغر الخ ، وقال : إنه جمع الجفنات والأسياف جمع قلة وهو فى مقام فخر ، وهذا مما يحط من المعنى ، ويضع منه ، وقد ذهب الى هـذا غيره أيضا ، وليس بشىء ، لأن الغرض إنما هـو الجمع ، فسواء أكان جمع قلة أم جمع كثرة .

وهذا القول من ابن الأثير ظاهر جدا فى أن الصولى هو العائب على حسان ، وليس للنابغة ذكر ، وليس ابن الأثير مما يظن به عدم الاطلاع والتحصيل ، وأيما كان فالشك إنما يتجه الى تفاصيل القصة ، أما أصلها فـلا وجه للشك فيه ، لأن الرواة مجمعون على تحكيم النابغة بين الشعراء فى عكاظ ، فليس ببعيد أن يفضل النابغة شاعرا على شاعر ، وأن يبين عيوب بعض الشعر الذى يعرض عليه ويعلل ذلك تعليلا يتفق مع السليقة العربية ، بل لا بد أن يكون قد وقع شىء من ذلك ، وإلا فما معنى هـذا التحكيم الذى أجمع عليه الرواة ؟ والذى يقرب أن يكون صحيحا من روايات القصة ما رواه أبو على القالى فى أماليه حيث قال : « جاء حسان ابن ثابت رضى الله عنه الى النابغة فوجد الخنساء حين قامت من عنده ، فأنشده قوله :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل
يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

فقال : إنك : لشاعر ، وإن أخت بنى سليم لبكاءة . وقد يدل اختلاف الشعر على تعدد القصة ، كانت عكاظ منشأ نهضة أدبية أفاد منها الأدب العربي شيئا كثيرا ، وكان الى جانبها أسواق أخرى لم يكن لها ولا سيما من الناحية الأدبية ما كان لعكاظ ، فقد كانت أكبر أسواقهم وأعظم مجتمعاتهم ، وأحفل أنديتهم بالأدب وما يدور حوله من نقد وتحبيذ مما لو تتبعه الرواة وألفوا منه وحدة لكان منه أسفار من العلم والأدب وقوانين النقد . قال أبو الحسن حازم الأنصارى فى كتابه « المناهج الأدبية » : لم تكن العرب تستغنى بصحة طباعها عن تسديدها وتقويمها باعتبار معانى الكلم بالقوانين المصححة لها وجعلها ذلك علما تتدارسه فى أنديتها ، ويستدرك به بعضهم على بعض ، وقد نقل الرواة فى ذلك الشىء الكثير ، لكنه مفرق فى الكتب لو تتبعه متتبع متمكن من الكتب الواقع فيها ذلك لاستخرج منه علما كثيرا موافقا للقوانين التى وضعها البلغاء فى هذه الصناعة .

صادق ابراهيم عرجون

فى الموعظة الحسنة

قال حكيم : السعيد من وعظ بغيره . وهو لا يريد من وعظه غيره ، ولكنه يريد من راى سوء أثر المعاصى على غيره ، فاعتبر بها فى نفسه .

وقال الحسن البصرى : اقرعوا هذه النفوس فانها طلعة ، وحادثوها بالذكر فانها سريعة الدثور ، وأعصوها فانها إن أطيعت برعت فى الشر .

وكان يقول عند ختم مواعظه : يالها من موعظة لو صادفت من القلوب حياة .

وكان ابن السماك يقول إذا فرغ من كلامه : ألسن تصف ، وقلوب تعرف ، وأعمال تخالف .

وقال حكيم : الكلمة إذا خرجت من القلب ، وقعت فى القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان .

يريد بهذا أن يقول أن فاقد الشىء لا يعطيه ، فمن كان يامر بالمعروف ولا يأتمر به ، وينهى عن المنكر ولا ينتهى عنه ، لا يكون لقوله وقع فى نفس السامع .

ولكن زيادا يخالف ما تقدم فقد قال : أيها الناس لا يمنعكم سوء ما تعلمون منا ، أن تنتفعوا باحسن ما تسمعون منا .

باب الأسئلة والفتاوى

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الازهر الاستفتاءات الآتية :

تربية الكلاب

١ — هل يجوز تربية الكلاب لحراسة الدار وغيرها أو لا يجوز ؟

٢ — هل إذا لحس الكلب أحدا أو مسه وهو مبلول بالماء أو غيره ، ولم يغسل محل اللحس والمس مقلدا للامام مالك رضى الله عنه فى طهارته وطهارة ريقه ، ويتوضا ثم يصلى ، ولم يراع مذهب الامام مالك ، بل يتوضأ ويصلى على مذهب الامام الشافعى ، ويقلد من يجوز التلفيق فى القضيتين فى التقليد ، هل يجوز ذلك أو لا يجوز ؟

٣ — هل قول الامام مالك بطهارة الكلب مخالف لدين الاسلام ، وخارج عنه أو لا ؟

راج كلنتين رئيس المجلس الدينى بعاصمة
حكومة كلنتين كوتابهارو

الجواب :

١ — تربية الكلاب واتخاذها لمنفعة شرعية كالصيد وحراسة الدور وغيرها جائز شرعا فقدجاء فى صحيح مسلم وسنن ابن ماجة وأبى داود والنسائى أن النبى صلى الله عليه وسلم رخص فى كلب الغنم والصيد والزرع .

٢ — تلفيق المصلى فى الحادثة المسئول عنها ، وأخذه من كل مذهب شيئا من أحكامه فيها جائز على الراجح من مذهب الامام مالك رضى الله عنه .

٣ — مسألة طهارة الكلب من المسائل التى ليس فيها نص قاطع ، بل هى من المسائل الفرعية الاجتهادية التى اختلف فيها الأئمة رضوان الله عليهم . فمنهم من رأى طهارة الكلب . ومنهم من رأى نجاسته ؛ وقد ذهب كل منهم الى رأيه لدليل ترجح عنده ؛ فلا يصح أن يعتبر قول الامام مالك بطهارة الكلب خروجا عن الدين ، أو مخالفا للاسلام .

فى الوقف

وجاء أيضا من فضيلة الاستاذ الشيخ موسى البديرى خادم العلم الشريف بالمسجد الأقصى استفتاء عن بعض ما اشتمل عليه كتاب الوقف الصادر من (محمد بن بدير الشهير بابن حبيش) وأرسل مع هـذا الاستفتاء صورة من كتاب الوقف آنف الذكر . وقال فى استفتائه : إن الواقف مات ، وآل الوقف الآن الى أولاد أولاد أولاده ، الذين هم الطبقـة الثالثة ، وطلب الاجابة عما يأتى :

١ — هل هذا الوقف يعتبر أوقافا متعددة . نظرا لقول الواقف فيه (ثم من بعد كل واحد من ذكور أولادى لو مات يـكون نصيبه لولده ذكرا كان أو أنثى ، وحينئذ فنقض القسمة إنما يكون بموت كل طبقة من فروع كل ابن) ؟

٢ — كيف تقسم غلة هذا الوقف على الطبقة التى آل اليها الوقف الآن ؟ وهل فى كتاب الوقف ما يستدل منه على أنه إذا مات أحد من أولاد الذكور الموقوف عليهم عن ولد يعطى نصيبه لولده ، أو ليس فيه ما يدل على ذلك ، فيرد نصيب المتوفى الى أصل الغلة ، ويوزع على بقية المستحقين الى أن تنقرض الطبقة ، وتستأنف القسمة ؟ وهل إذا استؤنفت القسمة يقسم الريع على الأحياء والأموات ، فما أصاب الحى أخذه ، وما أصاب الميت أخذه ولده ؟

٣ — إن الواقف بعد أن صدر منه هذا الوقف ، وقف منقولات بكتاب وقف آخر وقد جاء فى هذا الكتاب شروط أخرى لم ترد فى الكتاب الاول ، وقال الواقف : إنها تجرى على الوقف الأول ، لأنه كان ينويها حين وقف ؛ فهل يعمل بتلك الشروط فى الوقف الأول عملا بنيته ؟

الجواب :

تبين من الاطلاع على كتاب الوقف أن الواقف جعل وقفه على نفسه ، ثم من بعده على أولاده ذكورا وإناثا . للذكر مثل حظ الأنثيين ؛ على أن من يموت من أولاده الذكور يـكون نصيبه لولده ، الى أن ينقرض أولاده لصلبه جميعا ، فيكون الوقف مصروفا ريعه الى أولاد أولاده الذين ينتمون الى الواقف بمحض الذكور ، للذكر مثل حظ الانثيين ، ثم إذا انقرضت هذه الطبقة التى هى طبقة أولاد أولاده ، كان وقفـا على أولاد أولاد أولاده بالشرط المذكور ، وحينئذ يـكون الوقف فى الطبقة الثالثة التى آل إليها الوقف الآن وقفا واحدا لا تعدد فيه ، موزعا بجملته على أولاد أولاد أولاده .

أما ما جاء فى كتاب الوقف من قول الواقف (ثم من بعد انقراض أولادى لصلبى ذكورا وإناثا يـكون وقفا على أولاد أولادهم) فضمير الجمع المضاف إليه كلمة أولاد خطأ صوابه ياء

المتكلم حتى تكون العبارة (يكون وقفا على أولاد أولادى) بدليل ما جاء فى كتاب الوقف بعد ذلك من قوله : (ثم إذا انقرضت هذه الطبقة التى هى طبقة أولاد أولادى) .

وأما ما أشار إليه المستفتى فى السؤال من أن الوقف من قبيل أوقاف متعددة ، كل نصيب ابن منه بمنزلة وقف على حدة ، لقول الواقف فيه (ثم من بعد كل واحد من ذكور أولادى لو مات يكون نصيبه لولده ذكرا كان أو أنثى . الخ ، لأن لفظ كل يقتضى التعدد) فلا أثر له فيما نحن بصدده من توزيع الريع بجملته على الطبقة التى آل إليها الوقف الآن التى هى الطبقة الثالثة ، إذ لم يرد فى شأن هذه الطبقة تعبير بلفظ كل التى تقتضى التعدد ، ووجود كلمة كل فى بعض الطبقات السابقة لا يجعل التعدد ساريا على غيرها من الطبقات الأخرى .

وليس فى كتاب الوقف ما يدل على أن من مات من أهل هذه الطبقة عن ولد يكون نصيبه لولده ؛ بل هو ساكت عنه ؛ وحينئذ يعود نصيب من يموت الى أصل الغلة ، الى أن تنقرض هذه الطبقة بموت آخر واحد فيها ، فتنقض القسمة ويستأنف توزيع الريع من جديد على الطبقة التى تليها بالشروط المتقدمة .

وأما توزيع الريع عند نقض القسمة فمقصور على الاحياء من أفراد الطبقة التالية دون الأموات ، إذ لايوزع الريع على الأحياء والأموات إلا إذا كان فى كتاب الوقف نص يجعل ولد من يموت قبل الاستحقاق قائما مقام أبيه فى الدرجة والاستحقاق ؛ وليس فى كتاب الوقف شىء من هذا .

وأما ما جاء فى كتاب وقف المنقولات من الشروط ، فلا يسرى منه شىء على الوقف الأول ولا عبرة بنية الواقف ما دام الوقف السابق لم يشتمل على شىء من شروطه ، والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

حسن البديهة

قال الشيباني : أقام المنصور صالحا ابنه ، فتكلم فى أمر فاحسن . فقال شبيب بن شبة : تالله ما رأيت كاليوم أبين بيانا ، ولا أعرب لسانا ، ولا أربط جاشا ، ولا أبل ريقا ، ولا أحسن طريقا ، وحق لمن كان المنصور أباه ، والمهدى أخاه أن يكون كما قال زهير :

هو الجواد فان يلحق بشأوهما ... على تكاليفه فمثله لحقا

أو يسبقاه على ما كان من مهل ... فمثل ما قدما من صالح سبقا

وخرج شبيب بن شبة من دار الخلافة فقيل له : كيف رأيت الناس ؟ قال رأيت الداخل راجيا ، والخارج راضيا .

التفسير

سورة لقمان

— ٥ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « هذا خَلقُ الله ، فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلاَلٍ مُبِينٍ . وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ » :

من استجلى الآية السابقة « خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » لم يتردد لحظة فى أن ينطلق لسانه قائلا : هـذا خلق الله . فلا يكاد امرؤ عنده مسكة من فطنة وعقل ، يسرح نظره فى السماء وكواكبها ، والأرض وعوالمها ، وما بينهما من ماء ينزل من السماء فيختلط بأجزاء الأرض ، فتهتز وتربو ، وتنبت من كل زوج كريم إلا ويقر فى نفسه ، ويجزم عقله لأول وهلة فى النظر أن هـذه آثار صدرت عن قوة غيبية لا تحيط بها مداركه وهى تحيط به ، ولا يكتنهها عقله وهى مهيمنة عليه ؛ ومهما جالت به الوساوس ، ولعبت به النزعات ، فلا مناص له أن يعترف من قرارة قلبه فيما بينه وبين نفسه أن هـذه آثار شاهدة بوجود مبدعها وجوداً واجبا ، وأنه هو المسيطر والمهيمن ، وأنه العليم الحكيم ، وأنه على كل شىء قدير ، وأنه الله رب العالمين : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » . وما كان انحـراف النفوس الضالة عن الايمان بالله إلا تخلصا من بطش الله ، وتملصا من تكاليف الله ، وتلمسا للاطلاق الذى تبغى به نيل مشتهياتها وعـدم القيد من حريتها ؛ هـذا أمر فطرى تذعن له النفوس بأصل فطرتها ، ولا يحيد عنه إلا نفس انطفأ نورها ، وعميت بصيرتها ؛ يشرح ذلك ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من قوله :

مجلة الازهر — كان مكان هذه المقالة قبل فصل السنة ولكنها وصلتنا متاخرة فنشرناها هنا .

« كل مولود يولد على الفطرة . وإنما أبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه » وقوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطـرة الله التى فطـر الناس عليها ، لا تبـديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم »

من هذا ترى أن قوله تعالى « هذا خلق الله » موقعه مما قبله موقع النتيجة من الدليل ، فاذا ضم اليـه قوله : « فأرونى ماذا خلق الذين من دونه » وجـدته متمما للمراد من الآية الـكريمة وهو قطع دابر الشرك ليكمل التوحيد جملة كاملة بالاعتراف بوجود البارى الخالق ، ونفى أن يكون له شريك فى الخلق ، فلا يكون له شريك فى استحقاق العبادة ، وقوله «فأرونى» بعد ما ساق لهم أدلة كلها محسوسة مرئية ناطقة بمدلولها أفصح نطق ، وأوضح دلالة من تسجيل الخزى والتبكيت والافحام بصـورة لا تدع لهم مجالا للخلوص ؛ ألا ترى كيف أعرض عنهم ، وصرف الخطاب لغيرهم ، واعتبرهم كأنهم لا شىء ولا وجود لهم ، ولا يستحقون أن يوجه اليهم خطاب بعد أن وصلوا الى هـذه الدرجة من الغباء ، فقال معـبرا عنهم بأسلوب الغيبة « بل الظالمون فى ضلال مبين » .

والاشارة فى هـذا لما سبق من خلق السموات بغير عمد وما بعـده ، وخلق الله بمعنى مخلوقه ، وكان التعبير عن المخلوق بلفظ الخلق لأنه يتجلى فيه الخلق والايجاد أظهر تجل وأكمله فما كان منها شىء له وجود ما لا بمادته ولا بصورته ، وإنما هى كلها برمتها ناشئة عن خلقه وتكوينه فهى خلق يتجلى فيها الخلق بأكمل معانيه . « وأرونى » أمر من أرى يرى الرباعى . وثلاثيه رأى البصرية لأنها أدخل فى التبـكيت ؛ وكأنه يقال لهم : قد ضعفت عقولـكم ، وانحطت عن أن تجول فى عالم العقليات ، فها أنذا أدخل بكم فى باب المحسوسات ، وقد أريتكم ما لا مناص لـكم عن أن تعـترفوا فيه أنه خلق الله ، فأرونى أنتم ماذا خلق غـيره حتى أشركتموه معه فى العبادة ؟ ويصح أن تكون من رأى العلمية ، ويكون من باب توسيع المجـال أمامهم ، فاذا وجدوا مايحس عرضوه ، وإذا وجدوا ما يقبله العقل ، ولوغير محسوس ، أرشدوا اليه . وقوله : « ماذا خلق » للنحاة فيها وجوه : فمنهم من يقول إن ما استفهامية ، وذا اسم موصول خبرها أى ما الذى خلقـه الذين من دونه ، والجملة معلق عنها الفعل وهو أرونى . وهـذا يتمشى على أن أرى علميـة . ومنهم من يقول : إن ماذا كلها اسم استفهامى مفعول مقـدم للفظ خلق ، والمعنى على كلا الوجهين : أرونى جواب هذا الاستفهام . وبعضهم يقول : إن ماذا كلها اسم موصول مفعول لأرونى ، وجملة خلق صلته ، والتعبير عن الشركاء المزعومين بالذين ، وهى للعقلاء ، لأنهم لما عبدوهم وألهوهم فقد أعطوهم منزلة العقلاء بل فوق العقلاء ، فالـكلام من باب مجاراة الخصم ، وارخاء العنان ، حتى يشعر من نفسه بالخيبة ؛ وقوله « من دونه » أصل كلمة دون للمـكان الدانى من الشىء ، أى القريب منـه ، استعملت بمعنى المغايرة مطلقا ؛ ولعل

فى اختيارها فى هذا المقام زيادة فى التبكيت لهم ، فان الشركاء الذين يزعمونهم أدنى من الخالق هم أحق بأن يروا ، وترى آثارهم ، فكلما كان الشىء أقرب كانت رؤيته ورؤية آثاره أجلى وأوضح .

والمراد بالظالمين هم أولئك المردود عليهم ، وهم مغرقون فى الظلم من عدة نواح : فقد ظلموا الحقائق ، وأعطوا من لا يستحق شيئا ، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، أعظم منزلة ومكانة ، وظلموا عقولهم إذ أرغموها على عقائد لا تملك عليها حجة ولا بينة ، وظلموا أنفسهم بالتعريض لعذاب المنتقم الجبار ، وظلموا أنبياءهم بالمعاندة والمكابرة ، وظلموا الناس المستضعفين بصدهم عن سبيل الله ، وظلموا من يماثلهم أو يعظم عليهم بنفخ كير الحمية الجاهلية وذكر الآباء ووجوب التمسك بما كانوا عليه ، تمكينا لعزتهم ، وصونا لهم عن التشهير بأنهم كانوا ضالين ، فهم الظالمون وهم الظالمون . ولا ظلم إلا ظلمهم ؛ فلا بدع أن يعبر عنهم بهذا العنوان . وقوله « فى ضلال » يفهم أنهم قد أحاط بهم الضلال ، واستحوذ عليهم وا كتنفهم ا كتناف الظرف لمظروفه ، فلا ينتظر لهم منه فكاك ؛ تفهم هذا من لفظ فى والعدول عن أن يقال مثلا : بل هم ضالون ، والضلال الحيرة ، فما أطرف وصفه بلفظ مبين . وهو وإن كان بمعنى بين فان اختيار كلمة مبين للاشارة الى أنه قد بلغ من الظهور فى ذاته حدا يجعله كأنه مبين لغيره .

« ولقد آتينا لقمان الحكمة » قد يخفى عليك وجه اتصال هذه الآية بما سبقها ، ولكنك إذا أعطيتها قسطا من التأمل أدركت أن الثانية من الاولى بسبب متين ، ذاك أن الآية الأولى سيقت للتدليل على وحدانيته تعالى وانفراده بوجوب الوجود واستحقاق العبادة ، وأن ذلك من الوضوح وظهور الدلائل بمنزلة لا تسمح لنفس أن تتردد فيه ، والآية الثانية لبيان أن من أهل الفطر السليمة من عقل ذلك ، وهداه نظره السليم وعقله الحكيم الى الاعتراف بوحدانية العزيز الحكيم ، بل الشكر له على ما غمره به من نعم لايد فيها لغيره ، أى فالذى أدعوكم إليه ليس بدعا من الامر بل قبلكم من اهتدى إليه بفطرته ، وعمل على مقتضاه بحكمته وهذا يوافق قول أكثر المفسرين إن لقمان لم يكن نبيا ، وإنما كان حكيما . والحكمة ، وإن تعددت الاقوال فى تفسيرها بالمعنى الاصطلاحى العلمى ، فان المراد منها يكاد يكون جليا وهو الاعتدال فى التفكير والعمل ، أو إتقان الاشياء علما وعملا ، فيكون علمه تابعا لمقتضى التفكير الصحيح الخالى عن الهوى وعن التطوح فى الخيال ، أوالتقصير فى الاستدلال ، أو التعلق بالمحال ، ويكون عمله على وفق ما يظهر للعقل الصحيح أنه الحسن الذى لا يشوبه قبح سواء أوافق هواه أم خالفه . وفسرها بعضهم بأنها كمال علمى للنفس الانسانية يحصل لها من اقتباس العلوم النظرية بالفكر الصحيح ، وتسمى الحكمة العلمية ، وعملى يحصل لها من ا كتساب الملكة التامة على التزام الافعال الفاضلة على قدر الطاقة البشرية .

ولقد كان لقمان معروفا عند العرب بحكمته يدور على ألسنتهم كثير من كلماته ، فكان اختياره لهم لأن إذعانهم بفضله أقرب . وينسب إليه من كلام الحكم شيء كثير نقتطف منه طرفا لطرافته .

فمن حكمه : من كان له من نفسه واعظ كان له من الله عز وجل حافظ . من أنصف الناس من نفسه زاده الله بذلك عزا . إياك والدين فانه هم بالليل وذل بالنهار . ارج الله رجاء لايجرئك على معصيته ، وخفه خوفا لا يوئسك من رحمته . لاتكن حلوا فتبلع ولامرا فتلفظ . لتكن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطا ، تكن أحب الى الناس ممن يعطيهم العطاء . امتنع بما يخرج من فيك فانك ما سكت سالم ، وانما ينبغى لك من القول ما ينفعك .

ولقد قص علينا القرآن الكريم فى الآيات الآتية ما هو أبلغ من هذا وأروع ، وأعظم منه وأنفع ، فلله الحمد فى الأولى والآخرة .

وقوله عز وجل : « ولقد آتينا لقمان الحكمة » :

التعبير بلفظ آتينا لاشعارهم ، حتى فى سياق الجدل ، بأنه عزوجل هو المتصرف فى الكون وحده لا شريك له ، فكل شيء بأمر منه ، ولا يمكنهم التعلل بمثل أن الله لم يؤتنا ما آتاه . وأمثال ذلك من الترهات ، فما كانوا يستطيعون أن يجحدوا ما وهبهم الله من عقل واختيار ، وأنهم لو وجهوا عقولهم نحو الهدى الذى يدعون اليه لتعرضوا لفيض فضله ورحمته . وقوله (أن اشكر لله) الشكر لب الحكمة وروحها ، به تبتدى واليه تنتهى ، فما كان شيء أجدر بتنبيه العقول والعواطف للعبادة من الشعور بالنعمة التى أفاضها الله عليه وأنها توجب عليه شكر المنعم ، ومهما بذل من جهد وعمل من عمل يقربه الى ربه ويكسبه رضاه فهو سائر فى طريق شكره ، والشكر مقابلة النعمة بما يستحقه المنعم من ثناء وتعظيم . وإذ كان كل ما لدى العبد من نعمة فهو من الله حتى نفسه وحتى قواه التى بها يشكر وتوفيقه للشكر ، فهو مهما بذل فى سبيل الشكر مقصر عن الشكر ، وفى شعوره بعجزه عن الشكر شكر . وهذه نعمة أخرى تستحق الشكر . ولله در القائل :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة ... على له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الآجال واتسع العمر

وقد عرفوا الشكر بأنه بذل العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله . والذى خلق لأجله هو ما بينته الآية الكريمة : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون » وهى مرتبة قلما تتيسر إلا لمن اصطفاه الله من عباده وأمده بتوفيقه ، ولذا قال عز وجل : « وقليل من عبادى الشكور » فان كلمة (جميع) لا تدع شيئا من النعم إلا وهو مطالب بالشكر من أجله « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

وقوله : « ومن يشكر فانما يشكر لنفسه » جملة مستانفة لبيان أن الشكر المطلوب وإن كان مما تقتضيه الاريحية والكمال النفسانى ، فانه يقتضيه أمر آخر لا يتوقف على أريحية ولا طيب عنصر ، وهو أن ثمرته عائدة على الشاكر ، فهو المنتفع بالشكر ، وأجره وثوابه عائد عليه ، وأما المشكور فهو أعلى وأسمى من أن ينتفع بشكر الشاكرين أو يتضرر بكفر الكافرين فمن كفر فان الله غنى عن شكره غير محتاج الى شيء منه لا فى جلب نفع ولا فى دفع ضر وهو حميد فى ذاته تثنى عليه آثاره وتنطق بكماله أنواره ، فاذا سكتت ألسنة من أنعم عليهم فقد نطقت ألسن نعمائه وبرزت دلائل آلائه ، وهذا كما قيل :

فعاجوا فأثنوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

واختيار لفظ المضارع فى يشكر ولفظ الماضى فى كفر لأن صيغة المضارع تدل على تجدد الفعل آنا فآنا ، وهذا شأن الشكر فانه يتجدد بتجدد النعم وهى لا تفتأ تتجدد ، وأما الكفر فهو إعراض مستمر وجحود ساكن ثابت ، فهو من باب الاعدام التى لا تجدد فيها وإنما هى ملازمة لحالة واحدة حاصلة .

وقوله فى جواب الشرط الثانى « فان الله غنى حميد » هو فى اصطلاح علماء العربية دليل الجواب وكأن الجواب هكذا : ومن كفر عاد ضرر كفره على نفسه ولا يلحق الله من كفره شيء فان الله غنى حميد .

نسأله جلت قدرته أن يوفقنا لشكره وطاعة أمره ، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه إنه سميع كريم رءوف رحيم ؟

ابراهيم الجبالى

تحملنى أم أحملك ؟

قال محمد بن يزيد بن عمر بن عبد العزيز : خرجت مع موسى الهادى امير المؤمنين من جرجان ، فقال لى : إما أن تحملنى وإما أن أحملك ، فعلمت ما أراد ، وأنشدته أبيات بن صرمة :

أوصيكم بالله أول وهلة وأحسابكم والبر بالله أول
وإن قومكم سادوا فلا تحسدوهم وإن كنتم أهل السعادة فاعدلوا
وإن أنتم أعوزتم فتعففوا وإن كان فضل المال فيكم فأفضلوا
وإن نزلت إحدى الدواهى بقومكم فأنفسكم دون العشيرة فاجعلوا
وإن طلبوا عرفا فلا تحرموهمو وما حملوكم فى الملمات فاحملوا

قال محمد بن يزيد فامر لى بعشرين ألف درهم .

نفحات الاسلام فى أوربا

بدأ الأوربيون يدرسون الاسلام ويعرفون ماهيته ، وشرع كتابهم ينشرون عنه ما تقفهم عليه بحوثهم من سمو الأصول ، وحكمة التعاليم ، من ذلك ما اطلعنا عليه فى العدد الصادر فى ١٧ ابريل من هـذه السنة فى جريدة (لا فليش) التى تصدر فى باريس بتوقيـع (مارسيل كابى) والى القراء تعريب ذلك المقال :

« القرآن كتاب موحى به ، وهو يفوق ماعرف من هـذا النوع كثيرا ؛ فان العقيـدة الروحية التى يبثها تصلح أن ينعكس نورها على الحياة الاجتماعية . وهـذا سر قوة الاسـلام وسماحته ووحدته .

« والقرآن باسم الايمان الثابت على وجه الاطلاق ، يحمل الى الناس بدون سفسطات بيانية ، ولا خيالات غير طبيعية ، أصول العدالة ، والنظام الاجتماعى الذى يخضع كل فرد لمراعاة أدب الاجتماع ، ويفرض على الجماعة حماية الأفراد . وهو بهذا الأسلوب يوافق فى جوهره أحدث القواعد الاجتماعية العصرية .

« ليس فى الاسلام قسوس ولا رهابنة ، ولـكن فيه شراحا ومفسرين لـكتابه .

« وكتابه قد نظم حدود حياة كل فرد وحياة المجموع .

« فهو يتناول الانسان من يوم ميلاده ويتتبعه الى يوم وفاته ، مراعيا كل صغيرة وكبيرة من حياته : غذائه ، وطهره ، وصلواته المصحوبة بحركات متناسقة ، وصومه السنوى المطهر فى شهر رمضان ، وزواجه ، وطلاقه ، وواجباته البيتية ، وواجباته الاجتماعية . أى ما يجب على كل فرد للجماعة ، وما يجب على الجماعة لـكل فرد .

« القرآن لا يعنى كثيرا بالدعوة الى التحاب ، لأن الحب عاطفة متقلبة قد تـكون شديدة فى تلهبها ، ولـكنها قد تنطفىء جذوتها بسهولة إذا هبت عليها ريح باردة من قبل المنافع الذاتية .

« ولـكن القرآن يدعو الى الحق والواجب ، ويحتفظ بالحب لله وحده . أما الانسان فيكل أمره للضرورة ، وهو لأجل أن يحل مسألة هذه الضرورة يفرض على كل جماعة بشرية روحا اجتماعية ونظاما سليما من العلل . ولا يوجد نظام اجتماعى سليم إلا بقدر ما تتعادل فيه حقوق الفرد على الجماعة وحقوق الجماعة على الفرد . وفى نظر القرآن أن وجود طائفة موضوعة فوق الواجبات فى المجتمع ، وأخرى ملفوظة خارج دائرة الحقوق ، يعتبر إنـكارا صريحا للعقد

الاجتماعى المقرر . وقد قدس القرآن هذا العقد الاسلامى ، وهذا سر بقائه ونفاذه الى اليوم ، رغما عما اعترى جماعات المسلمين من تقلبات التاريخ .

« فلننظر الآن فى الروح الاجتماعية التى فرضها القرآن على أهله :

« تأمل فى هذا : مائتين وأربعين مليونا من الأنفس تدعى خمس مرات فى اليوم لأداء الصلاة ، فيجيبون داعيها ويتوجهون جميعا صوب مكة ، ويقرءون جميعا عبارات واحدة ، ويركعون ويسجدون جميعا على نحو واحد ، ويدينون جميعا بعقيدة واحدة ، وشريعة واحدة ، معترفين طرا بالعقد الاجتماعى الذى يربطهم . وفى وسط هذه الوحدة اليومية الهائلة يشعر كل واحد بأنه تحت نظر الجميع . لأن حارس العقيدة والشريعة والعقد الاجتماعى هو الرأى العام فى الاسلام .

« فالمسلم على استقلاله المطلق فى حياته الخاصة ، وتفرده بالسلطان فى بيته بحيث لايستطيع أحد أن يرى فيه الوجه العزيز عنده ، هذا المسلم نفسه فى حياته الاجتماعية مكشوف الحال أمام أعين إخوانه أجمعين. ولانكار الرأى العام لشىء من الأشياء قوة لا حد لها فى جماعة المسلمين. فكل من يناقض هذا الرأى العام ، ويتعدى حدوده ، يعتبر لديهم ملعونا بأشد معانى هذه الكلمة .

« لايوجد فى العالم رأى عام له مثل هذا السلطان على الناس ، وهذا السلطان يسرى على المجال الأدبى والمجال الاجتماعى على حد سوى .

« الاسلام ليس بمملكة بالمعنى السياسى لهذه الكلمة ، ولم يكنها قط حتى فى عهد عظمته الأولى ، ولكنه عقيدة وشريعة ووحدة اجتماعية .

« قلنا ليس فى الاسلام طائفة ممتازة وطائفة مهملة . فان مبدأ التعاون الاجتماعى مفروض على الجميع . فكل مؤمن مكلف بدفع زكاة عن أمواله للفقراء ، لا بوصف أنها صدقة ، ولكن باعتبار أنها واجب اجتماعى لا محيص من أدائه . فكل من يملك ما فوق حاجته من المال يجب عليه أن يدفع حصة منه للجماعة لتسد بها حاجة المحتاجين . فقد حتم القرآن على كل مؤمن أن يدفع عشر دخله للفقراء وعابرى السبيل وفى الرقاب الخ . (كذا)

«من عادات المسلمين أن للسائلين حقا فى طلب المعونة من الذين اعتادوا ان يعطوهم ما يأكلونه أو ما يحصلون به عليه . فاذا أحجم مسلم عن إعطاء سائليه ما اعتاد اعطاءه لهم ، رفعوا أمره الى القاضى ، فلا يسعه إلا أن يحكم على الغنى بالاستمرار فى أعطياته ، وبدفع ما تأخر منها عنده (١) . وقد دهش الفرنسيون من علمهم بهذه العادة عند احتلالهم للجزائر من بلاد المغرب . وكان الأولى لهم أن يتعلموا منه درسا إنسانيا واجتماعيا .

(١) ليس هذا من الشريعة الاسلامية، ولكنه يظهر أنه من العادات المغربية كما يدل عليه ما ذكر بعده .

« وقد عنى الشرع الاسلامى قبل غيره بأمر الملكية الاجماعية . فقد كان لبعض القبائل مساحة واسعة من الأرض . وكل رجل من القبيلة له الحق فى حيازة واستغلال ما يحييه من مواتها ، مادام قادرا على العمل ، فاذامات ورثها عنه أبناؤه . هذه الأراضى لا تباع ولا تؤجر ولا تستبدل ولا ترهن بأى اعتبار من الاعتبارات . وإذا لم يخلف الفلاح وارثا مباشرا ، أو إذا ترك أرضه بورا ، استردتها القبيلة منه وتصرفت فيها بما تراه .

« ومما هو جدير بالنظر عادة الوقف المسماة بالحبوس .

« الممتلكات التى كانت توقف عادة فى العصور السابقة كانت إما مسجدا أو خانقاه أو مجموعة مبان لسكنى الفقراء . هذه الممتلكات يعتبرها الشرع الاسلامى ملكا لله ثابتا ومقدسا . لايتصرف إلا فيما يتحصل منها ، وفى الوجوه التى وقفت عليها . وينفق منها أيضا على صيانتها .

« كان موقوفا على مسجد سيدى عبد الرحمن فى سنة ١٨٣٠ تسعة وستون عقارا تغل فى السنة ستة آلاف فرنك ينفق أكثرها على توزيع الطعام للفقراء .

« ومما كان موقوفا على هذا المسجد قدور نحاسية لامرأة تدعى دومة بنت محمد . وقفت هذه الأوانى لتطبخ فيها الأغذية التى تهيأ للفقراء . وشرطت أن ينفق على صيانتها وتبييضها وإصلاحها من غلة دكان تملكه تلك الواقفة . فلما توفيت قام ورثتها بدفع النفقة الضرورية لصيانة هذه الأوانى ، لأنها أصبحت وقفا لمصلحة المعوزين ، ويجب أن تبقى صالحة للاستعمال أطول زمان يسمح به الامكان »؟

محمد فريد وجدى

ما قيل فى الصديق

قال شاعر :

ليس الصديق الذى إن زل صاحبه ... يوما رأى الذنب منه غير مغفور
وإن أضاع له حقا فعاتبه ... فيه أتاه بتزويق المعاذير
إن الصديق الذى تلقاه يعذرنى ... ما ليس صاحبه فيه بمعذور

وقال شاعر آخر :

كم من أخ لك لم يلده أبوكا ... وأخ أبوه أبوك قد يجفوكا
صاف الكرام إذا أردت إخاءهم ... واعلم بأن أخا الحفاظ أخوكا
والناس ما استغنيت كنت أخاهم ... وإذا افتقرت اليهم رفضوكا

الاخلاق الفلسفية

— ١ —

الدين وقوة سلطانه على النفوس

تمهيد :

(١) هل الانسان متدين بفطرته ؟

(٢) هل الشعوب التى لم يرسل الله اليها أنبياء فكرت من نفسها فى وجود الله ؟

(٣) لماذا لم يذر الله الناس على دياناتهم الوضعية التى ابتدعوها ؟

(٤) هل للدين أثر فى إسعاد الانسان وهنائه ؟

(٥) وهل له تاثير على أخلاقه وسلوكه ؟

لنفرض أنفسنا فى قارة من القارات التى لم تسمع للدين بخبر ، ولم تقف له على أثر ، أو سمعت عنه فى زمن مضى ، ثم نسيته تماما كأوربا ، أو كمصر ، قبل نزوح النبيين الجليلين : يوسف ، وموسى عليهما السلام الى أرضها ، ولنتحدث اليك عن هذا الصنف من البشر . أما البلاد التى نبتت فيها النبوات فسنغض النظر وقتيا عن التكلم فى شانها ، لأن فرصة الحديث عنها لم تحن بعد .

رأى الناس ، فى سذاجة وبساطة ، أن فريقا ممن حولهم يصح ، وآخر يمرض ، وثالثا يقوى ، ورابعا يضعف ، وخامسا يغتنى ، وسادسا يفتقر ، وسابعا يولد ، وثامنا يموت ؛ ثم رأوا نهارا يعقبه ليل ، وليلا يتلوه نهار ، وشمسا تشرق ضعيفة هادئة ثم لا تزال تقوى وتشتد حرارتها وقسوتها حتى إذا مال ميزان النهار أخذت تعود الى الضعف ، ثم أعقب ذلك اختفاؤها الذى به يسود الظلام ، وينتشر فى السماء ذلك العدد الذى لا يندرج تحت حصر من الكواكب والنجوم ، وهكذا دواليك بلا تأخر ولا انقطاع ؛ ثم هم يحسون فى بعض الأوقات بحرارة لاذعة ، وفى البعض الآخر ببرودة قارسة ، وفى بعض ثالث باعتدال فى الجو وصفاء فى الطبيعة ؛ شعروا بكل هذا ، فحاولوا أن يعللوا هذه الظواهر المختلفة ، أو يردوها الى أسباب معقولة ، وعلل مقنعة ؛ ولكنهم وقفوا حائرين عاجزين عن تعليل أية ظاهرة من ظواهر هذا الكون الهائلة المرعبة ، وسرعان ماأندفق الى قلوبهم الطاهرة ثم الى عقولهم الساذجة إيمان وثيق بأن هناك يدا خفية تحرك هذا الكون حسب مشيئتها ووفق إرادتها ، وأن صاحب هذه اليد لابد أن يكون مقيما فى هذه القبة الزرقاء عند بعض الشعوب ، والقائمة

أو الرمادية عند البعض الآخر ، والتي يبرز من أفقها كوكب الشمس المضيء حينا ، والقمر المنير والنجوم اللامعة حينا آخر ، والتي تغضب أو يغضب ساكنها قليلا في مصر ، وكثيرا في أوربا ، فتبرق وترعد ، وتنذر وتتوعد ، وترسل من الصواعق نارا ، ومن وابل السيل مدرارا ، غير أنهم ، لأمر ما ، قد تصوروا أن هذا المحرك الأكبر ، لا بد أن يكون له ممثلون في الأرض ، وأنهم إذا أرادوا أن يجلبوا رضا هذا الاله ، أو يدفعوا سخطه ، فلابد لهم من أن يفتشوا عن هؤلاء الممثلين جهد طاقتهم ، حتى إذا عثروا عليهم قدموا اليهم الضحايا والقرابين ، وقاموا بين أيديهم بأكبر قسط من الاحترام والاجلال ؛ ثم أخذ كل شعب يبحث عن هؤلاء الممثلين الذين يقربونه الى الله زلفى ؛ ولكن هذا البحث لم يهد أصحابه الى نتيجة واحدة ؛ وهذا أمر طبيعي مادام هؤلاء الشعوب يختلفون في طبائعهم وأجوائهم ، ومواقع بلادهم الجغرافية التي لها على الثقافة والتفكير أثر عظيم . فاقتنع المصريون مثلا بأن ممثل المحرك الأول لهذه الكائنات هو كوكب الشمس ، لما رأوه فيه من فائدة ونفع للانسان والحيوان والنبات ، وما تصوروه عليه من بطش بجيوش الظلام الشريرة السوداء التي لا تسيطر على العالم إلا حين ينام هذا الممثل الجليل ، فاذا استيقظ من نومه ، وصرخ صرخة عالية تفرقت شذر مذر ، ومزقت كتائبها كل ممزق ، ومرت الى أعمق طبقات الجحيم حيث تقضي هناك طيلة النهار ، أما هو ، فانه يختال في السماء معجبا ، في دل وتيه ، بماسكبه على الكون من عناصر الحياة والنور والانعاش

ولما كانت الشمس هي أكبر الظواهر الطبيعية في مصر ، فقد أسندوا قيادتها الى « رع » كبير آلهة المصريين في أيام التعدد ، كما أن اليونان قد أسندوا الى « زوس » كبير آلهتهم قيادة الرعد والبرق والمطر ، لأن هذه الأشياء هي أكبر الظواهر الطبيعية في جو أوربا الممتلئ بالسحب والغيوم .

ولقد رأى المجوس أن النار هي وحدها الجديرة بتمثيل الكائن الأول ، لما فيها من نعمة الانضاج وقوة الاحراق .

وآمن غيرهؤلاء بأن الممثل الأعلى هو : فيل ، أو بقرة ، أو غير ذلك ؛ فسجد كل شعب لما اعتقد أنه الممثل الأكبرلهذا الموجد العظيم ؛ وكما اختلفت هذه الشعوب في تصور ممثل المحرك الأول ، اختلفت أيضا في تصور الروح والخلود والعقاب والثواب في الحياة الأخرى . ونشأ من هذا الاختلاف تباين عظيم في الطقوس الدينية ، وفيما ينبغي أن يصنع بالجسم بعد الموت ، لتخلد الروح في النعيم المقيم .

ولا ريب أن هذا الاختلاف ، أو ذلك التناقض ، هو أول الحكم التي من أجلها جاءت الديانات السماوية ، لتقضي على هذه الفوضى ، وذلك الاضطراب الناشئين من تناقض تلك الشعوب في العقائد والطقوس ، ذلك التناقض الخاضع للبيئات والأجواء والمواقع الجيوغرافية ، ولأهواء

الزعماء الدينيين الذين نشأوا فى الشعوب القديمة ،فأسروا الناس بلباقتهم و بلاغتهم ،وأخضعوهم ببيانهم لما زعموا أنه الحق المبين ، والنهج القويم ؛ فرأى مبدع الكون أن يضع حدا لهذه الهمجية ، فأعلن على ألسنة أنبيائه أن الشعوب لا تملك أن تضع قوانين هذه الديانات ، وأنه لا يمكن أن يكون لهذه العقائد إلا مصدر واحد وهو السماء .

وهنا حدثت الانقلابات الهائلة التى لا يتسع المقام الآن لذكرها ، والتى سنفصلها إن شاء الله فى فرص أخرى حين نتناول تاريخ الديانات من أول عصور الانسانية الى العصر الحاضر، ونعرض فى شىء من الاسهاب الى زعماء الديانات الوضعية ، وأبطال الديانات السماوية . ولقد بدأ مبدع الكون باليهودية ، ثم ثنى بالمسيحية ، ثم اختتمها بالاسلام لحكمة واضحة لا يستعصى فهمها على من درس تاريخ الديانات ، وأحاط علما بعقليات وأخلاق وطباع البيئات التى نشأت فيها هذه الديانات الثلاث ، ودرس ، فى تمعن وإتقان ، كيف تدرجت تشريعاتها ، وترقت نواميسها حسب تدرج العصور ، وترقى العقلية الانسانية .

ومهما تكن الديانات الوثنية مشحونة بالأخطاء والضلالات ، مفعمة بالأكاذيب والأباطيل فان النزاهة تحتم علينا أن نعلن ، فى صراحة ، أن هذه الديانات قد خففت من الجرائم ، وقللت من الشرور والآثام ، وكسرت — ولو بعض الشىء — من حدة الشهوات الانسانية . ولو لم يشأ الله لتلك الديانات الوثنية أن تأخذ مكانها تحت الشمس ، لكانت الجرائم والشرور أضعاف ما كانت عليه ، ولقاسى الأنبياء عليهم السلام فى إفهام البشر أساليب التدين والاذعان أضعاف ما قاسوا بعد أن مهدت لهم تلك الديانات سبل القيام بمهمتهم على الوجه الأكمل المراد .

ولا ريب أن من يلقى نظرة فاحصة على تاريخ الأمة المصرية فى عهودها الوثنية ، ويشاهد فى تمعن ، مقدار أثر ذلك التدين الوثنى فى حياة الشعب المصرى الاجتماعية عامة والأخلاقية بنوع خاص تتضح له صحة ما نقول ؛ إذ أنه سيلفى الفضائل العالية من : صدق وأمانة ووفاء وحلم وحياء ومروءة وعدالة وعفة ، الى غير ذلك من جلائل الفضائل، متغلغلة فى النفوس تغلغلا يدل على مقدار ما كان للدين فى نفوس أفراد هذا الشعب من أثر قوى ، وكذلك تتضح هذه النظرية جيدا إذا ألقينا نظرة متأملة على تاريخ الهند والصين وفارس فى العصور القديمة ، لأننا لا نكاد نلقى هذه النظرة حتى نلمح مقدار تأثير البراهمية والبوذية والزرادوشتية والمانوية فى نفوس هذه الشعوب وقيادتها إياها الى الفضائل السامية ، وإشعارها الأفراد بأن الآلهة تعلم أعمالهم ، وأنها ستحاسبهم عليها إما عاجلا وإما آجلا .

هناك فضل آخر يجب أن نعترف به للديانات الوثنية ، وهو إسعاد البشر وهناؤهم بسبب ذلك الأمل الذى أرسخته فى نفوسهم — ولو عن طريق الخيال — بأنهم سيستمتعون فى عالم

الخلود بنعيم لا ينتهى ولا يبيد ؛ فملأ هـذا الأمل حياة الانسانية سرورا وغبطة ، وأحال العذاب والشقاء فى نظر المعذبين والأشقياء الى سعادة نفسية لذيذة مادام سيعقبها تنعم دائم ، وسرور خالد .

وبعد هذا ، فليس للديانات الوثنية أثر يذكر إلا من الناحية التاريخية حيث تضع بين أيدينا نماذج من عقليات القدماء ، وصورا من تفكيراتهم وإدراكاتهم ، وتبين لنا مابين الديانات السماوية وبين هذه الديانات من فروق ودرجات .

الآن ، وبعد أن أبنا مقدار تأثير الديانات الوضعية على الأمم القديمة ، فقد وجب علينا أن نبين أثر الديانات السماوية فى الأمم التى اعتنقتها . فاذا فرغنا من ذلك ، أتينا على آراء المحدثين من فلاسفة أوربا الذين يرون منهم وجوب مزج الأخلاق بالدين ، ويؤكدون أن ما فى الدين من أخـلاق هو أصلح ما يقود الشعوب الى النجاح والسعادة ، لأنه صادر عمن هو أدرى بصوالحهم ، وأقدر على رسم الخطط لهم ؛ ويؤيدون مذهبهم بأدلة ناصعة ، وبراهين قوية . وكذلك سنأتى على آراء خصوم هذه الفـكرة وهم الذين يرون استقلال الأخلاق عن الدين ويزعمون أن الأمم تستطيع الاستغناء عن قيادة الديانات .

وهذا هو ما سنعالجه فى المقال المقبل . فالى اللقاء .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

تدبير المال

قال حكيم : لا خرق ولا عيلة على مصلح ، وخير المال ما أطعمك لا ما أطعمته .

وقال مؤلف كليلة ودمنة : إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة ولا يدركها إلا باربعة .

فاما الثلاثة التى تطلب فالسعة فى المعيشة ، والمنزلة فى الناس ، والزاد الى الآخرة .

وأما الاربعة التى تدرك بها هذه الثلاثة ، فا كتساب المال من أحسن وجوهه ، وحسن القيام عليه ، ثم التثمير له ، ثم إنفاقه فيما يصلح المعيشة ، ويرضى الاهل والاخوان ، ويعود فى الآخـرة نفعه ؛ فان أضاع شيئا من هـذه الاربعة ، لم يدرك شيئا من هذه الثلاثة . فان لم يكتسب لم يكن له مال يعيش به ، وإن كان ذا مال وا كتساب ولم يحسن القيام عليه ، يوشك أن يفنى ويبقى بلا مال ، وإن هو أنفقه ولم يثمر ، لم ينفعه الانفاق من سرعة النفاد ، كالـكحل الذى إنما يؤخذ منه على الميل مثل الغبار ثم هو مع ذلك سريع نفاده ، وإن هو اكتسب وأصلح وأثمر ، ولم ينفق الاموال فى أبوابها كان بمنزلة الفقير الذى لا مال له ، ثم لا يمنع ذلك ماله من أن يفارقه ، ويذهب حيث لا منفعة فيه ، كحابس الماء فى الموضع الذى تنصب فيه المياه ، إن لم يخرج منه بقدر ما يدخل فيه تمصل وسال من نواحيه ، فيذهب المال ضياعا .

تاريخ الأدب العربي (١)

في العصر العباسي

كانت حاضرة الدولة العباسية خلال القرون الأولى من حكم العباسيين تنعم فى حياة ملأى بانواع البذخ وضروب العطاء ، مما لم تشهد مثله غيرها من البلدان الاسلامية فى أى وقت من الأوقات ، فالتف الشعراء والكتاب البارزون من كافة أنحاء الأمبراطورية العربية حول بلاط الخلفاء ، حتى أصبحت بغداد مركزا ممتازا للادب العربى ، ووسطا منقطع النظير للحياة الفكرية والثقافة الاسلامية ، ولم يقنع من الأدباء بالحياة الهادئه بعيدا عن بغداد إلامن أخرتهم الموهبة الأدبية أو استبعدتهم الأهواء السياسية ، فاقاموا بالمقاطعات النائية ، واكتفوا بمدح حكامها من الولاة وخطب ودهم .

أبعدت السياسة عن بغداد السيد الحميرى اسماعيل بن محمد المولود بالبصرة عام ١٠٥هـ ، وهو من الشعراء البارزين الذين خلدوا ذكراهم المجيدة بين سطور الأدب العربى فى أزهر عصوره ؛ انضم فى شبابه الى الشيعة ، فكان ظهوره بين أفراد هذه الفرقة الدينية السياسية سببا فى رحيله عن موطنه وإقامته بالكوفة ، فلما دخلها الخليفة السفاح مؤسس الدولة العباسية لم يجد مفرا من مدحه ، ولو أنه بقى مخلصا لعقيدته ، نائيا عن بلاط الخليفة بالرغم من جميع أسباب الاغراء التى اجتمعت حول أصحاب الساطة الدنيوية مما تتوق إليه نفوس الشعراء طمعا فى الشهرة وجزيل العطاء ؛ وكانت مواهبه الشعرية تقربه من بشار بن برد وأبى العتاهية ، لسهولة أسلوبه وصدق تعبيره ودقة مشاعره ، ولكن أشعاره لم تلاق ما هى جديرة به من الثناء والذيوع لما كان يبثه فيها من روح عقيدته وفكرته السياسية ، وتوفى بالواسط عام ١٧٣هـ .

أما أبو تمام حبيب بن أوس فانه يمثل شعراء الولايات العربية فى هذا العصر خير تمثيل ، فكان دائم التطلع الى بذخ الحياة ونعيمها فى الحواضر ، دائب السعى طول أيام حياته وراء الحصول على الشهرة فى حاضرة الملك ومركز الشعر والأدب ؛ قضى أبو تمام سنى حياته الدراسية فى حمص عند الشاعر الطائى عبد الكريم ، وكان شديد الرغبة فى الانتساب الى قبيلته ، ورحل بعد ذلك الى مصر ، وحاول عبثا الشهرة والظهور فلم يبلغ ما كان يبتغيه من توفيق ، فعاد الى الشام ، وكان الخليفة المامون وقتئذ فى إحدى رحلاته بدمشق فحاول على غير جدوى المثول بين يديه رجاء بلوغ ما يتمناه من الحظوة لديه ، ففشل فيما سعى اليه وانصرف عنه الخليفة دون

---

(١) تابع المنشور فى العدد السابق (صفر سنه ١٣٥٦) مترجما من الالمانية نقلا عن كتاب « تاريخ الادب العربى » للمستشرق الالمانى الكبير الاستاذ الدكتور « بروكلمان » .

ان يابه له ؛ تنقل بعد ذلك كثيرا فى العراق وأرمينية طلبا للشهرة والصيت عند الأشراف والحكام ، فلما بلغه خبر وفاة المأمون سافر الى بغداد عام ٢١٨ هـ ، وتحققت له بعض أحلامه هذه المرة فاستقبله الخليفة المعتصم ، ولكنه لم يكن ليرضى بنجاحه البسيط ومرتبته المتواضعة التى أحرزها عنده ، ففضل الغودة الى المقاطعات العربية مؤثرا الاقامة عند الولاة بعيدا عن مزاحمة المنافسين من الشعراء ، فتوجه الى خراسان أبعد البلاد الاسلامية شرقا ، وكان حاكمها وقتئذ عبد الله بن طاهر قد بدأ بتأسيس ولاية ذات سيادة مستقلة ، ولكنه ما لبث أن قفل راجعا ، فعاقته زوابع الجليد التى تكثر فى هضاب بلاد الفرس المرتفعة ومنعته عن متابعة سفره ، فبقى بهمذان، وأقام عند أحد هواة الأدب والثقافة العامة ، وكان يملك مجموعة وافرة من مختارات الشعر العربى جعلها أبو تمام موضع دراسته وتسليته ، فجمع وهو فى هذه الضيافة القهرية أربع مجموعات من صفوة ما أنتجه الشعراء وجادت به قرائحهم ، اشتهر من هذه المجموعات الشعرية الأربع ديوان الحماسة ، وذاع تداوله حتى العصر الحاضر ، فكانت هذه الصدفة التى حجزته بهمذان ، وضيافته بهذا المكان عن غير قصد أو ترتيب سببا فى بلوغه ما كان يتوق اليه مدى حياته من الشهرة والصيت ، وهكذا تم له التوفيق فيما كان يبتغيه من النجاح ، وخلدت ذكراه بفضل ما جمعه من مختارات الشعر بذوق سليم أكثر من توفيقه فيما أنتجته موهبته الشعرية ، فلما أتم هذا العمل الجليل وأكمل المجموعات الشعرية المختارة التى عصا الترحال ، ولم يعرف عنه أوعن إقامته بعد ذلك شىء ، وتوفى حوالى عام ٢٣٠هـ . وقد قرظه فيما بعد التبريزى قائلا : كان أبو تمام فى حماسته أشعر منه فى شعره .

جاء من بعده من شعراء الولايات العربية المعروفين الوليد بن عبيد البحترى ، وكانت حياته تشابه من وجوه عديدة حياة أبى تمام ، فقاسمه كثيرا من حظه ؛ ولد البحترى بمنبج بالشام عام ٢٠٥هـ ، والتقى بأبى تمام فى حمص، وكان فى قمة مجده ، وأخذ منه توصيات لأشراف معرة النعمان بريف الشام ، فسافر إليها وأقام بها بضع سنين محترفا أشعار المدح ، ولكنه لم يقنع بهذا القدر البسيط من النجاح ، ولم يرض بنصيبه المتواضع فى الحياة بها ، فرحل الى بغداد فى عهد الخليفة المتوكل ، وكان النجاح حليفه فى هذه المرة ، فأقام بها زمنا غير قصير ، إلا أنه عاد بعد ذلك إلى موطنه بالشام حيث توفى عام ٢٨٤ هـ . أبى البحترى إلا أن يسير على نهج أستاذه السابق ، فوضع ديوان الحماسة الذى جمع فيه مختارات هامة من الشعر العربى ، وكان موفقا فى هذا العمل كذلك أكثر من توفيقه فى أشعاره ، فذاع به اسمه وخلدت ذكراه ، وهو وإن لم يكن قد بلغ من الشهرة ما بلغه ديوان الحماسة لأبى تمام ، فانه امتاز عنه بما وسعه من المواد وتعدد موضوعاتها وتنوعها ، مما جعله مرجعا قيما جدا لدراسة الأشعار القديمة .

وأما شعراء البلاد الاسلامية الغربية فان أشهر من عرف منهم فى هذا العصر هو شاعر البلاط الفاطمى بمصر أبو القاسم محمد بن هانى الأندلسى المولود باشبيلية ؛ أتيحت له الفرصة

فى شبابه للتعرف بأمراء بلاده والاختلاط بهم ، ونفى وهو فى السابعة والعشرين من عمره ، فذهب الى جوهر قائد الخليفة الفاطمى المنصور ، فلما تولى الحكم ابنه المعز عام ٣٤١ ﻫ أخذه فى بطانته ، واشترك فى حملته الموفقة لغزو مصر عام ٣٥٨ ﻫ ، ولما استتب الأمر لسيده وولى نعمته واستقرت فى يده السيادة على مصر ، رغب فى الاقامة الدائمة بها ، وأراد استحضار اسرته ، فلما سافر الى بلاد المغرب لهذا السبب عاجلته المنية بها إذ قتل ببرقة عام ٣٦٢ ﻫ . ولم يعرف من أعماله الشعرية سوى قصائده فى مدح الخليفة المعز ، ولم تكن ذات قيمة فنية ممتازة .

وفى أواخر أيام الدولة العباسية تنازع الحكام واشتد خلافهم بسبب ضعف الخلفاء العباسيين المتأخرين وعجزهم عن الحكم ، فانقطعت الصلات التى تربط الولاة بدار الخلافة ، فزال عن بغداد بهاؤها وامحت معالم بهجتها ، وقويت شوكة الحكام وزاد سلطانهم ، فتمتعوا بشبه سيادة مستقلة فى ولاياتهم غير عابئين بتأييد الخليفة لحكوماتهم ، وبدهى أن أمثال هؤلاء المتعسفين لم يكونوا ليهتموا بالثقافة والحياة الأدبية ، بل ولم يكن وقتهم ليسمح لهم بتعهدها لا شتباكهم المتواصل فى الكفاح عن كيانهم السياسى ؛ ولم يخرج عن هذه الفئة سوى سيف الدولة الحمدانى الذى أسس دولة صغيرة فى حلب ، دخل بسببها فى حروب طويلة مع البيزنطيين للدفاع عنها ، فاجتمع حوله فى أوقات فراغه عدد كبير من الشعراء ومحبى الآداب ، ولقد عرف كيف يحتفظ فى بلاطه ببعض البارزين منهم .

وأهم من ظهر من الشعراء فى ظل حكمه أبو الطيب أحمد بن الحسين المعروف بالمتنبى ، وإنما سمى كذلك لادعائه النبوة فى مقتبل حياته ، ولكن أمير حمص لؤلؤة الأخشيدى سرعان ما انتزع منه أحلامه وفرق أتباعه من حوله وأمر بسجنه ، فأفاق من غفلته وعرف قيمته الحقيقية ، فبعد أن أفرج عنه اشتغل بالشعر ، وانضم الى بلاط سيف الدولة عام ٣٣٧ ﻫ . فوصل فيه الى ذروة المجد وبعد الصيت ، وقضى فى بطانته تسع سنوات ممتدحا أعماله بأشعار امتازت بالتصوير الجرىء والعبارة الفخمة ، ولكنه اختلف بعد ذلك مع العالم اللغوى خالويه من أقارب سيف الدولة ، فترك حلب ورحل الى مصر وانضم الى حاكمها كافور الأخشيدى وهو من أعداء سيف الدولة ، إلا أنه لم يصادف ما كان يرجوه من نجاح ، فرحل غاضبا الى بغداد ، وكان يجهل أحوالها ، فأبى أن يمدح الوزير المهلبى صاحب السلطان فيها ، فحمل عليه شعراء بغداد بالهجاء والسخرية ، حتى سافر الى بلاد الفرس ، ولكنه لم يجد فى بلاط عضد الدولة ما فقده فى بلاط سيف الدولة بحلب من حظ وافر ، فلما أراد العودة الى بغداد سطا عليه البدو فى الطريق وقتلوه عام ٣٥٤ ﻫ .

أجمع معظم النقاد المعاصرين والمتأخرين على أن المتنبى كان من أكبر الشعراء الذين برزوا فى الأدب العربى ، وربما كان آخر الشعراء الكبار ، ولم يكن هذا الرأى فى غير محله ،

فان المتنبى استطاع أن يكمل ما غرسه الشعراء القدماء ، وتعهده كبار شعراء الأمويين بالتطور والتهذيب ، فنما ونضج على يديه ، فاينعت القصائد وازدهرت بفضل جهوده الثمينة فى هذه الناحية من الأدب العربى ، حيث تحمل أبعد ما يسمح به ، هذا الفن من تبعات ، فلم يسلم من الوقوع فيما يخالف الذوق ، ولم تجد الفنون البغدادية المشبعة بالروح الفارسية اليه سبيلا ، فكان فخورا باصله العربى ، كما كان يعتبر سيادة هذه الشعوب الممجية وصمة عار على الروح العربية الأصلية .

وظهر من بعده من الشعراء المعروفين أبو فراس الحمدانى ، ويرجع الفضل فى شهرته الى ظروف خاصة أكثر من مقدرته الشعرية . ولد أبو فراس عام ٣٢٠ ﻫ بالعراق ونشأ يتيما فى ظل رعاية ابن عمه سيف الدولة ، فلما استتب له الأمر فى حلب عام ٣٣٦ ﻫ . جعله حاكما على منبج على الرغم من صغر سنه ، ودخل كذلك فى حروب طويلة مع البيزنطيين الى أن وقع فى أسرهم عام ٣٤٨ ﻫ ولكنه تمكن من الهرب ، إلا أنه وقع ثانية فى الأسر فنقلوه الى القسطنطينية زيادة فى الضمان ، وبقى هناك سجينا أربع سنوات الى أن عاد الى موطنه عام ٣٥٥ ﻫ ، وبقى به حتى وفاة سيف الدولة ، فاراد أن يقتطع لنفسه جزءا من أملاكه ، ودخل بسبب ذلك فى حرب مع ابنه سقط فيها قتيلا عام ٣٥٧ ﻫ .

أما أشعاره فكانت عبارة عن مذكرات تبين حياته السياسية ، ولم يكن بليغا فى عبارته التصويرية ، ولم تظهر شاعريته الحقيقية إلا على أثر اعتقاله بالقسطنطينية فى رسالة شعرية أرسلها من سجنه الى أمه . يتبع

ما أثر عن الكرماء

قال أبو سويد أخبرنى الكوفى قال : اعترض فتى من التجار الفضل بن يحيي بن خالد فى وقت خروجه الى خراسان ، وشكا اليه ما سلبه منه قطاع الطريق ، ثم أخذ بعنان دابته وقال :

سأرسل بيتا ليس فى الشعر مثله ... يقطع أعناق البيوت الشوارد
أقام الندى والبأس فى كل منزل ... أقام به الفضل بن يحيي بن خالد

قال فأمر له الفضل بمائة ألف درهم .

وروى العتبى أن مروان بن أبى حفصة الشاعر المشهور رفع الى زبيدة ابنة جعفر زوجة هرون الرشيد قصيدة يمتدح بها ابنها محمد بن الرشيد ، وفيها يقول :

لله درك ياعقيلة جعفر ... ماذا ولدت من العلى والسودد
إن الخلافة قد تبين نورها ... للناظرين على جبين محمد

فأمرت أن يملأ فه درا .

محمد صلى الله عليه وسلم

فى تقدير قادة الأفكار فى أوربا (١)

المرأة فى الاسلام

« لننظر الآن فى مذهب الاسلام فيما يختص بالنساء فنقول :

« ما أكبر خطأ العالم فى تقدير نظريات النبى فيما يتعلق بالنساء ! فقد قيل إنه قرر بان المرأة لا روح لها . فلماذا هذا التجنى على رسول الله ؟ فأعيرونى أسماعكم أحدثكم عن حقيقة تعاليمه فى هذا الشأن ، جاء فى القرآن : « ليس بامانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا . ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » (سورة النساء) وجاء فيه أيضا : « إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » (سورة الأحزاب) وجاء فيه أيضا : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » (سورة آل عمران) .

« وقد زاد النبى على هذا تشديدا فى وجوب رعاية حقوق النساء . فقد جاء فى القرآن : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » (سورة النساء) وجاء فيه : « يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » (سورة النساء) وجاء فيه : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا ، واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم » (سورة البقرة)

---

(١) هذه المقالة تابعة لما ترجمناه من كتاب الاديان المنتشرة فى الهند لزعيمة التيوصوفية العالمية (أنى بيزانت)

« ولا تقف تعاليم النبى عند حدود العموميات ، فقد وضع قانونا لوراثة النساء ، وهو قانون أكثر عدلا وأوسع حرية ، من ناحيـة الاستقلال الذى يمنحها إياه ، من القانون المسيحى الانجليزى الذى كان معمولا به الى ما قبل نحو عشرين سنة . فما وضعه الاسلام للمرأة يعتبر قانونا نموذجيا . فقد تكفل بحمايتهن فى كل ما يملكنه ، وضمن لهن عدم العدوان على أى حصة مما يرثنه عن أقاربهن وإخوانهن وأزواجهن .

« الآن يمكن أن يقال لنا : وما قولك فى تعدد الزوجات ! هنا محل النظر فى حقوق النساء .

«هذا صحيح ، ولكن على أى طراز يفكر الذين يصدرون مثل هذا الحكم ؟ ألا يرون أن هذا القانون عمل لشعب كان يمرح فى أحط ضروب الاباحة ، وأنه النبى نفسه به مقيدا لا يستطيع أن يتجاوز أربع نسوة ؟ إنى أقرأ فى العهد القديم (التوراة) ان صديق الله الذى ينبض قلبه طباقا لارادة الله ، كان معددا للزوجات . وزيادة على هذا ، فان العهد الجديد (الانجيل) لا يحرم تعدد الزوجات إلا على من كان أسقفا أو شماسا ، فانهما هما المكلفان أن يكتفيا بواحدة. وإنى لأجد كذلك تعدد الزوجات فى الكتب الهندية القديمة . وما يتهمون الاسلام إلا لأنه من السهل على الانسان أن يتتبع العيوب فى عقائد الغير ويشهر بها ، ولكن كيف يجوز أن يجرؤ الغربيون على الثورة ضد تعدد الزوجات المحدود عند الشرقيين مادام البغاء شائعا فى بلادهم ؟ ومن يتأمل فلا يجد وحدة الزوجة محترمة إلا لدى نفر من الرجال الطاهرين . فلا يصح أن يقال عن بيئة إن أهلها موحدون للزوجة مادام فيها الى جانب الزوجة الشرعية خدينات من وراء ستار . وأنا بقولى هذا لا أبغى أن أهاجم أحدا ، ولكنى أرجو فقط أن يعدل الناس فى حكم بعضهم على بعض . فالزواج الصحيح هو ما كان لكل رجل زوجة واحدة ، وكل ما عدا هذا قبيح . ولكن أكثر الناس لم يصلوا بعد الى هذه الدرجة من الطهر . ومتى وزنا الأمور بقسطاس العدل المستقيم ، ظهر لنا أن مبدأ تعدد الزوجات الاسلامى الذى يحفظ ويحمى ويغذى ويكسو النساء ، أرجح وزنا من البغاء الغربى الذى يسمح بأن يتخذ الرجل امرأة لمحض إشباع شهواته ، ثم يقذف بها الى الشارع متى قضى منها أوطاره . صرحوا بأن الأمرين قبيحان ، ولكن لا تسمحوا للمسيحى أن يذم أخاه المسلم بسبب أمر يشتركان فى ارتكابه . فيا إخوانى المسلمين إن تعدد الزوجات ليس بالأمر الحسن ، فتذكروا أن نبيكم قال بعدم جواز اتخاذ زوجة ثانية إلا إذا امكن التسوية بين الزوجتين فى الحب والعدل ، فأى إنسان يستطيع أن يسوى فى الحب والعدل بين امرأتين ؟ فان كان هذا ليس فى الامكان ، فان النبى لا يسمح إلا بواحدة . وإنى

أظن أنه قال ذلك ليحل مبدأ توحيد الزوجة محل مبدأ التعديد على وجه التدريج ، وليزول من ديانته هذا الأمر المعيب (١) .

« والاسلام يغرس فى قلوب الأطفال عاطفة الرعاية لوالديهم ، ويكفينا أن نقتبس آية واحدة من القرآن دليلا على ذلك : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » (سورة الاسراء)

«وفى الاسلام آية تعتبر غاية فى العدالة والسماحة وذلك فيما أمر به من معاملة الارقاء ، فقد جاء فى القرآن :« والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم ، فكاتبوهم (٢) إن علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » . (سورة النور)

« لنتكلم الآن عن الواجبات التى تتحتم تأديتها على كل مسلم ، فأولها كلمة الشهادة وهى : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، والزكاة وهى صدقة يجب القيام بها للاغراب والفقراء واليتامى والاسارى ، ويصح أن تكون من الحبوب والفاكهة والبضائع والماشية والدراهم . جاء فى القرآن : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب ، والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (سورة التوبة) وجاء فيه: « إن تبدوا الصدقات فنعما هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير » (سورة البقرة) وجاء فيه : « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ،وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم ، وأنتم لا تظلمون » . (سورة البقرة)

(١) مجلة الازهر — لا نوافق السيدة الزعيمة على أن وجود التعدد أمر معيب فى الديانة الاسلامية . فانها هى قد اعترفت بأن تعديد الزوجات فى الاسلام أرجح وزنا فى قسطاس العدل من مبدأ المخادنة الشائعة فى أوروبا وأمريكا ، وقررت أن توحيد الزوجة لا يصادف إلا عند نفر من الاطهار فى العالم كله . فاذا كان العالم لا يزال ضعيف الارادة ، مطواعا لدواعى الشهوات ، لا يطيق كثير من أفراده أن يكتفوا بواحدة ، فلا يعتبر بقاء مبدأ التعدد فى الشرع الاسلامى عيبا فيه تجب المبادرة الى إزالته . فالحكمة تقضى بوجوب بقائه حتى لا يقع المسلمون فيما وقع فيه سواهم من اتخاذ الخدينات ، ثم تركهن عالة على المجتمع ، مجردات من كل حماية ورعاية ، ومعرضات لضروب الاحتياجات والاهانات .

فاذا كتب للنوع البشرى ان يصبح كل أفراده أطهارا سقط مبدأ التعديد من نفسه ، ولم يعد يعمل به أحد، لانه فى الشرع الاسلامى ليس بفرض ولا سنة ، حتى وليس بمستحب بل مزهدا فيه .

(٢) الكتاب هو المكاتبة وهى ان يمين المولى مالا إذا اداه إليه رقيقه اصبح حرا ، فيدعه يعمل حتى يحصله . وفى الآية تحبيب فى مساعدة الارقاء المكاتبين باعانتهم من اموال الزكاة على التحرر من الاسر او بأن يحط موالبهم شيئا من جملة ما اتفقوا عليه من المال .

« تأمل فى جلال هذه العبارات الآتية التى وردت فى خطبة من خطب النبى : « كل عمل طيب صدقة : فالبشاشة التى تقابل بها أخاك صدقة ، ونصحك لأمثالك لتحملهم على الأعمال الفاضلة صدقة ، وهدايتك لعابر سبيل ضل عن الطريق صدقة ، ومعونتك لمكفوف البصر صدقة ، وإماطتك عن الطريق الحجارة والشوك وكل ما يسده صدقة ، ومناولتك الماء لمن به صدى صدقة » .

« أما الصلاة فى الأوقات الخمس فهى من العبادات التى تعتبر غاية فى الجمال والنبل .

« ومن الواجبات صيام رمضان ، وحج البيت بمكة ، على شريطة أن يترك الحاج لمن يخلفهم وراءه ما يكفيهم الحاجة .

« هذه هى الواجبات الخمس التى كلف بها جميع المسلمين . أما الخمر فهى محرمة عليهم تحريما باتا » .

محمد فريد وجدى

ما قيل فى قبول العذر

كتب الحسن بن وهب الى محمد بن عبد الملك الزيات :

أبا جعفر ما أحسن العفو كله ... ولا سيما عن قائل ليس لى عذر

وقال أبو تمام الطائى :

البر بى منك وطا العذر عندك لى ... فيما أتاك فلم تقبل ولم تلم
وقام علمك بى فاحتج عندك لى ... مقام شاهد عدل غير متهم

وقال شاعر وقد بالغ :

إذا اعتذر الجانى محا العذر ذنبه ... وكل امرئ لا يقبل العذر مذنب

ونحا نحوه صاحب العقد فقال :

عذيرى من طول البكا لوعة الأسى ... وليس لمن لا يقبل العذر من عذر

ولغيره وقد أجاد :

فهبنى مسيئا كالذى قلت ظالما ... فعفو جميل كى يكون لك الفضل
فان لم أكن للعفو عندك للذى ... أتيت به أهلا فأنت له أهل

وقال أبو الطيب :

وإن كان ذنبى كل ذنب فانه ... محا الذنب كل المحو من جاء تائبا

المطالب العالية فى النفس الناطقة

وصلتها بالانسان

— ٢ —

عرضنا فى بحث من البحوث السابقة إلماما للفرق بين الخير والسعادة ، ثم لمدى الخلاف بين المتقدمين من الفلاسفة وبين المتاخرين منهم فى ماهية السعادة ، وهل هى سعادة بالأضافة الى غيرها ، أو هى سعادة مطلقة بقطع النظر عما عداها من الاعتبارات ، وهل هى من ملابسات النفس الناطقة وحدها . أو أن البدن أيضا من مقوماتها ؟ .

لكن البحث لن يتسق للكشف عن مبلغ آراء فرق الفلاسفة فى السعادة والخير. من أجل ذلك نحب أن نعرض ـ بقدر ـ فى هذا البحث للسعادة فى رأى فيثاغورس وأفلاطون وبقراط وهؤلاء من متقدمى الفلاسفة ، ثم نعرض بعد ذلك لرأى أرسططاليس ، ثم نقارب بين رأى فيثاغورس وأتباعه وبين جمهرة من المشائين حتى يتسق البحث على وتيرة واحدة ، ويجرى على سنن مستساغ :

فمن الاتجاهات التى اتجه اليها فيثاغورس وأفلاطون وبقراط ومن اليهم تلقاء النفس الناطقة أن الفضائل الأربع التى هى قوام السعادة وعتادها حاصلة كلها فى النفس وحدها فليس لها مرد من الخارج ولا قوة تصدر عنها سوى النفس الناطقة ؛ ولذلك حينما عرضوا التقسيم قوى النفس فى كتبهم اعتبروا كل هذه القوى منحصرة فى الفضائل الأربع وهى : « الحكمة والشجاعة والعفة والعدالة » على ما عرضنا له فى صدر بحوثنا الأولى المتعلقة بالنفس الناطقة ثم رتبوا على ذلك الاتجاه أن تلك الفضائل الأربع وحدها كافية لتكون قواما للسعادة فى فصولها المختلفة ، فلا يحتاج معها الى غيرها من فضائل البدن ومميزاته ضرورة أن ذا النفس الناطقة إذا حصل تلك الفضائل مجتمعة فلا يغض من سعادته أن يكون سقيما أو فاقدا لبعض اعضائه أو مبتلى ببعض صنوف العلل والأدواء إلا إذا تأثرت تلك النفس بأوصاب البدن وأسقامه فيما يصدر عنها من أفعال كفساد العقل واضطراب التفكير وضعف الروية والخلط بين الآراء ، فان ارتفعت كل هذه الأعراض مع إصابة البدن بعلله وأوصابه فليس يضير النفس الناطقة فى شيء ، وأن يعرض لها الفقر والخمول وسقوط الحال وخشونة العيش مثلا ، وكل ما هو خارج عنها فليس ما كان خارجا عن النفس الناطقة بقادح فى سعادتها ، وبدهى أن فيثاغورس ومن لف لفه يذهب الى أن السعادة لا تعدو النفس الناطقة فلا تتناول الأبدان ومميزاتها ، ويرتبون على ذلك الاتجاه أن السعادة والخير فى مختلف مناحيهما ليس لهما إلا مصدر واحد وهو قوى النفس الناطقة وبالتالى الفضائل الأربع وليس للبدن على هذا الاعتبار إلا مظهر اليته . فالنفس مدبرة والبدن لها آلة .

أما جمهرة من الرواقيين فتذهب الى أن السعادة والخير يصدران عن النفس والبدن معا. فاذا صدر الخير عن النفس دون تقدير لكفة البدن فانما يصدر ناقصا بالقياس الى ما يتعاون النفس والبدن مجتمعين فى صوغه وإبرازه .

يأتى بعد ذلك أرسطاليس فينحو نحوا آخر وهو أن السعادة والخير متخالفان ثم إن السعادة بعد ذلك مقولة بالتشكيك فهى معروضة للمقولات العشر على ما سيجىء الكلام عنه باسهاب فى بحوث تالية .

ومعلوم أن المحققين من الفلاسفة يحقرون شأن البخت والاتفاق ، وكل ماليس له صلة بترتيب الفكر وإعمال الروية ، ولا يؤهلون أصحاب هذه الاتفاقات وحملة تلك المصادفات لاسم السعادة ، فالسعادة فى أوضاعهم أمر قار غير زائل بل هم فوق ذلك يعتبرون كل مايصل الانسان من غير طريق التدبير والروية ومن غير أن يجرى على سنن له مقدماته ونتائجه ضربا من ضروب البخت ، فهو قابل عندهم للبقاء والزوال والزيادة والنقص والتعديل والتجريح والرفعة والخفض وكل الاشياء ونقائضها . وتابعهم فى ذلك كثير من متاخرى الفلاسفة أخذا بنظرية صادقة عندهم وهى : من قدمه الاتفاق فقد أخره الاستحقاق . وهنا وقع خلاف ذوشأن بين قدماء الفلاسفة ومتأخريها فيذهب فيثاغورس وأفلاطون وبقراط الى أن السعادة العظمى لا تتحقق للانسان إلا بعد أن تخلع البدن وما يلابسه من غاشيات الطبيعة ، تطبيقا لمذهبهم القائل بأن السعادة لا تحصل إلا فى قوى النفس الناطقة . ومن أجل ذلك أطلقوا على الانسان أنه جوهر النفس الناطقة دون البدن ، فحكموا بأن البدن ما دام سياجا لها وقفصا لايوائها ، وما دام يخلع عليها غاشيات الطبيعة وأكدارها ولوثاتها وعلائقها فليست تلك النفس بسعيدة السعادة المطلقة الموموقة ، ومبعث ذلك الرأى عندهم أن النفس الناطقة لا تستوحى الكمال الذاتى والعقل النورانى ما دامت متصله بتلك الهيولى التى تحجب عنها العلوم والمعارف الكلية ، إلا إذا فارقت ظلمة الهيولى ولوثة تلك الكدورة ، وحينئذ تفارق الجهالات المتنوعة فتصفو وتخلص من ربقة البدن فتكتسب لها الاضاءة ويواجهها النور الالهى ، ويترتب على رأى هؤلاء بادىءذى بدىء أن الانسان لا يظفر بالفوز الأكبر والسعادة العليا إلا فى حياة الجزاء بعدموته.

لكن تاتى بعد ذلك جماعة أخرى من الفلاسفة المتاخرين وأرسطاليس منهم فى الطليعة ، فتذهب الى أن من الشناعة والعبث وتجاهل الواقع أن ينعت الانسان الذى يعمل الأعمال الصالحة ، ويعتنق الآراء الصحيحة ، ويجد فى تحصيل الفضائل لنفسه أولا ثم لأبناء جنسه ثانيا، فينشىء صروحا من الخير متنوعة ويقيم أعماله وما يصدر عنه من الآثار على محبة القلوب وكسب ألسنة الناس فى سبيل إعلاء معالم الفضيلة والحق والنصفة ، وتحقيق معنى العدالة فى أنبل مثلها ، بانه شقى فى حياته الأولى وأنه لا يعتبر سعيدا إلا إذا فارقها وخرج من طبيعتها وملابساتها .

فالسعادة فى رأى أرسطاليس ومتابعيه تتحقق فى الحياة الأولى تطبيقا لنظرية اشتهرت بينهم، وهى : أن الانسان عندهم مركب من بدن ونفس ولذلك يحدون الانسان بالناطق المائت أو بالناطق الضاحك أو ما الى ذلك ، وفرعوا على هذه النظرية أن السعادة تحدث للانسان إذا جد فى طلبها وسلك اليها الوسائل المؤدية اليها ، غير أن أرسطاليس حين رأى أن السعادة قد أشكل فهمها على الناس ، واضطربت فيها آراء العلماء والفلاسفة ، عقد لها فى كتابه المسمى « بفضائل النفس » فصلا طويل الذيل ضافى التفاريع حافلا بالحجج والآراء فقال فى فاتحة هذا الفصل ، « من البين أن الفقير فى هذه الحياة يرى سعادته فى الغنى واليسار ، وأن المريض يراها فى الصحة والسلامة ، وأن الذليل يتمثلها فى الجاه والعزة والسلطان ، وأن الخليع يلمسها فى التمكن من الشهوات المختلفة ، وأن النبيل الفاضل الكريم ينشدها فى تعميم مناحى الخير وإفاضتها على مستحقيها ، والحد من طغيان ذلك الخير حتى لا يشمل غير مستحقيه »

ويتحققها الفيلسوف المستقصى لحقائق الأشياء والمستتبع لملابسات النواميس الكونية فى أنها إذ تكون مرتبة بحسب تقسيط العقل لها على معنى أن يلحظ فيها وقتها الذى يجب أن تقع فيه ، وكما يجب أن تكون وعند من تجب — فهى سعادات متنوعة فما كان منها يراد لشىء يناسبه فذلك الشىء أجدر بأن يطلق عليه اسم السعادة .

ثم كشف بعد ذلك أرسطاليس عن رأيه فى بسط وإبانة ، فقال ، مع تصرف فى مبناه مع الاحتفاظ بمعناه فقال : قلما يتاح للانسان أن يفعل الأفعال الشريفة المرضية دون مادة تقوم عليها كاتساع اليد وكثرة الأعوان وجودة البخت ، ويتضح ذلك جليا فى صناعة الملك والرئاسات المختلفة حيث لا يواتيهم توطيد لأركان هذه الزعامة إلا مقترنا بالشرائط المبنية . على أن هناك نوعا من الأعطية هى أعطية الله تعالى جده فهى السعادة ، لأنها عطية منه عز اسمه وموهبة فى أشرف منازل الخير وأعلى مراتبه ، وتلك الموهبة خاصة من خواص الانسان الكامل فلا يشاركه فيها من ليست إنسانيته تامة كالصبيان وما يجرى مجراهم .

وتلك النظرية تقوم على نظرية أخرى عند أرسطاليس فأرسطاليس يرى أن السعادة تعتبر كذلك بالاضافة الى صاحبها فهى كمال له . فالسعادة على هذا الوضع خير ما ، وقد تكون سعادة الانسان غير سعادة الفرس وما اليه ، فسعادة كل شىء فى تمامه وكماله الذى يلائمه . وهنا يفرق بين الخير والسعادة فيرى أن الخير من حيث أنه مقصود للناس جميعا بالشوق اليه والعمل على تحصيله ، طبيعة تقصد ، وله مفهوم عام يدل عليه وهو الخير المطلق للناس من حيث إنهم كذلك. فالناس بأجمعهم محاصون فيه . لكن السعادة شىء آخر غير الخير عنده فهى خير ما لواحد واحد من الناس ، وهى بالاضافة ليست لهاذات معينة ، وهى تختلف بالاضافة الى قاصديها اختلافا يرجع الى مؤهلاتهم وما ركب فيهم من فطر ومعدات ، ومن أجل ذلك يكون الخير المطلق

غير مختلف فيه . وقد يظن بالسعادة أن تقع لغير الناطقين لكن ليس على نحو من أنحاء الناطقين فانها إذا وقعت فانما هى استعدادات فيها لقبول كمالاتها الملائمة لها من غير روية ولا تدبير ، وهى بمنزلة الشوق أو ما يجرى مجراه من الناطقين بالارادة .

فما يقع للحيوانات فى ما كلها ومشاربها واستجمامها لايمكن أن يسمى سعادة ، بل الوضع الصحيح له أن يسمى بختا أو اتفاقا ، وجلى أن العقل بفطرته قد جعل للسعى والحركة والارادة المكتسبة للانسان حدا تنتهى اليه ، فلذلك كان من المعقول أن يوجد خير مطلق لا تأباه طبيعة هذا الوجود ولا يوجد بين الناس خلاف عليه ، فالهمم والصناعات والتدابير الاختيارية المجدية مثلا ، كلها يقصد بها خير ما لوجه الانسانية على الأقل ، ولا يرتاب أحد فى أنها كذلك وأنها تثمر ثمرتها المرجوة لها فكل تصرف لا يقصد به خير ما كان عبثا والعقل يحظره ويأباه

فيكون الخير المطلق مقصودا اليه من الناس أجمعين لكن بقى بعد ذلك أن يعلم ما هو ذلك الخير المطلق ، وما الغاية القصوى منه التى هى غاية أنواعه وأعلى مراتبه ؟ وذلك ما سنعالج تبيانه بعد . غير أن أرسطاليس قسم الخير تقسيما مفصلا ونوعه تنويعا يكشف عنه كثيرا من الابهام الذى وقعت فيه جمهرة من متقدمى الفلاسفة . فهى ترى أن الخير أنواع وفصول ، فمنه ما هو شريف ومنه ما هو ممدوح ومنه ما هو بالقوة ، فالشريف منها ما كان شرفه مشتقا من ذاته بحيث يخلع الشرف على من قام به وهو الحكمة والعقل ، والممدوح منها كالفضائل والأفعال الجميلة الارادية .

أما ما كان بالقوة فكالتهيؤ والاستعداد لقبول الأشياء التى تكون نوعا من هذه الأنواع . ومن الخير ما هو غاية ، ومنه ما ليس كذلك ، ومن الغاية ما هو تام ومنها ما ليس كذلك ، فما هو تام كالسعادة لأن ، من بلغ اليها كان فى غناء عن أن يكون له وراءها مطمع أو مزيد ، وما هو غير تام كالصحة واليسار ، فان من واتته الصحة وواتاه اليسار لم يكن له عن طلب المزيد غناء ، بل ربما كانت الصحة أو اليسار من أقوى الحوافز له على طلب المزيد . أما الذى ليس بغاية منه فكالعلاج والتعلم والرياضة والعمارة والزراعة وما الى ذلك . وجملة القول فى الخير على ما حققه أرسطاليس وحكاه عنه فرفوريوس أن من أنواع الخير ما هو خير على الاطلاق ، وما هو خير عند الضرورة . ومنها ما هو خير ولكن ليس من طريق له مقدماته ووسائله كالاتفاقات التى تتفق لبعض المجدودين من الناس . وإيضا منها ما هو خير لجميع الناس ومن جميع الوجوه وفى جميع الأوقات . ومنها ما ليس بخير لجميع الناس ولها من جميع الوجوه . (وبالتالى) منها ما هو فى الجوهر ومنها ماهو فى الكم ، ومنها ما هو فى الكيف ، ومنها ما هو فى الأين ، ومنها ما هو فى المضاف ومنها ماهو فى الحيز . وعلى الجملة فالخير يعرض للمقولات العشر وتحمل عليه حملا اصطلاحيا . وقد أفاض أرسطاليس إفاضة مبسوطة فى تبيان هذه المقولات وعروض الخير لها دلالة منه على أن مناحى

الخير غير محدودة ، وأن نعمة الله التى أسبغها على عباده أوسع من أن تضيق بها تلك الرقعة السوداء بل أن آثار الله وآلاءه مبثوثة فى كل أجزاء من أجزاء الكائنات ، حتى يبقى البرهان القاطع قائما على شيوع الآيات الباهرة فى سائر مناحى تلك المجموعة الشمسية « وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد » . وقد سلك أرسطاليس فى ذلك مسلكا يخالف مسلك المتقدمين من الفلاسفة كأفلاطون وبقراط ومن اليهما — فالمفهوم من تفاصيل مذهبه فى النفس الناطقة وفى الخير والسعادة التى تنفعل بها قوى النفس جلى ، بل إن الخير شىء غير السعادة وأنه شائع باجزائه فى كل مناحى الوجود حتى سرى الخير الى سائر المقولات فكان سريانه اليها دليلا على ذيوعه وانتفاع الناس به . فالخير فى الجوهر وهو ما ليس بعرض يمثل له أرسطاليس بالحق تعالى جده فهو الخير الأول على حد تعبيره ، فان جميع الأشياء تتحرك بالشوق اليه ، ولأنه يفيض السرمدية والبقاء على الخير الذى كتب له الخلود ، وعلى الآلاء اللانهائية ، وعلى كل ما لا يطرأ عليه الفناء ، وفى الكم يمثل له بالعدد والمقدار المعتدلين ، ويمثل للكيف باللذائذ وألوان المتاع ، ويمثل لمقولة الاضافة بالصدقات والرياسات التى تنبعث عنها صلاحية تنطوى على خير الانسانية ، ويمثل للأين والتى والمكان المعتدل فى إبعاده وجوائه ومحيطاته وبالزمان الأنيق البهج المتفتح الاكمام عن المرح والسرور . ويمثل لمقولة الوضع بالقعود والاضطجاع والاتكاء الموافق — ويمثل للملك بالأموال والمنافع ، ويمثل للانفعال بالسماع الطيب الشيق وسائر المشاهدات المؤثرة ، ويمثل للعقل برواج الأمر ونفاذ الكلمة وسعة السلطان . وعلى الجملة فانواع الخير عنده منها ما هو من قبيل المحسوسات ومنها ما هو من قبيل المعقولات مما سنعرض له فى بحوثنا التالية بمزيد بسط وإيضاح .

عباس طه
المحامى الشرعى

فضيلة الحلم

قال رجل للأحنف بن قيس : علمنى الحلم يا أبا بحر .

قال : هو الذل . يا ابن أخى أفتصبر عليه ؟

نقول: يريد بقوله هو الذل أنه كبح للنفس عن مقابلة الجهل بالجهل ، فان النفس تميل لذلك ، ولكنه يردعها عنه فكأنه يذلها .

وقال الأحنف نفسه أيضا : آفة الحلم ، الذل . وقال : لا حلم لمن لاسفيه له .

وأحسن بيت فيما يناسب هذا المقام لكعب بن زهير :

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنى   أصبت حليما أو أصابك جاهل

حكمة تحريم سؤر الكلب

معجزة علمية للاسلام يكشفها الطب حديثا

في باب الفتاوى من هذا العدد استفتاء عن تربية الكلاب ؛ فرأينا أن نلخص في هذه المناسبة مقالا نقله قلم الترجمة لهذه المجلة عن مجلة (كوسموس) (Cosmos) الألمانية تحت عنوان « الأخطار التي تنشأ عن اقتناء الكلاب أو الاقتراب منها » للدكتور (جرارد فنتسمر) فهو يكشف عن إحدى المعجزات العلمية للاسلام . فاليك :

« إن ازدياد شغف الناس باقتناء الكلاب في هذا العهد الأخير يضطرنا الى لفت الأنظار للأخطار التي تنجم عن ذلك ، وخاصة إذا دفع اقتناؤها الى مداعبتها وتقبيلها والسماح لها بلحس أيدي أصحابها ، وتركها تلعق فضلات الطعام من أوانيها .

«فكل ما ذكر، مع نبوه عن الذوق السليم ، ومنافاته للآداب ، لا يتفق وقوانين الصحة فان الأخطار التي تهدد صحة الانسان وحياته بسبب هذا التسامح مما لا يستهان به . فان الكلاب تصاب بدودة شريطية تتعداها الى الانسان ، وتصيبه بأمراض عضالة قد تصل الى حد العدوان على حياته .

« هذه الدودة لا يزيد طولها عن نصف السنتيمتر ، والجزء الخلفي منها لا يزيد عرضه عن مليمتر ، ويحتوي في دور بلوغها على ما لا يقل عن خمسمائة بويضة لا يزيد قطر الواحدة منها عن ٣ ٪ من المليمتر ، فهي لا ترى بالعين المجردة .

« فاذا ماتسربت هذه البويضة الى أمعاء الانسان بسبب عدم تحوطه من لعاب الكلاب تمزق عصارتها قشرتها ، فتخرج منها دويدة ذات ستة خطافات محددة تندفع في مجرى الدم بعد أن تخترق جدار المصران وتسبح فيه الى أن تصل الى الكبد فتستقر فيه غالبا وتأخذ في النمو وتحدث فيه بثورا لا يزيد اتساع البثرة منها عن مليمتر في الشهرين الأولين ، ولكن بعد مرور خمسة أشهر يبلغ اتساع البثرة سنتيمترين . ثم تأخذ في النمو كلما تمادت بها السنون . وهذه البثرات تتقيح وكثيرا ما تتولد منها بثرات جديدة . فاذا انفجرت انتقل قيحها من عضو الى آخر وأصيب بما أصيب به العضو الأول، فأصبح الداء مستعصيا ، وعرض حياة المصاب به الى الخطر .

« أكثر ما توجد هذه البثرات فى كبد الانسان ، وقد تنتقل الى الرئتين والطحال والكلى والى تجويف الجمجمة . فيتغير شكلها . فقد يصل حجم البثرة الى نحو قبضة اليد أو رأس الطفل ، داخلها سائل أصفر .

« مما يدعو الى الأسف أن الحالات التى تزول فيها هذه الطفيليات من الجسم دون أن تترك أثرا أو تحدث ضررا نادرة جدا . هذا فضلا عن أن الوسائل الكيمائية لا تأتى بأية فائدة ، فلا بد من لجوء المصاب الى مشرط الجراح ولا كرامة .

« وقد ثبت أن جميع أجناس الكلاب حتى أصغرها حجما لا تسلم من الاصابة بهذه الديدان الشريطية .

« وأثبت الأستاذ الدكتور (نوللر) من تشريح الجثث بألمانيا أن الاصابات الآدمية بقروح دودة الكلاب قد لا تقل عن واحد فى كل مائة ، وعرف أن أكثر الأقطار تلوثا بهذه الآفة ، الدانمارك ، وهولندة ودالماسيا ، واسلاندة ، وبلاد القرم .

« وقد رؤى فى إقليم فريزلند بهولاندة حيث تستخدم الكلاب فى الجر أن فى كل مائة منها ١٢ إصابة . ووجد فى اسلاندة شخص مصاب بهذه الآفة فى كل ٤٣ شخصا من أهاليها. وشوهد أن هذه النسبة تزيد فى استراليا ، إذ ثبت وجود شخص يصاب بها فى كل ٣٩ شخصا من سكانها . وثبت كذلك أنها كانت سببا مباشرا لكثير من الأمراض فى تركيا وبلغاريا وروسيا وفنلندة ، وفى مناطق من شمال السويد وأفريقيا الشمالية والكاب وبأقطار كثيرة من أمريكا الجنوبية . وقد ثبت من الاحصاءات أنه يموت فى انجلترة فى الوقت الراهن أكثر من أربعمائة شخص سنويا .

« وقد شوهد أن الحيوانات كثيرة التعرض للعدوى بهذه الدودة من الانسان ، فقد سجل فى مجازرها أن ٢ ٪ من الاغنام يوجدان مصابين بها ، وأقل من ذلك فى الأبقار والخنازير . ولكن هذه النسبة لا تقف عند هذا الحد فى أقطار أخرى ، فقد قيل إنها بلغت فى مكلنبورج من ألمانيا الى ١١ ٪ فى الاغنام ، و١٢ فى الأبقار ، وسجلت مجازر هامبورج ١٨ ٪ فى الخنازير .

قال الأستاذ كاتب هذا البحث :

« لما كان ليس من المستطاع منع الناس عن اقتناء الكلاب فلا مناص من اتخاذ وسائل تحول دون سريان دائها العضال بين الناس . وأول هذه الوسائل عدم السماح بدخولها الى المجازر العامة ، فاذا أصيبت الكلاب بهذا الداء وجب معالجتها لا تقاء عدواها .

« كذلك تجب العناية بامر الذبائح المنزلية ، فقد تكون مصابة بدودة الكلب ولا يعرفها صاحبها ولا القصاب المكلف بذبحها .

« ومما تجب على الناس مراعاته عدم مداعبة الكلاب ، وتعويد الأطفال التوقى منها ، فلا تترك تلعق أيديهم ، ولا يجوز ابقاء الكلاب بمحال نزهة الأطفال وميادين رياضتهم .

« ويجب أن لا تطعم الكلاب فى الأوانى المعدة لأ كل الناس ، وأن لا يسمح لها بدخول متاجر المأكولات والاسواق العامة أو المطاعم ، وعلى وجه عام يجب إبعادها عن كل ماله مساس بمأكل الانسان ومشربه » انتهى .

ما قيل فى التعمير

دخل الشعبي على عبد الملك بن مروان فوجده مهتما فقال له : ما بال أمير المؤمنين ؟ قال : ذكرت قول زهير :

كأ نى وقد جاوزت سبعين حجة ... خلعت بها عنى عذار لجامى
رمتنى بنات الدهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يرمى وليس برامى

قال له الشعبي : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة وقد بلغ السبعين :

كأني وقد جاوزت سبعين حجة ... خلعت بها عن منكبي ردائيا

ولما بلغ سبعا وسبعين سنة قال :

باتت تشكى الى النفس موهنة ... وقد حملتك سبعا بعد سبعينا
فان تزادى ثلاثا تبلغى أملا ... وفى الثلاث وفاء للثمانينا

ولما بلغ تسعين سنة قال :

أليس ورائى إن تراخت منيتى ... لزوم العصا تحنى عليها الأضالع
أخبر أخبار القرون التى خلت ... أنوء كأنى كلما قمت راكع

ولما بلغ ثلاثين ومئة وحضرته الوفاة قال :

تمنى ابنتاى إن يعيش أبوهما ... وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر
فقوما فقولا بالذى تعلمانه ... ولا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذى لا صديقه ... أضاع ولا خان الخليل ولا غدر
الى سنة ثم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

تقرير بعثة الهند

ندب حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الازهر وحضرات اصحاب الفضيلة جماعة كبار العلماء ثلاثة من كرام العلماء هم : أصحاب الفضيلة الشيخ ابراهيم الجبالى والشيخ محمد احمد العدوى والشيخ عبد الوهاب النجار للشخوص الى الهند ودراسة أحوال المسلمين بها ، وما يجب أن يتخذ من الوسائل للدفاع عن الدين وامانة البدع وإحياء السنن هنالك ، وما يتطلب واجب تنظيم اسلوب الدعوة اليه ونشر كلمته ، وكانت هذه البعثة تحت رئاسة اولهم ، وقد ندب الاستاذ محمد حبيب وكيل كلية اللغة العربية ان يكون كاتم اسرارها ، وحضرة الفاضل محمد صلاح الدين افندى النجار مساعدا له ، فقامت هذه البعثة بما عهد اليها من التنقل فى اقاليم الهند وعواصمها ، ومقابلة كبار المسلمين بها ، وزيارة معاهدها العلمية ومؤسساتها الثقافية ، ولما آبت الى مصر اودعت ماجمعته من المعلومات الثمينة تقريرا يقع فى اكثر من سبعين صفحة من صفحات هذه المجلة ، وتشرفت برفعه لفضيلة الاستاذ الاكبر ، فآثرنا ان ننشرهذا التقرير القيم تباعا فى مجلة الازهر ، فانه لم يدع صغيرة ولا كبيرة مما يهم المسلمين الاطلاع عليه من احوال إخوانهم الهنديين من الناحية الدينية والثقافية والاجتماعية إلا احصاها . فلحضرات رئيس واعضاء هذه البعثة الشكر على ما قاموا به من هذه الخدمة العلمية ، وجزاهم الله عن الحنيفية السمحاء ما هم اهله وإليك نص ذلك التقرير :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أرسله الله رحمة للعالمين . أما بعد فان البعثة الأزهرية الى الهند تتشرف برفع هذا التقرير الى حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر .

وإنا لنتوجه الى الله سبحانه وتعالى ، فى مستهل عملنا ، أن يوفقنا الى إبداء الرأى واضحا جليا لمصلحة الاسلام والمسلمين ، مبتغين فيه وجه الله الكريم ، والله تعالى ولى التوفيق .

نشأة الفكرة :

نشرت جريدة البلاغ بتاريخ ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٥٥ الموافق ١٣ يونيه سنة ١٩٣٦ مقالا ضافيا عن أحوال طائفة المنبوذين فى الهند ، ذهبت فيه الى أنهم قد تبرموا بوضعيتهم الدينية والسياسية ، فاجتمع رؤساؤهم مرات متكررة ، ثم قرروا التحول عن الدين الهندوسى الذى يضعهم فى أحط الدركات الى دين يختارونه يمتاز بالخلو من نظام الطبقات حيث يجدون العزة ويتبوءون المكانة اللائقة بهم . كما ذكرت أن كثيرا من زعماء المنبوذين قد أثنوا

على الاسلام خلال خطاباتهم . وان زعيما من زعمائهم هو الدكتور أمبيدكار اعلن فى جمع حافل أنه لا مناص من تغيير الدين الذى نشأ عليه الى دين آخر لم يحن الوقت لاعلانه .

اتجهت الانظار عندئذ الى الأزهر الشريف ، وكل الناس ينتظر منه عملا يشرف الاسلام ويثلج صدور أهله . ثم جاءت الكتب تترى الى فضيلة الأستاذ الأكبر ، كل يدلى بما وصل اليه فكره من رأى يعتقده مجديا فى ضم المنبوذين — وهم خمسون مليونا — الى حظيرة الاسلام وكانوا جميعا متواضعين على اقتراح إرسال الوعاظ والدعاة الى ذلك القطر النائي لهداية هؤلاء القوم الى الدين الاسلامى الحنيف ببيان محاسنه والاعراب عن سمو مبادئه والتدليل على أنه الدين الذى يكفل لأهله الحرية والاخاء والمساواة .

وبعد ذلك بأسابيع ، وردت على فضيلة الأستاذ الأكبر عدة رسائل من الهند تناقضت فيها الأخبار ، فمن قائل بضرورة ايفاد بعثة من المبلغين ، الى قائل بالاستغناء عن ذلك بمعونة مالية يرسلها الأزهر للجمعيات التى تقوم بالعمل فعلا . وقد ذهب فريق من المتشائمين الى أن الأزهر لا يستطيع أن يساهم بكثير أو قليل فى هذا العمل الخطير .

عندئذ عمد فضيلة الأستاذ الأكبر الى التأنى حتى ينجلى الموقف . ثم بعث الى بعض شخصيات الهند البارزة يسألهم رأيهم فى الأمر .

وما إن نشرت جريدة البلاغ أخبار هذه الكتب حتى انهالت الرسائل تتحدث الى فضيلته عن شئون المنبوذين . وكان من المبادرين الى ذلك السيد عبد العزيز الثعالبى ، إذ تقدم بتقرير ضاف يبين شان المنبوذين وما يلاقون من هوان ، ويصف أحوالهم وما يحتاجون إليه ، وما ينبغى أن يقوم به الأزهر من أجلهم . وقد ذهب فى تقريره الى أنه لا لزوم لارسال بعثة لادخال المنبوذين فى الاسلام . فاذا لم تكن هناك مندوحة من العمل فليجمع المال لانشاء المؤسسات لهم من مدارس ومستوصفات وملاجئ ونحو ذلك ؛ وأما البعثة فانها تكلف المال الكثير دون جدوى . ولما كانت جريدة البلاغ محور الاهتمام الصحفى بالأمر فقد وردت عليها جملة رسائل كانت تنشرها تباعا ، ومن أهمها ما تقدم به الأستاذ حامد المليجى الى فضيلة الأستاذ الأكبر وهو خطاب ورد عليه من محمد زكريا منيار سكرتير أنجومان تبليغ الاسلام ببومبى تاريخه ١١ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ يذكر فيه أن إرسال بعثة من الأزهر فى الوقت الحاضر مضر جدا وأن الهنادك قد قامت فيهم حركة عنيفة واستعدوا بالمال الكثير لمقاومة البعثة وإحباط مسعاها .

ثم قدم السيد عبد العزيز الثعالبى كتابا — عدا تقريره السابق — من أربع صفحات ورد اليه من محمد زكريا منيار نفسه تاريخه ٧ سبتمبر سنة ١٩٣٦ يذكر فيه الشيء الكثير عن غنى الهنادك وإجزالهم الهبات فى سبيل مصالحهم الطائفية ، وأنهم سيقاومون بعثة الأزهر أشد مقاومة لفرط حرصهم على بقاء المنبوذين على دينهم ، وأن بعثة الأزهر سيكون شأنها الاعلان

والتظاهر مما يغرى الهندوس بمقاومتها غاية جهدهم ؛ كما ذكر أن الملايين التى أشاعت الجرائد إسلامها ليست حقيقية ، وأن جمعيات التبليغ بالهند عاملة على تهيئة الجو الصالح حتى إذا آن الأوان جاز لبعثة الأزهر أن تسافر الى الهند .

وورد على فضيلة الاستاذ الأكبر كتاب من الاستاذ فضل رحيم المحامى بنا جبور يستحث فيه الأزهر على إرسال بعثته . ويبين مزايا هذه البعثة ويشرح طريقة العمل .

عرض الأمر على جماعة كبار العلماء :

إزاء هـذا التناقض الغريب ، رأى فضيلة الأستاذ الأكبر أن يرسل بعثة لاستكشاف الأحوال فى الهند ، كما رأى الفرصة مناسبة لأن تزيد البعثة فى عملها بأن تتصل بالبيئات العلمية الاسلامية ورجال الفكر والشخصيات البارزة فى الهند .

ثم عرض فضيلته الأمر على جماعة كبار العلماء مدعما بما ورد اليه من رسائل ممن دعاهم ومن الذين لم يدعهم الى التقدم برأيهم . ومن أمهات هذه الكتب ما ورد من السير محمد اقبال شاعر الهند الاسلامية وفيلسوفها العظيم .

استعرضت جماعة كبار العلماء ظروف الحال وقررت مايأتى : —

١ — إرسال بعثة الى الهند لدراسة حال المنبوذين ومعرفة الوسائل الناجعة لهدايتهم الى الاسلام ، ودراسة أحوال الجمعيات الاسلامية وأحوال الطوائف الاسلامية بالهند .

٢ — أن يكون عدد أفراد البعثة ثلاثة ، ومعهم سكرتير يجيد اللغة الانجليزية . ويصح أن يلحق بهذه البعثة بعض الهنود بالجامع الازهر .

٣ — أن يفوض الى حضرة صاحب الفضيلة مولانا الاستاذ الاكبر اختيار أشخاص البعثة ممن يمكنهم الاضطلاع بهذه المهمة ، وأن يفوض اليه كذلك إنفاق المال اللازم على هذه البعثة من أموال الجماعة .

يتبين من هذا أن مهمة البعثة قد انحصرت فيما يلى : —

١ — دراسة حال المنبوذين ، ومعرفة الوسائل الناجعة لهدايتهم الى الاسلام .

٢ — دراسة أحوال الجمعيات والطوائف الاسلامية بالهند .

وقد قامت البعثة بتوفيق الله تعالى بما كلفته . ثم رأت من المصلحة أن تضيف الى عملها دراسات وأعمالا أخرى اقتضتها المصلحة العامة ، مما هو وارد بهذا التقرير .

وقع اختيار فضيلة الاستاذ الأكبر على أصحاب الفضيلة : الشيخ ابراهيم الجبالى والشيخ عبد الوهاب النجار والشيخ محمد احمد العدوى من بين المرشحين . أما سكرتارية البعثة فقد

أسندت الى الأستاذ محمد حبيب احمد مدرس التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين . ووقع الاختيار على محمد صلاح الدين النجار افندى لمساعدة السكرتير فى عمله .

قبيل سفر البعثة :

تجهز أعضاء البعثة للسفر، ثم قابلوا فضيلة الأستاذ الأكبر فأسدى اليهم غالى النصح ، وطلب اليهم أن يتصلوا بطوائف المسلمين وأن يعملوا ما استطاعوا على إزالة الفوارق بينهم ، وأن يكونوا إخوانا متعاضدين تحقيقا للوحدة الاسلامية التى قال الله تعالى بشأنها : « وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » . فاذا وفقت البعثة الى ذلك جنى الاسلام فائدة عظيمة كما طلب اليهم أن يعقدوا صلات الود بين معاهد العلم فى الهند والأزهر فى مصر على أساس النفع المتبادل . وأن يدرسوا عن كثب حال المنبوذين دراسة مستفيضة ليعلموا الى أى حد يمكن للأزهر أن يساهم فى الحركة التى شاعت عنهم إن كانت لها حقيقة، ثم دعا لهم بالتوفيق وكان ذلك فى اليوم الرابع عشر من شهر رمضان سنة ١٣٥٥

وفى اليوم التالى قابل أعضاء البعثة مجلس الوصاية الموقر بقصر عابدين ؛ فأخذ صاحب السمو الملكى الأمير محمد على يظهر ارتياحه وسروره العظيم لسفر البعثة . ثم أخذ سموه يلقى النصائح على ضوء ما شاهده فى رحلته الى الهند .

ثم قابلت البعثة بعد ذلك حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء . ولما أن شرحت له البعثة مقاصدها سر من ذلك سرورا عظيما وأخذ يلقى النصائح ويدعو للبعثة بالتوفيق .

وفى اليوم السابع عشر من شهر رمضان سنة ١٣٥٥ الموافق أول ديسمبر سنة ١٩٣٦ غادرت البعثة القاهرة . وقد ودعت فيها وداعا حافلا فكان على رأس المودعين فضيلة الأستاذ الأكبر يحف به عظماء القوم من كل من يمت الى البعثة أو أحد أعضائها بصلة . فكان وداعا جمع فأوعى .

ثم استقبلت البعثة كذلك فى بنها استقبالا حسنا إذ جاء إليها وفد من علماء معهد طنطا يتقدمهم فضيلة الاستاذ (المرحوم) الشيخ محمود الدينارى .

أما بور سعيد فقد كانت حفاوتها بالبعثة عظيمة ، منذ أن نزلت بها الى أن غادرتها على ظهر السفينة فى الساعة الثامنة من مساء اليوم التالى .

وبعد أن اجتازت الباخرة القناة ، ، ولم نقف فى مدينة السويس ، وردت على البعثة رسالة لاسلكية من أهالى السويس وبور توفيق يحيونها ويرجون لها النجاح فى مهمتها . وقد أجابت البعثة على ذلك بالشكر تلغرافيا .

كلمة شكر :

وقبل أن نسترسل فى الكلام على شئون البعثة ، يجدر بنا أن نتقدم بوافر الحمد وجزيل الشكر الى الصحافة المصرية على عنايتها بشئون البعثة قبل سفرها وبعده . ونخص بالشكر جريدة البلاغ على عنايتها بالشئون الاسلامية عامة وشئون الهند خاصة . فقد كانت للأستاذ حامد المليجى محرر القسم الشرقى بالبلاغ جهود تذكر بالشكر فى تتبع الشئون التى يهم الأزهر الوقوف عليها ، واستطلاع آراء العاملين فى هذا الموضوع على اختلاف نزعاتهم مما ألقى على الموضوع ضوءا مفيدا . ولا يفوتنا أن نتقدم بجزيل الشكر لجرائد الأهرام والمصرى والجهاد على تتبعها أخبار البعثة ونشرها الكثير من الرسائل الواردة عليها من مراسليها بالهند .

كما يجدر بنا أن نتقدم الى جمعية الشبان المسلمين ممثلة فى شخص رئيسها الدكتور عبد الحميد سعيد بالشكر على ما بذله من المساعدات الأدبية للبعثة .

فى عدن :

استقبلت البعثة فى ميناء عدن استقبالا عظيما حيث صعد اليها السيد عبد الله علوى الجفرى والسيد عبد الرحمن الجفرى وكذا بعض أعيان عدن . ونزل الجميع الى البر حيث كان السيد فضل ولى عهد سلطنة لحج قد جاء لاستقبال البعثة والسلام عليها . ثم سار الجميع فى رتل من السيارات الى نادى الاصلاح حيث أعدت لهم مائدة إفطار جمعت أعيان البلاد وأهل العلم أمثال : السيد عبد الله بن احمد بن عمر بن يحيي العلوى ، وأولاد عمومته ، والسيد الاصنج من رجالات عدن وأهل الغيرة على مصالح المسلمين بها .

ثم انتقل الجميع الى قصر سلطان لحج حيث كان فى استقبالهم ولى العهد ومعه حاشيته وهناك التقينا بالسيد عبد العزيز الثعالبي الذى كان قد سبقنا الى عدن فى طريقه الى الهند .

وبعد تناول المرطبات بقصر السلطان عادت البعثة الى الباخرة وفى صحبتها ولى العهد وكذلك الشباب الناهض من أهل العلم والأدب ، فشكرت البعثة الجميع على حفاوتهم . ثم سارت الباخرة فى طريقها الى بومباى .

وحدث ، ونحن على ظهر السفينة ، أن اتفقت كلمتنا على النزول بفندق « تاج محل » وهو أعظم فندق فى بومباى ، وذلك حفظا لكرامة البعثة والهيئة الموقرة التى أوفدتها ، وحتى تتاح الفرصة لكل من يريد الاتصال بالبعثة أن يقصد الى الفندق فى غير حرج .

وقبل وصولنا الى بومباى بيومين وردت علينا رسالة لاسلكية من الحاج قاسم على

شيراز بهاى من كبار أعيان المدينة ورئيس جمعية « انجومان تبليغ الاسلام » يرحب بالبعثة ويرجو أن تقبل النزول فى ضيافته ، فأجبناه تلغرافيا شاكرين له دعوته ، معتذرين بأننا حجزنا فى فندق « تاج محل » وقد علمنا بعد ذلك أن تصرفنا هذا كان بردا وسلاما على قلوب الجالية العربية وغيرهم ببومباى إذ رأوا فيه عزة لنا ولهم ورفعة لمقامنا ومقامهم فى أعين أهل الهند .

وقد رأينا أن نستعد ، ونحن على ظهر السفينة ، ببيان ندلى به الى الصحافة الهندية عند نزولنا ، فوضعنا البيان الآتى :

« إن البعثة الأزهرية المصرية قد قدمت الى الهند تحمل بين جنبيها صداقة الشعب المصرى لسكان الهند كافة ، وقد جاءت الى هذه البلاد لزيارة المؤسسات العلمية على العموم ، والاسلامية منها على الخصوص ، وكذا للتعرف بزعماء المسلمين وقادة الفكر فيهم ؛ وهى ترجو من وراء ذلك أن توطد علاقات الصداقة بين المسلمين فى الهند وإخوانهم فى الاسلام بمصر »

فكان ذلك البيان باكورة طيبة لعمل البعثة نشرته كافة الصحف الهندية ، ثم علقت عليه بالترحيب بها راجية لها أن توفق فى مهمتها . كما كان للبيان أثر طيب فى جميع الدوائر الاسلامية وكذا فى الدوائر الحكومية ، مما استطعنا أن نستجليه واضحا خلال مقابلاتنا العديدة مع رجال الحكم فى تلك البلاد .

وكان من أثره كذلك أن رغبت الحكومة فى تسهيل مهمتنا ، فأوصت الحكومة المركزية فى دلهى كافة الحكومات الاقليمية بالبعثة خيرا ، فكان ذلك عونا لنا على القيام بما كلفنا به .

مكانة مصر والأزهر عند مسلمى الهند :

إن بلاد الهند ، مع كثرة المتعلمين والمثقفين من المسلمين فيها ، والحاصلين على أعلى الدرجات العلمية من جامعات انجلترا وألمانيا وأمريكا واليابان ، لا يزال أهلها يكنون لمصر كل إكبار واحترام ، ويعتبرونها زعيمة الأمم الشرقية فى العلوم والمعارف ، وحاملة لواء النهضة العلمية والثقافية فى الشرق كله .

أما الأزهر فله فى قلوبهم مكانة عظمى . فهو عند المسلمين ، بلا استثناء ، كعبة العلوم الدينية والعربية ، والمنهل العذب لجميع طلاب العلوم الدينية فى العالم بأسره ، وعلماؤه قدوة أهل الشرق والغرب فى الدين ، وهم الهداة الذين لا يشق لهم غبار .

وكم سمعنا من أفاضل العلماء الاتقياء قولهم والعبرات تخنقهم : (إنكم يا أهل مصر تردون موارد العلم فى الأزهر صافية عذبة ، ونحن لا نرد إلا كدرا . لذلك شاع بيننا اختلاف العلماء

وتباين الأهواء وتدابر أهل الدين وصاروا شيعا يكفر بعضهم بعضا ؛ أما أنتم فلا خلاف بينكم فى الدين ولا اختلاف ، وقد اتسعت صدوركم ولم تتبعوا نزعات المضلين باسم الدين ..الخ).

وليس أدل على ما للأزهر من مكانة سامية من قول الزعيم الكبير محمد على جناح عندما طلب اليه أن يكتب لأصدقائه داخل الهند يوصيهم بالبعثة ويسألهم معونتها الأدبية : إن اسم الأزهر عظيم جليل ، وهو اسم سيشق الطريق أمامكم فسيحا الى جميع أغراضكم التى ترمون اليها ، فان روعته فى القلوب ، واحترامه فى النفوس ، كفيلان بذلك .

وقد بلغ من تقدير إخواننا المسلمين فى الهند للأزهر وبعثته أن قررت جمعية « إسلام سيفا سماج » فى مستهل بعثتنا ، أن تهدى المدالية الذهبية الى فضيلة الأستاذ الأكبر ، وهى المدالية السنوية التى تهديها الجمعية فى يوم عيد الفطر المبارك الى خير من أبلى فى خدمة الاسلام خلال العام . وقد رأت الجمعية أن العمل الذى قام به الاستاذ الاكبر من إيفاد هذه البعثة ، مضافا الى جلائل أعماله فى خدمة الاسلام ، يجعل فضيلته خير مستحق لهذه المدالية . وقد أهديت مدالية هذه الجمعية فى العام الماضى الى حضرة صاحب السمو العالى نظام حيدر أباد .

وقد آثرنا أن ننشر فيما يلى فقرات قصيرة مما جاء على ألسنة بعض الخطباء من تقدير للازهر ومكانته فى الهند :

« نحن وإن بعدت الشقة بيننا ، ولم يسبق لنا باللقاء عهد ، فاجمة العلم والأدب تجمعنا . ولحمة العلم أقوى من لحمة النسب ... ولعل هذه أول النهضات العربية فى العالم الاسلامى منذ قرون خالية . ومزيتكم على جميع الاقطار الاسلامية جلية . ومن ذا لا يعرف فضائل الأزهر الذى كان من أجل مراكز العلم فى الزمن الغابر ، وسيكون إن شاء الله من أشرق الجامعات العلمية فى العصر الحاضر » .... من خطاب دائرة المعارف بحيدر أباد .

« قد زادنا سرورا أنكم ما ركبتم البحار إلا لنا ، ولتوثيق عرى المودة بين المسلمين وتعارف الأزهر وطلابه مع المعاهد العلمية فى الهند وطلبتها البائسين ، ولاحكام أواصر الرابطة الاسلامية التى لعبت يد الحدثان بأوصالها . فما أسعد حظنا حيث نلنا بغيتنا وظفرنا بأمنيتنا ، فذلك ما كنا نبغى ، فان المسلمين لن ينجحوا أبدا فى حياتهم ولا نظامهم ولا اقتصادهم إلا إذا استمسكوا بعروة الوحدة الاسلامية استمساكا ، وعضوا عليها بالنواجذ . نحن الطلبة ، وإن ربتنا الهند ونشأنا فيها ، جد مولعين بالعلوم العربية والاسلامية ، ولكن من الأسف إن معاهدنا العربية الهندية لم تزل غير كافية لسد ما نحتاج اليه ، وظروفنا ما وسعتنا أن نسافر الى البلاد العربية ونستقى من مناهج علومها العذبة ، لكوننا من أهل بقعة ليس فيها إلا البؤس والشقاء . فرجاؤنا أن نلفت أنظاركم الينا ، وأن تبذلوا جهودكم لدى مشيخة الأزهر أن تذلل لنا العقبات التى تحول بيننا وبين الارتشاف من مناهل الأزهر العذبة » . . . . من خطاب الطلبة فى ندوة العلماء بمدينة لكنو .

« لا ريب أن الأزهر مركزنا العظيم ، وعاصمة العلوم وحصنها ، وأن الأزهر وفرنجى محل بينهما مناسبة عظيمة فى نشر العلوم وخدمتها . لا نحسبكم ضيوفنا بل أنتم أساتذتنا ومرجع آمالنا » . . . . خطاب الترحيب فى فرنجى محل بمدينة لكنو .

« إنكم أيها السادة تمثلون أقدم جامعة فى العالم ، كانت ولا تزال منبع العلم والنور ألا وهى الجامعة الأزهرية فأنتم رسل المحبة ، والنائبون عن طبقات المتعلمين المثقفين فى مصر ولقد فتحتم فتحا جديدا بزيارتكم لاخوانكم المسلمين هنا . جئتم لاكتشاف طرق التعليم . جئتم تعلمون وتستفيدون . جئتم لتروا ما يمكنكم الأخذ به من أساليبنا . كما جئتم الى بلادنا لتلقوا عليها ولمصلحتها ضوء العلم والعرفان الذى اقتبستموه من جامعتكم العظيمة » . . . . من خطاب جمعية مسلمى البنجاب بمدينة كرتشى .

« إن زيارة البعثة الأزهرية الى بلادنا لزيارة ميمونة ، لا سيما فى ذلك الوقت الذى ضربت فيه بلادكم السعيدة بسهم وافر فى العلم والسياسة . فان مصر بموقعها ملتقى ثقافتى الشرق والغرب وهى الحصن الحصين للغة العربية التى هى اللغة الدينية للعالم الاسلامى كافة . وكانت الهند ولا تزال تتطلع الى بلادكم بحثا عن كنوز الدين وثقافته التى مابرحت مصر تغذى بها العالم أجمع » من خطاب جمعية التاج الاسلامية للنشر بلاهور .

« لقد جئتم الينا من أقدم جامعات العالم — من الجامعة الأزهرية التى ساخت الى اليوم من حياتها ألف عام — وإن صيت جامعتكم العظيمة التى هى أثر من آثار الفن الاسلامى ، ومركز من مراكز الثقافة ، قد جاب الآفاق ، وأصبح ذائعا فى دوائر العلم والأدب فى الشرق والغرب . فبينما كانت أوربا غارقة فى محيط الجهالة ، كانت الجامعة الأزهرية العظيمة منارا يشع بضوئه العلمى المنتشر فى كافة الأقطار ، فكان هاديا للضالين فى ظلمات التعصب الدينى وضيق التفكير . وإن الأزهر اليوم لهو الجامعة الدينية الوحيدة التى تجتذب الطلبة من كافة أنحاء المعمورة ، كما أنها الجامعة التى بزت سائر الجامعات فى الاعراب عن الرأى الاسلامى العام والعقيدة الاسلامية الخالصة » . . . . من خطاب حزب الله فى بهاول بور .

« لقد شرفتم الأمة الهندية بقدومكم الى هذه البلاد النائية ، إحياء لذكرى الماضى الذهبى القديم ، وتجديدا لروابط الاخوة الاسلامية . فنزلتم بأرضنا تحملون رسالة وادى النيل ومصر الشقيقة الى الهند ومسلميها إخوانكم فى الله والدين » خطاب طلبة الكلية الطبية بدلهى .

مكانة مصر الأدبية :

إن الطلبة فى الهند ليشعرون من قرارة أنفسهم شعورا عميقا بما لمصر من المكانة الأدبية وما لأهلها من قدم راسخة وقدرة فائقة فى العلوم والمعارف . فكم رأينا من الطلبة فى كافة

أنحاء الهند من يحنون شوقا ويتحرقون شغفا بمصر وأزهرها ، ويتطلعون الى الارتشاف من معين علومها . وكم رأينا ممن تفيض أعينهم بالدمع حزنا على أنهم لا يجدون ما ينفقونه على أنفسهم فى مصر إذا هم قصدوها لطلب العلم .

ولقد بلغ من شغف الطلبة ، وشوقهم الى مصر وأهلها ، ورغبتهم فى الاطلاع على أحوالها . أنهم كانوا يتقدمون لنا مبادرين ليأخذوا وعدا من أعضاء البعثة بمحاضرات عن شئون مصر فى جميع نواحى الحياة ، قائلين : إنهم أحق بذلك من غيرهم لأن أهل العلم بعضهم أولى ببعض . وقد كان لهم فى أكثر الأحيان ما أرادوا .

أما تهافت الطلبة على سماع المحاضرات العامة والخطب الشاملة من أعضاء البعثة فحدث عنه . وكم طلب إلينا طلبة الجامعات مقابلات خاصة ليستفسروا منا عن بعض ما أرتج عليهم من أحوال مصر مما لا تتسع له المحاضرات العامة .

وقد اهتم كثير من الجامعات الاسلامية وكذلك المدارس الخاصة بأبناء المسلمين بدعوة البعثة ليعرضوا عليها نواحى نشاطهم فى ترقية التعليم من ناحيتيه الدينية والعربية .

فمن ذلك أن الجامعة الملية بدلهى قد عرضت علينا ما تبذله من جهود فى سبيل ترقية اللغة العربية فيها . وقد تذاكرنا مع ناظم الجامعة الدكتور ذاكر حسين ، وتبادلنا معه المذكرات فيما يمكن أن يقوم بين جامعته والجامعة الأزهرية من صلات ثقافية .

ومن ذلك أيضا أن جامعة عليكره طلبت الى البعثة أن تضع لها منهاجا كفيلا بترقية الدراسات الدينية . فوعدت البعثة بأن ترفع هذا الرجاء بعد عودتها الى رياسة الجامعة الأزهرية وذلك لأن الوقت لم يكن كافيا للمناقشة والمذاكرة .

ومن ذلك أيضا أن خان بهادور الدكتور محمد حسين قد أنشأ بمدينة دهرادون مدرسة يعمل فيها على إعداد طلبة الهند لنيل شهادة كمبردج العليا (Senior Cambridge) التى تؤهل الطلبة للانتساب الى الجامعات البريطانية رأسا دون التقيد بمناهج الهند الجامعية التى لا تعترف الجامعات الانجليزية بمساواتها لمثيلاتها من الجامعات البريطانية فى الدرجات العلمية . وهو بذلك يوفر على طلبة الهند الذين يعتزمون السفر الى انجلترا ثلاث سنوات أو أربعا من سنى حياتهم . تقدم الينا هذا الرجل فعرض علينا أن نضع له منهجا للعلوم الدينية والعربية يستطيع به الطالب دخول كليات الأزهر رأسا دون أن يقف فى سبيله ما يقف فى سبيل الطالب الهندى العادى ، وحتى يوفر على أبناء بلده ذلك الزمن الذى يقضونه فى الدراسات الدينية التى قد لا تساير مناهج الأزهر . وهو أمر لو تم لكان من أحسن الأمور وأعمقها أثرا وأنفعها للاسلام والمسلمين . لا سيما وأن طبقة الطلبة فى مدرسته ينتمون الى أسر طيبة . وللدكتور محمد حسين آمال كبار فى أن يخرج من المدرسة التى يشير بها . وما يتلوها

من إكمال للدراسة بالأزهر — طبقة من الوعاظ يعودون الى بلادهم حاملين لواء التبليغ بالدين الاسلامى تبليغا مطبوعا بالطابع الأزهرى . فيكونون أقدر على النفع وأبعد عن اتخاذ علمهم شباكا لا صطياد المال . وذلك نظرا لطيب محتدهم وسمو أخلاقهم . وقد وعدنا الدكتور محمد حسين بأن نبحث هذه الحالة فى مصر . ولعله يحضر اليها قريبا للمذاكرة والاتفاق .

هذا الى أن معظم الجامعات الاسلامية ، وما دونها من المؤسسات العلمية ، طلبوا الحصول على مناهج الأزهر ليستنيروا بها فى إصلاح مناهجهم .

وقبل أن نختتم هذا الفصل ، يجدر بنا أن نتقدم بجزيل الشكر لاخواننا المسلمين فى الهند ، على ما خصونا به من حفاوة . ونعتذر الى كل من لم يتسع وقت البعثة لاجابة دعوته . ولو أجابت البعثة كل الدعوات التى وجهت اليها ، أو سافرت الى جميع المدن التى دعيت لزيارتها ، لاستغرقت البعثة السنوات بدل الشهور .

وقد قضت البعثة فى الهند حوالى مائة يوم زارت فى خلالها ٥٠ مدرسة وجامعة ، وتحدثت فى جلسات خاصة مع ٣٠ من رجالات الهند الممتازين . وألقى أعضاء البعثة ٣٢ محاضرة عامة كما أجابوا عددا من الدعوات الخاصة والعامة منها ٤ للافطار و ٧ للغذاء و ٣٥ للشاى و ١٦ للعشاء . وكانت كلها مجالا لتبادل الرأى خلال التبسط فى الحـديث . وزارت البعثة ٢٠ مكانا أثريا إسلاميا ـ ولايبرر قلة هذا العدد، مع كثرة الآثار الاسلامية بالهند، إلا أن زيارة الآثار لم تكن داخلة فى المهمة التى أوفدت من أجلها البعثة الى الهند .

وقـد أدى أعضاء البعثة صلاة الجمعة فى المساجد العامة اثنى عشر مرة فى عشرة مساجد فى عشر مدن كبرى مختلفة . كما حضرت صلاة العيد فى الميدان العام مرة فى بومباى والأخرى فى كلكوتا .

(يتبع)

لحضرات المشتركين

رغبة منا فى تنظيم علاقات وكلاء مجلة الأزهر بقلم جساباتها ، رأينا أن نعمل بدل الايصالات المؤقتة التى يسلمونها للمشتركين إيصالات نهائية مذيلة بخاتم لنا خاص بالمجلة ، على الصورة التى يرونها فى نهاية هـذا الاعلان . وكل إيصال ليس عليه هـذا الخاتم لا تعتد به إدارة المجـلة بعد تاريخ هذا الاعلان . فنرجو حضرات المشتركين ملاحظة ذلك بكل دقة ، ولهم منا الشكر الجزيل ؟

مدير مجلة الأزهر

محمد فريد وجدى

حول فلسفة ابن رشد :

نشرنا فى العدد الماضى مقالا لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيرى يرد فيه على حضرة الاستاذ الدكتور محمد غلاب بشأن ما نشره من رأى ابن رشد فى قدم العالم ، فاضطر الدكتور غلاب لتعزيز ماذهب اليه فأرسل الينا ردا مستفيضا مؤيدا بكثير من النصوص والأدلة ، مريدا بذلك أن لا يدع لأحد مجالا للريب فى صحة ما كتبه عن الفيلسوف الاندلسى ، ولكى لا نثير هذا الجدل العنيف آثرنا أن نغلق هذا الباب مكتفين بما كتب وفيه غناء .

ديوان حافظ ابراهيم :

ليس فى الناطقين بالضاد من يجهل مكانة حافظ ابراهيم من القريض ، جزالة ألفاظ ، وسمو معان ، وسحر بيان ، لو تيسرت واحدة من هذه الخصائص لشاعر لبنى لنفسه صرحا فى الثريا ، فما ظنك وقد اجتمعت كلها لحافظ ابراهيم ؟ وقد عنيت جماعة الأدب فى مصر بذكراه تحت رعاية وزارة المعارف ورأى حضرة صاحب المعالى زكى العرابى باشا وزيرها الجليل أن تكون ثمرة هذه الذكرى طبع الجزء الثانى من ديوان شاعرنا الكبير . وقد تم طبعه وأهدانا معاليه نسخة منه جمعت وجوه الاتقان كله . فنشكر لمعاليه هذه العناية بالأدب والأدباء ، فبمثل هذه الأريحيات الكريمة يحيا الأدب وينشط الأدباء .

كتاب الآثار :

هو كتاب جليل القدر لقاضى القضاة الامام أبى يوسف صاحب أبى حنيفة النعمان ، رواه عنه ابنه أبو محمد يوسف ، وهو مسند الامام الأعظم جمعه صاحبه أبو يوسف ، وأضاف اليه مروياته من الحديث فى جميع أبواب الفقه . وقد عنى بتصحيحه والتعليق عليه الاستاذ المفضال أبو الوفا المدرس بالمدرسة النظامية بحيدرباد الدكن بالهند ، وهو تعليق عظيم القيمة . وقد أشرف على طبعه بالقاهرة فضيلة الأستاذ الشيخ رضوان محمد رضوان وكيل لجنة إحياء المعارف النعمانية فجاء الكتاب غاية فى نظافة الطبع وجودة الورق . (عنوانه عطفة الأمير بجوار الأزهر)

أسواق العرب فى الجاهلية والاسلام :

من الكتب التى لا غنى لكل أديب ومتأدب عنها كتاب أسواق العرب الذى ألفه الأستاذ الألمعى سعيد الافغانى ، فقد جمع فيه أسواق العرب فى الجاهلية والاسلام ، وما كان يتناشد فيها من أشعار ، ويروى من أدب ، فجاء كتابا أدبيا فى شكل جذاب . وقد حلاه بخريطة وفهارس مرتبة على حروف الهجاء للأعلام والأبيات . ووضع له مقدمة حافلة بالمعلومات عن تجارة العرب وآدابهم . وقد عنى بشرح غريبه ، فجاء سفرا معجبا يجمل أن تتحلى به كل مكتبة .

تعطفات حضرة صاحب الجلالة الملك

على الجامعة الأزهرية والأزهريين

ما زال حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول منذ من الله على هـذه البلاد باجلاسه على أريكة ملـكها ، وهو يرعاها بعنايته ، ويمدها بعوارفه ، حتى غمر الناس فى أية بيئة كانوا من فيض فضله ، ما جعلهم يعتقدون بأنهم تحت رعاية مليك استكمل صفات كبار العياهلة ممن خلد التاريخ أسماءهم فى أكرم مكان من صحفه .

وكان للأزهر من تعطفات جلالته القسط الأوفى ، والحـظ الأوفر ، على نسبة مـكانته من المؤسسات الـكبرى ، لاختصاصه بالجمع بين الثقافتين العلمية والدينية معا .

أول ما ظهر من هذه التعطفات ، وكان إعجاب الناس به عظيما ، تقريبه لرجال الدين وشدة عنايته بهم ، وخاصة بصاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى ، فقد تفضل فأسند اليه مهمة مذاكرته فى الدين ، فـكان هذا من جلالته تشريفا كبيرا للعلماء من ناحية ، وايذانا بأنه يعنى بالثقافة الدينية عناية خاصة . وهى سنة جليلة سنها جـلالته ، أعاد بها سيرة عظماء الملوك الذين تولوا أمر الأمة الاسلامية وأوصلوها الى أوج عظمتها الاجتماعية من طريق القيام على السنن الالهية .

لذلك كان لزاما على علماء الدين أن يجتمع كبارهم ويرفعوا لجلالته كتابا موقعا عليـه منهم ، يشكرون فيه الله على ما تفضل على الأمة بولايته ، ويدعونه أن يحفظ جـلالته ملاذا للعلم ، وموئلا لأهله ، وقد فعلوا ذلك وتشرفوا برفعه الى جلالته ، وهذا نصه :

حضرة صاحب المعالى كبير الأمناء :

أتشرف بابلاغ معاليـكم أنه لمناسبة انعقاد مجلس جماعة كبار العلماء لأول مرة ، إثر تولى حضرة صاحب الجـلالة الملك فاروق الأول حفظه الله مهام ملـكه السعيد ، توجهوا الى الله سبحانه بطلب بقاء الذات الـكريمة مؤيدة بنصر الله وتوفيقه ، عاملة على إحياء دين الله وإعلاء كلمة الله ، وقرروا إرسال تهنئتهم الصادرة من قلوب مخلصة متعلقة بالعرش وبجلالة صـاحب العرش ، وطلبوا الى إبلاغ ذلك .

فأرجو التـكرم برفع هذا الى السدة الملـكية المعظمة ، أدامها الله ذخرا للبلاد .

وتقبلوا بقبول عظيم الاحترام ؟

٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦	شيخ الجامع الأزهر
١٤ أغسطس سنة ١٩٣٧	محمد مصطفى المراغى

وما كاد يرفع هذا الكتاب لجلالة الملك حتى أصدر إرادته الكريمة بايفاد رسول من قبله يحمل جوابه عليه الى دار حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر بحلوان .

واليك نص ذلك الجواب الملكى :

عزيزى الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فقد كان للرسالة التى طلب اليكم مجلس جماعة كبار العلماء إبلاغها الى ، أبلغ الأثر فى نفسى .

وإنى إذ أعرب لكم وللمجلس الموقر عن خالص شكرى وتقديرى لدعواتكم الصادقة ، وتمنياتكم المباركة ، أشارككم الابتهال الى الله بقلب سليم أن يوفقنى وإياكم الى العمل على نصرة دين الله وإعلاء كلمته ، إنه ولى التوفيق ، وهو نعم المولى ونعم النصير ؟

تحريرا بسراى المنتزه فاروق

فى ١٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦

وما كاد يمر على هذا الكتاب الكريم أيام معدودة حتى تفضل جلالة الملك حفظه الله فأصدر أمره العالى بفرش الأزهر بالطنافس الثمينة على نفقته الخاصة ، فكان لهذا التعطف الملكى العظيم من الوقع فى نفوس رجال الدين والمسلمين كافة ما لا يمكن وصفه ، وانطلقت الألسنة بالدعاء لجلالته بأن يحفظه الله ركنا للدين ، ونصيرا لأهله ، وأن يثيبه بما أسدى ثواب العاملين على إعلاء كلمة الله ، والمجاهدين فى سبيله . ورأى العلماء أن هذه اليد الكريمة يجب أن تقابل بشكر يناسب قيمتها ، فأجمعوا على أن يشخص وفد من كبارهم تحت رئاسة فضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى لرفع كتاب يضمنونه آيات إخلاصهم لسدته .

فسافر لهذا الغرض وفد منهم الى الاسكندرية وتشرفوا بمقابلة جلالته ، رافعين اليه كتابا مكتوبا بخط جميل ، ومغلفا تغليفا أنيقا ، فتقدم حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر وبيده الكتاب قائلا لجلالته : جئنا يامولانا المليك نحن شيوخ المذاهب الاسلامية وأعضاء جماعة كبار العلماء لنرفع الى مقام جلالتكم السامى ، رسالة جماعة كبار العلماء وعلماء الأزهر ، للرعاية الملكية التى تفضلتم فشملتم بها الأزهر والأزهريين قاطبة ، بل العالم الاسلامى أجمع .

فقال جلالته : أستغفر الله الكريم . ثم أخذ فضيلة الأستاذ الامام فى تلاوة هذه الرسالة بين يدى جلالة المليك . وهى هذه :

يا صاحب الجلالة :

إن الأزهر الذى مضى عليه قرابة ألف سنة ليشعر اليوم وهو فى مطالع عهدكم الزاهر أنه يتقدم وثوبا الى الأمام كأنه يسابق الأيام . إنه ليشعر بنهضة مباركة لأن جلالتكم قد أوليتموه سامى رعايتكم ، وأسبغتم عليه نعماء تلو نعماء .

وكتاب جلالتكم الموجه الى جماعة كبار العلماء يتجلى فيه واضحا جليا مبلغ الرعاية والعناية التى تحوطون بها الأزهر ورجاله .

وإن أمركم الكريم بفرش الأزهر بالسجاد الفاخر ، لهو مكرمة سابغة تحفز علماء الأزهر وطلابه الى السير قدما الى الأمام .

يا صاحب الجلالة :

إن الأزهر ذا التاريخ المجيد هو مفخرة مصر بل الشرق كله ، وهو المعقل المنيع للعلم والدين ولغة القرآن الكريم ، والمثابة الرحبة لطلاب العلم من الأمم الاسلامية ، يغدون إليه من أقطار شاسعة ، وبلاد بعيدة ، فاذا ما أوليتموه رعايتكم وأحطتموه بعنايتكم فانما ذلك رفع لكلمة الدين ، وإعلاء لبنيانه ، ورفع لمكانة مصر بين الأمم والشعوب .

وإن جماعة كبار العلماء حين يبتهلون الى الله تعالى أن يثبت بيده عرشكم ، ويكلأ برعايته ذاتكم ، ليترجمون عما تكنه مصر والعالم الاسلامى من المحبة الصادقة ، والولاء الدائم ، والاخلاص العظيم ، والشكر العاطر ، على ما أسديتم الى الأزهر من نعم وأياد بيضاء .

لا زلتم يامولانا موئلا حصينا للدين ، رافعاً أعلامه ، مؤيداً سلطانه ، مثبتا دعائمه وأركانه ، ولا زالت أياديكم الغراء تترى على الأزهر ، حتى يبلغ فى ظل ملككم السعيد غاية ما ترمى إليه عناية جلالتكم ، الموجهة دائما الى خير الوطن ، وإعزاز كلمة الدين ؟

١٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٦	شيخ الجامع الأزهر
٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٧	ورئيس جماعة كبار العلماء

محمد مصطفى المراغى

ولما انتهى فضيلته من تلاوتها رفعها الى جلالة الملك ، فتفضل جلالته بتناولها قائلا :

«إنى أشكركم كثيرا ، وأرجو من حضراتكم أن تدعوا الله لى كثيرا ليوفقنى بهدايته الى ما فيه الخير لنا جميعا » .

فقال حضرات العلماء : « الله يوفق جلالتكم الى نصر الحق وإعلاء كلمة الله » !

ثم تفضل جلالته وصافحهم جميعا ، فانصرفوا وهم يلهجون بالدعاء لجلالته .

في الحضرة الملكية :

بعد أن انتهت هذه المقابلة الملكية تكرم حضرة صاحب الجلالة الملك واستبقى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغي نحو نصف ساعة فى حضرته العلية ، مظهرا له من العطف السامى ما الأستاذ الأكبر جدير به .

حفظ الله جلالة الفاروق ذخرا للعلم والدين ، وأيد شوكته ، ورفع أعلامه ، وشيد به دولة الحق والعدل ، إنه سميع مجيب ! !

بسم الله الرحمن الرحيم

حصة الازهر من الاحتفال بجلالة الملك

لبلوغه سن الرشد

في يوم الخميس ٢١ جمادى الاولى سنة ١٣٥٦ احتفلت الامة المصرية وعلى رأسها الحكومة والبرلمان ببلوغ حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول سن الرشد، فقصد جلالته فى موكب حافل الى دار البرلمان حيث كان ينتظر مقدمه الكريم صاحب المقام الرفيع وأصحاب الفضيلة والمعالى والسعادة رئيس الحكومة والاستاذ الاكبر والوزراء والمفتى ووكيل الازهر ورئيس المحكمة الشرعية وأركان الحكومة، فتفضل جلالة الملك وأدى اليمين الدستورية، فارتفعت الاصوات ضارعة الى الله أن يحفظ ذاته الكريمة، وأن يمتعه بصحة كاملة، وحياة طويلة، ليؤدى حق العبء العظيم الذى اضطلع به، ويتمم صرح مجد مصر الذى بدأ فى إقامته أسلافه العظام. ثم شيع بمثل ما استقبل به من الاجلال والاحترام.

وفى مساء ذلك اليوم دعا حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى العلماء والطلاب لتأدية صلاة العشاء بالجامع الازهر، فلبوا الدعوة محفوزين بما يكنون لحضرة صاحب الجلالة الفاروق من الحب الصميم، والاخلاص الصحيح، فأم فضيلة الأستاذ الامام المصلين، وبعد أن تمت الصلاة صعد المنبر فارتجل خطابة بليغة ذكر فيها صاحب الجلالة بما يعرفه فيه من الخلال الجليلة، والخصال الجميلة، والميول النبيلة، وأعرب عما يخالج قلبه من التفاؤل بولايته الرشيدة، وحكمه السعيد.

ثم تلاه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد اللبان، شيخ كلية أصول الدين، فألقى كلمة قيمة سرد فيها من مناقب صاحب الجلالة ما وسعه المقام. ثم نهض فضيلة الاستاذ الامام وطلب الى هذا الخضم الزاخر من رجال الدين وأقطاب علومه ونجباء طلابه من جميع الآفاق أن يدعو كل منهم لجلالته بما يمليه عليه شعوره نحو المليك المحبوب، فضج المسجد بالدعاء والتأمين، وانصرف رجال الازهر وكلهم ألسنة شكر وتقدير لفضيلة الاستاذ الامام على ماوفق اليه من سن هذه السنة الحسنة التى تتمثل فيها روح الازهر، وتتميز مكانته من كيان هذه الامة، ولايتخيل العقل لبلوغ هذا الغرض الشريف عملا أبلغ ولا أولى برجال الدين والعلم من هذا العمل.

كبار العلماء على المائدة الملكية

كلمة فضيلة الاستاذ الامام بين يدى جلالة الملك

هدية رجال الدين الى جلالته

فى يوم الجمعة التالى ليوم بلوغ سن الرشد، وعقب الصلاة بمسجد الرفاعى، قصد حضرات أصحاب الفضيلة الأستاذ الاكبر ومفتى الديار المصرية وشيوخ المعاهد الدينية ومفتشيها، ورئيس المحكمة الشرعية، قصر عابدين لتناول الطعام على المائدة الملكية، وكان قد دعى اليها حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس الوزراء وصاحب المعالى وزير الأوقاف وكثير من رجال القصر. وبعد تناول الطعام انتقل جلالته ومعه رفعة رئيس الوزراء وفضيلة الاستاذ الأكبر ومعالى وزير الاوقاف الى حجرة أخرى.

وبعد تناول القهوة دخل جلالة الملك الى قاعة الاستقبال، ودعى حضرات أصحاب الفضيلة العلماء للمثول بين يديه، فساروا يتقدمهم فضيلة الاستاذ الاكبر فألفوا جلالته واقفا والى يساره رفعة النحاس باشا ومعالى وزير الاوقاف ورجال القصر، فتقدم فضيلة الاستاذ الامام وألقى بين يدى جلالة الملك كلمة جمعت على إيجازها من أصول ولاية الأمر فى الاسلام، وحقوق الرعية على راعيها، ما يجب على قيم الدين أن يجهر به، وهذا تجديد وفق الله اليه الاستاذ الامام تنويها بمكان الدين من مقومات الملك، وقد ابتكر لهذا التنويه أسلوبا يلائم كل الأذواق، ويتفق وجميع التقاليد الدستورية.

وهذه هى الكلمة:

مولاى صاحب الجلالة:

اختار الله جلت حكمته سيدنا ومولانا محمدا صلى الله عليه وسلم مبلغا وحيه، مبينا كتابه، موضحا هديه، وأتم الله بدينه النعمة: «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الاسلام دينا». وفى الحديث الصحيح: «إن أحسن الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها».

ولقد رأى علماء الازهر تذكارا لمناسبة اضطلاع جلالتكم بأعباء ملككم السعيد، أن يتقدموا اليكم بهدية ليست من صنع البشر، ولا مما يقدر عليه البشر، بل هى من عند الله سبحانه، وأن تكون مذكرة بما لله صاحب السلطان عليكم من حقوق. لذلك قرروا أن تكون الهدية التذكارية كتاب الله سبحانه، وما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم من حديث.

مولاى:

إنى وأنا أتقدم الى جلالتكم بهذه الهدية أذكركم بحقوق الله سبحانه وتعالى، وبحقوق عباده:

فلله حق الطاعة فيما امر ونهى ، وحق العمل بما بين وهدى، وللرعية حق العدل بينها ، وتوفير الخير لها وإسعادها . وفى الحديث الصحيح : « من ولاه الله عز وجل شيئا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم ، احتجب الله عنه دون حاجته وخلته وفقره» .

ومن حقوق الله يامولاى حمل الرعية على الاعتصام بالكتاب، والسنة ، وإرشادها الى الاعمال النافعة الموصلة الى عزة الامة ورفعة قدرها بين الامم ، فقد حرص الاسلام أشد الحرص على العزة ، ولا يوجد فى تعاليمه ما هو أشد من هذه التعاليم ، ولا يوجد فى غيره من المذاهب ما يقرب منه فى الحرص على هذه التعاليم .

أسأل الله أن يتولى هديك ورعايتك وعونك ونصرك ، وأن يديم لك حب العباد ، ويملأ قلبك بحب الله وحب رسوله ، إنه نعم السميع المجيب !

بعد أن أتم فضيلة الاستاذ الاكبر إلقاء هذه الكلمة الجليلة قدم الى جلالته مصحفا شريفا وكتاب صحاح الاحاديث للشيباني .

فشكر جلالته الاستاذ الاكبر والعلماء ، وأعجب بالهدية أيما إعجاب ، قائلا : إن هذه هدية يحرص عليها .

فدعا حضرات العلماء لجلالته بالنصر والتأييد ، وانصرفوا شاكرين تعطفاته السنية ، ومراعاته الملكية .

وقد احتفلت جمعية الرابطة العربية ببلوغ جلالة الملك سن الرشد ، فنهض حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام وألقى هذه الكلمة القيمة :

إن جلالة مولانا الملك فاروق الاول لم يعرفه الشعب من قبل ، غير أن حبه يملك على الناس جميعا قلوبهم . ذلك أن الله سبحانه وتعالى إذا أحب إنسانا أحبه أهله وأحبته الملائكة وأحبه أهل الارض جميعهم .

ولقد أحب الله جلالة الملك فاروق فاحبه الشعب جميعه .

هذا الى أن أخبار جلالة الملك ترامت الى الناس ، فعلموا أنه ملك طاهر القلب ، محب للدين محب للانسانية ، محب للحق والعدل ، يواسى البؤساء والضعفاء والمساكين ، وأنه يعمل هذا دون تكلف . كل ذلك جعلهم يزدادون تعلقا وحبا فيه .

ولقد كان لى شرف الاتصال بجلالته فادركت عن قرب كل تلك الخصال ، ويحق لى أن أشهد بها أمامكم وأمام الناس .

إن جلالة الملك فاروق ذكى ذكاء فطريا لا يوجد إلا عند أفراد قليلين ، وقد وهب له الله سرعة الخاطر ، والوصول الى الصواب ، ودقة التعليم والعمل .

أسأل الله تعالى أن تستفيد الانسانية بمواهبه وقدرته وفطرته التى فطره الله عليها !

صاحب الجلالة الملك

فاروق الأول

في يوم الخميس الحادى والعشرين من شهر جمادى الأولى لسنة (١٣٥٦) (١) احتفلت الأمة المصرية أعظم احتفال وأفخمه ببلوغ حضرة صاحب الجلالة الملك «فاروق الأول» سن الرشد، ثمانية عشر عاما هجريا. فلم يبق فى هذه البلاد رجل ولا امرأة، من جميع الأسنان فى مدنها وقراها، وفى حضرها وبدوها، إلا هلل وكبر إعظاما لهذا اليوم المبارك الخالد فى تاريخ مصر، استبشارا بمقدمه، وتفاؤلا منهم جميعا بأن هذا الفرع الباسق من الدوحة العلوية الكريمة سيكون مفتتح العهد الذهبى المنتظر لهذه الأمة، كما كان جده الأعلى من قبل موجد استقلالها ونهضتها، وباعث حياتها ومدنيتها.

ليست هذه الأمة بمبالغة فى تفاؤلها بمليكها الشاب، فانها مدينة بكيانها الاجتماعى الموحد وبالعوامل التى تتضافر على إبلاغها غاية أمانيها، للبيت العلوى الكريم، ولقد رأت رأى العين، رغما عن الحوادث التى انتابتها، والمطامع التى احتوشتها، فى أدوار مختلفة، محافظة القائمين من آحاد هذا البيت على حقوقها، وذيادهم عن حوزتها، واستبسالهم فى المكافحة عن كرامتها.

فكم رأت من حادثة اكفهر لها الجو، وافتكت عواصفه الهوج من عقالها، وزمجرت رعود سحبه بصواعقها، وثارت زوابعه تجتاح كل قائم فى طريقها، كانت نجاتها منها فى اللياذ بعرشها، والالتفاف حول الجالس عليه، فكيف لا يقر فى نفسها، وينتقش فى صميم قلبها، أنها وهذا العرش وحدة لا ينفصم عراها، وكل لا يقبل التجزؤ ولا الانحلال؟

أجل: إن لهذا البيت على مصر فضلا لا يمكن أن تنساه ما بقى لها عرق ينبض، ونفس يتردد. فقد كانت مسرحا لأوزاع من الآفاقين، توزعوا نواحيها، واستعبدوا أهاليها، وسخروهم لمطامعهم يوجهونهم كما يشاءون، توجيه المالك لعبدانه، بل أسوأ مثلا، فان صاحب العبدان يتكفل بضرورياتهم، ويعنى بحاجاتهم، ويعمل على إنمائهم، ولكن هؤلاء كانوا يجتاحون ثمراتهم فلا يدعون لهم ما يتبلغون به، ويهملون شأنهم فيبيد منهم من يبيد، ويهاجر من يهاجر، ويهيم على وجهه من يهيم، وأخذ عددهم يقل عاما بعد عام، حتى كادت تقفر البلاد منهم، وما هى تلك البلاد؟ هى مصر التى يجرى فيها أجل أنهر العالم بركة، وكانت تؤوى أكثر أمم الأرض عددا، وأحفلها ثروة، وأبدعها مدنية.

(١) الموافق ٢٩ يوليو من سنة ١٩٣٧

ولولا أن شاء الحق عز سلطانه أن تبقى هـذه الأمة ممثلة لأقدم أمم الأرض حضارة ، لمد فى عهد تلك الشراذم جيلا أو جيلين ، فتصبح يبابا بلقعا لاتجد فيها حيا ، ولاتسمع له ركزا .

فلما أدركها سبحانه بالحملة الفرنسية «وعسى أن تكرهوا شيئا وهوخير لكم»، واقتضت هذه الحملة وجود العاهل العبقرى مؤسس الأسرة العلوية على رأس كتيبة من الجيش التركى الذى حضر لانقاذ البلاد من الاحتلال الفرنسى ، كبر على هذا المجاهد الباسل أن يدع مصر العريقة المجد ، لحاعلى وضم، بين أيدى مناسر من المغامرين يدأبون على امتصاص دمها ، فعمل على الحصول على ولايتها . وهذا طريق ملتو يعتبر نجاحه فيه إحدى الكبر ، ومن أعجب حوادث القدر . ولما تم له ذلك بذل وسعه لتخليصها من براثن أولئك الضوارى ، وتهيأت له الأسباب فأبادهم ، فخلصت مصر من شرهم كما يخلص الجسد من جراثيم مرض عضال لا يعقل شفاؤه منه ، ولكنها كانت من الضعف والهزال بحيث لا تستطيع أن تتماسك أعضاؤها ، فتولاها مؤسس هذا البيت بالعلاج ، وما زال بها حتى استطاعت النهوض والحركة ، وإذ ذاك دأب على إيتائها بكل ما تقتضيه حياتها كأمة ، فقسم نواحيها الى أقاليم ، وجعل على كل منها حاكما من رجاله ، ووزع أراضيها على أهلها ،كل بقدر ما يستطيع أن يقوم بخدمته ، ووضع نظاما لجباية الضرائب تجبى باسم الحكومة الرئيسية ، لا باسم أصحاب الالتزامات كما كان جاريا عليه العمل ، وكان مثارا لكل ضروب الخطل ، ونظم لها شرطة لحفظ الأمن بين أهلها ، ومهد لها سبل التعلم بفتح المدارس، وجعل لها جيشا مدربا على النظام الحديث ، وأسس المصانع لايتائه بالملابس والأسلحة والذخائر، وافتتح مدرسة حربية لاسعافه بالضباط . ثم التفت للأمور المدنية فاستكثر من معاهد العلم ، ومن المصانع لايتاء الأمة بحاجاتها من الضروريات المعيشية ، ولم يدع شيئا مما تحتاج إليه الأمم فى تطورها إلا أتاها به ، وزاد على هـذا كله فأرسل شبانا من متعلميها الى أوربا ليدرسوا ضروب المعارف فى جامعاتها ، وينقلوها الى لغتها . فلم تلبث هذه الجهود المبذولة أن أثمرت ثمراتها ، فولدت الأمة المصرية ولادة جديدة ، وتيقظت جميع غرائزها فى حب البقاء ، وتطلب الارتقاء .وكان هوفى أثناء هذه الأعمال يجد فى الحصول على استقلالها حتى حصل عليه مقيدا ، ولولا التنافس السياسى الدولى لحصل عليه مطلقا .

فكيف تنسى مصر لهذا البيت ما أداه لها من هذه الخدم الجليلة ، وكيف لا تخلص لعياهله الاخلاص كله وهى مدينة له بانعاشها من كبوتها أولا ، ثم بايتائها بما تحتاج اليه من ضروريات الحياة الاجتماعية والسياسية ثانيا ، ولا يزال يوليها الرعاية بأقصى ما يبلغه الامكان ، وتصل اليه العزيمة الصادقة ؟

لا يوجد فى جميع عوامل النهوض والتطور ما هو أفعل فى الأمم من توافق وجهتى النظر بينها وبين بيوتها المالكة، وما لجأت بعض الأمم الى الجمهورية إلا تطلبا لتحقيق هذا التوافق

بين الشعب والهيئة الممثلة له ، وللجمهورية كما لا يخفى عيوب جمة ، وطريق للوصول اليها وعرة . فاذا وجد هذا التوافق بين هوى الأمة وهوى بيتها المالك ، بز هذا الشكل من الحكم الشكل الجمهورى ، وخلص من عيوبه ومن صعوبة الوصول اليه . وأكمل مثل نقدمه للقراء المملكة الانجليزية ، فان الاتفاق فيها بين ميول الشعب وميول العرش تام من كل وجه ، لذلك كانت حكومتها أكمل الحكومات من كل وجه .

فهذا التوافق فى الميول بين الأمة والعرش كان حاصلا فى جميع أدوار تاريخ مصر الحديث ، وسيكون على أكمل وجوهه فى عهد صاحب الجلالة الفاروق ، فقد ظهرت بوادر ذلك جلية واضحة فيما أبداه الشعب من الاستبشار بولايته ، وما صدر مما يحققه من جلالته .

لقد عرفت الأمة المصرية مليكها طفلا ويافعا ، بما كان ينقل لها من أخباره ، ثم خبرته شابا ، فآنست منه كل ما تحب أن يتحلى به ممثلها من سمات الرجولة ومظاهر الأدب النفسى ، وصفات النضج العقلى ، والكمال الخلقى ، فكان من ألطاف القدر أن يتولاها وهى فى هذا الدور من الانتقال الاجتماعى والدولى ، الذى تحتاج فيه الى مثل أعلى تحتذى شاكلته فى نهوضها القومى ، وتطورها السياسى .

قد حصلت الأمة المصرية بعد كفاح شاق متواصل دام أكثر من نصف قرن على استقلالها الكامل ، وهى فى هذا الدور أحوج ما تكون الى شبيبة قوية الأخلاق ، ناضجة العقل ، سليمة من أدواء النفس ، يقوم على أكتافها صرح الحرية المرجوة ، والاصلاح المنشود ، وهذه صفات لا تتوافر فى الأفراد إلا بالقدوة الطيبة والأسوة الصالحة ، وهى لا تكون إلا من شخصية بارزة ، ونفسية متميزة . فيسر الله هذه القدوة الضرورية لها فى شخص مليكها المفدى ، فكان وجوده بين ظهرانيها فى هذه الآونة من متممات تطورها الى المكانة التى تطمح اليها بين الجماعات البشرية ، ومن مكملات العوامل التى لابد منها لاحسان القيام بمهمتها الاجتماعية .

فاذا كانت الأمة المصرية تقيم المهرجانات احتفالا بولايته أمورها ، فهى مسوقة الى ذلك بعاملين : عامل الواجب الرسمى ، وعامل الغبطة الصادقة ، بمن يجمع فى شخصه الكريم المثل العليا التى هى فى أشد حالات الحاجة اليها فى هذا الدور الدقيق الذى تدعى للدخول فيه ، دور العمل لتحقيق الاستقلال فى جميع ضروبه .

فالله أسأل أن يمد جلالة الملك بروح من عنده ، وأن يحوطه فى الاضطلاع بمهامه ببسطة من أيده ، وأن يطيل فى مدى حكمه ، حتى تنعم الأمة فى بحبوحة يمنه .

فليهنىء الفاروق ملك لا يبلى ، وليهنىء الأمة مثلها الأعلى !

محمد فريد وجدى

التفسير

سورة لقمان

— ٦ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) :

بينا فى الكلمة السابقة أنه جل شأنه أردف الآيات الدالة على عظيم قدرته وبالغ حكمته ، المثبتة لتفرده بالخلق ووحدانيته ، بقوله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله » . وفى ذلك إشارة الى أن النفوس متى صفا جوهرها واتجهت الى تعرف الحقيقة وإدراك الأمور على ما هى عليه ، وأذعنت بالعبودية الى بارئها ومكونها فاطر السموات والأرض ، اهتدت الى أن شكره على ماحبا من النعم هو أول ماينبغى أن يشتغل العبد به ، وأن يصرف كل همه نحوه ، وأن الشكر يتضمن أن يصرف كل نعمة أنعم بها عليه فيما خلقت لأجله ، ليحفظ ما وجد منها ، ويستزيد من النعم ما استعد له ولم يصل اليه .

ولعلك إذا تاملت معنى الحكمة ومعنى الشكر وجدت بينهما من الترابط والاتصال ما يجعلك توقن بأن كل تصرف حكيم فى العلم والقول والعمل هو باب من أبواب الشكر ، وأن صرف النعمة فيما خلقت لأجله هو التصرف الحكيم ، فيكاد المرء يجزم بأن كل حكمة فى العلم والقول والعمل شكر ، وكل شكر فهو تصرف حكيم ، فلا جرم جاء قوله تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله » بالشكر والحكمة مترادفين ، بينهما «أن» التفسيرية .

واعرض ما شئت من أنواع الحكمة فى العلم والقول والعمل فانك تجده شكرا . واعرض ما شئت من أنواع شكر المنعم جل شأنه على نعمائه فانك تجده تصرفا حكيما .

ففى باب المعرفة إذا نظرت الى استعمال الحواس فى تمييز الأشياء وتعرف أحوالها وأحكامها وطرق الاستفادة من نافعها واجتناب الضرر من ضارها ، ألست تجد هذا تصرفا حكيما فى باب الحواس ، وهو فى الوقت نفسه شكر للمنعم بها ، إذ كان فى ذلك استعمالها فيما خلقت لأجله ؟

وفى باب العلم إذا التفت الى التفكير فى المعلومات التى حصلتها النفس للوصول الى العقائد الالهية أوالنبوية أواستنباط الأحكام الشرعية أو المنافع الدنيوية ، هل ترى ذلك إلا استعمالا للمواهب العقلية فيما خلقت لأجله ، فهو شكر وهو تصرف حكيم ؟

وفى باب الأعمال أعمال الجوارح تجد الأمر جد بين .

وفى باب المعاملات تجده أوضح من أن يحتاج إلا الى لفتة بسيطة تكون بريئة من الأغراض والأهواء .

وكذلك الأخلاق الفاضلة التى ترجع فى مجموعها الى ضبط القوى النفسية وإجرائها على ميزان الحكمة والاعتدال ، فلا يعطل قوة غضبه وشهوته ، ولا يسرف فيهما فيجاوز حد الاعتدال ، بل يكون بين ذلك قواما . فهذا هو تصريف النعم التى وهبها الله المرء وركبها فى جبلته فيما خلقت له ، وذلك هو الشكر ، وذلك هو الحكمة .

وانظر إن شئت الى ما ذكره علماء الأخلاق من إرجاع متفرقها الى ضبط قوة الشهوة وقوة الغضب وقوة الفكر ، وجعلها بحيث لا تتعطل ولا تسرف ، حتى يجىء منها العفة والشجاعة والحكمة ، وينتظم من مجموعها القوة التى يسمونها العدالة ، فانك تجد مصداق ما قلناه لك من توافق الحكمة والشكر حتى كأنهما من معدن واحد ، ويسيران الى غاية واحدة . وإن من درس باب الشكر على وجه الاستيفاء تبين له أن الشكر مجمع الشريعة الغراء ، وأن القيام به على الوجه الأكمل هو التوفيق حقا ، وإن كان استيفاؤه على الوجه الأكمل لايكاد ينهض به إلا الأصفياء المخلصون الذين صدقوا الله ما عاهدوا عليه ، وقد قال تعالى : « وقليل من عبادى الشكور » .

ترى من هذا أن من أبواب شكر المنعم على نعمائه ما كان من لقمان مع ابنه فى وصيته ، وذلك ما قصه علينا عز من قائل فى قوله : « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » فان نعمة الولد من أجل النعم ، وما غرسه الله فى قلب الوالدين من الحنو على الأولاد من أجل النعم كذلك ، إذ يرتبط به عمارية الكون وبقاء العمران فى العالم ، بما يتحمله الآباء عن طيب خاطر فى تربية الأبناء وتنشئتهم على الوجه الصالح . فهاتان النعمتان

يمكن أن يحيد صاحبهما بهما عن وجه الحكمة ، فيتخذ الولد للمباهاة والاشمات بالأعداء ، ويربيه على الشر والفتك والجرائم والجرأة ليعتز به وينتصر ، وفى سبيل ذلك يخلى قلبه من كل ما يؤثر فيه التأثير الصالح ، من مراقبة خالقه وخشية جبروته وارتقاب مثوبته ونحو ذلك ، كما يمكن أن يتخذه زينة ومباهاة ، فيدلله ، وينشئه فى الحلية مترفا مرفها ، يتنعم بالحلى والحلل ، وينغمس فى ملاذ المطعم والمشرب ، فلا يكون له هم إلا فى بطنه وزينته . وكل من هذين المسلكين باعثه الرأفة الوالدية والحنو الأبوى ، وما كانت الرأفة والحنو مودعين فى قلوب الآباء نحو الأبناء للوصول الى هذه الغاية الممقوتة ، غاية الاجرام والدعارة ، غاية الفجور والفسوق ، وإنما أودعت الرأفة والحنو فى قلوب الآباء نحو الأبناء لينشئوهم على الطريق السوى والصراط المستقيم ، وأول ذلك إشعار قلب الطفل لأول تمييزه أن الخالق للكون برمته علويه وسفليه صغيره وكبيره ، عظيمه وحقيره ، جليله وتافهه ، هو الله رب العالمين وحده لاشريك له ، فاذا ظهرت آثار قدرته عن طريق شىء من خلقه فذلك كال فى نظام ملكوته لا دخل له فى الخلق والتكوين ، وإنما الخالق والمهيمن والمتصرف فى كل شىء هو الله رب العالمين ، فهو المنفرد باستحقاق العبادة والتعظيم والتقديس والتبجيل ، ومن عبادته وتعظيمه ومن تقديسه وتبجيله اتباع النظام الذى سنه فى خلقه ، وهدانا اليه بفطرتنا أو بتأملنا أو على ألسنة رسله . فلنتبع ماسن لنا من نظام من غير أن نخل بأنه هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لاشريك له فى الملك ، ولا معارض لما شاء ، ولا راد لما اراد .

وإن من امتلأ قلبه من أول نشأته بتوحيد خالقه ، ورد كل أمر إليه ، واعتقاد أنه المنفرد بالايجاد ، كانت تصرفاته كلها منصرفة الى ابتغاء مرضاته والتماس الزلفى إليه . وإذ كان من وسائل رضاه وطريق القرب منه أن يصرف نعمه التى أنعم بها عليه فيما خلقت من أجله ، فانه سيكون منساقا الى الشكر وصرف نعمه فيما من أجله وهبت له ، فما أشد التصاق الشكر بالانتهاء عن الشرك ، وما أجدر قلبا تطهر من الشرك الظاهر والخفى وشهد أن كل ما فى الكون من تدبير الحكيم الخبير ، وأنه تعالى هو المهيمن على هذا العالم المطلع على كل ما يجرى فيه ، وأنه هو واضع هذا النظام الذى نشهده ، وأنه كلفنا أن نتبع أحكامه ونسير على سننه ، ليجرى فينا وفق أحكامه ما جعله سنة لا تبدل ، أقول : ما أجدر قلبا شهد كل هذا وعقله عقلا صحيحا أن يكون قلبا شكوراً !

قال الله تعالى: « وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بنى لا تشرك بالله » :

يكثر فى أسلوب القرآن الكريم حين ذكر حالة يراد تعرفها وتأملها أن تصدر هذه الحالة بكلمة « إذ » الدالة على الوقت . وكأنه يشار بها الى استحضار ذلك الوقت برمته ليكون تذكر الوقت وسيلة الى تذكر ما احتوى عليه ، كأنه يقال: استحضر هذا الوقت لتشهد ما حصل فيه شهودا كاملا .

وقول لقمان لابنه ما ذكر جدير بأن يعتنى باستحضاره ، فقد ذكر عنه أنه آتاه الله الحكمة وهى جامعة لفضائل جمة كما شرحنا تفصيلها آنفا . وهو فى نظر الجمهور لم يكن نبيا ، فيكون فى ذلك إشارة الى أن العقل حين يتطهر من رجس الأغراض والأهواء ويكون معتدلا حكيما ، يكون ذلك كافيا له فى سلوك الطريق الجادة . وهذا فى إمكان كل امرىء يخلى نفسه من درن النزعات الفاسدة . وكون الكلام موجها الى ابنه عنوان على إخلاص النصح وإمحاض الارشاد ، فليس لدى المرء أعز من ابنه يمحض له النصح ويخلص له الارشاد .

وقوله بعد ذلك « يابنى » بصيغة التصغير ، ليتجلى فيه الحنو الأكمل ، فان الرحمة فى حال صغر الابن أوفر منها بعد اكتماله . على أن فى صيغة التصغير معنى التلطف والتقريب ، وليس بلازم أن تكون الصيغة لبيان صغر السن أو تحقير المصغر .

أما قوله : « وهو يعظه » فجملة حالية تعود على أصل الموضوع بمزيد التقرير ، فان سياق الكلام فى مساق الوعظ دليل على عظم العناية بشأنه ، فمن شأن الواعظ أن يبالغ فى اختيار أفضل الأخلاق للموعوظ ، ويتخير لها أجمل الأساليب وأوقعها فى نفسه . والوعظ : زجر عن الشر مع تخويف ، أو سوق الى الخير على وجه يتضمن ترقيق القلب .

وقوله : « لا تشرك بالله » بدء بأهم ما يوصى به على ماسبق من أن تطهير القلب من الشرك الظاهر والخفى أصل كل فلاح ، وأن الاستيقان بأن الله هو المنفرد بكل إيجاد ، وأن بيده مقاليد كل شىء ، هو أكبر البواعث على ضبط النفس ومحاسبتها وتهذيبها

وقوله : « إن الشرك لظلم عظيم » :

أما أنه ظلم فلانه سلب إسناد النعمة عن صاحبها وإعطاؤها لمن لايد له فيها . وأما أنه عظيم فلأن من أعطيت له لا يجوز فى العقل مطلقا أن يكون صاحبها ومن سلبها عنه يوالى إغداق النعم عليه بالتوالى حتى فى حال كفره بها ، ثم هو مطلع عليه يعلم خائنة عينه ومايخفى صدره ، والكافر بنعمته تعالى هو ومن أعطاه استحقاقها الجميع فى قبضة قدرته جل شأنه ، والكل صنعه وخلقه ، فاى ظلم هوأعظم منهذا ؟ قد تسلب الشى من مالكه فتعطيه لغيره فيجوز العقل أنه ربما كان هذا الشىء كان الأول قد اغتصبه من الثانى فرددته اليه ، أو ربما يؤول اليه بنوع ما من أنواع التصرف ، فيخفف ذلك من معنى الظلم فيه ، أما وصف الالهية والخلق والتكوين فلا يجوز بحال من الأحوال أن يسند إلا الى الله الكبير المتعال .

واعلم أن قول لقمان لابنه « لاتشرك » لا يقتضى أن يكون ابنه مشركا ، ولا أن يكون مسلما ، فيحتمل أن يكون مشركا ويطلب اليه الاقلاع عن شركه ، كما يجوز أن يكون مسلما ويطلب اليه ألا يزايل الاسلام وألا يعرض نفسه للشرك ، ونزغات الشيطان تعترى كل إنسان إلا من عصمه الله .

« ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن » :

بين جل شأنه فى الآية السابقة مظهر الحنو والرأفة وحسن التأديب الذى يلقاه الأبناء من الآباء ، وقص علينا ذلك فى معرض امتداحه والثناء على لقمان الذى أخبر عنه تعالى بأنه آتاه الحكمة . وفى هذه الآية الكريمة يبين لنا ما للآباء على الأبناء من حق الرحمة والحنو والتكريم . وقد جمع ما ينبغى لهما فى قوله عز وجل : « ووصينا الانسان بوالديه » فان هذا التعبير عادة يجمع كل صنوف الخير والتكريم . وانظر الى ما يجرى على ألسنة الناس فى مخاطباتهم العادية إذ يقولون « أوص فلانا بى » « وصه على » « أنا وصيت فلانا بك خيرا » وأمثال ذلك ، فهى من الكلمات الجامعة لمعان جمة . وأيضا لما ذكر النهى عن الشرك وهو يدعو الى إفراده عز وجل بكل أنواع التعظيم والتبجيل ، بين لنا عز وجل أن إفراده بالعبادة لايمنع أن يكون لبعض الخلائق على بعض حقوق مكتسبة بسبب ما أجرى الله نعمته على العبد عن طريقهم ، ومن هذا النوع الوالدان ، فقد جعلهما الحق جل جلاله طريق مظهر نعمة الايجاد بما حملاه ووضعاه وغذياه تغذية كانت سببا فى بقائه ، فهما مستحقان لتكريمه ، وأن يعاملهما بالاحسان ، وإن تفاوتت حقوقهما ، فان الأم قد قاست فيه مالم يقاس الأب ، كما أشار اليه بقية الآية فى قوله تعالى « حملته أمه وهنا على وهن » .

وقد يوضح الفرق بينهما ما يحكى عن أبى الأسود الدؤلى أنه اختصم هو وزوجه فى ابن لهما فترافعا الى قاض ، فقالت الأم : هذا ابنى حملته ووضعته وغذوته ويريد هذا أن ينتزعه منى ، فالتفت القاضى الى أبى الأسود ينتظر جوابه ، فقال : حملته قبل أن تحمله ، ووضعته قبل أن تضعه ، وغذوته أكثر مما غذته . فالتفت القاضى الى الأم فقالت : حمله خفة وحملته ثقلا ، ووضعه شهوة ووضعته كرها ، وغذاه من ماله وغذوته من دمى ! فالتفت اليه القاضى وقال : سلمها ابنها ودعنا من ترهاتك . ولعل الولد كان فى سن الحضانة حق يقضى به لأمه .

والظاهر أن الآية ليست من كلام لقمان ، وإنما هى معترضة بين وصاياه استطرد بها لبيان ما للآباء على الأبناء ، بعد ما بين ما يوجهه الآباء للأبناء من النصح والارشاد . وقوله : « وهنا على وهن » حال من امه ، أى ذات وهن على وهن ، وذلك وهن الحمل على وهن أعصابها بطريق الفطرة ، أو هو وهنها المتزايد بتقدم الحمل ، فان ضعف الحامل يزداد كلما تقدمت فى حملها .

وقوله : « وفصاله فى عامين » أى فطامه وفصله عنها وعن مشاركتها فى غذائها وامتصاص لبنها الذى هو فى الأصل دمها ينميها ويزيد فى قوتها ، وفيه مع بيان مدة الرضاع شرعا وأنها عامان مزيد تقرير لحقها عليه . ولقد فصل التوصية التى بدأ بها بقوله : « أن اشكر لى ولوالديك الى المصير » . ودخول الأمر بشكره تعالى فى تفسير وصيته بوالديه ، لأن الشكر لهما لا يعتد به شرعا وينال صاحبه أجره من الله عز وجل إلا إذا كان معه شكر الخالق جل وعلا . وأيضا فانه إذا اقترن

الشكران فى قلبه كان ذلك أدوم لشكره لهما ، وأعون على أن يكون شكرا حقيقيا خالصا فى الظاهر والباطن ، فانه يعامل من لا تخفى عليه خافية . وقوله : « الى المصير » تذييل يعود على الأصل بالتمكين والتقوية ، فانه إذا عمل ابتغاء من مصيره اليه ، وسعادته وشقاوته لا يكونان إلا من لديه ، فان عمله سيقترن بالاخلاص والاقبال عليه .

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يقربنا اليه ، وهو حسبنا و نعم الوكيل !

ابراهيم الجبالى
عضو جماعة كبار العلماء

التماس الرزق بالعمل

قال النبى صلى الله عليه وسلم : « العائد على أهله وولده كالمجاهد المرابط فى سبيل الله » .

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، وأن الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض ، وتلا قوله تعالى : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .

وقال أيضا رضى الله عنه لحفظة القرآن : يا معشر القراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس .

وقال أكثم بن صيفى : من ضيع زاده اتكل على زاد غيره .

وذكر عند النبى صلى الله عليه وسلم رجل بالاجتهاد فى العبادة والقوة على العمل ، وقالوا صحبناه فى سفر فما رأينا بعدك يارسول الله أعبد منه : كان لا ينفتل من صلاة ولا يفطر من صيام . قال النبى صلى الله عليه وسلم : فمن يمونه ويقوم به ؟ قالوا كلنا . قال رسول الله : كلكم أعبد منه .

وقال طاهر بن عبد العزيز : أخبرنا على بن عبد العزيز قال أنشدنا أبو عبيد القاسم بن سلام :

لا ينقص الكامل من كماله ما ساق من خير الى عياله

وتكلم صاحب العقد عن الرزق فقال : أهل التحصيل والنظر يطلبونه بأحسن وجوهه من التصرف والتحرز ، وأهل العجز والكسل يطلبونه بأقبح وجوهه من السؤال والاتكال والخلابة والاحتيال .

السُّنَّة

اشتراط الولى فى عقد الزواج

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ وَلَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا » رواه ابن ماجه والدارقطنى ورجاله ثقات .

هذا الحديث يقتضى ظاهره أنه لا يصح للمرأة أن تباشر عقد زواج امرأة غيرها ، كما لا يصح ان تباشر عقد زواج نفسها ، بل لا بد فى صحة عقد الزواج من رجل يتولاه ، وهو المراد بالولى فى عقد الزواج .

ويتعلق بشرح هذا أمور :

(١) بيان معنى الولى الذى يتوقف عليه عقد الزواج (٢) بيان القائلين باشتراطه والقائلين بعدم اشتراطه (٣) بيان اختصاص الولى (٤) بيان وجه دلالة هذا الحديث وما فى معناه من كتاب أو سنة (٥) بيان وجهة نظر الفريقين الاجتماعية .

(١) المراد بالولى فى الزواج هو الذى يتوقف على وجوده صحة العقد ، سواء أكان أبا أم قريبا عاصبا كابن وأخ وابن أخ وعم وابن عم ، وهكذا بحيث يقدم الأقرب فالأقرب . على أن الشافعية يقولون إن الابن لا ولاية له على أمه بحال . والحنفية يقولون إن له ولاية على أمه المجنونة ، ويقدمونه على الأب .

(٢) أما القائلون باشتراط الولى فهم الجمهور ، ومنهم المالكية والشافعية والحنابلة . قالوا لا يصح عقد النكاح بدون ولى ، ذكر ، حر ، عاقل ، بالغ ، مسلم إذا كانت المعقود عليها مسلمة . واشترط بعضهم أن لا يكون فاسقا . فاذا انتفى شرط من هذه الشروط انتقلت الولاية الى الأقرب الذى يليه بدوره ، فاذا لم يكن لها أولياء ، زوجها الحاكم .

على أن المالكية زادوا فى الأولياء نوعين :

النوع الأول : الكفيل ، وهو الذى يكفل امرأة غاب عنها أهلها ومكث يربيها مدة

تستوجب شفقته كأنها بنته . فهذا الكفيل ولى هذه المرأة لا يصح العقد عليها بدونه ، سواء أكانت شريفة وهى عندهم ذات المال أو الجمال ، أم لم تكن شريفة على الراجح .

النوع الثانى: الكفيل بالولاية العامة . ومعنى هذا أنهم يقولون إن الولاية حق لجميع المسلمين ، فاذا باشرها واحد منهم بصفته فردا من المسلمين فقد قام بحقه . ونظير ذلك فرض الكفاية اذا قام به واحد سقط عن الباقين . فكل فرد من أفراد المسلمين على هذه القاعدة يصلح أن يكون وليا إذا توفرت فيه شروط الولى. ولكنهم قالوا إن الولاية العامة لا يصح أن تتزوج بها الشريفة وهى ذات الجمال أو المال ، بل تتزوج بها من لم تكن كذلك ويعبرون عنها بالدنيئة . على أن المالكية يقولون إن الترتيب بين الأولياء ليس ضروريا بل هو مندوب فقط ، فاذا كان للمرأة الدنيئة أخ أو عم صح لها أن تتركهما وتتزوج بالولى الأبعد وهو الولى بالولاية العامة ، فتختار لها أى رجل أجنبى يتولى لها عقد الزواج ويكون صحيحا . وهذا معنى قولهم إن المالكية لا يشترطون الولاية فى المرأة الدنيئة . ولكن يجب أن يلاحظ أن هذا فى غير الأب أو وصى الأب بتزويجها عند موته ، فان وجودها لا بد منه فى الشريفة والدنيئة .

وحاصل ذلك أن الأئمة الثلاثة اشترطوا الولى فى عقد الزواج للكبير والصغير العاقل والمجنون ، واشترطوا أن تكون الولاية للذكور لا للاناث ، وخالفهم الحنفية فقالوا إن الولى شرط فى صحة عقد الصغير والصغيرة ، أما الكبير والكبيرة فلا يشترط فيهما الولى إلا اذا كان بهما جنون مطبق ، فللبالغة العاقلة أن تتولى عقد زواجها بنفسها بشرط أن تتزوج الكفء المناسب لها فى الشرف والدين والحرفة ، وأن يكون قادرا على مهر مثلها ونفقتها . ويرى بعضهم أن يكون مساويا لها فى الغنى ، فاذا تزوجت غير الكفء كان للولى الحق فى الاعتراض وفسخ العقد . ثم قالوا أيضا : لا يشترط أن يكون الولى ذكرا ، بل تنتقل الولاية للأنثى عند فقد الذكر العاصب ، فللأم أن تزوج ابنتها الصغيرة أو المجنونة عند عدم وجود أحد من أقاربها الذكور . وعلى أى حال فلا يشترط أن يتولى العقد رجل عند الحنفية .

(٣) وأما اختصاص الولى ، فهو عند الحنفية منحصر فى أمرين :

الأول: تزويج الصغير والصغيرة بدون إذنهما ، ومثلهما المجنون والمجنونة ولو كبيرين . ثم إن كان الولى أبا أو جدا مشهورا بالفسق وسوء الاختيار كان لهما حق فسخ النكاح عند البلوغ إذا زوج من غير كفء أو بغير مهر المثل ، أما إن كان معروفا بحسن الاختيار فليس لها ذلك . وإن كان الولى غير الأب والجد فلهما حق الفسخ عند البلوغ مطلقا .

الثانى : أنه يختص بالاعتراض على الزواج إن كان غير كفء أو إجازته ، وليس للولى حق وراء ذلك .

وأما الأئمة الثلاثة فقد قسموا الولى الى قسمين : ولى مجبر ، وولى غير مجبر . وحصروا الولى

المجبر فى الأب والجد ووصى الأب ، أو الحاكم . على أن المالكية قصروا الولى المجبر على الأب ووصيه دون الجد ، ولم يعدوا الحاكم وليا مجبرا . والشافعية قصروه على الأب والجد . والحنابلة زادوا الحاكم .

ويختص الولى المجبر بتزويج الصغير والصغيرة ، وهى ما كانت دون البلوغ عندهما ، ودون تسع سنين عند الحنابلة ، والمجنون والمجنونة ، والبكر البالغة العاقلة وهى ما لم تزل بكارتها بالجماع ، فمن زالت بكارتها بمرض أو حيض شديد أو قفز تعتبر بكرا ، فهؤلاء يجبرهن الولى المجبر على الزواج بدون استئذان منهن أو رضا بشروط مختلفة محلها كتب الفقه .

أما الولى غير المجبر فانه ماعدا هؤلاء ، ويختص بمباشرة عقد الزواج بشرط إذن المرأة ورضاها ، فالعقد مشترك بينهما وموقوف عليهما معا ، فان لم ترض لا يصح العقد ، وإن لم يرض لا يصح العقد . وقد يكون الأب وليا غير مجبر إذا كانت المرأة ثيبا ، فانه لا يصح له أن يزوجها بغير رضاها . وربما يقال إن الولى غير المجبر قد يمتنع عن تزويج المرأة عمدا فيضر بها . والجواب أنه إن امتنع كان عاضلا فترفع أمرها للحاكم ، فاما أن يجبره على زواجها ، وإما أن يزوجها رغم إرادته ، فان تكرر منه المنع كان فاسقا لا ولاية له عند بعضهم .

(٤) أما وجه دلالة الحديث الذى معنا على ضرورة الولى فهى ظاهرة كما أشرنا أولا ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد نهى عن أن تباشر المرأة عقد الزواج سواء كان عليها أو على غيرها . ومثل هذا الحديث ما رواه الزهرى عن عائشة ، وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل » وهذان الحديثان أقوى ما استدل به الجمهور من السنة على ضرورة اشتراط الولى . وقد أجاب الحنفية عن الحديث الثانى بأنه مطعون فيه ، وذلك لأن الزهرى نفسه قد سئل عنه فأنكره . وقد أجيب عن هذا بأن عدم معرفة الزهرى للحديث لاتضر مادام راويه ، وهو سليمان بن موسى ، ثقة . ولايخفى ما فى هذا الجواب ، لأنه إذا كان مصدر الحديث الذى أسند اليه لم يعرفه كان ذلك موجبا لرفع الثقة بدون نزاع . على أن الحنفية قالوا إن كل الأحاديث التى يفيد ظاهرها اشتراط الولى فى التزويج هى خاصة بالصغيرة التى لا يصح لها أن تتصرف ، ومن فى حكمها من المجنونة ، ويؤيد ذلك قواعد الدين الاسلامى العامة ، إذ مما لا شك فيه أن النكاح عقد من العقود كالبيع والشراء ، ومعلوم أن للمرأة الحرية المطلقة فى بيعها وشرائها متى كانت رشيدة ، فكيف يصح الحجر عليها فى عقد زواجها وهو أهم العقود التى تتطلب الحرية لما يترتب عليه من سعادة العيش أو شقائه ، فينبغى أن يقاس عقد النكاح على عقد البيع ، وإن ورد ما يخالف هذا القياس وجب تخصيصه بالقياس . وهذه قاعدة أصولية متبعة . فقوله : « لا تزوج المرأة المرأة » معناه لا تزوج المرأة الكبيرة البنت الصغيرة عند وجود الولى العاصب المقدم عليها . وقوله : « ولا تزوج المرأة نفسها » معناه ولا تزوج الصغيرة نفسها بدون ولى . فالمراد من المرأة الأنثى الصغيرة وهى

وإن كانت عامة تشمل الصغيرة والكبيرة إلا أنها خصت بالصغيرة لما هو معلوم من أن الكبيرة لها حق التصرف فى العقود كالبيع ، فيقاس النكاح على البيع ، وذلك جائز فى الأصول .

وقد رد الجمهور على هذا البيان بوجود الفرق بين النكاح والبيع ، وذلك لأن المرأة لا عهد لها بمخالطة الرجال حسبما تقتضيه القواعد الشرعية ، فربما خدعها غير الكفء فتتزوج بمن تتعير به عشيرتها ويكون شرا ووبالا على سعادتها الدنيوية ، فلذا صح الحجر عليها فى عقد النكاح دون غيره من العقود ، فان عقد البيع مثلا لا يترتب عليه مثل هذا الشر مهما قيل فيه .

وأجاب الحنفية عن هذا بجوابين : (الأول) أنهم قد اشترطوا الكفاءة فى الزوجية ، فلو تزوجت المرأة غير كفء فلأولياتها أن يعترضوا هذا الزواج ولا يقروه فيفسخ ولا تصيبهم معرة الصهر الذى لا يناسبهم ، فزمام الأمر بأيديهم . (الثانى) : أن المفروض كون المرأة عاقلة حسنة التصرف غير محجور عليها ، ولذا كان من حقها أن تتصرف فى بيعها وشرائها بدون حجر . فاذا صح أن يقال إنها قد تغبن فى اختيار الزوج الكفء فكذلك يصح أن يقال إنها قد تغبن فى بيع سلعة هامة غبنا ضارا بها أكثر من الضرر بعقد زواج على غير الكفء ، لأن عدم كفاءته إن ثبتت فرق القاضى بينهما . أما إذا باعت شيئا له قيمة مالية وغبنت فيه غبنا فاحشا وهلك فى يد مفلس فانه يضيع عليها ولا يسعها أن تتلافى ما يترتب على هذا البيع من الضرر . فهذا نهاية البحث بينهما فى الأحاديث .

أما القرآن الكريم فقد استدل الجمهور بقوله تعالى : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف(١) » . ووجه الدلالة فى الآية الكريمة أن الله سبحانه قد خاطب بها الأولياء ، فنهاهم عن منع النساء من الزواج بمن يرضونه لأنفسهن ، فلو لم يكن لهؤلاء الأولياء حق المنع لما كان لخطابهم بمثل هذا وجه ، إذ كان يكفى أن يقول للنساء : إذا منعتم من الزواج فزوجوا أنفسكن ، ولا تبالوا بالمانعين .

وقد نقل عن الشافعى رضى الله عنه أنه قال : إن هذه الآية أصرح آية فى الدلالة على اشتراط الولى . ولكن الحنفية قد أجابوا عنها بجوابين :

الجواب الأول : منع كونها خطابا للأولياء ، بل هى تحتمل أن تكون خطابا للأزواج الذين يطلقون أزواجهم ، وتحتمل أن تكون خطابا للمؤمنين عامة . أما الأول فهو الظاهر المتبادر من لفظ الآية الكريمة ، فهو سبحانه يقول لمن يطلقون نساءهم : إذا طلقتم النساء فلا تستعملوا معهن الوسائل الظالمة التى يترتب عليها منعهن من الزواج بغيركم : كأن تهددوها هى أو من يريد تزوجها بقوتكم أو جاهكم وسلطانكم أو نفوذكم إن كان لكم شىء من ذلك ، أو تحاولوا تنقيصها

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٢

والحط من كرامتها فتنفروا منها خطيبها أو تؤثروا عليه من أى ناحية ليتركها ، أو تمنعوها من حقوقها المالية إن كان لها حقوق لديكم كى لا تتزوج بغيركم ، أوغير ذلك من المؤثرات .

وأما الثانى فمعناه : إذا طلقتم النساء أيها المؤمنون وأصبحن خاليات من الأزواج والعدة فلا يصح أن يقع بينكم منعهن من الأزواج سواء أكان ذلك المنع من قريب أم من ذى جاه ونفوذ عليها ، فيفترض عليكم فرض كفاية أن تمنعوا وقوعه فيما بينكم ، بنهى فاعله والضرب على يده ، وإلا كنتم مشتركين معه فى الاثم ، لأن العضل منكر حرمه الله تعالى ، والنهى عن المنكر فرض على المؤمنين ، وإزالته لازمة على كل قادر حا كما كان أو غيره .

ولا تعارض بين هذا الذى ذكرناه وبين ما رواه البخارى من أن الآية نزلت فى معقل ابن يسار حيث كان قد زوج أخته لرجل فطلقها زوجها ثم أراد الرجوع إليها ثانيا فابى أخوها معقل أن تعود إليه مع كونها راغبة فيه فلما نزلت زوجها إياه ، لأنه يحتمل أن تكون حادثة معقل صادفت نزول الآية ، ولكن الآية فى ذاتها عامة كما قاله المفسرون فى قوله تعالى: «يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبا فتبينوا(١)» إذ قال الفخر الرازى وهو شافعى : إن الآية عامة ولكنها صادفت حادثة الوليد . ومع ذلك فاذا سلم أن الآية نزلت فى حادثة أخت معقل بخصوصها فان الخطاب فيها يجب أن يكون عاما لكل من يعضل سواء كان وليا أو غيره ، فليست مقصورة على الأولياء بلا نزاع .

الجواب الثانى : بتسليم أن الآية خطاب لمعقل وغيره من الأولياء بخصوصهم ، ولكن ليس فى الآية ما يدل على أن لهم حق الولاية على النساء مطلقا ، وإنما تدل على أن من منع منهم النساء من التزوج فهو آثم لا حق له فى هذا ، وهذا المنع لا يلزم أن يكون مترتبا على الولاية بل هو ظاهر فى أنه مترتب على ضعف النساء وعدم قدرتهن على استعمال حقهن . وبيان ذلك أن المرأة تستكين عادة لمن يكفلها أو لعاصبها القريب من أب أو أخ ، فتفنى إرادتها فى إرادته خصوصا فى هذا الباب الذى يغلب فيه الحياء على معظم النسوة المربيات ، فلا ترى المرأة لها حقا مع كافلها أوعاصبها ، فتتنازل له عن استعمال حقها وهى مكرهة . فالآية الكريمة تفيد أنه لا يصح للرجال أن يستغلوا هذا الضعف فيسلبوا النساء حقوقهن الطبيعية فى التزوج بالكفء الذى يرغبن فيه . وهذا يتضمن أن للمرأة الحرية فى اختيار الكفء الذى تريده زوجا ، لأن النهى عن منعها من الزواج يتضمن إباحة الحرية لها فى ذلك الاختيار بلا نزاع. على أن قوله تعالى: « فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن » فيه دلالة على صحة عقد الزواج إذا باشرته المرأة . فانه قال : «أن ينكحن» أى يتزوجن بعبارتهن، ولوكانت عبارة النساء لا تنفع فى عقد الزواج لقال : فلا تعضلوهن أن تنكحوهن أزواجهن . والحاصل أن الآية إذا كانت خطابا للأقرباء

(١) الحجرات الآية ٦

بخصوصهم يكون معناها: لا تنتهزوا أيها الأقرباء فرصة كفالتكم للنساء وضعفهن فتسلبوا منهن حقهن الطبيعى فى اختيار الزوج الكفء ومباشرة زواجهن بأنفسهن فتتحكموا فيهن وتمنعوهن من استعمال ذلك الحق . وليس فى هذا المعنى أية دلالة على أن لهم حق الولاية عليها .

وقد يقال : إذا كان اختيار الزوج والعقد عليه حقا للمرأة فلماذا لم يقل لهن تعالى :زوجوا أنفسكن واستعملوا حقكن؟ فخطابه للأولياء بقوله : فلا تعضلوهن ، دليل على أنهم أصحاب الحق فى ذلك لا النساء . والجواب أن خطاب الأولياء بهذا يدل على معنى دقيق جليل وهو ضرورة احترام الرابطة بين النساء وبين أهليهن الكافلين لهن ، فاذا تنازلت الواحدة منهن عن حقها فى هذا الموضوع احتراما لرغبة أبيها أو أخيها أو نحوهما خوفا من حدوث تصدع فى روابط القرابة ، فانه يكون حسنا يقره الله تعالى ، وفى هذه الحالة لا يصح أن يقال للنساء استعملوا حقكن واخرجوا عن طاعة أوليائكن ، فتنقطع بذلك روابط المودة ، وإنما كمال البلاغة وجمال الأسلوب أن يقال للأولياء : لا تستغلوا هذه الحالة فتتمادوا فى سلب حقوقهن للنهاية . والنتيجة المترتبة على الخطابين واحدة ، فان الغرض أن لا تمنع المرأة من التزوج بمن ترغب فيه متى كان كفئا صالحا .

(٥) ومما لاريب فيه أن لهذين الرأيين علاقة كاملة بالحالة الاجتماعية فى كل زمان ومكان ، فالذين يحجرون على المرأة فى عقد الزواج يرون أن النساء مهما قيل فى تهذيبهن فان فيهن جهة ضعف طبيعية بارزة وهى خضوعهن للرجال وتأثرهن بهم من نواح مختلفة ، فقد تنسى المرأة عظمتها ومجدها وفضلها وتندفع فى ميلها وراء من لا يساوى شراك نعلها ، وربما تجرها عاطفتها الى الانقياد لخادمها ومن دونه . وبديهى أن ضرر هذه الحالة لا يقتصر على المرأة فحسب ، بل يتعداها الى الأسرة بتمامها ، لأنهم يتعيرون بادخال عنصر أجنبى فيهم لا يدانيهم فى حسبهم ونسبهم، وربما جر ذلك الى مأساة محزنة . فمن الواجب أن يوكل أمر اختيار الزوج للأولياء الذين يستطيعون أن يختاروا ما فيه خير المرأة وخير الأسرة وهى مصونة محترمة غير متبذلة ولا متهتكة ، ومع ذلك فانه لابد من رضاء المرأة وإذنها إذا كانت ثيبا مجربة ، فضلا عن ذلك فان لها الحق فى المطالبة بالكفء عند الشافعية ، وغير ذلك يكون اندفاعا مع عاطفة ضعيفة يمكن التأثير عليها بوسائل مختلفة ، فيترتب على ذلك شقاء المرأة وتعاستها ، وهدم الأسرة وانحطاط كرامتها .

أما الحنفية الذين لا يرون الحجر على المرأة العاقلة البالغة فانهم يقولون : إن قواعد الدين الاسلامى تقتضى أمرين : (الأول) إطلاق الحرية لكل عاقل رشيد من ذكر أو أنثى بلا فرق. (الثانى) : رفع ما عساه أن يحدث من أضرار اجتماعية أو شخصية بسبب التصرفات المترتبة على العقود ، وكلا الأمرين لازم لابد منه للحياة الاجتماعية ، فالحجر على الرشيدة فى أمر زواجها ينافى قواعد الاسلام العامة بلا نزاع ، وهذا يترتب عليه ضرر اجتماعى شديد ، وهو التعدى

على العاقل الرشيد فى أمره ، والتحكم فيه من حيث لا يريد ، فلو جعل زواج المرأة منوطا بالولى كان حجرا عليها بدون موجب ، خصوصا فى حالة تزويجها بدون أخذ رأيها مطلقا وهى بالغ رشيدة ، فان ذلك لا يلتقى مع قواعد الاسلام فى شىء ، وقد يكون ضارا فى كثير من الأحيان ، إذ قد يكون الولى غير أب أو أخ شقيق ولم تكن علاقته بالمرأة ودية ، فيتعمد معاكستها وحرمانها من الكفء ، وليس من السهل على المرأة إثبات عضله إياها عند الحاكم فانه يحتاج الى وقت يضيع الكفء من بين يديها .

وهذا كثير واقع لا يمكن الاغضاء عنه فى التشريع الاسلامى المشهور بدقته وجلاله ، فيجب أن يناط أمر زواج المرأة بها ، ولا يجعل لأحد مطمع فى حرمانها من الكفء ، ولكن بشرط أن لا يترتب على تصرفها ضرر يمسها أو يمس أسرتها بأن تندفع وراء شهوتها فتقع على غير الكفء المناسب ، فانها إن فعلت ذلك كانت جديرة بالحجر عليها ، وكان لوليها حق الاعتراض وفسخ العقد . على أن لها الحق فى أن تكل أمر زواجها لمن تشاء ، فاذا كان لها أخ أو أب أو نحوهما من الأقربين الذين يشفقون عليها ويؤثرون راحتها ويتمنون لها سعادة ، كان من اللائق أن تفوض لهم وتترك لهم حقها ليتصرفوا فى أمر زواجها كما يحبون ، فلا تخرج عن إرادتهم ولا تحاول إحراجهم بما لا ينفعها بل يضرها بفقد عطفهم عليها .

هذان الرأيان يدلان على أن التشريع الاسلامى آية فى الدقة والابداع ، لأن كليهما لازم للحياة الاجتماعية بحسب اختلاف البيئات وتطور أحوال الناس ، فاذا كان أحد الرأيين لا يناسب بيئة وجب المصير الى الرأى الثانى . وهذا معنى سماحة الدين الاسلامى ، وأنه صالح لكل زمان ومكان ، فكلا الرأيين حسن والعمل به مقبول معقول ؟

عبد الرحمن الجزيرى

الادب قرابة

قال شاعر حكيم :

ذو الود منى وذو القربى بمنزلة وإخوتى أسوة عندى وإخوانى
عصابة جاورت آدابهم أدبى فهم وإن فرقوا فى الأرض جيرانى

وقال آخر فى هذا الباب :

إن نفترق نسبا يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد
أو نختلف فالوصل منا ماؤه عذب تحدر من غمام واحد

الموازنة بين الشريعة والقوانين الوضعية

تعلم رعاك الله أن الشريعة جاءت بمطالب الروح والبدن جميعا ؛ وكفى بذلك فرقا كبيرا بينهما . ولكنا نزيدك فروقا أخرى فنقول :

إن القانون لا يطلب إلا حفظ النظام العام ، ولا يعنيه إلا وحدة الأمة وراحة الحكومة ، ولا يهمه شئون الأفراد الروحية ، ولا من وظيفته إصلاح قلوبهم وتربية نفوسهم ، ولا مراقبتهم فى أخلاقهم .

وأما الشريعة فقد تكفلت باصلاح قلوب الأفراد كما تكفلت باصلاح الأمم ، فرسمت لكل إنسان خطة واضحة يسير عليها فى نفسه وفى أسرته وفى جيرانه وفى الناس أجمعين ، وحظرت عليه أخلاقا تعوقه عن كماله ورقيه الى أحسن أحواله ، فطهرته من الحقد والغل والحسد والشره وسوء الظن الخ ، حتى أمرته أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وطلبت منه أن يكون خيرا محضا ، وأن تكون سريرته أفضل من علانيته ، وعلمته أن يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة ، وأمرته بالرحمة لكل ذى روح ، وعرفته أن امرأة دخلت النار فى هرة ، الى غير ذلك مما لعلك غنى عن بيانه . وقد تعلم رعاك الله أن الأمة لا تصلح فى مجموعها إلا إذا صلحت قلوب أفرادها ، وإلا كانت كالبناء المرتفع أمام الأنظار من خارجه ، المتفتت الأجزاء فى داخله .

وإن شئت فألق بنظرك الى ثروة أمتنا المصرية تجدها قد ذهبت ثلاثة أخماسها تقريبا . فاذا بحثنا عن سبب هذا وأردنا أن نشخص ذلك الداء الذى سرى فى جسم الأمة سريان السل فى جسم الرجل العظيم ، وجدناه راجعا الى عدة أمور تحرمها الشريعة كل التحريم .

فمنها الربا الذى ورد فيه الوعيد الشديد فى القرآن والسنة .

ومنها الخمر التى هى أم الخبائث . ومنها المقامرة التى جعلها القرآن من عمل الشيطان ، وناط الفلاح باجتنابها حيث يقول : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

ومنها المنازعات التى ما جاء الدين إلا ليستأصل شأفتها من النفوس . ومنها كثرة صرف المال فى غير محل الضرورة ولا موطن الحكمة . وقد ذم الله المبذرين حتى جعلهم إخوان الشياطين فقال : « إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا » الى غير ذلك مما يعرفه المستبصر ولا يخفى على الباحث .

فلو أن الأمة تربت تربية دينية وحافظت على شريعتها لحفظت عليها ثروتها ، ولكانت

الآن من أغنى الأمم التى على وجه الأرض . فماذا أغنى عنها القانون وقد تركت شريعتها فذهبت عزتها الحقيقية (لا الصناعية) واضمحلت ثروتها التى هى أساس مجدها ومناط حياتها الصحيحة .

بل يمكننا ان نقول : إن الشريعة أبلغ فيما يريده القانون أيضا من منع الناس عن ارتكاب الجرائم والتعديات ، فان الانسان لا يخاف القانون ولا يرهب سلطانه إلا إذا لم يكن له وسيلة الى الخلاص منه ، وما أكثر وسائل الخلاص وأقل بواعث الاخلاص !

فاذا عممنا التربية الدينية نكون قد وطدنا دعائم الأمن العام أكبر توطيد بمقتضى مايغرسه الدين فى القلوب من أن الله يعلم السر وأخفى ، وأنه يحاسب على الفتيل والنقير ، وأن من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وأن من روع أخاه لم يؤمن الله روعته يوم القيامة ، الى آخر ما جاء فى الكتاب والسنة وهو كثير . فلا فرق إذا بين أن يكون الانسان فى العواصم حيث متناول الأحكام بمرأى ومسمع من الحكام ، وبين أن يكون فى الصحراء الكبرى حيث لا ديوان ولا سلطان .

فالخلاصة أنه لا يوجد شىء أنفع للحكومة والأمم والأفراد فى أحوالها الاقتصادية والاجتماعية من التربيــة الدينية . فمن فوائدها للحكومة أنها تردع الناس عن الجرائم لأنها ترجع طمعهم فى الدنيا الى الحد المعتدل ، فلا يتهالكون عليها هذا التهالك الشديد .

فالفرق بينها وبين القوانين من هذه الوجهة : أن القوانين لا تخفف محبة الدنيا من القلوب (ومحبة الدنيا كما تعلم أساس المنازعات والمخاصمات ومنشأ التعدى وكل انواع الايذاء حتى أخذ الرشوة والسرقة) ، ولا تطهر النفوس من رذائلها كالحرص والحسد والشره والبغى والحقد والغضب ، الى غير ذلك . ولا يخفى ما يترتب على تلك الرذائل فى المجتمع الانسانى من الشرور وسوء المعاملة بمقتضى تلك العوامل الخبيثة التى تسوق صاحبها الى هلاكه وهلاك غيره شاء أم أبى .

والفرق الثانى : أن مراقبة الله لا تثمرها القوانين ، فيمكن أن يتقى الانسان غائلة القانون بالتحيل والاختفاء مثلا ، بخلاف الشريعة .

والفرق الثالث : أن القوانين لا تكفل نظام الأفراد ، ولا تتعرض لشئونهم ولا لاصلاح حالهم فى أنفسهم .

والفرق الرابع : أن الشريعة تعطى الروح حظها من معرفة الله ، وتستحث القلوب على التنزه فى الجمال المطلق الظاهر فى الكون كله (الذى لأجله بحثت كل أمة عن إله تعبده) .

هذا ولا نزال نكرر أن الأمة المصرية لو كانت على الدين الصحيح ما ذهب شىء من ثروتها التى كادت تتلاشى بالكلية ، لأنها لم تذهب كما قلنا إلا بالربا والمقامرة والاسراف والتبذير والدخول فيما لا يعنى والتفاخر والتنافس ، وكل ذلك يحرمه الدين .

وانظر الى الأمة الاسلامية فى بدء أمرها حيث سادت جميع الأمم فى أقل من قرن بفضل سيرها على تعاليم دينها الذى يقول لها : « عـلو الهمة من الايمان » . ويعلمهم أنهم يخشونه ولايخشون أحدا إلا الله ، وأنهم لا يخافون فى الله لومة لائم ، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأن الآخرة خير وأبقى ، وأن الله يعلم سرهم ونجواهم ، ويعلمهم أن ينفروا إذا دعوا خفافا وثقالا وجماعات ووحـدانا ، وأوجب عليهم الهجرة من أرض الذل ، وأمرهم بحسن المعاملة مع كل أحد ، والاعتدال فى كل شىء ، وحـذرهم من الافراط والتفريط ، وحض على طاعة المرءوسين للرؤساء ، ومشاورة الرؤساء للمرءوسين . وقد قال لنبيه عليه السلام : « وشاورهم فى الأمر » . بل أمر باحترام الطبقة الدنيا للطبقة العليا عموما ، وبتوقير الصغير للكبير ، ومعرفة الفضل لذويه ، وبالجملة أمر بانزال الناس منازلهم .

فعل كل ذلك كى تتم المحبة بين الجميع ، وتكون الروابط على أكمل وجوهها .

بالغ فى الحث على التعاون والاتحاد ، وطلب من كل أحد أن يعمل من الخير ما يعود على عشيرته وأمته ، حتى جعل إماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الايمان ، وهو القائل : « وتعاونوا على البر والتقوى » . « يد الله مع الجماعة » . وأمر باستعمال العقل فى كل شىء ، ونهى عن اتباع الظن ، حتى قال : « ولا تقف ما ليس لك به عـلم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » . وقال : « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ، ولايغتب بعضكم بعضا » . وقال : « يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا » . ونعى على قوم سوء حالهم بقوله : « إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » . وبنى عقائده على صرائح العقول ومقتضى البراهين ، الى آخر ماجاء فيه مما شيد صرح بناء الأخلاق ، وجعل الأمة كالبنيان يشد بعضه بعضا . ولذلك كان غـير قابل للنسخ لأنه لا يتأتى أن يجىء زمان يحسن فيه ترك الاعتدال ومجاوزة الحدود والتباعد عن مـكارم الأخلاق .

فلا غرو أن يصبحوا بفضل هذه التعاليم من أعز الأمم وأرفعها ، مع راحة القلوب واطمئنان النفوس ، وابتهاج الأرواح ، والتبريز فى كل خير وفضيلة . فالمسلمون اليوم وإن كانوا على أقبح صورة ، فالاسلام عند من يعرفه على أجمل صورة . ولذلك نقول : إن نقص المسلمين وتأخرهم لنقص تربيتهم الدينية لا لنقص فى دينهم .

وعلى الجملة فالتربية الدينية أعظم وسيلة الى توطيد الأمن العام ، وتحسين العلاقات الوطنية والمعاملات التجارية وجميع الشئون الاقتصادية ، وأكبر معين على حفظ الثروة وترقية الأمة وتقوية الروابط الودية فيما بين أفرادها عندما تكون لها تلك النفوس الطاهرة ، فتتمكن منها عرا المحـبة والاخاء بمقتضى قول الدين : « لا تدخلوا الجنـة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى

تحابوا » . وإنا لنتمنى تحقيق تلك الأمنية التى لا شىء أنفع للامة منها فى هذا العصر الميمون إن شاء الله ، وما ذلك على الله بعزيز .

وأما التربية غير الدينية التى عنيت بها الأمم المعاصرة الآن فلا تطفىء تلك النيران المتأججة ، ولا تلطف من سورتها ، ولا تحدث مراقبة الله فى النفوس ، بل تجعل المتربى بها يعتقد أنه اولى بالثروة والرفعة من غيره ، فيحتال لذلك بكل أنواع الحيل ، وتمتلىء نفسه حسدا على كل من سواه . وربما جرته تلك التربية الى الالحاد ونبذ المعتقدات ، فأصبح لا يعنيه إلا الدنيا ، ولا يهمه إلا التنافس فيها بلا مراقبة لله لأنه لا يعرفه ، ولا طمع فى الآخرة لأنه لا يؤمن بها .

الكلمة الختامية :

إن مزايا الشريعة لا تكاد تحصى ، فشتان ما بين قانون يضعه رجال لا يعنيهم إلا مظاهر الحياة المادية ، وبين قانون يضعه خالق الكون المدبر لكل صغيرة وكبيرة يكفل به للناس سعادة الحياتين .

تلك القوانين تبيح الزنا وشرب الخمر والتلهى بالميسر ، وهى أمهات الشرور كلها ، محافظة على مبدأ الحرية الشخصية . وما مثلها عندى إلا كمثل من يريد أن يشرب السم فلا تمنعه محافظة على حريته فيما يريد . فهل تراك أحسنت إليه !

تلك القوانين تمنع دروس الدين من المدارس ، فأول ما تغرس فى نفوس النشء بهذا العمل أن الدين فى محل الاهمال ، فلا ينبغى أن يعتنى به أو يلتفت إليه ، وهى طريقة عملية تترك فى نفوس المتعلمين أسوأ فكرة عن الدين ، وأهون عقيدة فيه .

واعلم أن فلاسفة أوربا وعقلاءها يئنون من شيوع الالحاد ، ويتمنون أن يسود سلطان الدين على الأفكار ، علما منهم أن خلو النفوس من الدين منذر بالخراب العاجل أو الآجل .

قال فيكتور هيجو من حكماء أوربا :

« يجب أن يكون التعليم الابتدائى مبنيا على الدين حتى يكون صالحا ، ويجب أن يساق الى المحاكم من يرسل ولده الى مدرسة لا تعلم الديانة » .

تأمل كيف أوجب سوق من لا يعتنى بالتربية الدينية الى المحاكم !

وقال فيكتوز كوزان :

« إن الشعوب لأشد احتياجا الى المبادىء الدينية منها الى الشرائع المدنية والعلوم السياسية » .

وقال روسو :

« شر الشرور فى الممالك أن يكون الله مجهولا فيها ، فان فى ذهاب الديانة تقويضا لأركان

الهيئة الاجتماعية » . الى غير ذلك من كلامهم ، وهو كثير . وما أصدق روسو فيما قال وأبعد نظره فيما أراد !

وإن أردت مصداق ذلك فانظر الى الأمة الاسلامية فى بدء أمرها حينما كانت أعز الأمم على الاطلاق وأرفعها على الاطلاق ، ثم انظر اليها اليوم وقد تقوض بناؤها ، وذهب مجدها ، فأصبحت تتسلى بالسراب عن الشراب ، وبالخيال عن الحقيقة ، وبزخرف الكلام وأضغاث الأحلام عن النظر الصحيح فى سنة الله فى خلقه ، وما تقتضيه قوانين العالم فى ماضيه وحاضره ، وإن فى ذلك لعبرة كبرى لذوى الأبصار وأهل الاستبصار .

أسأل الله أن يعاملنا بما هو أهله ، ولا يعاملنا بما نحن أهله بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

الطموح لما هو أرقى

قال ابن عبد ربه : مما جبل عليه الحر الكريم أن لا يقنع من شرف الدنيا والآخرة بشىء مما انبسط له ، أملا فيما هو أسنى منه درجة ، وأرفع منزلة ، ثم قال : ومن قولنا فى ذلك :

والحر لا يكتفى من نيل مكرمة ... حتى يروم التى من دونها العطب
يسعى به أمل من دونه أجل ... إن كفه رهب يستدعه رغب
لذاك ما سال موسى ربه أرنى ... أنظر اليك وفى سؤاله عجب
يبغى التزيد فيما نال من كرم ... وهو النجى لديه الوحى والكتب

وقال الشاعر تأبط شرا فى ابن عم له يصفه بركوب الأهوال وبذل الأموال :

وإنى لمهد من ثنائى فقاصد ... به لابن عم الصدق شمس بن مالك
أهز به فى ندوة الحى عطفه ... كما هز عطفى بالهجان الأوارك
قليل التشكى للملم يصيبه ... كثير النوى شتى الهوى والمسالك
ويسبق وفد الريح من حيث تنتحى ... بمنخرق من شدة المتدارك
يظل بموماة ويمسى بغيرها ... وحيدا ويعرورى ظهور المهالك
إذا خاط عينيه كرى النوم لم يزل ... له كالئ من قلب سيحان فاتك
إذا هزه فى عظم قرن تهللت ... نواجذ أفواه المنايا الضواحك

باب الأسئلة والفتاوى

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

نرجو التفضل بالجواب مفصلا على السؤالين الآتيين بصفة رسمية من دائرة الفتوى ، وهما :

الأول — فاطمة رضعت مع مصطفى ثلاث رضعات متفرقات ، فهل يجوز زواجهما ؟

الثانى — محمود يرغب أن يتزوج نادرة ، غير أن جدة نادرة أرضعت محمودا ثلاث أو أربع رضعات متفرقات ، فهل يجوز عقد قران محمود على نادرة ؟

اسماعيل عاصم آل ابراهيم باشا

حلب — سوريا

الجواب :

اختلف الفقهاء قديما فى كمية الرضعات التى تستوجب حرمة التزوج ، فالمعتمد من مذهبى الشافعية والحنابلة أن الرضاع لا يستوجب حرمة الزواج إلا إذا تكرر وبلغ خمس رضعات متفرقات ، فان لم يصل الى هذه الكمية فلا يوجب حرمة التزوج .

وبناء على هذا ترى اللجنة أن عقد القران فى الحالتين المسئول عنهما جائز ولا مانع منه شرعا عند السادة الشافعية والحنابلة .

أما الحنفية والمالكية فيرون أن رضعة واحدة كافية فى التحريم متى وقعت فى مدة الرضاع المقررة شرعا ، وهى حولان كاملان عند الحنفية ، وحولان وشهران عند المالكية ، إلا أن الحنفية يرون أن الرضاع محرم فى مدته حتى بعد فطام الصبى واستغنائه عن اللبن . ويخالفهم فى ذلك المالكية ، فيرون أن الصبى متى فطم واستغنى بالطعام عن اللبن فرضاعه بعد ذلك لا يوجب تحريم التزوج ، والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

الزهاوى الفيلسوف العراقى

للسيد المرحوم جميل صدقى الزهاوى شهرة فى البلاد الناطقة بالضاد لما نشر من شعره، وأذاع من كتبه، وقد وقر فى نفوس الناس عنه أنه مشايع للفلسفة المادية، شديد التمسك بمقرراتها. إذ يكاد لا يقع نظر أحد على قصيدة له تخلو من ذكر العدم المحض الذى ينتظر الانسان بعد موته.

ولما زار مصر حوالى سنة ١٩٢٥ أكثر فيها من قرض الشعر، وكانت جريدة السياسة تنشر له ما تجود به قريحته، فكنت ألاحظ أنه يبالغ فى نعى النفس الانسانية، والتشهير بمصيرها الى العدم المحض، الأمر الذى لم نلاحظه على شاعر غيره عربيا كان أو أعجميا، حتى من الذين يعرف عنهم الغلو فى المادية. فكان يخيل الى أنه من الذين يؤلم شعورهم أن ينتهوا الى ظلمة العدم بعد تمتعهم بنور الوجود، وأنهم لو لاح لهم بريق دليل على بقاء النفس بعد الجسد لتلمسوه حيث صادفوه، فسمحت لنفسى أن أكتب اليه كتابا مفتوحا فى جريدة السياسة أدعوه ليساجلنى البحث فى خلود الروح، وذكرت له أن لدى أدلة علمية لا مجال للمراء فيها. فرد على فى تلك الجريدة يشكر لى ما عرضته عليه، ويعتذر عن قبول المساجلة لوشك عوده الى بلاده، وتفضل فأهدانى مؤلفاته.

لا أظن أن يتخيل قارئ، وأنا أتكلم عن الفيلسوف العراقى هنا، أنى أريد الحط من قيمته أو نقد أقواله وهو لا يستطيع أن ينتصر لنفسه، لأن الزهاوى بعد أن نشر من شعره ومؤلفاته ما نشر، أصبح واحدا من جمهرة قادة الفكر لا يمكن تجاوزه دون نقد فى مجال تمحيص حقيقة من الحقائق الفلسفية، بل أصبح يقصد بالذكر من خصوم مذهبه، لكيلا يفتتن باقواله من ليس لهم قدرة على تمييز الحق من الباطل من المبادئ. ونحن إنما نقصده بالذكر اليوم لما نشر فى بعض المجلات من مذهبه بدون تعليق، خشية أن تتسرب هذه الكتابة الى النشء فتؤثر فى عقليتهم لمصلحة المذهب المادى الذى حطمت صرحه اليوم معاول الفتوحات النفسية الحديثة.

يصف بعض الناس الزهاوى بأنه مادى قح، وهذا ما يؤخذ من بعض شعره ونثره، ولكننا نلاحظ عليه هنا أنه لم يقم على طريقة زعماء المادية من الاعلان عن مذهبهم فى صراحة لا تقبل المماحكة، فقد كان يكتب الشيء ثم ينقضه بقول آخر كما فعل فى كتابه (الكائنات). فقد جرى فيه على أسلوب الماديين، فأنكر فيه الخالق والروح والخلود، ثم ختمه بكلمة تحت عنوان (ابتهال)، حقر فيها كل الآراء التى قررها فى الكتاب، وذكر أنه إنما جرى فيها على

أسلوب الماديين لبيان مذهبهم ، أما هـو فيبرا الى الله منهم ومن آرائهم ، ويرجو من يقرأ كتابه أن لا يعتد بما قرره فيه .

هذا أسلوب فى الكتابة كل ما يمكن أن يعتذر عنه أنه يلجأ اليه هربا من تبعة ما قرره من الآراء الالحادية فى نظر الرأى العام والحكومة ، ولكنه اعتذار غير وجيه ، وكان الأولى به أن يتحمل تبعة ما يقول كما فعل جميع الذين تقدموه من ضحايا آرائهم ، أو أن يسكت .

وكما جرى على هذا الأسلوب نثرا جرى عليه شعرا ، فقد قال منكرا الخالق :

لما جهلت من الطبيعة أمرها وأقمت نفسك فى مقام معلل
أثبت ربا تبتغى حلا به للمشكلات فكان أكبر مشكل

وهو نفسه الذى قال :

قال ما دينك الذى كنت فى الدنـ ـيا عليه وأنت شيخ كبير
قلت كان الاسلام دينى وهـ ـو دين بالاحترام جدير
قال من ذا الذى عبدت فقلت الله ربى وهو السميع البصير

وهو الذى قال أيضا :

أنا ما كفرت كل عمـ ـرى بالكتاب المنزل
أنا لم أزل أشدو بنعـ ـت للنبى المرسل

فهذا الضرب من التلاعب بالمبادئ ليس من صفات الفلاسفة الراسخين ، ولا هو من سمات العلماء المحققين . وهو يدل دلالة صريحة على أنه لم يكن على عرق مما يتظاهر به من صفات المجددين . لأن المجدد يجب أن يكون مثالا حيا لغيره فى تحديد مذهبه ، وصراحة لهجته . أما الاعتذار عنه بأنه كان يلجا الى هذا الأسلوب من المراوغة لاتقاء شر الحكومات الخانقة للحرية ، فلا يمكن قبوله والاعتداد به . لأن التاريخ قد سجل أسماء عشرات الألوف من العلماء والفلاسفة المجددين الذين هلكوا فى سبيل التصريح بآرائهم ، فان لم يكن قد بلغ مبلغهم من الاخلاص للمذهب ، كان يسعه أن يهجر وطنه كما فعل غيره فى مجال السياسة ، وأن يجاهر بما يريد أن يقول ، ولا يدع الناس حيارى فى معرفة حقيقة ما كان يقول به ويريد أن يدعو اليه .

ومن أغرب وجوه هذه الحيرة أن من الناس من فهم أن الأستاذ الزهاوى كان يعتقد بوجود الخالق ، وأنه فوق ذلك كان متصوفا .

قال الأستاذ اسماعيل أحمد أدهم كاتب تاريخ حياته :

« آمن الزهاوى بالعلم ونزل عند مقرراته ، ومضى يبحث فى الطبيعة مؤمنا باساليب

العلم فى البحث ، وخرج من دراسته معتقدا اعتقادا لا يوهنه الشك ، ولا يتطرق اليه الريب ، أن لقوانين الطبيعة وحدتها ، وان للعالم وحدة متصلة أسبابها ، غير منفصمة أجزاؤها ، وعاد بالاشياء كلها الى الأثير فهو عنده المرجع فى الأشياء والأثر ، واعتقد أن الألوهة حالة فى الكون فنظرها فى الأثير ، حيث بدا له من نظره فى العلم الموضوعى والذاتى — عالم الطبيعة والنفس — أن لا انفصام بين السبب والمسبب ، بين العلة والمعلول . وهكذا انساق الزهاوى لايمانه بوحدة الكون وبطبيعة الاتصال بين ذواتنا الشاعرة المفكرة وبين طبيعة الأشياء ، الى الايمان بالله فى الكون ، وبامكان الاتصال بالله عن طريق الكون . وهكذا دلف الزهاوى الى التصوف ، فكان عميقا فى تصوفه يؤمن بأن هنالك وراء ذواتنا وأعراض الاشياء التى تبدو لنا حقيقة واحدة ، حقيقة تصل بيننا وبين الكون ، ولولاها لما أمكننا أن نفكر فى العالم ، وأن نستجيب لانفعالاتنا به ، ولما أمكن للعالم أن يؤثر فينا » .

يقول الاستاذ اسماعيل احمد أدهم هـذا القول ، وهو نفسه قد نقل عنه البيتين المتقدمين اللذين ينكر فيهما وجود الخالق ، فكيف يمكن التوفيق بين هذه المتناقضات ؟

على أن ما استنتجه من كتابات الاستاذ الزهاوى ووصفه بأنه مطابق للتفكير العلمى الحديث ، إن دل على شىء فهو يدل على أن الزهاوى كان يصرف بعض الأمور الافتراضية فى العلم ، الى بناء عقيدة خيالية فى حقيقة الكون وعلاقة الانسان به على أسلوب الجماعة الذين يسميهم الأوربيون بالميستيك (mystiques) .

إن الاثير مادة افتراضية ، تواضع عليها العلماء لحل بعض مشكلات الطبيعة ، والعلماء يحتالون على فهم ما لا يستطيعون فهمه بافتراض أشياء قد لا يكون لها وجود ، وقد يثبت وجود خلافها عند ما يصل العلم الى درجة أعلى مما كان عليه ، وتاريخ العلم يثبت هذا الأمر إثباتا لا مجال للشك فيه . فالتصوف الذى وصل إليه الاستاذ الزهاوى على أجنحة الأثير مكتوب عليه الانهيار بانهيار الأثير نفسه ، كما انهارت مذاهب لا عدد لها أغرى الخياليون باختراعها وزخرفتها فى كل زمان ومكان .

ثم نقول : لا يصح ونحن فى عصر العلم أن يوصف مذهب يقوم على موجود افتراضى بأنه مذهب علمى . ولو ساغ ذلك لوجدت مذاهب علمية بعدد الرءوس الخيالية التى تفكر على هذا النحو وهى بعيدة عن الروح التى ينفثها العلم فى روع الآخذين به .

ثم نتساءل : ما قيمة هذا التصوف الذى يزعم صاحبه أن الروح الانسانية لا وجود لها ، وأن الانسان صائر الى حيث تصير جميع الكائنات الى العدم المحض ؟

لا يصح أن يوصف القائل بهذا القول بالتصوف على أى احتمال من احتمالاته ، لأنه لا يغرى بالرياضة النفسية ، ولا بالمجاهدة القلبية ، ولا يحبب الانسان فى التأمل إلا فيما يجلب السعادة

الدنيوية ، واللذات البدنية . وإذا كان ذا شعور حى ربما قـذف به الى هوة اليأس فكره الحياة وكره نفسه ، وكره الوجود وما فيه ومن فيه ، ولا يبعد على من تؤول حاله الى هـذه المأساة أن يصوب مسدسه الى رأسه فينسفه نسفا .

هل للاستاذ الزهاوى فلسفة ؟

أنا أعترف بان الأستاذ الزهاوى كان شاعرا ، ولشعره طلاوة وانسجام فى كثير من موطن القـول ، ولـكننى أنـكر بأنه كانت له فلسفة ، وكل ما يؤخذ مما كتبه فى كتبه أنه افتتن بمقررات العلم الطبيعى ، وشغف حبا بالفلسفة المـادية ، فخلعته عن العقائد الدينية ، ولم يستطع أن يتغلب على عقـائده الوراثية فيعلن أنه أصبح ماديا ، فوقف حائرا لا يدرى بأى فـريق يلتحق : أبفـريق الذين يؤمنون بالغيب ، أم بفريق الذين يؤمنون بالواقع ، فاعتراه من الهم ما يعترى كل واقف بين طرفين من الوحشة والذعر . فاذا كان الشعر مظهرا لنفسية الشاعر ، فهذا الذى أقوله يؤخذ من شعره صريحا بغير تأويل ، فقد قال :

رأيت الهدى فى الشك والشك لايهدى   كأنى بالظلماء قد كنت أستهدى
فطورا أقول الروح كالجسم هالك   وطورا أقـول الهلك عنه على بعد
فيالك من شك يبرح بى ولا   يبارحنى حتى أوسد فى لحـدى
وإنى لا أدرى أرشدى كان فى   ضلالى هـذا أم ضلالى فى رشدى
أأفقد جسمى وحده عند ميتتى   أم الروح مثل الجسم يشمله فقـدى
أروح وجسم أم هو الجسم وحـده   يحركنى فيما يضلل أو يهدى
أعذب حوبائى بمـا أنا فاكر   كأنى من أعـداء حوبائى اللد

يقول : إنه يعذب نفسه بهذا التفكير حتى كا نه من ألد أعدائها ، وليس هـذا من شأن الفيلسوف الذى ليس له عون على حل المعضلات غير التفكير ، فهو لا يبالى بنفسه وإنما يبالى بالحقائق التى يشعر بأنه خالق للوصول اليها . فاذا كان لا بد للفيلسوف أن يشكو فهو يشكو من أنه بطىء السير ، كليل الراحلة ، قليل التضحية .

على أن الشك ليس بعاب فى الفلسفة ، بل من الفلاسفة من جعلوه أساسا لمذهبهم : كبيرون (Pirrhon) ، الفيلسوف اليونانى الذى كان موجودا قبل المسيح بأربعة قـرون ، فقد كان لا يثبت شيئا قط ، مستندا فى ذلك على أن الانسان لا يستطيع لقصور عقله أن يصل الى الحقائق ، وقد بقى مذهبه قائما الى اليوم باسم اللا أدرية (agnosticisme) وله شيعة فى كل أمة .

فيكون تصريح الأستاذ الزهاوى بأن الشك قد أضناه دليلا على أنه ليس من طائفة اللاأدرية ، ولـكن من القائلين بأن الدرس والتفكير يؤدى الى إدراك الحقائق ، فهو قد أجهد نفسه فى تطلبها ولم يفز بطائل .

وبينا هو يندب حظه من الحيرة ، ويرى أن الروح ليست إلا حالا من أحوال المادة ، إذا به يثبتها ويؤكد خلودها فيقول :

فيانفس سيرى فى الفضاء طليقة ... فـلا شىء فيه للنفوس معـوق
لأنت شعاع طار من مستقره ... وكل شعاع بالبقاء خليـــق
تحيــق المنايا بالجسوم كثيفة ... وأما بارواح فليس تحيـــق

إذا به يعود الى شنشنته من التناقض فيقول :

يقولون إن النفس حق وجودها ... فلا ينبغى إنـكارها وجحودها
فقلت لهم هذا جميـــل وعله ... خيالات عقل شارد لا أريدها
ولم يكن الانسان إلا ابن غابة ... على فجأة قـد أنجبته قـرودها

الخـلاصة أن الاستاذ الزهاوى لا فلسفة له ، لـكن له مجموعة من أقوال يتحدى فيها الاسلوب العلمى قولا ، ثم يقفز الى الفلسفة الخيالية فينتزع منها صورا ليست بخلابة ولا بثابتة ، لأن العـلم لا يبنى على الافتراضات وهـو يبنى كل مذهبه على الاثير ، والاثير مادة افتراضية كما قدمنا .

أما شعره فهو صورة نفسية من التشكك والحيرة والعويل ، وهذه صفات يرتاح إليها كل من تأثر قلبه بالشبهات وقصرت همته عن المجاهـدة لحلها ، وفى القطعة الشعرية التالية صورة صحيحة لهذه الحالة النفسية ، قال رحمه الله :

سيطفىء يأسى فى المشيب حياتى ... وأذهب من نور الى ظلمات
ويحملنى صحبى الى القبر إننى ... به بعد حين لست غـير رفات
تقطع أوصالى وتبـلى جوانحى ... وليس بوسعى أن أبث شكاتى
وأجمل بأيام الصبا فهى لم تـكن ... على الفم من دهرى سوى بسمات
ولـكن أيام الصبا قـد تصرمت ... ولم تبق ذكراها سوى الحسرات
وفارقت أيام الشباب حميـدة ... وإن كثرت فى عهـده عثراتى
قضيت شبابى مطمئنا وبعده ... أتى الشيب منهوكا من الشبهات

فلا جرم أن من يقضى أيام شبابه مطمئنا على ما يساوره من الشكوك والريب ، ولم يكد نفسه للوصول الى الحقيقة ، تحل به الشيخوخة فلا يجد مايلهيه عن شبهاته ، فتثور عليه ، فتخور قواه أمامها ، فلا يسعه إلا أن يرثى نفسه ويندبها ، كما فعل الاستاذ الزهاوى ، ولسنا نتقول عليه ، فهو الذى اعترف بذلك فى عشرات القصائد من شعره .

ومن العجيب أن يتلقف بعض الناس مثل هـذا الشعر فيجدوا فيه نظرات عميقة ، وتأملات دقيقة .

أنا لا أقصد بقولى هذا الاستاذ الزهاوى ، ولكنى أقصد هذا المذهب فى بعض الشبيبة ، فهم يطوون أيام الشباب لاهين لاعبين ، متغابين عن الشبهات والشكوك التى تساورهم ، حتى إذا انتابتهم الشيخوخة وجدوا أنفسهم ضعافا ومجردين حيالها من كل سلاح ، فلا يبقى لهم إلا خيال من تعزية وهى أن ينشدوا مثل أبيات الزهاوى ؛ ويتنفسوا الصعداء ، معتقدين أن فى الكون شكوكا لم يخلق الله لها حلولا !

يقول قائلهم : وهل لهذه الشكوك حلول ؟

نقول : إذا فهم من هذه الحلول أن يلقنها طالبها كما يلقن رقم دار أو اسم شارع ، فلا وجود لأمثال هذه الحلول حتى ولا لأبسط مسألة حسابية أو هندسية . أما إذا فهم منها أنها بحوث مستفيضة ، تتناسب والموضوع الذى تعالجه من فهم حقيقة الوجود ، وتعرف أسراره ، وكشف مساتيره ، وتنور ما خلفه من عالم الروح والكائنات المجردة ، فان هذه الحلول قد وجدت وهى على أسلوبين :

(أولهما) أسلوب الفلاسفة الأولين من الاعتداد بالمسلمات العقلية ، والقضايا المنطقية ، والتدرج منها الى إدارك العلل الأولية : وهو أسلوب أصبح لا يقنع أكثر المتعلمين على الطريقة الحديثة ، فانهم قد تأثروا بالفلسفة العملية فأصبحوا لايطمأنون الى المسلمات العقلية ويتطلبون عليها شاهدا حسيا .

(ثانيهما) أسلوب الفلاسفة الوضعيين ، وهى أن تبنى المقررات على المشاهدات والتجارب التى لا تقبل الصرف والتأويل . وهذا أسلوب المعاصرين .

وقد حاكت الشكوك والشبهات فى صدور علماء كثيرين فى أوربا ، فنهم من يئسوا من حلها ، وصرحوا بعدم قبولها للحل ، وهؤلاء هم الماديون ، ومنهم رجال أبعد من هؤلاء همة ، لم يثنهم اليأس عن بذل الوسع فى البحث ، فدأبوا نحو تسعين سنة على جمع المشاهدات وتدوين التجارب ، فوصلوا الى حلول لمسألة الحياة والروح والعالم الروحاني لايمكن أن يتطرق اليها وهن ، لأنهم وصلوا اليها على أسلوبهم العلمى القائم على النظر والتجربة ، ودونوا فيها مجلدات . منها جمعية المباحث النفسية الانجليزية ، وقد بلغ عدد مادونته من المجلدات ثلاثة وخمسين مجلدا ، وكل الذين تولوا تمحيص ما فيها وتدوينه رجال من أقطاب العلم فى انجلتره ما بين أعضاء فى المجمع العلمى ومدرسين فى الجامعات الكبرى . وفى كل أمة جماعات علمية قامت بمثل هذه البحوث ، فى مقدمتها فرنسا والولايات الأمريكية وإيطاليا وألمانيا .

فهذه الثروة العلمية التى لم يسمح بها الدهر لعهد من عهود البشر ، تحت طلب كل من يريد الاطلاع عليها بأقل كلفة .

فاذا كان فى الناس من تتنازعه الشكوك التى انتابت الأستاذ الزهاوى ولا يود أن يتلهى عنها أيام شبابه ، حتى تحل به الشيخوخة فيجد نفسه عاجزا حيالها ، مثله كمثل من يحكم عليه بالموت وينتظر يوم التنفيذ فى كرب لا وصف له ، فعليه أن يستأنس فى ساعات فراغه ببعض هذه المباحث ، فهى على سحرها وطلاوتها ، تؤتيه بالطمأنينة التى لا تنغيص معها ، وبالسكينة التى مات الفلاسفة الماديون دونها بحسرة ؟

محمد فريد وجدى

البلاغة فى تهنئة الملوك

دخل خالد بن عبد الله القسرى على عمر بن عبد العزيز لما ولى الأمر فقال : يا أمير المؤمنين من تكون الخلافة قد زانته فأنت قد زنتها ، ومن تكون شرفته فانت قد شرفتها ، كما قال الشاعر :

وإذا الدر زان حسن وجـوه كان للدر حسن وجهك زينا

وروى ابن أبى طاهر قال : دخل المأمون بغداد فتلقاه وجوه أهلها ، فقال رجل منهم فى تحيته : يا أمير المؤمنين بارك الله فى مقدمك ، وزاد فى نعمتك ، وشكرك عن رعيتك ، تقدمت من قبلك ، وأتعبت من بعدك ، وآيست أن يعاين مثلك . أما فيما مضى فلا نعرفه ، وأما فيما بقى فلا نرجوه ، فنحن جميعا ندعو لك ، ونثنى عليك ، خصب لنا جنابك ، وعذب ثوابك ، وحسنت أنظرتك ، وكرمت مقدرتك . جبرت الفقير ، وفككت الأسير ، فانك يا أمير المؤمنين كما قال الأول :

ما زلت فى البذل والنوال وإطـ ـلاق العانى بجرمـه غلق
حتى تمنى البراء أنهم عندك أسرى فى القيد والحلق

ولما تولى أزدشير الملك واجتمع اليه الناس يهنئونه قال متكلمهم : لازلت أيها الملك محبوا من الله بعز النصر ، ودرك الأمل ، ودوام العافية ، وتمام النعمة ، وحسن المزيد ، ولازلت تتابع لديك المكرمات ، وتشفع اليك الذمامات ، حتى تبلغ الغاية التى يؤمن زوالها ، ولا تنقطع زهرتها ، ولا زال ملكك وسلطانك باقيين بقاء الشمس والقمر ، زائدين زيادة البحور والأنهار ، حتى تستوى أقطار الأرض كلها فى علوك عليها ، ونفاذ أمرك فيها ، فقد أشرق علينا من ضياء نورك ما عمنا عموم ضياء الصبح ، ووصل الينا من عظيم رأفتك ما اتصل بأنفسنا اتصال النسيم ، فأصبحت قد جمع الله بك الأيادى بعد افتراقها ، وألف بين القلوب بعد تباغضها ، وأذهب عنا الاحن والحسائك بعد توقد نيرانها ، بفضلك الذى لا يدرك بوصف ، ولا يحد بنعت .

فى عيد التاج

كن (للكنانة) فى جلالك تاجا ... وتلق تاجك مشرقا وهاجا
اوتيته من نور ربك آية ... طلعت على دنيا الملوك سراجا
نزل (الأمين) بها تكبر حوله ... زمر (الملائك) ترتمى أفواجا
خذها مباركة ، وقل : رب اهدنى ... واجعل لعرشى فى حماك سياجا
وأقم لشعبى من كتابك شرعة ... واسلك به من هديه منهاجا
إنا وجدنا الخير فيه ، فلن نرى ... من دونه معدى لنا ومعاجا
رفع الممالك ، لو يشاء حماتها ... لمسوا الشموس ، وصافحوا الأبراجا
وهدى الشعوب ، فسددت خطواتها ... وتنازعت سبل الحياة فجاجا
ورعى المحارم والحقوق بأسرها ... ووعى المطالب كلها والحاجا (١)
لم يلغ إلا الفاحشات ، ولم يدع ... إلا المآثم تثقل الأثباجا (٢)
يشفى بحكمته من الداء الذى ... يعيى الطبيب العبقرى علاجا
بحر يؤلف من هداك عبابه ... ويسوق من بركاتك الأمواجا
عذب المشارب من تجنب ورده ... وجد الموارد كلهن أجاجا

***

(فاروق) أحييت الرجاء لأمة ... أيقظت روح شبابها فاهتاجا
ذكرتها دين الحياة ، ولن ترى ... كثماره الحسنى جنى ونتاجا
ما انفك هذا الدين بعد كساده ... حتى أصاب على يديك رواجا
قلبت رأيك فى الحياة ، فلم تجد ... للشعب يصعد ، غيره معراجا
انظر ميادين الحضارة : هل ترى ... إلا غبارا قائما وعجاجا ؟
واسأل ممالكها ، فلست بواجد ... إلا ذئابا تتقى ونعاجا
ظلموا الحضارة ، إنهم زعموا الأذى ... خيرا ، ولجوا فى المحال لجاجا
أرأيت أدواء الشعوب وذقتها ... دنيا كأنياب الشجاع (٣) مجاجا
إن الأساة هم الذين بطبهم ... فسد الزمان طبيعة ومزاجا

***

(١) جمع حاجة (٢) جمع ثبج ، وهو ما بين الكاهل الى الظهر . (٣) الحية .

يابانى الأخــــلاق من إيمانه ... خــذ من كتابك للبناء رتاجا (١)
وأقم لنا الأركان من فــولاذه ... إنا ارتضينا أن تكون زجاجا
جــددت آمال البلاد ، فأصبحت ... تهوى اليك وفــــودها حجاجا
تمشى فرادى حول عرشك هيبة ... فاذا أذنت لها مشت أزواجا
لما ملكت من القلوب سوادها ... سيقت مودتها اليك خراجا
أتم لمصر من الحياة نصيبها ... إنا خــدعنا بالحياة خــداجا (٢)
طـال الهداج (٣) فسر بها مرح الخطى ... إن السوابق لا تسير هــداجا
وائذن بصبح من سناك فانها ... تشكو السرى ، وتصانع الادلاجا

***

ناداك (دستور البلاد) وإنمـا ... نادى (حمى الدستور) فيك وناجى
صنه لشعب سال من جرائه ... ماصان من مهج دما ثجاجا
قاض يقيم على السوية (٤) حكمه ... ويجـانب الايذاء والاحراجا
حسب الجماعـة أن يحارب رأيها ... من مستبد لا يطيق حجاجا (٥)
لو آثروا الرأى الفطير لما انتدوا ... يبغون بالشورى له إنضاجا
ما بال من نصب الحقـائق وضحا ... يشقى بمن قلب الأمور وداجى ؟
إنا لنشتاق الزئير ونجتــوى (٦) ... عبث الألى ملأوا العرين ثؤاجا (٧)

***

(فاروق) مــيزت المحامد فانبرت ... منها الصفايا تدفع الأمشاجا (٨)
ولبست تاج المـلك نسج جـلالة ... من صـنع ربك يعجز النساجا
ضاحكت رونقــه بصنعة شـاعر ... نظم الجمان ، ورصـع الديباجا
مصر الرءوم ، إذا اعتراها مزعج ... وجــدتك ملء خطوبها إزعاجا
من ذا تؤمل ، والهموم تمضها ... إن لم تكن لهمومها فراجا ؟

***

يا مسبح الآمال يحمل فلكها ... لا زال فيضـك زاخرا عجاجا
ســقها على بركات ربك واهدها ... ودع الكواكب — أنت أسطع تاجا

احمد محرم

(١) الباب العظيم المغلق ، والمغلاق معا . (٢) ناقصة (٣) الهداج مشية الشيخ (٤) الانصاف .
(٥) من المحاجة ، وهى المخاصمة بالحجة (٦) نكره . (٧) صياح الغنم . (٨) الصفايا ما خلص من كل شىء . والامشاج الاخلاط .

الفقه الاسلامى والفقه الرومانى

لا تأثر بينهما

لقد عرضت للبحث فى هـذه الآونة الشبهة التى علقت بأذهان مشترعى أوربا وهى أن الفقه الاسـلامى مشتق من الفقه الرومانى لوجود تشابه كبير بينهما . وقد كتبنا نحن مقالا فى هذا الموضوع فى العدد الاول من هذه السنة صفحة ٢٣

وقد نشرنا فى العدد الثالث بحثا ممتعا لفضيلة الشيخ السيد عفيفى ، فاستكمالا لكل ماينشر فى هـذا الباب ننقل مقالا قيما نشره حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبد الله المراغى وجه فيه البحث وجهة جديدة جديرة بالنظر ، وتعتبر مكملة لهذا الموضوع . قال حضرته :

لقد طال الجدل وكثر النقاش من مدة غير قصيرة بين الباحثين فى الصلة بين الفقه الاسلامى والقانون الرومانى ، فذهب بعضهم الى تأثر الفقه الاسلامى بأبحاث الفقه الرومانى ونظرياته مستندا الى سبق تاريخ القانون الرومانى وارتقاء النهضة التشريعية الرومانية فى عصورها المتعاقبة قبل ظهور فجر الاسلام ، فلما جاء الاسلام وأراد أن يؤسس مدنية وحضارة فى جميع نواحى العمران اقتبس النظم التشريعية من القانون الرومانى . ويشهد لهذه النظرية أيضا وجود الشبه القوى بل والاتحاد فى بعض الأحكام الواردة فى القانون الرومانى والفقه الاسلامى . وذهب البعض الآخر الى عكس هذه النظرية مدعين تأثر القانون الرومانى بالفقه الاسلامى ، وذلك البعض يستند الى أن الفقه الرومانى وإن كان سابقا فى الزمن إلا أنه فى بعض عصوره المتأخرة قد طفر طفرة غير طبيعية لم تكن نتيجة للفقه الرومانى الموجود قبلها ، بل كانت هذه الطفرة وليدة التأثر بالفقه الاسلامى لوجود الاتصال بين الحضارة الاسلامية والحضارة الرومانية ، فنقل بعض فقهاء الرومان شيئا من الفقه الاسلامى الى فقههم ، وبذلك وجد التلقيح وتداخلت القوانين . واعتمدوا فى إثبات تلك النظرية الى وجود التشابه التام فى بعض الأحكام بين التشريعين ، وهذا مجمل أدلتهم فى عكس النظرية السابقة ، وخلصوا من ذلك الى تأثر الفقه الرومانى بالفقه الاسلامى .

ولما كنت أزهريا بطبعى ، وقد ألممت من جهة أخرى ببعض أبحاث الفقه الرومانى وتاريخه فى عصوره المختلفة ، وجدت نفسى مضطراً الى الكلام فى هذا الموضوع . وها أناذا ألقى دلوى بين الدلاء ، واصوب سهمى نحو الحقيقة التى أعتقدها ، راجيا أن أصل بتلك المساهمة الى تركيز هذه الحقيقة فى نفسى ، أو العدول عنها بالدليل الصحيح الى حقيقة أخرى . والى القارئ رأيى بأدلته :

إننى أعتقد اعتقاداً صادقا أن الفقه الاسلامى مالبس ثوبا مستماراً ، وماسكن داراً بطريق الاغتصاب منذ نشأته الى الآن . وأتمنى أن يتم له استقلاله ويطرد رقيه .

ومنشأ تلك العقيدة فى نفسى هى البراهين القاطعة التى لو عرضت على المكابر المعاند لأذعن لها وصدق بها ، إذ لو تتبعنا الفقه الاسلامى فى تطوراته لوجدناه مصاحبا للقانون الطبيعى بدون شذوذ أوطفرة ، فمقدماته سارت بطريقة طبيعية ، ونتائجه حذت حذوها بدون تعثر أو وثوب . ذلك أن الفقه الاسلامى قد وجد فى جزيرة العرب عماده كتاب الله الكريم الذى نزل منجما على وفق الحوادث والتدرج فى التشريع ، وقد كان ينزل به الوحى الصادق على النبى المعصوم صلى الله عليه وسلم . والقرآن أول مصدر من مصادر التشريع الاسلامى ، لا يستطيع عاقل أن ينكر علينا قدسيته وعدم انتسابه لمخلوق .

وقد حوى هذا الكتاب المقدس جميع نواحى التشريع من عبادات ومعاملات وأحوال شخصية وعقوبات وتشريعات للسلم والحرب والمواريث ، وتلك التشريعات تارة كانت واضحة مفصلة عرفت أحكامها ، وتارة أخرى كان بعضها فى حاجة الى تفصيل وتوضيح من الرسول الأكرم .

فالمسلمون فى فجر الاسلام ماعرفوا فقها رومانيا ولاتشريعا رومانيا ، بل كانوا محصورين فى الجزيرة وما جاورها لا يفزعون عند وقوع الحوادث التى تتطلب أحكاما إلا الى رسولهم وكتابهم .

وقد كانت للرسول أقضية كثيرة جمعت فى كتب متعددة ، فقد كان منبع الفقه الاسلامى فى ذلك العهد من كتاب الله وسنة رسوله .

فاذا بحثنا فى الطريقة التى نزل بها القرآن والتى جمع بها والتى وصل بها الينا وجدناها أقوى طريق عرفه البشر فى ثبوت الحقائق ، فلا تعدلها نظرية الثبوت عند ديكارت أو روسو أوغيرهما من فلاسفة الغرب والشرق ، فقد تحقق فى طريق نقل القرآن التواتر الذى يحيل العقل كذب إخباراته ، ذلك هو عصر النبى عليه السلام .

وكان يرسل هداته ودعاته الى الجهات التى أذعن أهلها الى الاسلام ، ولا يطلب من رسوله أن يتلمس تشريعه إلا من الكتاب والسنة ، فان لم يجد فيهما يجتهد ويستنبط . فلم يكن المشرع الاسلامى يعتمد على مدد أجنبى أومصدر رومانى . فأنت ترى الرسول لما أراد أن يرسل معاذاً الى اليمن يستدعيه قبل الارسال ليرى خلاصته واستعداده للقيام بأعباء وظيفته والاضطلاع بمهامها ، فيقول له : كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ فيجيب المرشح للوظيفة بقوله : أقضى بكتاب الله ، فيقول المرسل : فان لم تجد فى كتاب الله تعالى ؟ فيقول المرشح : أقضى بسنة رسوله ، فيعيد عليه السؤال بقوله : فان لم تجد فى سنة رسوله ؟ فيجيب المرشح بقوله : أجتهد

فى رأيى ولا أقصر . فيأخذ المرسل نشوة الفرح والوثوق بكفاءة مرشحه فيقول : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله .

وإذا انتقلنا بعد هذا الى عصر الخلفاء الراشدين نجدهم قد ساروا فى التشريع على النهج الذى وضعه مشرعهم الأعظم ، ونرى كبار الصحابة قد أشربت نفوسهم تعاليم الاسلام ، واستعدت عقولهم ، وقويت ملكاتهم على التشريع ، فقاموا به خير قيام ، بل قد تخصص بعضهم فى بعض المباحث الفقهية ، كما جاء ذلك فى خطبة أبى بكر الصديق رضى الله عنه إذ قام خطيبا فقال : « ايها الناس من أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسال عن القرءان فليأت أبى بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى فان الله جعلنى له قاسما وخازنا» .

ونرى عمر رضى الله عنه يرسل أبا موسى الأشعرى الى البصرة ويضع له دستوراً عاما ولائحة للقضاء ويحدد له مصادر التشريع، فاذا هى كتاب الله ، وسنة رسوله، واجتهاده ، واستنباطه الأحكام للحوادث التى تجد ، وقياسها على الحوادث الماضية المعروفة لديه . وقد عرف عدد كبير من الصحابة والتابعين بالفقه والقدرة على التشريع : كعبد الله بن عمر وأبى هريرة وسعيد بن المسيب وابن شهاب الزهرى والحسن البصرى وعمر بن عبدالعزيز وجابر بن زيد وغيرهم . هذا ما كانت عليه الحال فى عهد الصحابة والتابعين الى منتهى القرن الأول الهجرى .

ثم لما جاء القرن الثانى وجدت فيه ظاهرة جديدة وروح وثابة الى وضع القواعد التشريعية التى تبنى عليها المسائل الجزئية ، فقد ظهر أبو حنيفة بالكوفة وتلاميذه أبو يوسف ومحمد وغيرهما ، وأخذوا يؤسسون المذهب الحنفى ، ثم تلا ذلك وجود الامام مالك بالمدينة ، وكان له أتباع وتلامذة . وبعد ذلك ظهر الامام الشافعى المولود بغزة من أعمال عسقلان سنة ١٥٠ هـ ثم أعقبه الامام الرابع أحمد بن حنبل . وقد أسس هؤلاء الأئمة مذاهبهم على الكتاب والسنة . وظهر فى ذلك العهد مصدر آخر من مصادر التشريع وهو الاجماع الذى أثبتوا صحته كدليل من أدلة الشرع بقوله تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » حيث قالوا إن اتباع غير سبيل المؤمنين هو مخالفة الاجماع ، وبأحاديث متعددة تحرم الخروج على الجماعة . وقد اشتد الجدل وكثر حول القياس وكيفية إثبات الأحكام به . وقد أراد كل إمام أن يضع لمذهبه الضوابط والمقاييس حتى يجمع جزئيات المسائل تحت أصل من الأصول الثابتة .

وبذلك نشأ عند الفقهاء فن جديد سمى بعلم الأصول ، وهو الذى جعل أساسا لاستنباط الأحكام الشرعية . وقد دون هؤلاء الأئمة وتلاميذهم الكتب التى جمعت أحكام كل مذهب: فدون أبو يوسف ومحمد مذهب أبى حنيفة فى كتب معروفة لا تزال مطبوعة الى اليوم ، ككتاب

الخراج ، وكتاب الآثار لأبى يوسف ، وكتاب السير الكبير ، وغيره من الكتب التى ألفها الامام محمد . وقد قام بعض الفقهاء باختصار بعض مؤلفات الامام محمد وجمعها فى كتاب واحد ، كما فعل ذلك الحاكم الشهيد فى كتابه المسمى بالكافى .

وقد وضع الامام مالك وتلاميذه مثل ما وضع أبو حنيفة ، فقد ألف الامام مالك كتاب الموطا وجمع فيه كثيراً من أحكام مذهبه ، وألف بعده عبد الله بن الحكم المصرى كتاب المختصر الكبير ، وألف محمد بن سحنون كتابه المشهور بالجامع ، وغير هؤلاء ألفوا كتبا كثيرة فى مذهب الامام مالك . وسار الامام الشافعى فى جمع مذهبه على هذا المنوال ، فقد ألف بنفسه كتاب الأم الجامع لأغلب أحكام المذهب ، وألف كتاب الرسالة فى أدلة الأحكام ، وللبويطى تلميذ الشافعى كتاب المختصر الكبير والمختصر الصغير ، وكتاب الفرائض ، وللمزنى أيضا مختصر صغير وكبير . ولا زالت هذه الكتب معروفة فى العصور الاسلامية يرجع اليها فقهاء المسلمين ولا يعرفون غيرها .

ولو تبينا نشأة الأئمة وكيف تعلموا العلم ومن أين أخذوه لوجدناهم نشأوا فى بلاد لاعلاقة لها ببلاد الرومان ، وتعلموا على أيدى المسلمين. فالسلسلة التشريعية الاسلامية ابتدات أول حلقاتها بالكتاب والسنة ، ثم امتدت الحلقات بالخلفاء الراشدين ومن بعدهم من الصحابة والتابعين ، ثم ظهور الأئمة المجتهدين بعد ذلك وما استنبطوه من الأحكام المدونة فى كتبهم وكتب تلاميذهم . وقد ظلت هذه الأحكام متناقلة الى عصرنا الحاضر لايستطيع أحد أن يدعى أنها تأثرت بأى مؤثر خارجى .

ونستطيع أن نخلص من كل هذا الى أن مصادر التشريع الاسلامى هى الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وأن فقهاء المسلمين ماجاسوا الى معلم رومانى ، وماقرءوا كتبا رومانية ، لأن التاريخ الصحيح يدلنا على ان الوقت الذى وجدت فيه النهضة التشريعية الاسلامية حتى وصلت الى أرقى درجاتها ، لم يكن معاصرا لرقى الدولة الرومانية ، بل كانت الدولة الرومانية فى عهد الانحطاط والتقهقر فى جميع أجزائها ، إذ أن الفقه الرومانى قد ضعف بموت الامبراطور جستنيان سنة ٥٦٥ م والاسلام قد بدأ من بعد ذلك بنصف قرن ، ولا يستطيع أحد أن يدعى انتقال الفقه الرومانى بعد هذا التاريخ الى جزيرة العرب التى نشأ فيها الفقه الاسلامى ، بل يجمع المؤرخون على أن الفقه الرومانى ظل بعد هذا التاريخ مجهولا عند جميع الناس حتى عند أهل أوربا أنفسهم ، لأنه فى ذلك التاريخ لم تكن الطباعة معروفة ، والقوانين ظلت منحصرة فى دائرة ضيقة جدا فى أيدى مؤلفيها أو ورثتهم ، أو فى الكنائس وما شابهها . والمقطوع به أنها لم تتجاوز محيط الدائرة التى وجدت فيها حتى أوائل النهضة الأوربية التى ظهرت فيها الطباعة وأمكن بعث هذه القوانين والحصول عليها من الأماكن التى كانت مقبورة فيها ، وذلك كله كان من مبدأ القرن الخامس عشر الميلادى الى الآن .

فالمدة التى كان الفقه الرومانى مجهولا فيها بالأدلة القاطعة كان الفقه الاسلامى فى عصوره الذهبية ، إذ أن الفقه الاسلامى بدأ فى القرن السابع الميلادى واستكمل نموه فى هـذا القرن وفى القرن التاسع والعاشر اللذين ظهر فيهما الأئمة المجتهدون ، ودونت فيه الكتب المبسوطة فى مذاهب الأئمة الأربعة . فالتاريخ الصحيح يدلنا على أن النهضة الاسلامية جاءت بعد اضمحلال النهضة الرومانية التى انتهت بموت جستنيان سنة ٥٦٥ م

وما نشأ عند بعض الباحثين من اعتقادهم بتأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى لأن الفقه الرومانى سابق فى الوجود على الفقه الاسلامى ، فهذا منشأ خاطئ سببه عدم التعمق فى البحث ، فان السبق فى الوجود الزمنى لا يجعل دليلا على التاثر ، فكم من لا حق يأتى بالعجائب والمبتكرات التى لم تجل بخاطر من سبق . وأقوى دليل على هذا هى المخترعات التى جدت فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا العصر ، فلم يكن عند القرن الماضى أى تفكير فى اللاسلكى والراديو والمناطيد والتلفزيون وغير ذلك من المخترعات ، ومع هـذا لا يستطيع عاقل أن ينسب هذه المخترعات الى أهل القرون الماضية . فالسبق الزمنى لا يقوم دليلا على التأثر إلا إذا وجدنا الاتصال الحقيقى والاستمداد والامتزاج بين السابق واللاحق ، كما حصل ذلك فى الدولة التركية ، فانها أخذت قانونها الحديث عن القانون السويسرى ، وكما حصل فى مصر ، فانها أخذت قانونها المدنى عن القانون الفرنسى ، وكما يحصل فى العمل بدساتير بعض الدول فى دولة أخرى . والفقه الاسلامى لم يكن فى تطوره وليد هذا التأثر ، وليس هناك أى مستند صحيح لاثبات التاثر على هذا النحو ، فليس من المسلمين فقيه نقل قانون الرومان على هذه الطريقة ، ولم تكن هناك بعثات أرسلت من جزيرة العرب فى القرن السابع والثامن والتاسع الميلادى ، وهى عصور النهضة التشريعية الاسلامية ، فقد نشأت الحضارة الاسلامية التشريعية مستقلة فى المكان والتفكير والتعليم . ووجود الشبه بين المباحث فى التشريعين لم يكن وليد التاثر ، وذلك لأن المباحث القانونية التى تناولها المشرعون فى البحث هى تابعة لوجود الانسان بحالة نظامية ، فقد عرفت هذه المباحث الفقهية الحديثة مثل الأحوال الشخصية والعقوبات والمواريث عند قدماء المصريين وعند الاغريقيين والكلدانيين وغيرهم من الأمم التى سبقت الرومان . فوجود المباحث الرومانية فى الفقه الاسلامى لا علاقة له بتأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى . فاتحاد الألفاظ فى التشريعين لا يدل على أن مدلول تلك الألفاظ يتحد فى التشريعين ، لأن المباحث الفقهية الاسلامية كما أسلفنا مستمدة من الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، فهى قانون سماوى ليس للبشر دخل فى تأسيس أصوله ، بخلاف القوانين الأخرى فان أسسها وأصولها قد وضعت بأيدى المشرعين ، وهى قابلة للتغيير فى أصولها وفروعها ، بخلاف الأسس الاسلامية فانها لا يعتريها التغير لأنها وضعت صالحة للبشر منذ أنزلت الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وقد يفهم بعض الناس أن أسس الشريعة الاسلامية لا تستطيع أن تجارى الزمن وأن تثبت

أحكاما للحوادث التى تتجدد ؛ وهذا فهم خاطىء ، لأن الشريعة الاسلامية جاء فيها جواز إثبات الأحكام بالقياس والاجماع ، وهما كفيلان بإثبات الأحكام على ممر الزمن ، فلا تجد حادثة فى الوجود إلا ويستطيع الفقهاء إثبات حكم لهـا .

فإذن يثبت لنـا مما أسلفنا من البيان استقلال التشريع الاسلامى ، وان سبق الفقه الرومانى عليه لا يقتضى تأثيره فيه ، وأن اتحاد الألفاظ التشريعية بين الفقهاء لا يقتضى اتحاد مدلولهـا ولا اتحاد واضعها ، وبذلك تزول الشبه التى وجدت عند بعض الباحثين من القول بتأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى .

ونستطيع بعد أن ألممنا بتاريخ الفقه الاسلامى وبينا عدم تأثره بالفقه الرومانى، ان نلم أيضا بالفقه الرومانى ونثبت عدم تأثره بالفقه الاسلامى ، فقد اصطلح المشرعون الغربيون على إطلاق الفقه الرومانى على القواعد التى عملت بها الأمة الرومانية فى العصور المختلفة منذ نشأتها حتى وفاة الأمبراطور جستنيان . وقد قسم بعضهم هذه المدة الى ثلاثة أقسام ، والبعض الآخر الى أربعة ، وبعضهم قسمها الى قسمين ، والبعض الآخر الى خمسة، واتفقوا جميعا على أن هذه المدة ابتدأت من سنة ٧٥٣ قبل الميلاد ، وهو تاريخ بناء مدينة روما ، وانتهت بموت الامبراطور جستنيان سنة ٥٦٥ بعد الميلاد . وكانت وفاته قبل ظهور الاسلام بنصف قرن تقريبا ، وإذن قد وجدت القوانين الرومانية ، وأخذت أدوارها المختلفة ، وتعددت فيها المباحث الفقهية، ووضعت أحكام الأحوال الشخصية، وأحكام العقوبات، وأحكام المواريث، وغير ذلك من مباحث القوانين التى تناولها فقهاء القوانين الحديثة . وسنقصر الكلام على تقسيم واحد من التقاسيم السابقة وهو تقسيم جيبون الذى قسم تاريخ القانون الرومانى الى أربعة عصور، فجعل الأول يبتدىء من تاريخ تاسيس روما وينتهى بتدوين قانون الاثنى عشر لوحا ، وجعل الثانى يبتدىء من هذا التاريخ وينتهى بعهد الأمبراطور سيسرون ، وجعل الثالث يبتدىء من هذا التاريخ وينتهى بعهد الامبراطور اسكندر سيفر، وجعل الرابع يبتدىء من هذا التاريخ وينتهى بوفاة جستنيان. وقد جرى فى تقسيمه هـذا على تقسيم الأدوار الطبيعية للانسان ، فجعل العصر الأول بمنزلة دور الطفولة ، والعصر الثانى بمنزلة دور الشباب ، والعصر الثالث بمنزلة دور الأستول ، والعصر الرابع هو دور الهرم. وعلى كل حال لم يكن مخالفا لغيره من أصحاب التقاسيم الأخرى، لاتفاقهم جميعا على أن مصباح التشريع الرومانى قد انطفأ بموت الأمبراطور جستنيان .

وشبهة بعض القائلين بتأثر الفقه الرومانى بالفقه الاسلامى ترجع الى أن الرومان لمـا أرادوا وضع قانون الألواح الاثنى عشر كونوا لجنة لوضعه ، وهذه اللجنة اتفق المؤرخون بأنها كانت على علم بالقانون اليونانى، فان كثيراً من القواعد المقررة بقانون الاثنى عشر لوحا مأخوذ بعضها من قوانين سولون التى درسها فى مصر ، وكان للقوانين المصرية تأثير غير مباشر فى القوانين

الرومانية . وهذه النظرية على فرض صحتها فان هذا التاثير لم يكن بين القوانين الرومانية والفقه الاسلامى، لأن الفقه الاسلامى فى هذا التاريخ لم يكن على ظهر الأرض فضلا عن أن يكون فى مصر، فان قانون الاثنى عشر لوحا وضع فى القرن الرابع قبـل الميلاد وقبل ظهور الاسـلام بتسعة قرون تقريبا .

والطفرة التى ظهرت فى تقـدم القوانين الرومانية فى عهد جستنيان لم تكن كذلك وليدة التأثر بالفقه الاسلامى، لأن عهد جستنيان كان قبل ظهور الاسلام بنصف قرن ، والتقدم الذى حدث فى عهد جستنيان لم يـكن طفرة فى الواقع بل هو وليد التقدم الطبيعى ، إذ ان القانون الرومانى كان فى دوره الرابع منذ وجوده ، وهذه المدة التى كانت قد مضت عليه تبلغ أكثر من عشرة قرون ، وهى كفيلة بوصول المدنية الى أرقى درجاتها .

وحينئذ أستطيع أن أقطع بعد كل هذا بأن الفقه الاسلامى لم يتأثر بالفقه الرومانى السابق عليه لعدم وجود الصلة بين مشرعى الاسلام وفقهاء الرومان . وكذلك أستطيع القطع بأن الفقه الرومانى وإن تأثر بالقـوانين المصرية فانه لم يتأثر بالفقه الاسـلامى لسبق القانون الرومانى على الفقه الاسلامى ، كما يعطينا ذلك التاريخ الصحيح ؟

عبد الله المراغى

مضار التكلف

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول : « وما أنا من المتكلفين » .

وقال حكيم : من تطبع بغير طبعه ، نزعته العادة حتى ترده الى طبعه ، كما أن الماء إذا أسخنته وتركته عاد الى طبعه من البرودة ، والشجرة المرة لو طليتها بالعسل لا تثمر إلا مرا .

وقال غيره : ليس الفقه بالتفقه ، ولا الفصاحة بالتفصح ، لأنه لا يزيد متزيد فى كلامه ، إلا لنقص يجده فى نفسه .

وقال حفص بن النعمان : المرء يضع نفسه ، فتى ما تبله ينزع الى العرق (أى متى ما تختبره يستحل الى أصله) .

وقال العرجى :

يأيها المتحلى غـير سيمته ومن شمائله التبديل والملق
ارجع الى خلقك المعروف ديدنه إن التخلق يأتى دونه الخلق

وقال آخر :

ومن يبتدع ما ليس من سوس نفسه يدعه ويغلبه على النفس خيمها

الأنصار

روى البخارى فى صحيحه عن غيلان بن جرير « قال : قلت لأنس : أرأيتم اسم الأنصار كنتم تسمون به أم سماكم الله ؟ قال : بل سمانا الله » :

كان الاسلام قبل أن يهدى الله اليه قلوب الأنصار ، ويهيء لنصرته نفوسهم ، مستترا فى دار الأرقم ، لايعلن عن نفسه إلا همسا ، ولا يستجيب له إلا أفراد ممن اصطفاهم الله ليكونوا دعامة لبناء أعظم دولة عرفها التاريخ ، ولتوطيد أفضل شريعة عرفتها الحياة ، فلما استجاب الأنصار لدعوته دوى صوته فى الآفاق ، وطوى الجزيرة العربية ، ومد رواقه على مملكتى الدنيا إذ ذاك ، ونشر لواءه فى شرق الأرض وغربها ، وأملى على التاريخ صفحات الخلود ، ومراسيم البطولة ، ووضع للانسانية قوانين الحق والعدل والرحمة فى ظل السلام .

هذه الصحائف الساطعة فى صدر التاريخ الاسلامى ، وهذا الانقلاب التاريخى فى حياة الأمة العربية ، وهذا الاتجاه الجديد فى حياة الشرق بل فى حياة الانسانية ، إنما هى صدى تأييد الأنصار لدعوة الاسلام ، أولئك الذين نصروا الله فى دينه ، ونصروا رسوله صلى الله عليه وسلم فى دعوته ، فسماهم الله بأشرف الأسماء ، وأنعم عليهم بأنبل الألقاب ، تخليدا لبطولتهم ، وإشادة بفضل أعمالهم ، وتشريفا لتاريخهم .

والحديث عن الأنصار طويل عريض لا تستوعبه المقالات ، ولا تستوفيه الصحائف ، وإنما هذه زهرات ننثرها فى حياتنا ليكون لنا من أريجها ما يحيي فينا روح البطولة الاسلامية والخصائص العربية ، وليكون لنا من التأمل فى مطاويها درس يعيد الينا ما فقدنا من مظاهر الرجولة التى ربى عليها الاسلام أسلافنا فسادوا وملكوا ناصية الدنيا باخلاقهم النبيلة ، وأعمالهم الجليلة .

اندفعت موجات القبائل العربية من جنوب الجزيرة العربية بعد سيل العرم الذى دمر مرافق حياتهم مهاجرين فى طلب العيش ، وتفرقوا فى أرجائها شرقا وغربا وشمالا ، وكانت قبيلة « الأزد » القحطانية إحدى هاتيك القبائل التى ارتحلت ، فأخذ بعضها طريقه الى ساحل الفرات ، حيث مد اللخميون طنب دويلتهم ، واستقر بهم النوى فى جوار الفرس ، وعاشوا عيشة استقرار وملك ونظام اجتماعى يتناسب مع بيئتهم ومكانتهم ، وجد بعضهم السير الى أقصى الشمال حيث ألقى رحاله فى مشارف الشام ، وأسسوا دويلة الغساسنة مصاقبة للروم .

لم يشأ أبناء « قيلة » : الأوس والخزرج من الأزديين — أن يتابعوا إخوانهم فى سيرهم ،

بل عرجوا فى طريقهم على « يثرب » حيث رأوا خصبا وحياة استقرارية تعتمد على الشئون الزراعية بما أسس فيها اليهود الذين نزحوا إليها بعد حوادث « بختنصر » من مزارع وحقول وبساتين ، ولم يضق الوطنيون من اليهود بهؤلاء القادمين ذرعا أول أمرهم ، بل رحبوا بهم وفتحوا لهم باب الحياة ، وأفسحوا لهم فى سبل العيش معهم ، لأنهم وجدوا منهم عمالا ذوى بصر بالحياة الزراعية التى يظهر أنهم كانوا على عهد بها وأنهم حذقوها ومرنوا عليها أيام مقامهم باليمن وجناتها ، فوسعوا لهم فى جوارهم ، وأدخلوهم معهم فى حياتهم إدخال التبعية ليفيدوا منهم ، ولكن العرب الذين لم يألفوا التبعية المطلقة والخضوع أبت عليهم نفوسهم الأبية أن يستمرءوا هذه الحياة ، وتطلعوا الى حياة تحفظ عليهم طبيعتهم الاستقلالية ، وتمكن سلطانهم فى أرض اتخذوها وطنا لهم ، وهى من صميم جزيرتهم ، ولم يكن هؤلاء اليهود الذين استعمروها إلا قوما غرباء نزحوا إليها فآوتهم ، ولاسيما أن القحطانيين قاطبة لا يرون لهم وشيجة تصل نسبهم بنسب اليهود كتلك القرابة التى تجمع بين العدنانيين وبينهم ، فانهم لم يكد يشتد ساعدهم ويتوطد مقامهم وتعود اليهم طمأنينتهم ويتعرفوا شئون الحياة فى موطنهم الجديد حتى أخذوا فى بناء كيانهم الاستقلالى الى جانب اليهود ، وشاركوهم مشاركة المساواة فى حياتهم « اليثربية » وصارت لهم كما لليهود رءوس أموال ومزارع ، ومن ثم دبت ثعابين الفتن تزحف بينهم نافثة سمومها ، فاليهود كبر عليهم أن يكون لقوم طارئين هذا المركز فى بلدتهم وزراعتهم ، وخشوا على مستقبلهم الاقتصادى ان يتهدم صرحه ؛ وأبناء «قيلة » من العرب رأوا أن اليهود يريدون استعبادهم والتعالى عليهم ، فانقلبت علاقاتهم الى خصومات دائمة تطاير شررها فى مواقف عديدة ، وجعلت « الأوس والخزرج » يدا واحدة على اعدائهم الذين قلبوا لهم ظهر المجن ، وأظهروا لهم الكراهية ، وأضمروا بهم الوقيعة .

كان التضامن العربى قوة لا تغلب ، وأدرك اليهود أثر تلك القوة فى نضالهم ، فعمدوا الى الكيد والفتنة وسياسة التفريق ، وسعوا بين الاخوة لافساد أخوتهم وتفريق جماعتهم حتى احتربوا وقتل بعضهم بعضا ، واليهود دائبون فى إذكاء نيران الضغينة بينهم ، ولهم من طبيعة العرب العامة ما ساعدهم على الوصول الى مقاصدهم ، ومكن العداوة فى قلوب القبيلتين ، وكانت لهم حروب طاحنة وأيام مهلكة ، أدرك الاسلام منها ، وهو لا يزال وليدا يحبو بين المسجد الحرام وغار حراء ، أقساها وأشدها هولا ، وأشهرها يوم « بعاث » وهو يوم تقول فيه السيدة عائشة رضى الله عنها فى رواية البخارى : « كان يوم بعاث يوما قدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد افترق ملؤهم ، وقتلت سرواتهم ، وجرحوا ، فقدمه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فى دخولهم فى الاسلام» . وكان الظفر فيه أول الأمر للخزرج على الأوس ، وكان قائد الأوس وزعيمها يومئذ « حضير الكتائب » فلما رأى هزيمة قومه عقر نفسه برمحه ، وأقسم لا يبرح مكانه حتى يخلصه قومه

أو يقتل ، فكر الأوس راجعين للموت دون قائدهم وزعيمهم ، ونضح العار عنهم ، فحمى الوطيس بين الفريقين ، فكانت الدائرة على الخزرج ، وكان النصر للأوس ، وراح «حضير» يشفى غلته يحرق ويقتل ويهدم ليستأصل شأفة بنى عمومته ، فمنعه أبو قيس بن الأسلت بدافع العصبية العامة ، ملتفتا الى ماضيهم مع اليهود ، وما كان بينهم من العداوة وسوء الجوار ، طالبا الابقاء على إخوانه الخزارجة ، لأن « جوارهم خير من جوار الثعالب » .

جاء الاسلام وليس بين قوم من العداوة والشر ما بين « اليثربيين » من العرب ، ولم يكن لديهم نبأ بما يجرى فى مكة من نضال شديد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من أفراد المؤمنين القلائل الذين يعتمدون على قوة العقيدة وسلطان الايمان بالله القوى القاهر وجلال الحق ، وبين كثرة قريش التى تجمعت بقضها وقضيضها معتزة بجبروت العصبية وكبريائها ، وعنجهية الماضى الموروث ، وصلف الزعامة التى لها بمكة ، ولليثربيين بمكة مآرب وشعائر كغيرهم من قبائل العرب ، فهم يحجون اليها لأداء تلك الشعائر وقضاء هذه المآرب ، وهم يتميزون عن بقية العرب بأنهم حضريون ، جاوروا اليهود وسمعوا أحاديثهم الدينية ، وكان أن قدم جماعة منهم مكة فيهم « سويد بن الصامت » وكان رجلا نبيلا عاقلا ، ترامت اليه بعض ثمرات الأفكار الانسانية الحكيمة ، تلقفها فى رحلاته أو عثر عليها بما شاء الله ، فرددها لسانه وحفظها قلبه وكتبها فى صحيفة جعلها سميره ، فلقيه النبى صلى الله عليه وسلم بمكة وهو يتحسس قلبا نابضا بالحياة ليلقى فيه كلمة الله التى أمره بتبليغها الى الأحمر والأسود ، ودعاه الى الاسلام ، فقال « سويد » : لعل الذى معك مثل الذى معى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : وما الذى معك ؟ قال « سويد » : معى مجلة لقمان ، فأصغى اليه النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسمعه منها شيئا ، فقال المصطفى عليه الصلاة والسلام : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل ، وهو قرآن أنزله الله على هدى ونوراً . وأسمعه بعض آيات من الكتاب الحكيم . فاستحسن « سويد » ما سمع ، ولكنه لم يجب ، وذهب وفى نفسه أشياء تضطرب ، فلا بد أن يكون قد ساءل نفسه : ما هذا الذى أسمعنيه هذا المكى القرشى ؟ وما بال قومه انصرفوا عنه ؟ وما هذه الأصنام التى نقيم على عبادتها وهى أحجار نحتها بأيدينا ؟ وما هذه الصحيفة التى أحمل ثقلها ؟ وهل ما فيها من الحكم يقوم على نظام الحياة العام ؟ وهل يصح أن يكون دستورا إنسانيا ، فأين أثره إذاً وبين قومى أودية من الدماء ؟

من الطبيعى أن يكون « سويد » قد ساءل نفسه نحو هذا التساؤل ، ومن الطبيعى أن يكون قد فكر فى هذا الكون وعظمته وما يجب أن يكون لخالقه من جلال وتقديس ، ومن الطبيعى أن يكون قد ألقى الى بعض أخصائه نبأ هذا اللقاء العجيب ، ومن الطبيعى أن يكون قد وجد ترابط فى نفسه ، وفى نفس من عسى أن يكون قد حدثه ، بين صاحب

هذه الدعوة الكريمة ، او بين ما كان يخوفهم به اليهود من بعث نبي يدعو الى التوحيد الذى هو أصل ديانة اليهود ، فيشايعهم ويقتل الوثنيين ، ولكن « سويدا » لم يطل مقامه على الأرض بعد هذا اللقاء ، فقتلته الخزرج فيمن قتلت من رجالات الأوس يوم بعاث ، وإن يكن فى أكبر الظن قد خلف بعض هذا الاضطراب الذى كان فى نفسه وراءه بين أفراد من قومه ، ولعل فى هذا تعليلا لسبق « إياس بن معاذ » أحد شباب الأوس قوم سويد بن الصامت الى الاسلام ، وكان إياس قد ذهب الى مكة فى وفد « أبي الحيسر » لعقد حلف مع قريش على محاربة الخزرج استعداداً ليوم بعاث ، فاجتمع بهم النبي صلى الله عليه وسلم بمكة ودعاهم الى الاسلام ، وأسمعهم القرآن الحكيم ، فابتدر إياس القوم وكان أصغرهم : أى قوم ! هذا والله خير مما جئتم فيه ، فنهنهه إخوانه ، ولكن الايمان كان أسرع الى قلبه من انحدار السيل الى بطون الأودية ، وعاد مع قومه مسلما يحمل نبأ الدعوة الاسلامية الى « يثرب » المتطاحنة بأوفى وأرضى مما حمل إليها « سويد بن الصامت » .

ونظرة فى قصة سويد تدلنا على أثر التهذيب الفكرى ووداعة الحضر عنده ، وتدلنا على ما انطوت عليه نفس النبي صلى الله عليه وسلم من سمو فى أدب الدعوة الى الله تعالى ، وتقدير للحكمة والحق أنى وجدا ، فهو قد استمع الى سويد يعرض عليه حكمة لقمان ، وقد استحسن ما سمع ، وقد استطاع بذلك أن ينفذ الى قلب سويد ، وأن يبلغه دعوة الاسلام فى هدوء واطمئنان ، وسويد وإن لم يجب صراحة لكنه تأثر بهذه الدعوة ، وعاد الى بلدته وقومه بهذا التأثر، وعرف اليثربيون نبأ مكة ، وتسمعوا له ، وتحدثوا به همسا ، وكان يغلبهم عليه ماهم فيه من حروب طاحنة أنضت قواهم ، وأشمتت فيهم عدوهم ، وجعلتهم يتطلعون الى ما يعيد إليهم وحدتهم ويجمع كلمتهم ، فاتفقوا على أن يعصبوا «عبد الله بن أبى» وقد أظلهم موسم الحج ، فوفدوا الى مكة ، واجتمع النبي صلى الله عليه وسلم بنفر منهم كانوا من الخزرج ، ودعاهم الى الاسلام ، فذكروا حديث اليهود عن نبي يبعث ، وذكروا همس سويد بن الصامت بشأن لقائه هذا الداعى الكريم بمكة ، وذكروا شأن غلام بنى الأشهل « إياس بن معاذ » فلم يترددوا فى إجابة النبي صلى الله عليه وسلم الى دعوته ، وأسلموا جميعا ، وفتحوا أمام الاسلام باب الحياة بعيدا عن مكة وعصبياتها حتى تخضد شوكتها ، فقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك ، وإن يجمعهم عليك فلا رجل أعز منك ؟

(للبحث بقية) صادق ابراهيم عرجون

محمد صلى الله عليه وسلم

فى تقدير قادة الرأى فى أوربا (١)

نرانا مضطرين للتحول إلى موضوع آخر من هـذا البحث ، فليس لدينا وقت للتبسط فى مسألة انقسام المسلمين الى سنيين وشيعة ، ولا فى مسالة الامامية . هـذه مواضيع مفيدة بغير مشاحة ، ولـكنى مجبرة على إغفالها لضيق الوقت .

بعـد أن عرضنا للناحية الظاهرية من الديانة الاسلامية بقى علينا أن نعرض لناحيتها الفلسفية :

إن فى العالم الاسلامى الراهن أشياء كثيرة يجب إغفالهـا ، ولـكن لاتوجد عبارات مهما كانت بليغة توفى ببيان ما كان عليه الاسلام أيام عظمته الفكرية .

قال رسول الاسلام فى إحـدى خطبه : « اطلبوا العـلم فان الذى يطلبه لله يؤدى عملا من أعمال البر ، فالتـكلم فيه تسبيح ، والبحث فيه عبادة ، ونشره بين الناس صدقة ، ومنحه لمستحقه قربى من الله . فان العـلم يجعل صاحبه يميز بين ماهومنهى عنه وماهو مرغب فيه ، ويضىء له طريقا للوصول الى الله ، وهو رفيقنا فى السفر ، وأنيسنا فى الوحـدة ، وصديقنا إذا حرمنا الأصدقاء . وإنه ليرشدنا الى السعادة ، ويقوينا على احتمال المصيبة ، وهوحليتنا ونحن بين أصدقائنا ، وسلاحنا ضد أعدائنا ، به يرتفع العبد الى مستوى الاحسان ، والى أشرف مكان ، فيشارك الملوك فى عليائهم فى هذه الحياة ، ويصل الى غاية الـكمال فى أخراه »

وإن للنبى لـكلمة قدبلغت الغاية فى التأثير ، والنهاية فى السمو ، ألا وهى قوله : « إن مداد العالم أعلى قيمة من دم الشهيد » وهذا تصريح لم يـكن منتظرا من رسول استشهد الـكثيرون من الرجال فى سبيله ، ولـكنه فى الوقت نفسه حق الى أبعد حد .

ولقد تجلى على على ، حبيب رسول الله وربيبه ، مذهب الاسلام ، ونبع منه علمه الفياض . فقد كان يعـلم أصحابه فى معمعان المعارك والمـكافحات ، وكان يقف ليعلم الشبان ، وينصحهم بان يدرسوا ، وبأن يكونوا أئمة للعلم قبل كل شىء . وقد أعطانا المسلمون تعريفا عن العلم يجب أن نذكره هنا وهو : « العلم نور القلب وجوهره ، الحقيقة غرضه وغايته ، والالهام دليله ومرشده ، والعـقل مستقره ومهبطه ، والله موحيه وملهمه ، والـكلمات الانسانيـة أداته وآلته » .

---

(١) تابع لما ترجم قبل هـذا فى الاعداد السابقة من كتاب فى تاريخ الاديان المنتشرة فى الهنـد لزعيمة التيوصوفية العالمية .

لا يوجد فى التعاريف العلمية التى خرجت من بين شفتى البشر . ما هو اجل من هذا التعريف ، لقد مرت مائة عام كان تلاميذ على يدرسون فيها العلم وينقبون عن مصادره ، بينما النصف الآخر من المسلمين يناخون عن الاسلام ويفتتحون الأقطار . بعد هذه المائة السنة من الدرس والاطلاع فى جو من السلام ، ابتدأت ثمراتهم تظهر وأى ثمرات ! من القرن الثامن الى القرن الرابع عشر كانت يد ابن الاسلام تقبض على شعلة العلم والمعرفة . وأينما انتقل المسلمون نقلوا علمهم معهم . ولقد كانوا يفتحون الممالك ، ولكنهم كانوا فى كل قطر فتحوه يؤسسون المدارس ، ويشيدون الجامعات . فأقاموها فى مصر وبغداد وقرطبة فى أقصى غرب إسبانيا استهداء بروح الرسول . وكان أهل أوربا المسيحية يتدفقون على الأندلس ليأخذوا عن علماء المسلمين أصول العلم الذى أهملوه ونسوه . فقد قاموا بتدريس علم الفلك ، وترجموا كتاب السدذانتا الهندى وكتبا أخرى ، ووضعوا التأليفات فى الفلك والكيمياء والرياضيات. وقد تلقى البابا سيلفستر الثانى العلوم الرياضية فى جامعة قرطبة فى شبيبته ، وهو الذى تولى البابوية ، واتهم للسبب المتقدم بانه مبتدع وأنه ابن الشيطان .

وقد اخترع المسلمون مالم يكن موجودا ، وأى شىء لم يكونوا هم مخترعيه ؟ أخذوا الرياضيات عن الهنود واليونانيين ، فاكتشفوا المعادلات ذوات الدرجة الثانية ، ثم ذوات الدرجة الرابعة ، ثم نظرية المعادلة ذات الحدين ، وأطبقوا فى علم حساب المثلثات السينوس والكوزينوس. وقد كانوا أول من اكتشف علم حساب المثلثات الكروى . واخترعوا المنظار المعظم (التلسكوب) ورصدوا به الكواكب ، وحسبوا أبعاد الأرض ولم يخطئوا إلا فى درجة أو درجتين ، وكان ذلك منهم بواسطة الاقيسة المأخوذة على سواحل البحر الأحمر ، فماذا كان هؤلاء الرجال الذين درجوا من عرين الاسلام ؟ لقد أسسوا علما جديدا لفن العمارة ، واكتشفوا موسيقى غير التى كانت موجودة ، وقاموا بتدريس الفلاحة العلمية ، ورفعوا الفنون الصناعية الى أعلى ما يمكن أن تصل اليه . فهل هذا كل ما عملوه ؟

لا ، فقد بلغوا فى الفلسفة الى شأو أبعد من ذاك الشأو ، فانهم فى مجالها قد انغمسوا فى خضم الكائن الأعلى ، فأعلنوا وجود الواحد المطلق وعلاقات الانسان به وحده ، وقرروا استمداد الروح البشرية من روح الخالق . وعالجوا الكلام عن الفضاء وعن الزمان . وقد وصل المسلمون بسمو استعدادهم العقلى من علم ما وراء الطبيعة ، الى اكتشاف أعجب الحقائق الفلسفية ، أى الى (الفيدانتا) الخالصة يا إخوانى الهنود ، لأن كل علم ينتهى اليه . وفى هذا المجال يعلو اسم ابن سينا وابن رشد على جميع الأسماء الأخر .

على هذا النحو تفجرت ينابيع العلم فى مدى ستة قرون متوالية بتأثير النبى وتعاليمه . فاذا أراد اليوم إخوانى المسلمون أن يقتفوا آثار آبائهم العظام ، وأن يترجموا ماتركوه

من ثروتهم العلمية الى اللغات الأجنبية ، وأن يلقنوها لأبنائهم (وهم لا يفعلون شيئا من ذلك) وأن يربوهم على مبادئ فلسفتهم (وهم لا يهتمون اليوم بها) ، لو فعلوا كل ذلك رفعوا اسم الاسلام الى أعلى مكان بين جميع فلسفات العالم . وكل رجل متعلم فى أبناء الاسلام يجب أن يتضلع من الفلسفة الاسلامية ، كما يعرف الهندى (فيدانتاه) ، ويجب أن يكون قادرا على تبرير نبيه فى نظر العالم العقلى بأسره .

قلت إن لكل ديانة حصة خاصة من العلم الباطنى ، وللاسلام كذلك حصة منه . ولقد كان على فى طليعة هذا العلم لمن أخذ عنه ، وهؤلاء قاموا بنشره بين الناس .

فى السنة التى هاجر فيها النبى من مكة تبعه خمسة وأربعون رجلا من الفقراء ، اجتمعوا لاتباع أوامر الله وسنة رسوله ، وتآلفوا للحياة مجتمعين يعملون بالتعاليم الروحية . فهؤلاء كانوا أصلا للصوفية ، ومظهرا للناحية الباطنية من الاسلام . ولقد كان شعار صوفية المسلمين «كل من عند الله » ، وكان مذهبهم أن لا شىء خارج عن مدد الله ، وأن الكون كله ليس إلا مرآة ترتسم عليها قدرة الله ، وأنه يوجد جمال مطلق ، وأن كل ما هو جميل فى هذا العالم ليس فى حقيقته غير شعاع من هذا الجمال المطلق ، وأنه لا يوجد غير حب واحد هو حب الله ، وكل حب آخر ليس إلا جزءا من هذا الحب العام ، وأن الموجود بحق هو الله وكل ماسواه عدم محض ، وأن الانسان وهو نفحة من روح الله يستطيع بواسطة السمو الروحانى أن يرتفع من درجة العدم المحض الى درجة الوجود ويعود الى الله . ألا فأصغوا الى لأسمعكم كيف تغنى المسلمون بحب الله ، وانظروا أية عبقة من التقوى تنبعث من الشعر الفارسى فى الاسلام .

قال جامى الصوفى الفارسى فى شعره :

أنت الموجود المطلق ، وكل ما عداك خيال .

لأن جميع الكائنات فى العالم ليسوا إلا شيئا واحدا .

وجمالك الذى تيم العالم أجمع ، وأجهد الناس أنفسهم لاماطة اللثام عن إبداعه ، يظهر مطبوعا على آلاف من المرايا ، ولكنه فى حقيقته واحد غير متعدد .

وبما أن جمالك يشرق على كل ماهو جميل ، فان الذى تيم القلوب فى الواقع هو جمالك أنت ولا شىء معه .

اللاوجود هو مرآة الوجود المطلق .

وهناك تظهر فكرة عظمة الله وجلاله .

ومتى قوبل اللاوجود بالوجود تنشأ فى الانسان فكرة عنهما .

وتظهر وحدة أحدهما فى خلال كثرة الآخر .

وتصبح إذا عددت الواحد وجدته متعددا .
والعد وإن كان أساسه الواحد فانه مع ذلك ليس له آخر .
فيصير اللاوجود فى ذلك الحين واضحا ، ومن هنا يصير الكنز المخفى ظاهرا .
فردد الآن ما جاء فى الأثر « كنت كنزا مخفيا »
لتدرك أنك تستطيع أن تتأمل هذا السر المكتوم واضحا ؟

محمد فريد وجدى

شبيه الشىء منجذب اليه

قال صلى الله عليه وسلم : « الصاحب رقعة فى الثوب ، فلينظر الانسان بم يرقع ثوبه »
وقال عليه الصلاة والسلام : « امتحنوا الناس باخوانهم »
وقال الشاعر :

فاعتبروا الأرض بسكانها … واعتبروا الصاحب بالصاحب

وقالوا : كل إلف الى إلفه ينزع . وقد نظمه شاعر فقال :

والالف ينزع نحو الآلفين كما … طير السماء على آلافها تقع

وقال آخر :

إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم … ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه … فكل قرين بالمقارن يقتدى

وقال آخر :

اصحب ذوى الفضل وأهل الدين … فالمرء منسوب الى القرين

وقال شاعر :

إن النفوس لأجناد مجندة … بالاذن من ربنا تجرى وتختلف
فما تعارف منها فهو مؤتلف … وما تناكر منها فهو مختلف

وقال امرىء القيس :

أجارتنا أنا غريبان هاهنا … وكل غريب للغريب نسيب

الاخلاق الفلسفية

— ٢ —

أشرنا فى الكلمة السابقة الى ما للديانات الوضعية من أثر على النفوس البشرية ، وأبنا ما أدته تلك الديانات — على بطلانها — الى الانسانية من أيد بيضاء فى الرقى الأخلاقى والعمرانى ، ووعدنا بأن نعرض فى هذه الكلمة للديانات السماوية ، وأن نبين فضلها الأكبر على البشرية التى أنقذتها من هوى الرذيلة ، وصعدت بها الى حيث هى الآن من عليا الدرجات اللائقة بكرامتها والمميزة لها عن بقية الكائنات ، وقلنا أيضا : إننا سنتناول فى هذه الكلمة آراء العلماء المحدثين الأوربيين واختلافاتهم الكثيرة حول نظرية « وجوب تأسيس الأخلاق على الدين أو فصلها عنه » وما يدلى به كل من الفريقين فى هذا الشأن من حجج وبراهين تؤيده فيما ذهب إليه . وها نحن أولاء نوفى لك بوعدنا فنقول :

رأى الفريق الأول :

ترى هذه الشعبة من الأخلاقيين وجوب تأسيس الأخلاق على الدين ، وتعتقد ان هذه هى الوسيلة المثلى لحماية الفضيلة ورعايتها ، وتصرح تصريحا قاطعا بأن أية وسيلة أخرى غير هذه الوسيلة ستظل ضئيلة الفائدة ، قليلة الغناء . وحجتها فى ذلك ما يأتى :

نحن نعلم جميعا أن أسس الأخلاق الدينية مرتكزة على الوحى الالهى الى الأنبياء عليهم السلام ، ونعلم أن الله أوحى إليهم أنه سبحانه أصل الخيرات والمعارف ، وأنبأهم بالعنصر الذى خلقهم منه ، وبطبيعتهم التى كانوا يجهلونها ، وبمصيرهم العام ، وبواجبهم الذى لا ينبغى أن يحيدوا عنه قيد أنملة لو أنهم ساروا على النسق الذى يحبه لهم . وأوحى اليهم كذلك أن عقل الانسان ضعيف ومحدود ، وأنه فى حاجة الى المرشد الأعلى ، ليهديه الى سواء السبيل ، وأن مصلحته الخاصة تقضى عليه بأن يطيع ربه مقتنعا بانه تعالى لا يامر إلا بالخير ، ولا يحض إلا على الفضيلة ، وأن هذه الحياة الدنيا ليست إلا قنطرة يعبر عليها الانسان الى الحياة الخالدة ، وأن حظه لا ينتهى عند هذا الأجل الدنيوى القصير ، بل سيتصل بما قدر له فى العالم الآخر الذى سيلاقى فيه جزاء عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وتمتاز الأخلاق الدينية بأنها مؤسسة على حب الله وإطاعة كل أوامره ، ثم على حب المؤمنين الى حد تسويتهم بالنفس : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

ولا ريب أنه إذا أحب الانسان خالقه وأطاع أوامره ، وأحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فقد وصل الى أرقى درجات الكمال .

هناك فضل آخر قد سكبه نور الأخلاق الدينية على بنى الانسان ، وهو أنه ربط وجداناتهم وضمائرهم بالعروة الوثقى التى لا تنفصم ولا تنحل ، وهى عروة الايمان .

أما من الناحية العلمية البحتة ، فان الحقيقة الدينية هى وحدها الحقيقة العليا أو المطلقة . وأما ماعداها ، فهى حقائق نسبية تتصل بتلك الحقيقة الأبدية من قريب أو من بعيد .

وأما أولئك الذين يزعمون أن الدين والعلم متعاديان ، فهم واهمون أو سطحيون ، لأن العقل — وهو الموئل الأعلى للعلم — لم يخرج عن كونه هبة من صاحب الدين .

وإذاً ، فينبغى أن يمتزج الدين بكل أفكار الانسان وأعماله فى هذه الحياة ، لأن موضوع الأخلاق هو دراسة صلات بنى الانسان بعضهم ببعض . ولا يمكن أن ينظم هذه الصلات تنظيما محكما غير البارى الأعلى فى قانونه الخالد ، وهو الدين ، ولأن واجب الانسان نحو أسرته ومواطنيه ونحو أفراد الانسانية جميعا منبجس من منبع واحد وهو واجب الانسان نحو ربه : « من اتقى الله اتقى الناس » .

والواقع المحسوس الذى نشاهده كل آن فى الحياة العملية هو أن الانسان ضعيف عاجز أمام أهوائه وشهواته وغرائزه الحيوانية ، وأنه فى أشد الحاجة الى معونة صوت الايمان ، ليقوده فى هذه الظلمة المخيفة التى تحوطه من كل جانب ، وهذا أمر طبيعى لا غرابة فيه ، إذ من ذا الذى يستطيع أن يقود الوجدان البشرى إلا تلك القوة العليا التى تحيط بكل شىء ، وتستطيع كل شىء ؟ ثم أى جزاء هو أكثر رهبة فى نظر الروح الخالدة من جزاء الله الأبدى الذى سيلتقى بها فى حياة طويلة لا يدرك مداها ، ولا يعرف منتهاها ؟ وأى عزاء يسلى عن أحزان الحياة وآلامها أعلى من التفكير فى عدالة الله التى ستوفى الصابرين أجرهم بغير حساب ؟

هذا كله بالنسبة الى أثر الدين على الفرد ، وأما أثره على الجماعات ، فهو لا يقل أهمية عما تقدم ، إذ من ذا الذى يستطيع أن يفهمنا احترام الأنظمة المقررة ومعنى الفضيلة العائلية والاذعان للسلطات الشرعية ، ويعودنا على الصبر واحتمال الآلام وتخفيف وقع منظر الفروق الهائلة بين شقائنا وسعادة غيرنا على نفوسنا أكثر من الدين ؟

وفى الحق أن حكومة تشعر بأن عليها واجبا تؤديه لأفراد الشعب لا تستطيع أن تؤسس تعاليمها الأخلاقية منفصلة عن الدين ، بل يجب عليها أن تشركه على الأقل فى تأسيس هذه الأخلاق إن لم تعتمد عليه اعتمادا كليا ، وأن تفسح له مكانا عظيما فى مدارسها ومعاهدها ومنتدياتها ، ليستطيع أن يؤدى مهمته فى تهذيب النفوس كما ينبغى ، لأننا جميعا نعمل على صيانة القوانين الوضعية ، ونسهر على احترامها وحفظها من عبث العابثين ، بل إنها تصل من نفوسنا احيانا الى مرتبة الاجلال والتقديس ، فاذا دوت فى المكان هذه الجملة : « باسم القانون أعمل

كذا » عند ذلك تخفق القلوب ، وتهلع النفوس ، وتنحنى الرءوس ، وتسود المجلس الرهبة ويخيم عليه السكون .

ولا ريب أننا لم نخلع على القانون هـذه القداسة إلا لأنه يقر الأمن ، ويصون الحقوق وينشر السلام والاطمئنان ، ولـكن من يدقق النظر فى أحوال الأمم وظواهرها الاجتماعية ، وخصائصها النفسية ، يتضح له تمام الاتضاح أن الممتنعين عن الجرائم منهم عشرة فى المائة متأثرون بالأخلاق فى ذاتها ، وعشرون يخشون القانون ، وسبعون يتجنبون الرذائل اتقاء لله وخوفا من عقابه الذى هم موقنون بأنه أشد وأقسى وأطول مدى من عقوبات القوانين الوضعية ، فاذا كان الدين قد نال من النفوس البشرية هذا المنال الذى لم يفز القانون بنصفه ولا بثلثه ، فيجب علينا كوطنيين مخلصين لبلادنا راغبين فى صلاح أحوالها الاجتماعية أن ننمى فى نفوس الجماهير هذه العقيدة النبيلة ما دام لها على أخلاقهم هذا الأثر الجليل

ومن أهم وسائل تنمية الدين فى النفوس دراسته فى مدارس الدولة على اختلاف أنواعها ، وفى جميع مراحل التعليم فيها ، ولـكن بهيئة تتلاءم مع تطور عقول الطلاب ، وتتوافق مع نشوء أفكارهم ورقيها ، فيدرس مثلا فى المدارس الأولية فى ثوب بسيط سهل بعيد كل البعد عن التعقد والتركيب ، كأن يعلم الطفل أن هناك إلها عظيما جليلا ، وهو الذى خلق كل هذه العوالم ، وهو لا يشاهد ولا يقـع تحت الحس ، وهو خـير وعادل ومحب للأخلاق السامية كالصدق والأمانة ، والحلم والحياء ، ومبغض لأضداد هذه الصفات من: كذب وخيانة ، وغضب ووقاحة ، وأن أول واجب علينا هو الاعتقاد بوجوده ثم العمل على إرضائه .

وفى المدارس الابتدائية يعلم التلميذ أن هـذا الاله القادر اتصل فى كثير من الأزمان المختلفة بقوم من البشر قد اختارهم من بين الناس لميزات قد خلقها فيهم ، فأوحى اليهم أن يقوموا على الأرض بتبليغ أوامره الى الناس ، وأن هذه الأوامر هى اتباع الخير الذى يوصلهم الى السعادة ، واجتناب الشر الذى يقودهم الى الشقاء ، ثم يجب على المعلم فى هذه المرحلة أن يغرس فى نفوس النشء أن هناك حياة أخرى وراء هذه الحياة ، وهى التى تفرق بين الانسان والحيوان ، والتى يلقى فيها كل شخص جزاء عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، فاذا انتقل الناشىء الى مرحلة التعليم الثانوى ثم العالى ، وجب على الأستاذ أن يتبسط معه فى نظريات الدين ، وأن يقوم أمامه بدور مناقشة البراهين ، ومناقضة الأدلة ، وتحليل العلل والبواعث والأسباب .

فاذا درس الناشىء الدين على هذا النحو المؤسس على التعقل والتفكير ، وشب على احترامه وتقديسه ، كان له على أخلاقه العملية أثر لا يجحده إلا من أوتى من الجرأة على تشويه الحقائق حظا يمكنه من إنـكار البديهيات .

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

٢ - أعلام القرآن

آدم (١)

أصل الاسم واشتقاقه — أولية آدم على الأرض — استخلافه فى الأرض — تعليمه الأسماء
آدم والملائكة وابليس — اسكانه الجنة واخراجه منها — الجنة ومظاهرها
نبوته ورسالته — وفاته

١ — أصل الاسم واشتقاقه :

للعلماء فى لفظ آدم مذهبان : مذهب يقول: إنه أعجمى ، وهوعند أهل الكتاب « آدام » باشباع فتحة الدال ، بوزن خاتام ، ووزنه فاعال ، وامتنع صرفه للعجمة والعلمية ، وهومأخوذ من لفظة « آداما » العبرانية ، ومعناها الأرض ، إشارة الى الأصل الذى أخذ منه ، قال الثعلبى : التراب بالعبرانية آدام ، فسمى به آدم ، وحذفت الألف الثانية . وقال صاحب الكشاف : وما آدم إلا اسم أعجمى ، وأقرب أمره أن يكون على فاعل (بفتح العين) كآزر وعابر وشالخ وفالغ وأشباه ذلك .

والمذهب الثانى يقول : إنه عربى ، ونسب الجزم به إلى الجوهرى والجواليقى ، واختلف فى اشتقاقه ، فقيل : هو مشتق من أدمة الأرض وأديمها وهو وجهها . وقيل : إنه مشتق من الأدمة وهى السمرة . وقيل : هى البياض ، وأن آدم عليه السلام كان أبيض . وأصله أأدم بهمزتين على وزن أفعل ، فأبدلت الثانية ألفا لسكونها بعد فتحة ، ومنع صرفه للعلمية ووزن الفعل ، ويجمع على أدم وأوادم ، كحمر وأحامر .

وقال الراغب الاصفهانى : قيل سمى بذلك لكون جسده من أديم الأرض ، وقيل لسمرة فى لونه . يقال : رجل آدم نحو أسمر ، وقيل سمى بذلك لكونه من عناصر مختلفة وقوى متفرقة ، كما قال تعالى : « أمشاج نبتليه » ويقال جعلت فلانا أدمة أهلى ، أى خلطته بهم ، وقيل سمى بذلك لما طيب به من الروح المنفوخ فيه المذكور فى قوله « ونفخت فيه من روحى » وجعل له به العقل والفهم والروية التى فضل بها على غيره ، كما قال تعالى : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » وذلك من قولهم : الادام ، وهو ما يطيب به الطعام اهـ

---

(١) من قوله تعالى : « وعلم آدم الاسماء كلها » سورة البقرة — آية ٣١

وآدم عليه السلام يكنى أبا البشر ، وقيل أبا محمد ، وكنى بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقيل : كنيته فى الجنة أبو محمد ، وفى الأرض أبو البشر .

وذكر ابن سعد فى الطبقات أنه سمى إنسانا ، لأنه نسى .

٢ — أولية آدم على الأرض :

ليس هناك خلاف يعتد به على أن الأرض كان يعمرها قبل آدم خلق آخر ، ولكن محل الخلاف ومبعث التشتت فى الآراء والأقوال هو تحديد هذا الخلق وتعيين نوعه ، فبعض المفسرين يروى أنه كان فى الأرض قبل آدم خلق يسمون الحن والبن ، أو الطم والرم ، وأكثر المفسرين على أن الخلق الذين كانوا فى الأرض قبل آدم مباشرة كانوا يسمون الجن ، وقالوا إن هؤلاء قد أفسدوا فى الأرض ، وسفكوا الدماء ، فأرسل الله تعالى إليهم إبليس فى جند من الملائكة فحاربهم وفرقهم فى الجزائر والبحار . وذهب بعضهم الى أن لفظ « خليفة » الوارد فى قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » يشعر بأنه كان فى الأرض صنف أو أكثر من نوع الحيوان الناطق ، وأنه انقرض ، وأن هذا الصنف الجديد الذى أخبر الله الملائكة بان سيجعله خليفة فى الأرض ، سيحل محله ويخلفه .

ونسب صاحب تفسير المنار الى الشيخ محمد عبده تعليقا على هذا الرأى قال فيه : « وإذا صح هذا القول ، فليس آدم أول الصنف العاقل من الحيوان على هذه الأرض ، وإنما كان أول طائفة جديدة من الحيوان الناطق ، تماثل الطائفة أو الطوائف البائدة منه فى الذات والمادة ، وتخالفها فى بعض الأخلاق والسجايا .

ثم علق صاحب التفسير على هذا بقوله : هذا أحسن ما يجلى فيه هذا المذهب ، وأكثر ما قالوه فيه قد سرى الى المسلمين من أساطير الفرس وخرافاتهم ... الى أن يقول : ولكن تقاليد الأمم الموروثة فى هذه المسألة تنبىء بأمر ذى بال ، وهى متفقة فيه بالاجمال ، ألا وهو ما قلناه من أن آدم ليس أول الأحياء العاقلة التى سكنت الأرض اهـ

ونقل عن الامامية والصوفية أنه كان قبل آدم المعروف أوادم كثيرون ، قال فى روح المعانى : وذكر صاحب جامع الأخبار من الامامية فى الفصل الخامس عشر خبرا طويلا نقل فيه أن الله تعالى خلق قبل أبينا آدم ثلاثين آدم ، بين كل آدم وآدم ألف سنة ، وأن الدنيا بقيت خرابا بعدهم خمسين ألف سنة ، ثم عمرت خمسين ألف سنة ، ثم خلق أبونا آدم عليه السلام. وروى ابن بابويه فى كتاب التوحيد عن الصادق فى حديث طويل أيضا أنه قال : لعلك ترى أن الله لم يخلق بشرا غيركم ، بلى والله لقد خلق ألف ألف آدم ، أنتم فى آخر أولئك الآدميين . وقال الميثم فى شرحه الكبير للنهج : ونقل عن محمد بن على الباقر أنه قال : قد انقضى قبل آدم

الذى هو أبونا ألف ألف آدم أو أ كثر . وذكر الشيخ الأكبر قدس سره فى فتوحاته مايقتضى بظاهره أن قبل آدم باربعين ألف سنة آدم غيره. وفى كتاب الخصائص ما يكاد يفهم منه التعدد أيضا ، حيث روى فيه عن الصادق أنه قال : إن لله تعالى اثنى عشر الف عالم ، كل عالم منهم أ كبر من سبع سموات وسبع أرضين ، ما يرى عالم منهم أن لله عز وجل عالما غيرهم اه .

والأخذ بظواهر هذه الأخبار مما لا يراه الجماعة من الفقهاء والمحـدثين ومن وافقهم ، فهم يقولون إنه ليس سوى آدم واحد هو أبو البشر ، وإنه مسبوق بخلق آخرين كالملائـكة والجن ، وكثير من الحيوانات وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى ، لا بخلق أمثاله ، وقد غالى بعضهم فى التعصب لهذا الرأى فصرح بكفر من يعتقد التعدد .

وكان اليونان القدماء وغيرهم من الأمم كالبربر المحدقين بالامبراطورية الرومانية نحو القرن الخامس ، والتتر وشعوب الاوقيانوس الباسيفيكى يعتقدون أن أصل البشر ليس واحدا .

وبعض الذين يذهبون الى أن آدم ليس أول نوعه فى الوجـود على الأرض وأنه مسبوق باوادم آخرين ، يؤيدون مذهبهم هذا فيما يؤيدونه به ، بما ذهب اليه بعض الفلاسفة فى الرد على الاعتقاديين القائلين بخلق آدم قبل نحو ستة آلاف سنة ، من أن ستين قـرنا لا تـكفى لاختلاف النوع الانسانى فيما بينه هذا الاختلاف البين فى اللغات والأديان والأجسام ، فلا بد من فرض وجود الانسان قبل ذلك بعشرات ألوف من السنين ، حتى تـكون كافية لاحداث كل ذلك التخالف الجسمانى الحاصل بين الأمم المشتقة من أبوين اثنين ، كما يؤيدون مذهبهم أيضا بما يعتمد عليه علم الجيولوجيا فى تحديد تاريخ وجود أول إنسان على الأرض من حساب المدة اللازمة لتكوين الطبقة الأرضية التى تفصل أعمق الهيا كل الجسمية الانسانية عن سطح الأرض ، واحتياج ذلك الى مدة لا تقل عن ثلاثين ألف سنة .

والذى تميل اليه النفس أن كل ما يقال بشأن تاريخ وجود الانسان على الأرض ، سواء أ كان من جانب الاعتقاديين ، أم من جانب غيرهم ، لا يزال ظنيا ، فانه لم يرد فى القـرآن الـكريم ، ولا فى غيره من الـكتب السماوية ، ولا فى السنة الصحيحة شىء يختص بتحديد تاريخ وجود آدم على الأرض ، وما ورد على ألسنة بعض المفسرين فى هذا الصدد لا يبعد أن يكون مأخوذا من الاسرائيليات ، وكذلك ماذكره الجيولوجيون فى حساب المـدة اللازمة لتكون الطبقة الأرضية لايعول عليه كثيرا ، لأن الرواسب الأرضية لاتتـكون على نظام واحد فى جميع الجهات بل هى تختلف باختلافها ، فلا ينبغى أن يعول عليها فى جهة دون أخرى .

٣ — استخلافه فى الأرض :

حدثنا القرآن الـكريم أن الله تعالى أخـبر ملائـكته باستخلاف آدم فى الأرض ، وحكى ذلك فى قوله : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

والذى يتصل بموضوعنا من هـذا الخبر القرءانى الصادق ، هو : بيان معنى الخليفة ، ومن هو المراد من خليفة ، والمقصود من الاستخلاف ، والحـكمة فى استخلاف الانسان .

فالخليفة من يخلف غيره وينوب عنه ، والهاء فيه للمبالغة ، ولهذا يطلق على المذكر .

والمشهور بين المفسرين ، والذى عليه ابن مسعود وابن عباس وجميع أهل التأويل أن المراد بالخليفة هنا آدم عليه السلام ، وقيل : هو وذريته .

ولفظ « خليفة » فى الآية ، يجوز أن يكون بمعنى فاعل ، وعليه يكون معنى الاستخلاف أنه يخلف من كان قبله فى الأرض من الملائكة ، أو غيرهم .

ويجوز أن يكون بمعنى مفعول ، أى مخلف ، كما يقال : ذبيحة ، بمعنى مفعولة ، وعليه يكون معنى الاستخلاف أنه مجعول خليفة ، ومظهراً لله تعالى فى عمارة الأرض ، وسياسة الناس وتكميل نفوسهم ، وتنفيذ أمره فيهم ، وإقامة سننه ، وإظهار عجائب صنعه ، وأسرار خليقته ، وبدائع حكمه ، ومنافع أحكامه .

أما حكمة استخلاف الانسان ، فهى — على ما ذكرته كتب التفسير — أن الله تعالى خص كل نوع غير نوع الانسان بشىء محدود لا يتعداه ، فنوع الملائكة مثلا ، نعرف من طريق الوحى أن لـكل طائفة منه وظيفة محدودة لا يتعداها ، ونوع المعدن والجماد ، نعرف من حاله بالنظر والاختبار أنه لا علم له ، ولا عمل منه ، وكذلك كل حى من الأحياء المحسوسة والغيبية ، له استعداد محدود ، وعـلم إلهامى محدود ، وعمل محدود ، وما كان كذلك لا يصلح أن يكون خليفة .

أما الانسان ، فهو على ضعفه وجهله قد أعطى قوة تتصرف بشعوره وإحساسه تصرفا يكون له به السلطان على هذه الـكائنات ، فيسخرها ويذللها كما تشاء تلك القوة التى هى العقل ، فهى تغنيه عن كل ما وهب للحيوان فى أصل الفطرة ، مما يقيه البرد والحر ، ويتناول به غذاءه ، ويدافع به عن نفسه ، ويسطو به على عدوه ، وغير ذلك ، وقد ظهرت آثار تصرفه هذا فى المعدن والنبات والحيوان والبر والبحر والهواء .

وكما أعطاه الله هذه المواهب ، أعطاه غيرها من الأحكام والشرائع ، لتـكون ضابطا لأعماله وأخلاقه ، ولتحول دون بغى أفراده وطوائفه بعضهم على بعض .

فالانسان بتلك القوة غير محـدود الاستعداد ، ولا محـدود الرغائب ، ولا محدود العلم ولا محـدود العمل ، فهو على ضعف أفـراده يتصرف بمجموعه فى الـكون تصرفا لا حد له باذن الله وتصريفه ، ولهذا كله جعله خليفة فى الأرض ، فهو أجدر المخلوقات بهذه الخلافة .

٤ — تعليمه الأسماء :

تساءل الملائكة عن هذا الذى أخبرهم الله تعالى عنه بأن سيجعله خليفة فى الأرض ، وقص

القرآن علينا تساؤلهم هـذا فى قوله : « قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك » .

والسؤال هنا — على ما يقوله المفسرون — للاستكشاف عن الحكمة الخفية ، وعما يزيل الشبهة ، أو للتعجب من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها ، أو يستخلف مكان أهل الفساد مثلهم ، أو مكان أهل الطاعة أهل المعصية ، وقيل استفهام محض حذف فيه المعادل ، أى أتجعل فيها من يفسد فيها ، أم تجعل من لا يفسد ؟

وعلى جميع هذه التقادير ، فالهمزة ليست للانكار ، وإذاً لا ترد المزاعم المتعلقة بعصمة الملائكة ، واعتراضهم على الله ، وطعنهم فى بنى آدم .

ولقد أجاب الله الملائكة عن هـذا السؤال بعد إرشادهم الى الخضوع والتسليم بقوله : « إنى أعلم ما لا تعلمون » . ثم أراد أن يبين لهم أن الخليفة الذى هو محل تساؤلهم ، قد أعطاه ما لم يعطهم ، وعلمه ما لم يعلمهم ، فقال : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » .

واختلفوا فى المراد بالأسماء ، فقيل : صفات الأشياء ونعوتها وخواصها ، وقيل : أسماء ما كان وما يكون الى يوم القيامة ، وقيل : اللغات ، وقيل : أسماء الملائكة ، وقيل : أسماء النجوم ، وقيل : أسماؤه تعالى ، وقيل : إن معنى « علم آدم الأسماء كلها » أودع فى نفسه علم جميع الأشياء من غير تحديد ولا تعيين ، فالمراد بالأسماء المسميات ، عبر عن المدلول بالدليل لشدة الصلة بين المعنى واللفظ الموضوع له ، وسرعة الانتقال من أحدهما الى الآخر ، وقيل : إنه علمه جميع الأشياء التى فى جنة عدن ، وألهمه وأقدره على وضع اسم لكل ما تقع عليه عينه هناك ، وقيل غير هذا .

وأما كيفية التعليم ، فقيل : خلق فيه بموجب استعداده علما ضروريا تفصيليا بتلك الأسماء وبمدلولاتها ووجه دلالتها ، وقيل : خلق من أجزاء مختلفة ، وقوى متباينة مستعداً لادراك أنواع المدركات ، وألهمه معرفة ذوات الأشياء ، وأسمائها وخواصها ، وأصول العلم ، وقوانين الصناعات ، وتفاصيل آلاتها ، وكيفية استعمالاتها ، والله قادر على كل شىء .

٥ — آدم والملائكة وإبليس :

أراد الله تعالى أن يظهر الملائكة اعترافهم بفضل ادم ، واعتذارهم عما قالوا بشان استخلافه ، فامرهم بالسجود له ، وليس السجود هنا سجود عبادة ، إذ لا يعبد إلا الله تعالى ، وهو وإن كان

غير معروف الصفة ، إلا أن الظاهر من أمره أنه لا يخرج عن معنى التكريم ، ولا يباين معنى السجود اللغوى الذى هو عبارة عن التطامن والخضوع والانقياد .

وقد أطاع الملائكة كلهم أجمعون أمر ربهم ، فسجدوا لآدم ، إلا إبليس ، فلم يمتثل أمر ربه ترفعا ، وزعما أنه خير من آدم عنصرا ، وأزكى جوهرا ، فطرده الله من الجنة .

وسنتعرض لبيان حقيقة الملائكة عند الكلام على جبريل ، كما سنتعرض لبيان حقيقة الجن عند الكلام على إبليس .

٦ — إسكانه الجنة وإخراجه منها :

أمر الله تعالى آدم بسكنى الجنة ، والتمتع بكل شىء فيها ، ونهاه هو وزوجه عن الأكل من شجرة عينها لهما .

وقد وقع خلاف فى تعيين هذه الشجرة ، فقيل هى الكرم ، وقيل هى السنبلة ، وقيل هى النخلة ، وقيل شجرة الكافور ، وقيل التين ، وقيل الحنظل ، وقيل غير ذلك ، قال القرطبى فى تفسيره : قال ابن عطية : وليس فى شىء من هذا التعيين ما يعضده خبر ، وإنما الصواب أن يعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن شجرة فخالف هو اليها .

استقر آدم وزوجه فى الجنة ، وظلا يرغدان فى نعيمها الى أن استطاع إبليس بكذبه ومقاسمته وإغرائه أن يوسوس لهما بالأكل من الشجرة ، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما ، وأهبطا الى الأرض . وقد اختلف فى الكيفية التى توسل بها إبليس الى إغراء آدم .

قال الألوسى تعقيبا على هذه الاختلافات : وقال أبو منصور : ليس لنا البحث عن كيفية ذلك ، ولا نقطع القول بلا دليل . وهذا من الانصاف بمكان ، وقال الرازى : إن هذه القصص مما يجب ألا يلتفت اليه .

وذكروا أن ادم أهبط بسرنديب فى الهند بجبل يقال له « بوذ » أو « راهون » وأن حواء أهبطت بجدة ، وأن الملتقى كان بعرفات .

بعد هذا تلقى آدم من ربه كلمات ، فاناب اليه بها ، فتاب عليه ، وأكثرهم على أن هذه الكلمات هى قوله : « ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفرلنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . وقيل المراد بها البكاء والحياء والدعاء ، وقيل الندم والاستغفار والحزن .

٧ — الجنة ومكانها :

اختلف علماء المسلمين من أهل السنة وغيرهم فى أمر الجنة ، فالجمهور على أنها جنة المأوى أخذا بظواهر الآيات والأحاديث ، وذهب المعتزلة وأبو مسلم الأصفهانى وأناس الى أنها جنة

أخرى خلقها الله امتحانا لآدم ، وكانت بستانا فى الأرض بين فارس وكرمان ، وقيل بارض عدن ، وقيل بفلسطين ، ونقل عن بعض الصوفية أنها جنة فى الأرض عند جبل الياقوت تحت خط الاستواء ، ويسمونها جنة البرزخ .

ويرى بعضهم أن الأحوط والأسلم هو التوقف فى أمرها ، والكف عن تعيينها ، والقطع به . قال الامام أبو منصور الماتريدى فى تفسيره المسمى بالتأويلات : نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين أو غيضة من الغياض ، كان آدم وزوجه منعمين فيها ، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها .

٨ — نبوته ورسالته :

إن من ينظر إلى شأن آدم مع ربه ، واتصاله به ، يجد أن معانى النبوة كلها متمثلة فيه ، وقائمة به ، فهو قد « خاطبه بلا واسطة ، وشرع له فى ذلك الخطاب ، فأمره ونهاه ، وأحل له وحرم عليه بدون أن يرسل له رسولا » وليس للنبوة معنى غير هذا .

وأما رسالته فقد اختلف العلماء فيها . وقد روى عن أبى ذر قال : قلت يارسول الله : أنبيا كان مرسلا ؟ قال : نعم — الحديث .

وكان رسولا الى أبنائه ، وكانوا أربعين ولدا فى عشرين بطنا ، فى كل بطن ذكر وأنثى ، وأنزل عليه فيما أنزل تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير .

٩ — وفاته :

اختلف الرواة فى مقدار عمر آدم ، فقيل : عاش ألف سنة ، وقيل : عاش تسعمائة وثلاثين سنة . وقيل : عاش تسعمائة وستين سنة .

وليس لدى الباحثين نصوص قاطعة تتعلق بوفاة آدم وقبره ، ولهذا نكتفى هنا بذكر ماذكره أصحاب الأخبار خاصا بذلك :

قالوا : إن آدم عليه السلام مرض قبل موته أحد عشر يوما ، ولما حضرته الوفاة ، جاءته الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه وغيرها ، فقبضوه وغسلوه وكفنوه ، وحنطوه ، وحفروا له ولحدوه ، ثم حثوا عليه ، وقالوا يابنى آدم هذه سنتكم ، ولما تقدموا للصلاة عليه ، قال شيث لجبريل : صل على آدم ، فقال له جبريل : تقدم أنت فصل على أبيك ، فصلى عليه .

واختلف فى موضع قبره ، فقيل فى مشارق الفردوس ، وقيل فى الجبل الذى أهبط به فى الهند ، وقيل فى جبل أبى قبيس بمكة ، وقيل لما كان أيام الطوفان حمل نوح تابوت آدم فى السفينة فلما خرج من السفينة دفن آدم ببيت المقدس .

وعاشت حواء بعده سنة واحدة ، ثم ماتت فدفنت مع آدم ، عليهما السلام .

فكرى يس

المطالب العالية

فى النفس الناطقة وصلتها بالانسان

أسلفنا فى البحث السابق فى شىء غير قليل طرفا من الكلام عن بعض متعلقات النفس الناطقة وملابساتها كالسعادة والخير وما بينهما من فارق ذى أثر فى العوالم الكونية والنواميس الطبيعية ، وما نحاه المتقدمون فى أن الخير هو المقصود من كل فهو غاية الغايات ، وأن السعادة هى الخير بالقياس الى صاحبها فهى على هذا النحو كمال له .

والآن نحاول أن نصل بين أطراف ذلك البحث الطريف ، فلابد لكل باحث عن أدواره والمدى الذى انتهى اليه أن يقيم أسس بحثه على نظرية عامة صادقة تجمع بين آراء المتقدمين من الفلاسفة فى شتى فرقهم ، وبين أرسطو وأنصاره ومعتنق مذهبه . تلك النظرية على ما حققها القوم فى كتبهم هى أن الانسان ذو فضيلة روحانية عليا يلاءم بها الأرواح الطيبة التى تحملها الملائكة ، وذو فضيلة هيولانية يشترك بها مع الحيوان لأنه مركب منها ؛ فهو إذن بالخير المتعلق بعالم المادة مقيم فى هذا العالم السفلى الى قدر معلوم ليقوم بعمارته وترتيبه وتنسيقه ، حتى إذا ظفر من هذه المرتبة بالقسط الأكمل ارتقى الى العالم العلوى البرىء من المادة وعلائقها والطبيعة وغاشياتها ، فيبقى فيه سرمدا .

فالسعيد تطبيقا لهذه النظرية هو من يكون فى إحدى المرتبتين : إما فى مرتبة الهيولانية متعلقا باحوالها السفلى سعيدا بها مطمئنا اليها ، لكنه مع ذلك يطالع الأمور الجليلة والمطالب العالية متحريا لها باحثا عنها مكدا فى الحصول عليها متحركا نحوها مغتبطا بها ، وإما أن يكون فى مرتبة الروحانيات متعلقا باحوالها العليا سعيدا بها مأخوذا بمحاب الله ومراضيه ، هياما الى القدسية الباقية والسرمدية العتيدة ، لكنه مع ذلك يطالع الأغراض الهيولانية متخذا منها أفضل الدلائل على ابتداع اللذة الالهية وسعة متعلقاتها وآثارها الصادرة عنها . فأى امرىء من الناس لا يظفر باحدى تينك السعادتين فهو كالأنعام بل اضل سبيلا .

وإذن فقد تبين لنا أن السعيد فى إحدى المرتبتين دون الأخرى ليس سعيدا على إطلاقه ، فان من استكمل سعادته القدسية وهناءته السرمدية فقد حرم من ناحية أخرى نعيمه الهيولانى واستمتاعه الجسمانى . ومن مكن له فى حياته الاولى فاستمتع بلذائذها وشهواتها فى مناحيها المختلفة من نعمة الجاه والمال والولد والظفر بالمطلوب ثم نسى نصيبه الأوفى من الحياة الباقية فلم يعمل له ، ولم يخلع على نفسه أهبة الشوق الى النعيم المقيم فقد خسر خسرانا مبينا . فالسعيد إذن من جمع بين الحالتين ، وآخى بين الصنوين .

لكن يبقى بعد ذلك أن أفضل الحياتين تلك الحياة السرمدية الدائمة ، فان السعيد هو الذى استكمل نصيبه من الحكمة وهى مخافة الله ، فهو مقيم بروحانيته بين الملأ الأعلى يستمد منه لطائف الحكمة ، ويستضىء بالنور الالهى ، ويستوفى من فضائله على مقدار استعداده وقلة عوائقه ، فهو أبدا برىء من الآلام والحسرات . فاذا انقدح فى نفسه فيض نور الأمل وعمر قلبه بذلك المشهد الالهى انخلعت نفسه عن المادة وملابساتها والطبيعة وأغراضها بواسطة ذلك الأنس الذى حل محل الشغاف من قلبه ، فهو مستأنس راض بما كتب له من حياة سرمدية ونعيم مقيم . وتلك المنزلة هى أقصى منازل السعادة على ماحكاه المحققون . وهاتان المرتبتان قد عنى بهما الحكيم الكبير ارسطو فى كتابه المسمى بفضائل النفس ، فقد قال مع تصرف يقرب المعنى :

مما لايحتمل جدالا أن أولى رتب الفضائل تسمى سعادة : كأن يعرف الانسان إرادته ومحاولاته الى صوالحه فى عالم المادة وفى أمور النفس والبدن ، وفيما كان من الأحوال متصلا بهما ومشاركا لهما من الأمور الزمانية على شريطة أن يكون تصرفه فى المحسوسات لاينبو عن الجادة الملائمة لأحواله الحسية ، فهو مطالب بأن يجرى كل مايقع منه من تصرفات على قانون التدبير ونواميس الحكمة والاعتدال ، فلا يخرج به عن تقدير الفكر ، حتى لا يضل فى مهمه قفر لا يأتى البصر على أطرافه .

ثم إن المرتبة الثانية تأتى بعد المرتبة الأولى ، وهى أن يصرف الانسان فيها إرادته ومحاولاته الى أفضل منازلها دون أن يتلبس فى سلوكها بشىء من الأهواء والشهوات ، ولا يستجيب لداعية المحسوسات المغرية بالمثالب والسالكة بطالبها سبيل المعايب .

غير أن رتبة الانسان فى هذا الضرب من الفضيلة تتزايد تزايدا عظيما بحسب منازله ومقتضياته ، ذلك لأن الأماكن والرتب فى هذا الضرب من الفضائل كثيرة ومتزايدة ، وهذا بدهى الظهور ، أما أولا فباختلاف طبائع الناس . وأما ثانيا فبحسب العادات وما يقع من الناس من التقاليد والاصطلاحات ، وأما ثالثا فبحسب منازلهم ومواضعهم وأقدارهم من العقل والعلم والمعرفة وفهم الحقائق على أوضاعها . وأما رابعا فبحسب هممهم ونوازع نفوسهم ومطامحهم التى يطمحون اليها ومبلغ شغفهم بها . وأما خامسا فبحسب شوقهم وعظيم معاناتهم فى نيل مقاصدهم ، وإمعانهم فى بلوغ مبتغاهم .

ثم إن وراء هذه المنزلة منزلة هى النسق الأعلى للفضائل ، وأعنى بها المنزلة القصوى التى لا يكون فيها ترقب لآت ولا تلفت الى ماض ولا تشيع لحاضر ولا طلب لحظ من حظوظ الانسانية الفاتنة ، ولا ما تدعو اليه الضرورة المذلة من حاجة البدن أو إحدى قواه الطبيعية او قواه النفسانية .

فالانسان فى هذه المرتبة القصوى يتصرف فى الخير مستهديا بعقله وما يستوحيه مشتقا من النسق الأعلى لصنوف الفضائل : كصرف الوقت الى الأمور الالهية ومعاناتها ومحاولة النفس لهـا . قال الحـكيم أرسطو : وهذه الرتبة هى الأخرى تتزايد فى الناس تزايدا متفاوت الشقة بعيد الأثر بحسب الهمم وصنوف الشوق وفضل المعاناة والصبر وشدة الجلد وقوة النحيزة وسلامة الثقة وحسن الاستنتاج ، وبحسب منزلة من بلغ هذا المبلغ من الفضيلة فى هذه الأحوال التى أسلفنا الـكلام عنها أن يكون تشبهه بالعلة الأولى واحتذاؤه إياها واقتداؤه بأفعالها .

ثم إن آخر مراتب الفضيلة وأعلاها شأوا أن تكون أفعال الانسان كلها أفعالا إلهية ، وهذه الأفعال هى خير محض . وبدهى أن الفعل إذا كان خـيرا محضا فليس يفعله فاعله من أجل شىء آخـر غير الفعل ذاته ،ذلك لأن الخير المحض « ما ليس يفعله فاعله من أجل » لأن الخير المحض هو غاية متوخاة لذاتها ، فهو الأمر المقصود أيضا ، فلا يمكن أن يكون لأجل شىء آخر خارج عن ذاته ، وإذن فأفعال الانسان كلها إذا استحالت إلهية فهى كلها إنما تصدر عن ذاته الحقيقية التى هى فى الحقيقة عقله الالهى ، وبالتالى التى هى مدده الالهى ومصدره الأعلى الذى يستلهم العلى الأعلى فى كل ما يصدر عنه ، وقد تزول وتمحى سائر طباعه البدنية أو تنحل انحلالا نسبيا أو جزئيا فلا تبقى له إرادة ولا همة خارجتان عن فعله من أجلهما يفعل ما يفعل ويدع ما يدع ، لـكنه يفعل بلا إرادة ولا همة ، فلا يكون غرضه بفعله غير ذات ذلك الفعل ، وهذا هو سبيل العقل الالهى ، وتلك الحال هى أعلى رتب الفضائل وجنس أجناسها ، وهى التى يتصل فيها الانسان أفعال المبدأ الأول خالق الـكل وبارئه عزوجل ، على معنى أن يكون فيما يفعله بعينه هو غرضه ، أى ليس يفعل من أجل شىء آخر سوى ذات الفعل . ومعنى ذاته هو أنه لا يفعل ما يفعله من أجل شىء غير فعله نفسه ، وذاته لنفسها هى الفعل الالهى نفسه ، وهـكذا يعقل البارىء تعالى لذاته لا من أجل شىء آخر خارج عنه ، وذلك أن فعل الانسان فى هذه الحال يكون كما قلنا خـيرا محضا وحكمة محضة ، فيبدأ بالفعل لنفس إظهار الفعل فقط لا لغاية أخرى يتوخاها بالفعل ، وهكذا فعل الله عز وجل الخاص به ليس هو على القصد الأول من أجل شىء خارج عن ذاته ، أعنى ليس ذلك من أجل سياسة الاشياء التى نحن جزء منها ، لأنه لو كان كذلك لما كانت أفعاله الصادرة عنه سبحانه لا تتم إلا بمشارفة الأمور التى من الخارج من أسباب وعلل لافعاله ، وهذا واضح القبح والشناعة ، تعالى الله عنه علوا كبيرا. الخ

هـذا جانب من آراء الحـكيم أرسطو نقلناه بتلخيص كثير ، مع احتفاظنا بالتعليق على جانب منها فى عدد تال ، فالى الغد القريب

عباس طه

تقرير بعثة الهند

— ٢ —

دراسات البعثة

١ — الحال الاجتماعية والخلقية :

الهند شبه جزيرة من الأرض ناتئ نحو الجنوب من وسط آسيا ، يمتد من خط ١٨ الى خط ٣٧ شمالا ، ومن خط ٦٥ الى خط ١٠٠ شرقا . فهى بذلك تشمل ٢٩ درجة من درجات العرض و ٣٥ درجة من درجات الطول . وتبلغ مساحتها ٦٧٩ ر ٨٠٨ ر ١ ميلا مربعا .

فاذا ووزنت الهند بغيرها من البلاد من حيث المساحة بلغت ١٥ مرة قدر مساحة الجزر البريطانية أو أكبر من نصف قارة أوربا . وإذا وازنا بينها وبين مصر بلغت مساحة الهند حوالى ١٤٠ مرة لمساحة المنزرع من القطر المصرى .

فالهند بذلك بلاد مترامية الأطراف متباينة فى أنواع المناخ ، فبينما تكلل الثلوج رءوس الجبال فى الشمال إذا بالأودية الشمالية ذات جوقارى ، شديد الحرارة صيفا ، قارس البرد شتاء ؛ وإذا ما اتجهنا نحو الجنوب قاربنا المنطقة الشديدة الحرارة فى الصيف والشتاء . وقد كان لهذه المناخات المتباينة أثرها فى طبيعة السكان وأخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم ولغاتهم .

وقد قسمت الهند إداريا الى مجموعتين :

المجموعة الأولى : أقاليم يحكمها البريطانيون مباشرة . ولكل إقليم منها حاكم بريطانى يستمد سلطته من نائب الملك . وقد نص الدستور الجديد على أن تقوم فى هذه الولايات برلمانات مستقلة كل الاستقلال فى عملها ، لها ما لغيرها من البرلمانات من سلطة ، إلا أن حاكم المقاطعة (الرئيس الأعلى لهذه الدولة الصغيرة) قد أكسبه الدستور حقوقا يستطيع أن يباشرها دون رغبة البرلمان ويقول البريطانيون فى ذلك إن هذا الحق قد كفل للحاكم العام ليستطيع به عند الاقتضاء أن يحافظ على صوالح الأقليات الدينية فى المقاطعة التى يحكمها . وتبلغ مساحة هذا النوع أكثر من ثلثى مساحة الهند . وقد قسم الى ١٥ مقاطعة ، منها ١١ كبيرة تنطبق عليها النظم البرلمانية كاملة ، و ٤ أقل أهمية من هذه ، ولذلك وضعت لها أنظمة برلمانية خاصة .

وفيما يلى بيان بالمقاطعات الهامة مرتبة وفق مساحتها :

المقاطعة	ميلا مربعا	المقاطعة	ميلا مربعا
برما	٤٩٢ ر ٢٣٢	بحار واوريسا	٧٠٢ ر ١١١
بومباى	٦٧٣ ر ١٥١	بنجاب	٠٢٠ ر ١٠٥
مدراس	٨٧٠ ر ١٤٣	بنغال	٩٥٥ ر ٨٢
بلوخستان	٦٣٨ ر ١٣٤	آسام	٣٣٤ ر ٦٧
الولايات الوسطى وبرار	٠٩٥ ر ١٣١	مقاطعة الحدود الشمالية الغربية	٣٥٦ ر ٣٦
الولايات المتحدة	١٩١ ر ١١٢		

وحال هذه الأقسام الادارية دائمة التغير وفقا لمقتضيات الظروف ، من ذلك :

١ — نص الدستور الجديد على أن تستقل برما عن الهند ويعين لها نائب عن الملك .

٢ — قسمت بومباى فى العام الماضى مقاطعتين : بومباى ، والسند . ولكل منهما حاكم .

٣ — اعترف باقليم برار لحضرة صاحب السمو العالى نظام حيدراباد وتديره الحكومة البريطانية بالنيابة عنه لقاء دخل سنوى ثابت تدفعه الحكومة البريطانية لسمو النظام .

المجموعة الثانية : ولايات قد نزلت الحكومة البريطانية عن حكمها لأمراء شبه مستقلين ، ونظمت صلاتها بهؤلاء على أحد الوجهين الآتيين :

أولا : أمراء يستمدون سلطتهم من نائب الملك رأسا ، وعددهم ٣٣ أميرا ، ومن أهم إماراتهم :

(ا) ولايات يحكمها أمراء من المسلمين :

١ — حيدر اباد ، ومساحتها ٨٣ ألف ميل مربع ، وعدد سكانها ١٤ مليون ونصف مليون من الأنفس ، وتبلغ ايرادات الحكومة فيها حوالى ٨ كورور أى ٦ مليون جنيه مصرى تقريبا .

٢ — بهاول بور ، وتبلغ مساحتها ١٦ ألف ميل مربع ، وعدد سكانها ٩٨٥ ألف نفس . وتبلغ إيرادات الحكومة فيها ٤٥ لاك أى ثلث مليون جنيه مصرى تقريبا .

٣ — بهوبال ، وتبلغ مساحتها سبعة آلاف ميل مربع ، وعدد سكانها ٧٣٠ ألف نفس ، وايرادات الحكومة فيها ٨٠ لاك أى ٦٠٠ ألف جنيه مصرى تقريبا .

٤ — رامبورر ، وتبلغ مساحتها ٨٩٠ ميلا فقط ، وعدد سكانها ٤٦٠ ألف نفس ، وايرادات الحكومة فيها ٤٩ لاك أى ٣٦٧ ألف جنيه مصرى تقريبا .

(ب) ولايات يحكمها أمراء من غير المسلمين :

الولاية	مساحتها بالميل	عدد سكانها	دخل الحكومة لاك (١)	أى كورور
ميسور	٢٩ر٥٠٠	٦ر٥٥٨ر٠٠٠	٣	٤٥
ترافانكور	٧ر٦٠٠	٥ر٠٠٠ر٠٠٠	٢	٤٤
كشمير	٨٦ر٠٠٠	٣ر٦٤٥ر٠٠٠	٢	٢٣
جوايلور	٢٦ر٠٠٠	٣ر٥٠٠ر٠٠٠	٢	٤٢
جيبور	١٥ر٥٠٠	٢ر٦٣٠ر٠٠٠	١	٢٠
بارودا	٨ر٠٠٠	٢ر٤٤٥ر٠٠٠	٢	٦٠
جودبور	٣٥ر٠٠٠	٢ر١٢٥ر٠٠٠	١	٤٢
باتيالا	٦ر٠٠٠	١ر٦٢٥ر٠٠٠	١	٤٥
ريوا	١٣ر٠٠٠	١ر٥٩٠ر٠٠٠	—	٦٠
يودايبور	١٢ر٠٠٠	١ر٥٧٠ر٠٠٠	—	٦٧
اندور	١٠ر٠٠٠	١ر٣٣٠ر٠٠٠	١	٢٤
كوشين	١ر٤٠٠	١ر٢٠٠ر٠٠٠	—	٩٠
كولهابور	٣ر٠٠٠	٩٦٠ر٠٠٠	—	٧٧
بيكانير	٢٣ر٠٠٠	٩٤٠ر٠٠٠	١	٢١
كوتا	٥ر٠٠٠	٦٨٥ر٠٠٠	—	٥٢

ثانيا : ويلى ذلك مئات من الامارات أقل من هذه شانا يستمد معظم أمرائها سلطتهم من الحاكم العام للمقاطعة المتاخمة . ويتمتع أمراء هذه الولايات بسلطة أوتوقراطية ، وقد يركن البعض منهم الى استشارة شعبه بين آن وآخر ، عن طريق مجلس يعينه الأمير يسمى مجلس الشورى .

لغات الهند :

لما كانت الهند بلادا مترامية الأطراف متعددة الأجناس ، فقد وجب أن تكون كذلك متعددة اللغات ، إلا أن اللغات فى الهند قد تعددت تعددا لا مثيل له فى أى بلد آخر على وجه المعمور ، وذلك لأسباب اجتماعية سنوردها فى الفصول المقبلة .

وتنقسم اللغات الوطنية فى الهند الى ست مجاميع تتفرع من كل مجموعة عدة لغات :

١ — لغات الملاى — وعددها ١٢ لغة ، ويتكلمها ٧٥٠ر٠٠٠ نفس من السكان ، يقطنون برما وآسام وجزائر نيكوبار .

(١) اللاك يساوى ١٠٠ ألف روبية والكورور يساوى ١٠٠ لاك

٢ — لغات المندا ـ وعددها ٧ لغات ، ويتكلمها ٤٫٦٠٠٫٠٠٠ نفس فى آسام و بنغال و بحار .

٣ — لغات التبت — برما — وعددها ١٢٨ لغة ، ويتكلمها ١٢٫٩٩٠٫٠٠٠ نفس فى آسام وبرما وبنغال .

٤ — لغات صينية الأصل ـ وعددها ٢٨ لغة ، ويتكلمها ٢٫٣٧٠٫٠٠٠ نفس فى برما وآسام .

٥ — اللغات الدرافيدية — وعددها ١٤ لغة ، ومن أهمها :

التأميل	ويتكلمها	٣٠٫٤٠٠٫٠٠٠	فى مدراس وميسور .
الملايام	ويتكلمها	٩٫١٥٠٫٠٠٠	فى مدراس .
الكنارى	ويتكلمها	١١٫٢٠٠٫٠٠	فى بومباى وميسور ومدراس وحيدر اباد .
التليجو	ويتكلمها	٢٦٫٣٧٠٫٠٠٠	فى مدراس وحيدر اباد وميسور .

٦ — اللغات الأوربية الهندية — وعددها ٢٧ لغة ، ومن أهمها :

ثمان لغات فارسية الأصل ، ويتكلمها		٣٫٧٩٠٫٠٠٠	فى مقاطعة الحدود و بلوخستان وكشمير .
لغات السندى	«	٣٫٧٣٠٫٠٠٠	فى السند .
لغتان : بنجابى ولندا	«	٢٤٫٦٦٠٫٠٠٠	فى بنجاب وكشمير والحدود والسند .
لغتان : ماراتى وكونكانى	«	٢١٫٣٦٠٫٠٠٠	فى بومباى والولايات الوسطى وبرار وحيدر اباد .
ثلاث لغات هندوستانية (اردو)	«	١٢١٫٢٥٠٫٠٠٠	فى الولايات المتحدة والولايات الوسطى والهند الوسطى وبنجاب وراجبوتانا .
لغة أوريا	«	١١٫١٩٠٫٠٠٠	فى أوريسا ومدراس .
لغة بنغالى	«	٥٣٫٥٠٠٫٠٠٠	فى البنغال وآسام .

ولما كانت لغات الهند متعددة حتى فى الاقليم الواحد حيث يلجأ أهل الديانة الواحدة الى لغة واحدة ، فى حين يلجأ أهل ديانة أخرى الى لغة أخرى ، فقد لزم أن يكون التعليم — الذى تديره حكومة الهند (البريطانية) — بلغة متحدة بين القوم . لذلك لجأت الحكومة الى فرض اللغة الانجليزية كوسيلة لتلقى العلوم بالمدارس الثانوية والعالية والجامعات ، كما أصبحت تلك اللغة رسمية فى المكاتبات الحكومية وغيرها ، وهى لغة التجارة أيضا ، ثم هى لغة التحدث بين المثقفين اذا ما اختلفت لغاتهم الأصلية . لكل أولئك انتشرت اللغة الانجليزية فى الهند ، وخاصة فى المدن الكبرى وعلى الأخص بين البيئات المثقفة ، انتشارا عظيما .

ومما تحسن الاشارة اليه هنا أن لغات الهند المختلفة قد اقتبست على مر السنين من اللغة الانجليزية بحيث أصبحت نسبتها فى لغة الاوردو مثلا لا تقل عن ١٠ ٪.

كما تحسن الاشارة كذلك الى أن لغة الاوردو هذه، وهى اللغة التى يتكلمها عامة المسلمين فى الهند الشمالية على الأخص، كانت فى الأصل لغة الفاتحين المسلمين الذين انحدروا الى الهند من الشمال. ولذلك كان فيها كثير من اللغات الأجنبية بحيث قيل لنا إن بها من اللغة الفارسية ما لا يقل عن ٣٥ ٪ ومن اللغة العربية ما لا يقل عن ٣٠ ٪.

أما اللغة العربية فانها تدرس فى الجامعات كلغة جامعية (أكاديمية) لنيل الاجازات العليا فى الآداب، على نحو ما تدرس اللغتان القديمتان اليونانية واللاتينية فى جامعات أوربا. مثلها فى ذلك مثل اللغة الفارسية فى الهند. ويعنى كثير من الطلبة المسلمين الذين يتقدمون لنيل إجازات الآداب (بكالوريوس وماجستير وحقوق والدكتوراه) بدراسة اللغة العربية أو الفارسية للتقدم للامتحان. على أن كثيرا منهم قد عنى باللغة العربية باعتبارها لغة القرءان الكريم والحديث الشريف. كما عنى البعض باللغة الفارسية استقصاء للأدب الفارسى، وله فى الهند مكانة عظمى بين كبار المثقفين، إلا أن المجال لا يزال واسعا أمام الأمم التى تتكلم اللغة العربية كمصر وبلاد العرب لنشر اللغة العربية ببلاد الهند نشرا يبعثها من سباتها العميق، ويثير فى نفوس إخواننا الهنديين الرغبة فى دراستها كلغة كلامية فضلا عن كونها لغة جامعية (أكاديمية). وقد شاهدنا من عامة المثقفين فى الهند رغبة أكيدة فى تعلم اللغة العربية على وجهها الذى تدرس به الآن فى مصر، ولكن تعوزهم الوسائل، التى سنفرد بابا لبحثها فى هذا التقرير.

ديانات الهند:

كما أن الهند أخلاط من الشعوب واللغات، فانها كذلك أخلاط من الأديان. والدين فى الهند محور أساسى للتقسيم الاجتماعى. وليس أدل على ذلك من أن الديانتين السائدتين فى الهند، وهما الهندوسية والاسلام، تختلفان اختلافا جوهريا فى معظم شئون الحياة، مما حفز الحكومة الى فصل معتنقى هاتين الديانتين فى كثير من الشئون الاجتماعية. ولنضرب لذلك مثلا ما كنا نشاهده فى كل محطة من محطات سكة الحديد وهو وجود موردين للماء أحدها للمسلمين وثانيهما للهندوس، ومقصفين أحدها للمسلمين وثانيهما للهندوس، فضلا عن مقصف ثالث للجميع لا يتردد عليه عادة إلا السائحون والموظفون البريطانيون فى أثناء تنقلاتهم.

ولذلك آثرنا الكلام على ديانات الهند قبل الحال الاجتماعية:

تتكون الكثرة الدينية فى الهند من الهندوس، إذ يبلغ عددهم ١٨٩ مليونا من الأنفس

بنسبة ٥٤٪ من السكان . يضاف اليهم من الناحية السياسية ٥٠ مليونا من المنبوذين بنسبة ٥ ر ١٤ ٪ فتكون نسبتهم مجتمعين ٥ ر ٦٨ ٪ وهم منتشرون فى كافة أنحاء الهند ، ويكونون السواد الأعظم من سكانها .

أما المسلمون فيبلغ عددهم ٧٨ مليونا بنسبة ٥ ر ٢٢ ٪ من السكان ، وهم بذلك يكونون قلة فى الهند ، إلا أن نسبتهم تزيد عن النصف فى الولايات الشمالية ، فيكونون بذلك كثرة قد تكون غامرة فى بعض الأقاليم ، فى حين تتضاءل نسبتهم كثيرا فى الجنوب بحيث لا يكونون إلا قلة ضئيلة .

وفيما يلى بيان بنسبة المسلمين فى ولايات الهند المختلفة مرتبة وفق ارتفاع النسبة المئوية للمسلمين :

مقاطعة الحدود الشمالية الغربية	٨ ر ٩١ ٪	أجمير ومروار	٣ ر ١٧ ٪
بلوخستان	٤ ر ٨٧ ٪	الولايات المتحدة	٨ ر ١٤ ٪
البنجاب	٥ ر ٥٦ ٪	بحار واوريسا	٣ ر ١١ ٪
البنغال	٨ ر ٥٤ ٪	كرج	٤ ر ٨ ٪
دلهى (المقاطعة)	٥ ر ٣٢ ٪	مدراس	٠ ر ٧ ٪
آسام	٠ ر ٣٢ ٪	الولايات الوسطى وبراج	٤ ر ٤ ٪
جزر اندمان ونيكوبار بخليج بنغاله	٨ ر ٢٢ ٪	برما	٠ ر ٤ ٪
بومباى (بما فى ذلك السند)	٤ ر ٢٠ ٪		

أما إمارات الهند فقد أخذت — فى الاحصاءات — كمجموعة ، ونسبة المسلمين فيها مجتمعة ٥ ر ١٣ ٪ إلا أن الامارات الشمالية تكثر فيها نسبة المسلمين كما تكثر فى الولايات ، فمنها كشمير ونسبة المسلمين فيها ٧٧ ٪ .

وقد لفت نظرنا الاختلاف الكبير فى نسبة المسلمين المئوية بين إقليم وآخر ، ودلت دراستنا فى ذلك على أن الاسلام لم ينتشر فى الهند مع الفتوحات ، بل إن ملوك المسلمين لم ينصرفوا الى نشر الدين الاسلامى بين الهندوس والبوذيين وغيرهم عملا بحرية الدين التى جرى عليها الاسلام . ومن عجب أن سمعنا من بعض زعماء المسلمين فى الهند أن الاسلام قد انتشر فى الأقاليم التى لم تخضع لحكم المسلمين المباشر بأسرع مما انتشر فى الأقاليم التى خضعت لذلك الحكم ، مما يدل على أن الاسلام قد انساب الى القلوب فى رفق ولين لا إكراه فيه على الاطلاق .

ويتحدث المسلمون فى الهند على أحسن الوسائل للانتفاع بكثرتهم النسبية فى الأقاليم الشمالية ، ومن خيرة المتحدثين على ذلك السير محمد إقبال ، فهو يقول بضرورة تاسيس مملكة باكستان ، وهى مملكة ستتألف من بنجاب وكشمير ومقاطعة الحدود وبلوخستان حيث

تعيد للاسلام مجده فى تلك البلاد . كما يتحدث كذلك بامكان تبادل السكان بين مملكة باكستان وبقية ممالك الهند ، فيهاجر الهنديون المسلمون من المقاطعات التى يكونون فيها قلة الى تلك المملكة الجديدة لقاء أن يهاجر منها الهندوس وغيرهم الى المقاطعات الآخر . ويؤمن كثير من قادة الفكر بالهند بما يراه السير محمد اقبال .

أما بقية الديانات بالهند فتكون قلة ضئيلة نلخصها فيما يلى :

البوذيون	٣ر٧ ٪	المسيحيون	١ر٨ ٪
الديانات القبلية	٢ر٥ ٪	السيخ	١ر٢ ٪

وقبل أن ننتقل من بحث الديانات ، يجدر بنا أن نذكر أن النسبة المئوية لهذه الديانات لم تكن كذلك فى الماضى ، بل طرأ عليها تعديل يذكر فى خلال الخمسين السنة الأخيرة . ويدل الاختلاف فى نسبة تزايد السكان فى كل بيئة من هذه البيئات الدينية على ذلك . فقد كانت نسبة تكاثر الهندوس ٢٧ ٪ فى خلال الخمسين السنة الماضية . فى حين كانت نسبة تكاثر المسلمين ٥٥ ٪

ويعزو الاحصائيون زيادة النسبة بين المسلمين عنها بين الهندوس الى عاملين هما :

أولا — تعدد الزوجات وجواز زواج الأرامل فى الاسلام ، فى حين أن الديانة الهندوسية تمنع تعدد الزوجات وتحرم زواج الأرملة ، بل إن الأرملة كانت الى عهد قريب تحرق بعد وفاة زوجها ، فجاءت الحكومة البريطانية ومنعت هذه العادة ، ولكن ظلت الأرملة قصية لا يجوز زواجها . وتدل الاحصاءات الرسمية على أن نسبة الترمل بين الهندوس تبلغ ١٦ر٣ ٪ من مجموع النساء ، فى حين تبلغ هذه النسبة ١٢ر٨ ٪ فقط بين المسلمات ، على أن تقارب النسبة بين الفريقين يعلل بعدم ميل المسلمين بالهند الى تعديد الزوجات جريا على التقاليد القديمة لتلك البلاد . وثمة ظاهرة مهمة يجب تسجيلها فى هذا المقام ، هى أن النسبة المئوية للأرامل بين سنى ١٥ و ٥٠ هى ١٩ ٪ بين الهندوس ، يقابلها ١٤ ٪ فقط بين المسلمين .

ومن الظواهر الاجتماعية فى الهند زواج القاصرات . وقد بلغ عدد المطلقات منهن ٥٥ فى الألف بين الهندوس ، يقابلها ٣٨ فى الألف بين المسلمات .

ثانيا — اهتمام المسلمين بتبليغ الدين الاسلامى بين معتنقى الديانات الآخر .

أما نسبة التكاثر بين أهل الديانات الآخر فلا يلفت النظر منها إلا نسبة التكاثر بين المسيحيين ، فقد بلغت خلال الخمسين السنة الأخيرة ٢٣٨ ٪ وهى نسبة لا يبررها إلا نشاط جمعيات التبشير المسيحية المنتشرة فى كل مكان من الهند ، والتى تعمل ليل نهار على تحويل الهنود (وخاصة المنبوذين) إلى الديانة المسيحية . (يتبع)

التربية على طريقة دالتن :

نحن من هذا الكتاب بصدد انقلاب ذريع فى نظم التربية ، ومن حسن الحظ أننا أصبحنا نأنس بالانقلابات الفكرية لما ثبت أنها الطريق الوحيد للترقى من حال الى حال فى كل مجال من مجالات النشاط العلمى والعملى .

فى أمريكا معلمة تدعى مس هيلين باركهرست ، ابتكرت طريقة فى التربية تدابر الطريقة القديمة ، وقد نشرتها فى رسالة لقيت رواجا عظيما ، وصادفت قبولا حسنا . ونحن نأتى على أساس هذه الطريقة التى تقول السيدة إنها اقتبستها من فقرتين فى كتاب بناء العقل تأليف (ادجار جيمس سويف) وهما قوله :

« إن الطريقة المعقولة هى أن نعمل مع الطلاب ، فنبعث فيهم التشوف الى أن ينقبوا عن الأشياء بأنفسهم ، وأن يضموا ما يصلون إليه من المعلومات بعضه الى بعض ، ليناقش ويوضح فى الدرس . أما الطريقة التلقينية ، فهى طريقة القرون الوسطى . وهى ما برحت تسيطر على مدارسنا الى اليوم ، مع أن الظروف التى هيأت منها النفع قدم عهدها منذ أمد بعيد . والخطوة الأولى فى سبيل الخلاص منها هى أن يوسع المدرسون أفقهم العقلى . وعليهم بعد ذلك أن يدرسوا صفات تلاميذهم ، فتصبح قاعة الدرس معملا للتربية ، ولا يقتصر النشاط على دروس الاشغال اليدوية . إننا لم نضع بعد أثر البيئة فى التربية موضعه اللائق به . فالمعلم يريد أن يسم تفكير التلميذ بميسمه ولكن الغايات التى يبتغيها المربى يجدها تعقد الحياة البشرية . فالطفل الذى لا تروق صفاته معلمه قد يحمل فى أطوائه بذور رجل يقصر دونه أفق ذلك المعلم العقلى »

وهذه هى الفقرة الثانية :

« إن التجارب فى التربية حتى اليوم مشتتة ، قليلة الاتصال بعضها ببعض ، فالأشخاص القلائل الذين قاموا بها كانوا مثقلين بأعباء أعمال أخرى تستغرق جل يومهم فجعلتهم لايفرغون لها ، أولا يجدون فى أنفسهم من الطاقة ما يعينهم على تدبر الدقائق وفحص النتائج ومتابعتها بروح النقد . فكم من حالة دفعتهم فيها لجاجة الوقت بهم الى أن يتركوا التجربة قبل استكمالها ، لأنهم لم يقدروا خطر العمل الذى يقومون به . وقد كانت التربية الى الآن مشغولة بماضيها ، فانكفأ المدرسون على (بستالوزى) و (فروبل) و (هربارت) ، وصدفوا عن التطلع الى شىء جديد . واستتبع ذلك أن وقفت التربية موقف الدفاع عن نفسها ضد تهمة الابهام ، والجرى وراء خيالات وعواطف ، وعدم الكفاية لحاجات الحياة بوجه خاص . والحق أن قانون القصد فى الطاقة يصدق فى التربية صدقه فى علم الميكانيكا . فاذا كانت الكفاية — ويقصد بها نسبة

الشغل النافع الى الطاقة المبذولة فى إنتاجه — تزيدبزيادة القوة وضعف المقاومة ، فان جهود المدرسين قد حبست على بذل القوة فحسب » .

هاتان الفقرتان من كتاب ادجار جيمس سويفت هدتا السيدة هيلين باركهرست الى وضع طريقتها فى التربية ، ووضعت فيها هذه الرسالة القيمة التى عنى بترجمتها زكريا افندى ميخاييل خريج معهد التربية ترجمة صحيحة بينة . فان كنا نثنى على المؤلفة وجب أن نثنى أيضا على المترجم الهمام ، فانه أهدى معاهد التربية بأثر قيم إن لم يكن يبلغ أن يحدث فيه انقلابا ذريعا فيعاون على تأسيسه على قواعد أكثر متانة مما كان له منها الى اليوم .

النحو الحديث :

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ احمد كامل الخضرى المدرس بمعهد دمياط اتجاه كريم نحو تجديد الكتب العلمية القديمة ووضعها فى عبارة يفهمها المعاصرون ، وطبعها على نحو الكتب الحديثة بحيث يرتاح لمطالعتها المطالعون . فقد سبق له أن وضع كتاب كفاية الأخيار لتقى الدين أبى بكر بن محمد الحصنى فى صورة عصرية استوعبت كل مافيه من الفوائد بعبارات جزلة ، وترتيب موفق ، فجاء كأنه من الكتب الحديثة التى يألف مطالعتها المحدثون وماهو إلا كتاب مضت عليه عدة قرون .

وقد أتحف المطبوعات العربية بسفر جديد فى علم النحو سلك فيه المسلك الذى توخاه فى تجديد كتاب الكفاية . فعمد الى كتاب جليل القيمة من المؤلفات النحوية وهو كتاب قطرالندى لامام النحو ابن هشام فصاغه صياغة جديدة جمع فيها كل ما فيه من فوائد وميزات ، ولكنه أبرزه فى معرض عصرى يسهل على الكافة الاطلاع عليه والاستفادة منه .

وإننا إزاء هذه الجهود الجبارة التى يبذلها هذا الاستاذ الالمعى فى تجديد كتب الأقدمين لا يسعنا إلا التنويه بفضله والاشادة بذكره ، راجين أن يحذو جميع من يقومون بتدريس تراث الأولين حذوه ، فان أثر ذلك يكون عملا ضخما تبتنى عليه أكبر نهضة علمية عرفها الشرق الى اليوم .

الآداب الاسلامية :

هذا كتاب وضعه الاستاذ الجليل السيد على فكرى الأمين السابق لدار الكتب المصرية متابعا بذلك سلسلة كتبه النفيسة التى وضعها فى التربية والأخلاق والأدب .

موضوع الكتاب : جمع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الداعية الى الآداب والأخلاق

وشرحها شرحا موجزا مع بيان الحكمة البالغة فيها ، والغاية السامية المقصودة منها . فجاء كتابه حافلا بما يود كل إنسان أن يراه مجتمعا لديه فى كتاب .

ولا ننسى أن للاستاذ النابه فكرى أسلوبا فى التاليف يستهوى القارئ ويجذبه للمطالعة ، وكتب الآداب تكون عادة مملة ولكن ما يكتب على أسلوب هذا الكتاب منها يكون داعيا للمطالعة ، ومحببا الى العمل بما فيها .

وقد طبع هذا الكتاب بمكتبة عيسى الحلبى الكتبى المشهور طبعا أنيقا زاد جمال الموضوع رونقا .

ارشاد البشر الى حقيقة القضاء والقدر :

هذا اسم رسالة تقع فى اثنتين وعشرين صفحة وضعها صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ ابراهيم محمد عبد الباقى من علماء الأزهر ، يعالج فيها مسالة القضاء والقدر ، وهى المسألة التى شغلت العلماء قديما وحديثا ، وقد سلك الاستاذ فى رسالته طريقا وسطا بين المذاهب كلها محاولا أن يعتمد على البرهان العقلى والنقلى فى كل مايقرره .

فهذه الرسالة التى تقرأ فى مجلس واحد قد جمعت من آراء القدماء والآيات الدالة على حرية الارادة ، وعلى عدم منافاة ذلك للقضاء والقدر ، مايحب كل إنسان أن يراه ماثلا أمامه . فنشكر فضيلته على هذه الهدية .

any of you hath performed his wudû[s], he may go to sleep in a state of ritual impurity."

أحدُكُمْ فَلْيَرْقُدْ وَهُوَ جُنُبٌ »

Chapter 27.

— ٢٧ —

On a man in a state of ritual impurity through sexual iutercourse first performing the wudû[s] and then going to sleep.

باب الجُنُبِ يَتَوَضَّأُ ثُمَّ يَنَامُ:

1. We are informed by Yahyâ b. Bukair, who received it from Al-Laith, through [c]Ubaidullâh b. Abu Ja[c] far, through Muhammad b. [c]Abdu-Rahmân, through [c]Urwah, through [c]A[s] ishah, who said :

١ — حدثنا يحي بن بُكير قال حدثنا الليث عن عبيد الله بن أبي جعفر عن محمد بن عبد الرحمن عن عروة عن عائشة قالت :

"When the Prophet (Allâh bless him and give him peace) wished to go to sleep when in a state of ritual impurity, he used to wash his parts, and then perform the wudu', as for prayer."

« كانَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذَا أرادَ أنْ يَنَامَ وَهُوَ جُنُبٌ غَسَلَ فَرْجَهُ وتوَضَّأ للصَّلاةِ » .

2. We are informed by Mûsa b. Ismâ[c] îl, who had it from Juwairiyah, through Nâfi[c] , through [c]Abdullâh, who said :

٢ — حدثنا موسى بن اسماعيل قال حدثنا جُوَيْرِيَةُ عن نافع عن عبد الله قال:

" [c]Umar asked the Prophet for his ruling as to whether any of them might go to sleep in a state of ritual impurity. He replied : "Yes, when he hath performed the wudû[s] ".

« استَفْتَى عُمَرُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم : أيَنَامُ أحدُنَا وَهُوَ جُنُبٌ؟ قالَ : نَعَمْ إذَا توَضَّأ » .

3. We are informed by [c] Abdullâh b. Yûsuf who had it from Mâlik, through [c]Abdullâh b. Dînâr, through [c]Abdullâh b. [c]Umar who said :

٣ — حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أنَّهُ قال :

" [c]Umar b. Al-Khattâb mentioned to the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) that his son "Abdullâh was *sometimes* in a state of ritual impurity through sexual intercourse during the night. The Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) said to [e]Abdullâh : "Perform the wudû[s], and wash thy member, and then go to sleep."

« ذكر عُمَرُ بنُ الخَطّاب لرسول الله صلى اللهُ عليه وسلم أنهُ تُصِيبُهُ الجَنَابَةُ مِنَ الليْلِ ، فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : تَوَضأ واغْسِلْ ذَكَرَكَ ثُم نَمْ » .

"Once the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) met me when I was in a state of impurity. He took me by the hand and I walked with him until he sat down. I then stole away from him, went home and performed my ghusl. After that I returned and found him still sitting. He said : "Where hast thou been Abu Hurairah ?" When I told him he exclaimed : "Good gracious, Abu Hurairah ! A true believer can never defile by his contact."

« لَقِيَنِى رسولُ الله صلى اللهِ عليه وسلم وَأَنَا جُنُبٌ ، فَأَخَذَ بِيَدِى فَمَشَيتُ مَعَهُ حَتَّى قَعَدَ فَانسَلَلْتُ مِنْهُ فَأَتَيْتُ الرَّحلَ فَاغتَسَلْتُ ثُم جِئْتُ وَهُوَ قَاعِدٌ فقال : أَيْنَ كُنْتَ يا أَبَا هرٍّ ؟ فقلتُ له ، فقال : سُبْحَانَ اللهِ يا أَبَاهِرٍّ ! إنَّ المُؤْمِنَ لاَ يَنجُسُ »

Chapter 25.

— ٢٥ —

On the lawfulness of a man in a state of ritual impurity being in his house when he hath performed the wudû' before the ghusl.

باب كَينُونَةِ الجُنُبِ فِى البَيتِ إذا تَوَضَّأَ قَبلَ أنْ يَغتَسِلَ :

We are informed by Abu Nu ᶜaim, who had it form Hishâm and Shaibân, through Yahyâ, through Abu Salamah, who said :

حدثنا أبو نُعيم قال حدثنا هشام وشيبان عن يحي عن أبى سلمة قال :

" I once asked ᶜA ˢishah whether the Prophet (Allâh bless him and give him peace) used to go to sleep in a state of ritual impurity, and she replied : "Yes, but he performed his wudûˢ *first.*"

« سَأَلْتُ عائشةَ : أَكَانَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم يَرْقُدُ وَهُوَ جُنُبٌ ؟ قالت : نَعَمْ وَيَتَوَضأُ »

Chapter 26.

— ٢٦ —

On a man going to sleep in a state of ritual impurity through sexual intercourse.

باب نَومِ الجُنُبِ :

We are informed by Qutaibah, who had it from Al-Laith, through Nâfiᶜ, through Ibn ᶜUmar that :

حدثنا قتيبة قال حدثنا الليثُ عن نافع عن ابن عمر :

ᶜUmar Ibn Al-Khattâb asked the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) whether any of them could go to sleep in a state of ritual impurity. He replied ; "Yes, when

«أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّاب سَأَلَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : أَيَرْقُدُ أَحَدُنَا وَهُوَ جُنُبٌ ؟ قال : نَعَمْ إذَا تَوَضَّأَ

يَا أَبَا هِرَيْرَةَ ؟ قالَ : كُنْتُ جُنُباً فَكَرِهْتُ أَنْ أُجَالِسَكَ وَأَنَا عَلَى غَيْرِ طَهَارَةٍ ، فقالَ : سُبْحَانَ اللهِ ! إِنَّ المُسْلِمَ لاَ يَنْجُسُ » .

intercourse. "I eluded him", said Abu Hurairah, " and went and performed my ghusl. *When I returned*, he came up to me and said: "Where hast thou been, Abu Hurairah?" "I was in a state of impurity", replied I, "so I was loth to go and sit in thy company in my state of impurity." "Good gracious !" exclaimed the Prophet, "A Muslim can never defile by his contact. (1)".

— ٢٤ —

بابٌ : الجُنُبُ يَخْرُجُ وَيَمْشِي فِي السُّوقِ وَغَيْرِهِ .

وقالَ عَطَاءٌ : يَحْتَجِمُ الجُنُبُ وَيُقَلِّمُ أَظْفَارَهُ وَيَحْلِقُ رَأْسَهُ ، وإِنْ لَمْ يَتَوَضَّأْ :

Chapter 24.

A man in a state of ritual impurity through sexual intercourse may go out and walk about the market or elsewhere;

and ᶜAtâ' stated: "A man in a state of impurity may be wet-cupped, or pare his nails or have his head shaved, even though he have not performed a ritual ablution.

١ — حدثنا عبدُ الأعلى بن حماد قال حدثنا يزيد بن زُرَيع قال حدثنا سعيد عن قتادة أن أنس بن مالك حَدَّثه :

1. We are informed by ᶜAbdul-A ᶜlâ b. Hammâd, who had it from Yazîd b. Zuraiᶜ, who received it from Saᶜ îd, through Qatâdah, to whom it was related by Anas b. Mâlik that :

«أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كانَ يطوفُ عَلَى نِسَائه في اللَّيلةِ الوَاحِدَةِ وَلَهُ يَوْمَئِذٍ تِسْعُ نِسْوَةٍ » .

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) used to visit his wives in turn in the course of one night, there being nine of them at that time.

٢ — حدثنا عياشٌ قال حدثنا عبد الأعلى حدثنا حميد عن بكر عن أبي رافع عن أبي هريرة قال :

2. We are informed by ᶜAyyâsh, who had it from ᶜAbdu-l-A ᶜlâ, who received it from Humaid, through Bakr, through Abu Râfi,ᶜ through Abu Hurairah, who said :

---

1. Muslim doctors hold that this doctrine is true also of non-Muslims, and is borne out by the fact that it is lawful for Muslims to marry Christian women and Jewesses, and intercourse with them has no more implications than that with Muslim women.

The Qur'anic words (انما المشركون نجس = Idolaters are surely unclean) are held to refer to their deeds and not their bodies.

This hadîth is confirmed by Abu ᶜAwânah and Ibn Fudail, as fellow-witnesses with Sufyân, as regards "screening."

Chapter 22.

On a woman having an erotic dream.

We are informed by ᶜAbdullâh b. Yûsuf, who had it from Mâlik, through Hishâm b. ᶜUrwah, through his father, through Zainab bint Abu Salamah, through Umm Salamah the Mother of the Faithful, who said :

"Umm Sulaim the wife of Abu Talhah once came to the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) and said : 'O Messenger of Allâh, verily Allâh is not ashamed of the truth. Is a ghusl incumbent upon a woman if she have had an erotic dream? 'yes', replied the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace), 'if she have observed the substance ejaculated' ".

Chapter 23.

On the perspiration of one in a state of ritual impurity through sexual intercourse ;

and on the fact that a Muslim cannot defile by his contact.

We are informed by ᶜAli b. ᶜAbdullâh, who had it from Yahyâ, who received it form Humaid, who was told it by Bakr, through Abu Râfiᶜ, through Abu Hurairah that :

The Prophet (Allâh bless him and give him peace) once met him (Abu Hurairah) in a certain street of Al-Madînah, while he was in a state of ritual impurity through sexual

تابَعَهُ أبو عَوَانةَ وابنُ فضيل فى «السترِ» .

— ٢٢ —

بابٌ : اذا احْتَلَمَتِ المرأة :

حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أبى سلمة أمِّ المؤمنينَ أنّها قالتْ :

« جاءَتْ أمُّ سُلَيْم امرأةُ أبى طَلْحَةَ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالتْ : يارسولَ اللهِ إنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحى منَ الحَقِّ : هَلْ عَلَى المرأة منْ غسْلٍ إذَا هِىَ احتَلَمَتْ؟ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : نَعَمْ إذَا رأَتِ الماءَ » .

— ٢٣ —

بابٌ : عَرَق الجُنُبِ وأنَّ المسلمَ لاَ يَنْجُسُ :

حدثنا على بن عبد الله قال حدثنا يحى قال حدثنا حميد قال حدثنا بكر عن أبى رافع عن أبى هريرة

«أنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم لَقِيَهُ فى بَعْضِ طُرُق المدينَةِ وَهُوَ جُنُبٌ، فانخَنَسْتُ منْهُ ، فذهبَ فاغْتَسَلَ ، ثُمّ جاءَ فقَالَ : أينَ كُنْتُ يَا

who said : "While Job was performing his ablutions in a state of nudity etc."

« بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَاناً » .

Chapter 21.

— ٢١ —

On concealing oneself during the ghusl in the presence of other people.

بَابُ : التَّسَتُّرِ فِي الغُسْلِ عِنْدَ النَّاسِ :

1. We are informed by cAbdullâh b. Maslamah, through Mâlik, through Abu-n-Nadr the freedman of cUmar b. cUbaidullâh who had it from Abu Murrah the freedman of Umm Hâni' bint Abu Tâlib that he heard her say :

١ — حدثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله أنَّ أبامُرة مولى أم هانىء بنت أبي طالب أخبره أنه سمع أم هانىء بنت أبي طالب تقول :

"When I went to the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) in the year of the capture of Makkah, I found him performing the ghusl as Fâtimah was screening him. He said : "Who is this woman ?" And I replied : "It is I, Umm Hâni'."

« ذَهَبْتُ الى رسول الله صلى الله عليه وسلم عَامَ الفَتْحِ فَوَجَدْتُهُ يَغْتَسِلُ وَفَاطِمَةُ تَسْتُرُهُ فقال : مَنْ هَذِهِ ؟ فقلت : أَنَا أُمُّ هَانِىءٍ » .

2. We are informed by cAbdân, who had it form cAbdullâh, who received it from Sufyân through Al-Acmash, through Sâlim b. Abu-L-Jacd, through Kuraib, through Ibn cAbbas, through Maimûnah, who said :

٢ — حدثنا عبدانُ قال أخبرنا عبد الله قال أخبرنا سفيان عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد عن كريب عن ابن عباس عن ميمونة قالت :

"I once screened the Pophet (Allâh bless him and give him peace) while he was performing the ghusl required after sexual intercourse. He first washed his hands, then poured water with his right hand over his left, and washed his member and any part sullied. After that he rubbed his hand on the wall or the ground and performed his wudû' as for prayer, excepting his feet. Next he let the water flow over his body, and finally shifting his place he washed his feet."

« سَتَرْتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو يَغْتَسِلُ مِنَ الجنابَةِ ، فَغَسَلَ يَدَيْهِ ثُمَّ صَبَّ بِيَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ فَغَسَلَ فَرْجَهُ وَمَا أَصَابَهُ ، ثم مَسَحَ بِيَدِهِ عَلَى الحَائِطِ أو الأَرْضِ ثُمَّ تَوَضَّأَ وُضُوءَهُ لِلصَّلَاةِ غَيْرَ رِجْلَيْهِ ، ثُمَّ أَفَاضَ عَلَى جَسَدِهِ المَاءَ ، ثُمَّ تَنَحَّى فَغَسَلَ قَدَمَيْهِ » .

perform their ablutions naked in sight of one another, though Moses used to do so alone. So they said : 'By Allâh, the only thing that hindereth Moses from performing his ablutions together with us is that he is afflicted with varicocele. It happened once that when Moses went to perform his ablutions, he placed his garment upon a stone. The stone ran away with his garment, and Moses ran after it saying : 'Stone! my garment'. When the Children of Israel looked at Moses, they said: 'By Allâh, Moses hath no infirmity.' Moses recovered his garment and proceeded to beat the stone severely."

Abu Hurairah added: "By Allâh, his blows on the stone left six or seven scars."

2. It is also related through Abu Hurairah (1) from the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said :

"While Job was performing his ablutions in a state of nudity, there settled upon him locusts of gold. When Job began to gather them in his garment, the Lord called unto him : 'Job ! Have I not given thee enough to dispense thee form what thou seest ?' 'Yes verily, by Thy majesty,' replied Job. 'But I shall never be able to dispense with Thy blessing.' (2).

This hadîth is also related by Ibrâhîm, through Mûsa b. ᶜUqbah, through Safwân, through ᶜAtâʾ b.Yasâr, through Abu Hurairah, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace),

عُرَاةً ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ وكانَ موسى يغتسلُ وحدَه، فقالوا: واللهِ ما يمنعُ موسى أن يغتسلَ معنا إلا أنّه آدرُ، فذهبَ مرةً يغتسلُ فوضعَ ثوبَه على حجرٍ ففرَّ الحجرُ بثوبِه فخرجَ موسى في أثرِه يقولُ: ثوبي يا حجرُ، حتى نظرتْ بنو إسرائيلَ إلى موسى فقالوا: واللهِ ما بموسى من بأسٍ. وأخذَ ثوبَه، فطفقَ بالحجرِ ضرباً».

فقال أبو هريرة: والله إنّه لَنَدَبٌ بالحجرِ ستةٌ أو سبعةٌ ضرباً بالحجرِ

٢ — وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«بينا أيوبُ يغتسلُ عرياناً فخرَّ عليه جرادٌ من ذهبٍ فجعلَ أيوبُ يحتثي في ثوبِه، فناداه ربُّه يا أيوبُ ألم أكن أغنيتُك عمّا ترى؟ قال: بلى وعزّتك ولكن لا غنى بي عن بركتك».

ورواه ابراهيم عن موسى بن عقبة عن صفوان عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

1. With the isnâd of the previous hadîth.

2. Job was censured by God for being attracted by gold, and not for his nakedness, whence it follows that the performing of ablutions naked is permissible.

cloth, but he did not take it, and went away shaking off the water from his hands.

فَلَمْ يَأْخُذْهُ فَانْطَلَقَ وَهُوَ يَنْفُضُ يَدَيْهِ » .

Chapter 19.

— ١٩ —

On one who beginneth with the right side of his head in the ghusl.

بابُ : مَنْ بَدَأَ بِشِقِّ رَأْسِهِ الأَيْمَنِ فِي الغُسْلِ :

We are informed by Khallâd b. Yahyâ, who had it form Ibrâhîm b. Nâfi[c], through Al-Hasan b. Muslim, through Safiyyah bint Shaibah, through [c]A[s] ishah, who said :

حدثنا خلاد بن يحي قال حدثنا ابراهيم بن نافع عن الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة عن عائشة قالت :

"Whenever any one of us was ritually defiled through sexual intercourse, she used to take three handfuls of water *and pour them* over her head, after which she *likewise* washed her right side with one hand and the left with the other."

« كُنا إِذا أَصَابَتْ إِحْدَانَا جَنَابَةٌ أَخَذَتْ بِيَدَيْهَا ثَلاثاً فَوقَ رَأْسِهَا ثُمَّ تَأْخُذُ بِيَدِهَا عَلَى شِقِّهَا الأَيْمَنِ وَبِيَدِهَا الأُخْرَى عَلَى شِقِّهَا الأَيْسَرِ »

Chapter 20.

— ٢٠ —

In the Name of Allâh the All-Loving the Most Merciful.

بسم الله الرحمن الرحيم

On one who performed the ghusl naked, apart in solitude, and on one who covered himself up. To cover oneself up is preferable;

بابُ : مَن اغْتَسَلَ عُرْيَاناً وَحْدَهُ فِي الخَلْوَةِ ، وَمَنْ تَسَتَّرَ فَالتَّسَتُّرُ أَفْضَلُ .

and on Bahz having stated through his father, through his grandfather, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace); "Allâh is more worthy of modesty being observed before Him than any man."

وقالَ بَهْزٌ عن أَبِيهِ عنْ جَدِّهِ عن النبي صلى الله عليه وسلم « اللهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنهُ مِنَ النَّاسِ » :

1. We are informed by Ishâq b. Nasr, who had it form [c]Abdu-r-Razzâq, through Ma[c] mar, through Hammâm b. Munabbih, through Abu Hurairah, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace), who said :

حدثنا اسحاق بن نصر قال حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : .

"The Children of Israel used to

« كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ يَغْتَسِلُونَ

AL-AZHAR REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR UNIVERSITY, CAIRO.

ترجمة جامع صحيح البخارى

للأستاذ ابراهيم حسن الموجى

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

BY

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

The Book of GHUSL

(CONTINUED)

Chapter 18.

On shaking off the water with the hands, after the ghusl required by the state of ritual uncleanness through sexual intercourse.

We are informed by ᶜAbdân, who had it from Abu Hamzah, who heard it from Al-Aᶜmash, through Sâlim, through Kuraib, through Ibn ᶜAbbâs, who stated that Maimûnah said :

"I set ghusl-water before the Prophet (Allâh bless him and give him peace) and covered his head with a garment. He poured water over his hand which he washed, and pouring water with his right hand over his left he washed his parts. Then striking the ground with his hand he rubbed it and washed it, rinsed his mouth, cleansed his nostrils, washed his face and arms, and poured water over his head. Next he let the water flow over his body, and shifting his place he finally washed his feet. I handed him a

كتاب الغسل (تابع ماقبله)

— ١٨ —

بابُ : نَفْضِ اليَدَيْنِ مِنَ الغُسْلِ عَنِ الْجَنَابَةِ :

حدثنا عَبْدانُ قال أخبرنا أبو حمزة قال سمعت الأعمش عن سالم عن كريب عن ابن عباس قال قالت ميمونة :

« وَضَعْتُ للنبيّ صلى الله عليه وسلم غُسْلاً فَسَتَرْتُهُ بِثَوْبٍ وَصَبَّ على يَدَيْه فَغَسَلَهُمَا ثمَّ صَبَّ بِيَمِينِهِ عَلَى شِمَالِهِ فَغَسَلَ فَرْجَهُ فَضَرَبَ بِيَدِهِ الأرْضَ فَمَسَحَهَا ثم غَسَلَهَا فَمَضْمَضَ وَاسْتَنْشَقَ وَغَسَلَ وَجْهَهُ وذِرَاعَيْهِ ثمَّ صَبَّ عَلَى رَأسِهِ ، وَأفَاضَ عَلَى جَسَدَه ، ثُمَّ تَنَحَّى فَغَسَلَ قَدَمَيْهِ فَنَاوَلْتُهُ ثَوْباً

مسلمو الهند

يهدون حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام وساما

إن الاعمال الجليلة التى قام بها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر لمصلحة العلم والاسلام ، فى المدة القصيرة التى مضت منذ توليه المشيخة ، قد ترامت أنباؤها الى العالم الاسلامى من أدناه الى أقصاه ، حتى لم يبق قطر من أقطاره إلا وناله حظ يناسبه من الاصلاحات التى تمت على يدى هذا المصلح الكبير فى مصر .

إذا كان الله قد قدر لمصر أن تكون مثابة للاسلام وعلومه منذ أجيال ، بسبب وجود الجامعة الأزهرية بها ، فان مكانتها من هذه الناحية ستزداد لفتا لأنظار المسلمين فى بقاع الأرض كافة على نسبة نهضتها الدينية والعلمية الراهنة ، ويكون البحث فى وسائل تحقيق ظن الشعوب الاسلامية فيها من الأمور التى يجب أن تستوعب تفكير الذين يهمهم أن تبقى لمصر هذه الميزة .

فكان من فضل تقدير الله أن يكون على رأس الأزهر فى هذه الآونة ، التى تشخص فيها أبصار الجماعات الاسلامية الى مصر ، رجل تمثلت فيه العبقرية الدينية فى أكمل مظاهرها ، فقد جمع الأستاذ الامام الى غزارة العلم قديمه وحديثه ، إلماما واسعا بأحوال الجماعات وعوامل نهوضها ، وعلل تدهورها ، ومعرفة تامة بأساليب علاجها ، وطرق تنبيهها ، وخصائص نفسية عالية من الحلم والتبصر والتواضع وضبط النفس ، وهى أخص صفات الذين خلقوا ليكونوا قادة للجماهير .

وإذا كانت مثل هذه النفسية الثرية فى الصفات الجليلة حاجة كل إدارة يرجى لها التطور والتكمل والوصول الى الغاية المنشودة لها ، فان الجامعة الأزهرية أحوج ما تكون اليها ، لأن عليها مع العمل للحاضر ، أن ترأب صدوعا تخلفت من العهود الماضية ، وأن تسد ثغرات بقيت آمادا طويلة فى بنائها تنافى الحياة الصحيحة ، بل تؤدى الى الانهيار المحقق .

وليس يعزب عن ذاكرة الناس الأحوال المضطربة التى دعى فضيلة الأستاذ الأكبر ليتولى المشيخة فيها . فلا أقول إن هذه الأحوال كانت تكفى لتثبيط أعلى الهمم عن مواجهتها بما يرضى النواحى المتعاكسة ، بل كانت تقضى عليها بالفشل من أول صدمة ، ولكنها العبقرية التى يتحلى بها الأستاذ الامام هى التى وفقت لوجدان حل لكل عقدة ، ومعول لكل عقبة ، وعلاج لكل علة ، وتصريف لكل مفاجأة .

وإذا كان العالم الاسلامى كله قد اغتبط وثلج صدره مما ترامى اليه من أخبار الاصلاحات فى الأزهر ، فان خطب الأستاذ الامام فى الظروف المختلفة قد شخصت بتوسع العلل التى انتابت المسلمين فى جميع بقاع الأرض ، وكانت سببا فى تقصيرهم عن متابعة خطى أسلافهم فى التقدم العلمى والعملى ، وإفادة مجموع الانسانية بثمرات جهودهم فى المجالات الحيوية المختلفة ، ووصفت العلاجات الحاسمة لمادة هذه الأمراض العضالة . فتلقى العالم الاسلامى هذه الوصايا الجليلة بما تستحقه من الاكبار والاجلال ، وكان لها فى جماعاته كلها أعمق تأثير . وأصبحت مصر ، عن جدارة ، صاحبة الولايه الدينية على جميع المسلمين فى جميع بقاع المعمور .

فلا غرو بعد هذا كله أن تعرب له تلك الجماعات عما تكنه قلوب آحادها له من الحب الصميم والتقدير العظيم ، وقد تبينا ذلك من الكتب التى ترد لفضيلته تترى فى كل بريد .

وقد رأت الجمعية الاسلامية الهندية المسماة (إسلام سيفاسماج) أن تظهر لفضيلة الأستاذ الامام هذا الشعور بمثال محسوس ، فآثرت أن تخصه فى هذه السنة بالوسام التى جعلته وقفا على من يقوم للاسلام بعمل عظيم .

وقد أذاعت هذه الجمعية نبذة من تاريخ فضيلته جاء فيها :

« إن فضيلته قام بخدم جليلة لمصلحة الاسلام أعظمها قيمة الاصلاحات القيمة التى أدخلها على الجامعة الأزهرية الكبيرة البعيدة العهد بالوجود . فانه سن لها مناهج تعليمية توخى فيها الأوضاع الحديثة ، وشرع فى ترجمة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة الى جميع اللغات الحية فى العالم . وأوفد بعوثا دينية الى جميع الأقطار لنشر تعاليم الاسلام ، وللدفاع عنه ضد الذين يشوهون تعاليمه من المستشرقين ، وقد بذل جهودا مشكورة لتحسين حال المسلمين فى تلك الأقطار .

« وفوق هذا كله فقد أرسل فضيلته خطابا الى مؤتمر الأديان الدولى حث فيه على وجوب مكافحة الالحاد الذى ينتشر اليوم فى العالم انتشار النار فى الحطب .

« وقد ألف لجنة من العلماء للقيام بحملة ضد البدع والخرافات الذائعة ، وأهاب بالحكومة لابطال العادات التى تخالف الآداب العامة مما شاع بين طبقات الشعوب .

« وجدد فضيلته نظام الوعظ والمحاضرات فى جميع المساجد والمحلات العامة فجعلها أعم فوائد.

« أما جهوده فى سبيل القضاء على سوء التفاهم بين الفرق الاسلامية المختلفة ، والسعى لتوثيق عرى الوفاق والوحدة بينها لتوفير سعادة المجتمع برمته ، فهى جديرة بتقدير العالم الاسلامى كله وبشكره .

« فنبتهل الى الله أن يمنحه القوة ليزداد مضيا فى خدمة الاسلام، ونطلب اليه تعالى أن يحبوه برعايته فى الدنيا والآخرة » انتهى .

هذا وقد أعلنت هـذه الجمعية « أن مجلس إدارتها قد قرر فى هـذه السنة منح وسامها الذهبى لشخصية من الشخصيات الاسلامية البارزة ، من التى تـكون قد قامت بعمل مجيد وخدمة نافعة للمسلمين ، فتمنحها هذا الوسام اعترافا بفضلها ، وقياما بواجب تقديرها .

« ولما كانت هذه الجمعية قد أهـدت فى السنوات الماضية وسامها الذهبى الى كل من حضرة صاحب السمو نظام حيدر آباد لتأسيسه مسجدا للمسلمين فى لندن وتقديرا لأياديه البيضاء فى المشاريع الاسلامية؛ والى حضرة صاحب السماحة أمين افندى الحسينى مفتى فلسطين لمحافظته على الأماكن الاسـلامية المقدسة ، والى حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر لخدمته الاسلام والمسلمين ، وجناب المرحوم جلال الدين برنتون لاعتناقه الاسلام ، وتأديته خدمات جليلة للانسانية ، فهى ترجو الآن أن يتفضل عليها القراء بترشيح الشخصية التى يرون فيها استحقاقا لهذا الوسام ، بأن يبعثوا بمعلومات وافية عنها ، مصحوبة بصورته الفوتوغرافية ، وأن يصل الرد الى مجلس الادارة قبل يوم ٢٩ شعبان سنة ١٣٥٦ . وسيكون أول يوم عيـد الفطر المبارك موعـدا لاعلان النتيجة وإرسال الوسام مع تلغراف التهنئة .

بحث فى مسألة التاج

زار أحد محررى جريدة المصرى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى ، لسؤاله عن الحـكم الدينى فى وضع ملوك المسلمين التاج على رءوسهم ، لمناسبة مانشره حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون من مخالفة ذلك للتقاليد الاسلامية . وقد أجابه فضيلته بجواب جمع أحسن ما يقال عن التاج من الناحية الدينية والناحية التاريخية ، وقد رأينا أن نتحف قراءنا بهذه الفذلـكة الثمينة ، فهى من أجل مايدخر لفضيلته فى هذه المجلة. قال حفظه الله:

اعتاد الناس أن يصوغوا التاج من ذهب ، وأن يرصعوه بالجواهر . أما الجواهر فلا خلاف بين جمهور العلماء فى جواز استعمالها ولبسها حتى نقل بعضهم إجماع المسلمين على ذلك .

وأما الذهب فقد حرم جمهور العلماء لبسه ، وأجازه بعض العلماء . وقد كان الامام الشافعى فى مذهبه القديم يقول فيه بالجواز مع الـكراهة . والامام داود يقول فيه بالجواز . وكذلك بعض أصحاب الشافعى .

على أن مسألة الذهب فى التاج ليست ضرورية إن أريد التاج واستحسن . فقـد وجد معدن آخر أغلى منه وأنفس يمكن استعماله فى التاج ولم يوجد فيه خلاف معتبر عند الفقهاء .

فسأله المحرر : ما رأى فضيلتكم فى العادات الاسلامية والتقاليد ؟ فأجابه فضيلته :

إن سمو الأمير من علماء التاريخ ، ولا أشك فى أنه ذهب الى العصور الأولى من عصور الاسلام ، فانه لم يعرف استعماله عند العباسيين ولا عند الأمويين ، وإن كان قد عرف أن بعض الخلفاء العباسيين وضع جوهرة فى العمامة والعمائم تيجان العرب .

وإذا نحن ذهبنا الى الدولة الفاطمية فى مصر وجدنا الخلفاء فيها استعملوا التاج ، وكان لهم تاج ينعت بالشريف ، ويعرف بشدة الوقار ، وكان يلبسه الخلفاء فى المواكب العظام . وفيه جوهرة لا تقوَّم بمال لنفاستها ، وحولها جواهر أخرى دونها ، وكان يلبس بدل العمامة .

هنا سأله المحرر : وماذا كان شعار الخلفاء فى غير الدولة الفاطمية ؟ فأجابه فضيلته :

كان شعارهم سرير الملك وقبة تضرب فوقه (وكانت أحيانا تسمى التاج) ، والخاتم والبردة والقضيب وثياب الخلافة .

ومن لطيف ما يروى فى ذلك أن الملك السعيد اسماعيل أحد ملوك بنى أيوب من اليمن كان به هوج ، فادعى أنه من بنى أمية ولبس ثياب الخلافة ، وكان طول الكم إذ ذاك عشرين شبرا .

ومما لاشبهة فيه أنه بعد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم استحدثت أمور كثيرة ، وقد كانت تزيد كلما زادت الحضارة ، حتى كان العرش يكلل بالذهب ، والغلمان حوله يقفون بمظلات ترفع على رماح فيها سلاسل من ذهب مرصعة بالزبرجد والياقوت .

وكان الخليفة أحيانا يتمنطق بوشاح أو منطقة مرصعة بالأحجار الكريمة ويضع فى عنقه قلادة من الذهب مرصعة بأحجار كريمة .

فسأل المحرر : هذا حال الخلفاء ، وماذا كان حال الملوك ؟ فأجابه فضيلته :

لبس ملوك الاسلام أطواق الذهب فى الأعناق ، وأسورة الذهب فى اليدين ، وقد كان خلفاء بغداد يرسلون الى ملوك مصر التشريف على أيدى الرسل ، وهو جبة أطلس أسود بطراز من ذهب ، وطوق من ذهب وسواران من ذهب وفرس بمركب من ذهب ، وعلم أسود يكتب عليه بالبياض اسم الخليفة .

وقد فعل هذا مع السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأخيه العادل . وآخر من وصلت اليه الخلعة والطوق والتقليد من ملوك بنى أيوب ، الناصر يوسف بن العزيز بن السلطان صلاح الدين بن المستعصم سنة ٦٥٥ هجرية .

والخلاصة أن التاج لم يعرف فى الدولتين الأموية والعباسية ، وقد عرف فى الدولة الفاطمية فى مصر ، وأن شعار الخلافة لم يكن شيئا محدودا حدده شرع أو عرف ، وأن العادة لم تكن مطردة . انتهى .

بسم الله الرحمن الرحيم

الروح الاسلامية ومدى تأثيرها

فى النفس البشرية

— ١٠ —

المقومات الاجتماعية

الاسلام آخر الاديان السماوية نزولا ، وكتابه خاتمة الوحى الالهى للانسانية ، وقد نص فيه على ذلك فى غير موطن منه ، وأثبت الزمان ذلك بعدم قيام دين بعده الى يومنا هذا . اللهم إلا مذاهب لبعض الأفراد ادعى أصحابهم أنهم رسل لله ، وبعضهم غلا فاعتبروا زعيمهم الخالق نفسه متجسدا . ولكن هذه المزاعم لم تصدقها الحوادث ، فلم تقم لتلك الأديان المزعومة قائمة ، ولو كانت من الله لبزت جميع الأديان فى الأتباع ، ولكانت لها دولة وصولة فى العالم ، ولم تكن على ما هى الآن ، وقد مضى على بعضها أكثر من قرن ولا تزال مجهولة لا يكاد يعرفها إلا عدد قليل فى كل نحلة .

بهذا الاعتبار جاء الاسلام حائزاً لمميزات الخواتيم ، وهى النهايات التى ليس وراءها مذهب ، سواء أكان ذلك فى المعتقدات والعبادات والمعاملات ، أم فى الأخلاق والآداب وروابط الاجتماع . وبما أننا اليوم بصدد المقومات الاجتماعية فاننا نبسط القول فيها تحت ضوء مقرراتها الرسمية ، فنقول :

كانت الروابط الاجتماعية قبل الاسلام لا تعدو دائرة القوميات ، فكان لكل قوم دعتهم الضرورة للحياة حياة مشتركة نعرة جنسية قائمة على المصلحة المادية دون سواها . فأفراد هؤلاء القوم كانوا يقبلون الاشتراك فى الحياة دفعا لعاديات جماعات أخرى ، وتعاونا على مبدأ تقسيم الأعمال ، والاستفادة من الميول المختلفة فى المحاولات المعيشية .

على هذا الأساس قامت جميع الربط الاجتماعية السابقة ، لم تشذ واحدة منها فتتطلب غرضا أسمى من المصلحة المادية ، وهو الى اليوم مدار الدعوة الرئيسية الى الالتفاف حول راية واحدة أو التوجه لغاية معينة . ولكن هل هذه النعرة القومية هى المثل الأعلى للدعوة الى الاجتماع ، والى التضامن فى الحياة ، والتساند فى تذليل ما يعترضها من عقبات ؟ اللهم لا ، واليك البيان :

الأمم تتطاب اليوم إبطال الحروب لما ثبت لها أنها تصيب الغالب والمغلوب على السواء ، بسبب دخول الحياة العالمية فى ترابط اقتصادى تام ، فما يفسد هذا الترابط أو يخله تقع تبعته على جميع الأمم بلا استثناء. فقد انتصرت الأمم الأوربية على الألمان فى الميدان ، ولكنها تحملت وإياها تبعات تلك الحرب الشعواء ، فما من أمة منها إلا وقد اضطرب جثمانها ، واختل توازنها ، ورجعت فى بعض شئونها القهقرى عشرات من السنين .وإذا تلتها حرب أخرى فستكون نتائجها أعدى على كيانها من الحرب السابقة ، وأشد إخلالا لتوازنها . ولذلك تجد الأمم تتجنب وقوع الحرب جهد طاقتها .

ولكن تجنب الحرب لا يكون بالتمنى ، فهو يقتضى تحديد التسلح ، وتكافل الأمم على حل مشاكلها بالتحاكم الى العدل لا الى السيف ، واتفاقها على كل من يخالف ذلك بالتألب عليه وإلزامه حده بالقوة .

كل هذا لا يكفى فان الجوع كما قيل كافر ، والأمم التى تنمو تحتاج لمادة جديدة لتقيت بها الزيادة فيها ، وإلا طاشت الأحلام تحت تأثير الحاجات الملحة ، وأحدثت ما لا تحمد عقباه من الاضطراب ، والضمير البشرى أصبح لا يطيق أن يضغط على أمة ويضيق على خناقها لتموت تحت تأثير حاجة طبيعية لبعضهم منها أوفى نصيب ، ومقدار يزيد عن حاجتها زيادة عظيمة .

من هنا نشأت فكرة توزيع المواد الأولية العالمية توزيعا عادلا بين الأمم حتى يعدم تطلعها للاستعمار ، والعدوان على غيرها من الأمم . ولكن وصولها الى هذه النتيجة من العسر بمكان ، فان شراهة المحرومين ، وشح المستأثرين ، تمنع من الوصول الى حل وسط .

ولكن الوصول الى هذا الحل أمر لا محيص منه ، فان الترابط بين الأمم تشتد عراه يوما بعد يوم ، وتداخل المصالح العالمية يزداد شيوعا على نسبة تقدم المدنية ، والمدنية تيار جارف يطغى فى طريقه على كل عقبة .

ولسنا ننسى أنه الى جانب هذه العوامل الداعية الى التفاهم بين الشعوب ، توجد عوامل أدبية أشد منها تأثيرا ، منها ذيوع مبادىء الفلسفة بين الناس ، وهى تصور الحروب البشرية تصويرا لا قبل للضمير البشرى بقبوله ، وتلطف الشعور الانسانى الى حد النفور من كل عمل وحشى ، وسقوط الأوهام التى كانت تبنى عليها مجادة الأمم من الانتصار فى الحروب ، واستئصال شأفة الأعداء ، أو تمزيقهم كل ممزق ، وضعف التعصب للأديان الى درجة أنه أصبح يعتبر من مفسدات الشخصية البشرية . وفوق هذه العوامل كلها عامل ذيوع العلم بين الأفراد وقضائه على كل عقيدة باطلة بأدلة لا تحتمل النقض ، وتجليته للناس العقائد الفطرية من وجود الخالق والروح والخلود والعالم الروحانى بحجج حسية تثلج عليها الصدور ، ويشترك فى الخضوع لها الناس كافة .

من هنا يدرك كل من يتأمل فى أحوال الانسانية أنه لا بد ، تحت تأثير جملة هذه العوامل

المتضافرة ، من توحد الانسانية فى المعتقدات الأولية ، وفى الآداب النفسية ، وفى ربط الاجتماع أيضا .

نعم إن بلوغ هذا الشأو يحتاج لوقت طويل ، ولكن الانسانية متجهة اليه ، ولا يتخيل شىء يصدها عنه ، إذا عرف أن ناموس الارتقاء طبيعى ، وأنه لا محيص من تأثيره . فالروابط الاجتماعية ستنقلب من المادية الباحتة ، التى تفضى الى التراحم والتنازع على العيش ، الى مادية وروحية فى آن واحد ، تفرض على الكافة حقوقا تتناسب وترابط مصالحهم ، وتداخل مرافقهم، ووصولهم الى درجة من السمو الأدبى بحيث يستفظعون أن يعيش بعضهم بامتصاص دماء بعض.

فالاسلام الذى جاء بالمثل العليا فى جميع الشئون الانسانية ، جاء بالمثل الأعلى فى هذه الناحية أيضا ، فلم يدع الى اجتماع أساسه القومية ولا الجنسية ، ولم يعبأ بالأواصر اللغوية ولا التاريخية ، ولكنه تخطى تلك الاعتبارات الخاصة كلها ، ودعا الى المثل العليا للاجتماع الذى ستنتهى اليها الانسانية ، وهى الوحدة النوعية ، والأصول الأدبية ، والمبادئ الخلقية ، فجاء مجتمعه ذا صبغة عالمية عامة ، لا قومية خاصة . وأول أساس وضعه فى هذا الصرح الاجتماعى العالى قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » . فأنت ترى أنه يدعو الناس كافة ولا يدعو قبيلة واحدة ، ولا أمة بعينها ، وقد جاءت جميع آياته داعية الى هذا المبدأ السامى مبدأ الوحدة الانسانية ، بصرف النظر عن جميع الفوارق من جنس ولغة ولون . وهو لأجل أن يوطد أركان هذه الوحدة ويجعلها حقيقة واقعة ، لا خيالا شعريا ، دعا الى الدين الجدير بأن يكون دينا عاما للانسانية ، وهو دين الفطرة الذى يتأدى اليه الانسان محفوزا بمقتضيات فطرته لا بتعليم معلم ، ولا بتوريث مورث ، فقال : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون» . والفطرة تدعو الى الاعتقاد بخالق الكون ، وبالروح وبقائها فى عالم وراء هذا العالم ، وبترتب أحوالها هنالك على سيرتها فى هذا العالم ، وعلى حب الحق ، وكراهة الباطل ، وإيثار العدل ، ومكارم الأخلاق ، وإقامة دولة الفضيلة فى الأرض .

يقول قائل : كل دين يدعو الى هذا فأى مزية للاسلام عليها ؟ نقول : نعم ، والاسلام يقرر أنه ليس بدين جديد ، ولكنه الدين الأول الذى أوحاه الله الى أول أنبيائه ، فحرفه الناس وأخرجوه عن أصوله ، وتفرقوا فيه ، وذهب كل فريق بما تخيله منه ، ينابذ به سواه ويستحل دمه. فجاء الاسلام لتنبيه الناس الى هذا الخطأ البين ، والضلال البعيد . قال الله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء

ويهدى اليه من ينيب . وما تفرقوا إلا من بعـد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الـكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب . فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولـكم أعمالـكم ، لاحجة بيننا وبينكم (أى لا محاجة ولا خصومة) الله يجمع بيننا واليه المصير » . « إن الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الـكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم » .

فالاسلام كما ترى لا يتوجه للامم بوصف أنه دين جديد ، ولـكن بوصف أنه دين الانسانية كلها ، وإنما أعيد الوحى به نقيا خالصا ليرفع الخلاف الذى أوجده قادة الأديان بغيا بينهم ، ففرقوا الناس أحزابا وشيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون . قال تعالى : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء » .

فالاسلام يدعو لتوحيد دين الانسانية ، وهو الدين الذى فطر عليه الناس جميعا ، وهو إنما تعددت صوره بفعل الرؤساء الذين اقتضت أهواؤهم أن يستغلوا الخلاف بين الناس ، مواتاة لمطامعهم ، ومسايرة لمزاعمهم .

فالدين فى نظر الاسـلام كل لا يقبل التجزؤ ، ويشمل ما أوحاه الله الى الناس كافة ، واعتبار كل من أرسلهم اليهم فى جميع العصور والأجيال ، قال الله تعالى : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الـكافرون حقا ، وأعتدنا للـكافرين عذابا مهينا » .

والاسلام لأجل أن يسد جميع المسارب على التضليلات التى يتذرع بها رؤساء الأديان لخدع الشعوب ، وتفريقهم وحمل بعضهم على معاداة بعض ، أقام العقـل حكما يرجع اليه فى التفرقة بين الحق والباطل ، وجعل الدليل وسيلة من وسائل الوصول الى لباب المسائل المتنازع عليها . وزاد الاسلام على هذا ، القضاء على الاعتداد بالموروثات من العقائد والتقاليد ، وجعل كل إنسان مسئولا عن نفسه ، وخلى ما بينه وبين ربه باسقاط الوسطاء الذى انتحلوا لأنفسهم هذا الحق ، فى غفلة العقل ، وفى دور طفولة الانسانية .

فالأديان كما يقول المعترض تدعو كلها الى عقائد واحدة ، ولـكنها ملتاثة بشوائب الآراء البشرية ، مما لا مناص من التنابذ عليه ، ولـكن الاسلام يدعو الى تلك العقائد خالصة من شوائب الآراء ، فلا تجد الشعوب المختلفة مانعا يمنعها من الأخذ بها باعتبار أنها دين الانسانية جمعاء لا دين طائفة من الطوائف ، ولا أمة من الأمم . فدين الانسانية لا يجوز أن يكون حاملا طابعا من قومية ، ولا أثرا من عقلية ، ولا شائبة من حالة نفسية . بل أصولا أولية ، ومبادىء كلية ، وآدابا عالمية .

هذه الغاية سينتهى اليها العقل البشرى حتما ، وإذ ذاك لا تجد الانسانية فى طريق وحدتها حائلا يمنعها منها ، وعند ذاك تكون الأحوال الاقتصادية العالمية قد استقرت على قرار مكين ، وتكون العلوم قد بلغت شأوا تصلح معه أن تطهر النفوس من دنس الميول الساقطة ، وتخلص المدنية من آفاتها الموبقة ، فتقوم على سياسة رشيدة فى حكوماتها ، وأخوة صادقة بين جميع وحداتها ، وإذ ذاك يتحقق ما وعد الله به فى قوله : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » .

فالاسلام بما شرعه من جعل أصول الاجتماع قائمة على الأصول الأدبية ، والمبادئ الخلقية والعقائد الفطرية ، قد وضع أساس مجتمع عالمى عام ستقوم عليه البشرية حين تبلغ رشدها ، وتعرف حدها . وقد جرى فى ذلك على سنته من الدعوة الى النهايات من كل الأمور ، والاهابة الى الغايات فى جميع الشئون ؟

محمد فريد وجدى

مواطن الصنيعة

لا يستطيع الانسان أن يسع بمعروفه جميع الناس ، فاذا شرح الله صدره للبذل فليتحر أن يكون ذلك فى موضعه . لذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تنفع الصنيعة إلا عند ذى حسب ودين » . وقال أيضا : « إذا أراد الله بعبد خيرا جعل صنائعه فى أهل الحفاظ » .

وقال حسان بن ثابت الشاعر الاسلامى المشهور :

إن الصنيعة لا تكون صنيعة   حتى يصاب بها طريق المصنع
فاذا صنعت صنيعة فاعمل بها   لله أو لذوى القرابة أودع

وقال حكيم : « على قدر المغارس يكون اجتناء الغارس » فأخذه الشاعر وقال :

لعمرك ما المعروف فى غير أهله   وفى أهله إلا كبعض الودائع
فمستودع ضاع الذى كان عنده   ومستودع ما عنده غير ضائع
وما الناس فى شكر الصنيعة عندهم   وفى كفرها إلا كبعض المزارع
فمزرعة طابت وأضعف نبتها   ومزرعة أكدت على كل زارع

وأحسن من هذا قول الشاعر :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه   لا يذهب العرف بين الله والناس

التفسير

سورة لقمان

– ٧ –

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) :

قد ابتدأ جل جلاله الوصايا التى أوصى بها لقمان ابنه بالنهى عن الشرك بالله ، وبيان أن الشرك ظلم عظيم . ولقمان هو الذى آتاه الله الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا . ولا يخفى مقدار التنويه العظيم بشأن هذه الوصية المستفاد من بيان أن آتاه الله الحكمة ، وبيان أن الوصية صادرة منه لابنه ، والابن أعز المخلوقات على الأب ، فالوصية له أثمن وأغلى ما يملكه ويبذله المرء ، إذ كانت بذلا لأعز الخلق عليه . وبين أن هذه الوصية صدرت منه وهو يعظه ، وفى هذا تنويه جديد بشأنها ، فقد يوصى المرء شخصا فى أثناء حديث للتفكهة أو المداعبة أو السمر ، فلا يكون لها من جمع الذهن واختيار الأهم ما يكون لها وقد سيقت فى مقام الوعظ والارشاد .

ثم أردف حق الله عليه ، وهو ألا يشرك به شيئا ، حق أبويه ، إذ كانا الطريق الذى برز منه للوجود ، وكانا أعظم من تولى تنشئته وتربيته ، يقاسيان فى ذلك أمر الصعوبات ، ولا سيما أمه حملته وهنا على وهن ، وغذته من دمها ، فلم يتم فصاله إلا بعد عامين ، وفى هذا من تأكيد حقهما عليه ما لا يخفى ، وقد سبق تفسيره .

ثم استطرد من حقهما راجعا الى الحق الذى بدأ به ، وهو التحاشى عن الشرك مهما قويت دواعيه والداعى اليه ، فقال « وإن جاهداك على أن تشرك بى » الخ . فكأن الآية هكذا : هذا حق أبويك عليك يؤكده ربك ، ويشرح لك ما قاسياه فى سبيل تربيتك ، وما بذلا من راحة وضحيا من صحة فى سبيل هناءتك ، ولا سيما أمك ، ومع ذلك فاذا بذل كلاهما الجهد ليحملاك على الشرك ، وطال الجهاد بينك وبينهما فى ذلك ، فلا تطعهما ، إلا أن ذلك لا يمنعك أن تصاحبهما فى الدنيا بالمعروف ، وأن تكرمهما ما استطعت ، على ألا تخل بحق ربك عليك . أما هـذا الحق المقدس فاتبع فيه سبيل من أناب الى ، ثم بعد ذلك سترجعون جميعا الى أنت ووالداك ومن أناب الى ومن زاغ عن سبيلى فستنبئون جميعا بما عملتم، يوم لاتغنى نفس عن نفس شيئا ، بل من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره .

والجهاد فى الأصل بذل كل من المتلاقيين جهده فى سبيل تحويل من يقابله عما هو عليه الى رأيه وموافقتـه . ولمـا كان فى المقاتلة فى سبيل الدين بذل أقصى الجهـد فى سبيل تحقيق أنفس الأغراض وأنبلها وهو الدين الذى هو أساس كل سعادة ، غلب لفظ الجهاد على القتال فى سبيل الدين وإعلاء كلمة الله . ولمـا كان الغرض من الجهاد هـو الحمل على أمر خاص ليحققه عدى بعلى كما يعدى (حمل) بعلى ، فقال : « جاهداك على أن تشرك » الخ

ولعلك تلمح فى التعبير بتشرك الاشارة الى ما فطرت عليه النفوس من الاذعان الى القوة القاهرة ، قوة مالك الملك ، قـدرة خالق الخلق ، التى أشار اليها عز وجـل فى قـوله : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » فكأن الآية تدلنا على أن الاعتراف بالخالق القادر على كل شىء لاتقوى نفس على إنكاره ، وكل ما تتورط فيه النفوس الجاهلة هو الاغترار ببعض المظاهر الكاذبة ، فيقصر نظرها عن إدراك مكونها وخالقها ، فتنسب اليها بعض ما أجراه الله عن طريقها ، أو ما توهمته صادرا عنها ، فتشركها مع الله فى حقوق العبادة والتعظيم ، وتطلب منها ما لا يقدر عليه إلا القوى العزيز ، فقد تستنصر بما لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، وقد تطلب العون ممن ليس له من الأمر شىء .

وقوله « ما ليس لك به علم » عبر فيه بمـا التى هى لمـا لا يعقل : إما تهوينا لأمرها وإظهارا الى أنها فى هـذا الباب سواء أعقلت أم لم تعقل هى بمثابة من لا عقل له ، وإن كان فى بعض المعبودات من يعقل كالملائكة وأفراد من الأناسى ، وإما لأن القصد فيه الى الوصف ، أى أن هذه المعبودات لم ينظر الى أنواعها أمن العقلاء أم من غيرهم ؟ وإنمـا القصد الى أنها تجتمع فى وصف شامل لهـا جميعا ، وهى أنها لم ينبئ عنها علم ، ولم تتكشف بها معرفة .

وقوله « فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الى » : ترتيب فى الارشاد فى منتهى الحكمة والسداد ، فقد أمره أولا بتخليص نفسه من إغوائهما ، ثم حذره

من أن يطغى فى مخالفته لهما الى حـد إهانتهما أو إيذائهما أوالاضرار بهما إذا لم تكن المخالفة مقتضية لذلك حتما ، ثم أرشده الى السبيل الذى يتبعه بعد أن خلصه من السبيل الذى يتجنبه .

وبعد أن استوفى هذا البيان وجه نظره الى ما ينتظره ، وهوهذا الموقف الخطير ، موقفهم بين يدى ربهم يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، فقال : « ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » . وكأن فى إنبائهم بما كانوا يعملون أبلغ أنواع الزجر، لأن ذلك سيعود به الى استقراء ماصدر منه ومحاسبة نفسه عليه ، حتى يبدأ هو بالحكم على نفسه بما تستحقه ، فلا يجد له مخلصا إلا بالتنحى عن الطريق المعوج وسلوك الصراط المستقيم . وغير خاف عليك ما يفيده لفظ « ثم » من أن الهول فيما يليها يستدعى إبعاد النظر فى التأمل والذكرى . على هذا النحو من تدبر آيات الذكر الحكيم ، بل التأمل فى كلماته ومفرداته ، تقرأ من أسرار التنزيل ما يملأ قلبك إيمانا بأنه تنزيل من حكيم حميد .

هذا وقد روى أن الآية نزلت فى سعد بن أبى وقاص إذ أسلم وكان برا بأمه ، فقالت له : ياسعد ما هذا الذى أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أولا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى فيقال يا قاتل أمه ! قلت لا تفعلى يا أمه فانى لا أدع دينى هـذا لشىء ! فمكثت يوما وليـلة لا تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوما وليلة لا تأكل فأصبحت قـد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت يا أمه تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت دينى هذا لشىء ، فان شئت فكلى وإن شئت فلا تأكلى ! فلما رأت ذلك أكلت . فنزلت الآية .

ويرى بعض المفسرين أن إسلامه كان على يد أبى بكر رضى الله عنه ، وفسر من أناب الى بأبى بكر ، قال : ولذا أرجع الضمير مفرداً ولم يقل من أنابوا الى . ولا أرى فى هـذا دلالة ، فالآية مسوقة على العموم ، ونزولها فى سبب خاص لايوجب قصرمعناها عليه . فالظاهرالعموم ، وإفراد الضمير مراعاة للفظ من .

« يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير» :

هذا متصل بقوله : « فأنبئكم بما كنتم تعملون » ، وكانه يقول: لا تغتروا بأنكم بين آبائكم تخالطونهم وتعاشرونهم ويعلم كل منكم ماعند صاحبه فتظنوا أن الله غائب عنكم فكيف ينبئكم ؟ فاعلموا أن الله محيط بكم وبذات صدوركم ، ومحيط بكل ما قل وجل ، لا تخفى عليه خافية ، فهو قمن أن ينبئكم بما كنتم تعملون . وسوقه بطريقة استئناف موعظة جديدة مبدوءة بخطابه لابنه لا يمنع مزيد اتصاله بما قبله ، فان أجزاء الكلام المتصلة أتم اتصال كثيرا ما يعمد الى إفرادها بالعناية تنبيها على أن لهـا من القيمة فى ذاتها ما يجعلها جديرة بالعمد اليها بالنظر والاتجاه اليها بالقصد .

وقوله : « إنها إن تك » ضمير إنها راجع الى الخصلة التى يعملها المرء ، كما هو ظاهر من السياق . وقيل إن الضمير راجع الى ما سأل عنه ابن لقمان إذ قال : أرأيت يا أبت لو كانت حبة صغيرة تقع فى مغاص البحر : أيعلمها الله ؟ فأجابه بهذا . والأول أظهر . وقيل إن الضمير للقصة كما تقول : إن المسألة بما فيها : إن تك مثقال حبة من خردل الخ . والأول أظهر وأقرب . وقد ذكرت عوامل الخفاء التى تتوهم كلها ، فأولا : الصغر المتناهى فى قوله « مثقال حبة من خردل » وهذا متعارف مثلا فى الصغر . وثانيا : الاحتجاب عن الأعين ، وذلك بقوله « فتكن فى صخرة » فان الصخرة بسبب كثافتها وعدم استطراقها للدق ونحوه بحيث يبين ما فى داخلها كالمعادن ، تعتبر من أكثف الحجب . وثالثا : فى بعد الأقطار واتساع المجاهل ، وهذا فى قوله : « أو فى السموات أو فى الأرض » أى ضلت فى تلك الأرجاء المتنائية ، فمهما يكن شىء من ذلك فانها لا تغيب عن علم الله « إن الله لطيف خبير » .

وقوله « يأت بها الله » أبلغ فى العلم والاحاطة من : يعلمها الله ، فان من يقدر على الاتيان بشىء يكون بالضرورة مهتديا اليه ، بخلاف من يعلمه فحسب ، فربما كان عاجزا عن الوصول اليه . ولعلهم من هنا يستعملون كثيرا لفظ يدرك مكان يعلم .

ووصفه جل شأنه باللطف مع وصفه بالخبرة ، إما أن يكونا راجعين الى صفة العلم ، ويكون معنى اللطف العلم بالدقائق والخفايا ، وهو ما يناسب « مثقال حبة » و « فى صخرة » ، ومعنى الخبرة الاحاطة بالمتشعبات الشاسعة ، وهو ما يناسب « أو فى السموات أو فى الأرض » . وإما أن يرجع الوصف باللطيف الى صفة القدرة ، والوصف بالخبير الى صفة العلم ، ويكون قوله : لطيف مناسبا ليأت بها الله . وفى الحق أن المعنيين يحضران فى الذهن عند تلاوة الآية الكريمة .

نسأل الله تعالى أن يحيطنا بلطفه ، ويمنحنا توفيقه ، إنه سميع الدعاء . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

ابراهيم الجبالى

الصديق الصدوق

قال على بن أبى طالب أمير المؤمنين : خير إخوانك من واساك ، وخير منه من كفاك .

وكان أبو هريرة رضى الله عنه يقول : اللهم إنى أعوذ بك ممن لا يلتمس خالص مودتى إلا بموافقة شهوتى ، وممن ساعدنى على سرور ساعتى ، ولا يفكر فى حوادث غدى .

وقال الشاعر :

وكل أخ عند الهوينا ملاطف ولكنما الاخوان عند الشدائد

السنة

مهر الزواج

عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف تزوج امرأة على وزن نواة . فرأى النبي صلى الله عليه وسلم بشاشة العرس ، فسأله ، فقال : إنى تزوجت امرأة على وزن نواة . وعن قتادة عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف تزوج امرأة على وزن نواة من ذهب . رواه البخارى فى كتاب النكاح .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه (٢) بيان مشروعية المهر فى الشريعة الاسلامية وحكمة جعله منوطا بالرجل دون المرأة (٣) بيان حده الأدنى وحجة من يقول إنه لا حد لأقله (٤) بيان حكم المغالاة فى المهر خصوصا اذا ترتب عليها ضياع الكفء وأزمة الزواج .

١ — لهذا الحديث تكملة يتوقف عليها بيان معناه ، وقد رواها البخارى فى غير هذا المكان ، وإنما لم نذكرها لأنها لا يتعلق لنا بها غرض فيما نحن بصدده . وحاصل معنى ما رواه أن عبد الرحمن بن عوف كان من بين المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم بمكة ، وفروا بدينهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة بعد أن لاقوا من صنوف الاضطهاد ما لا يطيقه إلا المؤمنون حقا . فقد كان المشركون يتفننون فى إيذائهم مستعينين عليهم بكثرتهم وقوتهم ، فلم يكن لهم مناص من مغادرة وطنهم وترك أموالهم وديارهم ، فرارا بدينهم ، وطلبا لما عساه أن يظفرهم بعدوهم بعد . فلما قدموا المدينة نزلوا على الأنصار الذين آمنوا بالله وبرسوله وكانوا ينتظرونهم بفارغ الصبر ، فكان من الطبيعى فى هذه الحالة أن يمد لهم الأنصار يد المعونة عن سماحة نفس وطيب خاطر الى أن يشقوا لهم طريقا الى الحياة بحسب ما يتاح لهم ، فمن أجل ذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يمهد لذلك بعقد إخاء بين المهاجرين والأنصار ، فجعل لكل مهاجر أخا من الأنصار يعمل معه فى شئون الحياة كما يعمل أخو النسب مع أخيه .

فكان نصيب عبد الرحمن بن عوف الاخاء مع سعد بن الربيع الأنصارى ، وكان سعد بن الربيع أكثر الأنصار مالا ، فانطلق به سعد الى منزله فدعا بطعام فأكلا ، ثم قال له : لى امرأتان وأنت أخى لا امرأة لك فأطلق لك ما تعجبك منهما فاذا انقضت عدتها تزوجتها ، وهلم الى حديقتى كى أقسمها نصفين بينى وبينك ، وعرض عليه أن يقاسمه كل ماله . فقال له عبد الرحمن بن عوف :

بارك الله لك فى أهلك ومالك ، وحلف أن لا يقبل منه شيئا من هذا ، ثم قال له : دلنى على السوق ، واقترض منه بضع دراهم فباع واشترى ، فربح ما به يمكنه أن يتخذ له زوجا ، فتزوج امرأة من الأنصار ، ثم جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم بعد انقطاعه مدة ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم بشاشة العرس بادية على عبد الرحمن . ومن علامة ذلك أن العرب كانوا يصبغون بعض الثوب بالزعفر ، فيكون به أثر صفرة . ويقول بعض الأئمة : إن ذلك قد نهى عنه بعد ، فلا يجوز للرجل أن يتزعفر . وبعضهم يقول : إن الكراهة خاصة بما إذا كان فى البدن دون الثوب . فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم على هذه الحالة سأله : ماهذا ؟ فقال له : إنى تزوجت امرأة من الأنصار ، فقال له : كم أصدقتها ؟ فقال : وزن نواة من ذهب . فقال له صلى الله عليه وسلم : أولم ولو بشاة . هذا معنى الحديث . وأظن أن الذى يتأمله تمتلىء نفسه بعظمة أصحاب الرسول صلوات الله عليه ، ويوقن بأن الله قد اصطفى لحمل هذا الدين رجالا أصفياء لايزحزحهم عن إيمانهم مظهر من مظاهر الحياة الدنيا ، ولا تؤثر عليهم زخارفها ، فلا يضنون ببذل ما يضن به البشر عادة من مال ولذات متى كان لله ورسوله فى ذلك رضا . فلينظر القارىء الى هذين الرجلين العظيمين : عبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن الربيع ، فانه يجد فيهما معنى الانسانية الصحيحة ، ويعرف قدر عظماء الرجال حقا ، ويدرك ما يفعله الايمان الصحيح بنفوس المؤمنين .

فهذا عبد الرحمن بن عوف وكان من أكثر أهل مكة مالا وعزا (حتى قدر ماخص نساءه من تركته بأربعمائة ألف دينار ، وهو ثمنها فقط) : قد ترك هذا المال وهذا العز ورضى أن يكون فى زمرة العمال البؤساء الذين يبيعون الزبد واللبن كى يحصل على قوته الضرورى إيثارا لرضاء الله عز وجل لأنه مؤمن به حقا ، ومؤمن باليوم الآخر الذى لا يفنى نعيمه حقا ، ومؤمن بأن الدنيا لا قيمة لها بجانب رضوان الله عز وجل حقا . ولما عرض عليه سعد أن يشاطره ماله أبت نفسه الكريمة أن يقبل هذه المكرمة الواسعة مع كونه فى أشد الحاجة اليها ، ولوأن شخصا غير عبد الرحمن ألف العزوالثروة عرض عليه شىء كهذا الذى عرضه سعد ، لوجد له مبررا لقبول بعضه على الأقل دفعا للحاجة ، ولو مؤقتا . ولكن نفس عبد الرحمن الكبيرة التى لم تبال بالثروة الطائلة والمال الوفير فى سبيل مرضاة ربه ، وقهر شهوته فى ميدان العمل النافع ، أبت أن تنتهز فرصة أريحية رجل جواد وتشاطره ماله ، بل أبت أن تنال منه ما له قيمة يتأثر بها ولو قليلا . ثم أراد فوق ذلك أن يضرب للمؤمنين بنفسه المثل الكامل فى التضحية ونكران الذات من أجل العقيدة ، فنزل السوق بائعا صغيرا وعاملا يسعى للحصول على قوته ، بصرف النظر عما كان عليه من مال وجاه ما دام ذلك لازما لدينه وعقيدته .

وهذا سعد بن الربيع : بعثه إيمانه الصحيح الى أن يذهب فى أخوة عبد الرحمن بن عوف الى أبعد مما يعمله الأخ الشقيق البار مع أخيه ، فقد أدى به طلب مرضاة الله ورسوله الى رفع الغيرة الطبيعية عن نفسه ، وعرض عليه أن ينزل له عمن تعجبه من زوجتيه ، أليس معنى هذا أن الايمان

قد سما بهؤلاء البررة فأخرجهم عن مقتضى اللذات والشهوات الجسمانية ، وجعل لذاتهم منحصرة فى كل ما يرضى ربهم ورسوله ؟

ثم من ذا الذى ترضى نفسه أن يشاطر أجنبيا لم يعرفه ثروته الواسعة ، ويلح عليه فى قبولها عن رضا قلب وطيب نفس ؟ إنه كان يعرض عليه نصف ماله وأهله ولم يكن له طمع فى جاه أو منصب ، أو مغنم من مغانم الحياة الدنيا ، بل كان يعتبر ذلك العرض أهون التضحيات التى يقتضيها الدفاع عن الدين والرسول حتى الموت ، فما الذى بعثه على ذلك سوى إيمانه الصحيح بأن ذلك يرضى الله العلى القدير الذى أعد للمؤمنين مالاعين رأت ولا أذن سمعت من نعيم خالد لا يفنى ؟ ذلك كان حال المؤمنين الذين رأوا الرسول وأشرقت أنفسهم بنور نبوته ، فتأدبوا بآدابه ، وتخلقوا بأخلاقه ، فكانوا أهلا للظفر الذى نالوه ، والمكانة التى أحرزوها ، وأصبحوا بين عشية وضحاها أئمة الهدى وسادة العالم ، فهم قدوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ويقول إنى من المسلمين .

٢ — وبعد : فيؤخذ من صريح الحديث أن عبد الرحمن بن عوف لما قال للرسول إنى تزوجت ، سأله عن الصداق ، لأن الصداق واجب على الرجل للمرأة ، وليس مع عبد الرحمن مال ، فأجابه بأنه ربح من البيع والشراء زنة نواة من الذهب ، وأنه يستطيع الانفاق من ربحه ، فأمره الرسول بالوليمة المناسبة لحاله إعلانا للزواج . على أن هذا الحديث ليس صريحا فى فرض الصداق للنساء على الرجال ، بل قد فرضه الله تعالى بقوله « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » فصدقاتهن بضم الدال معناه مهورهن ، ومعنى نحلة عطية خالصة ، لا فى مقابلة شيء من لذة أو جهاز أو غير ذلك . فهذه الآية صريحة فى أن الصداق واجب على الرجل للمرأة من غير أن يتطلع الى مقابل لذلك الصداق . وقد أجمع المسلمون على ذلك .

أما حكمة اختصاص الرجل بالمهر دون المرأة فى الاسلام ، فهى أن الدين الاسلامى قد جعل لكل من الرجل والمرأة وظيفة فى هذه الحياة ، فلا يصح لاحدهما أن يتعدى وظيفته إلا عند الضرورة التى لا بد منها . فوظيفة المرأة فى نظر الشريعة الاسلامية هى أن تكون أميرة على منزلها تقوم بتدبيره حسبما يتاح لها فى هذه الحياة ، وأن تكون قائمة على تربية أبنائها وبناتها الصغار تربية صحيحة ، فلا تترك فضيلة من الفضائل إلا عودتهم عليها ، ولا تترك رذيلة من الرذائل إلا حذرتهم عنها . فليس من شأن المرأة أن تمشى فى الأسواق لتبيع أو تشترى ، وليس من شأنها أن تقوم بتكاليف الحياة والانفاق على الشئون المنزلية ، وإنما ذلك من اختصاص الرجل وحده ، فهو المسئول عن مشاغل الحياة ومتاعبها ، وعليه وحده أن يصارع الأهوال ويقارع الخطوب ، ويركب الصعب من الأمور عند الحاجة حتى يكفل لزوجه ونسله ما يقوم بأودهم ويسد حاجاتهم بحسب ما تهيىء له الظروف والأحوال . فلكل واحد من الزوجين عمل خاص فى هذه الحياة يناسب طبيعته التى فطره الله عليها .

فاول واجب على الرجل للمرأة أن يقوم بالانفاق عليها فى كل ما تحتاج اليه من مطعم وملبس ومسكن بحسب حالها وحاله ، فأراد الشارع الحكيم أن يشعره بذلك الواجب من أول الأمر ، ففرض عليه المهر وجعله شرطا فى العقد بحيث لو اتفقا على العقد بدون مهر أصلا فانه لا يصح ، وبذلك يشعر الرجل بواجبه نحو المرأة من ضرورة الانفاق ، ويعلم أنه لا مناص له من إرضائها وتطييب خاطرها بالبذل والانفاق بحسب حاله وحالها ، كما يشعرها هى بميزة الرجل من هذه الجهة ، وأنه مكلف بسلوك كل السبل التى توصل الى تحصيل المال اللازم للانفاق عليها وعلى ماعساه أن يولد لها من ذرية ، فضلا عن ذلك فان الرجل مكلف بمقاومة كل من يحاول العدوان على عفافها وعرضها ، ومكلف بمقاومة كل ما من شأنه أن يضر المرأة أو يضر نسلها بكل ما يستطيع فى هذه الحياة . ومن أجل ذلك جعل الله الرجال قوامين على النساء بما فضل الله به بعضهم على بعض فى القوة والجلد والقدرة على مصارعة الأهوال ومنازلة الحدثان والانفاق . فهذه هى حكمة جعل الصداق مفروضا على الرجل دون المرأة .

٣ — أما قدر الصداق فلم يحفل الشارع ببيانه ، بل جعله منوطا بحال الزوجين وقدرة الزوج ، لأنك قد عرفت أن غرض الشارع من فرضه هو تنبيه الزوج من أول الأمر الى ما يجب عليه من الانفاق ، وتنبيه الزوجة الى ما يجب لها من الحق على الرجل لتؤدى له حقه الذى فرضه الله عليها من الطاعة وقصر نفسها عليه ، وهذا التنبيه يحصل بالقليل والكثير . ولكن الأئمة اختلفوا فى الحد الأدنى للمهر : فذهب أبو حنيفة ومالك الى ضرورة تحديده ، ولكنهما اختلفا فى القدر : فقال أبو حنيفة : أقل الصداق عشرة دراهم . والدرهم يساوى بالعملة المصرية الآن أربعة قروش صاغا تقريبا ، فيكون أقل الصداق عنده أربعين قرشا صاغا .

وقال المالكية : إن أقل الصداق ثلاثة دراهم . وقال الحنابلة والشافعية : إنه لا حد لأقل الصداق بل يكفى أن يبذل الزوج أى شىء له قيمة ولو ملء كفه برا أو أرزا . بل ذهب بعض الحنابلة الى أنه يكفى أن يعطيها أى شىء ولو تمرة ما دام الغرض تنبيه الزوج الى أنه المنفق . وقد استدل الحنفية بحديث « لا مهر أقل من عشرة دراهم » رواه ابن أبى حاتم باسناد حسن . واستدل الشافعية بقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى قال له : زوجنى المرأة التى وهبت نفسها : التمس ولو خاتما من حديد ليكون صداقا . فان الخاتم الحديد لا يساوى ماقاله الحنفية والمالكية . وقد أجاب الحنفية عن هذا بأن الحديث صحيح ولكن يحمل ما ذكر فيه على مقدم الصداق الذى ينبغى دفعه فورا ، أما الحد الأدنى لجميع الصداق مقدما ومؤجلا فهو عشرة دراهم كما فى حديث ابن أبى حاتم . أما الامام مالك فقد نظر الى قوله تعالى « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات » فرأى أن اليسير من المهر يستطيعه كل إنسان ، ثم نظر الى أقل نصاب يوجب قطع يد السارق فوجده ثلاثة دراهم فضة أو ربع دينار من ذهب ، فقاس الصداق عليه ، ولكن أصحابه

لم يرتضوا هـذا القياس لأنه يخالف نص الحديث ، وهو ما تأباه قواعد مذهبهم ، ولأن القياس بهذه الحالة لا يقول به مالك ، حتى قال له بعضهم : إنك سلكت فى ذلك سبيل أهل العراق ، ومع ذلك فثلاثة دراهم لا يعجز عنها أحد ، وليس معنى قوله تعالى « ومن لم يستطع منكم طولا » العجز عن الصداق فقط بل العجز عن الانفاق على الزوجة أيضا ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم » فقد فسرت الباءة بالانفاق وإعفاف المرأة بالقربات ، ومن لم يستطع الانفاق ولـكنه يستطيع غيره فعليه بالصوم الذى يعفه عن الحرام . ويظهر أن حجة الحنفية فى تحديد المهر أوضح لولا أن الحديث الذى استدلوا به رواه البيهقى بسند ضعيف ، ولـكن إذا تم ما ذكره الحافظ ابن حجر من أن هذا الحديث رواه ابن أبى حاتم بسند حسن ، فان الحجة تـكون فيه واضحة .

واستدل الحنابلة بما رواه أحمد وابن ماجه والترمذى وصححه عن عامر بن ربيعة أن امرأة من فزارة تزوجت على نعلين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أرضيت من مالك ونفسك بنعلين ؟ قالت نعم ، فأجازه . وقد يقال إن النعلين قد يساويان ثلاثة دراهم على الأقل كما هو رأى المالـكية . وقد استدل بعض الحنابلة بما روى معناه أبو داود عن جابر مرفوعا وهو : « لو أن رجلا أعطى امرأة صداقا ملء يده طعاما كانت له حلالا » . ودلالة هذا على غرضهم أوضح . هذا ومن احتياط الأئمة وعدم تعصبهم لآرائهم الاجتهادية أن المالـكية والحنابلة والشافعية قالوا : يسن أن لا ينقص المهر عن عشرة دراهم مراعاة للحنفية الذين قالوا ذلك احتياطا .

وسواء أكان هذا أم ذاك فان الشريعة الاسلامية لم ترهق الناس بتحديد الصداق الى الحد المعجز ، فان العشرة من الدراهم أو الأربعين قرشا وهى النهاية العظمى التى قال بها أحد الأئمة لا تقف عقبة فى سبيل الزواج فى يوم من الأيام . ولـكن هـل قلة الصداق مشروعة ، والمغالاة فى المهور غير جائزة أولا ؟ والجواب أن بعض الفقهاء قالوا إن المغالاة فى المهور غير جائزة ابتداء ، فيسن للناس أن لا يزيدوا فى المهور على خمسمائة درهم أو ثلاثة عشر جنيها ونصف جنيه تقريبا ، وما زاد على ذلك فهو مكروه ، وذلك هـو رأى الحنابلة والشافعية . أما المالـكية والحنفية فقد قالوا لا حد لأكثر الصداق بل هو منوط بأمرين : قدرة الرجل المالية ، وحالة المرأة وما يليق بها ، فلا يكره أن يمهرها بما يحب . وقد استدل الشافعية والحنابلة على رأيهم بما رواه أبو داود والترمذى والنسائى وصححه من قـول عمر رضى الله عنه « لا تغلوا فى صداق النساء فانها لو كانت مكرمة فى الدنيا أو تقوى فى الآخرة كان أولا كم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وقد روى مسلم عن عائشة أن صداق النبى على أزواجه خمسمائة درهم ، وهو القدر الذى ذكرناه .

أما الآخرون وهم المالـكية والحنفية فقد أجابوا بأن قول عمر لا ينفى إلا الغلو فى الصداق

والمبالغة فيه الى الحد الذى يضايق الزوج أو يعجزه ، وقد اتفق أن الصداق فى عهد الرسول كان المناسب فيه هو القدر الذى ذكره مسلم ، وليس فيه أى تحديد للصداق .

٤ — أما حالة الغلو فى المهور إذا ترتب عليها مضايقة الأكفاء وانصرافهم عن الزواج أو عجزهم عن دفع المهر : فان ترتب عليها بوار النساء وتعريض الشباب والشابات للخنا والفساد ، أو ترتب عليها نقص النسل وانقراض الرجال العاملين فى الأمة ، أو غير ذلك من المفاسد التى تؤذى المجتمع وتقوض دعائم العمران ،فانها تكون محرمة بالاجماع ، إذ من الواجب على المسلمين أن يقاوموا المفاسد التى تترك آثارا سيئة تؤذى الأفراد والجماعات . ولعل هذا هو السر فى أن عمر رضى الله عنه أراد أن يحدد أكثر الصداق فى عهده كى لا يتنافس الناس فى المغالاة فى المهور ، فيضعوا بذلك العوائق التى تمنع من الزواج ، ولكنه لم يستطع الى ذلك سبيلا ، فقد قاومته المرأة التى احتجت عليه بقوله تعالى : « وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » . فان ظاهر الآية أنه يجوز للرجل أن يعطى مهرا ما يشاء ، ولو كان قنطارا من الذهب ، فاقتنع عمر وعدل عن رأيه .

على أن هذا لا ينافى ما ذكرنا ، فان الآية دلت على أنه لا يجوز للرجال أن يأخذوا من المهور التى فرضوها لأزواجهم شيئا بعد الدخول بهن مهما كانت كثيرة ، ولكن إذا ترتب على كثرة المهر عجز الرجال عن الزواج وبوار النساء ، وكانت نتيجة ذلك ما نرى ونسمع من مفاسد ورذائل، كان تسهيل أمر الزواج الذى يقضى على فوضى الاخلاق واجبا دينيا ، فان الدين الاسلامى مبنى على جلب المصلحة ودرء المفسدة ، وبذلك تكون المغالاة فى المهور محرمة . وكما أن قواعد الشريعة تقتضى رفع المفاسد وتسهيل أمر الزواج فتنهى أولياء النساء عن المغالاة فى المهور ، كذلك تنهى الرجال عن التطلع لما اعتاده الناس من المبالغة فى أمر الجهاز والتفنن فى الزخارف الكاذبة التى لا تلبث أن تذهب سدى وتبقى آثارها السيئة يكتوى الولى بنارها ، فان العادات التى ينبوعها الدين الاسلامى جعلت الأزواج لا يقدمون على المرأة التى لا تتجهز جهازا فخما ، وجعلت الأولياء يتبارون فى الاستدانة إن لم يكن معهم . وذلك أشد شرا وأعظم أثرا فى أزمة الزواج ، فانه قد يوجد الكفء وقد توجد الزوجة المناسبة له من جميع الجهات ، ولكن يقف فى سبيل اقترانهما عجز الزوج عن المهر أو عجز الولى عن الجهاز . فلو أن المسلمين استمسكوا بدينهم واتبعوا آراء أئمتهم،وعلموا أن الغرض من المهر إشعار الرجل بما يجب عليه للمرأة من نفقات، وأن الله تعالى أمر الرجل أن يدفع المهر بدون أن يفكر فى مقابل يأخذه من المرأة ، لهانت المسألة ولم يبق بين الزوجين من العوائق ما يمنع سعادتهما . فالله المسئول أن يهدى الأمة الاسلامية الى العمل بقواعد دينها، إنه سميع الدعاء ؟

عبد الرحمن الجزيرى

مشكلة التوحيد

رأينا أن نسجل على صفحات مجلة الأزهر مناقشة جرت بيننا وبين بعض متعلمى العصر الحاضر لما فيها من الفوائد الجة والمسائل المهمة .

قال ذلك العصرى :

أريد أن أسألك عن مشكلة التوحيد ، وأحب أن توسع صدرك وتسمح لى أن أقول كل ما عندى ، ثم تزيل شبهتى ببيان يقبله العقل وينشرح له الصدر ، وإلا فهى شبهة الشبه ومشكلة المشكلات . فقلت له : هات ما عندك بلا خوف ولا وجل ، وقل لى ما هى مشكلة التوحيد ؟ فقال : مشكلة التوحيد التى لم أجد لها جوابا فى كتاب من الكتب هى أنكم تقولون : إن الله ليس فوق ولا تحت ولا فى جهة من الجهات . ومن كان كذلك كان معدوما لا موجودا ، فان كل موجود لا بد أن يتصف بأحد المتقابلات ، ولا بد أن يكون فى جهة من الجهات ، ولا ترتفع كلها إلا عن المعدوم . فقلت له : حفظت شيئا وغابت عنك أشياء ، فان ما ذكرت صحيح فى الماديات لا فى غير الماديات . (وأكثر العقول لا تعرف إلا أحكام الماديات ولا تكاد تترفع عنها الى ما وراءها) . والمتقابلات أو الجهات التى حبسك الوهم فى محيطها وظننت أنه لا بد من أحدها لكل موجود ، ذلك الحكم فيها مشروط بشرط القابلية لمعروض تلك المتقابلات ، فاذا لم توجد القابلية ارتفعت تلك المتقابلات بل كانت مستحيلة .

ولنقرب لك ذلك بمثال واضح :

تعلم أن الجهل والعلم مثلا متقابلان ، ولا يمكن أن يوجد إنسان إلا وهو متصف باحدهما ، ولكنك تجدهما مرتفعين جميعا عن الحجر ، فلا يتصف بجهل ولا علم لعدم القابلية . فكذلك نقول : إن غير المادى ترتفع عنه الجهات كلها لعدم القابلية، إذ هى من خصائص الماديات المتحيزات.

وأما ما لم يكن ماديا متحيزا فيستحيل عليه أن يكون فى جهة . وإذا كانت الفلاسفة تثبت ذلك للجواهر المجردة التى منها الملائكة والنفوس والعقول عندهم لأن لها أحكاما تضاد أحكام المتحيزات — ومن الذى يعطى الأجسام أحكام الأرواح — فما بالك بالبارى عز وجل الذى هو خالق كل شىء وليس كمثله شىء ! ومن الجهل الفاضح أن يعتقد الانسان أن كل شىء خاضع لسلطان عقله ، وأن ما لم يدركه بعقله فهو خارج عن دائرة الوجود .

بل نقول : إن مقتضى العقل السليم أن يكون الله منزها عن مشابهة الأشياء ، متعاليا عن إدراك العقول ، وإلا لم يصح أن يكون إلها « إذاً لابتغوا الى ذى العرش سبيلا » . فهو محجوب عن العقول كما أنه محجوب عن الأبصار .

وقد قلنا فى بعض ما كتبناه منذ زمان بعيد : « إذا كان الملحد لا يؤمن إلا باله يقع عليه بصره أو يدركه عقله ، فأنا لا أؤمن باله يخضع لسلطان عقلى أو يدخل فى دائرة محسوساتى أو ألمسه بيدى أو أصل اليه برجلى أو يمزقه مدفعى أو تعلو اليه طيارتى الخ الخ ، فان هذا لا يصح أن يكون إلها ، بل يجب أن يكون مخلوقا محتاجا لمن يدبره ويركب أجزاءه ويضعها فى مواضعها المخصوصة ويقوم بحاجاته ويدفع عنه سلطان النواميس التى تجرى على المركبات كلها حتى يتمتع بالوجود ، مع أنك فرضته إلها ــ هذا خلف » .

وانظر ما ذكره القرءان فى وصفه عزوجل: هل تراه منطبقا على الأجسام أومتصورا فيها ؟ يقول عز وجل : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » ويقول : « وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرءان ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » .

ويقول : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » . ويقول : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » الى آخر ما يطول ذكره .

فهل يتصور عاقل أن من هذه صفاته يكون جسما من الأجسام ، أو يقاس على أحد من الأنام ، أو يدخل تحت سلطان العقول والأوهام ؟

وهل هذه الصفات العلية تنطبق عليها نواميس الجسمانيات أو أحكام الماديات ؟ ولكن لا بد لنا أن نقول : إنه مع هذا التعالى أظهر من الشمس وأوضح من الحس ، فان كل ذرة من ذرات مخلوقاته آية من آياته ناطقة ببديع حكمته وعظيم قدرته :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

ولولا ما نؤمن به من قدرته الباهرة لعجبنا كل العجب ممن ينكره وهو أبده البدهيات وأوضح الواضحات « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » .

وهل يصدق عقل أن هناك أثرا بلا مؤثر ، أو نظاما بلا منظم ، أو حكمة بلا حكيم ؟ إن هذا لدى العقل السليم يساوق قولنا : الكل أصغر من الجزء والواحد ربع الاثنين وقد يكون أوضح من ذلك ، فان الحيوان الأعجم إذا ضرب التفت لينظر الضارب لأنه لا يصدق أن هناك أثرا بلا مؤثر ! فمنكر الاله إذا هو أحط رتبة من الحمار !

فسبحان من احتجب بشدة ظهوره ، واستتر عن الأبصار بعظيم إشراق نوره ! ولولا احتجابه بسبعين حجابا من نوره لأحرقت سبحات وجهه أبصار الملاحظين لجمال حضرته . ولولا أن ظهوره سبب خفائه لبهتت العقول ودهشت القلوب ، وتخاذلت القوى وتنافرت

الأعضاء . ولو ركبت القلوب من الحجارة والحديد لأصبحت تحت مبادى أنوار تجليه دكا دكا ، فأنى تطيق كنه نورالشمس أبصار الخفافيش «فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا » ولا يقدح فى هذا الوضوح جهلك لحقيقته ، فانك إذا كنت فى مكان مظلم وسمعت صوت رصاصة قوية لم يكن جهلك بشخص الضارب مشككا إياك فى وجوده ! ويجدر بنا فى هذا المقام أن ننشد قول القائل :

تبصر حيث كان لك التبصر وفى ذات الاله دع التفكر
وإن ترد المهيمن حين تذكر تأمل فى نبات الأرض وانظر
الى آثار ما صنع المليك
فأنوار المهيمن ساطعات وأفكار الخلائق حائرات
ولكن الأدلة واضحات أصول من لجين زاهرات
على أغصانها ذهب سبيك
شموس فى البرية مشرقات نجوم فى الدياجى لامعات
بطول الدهر دوما سابحات الى مالست أدرى طائرات
يطير له بها الجرم السميك
رياض مونقات منعشات وألوان لعينك مدهشات
وأغصان تسرك ناضرات على قضب الزبرجد شاهدات
بأن الله ليس له شريك

الخلاصة :

والخلاصة أن هنا شيئين : شىء أوضح من الشمس وهو وجود خالق برأ هذه المخلوقات ودبر الأرضين والسموات ، قام كل شىء فى الوجود برهانا عليه ، وساق أرباب العقول اليه حتى توكلوا عليه ، وانطرحوا بين يديه « اليه يرجع الأمر كله » وعلموا أنه أقرب اليهم من حبل الوريد ، وأن ما قام على وجوده من الأدلة لا يمكن أن يكون عليه مزيد « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » سبحانك لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

أما الشىء الثانى فهو معرفة كنهه سبحانه وتعالى ، وهذا أخفى الخفيات ، كما أن الأمر الأول أوضح الواضحات . فاعرف الفرق بين المقامين . ولا عجب فى هذا فروحك أقرب الأشياء اليك ، وما أعظم إمدادها لك وأثرها عليك ! ومع ذلك لا تعرف كنهها بل ولا كنه أفعالها فأنت لا تعرف كيف تدرك ، ولا كيف تتخيل ، ولا كيف تذكر مانسيت ، بل هذا هو شأنك فيما هو أقل من ذلك ، فلست تدرى كيف يمثل الغذاء هذه الأعضاء ، وكيف يصير عينا تبصر ، ومخا يدرك ، وأذنا تسمع الخ الخ . فليس لنا من الأشياء إلا ظواهرها التى ندرسها

فى مدارسنا ، أو نعرفها بالتحليل والتركيب فى معاملنا . فمعرفة الحقائق على ما هى عليه مما اختص به الحق سبحانه وتعالى « ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » .

وعلم الطبيعة معترف بأنه لا يعرف كنه الأشياء ولا أوائلها ولا مصيرها ، وإنما عرف ظواهرها بواسطة التجربة المتكررة . هكذا قال المنصفون واعترف المحققون . وإياك أن تصغى لزعانف علم الطبيعة الذين لا يقام لهم وزن بجانب أساطين علم الطبيعة الذين دهشوا من عظمة الخالق العظيم والمبدع الحكيم !

وقد قال باكون : من أخذ علم الطبيعة رشفا بالشفاه كان ملحدا ، ومن شربه عبا أوصله الى الخالق .

وقال سبنسر : ليس المقصود من دراسة علم الطبيعة معرفة تلك الظواهر التى عرفها تلامذة المدارس ، وإنما الغرض الأقصى من علم الطبيعة هو أن نقف على ذلك الجسر الذى نستشرف منه ماوراء الطبيعة .

وقال هرشل وهو من كبار أساتذة علم الطبيعة : كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلى لاحد لقدرته ولا نهاية .

فعلماء طبقات الأرض والرياضيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضافروا على تشييد صرح العلم ، وهو صرح عظمة الله وحده . ولله در القائل :

تاه الأنام بسكرهم ... فلذاك صاحى القوم عربد
تا لله لا موسى الكلـ ... ـيم ولا المسيح ولا محمد
كلا ولا جبريل وهـ ... ـو الى محل القدس يصعد
علموا ولا النفس البسـ ... ـيطة لا ولا العقل المجرد
من كنه ذاتك غير أنـ ... ـك أوحدى الذات سرمد
فليخسأ الحكماء عن ... حرم له الأملاك سجد
من أنت يا رسطو ومن ... أفلاط قبلك قد تفرد
ومن ابن سينا حيث هـ ... ـذب ما أتيت به وشيد
ما أنتمو إلا الفرا ... ش رأى السراج وقد توقد
فدنا فأحرق نفسه ... ولو اهتدى رشداً لأبعد

وربما عدنا للموضوع مرة ثانية . والله يتولى هدانا جميعا بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى

عضو جماعة كبار العلماء

رد شبهات على القرآن الكريم

لم تعن أمة فى العالم بكتاب سماوى أو أرضى عناية الأمـة الاسلامية بالقرآن الـكريم . ولم يحط كلام إلهى أو بشرى بمثل ما أحيطت به آياته من وسائل الحفظ والرعاية والتقديس . فقد كانت تنزل الآية منها أو الآيات فتنتقش فى صدر النبى صلى الله عليه وسلم ، فيتلوها ساعة نزولها على الآلاف من المحيطين به ، فيسارعون الى استظهارها ليتلوها تعبدا ويصلوا بها ، ولا يكتفى النبى صـلى الله عليه وسلم بذلك فيأمر كتابا له بكتابتها ، ويحتفظ بها فى داره مع أمثالها .

وقد تم نزول القرآن فـكان يحفظه كله رسول الله وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، ومئات كثيرة غيرهم ، لا يسقطون منه حرفا . فلما انتقل الرسول الى الرفيق الأعلى ، وخلفه أبو بـكر بادر عمر فطاب إليه أن يأمر بتدوين القرآن فى كتاب ، حفظا له من النسيان والتحريف ، فـكان أبو بكر يأبى ذلك قائلا : إن شيئا لم يفعله النبى صلى الله عليه وسلم لا أفعله أنا . فلما حدثت وقعة اليمامة وقتل فيها من حفاظ القرآن عـدد عديد أدرك أبو بكر أصالة رأى عمر ، فاوعز بجمع القرآن ، فحشر حفاظه وأخرج اليهم المخطوطات التى عملت على عهد الرسول ، وأمرهم بتدوينه ونشره بين الناس ، فقاموا بذلك على أتم وجه . ولم يرتفع صوت إذ ذاك بأن آية سقطت منه أو كلاما زيد فيه ، والدين فى عنفوان قوته ، وحفاظ الفرقان كثيرون ، ومنهم الخليفة نفسه ، ولم تمض على وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بضعة أشهر .

ثم مات أبو بكر بعد أن مكث فى الخلافة نحو سنتين ، وقام بالأمر بعده عمر ، ولبث يدبر شئون الدولة نحو إحدى عشرة سنة ، فتح فى خلالها سورية والعراق وبلاد الفرس ومصر وجزءا من شمال أفريقيا . وانتشرت المصاحف المكتوبة على عهده ، وأكثر الناس من حفظ القران ، فلم ينبس أحد ببنت شفة اعتراضا على زيادة شىء أو نقصه فى القرآن ، ولا يخفى على أحد شدة الفاروق فى الدين ، وغيرته عليه .

فلما توفى رضى الله عنه أسندت الخلافة الى عثمان بن عفان ، وكان للمسلمين إذ ذاك أمبراطورية مترامية الأطراف ، ودخل فى الاسـلام ملايين من الناس ، واحتاج المسلمون الى المصاحف فـكانوا يكتبونها بأيديهم لعدم وجود مطابع إذ ذاك . ولا تخفى على أحد أخطاء النسخ ، فان الناسخ مهما كان حريصا على تحدى الأصل تبدر منه أخطاء لا يفطن إليها ، ولا سيما فى عهد لم تضبط فيه قـواعد الـكتابة ، ولم يوجد فى أحـرفها نقط ، ولا لألفاظها علامات لضبط النطق بها ، وهو ما يعرف الآن بالشكل ، فحدث فى قراءات الناس خبط ، ورفع

الأمر الى أمير المؤمنين، فأمر القراء تحت رياسة زيد بن ثابت — وهو الذى كان عهد اليه أبو بكر بجمع المصحف — بكتابة أربعة مصاحف ونشرها فى الآفاق، وأمر باتخاذها مرجعا للضبط وإحراق ما عداها .

فعل عثمان هذا وهو بين ظهرانى كبار الصحابة، وفيهم على بن أبى طالب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الله بن عباس وغيرهم من الذين قالوا لعمر ابن الخطاب : لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا، فما ظنك باعوجاج يرتكب ضد القرآن ؟

يهول بعض الناس أن عثمان أمر باحراق ما يخالف مصحفه من المصاحف المنسوخة، وأى شىء فى هذا ؟ أليس الاحراق وسيلة لملاشاة النسخ المحرفة تلجأ إليها الحكومات الى اليوم ؟ ألم تأمر الحكومة المصرية باحراق عشرات الالوف من نسخ القرآن لم يحسن مصححو مطبعتها تصحيحها، فجاءت مشوبة بأخطاء كثيرة، فعمدت الى هذه الوسيلة فى الزمن الذى نحن فيه ؟

هل كان لعثمان من السلطان ما يستطيع معه أن يغتصب مصاحف كبار الصحابة المعاصرين له فيحرقها، ويبدلهم منها نسخا أخرى فيها ما يعتقدون أنه تحريف ؟

أرأيت كيف تثور البراكين فتغمر فى حممها المدن، وتحرق بمواردها الملتهبة الحرث والنسل، وكيف تعصف الأعاصير الهوجاء فتدك كل بناء، وكيف تهيج الزلازل فتجعل عالى الأرض سافلها، وتدك شم الجبال ؟ كل هذا كان أهون منظراً إذا حدث جبار نفسه بتحريف القرآن فى أمة تعتبره روحها المدبر، ودستورها المهيمن، ووسيلتها التى تصل بها الى الله، وهم رجال وغى ومغاوير كفاح، يعتبرون الموت فى سبيل الدين حياة دونها كل حياة ؟

وإذا سلمنا جدلا بأن مصحف عثمان كان يخالف النسخ الصحيحة فى بعض المواطن، فلم يلبث عثمان فى الخلافة إلا نحو اثنتى عشرة سنة، وجاء بعده خليفة من أعلى الخلفاء كعبا فى الدين والورع والمحافظة على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم، فلم لم يبطل مصحف عثمان وينسخ صورة صحيحة للقرآن وقد كان يحفظه كله ولديه مصحف يتلوه فيه ؟

إن مسألة الزيادة فى كتاب أو النقص منه لا يعقل أن تحصل فى كتاب كالقرآن تتعبد أمة برمتها بتلاوته، وتصلى بآياته، وتفصل فى جميع شئونها بأحكامه ومقرراته . وليس لديها كتاب غيره، ولم يوكل أمره الى جماعة أو طبقة من الناس تتحكم فيه برأيها، ولكنه كان حقا مشاعا للناس كافة، يتولونه بالحفظ والرعاية . فمثل هذا الكتاب إن اعتراه تبديل أو تحريف كانت تتعدد نسخه، أو تتخالف آياته، ولا تستطيع أية حكومة مستبدة أن تبيد جميع ما يخالف هواها من صوره . والحكومة الاسلامية لم تكن استبدادية، وقد تداول الخلافة فى صدر الاسلام أربعة رجال أقروا كلهم صورة واحدة من القرآن، ولم يرد عنهم أن بعضهم أبطل نسخ بعض، ولا ورد عن آلاف الصحابة أن واحدا منهم أبرز صورة زعم أنها أصح من غيرها . فهل يأمرت الأمة الاسلامية كلها على التسامح فى تحريف كتابها الى هذا الحد ومكانه منها كما عرفت ؟

حدثنا التاريخ أن الأناجيل قد تعددت حتى بلغت أكثر من سبعين ، فأوعز الأمبراطور قنسطنطين الى الكهنة أن يرتضوا صورة واحدة له ، فاجتمعوا فى مؤتمر وقرروا أن يعتمدوا أربع صور منه هى الموجودة الى اليوم . فهل حدثنا تاريخ المسلمين عن مثل هذا التعدد لصور القرآن ؟

يقولون نعم ، وهى التى أمر باحراقها عثمان . نقول إن التى أمر باحراقها عثمان هى النسخ التى أصابتها آفة الاستنساخ ، وهذه الآفة لا تزال موجودة الى يومنا هذا ، فما من كتاب يعرض للاستنساخ إلا وقعت فيه أخطاء جمة ، لا دواء لها إلا تحرير نسخة صحيحة للنقل منها وإحراق ما عداها ، كما حدث على عهد عثمان ، وكما يحدث فى كل زمان ومكان .

وقد رأيت استحالة استبداد عثمان بالقرآن على عهد كان أكثر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحياء ، وكانوا أشد ما يكونون اشتغالا بتلاوة القرآن وعملا به . وله حفاظ منتشرون فى جميع أرجاء المملكة الاسلامية ، فكيف يعقل أن يكون عثمان قد تعمد تحريف الكتاب فى هذه البيئة الغاصة بحفظته وقارئيه ، وكلهم يفدونه بأرواحهم ، ويناخون عن حماه بأشد مما يناخون عن أنفسهم وأعراضهم ؟

الدواعى التى تدفع لتحريف الكتب السماوية :

إذا وقع التحريف فى كتاب سماوى فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بواحد من أربعة أسباب أو بأكثر من سبب منها ، وهى :

(١) ضياع أصل الكتاب

(٢) غلو فى الدين يحمل على تأليه صاحب الدعوة ، أو رفع درجة أسرته وأصحابه وحفظة دينه الى ما فوق مستوى الناس ، ومنحهم حقوقا وامتيازات ليتمكنوا بها من تسخير النفوس لاراداتهم .

(٣) النص على حصر السلطان الروحى فى طائفة معينة ، أو تحديد شكل الحكومة وجعلها تيوقراطية تحت تصرف رجال الدين .

(٤) تعمد إفساد الدين بالنقص من كتابه والزيادة عليه ، بحيث يفضى ذلك الى زهد النفوس فيه ، وكراهتهم له .

هذه هى الدواعى التى تحمل على تحريف الكتب السماوية ، وكلها ممتنعة بالنسبة للقرآن .

امتناع السبب الأول من أسباب التحريف :

أما امتناع السبب الأول ، فان أصل القرآن كان مكتوبا ومحفوظا فى دار النبى صلى الله

عليه وسلم ، وكان مئات من الناس يحفظونه ، فلما أريد جمعه أتوا بهـذه المخطوطات وقابلها الكتاب بما حفظوه فى صدورهم وجعلوا ما كتبوه مصحفا ، فاستنسخه ألوف من الناس وحفظوه ونقلوه الى جميع عواصم الملك الاسلامى . فهل توجد فى العالم وسيلة تفوق هـذه الوسيلة للتحقق من مطابقة صورة كتاب لأصله ؟ اللهم لا .

أين هذا مما حدث لما سبقه من الكتب ؟ فقد ضاعت أصولها ، وشتت أهلها فى الأرض ، ومزقوا كل ممزق . فالتوراة ضاع أصلها الأول ثم جمعت أسفارها من هنا وهناك ، واشتد اختلاف الناس فيها حتى إن توراة النصارى تخالف توراة اليهود مخالفة جوهرية .

وكذلك كان حال الأناجيل ، فقد ضاعت أصولها ثم نقلت عن ترجمة يونانية وجدت لها بعد آماد طويلة .

فهذه الكتب يعترف أهلها أنفسهم بأنه قد لحقها تحريف ، ولكنهم يعتذرون عنه بأنه لم يعد على الروح التى أودعها مجموعها . فقد جاء فى كتاب (محاورة فى الوحى) قول مؤلفه : « وليس من ضرورة للاعتقاد بأن جميع ما دار من مخاطبة الله للانسان ، قد دون فى الأسفار : (أولا) لأن البرهان على ذلك متعذر . و (ثانيا) لأنه يكفى الاعتقاد بأنه دون ما فيه كفاية. وهذا الرأى المعروف برأى « الاقتصاد فى الوحى » يجلو لنا الحقيقة » .

وقال فى موضع آخر من ذلك الكتاب :

« إن من تعاليم التوراة ما لا يجوز مسه لئلا يفسد جوهرها ، ومنها ما يسبب مسه ضررا باختلاف أهمية ذلك الجزء . ومنها ما لا يؤثر فيه المس أبدا حتى إنه وإن حذفت كلماته أو جمله يبقى سليما صحيحا . ومن هذا القبيل الكلمات والعبارات التى سقطت فى أثناء نسخ التوراة » .

ولكننا معشر المسلمين لا نقول بنظرية « الاقتصاد فى الوحى » ونرى أن كل ما أوحى الى الرسول مما أمر بتلاوته يجب أن يكون ماثلا فى المصحف . ولدينا الدليل القاطع على أن كل ما أوحاه الله إليه قد دون وحفظ سليما من كل تحريف الى يومنا هذا ، على أسلوب من التدقيق والضبط لا يعقل أن يكون أبلغ منه فى عالم النقل الصحيح .

امتناع السبب الثانى للتحريف :

وأما امتناع السبب الثانى لتحريف القرآن ، وهو الغلو فى الدين ، فلا يحتاج لدليل ، فان نصوص الكتاب تنطق صراحة بالنهى عن الغلو فى الدين . قال الله تعالى : « يأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ».

ولم يكتف الكتاب بهذا بل قطع الذرائع دون كل محاولة للغلو ، فذكر أن المرسلين رجال لا يمتازون عن سواهم إلا بالوحى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » وقال تعالى :

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى الى » وقال تعالى : « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ؟ » الخ الخ .

فالكتاب كما ترى لم يدع متسربا للغلو فى ذات الرسول من أية ناحية من النواحى فظل اكرم نعت له فى صلاة المسلمين أنه عبد الله ورسوله .

وأما عن أسرة النبى صلى الله عليه وسلم فلا توجد آية واحدة فى الكتاب تميزهم عن الناس . وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اعملى يافاطمة فانى لا أغنى عنك من الله شيئا » وقال : « والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » .

وقد أقاد النبى صلى الله عليه وسلم من نفسه ، فانه لما شعر بدنو أجله جمع الناس وقال لهم : من كنت قد أسأت اليه فليأت وليقتص منى .

ولما شكا يهودى عليا كرم الله وجهه ، دعاه عمر أمير المؤمنين ليقاضيه أمام خصمه ، فلما أقبل قال له : اجلس يا أبا الحسن . فغضب على ، فسأله عمر : أغضبت لمساواتك بخصمك ؟ قال لا ولكن لتمييزك إياى عنه بتكنيتى والتكنية تعظيم !

أظن أنه لايوجد فى تاريخ العالم ماهو أبلغ من هذا فى احترام مبدأ المساواة فى الحكم ، وفى نكران الذات امام هذا المبدأ .

فاذا كانت هذه المساواة واجبة فى حق بنت رسول الله وابن عمه ، فمن تظن أن ينال هذه الحظوة بعدها ؟

وقس على هذا معاملة العلماء ، فلم يرفع أحدهم على عامة الناس فى حكم ، ولم يستثن من تكليف بدني أو مالى . بل قد رفعت الدعاوى على أمراء المؤمنين من صغار رعاياهم أمام القضاة فلم يحابوهم وحكموا عليهم .

امتناع السبب الثالث للتحريف :

السبب الثالث لتحريف الكتب السماوية هو النص على حصر السلطان الروحى فى طائفة معينة من الآمة ، أو فى جعل الحكومة أوتوقراطية تحت تصرف رجال الدين .

هذا السبب لاظل له فى الاسلام ، لأن الكتاب نص على خلافه فى غير موطن منه ، فجاءت حكومة المسلمين ديموقراطية حرة ، قال عليه الصلاة والسلام : « اسمع وأطع ولو لعبد حبشى كأن رأسه زبيبة » .

وقد ولى النبى بلالا على المدينة وكان مملوكا حبشيا ، وفيها أجلاء الصحابة وكبار رجالات الآمة .

والاسلام لا يعترف بوجود طائفة فى الآمة يجب أن تودع السلطان الروحى دون سائر الطوائف ، بل ليس فى الاسلام سلطان روحى إلا للكتاب والسنة .

لذلك كان الأئمة الأولون الذين يرجع إليهم فى فهم الدين ، أكثرهم من الموالى أى الذين كانوا أرقاء أو أولاد آباء كانوا أرقاء . قال العلامة السخاوى فى شرح ألفية الحديث للعراقى : إن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك قال للامام المحدث الزهرى يوما : « من يسود أهل مكة ؟ قال : عطاء . قال : بم سادهم ؟ قال الزهرى : سادهم بالديانة والرواية . قال هشام نعم، من كان ذا ديانة حقت الرياسة له . ثم سأله الخليفة عن اليمن ، فقال الزهرى : إمامها طاوس . وكذلك سأل عن مصر والجزيرة وخراسان والبصرة والكوفة ، فأخذ الزهرى يعد له أسماء سادات هذه البلاد ، وكلما سمى له رجلا كان هشام يسأله هل هو عربى أم مولى ؟ فكان الزهرى يقول مولى ، الى أن أتى على ذكر النخعى ،فقال إنه عربى ، فقال هشام ، الآن فرجت عنى ، والله ليسودن الموالى العرب ويخطب لهم على المنابر » !

من هنا ترى أن الاسلام لم يهب السلطان الروحى لطائفة من الطوائف ، ولكنه دعا الى العلم وتركه حقا شائعا بين المسلمين كافة أحرارهم وأرقائهم ، بيضهم وسودهم ، فسبق إليه من سبق ، فلم يسأل الناس عن أصلهم ، وهذا ما ليس له مثيل فى أمة غير الأمة الاسلامية .

وقد طبع الله هذا المبدأ السامى بطابع قرآنى عالى القدر ، فقال تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، فجعل التفاضل بالتقوى لا بالجنس ولا باللون ولا بالانتساب لطائفة من الطوائف . وبذلك سقط السبب الثالث من أسباب التحريف التى عددناها .

السبب الرابع لتحريف الكتب السماوية :

أما السبب الرابع وهو تعمد إفساد الدين بالنقص من كتابه والزيادة فيه ، فهذا أكثر امتناعا بالنسبة للقرآن الكريم من كل الأسباب السابقة ، فان الذين جمعوه من المخطوطات ، وقابلوه على محفوظاتهم منه ، كلهم من المشهود لهم بالتقوى والصلابة فى الدين . ناهيك بقوم آثروا حفظ الكتاب كله فى صدورهم . فهذا الجهد الجاهد لا يكون إلا من نفوس استوعب حب الدين كل شعورهم ، واستولى بجلاله على قلوبهم . فلا يعقل أن يصدر من هؤلاء تحريف للكتاب بقصد إفساده وتزهيد الناس فيه .

ثم إن ما كتبوه عرضوه على أبى بكر وعمر وجميع كبار الصحابة ، فلم يروا فيه ما ينكرونه منه ، وكلهم كان يحفظه أو يتلوه بدون انقطاع .

فلما استكتب عثمان منه أربع نسخ صحيحة ليوزعها فى الآفاق ، تحرى القراء أن يكون مطابقا لمصحف أبى بكر ، وكان ذلك تحت رقابة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يظهر فى ذلك العهد ما يخالف مصحف عثمان ، وتولى الخلافة بعده على بن أبى طالب فلم يحدث أقل تغيير فيه ، ولو كان ينقص أو يزيد حرفا لما أغضى عنه الامام ولا أغضى عنه احد من الذين أحدثوا الثورة على عثمان .

نسخ الأحكام ونسخ تلاوة بعض الآيات:

نزل القرآن نجوما على حسب الحوادث الطارئة ، ولم ينزل دفعة واحدة . ونظرا لأنه يتولى تأليف أمة جديدة على نظم وأصول نهائية ، كانت الحاجة ماسة الى مسايرة الأطوار التى تدخل فيها ، والتدرج معها فى جميع الأدوار التى تبلغها فى حياتها الاجتماعية .

من هنا كانت الضرورة قاضية بنسخ بعض الأحكام بقصد تخفيفها أو تشديدها على مقتضى الأحوال . واقتضت حكمة الشارع أيضا أن تبقى تلاوة بعض الآيات الدالة على تلك الأحكام المنسوخة ، وأن ينسخ تلاوة بعضها الآخر . وفى القرآن نسخ لتلاوة بعض الآيات مع بقاء أحكامها معمولا بها .

وهذه الأمور أرشد اليها النبى صلى الله عليه وسلم نفسه ودون المصحف فى عهد أبى بكر مع مراعاتها بالدقة .

فمن أمثلة نسخ الحكم دون نسخ تلاوة الآية الدالة عليه قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا الى الحول » فقضت هذه الآية بأن مدة تربص المرأة بنفسها بعد موت زوجها يجب أن تكون حولا كاملا على نفقة الزوج . فنسخ هذا الحكم وجعلت مدة التربص أربعة أشهر وعشرا كما فى قوله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا » .

ومن أمثلة نسخ الحكم ونسخ تلاوة الآية الدالة عليه ، ما روى عن عائشة أن القرآن جاء فى الرضاع بعشر معلومات ، ثم نسخن بخمس معلومات . فالعشر مرفوعة التلاوة والحكم جميعا ، والخمس مرفوعة التلاوة باقية الحكم .

ومنها ما روى أن سورة الأحزاب كانت بمنزلة السبع الطوال أو أزيد ، ثم نسخت تلاوة آيات كثيرة منها .

أما أمثلة الآيات التى نسخت تلاوتها وبقيت أحكامها ، فكآية الرجم وهى : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألبتة نكالا من الله ، والله عزيز حكيم » وما روى من قوله تعالى : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » .

فهذه الأمور كلها كانت معلومة عند الصحابة ، ومضبوطة الى حد أنه لم يحدث فيها خلاف . ولو كانت تحتمل أقل خلاف لحدث ولملئت الأسفار بأخباره .

لم يكن كتاب الاسلام محتكرا فى يد طائفة من الطوائف ، فيسهل عليها التلاعب به ، ولكنه كان حقا مشاعا للناس كافة . وقد اختلف المسلمون فى كل شىء إلا فى هذه المسألة ، فلم كان

ذلك ؟ ألأنهم كانوا أكثر عناية بالأشياء الثانوية منهم بالقرآن ، وأنت تعلم أنه كان متعبدهم ودستورهم ، بل روحهم التى بها يتحركون ؟

أما رأيت الى أى حد اختلف المسلمون فى أحاديث رسولهم ، حتى رفضوا منها مئات الألوف باعتبار أنها موضوعة أو ضعيفة ، فهل كان المسلمون أشد اعتدادا بأحاديث رسولهم منهم بكلام ربهم ؟

شبهات خصوم الاسلام على القرآن :

جاء فى كتاب (الوحى الجديد) لأحد دعاة بعض الملل قوله فى صفحة ٤٤ :

(أولا) إنه من المستحيل أن يكون القرآن الحالى حاويا لجميع ما أنزل ، بل أنه من المؤكد تاريخيا أنه قد ذهب منه جانب ليس بقليل .

(ثانيا) من المستحيل إقامة البرهان على أنه طبق ما نطقت به شفتا محمد تماما بل إنه فى آيات عديدة منه اختلافات مدهشة ، ولا يعرف إلا الله ما هو النص الصحيح . انتهى

نقول : أما عن الأمر الأول فاننا معشر المسلمين نعترف بأن المصحف لا يحوى جميع ما أنزله الله على محمد ، ولكن جميع ما سمح بأن ينقل فى المصاحف ويتلى تعبدا . فقد علمت فى فصل متقدم أن النبى صلى الله عليه وسلم نبه على أن آيات كثيرة منه قد نسخت تلاوتها فلم تدون . فماذا يكسبه الخصم من وراء إعلانه شيئا هو عند المسلمين من المعلومات الأولية ؟ لعله يريد بذلك أن يؤثر فى عقول العامة ، ولكن العامة يلجأون عادة الى علمائهم فيفهمونهم الأمر على وجهه ، فتبطل الشبهة ، ويبقى عارها لا صقا بمن أوردها .

وأما عن الأمر الثانى فهو يريد به اختلاف القراءات . وهذه القراءات وجدت على عهد النبى صلى الله عليه وسلم فأقرها ، وليس فيها ما يوجب اختلافا فى العقائد ولا فى الأحكام ، وسترى تفصيل ذلك عند كلامنا على ما أورده منها . وإن شيئا وجد على عهد صاحب الرسالة فأقره ، وعنى المسلمون بتدوينه وضبطه ، لا يجوز أن يتخذ اليوم شبهة للتشكيك فى عبارات القرآن .

هل اختلاف هذه القراءات تمس جوهر العقائد ، أو أصول العبادات ، أو دستور المعاملات ؟

لم يقل أحد ذلك فى الاسلام الى اليوم ، ولم يثر بينهم شقاقا ولا جدالا ، ولا كان سببا لتشكك أحد ولا لارتداده . فكيف يثارهذا الأمر اليوم على هذا الوجه ، ويفهم ذلك الكاتب منه ما لم تفهمه أمة برمتها فى مدى أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، على شدة عنايتها بالقرآن ، وبحث كل صغيرة وكبيرة فيه ؟

ويقول كاتب رسالة (الوحى الجديد) فى صفحة ٤٥ :

« إننا نعلم تماما بشهادة زيد بن ثابت التى لا ريب فيها ، أنه لم تدون جميع السور والآيات التى سمعت من فم محمد ، بل إن كثيرا منها حفظ فى صدور الناس ، ومرت سنون عديدة قبل أن امر زيد بتدوينها ، نقلا عن ذاكرة أولئك القراء فكيف تامن على الحقيقة من ذاكرتهم ؟ »

ونحن نقول إن القرآن كان قد كتب كله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سمع من فمه ، وإن ما كتب حفظ فى داره ، وكان مئات من الناس قد حفظوه كله ، ومنهم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، فلما لحق رسول الله بالرفيق الأعلى لم تمض إلا بضعة أشهر حتى دعا أبو بكر القراء وعلى رأسهم زيد بن ثابت وأمرهم أن يدونوا القرآن فى مصحف ، وسلمهم تلك المخطوطات ليرجعوا اليها إن اختلفوا فى شىء .

هذا ما شهدت به أمة برمتها ، فكيف يقول كاتب الرسالة إن القران لم يكتب كله على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ؟ ومامعنى قوله مرت سنون كثيرة قبل أن أمر زيد بن ثابت بكتابته ، ولم تمض عليه غير بضعة أشهر ، ولم يحكم أبو بكر الذى كتب القرآن على عهده أكثر من سنتين وأشهراً . فأين هى هذه السنين الكثيرة التى ذكرها ذلك الكاتب ؟

إن التى مرت عليها سنون كثيرة قبل أن تدون ، هى أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى تلى القرآن فى الدرجة ، ومع ذلك فقد حدث فيها بين العلماء من الاختلاف ما لا يسع المقام ذكره ، حرصا على ألفاظ النبى صلى الله عليه وسلم أن تبدل أو يزاد عليها أو ينقص منها ، فهل كان حرصهم على الأحاديث النبوية أشد من حرصهم على كلام الله ، فيتركوه يحرف أمام أعينهم ولا يحدثوا حول هذا التحريف شغبا ولا اضطرابا ، ويقروه على ما كتب لا يختلفون فيه ، ولا يصطخبون حياله ؟

هذا أمر لا يسيغه أقل الناس فهما ، فكيف يسيغه كاتب تلك الرسالة ويرسل به كشبهة على سلامة القرآن وليس منها فى شىء ؟

وقال فى صفحة ٤٧ :

« إن ابن مسعود هذا ، (وقد نعته بأنه أعلم الناس بالقرآن) ، لم يكن ليعتبر نسخة عثمان صحيحة ، وأنه رفض أن يسلمه نسخته ليحرقها ، وأنه أشار على أهل العراق ليكتموا نسخهم قائلا : « يأهل العراق اكتموا المصاحف التى عندكم وغلقوها » . وأنه حذف السورة الأولى (أى الفاتحة) والسورتين الأخيرتين من نسخته ، بحجة أن تلك السور ليست من كتاب الله » .

نقول هنا : يمكن أن يتساءل متفهم : أى مصلحة للذين جمعوا القرآن أن يضعوا فيه ثلاث سور قصار ليست منه فى شىء ؟ أرموا بذلك لغرض من الأغراض التى تحمل النفوس السافلة على التحريف وليس فيها ما يشوه جمال القرآن ، ولا ما يتناقض والحكمة التى أتى بها ؟

وهل يعقل أن يضع المجرمون فاتحة لكتاب ، وأن يذيلوه بسورتين صغيرتين ، فى أمة تتعبد

بتلاوة ذلك الكتاب ، وفيها ألوف من الرجال الذين حضروا وحيه وكتبوه ، وصحبوا رسولهم فى جميع أدواره ؟

لو كان المدسوس فيه آية من سورة طويلة ، أو كلمة تقلب المعنى وتوجهه الى ناحية أخرى ، لهان الخطب على العقل ، ولكانت الشبهة تحتاج لشىء من العلاج ، ولكن والمدسوس ثلاث سور صغيرة ، فى أظهر مكان منه فأمر لايحتمل النظر فضلا عن الدحض .

وهل يعقل أن يحدث مثل هذا الأمر فلا يثير صخبا ، ولا يهيج غضبا ، ولا يستدعى شغبا ، ويمر كأنه لم يكن فى أمة دستورها هذا الكتاب وحده ، ومتعبدها سوره وآياته ؟

وكيف سكت عنه ابن مسعود نفسه ، فلم يسمع له فيه زئير يدوى فى العالم الاسلامى دوى الرعود القاصفة ؟ لعلك تقول خشى باس عثمان . فقد قتل عثمان ، وابن مسعود حى يرزق ، فلم لم ينبه المسلمين الى هذه الجناية ويلجأ الى خليفته ليمحو من المصاحف هذه الزيادة التى ليست منه ؟

ما الذى حمل المسلمين ، والدين لا يزال فى نضرته ، وكتابهم جمهم فى جمع شئونهم ، ومتعبدهم فى صلواتهم ، على أن يهملوا قول ابن مسعود ولا يرفعوا به رأسا ؟ ألأنهم ما كانوا يبالون بسلامة القرآن من الزيادة ، أم لأنهم كانوا يخافون بطش الذين حرفوه ، وقد دالت دولتهم، وتلتها دولة أخرى على رأسها علىّ أقل ما يقال فيها إنها كانت خلافة أجمع المسلمون على أنها كانت راشدة ؟

ما هذا الاجماع كله على عدم الاكتراث لقول ابن مسعود ، وهو ينبه الى أمر جلل كان يكفى خيال منه أن يثير فتنة تدع الحليم حيرانا ؟

يقول خصومنا : إن ابن مسعود كتب لأهل العراق أن يحتفظوا بنسخهم ، ولا يسلموها لعمال عثمان بحجة أنها أصح من نسخته ، وهذا معناه أن ابن مسعود كان بمحل يستطيع فيه أن يعارض أمر أمير المؤمنين ، وأن أهل العراق كانوا يصدرون عن رأيه ، فهل صدعوا بأمره ، واحتفظوا بنسخهم ؟ إن قيل: نعم ، فأين هى ، ولم لم يرو لنا التاريخ كلمة عن مخالفتها لنسخة عثمان ؟ وإن قيل : لا ، فكيف يعقل أن يفرط أهل قطر عظيم كالعراق فى كتابهم الى هذا الحد ، ولم تبد منهم أية حركة من مقاومة ؟ أكان أهل العراق من خور العزيمة فى هذه الدركة ، وهم الذين انتدبوا لخلع عثمان فحاصروه فى بيته ، ثم لما خشوا فتنة تهب من أهل الشام من أجله قتلوه وولوا عليا مكانه ؟

وقد أحصى أهل العراق على عثمان عيوبا جمة ليس منها أنه عمد الى تحريف القرآن ، وكانت هذه الحجة تكفى وحدها فى صرف القلوب عنه ، ودفعها لارتكاب أشد ضروب القسوة ضده .

وإذا صح أن ابن مسعود كتب لأهل العراق أن احتفظوا بمصاحفكم ، فلم لم يفاتح أهل المدينة فى هذا الأمر ، وهو بين ظهرانيهم ، وينبههم إليه ، وفيهم مئات من كبار أصحاب رسول الله؟

وإذا كان فاتحهم فيه فهل يتفق أن يجمعوا كلهم على رفض قوله ، وهل يعقل أن لا يكون فيهم واحد يعرف ما يعرف هو من أن الفاتحة والمعوذتين ليست من القرآن فيشاركه فى رأيه ؟

لو كان ابن مسعود هذا بعد عهد النبى صلى الله عليه وسلم بجيل أو جيلين ، واكتشف مصحفا أو مصاحف ليس فيها الفاتحة ولا المعوذتان ، ونبه أصحابها على أن الذين جمعوا القرآن على عهد عثمان زادوها فى القرآن وليست منه ، لكان قول ابن عباس يسترعى النظر بعض الاسترعاء. أما وهو من أهل الصدر الأول ، وحوله ألوف من أهل ذلك العهد ، فلا يعقل أن يذهب قوله هباء منثورا كأنه لم يكن ، ويقبل الناس كافة نسخة عثمان حتى أعداؤه ، والكارهون لولايته .

إن هذه القولة المنسوبة لابن مسعود ، ويعدها خصومنا شبهة على القرآن ، لا يمكن التسليم بنسبتها اليه، جريا على أسلوب النقد الاسلامى . فان المسلمين لا يقبلون قولا منسوبا لنبيهم إلا بعد التحقق من حالة رواته العقلية والنفسية والدينية ، وقد رفضوا مئات الألوف من الأحاديث المنسوبة إليه وعدوها موضوعة ،وقد كذب الناس عليه فى حياته ، حتى قال: من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار . فهل يقبل المسلمون أو المنصفون من غيرهم ، قولة من هذا الطراز تقوم ضدها كل ما ذكرناه من المضعفات والمشككات ؟

إننا نحمد الله على أن ادعاء الزيادة فى القول المعزو الى ابن مسعود جاء خاصا بفاتحة الكتاب والمعوذتين ، وهى السور التى لم يوجد فى المسلمين منذ نشأوا الى اليوم من لا يحفظها ويصلى بها ، وهى لا تعدو الدعاء بالهداية والتوفيق ،والاستعاذة من الشرور وعواملها المختلفة ،فأى مصلحة جناها محرف القرآن بزيادة هذه الأدعية والاستعاذات به ؟

يقول العامة : إذا سرقت فاسرق جملا ، يريدون إذا سمحت لك نفسك أن تحطها الى دركة السرقة فاعمد الى أثمن الأشياء وأجلها ، لا الى أصغرها وأحقرها . وهذا الذى سول له كفره أن يحرف كلام الله لم لم يعمد الى أمر جلل فيدسه على الكتاب الالهى ، واكتفى بوضع فاتحة صغيرة له وخاتمتين ؟

وهل يعقل أن من يريد تحريف الكتاب الالهى لأمة ، بالزيادة عليه ، يضع تلك الزيادة فى أوله وآخره بحيث يراها أقل الناس عناية به ، أم يضعها بحيث تخفى على السواد الأعظم من الناس ؟

وهل يعقل أن المسلمين الأولين الذين كان شغلهم الشاغل القرآن، يبلغون من الغفلة أن يزاد فى أوله وآخره ما ليس منه فلا يدركوه ؟ أو أن يكونوا من قلة الاكتراث بسلامة القرآن بحيث يتركون هذه الزيادة لتشيع فى الناس ، حتى يأتى بعض خصوم الاسلام بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا فينبه أخلافهم إليه ؟

اللهم إن كان قول يصح أن يضحك الثكالى وينسيهن مصابهن فهو هذا ، وإن كانت شبهة يكفى فى دحضها أن تورد بدون تعليق عليها فهى هذه !

وقال فى صفحة ٤٧ :

« إن ملايين المسلمين فى بلاد العجم يعزون كلا الزيادة والنقص الى عثمان ، ويقولون إنه حذف كثيرا من الآيات فى مدح على ، فضلا عن سورة كاملة تركها تدعى سورة النورين . وقد طبعناها تذييلا لهذا الكتاب . ونحن لا نثبت صحة هذه السورة ، فقط نقول إن أمرا كهذا يبعث على الريبة ويبين ضعف الحجة المشهورة : « فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين » . ولا يخفى أن عليا كابن مسعود أبى أن يسلم نسخته الى عثمان لينقحها بحجة أنها كانت كاملة » .

نقول : يدعى الكاتب أن(ملايين) من المسلمين فى بلاد العجم يعزون الى عثمان أنه حرف القرآن . وهذا ادعاء لادليل عليه . فان الايرانيين سنية وشيعة يعتبرون القرآن الكريم منزها عن كل تحريف . ولكن هنالك بقية من الرافضة ، لا يتجاوز عددهم بضعة ألوف ، كان آباؤهم قد غلوا فى حق على حتى ادعوا أن الله حل فيه ، وسجدوا له ، فنهاهم فلم ينتهوا فأمر بقتلهم. فاذا كان هنالك أخلاف لهؤلاء الغلاة فانهم لا يقولون بتحريف القرآن ، ولكنهم يؤولون بعض آياته لمصلحة مذهبهم .

فان كان كاتب هذه الشبهة فى ذلك فليذكر لنا ماقالوه فى هذا الشان من بعض كتبهم المطبوعة ، أما إرسال القول جزافا بغير دليل فلا يقبل منه .

أما السورة التى ادعى أنها كانت موجودة فى القرآن ، وحذفها عثمان ، وقال إنه طبعها فى ذيل رسالته ، فيكفينا أنه قد شك هو نفسه فى أنها من القرآن ، وهو لم يشك إلا لأنه يعلم أن رجلا من شيعته قد وضعها ليشكك فى الفرقان . وليت ذلك الداعى لم يقدم على ما فعل فانه أثبت بدليل محسوس أن القرآن نسيج وحده ، وأن مدعى الاتيان بمثله يضطر للأخذ منه ، وإلا عجز عن محا كاته ولو ظاهرا . وذلك أن تلك السورة ليست بشىء سوى عبارات قرآنية أخذت من سور متفرقة ، وصيغت صياغة مزورة ، فجاءت دليلا محسوسا على أن من أقدم على هذا التزوير قد أقام حجة قاطعة على أن القرآن لا يقلد بحال من الأحوال .

واليك عبارات من تلك السورة وهى تقع فى نحو صفحة ونصف صفحة من هذه المجلة :

« يأيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين أنزلها يتلوان عليكم آياتى ويحذرانكم عذاب يوم عظيم .نوران بعضهما من بعض وأنا لسميع عليم . إن الذين يوفون بعهد الله ورسوله فى آيات لهم جنات نعيم . والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدوا الرسول عليه يقذفون فى الجحيم . ظلموا انفسهم وعصوا لولى الرسول (يريد عليا) أولئك يسقون من حميم .

إن الله الذى نور السموات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة والرسل وجعل من المؤمنين أولئك من خلقه يفعل الله ما يشاء لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . قد مكر الذين من قبلهم برسلهم فاخذتهم بمكرهم إن أخذى شديد أليم »

يرى القارىء مما مر أن الذى زور هذه السورة قد أتى بعبارات قرآنية وحشر بينها من كلامه ، فكانت من السخف والتقلقل بحيث ينبو عنها الطبع ،ويدرك الفرق البعيد بين الكلام الالهى المعجز وكلام البشر الركيك .

والى القارىء نموذجات أخرى من ركاكات هذه السورة الملفقة :

« يايها الرسول بلغ إنذارى فسوف يعلمون »

« مثل الذين يوفون بعهدك أنى جزيتهم جنات النعيم »

« وإن عليا لمن المتقين »

« وإن عدوهم إمام المجرمين »

« يأيها الرسول قد أنزلنا اليك آيات بينات فيها من يتوفه مؤمنا ومن يتوله من بعدك يظهرون »

« ولقد أرسلنا موسى وهرون بما استخلف ، فبغوا هرون ، فصبر جميل »

« فاصبر فسوف يبلون . ولقد آتينا لك الحكم كالذين من قبلك من المرسلين . وجعلنا لك منهم وصيا لعلهم يرجعون »

« إن عليا قانتا بالليل ساجدا يحذر الآخرة ويرجو ثواب ربه ، قل هل يستوى الذين ظلموا وهم بعذابى يعلمون »

« إنا بشرناك بذرية الصالحين . وإنهم لأمرنا لا يخلفون »

« وعلى الذين سلكوا مسلكهم منى رحمة وهم فى الغرفات آمنون »

هذه نموذجات من تلك التلفيقات المضحكة ، فمن يبلغ مرتكبها أن تحدى القرآن لو كان من هذا الضرب لاستطاع تلاميذ المدارس الأولية أن يأتوا بسورة بل بسور من مثله ؟ ولكن من كانت فى رأسه مسكة من عقل يحجم عن مثل هذا الهذر ، ويعرف أن هذا السلاح المفلول لا يقتل إلا صاحبه المسكين !

ولو كانت معايير البيان عند أصحابنا هو ما رأينا ، فاننا نترفع عن حوارهم ، لولا أنهم لا يتصدون إلا للغفل والجاهلين ، فان سكتنا خيل لهم أننا عجزنا عن رد كيدهم عليهم ، وما يكيدون إلا أنفسهم وما يشعرون .

وقد قال كاتب الرسالة فى شبهته هـذه : « ولا يخـفى أن عليا — كابن مسعود — أبى أن يسلم نسخته الى عثمان لينقحها بحجة أنها كانت كاملة » .

نقول : إذا ثبت أن عليا لم يسلم نسخته الى عثمان بحجة أنها كانت كاملة ، فمعنى كاملة أنها كانت مطابقة لنسخة عثمان من كل وجه ، وإلا فما الذى كان يمنعه أن يحاج عثمان فى أمر نسخته التى يدعى الخصم أنها كانت محرفة ؟

لعله يدعى أنه لم يفعل ذلك اتقاء بطش عثمان ، فنسلم له ذلك جـدلا ، وإن كان عثمان فى حاجة الى حماية على ، ونقول : فما الذى كان يمنع عليا وقد أفضت اليه إمارة المؤمنين أن يأمر بنسخ نسخ جديدة من مصحفه ، إن كان مخالفا لنسخة عثمان ، وينشرها فى الآفاق تخليصا للقرآن الكريم من آفة التحريف ؟

هل كان على وهو أمير المؤمنين قليل الاكتراث لهذا الأمر فأهمله ، ورضى أن يستقر التحريف فى القرآن وهو قادر على إزالته ؟

وهل اتفق أن كان جميع خصوم عثمان قليلى المبالاة بالقرآن الى حد أنهم ، حتى بعد زوال ملكه ، يقرون التحريف الذى أوجده فى الكتاب الذى يعبدون الله بتلاوته ؟

اللهم إن هـذه محالات عقلية لا توجد معدة فى الأرض تستطيع هضمها ، ولا ندرى كيف استطاع أن يهضمها كاتب هذه الرسالة ؟ !

وقال فى صفحة ٤٨ :

« جاء أن عمر كان يقبل كل آية بشهادة شاهدين فكان من الممكن أن ترفض آية صحيحة إذا شهد بها شاهد واحد ، وأن تقبل آية محرفة إذا شهد بصحتها شاهدان » .

نقول كيف يقبل العقل مثل هذا القول ؟ قد ثبت بالتواتر التاريخى أن القرآن كان يحفظه الخلفاء الأربعة ومئات من الناس ، وكان مكتوبا كله ، ومحفوظا فى دار النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن أبا بكر لما أمر بكتابته ندب لذلك جمهرة من حفظته ، على رأسهم زيد بن ثابت فكتبوه ، فما شأن عمر بعد ذلك فى هذا الأمر ؟

هل كان القرآن آيات منثورة مفرقة بين الناس ، يحفظ منها هذا آية ، وذلك أخرى ، فلما أريد جمعه كان الذى يحفظ منه شيئا يأتى فيفضى بالذى عنده ، فيكتب عنه بشهادة شاهدين ، ويرد منه ما لا يشهد به إلا شاهد واحد ؟

إذن ماذا كان يحفظ منه حفاظه ؟ ولم ندبوا لكتابته دون غيرهم ؟ أما كان الأجدى أن يعلن الناس بذلك ، وينادى فيهم : من كان يحفظ شيئا من القرآن فليفض به ، وليستشهد على صدقه شاهدين ؟

شىء من ذلك لم يكن ، وإنما الذى كان هـو أن أمير المؤمنين أمر أن يكتب المصحف

من المخطوطات المحفوظة ، ومن صدور حفاظه الغيورين عليه ، وهـذا جهد كل من يريد أن يستوعبه كله دون أن يسقط منه حرف واحد . فهل بعد هـذا الأسلوب أسلوب أدق منه فى جمع كتاب بدون تحريف ؟

فاذا كان الكاتب نقل هـذا من كتاب إسلامى فهو مردود على قائله لأنه غير معقول . وهل يهدم قول مقطوع السند كهذا عملا دل التواتر عليه ؟

وقال فى صفحة ٤٨ أيضا :

« جاء عن مسلم أن أبا موسى الأشعرى قال مرة لخمسمائة من القـراء فى البصرة : إننا كنا نقرأ سورة بطول السهم وحده ، أما الآن فقد نسيتها ما عدا بعض الآيات » .

نقول : يسوق الكاتب هذه الشبهة على اعتبار أن أبا موسى يأسف على أن ذهب من القرآن مقدار كبير ، حتى إنه كان يحفظ سورة طويلة فنسيها إلا بعض آيات منها . وأنا أرجو القارئ أن يلاحظ أنه يذكر ذلك لخمسمائة من القراء ، أى من حفاظ القرآن .

والحقيقة أن أبا موسى المذكور لو كان قال هـذا للقراء فهو يذكر لهم ما نسخت تلاوته من آيات القرآن . وقد رأيت أن ذلك النسخ نبه عليه النبى صلى الله عليه وسلم وحدده تحديدا تاما ، بحيث لم يختلف اثنان من المسلمين فى شىء منه . ولو كان أبو موسى يقول ذلك أسفا منه ، فلم لم يهتم بها هو حتى نسيها ؟ أليس المفهوم بداهة أنه نسيها لأن تلاوتها قد نسخت فأهملها ؟

ومما تجب ملاحظته أيضا أن أبا موسى قال ذلك لخمسمائة من القراء ، أى لخمسمائة ممن جردوا أنفسهم للقرآن . فماذا يكون وقع هذا الكلام منهم لوكان أبوموسى يقوله متأسفا من ضياع بعض الكتاب ؟

لقد علمت أن أصحاب الحديث كانوا يجولون الأقطار الشاسعة وراء سماع الأحاديث ممن يحفظون شيئا منها طلبا لجمعها ، وكانوا يبذلون وراء ذلك أنفسهم ونفائسهم ، حتى تروى عنهم فيها الأعاجيب التى لم تتفق لمجتهدى أمة من الأمم ، فهلا كان يدفع كلام أبى موسى هؤلاء الحفاظ للبحث عن تلك الآيات المفقودة ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يزالون أحياء ، فكانوا يرحلون الى المدينة وغيرها ينقبون عن حفاظ تلك السورة حتى يجمعوا مشتت آياتها ، أو أكثر تلك الآيات ؟

وكيف يعقل أن أبا موسى لم يلقن الخمسمائة من القراء الذين قابلهم الآيات التى مازالت عالقة بذاكرته منها ؟ وكيف لم يطلبها منه أولئك القراء ؟

قس على هذا كل ما أورده كاتب هذه الرسالة مما يشبه هذا كما قال فى صفحة ٤٩ :

« وروى أبو موسى نفس الحديث عن سورة أخرى كالصيحات قد ضاعت .

« وروى عن عائشة أن الآية عن الرضاعة كانت تقرأ فى زمن النبى ولكنها مفقودة الآن

من القرآن (نرجو القارئ أن يلاحظ أن كلمات (قد ضاعت) و (مفقودة الا ن من القرآن) من تعبير كاتب الرسالة عمد اليها للتهويل » .

وقال فى صفحة ٤٩ :

« وقال أيضا جلال الدين السيوطى : « حدثنا ابن أبى مريم عن أبى لهيعة بن الأسود عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : كانت سورة الأحزاب تقرأ فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم مائتى آية فلما كتب عثمان المصحف لم يقرر منها إلا ما هو الآن (وهى الآن سبع وسبعون آية) .

« وقال ابن جيش قال أبى بن كعب كم تعد سورة الأحزاب ، قال اثنتين وسبعين آية أو ثلاثا وسبعين آية . قال كانت تعدو سورة البقرة .

« وأخرج البخارى فى تاريخه عن حذيفة ، قال قرأنا سورة الأحزاب على النبى فنسيت منها سبعين آية ماوجدتها .

« وروى جلال الدين أن عبيدا كان يقول حدثنا ابراهيم عن أيوب عن نافع قال : « لايقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله ، وما يدرى ما كله ، فقد ذهب منه قرآن كثير ولكن ليقل قد أخذت منه ما ظهر » .

« وعن مالك أن أول سورة براءة سقط مع البسملة فقد ثبت أنها كانت تعدل البقرة لطولها.

« وقال أيضا مسلم إن الآية بخصوص الرجم كانت قبلا فى القرآن وكان عمر مقتنعا بصحتها حتى أقسم بالله إنه إنما منع عن تدوينها خشية الاتهام .

« فترى مما تقدم (القائل كاتب الرسالة) أنه طرأ على القرآن كثير من الحذف ، وبعبارة أخرى أن كلمة الله قد اعتراها النقص » انتهى كلامه .

نقول : إن كل ماجمعه كاتب الرسالة من هذه الأقوال ، يفسرها ماذكرناه مرارا ، من أن القرآن نسخت منه تلاوة آيات كثيرة على عهد النبى صلى الله عليه وسلم، وقد علم المسلمون الأولون ذلك ولم يختلفوا فيه .

وإذا كانت عائشة قالت مانقله عنها كاتب الرسالة وهو: «كانت سورة الأحزاب تقرأ فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم مائتى آية ، فلما كتب عثمان المصحف لم يقرر منها إلا ما هو الآن » ، إذا كانت هى قائلة هذا القول، وتعنى به أن عثمان جنى على القرآن فحذف منه ما كان يجب أن يبقى فيه ، فلم كانت تدافع عن عثمان ،حتى إنه لما قتل خرجت فى مقدمة الخارجين على على ، متهمة إياه بالاغراء بقتله ، وحضرت وقعة الجمل تحريضا للناس على الثبات فى وجه أمير المؤمنين ؟ فهل كانت تريد أن تفهم الناس أن عثمان الذى نقص من آيات القرآن ، يستحق أن تسفك فى سبيل الثأر له كل هذه الدماء ؟

ومما رواه كاتب الرسالة عن البخارى أن حذيفة قال : « قرأنا سورة الأحزاب على النبي صلى الله عليه وسلم فنسيت منها سبعين آية ما وجدتها ».

هذا كلام يريد أن يفهم منه صاحب ذلك الكتيب أن حذيفة يأسف لنسيان سبعين آية من سورة الأحزاب . ولكن الجملة لا تشعر بأسف وبخاصة من أجل ضياع بعض القران ، الأمر الذى لو كان لاستتبع من الأحداث ما لا يعلم هوله إلا الله . فحذيفة يذكر أنه نسى سبعين آية من القرآن ، كما يذكر أنه نسى قصيدة كان يحفظها لبعض الشعراء .

هب أن حذيفة قال ذلك لبعض الناس ، أفما سأله ذلك البعض قائلا : هل تلك الآيات لم توجد فيما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بكتابته وحفظه من القرآن ؟ وهل نسيها جميع حفاظه؟ وهل اتفق أن نسيها المسلمون أجمعون ؟ وهل سعى حذيفة للحصول عليها فخاب ؟ إننا سمعنا أن بعض جامعى الأحاديث كانوا يسافرون ليالى وأياما لسماع أحاديث معدودة من رواتها ، فهلا حفزت الحمية بعض المسلمين للتنقل فى الأقطار سائلين عن تلك الآيات ؟

أليست تدل هذه السكينة التى يظهر بها قائلو هذه الأقوال ، والذين يسمعونهم ، على أن أمرها لا يعدو أحد احتمالين : فاما أنها مدسوسة على قائليها ، أو أنهم يريدون بها الآيات التى نسخت تلاوتها من القرآن ؟

فان قال معترض : لو كان هذا الأمر من قبيل الدس لما عجز الدساسون أن يحيطوه بشىء مما يدل على الأسف والاهتمام .

قلنا: لو فعلوا ذلك خشوا أن يكذبوا فيه ، لأن هذا الاهتمام كان يظهر له أثر كبير فيما نقل الينا من أحوال الصحابة . وقد نقل تاريخهم إلينا أنهم تضاربوا وتسابوا وقاتل بعضهم بعضا . أما وقد سكتت جميع المصادر التاريخية عنها ، فمعنى ذلك أنه لم يكن له أثر على الاطلاق . وهذا غير معقول إذا كان قد ضاع شىء من القرآن كما فصلنا ذلك تفصيلا فيما مر من الكلام .

ومن أدل الدلائل على أن هذا الأمر لم يكن له أثر فى تاريخ هذا الدين ، سكوت علماء الكلام عنه . فان هذا العلم الذى عنى بكل صغيرة وكبيرة من الشبهات التى أثيرت ضد الاسلام ، صمت حيال هذه المسألة كل الصمت ولم يشر اليها بكلمة واحدة . وقد أورد شبهات الكفار على وجود الله ، فهل يضن أن يورد الشبهات على نقص كتابه أو الزيادة فيه ؟

فلو قيل إنهم صمتوا عنها تفاديا مما تثيره من النتائج الخطيرة ، قلنا فكيف تسكت عنه الفرق الاسلامية والخوارج وعددها أكثر من سبعين ، وفى بعضها من الغلو والتقصير ما أخرجها عن دائرة الاسلام ؟ فهل هى أيضا خشيت من نتائجه الخطيرة وقد قامت تؤيد مذاهبها بالسيف والنار ؟

وإن سلمنا جدلا بأن قول الخصم معقول ، فهل هو معقول من بعض علماء اليهود الذين

كانوا فى جدال مستمر مع علماء المسلمين ؟ فلم لم يتخذوا التحريف الذى يزعم الزاعمون أنه وقع فى القرآن من الزلات التى يحصونها على كتاب المسلمين فى تلك الأزمان ، لاسيما وقد كان المسلمون يرمونهم بتحريف التوراة ؟

اللهم إن هـذه حجج قاطعة على أن ما يروى من حذف بعض آيات القرآن إنما حصل فيما كان منها منسوخ التلاوة ، ولذلك لم ينتطح حوله عنزان .

وقال صاحب تلك الرسالة فى صفحة ٥٤ :

« وفضلا عن ذلك إن آيات القرآن الحالية تختلف لفظا حتى انشق علماء الاسلام فى تفسيرها الى أحزاب .

« مثـلا قوله فى سورة محمد « قتلوا » وفى رواية أخرى قاتلوا ، وكذلك قد اختلفوا فى أمر الجهاد ، وكذلك اختلفت القراءة فى سورة الحج بين يقاتلون ويقاتلون (بكسر التاء وفتحها) الخ »

نقول : يريد الـكاتب مما ذكره مسألة اختلاف القراءات . أما وقد انتهى به الأمر اليها ، فاننا نخبره بأن هذا الاختلاف قد حدث على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ورفع أمره إليه ، فأقره بوحى من الله ، ولو كان حدث بعـده لـكان للخصم مجال للخوض فيه ، أما وهو على ما رأيت فلا مجال فيه لقائل كائنا من كان .

على أن هذه الاختلافات فى القراءة لم تحلل حراما ،ولم تحرم حلالا ، ولا هى تتعلق بالعقائد ولا العبادات ولا المعاملات ، ولم تثر بين المسلمين حربا ، ولا اعتبرها أحد شبهة على الـكتاب الالهى . فـكل كلام فى هـذا الموضوع عبث محض لا يقام له وزن لا عند المسلمين ولا عند سواهم .

وإذا علم القارىء أن هذه الاختلافات فى القراءة حدثت على عهد رسول الله فأقرها بوحى من الله ، سقطت حيرة صاحب الرساله فى معرفة أى القراءات هى التى نطق بها محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن أدل الأدلة على أن المسلمين يعتبرون اختلاف القراءات أمرا مشروعا أن قراء القرآن يرتلون آياته مع مراعاة هـذه الاختلافات فيـكررون بعض الآيات على ضروب شتى إدلالا على تمـكنهم من فنهم ، والمسلمون يقابلون ذلك بالتقدير والاعجاب .

وبعد فقـد اتضح للقارىء بأقوى الأدلة وأنهض الحجج أن القرآن الـكريم لا يعقـل أن يـكون قد اعتراه تحريف من أى ضرب كان ، وأنه بقى محفوظا فى الصدور والسطور ، وسيبقى كذلك أبد الآبدين ، ودهر الدهرين ، مصداقا لقوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ؟

محمد فريد وجدى

الانصار

كيف استقبلوا الاسلام ؟

« بقية البحث »

درج الاسلام الى « يثرب » واثقا مطمئنا بعد أن استيأس من مكة التى أخذتها العزة أن تستجيب لداعى الهداية والخلاص من وثنية ضالة بليدة ، تضع من قيمة العقل الانسانى ، وتغله بأغلال العصبية والتقليد الأصم ، فاستقبله اليثربيون استقبال الظمآن فى هجير الصحراء لعذب الماء فى ظلال دوحة فيحاء ، وأصبح له فى كل مجتمع يثربى ذكر ، والى صاحب الرسالة فى كل قلب حنين وشوق ، وصار فتى بنى الأشهل « إياس بن معاذ » طليعة الاسلام الى يثرب محط أنظار أهلها ، رجالا ونساء ، شيبا وشبابا ، ينظرون اليه نظر غبطة ودهش فى شىء كثير من حيرة الأمل الباسم بالمستقبل الظافر ، حتى إذا دارت عجلة الزمان دورة عام فى أفق الفلك ، وأقبل موسم الحج الى مكة قدم فيمن قدم اليها من اليثربيين اثنا عشر رجلا هدى الله قلوبهم للايمان ، وانشرحت صدورهم للاسلام ، وكانوا عشرة من الخزارجة ، فيهم « عبادة بن الصامت » واثنان أوسيان ، قدموا يريدون لقيا النبى صلى الله عليه وسلم والاجتماع به ومبايعته على الايمان برسالته ، ليسبقوا جيرانهم اليهود الذين كانوا يتوعدونهم بظهوره والاستنصار به عليهم ، فلقيهم النبى عليه السلام عند العقبة فبايعهم على أصول الاسلام والعمل بها فى خاصة أنفسهم ، ولم يكلفهم فى هذه البيعة شيئا يشق عليهم ، ولم يأمرهم إلا بالتوحيد ودعائم المروءة ومكارم الأخلاق . روى البخارى فى صحيحه عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله عصابة من أصحابه : « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو الى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك » .

هذه البيعة هى بيعة السلام ، ليس فيها تعاهد على حرب أو قتال ، ولعلها لذلك يسميها بعض كتاب السيرة « بيعة النساء » وهى التى فى قول الله تعالى : « يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن » .

بعد بيعة السلام هذه عاد الاسلام الى « يثرب » مستعليا ، بعد عام من دخوله الى ربوعها مستخفيا تحمله قلوب جمهرة من رجالتها وأولى الرأى فيها ، وارتفع صوته جهيرا ، ولكنه

لا يزال فى هدوئه ووداعته ، بل فى سكونه بعيدا عن نضال مكة وسطوتها ، وترامى الى مسلمى مكة حديث إخوانهم اليثربيين واستبشارهم بهـذا الدين الجـديد ، واطمئنانهم الى عقيدتهم التوحيدية فى أمن من الأذى ، فتطلعت نفوسهم الى ذلك الجو الهـادئ الصافى الذى يؤدون فيه شعائر دينهم آمنين على أنفسهم وعقائدهم مما يلاقونه من ألوان التنـكيل والفتنة ، وودوا لو أنهم استطاعوا اللحاق باخوانهم الأصفياء فى ديارهم ، ولـكنهم لم يكونوا يأمنون شر قريش أن يلاحقهم الى هناك ، وأن تؤلب عليهم العرب ، وهى منهم فى مكان الزعامة الآمرة التى لا يرد لها أمر ، وماذا عسى أن يفيدهم اليثربيون لو تحول هذا النضال الى حرب ضروس ، وهم لم يأخذوا عليهم عهداً بخوض هذه الحروب ، ولم يبلغ عهد النبى صلى الله عليه وسلم لهم فى بيعة السلام الأولى على يدى وفد الاثنى عشر أن يـكون معاهدة دفاع حربى ، بل لم يتعد أن يـكون بلاغا لهم بدعوة الاسـلام ، والعمل بشىء من مهمات شرائعه التى كان قد نزل بها الوحى الى يومئذ فى خصيصة أنفسهم .

كان هذا تفـكيرا يدور فى نفوس المسلمين ، وظل يضطرب بها وظلت هى بين الاقدام والاحجام ، يدفعها ما تلاقى من بليغ الأذى والصد عن سبيل الله الى العزم على الهجرة الى دار إخـوانهم فتعزم عليها ، ويقف أمامها المستقبل الغامض فى غربة لا يعتمدون فيها على مال ولا ولد فترجع عن عزمها متشحة بالصبر وتوطين النفس على تحمل الشدائد حتى يقضى الله بينهم وبين قريش التى تريد أن تلجئهم الى المهاجرة من مكة وطنهم الحبيب ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم فى كل ذلك يضرب لأصحابه المثل الأعلى فى الصبر والمصابرة ، وصدق العزيمة فى سبيل تبليغ أمر ربه ، وكان صلوات الله عليه نظارا الى الفرص المواتية فلا يدعها تفلت دون أن يحملها بحدث من أحداث الانقلاب ، أو نبأ من أنباء الاسلام يذهب فى الجزيرة العربية شرقا وغربا ، يعرض نفسه على القبائل فى مضاربها ومواسمها ، معنيا أشـد العناية بموسم الحج لأنه أعظم مواسم العرب شأنا ومجتمعا ، فاذا رن فى ساحته صوت الدعوة تردد له الصدى فى آفاق الجزيرة كلها ، وماذا يبغى النبى صلى الله عليه وسلم أكثر من أن يهتز بدعوته الأثير فتضطرب بموجاته كل أذن ، ومنه تندفع الى القلوب الواعية ممثلة آيات العزة الاسـلامية ؟ وزادت أهمية الحج فى نظر صاحب الرسالة أنه يرتقب فيه أخبار بيعته لأولئك النفر من أهل « يثرب » وما أثمرته فى ذلك البلد الطيب .

حان الموسم ، وخرج النبى صلوات الله عليه كدأبه لنشر دعوته وتعرف مدى ما وصلت إليه فى أشتات قبائل العرب التى يضبها البلد الحرام فى الأشهر الحرام ، وقد بلغه أن جمعا عظيما من اليثربيين لاعهد للمواسم بمثله قد اقبل ، وكان من بينهم خمسة وسبعون مسلما ، فيهم امرأتان ، فواعدهم أوسـط أيام التشريق . قال شاعر الأنصـار كعب بن مالك يحدثنا عن هـذه الليلة العظيمة : « لمـا كانت الليلة التى وعدنا فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بتنـا أول الليل مع

قومنا ، فلما استثقل الناس من النوم تسللنا من فرشنا حتى اجتمعنا بالعقبة ، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمه العباس لاغير ، فقال العباس : يامعشر الخزرج : إن محمدا مناحيث علمتم ، وهو فى منعة ونصرة من قومه وعشيرته ، وقد أبى إلا الانقطاع اليكم ، فان كنتم وافين بما عاهدتموه فأنتم وما تحملتم ، وإلا فاتركوه فى قومه . فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم داعيا الى الله مرغبا فى الاسلام تاليا للقرءان . فأجبنا بالايمان ، فقال : « إنى أبايعكم على أن تمنعونى مما منعتم به أبناءكم » فقال البراء بن معرور أحد زعماء القوم : ابسط يدك نبايعك عليه ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ، ورثناها كابرا عن كابر . فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان ، وهو ثانى اثنين من الأوس حضرا بيعة السلام الأولى ، قائلا : إن بيننا وبين يهود عهودا نحن قاطعوها فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنتم منى وأنا منكم ، أحارب من حاربتم ،و أسالم من سالمتم » فاطمأن القوم وقاموا الى البيعة ، فقال لهم عباس بن عبادة بن نضلة ، وهو أحد العشرة الخزارجة الذين اشتركوا فى بيعة السلام : يامعشر الخزرج : أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فان كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا أسلمتموه ، فمن الآن فدعوه ، فهو والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة ! فقال القوم : إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فبايعوه على ذلك » .

كانت هذه البيعة ، على خلاف سابقتها ، معاهدة حربية للدفاع وحماية العقيدة ، والاستعداد لحرب الأحمر والأسود ، فاستوثق النبى صلى الله عليه وسلم بمحضر عمه العباس لنفسه ولدعوته ممن عاهدوه على نصرته ، واستوثق القوم منه على أن لا يدعهم إذا أظهره الله ، فكانوا أنصاره وحماة دينه ، وكان حميهم ووليهم ، آوى الى بلدهم فاتخذه وطنه ، ومبعث هدايته ، وجعله الله تعالى مقر جثمانه الطاهر ، ومركز خلافته ونشر شريعته .

هاجر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى هذا الوطن الجديد ، فتلقاه أنصاره بنشوة من الطرب والفرح أخرجت المخدرات من خدورهن ، وكل شخص فيهم يتحرق شوقا لأن يملأ ناظريه من هذا القادم العظيم الذى نفخ فى مدينتهم روحا لم تشهد مثلها منذ عرفها التاريخ ؛ وتسابق زعماؤهم فى التماس شرف ضيافة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فترفق بهم مبتهجا أشد الابتهاج بهذه العواطف النبيلة ، وهذا الحب الذى أفعم كل قلب ، وبدا على كل وجه ؛ واختار لنفسه منزلا بوأه الله إياه ورضى عنه أنصاره وأصحابه ، وعادت « المدينة » الى هدوئها بعد مظاهرات الاستقبال وأفراح اللقاء ، ولكنها منذ اليوم بدأت تحيا حياة جديدة كل الجدة ، فقد بنى فيها مسجد عظيم تؤدى فيه الشعائر الدينية مستعلنة قوية ، ومنه

انبعثت أصوات الدعوة الاسلامية جهيرة متحدية ، وفيه وضع أساس الدولة الجديدة ، وفيه تدبر نظم الحياة المستقبلة التى بدأت بهذا الانقلاب الخطير .

كان من الطبيعى أن تتجه أفكار النبى صلى الله عليه وسلم وأفكار أصحابه وقد أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وأفكار أنصاره وقد أخذوا على عاتقهم نصرته وتأييد دينه ، أول أمرهم ، الى مكة وقريش ، وقد أمكنتهم الفرصة من الوقوف أمامها ، والطمع فى الغلبة عليها ، فلتصادر تجارتها الى الشام ، ولتقطع عليها طريق المرابحة حتى تلين قناتها ، أو يحكم فيها السيف ، وعز على قريش فى كبريائها أن تقف من محمد وأصحابه هذا الموقف ، فخرجت فى قواها كلها لتفتك بهذه العصابة التى إن تهلك فلن يعبد الله فى الأرض ، وخرج المسلمون بقيادة البطل الأعظم للقائها على شفير « بدر » ، وهناك أخبر الناس خبر قريش ليكونوا على بينة من أمرهم ، ووجه كلامه الى الانصار ، فهم عدته ورده قائلا : « أشيروا على أيها الناس » فقال سعد بن معاذ وهو صاحب رايتهم يومئذ والمتكلم بلسانهم : لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل . فقال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فو الذى بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ! » .

لله هذه العزائم الصوارم التى بنت مجد الاسلام شامخا ، وأرست قواعد بنيانه راسخا ، عزائم صنعها الايمان فأحبت الموت فى سبيل العقيدة فوهبت لها الحياة ، أحب الأنصار الاسلام من كل قلوبهم فنصروه نصرا مؤزرا ، فأكرمهم الله ، وآثرهم نبيه صلى الله عليه وسلم ، فجعل حبهم آية الايمان وبغضهم آية النفاق ، وقال فيهم : « لو سلكت الأنصار واديا لسلكت وادى الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار » . آخى بينهم وبين المهاجرين فقاسموهم أموالهم ، وسمحت لهم أنفسهم بالنزول عن بعض زوجاتهم ، فمدحهم الله وأثنى عليهم بقوله : « والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . تفقهوا فى الدين فكان منهم الأئمة والمعلمون ، وكان نساؤهم من خير نساء العالمين عشرة وتدينا وطاعة وفقها . قالت عائشة رضى الله عنها : « نعم النساء نساء الانصار : لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين ! » .

وبعد : فقد كتب « الانصار » لأنفسهم فى صحائف تاريخ الاسلام صحائف من نور لاتزال سراجا هاديا للقادة والجند ، ولهم فى كل أحداث الاسلام مواقف تجعلهم مثلا عليا للرجولة التى ينشدها المسلمون فى حاضرهم ليستعيدوا مجدهم الغابر ، ولايصلح آخر هذه الامة إلا بما صلح به أولها ؟

صادق عرجون

الاخلاق الفلسفية

– ٣ –

الدين وقوة سلطانه على النفوس

أشرنا فى الكلمة السابقة الى الأثر الملموس الذى يحدثه الدين فى نفوس الأمم ، وأبنا أن أثر القوانين الوضعية التى تتعقب الجرائم وتعاقب عليها ، محاولة إبادتها أو الاقلال منها ، ليس شيئا مذكورا الى جانب أثر الدين ، وأسندنا السبب فى هذا الفرق الهائل بين تأثير الدين وتأثير القانون الى أن الأول يتغلغل فى النفوس فيقودها فى سرها كما يهديها فى علانيتها . أما الثانى فلا تتجاوز سلطته الأجسام ، ولا تنزل عقوبته إلا بعد ثبوت الجريمة فى الظاهر باعتراف أو برهان . ولا شك أن هذا الثبوت أمر قد يبلغ من العسر أحيانا الى حد إخفاء كثير من الجرائم وتبرئة مقترفيها ، وهذا هو سر سمو تأثير الدين على تأثير القوانين الوضعية . أبنا كل هذا ، وأشرنا بالرأى الذى يجب اتباعه فى تهذيب النشء بالأخلاق الاسلامية ، وسردنا شيئا من آراء الفلاسفة الذين يؤمنون بهذه الفكرة . واليوم سنأتى على آراء المعارضين لهذا الرأى ، لأننا نشاهد أن بعض فلاسفة أوربا المحدثين يرفعون الصوت عاليا بوجوب فصل الأخلاق عن الدين ، وينتحلون لذلك أعذاراً سنذكر هنا أهمها وأجدرها بالعناية ، ثم نرد عليها بما يدحضها فى نظر المنطق الصحيح . واليك هذه الأعذار :

١ — إن كثيراً من الدول تعتنق كل واحدة منها ديانات مختلفة ، وإن نشر أخلاق دين من هذه الأديان وإهمال أخلاق الديانات الأخرى يعد خنقا لحرية معتنقى هذه الأديان المهملة .

ونحن من جانبنا نرى أن هذا الاعتراض واه من أساسه ، لأن الديانات على اختلاف ألوانها وطقوسها لا تتعارض فى الفضائل الجوهرية ألبتة .

فاذا نشرنا أخلاق الاسلام مثلا فى مصر ، فاننا لا نرتاب أقل ارتياب فى أن المسيحيين والاسرائيليين المخلصين للفضيلة سيستريحون لهذه الأخلاق الاسلامية كل الاستراحة ، وسيجدون فيها أرفع أنواع السعادة الاجتماعية . على أن هؤلاء المعترضين يجزمون بأن الأخلاق الحرة لا تنال الاحترام إلا إذا كانت تتسع لارضاء المؤمنين والملحدين معا ، وهى بالطبع لا يمكن أن ترضى المؤمنين جميعا على اختلاف دياناتهم إلا إذا كانت تلتقى مع هذه الديانات كلها عند نقطة خاصة ، وهذا هو عين ما ندعيه من أن جميع الديانات متفقة فى الفضائل الأساسية ، وإذاً ، فلا معنى للتخوف من أن نشر أخلاق دين بعينه يعدو على حرية الذين لا يعتنقونه .

٢ — إن من المشاهد أن بعض الحكومات اللادينية ، كجمهورية فرنسا مثلا ، و إنه يكون

من التناقض أن تربط هذه الدول « اللادينية » الأخلاق بالدين بعد أن فصلت عنه قوانينها وتشريعاتها وسياستها .

ويمكن أن يجاب على هذا الاعتراض بان القياس هنا مع الفارق ، لأن القوانين المدنية والدساتير السياسية يمكن أن تتبع العصور المختلفة والأمزجة المتباينة . أما القوانين الأخلاقية فيجب أن تكون ثابتة لاتتأثر بزمان ولا بمكان ، ولا ينبغى لها أن تتبع أهواء الزعماء والمشرعين «اللادينيين » وإلا لكانت بشرية متنا قضة تستحسن اليوم ما استهجنته بالأمس ؛ ولاريب أن هذه الصفة تفقدها عالميتها التى هى ألزم لها من الهواء للكائنات الحية . وإذا فهذه العالمية ، وذلك الثبات الضروريان للقوانين الأخلاقية ، لايتحققان إلا إذا كان المنبع ثابتا وخالدا . ومن أكثر ثباتا وخلودا من منشىء الديانات ؟

فكل عاقل تهمه الحالة الاجتماعية العامة يرى وجوب نشر الأخلاق الدينية حتى فى البلاد اللادينية ، فكيف ببلد كمصر يستمد كثيرا من قوانينه المدنية وكل تشريعات الأحوال الشخصية فيه ، من الدين ؟

وفوق ذلك ، فان العلم يعترف فى صراحة بأن أكمل الأسس الاجتماعية ، وأرقى الأنظمة العمرانية ، مدينة بحياتها للدين وحده ، لا لتلك الأخطاء المرعبة ، والسقطات المروعة التى امتلأت بها نظريات العلماء والفلاسفة ، كما يعلن أن العقل لا يستطيع أن يصل إلا الى تلك الحقائق النسبية فحسب ، أما الدين فانه يقرر حقائق مطلقة . وهذا الفرق كاف لرفعته ولجدارته بأن يكون منبعا للأخلاق .

والذى أدعى الى الدهش والاستغراب هو أن « كانت » كبير الفلاسفة العقليين فى العصور الحديثة يعلن أن فصل الدين عن الأخلاق يعد ضربا من الخطأ الخطر على الحياتين : الأخلاقية والاجتماعية معا .

فاذا كان هذا هو رأى « كانت » الذى يعد فى تاريخ الحركة العقلية الأوربية مدرسة بتمامها ، ورأى الأكثرية المحترمة من الفلاسفة الروحيين والعقليين ، فما لنا نرى بعض المعاصرين الذين يعالجون هذه الموضوعات فى مصر يتنكبون السبيل السوية ، ويتيهون فى مهامه التقليد والانقياد وراء هذه الشرذمة المادية من فلاسفة أوربا الذين حطمتهم أدلة الروحيين وصيرت مذاهبهم خرائب وأطلالا ؟ وإليك شيئا من هذه الأفكار السطحية التى سارفيها بعض مؤلفينا على أنساق بعض فلاسفة الغرب اللادينيين دون تأمل ولا روية :

يرى أحد المربين المحدثين أن الواجب فى دراسة الدين فى المدارس هو الاقتصار على ذكر ما مر فى الدين من أخلاق وفضائل ، دون تعرض الى دراسة الدين نفسه ، ولا الى تحليل نظرياته الفلسفية الجدلية التى لايعود منها على الطالب إلا إثقال كاهله ، وكد رأسه ، وإنهاك عقله فيما

لايفيده ، بل يؤود قواه ، ويقتل ملكاته . ثم يستمر فى نقده فيقول : إذ ماذا يستفيد الطفل من معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلية ؟ الى آخر ما قال . وأنا أرى أن هـذا الرأى بعيد عن التعمق والدقة كل البعد ، ولو عملنا به لآبنا من الأخلاق الدينية خالى الوفاض ، صفر الأيدى ، ولتقدمنا نحو الفشل فى اتباع تعاليم السماء بخطوات واسعة ، لأننا لانرى أدعى الى السخرية ، ولاأبعث على الاستهزاء من شخص يتبع أخلاق دين وينسج على منوال فضائله وهو يجهل أسسه وأصوله كل الجهل ، لأن هذا الدين يتهدم من رأسه ، ويزول الاعتقاد به من ذهنه عند أول عاصفة شك أو إلحاد تهب على هذا الذى لم يتحصن بمعرفة هذا الدين ، ولم يدعم إيمانه بالأدلة والبراهين ، ومتى زال من قلبه الايمان ، انمحت من نفسه تلك القداسة العليا التى كانت تقوده الى الاذعان لما جاء فى هذا الدين من فضائل وأخلاق . وليس لهذا كله سبب إلا الجهل بأسس الدين وبراهينه ، ذلك الجهل الذى يدعو إليه هذا المربى العصرى .

وإذا كان هذا المؤلف يخشى أن يدرس الطلاب الدين فيجدوا فيه ما يتنافى مع العقل فيهملوه ويتهاونوا به وبما جاء فيه من أخلاق ، أقول : إذا كان يخشى هـذا كما يلمح فى كتابه ، فانا نؤكـده له أن دين الاسلام لن يرتاع من هـذا التهديد ، ولن ينزوى وراء أستار الجهل خوفا من اصطدامه مع العـلم الحـديث أومع العقل المثقف المستنير . وإنى لمستأنس لك هنا برأى أحد كبار العلماء الفرنسيين وهو مؤلف كتاب « فى الدراسات الدينية » قال حين عرض للاسلام :

« ومن جانب آخر ينبغى أن نذكر أن الدين الاسلامى مخالف كل المخالفة لهذه الأبراج المتشامخة التى تسقط من ضربة واحدة ، لأن فيه قوة كامنة ، وصلابة ومتانة تجعله قادرا على المقاومة مقدرة تامة » الى أن يقول : « وإنى أعتقد أن الشرق إذا تغلب على جموده وتخلص منه ، فان الاسلام لن يضع أية عقبة جـدية فى سبيل التفـكير الحـديث ، أما فى أوربا ، فانه إذا أريد التجديد والنهوض ، فلا بد أن يترك لـكل شعب من شعوبها معالجة تلك المهمة البالغة حدا عظيما من الدقة ، وهى مهمة التوفيق بين تقاليدها الدينية ، وبين حاجاتها الجديدة ، وأن يحترم حق الشعوب كما يحترم حق الأفـراد فى أن تتولى بنفسها فى حرية تامة ثورات وانقلابات العلم والمعرفة »

قد اتضح لك من كل ماتقدم أن دين الاسلام لايهاب العلم : قديمه وحديثه ومستقبله ، ولا يصطدم مع التفـكير المنظم ، ولا يتناقض مع التحليل الدقيـق . وإذا فمهما تثقف الشبان واتسعت مداركهم ، فلن يلقوا بالدين جانبا إذا كانوا قد درسوه دراسـة متينة وافية . وأما الخوف كل الخوف ، والويل كل الويل ، فمن أن يدرس الشبان الدين والعلم أو أحدهما دراسة سطحية ناقصة ، لأنهم يسقطون حينـذاك فى هوة الشـك والارتياب كما قال أحد الفلاسفة الأوربيين :

« إن الأخذ بنصيب بسيط من الفلسفة والعلم يسوق الى الالحاد ، ولكن التعمق فيهما يوطد دعائم الايمان » .

فرأى هذا المربى المعاصر واه من أساسه ، لأن العلة التى يبنيه عليها باطلة .

وإذا فالنتيجة التى حصلنا عليها بعد كل هذه المناقشة ، هى : أن الدين شديد الأثر فى النفوس ، قوى السلطان على القلوب ، وأن تأثيره يقوى ويضعف تبعا لقوة الايمان به وضعفه ، وأن الايمان المتين لايتحقق إلا بعد الفهم الدقيق لأصول الدين وقواعده فهما مدعما بالأدلة والبراهين ؟

دكتور محمد غلاب
مدرس الفلسفة بكلية أصول الدين

من قال لا أدرى فقد أفتى

افتتح إمام البيان الجاحظ كتابه البيان والتبيين بقوله : « اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل ، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن ، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن ، ونعوذ بك من شر السلاطة والهذر ، كما نعوذ بك من شر العى والحصر » .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من سئل فأفتى بغير علم فقد ضل وأضل » .

وقال حكيم : « من العلم أن لا تتكلم فيما لا تعلم بكلام من يعلم ، فحسبك جهلا من عقلك أن تنطق بما لا تفهم » .

ولقد أجاد زرارة بن زيد حيث يقول :

إذا ما انتهى علمى تناهيت عنده ... أطال فأملى أو تناهى فأقصرا
ويخبرنى عن غائب المرء فعله ... كفى الفعل عما غيب المرء مخبرا

والمثال الأبلغ فى هذا الباب ما قاله النبى صلى الله عليه وسلم وقد سأله رجل قائلا : أى البقاع خير وأى البقاع شر ؟ : « لا أدرى حتى أسأل جبريل » .

وقال على بن أبى طالب : « ما أبردها على القلب إذا سئل أحدكم فيما لا يعلم أن يقول : الله أعلم » !

وقال عبد الله بن عباس : « إذا ترك العالم قول لا أدرى أصيبت مقاتله » .

وقال أحد العلماء : « هلك من ترك لا أدرى » .

اختلاط الجنسين

زعموا أن رجلا أنشد امرأة البيت الآتى :

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

فردت عليه المرأة بقولها :

إن النساء رياحين خلقن لكم وكلكم يشتهى شم الرياحين

وما يعنينا فى هذه الكلمة أن تكون المرأة شيطانة أو ريحانة ، أو شيطانة وريحانة معا ، ولكن الذى يعنينا هو اختلاط المرأة بالرجل ، وقد آثرنا أن لا يكون لنا رأى شخصى فى هذا الموضوع ، وأن نكتفى بما فيه الكفاية من كلام ليس لنا فيه من عمل إلا نقله وعرضه على القارئ الكريم .

وقبل كل شىء نريد أن نقرر هنا أن كلمة (اختلاط الجنسين) لم يحدد معناها التحديد الكافى ، فهى شاملة للكثير من أنواع الاختلاط ، كالحج ، ومالا يمكن التحرز منه فى هذا العصر الذى نعيش فيه . فالطرقات ، والأسواق ، وقطارات (السكة الحديد) وعربات الترام ، والسيارات العامة ، والمتاجر ، والمصانع ، ومزارع القرى ، ومعلمات المدارس ، والطبيبات ، كل هذا يحيط به ألوان كثيرة من ألوان اختلاط الجنسين ، دعا إليه منسك من المناسك ، و دعت إليه الحاجة والسعى وراء الرزق فى طرقه الشريفة الشاقة .

وهناك ألوان أخرى من اختلاط الجنسين تراها فى المتنزهات ، والبارات ، وصالات الملاهى و (الكباريهات) ، والحفلات الراقصة . وكثيرا ما تكون هذه الألوان من الاختلاط الجنسى على نغم الموسيقى وتحت تأثير نشوة الراح . وكثيراً ما يقرب الفم من الفم ، وتلتف الساق بالساق ، والأذرعة بالخصور ، وتتلاصق الصدور بالنحور ، فلا ترى إلا أغصانا مشتبكة ضربتها الرياح ، وقد تطفا الأنوار ، فتنطفىء البصيرة ، وتضل الأبصار .

فهذه الألوان من اختلاط الجنسين لم تدع إليها ضرورة داعية ، ولا حاجة ملحة ، ولا يشفع لها فى نظر الشرقى مسلما كان أو غير مسلم أنها من عمل أوربا ، ولو كان أهل أوربا من الملائكة المقربين ، وقد آن لنا أن تفهم أوربا عنا أن الشرق أعرق فى الانسانية ومكارم الأخلاق من غيره ، وأنه مهبط الروحيات ، وأنه لوسار على ما رسمه له الاسلام لما سار إلا على الصراط المستقيم .

وقد قلنا فى أول هذه الكلمة إننا سنكتفى هنا بكلام ليس لنا ، ولكننا ذكرنا ماذكرنا لنحدد بعض التحديد ما تحتوى عليه كلمة (اختلاط الجنسين) من معان كثيرة ليحكم القارئ

بعد ما سنسرده له أى الطريقين خير فى كل هــذه الألوان من الاختلاط الجنسى . ولا يفوتنا قبل سرد ما سنسرده أن نقول إن الكمال لله وحده ، وإننا لسنا ملائـكة ولسنا أيضا شياطين ، وإن كلا من المرأة والرجل مالم يكن له مناعة ذاتية تحميه من النقائص فلن يحميه منه البروج المشيـدة ، ولا القيود الفولاذية . ويجب أن لانهمل خطر الظروف والجـواء التى تحيط باختلاط الجنسين ، من فقر وغنى ، وصبا وكهولة ، وقوة وضعف ، وجمال وقبح ، وأن نلاحظ الأمزجة والمناخ . ولا بأس على القارئ الفاضل أن يستنير فى هذا الموضوع أعنى موضوع اختلاط الجنسين بالحوادث الكثيرة التى تنجم عن اختلاط الجنس الواحـد لظروف وأحوال خاصة .
والآن نقص على القارئ الفاضل ما أردنا أن نقصه ، والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق :

قال الله تعالى فى كتابه الـكريم فى سورة يوسف عليه السلام : « وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون ، وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ، وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ثم يقول الله تعالى بعد ذلك : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ، ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » ثم يقول الله تعالى : « فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ، يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ، وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا ، إنا لنراها فى ضلال مبين ، فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن ، وأعتدت لهن متكأً ، وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن حاش لله ماهذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ، قالت فذلـكن الذى لمتننى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين ، قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين »

ويقول الله تعالى فى سورة النور : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتـكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلـكم خير لـكم لعلـكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لـكم ، وإن قيل لـكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لـكم ، والله بما تعملون عليم ، ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غـير مسكـونة فيها متاع لـكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ، قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون ، وقل للمـؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو إخـوانهن أو بنى إخوانهن

أو بنى أخواتهن ، أو نسائهن ، أو ماملـكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الاربة (أى أصحاب الحاجة الى النساء) من الرجال ، أو الطفل الذين لم يظهروا على عـورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن »

ثم يقول الله تعالى فى هذه السورة : « يأيها الذين آمنو ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ، والذين لم يبلغوا الحـلم منكم ثلاث مرات : من قبل صـلاة الفجر ، وحـين تضعون ثيابـكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لـكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لـكم الآيات ، والله عليم حكيم ، وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم »

وجاءت صفية الى رسول الله صـلى الله عليه وسلم وهو معتـكف فقام معها ليشيعها فمر به رجلان من الأنصار فقال : على رسلكما إنما هى صفية (وهى من أمهات المؤمنين وإحدى أزواج الرسول) فقالا : سبحان الله (استبعاداً لظنهما السوء) فقال الرسول صـلى الله عليه وسلم : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فخفت أن يقذف فى قلوبكما شيئا فتهلـكا » . وكان رسول الله صـلى الله عليه وسلم ينهى الشابة من النساء عن الاعتـكاف فى المسجد ، ويرخص فى ذلك للعجائز .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة يصف الرجال أمام الغلمان ، والغلمان خلفهم ، والنساء خلف الغلمان . وكان يقول : « خير صفوف الرجال أولها ، وخير صفوف النساء آخرها » !

وقال صلى الله عليه وسلم : « دع ما يريبك الى مالا يريبك » وقال : « ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه »

وجاء فى انجيل متى فى الاصحاح الخامس ما يأتى « قد سمعتم أنه قيل للقدماء لاتزن ، وأما أنا فأقول لـكم إن كل من نظـر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبـه ، فان كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك ، فانه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم »

وللشعراء أبيات كثيرة تمت الى موضوعنا هذا بأكبر سبب ، ونحن موردون لك بعضها :

قال أبو العلاء المعرى :

لا تتبعن الغانيات مماشيا … إن الغوانى جمة تبعاتها
وإذا اطلعن من المناظر فالهدى … أن لاتراك الدهـر مطلعاتها
ودع القراءة إن ظننت جهيرها … ذكرت به الحاجات مستمعاتها
فالصوت هدر الفحل يؤنس ركزه … ألافـه فتجيب ممتنعـاتها

وقال أيضا :

ولا ترجع بإيماء سلاما ... على بيض أشرن مسلمات
ولا تسأل أهند أم لميس ... ثوت فى النسوة المتخيمات
وليس عكوفهن على المصلى ... أمانا من غوادر مجرمات
ولا تحمد حسانك أن توافت ... بأيد للسطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى ... بهن من اليراع مقلمات
ويتركن الرشيد بغير لب ... أتين لهديه متعلمات
وما عيب على الفتيات لحن ... إذا قلن المراد مترجمات
ولا يدنين من رجل ضرير ... يلقنهن آيا محكمات
سوى من كان مرتعشا يداه ... ولمته من المستثغمات
وما حفظ الخريدة مثل بعل ... تكون به من المتحرمات
فهذا قول مختبر شفيق ... ونصح للحياة وللمات

ولأبى نواس :

أمشى إلى جنبها أزاحمها ... عمداً وما بالطريق من ضيق
كقول كسرى فيما تمثله : ... من فرصة اللص ضجة السوق

وله غفر الله له :

وعاشقين التف خدا هما ... عند التثام الحجر الأسود
فالتقيا من غير أن يأثما ... كأنما كانا على موعد
ولولا دفاع الناس إياهما ... لما استفاقا آخر المشهد

وله أيضا :

أنا أبصرت يوم النحـ ... ـر ظبيا فتت الكبدا
غزالا فى معصفرة ... يصيد بطرفه الأسدا
فما إن زلت أتبعه ... وأقعد حيثما قعدا

وهذا فى الحقيقة ثقل وبرود من أبى نواس ، ولاحول ولاقوة الا بالله

هذا ولغير أبى نواس كعمر بن أبى ربيعة ومن لف لفهما حتى من شعراء الجاهلية الشئ الكثير من ذلك .

وحاورنا صاحب العزة الأستاذ الكبير انطون بك الجميل رئيس تحرير الأهرام الغراء فى (اختلاط الجنسين) فقال : إن الظروف هى فى الغالب التى تملى إرادتها ، ففى القرون الوسطى فى أوربا كان الرجال يضعون للمرأة حزاما من الحديد يسمونه (حزام العفة) يشدونه عليها

ويحكمون إغلاقه منعا لكل ريبة عنها ، ثم تغيرت الظروف فاذا بالمرأة فى أوربا على حالها التى هى عليها الآن . وهو يرى أن الاعتدال أولى ، وأنه يجب تثقيف المرأة قبل أن نزج بها فى تيار الحياة ووضعها فى مواقف قد لا تتحملها أعصابها .

أما حضرة صاحب العزة الأستاذ الكبير محمد بك فريد وجدى رئيس تحرير هذه المجلة فهو يقول: إن المرأة يجب أن تحجب عن الرجال بحجب من الفولاذ ! وهو لا يسمح لأنثى أن تغشى دور السينما على حالها التى هى عليها الآن ، ويعد ذلك تدهورا فى الخلق ، وجناية كبيرة على المرأة والبيت ، وأنه مما لا يتفق وشرف الزوجية القائمة بين الرجل والمرأة .

ونحب أن نختم هذا المقال بنبذة مما جاء فى الخطبة الرائعة التى خطبها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، فى احتفال هذا العام بذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال حفظه الله :

« ولدى الأمة الاسلامية ماض يجرر أثواب الفخر والشرف فى كل ميادين الحياة ، لكن بعض الناس يحاولون طمس أعلام هذا الماضى ، وليس أدعى للدهشة ولا أبعث على اللوم من هذه المحاولات التى فيها عقوق الأبناء للآباء ، ونكران الجميل ، وإنكار التاريخ ، وفيها لؤم الطباع وسفه الجاهل وطيش المغرور ، وهل يستطيع عاقل أن ينكر أن لنا أسسا صحيحة قويمة من دين وعلم وتقاليد ومقومات من حقها أن نحافظ عليها ، وأن نعتبرها تراثا عزيزا لا يليق أن نبدده كما يفعل الوارث السفيه ! » .

وبعد : فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما توفيقى إلا بالله .

محمد الأسمر

كفى بالهوى مضلا

قال الله تعالى : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »

وقال الشعبي : « إنما سمى الهوى هوى لأنه يهوى بصاحبه » .

وقال أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى ... الى كل ما فيه عليك مقال

ولم يقل هشام فى حياته غير هذا البيت .

باب الأسئلة والفتاوى

الرضاع

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

(أولا) فاطمة رضعت مع مصطفى ثلاث رضعات متفرقات ، فهل يجوز زواجهما ؟

(ثانيا) محمود يرغب أن يتزوج نادرة ، غير أن جدة نادرة أرضعت محمودا ثلاث أو أربع رضعات متفرقات ، فهل يجوز عقد قران محمود على نادرة ؟

وقد أفتت اللجنة (١) بأن عقد القران فى الحالتين المسئول عنهما جائز ، ولا مانع منه شرعا عند السادة الشافعية والحنابلة .

فهل يجوز عقد القران على مذهب الشافعى ، والمسئول عنهم فى الحالتين من أتباع المذهب الحنفى ، أو لا يجوز ؟

اسماعيل عاصم آل ابراهيم باشا
حلب — سوريا

الجواب :

يجوز للمستفتى أن يقلد مذهب الشافعى فى عقد النكاح مع مراعاة الشروط والأركان التى تلزم لصحة العقد على مذهب الشافعى . والتزامه العمل على مذهب أبى حنيفة لا يمنع من العمل بمذهب آخر مع مراعاة ما يتطلبه ذلك المذهب . والله علم ؟

رئيس لجنة الفتوى
محمد عبد اللطيف الفحام

(١) نشرت هذه الفتوى فى العدد السابق

محمد صلى الله عليه وسلم

فى رأى قادة الفكر فى أوربا (١)

وقال الصوفى جامى أيضا شعرا :

إن عدم الكون هو المرآة ، والوجود هو ما انعكس فيها من الصور .

والانسان هو الشخصية المستكنة فى صميمه ، كما استكنت العين فى ذلك الانعكاس .

فأنت عين ذلك الانعكاس ، والله تعالى هو نور تلك العين .

فبواسطة هذه العين ترى عين الله ذاته المقدسة .

فالعالم إنسان ، والانسان عالم .

وجود تفسير للوجود أوضح من هذا التفسير محال .

فاذا أجدت النظر فى أصل الأشياء ،
وجدت أن الله هو الرائى والعين والمرئى فى وقت معا . انتهى .

فاستمع الآن الى ما سأقصه عليك لترى كيف كانت الصوفية الاسلامية تنشر مبدأ التطور فى القرن الثالث عشر ، وهو المبدأ نفسه الذى قام بتعليمه داروِن فى العالم المسيحى فى القرن التاسع عشر . وهو من قول جوشان إى راز :

لقد مت فى الجماد ، ثم صرت نباتا
ومت فى النبات ، ثم استحلت حيوانا
ومت فى الحيوان ، ثم أصبحت إنسانا

فلماذا أخشى أى شىء بعد الآن ؟ هل انحطت عن رتبتى بالموت قط ؟

وفى المرة المقبلة سأموت فى الانسان .

لكى تنبت لى أجنحة الملائكة .

ومتى بلغت هذه الرتبة سأجتهد فى أن أرقى الى ما بعدها لأنه « كل شىء هالك إلا وجهه »

وسأطير دفعة أخرى فوق مستوى الملائكة .

وسأستحيل الى مالا يمكن أن يدركه التصور .

---

(١) خاتمة محاضرة زعيمة التيوصوفية العالمية «انى بيزانت» التى نشرناها فصولا فى أعداد سابقة .

فاتركني إذن أصير لا شيء ، لا شيء ، لأن وتر القيثارة يصيح بي : « الحق الذى لا مرية فيه أننا سنعود اليه » .

فالتصوف الاسلامى يعلم المريد ، كما هو واضح من كتاب (عوارف المعارف) ، كيف يجب أن يكون سلوك الطريق . (١)

إن هذا الكتاب مقسم الى ثلاثة أقسام : الشريعة ، والطريقة ، والحقيقة ، واليك الصفات المميزة لهذه الثلاثة الأقسام : سأل رجل شيخه ، وهو استاذ روحانى ، عن ماهية هذه المراحل الثلاث ؟ فأجابه بقوله : « اذهب فاضرب كلا من هؤلاء الثلاثة الرجال الذين تراهم جالسين هنالك . ففعل الرجل ما أمره به أستاذه . فلما ضرب الأول نهض من فوره على رجليه ، وقابل ضربته بمثلها . فضرب المريد الرجل الثانى ، فاحمر وجهه ، وتحرك ليقوم ، وقبض يديه ، ولكنه كظم غضبه .

عند ذاك ضرب المريد الرجل الثالث ، فلم يكترث له . ثم عاد المريد الى الشيخ . فقال له الشيخ: أما الرجل الأول فهو فى مجال الشريعة ، وأما الثانى فهو من سالكى الطريقة ، وأما الثالث فهو من أهل الحقيقة »

يذهب الصوفية أن النبى صلى الله عليه وسلم وإن يكن المرجع الأسمى للدين ، ولكن يجب على المريد أن يكون له شيخ يهديه الطريق ، وينبغى أن يكون خاضعا ومخلصا له الخضوع والاخلاص المطلقين . فعليه أن يطيعه فى كل شيء بدون تحفظ ولا تردد ، فقد قيل : « إذا أمرك شيخك أن تغمس ثيابك فى الخمر ، فافعل ما تؤمر به ، لأن الشيخ يعرف كل ما تعرفه وفوق ما تعرفه » .

ويجب على المريد التأمل الطويل الذى يرفعه درجة بعد درجة حتى يصل لدرجة الوجد والتدله .

إن رابعة التى ذكرها ابن خلكان فى وفياته (١٢١١ — ١٢٨٢) كانت تصعد الى سطح دارها ليلا وتقول : « إلهى لقد خلف هدوء الليل ضوضاء النهار ، وقد صار المحب قريبا من حبيبه ، فليس لى محبوب سواك ، وأنا جد مغتبطة » .

فالله وحده هو غاية كل صوفى مسلم . وإن الدراويش ليعلنون قولهم : « إنا لا نخاف جهنم ولا نطمع فى الجنة » .

ومدار التصوف عندهم على المجاهدة الشديدة ، فتراهم يأمرون بصيام أيام كثيرة ، وبأعمال أخرى من الزهادة تشق على النفس . ولكنهم مع هذا كله أشد الناس احتراما

(١) كتب هذا الكتاب فى القرن الثالث عشر الميلادى الشيخ شهاب الدين زميل الخوجه حافظ فى التصوف . وقد ترجه الى الانجليزية القائمقام هـ . ويلبلفورس كلارك .

لحريات الغير . فهم يقولون : « إن الطرق الموصلة الى الله كثيرة فهى بعدد أنفاس بنى آدم » . ولكن ليس لدى من الوقت لأصل فى هذا الموضوع الجذاب .

هـذا هو حظ العلم الباطن من الاسلام ، وحبذا لو أدمجه المسلمون فيه ، لأنه لا يوجد لدى المسلمين اليوم . ولو فعل المسلمون ذلك لا رتبط هو وسائر الأديان برباط حب أخوى متين . لأن التوحد المقدس بين العقائد المختلفة التى تتوزع العالم كله ، لا يقوم على مظاهرها الخارجية المتخالفة ، ولا على شعائرها المتباينة ، حيث توافق كل ديانة نفسية الشعوب التى نشأت فيها ، ولغتها التى تتكلم بها فى توجهاتها الى الله . ولكن توحـد الأديان يقوم على الحقيقة الروحية ، والفكرة الفلسفية ، وفوق كل شىء على المعارف الباطنية التى تعـلم الانسان كيف يعرف أنه من نفحة إلهية ، وكيف يجاهد حتى يعود الى مصدره الأول .

إخوانى ! إن أكثر الذين يسمعوننى هنا من الهندوس ، وهم ليسوا مسلمين . هذا قليل الخطر . فأنتم تقولون (سـوهام) و (توام أسّى) ، والصوفية يقولون : أنا الحق ، فكيف تتخالفون إذا كان الله واحدا ؟ (١) فاجتهدوا أن تفهموا هذه الحقيقة ، وهذا الفهم يوحى اليكم الحب . اجتهدوا أن تكتشفوا كل ما فيها من عظمة ، فاذا فعلتم مددتم أيديكم لسبعين مليونا من المسلمين فى الهند ، فانهم جزء من الأمة الهندية ، وبدونهم لا تستطيعون أن تؤلفوا شـعبا . فلنتعلم أن نحب لا أن نبغض . لنتعلم أن نفهم لا أن ننتقد . ولنحب ديننا فوق كل شىء ، ولكن لنحترم أديان جيراننا . فان محمـدا وعيسى وذورواسـتر وموسى والريشيين والبوذيساتفيين كلهم أعضاء الأسر الماجدة ، وهم حفظة النوع البشرى والأمم ، وليسوا فيما بينهم على خلاف فى شىء . أما نحن معشر أتباعهم وأبنائهم المتواضعين فلنحاول أن نستنير بشعاع من حبهم الذى يشمل كل ما فى الوجود . فبالحب وحده يمكننا أن نستجلب عطفهم علينا .

(١) مجلة الازهر : لا نوافق السيدة (أنى بيزانت) فيما تذهب اليه فى هذا الرأى الاخير ، فان الاسلام انزل ليكون دينا عاما للناس كافة ، وليس عليه أى طابع من أية نفسية بشرية ، فهو يناسب كل الناس فى كل زمان ومكان .

أما ما تدعو إليه من اعلان الصوفية على النحو الذى تذكره فهذا شديد الضرر على من لا يفهمه ، وعلى من لا يتذوقه . ولو جرينا على ما تقول لسمحنا لكل طائفة بتقديس مجموعة من أوهام وضعها لها زعماؤها بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير كانت سببا فى هلاك جماعاتها جميعا ، وفى سلوكها فى الحياة طريقا لا يناسب كرامة الانسان ، ولا سمو مواهبه . اعتبر ذلك بأن جميع الأمم التى تعتبرها السيدة (انى) أمما متصرفة قد انحطت الى أسفل الدركات ، وخضعت لسلطان أمم مستعمرة قاهرة ، ولم تغن عنها صوفيتها شيئا .

لست بهذا أنكر على الصوفية قيمتها العالية ، ولكن الصوفية يجب أن يكون أساسها العلم نفسه ، العلم المؤسس على المشاهدات والتجارب ، ولا يجوز أن يكون اساسها خيالات أناس جردوا أنفسهم للتفكير المحض وليس لديهم مذخور من العلم الصحيح يحميهم شر الوقوع فى الخرافات والاضاليل . ففى الاسلام تصوف ولكن من الطراز العلمى الثابت ، ولا يتأدى اليه إلا كل عالم ناضج العقل نير البصيرة ، وهو إذا وصل الى فتح ربانى لا يعلنه خشية أن يضل به من لا يفهمه ، ولا يتذوقه .

ومحمد نفسه لا يستطيع أن يجيء الى أتباعه ، كما يرجو أن يفعل ، ماداموا لم يخلعوا عنهم هذا الغلو فى الدين ، وقصر النظر الذى هم عليه ، ولم يحبوا الناس كما يحبهم هو أجمعين . إنه نبيكم أيها المسلمون ، ولكنه نبينا أيضا ، فاننا نعتقد فى جميع الرسل الذين أرسلهم الله الى الناس ، فنحن نحبهم ونحترمهم كافة ، وننحنى أمامهم احتراما لهم أجمعين . فعسى الله رب جميع الأمم أن يوفقنا معشر أبنائه لأن نبطل النزاع القائم بيننا فيه ، على اختلاف أسمائه تعالى لدينا : ما هاديفا ، أو فيشنو ، أو الله ، أو أهورا مازدا ، أو جيهوفا ، أو الآب ، فبأى اسم من أسمائه تحركت شفاهنا نحن معشر أبنائه ، فلا إله إلا هو ، ولا شيء خارجا عنه ، ونحن له عابدون » انتهى .

محمد فريد وجدى

بالعدل قامت السموات والارض

قال الله تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » .

وقال تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » أى ولا يحملنكم كراهتكم لقوم لما سبق من إيذائهم لكم على أن لا تعدلوا فى الحكم بينهم ، اعدلوا هو أدنى أن تخشوا الله وتستأهلوا غفرانه » .

وهذا من أعلى وأكمل ما تميز به الاسلام من التجرد عن آثار النفسية البشرية ، والتنزه عن الصفات الأرضية . فالحق يدعو أهله لتجريد العدالة من كل الملابسات التعاملية ، فاذا حكموا بين رجلين أمرهم أن لا ينظروا لما كان بينهم وبينهما من أواصر قومية ، أو سخائم نفسية ، وأن يصدروا أحكامهم على مقتضى العدل الالهى المستقيم .

ليس فيما بين أيدينا من مجموعات العدالة العالمية ما يبلغ حد هذه العدالة القدسية أو يقرب منها .

حكى أن الرشيد أمر بحبس أبى العتاهية الشاعر فكتب على حائط الحبس :

أما والله إن الظلم شؤم ... ومازال المسىء هو الظلوم
الى ديان يوم الدين نمضى ... وعند الله تجتمع الخصوم
ستعلم فى المعاد إذا التقينا ... غدا عند المليك من الظلوم

تاريخ الادب العربي في العصر العباسي

الأدبيات النثرية (لبروكلمان)

لم يكن للنثر شأن يذكر فى تاريخ الأدب العربى فى بدء ظهور الاسلام لما للقرآن من منزلة مقدسة ، فكان آية الكمال التى بلغها النثر أو السجع . ولما كان كتاب الله موضع تبجيل رجال الدين كافة، وكان هؤلاء هم أول من بدأ النهضة الفكرية فى مختلف نواحى العلوم والآداب ، فان هذا الضرب من الكتابة كان من الفنون التى حرمت منها الأدبيات العربية الاسلامية فى أول نشأتها ، ولم يجرؤ أحد على الظهور فى ميدانه أو النهوض به ، ومضى على ذلك زمن طويل ولم يعرف فى تاريخ الأدب العربى ما يستحق الذكر فى هذا المضمار حتى القرن الثالث من الهجرة ، حيث بدأت المحاولات الأولى فى هذا المضمار من فنون الأدب باستعماله فى مقتضيات الحياة العامة ، إلا أنه بالرغم من ذلك ظل فى أول الأمر مقصورا على الأغراض الدينية وما تتطلبه من حاجيات ، وكان الاسلام يأمر بالوعظ والخطابة فى المساجد العامة فى صلاة الجمعة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بالخطابة بنفسه بالمدينة ، وتبعه من بعده الخلفاء فى العواصم والحكام فى الأقاليم ، فأصبح بذلك الوعظ وخطبة الجمعة من الحقوق الخاصة بالولاة والحكام ، ولكن لم تلبث أن ظهرت فئة الوعاظ المحترفين ، فاحتلوا مكان أصحاب السيادة الدنيوية فى خطبة الجمعة ، واقتصروا على ذكر أسمائهم وتأييدهم فى الخطبة ، فتطورت الخطابة الدينية على يد هؤلاء الوعاظ الجدد ، واتخذت صياغة فنية خاصة ، وظهر بها تدريجيا النثر المسجوع .

وأول من ظهر فى تاريخ الأدب العربى فى هذا الميدان الفنى هو ابن نباتة عبد الرحيم ابن محمد المولود عام ٣٣٥ ﻫ وكان واعظا فى بلاط سيف الدولة ، وتوفى عام ٣٧٤ ﻫ . وكانت خطبه تذخر بالمسائل الدينية العامة : مثل الموت ، والبعث ، وفناء العالم ، ولم تخل خطبه من الانذار والحث على الكفاح ضد الكفار ، مؤيدا بذلك سيده فى أغراضه الحربية ، وفى هذه الناحية كانت تسنح له الفرص لتعداد الحوادث التاريخية مما جعلت مؤلفاته من المصادر التاريخية الهامة ، وكانت الروح الدينية تغلب فى خطبه على وجه العموم ، واليها يرجع السبب فى إعادة نشرها فى الشرق أكثر من خمس مرات .

وأما فى محيط الأعمال الدنيوية فكانت مجهودات رجال الادارة ذات أثر بعيد فى الصياغة الفنية للكلام المنثور ، فبدأ التغيير يدخل على الأسلوب الجاف الذى جرت عليه أقلام الكتاب فى أول عصور الاسلام حتى العصر الأموى ، فأدخلت عليه حكومة العباسيين ببغداد الكثير

من عبارات التنميق ، ويرجع السبب فى ذلك الى رغبة موظفى الادارة ، وأكثرهم من غير العرب فى إظهار شخصياتهم بارزة فى تحرير الوثائق والمكاتبات ، هذا فضلا عن أثر الأدب الفارسى الذى كان قد بدأ ظهوره فى هذا العصر ، ووصل هذا الأسلوب المنمق الى أعلى درجاته فى رسائل ابراهيم بن هلال الذى يرجع أصله الى القبائل الوثنية القديمة بالشام ، وبقى طوال أيام حياته أمينا على عقيدة آبائه ، ولكنه تمكن بالرغم من ذلك أن يتدرج فى حياته الادارية ببغداد حتى وصل الى مرتبة رئيسية فى إدارة الشئون الخارجية ، إلا أن عدم استقرار الأحوال السياسة فى القرن الرابع من الهجرة كان سببا فى اضطراب حياته ، فانه لما كان فى خدمة عز الدولة لم يسلم من عداء منافسه عضد الدولة ، فلما تم له فتح بغداد عام ٣٦٧ هـ أمر باعدامه ، ولكنه اكتفى بسجنه مؤقتا ثم عاد فعفا عنه وطلب اليه أن يضع مؤلفا فى تاريخ أسرته على ما يشتهى ، إلا أنه لم يجد فى نفسه ما يحبب اليه هذا العمل ، وصرح بعدم ارتياحه اليه ، فوقع ثانية فى العداوة مع الأمير ، ولم يجد بدا من الهرب مخافة اضطهاده ، وتوفى وهو فى أشد حالات الفاقة والبؤس عام ٣٨٤ هـ . ولا تزال بعض مؤلفاته باقية حتى العصر الحاضر ، وفى مقدمتها مجموعة رسائل سياسية ذات قيمة تاريخية هامة ، ولو أن المؤلف لم يعن بنشرها إلا لأسلوبها .

ومن ثم بدأت المحسنات اللفظية ذات الأسلوب الضخم والتعبيرات الرنانة تدخل فى الأدبيات فتملؤها بالألفاظ والعبارات المنمقة . ولقد علمتنا الأبحاث اللغوية أن القرن الرابع من الهجرة كان يذخر بالمواد التى أظهر فيها المؤلفون حذقا ومهارة فائقة فى المناوشات الأدبية ، ويرجع الفضل الى أبى بكر الخوارزمى فى إظهار مثل هذه المناوشات فى صورة رسائل أدبية الى شخصيات حقيقية أو مستعارة ، وإعطائها أهمية أدبية تستحق الذكر ، ولد أبو بكر الخوارزمى عام ٣٢٣ هـ من أبوين فارسيين — وكانت أمه أخت الطبرى المؤرخ المعروف – بدأ حياته العلمية بدراسة العلوم اللغوية ، واشتغل فى بيوت أمراء البلاد الاسلامية الشرقية ، فظهر أولا فى بلاط سيف الدولة ، ثم عند بعض أمراء الفرس ، واستقر أخيرا فى نيسابور ، ولكنه تهكم بأشعاره على الوزير العتبى فأمر بسجنه وصادر ماله ، إلا أنه تمكن أخيرا من الهرب الى جرجان ، ولما قتل العتبى رجع الى نيسابور وأعيدت اليه أمواله ، وتوفى بها عام ٣٩٣ هـ بعد أن رأى ظهور الهمذانى وتفوقه عليه .

امتاز الهمذانى عمن سبقه بأنه جمع بموهبته الفذة بين الفكاهة فى الألفاظ والخيال المبتكر والتصوير الرائع ، فتمكن من ملء هذا الضرب الأدبى الحديث بمواد جديدة ممتازة ، وبذا كان مبتكرا لنظم المقامات ، ولو أن المقامات كانت معروفة فى الأدب العربى منذ عهد بعيد بصورة أحاديث جدية أو فكاهية تدور بين شخصيتين امتازتا بناحية خاصة يستعملها المؤلف لبيان

معارف القدماء ، أو لاستخدامها فى الوصول الى أغراض خلقية أو تهذيبية ، ولكن الهمذانى كان أول من طبعها بطابعها الخاص التى عرفت به بعد ذلك فى الأدبيات الاسلامية بل وعند مسيحيي الشام ويهود الاسبان ، ثم وصلت الى الأدب الأوربى . تمكن الهمذانى أن يخلد صورة واضحة عن الحياة الأدبية المشردة فى عصره فى شخصية أبى الفتح الاسكندرى الذى جعله يحيا حياة ملأى بالمغامرات والمفاجآت ، وأطلق لسانه بالحكم والمواعظ الطريفة مما يشهد له بموهبته فى الابتكار وغزارة مادته اللغوية ، ومهارته الفائقة فى السيطرة على أساليب الحديث ، فاستحق بذلك لقبه « بديع الزمان » الذى اشتهر به فى تاريخ الأدب العربى . ولد بديع الزمان بهمذان ، وأتم دراسته بها ، وبدأ بالتجوال عام ٣٨٠ هـ . وتقابل فى نيسابور مع الخوارزمى فكان منافسا له منتصراً عليه ، ثم تنقل بين أمهات المدن فى بلاد الفرس ، وتوفى عام ٣٩٨ هـ ولم يبلغ من العمر سوى أربعين عاما .

ولقد استفاد النثر فى أدبيات اللغة العربية فى هذا العصر كثيرا بما عرف عن العرب منذ عصور الوثنية الأولى من مواد ، وتضاعفت هذه المواد بفضل المؤثرات الحسنة والظروف الملائمة التى كانت تلازم حضارة المدن وثقافة العمران ، وكان العرب منذ القدم يعرفون الكثير من قصص الأبطال الذائعة ببلاد الفرس ، لما كانت تربطهم بهم العلاقات التجارية خصوصا من عهد رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، بل وكثيرا ما كانت تروى هذه القصص على لسان المكى النضر بن الحارث الذى أقام زمنا غير يسير بالحيرة ، وكانت سببا فى اضطهاده لما قد عسى أن تثيره من مفاضلة أومنافسة للقصص الدينية التى جاءت فى سيرة رسول الله(١) ، ولكن ما لبث أن ازداد الاهتمام بهذه المواد بعد أن تم للعرب إخضاع الفرس واختلاطهم بهم ، واستمر الاهتمام بها آخذا فى الازدياد ، وكلما ازداد نفوذهم فى الحياة السياسية والفكرية خصوصا أثناء حكم العباسيين ، حيث بدأ الشعبان يشعران بحاجتهما الى التقرب بعضهم الى بعض بطريق التفاهم الأدبى .

وكان البرمكيون — وهم وزراء ورجال الحكم من الفرس فى ظل حكومة العباسيين — أول من اهتم بتشجيع نقل قصص البطولة الذائعة فى الأدب الفارسى الى اللغة العربية ، وكانوا يعهدون بذلك الى شاعرهم المعروف اللاحقى ، فقام بنقل القصة التاريخية « اردشير وأنوشروان » الى الشعر العربى ، كما قام بترجمة شعرية لقصص عديدة عرفت فى أواسط بلاد الفرس مأخوذة عن حكايات الهنود ثم انتقلت فى القرون الوسطى حتى ذاعت فى جميع الادبيات العالمية ، وأشهرها كليلة ودمنة وسندباد البحرى .

(١) مجلة الازهر — عبارة الاستاذ بروكلمان عن النضر بن الحارث توهم انه كان من المسلمين واضطهد بسبب آرائه فى بطولة الفرس . والحقيقة ان النضر هذا كان من غلاة المشركين بمكة ، فكان يلقن شبان قريش الشعر فى هجو المسلمين ويبالغ فى اخبار ابطال العجم معا كسة للدعوة الاسلامية فأسر فى وقعة بدر وقتل .

ولكن هذه التراجم الشعرية لم يكن لها فى الحياة نصيب كبير ، فاختفت سريعا بعد ظهور التراجم النثرية الرائعة التى وضعها ابن المقفع ،فكانت فى مقدمة المؤلفات النثرية فى الأدب العربى ، وابن المقفع فارسى الأصل وقد نشا على دين آبائه الزورواسترى وبقى مخلصا لعقيدته سرا بالرغم من دخوله الاسلام(١). وقد أقام بالبصرة على علاقة وثيقة بالخليل مؤسس العلوم اللغوية العربية ، ولكنه اغضب الخليفة المنصور بانحيازه الى العلويين فامر باعدامه عام ١٤٠ هـ ، وأشهر أعماله ترجمة كليلة ودمنة وهى مجموعة القصص الهندية لبيدبا ، وامتازت بأسلوب رشيق فكثر تداولها ونقلها فلم تصل الى أيدينا إلا بعد تحريف كبير .

ولم يبق الكثير من مؤلفات هذا الكاتب الكبير ، ولو أنها عرفت من الاشارة اليها فى بعض فقرات فى مؤلفات المتأخرين من الكتاب ، وأكثر هذه المؤلفات كانت ترجع الى القصص الفارسية فى البطولة والأبطال التى تستند اليها أيضا أنشودة الفردوسى .

ولقد ضاعت كذلك مؤلفات موسى بن عيسى الكسروى الذى كان ينسج من نفس هذه المواد موضوعات نثرية هامة ، جاء ذكرها فى مؤلفات الجاحظ ، واليه تعزى قصة سندباد التى أخذت عن الرواية الاغريقية .

واهتم غير هؤلاء كثير من الكتاب بالقصة الفارسية ونقلها الى النثر العربى ، وهى وإن ضاعت أصولها أو اختفت أسماء ناقليها من الكتاب المترجمين ، إلا أنه يسهل الاستدلال عليها من مؤلفات غيرهم من العلماء والمؤلفين ، وعلى الأخص الفقيه الشيعى محمد بن بابويه المتوفى عام ٣٨١ هـ فان كتابه فى الأخلاق قد استشهد بالكثير من هذه القصص الفارسية التى نقلها الكتاب النثريون فى هذا العصر .

ولم يكن اهتمام المؤلفين بالقصة الأجنبية بباعث على إهمالهم المواضيع القومية ، فان كل ما كان تدور قديما من أحاديث فى خيام العرب أو الى جوار مواقدهم كانت تجرى به ألسنة المحدثين فى المدن ودوائر الخلافة ، ولو أن صناعة القصة كانت تضطر الرواة الى إدخال بعض التغيير والتحريف ، وبذلك نشأت فى هذا الميدان الأدبى فئة جديدة لاحتراف السمر الذى كان حراً طليقا فى أول الأمر فى الصحراء ، فوصلنا من أخبار هؤلاء المحدثين الذين احترفوا سمر المساء فى بلاط العباسيين الشىء الكثير ، ولم يهمل بعضهم منذ بدء ظهورهم تسجيل مواد حكاياتهم ، فبقى الكثير منها فى الأدبيات العربية حتى الوقت الحاضر ، أهمها كتاب خالد بن صفوان محدث الخليفة أبى العباس .

« يتبع »

(١) مجلة الأزهر — كان ابن المقفع مجوسيا ثم اسلم . وقد ذكر مؤلفو السير من المسلمين انه كان متهما فى دينه . وقد قتل لا من جراء هذه التهمة ، ولكن لاعتبارات سياسية كما اعترف بذلك بروكلمان نفسه .

تقرير بعثة الهند

— ٣ —

المسلمون فى الهند

حالهم الدينية وتفرقهم الى مذهب وشيع

وقف الاسلام على حدود الهند بعد أن فتح بلاد السند وبلوخستان على يد محمد بن القاسم الثقفى ، ولم يتطرق المسلمون الى داخل الهند إلا تجاراً مدة من الزمن .

وأول من فتح بلاد الهند من المسلمين هو يمين الدولة وأمين الملة « محمود بن سبكتكين الغزنوى » ؛ فقد طرق بلاد الهند بجند وافر من الممرات التى تصل الهند ببلاد الأفغان اليوم ، فكان فى ذلك مظفراً منصوراً ، ثم استمر خلفاؤه يغيرون على البلاد الهندية ويفتحون فيها ، ثم جاء الى الهند ملوك من المغول نفذوا الى تلك البلاد من ناحية كشمير ، وانسابوا فيها وصاروا سادتها ، ولكنهم ساروا على عادة الملوك المسلمين من ترك الأمم وما يدينون ، فلم يقهروا الوثنيين على الاسلام ؛ وكانت اللغة الفارسية لغة البلاط المغولى ، وأما سائر المسلمين فكانوا يتكلمون لغة « الاردو » ، أى لغة العسكر ولم يطل العهد بالمسلمين فى بلاد الهند حتى دبت فيهم عقارب الخلاف والتعصب المذهبى ، وما زالت هذه العوامل تعمل عملها حتى أصبحت بلاد الهند اليوم معرضاً لطوائف المسلمين المختلفة ، وقد تبع اختلافهم تخاذلهم وعداوة بعضهم لبعض .

ولو شئنا أن نصور حالهم تصويرا يقرب من الواقع ، لقلنا إنهم ينقسمون بصفة عامة الى أهل سنة ، والى شيعة .

أهل السنة :

فاما أهل السنة فهم : الحنفية ، والشافعية ، والمالكية ، والكثرة المطلقة للحنفية . وأهل المذاهب الثلاثة بينهم نزاع ، كل ينتصر لمذهبه ويتعصب له .

١ — أصحاب القرآن : وقد تفرع من أهل السنة جماعة نشزوا على المذاهب ، وقالوا : نحن أصحاب القرآن ؛ وهم لا يقرون إلا بما صرح به القرآن ، وقد أهملوا ما جاء به الحديث .

٢ — أهل الحديث : ومن أهل السنة جماعة نشزوا على المذاهب الأربعة هم أهل الحديث ، وهم لا يقلدون الأئمة ، وإنما يأخذون أحكام الدين من الكتاب والسنة مباشرة ؛ وقد كان زعيم هذه الفرقة المرحوم « حسن صديق خان » . ورأينا من أتباع هذه الطريقة الشيخ « خليل ابن محمد الخزرجى » ببهوبال ، و « مولانا أبا الوفاء ثناء الله » فى أمر تسار ، وهو يصدر مجلة

تخصصت لهـذا المذهب والدفاع عنه ، ولـكنه يألم من تفرق المسلمين وتعاديهم فى الدين ؛ ومنهم أيضا السيد « عطاء الرحمن » صاحب مدرسة أهل الحديث الرحمانية بدهلى .

الشيعة :

أما الشيعة فهم أقسام ، منهم :

(ا) الاثنا عشرية : وإمام مسجدهم فى بومباى الشيخ محمد حسن ، وهو أيضا ممن يأسفون لتفرق المسلمين ؛ وينتمى الى هـذه الطائفة أغلب أهل إيران والعراق ، كما ينتمى إليها كثير من أهـل أجرا ولـكنو ، وهم لا يخالطون بقية المسلمين ؛ ولهم فى لـكنو مدرسة تسمى مدرسة الواعظين ، سيأتى الـكلام عليها فيما بعد .

وتقول هذه الطائفة بانحصار الخلافة فى على ، ثم فى ابنه الحسن ، ثم فى الحسين ، ثم فى على زين العابدين ، ثم فى محمد الباقر بن على ، ثم فى جعفر الصادق بن محمد الباقر ، ثم فى موسى الرضى بن جعفر ، ثم فى على الرضى بن موسى ، ثم فى محمد الجواد بن على الرضى بن موسى ، ثم فى الحسن العسكرى ، ثم فى على بن الحسن العسكرى ، ثم فى الامام المنتظر على بن الحسن العسكرى . وهم يقولون بتفضيل على على سائر الصحابة ، كما يقولون إن أبا بكر وعمر وعثمان كانوا غاصبين للخلافة ، ويقعون فيهم .

(ب) البهرة : وهناك شيعة أخرى يقال لهم « البهرة » أو « البواهر » وهم الاسماعيلية ، وينقسمون الى قسمين :

الأول : البهـرة السليمانية ، وهم أتبـاع « أغاخان » وهم فى الهنـد وزنجبار والشام ، ولا يعرف أهل الشام منهم بالبهرة ، إنما هم اسماعيلية ؛ وهم بقية من الطائفة التى كانت تعرف بالفدائيين (الحشاشين) قديما .

وعندهم أن « أغا خان » مقدس وما يمسه من إناء أو غـيره يصير مقدساً ، ويتنافسون فى اقتنائه ، وله على أتباعه إتاوة ، ولا يردون له أمراً .

والثانى : البهرة الداودية ؛ وهم أتباع « مولانا طاهر سيف الدين » ، ويقيمون ببومباى وكراتشى وجبل حراز باليمن وبعض جهات زنجبار ؛ ومولانا طاهر سيف الدين صاحب كلمة نافذة عليهم ، وهو عندهم معصوم لا يخطئ ، ولا يسأل عما يفعل . وهو يدير أوقاف الفرقة ويتصرف فيها كيفما شاء ، وله على أتباعـه إتاوة معينة ؛ والبواهر يسهمون له فى ميراث الأموات ، وهو — فى فرقته — عالم متين قل أن يوجد مثله .

السلفيون :

ومن الفرق الاسلامية فى الهند السلفيون أو الوهابيون . وينظر إليهم أهل الفرق الآخر

شزراً ويكفرونهم ، كما أن الوهابيين يكفرون كل من يقول بجواز التوسل أو الاستغاثة بسكان القبور .

الأحمدية :

ومنهم جماعة الأحمدية ، أتباع « مرزا غلام أحمد القادياني » ، وهم فريقان :

١ — فريق يقول إنه رسول يوحى إليه ، وإنه المسيح الموعود بدون تأويل ، وإن من شك فى صحة نبوته ورسالته ومسيحيته كافر ، وإنه قد ألغى الجهاد وأوجب طاعة الحكام — ولو كانوا غير مسلمين — ومن فعل غير ذلك فهو غير مسلم ولا نجاة له فى الآخرة ، وهؤلاء هم المعروفون بالقاديانية .

٢ — وفريق آخر يقول : إنه كان مجددا مصلحا ، ولم يكن نبيا بالمعنى الاصطلاحى للنبوة ، ولكنه ملهم محدث ؛ وإنه كان يتبع دين الاسلام وتعاليمه ، أما النبوة التى ادعاها فهى النبوة المجازية ، ومع ذلك فلم يكن يتمسك بها ؛ أما الجهاد فانه أبطله بالمعنى الذى يعرفه العامة ، وهو أن يخرج الرجل فيغتال المخالف له فى غير حرب على سبيل الغدر والخيانة ، كما أبطل الجهاد الذى يخرج فيه الرجل دون عدة ، وهؤلاء هم الأحمدية اللاهورية .

ومن أعظم خصومهم « السير محمد إقبال » فانه يتهمهم بعدم الاخلاص السياسى .

أثر الاختلاف وحقيقته :

ومع كل هذا الاختلاف بين طوائف المسلمين ، فان لزعمائهم فيهم آمالا كبارا ، فقد قال لنا الزعيم « محمد على جناح » : إن هذا الخلاف الواقع بين هذه الطوائف ليس إلا ميراثا تاريخيا ورثوه عن آبائهم ، وعن الدعاة الذين أدخلوهم فى الدين الاسلامى ؛ ولكن إذا جد الجد كان المسلمون يدا واحدة على من سواهم .

والذى نلاحظه أن هذا التفرق الدينى بين طوائف المسلمين له اثر غير محمود فى حالهم الاجتماعية والعلمية والثقافية ، ذلك بأن تفرقهم يمنعهم من أن يتعاونوا على البر والتقوى ، فلا تمد طائفة من هذه الطوائف يدا الى عمل خيرى تهم به طائفة أخرى ، مما قد يكون محتاجا الى تعاون الأيدى ، والبذل بسخاء .

فلا تشترك هذه الطوائف فى مستشفى يعالج الفقراء ، ولا فى معهد علمى يثقف فيه أبناء المسلمين تثقيفا عاليا فيخرج قادة الفكر وأهل الزعامة ، بل يعيش كل فريق فى محيط وأفق ، لا يضمان سواه .

ولو أنهم كانوا يداً واحدة على من عداهم ، متعاونين على البر والتقوى ، متجنبين الاثم والعدوان ، لكان لهم شأن غير ما نرى .

ولم يبعد عن الصواب من يقول : إن هذه الحال تحول دون تشجيع (الهندوس) على دخولهم فى دين الاسلام .

الحال العلمية والثقافية :

مايزال الهند بلداً متأخراً فى التعليم العام ، إذ أن نسبة من يعرفون القراءة والكتابة — ممن فوق الخامسة سناً — لا يتجاوزون ٨٠ فى الألف ، وفق الاحصاء العام لسنة ١٩٣١ ؛ على أن السنوات الأخر كانت سنوات نشاط فى ميدان العلم بين كافة البيئات .

وفيما يلى بيان بنسبة التعليم بين البيئات المختلفة على ما كانت عليه سنة ١٩٣١

٧٩٠	فى الألف	بين	البارسى	وهم يبلغون	٤	فى	الألف	من عامة السكان
٢٨٠	«	«	المسيحيين	«	١٨	«	«	«
٩٠	«	«	السيخ	«	١٣	«	«	«
٩٠	«	«	البوذيين	«	٣٧	«	«	«
٨٠	«	«	الهندوس	«	٦٨٥	«	«	«
٦٥	«	«	المسلمين	«	٢٢٥	«	«	«

ومما يلاحظ أن نسبة التعليم بين المسيحيين كبيرة نوعا ما ، نظراً الى أن جمعيات التبشير المسيحية تعنى بنشر التعليم بين البيئات التى تدعوها الى اعتناق الدين المسيحى .

أما نسبة التعليم بين الهندوس — على ما هى واردة فى الاحصاء السابق الذكر — فانها أقل من نسبة التعليم بين الطبقات المتوسطة والعليا من أصحاب هذه الديانة ؛ وذلك لأن الاحصاء قد جرى على اعتبار المنبوذين هندوساً ، فى حين أن التعليم بين المنبوذين منحط جداً ، فهم لا يقبلون عليه قليلا ولا كثيراً ، وذلك لعاملين :

العامل الأول : هو أن الأجيال المتعاقبة من هؤلاء قد نشأت على الأمية ، وقليل من أفلت فى الماضى من زمامها .

العامل الثاني : هو شعور المنبوذين أنفسهم بأنهم أحط درجة ، بل درجات ، من غيرهم من أبناء البلاد ، ولذلك إذا أرسل أبناؤهم الى المدارس ، فانهم يعانون آلام « النبذ » داخل جدران المدرسة .

لذلك عنيت بعض الحكومات الاقطاعية أخيراً — كما عنيت بعض حكومات الهند — بانشاء مدارس خاصة لتعليم أبناء المنبوذين ، كما قامت بعض الجمعيات التبشيرية المسيحية ، والتبليغية الاسلامية ، وغير ذلك ، بانشاء مدارس خاصة لهم .

على أن القاعدة ليست مطردة فى كل مكان ، فقد شاهدنا — فى (واردا) مثلا — مدرسة يعلم فيها أبناء الطوائف جميعا ، على قدم المساواة ، لافرق بين مسلم وهندوسى ، ولا بين هندوسى من الطبقات العليا ومنبوذ .

ولكن هذه نهضة حديثة يراد بها إلغاء الفوارق بين أصحاب الديانات المختلفة ، وكذا بين الطبقات المتباينة من أصحاب الديانة الواحدة .

مراحل التعليم :

هذا وتنقسم مراحل التعليم فى الهند الى الأقسام الآتية :

(أولا) التعليم الابتدائى : وهو يضاهى التعليم الأولى وصدر التعليم الابتدائى بمصر ، ومدته خمس سنوات ، منها سنة تحضيرية . والمدارس الابتدائية بالهند منتشرة انتشاراً كبيراً لايقابله إقبال من جانب الوطنيين على التعليم ؛ والحكومة والهيئات يجدون فى تشجيع الآباء على إرسال أبنائهم وبناتهم الى هذه المدارس . وإذا كانت الاحصاءات الأخيرة قد كشفت عن الاقبال على هذا النوع من التعليم — ولو الى حد ما — فانها كذلك قد سجلت ميلا من جانب الطلبة الى ترك هذه المدارس قبل إتمام تعليمهم ، يؤيد ذلك أن نسبة الطلبة فى السنة التحضيرية تبلغ ٣١ ٪ تقريباً من مجموع الطلبة ، فى حين أن نسبتهم فى السنة الأولى لاتزيد عن ١٧ ٪ أى ان عدداً يبلغ ١٤ ٪ تقريبا من الطلبة يترك المدرسة بعد السنة التحضيرية .

ويعزو ولاة الأمر هذه الظاهرة الى عوامل اجتماعية واقتصادية ، ولكنهم لاينكرون أثر الروح المدرسية فى هـذا التنفير ؛ فقد ورد فى تقرير إدارة المعارف فى بومباى أن بعض العلة فى هذا النفور يرجع الى أن فصول السنة التحضيرية مكتظة بالطلاب ، ومدرسيها يكونون غالبا من أضعف المدرسين — من حيث مؤهلاتهم — ومن أقلهم دراية بأساليب التربيـة ، ولذلك ينفر الأطفال من المدارس ، ويجدون فى أولياء أمورهم استعداداً لاخراجهم منها .

ولا يفوتنا فى هذا المقام أن نذكر أن إقبال البنات على هـذا النوع من التعليم ضعيف جداً ، إذ أن نسبة البنات فى هذه المدارس الى مجموعهن ، لايتجاوز نصف نسبة الذكور الى مجموعهم ، ويرجع ذلك الى تقاليد البلاد الآخذة بعدم ضرورة تعليم البنت ، وهى تقاليد يؤسفنا أن نقرر أنها شائعة فى الشرق . ويقل عدد التلميذات كلما تقدمن فى سنى الدراسة ، ويرجع ذلك الى نظام الحجاب المبكر فى الهند ، والى نظام الزواج المبكر .

والمدارس الابتدائية منتشرة فى الهند ، على الرغم من قلة الاقبال عليها ، ومن قيام مشكلة تعترض نشر التعليم المدرسى فى البيئات الزراعية ؛ وهى تباعد القرى مع قلة عدد سكان كل قرية ، هذا الى اختلاف جوهرى فى العقائد ، قد يمنع أبناء القرية الواحدة من الانتساب الى مدرسة

واحدة ؛ تضاف الى ذلك مشكلة المنبوذين المنتشرين فى كل مكان ، بحيث كان لزاماً أن تنشأ لهم مدارس خاصة لتعليم أبنائهم .

وقد قامت حكومة بومباى بتجربة جديدة : هى محاولة الجمع بين أبناء المنبوذين وغيرهم فى مدرسة واحدة ، معتمدة فى ذلك على أن التعليم لا يجوز أن يفرق فيه — بين الطبقات — هذا التفريق الحاد المؤلم ، وإذا استطعنا أن نقرر أن التجربة قد نجحت فى قليل من الأمكنة ، وجب علينا فى الوقت ذاته أن نقرر أنها فشلت فى الكثرة الغالبة من المدارس . وقد ضرب مفتش التعليم فى بومباى لذلك مثلا بعدد غير قليل من المدارس ، أجرى فيه هذه التجربة فنفر طلبة المدرسة الأصليون ، بحيث إن المدرسة التى كانت تحوى مائة تلميذ لم يبق فيها أكثر من خمسة عشر تلميذاً .

ولو أسلمت الهيئات التعليمية نفسها للتقاليد ، لوجب أن ينشأ فى القرية الواحدة — التى يحتمل ألا يتجاوز عدد سكانها خمسمائة نفس مثلا — مجموعة من المدارس لا يقل عددها عن ثلاث : واحدة للهندوس ، وثانية للمسلمين ، وثالثة للمنبوذين .

هذه هى بعض العلل فى عدم الاقبال على التعليم فى الهند ، حتى فى أولى مراحله ، وهى مرحلة التعليم الابتدائى .

ويحزننا أن نسجل فى هذا المقام ضعف إقبال المسلمين على التعليم فى هذه المرحلة ، وكذلك مايليها من المراحل ، ذلك بأن إحصاءات مقاطعة بومباى مثلا قد دلت على أن ١٤٨ فى الألف من البراهمة (الطبقة العليا من الهندوس) ينتسبون الى المدارس الابتدائية ، يقابلهم ٢٨ فى الألف فقط من المسلمين ، كما يؤسفنا أن نقرر أن قلة الاقبال على التعليم بين المسلمين ، لا تماثلها بل لاتقاربها إلاقلة الاقبال عليه بين الطبقات المتوسطة والدنيا من الهندوس ، بما فى ذلك المنبوذون ، وقد كانت هذه البيئات الثلاث سبباً فى ضعف النسبة العامة للتعليم ، بحيث كانت ٤٣ فى الألف فقط فى هذه المقاطعة .

(ثانيا) التعليم الثانوى : وهو يضاهى التعليم الابتدائى وصدر الثانوى بمصر ، وعدد سنواته أربع ، ويسمى بالتعليم المتوسط :(Middle School) ، وهو المرحلة التالية للتعليم الابتدائى ، ويعتبر تكملة له ، ينطبق عليه من القواعد ما سبق لنا أن قررنا فى الكلام على التعليم الابتدائى .

ومن أوضح ما يلفت النظر ، ضعف الاقبال على التعليم الثانوى ، فاذا اتخذنا إقليم بومباى مثلا ، وجدنا أن نسبة التعليم الثانوى فيه ، لا تتجاوز ٦ فى الألف ، يقابلها ٤٣ فى الألف للابتدائى ، وهو بين البراهمة بنسبة ٣٨ فى الألف ، مقابل ١٤٨ فى الألف فى التعليم الابتدائى ، وهو بين المسلمين بنسبة ٥ فى الألف ، مقابل ٢٨ فى الألف فى التعليم الابتدائى .

من ذلك يتضح أن نسبة « ترك المدارس » بين الابتدائى والثانوى واضحة فى المسلمين أكثر مما هى فى البراهمة .

وإن من المحزن أن نقرر أن هذا الامتناع يصحبه أن الحكومة لا تضن على البيئة الاسلامية بتشجيع الاقبال على التعليم ، فقد حفظت للمسلمين نسبة مئوية خاصة من الأماكن فى المدارس ، هى من حقهم كلما طلبوا ، كما أنها تقبل ٥ ر ٢٢ ٪ من أبناء المسلمين بالمجان فى المدارس الثانوية ، وهذا عدا مجانيات التفوق التى يصرف عليها من ريع الأوقاف التى رصدها عظماء المسلمين فى الهند لتشجيع التعليم بين المسلمين ، وهى أوقاف طائلة ، نذكر منها بعضاً مما يخص المدارس الثانوية فى إقليم بومباى على سبيل المثال :

١ — وقفية السير محمد يوسف ، ومقدارها ١٨٫٠٠٠ جنيه مصرى تقريبا ، يصرف منها على ٢٦ طالباً ، بمعدل ٣٠ روبية (٢٢٥ قرشا) للطالب الواحد فى كل شهر .

٢ — وقفية قاضى شهاب الدين ، ومقدارها ١٠٫٥٠٠ جنيه مصرى تقريبا ، يصرف منها على ١٩ طالباً ، بمعدل ١٥ روبية (١١٢ قرشاً) للطالب الواحد شهريا .

٣ — وقفية السير ابراهيم كريم بهاى ، وقدرها ١٨٫٠٠٠ جنيه مصرى تقريباً ، يصرف منها على خمسة طلاب فى معهد العلوم الملكى ، بمعدل ٧٠ روبية (٥٢٠ قرشا) للطالب الواحد شهريا ، و١٢ طالباً بمعدل ٣٠ روبية (٣٢٥ قرشا) شهريا .

(ثالثا) التعليم العالى : وهو بمنزلة النصف الثانى من التعليم الثانوى بمصر ، ومدته سنتان ، وتبلغ نسبة المسلمين الذين يتلقون هذا النوع من التعليم فى بومباى أربعة فقط فى كل عشرة آلاف منهم ، يقابلهم ٥٩ فى كل عشرة آلاف من البراهمة . وتنتهى هذه المرحلة من التعليم بالتقدم لنيل شهادة الماتريك Matriculation وتتولى الجامعات عقد الامتحان لاحراز هذه الاجازة ، بحيث تعتبر امتحانا للقبول بالجامعة .

(رابعا) التعليم الجامعى : ويبتدئ بدراسة سنتين للتحضير للشهادة المتوسطة المعروفة باسم Inter Mediate . وبعد ثلاث سنوات أخر يتقدم الطالب لنيل درجة بكالوريوس علوم ، أو بكالوريوس آداب ، أو ما يماثلها ، وتلى ذلك مرحلة تخصص مدتها سنتان ، ينال المتخرج بعدها شهادة الاستاذية فى الحقوق L.L.B أو الآداب .M.A أو العلوم M. Sc. ولا تليها إلا مرحلة البحث العلمى ، التى ينال الطالب بعدها شهادة الدكتوراه فى الفلسفة .Ph. D أو العلوم .D. Sc أو الآداب .D. Lit

وأخيراً — يسرنا أن نقرر أن عدد المسلمين الذين يواصلون دراساتهم الجامعية بعد نيل شهادة الماتريك ، هو فى الواقع عدد مشرف ، يبعث على حسن الاعتقاد بمستقبل التعليم بين المسلمين ، بفضل إرشاد أولئك الذين تعلموا تعليما جامعياً ، فأدركوا أثر التعليم فى تحسين حال بيئتهم . وقد دل إحصاء سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٤ على ما يأتى :

نال شهادة الماتريك	٤٧٧	طالباً
ونال الشهادة المتوسطة	١٠٥	»

ونال شهادة بكالوريس ١٠٠ طالب
ونال شهادة الأستاذية ١٣ «

أى أن ٢١٨ طالباً من كل ٤٧٧ طالباً ، يواصلون دراساتهم الجامعية ، بنسبة ٥٢ ٪ وهى نسبة مبشرة ولله الحمد .

وتساعد الحكومة طلبة التعليم الجامعى على اختلاف دياناتهم مساعدة لها أثر محسوس ؛ ذلك بأنها تمنح فى بومباى مثلا مجانيات التفوق الآتية :

٤٠	مجانية	مع	راتب	قدره	١٥	روبية	شهريا	فى كلية	الآداب	لمدة أربع سنوات
٣	«	«	«	«	٣٠	«	«	«	الهندسة	« ثلاث سنوات
١	«	«	«	«	٢٥	«	«	«	التجارة	« ثلاث سنوات
٣	«	«	«	«	٢٠ و٢٥	«	«	«	الحقوق	« سنتين اثنتين

***

هذا عرض سريع لحال التعليم المدنى فى بلاد الهند ، ومدى إقبال المسلمين على الأخذ به ؛ وقد حاولت البعثة تقرى الأسباب التى أوجبت قيام هـذه الحالة المحزنة ؛ وإنا لموردون هنا ما استطعنا الوصول إليه فيها :

كان المسلمون الى عام ١٨٥٧ سادة البلاد ، وما يزال الشعب الاسلامى فى الهند يتغنى بماضى مجـده القريب ، كما لا يزال كثير من سادتهم يحملون الى جانب أسمائهم الألقاب الضخمة ، التى تدل على شرف المحتد ، والانتساب الى بيوت الملك ؛ ولكثير من عظماء المسلمين بالهند ثروات ضخمة اكتفى بها غير المثقفين منهم عن تعليم أبنائهم ؛ وفى ذلك بخس من قدر العلم .

ومما يزيد الألم أن هـذه الحال المحزنة بين المسلمين تقابلها حال تكاد تكون مضادة لها فى البيئات الهنـدوسية ، لا سيما فى الطبقة العليا ؛ إذ أدرك الهندوس قيمة العلم وأثره فى الكفاح الحيوى ، وخاصة كفاح البيئتين الاسلامية والهندوسية فى تلك البلاد .

صحيح أن أنظار المسلمين قد اتجهت فى السنوات الأخيرة الى تثقيف أبنائهم ؛ ولكن يخيل إلينا أن النشاط العلمى فى البيئات الهندوسية يغلب على ما يقابله من نشاط بين المسلمين ؛ بحيث يخشى (فى ميدان العلم قبل كل شىء) أن تكون الغلبة قريبا للهندوس ، فلا ينازعهم تفوقهم منازع .

ومما تجب الاشارة إليه أن نشاط الهندوس ، ورغبتهم الجدية فى التفوق ، لا تقتصر على ميدان العلوم النظرية ، بل إنهم قد ضربوا بسهم وافر من النشاط فى العلوم العملية كذلك ، ويظهر هذا النشاط واضحا جليا إذا ما وازنا بين نشاط جامعة عليكرة العلمى البحت ، وبين نشاط جامعة بنارس ، الذى يمت الى العلوم العلمية بصلة كبرى . (يتبع)

المطالب العالية فى النفس الناطقة

وصلتها بالانسان

تحدثنا الى القراء إلماما فى عدد من أعداد هـذه المجـلة عن مبحث له من جلال الخطر وعظيم الأثر المقام الأول بين أصحاب نظريات العـلم الالهى وأصحاب العلوم الطبيعية بين مستدلين ومعقبين ومعترضين ومجيبين ومثبتين ونافين ، وأعنى به مبحث بقاء النفس بعد خراب البدن وانحلاله .

فجمهور علماء الفلسفة الاسلامية وغيرهم على أن النفس باقية بعد فساد البدن فـلا تفنى بفنائه ولا تنحل بانحلاله ، فهم يرون أن هـذه النظرية مدللا عليها مقامة على صحتها الحجج والبراهين ، جزء غير منفصل من قسم الالهيات من ناحية ، والطبيعيات من ناحية أخرى ، حتى إن ابن سينا فى قسم الطبيعيات من كتاب الشفاء عرض للتدليل على صحة هذا الموضوع فى بحوث متسلسلة الحلقات بأصدق البراهين مما سيجىء عنه الـكلام فى موضعه فى بحوث تالية .

ومن تحصيل الحاصل القول بعدم وجود رأى إجماعى على ثبوت تلك النظرية ، فقد خالف فى ثبوتها الأستاذ الطوسى وغيره من المشتغلين بقضايا عـلوم النفس وأقيستها ، غير أن جمهرة الفلاسفة الاسلاميين وغيرهم بسطوا القول جدا فى التدليل على بقاء النفس بعد فساد البدن .

قال العلامة صاحب المقاصد مع تصرف فى المبنى واحتفاظ بالمعنى :

« ولـما توقف تعلق النفس به على وجودها فى نفسها كان ذلك الاسـتعداد منسوبا أولا وبالذات الى تعلقها وهـو وجودها من حيث إنها متعلقة به . وثانيا وبالعرض الى وجودها فى نفسها . وهذا الاستعداد من غير شك كاف لفيضان الوجود عليها متعلقة به من غير حاجة فى ذلك الى استعداد منسوب أولا وبالذات الى وجودها فى نفسها ليمتنع قيامه بالبدن ، فانها من حيث وجودها فى نفسها مباينة له ، والشىء لا يكون مستعدا لـما هو مباين له كما هو جلى ، وكما جاز أن يكون البدن محـلا لاستعداد تعلقها به يجوز أن يكون محـلا لاستعداد انقطاع تعلقها به ، ويتجلى ذلك الجواز بصورة واضحة فى حالة ما إذا خرج المزاج الصالح عن أن يكون محـلا لتدبيرها وتصرفها . لـكن لـما لم يتوقف انقطاع تدبير النفس على عدمها فى ذاتها لم يـكن هـذا الاسـتعداد منسوبا الى عدمها فى نفسها لا بالذات ولا بالعرض . وحينئذ يظهر الفرق جليا لـكل باحث بين استعداد الحـدوث وبين استعداد العـدم ، لأن استعداد الحـدوث من ناحية واستعداد العدم من ناحية أخرى ، والشىء الواحد متى اختلفت جهتاه ارتفع عنه التناقض ، فيجوز أن يقوم استعداد الحدوث بالبدن دون الثانى » .

يبقى بعد ذلك أن الأستاذ الطوسى فى بعض رسائله فيما حكاه العضد قد كر على دليل القوم وصال فيه وجال، وأورد تعقيبات وشبهات ليس ردها بالهنات الهينات، وإن كانت فى واقع أمرها مجرد مغالطات، فقد عقب على أدلة القوم فقال: ما لا حامل لامكان وجوده وعدمه لا يمكن أن يوجد بعد عدم أو يعدم بعد وجود، فيا عجبا الذين حكموا بحدوث النفس الانسانية ثم امتنعوا فى الوقت ذاته عن تجويز فنائها، فان جعلوا حامل إمكان وجودها البدن فهلا جعلوه حامل إمكان عدمها أيضا، وإن جعلوها عادما حاملا لامكان العدم كى لا يجوز عدمها بعد الوجود فهلا جعلوها لأجل ذلك بعينه عادما حاملا لامكان الوجود فيمتنع وجودها بعد العدم فى الأصل! وكيف ساغ لهم أن جعلوها جسما ماديا حاملا لامكان وجود جوهر مفارق مباين للذاتيات؟ فان جعلوها من حيث كونها مبدأ لصورة نوعية لذلك الجسم حاملا لامكان الوجود، فهلا جعلوها من تلك الحيثية بعينها ذات حامل لامكان العدم؟ وعلى الجملة ما الفرق بين الأمرين فى تساوى النسبتين؟

ونحا الامام الرازى نحوا آخر فى متابعة دليل القوم متابعة جعلت هذا الدليل فى منعة لا ترقى اليها الشكوك والشبهات. فقد حكى فى كتابه (المحصول) ما معناه: لو جاز العدم على النفس لكان العدم مسبوقا بامكان العدم لا محالة، وذلك الامكان يستدعى محلا، ويجب أن يكون المحل باقيا عند ذلك العدم، ضرورة أن القابل واجب الحصول عند وجود المقبول، والشىء لا يبقى عند عدمه بداهة، والمنطق السليم أن كل ما صح عليه العدم له مادة، فلو جاز العدم على النفس لكانت مركبة من المادة والصورة قطعا، وذلك بديهى البطلان ضرورة أنها ليست من عالم الأجسام. وعلى هذا التقدير إذ ننظر الى الجزء المادى نجده غير قابل للعدم، وإلا لافتقر الى مادة أخرى، ولا محالة ينتهى الى مادة لا مادة لها فيكون ذلك الشىء غير قابل للفساد والعدم، وهى جزء النفس، وجزء النفس لا يصح أن ينافى مقارنة الصور العقلية، وإذا كان ذلك الجزء من النفس الذى يثبت بقاؤه مجردا عن الوضع قابلا للصور العقلية كان ذلك الجزء هو النفس، فالنفس لا يصح عليها العدم.

وقال الشيرازى صاحب حكمة الاشراق فى معرض سرد أدلة القوم على بقاء النفس بعد فساد البدن: إن النفس لو انعدمت لكان انعدامها لانعدام سببها.

والأسباب أربعة: سبب فاعلى، وسبب مادى، وسبب صورى، وسبب غائى.

وانعدامها لانعدام السبب الفاعلى مستحيل الوجود، فقد ثبت فى موضعه أن السبب الفاعلى لها جوهر عقلى مجرد مفارق، وكل ما كان مجردا من جميع الوجوه امتنع عليه العدم.

وانعدامها لانعدام السبب المادى مستحيل الوجود كذلك لما ثبت أن النفس ليست بمادية، وذلك لا يختلف فيه اثنان.

ومن المحال أن العدم ناشئ من السبب الصورى ضرورة أن الكلام فى انعدام ذلك السبب الصورى هو بعينه فى انعدام النفس ، فان كان للعدم صورة أخرى لزم التسلسل الباطل .

ومحال أيضا أن يكون انعدام النفس ناشئا عن سبب غائى ، فيمتنع مع ذلك عدم النفس إطلاقا .

لكن الصور والأعراض هى التى يجرى عليها العدم ، وذلك معقول لصحة جريان العدم على أسبابها القابلية والمادية ضرورة أن حدوثها يأتى تبعا لاختلاف الأمزجة وتباين الاستعدادات ، والأمر هنا ليس كذلك ، فثبت ما ذهب إليه القوم من التدليل على أن النفس باقية بعد خراب البدن .

بقى بعد ذلك أن المتقدمين من الفلاسفة والمتاخرين تضافروا على أن هناك بحثين كل واحد منهما مستقل عن الآخر : فأما البحث الأول فهو بقاء النفس بعد خراب البدن وانحلالها ، وأما البحث الثانى فهو أنها لا تفنى بمجرد فناء هذا البدن .

فأما البحث الأول فهو ما عنينا بالكشف عن حقيقته وتفاريعه . وأما البحث الثانى فوعدنا بالكشف عنه مع ما قبله وما هو الحق فيه وما استقر عليه رأى الشيخ الرئيس وتابعه فيه الامام الفخر الرازى بحوث تالية ، إن شاء الله ، فالى الغد القريب ؟

عباس طه

اعلان

تعلن إدارة مجلة الأزهر حضرات مشتركيها فى محافظة القاهرة وضواحيها وبندر الجيزة أنها قررت تعيين حضرة بديع القاضى أفندى وكيلا ومحصلا للمجلة فى هذه الجهات

فنرجو من حضراتهم اعتماده وتسهيل مهمته .

وعنوانه : ٨ شارع قصر الشوق — سيدنا الحسين — مصر

***

وتعلن إدارة المجلة أيضا حضرات مشتركيها بمديرية بنى سويف أنها قد اعتمدت حضرة محمود أفندى حسن القاضى وكيلا ومحصلا للمجلة بمديرية « بنى سويف » وذلك بموجب إيصالات مطبوعة وموقعا عليها منا .

فنرجو من حضراتهم اعتماده وتسهيل مهمته .

مدير مجلة الأزهر

محمد فريد وجدى

سيرة النبي صلى الله عليه وسلم — لأبي محمد عبد الملك بن هشام :

إن أبا محمد عبد الملك بن هشام هو ثانى رجل فى الاسلام وضع فى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم كتابا فى القرن الثانى من الهجرة . وأما أول واضع للسيرة المحمدية فهو أبو عبد الله محمد بن اسحق بن يسار المتوفى على الأرجح فى سنة (١٥١) . ومما يؤسف له أن سيرة ابن اسحق قد فقدت ولم يبق منها إلا ما استشهد به منها ابن هشام وغيره ، وعلى هذا فيمكن أن يعتبر كتاب ابن هشام هذا بأنه أول كتاب للسيرة النبوية .

ولسنا هنا فى حاجة لأن نقول إن هذه السيرة تعتبر أثرا تاريخيا عظيما لمن يريد أن يتتبع سلسلة الروايات الى عهد قريب من النبوة .

وقد عنى بمراجعة أصولها ، وضبط غريبها ، وتعليق حواشيها ، ووضع فهارسها ، فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد المدرس بكلية اللغة العربية ، فأجاد فى هذه الأعمال التكميلية ، وجعل للكتاب ميزة على جميع ما طبع من كتب من السيرة من المؤلفات القديمة .

وقد عنى حضرة الأستاذ العلامة محمد حسين هيكل بك فوضع لها مقدمة جليلة له تناسب قيمة الكتاب .

وقد أحسن فضيلة ناشره باهدائه لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى ، فهو أجدر الناس به .

كتاب قيم فى الاسلام :

اعتزم حضرة الأستاذ النابه عبد الرحمن العيسوى افندى صاحب مجلة (العالم الاسلامى) أن ينشر كتابا فى الاسلام تشترك فى كتابته النخبة المفكرة من كبار المسلمين . وقد أطلعنا على أسمائهم وعلى عنوانات مقالاتهم ، فوجدنا ما كتبوه يعتبر أثمن مجموعة علمية فى موضوع الدين الحنيف من نواحيه الرئيسية ، لم يحتو على مثلها كتاب قبله .

وقد توج هذه المجموعة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى بمقدمة بقلمه المبدع ، فكان أثمن تاج يوضع على رأس كتاب من هذا الطراز المبتكر .

وقد كنا نود أن نأتى على أسماء الأعلام الذين ساهموا فى الكتابة فيه وعلى عنوانات كتاباتهم لولا أن المقام لا يتسع لذلك .

فنشكر حضرة الأستاذ العيسوى افندى على اجتهاده فى استكتاب هؤلاء الفطاحل ، وليس فيهم إلا من اشتهر فى الموضوع الذى تصدى له شهرة الاخصائى فى فنه .

العظات الدينية فى الأمثال القرآنية :

ليس فى قرائنا من لا يعرف الأستاذ النابه على فكرى أفندى الأمين السابق لدار الكتب المصرية ، وليس فيهم من لم يطلع على بعض ما كتب . ولسنا فى حاجة لأن نذكر أن كتب الأستاذ كلها ممتعة قيمة ولا تعدو الموضوعات التى لها اتصال وثيق بالدين والآداب العامة والأخلاق والحكم .

بين يدينا الساعة كتاب جديد له أسماه (العظات الدينية فى الأمثال العربية) موضوعه شرح الأمثال القرآنية ، والأمثال النبوية ، والأمثال العربية ، وهى مختارة من كتاب مجمع الأمثال للميدانى مرتبة على حروف المعجم ، ويلى كل ذلك نبذة فى الأمثال العامية ، مطبقة على الآيات القرآنية ، ومرتبة أيضا كسابقتها على الحروف الأبجدية ، وطائفة أخرى من الأمثال العامية مطبقة على الأحاديث النبوية .

فهذا كتاب نفيس نضيفه الى ما سبق من وضعه ، ونثنى على همته بقدر ما بذل من جهده ، راجين الله له ثواب العاملين المخلصين .

الغرب يترجم آراء عالم مصرى :

ألف فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ طنطاوى جوهرى كتابا أسماه (أحلام فى السياسة لنشر السلام العام) فتصدى لترجمته الى الانجليزية عن العربية كاتب غربى من لوكسمبورغ يدعى (كرستيان) وقد كتب لفضيلة الاستاذ كتابا أخبره فيه بذلك ، قائلا إنه بعد أن يتمه سيرسل به اليه . ومما قاله فى كتابه : « إن كتابك عميق التفكير بعيد الغور ، وأنا دائم التفكير فيما اشتمل عليه من المعارف العالية فى علوم الفلك والطبيعة والحياة » الخ .

وإننا مع انتظارنا لهذه الترجمة استحسنا أن ننوه بهذا الأمر إدلالا على أن فى أوربا من الكتاب من تنبهوا للاقتباس من كتابات علمائنا .

معهد جديد في شبين الكوم

إن ما أفاضه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى على الجامعة الأزهرية من روح النظام والتجديد ، وما بثه فى طلبتها من فضيلة التوفر على التحصيل ، والتنافس فيه ، وظهور ثمرات ذلك جنية ناضرة ، دفعت كثيرا من الشبان لورود هذا المنهل الروى ، فازدحمت المعاهد الاقليمية بالطلاب ، وضاقت بهم الدور المتسعة ، فلم يكن هنالك من وسيلة لتفريج هذا الاكتظاظ إلا فتح معاهد جديدة ، وتعميمها فى عواصم المديريات كلما سنحت فرصة لتنفيذ هذا البرنامج الحكيم .

يخيل لبعض المفكرين أن الفائدة من تعميم هذه المعاهد الدينية لا توازى ما ينفق عليها من مال لكثرة المتخرجين فى الدين فى هذه البلاد ، واستداد أبواب العمل فى وجوه أكثرهم ، ولكن هؤلاء المفكرين ينظرون الى المسألة من أعم نواحيها ، أى من الناحية التى يشترك فيها المتخرج فى الأزهر والمتخرج فى الجامعة المصرية . فاذا صح قولهم هذا على أولئك صح على هؤلاء أيضا ، وتكون النتيجة المباشرة عدم فتح مدارس جديدة للثقافة العامة .

وقد أصابت أزمة العمل أوربا وأمريكا فلم توصدا جامعاتهما ، ولم تحدا من عدد المنتسبين اليها ، بل جرتا على الاستزادة منها حتى أن الذين يجدون لهم عملا فى الحكومة لا تبلغ نسبتهم الى عدد متخرجيها واحدا الى ألف .

ولكن لأن يصبح كل أفراد الأمة ذوى تربية عالية ، خير لهم من أن يبقوا على ماهم عليه من السذاجة الفطرية . فان الجمع بين الفاقتين العقلية والاقتصادية شر ليس بعده شر فى العالم الانسانى .

خطب الدكتور محمد علوى باشا رحمه الله فى الجمعية التشريعية فذكر فى عرض الرد على من يقترحون الحد من عدد المتخرجين فى العلوم العالية ، أن بواب العمارة التى كان يسكنها وهو طالب فى فرنسا كان طبيبا ، فكان فوق وظيفته يطبب بعض سكان العمارة فى مقابل ٢٥ سنتيما (قرش مصرى) وكان أهل العمارة يحبونه ويحترمونه .

ولو كان بواب العمارة ممن نالهم حظ من الثقافة الدينية كان ذلك فى مصلحة أولئك السكان وأبنائهم ، وليس بعاب على الرجل أن يعمل فى أى عمل شريف ، وإنما العاب أن يمكث عاطلا ، والعطل لا سبيل إليه .

أنا لا أقصد بهذا أن يتنزل أئمة الدين الى هذا الحضيض ، ولكن الذين يصلون الى درجة

النبوغ منهم قد لا يجاوزون فى السنة بضعة آحاد ، وهؤلاء ترفعهم مواهبهم الى حيث يتفق وفضلهم مهما كانت الأحوال .

وليس أعود بالخير على هذه الأمة وهى فى معمعان هذه الفتنة الالحادية ، من نشر الثقافة الدينية بكل ما يصل اليه الامكان . وإن فى النظام التعليمى الذى وضعه فضيلة المصلح العظيم ، وفى البرنامج الشامل لجميع مقومات العقلية الانسانية ، ما يكفل أن يكون علماء الدين فى مستوى يمكنهم من التفاهم مع أكبر المتخرجين فى الجامعات الأوربية فى المسائل الخاصة بالعقائد .

فهذا التوفيق العظيم الذى يحدو فضيلة الأستاذ الامام ، فى عهد حضرة صاحب الجلالة الفاروق الذى أعز الله به الدنيا والدين ، لما تسجله مجلة الأزهر فى أوجه صفحاتها فى هذا الشهر الكريم .

نكتب هذا فى مناسبة افتتاح معهد دينى جديد فى شبين الكوم . وهذه خطبة شيخه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الغيور الشيخ عبد الجليل عيسى يوم الافتتاح :

نص الخطبة

إخوانى العلماء ، أبنائى الطلاب :

فى هذا اليوم السعيد المبارك إن شاء الله ، تؤمون لأول مرة هذا المعهد الجديد ، فأهنيكم وأرحب بكم زملاء وأبناء ، وأتوكل وإياكم على الله ملهم الصواب ، وأسأله أن يسدد خطانا ، وأن يرزقنا التوفيق الى ما يحبه ويرضاه .

وأستفتح هذا العام الدراسى باسم الله الرحمن الرحيم ، وأتوجه إليه مخلصا أن يكلأ برعايته حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول ، الملك الصالح ، الذى يؤدى حق الله عليه ، وينصب نفسه مثلا أعلى للرجل المؤمن التقى ، ولا يدخر وسعا فى كل ما يرفع شأن الدين ورجاله ، وإنشاء هذا المعهد أيها الزملاء والأبناء ظاهرة من ظواهر تقواه ، وأثر من آثار حبه لدينه ، فليس من سبيل لاعلاء كلمة الدين ورفعة شأنه إلا أن يعلّم وينشر .

أيها الزملاء والأبناء : من حسن حظ هذه الأمة ، ومن حسن حظ المسلمين قاطبة ، أن يتبوأ عرش مصر الآن الملك فاروق الأول ؛ ومن حسن الحظ كذلك أن يكون شيخ الأزهر هو الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى .

ملك ديّن بطبعه ، يحب دينه ، ويقدر العاملين به ، وشيخ هو المثل الأعلى لرجل الدين ، فى خلقه ، وفى مظهره ، وفى نواياه ، كل ذلك ينتج حتما أن يأخذ التعليم الدينى مظهره اللائق به ، فيزداد ، وينتشر ، ويتيسر .

وأمامكم إنشاء هـذا المعهد المبارك ، فى هذا البلد الطيب ، فانه لخير دليل على هذا الحظ الحسن السعيد .

أيها الزملاء والأبناء : هذه مظاهر خالدة ، ونعمة كبرى ، نتوجه من أجلها بالحمد الى الله تعالى ، وبالشكر للمليك المحبوب ، وبالثناء على الأستاذ الأكبر . ولا يفوتنى وأنا فى هـذا المقام أن أنوه بما كان لحكومة جلالة الملك من فضل فى إنشاء هذا المعهد ، وكذلك ما كان لسعادة مدير المنوفية من الفضل الأكبر فى تسهيل صعابٍ ما كان من الميسور التغلب عليها لو لا ما بذله سعادته من جهود مشكورة موفقة .

والآن أحب أن أنتهز هذه الفرصة لأتحدث اليكم فى شأن من شئوننا : ذلك أننا ونحن رجال دين، يجب علينا أن نكون عند حسن ظن الناس بنا ، فنظهر بالمظهر اللائق برجال الدين ، ولا يصح أن نغفل عن أن أعين الناس تتجه الينا اتجاها خاصا ، لأننا مطالبون أن نكون مثلا صالحة فيما نقول ، وفيما نعمل .

فضعوا ذلك أمام أعينكم ، وليقبل الأستاذ بقلب مخلص على عمله ، والطالب بجد ونشاط على درسه ، لا يشغله عن ذلك شاغل ، ولا يحول بينه وبينه حائل .

أيها الزملاء والأبناء : الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ، كما أعرفه وكما يعرفه الناس جميعا ، رجل يدعو الى الخلق الكريم ، ويقول دائما : « إنى أفضل أن ينال الطالب نصيباً من الخلق أكثر مما ينال من العلم » . وذلك أن العلم وسيلة للخلق ، والخلق مقصد بذاته ، فكونوا عند مرضاته ، وساعدوه فى إنجاح رسالته ، تلقوا منه عطفا ، وتلقوا منه تأييدا .

وإنى وقد شرفنى الأستاذ الأكبر باختيارى لهـذا المعهد الناشىء ، لن أدخر وسعا فى نشر تعاليمه ، وتبليغ رسالته .

سدد الله خطانا وخطاه ، ووفقنا وإياه لما يحبه ويرضاه .

صورة البرقية التى أرسلها فضيلة شيخ المعهد الى حضرة صاحب المعالى كبير الأمناء :

حضرة صاحب المعالى كبير الأمناء :

فى هذا اليوم المبارك السعيد افتتح معهد شبين الكوم الدينى ، وأمه مئات الطلاب ، فرحين مستبشرين بأول معهد دينى فى عهد الملك الصالح ، داعين الله تعالى أن يكلأ بعين رعايته حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول ، جزاء على جميل رعايته لرجال الدين ، وشريف اتجاهه الى نشر التعليم الدينى ، مهذب النفوس ، وغذاء الأرواح .

ويشرفنى أن أقوم بالأصالة عن نفسى ، وبالنيابة عن العلماء والطلاب ، برفع أسمى آيات

الاخلاص والولاء وخالص الدعوات ، أن يحرس الله ذات المليك المحبوب ناصرا للدين وعزا له ، وأن يبقيه ذخرا وملاذا لشعبه المتفانى فى حبه ، ولسائر الشعوب الاسلامية التى تعلق على جلالته آمالا كبارا فى الأخذ بيدها وإسعادها ؟ شيخ معهد شبين الـكوم

فورد الى فضيلته الرد التالى من معالى كبير الأمناء :

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى شيخ معهد شبين الـكوم :

أتشرف بابلاغ فضيلتكم وحضرات علماء المعهد وطلابه الشكر السامى على ما أعربتم عنه لحضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم من الولاء والاخلاص وصادق التمنيات بمناسبة افتتاح المعهد ؟ كبير الأمناء

وقد رأى فضيلة شيخ المعهد أن يرسل الى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الوزراء هذه البرقية :

حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس الوزراء :

بمناسبة افتتاح معهد شبين الـكوم الدينى اليوم ، أقدم لمقامكم الرفيع بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن العلماء والطلاب أخلص الشكر على ما تعهدتم به هـذا المعهد من العناية حتى تم افتتاحه فى مدة وجيزة ، مما يدل على جميل عنايتكم بالدين وأهله ؟

شيخ معهد شبين الـكوم

وعزز فضيلته هاتين البرقيتين بثالثة أرسلها لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام وهى :

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر :

بقلب يفيض بالسرور ، ونفس تتيه بالفخر ، أرفع لفضيلتكم بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن العلماء والطلاب أخلص التهانى بافتتاح معهد شبين الـكوم ، الذى هو ثمرة من ثمار برك بالعلم والدين ، وأثر من آثار رغبتك الصادقة فى إعلاء شأن الأزهر والأزهريين ، ورفع شأن الاسلام والمسلمين ، بتمهيد سبل العلم وتيسيره .

وإن الله الذى خصك باخلاص ناصع ، وهمة وثابة ، وقلب عامر بأكبر الآمال لخير العلم والدين ، هو الذى يتولى جزاءك بما يجزى به عباده المخلصين ؟

شيخ معهد شبين الـكوم

بسم الله الرحمن الرحيم

لماذا هو ملحد ؟

إن انتشار العلوم الطبيعية ، وما تواضعت عليه الأمم المتمدنة من إطلاق حرية الكتابة والخطابة للمفكرين فى كل مجال من مجالات النشاط العقلى ، استدعت أن يتناول بعضهم البحث فى العقائد ، فنشأت معارك قامية بين المثبتين والنافين تمحصت بسببها حقائق ، وتبينت طرائق ، وآمن من آمن عن بينة ، وألحد من ألحد على عهدته .

ونحن الآن فى مصر ، وفى بحبوحة الحكم الدستورى ، نسلك من عالم الكتابة والتفكير هذا المنهاج نفسه ، فلا نضيقن به ذرعا مادمنا نعتقد أننا على الحق المبين ، وأن الدليل معنا فى كل مجال نجول فيه . وإن هذا التسامح الذى يُدَّعى أنه من ثمرات العصر الحاضر ، هو فى الحقيقة من نفحات الاسلام نفسه ، ظهر به آباؤنا الأولون أيام كان لهم السلطان على العالم كله . فقد كان يجتمع المتباحثون فى مجلس واحد بين سنى ومعتزلى ومشبه ودهرى الخ فيتجاذبون أطراف المسائل المعضلة ، فلم يزدد الدين حيال هذه الحرية العقلية إلا هيبة فى النفوس ، وعظمة فى القلوب ، وكرامة فى التاريخ .

هذه مقدمة نسوقها بين يدى نقد نشرع فيه لرسالة ترامت الينا بعنوان : (لماذا أنا ملحد) ، نشرها حضرة الدكتور اسماعيل أحمد أدهم فى مجلة الامام الصادرة فى أغسطس سنة ١٩٣٧ ثم أفردها فى كراسة تعميما للدعوة .

بدأ الدكتور رسالته بقوله : إنه ابن ضابط تركى محافظ على دينه وأمه مسيحية هى بنت البروفسور وانتهوف المشهور . ولما كان أبوه لاشتغاله بالحروب لم يتفرغ لتربيته ، كلف زوج عمته أن يهيمن على تثقيفه ، فقام بذلك على أسلوبه ، حتى اضطره لحفظ القرآن .

قال الكاتب فى هذا الموطن : « غير أنى خرجت ساخطا على القرآن لأنه كلفنى جهدا كبيرا كنت فى حاجة الى صرفه الى ما هو أحب الى نفسى منه . وكان كل ذلك من أسباب التمهيد لثورة نفسية على الاسلام وتعاليمه . ولكنى كنت أجد من المسيحية غير ذلك . فقد كانت شقيقتاى — وقد نالتا قسطا كبيرا من التعليم فى كلية الامريكان بالآستانة — لا تثقلان على بالتعليم الدينى المسيحى ، وكانتا قد درجتا على اعتبار أن كل ما تحتويه التوراة والانجيل

ليس صحيحا ، وكانتا تسخران من المعجزات ويوم القيامة والحساب ، وكان لهـذا كله أثر فى نفسيتى » .

وبين سنة ١٩١٩ و١٩٢٣ قرأ الدكتور كتاب دارون وخرج منه مؤمنا بالتطور ، ونزح والده الى الاسكندرية وأخذيتولى ابنه بالعناية ، ويفرض عليه الاسلام والصلاة . قال الدكتور : «إنى ثرت على هذه الحالة وامتنعت عن الصلاة ، وقلت له إنى لست بمؤمن ، أنا درونى أؤمن بالنشوء والارتقاء ، فـكان جوابه على ذلك أن أرسلنى الى القاهرة ، وألحقنى فيها بمدرسة داخلية ليقطع على أسباب المطالعة » . كل هذا ولم تتجاوز سنه الرابعة عشرة .

وفى سنة ١٩٢٧ غادر مصر وشخص الى تركيا والتحق بجامعتها ، فدرس الرياضيات ، وأسس مع بعض إخوانه جماعة لنشر الالحاد ، فـكانوا يصدرون نشرات فى كل منها ٦٤ صفحة .

ثم التحق بجامعة موسـكو وحصل منها على شهادة الدكتوراه فى الرياضيات ، ثم حصل على دكتوراه فى العلوم والفلسفة . قال : « وكانت نتيجة هذه الحياة أنى خرجت عن الأديان ، وتخليت عن كل المعتقدات ، وآمنت بالعلم وحده ، وبالمنطق العلمى ، وأشد ما كانت دهشتى وعجبى أنى وجدت نفسى أسعد حالا ، وأكثر اطمئنانا ، من حالتى حينما كنت أغالب نفسى للاحتفاظ بمعتقد دينى » .

الدخول الى موضوع البحث :

قال الدكتور فى رسالته :

« إن الأسباب التى دفعتنى للتخلى عن الايمان بالله كثيرة ، منها ما هو علمى بحت ، ومنها ما هو فلسفى صرف ، ومنها ما هو بين بين ، ومنها ما يرجع لبيئتى وظروفى ، ومنها ما يرجع لأسباب سيكولوجية .

« وقبل أن أعرض للأسباب لابد لى من استطراد لموضوع إلحادى ، فأنا ملحد ونفسى ساكنة لهذا الالحاد ومرتاحة إليه . فأنا لاأفترق من هذه الناحية عن المؤمن المتصوف فى إيمانه . نعم لقد كان إلحادى بداءة ذى بدء مجرد فـكرة تساورنى ، ومع الزمن خضعت لها مشاعرى فاستولت عليها ، وانتهت من كونها فكرة الى كونها عقيدة . ولى أن أتساءل : ما معنى الالحاد ؟

« يجيبك لودفيج بخنر ، زعيم ملاحدة القرن التاسع عشر : (الالحاد هو الجحود بالله وعدم الايمان بالخلود والارادة الحرة) . والواقع أن هذا التعريف سلبى محض ، ومن هنا لا أجد بدا من رفضه . والتعريف الذى أستصوبه وأراه يعبر عن عقيدتى كملحد هـو : (الالحاد هو الايمان بأن سبب الـكون يتضمنه الـكون فى ذاته ، وأن ثمة لا شىء وراء هذا العالم) . ومن مزايا هذا التعريف أن شقه الأول إيجابى محض ، بينما لو أخذت وجهته السلبية لقام دليلا على عدم وجود الله ، وشقه الثانى سلبى يتضمن كل ما فى تعريف بخنر من معان » . انتهى

نقول : إن قوله إن الأسباب التى دفعته للتخلى عن الايمان منها ما هو علمى ومنها ما هو فلسفى ، قول لا نراه وجيها ، فقد اعترف العلماء أن العلم يعجز عن إقامة دليل على نفى الصانع . وليس من وظيفة العلم البحث فيما وراء المحسوسات ، والحكم بوجود شىء أو نفيه مما وراءها إلا إذا كان له فى تلك المحسوسات أثر يستهدى به .

والمعركة القائمة بين العلماء المثبتين للصانع والنافين له ، تنحصر فى أن الأولين يحتجون بوجود هذا الابداع التكوينى والاستدلال به على وجود القدرة المبدعة ، وأن الآخرين يدعون بأن هذا الابداع سببه وجود نواميس طبيعية منتظمة ملازمة للمادة تكفى لايصال الكائنات فى آماد طويلة الى هذه الدرجة العالية من الابداع ، دون الحاجة الى عقل مدبر سواها . وهذا كما لا يخفى موقف سلبى واهن يحتاج الآخذ به للاعتماد على تحكمات افتراضية ليست من العلم فى شىء .

وأما الفلسفة وهى تناول الأمور بالنظر والتفكير ، فهى كما تكون سببا فى الالحاد تكون سببا فى الايمان ، ناهيك أن أعلام الفلاسفة أكثرهم مؤمنون .

أما ما هو بين بين فيظهر أنه يريد به الخلط بين العلم والفلسفة ، كما يفعل أصحاب الفلسفة الطبيعية ، وهى لا تصلح أن تكون مصدرا (لإيمان إلحادى) ، لأن العلم الذى يستندون اليه لايزال فى دور التكمل ، فقد كانوا يقولون بوجود جواهر فردة مادية ، واليوم ثبت أن المادة تنتهى لقوة . وكانوا يدعون أن الحواس هى أصدق المصادر للعلم ، وقد ثبت أنها لا تكفى لبنائه على أساس متين . وقد كانوا يقولون بأن أساس الكائنات عناصر أربعة هى الماء والتراب والهواء والنار ، ففوجئوا قبل نحو مائة وخمسين سنة بأن هذه الكائنات ليست بسيطة ولكنها مركبة ، وأن العناصر التى آلت اليها ربما كانت مركبة هى أيضا من عناصر أبسط منها .

وكانوا لايتخيلون وجود أشعة غير ما تتأثر به العين ، فاذا بهم حيال أشعة تخترق الأجسام الصلبة ، وتعمل فى الأجسام عمل المواد الشديدة التأثير . حتى إن أشعة الراديوم قتلت مكتشفها الأستاذ (كورى) الفرنسى ، وقتلت غيره من الباحثين فيها ، وأحرقت وجوه وصدور عدد كبير منهم .

بقى ما عبر عنه الكاتب بأحوال البيئة والظروف ، وبأسباب بسيكولوجية . وهذه فى نظرنا هى الأسباب الحقيقية فى تكوين فكرة الالحاد عنده ، فانه ذكر فى تاريخ حياته أن أباه كان مسلما محافظا ، وأن أختيه كانتا تلقنانه الدين المسيحى ، وفى الوقت نفسه كانتا تهزآن بخوارق الكتب المسيحية ، وبخلود الروح فى الحياة الآخرة . وأن زوج عمته كان يرغمه على الصلاة وحفظ القرآن . فهذه كلها عوامل تقذف بنفسية الطفل من الشذوذ الى مكان بعيد .

ولا عجب لنفس يحكم عليها أن تكون فى وسط هذا التناقض ولا تشعر بانقباض شديد يحملها على طلب المخرج منه . فلما أتته نظرية الالحاد وجد فيها الراحة التامة لضميره ، والثلج الكلى لصدره ، فأخذ بها وتحمس لها .

لقد عاب الدكتور على بوخنر تعريفه للالحاد ، وجاءه بتعريف له أكمل منه . فقال : إن الالحاد هو الايمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون فى ذاته ، وأن ليس ثمة شىء وراء هذا العالم .

وهذا تعريف معلول لا يصح فى عرف العلم ولا فى عرف أية فلسفة فى الأرض ، وبخاصة لأهل هذا العصر ، واليك البيان :

إن القول بأن سبب الكون يتضمنه الكون فى ذاته ، لا يمكن أن يعدو كونه رأيا ، ولما كان الدكتور يكلمنا وهو فى مجال العلم ، فانا نسأله كيف يمكن فى عرف العلم أن يولد الرأى إيمانا راسخا لا يقبل المناقشة ؟

نعم إن المشاهد أن كل ظاهرة طبيعية ، تحدثها علة طبيعية . ومن هنا يتخيل من يبحث بحثا سطحيا فى عالم الوجود أن علله ذاتية فيه ، ولكن العقول اجتازت هذه العقبة فرأت أن هذه العلل الجزئية لا يتأتى أن تكون معلولاتها منتظمة إلا إذا كانت كلها متنزلة من علة رئيسية ، تصدر عن تدبير سابق للحوادث .

قال العلامة السير وليم كروكس وهو من أقطاب العلم العصرى وقد تولى رياسة المجمع العلمى البريطانى ، قال فى خطبة له (١) :

« الكون كله على ما ندركه نتيجة الحركات الذرية ، وهذه الحركات تنطبق كل الانطباق على ناموس حفظ القوة ، ولكن ما نسميه ناموسا طبيعيا هو فى الحقيقة مظهر من مظاهر الاتجاه الذى يعمل على موجبه شكل من أشكال القوة . ونحن نستطيع أن نعلل الحركات الذرية كما نعلل حركات الأجرام الجسمية ، ونستطيع أن نكتشف جميع النواميس الطبيعية للحركة ، ولكنا مع ذلك لا نكون أقرب مما كنا عليه الى حل أهم مسألة وهى : أى نوع من أنواع الارادة والفكر يمكن أن يوجد خلف هذه الحركات الذرية ، مجبرا لهذه الحركات على اتباع طريق مرسوم لها من قبل ؟ (تأمل) . وما هى العلة العاملة التى تؤثر من خلف هذه الظواهر (وفى الأصل من وراء ستار المسرح) ، وأى ازدواج من الارادة والفكر (تأمل) يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات خارجا عن نواميسنا الطبيعية بحيث يحملها على تكوين هذا العالم المادى الذى نعيش فيه ؟

« فاسمحوا لى أن أستنتج من هذا الفهم أنه يستحيل علينا أن نتخيل مقدما الأسرار التى يحتويها الكون ، والعوامل الدائبة على العمل فيما حولنا » انتهى .

(١) راجع مجموعة خطب السير وليم كروكس صفحة ٣٦ .

هذا رأى العلامة الكيماوى والرياضى الكبير وليم كروكس ، وهو من الرجال القلائل الذين تضطرهم تجاربهم أن يطلعوا على عمل النواميس كل يوم ، فهم أقرب اليها ممن عداهم ممن يكتبون ولا يعملون . وقد رأيت أنه يأبى أن يسلم بكفاية النواميس لا يجاد الكون وحفظه على ماهو عليه ، فأظهر الحيرة فى فهم كنه تلك (الارادة) وذلك (الفكر) الذى يعمل من ورائها .

وهو ليس يقول هذا القول متابعة لوهم أو وراثة دينية عنده ، ولكن تجاربه اضطرته اليه ، فقد نص على ذلك نصا فى خطبة له فى المجمع العلمى البريطانى ، جاء فى صفحة ٨ من مجموع خطبه :

« متى امتحنا من قرب بعض النتائج العادية للظواهر الطبيعية ، نبدأ بادراك الى أى حد هذه النتائج أو النواميس كما نسميها ، محصورة فى دائرة نواميس أخرى ليس لنا بها أقل علم ؟ أما أنا فان تركى لرأس مالى العلمى الوهمى قد بلغ حدا بعيدا . فقد تقبض عندى هذا النسيج العنكبوتى للعلم ، كما عبر بذلك بعض المؤلفين ، الى حد أنه لم يبق منه إلا كرة صغيرة تكاد لا تدرك » .

إذا كان هذا حال أقطاب العلم من الحيرة إزاء علل حدوث الكائنات ؛ فمن أية الآفاق يتنزل (الايمان بالالحاد) الذى يذكره الدكتور صاحب الرسالة على قلب باحث فيه ؟ لا نشك فى أنه يتسرب اليه من ناحية السذاجة العلمية ، وقد نص على هذه الحقيقة الرياضى المشهور (هنرى بوانكاريه) الذى يعتقد فيه حضرة الكاتب الامامة فى العلم ، قال فى كتاب العلم والافتراض صفحة ١ :

« الحقيقة العلمية فى نظر المشاهد السطحى تعتبر خارجة عن متناول الشكوك ، وعنده أن المنطق العلمى غير قابل للنقض ، وأن العلماء وإن أخطأوا أحيانا فلا يكون ذلك إلا لأنهم لم يراعوا قواعده . والحقائق الرياضية فى نظره تشتق من عدد قليل من القضايا الجلية الواضحة بسلسلة من الأدلة المنزهة عن الخطأ ، وهى واجبة ، فى رأيه ، ليس علينا فقط ولكن على الطبيعة أيضا (تأمل) ....

ثم قال : «هذا هو أصل الثقة العلمية لناس كثيرين من أهل الدنيا ، وللتلاميذ الذين يتلقون مبادىء علم الطبيعة ، وهاهو جهد فهمهم للدور الذى تؤديه التجربة والرياضيات ، وها هو أيضا غاية فهم كثير من العلماء الذين كانوا يحلمون منذ مائة سنة أن يبنوا العالم باستخدام أقل ما يمكن من المواد المستمدة من التجربة .

« ولكن لما تروى العلماء قليلا لاحظوا مكان الافتراضات من هذه العلوم ، ورأوا أن الرياضى نفسه لا يستطيع الاستغناء عنها ، وأن التجربة لا تستغنى عنها كذلك . حينذاك سأل بعضهم بعضا هل كانت هذه المبانى العلمية على شىء من المتانة ، وتحققوا أن نفخة واحدة تكفى لجعل عاليها سافلها . فمن ألحد على هذا الوجه (تأمل) صار سطحيا أيضا » انتهى .

فمن أية السبل يأتى الايمان برأى من الآراء الالحادية لباحث فى الطبيعة ؟ فتعريف الدكتور كاتب المقالة بأن الايمان بوجود سبب الكون فى الكون ذاته ، وأن ليس ثمة شيء وراء هذا العالم ، تعريف معيب من الناحية العلمية المحضة ، وأدخل منه فى العيب قوله : « فأنا لا أفترق من هذه الناحية (يريد ناحية الالحاد) عن المؤمن المتصوف فى إيمانه » . فهذا تعبير بعيد كل البعد عن التحوط العلمى . فان العالم يجب أن لا يكون واقفا هذا الموقف حيال مدركات يقول عنها مثل (هنرى بوانكارى) إن نفخة واحدة تكفى لجعل عاليها سافلها ، وتاريخ العلم يبرر هذا التحفظ .

هل كان الفيلسوف (كنت) ملحدا ؟

نقل الدكتور كاتب الرسالة عن الفيلسوف الألمانى (كَنْت) قوله : « إنه لا دليل عقلى أو علمى على وجود الله ، وإنه ليس هنالك من دليل عقلى أو علمى على عدم وجود الله » . ثم قال الدكتور عقب ذلك :

« وهذا القول الصادر عن أعظم فلاسفة العصور الحديثة وواضع الفلسفة الانتقادية ، يتابعه فيه جمهرة الفلاسفة . وقول (عمانويل كانت) لا يخرج عن نفس ما قاله لوقريتوس الشاعر اللاتينى منذ ألفى سنة » .

وأنا أقول : لا أظن أن الدكتور صاحب الرسالة يجهل تاريخ الفيلسوف الذى يصفه بأنه أعظم فلاسفة العصور الحديثة ، إن هذا الفيلسوف كان من أكبر المؤمنين بالله وبالروح وخلودها من طريق التحليل العلمى والفلسفى . جاء عنه فى قاموس لاروس ما يأتى :

« شرع الفيلسوف كَنْت فى إصلاح مجموع المعارف الانسانية ، فبدأ عمله على أسلوب التشكك ، وبنى عليه الوصول الى الحق اليقين بواسطة العقل العملى ، والناموس الأدبى ، واستنتج من ذلك وجود الخالق وخلود الروح » .

وهذا ما تعرفه الفلسفة عنه ، فمن أين أتى حضرة الدكتور بأنه قال إنه لا دليل سواء أكان عقليا أم علميا على وجود الله ؟ لا أستطيع أن أقول إنه تقوّل عليه ، ولكنى أقول إنه اقتضبه اقتضابا من كلامه فأوهم غير ما يرمى إليه الفيلسوف من مراده .

ثم عقب الدكتور على ذلك بقوله :

« الواقع الذى ألمسه أن فكرة الله فكرة أولية ، وقد أصبحت من مستلزمات الجماعات منذ ألفى سنة ، ومن هنا يمكننا بكل اطمئنان أن نقول إن مقام فكرة الله الفلسفية أو مكانها فى عالم الفكر الانسانى لا يرجع لما فيها من عناصر القوة الاقناعية الفلسفية وإنما يعود لحالة

يسميها علماء النفس التبرير Racionation ، ومن هنا فانك لا تجد لـكل الأدلة التى تقام لأجل إثبات وجود السبب الأول قيمة علمية أو عقلية . ونحن نعـلم مع علماء الأديان والعقائد أن أصل فكرة الله تطورت عن حالات بدائية ، وأنها شقت طريقها لعالم الفكر من حالات وهم وخوف وجهل بأسباب الأشياء الطبيعية ، ومعرفتنا بأصل فـكرة الله تذهب بالقدسية التى نخلعها عليها » انتهى .

ونحن نقول : إن هذا الـكلام ليس عليه أقل عبقة من اللهجة العلمية ، كأن كاتبه لم يقرأ تاريخ العالم ولا تاريخ العلم . فان قوله إن العقيدة بالله أصبحت من مستلزمات الجماعات منذ ألفى سنة ، خطأ عظيم ، فان هذه العقيدة صحبت الانسان منذ نشوئه ، حتى قال المنقبون فى الحفريات إنهم لم يشاهدوا آثارا تحت الأرض لجماعة من الجماعات المتغلغلة فى القدم تدل على أنها كانت لا تدين لدين ما . ولـكن الأمر على العـكس ، فان كل الآثار التى عثروا عليها تدل على وجود العقيدة لدى تلك الجماعات .

فما معنى قول الـكاتب بعـد هذا التقرير العلمى إن العقيدة بالله لم تصبح من مستلزمات الجماعات إلا منذ ألفى سنة ؟ إن الأحجار المنقوشة فى الهنـد والصين ومصر وغيرها تدل على أن تلك الأمم قبل ستة آلاف سنة كانت متدينة على أشد ما يمـكن أن يكون ، وكان للدين السلطان المطلق عليها حتى كان الحـكم فيها قبل نشوء الملـكية للـكهنة والرهابين .

وأما قوله : إن مقام فكرة الله الفلسفية أو مكانها من عالم الفكر لا يرجع لما فيها من عناصر القوة الاقناعية ، وإنما يعود لحالة يسميها علماء النفس التبرير .

فنرد عليه بأنه إذا كانت العقيدة الالهية تسلطت على عقول الناس من أقدم العصور ، حتى عقول العلماء وكبار المفكرين ، يمكن أن توصف بأنها مجردة من عناصر القوة الاقناعية ، فأى عقيدة بعـد ذلك يتصور أن تكون حاصلة على تلك القوة ؟

إن العقيدة بالله تقوم على أقوى البداهات العقلية ، وأعظمها سلطانا على النفس البشرية ، ويزيدها الشعور الوجدانى الذى لا سبيل الى عـدم الاعتداد به . ذلك أن كل إنسان سأل نفسه بالفطرة : ماذا أنا ، وأى شىء أوجدنى وأوجد هذا العالم ؟ وكل إنسان وجد الجواب العقلى والوجدانى عقب هذا السؤال كما يأتى : لا بد أن يكون قد أوجدنى موجد قادر وهو نفسه الذى أوجد هذا العالم أيضا .

هذه كانت البداهة العقلية والوجدانية التى لا تعارض ، ولـكن الفلسفة منذ نحو ألفين وخمسمائة سنة هى التى حاولت أن تتشكك فى هذه البداهة ، فحاولت تعليل وجود الخليقة بذاتها بغير حاجة لموجد أزلى حكيم . ورغما عما بذلته تلك الفلسفة المادية منذ تلك القرون من الجهود

الشاقة فانها لم تتوصل أن تفتن إلا عقولا قليلة ، وبقيت جماهير الخليقـة تحت سلطان تلك العقيدة ، بل بقيت عقول تعتبر من أرقاها طرازا تحت ذلك السلطان نفسه .

فهل يعقل أن وضعة الفلسفة : فيثاغورس وسـقراط وأفلاطون وأرسطو ، وكل من جاء بعدهم الى العصور الحديثة من صاغة الأصول الأولية ، أمثال بيكون واضع الدستور العلمى ، وديكارت مصلح الفلسفة ، وعمانويل كنت منقح العلوم الانسانية ، وروسو وفولتير إمامى النقد الفلسفى ، وبرغسون زعيم الفلسفة الوجدانية فى العصر الحاضر ، هل يعقل أن هذه العقول الجبارة كلها لم تدرك أن فكرة الله وهمية باحتة ، وأنها مجردة من عناصر القوة ؟

اللهم إن أحداً لم يجرؤ على اتهام هؤلاء وأمثالهم بالغباوة الى الحد الذى يدفعهم اليه صاحب رسالة (لماذا أنا ملحد) .

قال حضرة الدكتور فى تلك الفقرة : إن كل الأدلة التى تقام لأجل إثبات السبب الأول ليس لها قيمة علمية أو عقلية.

نقول : كيف يمكن أن يروج مثل هذا القول فى العقول ، والبحث عن السبب الأول أمر لا بد منه ، وإثبات وجوده لا معدى عنه فى عصر من العصور ، وإن كان بعضهم يعتقد بأن هذا السبب قادر حكيم ، وبعضهم يراه وجودا ماديا محضا . فان كان مراده أن يقول إن إثبات أن ذلك السبب قادر حكيم ليس له قيمة علمية أو عقلية ، فذلك حكمه الشخصى ، ولـكن جميع من ذكرناهم من وضعة الفلسفة ومصلحيها قد رأوا أن لها أعظم قيمة علمية وعقلية ، وأثبتوها فى مؤلفاتهم الخالدة . والعقول بطبيعة الحال تنساق وراء كبار الأعلام فى هذا الشأن ، وهو نفسه لا يستطيع أن يصفهم بغير هذا الوصف ، فقد ذكر واحدا منهم وهو (عمانويل كنت) فوصفه بأنه أعظم فلاسفة العصور الحديثة ، وواضع الفلسفة الانتقادية ، وقد أثبتنا لك بنص تاريخى أنه توصـل على أسلوبه النقدى الى إثبات الله وخلود النفس ، وله فى ذلك كلام ممتع . وقس عليه سواه ممن ذكرناهم هنا .

وقال الدكتور فى تلك الفقرة أيضا : إن أصل فكرة الله تطورت عن حالات بدائية ، وإن الذى ولدها للانسان الخوف والجهل بأسباب الأشياء الطبيعية ، وإن معرفتنا بأصل فكرة الله تذهب بالقدسية التى كنا نخلعها عليها .

نقول : أما أن هذه الفكرة قد تطورت فهذا لا يستدعى العجب ، فان الجاهل يخلع على تصوراته خلعة من أوهامه وأهوائه ، وكلما ازداد علما أزال طائفة من تلك الأوهام والأهواء حتى ينتهى الى إزالتها كلها وتبقى العقيدة خالصة من كل شائبة .

فأى بأس فى هذا على قدسية هـذه العقيدة ؟ أليس هذا كان حال الانسان من جهة العلم والحكمة والحق والعـدل والشرف والكرامة الخ ، مما يضحى الانسان حياته فى سبيله ؟ فهل

يسقط من قدسية العلم والحكمة أنهما تطورا فى عقل الانسانية من حالات بدائية ؟ وهل لهذا السبب يجب علينا أن ننكر وجود العلم والحكمة وكل هذه الحالات الكريمة ؟

وهل أعلام العلم والفلسفة ممن ذكرناهم ، ويطول ذكر غيرهم ، لم يدركوا أن تطور فكرة الله تذهب بقدسيتها كما أدركها الدكتور كاتب الرسالة ، فلم لم يحتقروا هذه الفكرة لهذا السبب وكلهم أفاض فى ذكر الأطوار التى دخلت فيها على مدى العصور والأجيال ؟

هل السبب الأول للكائنات هو الخبط والاتفاق ؟

قال الدكتور كاتب الرسالة : « إن العالم الخارجى ــ عالم الحادثات ــ يخضع لقوانين الاحتمال Probability ، فالسنة الطبيعية لا تخرج عن كونها إشمال القيمة التقديرية التى يخلص بها الباحث من حادثة على ما يماثلها من الحوادث . والسببية العلمية لا تخرج فى صميمها عن أنها وصف لمجرى سلوك الحوادث » .

ثم ذكر أنه عمل مذكرة بهذا الموضوع لمعهد الطبيعيات الألمانى عن المادة وبنائها الكهربائى وقال : « وفى هذه المذكرة أثبتُّ أن الاحتمال هو قرارة النظر العلمى للذرة ، فاذا كان كل ما فى العالم يخضع لقانون الاحتمال فانى أمضى بهذا الرأى الى نهايته ، وأقرر أن العالم يخضع لقانون الصدفة » .

ثم قال : « ولكن ما معنى الصدفة والتصادف ؟

« يقول هنرى بوانكاريه فى أول الباب الرابع من كتابه Science et méthode فى صدد كلامه عن الصدفة والتصادف : « إن الصدفة تخفى جهلنا بالأسباب ، والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب » .

« والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه فى اعتقاده . ثم قال : « غير أنى من وجهة رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا ، معنى دقيقا بث للمرة الأولى فى تاريخ الفكر الانسانى فى كتابى (Mathematic und physik) ج ٢ فصل ٧ »

ثم مثل لنظريته بمثال فقال :

« لنفرض أن أمامنا زهر النرد ونحن جلوس حول مائدة ، ومعلوم أن لكل زهر ستة أوجه .

ثم قال : « وبما أن كل واحد من هذه الأوجه محتمل مجيئه إذا رمينا زهر النرد ، فان مبلغ الاحتمال لهذه الأوجه يحدد معنى الصدفة التى نبحثها .

ثم قال : « فمثلا لو فرضنا أن الدش أتى مرة واحدة من ٣٦ مرة ، أعنى بنسبة ١ : ٣٦ مرة ففى الواقع نحن نكون قد كشفنا عن صلة إمكان بين زهر النرد ومجىء الدش ، وهذا قانون لا يختلف عن القوانين الطبيعية فى شىء .

« اذاً يمكننا أن نقول أن الصدفة التى تخضع العالم لقانون عددها الأعظم ، تعطى حالات إمكان . ولما كان العالم لا يخرج عن مجموعة من الحوادث ينتظم بعضها مع بعض فى وحدات وتتداخل وتتناسق ثم تنحل وتتباعد لتعود من جديد لتنتظم . . . وهكذا خاضعة فى حركتها هذه لحالات الأمكان الذى يحددها قانون العدد الأعظم الصدفى ، ومثل العالم فى ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الأبجدية مليون حرف ، وقد أخذت هذه فى الحركة والاصطدام ، فتجتمع وتنتظم ثم تتباعد وتنحل هكذا فى دورة لا نهائية ، فلا شك أنه فى دورة من هذه الدورات اللانهائية لابد أن يخرج هذا المقال الذى تلوته الآن ، كما أنه فى دورة أخرى من دورات اللانهائية لا بد أن يخرج كتاب (أصل الأنواع) ، وكذا (القرآن) مجموعا منضدا مصححا من نفسه ، ويمكننا إذن أن نتصور أن جميع المؤلفات التى وضعت ستأخذ دورها فى الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان فى اللانهاية ، فاذا اعتبرنا (ح) رمزا لحالة احتمال و (ص) رمزا للانهاية ، كانت المعادلة الدالة على هذه الحالات :

ح : ص

« وعالمنا لا يخرج عن كونه كتابا من هذه الكتب ، له وحدته ونظامه وتنضيده ، إلا أنه تابع لقانون الصدفة الشاملة » انتهى .

ونحن نقول : إذا كان القارىء سواء أكان باحثا طبيعيا أم عالما رياضيا قد آنس فى كلام الدكتور كاتب الرسالة غرابة وخروجا عن المألوف ، ومنافاة لكل مانقل عن أقطاب العلوم ، وأركان الرياضيات ، فان الدكتور نفسه يعترف بذلك ، فهو يقول إن نظريته هذه مبتكرة ظهرت فى عالم التفكير العلمى لأول مرة ، فقد قال : « إنى من وجهة رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا ، معنى دقيقا بث للمرة الأولى فى تاريخ الفكر الانسانى فى كتابى (mathematik und plysik) ج ٢ فصل ٧ »

قال ذلك عقب إيراده قول العلامة الكبير (هنرى بوانكاريه) الفرنسى وهو قوله : « إن الصدفة تخفى جهلنا بالأسباب ، والركون للمصادفة اعتراف بالقصور عن تعرف هذه الأسباب »

وعقّب على كلمة الأستاذ بوانكاريه بقوله : « والواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه فى اعتقاده » .

وهذا اعتراف من الدكتور بأن كل العلماء متفقون على أن لاخبط ولا اتفاق فى حوادث الكون ، ولكن الدكتور وحده قد أدرك أنهم كلهم واهمون ، وأن الخبط أو كما يسميه (الصدفة) هى الناموس الاعظم الذى أوجد الكون ، وهى التى تسود جميع انقلاباته الى اليوم.

ولما كان الدكتور يعتبر نفسه صاحب مذهب جديد فى العلم ، فهو لا يخشى أن يعرض للقراء آراء كبار الرياضيين المناقضين له . فنقل عن العلامة العبقرى اينشتين أكبر أعلام الرياضيات فى هذا العصر قوله :

« مثلنا إزاء العالم مثل رجل أتى بكتاب قيم لا يعرف عنه شيئا ، فلما أخذ فى مطالعته وتدرج من ذلك لدرسه ، وبان له مافيه من أوجه التناسق الفكرى ، شعر بأن وراء كلمات الكتاب شيئا غامضا لا يصل لكنهه ، هذا الشىء الغامض الذى عجز عن الوصول إليه هو عقل مؤلفه ، فاذا ما ترقى به التفكير ، عرف أن هذه الآثار نتيجة لعقل إنسان عبقرى أبدعه . كذلك نحن إزاء العالم ، فنحن نشعر بأن وراء نظامه شيئا غامضا لا تصل الى إدراكه عقولنا ، هذا الشىء هو الله » .

ونقل أيضا عن العلامة الجليل السير (جيمس جينز) الفلكى الانجليزى قوله :

« إن صيغة المعادلة التى توحد الكون هى الحد الذى تشترك فيه كل الموجودات ، ولما كانت الرياضيات منسجمة مع طبيعة الكون كانت لبابه . ولما كانت الرياضيات تفسر تصرفات الحوادث التى تقع فى الكون ، وتربطها فى وحدة عقلية ، فهذا التفسير والربط لا يحمل إلا على أن طبيعة الأشياء رياضية ؛ ومن أجل هذا لامندوحة لنا أن نبحث عن عقل رياضى يتقن لغة الرياضة يرجع له هذا الكون . هذا العقل الرياضى الذى نلمس آثاره فى الكون هو الله » .

نقل الدكتور هذين القولين وعقب عليهما بقوله : « وأنت ترى أن كليهما (والأول من أساطين الرياضيات فى العالم ، والثانى فلكى ورياضى من القدر الأول) عجز عن تصور حالة الاحتمال الخاضعة لقانون الصدفة الشاملة ، والتى يتبع دستورها العالم ، لا لشىء إلا لتغلب فكرة السبب والنتيجة عليهما » .

وقد سبق له أن نقل رأى الرياضى الفرنسى الكبير (هنرى بوانكارى) فى نكران الخبط والاتفاق (أى الصدفة) .

وعقب عليه بقوله : « الواقع أن كل العلماء يتفقون مع بوانكاريه فى اعتقاده ، غير أنى من وجهة رياضية أجد للصدفة معنى غير هذا ، معنى دقيقا بث للمرة الأولى فى تاريخ الفكر الانسانى » .

فاذا كان الأمر كما ذكر فيكون من العبث المحض أن ننقل اليه آراء رياضى العالم كله فى إنكار وجود الخبط فى الطبيعة ، وفى أنها قائمة على نظام حكيم ، فلابد لنا من أسلوب آخر فى دحض أقواله .

إن كاتب الرسالة لم يكتف بتخطئة أقطاب الرياضيين الذين ذكرهم فى فهم نظام التكوين العالمى ، ولكنه يتبرع فيشرح وجه خطئهم ، فقد قال :

« الواقع أن اينشتين فى مثاله انتهى الى وجود شيء غامض وراء نظام الكتاب عبر عنه بعقل صاحبه — مؤلفه — والواقع أن هذا احتمال محض ، لأنه يصح أن يكون خاضعا لحالة أخرى، ونتيجة لغير العقل (كذا) ، ومثلنا عن المطبعة وحروفها ، وإمكان خروج الكتب خضوعا لقانون الصدفة الشامل يوضح هذه الحالة (كذا) . أما مايقوله السير جيمس جينز، فرغم أنه أخطأ فى اعتباره الرياضة طبيعة الأشياء ، لأن نجاح الوجهة الرياضية فى ربط الحوادث وتفسير تصرفاتها لا يحمل على أن طبيعة الأشياء رياضية ، بل يدل على أن هنالك قاعدة معقولة تصل بينه وبين طبيعة الأشياء ، فالأشياء هى الكائن الواقع والرياضيات ربط ما هو واقع فى نظام ذهنى على قاعدة العلاقة والوحدة . وبعبارة أخرى إن الرياضيات نظام ما هو ممكن والكون نظام ما هو واقع ، والواقع يتضمنه الممكن ، ولذلك فالواقع حالة خصوصية منه . ومن هنا يتضح أنه لاغرابة فى انطباق الرياضيات على الكون الذى نألفه ، بل كل الغرابة فى عدم انطباقها، لأن لكل كون رياضياته المخصوصة . فكون من الأكوان مربوطا بالرياضيات شرط ضرورى لكونه كونا . من هنا يتضح أن السير جينز انساق تحت فكرة السبب والنتيجة كما انساق أينشتين الى التماس الناحية الرياضية فى العالم . وهذا جعلهما يبحثان عن عقل رياضى وراء هذا العالم ، وهذا خطأ ، لأن العالم إن كان نظام ماهو واقع خاضعا لنظام ماهو ممكن ، فهو حالة احتمال من عدة حالات ، والذى يحدد احتماله قانون الصدفة الشامل لا السبب الأول الشامل » انتهى .

يريد كاتب الرسالة مما مر أن يقول إن المثال الذى ضربه بالمطبعة ذات المليون حرف ، وإمكان خروج الكتب منها خضوعا لقانون الصدفة الشامل بدون الحاجة لعقل ، يكفى لبيان ما يشكل على العلماء فى هذا المجال .

فقولهم إن الكون قائم على نظام رياضى شامل لا نسجامه مع العلم الرياضى الانسانى ، خطأ محض . فان ترابط حوادث الكون ، وتصرفها على قانون رياضى لا يحمل على أن طبيعة الأشياء رياضية كما يقول: لأنه بعد أن يتوصل قانون (الصدفة) الشامل، فى رأيه ، الى إنشاء كون من الأكوان يكون ضبطه بالقوانين الرياضية شرط ضرورى لكونه كونا . ومن هنا أخطأ ، كما يدعى، أقطاب الرياضيين فى اعتبار أن الطبيعة تجرى على نظام رياضى دقيق . والحقيقة أنها تجرى على نظام الخبط ، ومن هذا الخبط تتولد الأكوان ذات النظم الرياضية الدقيقة .

هذا مذهب غاية فى الغرابة ، فلا عجب أن ينفرد بالقول به واحد فى الخلق ! ولكن هذا لا يكفينا مؤنة مناقشته الحساب ، حتى لا يخيل إليه أن العقول تعجز عن بيان خطئه فيه .

مناقشة هذه النظرية الالحادية الحساب :

ليس من الحكمة أن نعتمد فى مناقشة صاحب هذه الرسالة على إيراد آراء علماء الكون سواء

أكانوا رياضيين أم طبيعيين أم فلكيين ، لأنه يعترف بأن إجماعهم انعقد على أن للكون نظاماً أزليا ، وأنه جاء على وتيرة رياضية فى جميع أدواره ، وأنه منزه عن الخبط والاضطراب فى جميع مكوناته . ولكن الذى يجدى فى هذه القضية هو مناقشته الحساب فى مفهوم نظريته ، وفى الأصول التى أقامها عليها إن كان لها أصول ، فنقول :

(أولا) أن ما يقرره الدكتور من عالم الخيال المحض لا من عالم العلم ، حمله عليه شدة تهيامه بابطال العقيدة بالخالق ، ولكن تهيام الانسان بنفى أصل من الأصول ، لا يجوز أن يدفع به الى متاهات يتجرد فيها من كل قوانين المنطق ، جريا وراء هوى من الأهواء النفسانية .

نعم إن العالِم مع اشتغاله بالواقع المحسوس يُسمح له أن يخترق بخياله ماوراءه ليصل الى السبب الأول الذى لا تناله المشاهدة ولا تبلغه التجربة ، ولكنه لا يسمح لنفسه أن يفعل ذلك إلا مستهديا بما بين يديه من الأصول ، ومحوطا بما يمكنه أن يحصل عليه من المرجحات .

فاذا كان العالم يرمى ببصره الى أبعد ما تصل اليه قوى التلسكوب فلا يصادف غير نظام قائم على أدق أصول العلم الرياضى ، فلا حق له أن يستنتج منه أن العوامل التى صدر عنها الكون لا يسودها غير الخبط المحض . لأن سيادة النظام الرياضى الآلى فى كل مكان لا يسمح له بذلك ، ولكن يوجب عليه ضده ، وهو أن الكون يجرى على نظام محكم تسوده عوامل محكمة النظام الى أقصى ما يتخيله التصور .

وجميع ملاحدة العالم قديما وحديثا بنوا إلحادهم لا على أن العامل الرئيسى هو الخبط ، لأنهم لم يروه ، ولكن على أنه وليد نظام آلى محض لا يصدر عنه إلا ما هو آلى منتظم كل الانتظام . فقد قال بوخنر إمام الملحدين : « ما دمنا لا نرى فى كل مكان غير نواميس منتظمة تصدر عنها كائنات منتظمة ، فلا داعى يدعونا الى افتراض وجود سبب عاقل أوجده » ، وغفل عن أن هذه النواميس مظاهر لسبب عاقل أوجدها . ولكن بوخنر لا يستطيع أن يقول كما يقول الدكتور صاحب الرسالة : أنه ما دمنا لا نرى إلا نواميس منتظمة فلا مانع يمنع أن تكون هذه النواميس حالة لكون منتظم أوجده سبب أول هو ناموس الخبط المحض .

وما الذى يحمله على التجرؤ على هذا الافتراض ، ولم ير فى الوجود كله ركنا منعزلا يعمل فيه ناموس الخبط ، وتنتج منه كائنات منتظمة ، تخرج بحكم نظامها من سيادته عليها وتصبح مستقلة عنه ، توهم أنها صادرة من أصول رياضية دقيقة ، ونظام آلى محكم ؟

إن كل ما وصل اليه خيال المتخيلين فى أمر الخبط من الملاحدة ، أنهم قالوا إن الكون محكوم من أزل الآزال بقوانين محكمة الوضع ، وهى دائبة على العمل بغير قصد ، فتارة ينتج عنها كائنات منتظمة وأخرى شاذة ، ولكنها لقيامها على النظام لا تزال بهذه الشواذ حتى تبيدها أو تحيلها إلى النظام المحكم ، ولذلك ترى كل كائنات الوجود محكمة الصنع .

إذا تقرر هذا فعلى أى أساس استند الدكتور فى تخيل أن السبب الأول للوجود هو الخبط المحض ، وليس فى الوجود ما يُمكن من الاستدلال به عليه ؟ وكيف يأمل أن يبث دعوة خيالية محضة لا تستند على أى أصل من أصول العلم ، بل على أى خيال من خيالات أصحاب الفلسفات الالحادية ؟

أليس انفراده بالقول الذى أورده ، وهو يعترف بذلك ، يصح أن يكون من أقوى أسباب الارتياب فيه ، بل القذف به الى عالم المهملات ؟

يقول إنه أرسل مذكرة علمية برأيه هذا لمعهد الطبيعيات الألمانى فى سنة ١٩٣٤ ، ولا عبرة بارسالها فقد مضى عليها ثلاث سنين ولم يتلق عنها تأييدا الى اليوم ، ومعنى ذلك أنهم أهملوا أمرها وعدوها من الخيالات ، وإلا فقد كانوا يملأون الصحف بأشاعتها والمناقشة فيها ككل الآراء الجديدة التى يتخيل من ورائها زيادة لمادة العلوم .

(ثانيا) هل تصح تسمية الخبط بالقانون ؟

يعبر الدكتور عن رأيه فى الخبط بقوله : (قانون الصدفة الشامل) فهل تسلم له هذه التسمية ؟

المعروف أن الخبط ، وهو يسميه الصدفة ، هو اللانظام المحض ، والفوضى المجردة من كل قانون وضبط ، فهو يتخيل أن القوى العالمية كانت على حالة تخبط هائل ، فصدر عنها على مقتضى قوانين الاحتمال ، كون منتظم بديع الصنع هو ما نحن فيه ، وما عليه العالم الى أبعد ما يصل اليه التلسكوب . فهل يحق له وقد اعتبر القوى العالمية فى حالة فوضى وتخبط أن يتخيل وجود قانون يسيطر عليها ؟ وهل هذا القانون من الكون أم خارج عنه ؟

إن الكاتب قد أكثر من ذكر قوانين الاحتمال ، ولكنها عندنا لم تسم بالقوانين إلا لأنها تطبق على موجودات منتظمة ، وقد اكتشفها الفلكى لابلاس للترجيح لا للجزم ، ورتبها على حوادث جارية على النظم الطبيعية المقررة ، لا على حوادث خيالية لا وجود لها . فكيف يطبق حساب الاحتمال العلمى على عالم الخبط المحض الذى لا أثر للنظام فيه ، ولا قيام لكائن منتظم معه ؟ وإذا كان الوصف المميز للخبط هو خلوه من كل قانون ، فكيف يلحق به نظام رياضى محض كحساب الاحتمال القائم على قوانين ثابتة ، ونظم مستقرة ؟ من العالم المحسوس الذى يعترف الكاتب بأنه قائم على أصول رياضية ؟

يضرب الكاتب لمراده مثلا بوجوه زهر الطاولة ، ويقرر أن الدش لا بد من مجيئه مرة فى كل ستة وثلاثين رمية للزهر . ويغفل عن أن وجوه الزهر قائمة على شكل هندسى وأعدادها معينة مكتوبة ، وهى بجملتها موجودة فى عالم آلى يسوده النظام فى كل ذرة من ذراته ، فلا بدع أن تسرى عليه قوانين الاحتمال ؛ ولكن عالم الخبط الذى لا أثر للعدد فيه ، ولا صورة متعينة لشىء من أشيائه ، ولا وجود للقوانين فيه ، كيف يطبق عليه عمل رياضى قائم على أصول مقررة فى عالم تسوده القوانين وتحفظه من أى نوع من أنواع الخبط ؟

(ثالثا) هل يعقل صدور النظام فى الخبط العام بدون سبب خارجى ؟

إن مايذكره كاتب الرسالة الالحادية من تعليل وجود الكون من طريق الخبط والاتفاق يجب أن يسبقه تصور لذلك العالم .

فاذا أخذ آخذ بنظريته وجب عليه أن يعتقد أن العالم محدث غير قديم ، خلافا لرأى جميع الملحدين ، وأن العالم لم يكن فيه غير قوى لا ضابط لها ولا منظم من أى نوع كان ، حتى ولا من نوع النواميس الأزلية الأبدية التى يتخيلها الملحدون .

فان قال بوجود نواميس فى ذلك العهد لم يصدق على العالم أنه كان عالم خبط واتفاق . فمثل هذا المحيط اللانهائى من القوى الثائرة المتخبطة المنحلة النظام ، لايعقل أن يتولد فيه نظام على وجه الاطلاق . وقد لاحظ أقطاب الملحدين هـذا الأمر فقرروا أن القوى العالمية مقودة بنواميس أزلية غاية فى الاحكام ملازمة لها ، وليست فوضى ولامتخبطة . افترضوا هذا خشية أن يعترض عليهم بمثل مانعترض به على كاتب الرسالة اليوم، من أن الخبط لا يُعقل أن يولد نظاما ، فتبطل حجتهم ، ويزدرى الناس مذهبهم .

ولكن كاتب تلك الرسالة يقول : بلى إن قوانين الاحتمال تسمح أن نتصور صدور الكون المنتظم ، المقود بنواميس حكيمة ، من صميم هذه القوى العالمية المتخبطة .

يقول هـذا ويغفل أن فى قوله قوانين الاحتمال تناقضا لا يسيغه عقل عاقل فى الأرض ، فان افتراضه سيادة الخبط والاتفاق فى العالم تنفى وجود أى ضرب من ضروب القوانين فيه .

إنه قال كما نقلناه عنه : « أن العالم الخارجى — عالم الحادثات — يخضع لقوانين الاحتمال » . فهل غاب عنه أن ما يصدق على عالم الحوادث الطبيعية المقودة فى كل ذرة من ذراتها بنواميس محكمة ، لا يعقل أن يصدق على عالم خبط واتفاق ليس فيه حوادث مترابطة ولا قوانين تسود عليها ؟

وإذا استساغ أن يعتقد أن ذلك العالم المتخبط توجد فيه قوانين الاحتمال ، فما الذى يمنعه أن يعتقد بوجود كل ضروب النواميس فيه ؟

فلو سلمنا له جدلا أن قوانين الاحتمال حاولت مرة أن توجد كائنا منتظما ، فهل نستطيع أن نعقل أن القوى العالمية الثائرة من حوله تدعه يتكون فى هدوء وسكون ، ولا تعـدو عليه فتفسده قبـل أن يتم تـكونه ؟ ما الذى يمنعها من العدوان عليه ، بل ما الذى يمنع قـوانين الاحتمال من توليد كائن آخر منتظم بجواره يناقضه ويحرمه أن يتطور الى أن يبلغ حد الكمال ؟

إذا لم يستطع أحد أن يسيغ تصور هذا ، فهل يسيغ أن تترك القوى الثائرة المتخبطة ، حرية العمل لقوانين الاحتمال ، حتى تولد ملايين من مجموعات شمسية تملأ فضاء لا حد له تسودها

قوانين عامة واحدة ، لا يختل لها نظام فى عدد لا يحصى من ملايين السنين ، ولا تعدو عليها فتجعلها حطاما متناثرا فى الهواء ؟

هنا يحتاج الآخذبنظرية الخبطالعام أن يتخيل أن القوى العالمية كانت فى حالة سكون تام لافى حالة ثوران ، فاذا تفضلت قوانين الاحتمال أن توجد كونا أو أكوانا كثيرة ، تركتها تلك القوى أن تفعل ما تشاء .

ولكن هذا الخيال يؤدى صاحبه أن يعتقد بأن القوى فى عالم الخبط العام مجردة من الحركة والتأثير فيما حولها . وإذا كانت كذلك فكيف يتصور أن تسود عليها قوانين الاحتمال ؟

لقد شبه الكاتب عمل قوانين الاحتمال بحركة زهر النرد ، ولكن غاب عنه أن زهر النرد إذا لم يتحرك فلا يعقل أن يأتى الدش منه فى كل ٣٦ رمية مرة واحدة ، بل يبقى على ما هو عليه الى الأبد .

وعليه فلا يعقل أن تكون القوى كانت ساكنة ، فلا بد أنها كانت فى حالة حركة لاضابط لها ، ثم يصبح لها ضوابط متى آلت الى كائنات بواسطة قوانين الاحتمال . وإذا كانت كذلك فكيف لا تعدو القوى المتخبطة العامة على أى جزء منها ، فترفع عنه تأثير قوانين الاحتمال ؟ أى مانع يمنعها من ذلك وهى محيطة بها من كل مكان ؟

وكيف يعقل حدوث نواميس رياضية محكمة ، لكون تولد من قوى مجردة من كل ناموس ، ومن أى ضابط كان ؟

يقول كاتب الرسالة : لا غرابة فى ذلك فما دام قد وجد كون فان ضبطه بالرياضيات شرط ضرورى لقيامه على حالة كون قائم بنفسه .

نقول فى هذا القول تحكم يتنزه عن مثله أهل العلم ، فاذا سلمنا جدلا بأن قوانين الاحتمال أوجدت مجموعة شمسية ، فما الذى يوجب عليها أن تجعلها على نظام رياضى دقيق ، وأن تحليها بجميع النواميس المحكمة التى لا تكفى فقط لتماسك أجزائها ولكن لتحليتها بنواميس أخرى تصلح لتكوين كائنات نباتية وحيوانية عليها ، ولدفع هذه الكائنات للتطور والترقى حتى يبلغ بعض آحادها الى درجة عالية من إدراك الذات والتعقل ؟

وإذا اتفق ذلك لمجموعة شمسية ، فهل يتفق مثله لملايين المجموعات الشمسية السابحة فى الفضاء ، وعلى أبعاد لا يصل إليها الوهم ، وتكون كل هذه القوانين واحدة فيها ومتكافلة فيما بينها الى هذا الحد المحير للعقل ؟

لم هذا التحكم كله ؟ ألأجل القول بأن أصل الوجود قوى متخبطة لاضابط لها؟ وأى فائدة

للالحاد من هذا الافتراض ، وقد أساغ الملحدون وجود نواميس محكمة ملازمة للقوى العالمية من أزل الآزال ؟

إن هذه الثمرة الضئيلة لا تساوى أن يتعسف الانسان هذا التعسف كله ليثبت أمرا لا يسيغه عقل فى هذا العالم .

نعم إن بناء النظريات الجديدة أمر محبب الى النفوس ، تنساق اليه الفطر ذات المطامح البعيدة ، ولكن لو كانت هذه الشهوة النفسية تدفع الى مثل هذه المواطن من الخيالات فيجب وقفها عند حد ، فانها تصبح مذمومة ، ولا يجنى صاحبها من ورائها غير الخيبة وسوء القالة .

ولكن يلوح لنا أن الذى حفز كاتب الرسالة لأن يدفع بنفسه الى هذا المَهْمَهِ من الخيال المحض ، هو أن يتفادى ما يلزم القائلين بوجود النواميس الأزلية المحكمة من الايرادات ، فقد قيل لهم إن ما تقررونه من وجود تلك النواميس الرياضية المحكمة ملازمة للهيولى الأولية ، هو مظهر الحكمة الالهية ، وإلا فكيف يعقل وجود قوى منتظمة ، تؤدى الى كائنات غاية فى الابداع ، دون أن يكون وراءها عقل أوجدها ؟

أراد صاحبنا أن يتقى هذه الايرادات فقفز قفزة خيالية باحتة يرد عليها من الاعتراضات أكثر مما يرد على تلك ، ويكون موقف المنابذ لها أشد حصانة ومناعة من موقفه حيال جميع النظريات الالحادية مجتمعة .

قصة المطبعة ذات المليون حرف :

قال كاتب الرسالة :

« إن الصدفة التى تخضع العالم لقانون عددها الأعظم تعطى حالات إمكان . ولما كان العالم لا يخرج عن مجموع من الحوادث ينتظم بعضها مع بعض فى وحدات تتداخل وتتناسق ، ثم تنحل وتتباعد ، لتعود من جديد وتنتظم ، وهكذا خاضعة فى حركتها هذه لحالات الامكان التى يحددها قانون العدد الأعظم الصدفى . مثل العالم فى ذلك مثل مطبعة فيها من كل نوع من حروف الابجدية مليون حرف . وقد أخذت هذه فى الحركة والاصطدام فتجتمع وتنتظم ثم تتباعد وتنحل ، هكذا فى دورة لا نهائية . فلا شك أنه فى دورة من هذه الدورات اللانهائية لا بد أن يخرج هذا المقال الذى تلوته الآن ، كما أنه فى دورة أخرى من دورات اللانهاية لا بد أن يخرج كتاب (أصل الأنواع) وكذا (القرآن) مجموعا منضداً مصححا من نفسه (كذا) ، ويمكننا نتصور أن المؤلفات التى وضعت ستأخذ دورها فى الظهور خاضعة لحالات احتمال وإمكان فى اللانهاية » اه .

ونحن نقول ردا على هذا الكلام :

إن من الابتلاء المر أن يضطر الانسان فى يوم من الأيام للدفاع عن رأيه بمثل هذه الأقوال

التى تشذ عن كل قاعدة عقلية وعلمية . وقد فندنا كل ما ذكره الكاتب مما سماه قانون الصدفة الشامل ، وبينا تنافيها مع قوانين الاحتمال بما لا مزيد عليه .

والآن نتصدى لتشبيهه فعل قانون (الصدفة) وما تخضعه من قوانين الاحتمال بمطبعة ذات مليون حرف ، لكل من وحدات الأبجدية ، وقد درج الناس إذا ابتلوا بأقيسة فاسدة على أن يقولوا : هذا قياس مع الفارق . ولكننا مضطرون حيال ما نحن بصدده أن نقول هذا قياس مع كل ما يتخيل من الفوارق .

فكيف يسوغ لباحث أن يشبه حالة القوى الوجودية العارية من كل قانون ، المجردة من كل ضابط ، كما يفترضها الكاتب ، بآلة ميكانيكية كالمطبعة قائمة على أدق قوانين الميكانيكا والرياضة ، ولها قطع منقوش على رءوسها حروف تتألف منها كلمات ، وهى مفصلة تفصيلا هندسيا ، بحيث يقوم بعضها الى جانب بعض فتؤلف منها صحف ، وللمطبعة اسطوانات مكسوة بالغراء تستمد من محبرة بجوارها حبرا تنقله الى الحروف ، بحركات مدبرة تدبيرا محكما . وهذه المطبعة الميتة لا تغنى شيئا إذا لم يكن لها عمال يحركونها ، ويدبرون دوراتها ، ويراقبون كل خلل يطرأ عليها أثناء العمل ؟

إن هذا التشبيه معيب للدرجة القصوى ، بل هو غير جائز أصلا ، ومجيئه من باحث ينتمى للرياضيين يزيد فى غرابته ، ويجعله أطروفة الأعاجيب فى عصر المباحث المدققة ، والمقررات المحررة .

وأدخل من كل مامر فى عالم الأوهام والخيالات ، زعم الكاتب أن المطبعة ذات المليون حرف تستطيع تحت تأثير قانون الخبط الشامل ، أن توجد جميع المؤلفات التى قام بوضعها العقل البشرى الناقص ، أو تنزلت من العلم الالهى الكامل ، فهذا القول لو صدر من جاهل ساذج لا حظ له من أبسط ضروب الثقافة العقلية ، لما اغتفر له بحال من الأحوال ، وعيب عليه التلفظ به ، فما ظنك وهو صادر من رجل يحمل شهادات علمية راقية ؟

ومن عجب أن كاتب هذه الرسالة اعتمادا على ما قرره فى أمر هذه المطبعة الوهمية يناقش عباقرة الرياضيين ، ويتخيل أنه يلزمهم الحجة ، فيعيب على العلامة الكبير اينشتين تشبيهه الوجود بكتاب ، وقوله كما أن وراء الكتاب عقلا ألفه ، فكذلك الكون يجب أن يكون وراءه حكيم أوجده ، يعيب عليه هذا القول ويرد عليه بقوله : « الواقع أن هذا احتمال محض لأنه يصح أن يكون (أى الكتاب) خاضعا لحالة أخرى ، ونتيجة لغير العقل ، ومثلنا عن المطبعة وحروفها وإمكان خروج الكتب خضوعا لقانون الصدفة الشامل يوضح هذه الحالة »

المدهش المحير للعقل فى هذا الرد أنه يعيب على اينشتين قوله أن الكتاب يدل دلالة قاطعة

على وجود عقل وضعه ، ويدعى أن هذه الدلالة خاطئه ، إذ يصح أن يكون نتيجة لغير العقل ، أى لقانون الخبط المحض ! !

أقسم لولا أنى أنقل عبارات الكاتب لخشيت أن يظن ظان أنى أتقول عليه . فهل يحتاج مثل هذا الخبط الى رد ؟

إننا كنا نستطيع أن لا نرد عليه بحرف ، لأن رسالته تحمل فى ثناياها معاول هدمها ، معاول لا يستطيع أبلغ قلم أن يأتى بأشد فعلا منها ، ولكننا خشينا أن يتوهم من لا علم له أن هذا الكلام فيه أثارة من علم ، لا سيما وهو يقول : «إنها تعطى العالم مفهوما جديدا وتجعلنا ننظر له نظرة جديدة غير التى الفناها . ومن هنا جاءت صعوبة تصور مفهوماتها ، لأن التغير الحادث (أى الذى تحدثه) أساسى يتناول أسس التصور نفسه » .

فكاتب الرسالة لا يخفى أن كلامه يتعذر فهمه ، ولكن لا لأنه وهمى محض ، بل لأنه يغير أصول الفهم ، ويتناول أسس التصور نفسه ، فهو والحالة هذه يتطاول الى إحداث حدث عقلى بوضع أسس جديدة للتصور ، بحيث يجعلك لو قرأت كتابا لا تحكم بأن عقلا وضعه ، لأنه قد يكون (كما يقول هو نفسه) نتيجة لغير العقل ، أى لقانون (الصدفة) الشامل ، ومعتمده فى ذلك ما مثل به من المطبعة ذات المليون حرف !!

وهذه طامة لا بد من مناقشته الحساب فيها ، وإنا لسائلوه : هل يستطاع تغيير أسس التصور ، وهى ضمن النظام الكونى ، وقامت على ما قام عليه الكون كله من الأصول الرياضية الثابتة ، والقواعد الطبيعية الركينة ، وقد أفنى العلماء أعمارهم فى تأسيسها على ماخلقت له من المنطق العلمى ، القائم على اليقينيات العلمية ؟ وإذا أمكن ذلك فهل يرجى خير من قلبها وجعلها صالحة للأخذ بكل خيال يقدم اليها ، والاعتداد بالافتراضات والاحتمالات التى لا تمت الى العلم بأوهى صلة ، لتجد كل الخزعبلات والأوهام طريقا لإفساد عقول الناس بالأوهام التى لا تصدر عن أصل ثابت ، ولا تقوم على أساس صحيح ؟

إن تغيير أسس التصور على هذا النحو يعود بالانسانية الى العهود المظلمة التى كانت فيها ، ويقضى على جميع الثمرات التى حصل عليها مصلحو العلم والفلسفة ، ويدفع بالناس الى تيهور من الخيالات لايجدون فيه حدا يقفون عنده .

إن اليوم الذى يقرأ فيه الرجل كتابا فيتبادر الى ذهنه احتمال أن يكون قد صدر عن غير عقل ، ولكن بتأثير قانون الخبط الشامل تحت قيادة نواميس الاحتمال ، وأن يكون خرج مرتبا مجموعا مصححا من المطبعة ذات المليون حرف ، إن ذلك اليوم يكون فيه التصور الانسانى قد انحل انحلالا لا يرجى معه التئام ، ووصل من عالم الخبط الى مكان سحيق ؟

محمد فريد وجدى

التفسير

سورة لقمان

— ٨ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : (يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) :

تقدم فى وصية لقمان لابنه فى الآى السابقة أن بدأها بأمره بالشكر لله ينبهه على ما أغدق عليه من نعم لم يكن له فيها مدخل ، فقد أوجده من ماء مهين ، وكمل خلقه بمالا يحيط به علما ، ووهبه من نعم العقل والقدرة والارادة ما لايستطيع أن يزعم بأن له فى ذلك عملا ما ، فشكره أول واجب يخطر بباله حين ينظر الى نفسه وما جبل عليه ، وما أفيض عليه من نعم لا تحصى .

وأول ما يجب عليه فى الشكر تنزيهه عن الشريك ، وإفراده بالتعظيم ، واعتقاد ماله من صفات الجلال والجمال ، فذلك أس الكمال له فى نفسه ، فقال : « يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » ، وفى طى ذلك نبهه على عرفان الحق لمن جعلهما الله طريقا لوجوده ، حتى يربى فيه ملكة الشكر ، فيتدرج من شكر المنعم القريب المحسوس الى شكر المنعم الأعظم الذى يصل الى إدراكه بعقله لا بحسه . وضمن وصيته هذه بيان حد شكره لهما ، وهو ألا يطغى ذلك الشكر على شكر المنعم الأعظم ، وهو الذى خلقه وخلقهما ، وأنعم عليه وأنعم عليهما حيث يقول : « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما » . وأردفه بقوله : « وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب الىّ » . أى هذا حدهما : أن تحسن اليهما ، وأن تصاحبهما فى الدنيا معروفا ، وتعرف لهما حقهما ، ولكن لا تتجاوز هذا الحد فتطاوعهما فى الاشراك بالله ، بل اتبع سبيل من أناب الى الله . ثم تمم له العقيدة الصحيحة باعلامه أن اليه مرجع الجميع ، وأنه عالم بما ظهر وما خفى ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء قل أو جل

حتى لو كان «مثقال حبة من خردل» ، وهو مثل فى الصغر والدقة التى من شأنها الخفاء «فتكن فى صخرة » مثال فى كثافة الحجاب « أو فى السموات أو فى الأرض » مثل فى التوغل فى التيه ، فقال مهما يكن شيء من هذا وأخفى منه فان الله عليم خبير بل لطيف قدير ، فالله يعلمها ويستخرجها ويأتى بها ، فلا يغيب عنه شيء ، ولا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، فأين تذهب إذا أشركت به ما ليس لك به علم ؟

وبعد أن أرشده الى تصحيح عقيدته بعدم الاشراك به وبغرس أنه العليم الخبير القدير المهيمن على كل شيء الذى بيده ملكوت كل شيء ، أرشده الى تكميل نفسه بالعبادة العملية ، ولا شك أن مرتبتها تلى مرتبة تصحيح العقيدة ، فقال « يا بنى أقم الصلاة » والصلاة مخ العبادة . وفى هذا إرشاد الى أن الصلاة من الشرائع القديمة وإن اختلفت كيفياتها ، فأساسها الابتهال الى الله ، والخضوع لعظمته ، واللجأ اليه فى تحصيل مطالب المصلى دنيوية كانت أو أخروية ، فهى نتيجة التوحيد ، ومظهر الاحتياج الكامل للمعبود المطلق ، وأمارة الاعتراف بأنه العليم القدير الفعال لما يريد . وعند ما تتأمل فى سرها تجد مصداق ما ورد بشأنها : « الصلاة عماد الدين فمن أضاعها فهو لما سواها أضيع » بل حين تزداد تأملا فيها تذعن أكمل الاذعان لقوله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » . فلا بدع إذا اقتصر فى شأن الكمال النفسى فى وصيته على الصلاة ، وانتقل بعدها الى وصيته بتكميل غيره إذ يقول : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر » .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هما كما قال الغزالى : القطب الأعظم فى الدين ، والمهم الذى ابتعث الله له النبيين ، ولو طوى بساطه وأهمل أمره لفشت الضلالة وعمت الجهالة ، واستشرى الفساد وهلك العباد . وحسبك قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » فانه لم يكتف بالأمر به فى قوله «ولتكن» حتى ناط به الفلاح بقوله: «وأولئك هم المفلحون» ، بالصيغة المفيدة للحصر ، مع أنه فرض كفاية كما يفهم من قوله «ولتكن منكم أمة» . وانظر الى ما فى قوله تعالى: «كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » فانك تجده سيق فى الآية الكريمة لبيان علة اللعن المذكور فى قوله « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » وكذلك قوله عزوجل: « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » فقد ناط خيرية الأمة بهذا الوصف الجليل . ولا يتوهم أن قوله تعالى « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » مهوّن للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فانهم لا يسمون مهتدين إلا إذا قاموا بهما ، فمن اتكأ عليها فى ذلك فقد أساء فهمها .

هـذا ومما يراعى شرطا فى إنكار المنكر ألا يكون إنكاره موضع اجتهاد واختلاف فى الرأى بين الفقهاء ، فليس لشافعى أن ينكر على حنفى صلاته بدون تسمية أو ترك الفاتحة وهو مأموم ، ولا لحنفى أن ينكر على شافعى اقتصاره فى الوضوء على مسح شعرة من الرأس . وأمثال ذلك من مواضع الخلاف كثيرة لا يأتى عليها العد . ومن هذا تعلم مقدار الجهل والحمق الذى يلحق بعض المتعلمين فيشنون الغارة على من يصلى الظهر بعد الجمعة من الشافعية مشنعين عليهم بأن فى ذلك افتياتا فى التشريع إذ أوجب الله خمس صلوات فى اليوم ، ويرونهم قد جعلوه ستا ، وهذا منهم إما جهل أو بهتان ، فانه لم يقل أحد إن الشافعى زعم أن الصلوات ست ، وإنما يرى أن الجمعة فى البلد الواحد لا تكون إلا واحدة ، لأن هذا هو الذى جرى عليه العمل زمن النبى صلى الله عليه وسلم وزمن الخلفاء الراشدين : كانت الجماعة تتعدد فى الأوقات كلها إلا الجمعة فكانوا يقتصرون فيها على جمعة واحدة فى البلد الواحد حتى بعد أن اتسعت المدينة وكثر أهلها ، ولأن هـذا هو الأوفق بحكمة مشروعيتها ، وذلك أن يجتمع أهل البلد الواحد فى مكان واحد مرة فى الأسبوع يجددون من توادهم ويتعرفون شئون بعضهم البعض ويكمل ارتباطهم ، قال : فان تعددت الجمعة فى بلد واحد فالجمعة لمن سبق . فاما المسبوق فعليه أن يعيدها ظهرا . وكذلك من شك فى أنه سابق أو مسبوق يعيدها ظهرا ، وذلك أن ذمته شغلت بالفريضة بيقين ، وقد شك فى وقوع جمعته موقعها ، فينبغى أن يعيدها ظهرا لتبرأ ذمته بيقين كما شغلت بيقين .

وليس من غرضنا الآن بيان وجهة نظر الامام الشافعى فى ذلك ، وإنما كشف النقاب عن جهالة أولئك المشنعين المثيرين شغبا فى المساجد يتكرر كل يوم جمعة بحالة لم نرها منهم فى إنكار ما أجمع على إنكاره ، فشرط الانكار ألا يكون الفاعل مقلدا لمن يجيز ، فكيف وهم مقلدون لمن يرى الوجوب ؟

وليس من شرط الانكار أن يكون المنكِر غير مقترف إثما مطلقا ، وإن زعمه بعضهم استنادا الى مثل قوله عز وجل : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » وقوله تعالى : « كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » وقوله عليه السلام : « مررت ليلة أسرى بى بقوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من أنتم فقالوا كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهى عن الشر ونأتيه » . وليس فى هذا شهادة لهم لأن هذه النصوص وما أشبهها مسوقة للتنفير من مقارفة الآثام ، والتشنيع عليهم بقيام الحجة ناصعة أمامهم إذ كانوا آمرين وناهين ، فهم معترفون بقبح ما ارتكبوا ، فقيام الحجة عليهم أبلغ ، وإلا فلا يستطيع واحد أن يقول إن من رأى رجلا يحاول قتل رجل أو زنا بامرأة وهو قادر على دفعه ولكنه يعلم من نفسه أنه قد شرب خمرا أو اغتاب إنسانا أو حنث فى يمين فليس له وليس عليه أن يمنعه من قتله أو من زناه لأنه قد

ارتكب منكرا مثله أو أقوى إنكارا أو أضعف إنكارا منه ، وذلك أن الامتناع عن الذنوب واجب ، والنهى عن المنكر واجب آخر ، والاخلال بأحدهما لا يسقط وجوب الآخر عنه .

هذا ومما ينبغى مراعاته مراعاة كاملة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة كما قال تعالى : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » ، وأن يتمثل فيه قوله تعالى «ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » . وقد روى أن رجلا وعظ أحد الخلفاء فأغلظ فقال له : ياهذا قد أمر الله من هو خير منك أن يقول لمن هو شر منى غير هذا : قال تعالى :« فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » ولست أنت خيرا من موسى وهرون ، ولا أنا شراً من فرعون .

على أن الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر غالبا عرضة لتلقى الأذى والمصاعب والمصائب ، ولذلك حسن إرداف هذا الحكم بقوله عز من قائل : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » . أى أن ماذكر من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الأمور المعزومة ، أى المطلوبة طلبا قاطعا قويا ، فلا يكن خوف التعرض للأذى مانعا منهما . ويشبه تفسير العزم بما ذكر تقسيمهم الحكم الى عزيمة ورخصة . نعم قالوا : إذا علم أنه سيصيبه أذى لا يحتمل ، وأن نهيه ضائع الفائدة ، لا يجب عليه ذلك ، بل إذا تيقن الأذى وضياع الفائدة لا يجوز له . ومثل ذلك ما إذا علم أن إنكاره سيجر الى ارتكاب ما هو أشد إنكارا . وأما إذا كان ذلك مظنونا أو كان ما يناله محتملا فانه لا يخلو من مسؤلية الترك ، عملا بقوله تعالى : « واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور »

وعلى الجملة فللعقل والبصيرة مع حسن النية والاخلاص فى النصح دخل كبير فى تمييز هذه المواقف ، والله ولى التوفيق ؟

ابراهيم الجبالى

لا حكم الا بعد الاختبار

قال حكيم : من لم يقدم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الأنس ، أثمرت مودته ندما .

وقال آخر : مصارمة قبل اختبار ، خير من مؤاخاة على اغترار .

وقال شاعر :

لا تحمدن امرأ حتى تجربه ... ولا تذمنه من غير تجريب
فحمدك المرء مالم تبله خطأ ... وذمه بعد حمد شر تكذيب

السُّنَّة

الرضاع

عن عائشة قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرّمن ثم نسخ بخمس معلومات فتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فيما يقرأ من القرآن» رواه مسلم:

يتعلق بشرح هذا الخبر أمور: (١) بيان معناه (٢) هل يصح الأخذ بما يفيده ظاهره فيقال إن عشر رضعات معلومات و«خمس معلومات» من القرآن؟ (٣) إذا كانت «خمس معلومات» نسخت ما قبلها فأين هى، وبماذا نسخت، ولماذا نسخت؟ (٤) بيان الأحكام الفقهية التى تؤخذ من هذا الخبر وآراء الأئمة فيها.

(١) معنى هـذا الظاهر أن عائشة تقول إنه كان من بين آى القرآن الكريم آية «عشر رضعات معـلومات يحرمن». ومعنى معلومات متحققات غير مشكوك فيها. ومعنى يحرمن يوجبن حرمة الزواج بين الرضيع وبين من رضع منه على الوجه الآتى، ثم نسخت هذه الآية لفظا ومعنى، ونزل بعدها «خمس معلومات يحرمن» واستمرت هذه الآية تتلى فى كتاب الله الى قبيل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم رفع لفظها وبقى حكمها وهو يقرأ من القرآن بعد وفاة الرسول. ومعنى كونه يقرأ من القرآن بعد وفاة الرسول أنه يذكر على أنه كان من القرآن بعـد وفاة الرسول لقرب عهده بالنسخ. هـذا هو المعنى الذى فسره به من احتج به كما ستعرفه قريبا.

فاذا رضع شخص من امرأة أجنبية خمس مرات أصبحت هذه المرضعة كأمه التى ولدته، وأصبح زوج هـذه المرضعة الذى كان سببا فى نزول هذا اللبن لها بحملها منه أبا له كأبيه من النسب، فيحرم على هذا الرضيع ومن أرضعه التزوج بما يتناسل منهم من أبناء أو بنات، وبما يرتبط بهم من أعمام وعمات وخالات وأخوال، كما يحرم عليهم ذلك مع الأبناء من النسب. وقد صرح بذلك فى حديث آخر رواه مسلم، وهو «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب».

والذي يحرم من النسب سبع أصناف :

إحـداها الأم ، سواء كانت أما مباشرة أو أما بواسطة الأب أو الجد ، فتشمل الجدة وإن علت من جهة الأب ومن جهة الأم ، فجدات الشخص محرمات عليه كأمهاته .

ثانيتها البنت . والمراد بها بنت الشخص لصلبه أو بنت بنته وإن نزلت ، ومثلها بنت الابن وبنتها ، وهكذا .

ثالثها الأخت ، سواء كانت شقيقة أو لأب أو لأم .

رابعتها بنت الأخت وإن نزلت .

خامستها بنت الأخ سـواء كان شقيقا أو لأب أو لأم ، وبنت بنته وإن نزلت .

سادستها العمة وهى أخت الأب ، سواء كانت أخته شقيقته أو لأبيه أو لأمه ، ومثلها عمة العمة إذا كانت أختا للجد .

سابعتها الخالة وهى أخت الأم ، سواء كانت شقيقتها أو لأبيها أو لأمها . ومثلها خالة الخالة إذا كانت أختا للجدة لأم ، وإلا فلا تحرم . فعمات العمات لا تحرم إلا إذا كن من جهة الأب .

أما خالات الخالات فانهن لا تحرمن إلا إذا كن من جهة الأمهات . وإليك مثالين لعمة العمة ، وخالة الخالة ، لتقيس عليهما :

الأول : فاطمة عمة محمد أخت أبيه ابراهيم ، ولدهما جـده هاشم من جدته نعيمة ، أو ولد ابراهيم من أم أخرى ولهاشم أخت اسمها ظريفة ، فظريفة هذه عمة فاطمة وعمة ابراهيم والد محمد حرام على محمد لأنها عمة عمته لأبيه ، فهى أخت جده هاشم . أما إذا كانت فاطمة أخت ابراهيم لأمه فقط جاءت من أب آخر غير هاشم يقال له حامد ولحامد أخت فانها تحل لمحمد ، لأنها وإن كانت عمة لعمته فاطمة ولـكنها جاءت من أب أجنبى ، فليست أختا لجده هاشم .

الثانى : محمد أمه هانم لها أخت اسمها نفيسة ولدهما جده أبو طالب من زوجته نائلة ، أو ولدت نائلة نفيسة من أب آخر يقال له محمود ، ولنائلة أخت يقال لها خديجة ، فان خديجة تكون محرمة على محمد فى الحالتين لأنها أخت جدته نائلة لأمه . أما إذا ولد أبو طالب نفيسة من أم أخرى اسمها ظريفة ، ولظريفة أخت ، فانها لا تحرم على محمد ، لأنها ليست أختا لجدته نائلة . وعلى هذا القياس فـكل ما يحـرم نسبا فانه يحرم رضاعا على هذا التفصيل .

ثم إن التحريم يسرى الى أصول المرضعة وفروعها وما يتعلق بها بدون استثناء ، فأولادها وأولاد أولادها وهكذا ، إخوة وأخوات للرضيع ، ويزاد عليهم ما رضع من ثديها مع الرضيع من الأجانب ، فلو رضع طفل وطفلة أجنبيان من ثدى امرأة كانا أخوين من الرضاع ، وسواء رضعا فى زمن واحد أو فى أزمنة مختلفة . وأمهاتها وآباؤها جـدات أو أجداد للرضيع ، وأخواتها

وإخوتها خالات أو أخوال للرضيع ، وأعمامها وعماتها أعمام أوعمات للرضيع إذا كانوا أعماما لأمه من جهة الأب كما قلنا ، وأخوالها وخالاتها أخوال أوخالات للرضيع إذا كانوا من جهة الأم .

ويسرى كذلك الى زوج المرضعة الذى نزل لهـا اللبن من حملها بولده ، وإلى أولاده من المرضعة أو غيرها ، وإلى أولاد أولاده وهكذا ، وكذلك الى آبائه وإخوته وأخواته وأعمامه وعماته وأخواله وخالاته على التفصيل المذكور ، إلا أنه يحل لهذا الرجل أن يتزوج أم الرضيع من النسب كما حلت له أمه من الرضاع ، وكذلك تحل له جدته وأخته . أما الرضيع فان التحريم لا يسرى إلا لفروعه فقط وهم أولاده وأولاد أولاده وهكذا . أما آباؤه وإخوته وأخواته وأعمامه وعماته فلهم التزوج بأم الرضيع وأخواته وإخوته وهـكذا . ومثل أمه فى ذلك أبوه من الرضاع .

وكما يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب كذلك يحرم بالرضاع ما يحرم من المصاهرة . مثلا : إذا تزوج شخص بالمرضعة نفسها فانه يحرم عليه أن يتزوج بنتها من الرضاع متى دخل بها . وإذا عقـد على بنتها من الرضاع فانه يحرم عليه أن يعـقد على المرضعة التى أرضعتها ، وهكذا ، إلا فى بعض صور مفصلة فى كتب الفقه .

وإنما أوردنا هذا هنا ليعلم الناس صعوبة الرضاع وخطورة ما يترتب عليه من آثار فى نظر الدين الاسلامى فلا يقدمون عليه من غير ضرورة . وإذا وقع فانه يجب قيده فى سجل خاص حتى لا يقع أحد فى زواج من لا يحل له زواجها .

ووجهة نظر الشارع فى ذلك أن لبن المرأة هو السبب فى تكوين الطفل ونموه . ولا ريب فى أن اللبن جزء من المرأة ، وقد جاء بسبب الحمل الذى حملت به من زوجها ، فقـام اللبن مقام جزء الرجل ، فـكل طفل يشرب هذا اللبن يكون جزءا من أمه وأبيه ، فيصبح ابنا لهما وإن لم يكن مولودا منهما . وربمـا يقال إن هـذا يظهر فيما إذا شرب الطفل قدراً كبيرا ينبت منه جسمه وينمو به ، أما إذا مص مرة أو مرتين كما يقول بعضهم فانه لا يظهر كونه جزءا منهما . والجواب أن الشارع جعل لهذا اللبن فى ذاته حرمة ذاتية فى إيجاد هذه الرابطة وتقوية الصلة بين الناس سواء كان قليلا أوكثيرا وإن لم تحدث به الجزئية بالفعل ، كى يعلم الناس ما للوالدين من حقوق وواجبات ، فانه إذا كانت القطرة الواحدة من لبن ثدى الأم تكفى فى ثبوت البنوة ويترتب عليها احترام الأجنبى للمرضعة وزوجها ، فما ظنك بمن يتربى بهذا اللبن ويدرج بسببه ؟ ولا يخفى أن هذا المعنى يوجب على الناس أن لا يهملوا فى شأن الرضاع ، وإن اقتضته الضرورة فان عليهم أن يختاروا لأولادهم المرضعات الصالحات العاقلات اللاتى يصح أن يكن لهم أمهات .

(٢) أما الجواب عن السؤال الثـانى فان المسلمين قد أجمعوا على أن القرآن الـكريم هو ما بين دفتى المصحف المحفوظ فى الصدور . وقد ثبت نقله كلمة كلمة وحرفا حرفا عن رسول الله

عن رب العزة بالتواتر الذى لا شك فيه ، فكل ما ورد فى الأحاديث الآحاد فانه لا يقال له قرآن ولا يعطى حكم القرآن باتفاق . ويرد على هذا أمران : أحدهما أنه إذا صح عدم اعتباره قرآنا لم يكن له معنى ، وعلى هذا فلا يصح الاحتجاج به على حكم فقهى . ثانيهما أنه إذا لم يكن قرآنا فكيف تصح روايته على أنه قرآن ، أفما كان ينبغى لرواة الحديث أن يهملوا الروايات التى تشتمل على إثبات آية أوحذف آية من كتاب الله ، فان روايتها تتضمن الحكم بأن هذه الآية من القرآن أو ليست منه ، وهذا الحكم لا يجوز ، فانه يدخل فى القرآن ما ليس بمتواتر ، ويخرج عنه المتواتر ؟

ويمكن الجواب عن السؤال الأول بأن المستدل به على حكم فقهى لا يستدل به على أنه قرآن بل يأخذ منه الحكم الثابت بطريق الظن وهو كاف . أما الاشكال الثانى فانه وجيه ، ولهذا جزم الفخر الرازى بأن ما نقل عن ابن مسعود من أن المعوذتين ليستا من القرآن محض اختلاق ، وصرح فى المواقف بأنه لا يجوز الحكم على كتاب الله المتواتر بما ليس بمتواتر . وعلى هذا فلا يصح أن يقال إن من بين آيات القرآن التى نسخت عشر رضعات محرمات ، كما لا يصح أن يقال إن من بين آيات القرآن خمس رضعات محرمات . اللهم إلا أن يقال إن قرآنية مثل هذا لم تثبت لدينا ، ولكنها ثبتت لمن كان فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ثم نسخت ، فتسميتها قرآنا باعتبار ما مضى . وهذا مع ما فيه من تحكم ظاهر فانه لا يرفع الاشكال الوارد على من زعم أن المعوذتين ليستا من القرآن ، فكان لرواة الحديث غنى عن مثل هذه بالمتواتر الذى لا شك فيه .

(٣) أما الجواب عن الثالث فان الذين احتجوا بما روته عائشة قالوا : إن آية « خمس رضعات » نسخ لفظها فقط وحكمها بقى على ما هو عليه فلم تأت آية أخرى بمعنى آخر بدلها. وقد أورد على هذا من وجهين : أحدهما أن نص الرواية التى نقلت عن عائشة ليس فيها ما يفيد أن خمس رضعات قد نسخت ، وهذا يمهد لأعداء الدين الطعن فى آيات القرآن الكريم فيقال إن هذه الآية كانت موجودة وحذفت من القرآن كما حذفت آية القنوت التى وردت فى خبر آخر ، ومثل هذا يوجد الشك فى كتاب الله الذى قال الله فيه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » . ثانيهما أنه على تسليم نسخ لفظ خمس رضعات الخ فما فائدة هذا النسخ ؟ وأيضا إذا كان اللفظ قد نسخ فما الدليل الذى يدل على المعنى مع أن المعنى إنما يؤخذ من اللفظ ؟

وقد يجاب عن الأول بأن لفظ القرآن الكريم قد تواتر تواترا جازما لا شبهة فيه ، وليس منه هذه الآية ، ولا يحتمل سقوط حرف واحد منه ، لأن كل ما هو قرآن قد تواتر نقله الينا ، وهو هذا المعروف لنا المحفوظ فى صدور المسلمين برواياته المتواترة بدون زيادة حرف أو نقص حرف ، فما يقال إن هذه الجملة كانت فى القرآن ثم نسخت فى عهد رسول الله لا يفيد

إلا الظن ، فلا يمكن الجزم بأنها قرآن ، إنما يصح الاستدلال بها على حكم فقهى ظنى فقط . فما يهرف به بعض الجهلة أو أعداء الدين من حذف آية أو كلمة من القرآن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو خروج على كتاب الله تعالى . ومثله ادعاء أن به ما ليس منه كما نسب الى ابن مسعود كذبا من أنه قال إن المعوذتين ليستا من القرآن . أما الثانى فلا أجد له جوابا حسنا لأنه لا معنى لحذف اللفظ مع بقاء الحكم ولا تظهر له فائدة مطلقا ، اللهم إلا أن يقال إن هذه العبارة لا تناسب الموضع الذى ذكرت فيه أو كان ذكرها مخلا بالعبارات فحذفت لذلك ، وهذا محال على الله تعالى ، لأن نسخ اللفظ على هذه الصورة يستدعى أن اللفظ المناسب لم يكن معروفا من أول الأمر ، وهذا مستحيل فى العبارات . أما الأحكام فان نسخها معقول ، لأنها تتبع أحوال الناس وتطوراتها ، خصوصا فى أول التشريع ، فان الأحكام المؤقتة ضرورية لمن لا عهد له بالشرائع. ومع هذا كله فأى دليل يدل على أن لفظ خمس رضعات يحرمن نسخ وبقى حكمه معمولا به ؟ إنه لا دليل عليه مطلقا لا فى قول عائشة ولا فى حديث آخر ، فعلى تسليم أن هذا كان قرآنا فى عهد رسول الله فانه يكون قد نسخ كله فى عهده . وهذا هو المعقول .

وبعد : فان بعض المحققين من العلماء قال إن ما ورد فى خبر عائشة هذا وفى خبر عمر ابن الخطاب من أن الرجم كان فى كتاب الله ، ليس معناه أنه كان آية فى كتاب الله ، بل معناه أن من بين الأحكام التى أوحى الله بها الى رسوله وأمرنا القرآن باتباعها أن رضاع عشر مرات من ثدى المرأة يوجب حرمة المصاهرة ، واستبدل هذا بخمس رضعات ، وكذلك من الأحكام التى أوحى بها اليه رجم المحصن إذا زنى . أما كونها موحى بها فذلك لأنه صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى . وأما كوننا مأمورين باتباعها فى القرآن فذلك لأنه تعالى قال : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » فيكون محصل معنى خبر عائشة هذا أنه كان من بين الأحكام التى أنزلت على رسول الله وأمرنا بالعمل بها فى القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن ثم نسخت بخمس معلومات ، وقد توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يذكرون الحكم الأخير فلم ينسخ . ولو أن القائلين باشتراط الخمس فى التحريم أوّلوا بهذا فانه يكون حسنا ولا يرد عليهم شىء . ولكنهم لم يفعلوا مع أنهم أولوا آخر العبارة فقالوا إن معنى كونه كان يقرأ بعد رسول الله كان يذكر حكمه .

(٤) أما بيان الأحكام الفقهية التى تؤخذ من خبر عائشة فان الشافعية والحنابلة قالوا إن الرضاع لا يوجب التحريم إلا إذا رضع الصبى من ثدى امرأة لا يقل سنها عن تسع سنين خمس مرات لا شك فى عددها بشرط أن لا يزيد عمره على حولين ولو لحظة واحدة . ولكن الشافعية قالوا لا تحتسب الرضعة إلا إذا شبع الصبى وترك الثدى انصرافا عنه . أما إذا ترك الثدى ليتنفس أو نقلته المرضعة من ثدى لآخر فانها لا تحسب عليه . ومثل ذلك ما إذا قطعته المرضعة

عن الرضاع لقضاء حاجة يسيرة وعادت اليه سريعا فانها تحسب رضعة واحدة ، أما إذا قطعته ولم تعد اليه أصلا فانها تحسب ولو لم يشبع . أما الحنابلة فانهم قالوا متى تناول الصبى الشدى وتركه ولو للتنفس فان الرضعة تحسب عليه . ولكن مذهب الشافعية هو الموافق للغة والعرف ، لأن الرضعة المشبعة لا يقطعها ترك الثدى للتنفس أو نقل الصبى من ثدى لآخر . ثم إن الحنابلة قد اشترطوا أن يكون اللبن قد نزل للمرضعة بسبب الحمل وإلا فلا يعتبر . أما الشافعية فانهم قالوا متى بلغت المرأة سن الحيض وهو تسع سنين إلا قليلا ونزل لها لبن فانه يوجب التحريم بالنسبة لها . هذا هو رأى الشافعية والحنابلة . وخالفهم فى قدر الرضاع الحنفية والمالكية ، فقالوا : إن القدر اليسير من لبن المرأة ولو قطرة يوجب التحريم إذا وصل الى جوف الصبى من الفم أو الأنف ، أما إذا وصل بالحقنة من القبل أو الدبر فانه لا يحرم عند الحنفية ويحرم عند المالكية بشرط أن يكون كمية مغذية .

ووافق الشافعية والحنابلة الحنفية فقالوا : إذا وصل لبن المرضعة الى جوف الطفل بالحقنة فانه لا يعتبر رضاعا محرما . على أنهم قد أجمعوا على أنه لا يشترط مص الثدى ، بل المدار على وصوله الى الجوف من الفم ولو بطريق الصب فى حلقه أو الأنف .

ثم إن المعتمد عند الحنفية أن مدة الرضاع حولان كاملان ، فاذا رضع صبى من امرأة بعد سن الحولين فان رضاعه لا يعتبر . ويعتبر رضاعه أثناء الحولين ولو فطم واستغنى عن اللبن باتفاق الثلاثة . وخالف المالكية فى ذلك فقالوا إذا رضع أثناء الحولين ولو بعد سنة واحدة وهو فطيم مستغن عن لبن الثدى فان رضاعه لا يعتبر . وخالفوا أيضا فى تحديد مدة الرضاع فقالوا إنها حولان وشهران ، أعنى ستة وعشرين شهرا ، فاذا رضع الطفل فى أثنائها وهو غير فطيم فان رضاعه يوجب التحريم .

ومن هذا يتضح أن الأئمة الأربعة اشترطوا فى التحريم بالرضاع أن يكون الرضيع طفلا ، وذهب اثنان الى أن قدر الرضاع يجب أن يكون خمس مرات مشبعات كما قال صلى الله عليه وسلم: « إنما الرضاع من المجاعة ». أى لا يعتبر إلا إذا سد جوع الصبى . وهذا هو المعقول فى تعليل التحريم بالرضاع ، فانهم قالوا إن علة التحريم هى كون الصبى صار جزءا من المرأة برضاع لبنها ، وهذا القدر كاف فى تغذية الصبى ، لأن معدته صغيرة فينمو به جسمه ويصير جزءا من المرأة . أما ما ذهب اليه المالكية والحنفية من أن القطرة الواحدة تكفى فى التحريم فانه ينافى ظاهر هذا الحديث مع كونه حديثا صحيحا متفقا عليه . وأيضا ينافى حديث ابن مسعود وهو «لا رضاع إلا ما أنشر العظم وأنبت اللحم» أخرجه أبو داود . فهذا صريح فى أن القطرة لا تكفى .

وقد استدل المالكية والحنفية بقوله تعالى : « وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » فالله سبحانه لم يقيد الرضاع بأى مقدار . وقد روى عن ابن عمر أنه قيل له إن

ابن الزبير يقول : لا بأس بالرضعة أو الرضعتين ، فقال : قضاء الله خير من قضائه قال تعالى : «وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم » فاستدلال ابن عمر بهذه الآية فيه رد لمثل هـذه الأحاديث بأنها منسوخة .
وقد يقال إنه لا دليل على النسخ ، والنبى صلى الله عليه وسلم قد بين بهذه الأحاديث ما أجملته الآية ، لأن الله سبحانه قال : «لتبين للناس» . وإلا فـكيف علم الناس شرائط الرضاع وأحكامه بالتفصيل ، وكيف علموا باقى المحرمات بالرضاع مع أن الله لم يذكر سوى الأم والأخت ؟ فظاهر الأحاديث وحكمة التحريم بالرضاع يؤيدان القائلين باشتراط التغذية بلا نزاع .

أما اشتراط الطفولة فى الرضيع فقد أجمع عليها الأئمة الأربعة . وخالفهم فيه بعض المجتهدين ، فقال : إن رضاع الـكبير يوجب التحريم كرضاع الصغير ولو كان رجلا له أولاد . وقد استدلوا على ذلك بحديث صحيح رواه مسلم وغيره . وحاصل معناه : أن أبا حذيفة زوج سهلة بنت سهيل قد تبنى مولى له يقال له سالم ورباه وهو صغير ، فـكان بمنزلة الابن الحقيقى بدون فرق ، فلما نهى الله الناس عن التبنى بقوله «ادعوهم لآبائهم» وأمر النساء أن يحتجبوا عنهم ، شق ذلك على سهلة فشكت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرها صلى الله عليه وسلم أن ترضع سالما ، وهو رجل كبير ، لتصير أمه من الرضاع فلا يحرم عليه النظر إليها . فهذا الحديث الصحيح نص على أن رضاع الـكبير يوجب التحريم .

وقد أجاب عنه الأئمة بأن ذلك خاص بسهلة . ولـكن لا دليل على الخصوصية . وقد أجاب بعض المحققين بأن رضاع الـكبير ينفع فى مثل هذه الحالة فقط وهى حالة الضرورة ، لا فرق فى ذلك بين سهلة وغيرها ، لأن الغرض من ذلك إيجاد وسيلة شرعية تبيح هذا المحظور الشاق . ورضاع سالم فى هـذه الحالة ليس بممنوع مع كونه أجنبيا لا يحل له لمس ثديها ، لأنه فى الواقع بمنزلة الابن الذى لا يشتهى ، فلا حاجة الى أن يقال إنها عصرت له اللبن وشربه ؟

عبد الرحمن الجزيرى
من علماء الأزهر

الخير فى خبايا الارض

حكى عن المعتضد بالله الخليفة العباسى أنه قال : رأيت على بن أبى طالب فى المنام يناولنى مسحاة ، وقال : خذها فانها مفاتيح خزائن الأرض :

ولقى عبد الله بن عبد الملك يوما ابن شهاب الزهرى فقال له : أدلـكنى على مال أعالجه ، فانشأ الزهرى يقول :

اتبع خبايا الأرض وادع مليكها ... لعلك يوما أن تجاب فـترزقا
فيؤتيك مالا واسعا ذا متانة ... إذا ما مياه الأرض غارت تدفقا

حدث جلل لا يمكن الصبر عليه

فـلا والله ما فى العيش خـير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

بلغنى أنه ظهر فى عالم المطبوعات كتاب سخيف يدعو الى الالحاد علنا بكل أنواع الدعاية ، ويقول إن هناك جماعة منظمة لبث هـذه الدعوة ، ولها فروع . وقد أخـذ صاحبه يرسله الى الصحف والمجلات . وما أدرى كيف يـكون ذلك فى عهد حكومة إسـلامية دينها الرسمى هو الاسلام ، وفى عهد ملك صالح أصبحت تضرب به الأمثال فى محبة الدين والعلم ! فان كان كاتبه مغترا بحرية الاعتقاد التى كفلها الدستور ، فليعلم أنه أخطأ فى فهم الدستور كما أنه أخطأ فى فهم الدين والعـلم . فان الدستور كفل له أن يعتقد ما شـاء فى خاصـة نفسه ، لا أن يدعو النـاس الى الـكـفر والخروج على دين الدولة الرسمى ، وانتهاك مقدساتها ونشر الفساد وإثارة الفتن التى لا يعـلم مدى غايتها إلا الله تعالى ، خصوصا فى مثـل تلك العقيدة الفطرية المتأصلة فى النفوس تأصلا لا يزعزعه شىء ، بل هو يأتى على كل شىء . وأمامك تاريخ العصور والأمم وأقوال الفلاسفة القـدماء والمحدثين فى ذلك ، حتى قال ديكارت الفيلسوف الشهير الذى جعل أساس فلسفته الشك ثم انتهى بعد الى اليقين البالغ ، يقول :

« إن عندى شعورا بوجود ذات كاملة لا يفترق فى الوضوح عن شعورى بأن مجموع زوايا أى مثلث تساوى زاويتين قائمتين ، إذا فالله موجود »

ويقول فى بيان تمجيد الله الذى ملا قلبه : « إن لفظة الله إن لفظت بها فانما أعنى بها ذاتا لا نهاية لها أزلية دائمة مستقلة عالمة بكل شىء ، وقادرة على كل شىء ، وإنى أنا وجميع العوالم الموجودة مخلوقة لها وناشئة منها »

ولا بأس أن نعجل بذكر شىء من أقوال فلاسفة أوربا الذين هم أساطين العلم الطبيعى الذى يستند إليه أولئك الزعانف الذين ليسوا فى العير ولا فى النفير ، فان علم الطبيعة برىء مما نسبوه إليه وافتروه عليه ، كما سنبين ذلك بعد أتم بيان . وخـذ الآن ما قاله أحـد الفلاسفة العظام فى الاستدلال على الله ، يقول :

« لو كان الوجود كله مكونا من مواد صماء عمياء لا عقل لها ولا إدراك ، فمن أين نشأ للانسان الذى خلق من مواد لا عقل لها ذلك العقل والادراك ، وفاقد الشىء لا يعطيه ! إذا فلا بد أن يكون فى الوجود عقل مطلق وإدراك لا حـد له . ولا مناص لنا من تقرير تلك الحقيقة وهـو أنه يوجد فى العـالم شىء موجود بذاته أبدى لا يدركه تحول ولا يعتريه تبدل ، لأنا إذا فرضنا أنه كان هناك وقت ليس فيه شىء مطلقا أى لا شىء قائم بغيره ولا شىء

قائم بنفسه من القدم لزم ألا يكون غير العدم ، والعدم لا يصلح لايجاد شيء ، فلا بد أن تكون تلك الحقائق الأبدية التى تدرك بالنظر فى الوجود جارية على سنن معينة بلا تحول ولا تبدل هى صادرة من الله » .

ويقول الفيلسوف « ليبنتز » الألمانى :

« إن الله هو العلة الأولى لوجود الأشياء ، لأن كل ما هو محدود ومتناه ككل شيء تقع عليه أنظارنا وتتأثر له مشاعرنا ، هو من الممكنات ، أى ليس بضرورى الوجود ، فقد يوجد أو لا يوجد ، وليس فى أحدها شيء يوجب له الوجود بذاته ، والزمان والمكان والمادة المتحدة فيما بينها تستطيع أن تقبل حركات وصورا من نوع آخر غير النوع الحالى . إذاً يجب البحث عن الأولية لوجود العالم الذى هو مجموع هذه الكائنات الممكنة ، يجب البحث عنها فى الذات التى تحمل معها علة وجودها ، فهى الواجبة الوجود والأزلية .

« يجب أن تكون هذه العلة عاقلة ، لأن الكون الموجود لما كان ممكنا أى قد يكون ولا يكون ، وفى الامكان حدوث دنياوات أخرى من نوعه ، فيلزم من ذلك أن تكون علة الوجود محيطة بعلاقات أجزائه قبل أن تتمكن من إحداث دنيا جديدة فيه ، ويكون تحديد تلك الدنيا على حال مناسب للمجموع فعل إرادة واختيار ، ولا شيء يجعل تلك الارادة فعالة إلا القدرة التى لها .

« هذه العلة الحكيمة يجب أن تكون غير محدودة ولا متناهية من كل وجه ، وكاملة كمالا مطلقا من حيث القدرة والحكمة والرحمة ، ولما كان الوجود كله مرتبطا بعضه ببعض ومفرغا فى قالب واحد فلا سبيل لفرض وجود علة ثانية معها » . الى آخر آرائهم الفلسفية التى سنلم بكثير منها ومن غيرها بعد ، إن شاء الله .

وما رأيت أمرا أعجب مما نحن فيه ، فان الناس يأخذون فى كل صنعة من الصنائع وحرفة من الحرف على يدى من ليس يحسنها ولا هو مستعد لها ، فترى كل إنسان ملتزما حده غير مدع ولا متبجح . ولكنك تراه فى العلوم العقلية والموضوعات الدينية ينطلق انطلاق الحيوان بلا عقل ولا روية بمقتضى الحرية الممقوتة .

وليعلم أولو الأمر وزعماء الأمم أن فوضى العلم والدين والأخلاق أضر على الناس من فوضى الصنائع والحرف . ولا شيء أسقط للأمم من شيوع الالحاد فيها ، ولا أدعى لتدهورها من ضياع الأخلاق وعدم فهم الحرية على وجهها الصحيح . وانظر الى حال الأمة الاسلامية أيام كانت متمسكة بدينها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، ولم تكن قوالة لا فعالة ، والى حالها اليوم وليس لها من العزة والكرامة إلا دعاوى لسانية وأمانى خيالية اكتفوا بها اكتفاء الضعيف بالخيالات والأوهام .

فنسأل الله أن يرشدنا الى الفهم الصحيح ، والاخلاص الصحيح ، حتى لا نسير فى تكوين الأمة على غير المعقول ، فنبنى الدور الرابع من الحريات المتطرفة قبل الدور الأول من التربية الصحيحة ، واحترام الدين والآداب . وقد قال تعالى : « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه،لبئس ما كانوا يفعلون .ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ،لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لما وقعت بنو اسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم فى مجالسهم وآكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ، وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » . ويقول عليه السلام : «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أوليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » الى آخر ما ورد فى الكتاب والسنة ، وهو كثير .

ولنقل اليوم كلمة موجزة فى مقدمة الكلام على هذا الموضوع الذى سنفيض القول فيه بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ، فنقول :

من أنكر وجود الله لم يزد على أن قال عن نفسه إنه مجنون ، فاننا إذا رأينا كلمة مركبة من ثلاثة أحرف لم نستطع أن نقول إنها مكتوبة من غير كاتب . فما بالك بهذا الكون الباهر بسمائه وأرضه ونجومه وأقماره وشموسه وكل عجائبه ! ولكن من عرف أن الانسان مستعد لكل شىء حتى أفظع أنواع الجنون لم يستغرب ذلك منه .

وقد قلنا فى كلمتنا السابقة (مشكلة التوحيد) : إن الحمار إذا ضرب التفت لأنه لا يتصور أن يوجد ضرب بلا ضارب ، فمن تصور أن يوجد أثر بلا مؤثر ونظام بلا منظم وأشياء متقنة كل الاتقان بلا صانع حكيم ، فهو أجهل من الحمار . ولكنا نتنزل فنسمى هذا الصنف من الناس بحمير البشر . وقد أنشدوا قديما :

قال حمار الحكيم توما   لو أنصف الدهر كنت أركب
فاننى جاهل بسيط   وصاحبى جاهل مركب

وليس هناك غرابة فى كل ما تراه من الانسان أو تسمعه عنه ، فقد قرأنا فى تاريخه أن فريقا من الناس أنكر المحسوسات بالمرة وهم (السوفسطائية) والمحسوسات هى هى وضوحا وجلاء . وقرأنا أن من الناس من قال فى كل شىء : لا أدرى وهم (اللاأدرية). ومعنى ذلك أنهم غير معترفين بوجود شىء حتى أنفسهم ، وشاكون فى كل شىء حتى فى شكهم .

أما الأولون فجازمون بانكار المحسوسات وعدم تحققها ويقيمون البرهان على ذلك .

ولا أدرى كيف لا يجعلون إقامة البرهان منهم برهانا على وجود الأشياء . ولكن من عرف الانسان لم يعجب من جهله وتناقضه . وكم فى تاريخ الانسانية من المضحكات والمبكيات !

ولنتل عليك بعض ما قال الله فيه : يقول الله عز وجل مبينا لما جبل عليه : « إنه كان ظلوما جهولا » فجعله جهولا ولم يجعله جاهلا ، وجعله ظلوما ولم يجعله ظالما « إن الشرك لظلم عظيم » ويقول : «وخلق الانسان ضعيفا » . وعندى أن ضعفه العقلى أكبر من ضعفه الجسمى ، إلا من أيده الله بنور من عنده . ويقول فى حق فريق من الناس : «أولئك كالأنعام بل هم أضل» . ويقول : « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون »

وكيف لا تعجب من جهله وقد وصل من معاداة البرهان ومصادمة العيان الى حد ما قال الله فيه : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » . ويقول فى الآية الأخرى : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شىء قبلا ما كانوا ليؤمنوا » .

فانظر الى ذلك التصلب فى الجهل والعناد أمام آيات الله وأنبياء الله مع استعداده فى الوقت نفسه لأن يضحك عليه بعض المضلين ويلعب به بعض المشعوذين . فكيف لا نقول إن نوع الانسان مجمع العجائب والغرائب ، ومظهر المتضادات والمتناقضات !

وبعد : فاياك أن تظن أن إلحاد الملحدين لضعف فى دلالة الآيات أو قوة فيما لديهم من الشبهات ، كيف وقد وصلت الآيات الى حد الحس ، وصارت أبهى لدى العقلاء من نور الشمس ، وقام عليها ألوف البراهين ، ولا شىء أجلى منها لدى من هو مستعد لأنوار اليقين :

وليس يصح فى الأذهان شىء ... إذا احتاج النهار الى دليل
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

« أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون »

فليس تلكؤ من تلكأ فيها لشبهة يعتد بها أو يعول عليها ، ولكن لقصور فى استعداده وخلل فى عقله ، ومزيد سلطان الوهم لديه ، وتسلط جميع الآفات النفسية عليه !

وقد قرروا فى الفلسفة أن للوهم سلطانا قويا للغاية ، حتى إنه لينازع العقل فى البدهيات ويسلم المقدمات ثم ينازع فى النتيجة . الى هذا الحد وصل سلطان الوهم على النفوس ، والى هذا الحد أثر فى الأدمغة البشرية !

عرفنا ذلك كله فيما قرأناه من الفلسفة ، فلا نستغرب شيئا من هذا النوع المذبذب الذى هو أعجوبة المخلوقات ، ولكن الواجب أن نحذف هذا الفريق المصاب بأفظع أنواع الجنون

من سجل الانسانية وحساب العقلاء . وإذا التفتنا اليه وجب أن نعتبره عضوا فاسدا يجب بتره وإهماله مع الاحتياط الواجب لصيانة جسم الانسانية من إصابة عدواه التي هى شر من عدوى الطاعون . وإن من الاعضاء الفاسدة ما لايفرز إلا قيحا وصديدا ، فيجب الابتعاد عنه وعدم القرب منه ، وقد عرفت أن القرآن جعلهم أحط من الحيوان فقال : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » .

فاذا لا غرابة بعد أن علمنا أن الانسان مستعد لأن يكون أشرف المخلوقات على الاطلاق وأحطها على الاطلاق ، فى أن نرى فريقا ينكر وجود الله وهو أوضح من حسه وأقرب اليه من نفسه : « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » . ولكنه ليس فيه استعداد لفهم البراهين ولا للتحلى بحلية اليقين ، فهو كالحجارة أو أشد قسوة ، كما بينه الحكيم العليم . وهذا الفريق جدير بنا أن نسميه حمير البشر كما قلنا .

وقد قال بعض الفلاسفة : « إن من الناس من تفسد إنسانيته فيصبح غير إنسان » .

ولعل المقدمة لا تحتاج من البيان الى أكثر من هذا ، وستسمع ما يشفيك ويكفيك إن شاء الله ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

فى ذم الكذب

قال الله تعالى فى ذم الكذب : « إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله »

وروى صفوان بن سليم قال : قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : أيكون المؤمن جبانا ؟ قال نعم (أى قد يكون كذلك ولا يمتنع أن يكون مع ذلك مؤمنا) ، قيل أفيكون بخيلا ؟ قال : نعم . قيل : أفيكون كذابا ؟ قال : لا .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : « ولاتلبسوا الحق بالباطل » أى لاتخلطوا الصدق بالكذب .

وقيل فى منثور الحكم : الكذاب لص ، لأن اللص يسرق مالك ، والكذاب يسرق عقلك.

وقال بعض الحكماء : الخرس خير من الكذب ، وصدق اللسان أول السعادة .

وقال بعض البلغاء : الصادق مصان جليل ، والكاذب مهان ذليل .

وقال أديب : لا سيف كالحق ، ولا عون كالصدق .

كلمات اجتماعية

فى الزواج ووحدة الزوجة وتعدد الزوجات

الزواج حاجة من الحاجات المعيشية غرزها الخالق الحكيم فى الكائنات الحية لحفظ أنواعها ، واستمرار وجودها . فاذا لم يجعله حاجة ماسة مرتكزة على أقوى الغرائز النفسية لم يحفل به حى ، وبخاصة فى النوع البشرى ، لأن تكاليف الحياة الزوجية شاقة لا يتحملها الانسان إلا إذا كانت حاجته الى الزواج قاهرة .

وإنا لموردون كلاما عاما عن هذه العلاقة الاجتماعية ، ثم مردفوه من الأبحاث بما يقتضيه موضوعه الخطير فنقول :

وحدة الزوجة :

وحدة الزوجة هو الأصل فى الزواج ، وهو أول ما حدث فى العالم الانسانى ، ثم تلاه تعدد الزوجات لأسباب سنبسطها فى موضعها .

فضلا عن أن وحدة الزوجة هى الأصل ، فان هنالك أسبابا معيشية واجتماعية تدعو اليها . مثال ذلك الأمم التى يصعب على آحادها الحصول على ما يكفيها من المواد الغذائية ، كالقبائل الساذجة المنتشرة فى البرازيل من أمريكا الجنوبية ، فان قلة الغذاء تجبر رجالها على الاكتفاء بزوجة واحدة ، لصعوبة الحصول على القوت . وتجرى هذا المجرى عينه قبائل البوشيمان فى أفريقيا . فانهم مع سماح شرائعهم لهم بتعديد الزوجات يكتفون غالبا بزوجة واحدة لتلك العلة عينها .

وقد شوهدت علاقة أكيدة بين وحدة الزوجة وبين شغل القبيلة لسطح متسع من الأرض ، وتبعثرها عليه . مثال هذا قبائل الفيداه فى الهند فانهم يكتفون بزوجة واحدة ، ويتشددون فى ذلك للعلة المتقدمة .

ثم أن ميل المتوحشين لخطف النساء بالقوة يدعو الى توحيد الزوجة ، فان الرجل لا يتفق له اختطاف امرأتين دفعة واحدة . فكانت وحدة الزوجة سابقة على التعدد لا محالة .

وقد استمر بعض المتوحشين على توحيد الزوجة مدة مديدة مضطرين الى ذلك بصعوبة حصول الرجل على أكثر من زوجة واحدة إذا كانوا فى جهة لا يكثر فيها النساء .

ومع هذا فلم تكن الرابطة الزوجية على شىء من المتانة . لأن الأقوى من المتوحشين كان يعدو على الضعيف فيسبى امرأته . قال العلامة اللورد أفبرى : إن الرجل من قبائل خليج هودسون بأمريكا لا يستطيع أن يحظى بزوجة إلا إذا كان صيادا ماهرا ، وقويا مقداما . أما إذا كان ضعيفا عاش عزبا ولا كرامة .

ومن الأسباب الاجتماعية التى حددت وحدة الزوجة، ارتقاء فكرة الملكية عند المتوحشين وانتظام أمر الآخذ والاعطاء بينهم . وقد قلت حوادث خطف النساء عند ما اعدت القبائل لها عدتها فى الدفاع، فقد كان المتعرض لها يجد من الصعوبات مايثنى عزمه، أو يقع أسيرا فيلاقى صنوف التعذيب . واستمرت هذه القلة لما بدأت الأمم تشترى النساء بالدراهم أو تعطاهن فى مقابل عمل يعمله الرجال على سبيل الأجر. ومن دفع لامرأته ثمنا أو تحصل عليها بعد خدمة السنين الطويلة عز عليه أن يسلم فيها إلا بعد جهاد جهيد .

ولما كان رجال القبيلة كافة لم يتحصلوا على نسائهم إلا ببذل جهود كبيرة، فتراهم يتحزبون مع كل من يدافع عن زوجته . ونشأ من ذلك اعترافهم لكل منهم بحق صيانة امرأته . وهذا السبب عينه قلل من حوادث الطلاق . فان الرجل متى أدرك أنه لا يستطيع أخذ امرأة غيرها إلا بدفع مبلغ من المال أو بخدمة سنين عديدة، تبصر فى أمر الطلاق وكبر عليه طرد امرأته .

ثم إن هذا المبدأ ساد كل السيادة فى البلاد حين تساوى فيها عدد الرجال والنساء، سواء أكانت بسبب قلة الحروب المجتاحة للرجال، أم بغيرها من الأسباب . وفى هذه الحالة ظهر أمام تعدد الزوجات حائل طبيعى شديد . فانه فى مثل هذه الحالة لا يمكن أن يحتاز الرجل بضع نساء إلا إذا أوجب العزوبة على بضعة رجال . هذه الحالة المحرجة تدعو الرجال لكراهة تعدد الزوجات، فيتكون رأى عام مضاد للتعدد فيبطل .

وقد روى العلامة (لاو) إن هذه الحالة حدثت فى قبائل الدياكس من جزيرة بورنيو بالاقيانوسية، فانها بعد أن كانت معددة للزوجات رجعت الى مبدأ التوحيد . حتى إنه كان الرئيس منها إذا عدد زوجاته فقد مكانته فى أفئدة قومه .

ومن فوائد وحدة الزوجة فى مثل هذه الحالة أنه متى تساوى عدد الرجال والنساء فى مجتمع، كان ذلك أدعى لكثرة النسل وحفظه . والسبب الطبيعى فى ذلك ما شوهد أن عدد الذرية يكون أكثر نسبيا فى المجتمعات التى لكل رجل منها زوجة واحدة، من عدد الذرية فى المجتمعات التى يكون لكل رجل منها أكثر من واحدة من النساء .

تعدد الزوجات :

تعدد الزوجات موجود فى كل قارات العالم، ولدى جميع الأجناس البشرية، فهو منتشر لدى الفويجيين من أمريكا والأوستراليين والتسمانيين، وفى كاليدونيا الجديدة وتاناوفات وإيروانجا وليفو، وعند قبائل الماليوبولينزيين وتاييتى وجزائر ساندويتش وجزائر تونجار وزيلاندة الجديدة ومدغشكر وسومترا . وشائع لدن قبائل أمريكا المتوحشة جنوبا وشمالا، وعام عند أهل أفريقيا كافة، وعند أكثر أهل آسيا، ولا نجد بأسا من أن نقول وأوربا أيضا . والفارق بينه عند هذه الأمم وبينه عند أهل أوربا أن الأولين يعترفون به فى قوانينهم،

والأوربيون لايعترفون به ، ولكنهم يأتونه باسم المخادنة . فان من الشائع هنالك أن يحتاز الرجل من النساء عددا بقدر ما يستطيع الانفاق عليهن ، ولكن خارج نطاق القانون ، بحيث لا يكون لأولئك النسوة أدنى حق يطالبن به الرجال إذا هجروهن أو استولدوهن أطفالا ولم يعترفوا بهم ، وقد أصبحت هذه العادة من أعقد المسائل الاجتماعية لديهم .

وتوجد أمم تسمح قوانينها بتعديد الزوجات ، ولكن تحول الفاقة بين آحادها وبين العمل بهذه الرخصة . كما هى الحال لدى قبائل الجوندس والاوستياك والفيداه بالهند .

فاذا سمحت الأحوال فى بعض البيئات للنساء بالحصول على قوتهن بمحض كدهن وكدحهن ، فلا تمنع الفاقة السائدة فى مثل تلك القبائل من تعديد الزوجات ، كما هى الحال عند الأستراليين والفويجيين .

ولا يذهبن أحد القارئين عند ذكرنا للأستراليين الى أننا نقصد الانجليز المستعمرين لها . فان هؤلاء لا يختلفون فى عاداتهم ونظمهم الاجتماعية عن إخوانهم فى بيئتهم الأصلية ، ولكنا نقصد بهم القبائل العائشة فى أستراليا ، وهم على حالة توحش تام ، ولا يقبلون أن يدخلوا فى المدنية بحال من الاحوال .

يبالغ بعض السياح فى انتشار مبدأ التعدد عند جميع الرجال فى البيئات التى تسمح به ، وهذا غير معقول ، فانه يلزم منه أن يكون النساء فى تلك البيئات أكثر من عدد الرجال اضعافاً كثيرة ، ولا نرى لذلك سببا علميا ، فان الخالق جل وعز جعل عدد الأناث بقدر عدد الرجال مع تفاوت يسير، فتارة يزيد عدد النساء بضع عشرات من الألوف ، وتارة ينقص بذلك القدر ، فلو كان ما يقوله أولئك السياح صحيحا لكانت للبيئات المتوحشة سنة خاصة ، وليس ذلك بصحيح . فقد أثبت الرواد العلميون أن تعديد النساء فى تلك البيئات قاصر على الأغنياء والقادة دون سائر الأفراد . فان أهالى جاوه وسومترا تسمح قوانينهم بالتعديد ، ولكنه قاصر على الملوك والرؤساء . وقد شوهد مثل ذلك فى جميع الأمم المعددة للزوجات .

لتعديد الزوجات أسباب متعددة :

ليس الداعى لتعديد الزوجات ينحصر فيما يتبادر للأذهان من حب الاستكثار من الشهوات ، ولكن توجد أسباب توجبه على الآخذين به فى كثير من البيئات .

من ذلك : أنه قد يمتاز رجال فى كل قبيلة بقوتهم العضلية وحيلهم العقلية ، فهؤلاء يعتبرون من كبار المحاربين ، وقد يرتقون الى درجة الرياسة فى قبائلهم . هذه الميزة تمكنهم من اختطاف عدة نساء سواء أكن من قبيلتهم نفسها أم من قبائل أجنبية . ومن هنا اعتبر اختطاف المرأة من علامات الفخار والمجد . وكلما تعددت النساء عند رجل كان نخاره أعظم وشجاعته أدعى للاعجاب . فنشأ مبدأ الاستكثار من النساء قائما فى أكثر الحالات على عاطفة حب الظهور بمظهر

الممتازين من الرجال . فنقل الرحالة (كلا فيجيرو) أن ملوك المكسيك بأمريكا كانوا يعتقدون أنهم لا يستطيعون أن يحفظوا مكاناتهم إزاء الناس إلا إذا أكثروا من النساء والسرارى .

وقد أكثر أهل الوجاهة فى جزيرة مدغشكر من احتياز النساء ، استزادة من الوجاهة ، حتى اضطرت حكومتهم للحظر على غير الرؤساء باحتياز أكثر من اثنتى عشرة امرأة .

وروى الرحالة (بورتون) أن الفخر باقتناء النساء بلغ لدى بعض قبائل أفريقيا حد الإفراط فرأى أن لبعضهم نحو ثلاثمائة امرأة .

وانتقل مبدأ التفاخر بعدد النساء الى أوربا ، فروى المشترع (مونتسكيو) الفرنسى المتوفى سنة (١٧٥٥)أن ملوك الأسرة الميروفنجية التى حكمت فرنسا من القرن الخامس الى سنة (٧٥٢) كانوا يعتبرون من المفاخر استكثارهم من النساء .

وهناك أسباب اقتصادية بعثت على تعدد الزوجات ، منها : أن المرأة كانت تقتنى لتشتغل فى الحقل وفى البيت . وقد اعتاد رؤساء كاليدونيا الجديدة بالاقيانوسية أن يتزوج أحدهم من عشرة الى ثلاثين امرأة بقصد تشغيلهن فى الحراثة والسقاية .

هذا السبب الاقتصادى أدى أهل أفريقيا أجمعين الى تعديد الزوجات ، فان عمل النساء هنالك السروح الى مساوف شاسعة لجلب الخشب والماء ، وأزواجهن يجبرونهن على الزرع والحصاد .

وعند أهل الـكَفْر وهو قطر من أفريقيا الجنوبية يشغل الرجل امرأته فى أشق الأعمال وأقساها . وهو يعتبرها بقرة له . وقد كلم الرحالة (شوتر) الانجليزى أحد الكفريين فى شأن تشغيل امرأته . فقال له كيف لا أشغلها وقد اشتريتها بمالى ؟

وبناء على هذا ، فان كثرة النساء عند هؤلاء الاقوام هى بمثابة كثرة الأرقاء والخدام .

ومما ساعد على انتشار تعدد الزوجات ، اعتبار هذه العادة من الصالحات الدينية . وقد دلت أحوال قبائل (الشيبوى) على أنهم يعتبرون المعدد للزوجات محترما عند الروح الأكبر وهو معبودهم الأقدس .

وكذا كان الشأن عند قدماء المصريين . فان تعديد الزوجات عندهم كان لا ينافى الأخلاق الفاضلة ولا التعاليم العالية . وما خلفوه من الآثار يدل على أن الله بارك فى رجال كانت لهم أزواج عدة ، وسرار كثيرة .

ومن الغريب أن هذا الاعتبار لمبدأ تعدد الزوجات ليس خاصا برجال أولئك القبائل ، بل بنسائهم أيضا . فقد شوهد أن نساء قبائل الكوش من أمريكا الشمالية لا ينظرن لتعدد الزوجات بعين الكراهة ، ولكنهن يعتبرنها أمرا حسنا . والسبب فى ذلك أن المرأة لما كانت معتبرة كالبهيمة فهى تحب أن يكون معها شريكات لتخف عنها الأعمال . وقد روى الرحالة لفنجستون الانجليزى أن نساء قبائل الما كولوس من أفريقيا عند ما سمعن بأن الانجليز لا يعددون الزوجات

صحن قائلات : إنهن لايستطعن أن يفهمن كيف أن النساء الانجليزيات يرضين بهذه العادة ، فان الرجل الفاضل يجب عليه أن يعدد زوجاته إدلالا على غناه وسماحته .

هذه الآراء كما يقول الرحالة المذكور آنفا سائدة لدى القبائل النازلة على طول نهر الزامبيز من أفريقيا الجنوبية .

ومما شوهد عند السود أنه ليس لديهم حب ولا عطف على المرأة غير الميل البهيمى المعروف . فقد روى مونتيرو الرحالة الذى مكث فى السودان سنين كثيرة أن الأسود لايعرف الحب للنساء ولا الغيرة عليهن ، وليس فى لغتهم ما يعبر عن هذه المعانى .

وذكر اللورد أفبرى الفيزيولوجى الانجليزى أن قبائل الهوتنتوت من أفريقيا ليس بين رجالهم ونسائهم تعاطف ، حتى ليظهر أنهم يجهلون الحب جهلا تاما . وذكر مثل ذلك عن أهل الـكَفْر من جنوب أفريقيا . وقال أن فى (يارينا) من السودان يتزوج الرجل بالمرأة ولايهتم بذلك إلا بقدر ما يهتم بقطع سنبلة من سنابل القمح ، ولا يشاهد عليه أقل علامة للميل اليها .

وليس هذا بعيب تعدد الزوجات ، ولـكنه عيب الجهل إذ أنه يوجد بين القبائل الموحدة للزوجة أيضا .

ومما يجب لفت النظر اليه أن نتيجة هذه الجفوة المتبادلة بين الرجال والنساء تظهر بأفظع مظاهرها فى سن الهرم ، لأن الرجل لا يـكون قد غرس فى قلب امرأته حباً فى صباه يحملها على العناية به فى كبره ، فتهمله أو تقصر فى خدمته فيموت على أسوأ حالة .

متناقضات أخرى لدى المتوحشين :

لايتأتى لباحث أن يجد قانونا تسيرعلى موجبه أحوال المتوحشين ، وذلك يرجع لأن الانسان لم يطبع كما طبع الحيوان على أوضاع واحدة من الحياة ، بسبب ما جبـل عليه من الحرية فى تصرفاته .

فبينما ترى كثيرا من المتوحشين لا يأبهون برابطة الزواج ، ولا يشعرون بأقـل عطف على نسائهم ، ترى قبائل أخرى تخالفهم فى هذه الميول كل المخالفة . مثال ذلك أمة الفيداه من بلاد الهند فانها تقدس الرابطة الزوجية الى أقصى حد ، فلا تسمح لزوجين أن ينفصل أحدهما عن الآخر لأى سبب من الأسباب ، مقررين أنه لا يجوز أن يفرِّق بين الرجل وامرأته إلا الموت . وهذا مستغرب من قبائل لا تزال فى الدرجة الأولى من سلم الاجتماع .

هل صادف الباحثون علاقة بين قوة أو ضعف الروابط الزوجية وبين الأخلاق ؟ لم يشاهد شىء من ذلك فهذه قبائل التلنكيس مع احترام رجالها لنسائهم ، وحسن معاملتهن ، ومع أن نساءها شديدات العطف على أزواجهن ، ومطيعات لهم ، تجدهم من ناحية أخرى أكذب خلق

الله ألسنة ، وأشدهم لصوصية ، وأقساهم قلوبا . فتجدهم يمثلون بأسراهم تمثيلا مريعا لعبا ولهوا ، ويقتلون ارقاءهم قسوة وتوحشا .

كذلك حال قبائل البشاسان فبينما تصادفهم يقتلون النفس بلا أقل حرج ، ويكذبون كذبا لا حد له ، تجد نساءهم من أفضل نساء الأرض محافظة على الاخلاص الزوجى .

وعلى شاكلتهم سكان جزائر فيجى، فبينما هم على غاية ما يكون من القسوة والفظاظة، تجدهم يحفظون عهد الزوجية حفظا لا مذهب بعده .

ومن متناقضات المتوحشين أن المرأة فى قبائل كوتياجاس ما دامت بلا زوج لها أن تعمل ما شاءت من الجرى وراء هواها ، ولكن متى تزوجت حافظت على عفتها حفظا ليس بعده مرمى . ويجرى مجراها نساء قبائل كوماناس .

وعند أهل بيرو من أمريكا الجنوبية لا يهتم الأب بالهيمنة على سيرة ابنته ، ولا تعاب لدى قومها أن يكون لها أخدان كثيرون . ولكنها متى تزوجت راعت أدق شرائط العفة ، وأصبحت مثالا فى الاخلاص للرابطة الزوجية . وقبائل السيبشاس لا يهتم رجالها أقل اهتمام بسيرة نسائهم قبل الزواج ، ولكنهم يحاسبونهن حسابا عسيرا على مراعاة الاستقامة بعد الزواج ، ويتأثرون من خرقهن سياج العفة تأثرا يخرجهم عن حدود الاعتدال .

العوامل التى تؤثر فى تحسن حالة النساء :

الذى شاهده المستقرون لأحوال النساء عند المتوحشين أن المرأة فى القبائل الحربية تكون أكثر عبودية للرجل ، منها فى القبائل التى بدأت فيها حياة صناعية ، لأن الحياة الحربية تجعل بين عمل الرجل وعمل المرأة حدا فاصلا ، خلافا للحياة الصناعية ، فانها تحدث بين الجنسين شبه تساو لاشتراك الكافة فيها ، فتنشأ للرجل فكرة المساواة وتنصلح حالة المرأة .

من أصرح الأمثلة على ماتقدم ما يشاهد فى أحوال القبيلتين المتجاورتين فى بولونيزيا وهما الفيجيون والساموان ، فالأولون يشتغلون بالحروب والغارات ،وحكومتهم استبدادية مطلقة ، وفى أفرادهم خشونة تبلغ حدود البهيمية . وللزوج على امرأته من الحقوق ماله على الحيوانات العجم ، فيستطيع بيعها أوذبحها والتغذى بلحمها إن شاء .

أما لدى الساموان الذين نشأت فيهم مبادئ الصنائع ، فقد وصلوا فى ظلال السلام الى حالة حسنة فى حكومتهم وآدابهم ، وحسنت حالة المرأة عندهم الى حد أن الرجل لا يحملها من الأعمال إلا ما تطيق، ويترك ما لا تطيقه لنفسه . وإذا حدث أن الرجل فارق امرأته بعد معاشرتها سنين ترك لها شطر ماله لتعيش به .

هذه لمعة من أحوال المرأة فى البيئات المنحطة لا غنى لباحث عن الالمام بها ليدرك فضل الديانة الاسلامية ومكانها من تقويم أحوال البشر ؟

محمد فريد وجدى

الاخلاق الفلسفية

— ٤ —

الضمير وقوة سلطانه على النفوس

ينقسم الضمير الى قسمين : ضمير نفسى ، وضمير أدبى أوأخلاقى . فأما الأول فهو إدراك ما يجيش فى نفوسنا من الانفعالات والاحساسات ، والأفكار والتأثرات . وأما الثانى فهو حال للنفس تحكم بوساطتها على الخير والشر من الأعمال والنيات . فالأول لايمثل فى علم الأخلاق إلادورا ثانويا وهو دور الشاهد أو المنبئ بأثر تلك الاحساسات ، وهولهذا يوجد فى الحيوانات. أما الضمير الأخلاقى ، فهو واسطة العقد وبيت القصيد ، لا نه هو القاضى المسموع الحكم ، ولا نه يستطيع أن يتعدى نفوسنا الى نفوس غيرنا ، فكما أنه يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر قبل العمل ، ويستريح للفضيلة ويؤنب على الرذيلة بعد الوقوع ، كذلك يستطيع أن يحترم الغير لفضيلته ، ويحتقره لرذيلته دون أن يشعر ذلك الغير بهذا الحكم الذى أصدره له أو عليه فى الخفاء .

نستطيع إذاً أن نقسم مهمة الضمير الأخلاقى الى قسمين : قسم إيجابى وهو قبل وقوع الفعل من الانسان ، والقسم الآخر سلبى أو عاطفى ولا يظهر أثره إلا بعد الوقوع . فأما القسم الأول فيشتمل على دورين :

(ا) تمييز الخير من الشر وإيضاح الفرق بينهما .

(ب) استمرار المناداة بنهج سبيل الأول ، وبالبعد عن الثانى والحذر من الوقوع فيه . وأما القسم العاطفى الذى هو بعد وقوع العمل ، فهو الى السلب أقرب منه الى الايجاب ، لأنه لا يحتوى إلا على انفعالات عاطفية ، مثل الاستراحة والغبطة بعد عمل الخير ، وكالتأنيب والتوبيخ بعد عمل الشر ، وهذه الأعمال وإن كانت سلبية إلا أن لها فى كثير من الأحيان آثارا بارزة ، فهى التى تحمل المذنب على الاعتراف بجريمته ولو لم تحم حوله شكوك الاتهام ، ولكنه لا يستطيع أن يقاوم هذا العذاب الداخلى الذى هو أسرع الى أكل ذبالة الفؤاد من نار السموم ، وهذا التأنيب هو الذى يدفع الآثمين الى الندم والتوبة .

هناك فرق آخر بين الضميرين النفسى والأخلاقى يجب الاعتناء به ، وهو أن الضمير النفسى مستمر العمل ؛ لأنه يتأثر بكل إحساسات الحياة وهى لا تنقطع . وأما الضمير الأخلاقى ، فهو لا يتحرك للعمل إلا حين يوجد الحكم بالخيرية أو الشرية على عمل الانسان أو على نيته المطلقة ، فهو لهذا يعمل حينا ويقف حينا آخر .

آراء العلماء فى الضمير :

اختلف الفلاسفة وعلماء الأخلاق والتربية فى الضمير اختلافات كثيرة ، وتشعبت فيه آراؤهم تشعبات شتى تبعت كل شعبة منها الأساس الجوهرى لمذهب صاحبها فى الفلسفة ، إذ ليس من المعقول أن يكون رأى التطوريين القائلين بتناسل الانسان من الحيوان متفقا فى تعريف الضمير مع مذهب العقليين الذين يؤمنون بوجود السر الربانى فى النفوس الانسانية ، ولذلك نرى من الواجب علينا أن نلم هنا ببعض هذه الآراء فى شىء من الايجاز ، ثم نعقب عليها بما نعتقد أنه الحق المبين ، غير ملتفتين الى النظام التاريخى بين هؤلاء العلماء :

(١) يرى « كانت » (١) الفيلسوف الألمانى المعروف أن الضمير هو شعاع نورانى هبط من لدن القوة العليا المطلقة الغير المحدودة الى القوة المقيدة المحدودة ، فهو هاديها الى الصراط القويم ، وقائدها فى الطريق المعتدل ، ومبدد ظلمات الحياة التى تضل فيها لو حادت عن نصيحته وإرشاده قيد أنملة .

ولقد قسم « كانت » العقل الانسانى الى قسمين ، فسمى القسم الأول بالعقل النظرى ، أو النظر الفكرى ، وهو القسم الخاص بادراك عالم الظواهر والمحسوسات والحكم عليها . وجوز « كانت » أن ينخدع هذا القسم من العقل ويضل ، لأن رسله وهى الحواس التى تبلغ اليه هذه المدركات كثيرا ما تضل وتنخدع . ولا ريب أن الأحكام المؤسسة على ضلال تكون ضلالا . ولقد غالى « كانت » فى هذه المسألة الفلسفية مغالاة أدخلت كتبه فى ظلام حالك وغموض عميق حدوا بتلميذه « شوبينهاوير » الى الاعتراف بأنه لا يفهم كثيرا منها ، ودفعا كثيرا من علماء الفرنسيين الى إثارة حملة ضد غموض « كانت » وإبهامه . ومما قاله « كانت » فى هذا الصدد : « لو أخذت حواسنا صورة غير الصورة التى هى عليها الآن لتغير الزمان والمكان اللذان هما ظرفا كل شىء فى هذه الحياة ، ولتغيرت بتغيرهما أحكامنا على كل شىء من هذه الموجودات ، إذ هذه الأحكام ناشئة عن هذا النوع من الادراك بخصوصه ، وإذا فهذا القسم من العقل لا يعتمد عليه فى كل ما يقول » .

أما القسم الثانى فقد سماه كانت بالعقل العملى ، أو النظر العملى ، وقال عنه : إنه هو الذى يدعو الى القيام بالواجب ، وهو فى هذه المهمة معصوم من الخطأ ، بعيد عن الانخداع ، لأنه غير خاضع للحواس الضعيفة المعرضة للضلال ، وهو مستمد من النور الأعلى . ولا شك أن هذا المذهب يتفق فى جوهره مع رأى أخلاقيي المسلمين تمام الاتفاق ، فلو رجعنا مثلا الى ابن

(١) فيلسوف ألمانى شهير ولد فى سنة ١٧٢٤ وتوفى فى سنة ١٨٠٤

مسكويه (١) لرأيناه يوزع المجموعة الانسانية على ثلاث قوى مختلفة : الأولى الناطقة أو العاقلة . الثانية السبعية أو الغضبية . الثالثة الشهوانية أو البهيمية . ويجزم بأن الأولى هى شعاع نورانى قذف به الخالق جل وسما الى النفس البشرية ، وجعله فيها مناط الأمر والتكليف ، وسبب العقاب والثواب ، ومصدر التفكر والتمييز ، ومأتى الاستراحة للخير ، والألم من الشر ، وصرح بأن الأصل عند هذه القوة هو الانعطاف نحو كل خير وجمال ، والنفور من كل شر وقبح . فاذا وقع العكس من الانسان ، كان ذلك ناتجا من تغلب إحدى القوتين الأخريين : الشهوانية أو الهجومية على إرادته بدرجة جعلتها لا تنصاع الى أمر هذا الصوت العلوى الجليل . فأنت ترى أن ابن مسكويه قد سبق « كانت » الى هذا الرأى القيم بنحو ثمانمائة سنة ، وقد امتاز عنه بوضوح الفكرة وجلائها وسهولة العبارة وسلاسة الأسلوب ، وإن كان « كانت » قد انفرد بتقسيم هذه القوة الناطقة الى عقلين : عملى ونظرى ، وأسند الى كل منهما أعمالا اختص بها دون الآخر .

وأنا أميل الى هذا التقسم بالرغم من أن كثيرا من علماء أوربا قد وجهوا اليه سهام النقد والتقريع ، وسكبوا عليه جامات السخرية والاستهزاء لسببين :

الأول : هو الظلمة والتعقد . الثانى : هو أنهم لم يستطيعوا أن يستسيغوا أن للانسان عقلين مختلفين . وأنا أوافق هؤلاء النقاد فى النقطة الأولى ، لأنى لم أر فيما رأيت من كتب الفلسفة والأخلاق أعقد من كتب « كانت » أسلوبا ، ولا أبهم عبارة ولا أغمض مرمى ، ولا أخفى فكرة . أما فيما يتعلق بتقسيم العقل البشرى الى قسمين ، فأنا معه على وفاق تام ، وإن كنت أسمى القسم الأول بالذهن المذعن للحواس ، الخاضع لتأثيرات الحياة المختلفة . والثانى بالضمير أو الصوت الخفى الأعلى .

(٢) ويرى « جان جاك روسو » (٢) أن الضمير هو قوة نورانية سكبها الخالق جل جلاله فى وسط ظلمة هذا الجسم الكثيف الضال ، فأحالت ظلامه نورا ، وبدلت ضلاله هدى . وهو عنده يغاير العقل ويمتاز عنه بالعصمة والثبات . والضمير هو فى رأيه الفارق الأوحد بين الانسان وبقية الكائنات الأخرى ، أما العقل فهو لا يكفى فى نظره لتحقيق الفرق بين الانسان والحيوان ، لأنه يجوز عليه الضلال والانخداع . واليك ترجمة شىء مما قاله فى الضمير :

« أيها الضمير ، أيتها القوة الفطرية ، أيها المميز الأدبى الخالد ، أيها الصوت السماوى ، أيها الهادى الموثوق بهدايته ، أيها القائد الأعلى لذلك الكائن الجاهل المحدود ، أيها القاضى المعصوم والحكم الذى لا يضل ولا ينخدع فى تمييز الخير من الشر ، والذى يحقق وجود الصلة

---

(١) فيلسوف مسلم واخلاقى كبير توفى سنة ٤٢١ هـ . (٢) مرب واجتماعى فرنسى ولد فى سنة ١٧١٢ وتوفى فى سنة ١٧٧٨

بين الاله والانسان ، أيها الضمير : إنك أنت الجوهر الأعلى الموجود فى طبيعة الانسان ، وإنك عنصر الفضيلة فى أعماله ، ولولاك لما شعرت بما يرفعنى عن صفوف الحيوانات إذا استثنيت تلك الميزة المحزنة التى تنقلنى من خطأ الى خطأ ومن ضلال الى ضلال ، وهى أداة الفهم المزعزعة أو العقل الذى لا ثبات له » .

ولقد أثرت تعاليم « جان جاك روسو » فى معاصريه ومن أتوا بعده تأثيرا ظهرت صورته فيما كتبه تلميذه « جاكوبى » الألمانى عن الضمير ، فقال : ما هو الخير ؟ إنه لا يوجد شىء أسهل من الجواب على هذا السؤال ، لأن كل فرد من أفراد بنى الانسان يحوى فى داخل قلبه وحيا صادقا معصوما يلهمه الاجابة عليه فى جلاء ووضوح وهو الضمير .

(٣) يرى زعماء المدرسة « الاسكتاندية » أن الضمير هـو حاسة فى الانسان يميز بها الخير من الشر كما يميز المرئيات والمسموعات والملموسات سواء بسواء . وقد نقد هذا الرأى كثير من العلماء ، واعترضوا عليه بأن اعتبار الضمير حاسة من الحواس يوقع أنصار هذا المذهب فى الحيرة والارتباك ، لأن الحواس كثيرا ما تخطىء وتضل . وإذاً فالضمير على هـذا الرأى يجب أن يخضع لقانون الحواس مادام واحدا منها . وعلى ذلك تكون أحكامه صائبة تارة ، مخطئة تارة أخرى ، ويجب على الانسان أن يتردد فى عمل ما يأمر به الضمير وألا يندفع وراءه فى كل ما يريد ، وإلا لـكان معرضا للسقوط بين براثين الشر والضلال فى كثير من الأحيان . وفوق ذلك ، فانه يلزم على رأيهم هذا أن يـكون للحيوانات ضمائر تستريح للخير وتؤنب على الشر ، لأنهم لا يستطيعون طبعا أن يدعوا اختصاص الانسان بهذه الحاسة دون غيرها من الحواس ، بل المنطق يقضى عليهم بأنه — ما داموا قد جعلوا الضمير حاسة — يجب عليهم أن يجوزوا عليه كل ما يجوز على الحواس ، وألا يميزوه عنها بشىء ، غير أننا نلاحظ أن المشاهد هو عكس ذلك كله . وإذاً فيمكننا أن نجزم بأن رأى المدرسة الاسكتلندية غير صحيح ؟

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

الرضا عن النفس

قال بعض الحـكماء : من رضى عن نفسه ، أسخط عليه الناس .

وقد بين الشاعر ابن كشاجم ، سبب هذا الإسخاط فقال :

لم أرض عن نفسى مخافة سخطها ... ورضى الفتى عن نفسه إغضابها
ولو اننى عنها رضيت لقصرت ... عما تزيد بمثله آدابها
وتبينت آثار ذاك فأكثرت ... عذلى عليه فطال فيه عتابها

باب الأسئلة والفتاوى

آلة القصاص

جاء الى لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الاستفتاء الآتى :

جرت مملكة بهوبال الاسلامية بالهند فى الأزمان الماضية على إعدام القاتل بالسيف خاصة، وكان لدى المملكة سياف ماهر حذق مهنته ، فكانت لا تنبو ضرباته ، ولكن مات هذا السياف فعينت المملكة خلفا عنه لم يكن فى جرأة السياف الأول ولا مهارته ، فحدث أن قدم له محكوم عليه بالاعدام لينفذ فيه الحكم فضربه بالسيف ضربة لم تجهز عليه ، مما كان له أثر فى مضاعفة عذابه وألمه .

لذلك كلفنى سعادة السيد شعيب قريش وزير المهام الخاص بحكومة بهوبال أن أتقدم الى فضيلتكم بالأسئلة الآتية راجيا التفضل بالاجابة عليها :

١ — ما حكم الشرع الشريف فيمن قتل نفسا وثبتت عليه الجريمة بالادلة المقبولة شرعا ؟

٢ — هل يشترط أن يكون إعدام القاتل بنفس الطريقة التى حصلت بها الجناية ، أم يجوز بأية آلة حادة كالسيف ، أم بأية آلة أخرى كالجيلوتين «المقصلة» أو الكرسى الكهربائى أو غيرهما من الوسائل ؟

٣ — ما معنى لفظة القصاص فى هذه الحال ؟

محمد حبيب أحمد

المدرس بكلية أصول الدين
وسكرتير البعثة الأزهرية الى الهند

الجواب :

١ — من قتل عمدا نفسا معصومة الدم شرعا وكان عاقلا بالغا وليس بينه وبين المقتول ما يورث شبهة تسقط القصاص وثبت عليه ذلك عند الحاكم ، وجب أن يقتص منه إلا إذا عفا ولى المقتول .

٢ — ورد فى السنة « لا قود إلا بالسيف » وقد أخذ الحنفية من هذا الحديث أن القصاص لا يستوفى إلا بالسيف وإن كانت الجناية قد حصلت بغيره ، وقد ألحقوا بالسيف كل

ما يكون مماثلا له فى سرعة إزهاق الروح وعـدم تخلف الموت عنه : كالرمح والخنجر والنصل وكل محدد يقتل به عادة ويفضى الى الموت من غير تخلف ، فأباحوا استيفاء القصاص به .

ويرى الشافعية أن جناية القتل إذا كانت قد وقعت بالسيف فاستيفاء القصاص من القاتل لا يكون إلا بالسيف ؛ وإن وقعت الجناية بآلة أخرى كضرب بعصا غليظة أو بحجر قاتل أو غير ذلك مما يقتل به عادة ، فـلولى أمر المقتول الخيار فى أن يكون استيفاء القصاص بمثـل الآلة التى قتل بها المقتول أو بالسيف ، وعللوا جواز استيفاء القصاص بالسيف فى هـذه الحالة مع أن الجناية وقعت بغيره بأن السيف أسهل وأسرع فى إزهاق الروح .

واللجنة ترى تمشيا مع التعليل الذى ذكره الحنفية فى إلحاق غير السيف بالسيف ، ومع تعليل الشافعية جواز استيفاء القصاص بالسيف فيما لو وقعت الجناية بغيره ـ أنه لا مانع شرعا من استيفاء القصاص بالمقصلة والـكرسى الـكهربائى وغـيرهما مما يفضى الى المـوت بسهولة وإسراع ، ولا يتخلف الموت عنه عادة ، ولا يترتب عليه تمثيل بالقاتل ، ولا مضاعفة تعذيبه .

أما المقصلة فلأنها من قبيل السلاح المحدد . وأما الـكرسى الـكهربائى فلانه لا يتخلف عنه الموت عادة مع زيادة السرعة وعدم التمثيل بالقاتل دون أن يترتب عليه مضاعفة التعذيب .

٣ — بناء على ما تقدم يكون معنى القصاص فى هذه الحالة مجازاة القاتل باعدامه وإزهاق روحه ، ولا يلزم أن يكون إعدامه بمثل الآلة التى حصلت بها الجناية . والله أعلم ؟

تربية الـكلاب — وتعليم الصلاة

وورد أيضا على لجنة الفتوى بالجامع الأزهر الأسئلة الآتية :

١ — هل يجوز أن تربى الـكلاب كالقطط لحراسة البيت مثلا أو لا يجوز ؟

٢ — هل يجوز أن نلاعب الـكلاب ونداعبها بلمسها ومسكها بأيدينا ونضعها على الفراش فى البيت وهى مبلولة على مذهب الامام مالك رضى الله عنه أو لا يجوز ؟

٣ — إذا لحس الـكلب بدن المصلى أو ثوبه تبطل صلاته ، وهو يقلد الامام مالـكا رضى الله عنه ، أو لا تبطل على مذهبه ؟

٤ — هل يجوز فى ديننا الاسلامى أن نعلم التلاميذ البالغين كيفية الصلاة عمليا من القيام والركوع والسجود وغيرها من الأركان خارج أوقات الصلاة المفروضة ، ليتمرنوا على ذلك أو لا يجوز ؟

راج كلنتن سمو ولى عهد دولة كلنتن
ورئيس المجلس الدينى بكلنتن ـ كوتا بهارو

الجواب :

١ — مذهب مالك رضى الله عنه أن اتخاذ الكلاب فى البيوت لجلب منفعة أو دفع مضرة جائز .

٢ — إن جسد الكلب ولعابه ومخاطه وعرقه — كل ذلك طاهر ما دام حيا . وعلى هذا إذا جلس الكلب على السرير ، ولابس الشخص ، فانه لا ينجسه ، ولا يمنع ذلك صحة صلاته وعبادته المتوقفة على طهارة كالطواف بالبيت الحرام ، وسواء أكان جسمه مبتلا أم غير مبتل .

٣ — إذا لحس الكلب بدن المصلى أو ثوبه ، فان ذلك لاينجسه ولا يبطل صلاته .

٤ — إن تعليم التلاميذ كيفية الصلاة قبل الدخول فيها بالركوع والسجود جائز شرعا ، بل قد يكون واجبا إذا كان البيان بالقول لا يكفى فى تعرف كيفيتها ، وأداؤها على الوجه المطلوب شرعا ، والله أعلم .

فى الميراث

وجاء أيضا الاستفتاء الآتى :

توفيت امرأة عن أخت شقيقة ، وعن أخوين لأبيها ، وعن أربع أخوات لأبيها . فالى من تؤول التركة ؟ وما هو نصيب كل وارث ؟

عبد الحميد البرادعى

الجواب :

تؤول التركة الى الاخت الشقيقة ، والى الأخوين والأخوات لأب ، ونصيب الأخت الشقيقة النصف ، والنصف الباقى للأخوين والأخوات لأب ، يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين ، والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

ألاسلام فى الهند

مما يجب أن يلم به دعاة الاسلام فى العالم ما يقوله عنهم مناظروهم من دعاة الملل الأخرى ، ولاحرج علينا فى نقل أقوالهم حتى ولو كان فيها ما لا يتفق والواقع . وقد اطلعنا أخيرا فى جريدة (المسيحية فى القرن العشرين) التى تصدر بباريز تحت العنوان المذكور آنفا على ما تعريبه :

« قد اعتبر بعضهم الاسلام فى الهند قوة فى حالة تدهور ، وهذا خطأ محض . فقد دلت الاحصاءات الأخيرة أن بالهند اليوم أكثر من سبعة وسبعين مليونا ونصف مليون من المسلمين ، وهذا العدد يفوق عدد السكان المسلمين فى بلاد العرب والعجم والترك ومصر وسورية وفلسطين مجتمعة . وقد زاد عدد مسلمى الهند فى السنين العشرة الأخيرة مليونين ونصف مليون نسمة . والعمل التبشيرى المسيحى لم يبلغ حده المرجو بين هؤلاء المسلمين ، رغما عن أن الفرص مواتية لنا فيها أكثر من مواتاتها لنا فى أى مكان آخر ، بسبب أن المرتدين من الهنود لا يجازون بالقتل . ومنذ أكثر من عشرين سنة يبث الهنود المسلمون دعوة قوية للاسلام خارج البلاد الهندية . وطلبة العلم منهم يحررون مئات من المجلات منها عدد كبير يكتب باللغة الانجليزية ، ومنها ما يكتب بالفرنسية والالمانية . والهند هى البلاد الوحيدة التى ترسل دعاة الى اوربا وأمريكا وأفريقا ، ويستطيع دعاتها أن يباهوا نظراءهم بأنهم كانوا سببا فى إسلام شخصيات مشهورة كاللورد هيدلى وغيره . والمسلمون الهنديون هم الذين عملوا على إقامة المساجد فى برلين ولوندرة واستراليا والبرازيل والترينيتيه . وقد ترجموا القرآن الى الانجليزية والالمانية والهولاندية والصينية واليابانية ولغة أفريقيا الجنوبية ، وحلوا كل طبعة من هذه الترجمات بشروح وافية .

« ولكن الدعوة للمسيحية لم تقف معقولة اللسان أمام هذه الدعوة الاسلامية . فقد ترجمت التوراة الى جميع اللغات التى يتكلم بها المسلمون من الهنود . ووضعت مؤلفات دينية عديدة بتلك اللغات .

« وغير هذا فان الكنيسة الهندية المسيحية التى يبلغ عدد أتباعها اليوم (٥٩٦١٠٠٠) يزداد شعورهم يوما بعد يوم بالتبعات الملقاة على عواتقهم حيال المسلمين . وقد نجحت الدعوة المسيحية فيهم فتنصر منهم عدد عديد . ففى الهند الجنوبية وحدها يوجد أكثر من مائتى قسيس انجيلى ومعلم كانوا فيما سبق مسلمين . وهذه الدعوة للمسلمين تزداد العناية بتنظيمها على الدوام . ومن ذلك إصدار كتب جديدة لهم سنويا ، وإعداد مبشرين خاصين بهم متحلين بكل ما يجعلهم صالحين لمهمتهم هذه . وقد ثبت قبل كل شىء أن المسلمين المتنصرين يبذلون قصارى جهدهم فى استمالة إخوانهم السابقين فى الدين الى المسيحية » .

هذا ما جاء بتلك الجريدة التبشيرية ، ومنه يتضح مبلغ اهتمام دعاة المسيحية بتنصير الشعوب الاسلامية ، وما يعتمدون عليه من الوسائل فى إنجاح مقاصدهم . وقد لفت نظرنا قولهم إنهم إنما يعتمدون على متنصرة المسلمين فى تغيير عقائد إخوانهم السابقين فى الدين ، وقد ساقوا فى عرض الكلام أن عدد المتنصرة من الهنود قد بلغ ستة ملايين نسمة إلا قليلا . وهو نجاح لهم عظيم إذا قيس بثمرات أعمالهم فى جميع بقاع الأرض .

وما كنا لنكترث لهذا النجاح الذى أصابوه لولا أن هدفهم تنصير المسلمين هنالك ، وهذا أمر يوجب الأسف الكبير ، ويدعو الى تعرف أسبابه والعمل على وضع حد له .

فمن أهم أسبابه الجهالة الضاربة بجرانها بين المسلمين فى تلك الأصقاع ، فهم لا يعرفون من الاسلام شيئا يعتد به ، ولا يساوون فى هذه الجهالة بدينهم حتى الوثنيين . وهذه الجهالة تعود التبعة فيها على المتعلمين منهم . فان هؤلاء لا يهتمون بأمر العامة إلا إذا أقبلوا إليهم فى المساجد مصلين ، ولكن يوجد بجانب كل مائة من مقيمى الصلاة ألوف لا يؤمون مجامع المؤمنين ، بل لا يحفظون فاتحة الكتاب . فهؤلاء مرعى خصب لدعاة الملل يسلطون عليهم مهرة أعوانهم من متنصرة المسلمين فيوحون إليهم زخرف القول غرورا ، و يغْرونهم بكل ما تتوق إليه أنفسهم ، حتى يوقعوا نفرا منهم فى حبائلهم ، وهلم جرا ، لا يكلون ولا يملون . لأن المال يدر عليهم من جميع الجهات ، والطريق ممهدة لهم فى كل بقعة من بقاع الأرض ، والحماية مبسوطة عليهم فى كل مكان .

ومما قرأناه فى هذه النبذة وكنا نعرفه من قبل ان نقرأها ، أن للهنود ولوعا خاصا بنشر الدعوة الاسلامية فى البلاد الأجنبية ، وهم ينفقون فى ذلك أموالا ، ويقفون عليه أعمارا ، وهذا عمل شريف يشكرون عليه ، ولكن أولى منه بالاهتمام ، العناية بأبناء ملتهم الذين بسبب جهلهم قد وقعوا فى وثنية لا تفترق عن أية وثنية فى الهند ، وقد انتشرت بينهم باسم الدين عادات وتقاليد ساقطة لا تنتشر بين قوم إلا أوردتهم موارد الهلكة ، وقضت عليهم بالتدهور الى حضيض المهانة .

فلو أن هؤلاء القادة وعمالهم ممن يهرعون الى العواصم الأوربية بحجة نشر الاسلام ، يعنون باخوانهم فى الدين فينظمون لهم البعوث يرشدونهم ويعلمونهم ، ويجمعون لهم من فضل مالهم ما يؤسسون لهم به مدارس أولية لتثقيف عقولهم ، وتنوير أذهانهم ، وتقويم قلوبهم ، لكانت ثمرة هذا على الهنود خاصة ، وعلى المسلمين عامة أعظم قدرا ، وأبقى أثرا ، من الثمرة التى يصلون إليها من إدخال عدد محصور فى الاسلام من أبناء أوربا وأمريكا .

نعم على المسلمين أن يدعوا العالم كافة الى الاسلام بكل لغة وبكل بيان يصل إليه الامكان ، ولكن لا يجوز أن ينسيهم هذا واجباتهم نحو أبناء ملتهم ، وقد أصبحوا من انقطاع مدد

الهداية عنهم يرتعون فى حمأة العادات والتقاليد التى تنافى الاسلام من كل وجه . فمن المناقض للمنطق أن يترك هؤلاء على ضلالهم ويرحل الى البلاد الأجنبية لدعوة أهلها الى الاسلام .

إن الكتاب الغربيين الذين نتألم من قراءة ما ينشرونه من التهم التى يوجهونها الى الاسلام ، إنما يصدرون فى كتاباتهم عن حالة عامة المسلمين لا خاصتهم . فمتى أقيم مولد من الموالد فى بلد هرع إليه كل من يوجد فى ذلك البلد من مراسلى جرائدهم ، وكتاب أقاصيصهم ، ومن سياحهم ، فماذا يرون فى هـذه الاحتفالات غير ضروب الفجور تقام لها سوق رائجة حوالى المسجد ، وأوزاع من الغوغاء متوزعة على حالة حلقات للذكر يصيحون ويتمايلون ، ومن تلك الحلقات ما يقوم بينها رجال يزمرون أو يضربون الساجات أو يغنون ، وهـذه الضروب من الرقص والصياح لا توجد إلا فى بلاد المتوحشين ، فيحكم أولئك الأوربيون بأن هذه الطامات من الاسلام نفسه ، ويزيدهم اعتقادا أنه من الاسلام ما يرونه من سماح البوليس بها ، ومن تردد معممين يشبهون علماء المسلمين عليها ، أومرورهم غير منكرين ولا متبرمين بها .

وإذ كان الأمر على ما ترى فكيف لا يطمع دعاة الملل فى هداية هؤلاء الجاهليين الى مللهم ، وهم يعتقدون عقيدة راسخة أنها توصلهم الى خير مما هم فيه ؟

إن الاسلام دين أعلى مدنية يمكن أن يتخيلها الانسان تخيلا ، وقد طالب أهله بالقيام على سنة الكمال الذى ليس بعده مرمى لرام ، حتى إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يسمح لصاحب من أصحابه أن يرتكب ما ينافى هـذه السنة فى موقف خطير . ذلك أنه وهـو مهاجر الى المدينة كبر أحد أصحابه عند مارأى معالمها بصوت جهير ، فآخذه النبى صلى الله عليه وسلم على ما فعل ، وقال له إن الذى تدعوه ليس بأصم ولا غافل ، إنه أقرب إليك من رأس ركابك . فهل نسمح نحن ، ونحن فى القرن العشرين ، وتحت أعين النقاد والمناظرين ، أن نرتكب باسم الدين مالو حدث فى صدر الاسلام لقوتل مرتكبوه أو يعودوا لصراطه المستقيم ؟

إذا صدقت العزائم ، ونشطت الهمم لنشر الاسلام فى العالم ، وجب على المنتدبين لذلك أن يطهروا البيئة الاسلامية من أرجاسها . هذا فى ذاته واجب دينى أولى ، فان كان فساد هذه البيئة يعطل فى الوقت نفسه الدعوة الاسلامية وجب أن تضاعف الهمم لازالته لأن ضرره أصبح مزدوجا . وقد أنزل الله إلينا آخر الأديان وكلفنا أن ننشره فى العالم كافة ، فيجب علينا أن نتخذ كل ما يجب من الأهب للقيام بهذه المهمة على وجهها الأكمل ، ومن أوليات هذه الأهب إزالة كل ما يرتكبه المسلمون باسم الدين مخالفا له كل المخالفة . وقد تمهد لنا الطريق لاحداث هذا الاصلاح الجلل ، فان النفوس كلها تتوق الى اليوم الذى تجد فيه مواطن الاسلام ممثلة لجلالة أصوله ، وبعد مراميه ، حتى يصدق عليها قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »

محمد فريد وجدى

تاريخ الادب العربى فى العصر العباسى

النثر الفنى (١)

لم يظهر فى ميدان القصة فى هذا العصر من المؤلفين من هو أقدر من عمرو بن بحر الجاحظ الذى استطاع أن يسيطر على المواد العربية القديمة ، والمواضيع الأجنبية ، ويجمع بينها و بين جميع العلوم الدينية والفلسفية المعروفة فى هذا الوقت ، وعرف كيف يصوغ معلوماته الواسعة ومعارفه الكثيرة فى أطيب الأشكال وأقربها للتناول . لم يعرف بالضبط القومية التى كان يتبع لها الجاحظ بالنسبة الى أهله ، ولكن من المؤكد أنه لم يكن عربيا أصيلا ؛ وضع أساس حياته الدراسية كابن المقفع بالبصرة ، حيث كانت العلوم القديمة والعلوم اللغوية والنحو فى أزهى أوقاتها ، بل وكانت تزدهر بها أيضا علوم العقائد الحرة التى نشطت فى هذا العصر بفضل الآراء والأفكار المأخوذة عن الفلسفة الاغريقية ؛ انكب الجاحظ بكلياته على هذه الدراسات وأسس له مدرسة دينية لم تلبث أن اختفت تحت ضغط الظروف السياسية ، كما تلاشت جميع علوم العقائد الحرة فى هذا الوقت ، وبنى الجاحظ شهرته الأدبية على ما اكتسبه فى الناحية العلمية التى ظهرت فيها موهبته الممتازة فى اجتماعات كانت تعقد بأحد الجوامع الكبيرة بالبصرة ، ولو أن أول نجاح أدبى صادفه فى حياته إنما يعزى فى الواقع الى أحد مؤلفاته الدينية السياسية عن الامامة ، اكتسب بها رضاء الخليفة المامون ، وكانت سببا فى استدعائه الى بلاطه ، وبقى كذلك فى ذروة مجده فى عهد الخليفة المعتصم والواثق من بعد المأمون ، حائزا لرضاء وزيرهما ابن الزيات وتأييده ؛ وكان يقيم الجاحظ بين آونة وأخرى فى بغداد ، وفى مقر الخلافة الصيفى « سر من رأى » ، وتنقل كثيرا فى غرب البلاد الاسلامية حتى وصل الى دمشق وإنطاكية ، فلما ولى المتوكل الخلافة على المسلمين ، وعزل جميع وزراء الخلفاء السابقين وأمر باعدامهم ، أصبح الجاحظ مهددا فى حياته لما عرف عنه من إخلاص لأولياء نعمته ، ولكنه تمكن من اكتساب ثقة أحمد بن أبى دواد قاضى القضاة ، فأمنه على نفسه ووقاه شر الانتقام ، ثم استطاع أن يكتسب له ثقة الخليفة ورضاه عنه ، الى أن رضى به مربيا لأولاده ، ولكنه عدل أخيرا عن رأيه ، وقضى الجاحظ بقية حياته فى موطنه بالبصرة ، وعاش حتى رأى تلاشى مدرسته الدينية التى أسسها ، وتغلب السنية عليها ، وأصيب أخيرا بشلل نصفى توفى على أثره عام ٢٥٥ ه .

لم يصل الى أيدينا شىء من مؤلفات الجاحظ الدينية السياسية ، ولكننا نعلم أنها كانت تعالج التعاليم الاسلامية من الناحية التاريخية فى أغلب المواضع ، واشترك فى المنافسات الأدبية

---

(١) تكملة المقال المنشور فى العدد السابق مترجما من الالمانية نقلا عن كتاب « تاريخ الادب العربى » للمستشرق الالمانى الكبير الاستاذ الدكتور « بروكلمان » .

التى أثيرت فى المفاضلة بين الأعجام والعرب ، فوقف مدافعا عن العرب ، كما كتب فى مدح مزايا الأتراك لما رآه من قوة الحرس الاجنبى الاسيوى الذى كان يكثر ببلاط الخلفاء فى عهده ، وكان يعتبرهم عماد الخلافة ، وكان كثير الاهتمام بوصف الشعوب مما جعله يضع مؤلفا هاما فى البلدان ، كما وضع كتابا آخر فى الحيوان يعتبر أهم مؤلفاته التى بقيت حتى العصر الحاضر ، وامتاز هذا الكتاب — فضلا عن كونه يعنى بالناحية العلمية — بأنه يبين علاقة الانسان بالحيوان مستشهدا بشعراء العرب القدماء ، ولم يقتصر فى كتابه هذا على وصف الحيوانات الثديية الكبيرة بل إنه كان كذلك كثير الاهتمام بوصف الاحياء الصغيرة ، مستشهدا بها على المعتقدات الدينية. ومن مؤلفاته الهامة التى تسترعى اهتمامنا على وجه خاص ما كتبه عن طبقات الهيئة الاجتماعية ، ولم يبق من هذه المصنفات إلا ما وضعه عن البخلاء ، فاننا بفضل هذا الكتاب استطعنا أن نكسب فكرة قيمة عن أحوال الحياة فى المدن الكبيرة . وكانت تظهر مقدرته فى أسلوب الكتابة الرشيق فى كثير من مؤلفاته الصغيرة ، كما كانت هذه الرسائل تثبت براعته الممتازة وموهبته الفائقة فى التحدث الى القارىء فى مواضيع مسلية تنم عن معرفة غزيرة . وفى أواخر أيام حياته وضع طريقة خاصة فى قواعد البلاغة، أوضحها فى كثير من الأمثال الشعرية والنثرية .

لم تكن شهرة مؤلفات الجاحظ وجمالها بسبب إحكام التنسيق وترتيبها وتنظيم أبوابها وموضوعاتها ، بل إنها كانت فى الغالب على عكس ذلك بالمرة من هذه الناحية التى بلغت عدم العناية بها درجة الاهمال ، وإنما يرجع شغف الناس وتعلقهم بها ، الى كثرة موضوعاتها وتعدد موادها وتفصيلها ، مما يدعو القارىء الى التفكير ويزيد من تسليته ، وكانت على العموم على جانب عظيم من المعلومات المفيدة والمعارف النفيسة ، وكما نسب الجاحظ بعض مؤلفاته الأولى باعترافه الى مشاهير العلماء القدماء ، فان كثيرين من تلامذته ومقلديه قد نسب الكثير من مؤلفاتهم اليه ،خصوصا ما كان منها يشبه تعاليمه واتجاهاته الفكرية ، وأشهر هذه المؤلفات كتاب « المحاسن والاضداد » وفى هذا الكتاب كان يدور البحث حول بعض المسائل التاريخية والأدبية والخلقية من ناحيتين متضادتين ، ولقد ذاع هذا الضرب من الكتابة والتأليف بعد ذلك ذيوعا واسعا فى ميادين الأدب المتأخرة ، ولقد بقى حتى العصر الحاضر أحد المؤلفات القديمة التى تشبه هذا الكتاب فى كثير من الوجوه وطرق البحث فى موضوعه وضعه ابراهيم بن محمد البيهقى فى عصر خلافة المقتدر عام ٣٠٨ هـ .

كان الجاحظ يمتاز فى مؤلفاته بمقدرته الفائقة على الجمع بين العناصر التعليمية والروائية والدينية وربطها جميعا برباط وثيق ، دون أن تتأثر إحداها بالأخرى ، ولقد تمكن معاصره الأصغر أبو بكر بن أبى الدنيا من محاكاته فى هذا المضمار ، وأفلح الى حد بعيد جدا ، إلا أن الناحية الدينية كانت تغلب على غيرها فى الظهور فى مؤلفاته ، ولد هذا الكاتب عام ٢٠٥ هـ وكان من أنصار الأمويين ، إلا أنه استطاع كسب رضاء العباسيين وعفوهم ، وتدرج فى أعماله

الأدبية الى أن اتخذ مدرسا خاصا للخليفة المقتدر ، وتوفى عام ٢٨١ هـ ، وله مؤلفات هامة ، إلا أن أهم أعماله وأشهرها مجموعة القصص الروائية الدينية التى تعالج بعض المسائل الخلقية .

نسج على منواله من بعده، بما يقرب من مائة عام، محسن التنوخى المولود بالبصرة عام ٣٢٧هـ، وكان أبوه من القضاة الذين اشتغلوا بالأدب ، فاختار له طريقه فى الحياة ، الى أن شغل مركز القضاء فى نواح عديدة من العراق وبلاد الفرس بعد أن قضى مدة مرانه ببغداد ، وتوفى عام ٣٨٤ هـ ، وبقيت من مؤلفاته مجموعات عديدة لنوادر وفكاهات العباسيين ، وقصة روائية فى الفرج بعد الضيق ، ولقد عالج ابن أبى الدنيا هذا الموضوع من قبله ، وكتب فيه كذلك من قبله المؤرخ المشهور الميدانى ، واشتهر هذا الموضوع من بعد ذلك شهرة واسعة ، فكان مادة غنية للمؤلفين المتأخرين ، كما كان الحال فى المؤلفات التى تبحث المسائل من ناحيتيها المتضادتين .

والى جانب هذه المؤلفات الروائية التى عرف أشخاص واضعيها فى ميادين الأدب ، ظهرت ناحية أخرى فى الأدبيات العربية ، زاخرة بالقصص والحكايات الخرافية التى حاكتها أقلام قصصيين محترفين ومحدثين مجهولين فى عالم الكتابة والتأليف ، وللأسف لم يبق من أغلب هذه المؤلفات مباشرة حتى العصر الحاضر سوى أسمائها ، وكان من السهل تمييز القصص والحكايات التى ترجع الى أصل فارسى أو هندى من تلك التى اشتقت من الحياة العربية ، أو أخذت من حكايات العرب القديمة من بين تلك المؤلفات القصصية العديدة ، فالى المواد الأجنبية — وعلى الأخص الى القصة الفارسية — ترجع مجموعات الحكايات المعروفة باسم ألف ليلة وليلة ، ومما لا شك فيه أن الصيغة التى نراها الآن فى النسخة التى بين أيدينا ترجع الى عصور متأخرة عن ذلك العهد ، وإلى هذه القصص الأجنبية ترجع حكايات مغامرات البحار والأسفار الجميلة التى تمثلها حكاية السندباد البحرى التى ضمت فيما بعد الى قصص ألف ليلة وليلة .

وأما القصص العربية التى لا شك فى أصلها أو اشتقاقها من المواد العربية القديمة أو المواضيع الحديثة ، فهى القصص الغرامية العديدة ، كتلك التى رويت عن التاجر الكوفى على بن آدم وجاريته منهل ، وقد بقى جزء من موضوع هذه القصة معروفا حتى العصر الحاضر . ومن الموضوعات التى اهتمت بها القصص والحكايات العربية الأصلية ، تمجيد حياة التنقل وعدم الاستقرار ، ولقد بلغت فى المقامات أعلى درجات النصر ، واشتهرت كذلك بين القصة العربية حكايات البغدادى أبى القاسم التميمى ، التى وضعها أبو المطهر الأزدى فى القرن الثالث للهجرة .

انتشرت هذه الحركة الأدبية حتى عمت غرب البلاد العربية ، فظهر فى القيروان بشمال إفريقية ابن الرقيق ، ووضع مؤلفاً فى الخمر حث يبين فيه ما للخمر وما عليها مستشهداً بالأشعار والفكاهة .

وكان يمثل هذا الاتجاه فى الأدبيات العربية ببلاد الأندلس احمد بن عبد ربه المولود

بقرطبة عام ٢٤٦ هـ ، ووضع كتاباً اسمه العقد الفريد ، عبارة عن مجموعة جريئة شاملة لجميع مواد السمر ومواضيع التسلية ، دون ذكر مصادرها الحقيقية . وقد توفى سنة ٣٢٨ هـ

وأما فى شرق البلاد العربية فكانت مقامات الهمذانى هى المثال الأعلى الذى اتخذه أغلب كتاب النثر فى الأدبيات العربية ، وعليها اعتمد النثر الفنى فى تطوراته فى نواح عديدة ، فظهرت مقامات الحريرى التى فاقت سابقتها فنا وعاتها فكرة ، فكانت هى الأساس الحقيقى الذى بنيت عليه الشهرة العالمية للمقامات ؛ ولد أبو محمد القاسم الحريرى عام ٤٤٦ هـ بالبصرة ، وورث عن أبيه ضيعة نخيل بجوار موطنه ، كفته عناء الكسب بطريق الأدب وكفلت له حياة علمية حرة . وضع الحريرى كل اهتمامه فى الدراسات اللغوية ، فأنتجت مواهبه كتابا شعريا فى النحو العربى ، ورسالة فى غلطات كلام العامة ، ثم وضع بعد ذلك من المقامات خمسين ، شهدت له بموهبة ممتازة ، وسيطرة فائقة على أساليب اللغة ودقائقها ، حدثنا فيها عن أبى زيد السروجى وكان ملما بفنون اللغة ، محيطا بطرائفها الفكاهية ، فسرد حياته ووقائعه الخداعية فى أشعار جميلة ، وعبارات رشيقة .

لم يكن الحريرى فى منزلة الهمذانى فى الابتكار ، والتغلب على المواقف الحرجة بالفكاهة الطريفة ، وإنما فاقه فى تعدد التعبيرات وتلوينها بما يناسب الذوق الفنى الجميل .

وقد بلغ أثر الحريرى فى تطور الأدب العالمى فى هذا العصر مبلغا كبيرا ، وتسابق الكتاب الى تقليده والنسج على منواله ، ولم يكن كتاب اليهود باسبانيا ، وكتاب المسيحيين بالشام ، أقل تسابقا الى تقليده من كتاب البلاد الاسلامية على اختلاف لغاتهم ، وتوفى الحريرى عام ٥١٨ هـ .

وممن يستحقون الذكر فى هذا المقام ، القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى ، فكان أستاذا يقتفى أثره فى بلاغة أسلوب الرسائل ، وكان فى أول أمره وزيرا فى حكومة الفاطميين ولكنه انضم الى صلاح الدين ، واستطاع أن يحتفظ بمركزه فى الوزارة ، وفى أثناء حملة الشام ، نصب حاكما على مصر ، وتوفى عام ٥٩٦ هـ ، ولا زالت بعض رسائله باقية حتى العصر الحاضر .

وأما فى بلاد الاندلس فكان أكثر ظهور الأسلوب البليغ فى الرسائل والخطابات ، وأول من ظهر من كتاب هذه البلاد فى ميدان النثر الفنى ، احمد بن زيدون ، الذى جعل كل اهتمامه فى إدخال هذا الأسلوب على الرسائل الخاصة ، على عكس التطور الظاهر فى شرق البلاد الاسلامية من إدخال هذا الأسلوب أيضا على المكاتبات والوثائق الرسمية . ولد ابن زيدون بقرطبة عام ٣٩٤ هـ ، وكان يميل الى الأدبيات ، وكان أبوه من أثرياء المدينة مما أتاح له الفرص فى شبابه لمعاشرة الطبقات العالية ، فتعرف بابنة الخليفة الأموى المستكفى بالله « ولادة » وأولع بحبها ، فكانت علاقته بهذه الأسرة - بعد قتل الخليفة عام ٤١٦ هـ . - مما وضعه موضع الريبة عند جهور

الحاكم الجديد ، فأمر باعتقاله ، فبعث من سجنه إلى ابنه رسالة يرجوه التوسط لدى أبيه للعفو عنه ، فكانت هذه الرسالة نموذجا رائعا فى النثر الفنى ، واليها يرجع الفضل الأول فى شهرته الأدبية .

ولكنه لم ينل ماطمع فيه من العفو ، وتمكن بعد ذلك من الهرب ، فلما ولى ابن جهور خلفا لأبيه استدعاه وأسند اليه الوزارة ، ولكن لم تدم سعادته بقرطبة طويلا ، إذ اتضح للأمير علاقته المريبة بحكام ملقة ، فذهب الى المعتضد فى اشبيلية ، فأسند اليه الوزارة وولاه رياسة الجنود ، وتمكن من الاحتفاظ بمنصبه فى عهد خليفته المعتمد ملك الشعراء الى أن توفى عام ٤٦٣ هـ ، ومن آثاره الشعرية التى تستحق الذكر قصائده الأندلسية التى يدعو فيها المسلمين الى الجهاد ضد الكفار لتحرير إسبانيا من سيادتهم .

كانت المجهودات الأدبية فى هذا العصر ، حافلة بالمجموعات والمختارات التى تبين النواحى المختلفة فى الحياة الانسانية بواسطة رواية القصص والحكايات ، والاستشهاد عليها بالأشعار الجميلة ، كما كان يفعل الجاحظ وابن قتيبة ، فاذا قدرت قيمة هذه المؤلفات وفضلها على الأدب لوجدنا أنها قليلة فى ذاتها ، حيث إن المؤلفين كانوا فى أغلب الأحيان يكتفون بوضع مواد من سبقهم فى ترتيب جديد ، فاذا كان عملهم هذا سببا فى ترك بعض المؤلفات القيمة القديمة ، فاننا بالرغم من ذلك مدينون لهم بالشكر لانقاذهم موضوعات هذه المؤلفات وموادها .

وبعض هذه المؤلفات الجديدة ـ التى بلغت فى هذا العصر عددا كبيرا ـ يعتبر مثالا لأعمال هذه الطبقة من الأدباء ، وأهمها المجموعة التى وضعها أبو بكر السراج المتوفى ببغداد عام ٥٠٠ هـ ، وكانت تجمع الاشعار والاخبار عن الحب والمحبين ، فى صورة القصص التى كانت معروفة فى عصر الأمويين ، وأوائل العصر العباسى ، ولقد حازت هذه المجموعة شهرة واسعة ، وذاعت ذيوعا كبيرا ، فتولى بعض الأدباء المتأخرين إعادة إخراجها ونشرها بعد ذلك فى عصور مختلفة .

ولقد سار على نهجه من بعده محمد بن زفر المتوفى بموطنه فى صقلية عام ٥٦٥ هـ ، نشأ بمكة وبها أتم دراساته ، ورجع الى صقلية حيث قضى بقية حياته ، وأهم أعماله الأدبية المعروفة كتابه المهدى الى محمد بن أبى القاسم القرشى حاكم صقلية ، وهو عبارة عن مرآة الأمراء فى خمسة أجزاء يبين فيه المؤلف واجبات الحكام الهامة بناء على أحكام القرآن مستشهدا بأقوال الشعراء والقصص الخرافية ، وله مجموعة أخرى أهداها الى الأمير نفسه جمع فيها كثيرا من الفكاهة والنوادر الطريفة المنقولة عن الرواية الفارسية .

تحاكم الشعراء

تحدثت فى مقال سبق عن مجتمعات العرب العامة وأسواقهم التى كانت مدارسهم الأدبية، وما كان لها من الأثر فى تهذيب الشعر العربى، وإثارة التنافس بين الشعراء، والآن سأتحدث عن نوع من التحاكم الخاص لا يقل أثرا عن المجتمعات العامة، وهو فوق ذلك مظهر من مظاهر النقد الأدبى القائم على بداهة السليقة الفنية دون أن يرجع الى قواعد علمية ثابتة :

للأسواق والأندية العربية أوقات مخصوصة، وأمكنة معينة، يجتمع فيها الناس تبعا لمقتضيات الأحوال، ولكن الاحتكاك بين الأدباء والشعراء مستمر لا ينقطع، وثائر لا يهدأ، فقد يجتمع شاعران أو عدة شعراء وتلج بينهم الخصومة ويشتد النزاع فى أشعر الشعراء، وأجود بيت قالته العرب، ونحو هذا مما يدور حول النظرات الخاطفة، فتدعو الحاجة الى حكم فيصل يقضى فى ذلك النزاع ، فيحتكمون الى ناقد أدبى، وحاذق بصير يذهب قوله فى الناس حجة لا تنقض، وقد حفظ تاريخ الأدب العربى من هذا النحو شيئا كثيرا .

ومن أشهر شواهده فى العصر الأول قصة « أم جندب » زوج امرىء القيس، فقد تحاكم اليها – فيما تقول الرواية – زوجها امرؤ القيس، وعلقمة بن عبدة المشهور بعلقمة الفحل، قال المرزبانى فى الموشح : تنازع امرؤ القيس بن حجر وعلقمة بن عبدة فى الشعر : أيهما أشعر ؟ فقال كل واحد منهما : أنا أشعر منك، فقال علقمة : قد رضيت بامرأتك أم جندب حكما بينى وبينك، فحكماها، فقالت أم جندب لهما : قولا شعرا تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة وروى واحد، فقال امرؤ القيس :

خليلى مرا بى على أم جندب   لنقضى لبانات الفؤاد المعذب

وقال علقمة :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب   ولم يك حقا طول هذا التجنب

فأنشداها القصيدتين، فقالت لامرىء القيس : علقمة أشعر منك، قال : وكيف ؟ قالت : لأنك قلت :

فللسوط ألهوب وللساق درة   وللزجر منه وقع أخرج مهذب

فجهدت فرسك بسوطك فى زجرك، ومريته بساقك فأتعبته، وقال علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه   يمر كمر الرائح المتحلب

فأدرك فرسه ثانيا عنانه ، ولم يضربه بسوط ، ولم يتعبه . فقال امرؤ القيس : ما هو بأشعر منى ، ولكنك له عاشقة .

هذه قصة طريفة تحلو بها المسامرات فى مجالس الأدب الخفيف ، ولكن البحث العلمى فى تاريخ الأدب يقف أمامها موقف الشاك ، بل موقف العجب والدهشة ، لأن « أم جندب » هذه التى زعموا أنها حكمت بين هذين الشاعرين الفحلين لا يعرف عنها تاريخ الأدب — فيما أعلم — شيئا غير هاته المحاكمة الغريبة التى لو صحت لكانت من أسطع الأدلة على وجود النقد الأدبى بمعناه الفنى فى أواخر العصر الجاهلى ، وهذا ما لم يثبت تاريخيا ، ولو صحت لكانت دليلا قاطعا على أن « أم جندب » هذه من أنقد وأعلم العرب رجالا ونساء ، كيف وليس لها فى الأدب العربى ذكر أو أثر معروف غير هذه الحكاية ؟

ومما يوهن أمر هذه القصة أمام البحث ، ما تضمنته من توجيه فنى للنقد ، وما اشترطته على الشاعرين من توحيد الغرض والقافية والروى حتى تتم الموازنة بين المعانى والأسلوب والرنين الموسيقى ، وهذا مما لم تألفه السليقة العربية فى أواخر هذا العصر لدى ذوى النهى من رجالات العرب وشعرائهم ، فضلا عن أم جندب التى يضن عليها تاريخ الأدب بوضعها فى غمار أديبات العرب وشواعرهم فما بالك بنقادهم ؟ وقد أبنا سابقا ما روى من هذا النحو فى قصة النابغة وتحكيمه فى سوق عكاظ .

على أن رواة الأدب يختلفون فى صحة هذه المباراة بين امرئ القيس وعلقمة ، بل فى صحة نسبة الشعر إليهما ، فصاحب الموشح يقول : إن عبد الله بن المعتز ذكر هذا الحديث فيما أنكر من شعر امرئ القيس ، وقال بعض الباحثين من أساتيذنا : وينبيك باختلاف الرواة فى شان هذه المباراة أن أحمد بن عبيد يقول : كان ابن الجصاص وحماد يرويان :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب لامرئ القيس ، وكان المفضل يرويها لعلقمة

وهذا ابن منظور فى لسان العرب تعرض للموازنة بين الشعرين ولم يشر الى قصة أم جندب أية إشارة ، وأبو هلال العسكرى فى الصناعتين يقول : ومما أخذ على امرئ القيس قوله : فللسوط ألهوب الخ ، فلو وصف أخس حمار وأضعفه ما زاد على ذلك ، والجيد قوله :

على سابح يعطيك قبل سؤاله أفانين جرى غير كز ولا وان

وما سمعنا أجود ولا أبلغ من قوله : أفانين جرى ، وقول علقمة الفحل : فادركهن ثانيا من عنانه الخ ، فادرك طريدته وهو ثان من عنانه ، ولم يضربه بسوط ، ولم يمره بساق ، ولم يزجره بصوت .

فأين هى أم جندب فى هذا الحديث ، فهل من المقبول أن يكون هذا النقد لها ولا يشير أبو هلال الى ذكرها أية إشارة ؟ والواقع أن امرأ القيس أشهر فى وصف الخيل ، فهو أجدر بقصب السبق من صاحبه ، وبيته الذى ساقه أبو هلال يعطينا صورة لاقتدار هـذا الشاعر على الابداع والسبق فى هذا المضمار .

ومن مظاهر النقد الأدبى الذى يتمشى مع السليقة العربية ما رواه الأصمعى أن رجـلا أتى الأبيرد بن المعذر الرياحى وابن عمه الأحوص الشاعرين يسألهما قطرانا يهنأ به إبله ، فقالا له : على شريطة أن تنشد سحيم بن وثيل الرياحى هذا البيت :

فان بداهتى وجـراء حول لذو شق على الحطم الحرون

وغرضهما أن يستطلعا ما بقى من قوته على عمل الشعر ، فلما أنشده أخـذ سحيم عصاه وانحدر فى الوادى يقبل ويدبر ، وجعل يهمهم بالشعر ، ثم قال : اذهب فقل لهما :

فان علالتي وجـراء حـول لذو شق على الضرع الظنون
أنا ابن العز من سلفى رياح كنصل السيف وضاح الجبين
أنا ابن جـلا وطـلاع الثنايا متى أضع العمامـة تعرفونى
وإن مكاننا من حميرى مـكان الليث من وسط العرين

فى أبيات كثيرة ، فلما بلغهما شعره أتياه فاعتذرا إليه ، فقال : إن أحدكم لا يرى أن يصنع شيئا حتى يقيس شعره بشعرنا ، وحسبه بحسبنا ، ويستطيف بنا استطافة المهر الأرن . فقال له : فهل الى النزع من سبيل ؟ فقال : إنا لم نبلغ أنسابنا .

فانظر الى قول سحيم : حتى يقيس شعره بشعرنا تجد به ضربا من ضروب الموازنة ، وهى من فنون النقد الأدبى ، وهى هنا موازنة إجمالية تتناسب مع السليقة ، بعيدة عن التفصيلات المنطقية التى تخرجها عن سذاجتها . ومن ثم اختلفت أجوبة النقاد القدامى عن السؤال الواحد ، روى محمد بن سلام الجمحى أن سائلا سأل الفرزدق : من أشـعر الناس ؟ قال : ذوالقروح ، قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول :

وقاهم جـدهم ببنى أبيهم وبالأشـقين ما كان العـقاب

وسئل مرة من أشعر العرب ؟ فقال : بشر بن أبى خازم ، قيل بمـاذا ؟ قال : بقوله :

رهـين بلى وكل فتى سـيبلى فشقى الجيب وانتحبى انتحابا

وروى أن الحطيئة قال : أخبروا أهل الشماخ أنه أشعر الناس بقوله :

إذا انبض الرامون فيها ترنمت ترنم ثـكلى أوجعتها الجنائز

ثم قال : أخبروا أهل ضابئ أنه أشعر الناس حيث يقول :

لكل جديد لذة غير أننى وجدت جديد الموت غير لذيذ

ثم قال : أخبروا أهل امرئ القيس أنه أشعر العرب بقوله :

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

ثم قال : أخبروا الأنصار أن صاحبهم أشعر العرب حيث يقول :

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وشأن هذا الاتجاه فى الاستحسان كثير فى الأدب العربى ، ولا سيما فى عصوره الأولى قبل أن تدون فنون النقد وعلوم البلاغة ، ولعل منشأه سرعة الاحساس بمكان الجمال من البيت ، أو يكون المعنى أصاب من الناقد المستحسن موافقة داخلية كان يتطلب التعبير عنها فلما وجده لغيره فضله وارتفع به عن جميع ما سواه ، أو هم يقصدون أن صاحب هذا البيت أشعر الناس فى هذا المعنى ، ولا يريدون أنه أشعرهم إطلاقا ؟

صادق ابراهيم عرجون

سياسة الاخوان

قال حكيم : لا تكثرن معاتبة إخوانك فيهون عليهم سخطك .

وقال منصور النمرى :

أقلل عتاب من استربت بوده ليست تنال مودة بعتاب

وقال بشار بن برد :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

وإن أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

فعش واحدا أو صل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه

وأنشد ثعلب :

إذا أنت لم تستقبل الأمر لم تجد بكفيك فى إدباره متعلقا

إذا أنت لم تترك أخاك وزلة إذا زلها أوشكتما تتفرقا

هذا القول من الحكمة بمكان ، فان كل إنسان لا يخلو من نقائص خلقية تبدر منه بغير تكلف ، فاذا وقف لها صديقه بالمرصاد فعاتبه على كل بادرة منها ، اضطر الآخر أن يتربص به الهفوات مما يصدر منه ولا يفطن اليه ، فيكثر بينهما التلاحى ، فلا يلبثان أن يتفرقا .

المطالب العالية فى النفس الناطقة

وصلتها بالانسان

لعل القراء قد تبينوا على هدى النظريات التى اقترنت بالبحث السابق مبلغ الخلاف القائم بين القوم ومعارضيهم من أصحاب المذاهب الأخرى فى بقاء النفس بعد فساد البدن أو عدم بقائها. وقد أسلفنا أن أصح النظريات العلمية مااعتنقه القوم من بقاء النفس بعد خراب البدن وفساده مما لا يجد الباحث المتعمق عنه غنى .

واليوم نحاول أن نعرض لنظرية تعتبر من متممات هذا البحث ، وهى :

هل النفس مدركة للكليات والجزئيات جميعا ، أوأنها مدركة للكليات دون الجزئيات ويكون مدرك الجزئيات على هذا الرأى إنما هى الحواس ؟

إن المحققين من الفلاسفة والحكماء اختلفوا مع جمهرة من المتأخرين منهم فى أن النفس مدركة للكليات والجزئيات جميعا أو أنهامدركة للكليات ومدرك الجزئيات إنما هى الحواس. فقد ذهب الحكماء الى أن النفس مدركة للكليات والجزئيات ، إلا أنها تدرك الكليات بنفس ذاتها لا بآلة من غيرها ، وتدرك الجزئيات بواسطة آلتها . وعليه فيكون مدرك الجميع هو النفس . وقداستدلوا عليه . بوجوه كثيرة نجتزئ بأولاها بالرعاية وأجدرها بالتقدير:

قالوا أولا : لا خلاف بين الخصوم فى أن كل أحد من الناس لا يشك فى أنه واحد ، وأنه هو الذى يسمع الأصوات ويبصر الألوان والأشكال ، ويدرك الوجدانيات والمعقوليات ، فلو كان لكل نوع من المحسوسات مدرك ولكل نوع من المعقولات مدرك آخر لم يكن ذات المدرك المشار اليه بأنا مدركا للجميع ، وذلك خلاف المشاهد بل خلاف ما يجده كل واحد من نفسه .

وقد نوقش هذا الدليل بأن التقرير على هذا الوجه لا ينفى أن الحواس هى المدركة . فهى تدرك المحسوسات ثم تؤدى ما أدركته الى النفس برعاية وأمانة طبيعية للعلاقة القائمة بينهما ، ضرورة استحالة إدراك النفس للمشاهدات والمعقولات من غير وسائلها المؤدية إليها . وأيسر ما يترتب على اتجاه الحكماء تعطل تلك الآلات وعدم صلاحيتها كوسيلة مؤدية الى النفس كل فى حدود وظيفته . وحينئذ يحصل للنفس الشعور بجميع ما أدركته السامعة والباصرة وسائر الحواس .

لكن فريقا من المتقدمين دفع هذا التعقيب بأن النفس بعد أن تتلقى المعلوم بواسطة الحواس إن أدركت ذات المبصر وذات المسموع وكذا ذات ما تدركه سائر الحواس ، لزم

عن ذلك أن يكون إدراكنا للجزئى المعقول إدراكين ، وإبصارنا لزيد مثلا إبصارين ، وكذا سائر المعقولات والمحسوسات ، والضرورة تشهد بخلافه ، وتؤكد ما ذهبنا إليه . وإن لم تكن نفسه هى المدركة بل تدرك أن الحواس مدركة فلا يكون واحد منا مبصرا وسامعا بل آلاته ، مع أنا نعلم بداهة أن كل واحد منا مبصر وسامع حقيقة لاتاولا ، وعليه تقوم المشاهدات الكونية ، والدلائل العالمية ، وأخبار الكتاب والرسل والأنبياء صلوات الله عليهم قائمة على وصف النفوس الناطقة بالتعقل والرشد والتدبر ، ويظهر ذلك فى قوله سبحانه وتعالى : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها »

قال الامام الرازى فى كتاب المباحث المشرقية : العقلاء ببداهة فطرهم يعلمون أنهم يسمعون ويبصرون ويألمون ويلتذون ، فان جاز إنكار هذا العلم الأولى جاز بالتالى إنكار المحسوسات والمشاهدات . فثبت أن جوهر نفسك الذى هو أنت وأنت هو سامع ومبصر ومتألم وملتذ وعاقل وفاهم ورشيد ، وذلك مما لا منازعة فيه .

ثانيا : إنا نحكم بداهة بالكلى على أى جزئى مندرج تحته : نحو زيد إنسان . وكذا نحكم بسلب كل جزئى سواء أكان محسوسا باحدى الحواس الظاهرة أو الباطنة عن جزئى آخر كحكمنا على زيد المبصر مثلا فى أنه فى حقيقته مغاير لهذا الطعم فى كذا من المأكولات ، وغير هذا اللون فى كذا من المرئيات ، وغير هذه الرائحة فى كذا من المشمومات ، بل غير شخص تركب من صورتى الانسان والفرس ، وغير العداوة أو المحبة القائمتين به . فلا بد فينا من مدرك للكلى وجميع الجزئيات كما هو ظاهر ، ولا يمكن أن يكون ذلك قوة جسمانية اتفاقا بين الخصوم ، وبالتالى لا يمكن أن يكون ذلك كله من متعلق الحواس وداخلا فى حدود مددها ، فثبت أنها هى النفس دون الحواس ، فثبت المطلوب وهو أن النفس تعلم بذاتها الكليات والجزئيات .

ثالثا : إنه من المقرر فى الأذهان أن كل نفس متعلقة ببدن جزئى يقابلها تعلق التدبير والتصرف . وغنى عن البيان أن تدبير البدن الجزئى موقوف على العلم به من حيث إنه جزئى . وعلى العلم بفعل جزئى من حيث إنه جزئى يكون تدبير البدن والتصرف فيه من جهة ذلك الفعل ، ضرورة أن الرائى الكلى نسبته الى جميع جزئياته على السواء ، فلا يمكن على هذا الاعتبار أن يكون هذا الكلى مصدراً للبعض دون البعض الآخر ، فتكون النفس حينئذ مدركة للجزئيات كما هى مدركة للكليات ، وإلا كان إدراكها للكليات دون الجزئيات تحكما ليس له من المنطق مسوغ ، ولا من العقل موجب .

وقد نوقش هذا الدليل أيضا من الخصوم بانه يكفى فى تدبير البدن الجزئى تعقله وتعقل أفعاله الجزئية على وجه كلى متقيد بكليات عامة بحيث لا يكون ذلك الكلى مطابقا فى الخارج إلا لذلك الجزئى ، لكن تلك المناقشة ليس فيها جدوى منتجة ضرورة أن المحققين من الحكماء

قد تضافروا على أن الحق أن النفس مدركة للكليات والجزئيات جميعا ، إلا أن إدراكها للجزئيات يكون بارتسامها فى آلة من آلاتها ، وهى إحدى الحواس التى تتأدى بها بخلاف الكليات فان تعقلها إياها إنما يكون بارتسامها فيها من غير واسطة تلك الآلات . والفرق بين مذهب الحكماء وبين خصومهم من المتأخرين واضح الظهور . وقد أسهب المعتنقون من الحكماء المتقدمين لهذا المذهب إسهابا مستفيضاً ، فعقدوا للتدليل على مذهبهم فصولا وأبوابا بسطوا فيها القول بسطا لايدع صولا لصائل ولا قولا لقائل ، لكن الباحث المستقصى لابد أن يكون بصيرا بنتيجة كل بحث ، ملما بحقيقة كل موقف على حدة . من أجل ذلك لم نشأ أن نجمع أدلة الشيخ الرئيس ومتابعيه فى بحث واحد ، ولم نشأ أن نعرض لما هو الحق بالدليل وما هو غير الحق بالدليل من تلك الآراء إلا بعد أن نجمع من كلا الفريقين تراثا صالحا نضعه بين يدى القراء ، ثم نتولى بعد ذلك المقارنة ثم التمحيص ثم ما هو الصواب منها وما هو غير الصواب ، فان لهذه البحوث صلة وثيقة بعالم المجردات من جهة ، وبعالم المادية من جهة أخرى . ولابد لنا فى خاتمة تلك البحوث إن طال بنا المدى أن نعرض لأعلى تلك المطالب العليا من قسم الالهيات مما سيجده القارىء خير تراث مثمر . فالى الأعداد التالية ، إن شاء الله .

عباس طه

نزاهة العلماء

كان أهل العلم من سلف هذه الأمة يرون أن كرامة العلم تقتضى أن يتنزه أهله عن المطامع المادية ، والرغائب الجسدانية ، لأن العلم فى ذاته ملك لايبلى ، وذخر لاينفد ، يستصغر بجانبه كل مطلب ، فاذا لم يدرك العالم هذه الحقيقة كان ذلك دليلا على أنه حمل العلم ولم يتكيفه ، فاذا لم يعطه الناس حقه من الاعظام فلا يلومن إلا نفسه . وقد أوجز القاضى على بن عبد العزيز صفات أهل العلم فقال من قصيدة :

يقولون لى فيك انقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمع صيرته لى سلما
إذا قيل هذا منهل قلت قد أرى ولكن نفس الحر تحمل الظما
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة إذن فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا محياه بالاطماع حتى تجهما

تقرير بعثة الهند

— ٤ —

الحياة الجامعية فى الهند

لقد تقدمت الهند فى خلال العشرين السنة الأخيرة تقدماً باهـراً فى حياتها الجامعية ؛ إذ أنشئت فى هذه السنوات القلائل — فى حياة الأمم — اثنتا عشرة جامعة ، كما نظمت الجامعات الست القديمة تنظيما حديثاً ، مكن الطلبة من إجراء الأبحاث العلمية والأدبية لنيل الدرجات العليا (الدكتوراه) فى الجامعات الهندية ، بدلا من السفر الى الخارج .

ويقابل النمو الجامعى بارتياح فى الدوائر الوطنية فى الهند ؛ إلا أنه لا يخلو من نقد مر ، يوجهه اليه كثير من الأجانب ، إذ يقررون أن الحياة الجامعية فى تلك البلاد تتدرج بأسرع من حاجة البلاد نفسها ، ويدللون على صحة مذهبهم بانتشار التعطل بين متخرجى الجامعات ، وكذلك بضعف المستوى الجامعى فى الهند .

ويجيب المثقفون فى الهند ، وولاة الأمر المسئولون عن الحياة الجامعية ، على هاتين الملاحظتين : بأن التعطل بين خريجى الجامعات ليس بدعا فى بلادهم ، بل هو أمر يدل على رسوخ قدم التعليم الجامعى فيها ، وعما قليل تحل هـذه المشكلة باقبال المتخرجين على بعض الوظائف الصغرى ، التى لاتسيغها نفوسهم فى الوقت الحاضر . وقد ألفت لجان حكومية لبحث مشكلة التعطل بين المتعلمين ، فأسفرت بحوثها عن بعض العيوب فى تنظيم الجامعات ، وولاة الأمر آخذون اليوم فى معالجة الحال .

على أن عدد المتعطلين ليس من الكثرة بحيث يدعو الى كل هذا الذعر ؛ فقد دل إحصاء المتعطلين فى سنة ١٩٣١ على أن عددهم لايزيد عن ٢٠٤٣ متعطلا من حائزى الدرجات ، وهم موزعون على الوجه الآتى :

بكالوريوس علوم	٤٢	أستاذية آداب	١١٣
أستاذية علوم	٤١	بكالوريوس زراعة	٢١
بكالوريوس هندسة	٤٢	بكالوريوس تجارة	١١١
بكالوريوس آداب	١٣٧٠	حكماء شرقيون	١٥٤
إجازة الحقوق	١٤٩		

من ذلك يتضح أن معظم المتعطلين ، هم من خريجى كليات الآداب ، وهذه حال لهـا ما يقابلها فى معظم دول العالم .

ولا يلفت النظر فى حال التعطل هذه إلا كثرة المتعطلين من خريجى كليات التجارة . وعلة ذلك أن البلاد لما تتعود أن تستخدم هؤلاء فى المرافق الوطنية الخالصة ؛ وهم لذلك لايجدون عمـلا إلا فى المصارف وأمثالها . ومما لاشك فيه أن البـلاد سائرة فى طريق إدراك حاجتها الى هؤلاء .

أما العطل بين الأطباء (الحـكماء) فانه يبدو غريباً لمن لايعرف الهند ؛ ذلك بأن الطبيب المعنى هنا ، ليس هو الدكتور الذى نعرفه فى مصر مثلا ؛ فالطب فى بلاد الهند نوعان : أحدهما غربى ينتسب الطالب الى كلياته بمثل ما ينتسب الى كليات الطب بأوربا ومصر ، ويدرس فيه العلوم العليا ، ويصير بعد نيل درجته (دكتوراً) ؛ أما الآخر فهو الطب اليونانى أو (الطب الشرقى) كما يسمونه هناك ، وينقطع له الطالب بعد نيل شهادة المدرسة المتوسطة ؛ وقد ينتسب إليه من لا يعرف اللغات الأجنبية ممن تعلم فى المدارس الوطنية . وفى هذه الـكليات الطبية يتلقى الطلاب علوما نافعة للهند ، أساسها العلاج بالعقاقير المستخرجة من الأعشاب الهندية ، ويقوم الى جانبه طب آخر هو « طب الفيدا » المأخوذ من الكتاب المقدس عند الهندوس ؛ وقد يجمع الى كل من هذين بعض مبادئ الطب الغربى ، ولاسيما التشريح والأقرباذين .

وخريج هذه الـكليات يسمى طبيبا (حكيما) . ولا تستخدمه الحـكومة الافيما ندر ، وفى غير ما تخصص له ، ولذلك يعيش معظمهم على العيادات والصيدليات الملحقة بها ، يتناولون أجراً بسيطـا عن تشخيص الداء ، وتقرير الدواء ، ثم يبيعون الدواء للمرضى من صيدلياتهم . وظاهر أن العطل جائز بين هؤلاء ، وذلك على الرغم من الخدمات الجليلة التى يؤدونها لبلادهم ، حيث توجد ملايين من المرضى لا يستطيعون دفع أجر طبيب على الطريقة الغربية .

هذا عن مشكلة التعطل بين المتخرجين . أما عن ضعف المستوى العلمى فى الجامعات ، فقد أسفرت لجان التحقيق عن اكتشاف عيب جوهرى فى الحياة المدرسية فى الهند : هو قلة المدارس الفنية المتوسطة التى يستطيع الطالب أن يلتحق بها إذا لم تساعده مواهبه على الاستمرار فى الدراسة حتى المرحلة الجامعية . وهى حالة شاذة تـكاد تنفرد بها الهند من بين بلاد العالم التى عرفت التعليم الجامعى ، فليس العيب إذاً من الحياة الجامعية ، بل العيب فى نقص فرع من فروع التعليم ، هو التعليم الفنى المتوسط . وقد أدركت ذلك بعض الحـكومات — وفى مقدمتها حـكومة حيدر آباد — وهى لهذا جادة فى تلافى هذا العيب بانشاء المدارس الفنية المتوسطة .

على أن الهند قد أخرجت من جامعاتها طبقة من فطاحل العلماء ، هم فخر الحياة العلمية اليوم ،

نذكر منهم على سبيل المثال : « السير جاجاديش بوس » الذى أدهش علماء الغرب ومفكريه ، واكتسب احترام الجميع ، بمكتشفاته العلمية ، ومنهم « السير رامان » الذى بهر أنظار العالم ببحوثه المعروفة بنتائج (رامان) ، ومنهم كذلك « الدكتور ساها » وهو ثالث هندى نال درجة زميل فى الجمعية الملكية البريطانية .

وإن ننس لا ننس فى ميدان الأدب : « السير رابندرانات تاغور » وما أحدثه من أثر رائع بكتاباته الأدبية وفلسفته العقلية ، كما أحرز شهرة عظيمة فى الهند ، كل من « الدكتور حكيم أجمل خان » ، و « الدكتور أنصارى » .

ولغة العلم فى معظم جامعات الهند هى اللغة الانجليزية ، نظرا لتعدد اللغات واللهجات ، وقد سبق القول أن بالهند اليوم ٢٢٥ لغة ، ترجع فى أصلها الى ستة أصول لغوية ، فكان من المتعذر أن توحد لغة الدراسة ، مما ساعد الحكومة على فرض اللغة الانجليزية كوسيلة للتعليم ، لأنها تعتبر وحدة تنتظم الجميع ، يتعلمونها من السنة الثالثة بالمدارس الابتدائية .

على أن نزعة قد ظهرت فى الهند حديثا ، ترمى الى تعليم العلوم باللغة الوطنية ؛ فقررت جامعة بنارس أن تكون اللغة الهندية (Hindi) لغة التعليم ؛ ولكنها لما تستطع أن تخطو خطوة عملية فى هذه السبيل ؛ لأن الطلبة يتلقون علومهم فى المدرستين : المتوسطة ، والعالية ، باللغة الانجليزية ؛ فليس من السهل أن يعدل عنها فى مرحلة التعليم الجامعى ، مع مسيس الحاجة الى المراجع ــ وكلها مؤلفة بالانجليزية ــ لذلك ترمى الجامعة الى تشجيع التعليم فى المدرستين : المتوسطة والعالية باللغة الهندية ، وتجد فى الوقت نفسه فى إصدار مؤلفات أو مترجمات بهذه اللغة ، لتحل محل المراجع الانجليزية فى المرحلة الجامعية ، وقد نجحت الى الآن بعض النجاح .

أما الجامعة التى نجحت فعلا فى هذه السبيل ، فهى الجامعة العثمانية التى تديرها حكومة حضرة صاحب السمو العالى « نظام حيدر آباد » . فقد فرضت ــ منذ إنشائها ــ لغة الأردو لغة للعلم فى الجامعة ، وأعدت العدة لذلك ، بأن جعلتها لغة المدارس المتوسطة والعالية ، وأنشأت إدارة للتأليف بها والترجمة إليها من اللغات الثلاث : الانجليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، ويسرت للطالبين سبيل الحصول على هذه المؤلفات ، حتى تنتشر ، فتعم فائدتها .

وتنقسم الجامعات فى الهند الى ثلاثة أنواع :

جامعات حكومية : تديرها وينفق عليها من الميزانية العامة ، والانتساب إليها مباح لكل الطبقات ، والدراسة فيها لا تمس الدين لا فى قليل ولا كثير ، إلا أنه يجوز لأية طائفة دينية أن تنشىء كلية خاصة تتبع الجامعة فى إدارتها ، ويتقدم طلبتها الى الجامعة فى امتحاناتهم ، وتكون لادارة هذه الكلية الحرية فى إدخال العلوم الدينية فى مناهج الدراسة ، بشرط ألا تتأثر بها العلوم الأصلية ، التى يمتحن فيها الطالب أمام الجامعة ، وفى مثل هذه الحال ، ترى الجامعة

أن إنشاء هذه الكلية وأمثالها يخفف الضغط عن الجامعة الأصلية ، ويحل إشكالا من الاشكالات المعقدة ، هو اختلاط الطلبة المختلفى الديانات ، وما يجر إليه من مشكلات ، فتدفع الجامعة إعانة لهذه الكلية ، تساعدها على أداء رسالتها مع الاستقلال .

وقد شجع على إنشاء هذا النوع من الكليات ، اتساع مساحة الدوائر التى يشملها نفوذ الجامعات ؛ ففى جامعة البنجاب مثلا ، نرى أن نفوذها يمتد من بشاور وكشمير شمالا الى بها ولبور جنوبا ، ولذلك أصبحت الجامعة مكونة من ٥٣ كلية ، يبعد بعضها عن بعض مسافة قد يقطعها القطار فى يوم وليلة .

ومما يذكر للمسلمين فيشكر ، عناية أهل الشمال منهم بانشاء هذا النوع من الكليات ؛ فالكلية الاسلامية فى بشاور ، والكلية الاسلامية فى لاهور ، وكلية صديق إيجرتون فى بها ولبور ، وكلية إسماعيل بأندهيرى ، كلها تؤدى للمسلمين أحسن الخدمات فى الثقافة ، الى جانب الالمام باصول الدين الاسلامى ، وتشجيع الطلبة المدنيين على العناية بدينهم ، وتعويدهم أداء فروض الاسلام ، الى جانب العناية باللغة العربية وتشجيع الطلاب على اتخاذها مادة من مواد الامتحان . وإنا لنرجو أن ينتشر ذلك فى كثير من أرجاء الهند .

وكما اختص المسلمون ببعض الكليات ، اختصت الطوائف الدينية الأخر ببعض أيضا ؛ فنرى كثيرا من الكليات قد قام بانشائه واكتتب بمعظم المال اللازم لادارته الهندوس والسيخ . ومما يؤسف له أن وقت البعثة قد قصر عن زيارة هذه المؤسسات ، بعد أن وردتها دعوات من بعضها ، ولذلك يكاد يكون من المتعذر أن نوازن بين الحياة العلمية فى الكليات الاسلامية ، وبين ما يماثلها فى الكليات الأخر .

ومن الجامعات الحكومية ، الجامعة العثمانية بحيدر آباد ، أمر بتأسيسها حضرة صاحب السمو العالى « النظام » ، وهى لاتختلف عن الجامعات الحكومية إلا فى أن لغة (الأردو) هى واسطة التعليم فيها كما ذكرنا ، وثمة فارق آخر ، هو أن بالغ عناية سمو النظام ورجال حكومته بالدين الاسلامى ، قد قيضت لهم أن ينشئوا كلية دينية يتخصص فيها الطلبة ، فى علوم الدين الاسلامى من فقه وتفسير وحديث وغير ذلك ، مما يلزم لطالب العلوم الدينية .

ويشترط فيمن ينتسب لهذه الكلية أن يكون حاصلا على شهادة الماتريك — شانه فى ذلك شان بقية طلاب الجامعة — ولكن بشرط أن تكون اللغة العربية إحدى مواد الامتحان فى شهادته ، حتى يتيسر له الالمام بعلوم الدين وغيره من البحوث الاسلامية التى لايستطاع تحصيلها إلا بعد الالمام بأصول اللغة العربية وقواعدها .

ومما يسرنا تسجيله أن قوام التدريس فى هذه الكلية مجموعة من الأساتذة والمحاضرين ، أتم جلهم دراساته العالية فى مصر ؛ فمنهم من تخرج فى الأزهر الشريف ، ومنهم من تخرج فى دار

العلوم العليا ، ومنهم من تخرج فى كلية الآداب بالجامعة المصرية ، ومنهم من جمع بين اثنتين أو ثلاث من شهادات هذه المؤسسات .

جامعة عليكرة الاسلامية : ولقد كان من آثار اهتمام المسلمين بمستقبل أبنائهم ، أن قامت فى الهند منذ سنة ١٨٨٧ « جامعة عليكرة الاسلامية »

وقد نادى بضرورة تأسيسها المغفور له « السير السيد احمد خان » ؛ وكان رحمه الله من قادة الفكر ، فرأى بثاقب فكره أن مستقبل الجيل الاسلامى فى تلك البلاد يستدعى طريقا خاصة لتعليم المسلمين ، طريقا تجمع بين الحصول على الشهادات الرسمية للحكومة ، وإحراز قسط وافر من علوم الدين ؛ لذلك دعا الى تأسيس جامعة إسلامية تقوم على تربية النشء من أولاد المسلمين تربية جامعية ، مع الالمام بأصول الدين الاسلامى . ومما امتازت به هذه الجامعة ، قسم اللغة العربية والدين الاسلامى .

أما اللغة العربية ، فهى مادة اختيارية ، ولكن الجامعة تشجع على دراستها بمختلف الوسائل . وأما الدين الاسلامى فقد جعلت له حصص قبل بدء اليوم المدرسى ثم بعد انتهائه يحضرها من يشاء من الطلبة ، ولكنهم لا يؤدون فيها امتحانا .

وبالجامعة مسجد كبير يؤمه الطلبة للصلاة ، كما أن لكل مسكن من مساكن الطلبة مسجدا خاصا يؤمه طلبة المسكن للصلاة ، عند ما يكون الوقت غير ملائم للذهاب الى المسجد الكبير .

وقد استبسل « السير السيد أحمد خان » فى الانفاق على هذه الجامعة الاسلامية ، حتى ليقال إنه مات فقيرا معدما لم يترك لأولاده إلا الذكرى ، ولم يكن ليترك بابا من أبواب سراة المسلمين ، بل من أبواب فقرائهم ، إلا طرقه مستنديا الأكف لهذه الجامعة . وهاهى ذى الجامعة اليوم فى الهند ، تشيد بذكر مؤسسها الكبير ، وواضع نواة الاصلاح للبيئة الاسلامية .

ولا تستطيع أن تشعر وأنت تزور جامعة عليكرة ، بما لها من أثر اجتماعى خطير فى الهند ، إلا أنك لا تكاد تخرج من الجامعة حتى تلقى شباب الهند المثقفين ، الذين احتلوا بحق أهم مراكز الحكم والحياة العملية ، وهم يتغنون ويفاخرون بأنهم « عليكريون » ، فتشعر بالأثر السحرى الذى كان لهذه الجامعة فى تخريج عدد من الرجال ، هم زهرة شباب الهند الاسلامية اليوم . وإذا كان كثيرون منهم قد تخصصوا بعد ذلك فى « كمبردج » أو « اكسفورد » ، فانهم لا يعنون بذكر ذلك بقدر ما يعنون بالمفاخرة بأنهم من خريجى جامعة عليكرة .

والرابطة العليكرية قوة تفوق مايماثلها من قوى فى الهند ؛ فلقد روى لنا أن الشاب إذا تخرج فى هذه الجامعة ، فما عليه إلا أن يطرق باب عظيم من عظماء المتخرجين فيها ، فتتفتح له أبواب العمل ، ولا يصعب عليه أن يحتل مركزا ، لا يلبث أن يكون فيه عظيما .

هذه هى جامعة عليكرة ، وهى وإن كانت لا تؤدى للدين من الخدمات بقدر ما تؤديه

الجامعة العثمانية مثلا ، أو المدارس الدينية المنتشرة فى أنحاء الهند (والتى سنتناولها الآن بالكلام) إلا أنها تعتبر حجر الزاوية فى ربط الشباب الاسلاميين المثقفين بعضهم ببعض ، وإن باعدت بينهم الاقامة وظروف الأعمال .

جامعة بنارس : وقد كانت جامعة عليكرة وما أصابت فى الماضى من نجاح صار مضرب الأمثال ، خير حافز للبيئة الهندوسية لأن تقتدى بها ، فتؤسس لها جامعة هندوسية فى بنارس ، تؤدى لها ما تؤديه جامعة عليكرة للبيئة الاسلامية .

فجامعة بنارس قد خرجت فكرتها الى حيز التنفيذ فى سنة ١٩١٧ ؛ أى بعد جامعة عليكرة بنحو ثلاثين سنة ، وبهذا أتيحت الفرصة لتلك أن تتفادى ماتعانيه هذه من نقص . ففى نظام الأبنية : كانت جامعة عليكرة كلما استطاعت الحصول على قطعة من الأرض بنت إحدى المؤسسات . أما جامعة بنارس فقد ابتاعت الأرض كاملة ، ثم رسمت لمبانيها خطة تجرى حتى اليوم على تنفيذها بالتدريج ؛ لذلك نرى المبانى فى بنارس أحسن تنسيقاً منها فى عليكرة .

أما عن حال الدراسة : فان جامعة بنارس قد اقتبست نظمها من أحدث جامعات العالم ، وعلى الأخص من أمريكا ؛ لذلك ترى نزعة الحياة فيها أقرب الى العملية منها الى النظرية . فى حين أن جامعة عليكرة — نظراً لقدم تأسيسها — تنحو نحو الحياة النظرية ، أكثر مما تنحو نحو الحياة العملية .

وكأن الرجال المسئولين عن جامعة بنارس ، قد أدركوا ناحية من نواحى الألم فى جامعة عليكرة ، وهى تضخم رواتب الأساتذة والمحاضرين ، فأعدت لهذه الحال عدتها ؛ بأن وضعت أساتذتها ومحاضريها — منذ البداية — فى مستوى أقل من مستوى أمثالهم فى عليكرة ، من حيث الرواتب ؛ وبذلك لم تستهدف فى الأزمة المالية الطاحنة الماضية لما استهدفت له عليكرة من الاضرار لانقاص رواتب المدرسين .

على أن كلا من الجامعتين : عليكرة وبنارس ، يعتبر مثلا أعلى فيما يجب على الشعب أن يقوم به فى سبيل تثقيف أبنائه تثقيفا وطنيا متحررا من القيود الحكومية ، فان الشعب يكتتب لكل من هاتين الجامعتين بالمال الكثير فى كل عام .

ويكفى ان نعلم أن ميزانية جامعة عليكرة تربى على ١٢٠ ألفا من الجنيهات ، لاتساهم فيها الحكومة إلا بمقدار ٢٠ ألف جنيه فقط ، فى حين تبلغ ميزانية جامعة بنارس حوالى ٨٠ ألف جنيه ، تدفع الحكومة منها قدر ماتدفع لجامعة عليكرة .

وبعد : فان مقياس النفع الذى تؤديه كل من هاتين الجامعتين للهند ، لا يقاس بميزانيتها

السنوية ، ولا بمقدار ما تساهم به الحكومة فى تلك النفقات ، بل أجدر من ذلك أن يقاس بما نشهده من نشاط وطنى فى كل من هاتين المؤسستين .

مدارس المنبوذين :

وقبل أن نختتم الكلام على التعليم المدنى ، يجدر بنا أن نشير الى الجهود التى تبذل فى الهند لتعليم أبناء المنبوذين تعليما مدنياً .

فقد أنشأت الحكومة لهم مدارس خاصة ، عنيت بأن تجمع فى كثير منها : بين تعليم القراءة والكتابة باللغة الوطنية ، وبين صناعة لاتحتاج الى رأس مال كبير . وقد ساهمت الجمعيات التى تعمل على رفع مستوى المنبوذين فى افتتاح عدد غير قليل من هذه المدارس الابتدائية — سواء فى ذلك الجمعيات التى ولدتها حركة زعماء الهندوس لاصلاح حال المنبوذين ، أم الجمعيات التى نشأت فى بيئات المنبوذين بفعل زعمائهم .

ومما يجب أن يعتبر به المسلمون أن للمبشرين المسيحيين جهودا فى نشر التعليم بين طبقات المنبوذين ، الى جانب التبشير ، وهى جهود جبارة يقوم بها المبشرون منذ عشرات السنين .

وتقوم بعض جمعيات التبليغ بالدين الاسلامى ، بافتتاح مدارس ابتدائية فى أحياء المنبوذين ، حيث تلقن العلوم الابتدائية الى جانب مبادىء الدين الاسلامى . على أن بعض هذه المدارس يلقن هؤلاء الصغار مبادىء العلوم دون المساس بالدين ، حتى لاينفر المنبوذون الذين دخلوا هذه المدارس ؛ على أن أصحاب النظرية الثانية يأملون أن يتمكنوا من التطرق الى المواضيع الدينية ، حينما يحسون ارتياحا اليها : لدى الطلبة من ناحية ، وأولياء أمورهم من ناحية أخرى .

وقد شاهدنا فى حكومة « حيدر آباد » عددا من المدارس ، خصص لأبناء المنبوذين ، يعلمون فيها العلوم باللغة الوطنية ، والى جانبها بعض الصناعات الأولية ؛ ومع أن معلمى هذه المدارس من المسلمين ، فانهم لايعرضون لبحث المواضيع الدينية مع الأطفال ، حرصا على ألا يقال إن الحكومة تقوم بعمل « تبليغى » عن طريق التربية والتعليم .

المدارس الدينية الاسلامية :

لما كانت المدارس الابتدائية والمتوسطة والعالية ـ التى تديرها الهيئات الحكومية ـ ممنوعة من تعليم الدين ، ولما كانت العقيدة الاسلامية المتمكنة من نفوس المسلمين ، لاتسمح لهم باهمال هذه الناحية من نواحى تكوين الشباب وهى الدين ، فقد نديت الأكف فى عامة أنحاء الهند بالتبرعات لانشاء مؤسسات علمية دينية خالصة لوجه الله ؛ لايبتغى منها منشئوها إلا وجه ربهم الكريم .

فأينما سرت فى بلاد الهند ، سواء أكان الاقليم منطقة لقلة إسلامية ، أو لكثرة إسلامية ، وجدت هذه المدارس الدينية . وقد يطول بنا الشرح إذا حاولنا أن ندل على إحصائها ، أو وصف مسهب لحالها العامة ؛ إلا أننا نتناول بالبحث أهم ما شاهدناه منها :

تنقسم مراحل التعليم فى هذا النوع من المدارس أربعة أقسام ، تقابل أقساما أربعة . شرحناها فى الكلام على التعليم المدنى ؛ وهى : الابتدائى ، والمتوسط ، والعالى ، والجامعى .

التعليم الابتدائى

انفرد المسلمون فى الهند بهذا النوع من المدارس الابتدائية ، وهى مدارس يعلم فيها التعليم المدنى تقريباً ، يضاف الى ذلك : الالمام باللغة العربية عن طريق إقراء القرآن الكريم أو تحفيظه ؛ وهذه المدارس فى حالها اليوم ، أشبه ما تكون بالكتاتيب التى كانت معروفة فى مصر قبل مشروع التعليم الأولى ، وينفق على هذه المدارس أفراد ، وتعينها فى بعض الأحيان المجالس البلدية . أما فى الامارات التى يحكمها أمراء من المسلمين ، فان الدولة هى التى تنفق عليها .

ومن أمثلة هذه المدارس : المدرسة العبيدية فى بهوبال ، حيث شاهدنا أطفالا دون الثامنة من أسنانهم ، يجودون القرآن الكريم تلاوة من المصحف الشريف ، وفيهم حفاظ قليلون ، ومدة الدراسة بهذه المدارس خمس سنوات تنتهى بنيل شهادة « مؤدب »

التعليم الثانوى :

فاذا ما انتهى الطلبة من القسم الابتدائى ، ألحقوا بالقسم الثانوى ، حيث يزداد إلمامهم بعلوم الدين الاسلامى ، فيتلقون الحديث الشريف ، ثم الفقه على المذهب الذى تتخيره إدارة المدرسة ، ثم يزداد إلمامهم باللغة العربية ، فيقرءون الكتب الأولية فيها .

وكثيراً ما تجمع المدرسة الواحدة القسمين : الابتدائى والثانوى ، ومن أمثلة ذلك : المدرسة الأمينية بدلهى ، ومدرسة مظهر العلوم بكراتشى . أما المدرسة الرحمانية بدلهى فهى من هذا النوع ، ولكنها تعنى بدراسة الحديث واستنباط الفقه منه ، غير متقيدة بمذهب من مذاهب الفقهاء الأربعة ؛ ومدة الدراسة فى هذه المرحلة أربع سنوات تنتهى بنيل شهادة « مولوى عالم » .

(يتبع)

رسالة إصابة السهام والأسنة فى نحور منكرى كسب أهل السنة :

هـذه رسالة وضعها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الموقر الشيخ عبد العزيز الدباغ محمد عبد الماجد من أعيان علماء السودان بأم درمان . وهى كما يدل عليها اسمها تؤيد مذهب أهل السنة فى إثبات الكسب للانسان ، ومذهب أهل السنة وسط بين الجبرية والقدرية . فالمؤلف يبين كلا المذهبين بتحقيق دقيق ، وتحليل قويم ، ويثبت مذهب أهل السنة فى إثبات الاختيار والكسب للانسان .

فنشكر لحضرة المؤلف ما قام به من الخدمة العلمية ، ونرجو أن يوفقه فيما وقف له حياته من خدمة الدين ، وحياطته من البدع ، ونصرة شيعة الحق .

جمعية منع المسكرات :

لو تصدينا لتعداد ما تقوم به هذه الجمعية من ضروب المحاولات فى محاربة الخمر لاحتجنا لصحف كثيرة ، وكلها ترجع لهمة الأستاذ الجليل النابه أحمد غلوش افندى رئيسها العامل ، فهو لايدخر وسعا فى بث دعوته ، والتذكير بمهمته ، فى كل مناسبة حتى أشبه من هذه الناحية رجال الدعوات الاصلاحية من الأمريكان والانجليز ، ويصعب علينا أن نجد له ضريبا فى مصر .

لقد استكمل الأستاذ غلوش جميع صفات الدعاة من الثبات والاناة والبشاشة وحسن الالقاء واهتبال الفرص وعدم إضاعة مظنة من مظان النجح إلا بادر إليها فى غير تلهوق ولا نزق . ولو كان لدينا من أمثاله فى كل جمعية تقوم بدعوة لكان لذلك أثر كبير فى البيئة المصرية .

نقول هـذا فى مناسبة ذكر تقرير الجمعية عن أعمالها من يونيو سنة ١٩٣٥ الى مايو سنة ١٩٣٧ وقد صدره بصورة بديعة لحضرة صاحب الجـلالة الملك وحضرة صاحب السمو الأمير الكبير عمر طوسون وحضرة صاحب السعادة محمد طاهر باشا . وجعل فى أول مقدمته صورة لحضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا وكتب تحتها هذه الاسطر :

« حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا زعيم الأمة العظيم الذى تم على يديه إلغاء الامتيازات الأجنبية فى مصرنا العزيزة ، والذى وعد وفد الجمعية بالاهتمام بتحقيق مطالبها التشريعية بعد أن يتحقق للبلاد ما تصبو اليه من إلغاء تلك الامتيازات وإطلاق يد الشارع المصرى فيما ينبغى سنه من القوانين الكفيلة بسعادة الوطن وساكنيه » .

فندعو للأستاذ الجليل غلوش افندى بالفوز بما يرمى إليه من هـذا الاصلاح العظيم ، وبأن يمده الله بالقوة والعون والتوفيق .

وكيل المجلة بالفيوم

قد عينا حضرة سعيد معوض أفندى وكيلا لمجلة الأزهر بمدينة الفيوم وضواحيها . فنرجو اعتماده فى تحصيل قيم الاشتراكات .

Al-Aswad, through his father, through cAs ishah, who said :

"When any of us was in her courses, and the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) wished to touch her, he commanded her to gird on a lioncloth as soon as her menstrual flow began, after which he touched her."

"But", added cAs ishah, "which of you can master his passion as the Prophet (Allâh bless him and give him peace) did.?"

This hadîth is confirmed by Khâlid and Jarîr, as fellow-witnesses with cAli b. Mus-hir, through Ash-Shaibâni.

3. We are informed by Abu-n-Nuc mân, who had it form-cAbd-ul-wâhid, who received it from Ash-Shaibâni, who was told it by cAbdullâh, b. Shaddâd, who heard Maimûuah say :

"When the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peae) wished to touch any of his wives, he used to command her to gird on a lioncloth if she was in her courses."

This hadîth was also related by Sufyân, through Ash-Shaibâni.

الأسود عن أبيه عن عائشة قالت :

« كانت إحدَانا إذَا كانت حائضاً فَأرَادَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يُبَاشِرَها أمرَها أنْ تتّزِرَ فى فَوْرِ حَيْضَتِهَا ثُمَّ يُبَاشِرُهَا ،

قالتْ وَأيُّكمْ يَملِكُ إرْبَهُ كما كانَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَملِكُ إرْبَهُ » !

تابعه خالد وجرير عن الشيبانى .

٣ — حدثنا أبو النعمان قال حدثنا عبد الواحد قال حدثنا الشـــيبانى قال حدثنا عبد الله بن شـداد قال سمعت ميمونة تقول :

« كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذَا أرَادَ أن يُباشِرَ امرَأةً منْ نسَائِـه أمرها فاتّزَرَتْ وهى حَائِضٌ » .

ورَوَاهُ سفيانُ عن الشيبانى .

We are informed by Al - Makki b. Ibrâhîm, who had it from Hishâm, through Yahyâ b. Abu Kathîr, through Abu Salamah, who was told it by Zainab the daughter of Umm Salamah that her mother [1] said to her :

حدثنا المكى بن ابراهيم قال حدثنا هشام عن يحي بن أبي كثير عن أبي سلمة أن زينب ابنة أم سلمة حدثته أن أم سلمة حدثتها قالت :

“ Once while I was lying with the Prophet (Allâh bless him and give him peace) under one bed-cover, [2] my courses came upon me. I stole out of bed and put on my menstruating - gown, when he said : ‘ Have thy courses come upon thee ? ’ I replied that it was so. He then called me, and I lay down with him under the bed-cover ”

« بينا أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم مضطجعة في خميصة إذ حضت فانسللت فأخذت ثياب حيضتي ، قال : أنفست ؟ قلت نعم ، فدعاني فاضطجعت معه في الخميلة » .

Chapter 5.

— ٥ —

On contact [3] with a menstruating woman.

باب : مباشرة الحائض :

1. We are informed by Qabîsah, who had it form Sufyân, through Mansûr, through Ibrâhîm, through Al-Aswad, through ᶜAˢ ishah, who said:

١ — حدثنا قبيصة قال حدثنا سفيان عن منصور عن ابراهيم عن الأسود عن عائشة قالت :

“I and the Prophet (Allâh bless him and give him peace) used to perform the ghusl from one and the same vessel, when we were both in a state of ritual impurity through sexual intercourse ; and when I was in my courses, he used to order me to gird on a lion-cloth, after which he touched me ; and when he was in his retreat, he used to hold out his head to me and I washed it although I was in my courses.”

« كنت أغتسل أنا والنبي صلى الله عليه وسلم من إناء واحد كلانا جنب ، وكان يأمرني فأتزر فيباشرني وأنا حائض ، وكان يخرج رأسه إلي وهو معتكف فأغسله وأنا حائض » .

2. We are informed by Ismâ ᶜîl b. Khalîl, who had it form ᶜAli b.Mushir, who received it form Abu Ishâq Ash-Shaibâni, through ᶜAbdu-r-Rahmân b.

٢ — حدثنا اسماعيل بن خليل قال أخبرنا على بن مسهر قال أخبرنا أبو اسحاق ، هو الشيباني ، عن عبد الرحمن بن

---

1. A wife of the Prophet. She was a widow when he married her.

2. Or—a square-shaped black cloak of wool or silk with a fringe, خميلة وخميصة being synonymous.

3. Any form contact being permissible except sexual.

consider a trifle ; and any woman in either condition may serve me, without there being any harm in it to anyone. ᶜAˢ ishah informed me that she used to dress the hair of the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) when she was in her courses, at a time when the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) was in a retreat in the Mosque, — holding his head towards ᶜAˢ ishah when she remained in her apartment [1] and dressed his hair while in her courses. "

هيّن، وكلّ ذلك تخدمني وليس على أحد في ذلك بأس، أخبرتني عائشة أنها كانت ترجّل تعني رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي حائض ورسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذ مجاور في المسجد يدني لها رأسه وهي في حجرتها فترجّله وهي حائض».

— ٣ —

Chapter 3.

On the Qurᶜ ân being recited by a man leaning on his wife's lap while she is in her courses ;

and on Abu Wâˢ il having sent his maid, when in her courses, to Abu Razîn to bring him a Qurʾ ân, and her holding it by the cord of its cover.

باب: قراءة الرجل في حجر امرأته وهي حائض،

وكان أبو وائل يرسل خادمه وهي حائض إلى أبي رزين فتأتيه بالمصحف فتمسكه بعلاقته:

We are informed by Abu Nuᶜ aim Al-Fadl b. Dukain, who heard it from Zuhair, through Mansûr b. Safiyyah that his mother told him that ᶜAˢ ishah transmitted to her the tradition that :

The prophet (Allâh bless him and give him peace) used to lean on her lap when she was in her courses, and then recite the Qurʾ ân.

حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين سمع زهيراً عن منصور بن صفية أنّ أمّه حدّثته أنّ عائشة حدّثتها:

«أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يتّكئ في حجري وأنا حائض ثم يقرأ القرآن».

— ٤ —

Chapter 4.

On one who useth the word proper to puerperal bleeding for menstruation. [2]

باب: من سمّى النفاس حيضاً:

---

1. ᶜAˢ ish's apartement being contiguous to the Mosque, the Prophet would stand in the doorway holding his head towards ᶜAˢ ishah.
2. Al-Bukhâri, being unable to find a hadîth dealing with puerperal bleeding satisfying his criteria of geunineness, cites this hadîth in which puerperal bleeding is used for menstruation — from which it can be inferred that the same rulingapplies to both.

but the pilgrimage *to Makkah.* When we reached Sarif [1] my courses came upon me, and when the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) entered my tent I was in tears. He said : 'What aileth thee ? Have thy courses come upon thee ?' 'Yes,' replied I. 'This is a matter which hath been allotted by Allâh to the daughters of Adam', said he, 'so perfom whatever a pilgrim should do, save that thou do not circumambulate the Ka cbah'.

The Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace)—added c A sishah — sacrified oxen on behalf of his wives."

كنا بِسَرِفَ حِضْتُ فدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبْكِي ، قالَ مَالَكِ أنُفِسْتِ ؟ قُلْتُ نَعَم ، قال : إنّ هَذَا أمرٌ كَتَبَهُ اللهُ على بَنَاتِ آدَمَ فاقضِي مَا يقْضِي الحاجُّ غَيْرَ أنْ لا تَطُوفِي بالبَيْتِ ،

قالت : وَضَحَّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عَنْ نِسَائِهِ بالبَقَرِ » .

Chapter 2.

— ٢ —

On a woman in her courses being permitted to wash her husband's head and to dress his hair.

بابُ : غَسْلِ الحَائِضِ رَأسَ زَوْجِها وتَرْجِيلِه :

1. We are informed by cAbdullâh b. Yûsuf, who was told it by Mâlik, through Hishâm b. cUrwah, through his father, through cA c ishah, who said :

" I used to dress the hair of the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) while I was in my courses. "

١ — حدثنا عبد الله بن يوسف قال حدثنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت :

« كنتُ أرَجِّلُ رَأسَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا حَائِضٌ » .

2. We are informed by Ibrâhîm b. Mûsa, from Hishâm b. Yûsuf, who received it from Ibn Juriaj, who was told it by Hishâm, through cUrwah, who stated that he was asked :

" May a woman in her courses serve me? And may a woman approach me when she is in a state of ritual impurity through sexual intercourse ? "

" All that, " replied cUrwah, " I

٢ — حدثنا ابراهيم بن موسى قال أخبرنا هشام بن يوسف أن ابن جُرَيج أخبرهم قال أخبرني هشام عن عروة أنه سُئِلَ :

« أتَخْدُمُنِي الحائِضُ أوْ تَدْنو مِنِّي المَرأةُ وهِيَ جُنُبٌ ؟ »

فقال عُرْوَةُ : « كلُّ ذَلِكَ عليَّ

1. A place about ten miles from Makkah.

In the Name of Allâh the All-Loving the Most Merciful.

BOOK VI.

On Menstruation.

And on the word of Allâh (be He exalted) : "And they question thee on menstruation, say : 'It is pollution, so keep apart from women during their courses, and do not have intercourse with them until they have purified themselves ; and when they have done so go in unto them in the manner which Allâh hath ordained unto you. Verily Allâh loveth those who turn unto him with repentance, and He loveth those who purify themselves.' " [1]

Chapter I.

On how menstruation first began ; and on the words of the Prophet (Allâh bless him and give him peace) : "This is a thing which Allâh hath allotted to the daughters of Adam" ;

and on the fact that some have said : "The children of Israel were the first upon whom menstruation was sent."

Al-Bukhâri states, however, that the Prophet's hadîth (Allâh bless him and give him peace) is more comprehensive.

We are informed by ^{c}Ali b. ^{c}Abdullâh, who had it from Sufyân, who heard it from ^{c}Abdu-r-Rahmân b. Al-Qâsim, who heard it form Al-Qâsim, who heard ^{c}A^s ishah say :

"We set out with no other aim

بسم الله الرحمن الرحيم .

الكتاب السادس

كتاب الحيض

وقَوْلُ اللهِ تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عنِ المَحِيضِ قلْ هُوَ أذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ وَلاَ تقرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أمَرَكُمُ اللهُ إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » .

— ١ —

بابٌ : كَيْفَ كانَ بَدْءُ الحَيْضِ ،

وقولُ النبيّ صلى الله عليه وسلم « هذَا شَيْءٌ كَتَبَهُ اللهُ على بَنات آدَمَ » ،

وقالَ بَعْضُهُمْ « كانَ أوَّلُ ما أُرْسِلَ الحَيْضُ عَلَى بَنِي إسْرَائيلَ » ،

قالَ أبو عبد الله : وَحَدِيثُ النبيّ صلى الله عليه وسلم أكْثَرُ :

حدثنا على بن عبد الله قال حدثنا سفيان قال سمعت عبد الرحمن بن القاسم قال سمعت القاسم يقول سمعت عائشة تقول : « خَرَجْنَا لا نَرَى إلاَّ الحَجَّ فَلَمَّا

---

1. Surah 2 : 222.

ejaculating, *what should he do* ?" The Prophet replied: "He must wash the part that hath been in contact with her, and then perform the wudû[s] and pray."

Al-Bukhâri stated that ghusl is the safer, since such was the latest ruling, but he recorded the various hadîths to show the divergence of opinion among the companions. [1]

الْمَرْأَةَ فَلَمْ يُنْزِلْ ، قال : يَغْسِلُ مَامَسَّ الْمَرْأَةَ مِنْهُ ثُمَّ يَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي».

قال أبو عبد الله : الغَسْلُ أَحْوَطُ وَذَاكَ الآخِرُ، وَإِنَّمَا بَيَّنَّا لاخْتِلافِهِم.

The end of the Book of Ghusl.

انتهى كتاب الغسل

---

1. The controversy arose among the Companions as to whether the ghusl should be performed after mere contact or necessarily after ejaculation. When they discussed this question before cUmar, one party being in favour of اذا جاوز الختان الختان فقد وجب الغسل (ghusl after mere penetration) and the other of الماء من الماء (ghusl after ejaculation), – the question was referred to cAsishah who decided in favour of the former. Thereupon cUmar declared that he would punish anyone who dared to say after that : الماء من الماء (Al-c Aini in loco).

Chapter 29.

On a man's washing away the defilement secreted by a woman's organ.

1. We are informed by Abu Ma ᶜmar, who had it from ᶜ Abd - ul - Wârith, through Al-Hussain, who received it from Yahyâ, to whom it was related by Abu Salamah, who was told it by ᶜAtâˢ b. Yasâr, to whom it was narrated by Zaid b. Khâlid Al-Juhani, who stated that he asked ᶜ Uthmân b. 'Affân :

"What dost thou consider should be done if a man have connection with his wife without ejaculating ?" "He must perform the wudûˢ as for prayer, and wash his member," replied ᶜUthmân. "This I have heard from the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace)."

Zaid added : "I asked the same questisn of ᶜAi b. Abu Tâlib, Az-Zubair b. Al- ᶜAwwâm, Talhah b.ᶜ Ubaidullâh, and Ubayy b. Ka ᶜb (Allâh be well pleased with them), and they gave the same ruling."

Yahyâ also stated that he was informed by Abu Salamah, who had it from ᶜUrwah b. Az-Zubair, who heard it from the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace).

2. We are informed by Musaddad, who had it from Yahyâ, through Hishâm b. ᶜUrwah, who received it from his father, to whom it was related by Abu Ayyûb, who was told it by Ubayy b. Ka ᶜb, who said *to the Prophet* :

"Messenger of Allâh, if a man have connection with a woman without

— ٢٩ —

بابُ غَسْلِ ما يُصِيبُ مِنْ فرْجِ المرْأةِ :

١ — حدثنا أبو معمر حدثنا عبدالوارث عن الحسين قال يحي وأخبرنى أبو سلمة عن عطاء بن يسار أخبره أن زيد بن خالد الجهنيّ أخبره أنه سأل عثمان ابن عفان فقال :

« أرَأيْتَ إذَا جامَعَ الرَّجُلُ امرَأتَهُ فَلَمْ يُمْنِ ؟ قالَ عُثْمَانُ : يَتَوَضَّأُ كما يَتَوَضَّأُ لِلصَّلاةِ وَيَغْسِلُ ذَكَرَهُ ، قال عثمانُ : سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم .

فَسَألْتُ عن ذَلكَ عَليَّ بْنَ أبى طَالِبٍ والزبير بن العوام وطَلحة بن عبيد الله وأبيّ بن كَعْبٍ رضيَ اللهُ عنهم فَأمَرُوهُ بذلك » .

قال يحي وأخبرنى أبو سلمة عن عروة بن الزبير أخبره أنه سمعَ ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢ — حدثنا مسدد حدثنا يحي عن هشام بن عروة قال أخبرنى أبى قال أخبرنى أبو أيوب قال أخبرنى أبيُّ بن كعب أنه قال :

« يا رسولَ اللهِ إذا جامَعَ الرَّجُلُ

AL-AZHAR REVIEW

PUBLISHED BY AL-AZHAR UNIVERSITY, CAIRO.

ترجمة جامع صحيح البخارى

للأستاذ ابراهيم حسن الموجى

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

BY

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

The Book of Chus (EONTINUED)

Chapter 28.

When there is contact of the circumcised parts. [1]

We are informed by Muᶜ âdh b. Fadâlah, who had it from Hishâm ; we are also informed by Abu Nu ᶜaim, through Hishâm, through Qatâdah, through Al-Hasan, through Abu Râfi ᶜ, through Abu Hurairah, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace) who said :

"When a man lieth in a woman's embrace, [2] and then penetrateth her, the ghusl is obligatory."

This hadîth is confirmed, as fellow-witness with Hishâm, by ᶜAmr b. Marzûq, through Shu ᶜbah to the same effect;

Mûsa also stated that he was informed by Abân, who had it from Qatâdah, who received it from Al-Hasan to the same effect.

كتاب الغسل (تابع ماقبله)

— ٢٨ —

بابٌ : إذَا التَقَى الخِتَانانِ :

حدثنا معاذ بن فَضالة قال حدثنا هشام ، وحدثنا أبو نعيم عن هشام عن قتادة عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذَا جلَسَ بيْنَ شُعَبِهَا الأرْبَعِ ثُمَّ جهَدَهَا فقَدْ وَجَبَ الغسْلُ » .

تابعَهُ عمرو بن مرزوق عن شعبة مِثْلَهُ ،

وقال موسى : حدثنا أبانُ قال حدثنا قتادة أخبرنا الحسن مِثْلَهُ .

---

1. Circumcision is a sunnah or commendable practice in the case of men, and is practised by the Arabs in the case of women for the sake of continence.

2. Literally, "Between her legs and arms."

شهر رمضان

رياضة النفس على فضيلة الصبر

جرت الأهرام فى السنتين الأخيرتين على أن تستكتب أقطاب العلماء فى شهر الصيام فيما يريدون أن يدلوا به الى الناس من التعاليم الحكيمة، وأول من يفتتح الكتابة فى هذا الباب حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى، وقد اعتدنا أن نلتقط ما يكتبه فضيلته. وجريا على هذه السنة ننقل الى القراء ما كتبه فضيلته فى هذا الباب لنفاسته وسمو موضوعه، وهاهو :

ندع لغيرنا الحديث عن فوائد الصوم وأنه يصلح البدن وينقيه وينفع لعلاج بعض الأمراض. كذلك ندع الحديث عن طريقة التغذية التى يجرى عليها الناس فى شهر رمضان فى الإفطار والسحور، فذلك من حق سعادة الدكتور عبد العزيز اسماعيل باشا وأضرابه من أساطين الطب، ونعرض لناحية من نواحيه وهى ناحية التهذيب الروحى.

ومن المعروف أن الصوم إمساك عن اللذات البدنية من الطعام والشراب ونحوهما. هذا تعريف الفقهاء. وهو فى نظرنا أعمق من ذلك : إمساك عن أذى الخلق، وكف عن الآثام جميعها، على أن يقصد بذلك وجه الحق سبحانه.

ومما لا يحتاج الى توضيح أن فى الصوم على هذا النحو ترويضا للبدن، وترويضا للنفس، وتنمية لخلق الصبر الذى هو نصف الايمان ؛ ومن نتائجه العطف على الفقراء واليتامى وبرهم، وبذل المال فى سبيل إسعادهم، وحسن المعاشرة للجماعة الانسانية.

كل شىء فى الحياة ممكن : الفقر بعد الغنى، والمرض بعد الصحة، والذل بعد العز، وفقد الأهل والعشيرة بعد الثراء منهم، والنزوح عن الأوطان بعد الطمأنينة والاستقرار، وتغلب الأعداء بعد التغلب عليهم وقهرهم، الى غير ذلك مما يعرض للانسان فى حياته، لا يفترق فيه واحد عن واحد، ولا أمير عن سوقى.

وعروض هذه المكاره على نفس مترفة مدللة تنام فى موعد وتستيقظ فى موعد، وتأكل بقدر، وتمرح فى اللذات بين الأهل والعشيرة والأصدقاء — قد يصدمها صدمة تودى بها، أو تورث الجزع وتسوق الى اليأس، وقد توقعها فى أمراض قاتلة.

ويجب لاتقاء عواقب الفجاءات فى هذه المكاره أن يمرن البدن وتمرن النفس وتقوى برياضة بدنية روحية فى كل عام مرة على الأقل، فيقلب لها نظام الحياة، وتمنع من الشهوات

واللذات ، وتعوّد الحرمانَ من المحبوبات ، فيكون الإفطار فى المساء بعد أن كان فى الصباح ، والعشاء فى السحر بعد أن كان فى المساء ، ويتغير بجانب ذلك نظام النوم ونظام العمل ، وتستدام مراقبة الله جلت قدرته .

الصبر على هذا الحرمان والطاعة فيه يسهلان بلا مراء الصبر والطاعة على ما هو أقل من ذلك . فالصبر على ترك ما كان مباحا أشق من الصبر على ترك ما كان محرما . والذى لا يبالى بالنعمة وهى حاضرة فى يده امتثالا لأمر الله ، يسهل عليه احتمال زوالها والرضا بما قدر الله .

وكل إنسان فى حاجة الى الصبر : المتعلم محتاج الى الصبر على الدرس ، والمعلم فى حاجة الى الصبر حتى يفهم المتعلم ؛ والزارع فى حاجة الى الصبر حتى يتقن فلاحة أرضه ويحسن ريها وما يلزم ذلك ؛ والتاجر فى أشد الحاجة الى الصبر على تعلم طرق التجارة وعلى أخلاق من يعاملهم ؛ وكل واحد فى حاجة الى الصبر على معاشرة الأصدقاء والأعداء .

بذلك كان الصوم نصف الصبر ،وكان الصبر نصف الايمان ،وكان صوم رمضان ايمانا واحتسابا لله سبحانه سببا من أسباب الغفران .

وأسأل الله لاخوانى المسلمين توفيقا ورحمة وهناءة ، وعزا ومجدا وسؤددا .

لقد وفق الله فضيلة الأستاذ الامام لبيان حكمة للصيام من أعظم الحكم فى عهدٍ أهله أحوج ما يكونون اليه فيه ، فقد بلغ سلطان العادات عليهم حد الاستعباد الذى لا يرضى به إلا كل ضعيف النفس ، منخوب القلب ، فكل منا يعرف أفرادا لو تأخر عنهم الطعام عن موعده فأصابهم الجوع ، ساءت أخلاقهم ، وضاقت صدورهم ، وطاشت أحلامهم ، وأشبعوا خداءهم سبا وتعنيفا ، وربما تجاوزوا ذلك الى الضرب والأذى ، ويكون الناظر اليهم وهم على تلك الحال يخيل اليه أنه حيال مظاهر إصابات عقلية تنافى جلال الرجولة وجمال الانسانية .

وقد يكون سلطان المكيفات من القهوة والشاى والتبغ والتنباك والنشوق أشد من سلطان الطعام على أهله ، فان الذى لم يعود نفسه الحرمان منها إن اتفق له عدم الوصول اليها يوما كاملا أو بعض يوم ، اشتد الأمر عليه الى درجة يدركها كل من يراه ، فان كله فقلّ أن ينجو من رشاش من إقذاعه لأوهى الأسباب .

فهؤلاء يعتبرون مستعبدين لبطونهم وأعصابهم ، فانين فى شهواتهم وعاداتهم ، فاذا اضطروا فى حين من الزمان الى تغيير سيرتهم فى معيشتهم كما يحدث فى أيام الحروب الطاحنة ، لم يستطيعوا تحمل هذا التغيير فيهلكون أو يقعون فى أمراض عضالة .

فالى هؤلاء وأمثالهم ممن يسيئون فهم المدنية ، ويحسبونها ترفا محضا ، يساق ما ذكره فضيلة الاستاذ الامام فى مجالته الحكيمة من رياضة النفس على فضيلة الصبر .

الدروس الدينيـــة

فى حضرة صاحب الجلالة الملك

لقد وفق الله حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول الى سنة حسنة ابتكرتها فطرته العالية ، وهى أن يلقى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فى كل أسبوع درسا دينيا فى أحد المساجد الكبرى ، يتفضل حضرة صاحب الجلالة بحضوره فى جمهور كبير من رجال دولته ، ورؤساء حكومته .

فبدأ فضيلة الاستاذ الامام بالدرس الأول فى جامع الأستاذ البوصيرى فى أوائل رمضان بالاسكندرية ، وجعل الدرس الثانى فى مسجد الامام الحسين رضى الله عنه ، والدرس الثالث فى مسجد أبى العلاء ببولاق ، وسيكون الدرس الرابع فى أحد كبار المساجد بالقاهرة . وقد تكرم جلالة الملك بحضور جميع هـذه الدروس وحضرها معه عدد كبير من الوزراء وكبار الموظفين ، فكان أثر ذلك فى نفوس الناس عظيما ، وثمرته فى إعزاز الدين ، وإكبار شأنه لا يقدر .

حقا إن هذا التجديد الملكى قد جاء فى الوقت المناسب له ، فان انصراف الناس عن الدين قد بدأ ينتج نتائجه فى المجتمع من انتشار المسكرات والمخدرات وضروب الملهيات وما تجر اليه من التلاحى والتضاغن والاقدام على الجرائم ، ولا يوجد سبيل الى لفت الناس الى ما يحييهم من تعاليم الدين ووصاياه غير أن يعمد القائم بالأمر الى إكبار شأن الدين ورفع مكانته الى الحد الواجب له ، والوصول الى هذا الغرض لا يكون بمجرد الدعوى وإلقاء الخطب كما كانت عليه الحال قبل هـذا العهد ، فلا بد من اللجأ الى وسيلة عملية ، وليس يطوف بخيال أحد أحسن من هذه الوسيلة الكريمة التى عمد إليها حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول ، فانها ترفع من شأن الدين فى نظر الناس ما لا تستطيع عمل عشر عشيره الخطب الطنانة ، والدعوات الحارة .

ومن كمال التوفيق أن يكون الاستاذ الذى تسند اليه هذه المهمة هو الاستاذ الامام الشيخ المراغى ، فانه بالقائه البديع المتئد ، وعباراته البليغة المنتخلة ، واطلاعه الواسع الشامل ، وبصيرته النافذة النيرة ، يجلى من حكمة الاسلام ، ويكشف من فضائله وحسناته ، مالا كان يخطر فى بال الذين يتخيلون أن الأديان قد انقضى عهدها ، وأن ليس فيها ما يأخذه أبناء العصر الحاضر عنها . ولا أدل على ذلك من إلحاح القراء علينا فى وجوب نشر هذه الدروس بمجلة الازهر ، ومن عجب أن أشدهم إلحاحا علينا المتعلمون تعليما عاليا .

إن هذا التجديد الموفق من جـلالة الملك ، واتفاق وجود فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى فى دست المشيخة لتنفيذه فى هذا العهد ، سيكون له أكبر الآثار وأعمها فى لفت أنظار

المسلمين الى جمال دينهم ، وسيعيد للروح الاسلامية الشريفة شخصيتها الضائعة بعد أن طغت عليها الفلسفة المادية حتى كادت تسودها فى عقر دارها .

فنتقدم بالشكر لجلالة الملك على ما قدم من عمل سيخلده له تاريخ مصر فى أوجه صفحاته ، ونهنئ حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام على ما وفق له من الابداع فيما أسند اليه من تنفيذه ، راجين الله أن يلهم المسلمين الاستفادة من هذه السنة الحسنة بمنه وكرمه ؟

محمد فريد وجدى

بسم الله الرحمن الرحيم

الناحية الفلسفية

فى حياة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

إن لحياة عمر بن الخطاب رضى الله عنه نواحى شتى ، دينية واجتماعية وسياسية الخ ، ولعل من أحفلها بالطرافة ناحيتها الفلسفية ، وللفلسفة معاييرها فى تقدير المواهب النفسية ، والملكات العقلية ، وطرقها فى التنقيب عما ينطوى فى أعمال العاملين من البواعث الدالة على مميزاتهم الأدبية ، ومراتبهم الروحية .

ونحن إن تأملنا فى حياة عمر وما رمى اليه من غايات ، وما بدت عليه من صفات فى مضطرب الحوادث ، ومزدحم الانقلابات التى طرأت على جماعة المسلمين على عهده ، تبين لنا أنه لم يكن رجلا عاديا ، ولكنه كان عبقريا .

نقول عبقريا ونريد من هذا اللفظ معناه الفلسفى لا معناه العامى . فان العبقرية فى العرف الأخير تعنى بلوغ درجة ممتازة فى الذكاء ، ومكانة عالية من العقل ، ولكنها فى الاصطلاح الفلسفى تعنى موهبة لايمكن اكتسابها بالعلم ولا بالتجربة ، تؤهل صاحبها لأن يلهَم إلهاما فيما هو بصدده حتى يبلغ درجة الابداع فيه ، بدون أن يعمل فيه فكرا ، أو يبذل للوصول اليه جهدا .

هذه حالة استثنائية يمنحها بعض الأفراد منحا ، ولا يستطيع أحد الوصول اليها بالاستكثار من العلم ، ولا بالتبحر فى المعرفة . قالت دائرة معارف (بريتانيكا) لسنة ١٩٢٩ :

« العبقرية شيء خارق للعادة على وجه الاطلاق ، وأرقى حتى من المقدرة العلمية الفائقة . وإنها لتختلف فى النوع اختلافا بينا عن الألمعية الممتازة ، فهذه تعتبر درجة عقلية سامية ، ولكن ينقصها تلك الموهبة الفذة التى لاتقبل التفسير المحصورة فى كلمة عبقرية » .

هذه هى العبقرية التى نحكم بها لثانى الخلفاء الراشدين . ومن العجب أن النبى صلى الله عليه وسلم حكم له بها فى حديث كريم هو :

« إن من أمتى ملهَمين ومحدَّثين وإن عمر منهم »

فالملهمون هم الذين يلهمهم الله الأعمال الممتازة ، والابداعات الفائقة ، بدون إجالة روية فى سبيل الحصول عليها ، والمحدَّثون هم الذين تحدثهم الروحانيات العلوية ، وتهديهم الى أقوم سبل التفوق فيما هم بصدده . فعمر بنص هذا الحديث كان عبقريا بالمعنى العلمى المقرر .

فى هـذا التطبيق فائدة علمية طريفة ، وهى أن النبى صلى الله عليه وسـلم عرف العبقرية بحدها الفلسفى ، قبل أن يوجد لفظها العربى .

نشأ عمر وكبر فى الجاهلية ولم يظهر عليه شىء من السمو الذى ظهر به فى الاسلام ، فـكل ما اشتهر به الشدة وقوة الارادة ، والتصميم الذى لا يعرف هوادة .

فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم وبدأ يدعو الى الله سرا ، بلغه أن أخته قبلت الاسلام دينا ، فغضب لذلك أشد الغضب ، وزارها فى دارها ليلومها على ماجنت بترك دين آبائها . فلما جلس اليها وشرع فى تانيبها ، أسرعت فناولته صحيفة فيها شىء من القرآن . فلما قرأها (وكان من الأفراد القليلين الذين يقرءون) وقع فى قلبه من سمو الاسلام ما حمله على أن يجتمع برسوله ، فلما لقيه عرض عليه الرسول الاسلام ، وتلا عليه آيات من القرآن ، فآمن به لساعته .

كان النبى صلى الله عليه وسلم قد دعا الله وهو فى شدة المحنة ، ولوعة الاضطهاد ، أن يعز الاسلام بأحد العمرين : عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام الملقب بأبى جهل . فلما أسلم عمر كان هو الذى اجتباه الله لاعزاز الاسلام . وكان أول ما عمـله فى إسلامه أن قال : يارسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل ؟ فأجابه رسول الله : « إنا قليـل وقد رأيت مالقينا » . فقال له عمر : والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالـكفر إلا جلست فيه بالايمـان ! فلقبه النبى بالفاروق من ذلك اليوم . ومعناه البليغ فى التفرقة بين الحق والباطل . فلم يزل عمر يجهر بالاسلام ولا يتعرض له أحد ، حتى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة ، فهاجر جميع الصحابة مستخفين ، إلا هو فانه خرج مجاهرا ولم يتبعه أحد من المشركين .

كان عمر عبقريا فى الحـكم :

قرر علماء النفس أن العبقرية لا تقتصر على العلوم والفنون والحروب ، ولـكنها قد تكون فى الحـكم أيضا . ولسنا نشك فى أن عمر ، وقد خلف أبا بكر ، كان عبقريا ، لما ظهر من ثمرات أعماله المـاجدة ، وما بقى من آثار سيرته الخالدة ، فى مدى حكمه الذى لا يبلغ اثنتى عشرة سنة .

لم تـكن الأداة الحـكومية فى منتصف القرن السابع للميلاد على شىء من التركب الآلى ، بحيث لا تتأثر ماجريات الشئون الاجتماعيـة بوفاة عاهل وقيام عاهل آخر مقامه . فـكانت الحـكومات كلها من الضرب الاسـتبدادى الذى ترجع فيه الأمور الى نفسية القائم بالأمر وخصائصه العقلية .

والحـكم فى الاسلام وإن كان حاصـلا على جميع الأصول التى تدعو الى إقامة أداة محـكمة للحكم ، يكون من عملها تمثيل الأمة فى مجلس نيابى أو مجلسين ، وتقسيم السلطات على هيئات خاصة ، وضمان استقلال كل منهـا ، فان الحوادث لا يمـكن أن تسبق أزمنتها ، فـكان الحـكم فى الاسلام موكولا لمن تراه الأمة أهلا لاقامة تلك الأصول ، اجتهادا من تلقاء نفسه . وقد دلت الحوادث على أن عمر هذا قد حقق الظن فيه ، وبلغ من إقامة الأصول الاسلامية مبلغا رفعه الى درجة العبقرية .

ليس من السهل فى دور الشكل الاستبدادى للحكومات ، أن يقيم القائم بالأمر جميع المثل العليا للتعاليم التى يصدر فى أعماله عنها تمثيلا كاملا ، مهما حرص على ذلك ، إلا إذا كان من الملهمين .

لأنه كيف يتسنى لعقل عادى فى أول عهد القرون الوسطى ، أن يفهم مغزى أصول مثالية لم نفهمها نحن اليوم إلا تحت ضوء العلوم الحديثة ، ولم ندرك مراميها البعيدة إلا بعد ظهورها للعيان عقب انقلابات عالمية خطيرة ؟

نعم إن كلمات حق وعدل ومساواة الخ ، كانت تعرف مدلولاتها منذ القدم ، ولكنها كانت مدلولات تنقص أهم مؤدياتها المطلقة ، حتى إن واضع الديموقراطية أرسطو أمير الفلسفة ، لم يفهم مؤداها المطلق ، فقرر فى بحوثه السياسية وجوب حرمان العمال والأرقاء من الحقوق المدنية من الناحية السياسية ، الأولين : باعتبار أن نفوسهم ليست من نوع نفوس الأحرار ، والآخرين : لاشتغالهم بالمهن اليدوية ! فشتان بين ديموقراطية أمس وديموقراطية اليوم . وقس على ذلك سائر الكلمات الضخمة التى تكثر فى فلسفات الأقدمين مقيدة لا مطلقة ، كما يريدها الاسلام ويدعو اليها بهذا الاعتبار .

فنبوغ رجل كعمر يدركها وأمثالها على الوجه الذى أراده الاسلام مطلقة وخالصة من كل شائبة بشرية ، فوق ما كان يدركه منها فلاسفة النفس وعلماء الاجتماع على عهده وبعد عهده بأجيال ، أمر يستوقف النظر ويدعو الى الحيرة ، ولا مخرج منها إلا بتعليلها بالعبقرية فى الحكم .

كل ما فى الاسلام من التعاليم الاجتماعية لا تخرج عن إقامة الحق ، ومراعاة المساواة بين الخلق ، والحكم بالعدل ، واحترام حرية القول والعمل ، والالجأ الى الشورى فى الأمور الجامعة ، فكان عمر مثلا أعلى فى تطبيق هذه الأصول الكلية ، وله فى كل منها مواقف وكلمات نابغة ، بقيت أعلاما منصوبة لها الى اليوم .

فمن أمثلة اعترافه بسلطان الأمة عليه وخضوعه لرقابتها قوله من خطبة : « أيها الناس إذا رأيتم فى اعوجاجا فقوموه » . فقام اليه رجل من الحاضرين وقال : « والله ياعمر لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا » .

فلو كان عمر اكتفى بسماع هذه الكلمة وتجاوز عن مؤاخذة قائلها لعد ذلك منقبة له يتناقلها الناس ويعدونها دليلا على وفور عقله ، وسعة حلمه . ولكنه أجابه بقوله : « الحمد لله الذى جعل فى هذه الأمة من يقوم اعوجاج عمر بسيفه » !

هده الاجابة لها مغزى اجتماعى خطير الشأن ، وهو تبريره العمل على إزالة الجور ، وهذا من مملك عظيم غاية فى احترام الأوضاع المقررة ، والسنن المعتبرة ، لو فاز بمثلها شعب

من الشعوب المستميتة فى تأييد سلطان الأمة على لسان ملك عظيم من جنسها لأقامت لكلمته هذه نصبا فى أكبر ميادينها ، ولبنت له صرحا من الثناء الخالد على الدهر .

التسليم برقابة الأمة يقتضى الديموقراطية ، فهل كان عمر ديموقراطيا بالمعنى الذى كان يفهمه خطباء الثورة الفرنسية ؟

نعم ، فقد قال كعب الأحبار :

« نزلت على رجل يقال له مالك ، وكان جارا لعمر بن الخطاب ، فقلت له : كيف بالدخول على أمير المؤمنين ؟ فقال : ليس عليه باب ولا حجاب ، يصلى الصلاة ثم يقعد فيكلم الناس ! »

وعن الحسن البصرى قال :

« كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام ، فقال له الرجل : اتق الله ، فقال رجل من القوم : أتقول لأمير المؤمنين اتق الله ؟ فقال له عمر : دعه فليقلها لى ، نعم ما قال ، لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها ! »

تأمل فى قوله : لا خير فيكم إذا لم تقولوها ! إنها والله لكلمة من أنبغ الكلمات الاجتماعية ، وهى كما تدل على مبلغ احترام عمر للمعارضة ، وهى ركن من أركان الحياة السياسية ، تدل أيضا على تجرد الأمة التى تهيب هذا الركن من الخير . وقوله : « ولا خير فينا إذا لم نقبلها » تقرير بأن الحكومة التى لا تطيق المعارضة تكون مجردة عن الخير أيضا . لذلك تجد فى كل مجلس نيابى فئة من غير حزب الحكومة تقوم بالمعارضة فيه ، ويحترم رأيها ويهتم به الحزب صاحب الكثرة .

مثل عليا فى الديموقراطية :

أبلغ من كل ما مر فى الدلالة على فهم عمر للديموقراطية الصحيحة ، أنه لما دعى الى بيت المقدس ليتفق والمدافعين عنها على التسليم ، كما شرط عليه ذلك ، شخص اليها على بعير كان يتعاقب عليه هو وسائسه فى الطريق ، ولما شارفوا المدينة كان الدور للسائس فكان راكبا وأمير المؤمنين آخذ بمقود البعير . فقال له خادمه : لو نزلت أنا وركبت أنت حتى لا تقابل الناس على هذه الحال ! فلم يجبه أمير المؤمنين الى طلبه ، وقدم على مستقبليه راجلا يقود البعير لخادمه . فكانت مفاجأة محيرة ، ولكن أحدا لم ينبس بكلمة لعلمهم من هو عمر وما هى ديموقراطيته .

وأبلغ مما مر فى الدلالة على فهم عمر للديموقراطية ، كما يريدها الاسلام مطلقة ، أنه لما كان فى بعض انتقالاته بفلسطين عرضت له مخاضة ، فنزل عن بعيره وخلع نعليه فأمسكهما بيده ، نخاض الماء ومعه بعيره . فقال له أبو عبيدة كبير قواده : قد صنعت يا أمير المؤمنين صنعا عظيما عند أهل الأرض . فصكه عمر فى صدره وقال : « أواه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة ! إنكم كنتم

اذل الناس ، وأحقر الناس ، وأقل الناس ، فأعزكم الله بالاسلام ، فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله ! » .

وأعظم مما مر وأحفله بالمعانى التى لا يدركها إلا الآحاد ، مارواه الفضل بن عميرة : أن الأحنف ابن قيس قدم على عمر بن الخطاب فى وفد من العراق ، قدموا عليه فى يوم صائف شديد الحر ، وهو محتجر بعباءة (أى ملتف بها) ، يهنأ بعيرا من إبل الصدقة ، (أى يدهنه بالهناء وهو القطران) .

فقال عمر : « يا أحنف دع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فانه من إبل الصدقة فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين . (الأحنف هذا سيد بنى حنيفة ، وهو الذى قيل فيه : إذا غضب غضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب) .

فقال رجل : يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ، فهلا تأمر عبدا من عبيد الصدقة يكفيك هذا !

فقال عمر : « يا ابن فلانة وأى عبد هو أعبد منى ومن الأحنف هذا ؟ إنه من ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين ، يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة » !

إن عمر رضى الله عنه بقوله : من ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين ، وبتوليه عملا هو من مهن العبيد ، وبدعوته الأحنف ليعمل معه فيه ، قد ضرب الأرسطوقراطية ضربة لن تقوم بعدها لها قائمة فى المسلمين باسم الاسلام قط . وقد تتبعنا سير جميع الملوك النابهين فلم نعثر على مثال فى الديموقراطية يشبه هذا المثال . وهكذا ثمرات العبقرية تأتى على غير مثال سابق .

ولما أقبل سفراء بيت المقدس لمقابلة أمير المؤمنين عمر ، سألوا أين هو ؟ فأشاروا لهم اليه ، وكان نائما على الأرض فى ظل شجرة ، فهالهم ما رأوا وأبوا أن يتفقوا مع من هذه حالته ، استنكارا لها ، حتى يستأنسوا برأى كبرائهم . فلما رجعوا وقصوا عليهم مارأوا قال لهم بطريقهم : ارجعوا أدراجكم إنه طلبتنا ، وهذه حليته فى كتبنا .

نقول : ليس هذا من سقوط الهمة ، ولكنها الديموقراطية يضع عمر بيديه أركانها ، ويقيم بقدوته بنيانها . وإذا كان للعظمة معنى يرى بالعين ، فهو ما رآه الناس من أمثال هذا فى سيرة عمر عظمة عبر عنها الأستاذان الفرنسيان (أمن وكوتان) فى تاريخهما العام بقولهما : « إن هذا العاهل الذى كان يلبس ثوبا مرقعا كانت ترتعد فرائص الملوك عند ذكر اسمه » .

وخطب الفاروق يوما فقال : « يأيها الناس إنى والله ما أرسل عمالا اليكم (أى ولاة) ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ، ولكنى أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم ،

ويقضوا بينكم بالحق ، ويحكموا بينكم بالعدل ، فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه الى ، فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه »

فوقف عمرو بن العاص فاتح مصر وواليها فقال : « يا أمير المؤمنين أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين أدب بعض رعيته أإنك لتقصنه منه ؟ »

فقال الفاروق :

« أى والذى نفس عمر بيده إنى لأقصنه منه ، وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ؟ »

إذا تبجحت أمة بأنها تقيم مبدأ المساواة بين الناس فلتكن من هذا الطرز المطلق ، وإلا فهى صورة ناقصة لها كأكثر ما نسمعه عنها وما نراه منها .

الديموقراطية تسوى بين السادة والعبيد :

من أمثلة المساواة التى كان يقيم عمر حكمه عليها ما رواه الحسن البصرى قال :

« حضر باب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب فى نفر من قريش من تلك الرءوس ؛ وصهيب وبلال من تلك الموالى (أى الذين كانوا أرقاء أو أبناء أرقاء) الذين شهدوا بدرا ، فخرج إذن عمر لهم وترك أولئك .

«فقال أبو سفيان (وكان من سادات قريش) : لم أر كاليوم قط : يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت الينا !

« فقال سهيل بن عمرو ، وكان رجلا عاقلا : أيها القوم إنى والله أرى الذى فى وجوهكم ، إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم ، دعى القوم ودعيتم ، (يريد دعوا الى الاسلام) فأسرعوا وأبطأتم ، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم ؟ »

ومن أجل ما صدر عن الفاروق فى تنفيذ مبدأ الديموقراطية المطلقة قوله ، وهو يجود بنفسه ، وقد دعى لأن يعهد بالخلافة لمن يثق به : والله لو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا ما جعلتها شورى . أى أنه كان يعهد اليه بالخلافة ولا يحيلها الى الشورى ، وسالم هذا كان مملوكا لأبى حذيفة .

هنا لا نجد عبارة تصور إكبارنا لهذه الديموقراطية التى تمثل روح الاسلام فى أبدع وأروع صوره .

وشكا أحد أهل مصر الى الفاروق ابنا لعمرو بن العاص واليها مدعيا أنه ضربه قائلا له : أنا ابن الأكرمين . فلما ثبت لعمر أنه صادق فى دعواه ، أعطاه درته (أى عصاه) وقال له : « اضرب ابن الأكرمين كما ضربك ! ثم التفت للناس وقال لهم : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » !

إن الفاروق لم يرد بما فعل أن يذل ابن أحد ولاته ، ولكنه يرفع علم المساواة الى أعلى ما يمكن أن يصل اليه ، وليس بعد هذا غاية .

العدل المطلق لا ينافى النظام :

ومن أمثلة حرص عمر على حفظ النظام ما رواه أبو ساعدة الهذلى قال : « رأيت عمر ابن الخطاب يضرب التجار بدرة إذا اجتمعوا على الطعام بالسوق ، (أى يبيعونه) ، حتى يدخلوا سكك أسلم (حى بالمدينة) ، ويقول : لا تقطعوا علينا سابلتنا » .

أليس هذا بعينه ما تكلف به الشرطة من تنظيم حركة المرور فى العواصم اليوم ؟ فلو كنت (كونستابلا) لباهيت بوظيفتى التى وضع أساسها أكرم ملوك الأرض فى أعظم أمة .

قال المسيب بن دارم : « رأيت عمر بن الخطاب يضرب جمالا وهو يقول : حملت جملك ما لا يطيق » !

فمن لى بمن يبلغ جماعات الرفق بالحيوانات أن عمر بن الخطاب سبقهم الى سن هذا النظام قبل أكثر من ثلاثة عشر قرنا ؟

وبعد : فان هذه السيرة التى تتجلى فيها المثل العليا للحكم فى غاية أبهتها ، وتطبق الى أقصى حدودها ، لا تتأتى إلا إذا كان القائم بها عبقريا .

نعم : إن عمر لم يفعل أكثر من أن نفذ الأصول التى دونت فى الكتاب ، والسنة ، ولكن تنفيذها على هذا النحو الباهر لا يتأتى إلا من طريق العبقرية ، فهى وحدها التى تلهم صاحبها المواقف الموفقة فى كل ما يعرض له من الشئون ، وللشئون مآزم لا يغنى فيها مجرد التشدد فى تطبيق حرفية المثل العليا ، فلابد فيها من تصرف وجدانى يضع الأمور مواضعها ، وهناك مجال فسيح للعبقرية .

وإلا فلم قرر علماء النفس وجود عبقرية للحكم ؟ أليست أصول الأحكام القويمة مقررة مرسومة ؟ نعم . ولكن تطبيقها على الحوادث ، وتحويل الماجريات الى سبيلها القيم ، واستغلال الظروف لمصلحة الجماعة دون الاخلال بسلطان تلك الأصول ، والاستفادة من مرونتها فى حدودها المقررة ، وتعيين مواضع هذه الرخصة وأوقاتها المناسبة ، كل هذه مجالات تتفاضل فيها النفوس ، وتجد العبقرية مكانها العالى منها .

وإنه مما يوجب تفاؤلنا أن يكون أول ملك مصرى مستقل سميا لعمر بن الخطاب فى أخص ألقابه . وإنا لنرجو أن يكون جلالته أشبه الناس به فى أخص صفاته أيضا . وقد بدت مخايل ذلك على جلالته على قرب عهده بالعرش . أعز الله به مصر والمصريين ، كما أعز بسميه الاسلام والمسلمين !

محمد فريد وجدى

التفسير

سورة لقمان

— ٩ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » :

كانت الآية السابقة فى الحث على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والصبر على ما يلقاه الآمر الناهى من مصائب هو متعرض لها ولا بد ؛ وفى بيان أن الأمر والنهى المذكورين من عزم الأمور ، أى الأمور المصممة التى لا هوادة فيها ولا تراخى . ومعلوم ما يشعر به الآمر الناهى من العزة وعلو النفس إذ يرى نفسه مرشداً مربيا مؤدبا ، فيشعر لنفسه بحقوق الزعامة والرياسة ، وأنه ينبغى أن تدين له النفوس وتخضع ، إذ كانت ناقصة فأكملها ، معوجة فقوّمها، ضالة فهداها وأرشدها . وهنا لابد أن ينفخ الشيطان فى منخريه نفخة العزة والكبرياء فيلحقه من الصلف والتيه ما يقلب عليه الحال ، ويصيره أولى بأن يوعظ وينبّه الى ما وقع فيه أو شارف الوقوع ، فكان بمسيس الحاجة الى هذا التنبيه ، فجاءت الآية الكريمة فى وقت الحاجة الشديدة اليها ، حتى تنقذه من زلة هو بشرف التردى فيها ، فقال عزمن قائل : « ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لا يحب كل مختال فخور »

ومعنى التصعير: الميل المشرب بالاعراض كما هى سحنة المتكبرين . وأصله من الصعر وهو داء يعترى البعير فيلوى له عنقه ، استعير لهيئة المتكبر لمشاركته له فى الشكل مع التلميح بالاستنكار لهذا الشكل ، فان أبغض الهيئات هيئة المتكبرين ، فلا بدع أن يختاروا لها من الأشباه ما يستند الى المرض البغيض ، قال الشاعر :

وكنا إذا الجبار صعر خده   أقمنا له من ميله فتقوما

وإن ذم الكبر والتنفير منه غير محتاج الى إطالة القول ، فنكتفي بكلمتين وجيزتين فيه ، إحداهما تنسب لعلى كرم الله وجهه ، وهى « وما لابن آدم والكبر وإنما أوله نطفة مذره ، وآخره جيفة قذره ، وهو بين ذلك يحمل العذره » ! وقريب منها قول بعضهم : « كيف يتكبر من يعلم أنه خرج الى الدنيا بعد ما مر من مجرى البول مرتين ، ويمس القذر فى نفسه كل يوم مرتين أو أكثر من مرتين » !

والثانية قول الامام الغزالى رحمه الله « لو أن الرجل كان عالما جوادا ثم كان متكبرا لمقته الناس وأبغضوه ، يقولون نستغنى عن علمه بعلم غيره ، ويرزقنا الله بلا حاجة اليه . ولو كان جاهلا بخيلا ثم كان متواضعا لأحبه الناس ومالوا اليه . فناهيك بفضيلة غطت رذيلتين ، ورذيلة غمطت فضيلتين ! » أعاذنا الله من شر الكبرياء والمتكبرين .

وحسبك قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الامام احمد : « إن أحبكم الىّ وأقربكم منى منازل يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا ، الموطئون أكنافا ، الذين يألفون ويؤلفون » .

واللام فى قوله « للناس » لام الأجل ، أى لا تمله من أجل الناس استخفافا بهم وإعراضا عنهم وكبرياء عليهم ، فليس معناها مثل مافى قولك : أملت جانبى له ، بمعنى عطفت أو حنوت عليه ، وإنما معناها الصلف والاعراض ، فهى كقولهم : قلب لهم ظهر المجن . وكقول العامة : قلب لى صفحة وجهه ، أى أشاح وأعرض . وبعضهم يقول « ولا تصعر خدك للناس » : أى لا تذل وتخضع . وهو إذا صح فى نفسه فليس بمتسق مع السياق .

« ولا تمش فى الأرض مرحا » :

فى المرح معنى الفرح والخفة والنزق ، وكلها ينبو عنه الوقار والسكينة والرزانة التى هى شعار المؤمن ، ولا سيما من نصب نفسه للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن النفوس لا يطيب لها الاذعان لمن كان بعيدا عن سمت الوقار والسكينة وضبط النفس . وهذان النهيان « ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا » وإن كانا مطلوبين من كل إنسان فهما من الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر آكد طلبا .

« إن الله لا يحب كل مختال فخور » :

تعليل للنهى السابق ، كأنه قيل : ولماذا نهينا عن هذين ؟ فكان الجواب ما ترى . والمختال من الخيلاء ، وهى مشية فيها تبختر ومباهاة ، كأنها تنشأ عن تخيل المرء فى نفسه ميزة ليست فى غيره . والفخور : الكثير الفخر ، وهو تعداد ما أوتى من نعم بقصد الاستعلاء على غيره . وقد قالوا إن فى هذا التعليل لفا على غير ترتيب النشر ، فإن الخيلاء تناسب المشى مرحا ، والفخر يناسب التكبر وتصعير الخد ، وسلك هذا المسلك وهو عكس الترتيب الأول مراعاة للفاصلة . وأرى أن المعنيين متقاربان ، فلا يمشى مشية المرح إلا الفخور غالبا ، كأنه لا يبالى

بمقادير من أمامه . وكذلك من شأن المتكبر المصعر خده للناس أن يختال فى مشيته . فمجموع الوصفين والخلقين متناسبان .

بقى أن مثل هذا التركيب يكثر فى التنزيل الكريم ، وهو تقديم أداة النفى فى قوله « لا يحب » على أداة العموم وهى لفظ « كل » . وقد اشتهر بينهم أن هذا يفيد نفى العموم ، أى أن محبة الجميع غير حاصلة فلا ينافى أنه قد يحب البعض ، فتكلف بعضهم جريان هذا المعنى هنا وقال : إن الله لا يحب جميع المختالين وإن كان يحب بعضهم كالاختيال فى صفوف القتال إظهارا للقوة أمام العدو ، وكالافتخار بنعمة الايمان والتوفيق مثلا . والذى أراه ما عليه الجمهور من صرف هذا التركيب الى معنى استغراق نفى المحبة لجميع أفراد المختالين الفخورين ، وكأنه قيل : وكل مختال فخور لا يحبه الله ، فان المقام مقام التنفير من هاتين الصفتين الذميمتين ، وليس يحسن فى مثله أن يقال لهذا التعليل إن الله يبغض بعض المختالين ولا يبغض الآخرين ، فذلك مما يأباه مقام الزجر والتنفير . وما ذكروه من المثالين يؤخذ استثناؤه من دليل آخر بحيث لا يمس المقصود من السياق .

هذا وإن السر فى أن المختال الفخور لا يحبه الله ، أن اختياله وفخره نتيجة شعوره بكمال نفسه ، ومن ملكه هذا الشعور قلما يلتفت لتدارك نقصه أو تنمية كمالاته ، فقد قالوا أول درجات الشروع فى الكمال الشعور بالنقص ، فمن لم يشعر بجهة نقصه لا ينتظر أن يسعى فى مراتب الكمال ، والكمالات الانسانية لا تقف عند حد ، فما من كمال إلا وعند الله أكمل منه أعد له النفس الانسانية ، وناهيك بقوله صلى الله عليه وسلم: « إنه ليران على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة » .

وفى التعبير بفخور خروج عما يتوهم من معارضة قوله تعالى « وأما بنعمة ربك فحدث » فالفخور الكثير الفخر ، أما تعداد النعمة بدون تلك الكثرة فلا حرج فيه ، بل إذا قصد بذلك إظهارها ليكون ذلك أدعى لشكرها وحث الغير على النظر لنعمة ربه ليقبل عليه شاكرا فهو مقصد حسن يصلح أن يكون مأمورا به لا منهيا عنه .

« واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » :

القصد فى المشى : التوسط والاعتدال فيه . لما نهى عن المشى مرحا كان ذلك مظنة أن الهوادة الشديدة بل المشى مشى المتماوتين مطلوب شرعا ، فجاء الأمر فى هذه الآية الكريمة منبها على الاحتراز من ذلك أيضا ، فالقصد والاعتدال فى كل شىء هو الحسن المطلوب ، والافراط أو التفريط كلاهما مذموم :

فلا تغل فى شىء من الأمر واقتصد ... كلا طرفى قصد الأمور ذميم

وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا مشى كأنما ينحط من صبب . وروى أن عمر

رضى الله عنه رأى رجلا يمشى مشية المتماوت، فقال له : لا تمت علينا ديننا ! ورأى رجلا مطأطئا رأسه فقال له : ارفع رأسك فان الاسلام ليس بمريض ! ونظرت عائشة الى رجل كاد يموت متخافتا ، فقالت : ما لهذا ؟ فقيل إنه من القراء ، فقالت : لقد كان عمر رضى الله عنه سيد القراء وكان إذا مشى أسرع ، وإذا قال أسمع ، وإذا ضرب أوجع ! وظاهر أن المراد بالاسراع ما فوق مشية المتماوتين .

« واغضض من صوتك » :

الغض من الشىء نقصه والتقصير فيه ، يقال غض بصره أى كفه نوعا ما ، لم يحبسه تماما ولم يرسله ممتدا ، وكذلك الأمر هنا : طلب ألا يطلق الصوت على جهارته المزعجة ، وألا يحبسه همسا. وفى قوله : « من صوتك » إشارة الى هذا ، فكأنه يقال : انقص بعض صوتك ولا ترسله بجهارة مزعجة . وهذا يدل على التوسط فيه على نسق ما فهم فى أمر المشى . وقوله « إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » مفيد للتعليل مثل ما سبق فى قوله تعالى : « إن الله لا يحب كل مختال فخور » .

وأنكر الأصوات أقبحها ، من نكر كقبح وزناً ومعنى ، وفيه زيادة على القبح معنى الصعوبة والشدة المؤدية الى الاشمئزاز . والحمير تضرب مثلا فى الذم من جهات عديدة : كالبلادة ، وإزعاج الصوت ، وذلة التسخير . ولذلك أكثر ما يستعمل مكنيا عنه ، إلا فى مقام الذم ، فانه يصرح به لأنه أجلى فى التقبيح مثل ما هنا وما فى قوله عز وجل « كمثل الحمار يحمل أسفارا » ففى التصريح باسمه عون على التنفير والتقبيح ، وهو المقصود فى مقام الذم .

هذا وإن بعض الناس يحملهم الصلف والغطرسة على إطلاق صوتهم اغترارا واعتزازا حتى كان بعضهم يمدح بذلك ، كما فى قول الشاعر :

جهير الكلام جهير العطاس   جهير الرواء جهير النعم

ولكن ما من شك فى أن ضبط النفس والغض من الصوت والرزانة أدعى الى الاصغاء وحسن الاستماع ، بل ربما كانت أوجب للمهابة . على أن الجهارة قد تخلو من فظاعة الصخب الممقوت فلا يوجب ذلك المدح برفع الصوت رفعا فظيعا ، ولكن الخروج عن تخافت المتماوتين .

هذا وإنك لتجد فى أسلوب القرآن الكريم فى الارشاد الى الأخلاق الفاضلة والتربية الحسنة من الأمر والنهى معللين بعللهما المؤثرة فى النفوس ، ما لا تجده فى التقسيمات الفلسفية التى يطوح بها المتشدقون ، إذ يقسمون القوى النفسية ويشرحون لها أحوالا نظرية لا تترك فى النفس أثرا عمليا ، وإنما تعين على بسط القول واتساع الكلام ، فأما الانتاج الفعلى فلا تكاد تجده إلا فى الذكر الحكيم . فاللهم اهدنا إليك الصراط المستقيم ؟

ابراهيم الجبالى

السُّنَّة

الطلاق

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما « أنه طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأل عمرُ بنُ الخطاب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : مُرْهُ فليراجعها ثم ليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسك بعدُ وإن شاء طلق قبل أن يَمَسّ ، فتلك العدةُ التى أمر اللهُ أن يطلّق لها النساء » . رواه البخارى .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) بيان معناه (٢) هل طلاق الحائض ومن فى حكمها حرام أو مكروه ؟ (٣) هل للزوج أن يطلق زوجته فى غير زمن الحيض والنفاس بدون سبب أولا ، وما رأى الأئمة فى ذلك ؟ (٤) ما حكمة النهى عن طلاق الحائض ومن فى حكمها ؟ (٥) هل قوله صلى الله عليه وسلم لعمر : مره فليراجعها ، أمر لابنه عبد الله أولا ؟ (٦) هل الحديث يفيد النهى عن الطلاق مرتين أو ثلاثا أولا يفيد ؟ وما رأى الأئمة فى ذلك ؟ (٧) هل يعتد بطلاقه إذا طلق حال الحيض والنفاس فيحسب عليه أولا ؟

١ — معنى هذا الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن الطلاق فى حالتين : إحداهما أن تكون المرأة حائضة ، ثانيتهما أن تكون طاهرة من الحيض ولكن زوجها أتاها فى هذا الطهر ، لأنه عليه الصلاة والسلام خيره بين إمساكها وبين طلاقها فى الطهر قبل أن يمسها . وقد جاء فى بعض الروايات أنه عليه الصلاة والسلام قد غضب من تطليق عبد الله زوجته حال حيضها . وسبب غضبه فيما يظهر أن الطلاق حال الحيض قد نهى الله عنه بقوله : « يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » . وما كان لعمر وابنه أن يخفى عليهما ذلك الحكم مع مالهما من المنزلة العلمية الرفيعة فى الدين . أما كون عبد الله قد فعل ذلك عمدا لعدم استطاعته ضبط نفسه وهو عالم بالحكم ، فهو بعيد ، لأن عبد الله بن عمر كان شديد التمسك بأحكام الدين معروفا بالورع والتقوى والقدرة على ضبط نفسه . ومعنى قوله تعالى « فطلقوهن لعدتهن » لوقت عدتهن ، أى طلقوهن عند حلول وقت العدة لا قبلها بحيث تشرع المرأة فى العدة عقب الطلاق بدون فاصل .

وظاهر أن الطلاق فى الحيض يعوق المرأة عن الشروع فى العدة ، فان الحيض الذى طلقت فيه لا يحسب لها من العدة باتفاق من يقول إنها تعتد بثلاث حيض ومن يقول إنها تعتد بثلاثة أطهار . أما الثانى فظاهر . وأما الأول فلأن الحيضة التى وقع الطلاق فى خلالها لا تحسب ، إذ الشرط عندهم أن تكون الحيضة كاملة بعد وقوع الطلاق ، فلا يعتد بالناقصة ولو لحظة .

وظاهر هـذا التعليل يؤيد الشافعية والمالكية الذين يقولون إن المرأة تعتد بالطهر لا بالحيض . فاذا طلقها فى الطهر الذى لم يجامعها فيه فانها بذلك تشرع فى العـدة عقب الطلاق مباشرة ، وذلك لأن الطهر الذى طلقت فيه يحسب لها من الأطهار الثلاثة التى تنقضى بها العدة ولو بقيت منه لحظة واحدة . مثـلا إذا طلقها قبل طـلوع الشمس بخمس دقائق وهى طاهرة ثم حاضت بعد طـلوع الشمس ، حسبت لها الخمس دقائق طهرا كاملا ، فاذا كانت ممن يحيض كل خمسة عشر يوما مرة فحاضت مرة ثانية وطهرت حسب لها طهر ثان ، فاذا حاضت بعد خمسة عشر يوما مرة ثالثة ثم طهرت حسب لها طهر ثالث وتنقضى عـدتها بمجرد نزول دم الحيضة الرابعة ، وعلى هـذا القياس .

أما الحنفية والحنابلة الذين يرون أن المرأة تعتـد بالحيض ، وأن الحيضة التى يقع الطلاق فى أثنائها لا تحسب لها من الحيض الثلاث ، فانهم يقولون إن الغرض من الآية الكريمة إنما هو الأمر بطلاق المرأة فى الوقت الذى تستقبل فيه عـدتها بلا فاصل ، فاذا طلقها فى الطهر الذى لم يجامعها فيه فانها بذلك تستقبل أول حيضة تحسب لها من العدة ، وليس الغرض أن تشرع فى العـدة عقب الطـلاق فورا لأن ذلك مما لا لزوم له . ولكل من الفريقين أدلة يؤيد بها رأيه محلها مباحث العدة .

ومع هذا فانهم متفقون على أنه لا يجوز للرجل أن يطلق زوجته وهى حائض أو نفساء ، كما لا يجوز له أن يطلقها وهى طاهرة إذا جامعها فى هذا الطهر كما سيأتى . وهـذا هو صريح الحديث الذى معنا . وقد بين به رسول الله صلى الله عليه وسـلم آية « يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن » .

ثم إنهم قد اصطلحوا على تسمية الطلاق الذى يحصل فى هذه الحالة طلاقا بدعيا ، وتسمية ما يقابله وهو ما إذا طلقها فى طهر لم يأتها فيه ولا فى الحيض الذى قبله طلاقا سنيا .

ثم إذا طلق زوجته وهى حائض أو نفساء فانه يفترض عليه أن يراجعها إذا لم تكن مطلقة ثلاثا عند الحنفية والمالكية . وقال المالكية : يجبر على مراجعتها بالضرب والسجن إذا لم يرض ، فان امتنع راجعها القاضى بدله وتكون زوجة له بهذه المراجعة ، ثم يمسكها حتى تطهر من الحيضة التى طلقها فيها ثم تحيض حيضة ثانية وتطهر ، فان شاء طلقها فى ذلك الطهر الثانى من قبل أن يمسها ، وإن شاء أمسكها . وهذا هو ظاهر الحديث . أما الشافعية والحنابلة فانهم يقولون إن الرجعة سنة لا فرض .

وهذا كله فى المرأة المدخول بها غير الحامل إذا كانت من ذوات الحيض . أما إذا أراد أن يطلق زوجته قبل الدخول فله أن يطلقها وهى حائض لأنها لا عدة لها . وإذا أراد أن يطلق امرأته وهى حامل فله أن يطلقها بعد الوطء لأنه عالم بحملها فلا يندم لفراق ولده . وإذا أراد أن يطلق امرأته التى لا تحيض لصغر أو كبر فان له أن يطلقها بعد الجماع لأن عـدتها تنقضى بالأشهر لا بالحيض .

٢ — أما الجواب عن السؤال الثانى : فقـد أجمع الأئمـة الأربعة على أن طلاق المرأة وهى حائض أو نفساء معصية محرمة . ويقال له بدعى ، منسوب للبدعة المحرمة . بخلاف طلاقها فى الطهر الذى جامعها فيه ، فان المالـكية قالوا إنه مكروه لاحرام . ولـكن الحديث الذى معنا لم يظهر منه فرق بين الحالتين ، فمن أين نأخذ أنه فى الأول حرام وفى الثانى مكروه ؟ ولعلهم يفرقون بين الحـالتين بأن النبى صلى الله عليه وسلم قـد غضب لما قال له عمر إن عبد الله طلق امرأته وهى حائض ، وغضب النبى صلى الله عليه وسلم دليل على أنه معصية ، أما فى الحالة الثانية فانه بين الطريق التى تتبع نخيره بين أن يمسكها وبين أن يطلقها من قبل أن يمسها ، ولا دليل فى هذا على التحريم إذا طلقها بعد أن يمسها ، غايته أنه يكره .

٣ — أما الجواب عن السؤال الثالث : فبالسلب ، فلا يجوز للرجل أن يطلق امرأته بدون سبب ولو كان طلاقه سنيا . وقـد أجمع الأئمة الأربعة على أن الأصل فى الطلاق المنع ماعـدا المالـكية فانهم قالوا خـلاف الأولى . ثم إن الشافعية والحنابلة قالوا إنه مـكروه . وظاهر عبارات الحنفية تفيد كراهة التحريم . وعلى هذا فلا يحل للزوج أن يطلق زوجته إلا لحاجة تقتضى الطلاق ، وذلك لأن الطلاق يقطع عقد الزواج ، وقد شرعه الله لضرورة التناسل الذى لابد منه لبقاء العمران الى الأجل الذى أراده الله وقضاه ، نخلق من أجل ذلك الزوجين وجعل بينهما مودة ورحمة ، فطلاق الزوجـة من غير سبب سفه وكفران لنعمة الله ، فضلا عما فيه من أذى يلحق الزوجة وأولادها إن كان لها أولاد .

فما يفعله بعض الشهويين الذى لا خلاق لهم من تطليق زوجاتهم بدون سبب ، لا يقره الدين الاسلامى ولا يرضاه ، ولابد أن ينتقم الله من هؤلاء فى الدنيا والآخرة . ولا يبرر جناياتهم على زوجاتهم الغافلات المخلصات وأبنائهم الضعاف ما يزينه لهم بعض السخفاء من جواز الحصول على أكبر قسط ممـكن من اللذات المباحة ، لأن العدوان على الزوجة المخلصة يجعله حراما لا مباحا ، فلا يصح للانسان أن يؤذى الناس من أجل أن يتلذذ ، وإلا كان هو والحيوان المفترس سواء . على أن الذين يعتقدون أن علاقـة الزوجية منحصرة فى الاستمتاع والتلذذ بالمرأة بدون أن يتجاوزه الى معنى آخر ، فيندفعون وراء شهواتهم كالبهم بدون حساب ، مخطئون كل الخطأ ، فان علاقة الزوجية لها من التقديس والاحترام فوق هذا الذى يظنون . كيف لا وهى أساس بناء العمران وسبب وجود الانسان ، إذ لولا ما أوجده الله من الرحمة والمودة

بين الزوجين وأودعه فى قلبيهما من العطف الذى يدفع كل واحـد منهما الى التعلق بالآخر ، لما وجد النوع الانسانى . فحرام على الرجل أن ينظر الى زوجته نظر مهانة واحتقار ، فيظن أن فائدتها مقصورة على اللذة والاستمتاع بدون تدبر للسبب الحقيقى الذى جمعهما الله من أجله .

أما الأسباب التى تعرض للطلاق فإن بعضها يرجع الى الزوج ، وبعضها يرجع الى الزوجة . فالأسباب التى ترجع الى الزوج تنقسم الى قسمين : قسم يجعل الطلاق فرضا عليه لا مناص له من إيقاعه ، وقسم يجعله محرما فوق تحريمه فى ذاته . والقسم الأول يمكن حصره فى أمرين :

أحدهما : أن يعجز عن إعفاف المرأة وصيانة عرضها بما يفعله الرجال مع النساء : كأن كان عنينا بطبيعته قبل أن يبنى بها ، وفى هذه الحالة يجبر على طلاقها باتفاق ، أو عرض له ما أقعده عن إتيانها من مرض وشيخوخة وهى شابة لا ترضى به ولا تستطيع الصبرعن الرجال ، وفى هذه الحالة يجب عليه أن يطلقها من تلقاء نفسه ، ويحرم عليه إمساكها ، فرارا بعرضه وكرامته ، لأن إمساكها على هـذه الحـالة يترتب عليه فساد أخلاق وانتهاك حرمات ، وضياع أعراض . وكل ذلك شر وبيل يجب اجتنابه والقضاء عليه بكل الوسائل .

على أن بعض الأئمة يرى أنه يفـترض قضاء أن يأتى الرجل امرأته كل أربعـة أشهر مرة على الأقل ، وإن عجز طلق عليه القاضى ، وهو مذهب الحنابلة . أما المـالـكية فانهم يقولون إن للمرأة الحق فى مطالبته بهذا الأمر قضاء فى كل أربعة أيام ليلة ، ولـكنه إن عجز لا يطلق عليه القاضى إذا كان العجز عارضا بعد الاتيان . وعلى كل حال فان المعقول الطبيعى أن الرجل الذى يرضى باهمال زوجته فى هـــذا المعنى حتى تشكوه ، لا يعرف للعرض قيمة ، فيجب عليه أن يطلقها فورا .

ثانيهما أن يعجز عن الانفاق عليها . وبديهى أن العجز عن الانفاق على الزوجة له من الأثر السىء مثل ماللعجز عن إعفافها ، إذ لا مناص للمرأة فى هـذه الحالة من الحصول على قوتها ومسكنها وملبسها وما يتعلق بذلك من ضروريات الحياة ، فتضطر للحصول عليها بأى وسيلة من الوسائل ، فتنساق مكرهة الى التفريط فى عرضها والقضاء على شرفها ، ثم تصبح بعد ذلك من الساقطات المؤذيات للمجتمع ، خصوصاً إذا كانت شابة مرغوبا فيها ، فيفترض على الزوج أن يطلقها فورا لتتزوج ممن يصون عرضها بالقدرة على الانفاق عليها . ولذا أجمع ثلاثة من الأئمة على أن الرجل يجبر على تطليق زوجته إذا تركها بدون إنفاق ، ويطلقها عليه القاضى إذا أبى . ولم يخالف فى ذلك سوى الحنفية . ومع ذلك فانهم يقولون بضرورة تعزير الزوج حتى ينفق أو يطلق .

فهذان السببان هما اللذان يوجبان الطلاق على الزوج . فمتى كان قادرا على إعفافها والانفاق

عليها ولم يقصر معها فيما يجب عليه من ذلك ، فإنه لا يتصور وجوب الطلاق عليه بعد ذلك لا قضاء ولا ديانة عند الجمهور .

ولـكن الشافعية قالوا إنه يجب عليه الطلاق أيضا فيما إذا قضى به الحـكمان حال الشقاق ، فإذا استحكم الشقاق بينهما الى حـد أنهما عجزا عن تسوية أمورها وبعث ولى الأمر حكما من أهله وحكما من أهلها للاصلاح بينهما فقضى الحـكمان بالطلاق فإنه فى هـذه الحالة يجب على الزوج أن يطلق تنفيذاً لحـكم الحـكمين . ولـكن الواقع الذى لا ريب فيه أن الشقاق مهما اشتد أمره فانه قابل للزوال ، فلا يجب عليه تطليقها بسبب الشقاق إلا إذا وصل الى حد يوجب الفساد : كما إذا ترتب على شقاقهما كره طبيعى يسوق المرأة الى الانصراف عن زوجها الى غيره وخيانته فى عرضه ، أو نحو ذلك من المفاسد الخلقية والاجتماعية التى تقضى على الأسرة وتخل نظامها ، فانه فى هذه الحالة يجب الفراق . ولعل الشافعية يريدون هـذا المعنى ، فانهم قيدوا ذلك بالمصلحة ، فاذا قضى الحـكمان بالطلاق بدون مصلحة ظاهرة فلا يجب عليه أن يطلق .

وأما القسم الثانى وهو ما يعرض فيه السبب من قبل الزوج : فانه يمكن حصره فى أمرين أيضا : (الأول) أن ينشأ عن طلاقها ظلم لها . و (الثانى) أن يترتب على طلاقها محرم . مثال الأول : أن يكون تحته أكثر من زوجة فيعطى كل واحدة ما تستحقه من القَسْم والمبيت حتى إذا جاءت نوبة إحداهن طلقها قبل أن يعطيها حقها ، فالطلاق فى هذه الحالة حرام باعتبار أنه ظلم للمرأة ، وهو غير جائز فى ذاته ، فيؤاخـذ عليه الشخص من جهتين ، فإذا طلقها طلاقا بدعيا مع هذا فإنه يؤاخذ من ثلاث جهات . ومثال الثانى : أن تـكون الزوجة عفيفة مستقيمة وله فيها رغبـة ويخشى على نفسه الزنا إذا طلقها لعدم قدرته على الحصول على غـيرها ، فانه فى هـذه الحالة يحرم عليه تطليقها كالأول سواء بسواء . وقد مثل بالمثال الأول الشافعية ، وبالثانى المالـكية ، وكلاهما حسن ، لأن التشريع الاسـلامى مبنى على درء المفاسد بـكل ما يستطاع .

فهذه هى الأسباب التى ترجع الى الزوج ، وبها يجب عليه الطلاق أو يحرم .

أما الأسباب التى ترجع الى الزوجة فانها تارة تـكون متعلقة بعرضها ودينها ، وتارة تكون متعلقة بعدم صلاحيتها للاستمتاع . فالأول كما إذا ارتاب الرجل فى سلوك امرأته ، أو اعتقد أنها لا تحتفظ بعرضها ، أو كانت لا تصلى ولا تصوم ، ففى هذه الحالة لا يجوز له إمساكها باجماع الأئمة . ولـكنهم اختلفوا فى عدم الجواز ، فقال بعضهم : إنه يحرم عليه إمساكها ويجب عليه طلاقها ، وهو الامام أحمد . وبعضهم قال إنه يكره لا يحرم فيسن له طلاقها . ويظهر أن الذين قالوا بالـكراهـة فقط نظروا الى ما عساه أن يترتب على تطليقها من شر وفساد قـد يصيبان الزوج فتضطرب حياته ويفسد خلقه ، إذ ربما يـكون متعلقا بها فلا يستطيع أن يسلوها

فيضطر الى إتيانها بالحرام ، أو يكون غير قادر على ضبط شهوته وليس له مال يتزوج منه غيرها فيقع بسبب طلاقها فى الزنا ، أو يكون له منها أولاد لا يمكنهم أن يعيشوا بدونها فتسوء حالهم . وهذه الأمور تحتاط لها الشريعة الاسلامية كل الاحتياط .

فليس من محاسن التشريع الاسلامى المشهور بدقته أن يجعل فراقها حتما لازما ، لأن النفوس تتفاوت وحاجات الناس تختلف . فمن كان قوى الارادة ذا غيرة فان الشريعة تشجعه على طلاق فاسدة الأخلاق ، وتقول له : إن لك عليه أجراً . ومن كان ضعيف الارادة يؤذيه طلاق زوجه فانها لم تحتم عليه طلاقها بل له إمساكها مع الكراهة . وهـذا أعدل الموازين وأصلحها .

أما أنا فأميل الى ما ذهب اليه الإمام أحمد من أن المرأة فاسدة الأخـلاق إذا عجز زوجها عن تقويمها ، وعلم أنها غير مصونة العرض ، فإن طلاقها يكون واجبا وإمساكها يكون محرما ، إذ الرضاء بها معناه الرضاء بتكوين أسرة فاسدة تضر المجتمع الانسانى ، لأن المرأة الفاسدة لا يقتصر ضررها عليها وحدها ، ولـكنه يتناول أولادها ومن يتصل بها . ومثل هذه يجب على الناس كلهم أن ينبذوها ولا يتخذوها أمّا لأولادهم ولا مربية لأبنائهم وبناتهم . وهذا هو الذى تؤيده قواعد الدين الحنيف ، دين الآداب والأخلاق ، فقد حثت السنة على الغيرة على الأعراض وأوجبت الدفاع عنها فى كثير من المواضع ، وزجرت الذى يرضى بالفساد زجرا شديدا ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة لا يدخلون الجنـة أبدا : الديوث ، والرجـلة من النساء ، ومدمن الخمر . فقالوا يا رسول الله : أما مدمن الخمر فقـد عرفناه فما الديوث ؟ قال : الذى لا يبالى من دخل على أهله . قلت : فما الرجـلة من النساء ؟ قال : التى تتشبه بالرجال » . رواه الطبرانى . وروى مثله النسائى والحاكم وقال صحيح الاسناد . وقـد روى البخارى أن سعد بن عبادة قال للنبى صلى الله عليه وسلم : « لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح » فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير منى ! »

فاذا كانت قواعد الاسلام مبنية على الغيرة على الأعراض ، واحتقار الديوث ، وحرمانه من رضوان الله ، فـكيف يكون طلاق فاسدة الأخـلاق مندوبا فقط ؟ لا شك أنه واجب ، وإمساكها محرم . وليس من الشهامة أن يصبر الانسان على عضو فاسد حتى يفسد جميع بدنه خوفا من التألم الذى يلحقه عند بتره .

أما إذا كان السبب عدم صلاحية المرأة للاستمتاع بسبب عيوب قائمة بها ، أو كبر ، أو نحو ذلك ، فانه يباح للرجل فى هذه الحالة أن يطلقها . على أن الشريعة فى هذه الحالة تنظر الى الآثار المترتبة على إمساكها أو تطليقها ، فان كان الرجل فى غنى عن إتيان النساء وليس له أمل فى ذرية

فانه يترجح إمساكها ، خصوصا إذا كان طلاقها يؤذيها ويعرضها للبؤس والشقاء ، فان الرحمة والشفقة من الضروريات فى نظر الشريعة . وإن كان إمساكها يترتب عليه فساد الرجل كما هو مشاهد فى بعض الشبان الذين يتزوجون العجائز طمعا فى مالهن لينفقوه على الشهوات المحرمة فان إمساكها يكون حراما .

٤ — أما حكمة النهى عن الطلاق البدعى وهو طلاق الحائض ومن فى حكمها : فقد بينها الفقهاء ، فقالوا : إن الحكمة فى النهى عن طلاق الحائض والنفساء هى عدم تطويل العدة عليهما لأن أيام الحيض والنفاس لا تحسب لهما كما تقدم .

والحكمة فى النهى عن الطلاق فى الطهر الذى جامعها فيه هى أنها ربما تكون قد حملت منه من حيث لا يدرى وهو لا يرغب فى فراق ولده ، فيندم ، بخلاف ما إذا كان حملها ظاهرا فانه عالم به فلا معنى لندمه بعد . ومع هذا فقد أجمعوا على أن المرأة إذا رضيت بتطليقها وهى حائض أو نفساء فانه لا يقبل منها ، لأن المسألة ليست حقها وحدها ، إلا فى الخلع على مال ، فان الشافعية والحنفية يجيزونه حال الحيض والنفاس . ومثله بعض أمور أخرى لا يسعها المقام . أما المالكية فانهم يمنعون كل فرقة إلا فرقة العقد الفاسد ، وفرقة الايلاء . والظاهر أن الحكمة ليست مقصورة على هذا ، بل الشريعة الاسلامية لم تشرع الطلاق جذافا وإنما شرعته لحاجة المجتمع الانسانى اليه ، فوضعت له من القيود ما يلفت الناس الى خطورة أمره ، كى لا يتخذوه لعبة فى أفواههم كما يفعله سفلة الناس الذين لا يعبأ الله بهم .

ولو أن الناس قد أدركوا ما انطوت عليه هذه القيود من أسرار وعملوا بها لنجوا من شرور عواقب الطلاق بدون حساب ، فكم من أناس ساقهم الغضب وثوران النفس الى طلاق زوجاتهم طلاقا باتا ثم ندموا على ما فعلوا فأخذوا يحتالون على الرجوع بالفتاوى الملفقة والحيل الفاسدة ! وكثير من أهل الاحتياط ضحى بأعز شىء لديه فسمح بالمحلل وهو كاره . كل ذلك يمكن الاستغناء عنه بالتريث فى الأمر والتمسك بما أمر الله به ورسوله . فان المرأة لا تخلو حالها غالبا من أن تكون حائضة أو نفساء أو طاهرة ولكن زوجها قد أتاها فى طهرها ، وفى هذه الأحوال يحرم عليه أن يطلقها ، فاذا علم ذلك وأمسك عن الطلاق حتى يمضى الزمن المنهى عنه انكشف له الحال بعد أن يذهب غيظه ، فان وجد سبب للطلاق فعل وهو راض ، وإلا فان المياه تعود الى مجاريها ، وبذلك يرضى الله ورسوله ونفسه وزوجه .

٥ — أما قول النبى صلى الله عليه وسلم لعمر : مر عبد الله فليراجعها ، فان معناه بلغ عبد الله هذا الأمر ، فهو أمر لعبد الله بلا نزاع . أما قولهم : إذا أُمر شخص بان يأمر الآخر فلا يكون هذا الأمر أمرا للشخص الآخر كقوله عليه الصلاة والسلام : مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، فان هذا ليس أمرا للاولاد ، فمحله إذا لم يكن المأمور الثانى مكلفا ، ولم يكن الآمر

الأول مشرعا ، ولم يـكن الحـكم متعلقا بالمأمور الثانى ، إذ لا شبهة فى أن المقصود بالحـكم هو عبد الله لا عمر ، وهو مكلف رشيد ، فلا نزاع فى أن الأمر متعلق به ومطلوب منه .

٦ — أما الجواب عن السؤال السادس : فان الحـديث لا يفيد النهى عن الطلاق مرتين أو ثلاثا . ولـكن الجمهور على أن الطلاق الثلاث بدعى محرم ، فاذا أراد أن يطلق زوجته فليطلقها طلقة واحدة ثم يتركها حتى تنقضى عدتها ، فاذا طلقها فى العدة طلاقا ثانيا كره له ذلك عند المالـكية والحنابلة . والحنفية يقولون : يكره إذا طلقها ثنتين فى آن واحد ، أما إذا فرقهما فى كل طهر طلقة ، أو فى كل شهر طلقة إذا كانت تعتد بالأشهر ، فانه لا يكره ، بل لو طلقها ثلاثا متفرقة فانه لا يـكره . وخالف الشافعية فى المسألة من أصلها فقالوا : إن عـدد الطلاق لادخل له فى البدعى ، فله أن يطلقها ثلاثا فى آن واحد ، ولـكن الأولى عندهم أن يفرق الطلاق . وظاهر الحديث يؤيد الشافعية ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد أباح لعبد الله الطلاق فى الطهر الذى لم يجامعها فيه مطلقا . نعم إن الحـكمة التى ذكرناها للطلاق تؤيد الجمهور ، لأن طلاقها ثلاث مرات يقطع عليهما باب الأمل فى الرجوع فيندمان أشد الندم . وطلاق المرتين تضييع لحق بدون فائدة ، فان الرجل يملك ثلاث طلقات ، فيكفى واحدة فى الانفصال ، ويبقى له الاثنتان ، فيكره له أن يضيع منهما واحدة

٧ — أجمع الأئمة على أن الرجل إذا طلق امرأته طلاقا بدعيا يحسب عليه . وخالف بعض الباحثين فى ذلك ، فقال إنه لا يحسب . ولـكن الجمهور قد استدلوا بأن عبد الله بن عمر نفسه صرح بأن طلقته حسبت عليه ، وأن التحريم لا ينافى الصحة بلا نزاع .

عبد الرحمن الجزيرى

التلطف فى الاهداء

أهدى أبو الحسن بن طباطبا العلوى الى بعض العلماء وكتب اليه :

لا تنكرن إهـداءنا لك منطقا منك استفدنا حسنه ونظامه
فالله عز وجل يشكر فعل من يتلو عليه وحيه وكلامـه

وأهدى أحمـد بن يوسف هـدية الى المأمون قيمتها مائة ألف درهم وكتب اليه معها هذين البيتين :

على العبد حق فهو لابد فاعله وإن عظم المولى وجلت فضائله
ألم ترنا نهـدى الى الله ما له وإن كان عنه ذا غنى وهو قابله

هـذا تعليل فاسد ، ولـكنا نرى أن إهـداء الملوك لا يجوز أن يـكون كبير القيمة وإلا اعتبر عطاء .

حدث جلل لا يمكن الصبر عليه

— ٢ —

أبنا فيما كتبناه قبلا أن منكر وجود الله مصاب بأفظع أنواع الجنون ، وأن الواجب حذفه من سجل الانسانية ، ويجب أن نتحاماه كما نتحامى المصاب بالجذام ، ولا نغتر بصورته الظاهرية فإنه فى الحقيقة غير إنسان . وقد قال تعالى فى حق أولئك الذين يشبهون الانسان وليسوا منه فى شيء : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل » . « وإن تدعهم الى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون »

ولنف بما وعدنا به فى مقالنا السابق فنقول :

إن وجود الله ضرورى عند كل عاقل ، فانك إذا رأيت بناء شامخا على أحسن وضع وأتم نظام ، قد نسقت أشجاره ، ودبرت أنهاره ، وهيئت مساكنه على ما تقتضيه الحكمة وتوجبه الحاجة ، فهل يمكنك أن تصدق أن هذا البناء بلا بان ، وذلك النظام بلا منظم ؟ فاذا جوزت أن يوجد بناء بلا بان و نظام بلا منظم ، خرجت من زمرة العقلاء ، وسقطت عن رتبة الخطاب والمكالمة .

وقد قلنا إن الحيوان إذا ضرب التفت لأنه لا يتصور أن يوجد أثر بلا مؤثر ، ولكن الانسان قد يفسد حتى ينحط عن درجة الحيوان ، فيكون فى أسفل سافلين من الانحطاط الذى لا يشاركه فيه مخلوق ، وقد خلق مستعدا لذلك كما أبناه فى مقالنا السابق .

ولو سلك علماء الكلام مسلك القرآن فى الاستدلال على الله تعالى لقربوا الطريق ، وهزوا القلوب بما أودع فى الفطر وغرس فى النفوس حتى التحق بالبدهيات التى لا تحتاج إلا الى الالتفات اليها وانتباه النفس لها .

وانظر الى قوله تعالى : « أفى الله شك فاطر السموات والأرض » : أدمج كل ما أطالوا به فى قوله « فاطر السموات والأرض» وهو فى غاية الجلاء ونهاية الوضوح . ويقول : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » . ويقول : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » . « فلينظر الانسان مم خلق » . « فى أى صورة ما شاء ركبك » . « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . « أمّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بُشرا بين يدى رحمته » . « أمّن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ، ما كان لكم

أن تنبتوا شجرها أإله مع الله ، بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قرارا ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزا ، أإله مع الله ، بل أكثرهم لا يعلمون » . الى آخر ما جاء فى القرآن مما يتملك النفوس ، ويستولى على القلوب . وهكذا شأن القرآن الكريم ، لا يتعسف فى التعبير ولا يتفلسف فى الاستدلال . وإن شئت فانظر حججه على البعث وإعادة الخلق مرة أخرى حيث يقول بأوجز عبارة وأوضح قياس : « كما بدأكم تعودون » . « قل يحييها الذى أنشأها أول مرة » . الى آخر ما يبهر العقول ، ويدهش المشاعر .

ولتعلم أن الاستدلال يختلف باختلاف الناس ، فمنهم من يكفيه أقل شىء لسلامة فطرته وعدم فسادها . ولذلك يروى عن الأئمة وغيرهم شىء كثير من هذا ، حتى إن بعض العارفين لما قيل له : إن الامام الرازى أقام على وجود الله ألف دليل ، قال : ومتى غاب حتى يستدل عليه ؟ فهذا مشاهِد أغناه العيان عن البرهان .

ومن ذلك قول الامام على كرم الله وجهه : « لو كشف عنى الغطاء ما ازددت يقينا » .

ومن ذلك قول بعضهم : إن الله قد تجلى لى فى كل شىء ، فليت شعرى كيف يكون تجليه فى القيامة عند ما ينكشف الحجاب عن البصائر ! وهل بقى شىء من الظهور حتى يتجلى به هناك ! وقد قيل لبعضهم : بم عرفت الله ؟ فقال : عرفت الله بفسخ العزائم ، وحل العقود .

ومن الاستدلال الظريف قول أبى حنيفة رضى الله عنه لمن تكلم معه من الملحدين :

ما تقولون فى رجل يقول لكم : إنى رأيت سفينة مشحونة بالأحمال ، مملوءة من الأثقال ، قد احتوشتها أمواج متلاطمة ، ورياح مختلفة ، وهى من بينها تجرى مستوية ، ليس لها ملاح يجريها ، ولا متعهد يدفعها ، هل يجوز ذلك فى العقل ؟ قالوا : لا ، هذا شىء لا يقبله العقل . فقال أبو حنيفة : ياسبحان الله إذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد ولا مجر ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها وتباين أكنافها من غير صانع وحافظ ؟ ! فأقروا جميعا وقالوا : صدقت .

وسئل رضى الله عنه مرة أخرى فتمسك بأن الوالد يريد الذكر فيكون أنثى وبالعكس ، فدل ذلك على الصانع .

وقد أشار القرآن الى هذا الدليل حيث يقول : « يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » .

ومنها تمسك أحمد بن حنبل رضى الله عنه بقلعة حصينة ملساء لا فرجة فيها ، ظاهرها كالفضة المذابة وباطنها كالذهب الابريز ، ثم انشقت الجدران ، وخرج من القلعة حيوان سميع بصير ، فلابد من الفاعل . (عنى بالقلعة : البيضة ، وبالحيوان الفرخ) .

ومنها أن هارون الرشيد سأل مالكا رضى الله عنه عن ذلك، فاستدل باختلاف الأصوات وتردد النغمات ، وتفاوت اللغات . ويشير الى ذلك قوله تعالى : « ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم » .

وسئل أعرابى عن الدليل فقال : « البعرة تدل على البعير ، وآثار الأقدام على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، أفلا تدل على الصانع الحكيم العليم القدير » ؟ وقال آخر :

عرفته بنحلة ، فأحد طرفيها يعسل ، والآخر يلسع — والعسل مقلوب اللسع .

ويروى أن واحدا قال عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنى أتعجب من أمر الشطرنج : فان رقعته ذراع فى ذراع ، ولو لعب الانسان ألف ألف مرة فانه لايتفق مرتان على وجه واحد . فقال سيدنا عمر رضى الله عنه : هاهنا ماهو أعجب من هذا ، وهو أن مقدار الوجه شبر فى شبر ، ثم إن مواضع الأعضاء التى فيه كالحاجبين والعينين والأنف والفم لا تتغير البتة ، ثم إنك لا تجد شخصين فى الشرق والغرب يشتبهان فى الصورة . فما أعظم تلك القدرة والحكمة التى أظهرت فى هذه الرقعة الصغيرة هذه الاختلافات التى لاحد لها !

وروى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال فى بعض خطبه :

« سبحان من بصر بشحم ، وأسمع بعظم ، وأنطق بلحم » !

ويقول بعضهم فى الاستدلال على الله :

إن غرائز الفطرة لا تدعو الى باطل . وقد وجدنا فيها شعورا لا تميته المميتات ينطق بوجود الخالق ؛ (ولكن الضرر فى أن العوالم السفلية تطلب أن تكيفه لأنها لا تعرف غير المكيف المحدود ، ويجب أن لا تعرفه لأنه مباين لها كل المباينة وغير متناه وهى متناهية) .

ومنهم من يقول بسعة رزق الغبى دون الذكى ، فانه ضيق رزقه . الى آخر الاستدلالات التى لا يأتى عليها العد . ولذلك قالوا : لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق .

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لبعضهم : كم لك من إله ؟ فقال لى فى الأرض آلهة كثيرة ، ولى فى السماء إله واحد . فقال : من تعده لشدتك ، وتضرع اليه عند النوائب ؟ فقال : إله السماء ، قال : فاعبده ولا تشرك به شيئا . فاقتنع الرجل وأسلم .

ومن ذلك ما قاله جعفر الصادق رضى الله عنه لذلك الغريق الذى نجا : هل كنت يائسا من النجاة عند ما انكسرت بك السفينة ؟ فقال لا بل كنت أرجو النجاة . فقال له : إن الذى كنت ترجوه فى باطنك لنجاتك ولا تعرفه هو الله المحيط بكل شىء القادر على كل شىء .

فآمن الرجل عند ما أيقظ منه ذلك الوجدان وحرك ما كان كامنا فى فطرته . وكم فى الفطرة من كنوز تحتاج الى من يستثيرها حتى تخرج من الكمون الى الظهور ، ولكن الناس عنها غافلون وبها جاهلون .

ولنختم هذا المقال بقول القائل :

يقولون أين الله أين عجائبه وذا الكون سفر واضح وهو كاتبه
يشكون والايمان ملء قلوبهم ويبدون ما تلك القلوب تكذبه
فأى امرئ فى الجو يرسل طرفه إذا ما بدت أقماره وكواكبه
وليس يقول الله فى عرش مجده وهذى حواشيه وهذى مواكبه
وأى امرئ ما سبح الله مرة إذا راقب الأزهار وهى تراقبه
عجائب ربى فى الأنام عظيمة ولكن جهل المرء لا شك غالبه

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

الثبات فى حالتى الزمان

قال عبد العزيز بن زرارة الكلابى :

لقد عجبت منه الليالى لأنه صبور على عضلاء تلك البلابل
إذا نال لم يفرح وليس لنكبة ألمت به بالجاشع المتضائل

وكتب عقيل بن أبى طالب الى أخيه على بن أبى طالب عليه السلام يسأله عن حاله : فكتب إليه على رضى الله عنه :

فان تسألنى كيف أنت فاننى جليد على عض الزمان صليب
عزيز على أن ترى بى كآبة فيفرح واش أو يساء حبيب

وقال حكيم : من عز باقبال الدهر ذل بأدباره . وقال غيره : من أبطره الغنى أذله الفقر . وقال عارف بأسرار النفوس : من ولى ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغير لها ، ومن ولى ولاية يرى ولايته أكبر من نفسه تغير لها .

وقال يحيى بن حيان : الشريف إذا تقوى تواضع ، والوضيع إذا تقوى تكبر .

وقال كسرى أنو شروان : احذروا صولة الكريم إذا جاع ، واللئيم إذا شبع .

الاخلاق الفلسفية

— ٥ —

الضمـــــير

تتمة آراء الفلاسفة فيه :

يرى « باسكال » (١) الفيلسوف الفرنسي أن العقل والحواس هما الطريقان الطبيعيان لادراك الحقائق الخارجية ، ولكنه يصرح بأنهما يتبادلان الخداع ، فالحواس تخدع العقل ، والعقل يخدع الحواس ، وإذاً ، فهما ليسا قادرين على تمييز الحقائق المطلقة ، ولا على إيضاح الفروق بين الخير والشر ، ولا على تفهم الدين ، لأنهما أعجز من أن يتطاولا الى سماء هذه الحقائق العالية. وقرر « باسكال » أن فى داخل النفس البشرية قوة أخرى أقوى بكثير من قوة العقل ، وهى لا تضل ولا تنخدع ، وسماها بالقلب أو الشعور ، وقال : إن الخير المدرك بدونها ليس ثابت الخيرية ، وإن الدين المعتقد بدونها لا يوصل الى النجاة . فهو يتفق مع « كانت » فى أن لدى الانسان قوة تمييز أخرى هى أصدق من العقل المتأثر بالحواس ، ولكنه يخالفه فى اتصال القوتين ، ويرى أن بينهما بعدا شديدا وخصاما عنيفا .

ويرى الفيلسوف الانجليزى المادى « هوبس (٢) » أن الاحساس الانسانى ما هو إلا حركة من حركات المخ تشبه الاحتكاك الكهربائى فيتولد منها الشعور . وإذا صادفت هذه الحركة مسالكها الحيوية الطبيعية نشأت منها اللذة التى هى مصدر الرغبات البشرية ، وليست الارادة إلا وليدة لتلك الرغبات . وعند هذا الفيلسوف الواهم أن السبب فى استراحة النفس بعد إتيان عمل وتألمها بعد إتيان عمل آخر ، هو أن الحركات التى كونت الأول جرت فى مسالكها الطبيعية ، وأن التى كونت الثانى انحرفت عن دورتها الخاصة بها ، فاختلف الشعور بعد وقوع هذين العملين لا أكثر ولا أقل . ولا شك أن هذا الفيلسوف هو أحد الذين ينزلون بالانسان الى درجة الآلة البخارية التى تسير بقوة الحيوية المكونة من الحرارة الموجودة فى داخل الجسم ، ومن الاحتكاكات « الأوتوماتيكية » الناشئة من تلك الحرارة . غير أنه من حسن الحظ أن مذهب الماديين هذا قد تحطم أمام أدلة الروحانيين الناصعة التى كان فى مقدمتها التنويم المغناطيسى والوسيط اللذان أوضحا الصبح لذى عينين .

أما « كارليل (٣) » الفيلسوف المؤمن الانجليزى ، فهو يرى أن الضمير غريزة إنسانيـة

(١) ولد فى ١٨ يونيو سنة ١٦٢٣ وتوفى سنة ١٦٦٢ (٢) ولد فى سنة ١٥٨٨ وتوفى سنة ١٦٧٩
(٣) ولد فى سنة ١٧٩٥ وتوفى سنة ١٨٨١

فطرية تدرك الواجب وتشعر به شعورا حقيقيا ، وقد وجدت عند الانسان منذ اللحظة الأولى لوجوده ، وهى لا تحتاج فى إدراكها الواجب الى شرائع ولا الى قوانين ، وهى أبدية لا تضل ولا تنخدع .

ويرى « استوارت ميل (١) » الفيلسوف الانجليزى أن الانسان حين كان يعيش منفردا لم يكن له ضمير ولا شعور بالواجب ، ولم يكن يعرف الفضيلة ، فلما تكونت الهيئات العمرانية سنت قوانين تلتئم مع حياتها الاجتماعية ، واصطلحت فيما بينها على أن هـذا خير وذاك شر ، وقررت فى تلك القوانين إثابة فاعل الصنف الأول ومعاقبة مرتكب النوع الثانى . فأخذ الناس يتسابقون الى الخير رغبة فى اللذة الناشئة من مكافأة فعل الخير ، ويتباعدون عن الشر دفعا للألم الذى سيصيبهم من جراء فعله ، ولم يصدروا فى كل ذلك إلا عن أنانيتهم ومحبتهم لأنفسهم وجريا وراء سعادتهم التى لا تتحقق إلا بجلب أكبر قسط من اللذة ودفع مثله من الألم .

فلما طال الزمن بهذه الأفعال تناسى الناس الأسباب الحقيقية التى دفعتهم اليها حتى أخفوا معالمها نهائيا ، ثم زعموا أنهم يأتون الخيرات ويتجنبون الشرور حبا فى الأولى وبغضا فى الثانية لذاتهما ، ثم أخذ هـذا الزعم يقوى ويتثبت شيئا فشيئا حتى صار عقيدة راسخة فى كثير من النفوس البشرية .

ومن هذه العقيدة نشأ ذلك الذى يسمونه بالضمير ، وتولدت العاطفة الأدبية ، ووجد الشعور بالواجب ، وتكونت القوانين الأخلاقية .

ولا شك أن هذا المذهب واه من أساسه ، مزعزع الدعائم والأركان أولا ، لأننا نستطيع أن نسأل صاحبه عمن هدى أول مقننى الجمعية البشرية الى الخير والشر ، ثم لماذا نرى بعد هذه الأجيال الطويلة الخيرات والشرور الأساسية كما كان يراها الجيل الأول دون تبدل ولا تغير ؟ ثم لماذا نرى اختلاف البيئة الاجتماعية عند الشعوب المتباينة ظاهر الأثر فى تغير جوهريات القوانين الوضعية ؟ ولكننا نرى الأسس الجوهرية لقانون الأخلاق واحدة فى كل العصور ولدى كل الشعوب لم يعد عليها مرور الأزمان ولا تباين الأمكنة والأصقاع .

أما « سبنسر (٢) » فيرى أن الضمير محدث فى الانسان مثل « استوارت ميل » ولكنه يختلف معه فى سبب مأتاه ، فيعتقد أن غريزتى حفظ الذات والنوع دعتا الانسان الى تكوين الهيئات الاجتماعية التى تمكنه من الاحتفاظ بذاته ونوعه . ولقد كان الانسان بطبعه أنانيا مفرطا فى الأنانية ، غير أن القانون الطبيعى لا يسمح ببقاء الفرد المندمج فى المجتمع إلا إذا تلاءم مع البيئة التى يعيش فيها تلاؤما يسمح له بالبقاء بينها . ولا شك أن هذا التلاؤم يكلفه بمعاونتها فى الإيجابيات والدفاع عنها فى السلبيات ، وهذه المعاونة وذلك الدفاع يتطلبان منه أن يحس

(١) ولد فى سنة ١٨٠٦ وتوفى سنة ١٨٧٣ (٢) ولد فى سنة ١٨٢٠ وتوفى سنة ١٩٠٣

باحساسها ويفكر فى سعادتها ولو تفكيرا ضئيلا الى جانب تفكيره فى منفعته الشخصية التى تدفعه اليها الأنانية الطبيعية، ثم يزداد هذا التفكير فى مصلحة الجماعة شيئا فشيئا حتى يخفف من وطأة الأثرة ويحولها الى إيثار يتقوى مع الزمن الى أن يدفع بصاحبه الى التضحية، وهكذا نشأت الغيرية وحب الجماعة من الانانية وحب الذات، ثم تكونت لدى الإنسان بعد ذلك. وتبعا لهذا القانون الطبيعى مجموعة من العواطف الأخلاقية أطلق الناس عليها فيما بعد اسم قانون الأخلاق، ونسبوها الى شيء سموه بالضمير، وما زالت هذه العواطف تقوى وتزداد عند الناس بالوراثة حتى تثبتت دعائمها وأصبح الكثيرون يتصورون أنها فطرية، وأنها تعمل لذاتها.

ونحن لا نريد أن نوجه الى «سبنسر» من سهام النقد إلا ما وجهناه الى «استوارت ميل» بالذات، لأن المذهبين يتماثلان فى الاضطراب والبعد عن المنطق المستقيم.

أما «داروين» (١) فيسير طبعا فى الضمير على منهاج نظريته القائلة بالتطور أو بتناسل الانسان من الحيوان، فيقول:

إن الضمير يرجع الى أبعد مما يظن أولئك الأخلاقيون، وإذا أردنا أن نعرف أصله، فلنبحث عنه عند الحيوان الذى هو سلف الانسان، وحين ذاك يتبين لنا أن الغريزة الاجتماعية التى أرغمت كل فصيلة من فصائل الحيوانات على الانضواء تحت لواء واحد هى التى أوجدت لدى الحيوان المسيء الى هذه الفصيلة أول درجة من درجات وخز الضمير يقوى ويترقى برقى هذه الفصائل حتى وصل الى الحالة التى كانت عند الانسان الأول القريب الشبه من الحيوان، ثم سارت فى طريق التطور حتى بلغت من الرقى هذا الحد الذى نشاهده. وكما أن الضمير ليس واحدا عند الانسان والحيوان، هو كذلك مختلف عند الأمم المتباينة فى الرقى، بل هو مختلف عند الأمة الواحدة فى الأزمان المتغايرة. ثم يضرب لذلك الأمثال فيقول:

إن بعض الأمم كان يدفن شبانها مسنيها من رجال ونساء تخلصا من نفقاتهم ومتاعبهم فى الحياة، والبعض الآخر كان يبيح قتل كل أجنبى، مع أننا نستفظع هذا فى الوقت الحاضر تمام الاستفظاع، والبعض الثالث كان يبيح الانتحار مع أننا نعده الآن جريمة. وهكذا كلما تقدمنا ارتقت ضمائرنا وسمت أخلاقنا تبعا لهذا الارتقاء.

وإذا، فليس الضمير غريزيا فطريا، ولا هو قوة أجنبية جاءتنا من غيرنا، وإنما هو ضرورة من ضروريات حياتنا تختلف باختلاف أزماننا وأمكنتنا وبيئاتنا الاجتماعية، وأحوالنا العمرانية، وحظوظنا من الثقافة والمدنية.

ولاريب أن الرد على «داروين» فى هذه النقطة هو رد على نظرية النشوء والتطور من أساسها،

(١) ولد فى سنة ١٨٠٩ وتوفى سنة ١٨٨٢

وليس فى هذه الفصول الأخلاقية مجال يتسع لمناقشة هذه النظرية الباطلة التى دلل الروحانيون والانسانيون من الفلاسفة على فسادها بأنصع الأدلة وأروع البراهين حتى ألجأوا تلاميذ « داروين » الى محاولة تبرئة أستاذهم منها ، والى تأويل ألفاظه وتحويل تيارات جمله الى نواح تقرب من الروحية بعض الشىء . وربما عرضنا لتفنيد هذه النظرية فيما بعد بأدلة بعضها للعلماء الطبيعيين المحدثين ، والبعض الآخر للفلاسفة العقليين ، وقد اجتمع لدينا والحمد لله القدر الكافى لدحض هذا المذهب الواهن .

ومن الغريب المدهش ، بل من البغيض المخجل أن شرذمة من الطبقة المستنيرة عندنا قد أخذت تنتصر لهذه النظرية القديمة وتروج لها فى مصر بعد أن أبلاها التفكير الحديث ، وهلهلتها سهام النقد التى سددها إليها كبار الفلاسفة الروحيين وأعلام المفكرين الانسانيين فى أوربا . وهكذا شاءت لهم كرامتهم أن يتباهوا عجبا وتيها بالثياب الخلقة الرثة المهلهلة التى نبذها أصحابها خجلا منها وترفعاً عن نسبتها إليهم . ومن هذا ما يقوله أحد مؤلفى كتب الأخلاق الحديثة فى مصر من أن اضطراب الكلب عند سرقته شيئا هو جرثومة الضمير عند الانسان ، فاذا رقى الكلب أصبح ضميره هو ما نشاهده فى الانسان .

وبما أن هذا الكاتب وأمثاله هم من المقلدين لمذهب « التطور » فلا تحسن معهم المناقشة ، ولا يجمل معهم الجدل ، وإنما يجب أن نجعل مناقشتنا مع أصحاب المذهب الأساسيين أنفسهم فنقول لهم : إن الكلب لا يشعر بالاضطراب إجابة لصوت الضمير أيها السادة الفلاسفة ، وإنما نشأ شعوره هذا من ذكريات حوادث قديمة كانت نتيجتها أن فاز هذا الكلب من الصوت والعصا بنصيب بقيت آثاره عنده الى هذه اللحظة التى ظهر عليه فيها الاضطراب من مثيلتها .

ويقول هؤلاء المقلدون لمذهب التطور : إن العقل هو الهادى الوحيد للضمير ، ولذلك نرى ضمائر الأمم تستحسن اليوم ما استقبحته أمس ، وتستريح — بعد أن ترقت عقولها — لما كانت تشعر من عمله بالوخز الشديد أثناء التأخر والجهل . ولما كنت قد أوضحت لك آراء « كانت » و « باسكال » فى العقل الخاضع للحواس وما يشمله من ضعف وقصور وانخداع ، فلا أرانى الآن فى حاجة الى التعليق على رأى هؤلاء المقلدين للماديين ، وإن كنت أرى أن العقل يقوم فى مساعدة الضمير بنصيب وافر ضد القوة الشهوانية التى تحارب الضمير وقد تتغلب عليه إن كان هو القائم بالنضال وحده ، ولكن إذا انضم اليه العقل المثقف استطاعا معا أن يقهرا هذه القوة الغاشمة وأن يفوزا بالغلبة التى يترتب عليها انتصار الفضيلة ، لأن العدو الغشوم إذا حاربه خصمان يكون انهزامه أكثر تحققا مما لو حاربه خصم واحد ، وهذا هو كل ما يستطيع العقل أن يؤديه للضمير من خدمات .

على أنى لا أستطيع أن أفهم كيف يعد عصيان الضمير أو التردد فى أوامره ضربا من ضروب

الرذيلة عند هؤلاء القوم مع أنهم يعترفون بأنه كثيرا ما يخطىء ، وكثيرا ما يضل ، والمنطق كان يوجب عليهم أن يبيحوا عصيان من يحتمل الخطأ ويجوز عليه الضلال ، أو يبيحوا التردد فى أوامره على أقل تقدير ، ولكنهم مع ذلك يحاولون أن يتحككوا بالروحيين فيقولون : إن فاعل الشر بنية الخير يعتبر خيّرا ، لأن المنظور اليه هو النوايا الدافعة الى الأعمال لا نتائجها .

ولا ريب فى أن هذا تناقض منهم واضطراب ، لأن العقلية المادية يجب ألا تعبأ إلا بالنتائج المحسوسة فى الخارج وإلا فهى متمردة على نفسها ، خارجة على قانونها الطبيعى . وإذاً فنستطيع أن نستدل بهذا التناقض فى آراء الماديين ومقلديهم على أنهم غير متثبتين من مذهبهم .

أما ما يسوقونه إلينا كبراهين على اختلاف الوجدان تبعا لتغيرات الأزمنة والأمكنة فلسنا نرى شيئا أسهل من الرد عليه بقولنا : إن الرغبات المختلفة والأهواء المتباينة هى التى تقوى وتنمو عند الأفراد والجماعات حتى تتغلب على صوت الضمير الذى لا يكف عن الهتاف بالفضيلة والحط من قدر الرذيلة حتى ينتهى الأمر بأن يختفى هذا الصوت العلوى الى جانب صلصلة أجراس الشهوات العنيفة ، وتصبح الرذائل من الأمور السهلة العادية ، ولا يعود الانسان يسمع من أعماق نفسه هذا الصوت الذى كان يسمعه فى الماضى . وهنا يخيل الى أولئك الماديين أن الضمائر نفسها هى التى تختلف وتتغير ، وما هم فى ذلك إلا واهمون .

فعلى ذلك ، وبعد كل هذه الآراء التى قدمناها نستطيع أن نجزم بأن الضمير هو ذلك الشعاع النورانى ، والسر الربانى الذى ألقاه مبدع الكون فى داخل النفوس البشرية ، وأنه من عالم الخلود لا يضل ولا ينخدع ، ولا يخضع للمؤثرات الخارجية ولا يستعين فى إدراك حقائق الخير والشر بالعقل أو بالعرف ، وإن كان يتخذ الأول عونا له على محاربة الشهوة أحيانا ، وأنه واحد لدى كل الأمم والأفراد ، وإن كان تغلب الأهواء على ظهور صوته يختلف باختلاف العقليات والبيئات والثقافات ؟

دكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

« يتبع »

ما قيل فى المزاح

قال النبى صلى الله عليه وسلم : بعثت بالحنيفية السمحة . وقال إنى لأمزح ولا أقول إلا حقا .

وقد رويت عنه صلى الله عليه وسلم عبارات من المزاح تعتبر مثلا عليا فى هذا الباب .

وقال أبو الفتح البستى :

أفد طبعك المكدود بالهم راحة ... يراح وعلله بشىء من المزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما تعطى الطعام من الملح

النثر الفنى
وأطواره فى الأدب العربى

يستطيع الباحث فى سهولة ويسْر أن يساير النصوص الأدبية مسايرة بحث واستقراء فى جميع مراحل الأدب العربى فى عصوره المختلفة قبل النهضة الحديثة التى بدأت فى أول عهدها بثورة جامحة على الأدب العربى واصطبغت بصبغة غربية استشراقية ، فانه لا يكاد يعثر على نص أدبى يسعفه باثبات هذا التعبير « النثر الفنى » أو « النثر الأدبى » فهو تعبير مصطنع مزور لا يقوم على حجة سوى التقليد لمنهج البحث عند جماعة المستشرقين ، أرسله أصحابه إرسالا لا يعتمد على تحديد علمى فى معناه ومدلوله التركيبى ، ولا يرتكز على قانون « فنى » فى موضوعه وأغراضه التى يرمى الى تحقيقها .

ولو حاولنا أن نتعرف له معنى محددا ، أو غرضا خاصا قائما بنفسه عند أصحاب نظريته ، ومن استحدثوه فى تاريخ الأدب العربى ، لما انتهينا الى شىء يطمئن المنطق اليه . فبعض الباحثين يرى أن النثر الفنى هو : الكلام الأدبى الذى يعتمد على العقل والتفكير ، وهو بهذا المعنى يقابل الشعر الذى هو لغة العاطفة والخيال . وهو تحديد غامض أشد الغموض ، لأننا نجد كثيرا من النثر الأدبى الجيد ما يكون تعبيرا عن العاطفة وصدى للوجدان وترجمة عن الخيال . وأقرب شاهد يحضرنا على ذلك فى الأدب القديم الرسائل الاخوانية ، وكثير من فن المقامات والمطارحات ، وفى الأدب الحديث جمهرة الأدب الروائى . وكذلك نجد كثيرا من الشعر الرصين ما هو آية من آيات العقل والتفكير فى حدود المنطق المستقيم ، ونجد شواهد عليه فى شعر ابن الرومى والمتنبىء وأبى العلاء المعرى وأبى العتاهية ، فليس إذاً كل نثر أدبى يعتمد على العقل والتفكير بعيدا عن الخيال والعاطفة ، وليس كل شعر جيد يقوم على العاطفة والخيال بريئا من التفكير الصحيح والمنطق المستقيم .

على أننا إذا جارينا أصحاب هذا المذهب فى جعل النثر الفنى مقابلا للشعر ليتسنى لهم تحديده بذلك المعنى ، وجدنا أن النثر الفنى بهذا الاعتبار يتسع مداه فيشمل الخطب والرسائل بأنواعها، والوصايا والمحاورات ، والأمثال والحكم ، وكل ما يقابل الشعر المقيد بالوزن والتقفية من أنواع النثر الممتاز عن لغة التخاطب فى أمور العامة ، ومن ثَم يكون ضروريا أن نجعل أول أطوار النثر الفنى فى الأدب العربى يتمثل فى النثر الجاهلى ، ولكن أصحاب هذا المذهب يرفضون هذا الاستنتاج ويأبون على العصر الجاهلى أن يكون قد عرف النثر الفنى بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ولا يزال ذلك المعنى الدقيق ، وذلك النوع الخاص من الكلام ، الطليق من قيود

الوزن والتقفية، الجدير باسم « النثرالفنى» غير بيّن ولا مفهوم . وبعض الباحثين يتوسع قليلا فى توضيح موضوعات النثر الفنى ، ويرى أنه « أظهر ما يكون فى تقرير الحقائق ، ورسم النفوس ، والاجتماع » ويرى أن « ذلك ليس من طبيعة العربى فى بلاغته ، لأن العربى مرتجل بطبيعته ، ميال الى البديهة والارتجال ، والبديهة والارتجال لا يصلحان لعمل النثر الجيد المبنى على الفكر والتعقل » .

ويحاول بعض الأدباء أن يدخل الزخرف اللفظى والتنميق والكتابة والنظام الانشائى عناصرفى النثر الفنى . ولا نفهم كيف جاء هذا الاصطلاح ، ولم يخرج النثر الأدبى مهما قيل فيه عن كونه نوعا من الكلام الممتاز بجودة عبارته وسمو معناه ، يقصد به إصابة الجادة وإحكام القول ، وهو ما تتجه اليه أفكار الناس ، فاذا كان العرب قد آتاهم الله سرعة البديهة الصائبة والارتجال المحكم أفيكون هذا سببا فى الحكم عليهم بأنهم لا يعرفون النثر الأدبى ، أو الفنى كما يقولون ؟ نعم نحن لا ننكر أن « أظهر ما يكون النثر الأدبى فى تقرير الحقائق ورسم النفوس والاجتماع » ولكن نتساءل أى مقياس نتخذه لنعرف به الحقائق التى تقرر بهذا النثر والنفوس التى ترسم ، والاجتماع الذى يطبق ؟ هل هى واحدة فى كل الجماعات البشرية ، أو تختلف باختلاف الطبائع والبيئات والثقافات ؟

أو ليس من المعقول أن لكل أمة مذهبا فى الكلام وطبيعة لا يصح أن نطبق عليها مذهب وطبيعة أمة أخرى فى حقائقها ونفوسها واجتماعها ؟ وهل من المعقول أن نطبق حقائقنا ونفوسنا واجتماعنا فى هذا العصر على العرب فى عصورهم الأولى ؟

العرب أمة لها طبيعة خاصة ، ولها تفكير خاص ، ولها اجتماع خاص ، وكان لها نثر أدبى يمثل طبيعتها وتفكيرها واجتماعها ، ويلائم بيئاتها ، وقد ضاع من هذا النثر شىء كثير ، ولا نستبعد أن يكون كثير من الرسائل الأدبية كان لدى العرب وضاع فيما ضاع من نثرها لأسباب أشرنا اليها فى مقالاتنا السابقة .

وبعض الباحثين من أدبائنا يؤكد تأكيداً قويا وجود النثر الفنى عند العرب فى عصرهم الجاهلى ، ولكن التوفيق يعوزه فيما اتخذه سندا لدعواه ، ونحن وإن كنا لا نستسلم للتسليم المطلق بصحة هذا النثر المنقول الينا معزوا الى عرب الجاهلية ، غير أننا لا نجارى الشاكين على الاطلاق ، ونعتقد أن كثيرا جدا من هذه الخطب والأمثال والحكم والوصايا والمحاورات صحيح النسبة الى العرب قبل الاسلام ، ويدلنا على ذلك تلك الخطب التى قام بها زعماء الوفود فى عصر النبوة ، وهى لم تكن مفتجرة افتجارا ، والخطب شقيقة الرسائل . قال أبو هلال العسكرى فى كتاب الصناعتين : « واعلم أن الرسائل والخطب متشاكلتان فى أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل ، فألفاظ الخطباء

تشبه ألفاظ الكتاب فى السهولة والعذوبة ، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل ، ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافه بها ، والرسالة يكتب بها ، والرسالة تجعل خطبة ، والخطبة تجعل رسالة فى أيسر كلفة » . بل إن صاحب « صبح الأعشى » يرى أن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ونوع من أنواعها .

فكيف صح لأنصار مذهب « النثر الفنى » تجريد العرب منه ؟ وماذا يرى الباحث حين يقرأ هذه المحاورة التى يقول عنها ابن الأثير « إنها من الكلام الجامع للجزالة والرقة » ويقدمها بقوله : ويكفى من ذلك كلام قبيصة بن نعيم لما قدم على امرىء القيس فى أشياخ بنى أسد يسألونه العفو فى دم أبيه فقال له : « إنك فى المحل الأرفع والقدر من المعرفة بتصرف الدهر، وما تحدثه أيامه وتنقل أحواله ، بحيث لا تحتاج الى تذكير من واعظ ، ولا تبصير من مجرب ، ولك من سؤدد منصبك وشرف أعراقك وكرم أصلك فى العرب محتد يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة ورجوع عن الهفوة ، ولا تتجاوز الهمم الى غاية إلا رجعت اليك فوجدت عندك من فضيلة الرأى وبصيرة الفهم وكرم الصفح ما يطول رغباتها ويستغرق طلباتها ، وقد كان الذى كان من الخطب الجلل الذى عمت رزيته نزاراً واليمن ولم تخصص بذلك كندة دوننا ، للشرف البارع كان لحجر ، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا على مثله ، ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه ، ولا يلحق أقصاه أدناه ، فأحمد الحالات فى ذلك أن تعرف الواجب عليك فى إحدى خلال ثلاث : إما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتا ، وأعلاها فى ثناء المكرمات صوتا ، فقدناه اليك بنسعة تذهب مع شفرات حسامك بباقى قصرته ، فنقول : رجل امتحن بهالك عزيز فلم يستل سخيمته إلا بمكنته من الانتقام ؛ أو فداء بما يروح على بنى أسد ، فهى ألوف تجاوز الخمسة ، فكان ذلك فداء رجعت به القضب الى أجفانها لم ترددها بسليط الاحن على النزاء ؛ وإما وادعتنا الى أن تضع الحوامل فتسدل الأزر ، وتعقد الخمر فوق الرايات » .

قال فبكى امرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه فقال : « لقد علمت العرب أنه لا كفؤ لحجر فى دم ، وأنى لن أعتاض جملا ولا ناقة فأكتسب به سبة الأبد ، وفت العضد ، وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة فى بطون أمهاتها ، ولن أكون سببا لعطبها ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك تحمل فى القلوب حنقا ، وفوق الأسنة علقا

إذا ما جالت الحرب فى مأزق تصافح فيها المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون ؟ » قالوا بلى ننصرف بأسوأ الاختيار ، وأبلى الاجترار ، بمكروه وأذية ، وحرب وبلية . ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل :

لعلك إن تستوخم الورد إن عدت كتائبنا فى مأزق الحرب تمطر

فقال امرؤ القيس : لا والله ، ولـكن أستعذ به ، فرويدا ينفرج لك دجاها عن فرسان كندة وكتائب حمير ، ولقد كان ذكر غير هذا بى أولى إذ كنت نازلا بربعى ، ولـكنك قلت فأوجبت ، فقال : هو ذاك » .

قال ابن الأثير : فلتنظر الى هذا الـكلام من الرجلين : قبيصة وامرئ القيس ، حين يدع المتعمقون تعمقهم فى استعمال الوحشى من الألفاظ ، فان هذا الـكلام قد كان فى الزمن القديم قبل الاسلام بما شاء الله .

أفليس هذا من أروع النثر الأدبى الذى يقرر حقائق ، ويرسم نفوسا ، ويطبق اجتماعا ، ويعتمد على العقل والتفكير الصحيح والمنطق المستقيم ؟ بلى إنه لنثر فنى يحمل فى ثناياه حجته الأدبية على وجوده وتعارفه عند العرب ؟

صادق ابراهيم عرجون

ضرر الحسد

قال بعض الحـكماء : ألزم الناس كآبة أربعة : رجل حـديد ، ورجل حسود ، وخليط الأدباء وهو غير أديب ، وحكيم محتقر لدى الأقوام .

قال على بن بشر المروزى كتب ابن المبارك هذه الأبيات :

كل العداوة قـد ترجى إماتتها ... إلا عـداوة من عاداك من حسد
فان فى القلب منها عقدة عقدت ... وليس يفتحها راق الى الأبد
إلا الاله فان يرحم يحللها ... وإن أباه فـلا ترجوه من أحـد

وسئل بعض الحكماء : أى أعدائك تحب أن يعود لك صديقا ؟ قال : الحاسد الذى لا يرده إلا زوال نعمتى .

وقال سليمان التيمى : الحسد يضعف اليقين ، ويسهر العين ، ويكثر الهم .

وقد صلى الأحنف بن قيس على حارثة بن قدامة السعدى فقال : رحمك الله كنت لا تحسد غنيا ، ولا تحقر فقيرا .

وكان يقال : لا يوجد الحر حريصا ، ولا الـكريم حسودا .

وقال شاعر :

حسدوا النعمة لما ظهـرت ... فـرموها بأباطيـل الـكلم
وإذا ما الله أسدى نعمـــــة ... لم يضرها قـول أعـداء النعم

حكمة الصيام فى الاسلام

يمر بنا شهر رمضان من كل عام فيستقبله المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها بما هو أهله من الاحتفاء والاحتفال ، وينتدب كبار الكتاب لتحبير المقالات الضافية الذيول فى بيان منافعه فى العقول والأبدان ، وفوائده للقلوب والأرواح ، وإنه لقمن بكل هذه العناية لجليل أثره فى النفوس ، لو قامت به على وجهه الصحيح ، ولم تتحول عن صراطه السوى .

ذكر العلماء للصيام حكما كثيرة ، وعندنا أن أولى تلك الحكم بالبيان ، أثره على الانسان فى رياضة النفس ، وثمرته فى تخليصه من سلطان المادة .

الانسان جسد وروح ألّف الخالق الحكيم بينهما على تخالف طبيعتيهما الى أمد محدود ؛ فمن الناس من تتسلط كدرة المادة عليه فتغلب فيه الصفات البهيمية ، حتى إنك لتراه فى مظهره إنسانا مستكملا جميع صفات التقويم الحسن ، فاذا اطلعت على دخيلة حاله تبين لك أنه يحمل نفس حيوان ضار ، لا يفكر فى غير رغباته الجسدية ، وشهواته البدنية ؛ ولا يبالى فى سبيل الوصول اليها أن يرتكب كل دنية ، أو فعلة وحشية ؛ ومثل هذا لا يعيش إلا ليأكل ويتوسع فى توفية شهواته ، وما هى إلا سنون حتى يدركه الهرم ، ويقعد به الضعف ، فيموت ميتة الحيوان الأعجم ، لم يحّصل من جهاده الدنيوى نورا يعرج به الى العالم الذى خلق ليتحول اليه .

وقد ثبت علميا أن تجرد الانسان لاتباع شهواته المادية ، وإغفاله لمميزاته الروحانية ، يجر عليه وعلى بنى نوعه أكبر الجرائر ، ذلك أنه لم يخلق كالحيوان محدود المطالب ، محصور الرغائب ، حتى يكون ما يحصله من حطام الدنيا كافيا لسد مطامعه ، ولكنه خلق مطلق القوى ، بعيد مدى الغايات ؛ فهو لا يكتفى بلباس وطعام يوفى بهما حاجات جثمانه ، بل لو حصل الدنيا كلها وجعلها فى قبضته وجد فى مذخور قواه مددا لا حد له يمكنه أن ينفقه وراء أى مطلب من المطالب التى يجد نفسه مدفوعا اليها ، فاذا لم يتدارك الدين الحق مثل هذه الشخصيات الخام بالتهذيب والتلطيف ، اجتمع منها فى الأمة الواحدة عدد كبير لا يستطاع ترويضهم وإدخالهم فى حظيرة حكومة صالحة .

فشرع الله الصيام رياضة للنفوس ، ليمكن بواسطته وبواسطة الصلاة تحويل القوى الأدبية العظيمة القدر فى الانسان ، الى ما ينقله من حضيض الحيوانية التى هو فيها ، الى أرقى درجات السمو الروحانى الذى خلق ليصل اليه .

فكيف يحقق الصيام هذه الرياضة ، ويدفع بتيارات القوى الأدبية الانسانية الى وجهة تصلح معها للحياة الملكية ، بعد أن كانت تزيده بدون هذا التحويل حيوانية على حيوانية ؟

إن الاسلام بفرضه الصلاة والصيام على ذويه قد حلاهم بأقوى الوسائل لإحداث أعجب ضروب التطور فى النفس البشرية ، بحيث تصلح لجذب أمة من طرف الى طرف فى فترة من الزمان لا تكفى لإحداث مثل هذا الأثر الخطير فى فرد واحد .

فالصلاة عمل قلبي وعضوى لو أُدى على وجهه الصحيح لأحدث فى مؤديه انقلابا تدريجيا يشبه ما يفعله المغناطيس الحيوانى فى تعديل الطباع ، وتهذيب الأخلاق ؛ وفتح باحات روحانية للنفس تتصل معها بعالم الروح ، وتستمد منه حياة علوية ، وقوى أدبية .

تبدأ الصلاة بتكبيرة الاحرام : الله أكبر ، فلو استشعر المصلى وهو يذكر هذه العبارة معناها الصحيح ، صغرت فى عينه جميع الأغيار ، ومحقت جميع الصور ، وشعر بأنه ماثل أمام القادر الذى أبدعه . هذا الشعور وحده يخلعه من عالم المادة ويدخله عالم الروح ، فاذا قرأ فاتحة الكتاب ، وتأمل فى معانيها ، واستشعر الى ما تشير إليه من طلب الهداية الى الصراط المستقيم ، كان كل ذلك منه يشبه مايسمى فى عالم النفس بالايعاز الذاتى (Auto - suggestion) فتتكيف به نفسه من طريق الاستهواء ، وتندفع لتحقيقه بكل ثبات ومثابرة . كل هذا على شرط أن يكون الدخول فى الصلاة بتجريد النفس لها من جميع الأغيار .

فاذا انضمت فريضة الصيام الى الصلاة فى كل عام شهرا ، بلغت خاصة الايعاز الذاتى أشدها ، وأثمرت أعظم ثمراتها .

وهذا على شريطة أن يكون الصيام كما سنه الاسلام ، لا كما حولته اليه العادات .

إن شهر الصيام الآن يعتبر شهر قصف ولهو ، وسهر وسمر ، وهو فى حقيقته شهر زهد ورياضة وورع . وهو على ما نؤديه عليه من التوسع فى المآكل ، وإحياء الليالى بالملهيات ، والنوم الى ساعات متأخرة من النهار ، يعتبر من أشد الضربات على الصحة الجسدية والصحة النفسية معا . فالقانون الصحى لا يسمح بأن يجيع الانسان نفسه طول النهار ، فاذا جاء المساء أكل أكل المسعور المحروم حتى لا يستطيع التنفس ، ثم عاود الكرة بعد بضع ساعات باسم السحور ، لحشر الى معدته كل ضروب المحظورات الغذائية ، وشرب على كل ذلك ماء غزيرا .

لا جرم أن من يرتكب مثل هذا العبث يخرج من رمضان متعب الجسم والعقل معا .

ولكن الصيام فى الاسلام هو على النحو الذى كان يعمله النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقد كانوا يفطرون على تمرات ، ثم يقومون لصلاة المغرب ، فاذا أدوها عادوا لإتمام الطعام ، وهو لا يتعدى لقيمات كانوا يقيمون بها أصلابهم ، ثم جلسوا يتحدثون حتى يأتى موعد النوم العادى فى ناشئة الليل ، تلك الآونة الحافلة بالاشعاعات المهدئة للاعصاب ، ومنهم من كان يستيقظ فى الهزيع الأخير من الليل للتهجد ، ومنهم من كان ينام الى ما قبل صلاة الفجر

بقليل فيصيب قليلا من الطعام ، ثم يتوضا ويتنفل حتى يؤذن المؤذن بالفجر فيصلون الصبح . ثم منهم من كان يظل يقظا الى المساء ، ومنهم من كان تأخذه بعد الفجر سنة من النوم ، ثم يقومون الى أعمالهم لا يتخلفون عن عاداتهم فى شىء .

الصيام على هذا النحو يعتبر عملا رياضيا له تأثير كبير على جسم الانسان وروحه ، يدخل فيه فى كل عام مرة ، ويخرج منه وقد تطهر قلبه ، وتزكى ضميره ، وتنقى دمه ، وتقوت أعصابه ، وفوق ذلك كله ، هبطت عليه من عالم القدس نفحات روحانية ، وإشراقات ربانية ، لا يتصور العقل مبلغ ما تفعله فى ترقيته الى مراتب الكمال .

هذه الرياضة إذا أضيفت الى الصلاة ، أحدثت بين الانسان وعالم الروح أوثق الصلات ، ونقلته من عالم الحيوانية الذى هو فيه الى وجود سام تتيقظ فيه أكرم غرائز النفس، وأشرف عواطفها . وهذا وحده يفسر لنا حدوث ذلك الانتقال المحير للعقل فى نفسية عرب الجاهلية فنقلتهم طفرة من حياة وحشية حافلة بالميول البهيمية ، والمقاصد العدوانية ، والاباحة الحيوانية ، الى حياة مدنية آهلة بالعواطف الشريفة ، والنيات الكريمة ، والغايات النبيلة ، حياة أوصلتها الى خلافة الله فى الأرض ، وهى درجة لم تنلها فى تاريخ الانسانية كله إلا أمم معدودة ، نالتها الأمة الاسلامية فى أقل من ثمانين سنة ، فوصلت الى ملك لم تصل اليه أكبر دولة فى الأرض فى ثمانمائة سنة ، وأحدثت فى العالم من الآثار العلمية والعملية والفنية ما لا تزال الأمم عيالا عليه الى اليوم .

هذه آثار العبادات الاسلامية على الأمم ، إذا أديت على وجهها الصحيح لا على ما آلت اليه اليوم : صلاة صورية ، وصيام اتخذ وسيلة لإثارة القَرَم ، والتوسع فى النهم .

بَصَّرنا الله بديننا القويم ، وجعلنا ممن قال : « سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » !

محمد فريد وجدى

من نوابغ الكلم

قال على بن الحسين رضى الله عنهما : « لو كان الناس يعرفون جملة الحال فى فضل الاستبانة ، وجملة الحال فى فضل التبيين ، لأعربوا عن كل ما يتلجلج فى صدورهم ، ولوجدوا من برد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة الى كل حال سوى حالهم ، وعلى أن درك ذلك كان لا يعدمهم فى الأيام القليلة العدة ، والفكرة القصيرة المدة ، ولكنهم ما بين مغمور بالجهل ، ومفتون بالعجب ، ومعدول بالهوى عن باب التثبت ، ومصروف بسوء العادة عن فضل التعلم .

٣ - أعلام القرآن :

أبليس [١]

أصل اللفظ واشتقاقه — خلق إبليس — حقيقة الجن — إبليس قبل المعصية
إبليس وآدم — إنظاره — موته ووقته

١ — أصل اللفظ واشتقاقه :

قال الزجاج : هو اسم أعجمي ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ، ووزنه فعليل ، قال البستاني في دائرة معارفه : وهذا هو الصواب ، فانه معرب « ذيافوليس » باليونانية ، وهو علم جنس للشيطان ، ومعناه فيها بالحصر موقع الخلاف ، وبالتعميم نمام أو مشتك كاذب .

وقال صاحب تاج العروس بعد قول القاموس : أو هو أعجمي ، ولذا قيل : إنه لا يصح أن يشتق إبليس ، وإن وافق معنى أبلس لفظا ومعنى ، وقد تبع المصنف الجوهري في اشتقاقه ، فغلّطوه ، فليتنبه لذلك .

وقال أبو عبيدة وغيره : إنه عربي مشتق من الابلاس ، وهو الابعاد من الخير ، أو اليأس من رحمة الله ، يقال أبلس من رحمة الله ، أي يئس وندم ، وفي التنزيل العزيز : « يومئذ يبلس المجرمون » وإبليس مشتق منه ، لأنه أبلس من رحمة الله ، أي أويس ، ومنع من الصرف حينئذ لكونه لا نظير له في الأسماء ، أو لأنه شبيه بالأسماء الأعجمية ، لكونه لم يسم به أحد من العرب ، فصار خاصا بمن أطلقه الله تعالى عليه ، وكانه دخيل في لسانهم .

وقيل : إن اسمه بالعبرانية عزازيل ، وبالعربية الحارث ، أما كنيته فأبو مرة .

٢ — خلق إبليس :

تتوقف معرفة خلق إبليس على معرفة النوع الذي هو منه ، وذلك أنهم اختلفوا فيه : أهو من الملائكة ، أم من الجن ؟

فذهب جماعة الى أنه من الملائكة مستدلين بجملة أدلة ، منها :

(الأول) ظاهر الاستثناء في قوله تعالى : « فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر » والاستثناء يفيد إخراج ما لولاه لدخل ، أو لصح دخوله ، وذلك يوجب كونه من الملائكة .

---

(١) من قوله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ابى واستكبر وكان من الكافرين » . سورة البقرة — آية ٣٤

(الثانى) أنه لو لم يكن من الملائـكة لما كان قوله تعالى : « وإذ قلنا للملائـكة اسجدوا لآدم » متناولا له ، ولو لم يـكن متناولا له ، لاستحال أن يكون تركه للسجود إباء واستكبارا ومعصية ،ولما استحق الذم والعقاب ، وحيث حصلت هذه الأمور ، علمنا أن ذلك الخطاب يتناوله ، ولا يتناوله ذلك الخطاب إلا إذا كان من الملائـكة .

وذهب جماعة آخرون الى أنه من الجن مستدلين أيضا بعدة أمور ، منها :

(الأول) قوله تعالى فى سورة الـكهف : « وإذ قلنا للملائـكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ، ففسق عن أمر ربه » .

(الثانى) أن إبليس له ذرية ، لقوله تعالى فى صفته : « أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لـكم عدو » وهذا صريح فى إثبات الذرية له ، وأن الملائـكة لا ذرية لهم ، لأن الذرية إنما تحصل من الذكر والأنثى ، والملائـكة لا أنثى فيهم ، لقوله تعالى : « وجعلوا الملائـكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم » : أنـكر على من حكم عليهم بالأنوثة ، فاذا انتفت الأنوثة ، انتفى التوالد لا محالة ، فانتفت الذرية .

(الثالث) أن الملائـكة معصومون ، وإبليس لم يكن كذلك ، لأنه قد استكبرو الملائـكة لا يستكبرون .

(الرابع) أن إبليس مخلوق من النار ، والملائـكة ليسوا كذلك — وستأتى الأدلة على هذا فى بيان حقيقة الجن .

ولم تسلم أدلة كل من الفريقين من المناقشة والتصحيح والتأويل .

وقيل : إنه لا من الملائـكة ، ولا من الجن ، بل هو خلق مفرد ، وأنه مخلوق من النار .

٣ — حقيقة الجن :

الجن نوع من الخلق ، سموا بذلك لاجتنانهم عن الأبصار ، ولأنهم استجنوا من الناس فلا يرون ، قال الراغب : « أصل الجَن (بفتح الجيم) ستر الشىء عن الحاسة ، يقال جنّه الليل وأجنّه ، وجنّ عليه فجنه : ستره » الى أن يقول : « والجِن (بكسر الجيم) يقال على وجهين : أحدهما للروحانيين المستترة عن الحـواس كلها بازاء الإنس ، فعلى هـذا تدخل الملائـكة والشياطين ، فـكل ملائكة جن ، وليس كل جن ملائـكة ، وعلى هذا قال أبو صالح : الملائكة كلها جن ، وقيل : بل الجن بعض الروحانيين ، وذلك أن الروحانيين ثلاثة : أخيار وهم الملائكة وأشرار وهم الشياطين ، وأوساط فيهم أخيار وأشرار وهم الجن » اهـ

وقد أخـبرنا القرآن الـكريم ، وجاء فى السنة الصحيحة أنهم عالم قائم بذاته ، وأنهم قبائل وطوائف ، وأن منهم البار والفاجر ، وأنهم يأكلون ويشربون ويتناسلون .

قال تعالى : « وإذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين » وقال : « قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » وقال : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » وقال حكاية عنهم : « وأنا منا الصالحون ، ومنا دون ذلك ، كنا طرائق قددا » وقال : « وأنا منا المسلمون ، ومنا القاسطون » .

وقد رويت أحاديث كثيرة فى هذا المعنى ، فروى أنهم مروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم يصلى بأصحابه ببطن نخلة من أرض مكة ، فوقفوا فاستمعوا لقراءته ، ثم اجتمع بهم النبي صلى الله عليه وسلم ليلة كاملة ، فسألوه عن أشياء أمرهم بها ، ونهاهم عنها ، وسألوه الزاد ، فقال لهم : كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر مايكون لحما ، وكل روثة علف لدوابكم . ونهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يستنجى بهما ، وقال : إنها زاد إخوانكم الجن .

أما ماخلقوا منه ، فقد ذكره القرآن الكريم فى قوله : « خُلق الانسان من صَلصال كالفخّار ، وخلق الجان من مارِج من نار » وفى قوله : « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجان خلقناه من قبل من نار السَّموم » .

وذكره الحديث الشريف فى رواية مسلم من طريق الزهرى عن عروة عن عائشة ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » .

واختلفوا فى هل كان من الجن رسول ؟ فالأكثرون على أن الجن ليس لهم رسول منهم وإنما أتى النبي صلى الله عليه وسلم رسولا للانس والجن ، وأن منهم منذرين فقط ، قالوا : وإنما قال الله تعالى : « يامعشر الجن والانس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا » والرسل من أحد الفريقين ، كما قيل : « مرج البحرين يلتقيان » ثم قال : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وإنما يخرج اللؤلؤ والمرجان من الملح دون العذب منهما .

وأما التشكك فى وجود الجن ، كما يقع من بعض الناس ، فلا محل له ، فقد ثبت وجودهم بنص القرآن الكريم ، ومن طريق الأحاديث النبوية الصحيحة ، وورد ذكر عنهم فى جميع الكتب السماوية ، واعترف بوجودهم كثير من قدماء الفلاسفة وأصحاب الروحانيات ، وأكد كثيرون ممن لا يشك فى صدقهم أنهم رأوا الجن وكلموهم .

ثم إن وجودهم فى ذاته لا يجافى العقل ، ولا يخالف سنن الخليقة .

٤ — ابليس قبل المعصية :

ليس هناك خبر تطمئن اليه النفس ، وتقوم به الحجة على تعيين الحالة التفصيلية التى كان

عليها إبليس قبل معصية ربه بابائه السجود لآدم ، وليس من اليسير على الباحث الحريص على استكمال نواحى بحثه أن يهمل مثل هذه الناحية الهامة فى ترجمة إبليس دون أن يتحدث عنها بكثير أو قليل ، فإنه إن أهمل وصف بالتقصير ، وإن تحدث بما لم يؤيده نص دينى ، أو يعضده مصدر تاريخى وثيق ، وصف بالقصور ، وإذاً فليعذرنا حضرات المطلعين إن نحن أوردنا شيئا فى هذا الموضوع مما رواه شيوخ العلم ، وأئمة المؤلفين ، ونسبوه الى أجلاء من الصحابة وغيرهم رضوان الله عليهم : كابن عباس ، وابن مسعود ، وسعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير .

ونحن لا نورده هنا على أنه أخبار مسلمة ، وروايات مقطوع بها ، بل لنبين أن هذا هو كل ما ذكروه ونقلوه ، والعهدة عليهم فيه .

قالوا : كان اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل ، وكان له سلطان سماء الدنيا ، وسلطان الأرض وما بينهما ، وكان خازن الجنة مع اجتهاده فى العبادة ، وكثرة علمه ، فأعجب بنفسه ، ورأى أن له بذلك الفضل ، فاستكبر .

وقيل : إن الجن لما أفسدوا فى الأرض ، وسفكوا الدماء ، وقتل بعضهم بعضا ، بعث الله اليهم إبليس فى جند من الملائكة ، فقاتلهم وشردهم الى الجزائر وأطراف الجبال ، فلما فعل ذلك اغتر فى نفسه ، وقال قد صنعت شيئا لم يصنعه أحد .

وقيل : كان قاضيا بين الجن ، فلم يزل يقضى بينهم بالحق حتى سمى حكما ، فتعظم وتكبر ، وألقى بينهم العداوة والبغضاء ، فأفسدوا فى الأرض ، وسفكوا الدماء ، فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم ، فلما رأى إبليس مانزل بقومه من العذاب عرج الى السماء ، فأقام عند الملائكة يعبد الله مجتهدا فى العبادة ، فلم يزل كذلك حتى خلق الله آدم ، فكان من أمر إبليس ومعصيته ربه ما كان . وقيل غير ذلك .

٥ — إبليس وآدم :

أسلفنا شيئا من الكلام على موقف إبليس من آدم عند الكلام على « آدم » . ونحن ذاكرون هنا مالم يكن موضع ذكره هناك :

يؤخذ من الآيات القرآنية الكريمة التى وردت فى خلق آدم عليه السلام ، أن الله تعالى اختصه بمزايا ، أهمها :

(الأولى) تعليمه الأسماء كلها .

(الثانية) أمره الملائكة بالسجود له .

ولقد كان هذا الاختصاص سببا فى حسد إبليس لآدم ، وقد حمله هذا الحسد على الاستكبار

والعناد ، مبررا ذلك بأنه أفضل من آدم ، فعاقبه الله على ذلك بالطرد من الجنة ، وبانذاره بأنه من أهل النار .

ويحكى لنا القرآن الكريم ذلك فى نظم رائع ، وأسلوب معجز : قال الله تعالى : « ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار ،وخلقته من طين » .

ويقول: «قال يا إبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى ، أستكبرت أم كنت من العالين ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار ، وخلقته من طين ، قال فاخرج منها فانك رجيم ، وإن عليك لعنتى الى يوم الدين » وغير ذلك من الآيات .

٦ — إنظاره :

أراد إبليس أن يجد له فسحة فى الاغواء ، وأن يكون له من طول الحياة ما يرخى له العنان فى الجرى وراء الافساد الذى جبل عليه ، فسأل ربه عز وجل أن ينظره الى يوم الدين ، لإشباع نهمته من هذه الناحية .

قال تعالى حكاية عنه : « قال أنظرنى الى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين ، قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » .

وقال : « قال أرأيتك هذا الذى كرّمت علىّ لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا ، قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ، واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجِلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا» .

أما الحكمة فى إنظاره ذلك الزمن الطويل مع ما هو عليه من الافساد ، فقد بينه العلماء : قال ابن كثير فى البداية والنهاية : إن إبليس أنظره الله الى يوم القيامة ، محنة لعباده ، واختبارا منه لهم ، كما قال تعالى : « وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك ، وربك على كل شىء حفيظ » وقال تعالى : « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ، إنى كفرت بما أشركتمون من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم » اه

٧ — موته ووقته :

ذكر أصحاب الأخبار كيفية موت إبليس ، فنقل الألوسى فى تفسيره عن كتاب « البحور

الزاخرة » للسفار ينى خبرا مرفوعا الى ابن مسعود رضى الله عنه، أن إبليس يموت بقتل الدابة له عند خروجها، ولكن الألوسى شك فى نسبة هذا القول الى ابن مسعود، وإذاً فالمسألة موكلة الى علم الله تعالى.

وأما وقت موته، فقد حكى فيه الرازى قولين: الأول، أنه تعالى أنظره الى النفخة الأولى، لأنه تعالى قال: « إنك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم »، والمراد منه اليوم الذى يموت فيه الأحياء كلهم، والثانى أنه تعالى لم يوقت له أجلا بل قال: « إنك من المنظرين ». وقوله فى الآية الأخرى: « الى يوم الوقت المعلوم » المراد منه الوقت المعلوم فى علم الله تعالى، وقال بعضهم غير ذلك. والله أعلم؟

فكرى يس

(مجلة الأزهر): تستبعد بعض العقول أن يكون لإبليس وجود حقيقى، ولكنهم لو أجادوا الروية لأدركوا أنه لا مانع من وجود روح خبيث أرصد لاستدراج الناس الى الشر، لا لأن الشر مرغوب لذاته، ولكن لأن النفوس البشرية لا تتجرد من كدور الطبيعة المادية إلا باستخراج كل ما أكنته من دواعى السوء فى جبلتها، وبتمرينها على عصيان تلك الدواعى والثورة عليها.

والانسان إنما قذف به الى هذا العالم ليتزكى ويترقى ويخلص من علائق المادة التى قضى عليه أن يصاحبها فى مرحلته هذه. فاذا لم يسلط عليه ما يثير كوامنه، ويلهب غرائزه بقى جامدا وخرج من الدنيا على ما جاء اليها.

هنا يمكن أن يقال إن الشهوات البدنية تكفى وحدها فى إحداث هذه الاثارة، ولا موجب لافتراض وجود روح خبيث يدفعه اليها.

ولكننا لسنا هنا بصدد التدليل على كفاية الشهوات البدنية للاثارة أو عدم كفايتها، بل بصدد القول بأنه لا مانع عقليا ولا علميا من وجود روح خبيث لإغواء بنى آدم ليبتلوا فى حياتهم الدنيا.

وكيف يوجد مانع والعالم الروحانى مشحون بالروحانيات المختلفة من جميع الأنواع، وقد ثبت ذلك علميا فى العصر الحديث، فلا وجه لاستبعاد وجود روح خبيث من بينها له أعوان كثيرون من جنسه أرصدوا للاغواء والتسويل؟

مسألة فى الطلاق

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأجل الشيخ يوسف الدجوى .
تحية واحتراما : وبعد فأرجو من أريحيتكم الطاهرة ومكارمكم العالية إفادتى عن الآتى :

تنازع رجل مع زوجته فقال لها : إن كرهت أطلقك ، فقالت : كرهت ، فقال لها : أنت طالق ، فأعادت مقالتها ، فأعاد مقالته ثلاث مرات . مع العلم بأن الكراهة عندنا مستعملة فى البراءة من مؤخر الصداق ونفقة العدة ، فهل بانت بالطلقة الأولى فلا يلحق مابعده على مذهب السادة المالكية ؟ أفيدونا مأجورين . وندعو لفضيلتكم بعز الحياتين وسعادة الدارين ؟

محمد محمد العدوى

رئيس مكتب تل العمارنه

الجواب :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه .
ليست الكراهة فى مذهب مالك براءة ، فالطلاق المعلق عليها رجعى ، وحينئذ فالطلاق الثانى والثالث لاحقان للزوجة لأنها رجعية . وعلى ما ذكر السائل من أن الكراهة براءة فيكون الطلاق بائنا عنده . فمذهب مالك أن الطلاق الثانى والثالث لاحقان أيضا لأنها زوجة عنده وبائنة عند الغير، فيكون نكاحها كالمختلف فيه ، والنكاح إذا اختلف فيه ولو فى مذهب الغير يلحقه الطلاق . ففى فتاوى الشيخ عليش ما نصه :

ما قولكم فى نازلة وهى أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقا مختلفا فيه فى المذهب أو غيره بالبينونة أو الرجعة ثم بعد ذلك أوقع الثلاث ، فهل يلحق به نظرا للمخالف كمن طلق فى نكاح مختلف فيه ويكون محل قولهم : البائن لا يرتدف عليه غيره ، إذا كان متفقا عليه ، أولا ؟ أفيدوا الجواب . فأجبت بما نصه :

نعم يلحق به نظرا للمخالف واستحسانا واحتياطا للفروج إذا كان الارداف فى العدة . وقولهم : البائن لا يرتدف عليه غيره إذا لم يكن نسقا ، مخصوص بالمتفق فيه على البينونة ، ففى ابن سلمون ما نصه :

واختلف فيه أى قول الزوج لزوجته أنت طالق طلقة واحدة تملكين بها أمر نفسك دونى على ثلاثة أقوال : فقيل : إنه يكون طلقة رجعية كمن قال أنت طالق واحدة لا رجعة لى

عليك فيها ، وهو قول أشهب ومطرف . والثانى : أنها تكون البتة كمن قال أنت طالق واحدة بائنة فانها ثلاث ، وهو قول ابن الماجشون وابن حبيب . والثالث : أنها طلقة واحدة بائنة ، قال ابن القاسم وحكاه القاضى أبو محمد عن مالك وبه القضاء : وكان ابن عتاب رضى الله عنه يفتى بأن من بارأ زوجه هذه المبارأة ثم طلقها بعد ذلك فى العدة ، أن الطلاق يرتدف عليه استحسانا ومراعاة لقول من يراه رجعة اه والله أعلم ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

العقل اكرم المواهب

قال ابن عباس دخلت على عائشة رضى الله عنهما فقلت لها : يا أم المؤمنين ، أرأيت الرجل يقل قيامه ، ويكثر رقاده ، والآخر يكثر قيامه ويقل رقاده : أيهما أحب اليك ؟

قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتنى فقال لى : أحسنهما عقلا .

قلت : يا رسول الله إنما سألتك عن عبادتهما .

فقال : يا عائشة إنهما لا يسألان عن عبادتهما ، إنما يسألان عن عقولهما ، فمن كان أعقل كان أفضل فى الدنيا والآخرة .

وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : الجنة مائة درجة ، تسعة وتسعون منها لأهل العقل ، وواحدة لسائر الناس .

وروى البراء بن عازب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لكل شىء وثيقة ومحجة واضحة وأوثق الناس مطية ، وأحسنهم دلالة ومعرفة بالحجة الواضحة ، أفضلهم عقلا .

وقال الحسن بن على رضى الله عنهما : إنى لأعجب ممن رزق العقل كيف يسأل الله معه شيئا آخر .

وقالت عائشة رضى الله عنها : أفلح من جعل الله له عقلا .

وقال مطرف : ما أوتى العبد بعد الايمان بالله تعالى أفضل من العقل .

وقال الأصمعى : لو صور العقل لأضاء معه الليل ، ولو صور الجهل لأظلم معه النهار .

وقال بزرجمهر : العقل كالمسك إن أخباته عبق ، وإن بعته نفق .

وقال شاعر :

لله در العقل من رائد ... وصاحب فى العسر واليسر

صفحة من الابداع الالهى

الأشعة ذوات الألوان وفوائدها للانسان

يعلم الانسان الآن أنه فى وسط عالم كله أسرار ، وأنه لم يكتشف منها إلا جزءا إن قيس بما بقى مجهولا منها لما بلغ قطرة بجانب القاموس الأعظم (١) .

أدرك هذه الحقيقة جميع الذين لهم صلة بالعلم ، فأصبحت من البداهات الأولية لديهم ، بيد أن بعض الذين قمشوا بعض المعلومات العامة يتخيلون أنهم قد بلغوا من العلم ما لا مرمى بعده .

وإذا أراد القارئ أن يدرك مبلغ تقدير العلماء لمدى الرقى الانسانى فى المستقبل ذكرناه بما قاله العلامة الكبير (شارل ريشيه) عضو المجمع العلمى الفرنسى وإمام الفيزيولوجيا فى العصر الحاضر قال : « سيأتى زمان يكون الفرق فيه بيننا وبين أهله كالفرق بين الحيوانات النقاعية وبيننا نحن الآن »

الحق لو صدر مثل هذا القول من رجل عادى لظن أنه يهذى ، أو يلقيه على عواهنه ، ولكن نسبته الى قطب من أقطاب العلم العصرى تعطيه وزنا عظيما ، وتدعو الى التأمل فيه .

كيف لا يكون الأمر كما ذكر وفى العالم من المساتير والقوى الكامنة مالو كشف لنا لأحدث انقلابات خطيرة فى آرائنا وأفكارنا ، وفى طريقة معيشتنا ، ووسائل حياتنا ، ويدفع بنا حتما الى سلوك سبيل فى الآداب يكون مناسبا لتلك المكانة العلمية ، فيتحقق حلم المتفائلين الذين يدعون أن الانسان سيبلغ من الكمال الخلقى ما يصل به الى درجات الصديقين .

نقدم هذه المقدمة فاتحة للكلام عن جهاد العلماء الطبيعيين فى مسألة واحدة من مسائل العلم التى يسهر عليها ويحاول كشفها ألوف منهم فى جميع البلاد المتمدينة . تلك هى مسألة النور وما يتألف منه من الأشعة ذات الألوان المختلفة .

استقر رأى العلماء على أن النور ليس بشىء غير ذبذبات ذات عدد خاص فى الأثير المالئ للكون . وقد شاهدوا أن هذا النور ليس على اللون الذى نعهده عليه إلا إذا كان مؤلفا من جميع وحداته الاشعاعية ، ولكنه لو حلل بدت فيه ألوان أصلية عددها سبعة ، ولعلها تصل الى أكثر من ذلك ، أو يثبت أن تلك الألوان التى نزعم أنها أصلية مؤلفة من ألوان ثانوية .

عرف الطبيعيون أشعة فى الطبيعة حمراء اللون وبنفسجية ، فرأوا أن الأولى تحدث

---

(١) القاموس : البحر . وقيل ابعد موضع فيه غورا . ووسط البحر ومعظمه . وقد سمى الفيروزبادى معجمه بالقاموس يريد به البحر . فظن الناس ان كل معجم يسمى قاموسا .

من ذبذبات فى الأثير أبطأ من التى تسبب حدوث الثانية . وإذا قلنا أبطأ فلا يتخيلن القارىء أنها أقل من بضع مئات ترليون ذبذبة فى الثانية الواحدة ، وهى سرعة يصاب الانسان بالدوار قبل أن يتصورها .

قالوا وتوجد أشعة تستدعى ذبذبات أبطأ مما تستدعيه الأشعة الحمراء هى الأشعة التى فوق الحمراء ، وأخرى تستلزم ذبذبات أسرع مما تستلزمه الأشعة البنفسجية هى الأشعة التى فوق البنفسجية .

وقد تمكن علماء الطبيعة من توليد هذه الأشعة ، وتمكنوا من دراسة خصائصها ، فرأوا أنها تعقم المياه الملوثة بالميكروبات تعقيما عظيما ، وتطهر المحلات تطهيرا ليس يعدلها فيه أى مطهر غيرها . وقد دهشوا حين رأوا أنها تنشط الهضم للانسان تنشيطا كبيرا . ورأوا أن من خواصها شفاء السرطان وغيره من الأدواء العضالة .

يظن بعض الناس أن الشمس هى مصدر النور دون سواها . ولكن ثبت أن فى أعين بعض الحيوانات نورا ذاتيا غير مقتبس من نور الشمس كما هو الحال فى آحاد الفصيلة الهرية فانه ينبثق من أعينها نور يكفى لأن ينير طريقها فى الظلام الدامس .

وقد كان الناس يظنون ان الحياة فى البحار لا توجد بعد عمق أربعمائة متر لعدم سريان الأشعة فى كتلة الماء الى أبعد من هذا المقدار . ولكن تبين للعلماء خطأ هذا الظن ، وثبت وجود ضوء وأحياء الى أبعد الأعماق .

قال المؤلف الكبير (ساج) الفرنسى فى كتابه (منطقة الحدود) :

« إن زيادة أعماق البحار قد هدمت كل هذه الآراء كما هدمت تأكيدات العلماء الأقدمين الذين كانوا ينكرون وجود السمتين ، لأنهم لم يكونوا يدركون وجود أناسىّ أحياء يمشون ورءوسهم الى أسفل ، حتى أثبت لهم علم الطبيعة أنه ليس فى الوجود فوق ولا تحت . وفى الواقع أن ما نسميه نحن بتحت هو ما يكون تحت أقدامنا بسبب جذب الأرض إيانا كما تجذب اليها جميع الأجساد على السواء ، وما نسميه بفوق هو ما فوق رءوسنا .

« وإنه لتوجد فى جميع الأعماق البحرية الى بعد سبعة آلاف متر حركة نشطة للحياة . وفيما تحت خمسمائة أو ستمائة متر تعيش الحيوانات البحرية فى حالة عماية تامة ، ولكن ليس لأن الضوء معدوم فى هذه الأعماق ، ولكن لأن أشعة الشمس وإن كانت لا تنزل الى أبعد من تلك المسافة فان الكائنات هنالك تكون مضيئة بذاتها . من هذه الكائنات ما هو قارّ ثابت ويضىء ما حوله على مثال المنارات الى مسافات بعيدة ، بحيث إن تلك الأعماق البعيدة لا تكون مضيئة فحسب ، ولكن لعُمّارها ألوانا عجيبة لا يوجد لدينا شىء يعطينا فكرة عنها . وإنه ليوجد فى تلك الأعماق من زهرتى الايريس والبوليبييه ما لها من النور ما يكسف نور عشرين منارة

بحيث لا يحتاج الغواصون هنالك الى ضوء . وقد جلب الغواصون بعض تلك الأزهار المضيئة الى بعض المعامل العلمية ، فلما أحدث الظلام ظهرت منها أضواء كانت ذات منظر لا ينفد التعجب منه .

« وقد اعتقد العلماء مدة طويلة أن جميع الكائنات الحية فى حاجة الى الهواء لتعيش ، ولكن تبين الآن أن من الحيوانات ما ليست فى حاجة الى الهواء بل منها ، كالحيوانات المسماة (أنايروبى) ، ما يقتلها الهواء .

« وكانوا يتخيلون أن الأسماك لا تعيش إلا فى الماء ، ولكن الباحثين قد اكتشفوا حديثا فى رمال الصحراء الافريقية نوعا من السمك يعيش فى خلال الرمال كما يعيش السمك المعروف لنا فى لجج البحار . وقد رئى أن البدويين يصطادون هذا السمك الرملى بالسنارة والطعم . مع أن العالم فى حاجة اليها على حد سوى ، لأنها تفتح لعقولنا آفاقا جديدة لفهم الوجود الذى نعيش فيه على حقيقته ، وتمد أرواحنا بما هى فى حاجة اليه من نفحات الجمال المعنوى .

ومن العجيب أن بعض الناس يتوهمون أن التوغل فى العلم الطبيعى يوقع صاحبه فى الالحاد لا محالة لما يبينه من علل الموجودات ، وتسلسل وجودها ، ورجوعها كلها الى علة واحدة هى القوى الطبيعية الخ الخ .

وهذا وهم عظيم على القليل فيما يتعلق بالعصر الحاضر ، فان علماء الطبيعة اليوم بعد ثبوت تحالل المادة وفنائها ، وبعد قيام الدليل على أن المادة ليست بشىء غير ذبذبات ذات عدد معين فى الاثير ، وبعد تحطم جميع المدركات القديمة على الجوهر الفرد والمذاهب التى حاول بها أصحابها تعليل وجود الكون ومافيه الخ الخ ، بعد هذا كله فقد الالحاد أقوى أركانه وأصبح لامرتكزله من العلم يقوم عليه .

وقد حدث فى مدى هذه الخمسين السنة الأخيرة من التطور العقلى فى هذه السبيل مالا كان يتصور حصوله فى قرون كثيرة . ناهيك أنك لا تستطيع أن تصادف واحدا من أقطاب العلم يهزأ بالمعتقدين فيما وراء الطبيعة ، أو بالمقيمين للدين على شرط أن لا يكونوا من المتنطعين .

هذه الحالة العقلية ستزداد رسوخا وذيوعا بين الناس ، وهى مقدمة لتطور آخر يأتى بعد حين ، وهو الذى سيبلغ فيه الأدب النفسى أرفع ما قدر له ، وفى هذا العهد تتجلى الحقائق الالهية ويصبح كل ما فى العلم أدلة لها ، لا شبها عليها ، وليس هذا العهد ببعيد ؟

محمد فريد وجدى

حفظ النفس والاهل من الهلاك

« يأيها الذين آمنوا قُوا أنفسكم وأهليكم نارا وَقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » :

تعاليت ربى ما أسمى حكمتك ، وأعظم رحمتك بالانسان ! أوجدته فى هذه الحياة ليؤدى فيها رسالة الخير والعمل الصالح ، وإن أمرها لجد خطير ، يتطلب منه عزما واستقامة وحزم رأى ، فنبهته كى يؤديها على أحسن وجه الى مخاطر الحياة الوعرة ، وفتنها المهلكة ، ليأخذ حذره حتى لا ينقطع عن القافلة السائرة فى طريق الحياة . فنسجتَ له بشريعتك السمحة درعا من الخلق الكريم والشيم الصالحة يقيه إن لبسه عوادى الأيام ، وأقمت له من هديها منارا يضىء له فى دجى الحوادث محجة الخير وسبيل الرشاد .

أقرا هذه الآية فيأخذنى جلالها ، ويتجلى لى الكرم الالهى فى حسن عنايته تعالى برب الأسرة ، فهو منها بمثابة أصل الشجرة من الأغصان إذا سلم سلمت معه ، وعنايته بتلك الرعية الصغيرة (الأسرة) حيث أمره بحفظها ودفع الخطر عنها ، وهل الأمة إلا الأسر مجتمعة وبصلاحها تصلح ؟ فالولى الحكيم ينادينا بوصف الايمان — ومن ثمراته الحكمة واليقظة والحزم وتقدير المسئولية والعمل للغد — أن نحفظ أنفسنا وهى وديعة لله عندنا ، وكاعضاء فى جسم الأمة فيجب أن تكون صحيحة قوية عاملة للخير الخاص والعام ، وأن نحفظ أهلينا وهم قرابتنا فى الرحم الخاصة رحم النسب ، أو الرحم العامة رحم الدين ، أو الأعم من ذلك كله رحم الانسانية . يأمرنا أن نبر هذه الأرحام جميعا بان نقيها ونحفظها من النار نار الدنيا : الأمراض وضنك العيش ، وبلايا الحياة المتولدة من الآفات الاجتماعية والأخلاق الذميمة التى تودى بصاحبها فى درك الشقاء العاجل . ونار الآخرة التى أعدت لمن أهمل النظر والتقدير والعمل النافع « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » . وقد قالوا إن الأمر بالشىء أمر بتحصيل أسبابه ونهى عن ضده ، أفلا نكون إذاً مامورين بأن نحصل لأنفسنا وذوينا ما يسعد الجميع من الخير والآداب والفضائل ، ومنهيين عما يقوض بناء الأمم والأفراد ويهدم كيان الشعوب من المفاسد التى تحمل فى طيها عوامل الفناء ، فيستخلفنا الله فى أرضه ، ويمكن لنا ويدافع عنا « ولينصرن اللهُ من ينصره إن الله لقوى عزيز »

إن واجب الرعاية للأسرة فى حسن تربيتها وكفالتها ودفع الغوائل عنها لا يقل عن واجب النفس ، فالمصلحة متضامنة والعاقبة مشتركة ، فهناؤه بهنائها ، والضد بالضد فى الأولى والآخرة .

وفى السنة النبوية « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول ، كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » . وإن الله سائل كل راع عما استرعاه أحفظه أم ضيعه . اللهم لك الحمد : لقد أبنت طريق الخير، وأرشدت وحذرت من سواه ونصحت ، فلا عذر لمن ذهب بعدُ ضحية الافراط والتفريط .

لقد تقع عينك على مريض الزهرى أو السيلان صريع الزنا ، وترى مفلسا يبيع متاعه ، وعقاره ضحية الاسراف الموقع فى أحضان الدَّين أو عدم الاستقامة ، وتبصر فاقد العقل والصحة ضحية الخمر والمخدرات قد أضاع وراءه عائلة وتركها بائسة محزونة ، وتعلم بشخص طريد المجالس يتوقى الناس الاجتماع به لافساده بينهم بالنميمة أو لكذبه وخيانته وسوء طويته ، وتسمع بآخر يشكو عقوق أولاده وفسادهم كبارا وقد أهملهم ودللهم صغارا ، وبغيرهم يئن مستغيثا من وقوع شريكته فى أحابيل المفسدين بعد ما ترك لها الحبل على الغارب محسنا بها الظن .

وأمثال هؤلاء التعساء كثيرون ، فتهمّ أن ترثى لحالهم فلا تلبث أن تسمع نداء الضمير قويا عاليا : إنه القصاص الالهى الحق نزل بهم ، فما ظلمهم القدر ولا غبنهم المجتمع « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . وإنه لتصديق للحكمة القائلة « إن كل ساعة تمر بنا تحمل معها جزاء عادلا لما نحن فيه » . وتتوارد عليك الآيات الكريمة « وقد خاب من افترى » « إنه لا يفلح الظالمون » « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » .

ويعجبنى كلمة الامام الغزالى « إن الشهوات والمعاصى أفاع مهلكة وسموم قتالة ، وإن نهى الشارع لنا عنها كنهى الوالد ولده عن الوجود بشاطئ البحر خوفا عليه من الغرق » . هذا مثل مما يحل فى الدنيا بمن خالف أمر ربه ، ولم يق نفسه وأهله من الهلاك الحسى والمعنوى ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون .

وفى كلمة موجزة أحب من شبابنا أن يرفعوا عن أنفسهم غشاوة الهوى والطيش والجهالة ، فيسيروا على مبدأ خلقى قويم لأنفسهم وأسرهم والمجتمع ، فيؤدون الواجب ويرون الفضيلة والرذيلة بصورتهما الحقيقية ، فيتدبرون العاقبة ويختارون ما هو أجدر بالشرف وحسن المآل وما فيه إرضاء ربهم ورفعة أنفسهم وذويهم وأمتهم ؛ ويتعففوا عن الدنايا معرضين عما فيها من لذة متوهمة عاجلة اتقاء لوخيم العاقبة ، ذاكرين كلمة سيدنا عمر الخالدة « رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا » . وليحذر أن تجرئه عليها بيئة فاسدة أو إباحة لا رقيب عليها ، فقد ورد « طوبى للغرباء » أى المصلحين بين قوم مفسدين . وفى القرآن الكريم « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى »

عبد الواحد ابراهيم
الواعظ العام لمركز الصف

تاريخ الادب العربى

فى أواخر الدولة العباسية (١)

بلغت علاقة النهضة الأدبية وارتباطها بالتطورات السياسية فى البلاد الاسلامية درجة لم تعرف من قبل فى جميع الممالك المتمدينة ؛ وبدهى أن الأدبيات الشعبية لم تكن تتأثر الى هذا الحد تبعا لمرضاة الأمراء وشهوات الحكام ، بل إنها ازدهرت مستقلة بعيدة عن المؤثرات السياسية ، ولكن مثل هذه الأدبيات الشعبية لم يصلنا منها مما يرجع الى العصر القديم إلا النزر اليسير ، ولم تظهر لنا تعبيراتها وأفكارها إلا فى العصور المتأخرة ، ولم تكن طبقة الشعراء وحدهم هم الذين يتبعون بلاط الأمراء ، بل شاركتهم فى ذلك طبقة العلماء الذين اضطرتهم الأسباب المادية الى الالتجاء الى أصحاب السلطان ممن اجتمعت لهم أسباب السلطة والنفوذ ، فكان عدم وجود تجارة منظمة للكتب سببا رئيسيا للأدباء والعلماء يلجئهم الى بلاط الامراء ودوائر الحكام ، يستظلون بعطفهم ، خرصا على أسباب الحياة المعاشية .

فلما ولت الخلافة عن بغداد فى القرن الرابع من الهجرة وزالت تبعا لذلك أهميتها السياسية ، وأخذ الحكام فى الولايات الاسلامية المتعددة فى تاسيس إمارات مستقلة ، بدأت كذلك الحياة الفكرية تفقد مركزيتها ، وكلما تعددت نواحى هذه الحياة وتلونت أشكالها الخارجية كلما فقدت من قوتها الداخليه ، فجاء على أثر الشعراء البارزين الذين ظهروا فى القرن الثالث من الهجرة طبقة أخرى من الشعراء المقلدين الذين برعوا فى صياغة الأسلوب ولكنهم كانوا بلاشك افقر تفكيرا وأقل ابتكارا . التف أمثال هؤلاء الشعراء حول بلاط الأمراء مستبدلين بإنتاج قرائح الشعراء السابقين ما جرى به العرف فى المديح فى هذا العصر ، ولكن ما لبث أن قامت تيارات فكرية معارضة لهذه الحركة الخاطئة فى تجديد فنون الأدب ، وكان أول ظهورها فى غرب البلاد العربية ، محاولة تعهد أوضاع الشعر الشعبى فى أشكال فنية خاصة ، ولكن ضاعت مجهودات القائمين بأمر هذه النهضة سدى ، ولم يكتب لها من النجاح الا قدر يسير بسبب إعراض جماعة الأدباء عنها وعدم إدراكهم مراميها واتجاهاتها .

أما الأدبيات النثرية فكانت فى بدء هذا العصر واقعة تحت تأثير النثر الفنى ، الذى بلغ أعلى درجات التوفيق فى المقامات ، ولو أنه وجد طريقه من قبل أيضا الى المؤلفات الجدية مثل

(١) تكملة المقال المنشور فى الجزء الرابع (ربيع الثانى سنة ١٣٥٦) مترجما من الالمانية نقلا عن كتاب « تاريخ الادب العربى » للمستشرق الالمانى الكبير الاستاذ الدكتور « بروكلمان »

كتاب المقدسى فى علوم تقويم البلدان ، فلما أدخل الآن على المكاتبات الرسمية والرسائل الحكومية ، زالت من أمامه العقبات الكثيرة ، وظهر فى مؤلفات التاريخ التى كثرت فيها التراجم وسير الحوادث التاريخية الهامة التى تتلاءم معها عبارات المديح المقصود .

أما النثر العلمى فقد أمكن إبعاده عن هذا الطريق الضال ، ولكن قيمته الحقيقية فى جوهرها لم تتعادل مع القدر الضخم الذى ظهر منه فى هذا العصر ، فلم تخرج أغلب المؤلفات التى ظهرت فيه عما عرف عن القدماء من علوم ومعارف ، واقتصرت مجهودات المؤلفين على تحويرها وإظهارها فى أشكال أقرب تناولا وأسهل مأخذا ، دون زيادة أو تعمق ، ولم يشذ فى ذلك سوى الغزالى فى العلوم الدينية ، فكان كثير الاستقلال فى أفكاره ، ولو أنه كان يرى غاية رسالته فى التوفيق بين آرائه الفلسفية وتعاليم السنة القديمة .

ابتدأ الشعر فى هذا العصر أبو العلاء المعرى وهو آخر فحول الشعراء الذين يمثلون العصر الذهبى من حضارة الشام ، فكان حداً فاصلا بين عصرين متباينين . ولد أبو العلاء بمعرة النعمان عام ٣٦٣ هـ وفقد بصره فى طفولته ولم يمنعه ذلك من الاشتغال بدراسة العلوم اللغوية وفنون الشعر فى موطنه وفى مدينة حلب ، وكان مجتهدا كل الاجتهاد ، فانكب على متابعة الدرس ومواصلة البحث والتنقيب بكلياته ، وفى عام ٣٩٨ هـ رحل الى بغداد ، وكانت تعد أبرز مدن آسيا الصغرى فى الحياة الفكرية فلم يصادفه نجاح كبير فى أول الأمر ، إلا أنه استفاد من هذه الرحلة بمعاشرته كبار رجال الفلسفة وأخذ عنهم الآراء الفلسفية الحرة التى كانت ذائعة فى هذا الوقت ، ولكنه بقى بالرغم من ذلك خامل الذكر فى الحياة الفكرية فى حاضرة البلاد ، فآثر الابتعاد عن الحياة الخطيرة فى مقر الخلافة ، وصمم على الرحيل خصوصا بعد أن بلغه خبر مرض أمه ، فلم يبلغ موطنه حتى كانت فارقت الحياة ، ومنذ هذا التاريخ عاش معتكفا فى بلدته الصغيرة بالشام بعيداً عن الناس مكتفياً بشهرته المحلية الى أن توفى عام ٤٤٩ هـ .

ولما كانت مؤلفات المعرى باقية تقريبا كاملة حتى هذا العصر ، فان هذا الشاعر يتمتع للآن بشهرة فحول الشعراء البارزين ، ولو ان هذه الشهرة فى الحقيقة إنما ترجع فى الأكثر الى أن معرفتنا به أكثر من معرفتنا بغيره من الشعراء ، وهو لم يَعلُ كثيرا عن متوسط طبقة الأدباء الكثيرين فى هذا العصر ، ولم تخرج أشعاره فى مقتبل حياته عن محاكاة للشعر القديم ، ولم يبلغ الشهرة من ناحية جمالها الشعرى بقدر ما قصدها باستعماله التعبيرات النادرة والتراكيب الصعبة ، كما لجأ إليها من قبله مواطنه المتنبى ، الذى وضع أبو العلاء تفسيرا كاملا لديوانه ، وكان يضطر فى بعض الاحيان الى تفسير أشعاره بنفسه لكثرة ما فيها من الابهام والتعقيد ، كما كانت موضع بحث ودراسة علماء اللغة المتأخرين ، وأما أشعاره المتأخرة فامتازت بالمحسنات النظمية ، وكانت تنم عن فلسفته وآرائه الحرة ، التى جعلت عقيدته الدينية موضع شك الكثيرين من علماء الاسلام .

وفى الواقع كان أبو العلاء المعرى لايتقيد كثيرا بتعاليم الاسلام وأ وامره ، وليس أدل على ذلك من محاولته محا كاة القرآن ، وهو عمل لا يرضى به مسلم بل يعده كفرا وسبا فى الذات الالهية ، وكان كثيرا التشاؤم فى فلسفته كما يتضح ذلك فى مجموعة مواعظه المتعددة فى الزهد والتنسك ، ومن مؤلفاته الهامة رسائله التى وضعها بالنثر المسجوع موجهة الى الشخصيات البارزة فى الأدب والسياسة معالجا فيها بعض العلوم اللغوية والتاريخية ، وامتازت هذه الرسائل بدقة بحثها وصعوبة موضوعاتها ممايدل على سعة اطلاع مؤلفها ويشهد له بموهبة فائقة .

ولم تفتقر بلاد الشام الى غيره من الشعراء من أمثاله خصوصا وأنه نشأت بها عدة مراكز أدبية وسياسية تحت ظل حكم الأيوبيين ، وأشهر من عرف من شعراء هذا النسل الصالح هو عبد الملك التنوخى المتوفى عام ٦٤٣ ﻫ ، وترجع شهرته الشعرية الى أنه خرج على ما جرت به أقلام الشعراء من معاصريه ، فاتخذ أبا نواس مثالا له فى فنه مقتفيا أثره فى قصر شعره على الخمريات .

وفى إيران بدأت الروح الفارسية الوطنية تدب فى ميادين الأدب المختلفة بعد أن استعادت البلاد استقلالها السياسى فى اوائل القرن الرابع الهجرى ، ومنذ ذلك العهد والشعر العربى ينزل فى هذه البلاد منزلة الضيف الغريب ، ففى بلاط محمود الغزنوى الذى اشتهر لعلاقته بالفردوسى ، ظهر الشاعر المطبوع أبو الفتح البستى فذاعت قصائده الدينية فى الاصلاح والتهذيب ولاقت انتشارا كبيرا ، وتوفى عام ٤٠١ ﻫ

وأما الدولة السلجوقية التى اضطلعت بأعباء الوصاية على خلفاء بغداد من بعد بنى بويه وتم لها بذلك السيادة على بلاد الفرس والعراق ، فقد خلد اسمها فى تاريخ الشعر بمؤلفات الحسن ابن على الأصفهانى الطغرائى ، وكان وزيرا للسلطان مسعود بالموصل ، فلما انتصر عليه أخوه محمود عام ٥١٥ ﻫ وقع الطغرائى فى أسره وأمر باعدامه ، وبقيت من مؤلفاته حتى العصر الحاضر مجموعة من أشعاره فى مدح سيده وولى نعمته ، وكذلك فى مدح السياسى المشهور نظام الملك وبعض وجهاء الدولة الآخرين ، ولكن أشهر أعماله الأدبية هى بلاشك القصيدة التى وضعها عام ٥٠٥ ﻫ ببغداد راثيا حاله وتقلبات الأيام وصروف الزمان ، وكانت هذه القصيدة تشبه من ناحية النظم قصيدة الشنفرى ، ولذا سميت مقابلة لذلك بلامية العجم .

واشتهر كذلك من معاصريه أبو يعلى محمد بن الهبّارية المتوفى عام ٥٠٤ ﻫ وكان من بطانة الوزير نظام الملك ، وأ كثر ما امتاز به هذا الشاعر هو تحرره مما جرى به العرف فى الشعر فى هذا العصر والتزمه الشعراء من قواعد وقيود ، ومن أعماله الأدبية الخالدة نظم حكاية كليلة ودمنة وصياغتها فى شكل جديد ، فتخيل رحلة له ليلية استمع فيها الى جدل جرى على لسان

هندى وفارسى فى المفاضلة بين شعبيهما وكل منهما يدلى بقصص يدعم بها حجته . ومن مؤلفاته التى حفظها لنا التاريخ أشعاره الساخرة من أحوال الزمان ، وارجوزة شعرية فى لعب الشطرنج .

وأما شرق بلاد العرب فكانت موطن على بن مقرب بن منصور الابراهيمى وينتمى الى العيونيين من نسل فضل بن عبد الله الذى استوطن البحرين وآلت اليه بالاقطاع تحت حكم العباسيين بعد زوال دولة القرامطة عنها ، وبها أقام هذا الشاعر فى بلاط أحد أحفاده المسمى محمد وابنه مسعود ، فكان شاعرهم المختص بمديحهم ، ولكنه ما لبث أن اختلف مع الأخير فاضطر الى الفرار ، فرحل أولا الى الموصل وتغنى ببدر الدين لؤلؤ الأتابك ، ثم الى بغداد حيث لجأ الى بلاط الخليفة الناصر لدين الله وبه أقام بقية أيام حياته الى أن توفى عام ٦٢٩ هـ .

وأما مصر فكانت تزهو فى هذا العهد بخير عصورها من ناحيتى السياسة والثقافة فى ظل حكومة صلاح الدين ، وأشهر من برز بها فى ميدان الأدب فى هذا العصر هو أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك ، وولد عام ٥٤٥ هـ ، ودخل مبكرا فى خدمة الحكومة الى أن وصل الى أعلى الدرجات ولقب بالقاضى السعيد ، وتوفى عام ٦٠٨ هـ ، وقد حفظ التاريخ لنا مجموعة من اشعاره فى مدح صلاح الدين وتمجيده فى أسلوب تقليدى مألوف ، واليه يرجع الفضل فى إدخال الموشحات فى فن الشعر فى مصر بل وفى الشرق عامة ، وأخذ هذا الطراز الأدبى الجديد من الأشعار الشعبية وأثار اهتمام الأدباء من قبل فى غرب البلاد الاسلامية وخاصة فى الأندلس ولاقى من الشعراء قبولا حسنا ، والموشحات ضرب خاص فى فنون الشعر لا يتقيد بما يتقيد به الشعر الفنى من قيود اللفظ أو النظم ، وإنما يعطى الشاعر مجالا فسيحا تظهر فيه شخصيته حرة طليقة ، ولكنه من حيث جوهره ومغزاه لا يدل على التقدم . ولا زالت باقية له كذلك حتى هذا العصر مختارات من الرسائل نظما ونثرا بعضها منه ، والبعض الآخر من القاضى الفاضل وابنه الأشرف .

وظهر فى بلاط صلاح الدين من الشعراء المعروفين أبو الفضل زهير بهاء الدين ، ولو أنه لم يكن من الشعراء المبتكرين الا أنه أظهرهم اسما وأكثرهم شهرة .

وامتازت مصر فى هذا العصر بازدهار الأشعار الدينية ونموها ، فظهر فيها أكبر شاعرين دينيين عرفا فى الاسلام ، وهما عمر بن الفارض والبوصيرى ، ولد الأول بالقاهرة عام ٥٨٦ هـ ، وأقام زمنا طويلا بمكة ، ثم عاد الى موطنه حيث توفى عام ٦٣٢ هـ ، وبلغ ديوانه الذروة القصوى التى وصلتها الاشعار الصوفية فى البلاد العربية عامة ، وتعتبر أشعاره فى مرتبة أشعار حافظ فى بلاد الفرس ، بل إنها امتازت عنها بمعنوية خالصة وحماسة متقدة وعاطفة معتدلة ، وابن الفارض إن أنشد الخمر الصوفية فى إحدى قصائده ، فان تمجيده لها كان بلاشك فى المرتبة الثانية بعد العاطفة الدينية نحو الذات الالهية .

جاء من بعده شرف الدين البوصيرى وكان أشهر من اختص بمدائح الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولد البوصيرى عام ٦٠٨ هـ وتوفى عام ٦٩٤ هـ ، فوضع قصيدة البردة التى اختصها المسلمون بمنزلة دينية ممتازة .

وفى شمال أفريقيا نرى أنه انتظم فى سلك خدمة الاسرات المالكة فى هذا العصر فريق كبير من شعراء المدح ، ونكتفى فى هذا البحث بذكر حازم القرطاجنى المتوفى بتونس عام ٦٨٤ ، ووضع فى مدح المستنصر بالله قصيدة مشهورة غنية بالتلميحات التاريخية .

وبدخول الاسلام والحضارة الاسلامية فى صقلية ، ابتدأ الأدباء بالاهتمام بمزاولة الشعر العربى ، فبرز فى هذا الميدان فى أواخر القرن الرابع من الهجرة الشاعر أبو محمد عبد الجبار ابن حمديس الازدى الصقلى ، ولكنه لم يصل الى ذروة مجده فى موطنه ، فانه ما كاد النورمانديون يغزون صقلية ويحتلونها حتى فر هاربا الى أشبيلية ودخل فى بطانة الملك المعتمد وكان من الشعراء النابهين ، وفى بلاط هذا الملك ظهرت موهبته الشاعرية وتالق نجمه ، فلما غلب ولى نعمته على أمره ووقع فى أسر المرابطين عام ٤٨٤ هـ ذهب معه الى منفاه فى أفريقيا ، وتوفى بعد أن عمر طويلا عام ٥٢٧ هـ .

ولاقى الشعر فى بلاد الأندلس فى هذا العصر منبتا خصبا وحياة زاهرة ، ولقد عرفت هذه المستعمرة القصية من الممتلكات العربية منذ بدء الفتح الاسلامى بالاهتمام بالأدب والعناية بالفنون ، ولكن المقادير السيئة التى اعترضت الثقافة الاسلامية بعد ذلك كانت عاملا رئيسيا فى ضياع معالم بدايتها الأولى ، ولم يحفظ التاريخ منها سوى النزر اليسير ، ولم يظهر لنا فن الشعر العربى الأندلسى فى ضوء البحث إلا فى القرن الرابع من الهجرة .

بدأت فى هذا العصر دوائر الأمراء المختلفة فى هذه البلاد فى التنافس على تعهد الفنون وحمايتها ، وأكثر ما امتاز به شعراء الأندلس عن زملائهم فى الشرق هو تحررهم من قيود الشعر القديم ، ولو أن ذلك لم يمنع عددا كبيرا منهم من تقليد هذا الأسلوب ، وامتازت هذه البلاد كذلك بنشأة طرازين شعبيين جديدين فى فنون الشعر وهما الموشحات والزجل فظهرا لأول مرة فى تاريخ الادب ، ولو أن معلوماتنا الحاضرة تقصر عن معرفة بدء نشأتهما ، وأول من رفع قيمة الموشحات الأدبية عند بعض المؤرخين هو ابن عبد ربه المتوفى عام ٣٢٨ هـ ، ويليه فى الشهرة بقرطبة يوسف بن هارون الرمادى المتوفى عام ٤٠٣ هـ ، ولم يتمكن المؤرخون من نقد أشعاره فى الموشحات إذ أنه لم يبق منها شىء محفوظ حتى الآن ، ولكن من المعروف أنه لم يتقيد بما رسمه القدماء من قيود وقواعد .

ووصلت الموشحات بعد ذلك الى أعلى درجات الكمال على يد عبادة المتوفى بملقه عام ٤١٩ هـ ، وكان شاعرا فى بلاط كل من بنى حمود بقرطبة وبنى عامر فى بلنسية ، وبقيت من مؤلفاته

حتى الوقت الحاضر موشحتان ، اتخذ ابن سناء الملك إحداهما مثالا له فى إحدى مؤلفاته ، ولقد اهتم كثير من الأدباء منذ ذلك العهد لهذا الطراز من الشعر ، فاشتغل به فضلا عن الشعراء المحترفين رجالات الأدب على اختلافهم من أمثال ابن بادجه الفيلسوف وابن عربى العالم الصوفى الكبير .

أما ثانى الطرازين الجديدين فى النظم وهو الزجل ، فجاء متأخرا عن الموشحات فى بلاد الأندلس ، ويذهب بعض الباحثين فى تاريخ الأدب الى أنه كان النموذج الذى نسج على منواله الغرب فى الثمانيات الشعرية التى عرفت فى أوربا بعد ذلك ، والشبه القريب بينهما يحملنا على الاعتقاد بالعلاقة القوية التى تربطهما ؛ جاء الزجل وكانت الموشحات قد تم لها تحطيم قيود الشعر القديم ، فظهر فى عالم الأدب منذ أول نشأته برداء اللغة العامية ، وأول من ظهر من الأدباء الذين احتفظوا بهذه اللهجة العامية فيما خلده من النظم الفنى هو محمد بن قزمان ، ويعد أول شعراء العربية العامية ، وكان يعيش متنقلا محترفا المدح ، وتوفى بقرطبة عام ٥٥٥ هـ

ومن رجال الشعر الفنى البارزين ببلاد الأندلس ممن يستحقون الذكر فى هذا العصر عبد المجيد بن عبدون المتوفى عام ٥٢٩ ، وكان حاكم جابرة عمر بن أفطس يخصه بعنايته وعطفه ، فلما ولى الحكم بعد وفاة أخيه يحى بن منصور عام ٤٧٣ هـ أسند اليه إحدى الوظائف العامة ، فلما غلبه المرابطون على أمره واستولوا على مملكته بعد إعدامه عام ٤٨٥ هـ انضم ابن عبدون الى خدمة هؤلاء الأعداء المنتصرين ، فاتخذه على بن تاشفين بمراكش كاتما لأسراره . وشهرته الأدبية ترجع فى الغالب الى قصيدته التى نظمها فى رثاء أولياء نعمته الأولين من بنى حفص وتدهور دولتهم ، وكانت هذه القصيدة ملاى بالتلميحات التاريخية ، التى قام بعد ذلك بتفسيرها بالتفصيل ابن بدرون حوالى عام ٥٦٠ هـ . وهى تعد حتى الآن من أهم المصادر فى تاريخ الأندلس العربى .

وأما اهم شعراء الأندلس الدينيين فهو أبو زيد عبد الرحمن الفزارى ، وكان كاتما للسر عند كثير من الحكام ، فلما جاء الموحدون أمر المأمون بنفيه ، ولكنه تمكن فى منفاه بمراكش من اكتساب رضاء ذلك الأمير وعفوه ، إلا أنه توفى بعد ذلك بقليل عام ٦٢٧ هـ . وأهم أعماله الأدبية مجموعة من تسع وعشرين قصيدة فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم وسميت بالعشرينية لتشابه بداية كل عشرين بيتا منها ، وذاعت هذه المجموعة فى السودان ذيوعا كبيرا ، نخصها المسلمون هناك بالتبجيل ولا زالت تحتفظ بينهم بمنزلتها الدينية الممتازه .

نظام القضاء فى الاسلام

وتطوره بالقياس الى تطور حاجات البشر

لعل القارئ على ذكر مما ألمعنا إليه فى بعض أعداد سابقة من هـذه المجلة متعلقا بالولاية القضائية للمحاكم الشرعية ، إثر صيحة ارتفعت من جمهرة من الناس حين وضعت المادة ٢٩٣ من قانون العقوبات الجـديد تطبيقا لمبـدأ المساواة بين التشريع المصرى والتشريع الأجنبى على أحدث الأساليب وأعمقها ، استهداء بأحكام المبادئ الحديثة وقضاياها كما يقولون .

لـكن رجال الدين من قضاة ومحامين يرون أن فى وضع هذه المادة غضا من قيمة المحاكم الشرعية واقتطاعا لجزء كبير من كيانها وطبيعة تصرفاتها وإجراءاتها ، حتى لقد صرح مسئول كبير فى القضاء الشرعى العالى بأن تطبيق هذه المادة يقتطع من قضايا المحاكم الشرعية حوالى أربعين فى المائة . وبدهى أن المادة ٣٤٧ من القانون رقم ٧٨ لسنة ١٩٣١ الخاص بترتيب المحاكم الشرعية تقول فى صراحة وجلاء :

« إذا امتنع المحكوم عليـه من تنفيذ الحـكم الصادر فى النفقات أو فى أجرة الحضانة او الرضاعة أو المسكن يرفع ذلك الى المحكمه الجزئية التى أصدرت الحـكم أو التى بدائرتها محل التنفيذ ، ومتى ثبت لديها أن المحكوم عليه قادر على القيام بما حكم به وأمرته ولم يمتثل ، حكمت بحبسه ، ولا يجوز أن تزيد مدة الحبس عن ثلاثين يوما ، أما إذا أدى المحكوم عليه ما حكم به أو أحضر كفيلا فانه يخلى سبيله ، وهذا لا يمنع من تنفيذ الحـكم بالطرق الاعتيادية » .

وهى صريحـة فى تنفيذ الأحـكام فى مواد النفقات بأنواعها الثلاثة طبقا لأحـكام الشريعة السمحة ، وقد كانت الولاية القضائية للمحاكم الشرعية فى أزهى عصور الاسلام عامة شاملة ، على معنى أنها كانت هى المحاكم المنفردة بالفصل فى قضايا سكان البلاد على اختلاف مللهم ونحلهم وتنوع حاجاتهم ورغباتهم لا فرق فى ذلك بين أن تكون الخصومة فى مسألة من مسائل الأحوال الشخصية أو متعلقة بمعاملات مدنية أو تجارية كما كان مما يدخل فى حدود اختصاصها يومئذ دون سواها الفصل فى مواد القصاص بأنواعه ومواد التعزير بأنواعه الذى قد استحال الآن عمـلا من أعمال قانون العقوبات . وهـذا التصرف من غير شك أملى على المجتمع فترة طويلة من الزمن أقطع الأدلة على صلاحية الشريعة السمحة لـكل عصر وجيل ، وقدرتها على مسايرة المقتضيات والملابسات التى تتمخض عنها حاجة البشر فى مرافقه المختلفة ومصالحه المتنوعة .

ولقد كانت تلك الصلاحية البارزة فى كل ناحية من نواحى الشريعة الاسلامية من الحوافز

القوية فى كل زمن على تلمس ما تمس اليه حاجة المجتمع ليمسى جزءا من قانون إسلامى يصبح بتتابع الأيام مجموعة من الأحكام الشرعية التى تطبق على سكان البلاد .

نقول : إن تلك الصلاحية البارزة ما فتئت فى تقدير المصلحين فى كل عصر هدف كل حابل ومرمى كل نابل ، غير أن الأسباب لم تتسق بعد لتحقيق ذلك المطلب الأسمى .

لذلك أخذت الولاية القضائية للمحاكم الشرعية تتقلص رويدا رويدا وبخاصة بعد إنشاء المحاكم الأهلية على نمطها الحديث بحيث استحالت الولاية للمحاكم الشرعية ولاية استثنائية لا يدخل فى اختصاصها إلا ما كان متعلقا بمواد الأحوال الشخصية حتى إن أولياء الكلمة يوم وضعوا أول لائحة لترتيب المحاكم الشرعية وقفوا من هذه اللائحة موقف البار بها الحدب عليها ابتغاء التوسع فى متناول نصوصها وأحكامها واتقاء لما يقف فى سبيلهم من عقبات مستعصية واعتراضات غير مواتية ، فقد كانت هناك سلطة المستشار القضائى فى وزارة الحقانية مرهوبة الجانب لا يمكن تجاهلها والغض من تقديرها ، فاعترض على إدخال باب الوقف وباب الهبة والوصية فى مواد الأحوال الشخصية لما يبدو من فرق كبير بينها وبين تلك الأحوال المتعلقة بذات الانسان .

غير أن الولاية القضائية للمحاكم الأهلية وقد أصبحت ولاية شبه عامة قد أقامت وزنا لعمل المحاكم الشرعية تلقاء ما كان يبدو من رغبة متوثبة عند أولياء الأمر نحو المحاكم الشرعية حتى أشاروا بوضع المادة ١٦ من قانون ترتيب المحاكم الأهلية ، وتلك المادة تجعل مواد الهبة والوقف والوصية داخلة فى اختصاص الولاية القضائية الشرعية .

وقد ظلت المحاكم الشرعية تمارس اختصاصها فى حدود ولايتها القضائية بما فى ذلك الفصل فى قضايا غير المسلمين من المتقاضين الذين ليست لهم طوائف ملية تفصل فى قضايا أحوالهم الشخصية ، وقد كانت سلسلة التجارب خليقة بأن تبرز بين كل فترة وأخرى من الزمن أحداثا جديدة تتطلب من المشرع المصرى تقديرا ورعاية ، حتى أن الأمر قد اختلط كثيرا فى بعض العهود على كثير من القضاة الشرعيين فى دائرة محكمة مصر الشرعية ومحكمة الاسكندرية والمنصورة ، فلا يدرون طريقة يترسمونها فى معاملة الطوائف غير الاسلامية معاملة قضائية تكفل إيصال الحقوق إليهم ، وتبعث الطمأنينة الى قلوبهم ، فكتب بعض حضرات القضاة الشرعيين الى وزارة الحقانية يستوضحها المنهاج الذى يسير عليه فى التقاضى لبعض الطوائف غير الاسلامية ، ولائحة ترتيب المحاكم الشرعية رقم ٧٨ واللائحة التى سبقتها لسنة ١٩٠٩ ليس فيهما ما يكفل بعث الطمأنينة الى الطوائف غير الاسلامية وبخاصة لائحة سنة ١٩٠٩ فقد نظرت فى مجلس شورى القوانين نظرة عجلى لا تنفق وما لمواد تلك اللائحة من الخطورة وشديد مساسها بمصلحة الجمهور ، وإن وقع ذلك من المجلس يومئذ مقترنا بحسن النية اعتمادا على اللجنة التى وضعت تلك اللائحة بوزارة

الحقانية ، وقد كان قوامها أثباتا فى الفقه الاسلامى وأثباتا فى الفقه الوضعى العصرى وأثباتا فى الاجراءات المتعلقة بتنفيذ الأحكام ، فبعثت وزارة الحقانية بمنشور رقم ٥٠ بتاريخ ٢١ يونيو سنة ١٩١٤ وزعته على المحاكم الشرعية المنبثة فى أنحاء القطر بشأن الطوائف غير الاسلامية التى هى الارثوذكس والبروتستانت والكاثوليك وجعلها مختصة بالفصل فى قضايا الأحوال الشخصية لغير المسلمين من هذه الطوائف الثلاث ، وحظر على المحاكم الشرعية أن تنظر فى قضايا أحوالهم الشخصية ما عدا قضايا الميراث إلا إذا اتفق الخصوم عليها .

ومن ذلك الحين أخذت الطوائف الثلاث لغير المسلمين تنظر فى قضايا الأحوال الشخصية للأفراد التابعة لها طبقا لأحكام قوانينها الثلاثة الصادرة بأوامر عالية فى تواريخ مختلفة ، وهذا من غير شك إجراء إن دل على شىء فانما يدل على أن الشريعة السمحة كفلت حرية الناس وطمأنينتهم حتى تركت لأصحاب التقاليد الكنسية الطريقة التى يختارونها لتكون منهاجا لتقاضيهم ما دامت الظروف غير مواتية لتكون الولاية القضائية العامة فى المحاكم الشرعية .

تطورت بعد ذلك التاريخ الأحوال واستحال الحال فنشأت مشاكل عن تنفيذ ذلك المنشور بين الطوائف غير الاسلامية ، وهبت طوائف لها مجالس ملية قائمة تفصل فى قضايا الأفراد التابعة لها وفى أحوالها الشخصية ، غير أن وزارة الحقانية لم تعترف بها ، فلجأ بعض المتقاضين من الطوائف غير الاسلامية وغير الطوائف الثلاث المعترف بها الى المحاكم الشرعية تستقضيها فى بعض مواد أحوالها الشخصية ، فوقف القضاة غير مستهدين بما يكشف عنهم هذا اللبس وذلك الإبهام أيقضون لهذه الطوائف غير الاسلامية وهم من غير الطوائف الثلاث المعترف بها ، فهذا يفتقر الى تعليمات تصدر إليهم من الجهات المختصة ، أم يقضون بعدم اختصاص المحاكم الشرعية لأن منشور رقم ٥٠ إنما كان خاصا بطوائف معينة ، وهؤلاء المتقاضون ليسوا من تلك الطوائف ، فكان القضاة بين موقفين متعارضين لايدرون أيهما أجدى على سير العمل فى المحاكم الشرعية ولا أكثر مساسا بمصلحة المتقاضين من غير المسلمين ، فكتبوا بذلك الى قلم التفتيش والمراقبة القضائية الشرعية فى وزارة الحقانية ، فتولى كبير المفتشين كتابة مذكرة برأيه فى مثل تلك الحالة المبهمة ورفعها الى وزير الحقانية ، ثم صدر بعد ذلك منشور رقم ٤ وزع على المحاكم الشرعية بتاريخ ١٥ يناير سنة ١٩٢٣ بتعيين اختصاص جهة التقاضى لغير المسلمين من رعايا الحكومة المحلية إذا اتحد الخصوم مذهبا .

تلك معلومات لا تسهل الاحاطة بها إلا بعد عناء ومراجعة للمجموعة الرسمية وغيرها قد أسديناها الى إخواننا المحامين الشرعيين وكثير من القضاة الشرعيين وغيرهم . وسنتابع هذه البحوث فى روح الشريعة ومداها والمقارنة بينها وبين قانون المرافعات فى المحاكم الأهلية الأعداد المقبلة إن شاء الله ؟

عباس طه
المحامى الشرعى

تقرير بعثة الهند

— ٥ —

المسلمون فى الهند

التعليم العالى :

وبانتهاء الطالب من مرحلة التعليم الثانوى ، ينتقل الى المرحلة التى تليها وهى التعليم العالى ، حيث يتبحر فى العلوم العربية والدينية ، ويصبح أهلا لتلقى علوم أعلى من مستوى التعليم الثانوى .

ومن أمثلة ذلك : المدرسة الأحمدية فى بهوبال ، ومدرسة فاتابورى فى دلهى ، وسلطان المدارس فى لكنو . ومدة الدراسة فى هذه المرحلة ثلاث سنوات ، يتقدم فى ختامها الطالب الى امتحان تجريه الحكومة لنيل شهادة دينية إسلامية « مولوى فاضل » تعادل شهادة « الماتريك » فى مناهج التعليم المدنى ، وتوازى الى حد ما ، شهادة إتمام الدراسة الثانوية فى الأزهر .

التعليم الجامعى :

ثم تلى ذلك مرحلة التعليم الجامعى ؛ وفيها يتوسع الطلبة فى العلوم العربية وعلوم الدين ، حيث يدرسون سنتين لنيل الشهادة المتوسطة ، ثم ثلاث سنوات تنتهى بشهادة « علاّمة » ، وهى تقابل درجة « بكالوريوس » فى التعليم الجامعى المدنى ، ثم تليها مرحلة تخصص : فى التفسير ، أو الحديث ، أو المعقول ، أو التشريع الاسلامى ، أو الأدب والتاريخ ، أو التبليغ .

ومن الجامعات التى تجرى على هذا النظام : دار العلوم بديوباند ، وندوة العلماء بلكنو ، والجامع العباسى ببهاولبور ؛ على أن ثمة فوارق كبيرة بين هذه المؤسسات الثلاث :

فدار العلوم بديوباند : تجرى على ما كان الأزهر يجرى عليه منذ مائة سنة تقريبا ، لم يدخل على مناهجها أى تعديل ؛ وهى جامعة على النسق القديم ، وإن كنا قد آنسنا فى رجالها استعداداً للأخذ بالجديد ، كما ورد ذلك فى خطبهم ، إلا أن الروح العامة فى هذه الجامعة الدينية ، ما تزال غير آخذة بالأساليب العصرية ، فى الجمع بين علوم الدنيا وعلوم الدين ؛ ورجال هذه الجامعة من الطراز القديم أيضا ، يعيشون فى عزلة عن العالم ؛ شأنهم شأن علماء مصر فى القرن الماضى .

ويلحق خريجو هذه الجامعات بالوظائف التى تتطلب مثل صفات هـؤلاء المتخرجين ؛ وتكاد الصلة تكون منقطعة بينهم وبين خريجى الجامعات المدنية ؛ ويعتبر رجال ديوباند مثلا حياً للبعد عن رجال الدنيا .

ولا ينجو رجال الدنيا من لمز هؤلاء العلماء وغمزهم ، والتعليق على سلوكهم ، بل تمادى بعضهم فنعت هؤلاء بالكفر لعدم أخذهم بمذهبهم فى الدين ؛ ويسمى خريجو هـذه الدار بـ « الديوبانديين » .

أما الجامع العباسى ؛ فهو مؤسسة أنشأها سمو « نواب بهاولبور » ، لتكون أزهر جديداً فى بلاده ؛ وينتسب سمو النواب إلى الدولة العباسية ، ولذلك ظهر شغفه باللغة العربية وتعلقه بكل ما هو عربى إسلامى . وقد تعرف شئون الأزهر فى مستهل القرن العشرين بواسطة وزير المعارف « الميجر شمس الدين » ، ووزير المهام الخاص « الكولونيل قريشى » ، وعمل بمشورتهما ، فأنشأ هذه الجامعة العباسية ؛ ومناهجها أقرب ما تكون إلى مناهج الأزهر قبل القانون رقم ١٠

ولسمو النواب ورجال حكومته عناية كبرى بهذه المؤسسة ، ويرجون أن تؤدى لبلادهم ما يؤديه الأزهر لمصر من خدمات ؛ ولكن رئيس هذه الجامعة رجل من رجال المدرسة القديمة .

أما ندوة العلماء فى لكنو : فهى أزهر حديث جمع بين علوم الدنيا وعلوم الدين ، على نسق ما يفعل الأزهر اليوم ، ورجال هذه المؤسسة من أنصار القائلين بأن علماء الدين لا يستطيعون القيام بخدمة الدين خدمة صحيحة إلا إذا استمالوا إلى جانبهم علماء الدنيا واختلطوا بهم . وهم يجمعون بين الثقافتين على أحسن ما يستطاع . والاشراف على شئون هذه الدار مماثل للاشراف على شئون الجامعات المدنية ، فتديرها ثلاثة مجالس :

١ — أراكن انتظامى . ويتكون من ٧٤ عضواً ، بعضهم من خريجى الندوة الذين يحتلون المراكز الكبرى فى مختلف أنحاء الهند ، والبعض الآخر ممن ترى الدار فائدة من ضمهم للاستنارة بآرائهم العلمية أو الادارية ، أو بنفوذهم الدينى أو السياسى ، أو غير ذلك .

٢ — المجلس الانتظامى . وهو الهيئة التنفيذية ؛ وينتخب أعضاؤه من بين أعضاء المجلس الأول ، وهو الذى يشرف الاشراف الكامل على أمور الجامعة بين فترات انعقاد «أراكن انتظامى » ، ويتقدم إليه بأعماله .

٣ — وينتخب من بين أعضاء المجلس الانتظامى عدد من النظام . فهذا ناظم الندوة « الدكتور عبد العلى » قد نيطت به إدارة الجامعة ؛ وهذا ناظم المالية قد نيطت به الأعمال المالية ، وهكذا ؛ ولا يتناول هؤلاء النظّام ولا غيرهم أجوراً عما يؤدونه لهذه المؤسسة من خدمات .

وندوة العلماء قد خرجت اليوم عدداً لا يستهان به من العلماء ، يميزهم من غيرهم — من خريجى المعاهد الأخر — إلمام بشئون الدنيا ، واتساع فى الأفق العلمى . وللدكتور عبد العلى رأى فى أعمال التبليغ نرجىء عرضه إلى حين .

ومن فطاحل خريجى هذه الجامعة : السيد سليمان الندوى ، وهو من قادة الفكر بين المسلمين ، ويعيش فى مدينة « أعظم جار » ، ويتتبع سير الأمور فى العالم الاسلامى بعناية ، ويعرف عن الأزهر ونهضته ما لا يعرف كثيرون .

ومنهم : السيد هاشم الندوى ؛ وقد وقع عليه اختيار صاحب السمو العالى « نظام حيدر آباد » لادارة دائرة المعارف العثمانية ، وهى مؤسسة جزيلة النفع ، تسهر على نشر العلوم والمعارف الدينية والعربية ، بنشر الكتب القديمة فى الدين والأدب بها . ويطوف السيد هاشم الندوى طوافاً منظماً بكافة المكتبات العامة والخاصة بالهند ، لاختيار المخطوطات التى يراها لازمة لطلاب الدين الاسلامى واللغة العربية ، وطبعها ونشرها على نفقة الدار .

أما « فرنجى محل » : فمدرسة دينية عالية يديرها جماعة من العلماء على نسق أهل ديوباند ، وهم يعتزون بأنه لم يطرأ عليهم ما طرأ على غيرهم من أساليب المدنية : كتدريس العلوم الحديثة واللغة الأجنبية ؛ كما يعتزون باستقلالهم عن الحكومة فى التعليم . وقد اتخذوا « فرنجى محل » اسما لمدرستهم ، لأن الحى الذى تقع فيه ، كان موطن الأوربيين قبل أن يخرجهم منها الملك « أورانج زيب عالمجير » .

وبلاهور جمعية خدام الدين ، وتسمى مدرستهم « قاسم العلوم » وهى مدرسة على نسق ديوباند أيضا ، وقد أصدروا طبعة للمصحف الشريف باللغة العربية ، وعليها ترجمة لفظية بلغة الأوردو .

مدرسة الواعظين : ومن أهم أقسام التخصص فى الدين الاسلامى مدرسة الواعظين للشيعة . تتكون هذه المؤسسة من ثلاث فرق ، وتبتدىء الدراسة فيها بعد نيل الطالب درجة عالم ، وقد حدد عدد الطلاب بأربعة لكل فرقة ، يتخصصون فى وسائل الوعظ والارشاد ، ويعينون بعد تخرجهم وعاظا ومرشدين فى الهند وخارجها .

إلا أن العناية بالتبشير فى الأقطار الأجنبية قد أصبحت محور اهتمام هذه الجماعة ، إذ يؤخذ على طلاب الانتساب إلى هذه المدرسة تعهد بالخدمة فيما وراء البحار مدة ما ، بالراتب الذى تحدده لهم الجماعة ، وقد تخرج من هذه المدرسة إلى الآن ٣٢ شيخا ، منهم ١٧ شيخا يعملون فى جنوب أفريقيا وجزر الملاى .

واللغة العربية ، وإن كانت لغة المؤلفات والمراجع التى تقوم عليها الدراسة بهذه المدارس الدينية ، إلا أنها لا تعطى ما تستحقه من العناية ؛ فالكتب التى تستعمل ، كلها من الكتب

القـديمة التى بطل استعمالها فى مصر ، والتى تزيد بصعوبتها عن مستوى أفهام الطلاب ، كما أنها ليست لغـة التخاطب ، ولا لغـة الشرح ؛ فالمدرس يتلو المتن العربى من الـكتاب ، ثم يشرحه بلغة الأردو ، فـكانت نتيجة ذلك ضعفا عاما فى هـذه اللغة بين المتخرجين ، ولهـذا لايتـكلمون بها إلا بصعوبة كبرى ، عدا القليل منهم ممن يـكون قد انكب على دراستها بعد التخرج ، أما قدرتهم الـكتابية ، فمما يشكر لهم ، إذ يـكتبون بلغة عربية تـكاد تـكون لغة فصيحة ، ولـكثير منهم مؤلفات بها ، بل إن الأستاذ « مسعود عالم الندوى » يصدر مجلته « الضياء » باللغة العربية .

ولاتساهم الحـكومة فى نفقات هـذا النوع من التعليم ، إلا إذا كانت اللغة الانجليزية من بين مايدرس من اللغات كما هى الحال فى دار العلوم ، وندوة العلماء ، وسلطان المدارس للشيعة بلـكنو ؛ وبذلك حرم معظم هذه المدارس الدينية الاعانات الحـكومية .

وقبل أن نفرغ من الكلام على جهود المسلمين فى نشر الثقافة الدينية بين أبناء المسلمين ، نذكر الجامعة الملية فى دلهى :

الجامعة الملية : هيئة قد اقتضى وجودها ذلك العامل الذى اقتضى وجود جامعة عليـكرة منذ خمسين سنة ، وهو السهر على نفع الشبان المسلمين الذين يريدون الجمع بين الثقافتين : المدنية ، والدينية ، ولـكنهم لايريدون التخصص فى أمور الدين الاسلامى ، بل لا يريدون الانقطاع عن تيار التعليم المدنى الذى يؤهل للوظائف الحـكومية وغيرها .

اجتمع لفيف من قادة الفـكر المسلمين ، وفـكروا فى حال المسلمين فى الهند ، فوجدوا أن جامعة عليـكرة لاتؤدى لهم الخـدمة الاسلامية كاملة ، إذ أنهـا تعنى بمسايرة الجامعات الأخر فى نزعاتها المدنية ، بحيث أصبحت عـلوم الدين فيها اختيارية ؛ لذلك فـكروا فى إنشاء هـذه الجامعة مترسمين فيها خطوات من أنشأوا جامعة عليـكرة ، أول مرة .

ولقد تحدثنا الى « الدكتور ذاكر حسين » عميد هذه الجامعة ، فألفيناه ذا شعور فياض بمسئولية رجال الوقت الحاضر أمام رجال المستقبل ؛ ولذلك جمع حوله عددا ممن يشاركونه الرأى ، وساروا بهذه الجامعة مستبسلين ، ورسموا لهم خطة قائمة على التفانى فى سبيل واجبهم مع تضحية صوالحهم المـادية من أجل الصالح العام ؛ فلا يتناول المدرسون أجورهم الضئيلة إلا إذا توافرت لديها المـوارد . ومن أغرب مايذكر لهذه الجماعة : أنها وفقت أخيرا لبعض المال ، فبدل أن تدفع منه رواتب المدرسين المتاخرة ، ابتاعت به بناء على موافقتهم مساحة من الأرض ، لتنشىء عليها دارا للجامعة ، مستوفية كل الشرائط الصحية والنظامية ، تـكون نواة لهذه الجامعة الفتية .

وتعنى الجامعة الملية بتدريس المواد باللغة الوطنية (الأردو) ، ويكلف الأساتذة بتأليف الكتب ونشرها ، ولهم عناية خاصة باللغة العربية والعلوم الدينية ، التى تعتبر من أمهات العلوم بالجامعة .

وفى رأينا أن هذه الجامعة الملية وغيرها من المدارس الدينية ، تستحق عناية خاصة من الأزهر

نواحى النشاط فى البيئات الاسلامية :

إن من أهم نواحى النشاط فى البيئات الاسلامية فى الهند : تلك النزعة التعاونية القائمة على البر والتقوى . ومما ساعد على نشوء هذه الجماعات ، الاستعداد الفطرى ـ الذى ملك على كبار المسلمين كل نواحى تفكيرهم ـ للاستبسال فى نشر مبادىء الدين الاسلامى الحنيف .

ويتبرع المسلمون فى الهند لمثل هذه المؤسسات بسخاء لا يناظره سخاء ؛ فكم رأينا من مبان شاهقة وقف ريعها على أعمال البر منذ سنوات ، ناهيك بتلك المؤسسات التى تستمد العون من أوقاف لا حصر لها ، منذ أيام الملوك المسلمين فى تلك الديار .

ومما يحسن بنا ذكره فى هذا المقام ، أنه إثر ثورة سنة ١٨٥٧ ، صادرت الحكومة البريطانية كثيراً من هذه الأوقاف وباعتها بأبخس الأثمان ، ولكن المسلمين ما لبثوا أن استعادوا أكثر ما أخذ منهم ، إما بمصالحة الحكومة البريطانية ، وإما بالشراء من جديد .

وتنقسم هذه المؤسسات الاسلامية الى قسمين :

(ا) جمعيات تعمل على إحياء مجد الاسلام بالعلم والثقافة العامة والتعاون ؛ فمن ذلك : جمعيات الشبان المسلمين ، وهى منتشرة فى أنحاء الهند فى بومباى ، وأجرا ، ودلهى ، ولاهور ، وكراتشى ، وكلكتا ، وناجبور ؛ وهى تعمل على تكوين الأخلاق بالدين والثقافة العامة ، ووسيلتها فى ذلك إلقاء المحاضرات العلمية ؛ وهذه الجمعيات حديثة الوجود بالهند .

معهد البحوث الاسلامية ببومباى : ومن الجمعيات العظيمة الأثر أيضاً « معهد الأبحاث الاسلامية ببومباى » ؛ ويقوم بالعمل فيه شباب ناهضون من المسلمين المثقفين ، وقد اتصلوا بنا وذاكرونا فى نواحى نشاطهم ؛ وهم وإن كانوا من شباب طائفة الاسماعيلية ، إلا أنهم يبحثون عن حقيقة الاسلام وروحه السامى ، ولا يتقيدون فى بحثهم بنحلة خاصة ؛ وهم يعملون على إظهار كل مكنون علمى من تراث المسلمين بترجمة الكتب النافعة فى علوم الكون : كتاريخ ابن خلدون وغيره .

وقد تقدم لنا بعض أعضاء هذه المؤسسة بالرغبة فى أن توجه إليهم الدعوة لحضور العيد الألفى للأزهر .

جمعية اسلام سيفا سماج : ومن تلك الجمعيات جمعية « إسلام سيفا سماج » وهى جمعية حديثة التكوين ، عدد أعضائها محدود ، ولها سكرتير . وهم ينفقون على جمعيتهم من حر أموالهم نحو عشرة آلاف روبية فى كل عام (٧٥٠ جنيها مصريا) ؛ ومن برنامجهم لزيادة أعضاء الجمعية أن يضم كل عضو من أعضائها عدداً محدودا من أصدقائه ، على تبعته ، وأن يقسم كل عضو أغلظ الأيمان على أن يكون عمله لأجل الاسلام لا لشهرة أو كسب مال ؛ ثم يضم كل واحد من هؤلاء أصدقاء جدداً بنفس الطريقة السابقة .

ومن عمل هذه الجمعية : تشغيل العمال المتعطلين المسلمين ، وقد وظفت فى خلال العام الماضى ١٨٠ شخصاً منهم عند تجار مسلمين . وهى تكمل العاطل بما ينقصه من التعليم ، حتى يتهيأ له أداء ما يطلب منه من الأعمال : كالحساب التجارى ، والكتابة على المكتاب والاختزال وغير ذلك .

وهذه هى الجمعية التى تقدمت الى فضيلة مولانا الأستاذ الأكبر بالمدالية الذهبية ، كما ذكرنا فى مقدمة هذا التقرير .

جمعية أنجمان إسلام : ومن هذه الجمعيات أيضا جمعية « أنجمان إسلام » فى بومباى ، وهى جمعية قديمة جداً ، أسست بأموال المسلمين ، ومن أغراضها نشر التعليم الاسلامى بين طبقات الطلبة الذين يتجهون فى دراساتهم اتجاهاً مدنياً . وقد ظلت هذه الجمعية سنوات طوالا تحقق هذه المبادىء ، الى أن منيت فى شئونها المالية بما لا محل لذكره الآن ، فأعانتها الحكومة وتدخلت فى أعمالها .

جمعية أنجمان حماية الاسلام : ومن هذه الجمعيات جمعية « أنجمان حماية الاسلام » بلاهور ؛ وهى جمعية قوية تضم معظم شباب البنجاب المسلمين المثقفين ، ويرأس مجلس إدارتها اليوم « السير محمد إقبال » شاعر الهند وفيلسوفها العظيم .

وقد ساهمت فى إنشاء كلية للآداب من وحدات جامعة البنجاب ، وهى تعنى بالدراسات العربية والدينية ، وعميد هذه الكلية اليوم هو الأستاذ « عبد الله يوسف على » من موظفى الحكومة الهندية القدماء .

وتدير الجمعية مدرسة ثانوية للبنات ، وتعتزم أن تضم إليها كلية عليا ، وهى اليوم فى صدد وضع مناهج لهذه الكلية . ولقد تقدمت إلينا هذه الجمعية بالرغبة فى أن نضع لذلك منهاجا خاصا فى علوم الدين . وقد اجتمعنا مع حضرات الأعضاء ، وتذاكرنا فى هذا المشروع ، حتى جمعنا معلومات تصلح أساسا لوضع المنهاج الدينى الذى يناسبها ، ووعدناهم بعرض الأمر على رياسة الأزهر

أما الكلية الاسلامية فى بشاور : فهى كذلك من المؤسسات التابعة لجامعة البنجاب ، عمل على تأسيسها مسلمو مقاطعة الحدود بزعامة « السير عبد القيوم خان » من أعيان هذه المقاطعة ورئيس وزرائها الآن . وهى تعنى باللغة العربيـة والعلوم الدينية ، الى جانب المناهج المدنية .

جماعة حزب الله : وفى بهاولبور جماعة « حزب الله » وهم يتزيون بزى الجند ، ويقومون بما تقوم به جمعيات الشبان المسلمين عادة .

جمعيـة أنجمان مسلمانى بنجابى : وفى كراتشى جمعية « أنجمان مسلمانى بنجابى » وهى مكونة من أهل البنجاب المقيمين فى هـذا الثغر ، وقـد نصبت نفسها لمعاونة حجاج بيت الله الحرام ، وتسهيل السبيل الى الحج ، وما الى ذلك من مساعدة فقراء المسلمين .

جمعيات تحفيظ القرآن : ويوجد فى بعض أنحاء الهند جمعيات لتحفيظ القرآن ، وتجويد تلاوته وقراءته بالروايات ؛ وقد شهدنا من هذه الجمعيات جمعية القراء بدلهى ، حيث عقدت حفلتها السنوية فى « جمعة مسجد » تحت رعاية البعثة ، فاستمعنا الى كثير من الخريجين يتلون القرآن الكريم .

جمعية الخلافة : أما جمعية الخلافة ، وهى تلك الجمعية الذائعة الصيت فى أنحاء العالم الاسلامى ؛ فقد كانت منذ سنوات ذات نشاط يجذب الأنظار ، ولقد جمعت من كافة أنحاء الهند من المال ما لم تجمعه جمعية أخـرى ، ولكن روى لنا أن تضاؤل شأن الخلافة العثمانية تضاؤلا أدى الى زوالها ، أيأس الكثيرين ممن اعتادوا البذل لهذه الجمعية ، حتى إنه كاد ينقطع ندى الأكف عنها ، وهاهى ذى اليـوم قائمـة فى مركزها العام فى (بومباى) يدير شئونها « مولانا شوكت على » ، ويقوم بأعمال السكرتارية فيها « مولانا عرفان » ، ولكنها غير بادية النشاط فى هذه الأيام .

هذه أمثلة فقط من نواحى نشاط المسلمين التعاوني ، وقد ذكرنا بعضاً من تلك الجمعيات المنتشرة فى طول البلاد وعرضها ، ولو حاولنا حصرها ما استطعنا الى ذلك سبيلا .

(ب) جمعيات تقوم بتبليغ الاسلام بين الطوائف غير الاسلامية :

أهم هذه الجمعيات وأعظمها نشاطاً هى « أنجمان تبليغ الاسلام » بأمبالا ، وهى جمعية عظيمة النشاط فى أعمال التبليغ ، ولا يقتصر نفوذها على إقليم البنجاب الذى ظهرت فيه ، بل يتعداه الى معظم أنحاء الهند .

ولها فى حركة إسلام المنبوذين نشاط يذكر ويشكر ، فقد ساهمت بقسط وافر من النشاط والمال فى « ترافنكور » ، وأسست مركزاً من مراكز التبليغ له شان عظيم فى « ناجبور » .

ومن أهم شخصيات هـذه الجمعية : الأستاذ غلام بهيج نيرانج ، وهو محام أمام المحـكمة العليا فى لاهور ، وعضو فى الجمعية التشريعية المركزية فى دلهى ؛ وهو حركة دائمة لا يستقر فى مـكان واحد بضعة أيام ، ويجوب بلاد الهند من أقصاها الى أقصاها مرات فى كل عام ، وهو شخصية لا يقوم بينه وبين الحـكومة المركزية عداء .

الجمعية الأحمدية : أما الجمعية الأحمدية اللاهورية ، فهى من أنشط الجمعيات دعاوة للاسلام فى خارج بلاد الهند ؛ ويقول مؤسسوها إنهم يدعون الناس الى اعتناق الدين الاسلامى ، مع عدم التمييز بين مذهب وآخر ؛ ولـكنهم فى داخل الهند يبشرون بمبادئهم الأحمدية اللاهورية ، فيستهدفون لغضب الجماهير وسخطهم .

نواب محمد يارجنج : وفى حيدر آباد رجل يعمل بمفرده ما تعمله الجمعيات ، هو «نواب محمد يارجنج» الذى يقوم بالتبليغ بين المنبوذين فى القرى ، ومع قصر عهده بهذا العمل الجليل ، فقد أبلى فيه بلاء حسنا . ويعتبر عمله فى حيدر آباد قاعدة لأعمال التبشير المستندة الى المال ، وهو يبذل بسخاء فى هذه السبيل من ماله ، ومما يرد إليه من الموسرين الخيرين .

محمود فاندرمان : ويقوم الى جانبه مبلّغ خطير الشان هو « محمود فاندرمان » . كان مسيحياً وأسلم بعد أن كان آباؤه وأجداده من المبشرين المسيحيين . وقد ورث عنهم التفنن فى أعمال التبشير ؛ فيطبق العلم على العمل بمهارة جعلته محط أنظار الـكثيرين ، ولهذا فان عمله منظم ، ويصلح أن يـكون نواة لعمل كبير ، لا فى بلاد حيدر آباد وحدها ، بل فى غيرها من أنحاء الهند أيضا .

أما ناجبور ، فانها مركز من مراكز العمل المنتج ، يقوم فيها ثلاثة من كبار الدعاة للاسلام بين المنبوذين :

١ — « فضل الحق صاحب » ، ويقضى أوقات فراغه فى مناطق المنبوذين حيث افتتح مدرسة لتعليم أبنائهم ؛ وهو شديد الغيرة على الاسلام ، وله عقلية منظمة ، ويستطيع أن ينتج إنتاجا مضاعفا إذا وجد تشجيعاً من أى نوع كان .

٢ — الأستاذ « فضل رحيم » المحامى ، وهو كذلك من المعنيين بشئون المنبوذين ونشر الدين الإسلامى بينهم ، وله علاقة طيبة بزعماء المنبوذين فى هذه المنطقة ، ولـكنه أنفق كل ما كان مدخرا لديه على قلته فى هـذا العمل ، وأصبحت موارده أضيق من أن تساعده على الاستمرار ، لا سيما وأن حاله النفسية قد تطرق إليها الملل من سلوك الدكتور أمبيدكار ، الذى كان فضل رحيم يعلق على إسلامه أهمية كبرى .

٣ — « أسرار أحمد » ، وهو حكيم من خريجى ندوة العلماء ، ذهب الى ناجبور مدرساً بمدرستها الإسلامية ، ولـكنه ما لبث أن عنى بشئون الدعاوة الإسلامية ، وله صلات طيبة بأكابر

القوم ، ويرجى منه النفع العميم ، إلا أن موارده الآن تضيق عن القيام بما ندب نفسه له من عمل خطير .

هذا قليل من كثير من نواحى النشاط فى أعمال التبليغ ، ولكنك أينما تسير فى الهند تجد الكثير من هذه الجمعيات .

إلا أن التعامل مع بعضها ، وخصوصا الصغيرة منها ، يستلزم اليقظة والحذر ، إذ ما من عمل من هذا النوع ، إلا وقد دخل فيه المحترفون ، والذين يعلنون عن أنفسهم ، ويقولون أكثر مما يفعلون .

أعمال البعثة :

١ — العمل على التوفيق بين علماء الدين والعلماء المدنيين :

ما كدنا نتزل الى بلاد الهند حتى تجلت لنا الفرقة المؤلمة بين علماء الدين والعلماء المدنيين ، وقد حاولنا أن نرجع هذا الخلاف الى أصوله فاتضحت لنا الحقائق الآتية :

التعليم الدينى والتعليم المدنى منفصلان بعضهما عن بعض أتم انفصال ؛ ذلك بأن الحكومة قد قررت — نظراً لتعدد الأديان فى الهند تعدداً لا مثيل له فى أية بقعة أخرى على سطح الأرض — ألا يدرس الدين فى المدارس بكافة أنواعها ؛ فاذا خرج الطفل الى المدرسة وجب على ولى أمره أن يختار له إحدى طريقين : إما تعليم مدنى لا يعرف فى ثناياه شيئا عن الدين ، وإما تعليم دينى يبعد به كل البعد عن وظائف الحكومة .

وبدهى أن اختيار معظم أولياء الأمور يقع على النوع الأول من التعليم ؛ حتى طال الزمن على ذلك ، فتولى شئون الحكم فى الهند طبقة من خريجى الجامعات المدنية التى لا تمت الى الدين بصلة ، وبقى خارج كراسى الحكم أولئك الذين تخرجوا فى الجامعات والمدارس الدينية ، واستحوذ الفريق الأول على النفوذ الزمنى ، فى حين استحوذ الفريق الآخر على النفوذ الروحى . وكان من رعايا الفريق الأول عامة من تربطهم بشئون الحكم رابطة ، أما رعايا الفريق الثانى فهم عامة الشعب .

عندئذ دب التنافس بين الفريقين ، وحقد كل منهما على الآخر ، فاستحكمت العداوة بينهما ، ثم تولدت البغضاء بانصراف كثير من رجال الفريق الأول عن شئون دينهم العلنية : كالتردد على المساجد ، وأداء فريضة الحج وغير ذلك ، فاستهدفوا لطعن الفريق الثانى الذى تمادى فى التشهير بالفريق الأول ، حتى رمى الكثير من رجاله بالكفر والزندقة .

ثم نشأت الأجيال الجديدة بعد ذلك على ما يلقنه رجال العلوم الكونية لتلاميذهم

من الحقد على رجال الدين ورميهم بالقصور وضيق الفكر ، كما نشأ على أيدى العلماء الدينيين جيل أشرب كراهة الطلبة المدنيين ، لظاهر انصرافهم عن شئون الدين .

ولو حاولنا أن نتتبع أدوار هذا الجدل العنيف بين الفريقين لطال بنا البحث . على أن بعضا من عقلاء المفكرين رأى أن العلاج الوحيد لهذه الحال لايأتى إلا بأن ينشأ جيل جديد يكون وسطا بين الفريقين ، وذلك بأن يعطى طلبة الجامعات المدنية بعضاً من علوم الدين ، وينشأوا على القيام بواجباتهم الدينية فى السر والعلانية ، وأن ينشأ كذلك فى الجامعات الدينية نظام يجمع فيه الطالب الى علوم الدين بعضا من العلوم المدنية ؛ وقد تحقق المقصد الثانى فى « دار العلوم ندوة العلماء » فى لكنو .

ولما وصلت البعثة الى الهند ، وهالها ما رأت من الفرقة بين الفريقين ، رأت أن تكون باكورة أعمالها إلقاء المحاضرات والتحدث فى المجالس الخاصة على الضرر الذى يصيب الاسلام من هذه الفرقة ، وأنه من صالح كل من الفريقين أن يصالح الفريق الآخر بالتساهل معه .

ومن أشد ما لاقيناه من هذه الصعوبات أن الرجال المدنيين يرمون علماء الدين بأنهم منقسمون على أنفسهم شيعا يكفر بعضها بعضا ، وأنهم هم السبب الأساسى فيما أصاب المسلمين من تفرق ، كما قالوا لنا إنهم مستعدون لمصالحتهم إذا صفت نفوسهم ، وظهر استعدادهم بالتغاضى عن الصغائر .

أما العلماء الدينيون فقد كنا نظهر لهم مزايا هذه المصالحة ، وندلل لهم على أنه لا غنى لطالب الدنيا عن الدين ، ولا غنى لعالم الدين عن جهود عالم الدنيا .

وإنا لنعتقد أننا قد نجحنا فى هذا بقدر ما اتسع له وقتنا ، وفى رأينا أن الأزهر إذا فكر فى إرسال مبعوثين الى الهند ـ سواء أكانوا لأعمال التبليغ أم لتدريس اللغة العربية والدين الاسلامى فى بعض المدارس والجامعات ـ فأول واجب يقع على عاتق هؤلاء ، هو أن يبشروا بهذا الرأى الذى كان نبراس الجامعة الأزهرية فى حياتها الجديدة .

٢ ـ العمل على إزالة الفوارق بين طوائف المسلمين :

وثمة ظاهرة أخرى فى الهند خليقة بالتفكير ، تلك هى الفرقة السائدة بين علماء الدين بعضهم وبعض . وقد سبق الكلام على المذاهب والشيع فى الهند ، ومقدار ما للنزعة المذهبية من أثر فى تكوين عقليات الجماهير وطرق تفكيرهم ، حتى إن أصحاب كل ملة أونحلة لاهمّ لدى أتباعهم ومريديهم إلا الطعن على أصحاب الملل والنحل الأخر ، كائناً من كان معتنقها . وقد حاولنا استقصاء الأسباب المؤدية الى ذلك ، فهالنا ما سمعنا والعهدة على الرواة :

يقولون : إن وظيفة « مولوى » فى الهند تعود على صاحبها بالخير الجزيل والرزق الوفير نظراً للاستعداد الفطرى عند العامة للجود بما ملكت أيمانهم عن طيب خاطر لأول طالب يطلبه باسم الاسلام ؛ لذلك حاول هؤلاء المولوية الاستئثار بأتباعهم خالصين لهم فنفروهم من المولوية الآخرين بالطعن فى الشيعة أو المذهب المخالف ، وبذلك أصبح الاسلام فى الهند مجموعة من المذاهب لاتربطها رابطة .

هذا ما رواه لنا الرواة ، أما ما أسفرت عنده محادثاتنا مع من قابلنا من هؤلاء المولوية ، فتصغير لشان هذا الخلاف وتكذيب لما ترامى إلينا من أنبائه ؛ إلا أن الظواهر قد دلت على أن الخلاف قائم لا محالة ، وهو من التركز بحيث يصعب على أمثالنا ممن لهم وقت محدود أن يعملوا فيه عملا حاسما .

وأقرب ما يحضرنا من أدلة على هذه التفرقة المشئومة ، ما رأيناه فى مدرسة « السند » الاسلامية بكراتشى ، وهو وجود مسجدين داخل أسوار المدرسة : أحدهما للشيعة ، وثانيهما لأهل السنة .

وقد قال لنا ناظر المدرسة ، وهو انجليزى ، عند ما تحدثنا إليه فى شأن هذه الفرقة فى دور العلم ، التى يجب أن تعمل على وحدة التفكير بين طلبتها ومدرسيها : « إن وجود مسجدين فى دار هذه المدرسة ، كان تنفيذاً لارادة الواقفين ، وإن الطلبة يعيشون مع بعضهم فى سلام ووئام ، لايفصلهم إلا وقت الصلاة وتنوع المساجد » .

غير أننا ما أردنا أن نضيع الفرصة ، فما ضمنا مجلس مع فريق من هؤلاء إلا ضربنا له الأمثال بما جبلت عليه بلادنا العزيزة من تسامح بين أصحاب المذاهب ، وكم من مرة أشدنا بذكر طريقة تدريس الفقه فى الأزهر الشريف ، وكيف أن طلبة الجامعة الأزهرية على اختلاف مذاهبهم تضمهم صلاة جماعة واحدة ، ويؤمهم إمام واحد ، بل كم كان جميلا أن نذكر لهم أن فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وهو سنى بالطبع ، قد استقبل الشيخ عبد الكريم الزنجانى ، وهو من أئمة الشيعة ، فأكرم وفادته ، وعنى به العناية كلها ؛ بل عند ما كانت تقوم الصلاة كان أحدهما يصلى مؤتما بالآخر ، لا فرق بين سنى وشيعى .

وقد تقدم إلينا كثير من ذوى الرأى ، بأن مبعوثى الأزهر إلى الهند فى المستقبل ، يجب أن يركزوا جهودهم فى تنوير الجماهير عن عدم وجود فارق جوهرى بين المذاهب على النحو الذى يبثه المولوية الحاليون ؛ ففى ذلك لجمهور المسلمين خدمتان : الاولى دينية بحتة ، وهى رد الاسلام الى أصوله فى نفوس الجماهير ، أما الثانية فوطنية ، هى لم الشعث وتكوين الصفوف بما يعود على الأمة بالفائدة .

٣ — تنظيم البعثات الهندية الى الأزهر :

وقد كان من اهم ما عنينا به محادثة زعماء البلاد ، وقادة الحركة العلمية فيها ، ورجال الحكومة ، بشان البعثات الهندية الى الأزهر . وقد دلت تحرياتنا على أن كثيرا من خيار الناس فى الهند ، كانوا يجهلون أن لبلادهم طلبة فى الأزهر ؛ فى حين كان آخرون يقولون إن هؤلاء يسافرون الى مصر ، ويعودون الى بلادهم ولم يطبعوا بطابع خاص من الثقافة ؛ على حين كان آخرون يألمون من أن الطلبة الذين يفدون الى الأزهر تطول إقامتهم فيه لغير سبب ظاهر .

أما نحن فقد أطلعناهم على جلية الأمر بشأن هؤلاء الطلبة ، وكيف أن كثيرا منهم لايستفيدون من الدراسات الأزهرية ، نظرا لضعف استعدادهم العلمى ؛ كما أن البعض منهم ينصرف عن شئون الدراسة الى غيرها ، نظرا لضعفهم الخلقى ؛ فى حين أن فريقا ثالثا يعتقد أن مقامه بالأزهر الذى يدر عليه بعض الاعانات الشهرية ، خير له من العودة الى بلاده التى يحتمل ألا يجد فيها عملا يعيش منه .

هذا الى أن الكثرة المطلقة من الطلبة الغرباء يختارون لدراستهم نظام « الغرباء » وهو نظام قلما يكفل التثقيف الأزهرى الكامل .

وبعد محادثات شتى ، استقر الرأى على ضرورة تنظيم هذه البعثات ، وهنا عرضت علينا مجموعة الآراء الآتية :

(ا) أن يوكل الى بعض رؤساء المؤسسات الاسلامية العلمية بالهند فرادى ، تزكية طلاب الانتساب الى الجامعة الأزهرية ، على أن يرشحوا عددا يحدد بالاتفاق بينهم وبين الأزهر ، وعلى أن يعلن عن التسهيلات التى يمنحها الأزهر لهؤلاء الطلاب ، وعن المستوى العلمى المطلوب . بهذا يتسنى للازهر أن يحصل على طبقة من الطلبة أنفع من الطلبة الحاليين ، وكذلك تنتفع الهند بأعمال هؤلاء عند عودتهم الى بلادهم .

(ب) أن يقع اختيار الأزهر على عدد من كبار رجال التعليم فى الهند ؛ فيكون من بينهم لجنة تسمى « لجنة الترشيح للازهر » ، وعلى هذه اللجنة أن تتلقى طلبات الراغبين فى الانتساب الى الأزهر ، فتفحص هذه الطلبات وتزكى من أصحابها من تشاء .

(ج) أن يشترط فى طالب الانتساب الى الأزهر الحصول على توصية كتابية من رجل من رجال الفكر فى الهند ، ممن قامت بينهم وبين الأزهر صلة عن طريق هذه البعثة ، وألا ينظر الأزهر فى طلب ليس مشفوعا بمثل هذه التزكية .

(د) أن يوكل الى الحكومات الاقليمية فى الهند ، أن تكون واسطة الاتصال بين

الأزهر وطلاب الانتساب إليه ، ففى ذلك أمان للأزهر من أن يرد إليه من يعتبرون خطراً على النظام العام .

وفى رأينا أن الأزهر يستطيع بعد فحص هذه الاقتراحات أن يصل الى قرار فى هذا الشأن ، يكون من ورائه فائدة لكل من الأزهر والهند .

٤ — تأسيس علاقات صداقة بين الأزهر ورجال الهند الممتازين :

وقد كان سفر البعثة الى الهند فرصة سانحة لتأسيس علاقات الود والصداقة بين الأزهر من ناحية ، و بين رجالات الهند الممتازين من ناحية أخرى ؛ فلقد مدت البعثة يد الصداقة الى زعماء الحركة الفكرية والعلمية فى تلك البلاد ، فآنست منهم إقبالا على صداقة مصر يجدر بنا أن نعنى به أشد العناية .

وإنا لنتشرف بأن نلحق بهذا التقرير كشفا بأسماء هؤلاء الأصدقاء ، راجين أن تدوم المراسلات بينهم وبين الجامعة الأزهرية .

وحبذا لو عنينا ، كلما حضروا الى مصر ، باطلاعهم على الأزهر فى ثوبه الجديد ، وما يقوم به من خدمة شاملة للدين واللغة ؛ ففى ذلك توطيد لعلاقات الود التى بدأتها البعثة ، ومساعدة على نشر الثقافة الدينية فى الأقطار الاسلامية .

ومن بين هؤلاء فريق من رجال العلم يجدر بمصر على العموم ، والأزهر على الخصوص أن ينتفع بالأيام التى يقيمونها فيها ، فيدعوهم لالقاء المحاضرات على الطلبة المصريين فى شئون الهند ، مما يعود على كل من البلدين وأهله بالخير .

هذا ولا مندوحة عن القول بأن الهند ومصر بلدان يشتركان فى كثير من الشئون ، والاسلام صلة رحم بينهما . ولا يستطيع إنسان مهما يكن له من سعة الاطلاع وبعد النظر ، أن يتكهن بالنتائج الثقافية والدينية التى تثمرها هذه الصداقة ؛ ولنا فيما تقوم به الجامعة المصرية نحو ضيوفها الأجانب من الغربيين خير مثل على صواب ما نذهب إليه .

وحبذا لو استطاع الأزهر الشريف أن يمنح درجة العالمية الفخرية لفريق من رجال الهند الممتازين ؛ فان فى ذلك تقوية لأواصر الصداقة بين الطرفين ، وحفزاً لفئة من أفاضل الهنديين للاقبال على هذه الصداقة ؛ وإن لمثل هذا التصرف النبيل من الأزهر أثره فى عواطف الهنديين عامة ، ورجال العلم منهم خاصة .

(يتبع)

إمساكية شهر رمضان المعظم :

أهدانا حضرة الوجيه النابه الشيخ على حسن عاصى من دمنهور إمساكية لرمضان هذا العام بديعة النقوش مذهبة الجداول كأحسن ما وقعت العين عليه من نوعه مما يدل على ارتقاء صناعة الطباعة والتلوين بمصر . وقد جعلها كراسة مصدرة بأحاديث شريفة ، وجعل على رأسى صحيفتى الشهر آية الصيام مكتوبة بخط أبيض جميل على سطح أزرق يروق البصر . جزى الله ناشرها أحسن الجزاء .

أناشيد دينية :

نشر حضرة الشاعر الألمعى المطبوع محمود افندى أبو الوفا رسالة فى ٢٥ صفحة ضمنها قصائد دينية بهذه العنوانات ، النشيد الدينى لجلالة الملك فاروق الأول ، النشيد الأول : الله ، والثانى : الصلاة ، والثالث : الصيام ، والرابع : الزكاة ، والخامس : ليلة القدر ، والسادس : الحج ، والسابع : الهجرة ، والثامن : مولد النبى ، والتاسع : الاسراء ، والعاشر : العروبة .

وقد أحسن شاعرنا الرقيق بما صنع كل الاحسان، فليس لدينا من الأناشيد الدينية إلا ما عمله بعض من لا يحسنون القول ، فجاء عملهم مشوبا بالخرافات فى قوالب تعتبر وصمة على اللغة العربية ، ولكن الأناشيد التى نحن بصددها قد خلت من كل شائبة خرافة أوغلو ، واستوعبت ما يجول فى الصدور من شئون الدين الكبرى ، وصيغت فى قالب يستثير العاطفة الدينية ويملأ الصدور حنينا الى السماء ، وتهياما بعالم الروح . ويحسن بنا أن نعطى القارئ نموذجا مما قاله فى الصوم :

الصوم يزكى أنفسنا   هيا بالصوم نزكيها
الصوم ينقى أنفسنا   هيا بالصوم ننقيها
يزكيها
فيحررها   حتى تأبى رِق المتع
ينقيها
فيطهرها   من ميل النفس الى الطمع
وعلاج النفس من الطمع   يشفى أمراض المجتمع

***

الصوم أتى للبشريهْ ليقوى فيها الحيويهْ
ويهيئها للحريه

***

شرع قد جاء به الله ليقول لنا ما معناه
حرية نفسك معناها أن تملك نفسك وهواها

***

الصوم يزكى أنفسنا هيا بالصوم نزكيها
الصوم ينقى أنفسنا هيا بالصوم ننقيها
يزكيها
ويعلمها ويعلمها طوع الأمرِ

ينقيها
فيقويها ويعودها حسن الصبر
عظماء الدنيا ما سادوا إلا بالصبر على المر

***

تعويد النفس على الألم وعلى الحرمان يقويها
الدنيا تشكو بالنهم هيا بالصوم نداويها
صوموا صوموا تشف الدنيا مما فيها

***

الصوم دوا الانسانيهْ من ضعف النفس البشريهْ
الصوم يقوى الحيويهْ ويهيئها للحريه

الماضى الحى — أو : بيير وجان :

هى قصة تحليلية تأليف القصصى المشهور (جى دوموباسان) تعد من أحسن ما كتبه ، وهو معروف بدقة التعبير ، وحسن الايجاز ، والبيان الساحر ، وهو من طائفة الكتاب الواقعيين كاميل زولا وأشباهه .

وقد وقع اختيار مجلة الهلال على هذه القصة فجعلتها ملحقا لها ، وقد أحسنت فى الاختيار فان هذه الرواية شائقة ذات حوادث أخاذة للعقول تسحر المطالع وتلذه . فنشكر لدار الهلال هديتها ، ونرجو لها النجاح فيما هى بصدده من نشر العلم والآداب الرائعة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الروح الاسلامية ومدى تأثيرها

فى النفس البشرية

— ١٠ —

المقومات التعاملية

تتالف الجماعات البشرية من طوائف مختلفة ، من طبقات شتى ، ومنها ما يدين بأديان غير دين الكثرة ، تحتاج فى إقامتها الى مؤسسات لتأدية العبادة ، والى معاهد لتربية النابتة ، فلم نر فى الأمم أمة جرت من هذا التخالف على سمت يرضى الانصاف والعدل ، ويوفى حق الانسانية والمروءة ، غير المسلمين ، من أول ما خلق الله الخلاف بين الناس الى اليوم .

بدأ الناس حياتهم الاجتماعية لا يطيقون من يخالفهم ، فكانوا يقتلون الاجنبى كائنا من كان ، وقد دفعتهم هذه الضراوة الى قتل كل غريب عنهم كما يقتلون الهوام السامة ، وقد بقيت هذه العادة الى عهد الرومانيين ، وقد قامت دولتهم قبل الميلاد بنحو سبعمائة سنة . فكان الأجنبى أو المتجر لا يستطيع أن يضع قدمه فى أية بقعة من بلادهم المترامية الأطراف إلا إذا دخل تحت حماية وطنى رومانى ، وإلا قبض عليه وقتل ولا كرامة .

فاذا كانت أمة من عادتها أن لا تسرف فى إراقة الدماء ، اكتفت بأسر من ليس منها ، وحملته من التكاليف ما يهون عليه الموت فى نظره .

أشد ما لقيت الجماعات بعضها من بعض ، إذا كانت متخالفة فى الدين ، فان هذا التخالف لا يهوّنه شىء فى عرفها ، حتى ولا توقع الخطر على وجودها ، فهى لا تفتأ تثور على مخالفيها فى العقيدة وإن كانوا من بنى جلدتها ، غير مراعية عدلا ولا مرحمة . وهذا يرجع الى نوع التعاليم الدينية التى تلَقَّنها ، والى روح الحقد الذى يبثه القائمون على عقائدها فى روع العامة ضد الآخذين بالأديان الأخرى .

أما الاسلام فقد حسم مادة هذه النزعة الجاهلية بعلاج لا يُتصور أحكم منه . ذلك أنه صرح بأن الله لو أراد لجعل الناس أمة واحدة ، ولكنه خالف بينهم فى الميول والعواطف والمذاهب والعقائد لحكمة بالغة ، فقال تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم »

فالمسلم إذا قرأ هـذه الآية وعلم أن هذا التخالف مرادٌ لله تعالى سكنت نفسه الى الحق ، وسلم للخالق فيما أراد ، وسلك حيال هـذه المسألة مسلك الحـكيم الذى لا تدفعه أهـواؤه الى مجاوزة العدل .

فاذا تلا قوله تعالى : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين » ، أدرك أن الحـروب الدينية إنما شرعت فى الاسلام للدفاع عن الحوزة ، وللحصول على الحرية التامة فى تأدية الشعائر ، ولم تشرع لإبادة الأمم المخالفة واصطلامها ، كما حدث من الأمم غير المسلمة .

فاذا قرأ ما جاء عقب هذه الآية مباشرة من الـكتاب الـكريم وهو قوله تعالى : « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » ، عرف أن الحـكمة فى هذا النهى عادلة كل العدل ، فليس مما يعقل أن يتخذ قوم قوما أولياء وهم يقاتلونهم من أجل دينهم ، وقد أخرجوهم من بلادهم ، وأعانوا على إخراجهم . فالحـكمة فى مقابلة عدوانهم بمثله ظاهرة بحيث لا يختلف فى حقيتها اثنان فى هذا العالم .

أما فى غير هذا الموطن فان المسلمين عاشوا مع غيرهم من أهل الملل والنحل المتباينة على صفاء ووئام فى أنضر عصور الاسـلام ، فـكان يسكن المسيحى واليهودى والمجوسى بجوار المسلم فيتزاورون ويتهادون لا يفصلهم إلا المسجد والـكنيسة أو البيعة . كان غـلام لابن عباس يذبح شاة فقال له يا غلام : لا تنس جارنا اليهودى ، ثم كررها حتى قال له الغلام : كم تقول هذا ؟ فقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم قد أوصانا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه . فابن عباس بنص هذا الأثر كان مجاورا ليهودى ، وكان يهتم بالاهداء اليه كما يهتم بسواه مراعاة لحرمة الجوار . ومعنى ذلك أن الاسلام لايفرق فى مكارم الأخلاق وحقوق الاجتماع بين مسلم وأى مخالف كان، فالـكل فى نظره سواء .

فهذه العدالة فى تقدير حقوق المتعاشرين ، تؤسس المعاملة على قرار ثابت ركين ، ولا تدعها عرضة للزعازع ، فيسوء ظن المتعاشرين ، ويبيت بعضهم لبعض شر مايوسوس به الحقد الدفين .

إن للذين يبثون سموم التفريق بين الناس فلسفة خاصـة ، أساسها سوء الظن بالمخالفين فى الدين ، وقد تروج نظرياتهم فى أذهان السامعين ، وتبتنى على ذلك حوادث خطيرة تذهب فيها أرواح بريئة ، وتتأسس على هذه الحوادث ضغائن لا يخبو سعيرها ، يتوارثها الأبناء عن الآباء فى الأمة الواحدة ، فتكون مثارا لاضطرابات عنيفة .

لقد اتقى الاسلام على كل هذه القلاقل التى لا تناسب مدنية فاضلة لأمة كريمة ، فوضع للمعاملات أصولا ، وللمعاشرة آدابا ، لا تسمح بحال من الأحوال للامة التى تأخذ بها أن تثور

على طائفة من طوائفها تأخذ بدين غير دينها ، أو تحيف على طبقة من طبقاتها الضعيفة . وقد دل تاريخ المسلمين على هذه الحقيقة . ففى عصر الصحابة رأينا أن النظام الذى وضعه الاسلام يسمح للمخالف فى الدين ، أن يقاضى أرفع رأس فى المسلمين وأن ينتصف منه ، وشاهدنا أن ذلك النظام نفسه يمنح للمستضعفين، من الأرقاء والمحرومين، أن يطالبوا بحقوقهم من الكبراء والأعلين ، فسمعنا أن يهوديا شكا على بن أبى طالب لحكم بينهما عمر بن الخطاب ، وأن أرقاء شكوا ساداتهم لحكم لهم عليهم .

فهذه الروح الاجتماعية المطمئنة ، لأمة اختارها الحق لتطبيق العدل المطلق الطبيعى ، وبناء صرح الاجتماع العالمى ، ثمرة التعاليم الاسلامية الحكيمة ، والسيرة النبوية القويمة .

أما التعاليم الخاصة بهذا الشأن ، فمنها الآيتان اللتان اقتبسناهما آنفا ، وفيهما نص على وجوب معاملة الأجانب عن ديننا بالعدل ، وإسداء البر ، والبر فوق العدل ، فهو لا يأتى إلا من العطف والحنو وإرادة الخير . فلا يعقل أن تسىء أمة الى طوائف أمرت أن تعاملها بالعدل ، وأن تزيد عليه فتسدى اليها البر .

ومن تلك التعاليم الحكيمة قوله تعالى : « ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين ، أن اشكر لى ولوالديك ، الىّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب الى ، ثم الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون » . فى هذه التوصية يسوى الحق سبحانه وتعالى بين الوالدين المؤمنين والوالدين المشركين ، فى وجوب الاحسان اليهما والبر بهما . ولا يصادَف مثل هذا السمو التعليمى فى أى مصدر علمى غير القرآن ، ولا فى أى مذهب اجتماعى سوى الاسلام .

ومن تلك التعاليم الكريمة قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » . فى هذه الآية الشريفة يتجلى السمو الاسلامى فى أكمل مظاهره . فان الاسلام ينهى عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالطريقة التى هى أحسن الطرائق ، أى مع مراعاة البر والعطف ، وملاحظة أصول الأدب والظرف ، ويستثنى الذين ظلموا منهم بالافراط فى التعدى ، فأولئك يعاملون بما يناسبهم على مقتضى قواعد العدل ، كما وصى بذلك فى آيات كثيرة منها قوله تعالى : « ولا يجرمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » أى ولا تحملنكم عداوتكم لقوم على أن لا تعدلوا معهم ، كلا ! اعدلوا حتى مع أعدائكم فان العدل من خلق أهل التقوى .

ومنها قوله تعالى : « اليوم أُحل لكم الطيباتُ ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حِل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ،

إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ، ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » ، وليس فوق المؤاكلة والمصاهرة من داعية للتحابّ وحسن المعاشرة ، والاخلاص فى المعاملة .

وأما السنة المأثورة عن النبى صلى الله عليه وسلم فهى أنه كان يوادّ أهل الكتاب ، ويزورهم ويقبل زياراتهم ، وكان يحضر ولائمهم ومآتمهم ، ويشيع جنازاتهم ويعود مرضاهم ، ويكرمهم ، حتى قيل إنه لما زاره وفد نصارى نجران فرش لهم عباءته وأمرهم بالجلوس عليها . وأمر من كان له أب أو أم أو قريب أو زوجة منهم أن لا يمنعهم إقامة شعائرهم ، والتردد على كنائسهم ، وأن لا يرهقهم بتشكيكهم فى ملتهم . وهذا نهاية ما يستطيع أن يقرره مشترع مدنى . فاذا كان الاسلام منع تزويج المسلمة بغير مسلم ، فذلك لعدم وجود مثل هذه الوصايا من التسامح فى سائر الأديان ، بل فيها ما يدفع الى ضده . فأى قاض فى أية محكمة ملية يحكم على زوج بالسماح لامرأته فى التردد على كنيستها ، ويعاقبه إن لم يسمح لها بذلك ، كما تفعل كل محكمة شرعية إسلامية ؟ وما دامت هذه الضمانات غير موجودة فى تشريعات الأديان المختلفة ، فلا حرج على المسلم أن يضن بابنته على أهل ملة يرون البر كل البر بأديانهم أن يمنعوها من تأدية شعائرها ، وأن يفتنوها فى عقائدها .

هذه فذلكة من مذهب الاسلام ، فى إقامة المعاملات على أصول راسخة من الحكمة ، وسعة الصدر ، وبعد النظر ، والاعتداد بمصلحة الجماعة ، وقد اخترنا أن نأتى بها فى حق المخالفين فى الدين ليكون أبلغ فى الدلالة على سمو تعاليم الاسلام ، وأصالتها فى الحرية .

أما ما قرره الاسلام من الأصول التى تقوم عليها المعاملات على وجه عام بصرف النظر عن اختلاف الأديان ، وتباين المذاهب ، فهى مما لا تتسع لتفصيل الكلام فيه مقالة فى مجلة ولا مجلة برمتها . فان منها ما يتعلق بحسن الزمالة للخلق كافة ، وبالقيام بحقوق الأخوة للمؤمنين خاصة ، ومنها ما يتصل بتحديد حقوق النفس وحقوق الغير ، وما يختص بالاستقامة ، والعدل ، والتفضل ، والرحمة ، والاحسان ، مما يقيم المعاملات على أساس محكم بحيث يصبح مع الزمن طبيعيا فى الجماعة الآخذة بالاسلام .

وقد دل تاريخ المسلمين من أول نشوئهم الى اليوم ، أنهم كانوا من ناحية المعاملات فى حدود المثل الأعلى ، ليس فيما بينهم فحسب ، ولكن فيما بينهم وبين الأجانب عنهم ، فقد قدسوا مبدأ حسن المعاملة حتى قرر حكماؤهم أن الدين المعاملة . وهذه كلمة لم تؤثر عن غيرهم من الأمم .

وقد عايش المسلمون فى جميع أدوارهم أصحاب الملل المختلفة ، فلم يرو عنهم أنهم اضطهدوهم ، أو تهضموا حقوقهم لحملهم على الاسلام ، اللهم إلا فلتات من قادة متحمسين ، خطأهم ونعى عليهم سيرتهم علماء الدين نفسه ، وكانت مدتهم كسحابة صيف لم تلبث أن انقشعت ، وقد لقى المسلمون أنفسهم منهم أكثر مما لقيه سواهم من الأجانب عنهم .

ناهيك أن جماهير من أهل الملل هاجروا الى بلاد المسلمين هربا بأديانهم من الأمم الأجنبية ، فأكرم المسلمون وفادتهم ، وعلى رأسهم خلفاؤهم وقادتهم ، وقربوا علماءهم واتخذوا منهم المترجمين ونقلة العلوم الى العربية ، وجعلوا منهم أطباء خصوصيين لهم ، وأغدقوا عليهم الأموال والجوائز ، حتى كانوا يضارعون أمراء المسلمين فى معايشهم . وسمحوا لهم ببناء الكنائس والبيع ، وعاملوهم والمسلمين على حد سوى .

وفى السنين المتأخرة كانت طوائف من اليهود تلجأ الى بلاد المسلمين ، هربا من المذابح التى كانوا يتعرضون لها فى بلاد المتمدنين ، فكانوا يجدون من مجيريهم كرما وحسن رعاية ، حتى غصت ممالكهم بمئات الألوف منهم .

هذه الخصلة من حسن المعاملة ، هى معيار الحياة المدنية فى الأمم ، والمظهر الحقيقى لسمو نفسيتها ، ورسوخ ثقافتها . فأما إتقان الصنائع والفنون ، وكثرة المكتشفات والاختراعات ، التى يتخيل بعض السطحيين أنها حقيقة المدنية ؛ فليست منها فى شىء إن لم يصحبها نصيب معادل لها من المعاملة الحسنة والرفق والرحمة .

فهذه الميزة التى يتحلى بها المسلمون بفضل دينهم ، يجب عليهم المحافظة عليها ، وعدم الصبوء عنها الى خصال من التقاطع ، والتزاحم ، والأنانية ، مما يجدونها فى بعض الأمم الراقية ويظنونها من أخص معانى المدنية ، فاذا كان شىء يربط بين آحاد الأمم برباط لا ينحل ، ويجعل من مجموعهم وحدة لا تنفصم ، ويؤهلها للسمو الذى كتب للانسانية أن تصل اليه ، فهو حسن المعاملة ، فان لم يوجد أو شك أن ينهار بناء المجتمع ، ولا تغنى عنه العلوم العالية ، ولا الفنون الباهرة ، ولا القوى المدخرة .

محمد فريد وجدى

الشرف يتبع صاحبه

قال خالد بن صفوان : كان الأحنف بن قيس يفر من الشرف والشرف يتبعه .

وقد جمع عبد الله بن خليد خصال الشرف فقال :

يامن يؤمل أن تكون خصاله ... كخصال عبد الله أنصت واسمع
أصدق وعف وبر وانصف واحتمل ... واكفف وكاف ودار واحلم واشجع
والطف ولن واشتد وارفق واتئد ... واحزم وجد وحام واحمل وادفع
فلقد نصحتك إن قبلت نصيحتى ... وهديت للنهج الأسد المهيع

السُّنَّة

الدعوة الى الله تعالى وأهل الفترة

روى البخارى « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى بن أبى طالب فى غزوة خيبر : على رِسْلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام وأخبرهم بما يجب عليهم فوالله لَأَنْ يَهدىَ الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمْر النَّعَم »

يتعلق بهذا الحديث أمور : (١) بيان معناه (٢) هل تفترض الدعوة الى الله بالقول .

والبرهان قبل المنازلة بالسيف (٣) ما حكم من لم تبلغه الدعوة الى الله فهل هو ناج فى الآخرة أولا .

(٤) هل أبو النبى صلى الله عليه وسلم وأمه وأجداده ، من أهل الفترة الذين لم تبلغهم الدعوة الى الله أولهم حكم خاص بهم ، وما معنى النصوص الواردة فى هذا المقام ؟

(١) معنى الحديث ظاهر . وحاصله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا خيبر فى السنة السابعة من الهجرة ، وكانت خيبر مدينة عظيمة قريبة من مدينة يثرب يقطنها سراة اليهود ورءوسهم يومئذ ، وكانت محصنة بحصون تناسب ذلك الزمان ، فلما هاجمها المسلمون بدأ المعركة أبو بكر رضى الله عنه ولكنه لم يتمكن من حصونها ، فهاجمها فى اليوم التالى عمر رضى الله عنه فلم يتمكن من فتحها أيضا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . وفى الصباح طلب على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فقالوا له يارسول الله : إنه أرمد يشتكى مرض عينيه ، فدعا له الرسول فشفاه الله تعالى ، فأعطاه الراية ، فقال يارسول الله : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال له عليه الصلاة والسلام : على رسلك — أى على مهلك — حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم الى الاسلام وبيّن لهم ما يجب عليهم فإنهم إن اقتنعوا بذلك وهداهم الله تعالى على يديك كان خيرا من قتالهم ، وكان لك من الأجر ما تقر به عينك وتصبو اليه نفسك . وحمر النَّعَم معناه الابل الحمر ، وكانت عند العرب من أحب الأموال ، وقد تطلق النَّعَم على البقر والغنم أيضا .

(٢) أما الجواب عن الثانى فهو أن الدعوة الى الله بالقول والحجة الواضحة قبل استعمال العنف أمر لازم لابد منه ، فيفترض على كل من يتصدى لنصرة الدين الاسلامى أن يدعو المخالفين

الى الايمان بالله واليوم الآخر ، والإذعان الخالص بأنه واحد منزه عن التركيب والتحيز ، ومنزه عن مماثلة خلقه وعن كل ما لايليق به ، وأنه قد أرسل لعباده رسلا مبشرين ومنذرين يأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، ولا يسألونهم على ذلك أجرا ، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين قد جاء بكل الفضائل ونهى عن كل الرذائل فى كل زمان ومكان ، ثم يبرهن لهم على ذلك ببيان قواعد الدين الحكيمة وأحكامه القويمة الناطقة بأنه هو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فإن أبوا إلا الاصرار على الباطل ومناهضة الدعوة ووضع العقبات فى سبيلها ، كان من الضرورى مقابلة هذه الحالة بما يصون الدعوة ويحميها من العبث بها والقضاء عليها ، وإلا لما قامت لها قائمة . على أن الدين لم يحصر وسائل حماية الدعوة فى القتال ، بل اكتفى بأحد أمرين : إما النطق بالشهادتين ولو ظاهرا لأن علم القلوب عند الله وحده ولا سبيل الى التأثير على القلب بالاكراه كما قال تعالى « لا إكراه فى الدين » ، وإما دفع ضريبة خاصة تدل على خضوع المخالف وتسمى بالجزية . وذلك كان حالَ النبى صلى الله عليه وسلم فى جميع حروبه ، فلم يبدأ أحدا بالقتال إلا بعد أن يتأكد من عناده ، ويتحقق أنه وصلت اليه الدعوة فناهضها .

ومجمل القول فى هذا المقام أن للنبى عليه الصلاة والسلام مع خصومه حالتين :

الحالة الأولى : الحيلولة بينهم وبين مقاومة الدعوة الى الله ، وحماية تلك الدعوة بكل الوسائل التى تقتضيها النظم المناسبة لحال هؤلاء الخصوم بصرف النظر عما فى قلوبهم ، نخيرهم الله بين أمرين : الجزية ، أوالنطق بالشهادتين . فمن فعل ذلك كان له – فى هذه الحياة الدنيا – ماللمسلمين وعليه ماعليهم ، وإنما شرع الله ذلك لما فيه من بث الطمأنينة فى نفوس حماة الدعوة من جهة ، ولتكون عهدا بينهم وبين خصومهم من جهة أخرى ، بحيث لايجوز لهم أن يعتدوا عليهم بعد ذلك ، فإن أبوا كان القتال ضروريا .

ومن المغالطة الواضحة أن يقال : إن القتال هو الذى أرغمهم على الايمان ، فإنك قد عرفت أن الايمان ، وهو التصديق القلبى ، لا يمكن أن يوجد بالقوة ، فان المكره قد يقول بلسانه : آمنت ، وقلبه ممتلىء كفرا ونفاقا . وإنما القتال مكن للدعوة الى الله بصد المشركين عن مقاومتها والقضاء عليها .

أما الحالة الثانية : فهى القيام بالدعوة الى الله تعالى وتبليغ ما أمره الله به بالحجة والبرهان ليصدق الناس بقلوبهم بدون إكراه أو قتال . ولو أن المشركين تركوا رسول الله وشأنه فلم يقاوموا دعوته ولم يضطهدوه هو وأصحابه لما وقع بينه وبينهم قتال مطلقا ، لأن البراهين القاطعة والحجج الدامغة التى أيده الله بها خصوصا معجزة القرآن كانت كافية فى هداية الناس جميعا بدون شدة أو عنف . ولكنهم قد اضطهدوه هو وأصحابه فى مكة اضطهادا مرا حتى

أخرجوهم من ديارهم وأموالهم . وما كان ضرر اليهود بالمدينة وشرهم على الدعوة الى الله أقل من ضرر المشركين بمكة ، فانهم لم ينفكوا عن التآمر على إيذاء المسلمين سرا وجهرا، حتى بلغت بهم الجرأة الى التآمر على اغتيال حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فاضطر رسول الله هو وأصحابه الى أن يدافعوا عن أنفسهم بعد أن أذنهم الله بالدفاع ، قال تعالى : « أُذِنَ للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا » .

من هذا كله يتضح أن الشريعة الاسلامية تجعل مدار بث الدعوة الى الله ونشرها على الحجة والبرهان ، وإنما شرعت القوة لحماية الدعوة من شر المعتدين عليها .

(٣) أما الجواب عن الثالث : فهو أن الذين لم تبلغهم الدعوة الى الله ناجون فى الآخرة ، فكما أنه لا يحل استعمال القوة معهم فى الدنيا قبل دعوتهم الى الله ، فكذلك لا يعذبهم الله فى الآخرة إلا إذا بلغتهم الدعوة . ولكن للأئمة فى هذه المسألة رأيان مختلفان : فأبو حنيفة يقول : إن شرط نجاتهم فى الآخرة أن لا يشركوا مع الله غيره لأن معرفة الله الواحد يكفى فيها العقل وإن لم ترسل الرسل . وهذا هو رأى الماتريدية . وقال المالكية : إن أهل الفترة الذين لم تبلغهم الدعوة ناجون وإن عبدوا الأوثان . وهذا هو رأى الأشاعرة . ولكننى أعتقد أن الأدلة تؤيد القائلين إن أهل الفترة ناجون ، لأن الله تعالى قال : « وما كنا معذِّبين حتى نبعثَ رسولا » وحمل الرسول على العقل بالنسبة لتوحيد الإله خروج على الظاهر المعقول بدون ضرورة ، فان الرسول إذا أطلق فى لسان الشرع كان معناه « الانسان الذى أوحى الله اليه بشرع وأمره بتبليغه » . والقرآن من أوله الى آخره على هذا . قال تعالى : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » . وقال : « ثم أرسلنا رسلنا تترى » . وقال : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » وهكذا . فإن استطاعوا أن يأتوا بكلمة رسول فى القرآن على غير هذا المعنى كان لهم بعض المعذرة . وذلك هو المعقول المطابق لسنن الله فى خلقه ، فإن الله سبحانه قد أرسل الرسل من بدء الخلق الى أن استقرت الشرائع وختمت بالشريعة الاسلامية التى لا تقبل الزوال ، بل قد جعل الله فى طبيعتها ما يجعلها تنمو وتزداد كلما تجدد الزمان لمكافحة الوثنية وتوحيد الإله . وليس من المعقول أن نقول إن الله قد أرسل الرسل لتبليغ الشرائع الفرعية وتبليغ أحوال الآخرة فقط ، أما معرفة الله الواحد المنزه عن كل ما لا يليق به فواجبة على الناس بطبيعتهم فعليهم أن يعرفوا ذلك من غير الرسل وإلا كانوا معذبين . إن مثل هذا الكلام غير معقول ألبتة لأنه ينقضه الواقع ، فإن أول شىء اهتم به الرسل هو توحيد الإله ، بل كان كل همهم فى التوحيد . ولولا ما أودعه الله فى الرسل من أسرار وقوى مؤثرة فوق طبائع البشر لما وجد على ظهر الأرض موحد ، اللهم إلا أفذاذ يعدون على الأصابع أمثال زيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة وكبار فلاسفة العالم . فهل يعقل أن الله العليم

بطبائع خلقـه يكلفهم بالتوحيد بدون إرسال رسل ؟ إن ذلك يكون قصرا لنعيمه على أفراد قلائل من خلقه ، وأين هذا من كرم الله ورحمته بعباده ؟ أين هذا من قوله « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » ؟ وأى دليل يخصص الآية بغير توحيد الإله ، فإن الله سبحانه جعل للناس الحجة عند عدم إرسال الرسل سواء أ كان ذلك فى العقائد أم فى غيرها .

ومن القريب فى هذا المقام أن مقاومة الرسل ما كانت إلا فى توحيد الإله ، فإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ولوط وهود وصالح وشعيب وغـيرهم لم يضطهدهم قومهم إلا من أجل التوحيد ومعرفة الإله ، ولم يظهر جهادهم إلا فى توحيد الإله . ونظرة واحدة الى كتاب الله الـكريم تبين مقـدار عنايته بمحاربة الوثنية ، فقـد ملئ بالأدلة الـكونية ، وضرب الأمثال المحسة والحجج القطعية على وجود الإله ووحدانيته ، ومع ذلك كله فقد كانوا من أشد الناس عنادا وإصرارا وغفلة عن الإله ووحدانيته . فهل مثل هؤلاء كانت عقولهم كافية فى معرفة الإله ؟ ولم تكن أمة موسى أمثل من هؤلاء ، فإنهم بعد رؤية المعجزات الخارقة قالوا : يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة . وهكذا فى كل الأمم .

فالحق أن أهل الفترة ناجون فى الآخرة كما يقول الأشاعرة والمالـكية ، وبعض محقق الحنفية كالكمال بن الهمام ، وإن عبدوا الأوثان .

هذا وقد أوّل بعض علماء الحنفية قوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » بوجه آخر فقال : إن المراد بالعذاب عذاب الاستئصال فى الدنيا ، ومعنى ذلك أن الله لا يهلك الأمم فى الدنيا إلا بعد أن يرسل لهم الرسل ، فيضطهدوهم ولم يصدقوهم ، وعند ذلك يهلـكهم الله فى الدنيا ، أما عذاب الآخرة فإنه يقع على من مات مشركا ولو لم يرسل الله له رسولا .

أما أنا فأقـول : إن الآية تدل على عكس ذلك على خط مستقيم ، وإليك البيان :

قال تعالى : « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » فالله سبحانه قـد قصر هداية الشخص وضلاله على نفسه ، وظاهر أن المراد قصر ما يترتب عليهما من نفع وضرر ، فـكل ما يترتب على هداية المرء من منفعة ، وكل ما يترتب على ضلاله من ضرر ، مقصور عليه وحده . وإذا كان كذلك فهل يتحقق هذا المعنى فى الدنيا فقط أو فى الآخرة فقط أو فيهما معا ؟ أما أنا فلا أفهم إلا إنه يتحقق فى الآخرة فقط ، وذلك لأن منافع هـداية الناس واستقامتهم ليست مقصورة عليهم وحدهم فى الدنيا ، بل تتعداهم الى أبنائهم وأهلهم وعشيرتهم ، بل تتعداهم الى المجتمع ، وهذا واضح . وكذلك مضار الضلال ليست مقصورة على الضالين فقط ، فـكم صرع المضلون غيرهم وأوردوهم موارد الهلاك والفناء . وشر الضلال واضح فى تربية الأبناء والأهـل ، وآثاره ظاهرة فى المجتمع . وكذلك إذا قصرنا المنافع على ما يسوقه الله من خير ، فان الخير الذى يجىء

بسبب الصالحين لا يقتصر عليهم بل يعم غـيرهم ، والشر الذى ينزل بسبب الضالين لا يقتصر عليهم ، ولهذاقال تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

ومن هـذا يتضح أنه لا يفهم فى الآية إلا أن المراد بالمنافع الثواب الأخروى ، وبالمضار العذاب الأخروى ، ولذا قال تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخـرى » فهو تعالى يقول : كل واحد ينال جزاء عمله من خير أو شر . قال تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » فلا يعطى أحد ثواب عمل الآخر ، ولا يحمل أحد عقاب وزر صاحبه ، وكل هـذا فى الآخرة بدون نزاع ، أما فى الدنيا فإن صلاحها من أجل الصالحين يفيد غـيرهم من الفاسقين والـكافرين ، وفسادها بالخراب يؤذى أهلها سواء أ كانوا صالحين أم فاسدين . ثم بعد أن قرر الله ذلك أراد أن يظهر منته على عباده فقال عز وجل « وما كنا معذبين حتى نبعث رسـولا » فلا يؤاخذ الله الناس فى الآخرة بضلالهم ، ولا يعـذبهم على عقائدهم وأقوالهم وأعمالهم التى لا يرضاها إلا بعد أن يرسل لهم رسلا « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» فإن لهم أن يقولوا إننا لا نعلم أنهذه العقائد أوهذه الأقوال أوالأعمال لا ترضيك، فتـكون لهم المعذرة ، ولا يكون لله عليهم الحجة البالغة . ومن هـذا يتضح أن أهل الفترة ناجون ، وأن الدليل قائم على نجاتهم من كتاب الله ، وأن تأويل القرآن على أى وجـه يدل على أن الله لا يعذب أحداً إلا بعد إرسال الرسل .

(٤) أما الجواب عن الرابع فهو أن أبوى النبى وأجداده من أهل الفترة بلا نزاع ، وهم عباد مكرمون عند ربهم بلا نزاع ، أما ما نقل عن أبى حنيفة من أنه قال إن أبوى النبى غير ناجين فذلك مبنى على ما رآه من أن أهل الفترة غير ناجين . وقد عرفت أنه ضعيف ، وأن الدليـل قائم على خلافه .

ومع ذلك فإنه لم يثبت كون أبوى النبى وأجداده غيرموحدين ، بل بالعكس قد نقل كثيرمن الثقات أنهم كانوا يعرفون وحدانية الله تعالى من شريعة ابراهيم ، وكانوا يدينونبها ، وما قيل من أن هذا النقل ورد عن الرافضة وحدهم فهو غير صحيح ،لأن كثيرا من الباحثين الفضلاء نقل أنهم كانوا موحدين . وعلى فرض أن هذا القول ينسب لبعض الرافضة فإنه لا يضر، لأن هذه مسألة تاريخية يؤيدها العقل والمنطق السليم . فقد ورد أن نور النبى صلى الله عليه وسلم كان ينتقل فى الأصلاب والأرحام الطاهرة حتى وصل الى عبدالله وآمنة . وقد قص الله على أن المشرك نجس قال تعالى : « إنما المشركون نجس » فكيف يتنقل نور النبى فى الأصلاب التى حكم الله بأنها نجسة كنجاسة الخنزير . وأيضا فقد ذكروا أن آمنة كانت تزفها الملائكة ، وأن نور النبى كان يشرق فى جبين أبيه عبد الله . فهل المشركون تحفهم الملائكة وينزل الله عليهم من فيضه ما لم ينله أقرب المقربين؟ إن هذا تناقض واضح لا يليق . والذى أيد مثل هذه الشبهة الفاسدة ما رواه مسلم والبخارى

من أن رجلا من المسلمين سأل النبى عن أبيه الذى مات مشركا فقال له الرسول : إنه فى النار ، فامتعض الرجل وانصرف ، فاستدعاه النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : إن أبى وأباك فى النار . ونص الحـديث هو « أن رجلا قال يا رسول الله أين أبى ؟ قال : فى النار . فلما قفا دعاه فقال إن أبى وأباك فى النار » . ولا أدرى كيف يفهم مفكر من هذا الحديث أن المراد أبواه عليه الصلاة والسلام ؟ لأنه يقول للرجل الذى جزع لا تجزع لأن الذى لا يجيب دعوتى ولا يؤمن بى ويموت مشركا يدخل النار ولو كان أبا لى . وهو صلى الله عليه وسلم يريد بذلك أبا لهب لأنه يطلق على العم أب ، وقد أخبره الله تعالى بأن أبا لهب فى النار قطعا . وليس من المعقول المناسب أن يخبر بأن أبويه فى النار وهما لم يعارضاه فى دعوته ولم يرفضا ما جاء به ، لأنه لا فائدة فيه للناس ، وإنما فائدة هذا الإخبار زجر المشركين الذين يعارضون دعوته ويقاومونه ، فأبو لهب وهو أقرب الناس اليه عذبه الله بالنار لأنه أشرك بالله وقاوم الدعوة الى الله .

هـذا هو اللائق بفهم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلا فما ذنب أبيه وأمه حتى يخبر عنهما أنهما فى النار بدون فائدة ؟ فاذا ورد حـديث صحيح يجب أن يفهم فهما مطابقا لـكتاب الله تعالى المؤيد بالعقـل والمنطق ، ومن لم يستطع تأويله تأويلا معقولا يجب عليه أن يستمسك بكتاب الله ويقف مع الحديث موقف المفوض الذى عجـز عن التأويل . والله يعصمنا من الزلل ، إنه سميع الدعاء ؟

عبد الرحمن الجزيرى

من خير الأعمال التنفيس عن المكروب

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من فرج عن أخيه كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب الآخرة ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه » .

ويقال : من كفارات عظائم الذنوب إغاثة الملهوف والتنفيس عن المـكروب .

وقيل : أفضل المعروف إغاثة الملهوف .

ومن الأخبار التى تؤثر فى هذا الباب ما روى أن حاتما الطائى مر بأرض غزة فناداه أسير يا أبا سفانة أكلنى القـد والأسار والقمل . فقال له ما أنا بأرض قومى وقد أخطأت إذ نوهت باسمى ، ولا معى ما أفديك به . ثم قال للذى هو فى يده : خل عنه سبيله واجعلنى فى القد مكانه ، ففعل ، وبعث الى قومه فأتوه بما فدى به نفسه .

حدث جلل لا يمكن الصبر عليه

— ٣ —

كثرة البراهين على وجود الله

لعلك عرفت مما كتبناه ردا على ذلك الملحد أن وجود الله لدى العقل السليم أوضح الواضحات ، فان الأشياء الثابتة فى الوجود يمكنك أن تقيم عليها دليلا أو دليلين أو ثلاثة أو أربعة أو عشرة ، ولكن وجود الحق سبحانه وتعالى لا تقف الأدلة عليه عند حد ، فلا يقال إن له مائة دليل أو ألف دليل أو عشرين ألف دليل ، فان كل شىء فى الوجود دليل عليه وموصل اليه .

وقد قال أبو العتاهية :

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

وقال بعض العلماء فى قوله تعالى « وهو بكل شىء عليم » : إن عليما هنا بمعنى معلوم ، فيكون المعنى : إن الله معلوم بكل شىء من الأشياء ، فان كل شىء يعطيك العلمَ به والدلالةَ عليه . وإذا كان وجوده تعالى أوضح الواضحات ، وكانت براهينه قد ملأت الأرضين والسموات فخرجت عن الحد والعد، كان منكر وجوده أعظم المجانين، وأحط المساكين، يرثى له ويبكى عليه ، فان من صادم برهانا واضحا حكمنا عليه بالاختلال والاعتلال ، فكيف من خالف مالا يحصى من البراهين ، فضلا عما تنادى به فطرته التى أخمد صوتها وأمات ضميرها ؟

يشكون والايمان ملء قلوبهم ... ويبدون ما تلك القلوب تكذبه

« أفى الله شك فاطر السموات والأرض » . « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » ، ولكن هؤلاء محبوسون فى سجن الماديات قد أحاطت بهم الظلمات ، فلا يعرفون إلا المكيفات ، ولا يعترفون إلا بالمحسوسات . وكان عليهم أن ينكروا أرواحهم فانها ليست بمحسوسة ، ولا يصدقوا عقولهم فانها ليست بمحسوسة ، وكل مالم يقع عليه الحس عندهم فليس بموجود . (فلا أدرى كيف يناضلوننا بما لا وجود له عندهم ، وكيف يثقون بتلك العقول وهى لا تنتمى الى المادة بنسب ولا تمت إليها بسبب !) . فان المادة فى ذاتها بريئة من الحياة فضلا عن العقل والادراك ، وفاقد الشىء لايعطيه . فمن أين جاء العقل والادراك وليس هناك إلا المادة الصماء البكماء العمياء على ما يزعمون ؟

ولقد صدق باكون أحد أساطين علم الطبيعة حيث يقول : من أخذ علم الطبيعة رشفا بالشفاه كان ملحدا ، ومن شربه عبا أوصله الى الخالق .

فهل يصح بعد مايقول العلم كلمته فى تكوين هذا العالم الفسيح من قوى كهربائية قهرها الله بقوته العالية ، فاتخذت ما اتخذت من أشكال وألوان ، وحملت ما حملت من خواص كان لها أثرها فى الحياة العالمية نباتها وحيوانها وإنسانها ، هل يصح بعد ذلك كله وبعد نظر الانسان فى نفسه وما ركب فيه من أعضاء نيط بكل عضو منها وظيفة خاصة (تمت له بها الحياة العالية حتى صار أرقى المخلوقات) وما فيه من الكريات البيضاء والحمراء ، وما لها من عمل فى الجسم الانسانى ، وما فيه من غدد أبان العلم الحديث ما لها من آثار وما فيها من أسرار ، الى آخر ما فى هـذا الكون الباهر من ليل ونهار وشموس وأقمار ، وأرض وسماء وماء وهواء . هل يمكن من ينظر نظرة بسيطة فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، أن ينكر قدرة خالقه العظيم ، أو حكمة صانعه الحكيم ؟

انظر الى وقوف الأرض فى نقطتها المخصوصة ، ولو جعلها بعيـدة من الشمس بعـدها من بنات نعش مثلا لما انتفعت بضوئها وحرارتها ، وهما ضروريان للنمو والحياة ؛ ولو جعلها قريبة منها جدا لاحترق كل ما عليها من نبات وحيوان ، ولأصبحت طبقة من طبقات جهنم . فسبحان الحكيم العليم . الى آخر ما لا يحصيه العد ولا يأتى عليه البيان .

ألا إن طريق الحق قد بانت معالمه واضحة جلية ، وهل بعد الحق إلا الضلال ، وبعد الرشد إلا الخبال !

إنى لأعجب والله كل العجب كيف يسوغ لانسان فيه ذرة من العقل أن ينكر وجود الله الذى خلق الأكسجين والأدروجين ثم ألف بينهما بقوته العالية فصير منهما ماء ملا به ثلاثة أرباع الكرة الأرضية . وليت شعرى هل يستطيع أحد أن يقدر القوة التى أتت بهذا العمل الذى كان من نتائجه هذه المحيطات الهائلة وهذه السحب التى نراها فى كل حين وفى كل صقع تنزل وتحيي موات هذا الكون الفسيح !

إنى أعجب والله ، لولا إيمانى بالقدرة الباهرة ، كيف تسنى لعقول قوم من بنى آدم أن تقبل إنكار وجود الله وما هو إلا إنكار أنفسهم بل إنكار كل شىء فى الوجود !

أيصح إنكار الله الذى كون الأحياء من الأرض الميتة ، ثم كون الهواء والماء لعلمه أنه لا بد للأحياء منهما ؟

أينكر الله الذى يدبر الأرض فى حركة يومية وسنوية ، وينقل القمر من المشرق للمغرب ، ويمسك الكواكب أن تقع على الأرض . هل فى إمكان العقل تقدير تلك القوة التى فعلت ذلك كله ، وتلك الحكمة التى نظمته على مر الملايين من السنين .

وكأنى بلسان الحضرة الإلهية يقول لأولئك الملحدين : إننى سخرت لكم الأرض وذللت لكم البقر تحرثون وتزرعون ، فإذا فرغتم منه ورفعتم أيديكم عنه توليته دونكم وأنتم قيام

تنظرون ، فمرة أنميه بالحر ومرة بالبرد حتى أبلغه أوان حصاده ، وسخرت لكم الحديد لتحصدوه به ، والريح تذرونه به ، ولو أمسكته عنكم فضلا عن غيره لتحيرتم وما صنعتم شيئا . فكيف تكفرون ولا تشكرون !

انظر الى ملايين النجوم وما بينها من الأبعاد الشاسعة ، وما لها من الأجرام الكبيرة التى تدهش العقل، وما قدر لها من الدوران العجيب أمره الخفى سره، ومابينها من الاختلاف فى الأضواء والخواص ، تعالى الله عن أن يحيط أحد علما بكمالاته ، أو يصل الى تحديد كنه صفاته . لعمر العلم إن الأمر لأوضح من الشمس وأظهر من الحس . ولكن الذى يتكلم بغير عقل ولا علم لا يصلح لهدايته أحد ولا ينفع فيه أى برهان : « وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا » . والانسان مجمع العجائب والغرائب . فليفر من الميدان خجلا أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى بعد أن أماتوا ضمائرهم وضغطوا على شعورهم حتى ذهب منهم كل وجدان ، فأصبحوا وقد وجب إسقاطهم من سجل نوع الانسان « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » !

وما أشبههم بالخفاش الذى لا يستطيع أن يحدق فى نور الشمس لما فى أعصابه من ضعف وفى بصره من خلل ! وإلا فهذه آثار ناطقة بعظمة لا تدركها العقول ولا تصل اليها الأوهام ، ولكن الانسان كما يبتلى بأفظع الأمراض الحسية كذلك هو قابل لأن يبتلى بأفظع الأمراض العقلية . ولعمرى إن الجاهل يمكنه أن يفحم أكبر فيلسوف من الملحدين بما رآه من حوادث العفاريت المتواترة عندمن لا يمكن تكذيبهم ولا الشك فى خبرهم ، وهى تخرق كل نواميس المادة التى عبدوها ولم يعرفوا شيئا سواها . ولعلنا نعرض لشىء مما شاهده علماء الاسبرتزم (استحضار الأرواح) وهم من أكبر أساتذة أوربا وعلمائها . أما كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء فلا نعرض لها لعدم إيمان الملحدين بها ، وإن كانت متواترة والمتواترات لا سبيل الى تكذيبها ، ولكن هؤلاء قدسوا نواميس المادة التى عرفوها ، وخرقوا نواميس العقل والمنطق التى جهلوها .

والخلاصة أنه تعالى أظهر من كل شىء لذى العقول ، ولكن لما كانت النفوس مجبولة على الجهل لأنها لا تعرف غير المحسوسات ، ولا تفزع فيما تريد إلا لما علمته من طريق الحواس ، خفى عليها مالا تحسه ، ولكنها جهلت أن الإله يجب ألا يقاس على ما تعرف من المحسوسات ، وإلا وجب تطبيق النواميس الطبيعية عليه .

ثم نقول باختصار لأولئك الملحدين : هل الموجودات كلها انحصرت فيما تعلمون وصارت قاصرة على ما تحسون ؟ إن كنتم تعتقدون أنه لا موجود إلا ما أحسستم ، ولا شىء فى العلم إلا ما علمتم ، فأنتم أجهل الجهلاء وأحمق الحمقى .

ولنختم هذا المقال بقول من قال يخاطب الحضرة الالهية :

هـوت المشاعر والمـدا رك عن معارج كبريائك
ياحى يا قيـوم قـــد بهر العقـول سنا بهائك
أثنى عليـــك بمـا علمـ ـت فأين علمى من ثنائك
فظهرت بالآثار فالـ ـبرهان باد فى جلائك
عجبا خفاؤك من ظهو رك أم ظهورك من خفائك
ما الـكون إلا ظلمـة قبس الأشعة من ضيائك
وجميع مافى الـكون فا ن مستمد من بقائك
بل كـل ما فيه فقـ ـير مستميح من عطائك
ما فى العـوالم ذرة فى جنب أرضك أو سمائك
إلا ووجهتهـا إليـ ـك بالافتقار الى غنائك

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

صفة من كملت مروءته

دخل عبد الملك بن مروان على معاوية وعنده عمرو بن العاص ، فسلم ثم جلس ، فلم يلبث أن قام . قال معاوية لعمرو : ما أكمل مروءة هذا الفتى !

قال عمرو بن العاص : إنه أخذ بأخلاق أربعة ، وترك أخلاقا أربعة : أخذ باحسن البشر إذا لقى ، وبأحسن الحديث إذا حَـدَّث ، وبأحسن الاستماع إذا حُـدِّث ، وبأيسر المؤنة إذا حولف .

وترك مزاح من لا يشـق بعقله ، وترك مجالسة من لا يرجع الى دينه ، وترك مخالطة لئام الناس ، وترك من الـكلام كل ما يعتذر منه .

وقال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان : بم بلغ فيكم الأحنف بن قيس ما بلغ ؟

قال خالد : إن شئت يا أمير المؤمنين أخبرتك بخلة واحدة ، وإن شئت بخلتين ، وإن شئت بثلاث .

قال الخليفة : فما الخلة ؟ قال خالد : كان أقوى الناس على نفسه . قال هشام : وما الخلتان ؟

قال خالد : كان موقى الشر ، ملقى الخير . قال : فما الثلاث ؟ قال خالد : كان لا يحسد ولا يبخل ولا يبغى .

باب الأسئلة والفتاوى

فى الميراث

جاء الى لجنة الفتوى الاستفتاءان الآتيان :

توفى شخص عن زوجة ، وأم ، وأخت شقيقة ، وأختين لأب ، وأربعة إخوة ذكور لام . وقد ترك مبلغا من المال قدره ٨١ جنيها . فمن يرث ومن لا يرث ، وما نصيب كل وارث ؟

ستيته أم سيد

الجواب :

جميع من ذكروا فى السؤال يرثون : فللزوجة الربع ، وللام السدس ، وللاخت الشقيقة النصف ، وللاختين لاب السدس ، وللاخوة الاربعة للام الثلث ، يقسم بينهم بالسوية .

ونظرا لان مجموع هذه الأنصبة يزيد على الواحد الصحيح كما هو واضح ، تقسم التركة الى سبعة عشر سهما : فيكون للزوجة ثلاثة أسهم ، وللام سهمان ، وللاخت الشقيقة ستة أسهم ، وللاختين للاب سهمان لكل منهما سهم ، وللاخوة لام أربعة أسهم ، لكل منهم سهم واحد .

وهذه من المسائل التى يدخلها العول عند الفرضيين ، وهو يقضى بتوزيع النقص بنسبة واحدة على أنصبة الورثة ، حتى تتسع التركة للجميع . والله أعلم ؟

فى الرضاع

طفل اشترك مع بنت فى الرضاع من أمها ، ولنفرض أن الطفل يسمى محمد احمد عبد الله ، وأن البنت اسمها خديجة بنت مصطفى السيد ، ثم كبر الطفل المذكور حتى رزق بنتا ، ولنفرض أن اسمها عيوشة ، فهل يسوغ لمصطفى والد خديجة أن يتزوج بعيوشة بنت محمد احمد عبد الله ؟

محمد احمد عبد الله

الجواب :

لا يسوغ لمصطفى السيد أن يتزوج عيوشة ، لأنه يعتبر جدا لها من الرضاع ، والله أعلم .

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

التفسير

مرز

سورة لقمان

— ١٠ —

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى : « أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فى الأَرْضِ وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَاس مَنْ يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهم إلَىَ عَذَابِ السَّعِيرِ » :

جرت عادة القرآن الحكيم أن يسلك فى تربية النفوس وتغذية العقول أسلوبا بديعا محكما مفيدا ، فيمزج العقيدة بالبرهان ، وينتقل الى الموعظة والحكمة ، ويستطرد فى بيان الأحكام وتفصيل مكارم الأخلاق ، ثم يعود الى العقيدة بفن جديد من أدلتها المرشدة الى صحيحها المثبتة القلوب على استيقانها . وهكذا شأن التربية الصحيحة : يتنقل المربى بمن يتعهده من حالة الى حالة حتى يكون فى الانتقال استرواح له من ناحية ، وملاحقة أنواع النقص لتكميلها من ناحية أخرى ، فضلا عما فى التنقل من طرد السآمة وتجديد الاعداد بقبول واستعداد ونشاط .

ولقد فصّل لنا فى أوائل السورة الكريمة نوعا من براهين وحدانيته ، متضمنا الارشاد الى باهر قدرته ، فى قوله عز من قائل : « خَلق السموات بغير عمد ترونها » الى قوله: « هذا خلق الله فأرونى ماذا خَلق الذين من دونه » . ثم انتقل الى ذكر لقمان ووصاياه منبها على ما ينتجه العقل السليم من التعليم الحكيم والارشاد العظيم ، ليدلهم على أن ما أرشدهم اليه لو أنهم نظروا النظر الصحيح واستعملوا عقولهم بلا تعسف ولا اعوجاج فى التفكير ، ولم تلعب بهم الخرافات وقبيح العادات ، لوصلوا بانفسهم الى الاعتراف بوحدانية خالقهم وباهر قدرته وحكيم إرادته ،

وردت هذه المقالة متاخرة فلم تاخذ مكانها الذى كانت ناخذه من المجلة

وواسع علمه ورحمته . وساق فى وصايا لقمان ما ساق من بديع الحكم والوصايا بعد الوصية العظمى ، وهى « يا بنى لا تشرك بالله »

ثم عاد بهم يلفت نظرهم وينبه شعورهم الى ما غمرهم به من عظيم النعم التى لا يستطيعون سبيلا الى إنكارها ، ولا يجرءون على نسبتها الى غير مالك الملك العزيز القدير ، فقال جل وعلا : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة »

وهو دليل ناصع وبرهان قاطع يجف ريق المعاندين ويبهتون وينبهرون دون أن يفكر أحدهم فى نسبة شىء من ذلك الى غير الله القادر القاهر . من ذا الذى يفضح نفسه فيفوه لسانه بأن ذلك الصنم الحجرى هو الذى خلق الشمس والقمر والنجوم والكواكب ؟ من ذا الذى تطاوعه وقاحته على الزعم بأن إلها من آلهتهم هو الذى خلق الأرض وبث فيها من كل دابة ، وذرأ فيها من كل من النبات والحيوان زوجين اثنين ضمانا لتسلسل أنواعهما ، وجعل كل ذلك مسخرا للانسان فى نفعه ينتفع به بكل ما وصلت اليه قدرته ؟ من ذا الذى يتطاول فيقول إن إلها من تلك الآلهة التى ضلوا بها هو الذى يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ، وخلق الكواكب والأفلاك وجعلها كلها مسخرة لنفع الانسان ؟

أجل : إنه لدليل قاطع وبرهان ساطع على باهر القدرة والتفرد بالالهية ، واستحقاق العبادة والخضوع والطاعة له والزلفى اليه ، فضلا عما تضمنه من التنبيه على باهر النعم وواسع الكرم ، وإفاضة هذه المنن الجسيمة والرحمات العميمة ، ناهيك بتسخير السموات والأرض وما فيهن ، تفيض الكواكب من الضوء والحرارة والاهتداء بها فى ظلمات البر والبحر ما لا تدخل فوائده تحت حصر ، وتنتج الأرض وما بث فيها من حيوان ونبات لنفع الانسان ما لا يفى به بيان . هو الخالق لها جميعا ، وهو المنعم بها جميعا ، أفبآيات الله تجحدون وبآلائه تكفرون ؟ !

انتقلوا الى أنفسكم وتفكروا فى نعم الله التى أفاضها عليكم فى أنفسكم من نعم ظاهرة وباطنة ، وقولوا ما تحس به قلوبكم وما تقتنع به عقولكم ، أكنتم واهبيها لأنفسكم وأنتم فى حيز العدم ؟ إذاً فهل تستطيعون أن تمسكوها وقد حصلت وأنتم فى حيز الوجود ؟ إنك لا تجد أبله ولا متعنتا يستطيع أن يفوه بهذا مهما بلغت قحته . إذاً فهو معترف قهرا عنه أن يذعن أنه قد وهبها له واهب ، فهل هذا الواهب وهبها وهو غير عليم بها أو وهو عاجز عن إيجادها وإيجاد غيرها ، أو وهو سيىء التصرف فى تدبيره وإحكام مصنوعاته ؟ هل يستطيع عاقل أو أبله أن يزعم شيئا من هذا ! اللهم لا ، إذاً فالذى وهبكم تلك النعم هو القدير العليم الحكيم العزيز الرحيم . أبقى شك فى هذا الذى تأخذونه من أنفسكم ومن نعم الله التى أسبغها عليكم فوق ما أخذتموه مما يبهركم من صنع الله فى ملكوت السموات والأرض ، وكيف سخر كل ذلك لكم تنتفعون به أنى شئتم وكيفما قدرتم ؟ اللهم لا .

وإن تعجب فعجب لهم أنهم مع وضوح هذه الآيات البينات والدلائل الساطعات يقوم فريق منهم فيجادل فى الله بغير علم استفاده من عقله ، أو هداية جاءته من رسول أرشده ، أو خبير علمه ، أو نور ربانى فى كتاب منزل من الله استضاء به فى مجادلته ، فهم لا يقتصرون على الإباء عن الرحمة وقبولها ، بل يزيدون على ذلك فيبررون مسلك السوء الذى اختاروه لأنفسهم ، ويجادلون بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير فى شأن الله الذى خلقهم ووهبهم من النعم السماوية والأرضية والنفسية ما لا يستطيعون جحوده ، فلا يزال يخامرهم الشك فى قدرته ووحدانيته وأنه وحده الحقيق بالعبودية له والإخبات اليه . لقد غمركم بما علمتم من جزيل النعم فما لكم إذا قيل لكم اتبعوا ما أنزل الله لكم على لسان رسل منكم إتماما لنعمته عليكم وتعميما لرحمته بكم نأيتم وأبيتم ، وأعرضتم عن النعمة والرحمة التى أرسلها اليكم صاحب الفضل العميم عليكم ؟ !

فاذا قيل لكم اتبعوا ما أنزل الله قلتم بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، فمن هم آباؤكم ؟ أليسوا أفرادا مثلكم لاميزة لهم عليكم إلا بسبق زمانهم على زمانكم ؟ فقد كانوا مثلكم أجنة فى بطون أمهاتهم ثم انحدروا الى هذه الدنيا لا يعلمون شيئا فوهب الله لهم السمع والبصر والعقل لعلهم يهتدون فهاموا فى غيهم يعمهون ، فلما بعدوا عن الجادة وطمسوا الطريق على أنفسهم وعليكم من بعدهم تداركم الله برحمته فأرسل اليكم رسله بهدايته ليرشدوكم الى صحيح شريعته ، وذلك حلقة من سلسلة رحمته بكم ، أفتعرضون عن هذا وتقولون بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ولو كان آباؤكم قد ضلوا واتبعوا الشيطان عدوهم وعدوكم وقد دعاهم الى عذاب السعير ؟ ! لو أنكم خلقتم بلا عقول أصلا لوسعكم العذر الذى يسع البهائم ، ولكن ما الحال وقد وهب لكم النور فأغمضتم أبصاركم عن أن تستضيئوا به ! جاءتكم رسلكم بالبينات ووهبكم الله عقولا تميزون بها الحسنات والسيئات ، ولفتت نظركم ونبهت عقولكم الى ما تسلسل عليكم من ربكم من أنواع الرحمات ، ومع ذلك أبيتم أن تستمعوا الى الداعى ، وأعرضتم عن الصالح ، وتملككم الاعتزاز بآبائكم والاغترار بما كانوا عليه فاتبعتموهم ، أفتتبعونهم فى كل شىء حتى ولو دعاهم الشيطان الى عذاب السعير ؟ !

هذا ولقد جرنا الكلام فى ربط الآية بالآيات السابقة الى الكلام فى بيان محصل معناها التركيبى ، ولا نرى بأسا أن نعود الى الكلام على مفرداتها ، وإن كان المعتاد أن يسبق الكلام على المفردات بيان المعنى التركيبى ، إلا أن ما بيناه هنا لا يتوقف على شرح مفردات الآية الكريمة ، وفى بيان تلك المفردات مزيد بسط وتقرير لما قدمناه .

فقوله تعالى « ألم تروا » استفهام تقريرى يراد به حملهم على الاقرار والاعتراف بما سئلوا عنه ، إذ يرجعون الى أنفسهم والى ما يحيط بهم ويتفكرون فيمن خلقه وأنشأه وسخره لهم فلا يجدون من يمكن أن ينسب اليه ذلك كله أو بعضه إلا الله ، فيرغمون على الاعتراف به .

ففائدة السؤال إرغامهم على استخراج ذلك من مكنونات ضمارهم وما أودع فى طيات قلوبهم ، وهو أمكن طريق فى الاستدلال والاقناع . وتسخير الشيء : سوقه الى تأدية الغرض المقصود منه بدون اختيار له فى ذلك ، أو تهيئته للانتفاع به والاستفادة منه ، سواء أحصل الانتفاع أم لم يحصل . والتسخير تارة يكون بجعل الشيء المسخر منقادا لارادة من سخر له ، كما فى تسخير الدواب والآلات ؛ وتارة تتضمنه فائدة ينتفع بها المسخر له كما فى تسخير ما فى السموات من كواكب ونجوم ، ففيها من الضوء والنور والحرارة وأمثالها ما ينتفع به الانسان وإن لم تكن خاضعة لارادته . فكلا القسمين يسمى مسخرا له حتى مالا يدخل تحت إرادته ولا ينقاد له كسير الكواكب ، فيكفى فى أنها مسخرة له أنه يمكنه الانتفاع بآثارها . وعلى ذلك تكون اللام فى سخر لكم ، لام التعدية : صلة لسخر .

ومنهم من يجعلها لام العلة ، أى جعل ذلك مسخرا لأمره لأجلكم ، فتسخيرها إنما هو لأمر الله ، وهذا التسخير من أجل منفعتكم . ونظيرها قوله تعالى: « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » إذ ليست اللام للتمليك بل هى لام الأجل ، أى خلقها لأجل منفعتكم ، أى مكنكم منها لتستفيدوا أعظم ما تصل اليه قدركم من منافعها .

« وما فى السموات » من الأفلاك والكواكب والنجوم تسير بمقدار معلوم ، فيوقتون بها مصالحهم ، ويضبطون بها شئون معاشهم ومعاملاتهم وعباداتهم ، وتشرق عليهم فتبعث من ضوئها وعظيم آثارها ما يعود عليهم بالخير والنفع ، وتغرب عنهم فيسكنون ويستريحون .

« وما فى الأرض » من نبات وحيوان ومعادن وقطع متجاورات تصلح للانبات ، أو تستعد لاتخاذ البيوت والحجرات ؛ ومما فى الأرض المياه التى سلكها ينابيع فى الأرض ، فمنها العذب ومنها الأجاج ، ولكل منفعته وفائدته ، ومما فى الأرض أى على سطحها أو فى السماء أى فى العلو الرياح المسخرات ، فمنها اللواقح ، ومنها ما يسوق الماء الى الأرض الجُرُز ، ومنها ومنها مما لا يحيط به الحصر .

« وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » أى محسوسة ومعقولة ومعروفة لكم وغير معروفة ، أوجلية وخفية . فمن الأولى الوجود والجوارح والحواس ، ومن الثانية القوى الباطنة من العقل والفهم والتوفيق الالهى . أو الظاهرة ظهور الاسلام والانتصار على الأعداء ، والباطنة الامداد بالملائكة . أو الظاهرة تسوية الخلق ، والباطنة ستر العيوب . وقد ورد شىء من هذه التفاسير فى المأثور . والآية عامة تتسع لها جميعا ولغيرها . فما ورد فى المأثور مما يقتصر فيه على بعضها محمول على التمثيل لا على الحصر .

هذا وإسباغ النعم إفاضتها ، من قولهم : ثوب سابغ أى طويل ضاف . والنعمة ما ينعم به العبد وينتفع ويستلذه ويستطيبه . وأصله على ماقيل هيئة التنعم ، شأن صيغة فعله (بكسر الفاء) كجلسه ، سمى به ما يحصل تلك الحالة والهيئة ، ثم غلب على ذلك .

وقوله : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم » مسوق للتعجيب من حالهم هـذه مع ما سـبق من اعترافهم ولو بلسان الحال بمـا أسبغ الله عليهم . فالواو فى قوله « ومن الناس » واو الحال ، أى سخر لهم وأسبغ عليهم والحال أن منهم من يجادل الخ . وكأن قوله «ومن الناس» لتقـرير التعجيب ، أى العجب كل العجب أن يـكون هذا من عـداد الناس ومحشور فى زمرتهم ، وهو جدير بأن يكون فى عداد العجماوات بل أضل ، بمـا عطل من عقله وأهمل من الهدى الذى حباه الله إياه . والمجادلة المناقشة ، وهى إما من جدل الحبل أى فتله كا ن كلا من المتجادلين يفتل صاحبه ويلويه عن رأيه ، أوكا ن كلا منهما يحكم رأيه بطرق الفتل والتقوية ، من قولك جدلت الحبل أى لويته على الأول ، أوجدلته أى أحكمت فتله وقويته على الثانى . وإما من الجدالة وهى الأرض الصلبة ، كأن كلا منهما حريص على أن يصرع خصمه ويلقيه على الأرض .

والجدال فى ذاته بقصد المغالبة وإظهار التفوق ذميم ، فكيف إذا كان بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ؟ قالوا : والمراد بقوله « بغير عـلم » أى استبصار ويقين ماخوذ من دليل عقلى . « ولا هدى » أى إرشاد مستفاد من هاد ومرشد من رسل الله وصفوته . « ولا كتاب منير » أى كتاب منزل من الله يثق به العقل وتطمئن اليه النفس . وإذا بطلت هـذه الثلاثة لم يبق إلا التقليد ، وتقليد من ؟ تقليد آبائهم الذين لم يمتازوا عنهم بشىء فى الضلال بل الـكل فيه سواء ، أفيتبعون آباءهم وإن قادوهم الى العذاب الذى دعاهم اليه الشيطان ؟ فالهمزة للانـكار ، أى ما كان ينبغى ذلك من قوم عقلاء ، والواو للحال أو العطف على محذوف ، وجواب لو مستغنى عن التصريح به بما سبق ، أى ولو دعاهم الشيطان يتبعونه ، أو هى غـير محتاجة الى جواب . والسعير من قولهم استعَرَت النار أى اشتد لهيبها .

ومن هذه الآية أخذ بعضهم عدم صحة إيمان المقلد . والمـراد بالمقلد الذى لا يصح إيمـانه هو من ليس فى قلبه أكثر من قوله : وجدت الناس يقولون قولا فقلته ، فاذا رجع من تبعه رجع تبعا له . وأما الذى إذا سألته أجابك بما يدل على اقتناعه فى نفسه بما يعتقد : كأن يقول لك مثلا : من ذا الذى خلقنا وخلق هذه الدنيا ؟ ونحو ذلك ، فلا يكون مختلفا فى إيمانه وإن عجز عن تقرير الدليل ودفع الشبه عنه بالطرق الفنية .

اللهم احفظ علينا إيماننا ، واكفنا شر ما أهمنا ، وارفع مقتك وغضبك عنا ، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، إنك عفو كريم غفور رحيم ! ؟

ابراهيم الجبالى

النثر الفنى

بعد الاسلام

تحدثنا فى المقال السابق عن الحقيقة التى يصح أن تكون مدلولا اصطلاحيا لعبارة « النثر الفنى » التى خلقها المنهج الحديث فى البحث خلقا جديدا لا يعتمد على أساس لغوى معروف فى نصوص الأدب ، ولا يقوم على أصل تاريخى ، ومن ثم اختلفت عبارات الباحثين فى تحديد معنى النثر الفنى . وقد عرضنا بعض آراء المتأدبين ، وانتهينا الى أن مصدوق هـذه العبارة فى الأدب العربى واسع المدى يشمل كل كلام انطلق من قيود الوزن والقافية فى أسلوب يسمو بذاته عن لغـة التخاطب العامة ، ويسمو بفـكرته الى معالجة شئون الحياة الفكرية والاجتماعية دون أن يخضـع لشىء آخر من قيود الصنعة الانشائية كالـكتابة والتدوين ، أو الزخرف اللفظى ، والتزيين البديعى ، أو غير ذلك مما لا يدخل فى تكوين النثر ، وإن زعم كثير من الباحثين أنه مقوم من مقومات النثر الفنى .

وقد عرفنا أن كثيرا من شـيوخ النقد الأدبى القدامى يرون أن الخطابة بجميع فنونها من أول ما يدخل فى مفهوم النـثر الأدبى ، وهى أخت الـكتابة وقرينتها ، فاذا وقع اتفاق المحدثين من النقاد على اعتبار الـكتابة بأنواعها نثرا فنيا لأنها تقوم على التفكير المنطقى ، فـكذلك المحاورات والوصايا وغيرهما من فنون النثر الأخرى لا تقل أثرا فى التفكير المنطقى ورسم النفوس وتطبيق الاجتماع عن الـكتابة والخطابة ، فهى نثر أدبى فنى بهذا الاعتبار ، وكلها كانت معروفة عند العرب فى العصر الجاهلى ، إلا أن الـكتابة كانت قليـلة الى جانب غيرها ، وكانت تدور حول أفـكار خاصة ودائرة ضيقة ، لا تسوغ إدخالها فى طور النثر الفنى الأول ، بل إن ذلك الطور لا يتمثل إلا فى الخطابة والمحاورة والوصايا والحـكم والأمثال .

أما الطور الثانى للنثر الفنى فيبدأ باشراق شمس الاسلام فى أفق الحياة العربية ، لأن أوضاع الحيـاة تغيرت عن مألوف العرب ، فتغير تبعا لذلك أسلوب التعبير عنها ، فالقرآن الـكريم وهو أول ما يلفت النظر فى هذا الباب بفخامة أسلوبه وروعة تعابيره ، وجلال معانيه وسمو مراميه ، أحدث رجة فى البلاغة العربية دفعتها الى الوجوم حينا فى كثير من الدهشة البالغة ، فـكانت صدمة قوية على الملـكات البيانية أصابتها بما يشبه العقم الأدبى ، وهو وإن يكن له الاعتبار الأدبى الأول لـكننى أتحرج من إطلاق اسم « النثر الفنى » عليــه ، لأن الفنية قد تشعر بالتعمل والصنعة ، والقرآن كتاب الله الحـكيم يجب أن ينزه عن كل ما يشعر بشىء من ذلك ولو من طريق بعيد ، وهـذا لا يمنع أن نرى أنه منهج أدبى جديد جعله الأدباء

وفحول البلاغة الغاية التى تنتهى عند سفحها آيات البراعة والبيان ، لجمعه لخصائص بلاغية ونكات بيانية لا يمكن أن يجمعها كلام سواه . وهذه ناحية من نواحى إعجازه يدور حولها البحث الفنى لعلماء البلاغة وأئمة النقد الأدبى ، بل لأجل شرحها قامت علوم البلاغة العربية ، وبها تفرد كشاف الزمخشرى فى نهجه وأسلوبه البيانى القويم ، وبها اتجه البحث الأدبى فى هذا العصر اتجاها جديدا ، واتخذ النثر سمتا جـديدا ، ظهر فيه أثر الأسلوب القرآنى ظهورا بينا نلمسه بأدنى نظرة نلقيها على سبيل الموازنة بين كلام الجاهليين فى خطبهم وفنون نثرهم ، وكلام فحول الأدباء فى صدر الاسلام ، فذلك السجع المتعمل الذى كان يجرى عليه أسلوب الجاهلية أصبح سقيما لا يحفل به خطيب أو متكلم فى صـدر الاسلام . ولو أن باحثا عرض الى خطبة جاهلية فى موضوع يقرب من الموضوعات الاسلامية كالخطبة المنسوبة الى قس بن ساعـدة ، وهو خطيب مفوه يضرب به المثل ، وعرض الى جانبها كلمة لخطيب إسلامى ، لرأى الفرق شاسعا ، ورأى أثر الأسلوب القرآنى فى كلام الاسلاميين ارتفع به عن السجع الأجوف الى أسلوب مفعم بالروح القوى والمعنى السرى والحيوية الخصبة .

أى أثر ينبعث فى نفسك إذا أنت قرأت قول قس بن ساعدة فى خطبته المشهورة : « من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، مهاد موضـوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لا تغور الخ ؟ » لا أثر يحرك كوامن النفس ويوقظها الى ظواهر الوجود وعبر الحياة ، ولـكن انظر الى ما ينبعث فى نفسك من الأحاسيس حين تقـرأ قطعة من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فانها تجلى لك من معانى الحياة كثيرا مما كان خافيا عليك ، وتفتح أمام فـكرك أبوابا من التأملات تنفذ منها الى خير كثير ، فاسمعه حين يقـول : « إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات ، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات ، ألا وإن بليتـكم قـد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم صلى الله عليه وآله ، والذى بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ، ولتغربلن غربلة ، ولتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلـكم أعلاكم وأعلاكم أسفلـكم ، وليسبقن سابقون كانوا قد قصروا ، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا . ألا وإن الخطايا خيل شمس حمل عليها أهلها وخلعت لجمها فتقحمت بهم فى النار ، ألا وإن التقوى مطايا ذلل حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة ، حق وباطل ، ولـكل أهل ، فلئن أمِر الباطل لقديما فعل ، ولئن قل الحق فلربما ولعل ، ولقلما أدبر شىء فأقبل »

فأنت تلمح فى الـكلام الاسلامى أثر الروح القرآنى ظاهرا فى الفكرة والمعنى والأسلوب الذى لم يلتزم فيه السجع ، ولم يخل منه ، ولـكنه جاء حين استدعاه المعنى ، فجاء حلو الجرس ساحر الرنين ، جميل الوقع متساوقا مع المعنى فى قرن واحـد ، على خلاف ما ترى فى القطعة الجاهلية من رصف ألفاظ فى جمل مستوية لا تعدو الأذن الى القلب .

الواقع أن النثر الاسلامى اتخذ القرآن إماما له ، فتهذبت حواشيه ، وصقلت مبانيه ، وراقت أفكاره ومعانيه ، الى ما كان من أثر البلاغة النبوية التى استقت من منابع القرآن وأشرقت عليها أنواره فكانت من أجمل مظاهره وأبلغ آثاره ، بل ربما كان أثر البلاغة النبوية فى النثر الاسلامى أبين وأكثر ، لأن البلاغة النبوية على سمو مقامها وبلوغها الحد الأعلى فى البلاغة الادبية لم تعدُ أن تكون كلاما بشريا تطمع النفوس فى محاذاته ومشاكلته ، وتعرف نهايات ما اشتمل عليه من الخصائص البلاغية والنكات البيانية ، ومن هنا يمكن اعتبار الكلام النبوى أول صورة للنثر الفنى الاسلامى ، جمع عناصر الفنية التى اتفق عليها القدامى والمحدثون من الباحثين ، لأنه قائم على الفكر المنطقى والعقل ، وقد يحلى بشىء من الزخرف اللفظى والتزيين البديعى إذا انساق مع المعنى ، وليس يشك أحد فى أن الكلام النبوى يقرر حقائق فكرية ويرسم نفوسا ويطبق اجتماعا ، وتلك هى عناصر النثر الفنى فى نظر الباحثين .

وإذا كان قد استوى للنثر الفنى فى هذا العصر شرائط الكمال من ناحية موضوعاته التى أحدثها الاسلام ورسمها القرآن الكريم فى التشريع والسياسة والأخلاق والتهذيب النفسى والقصص والوصف ، والترغيب والترهيب ، وتحديد علاقات الفرد بالجماعة ، وعلاقات الجماعة بالفرد ، فانه قد اتخذ فى اتجاهه التصويرى مظاهر متعددة إن لم تبلغ درجة الكمال فهى بلا شك شديدة المغايرة لما كان معروفا عند الجاهليين ، فالخطب الاسلامية وجدت من العناية والدقة ما جعلها أشبه بالرسائل المنمقة ، وظهرت الكتابة وحررت بها الرسائل فى المعاهدات والمحالفات والدعوة الى الدين ، ونصح العامة وإرشاد قواد الجيوش الى واجبهم ، وتحديد معاملة الولاة للرعية بالعدل والرأفة وإقامة الحدود وحماية الثغور . وفى رسالة عمر بن الخطاب الى أبى موسى الأشعرى منهج للسياسة الشرعية وشرح وظيفة القضاء وواجب القاضى وطريق الدعوى وإثباتها ، مما هو صادر عن فكر منطقى يقرر حقائق ويرسم نفوسا ويطبق اجتماعا . وفى عهد أمير المؤمنين على أبى طالب الى الاشتر النخعى حين ولاه مصر آية بينة على استواء أسلوب النثر الفنى فى هذا العصر .

وإذا جاوزنا عصر صدر الاسلام الى ما بعده من عصر الدولة الأموية وجدنا الأمر يتسع تبعا لشئون الدولة ، فقد نظمت الدواوين واتخذت نظم للرسائل والمكاتبات ، وانضافت الى الخطابة عناصر جديدة تراها فى خطب زياد بن أبى سفيان والحجاج وعبد الملك وغيرهم حتى عهد هشام الذى عهد بنظام الانشاء الى مولاه سالم الذى تتلمذ عليه عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وانتقلت به الكتابة الى صنعة قائمة المعالم مستقلة المناهج ، وتبحرت فيها الأساليب ، وظهر أمثال ابن المقفع واحمد بن يوسف والجاحظ ومن اليهم من فطاحل كتاب الدولة العباسية التى ظهر فيها النثر الفنى ظهورا بينا يرى المحدثون من النقاد أنه أحق ما يصدق عليه

اسم النثر الفنى ، لما داخله من الصنعة والحذق والنظم الأجنبية التى نقلها المترجمون عن الأمم الأخرى العريقة فى هذا النظام ، وما يزال النثر يدرج فيرتفع ، ثم يهوى فينخفض حتى عادت اليه ديباجته فى النهضة الحديثة ، وتجدد له رواؤه ورونقه ، وجمع بين رصانة القديم وجدة الحديث .

صادق ابراهيم عرجون

من يعتمد فى المشورة

قال حكيم : لا تدخل فى مشورتك بخيلا فى عطاء فيقصر بك ، ولا جبانا فى حرب فيخوفك ، ولا حريصا فى بذل فيصدك ، فان البخل والجبن والحرص طبيعة واحدة يجمعها سوء الظن بالله .

وروى أن زيادا ، وكان من كبار الولاة فى القرن الاسلامى الأول ، استشار رجلا فى أمر ، وكان متحفظا ، فامتنع من إبداء رأيه قائلا له : حق المستشار أن يكون ذا عقل وافر ، واختبار متظاهر ، ولا أرانى كذلك .

وقال حكيم : لا تشاور الجائع حتى يشبع ، ولا العطشان حتى يروى ، ولا الأسير حتى يطلق ، ولا المقل حتى يجد ، ولا الراغب حتى ينجح .

وقال شاعر :

خصائص من تشاوره ثلاث ... فخذ منها جميعا بالوثيقه
وداد خالص ووفور عقل ... ومعرفة بحالك فى الحقيقه
فمن حصلت له هذى المعانى ... فتابع رأيه والزم طريقه

وقال شاعر غيره :

وإذا الأمور عليك يوما أشكلت ... فاعمد لرأى أخ نصيح مرشد
واحفظ نصيحة من بدا لك وده ... وبرأى أهل الخير جهدك فاهتد

وقال آخر :

فما كل ذى ود بموليك نصحه ... ولا كل مؤت نصحه بلبيب
ولكن إذا ما استجمعا عند واحد ... فحق له من طاعة بنصيب

الاخلاق الفلسفية

— ٦ —

(ب) الضمـــــير

سلطانه على النفوس :

إن سلطة الضمير التى يفرضها على بنى الانسان واحدة وثابتة لا تتجزأ ولا تتغير ولا تخضع للظروف ولا تنحنى أمام ضرورات الحياة ، فاللغة التى ينطق بها الضمير حين يامر بالخير وينهى عن الشر هى واحدة فى كل زمان ومكان ولدى جميع الأشخاص ، لا فرق فى ذلك بين السيد والعبد ، والغنى والفقير ، والشاب والشيخ ، والعالم والجاهل ، وإنها لغة واضحة صريحة لا لبس فيها ولا إبهام ، وإنها لغة أمر قوية قاسية لا تعرف الرجاء ولا تألف الهوادة واللين . ومنشأ هذه الوحدة فى السلطة واللغة والقوة هو أن الضمير ينطق بصوت الله ويتكلم بلسانه ، ويعبر عن أوامره ونواهيه . ولو أنه يتكلم بصوت أحد المحدثين الفانين ، لاستطاع الانسان أن يسكته كلما أثقل عليه الأوامر وضيق على شهواته الخناق . نعم إننا نستطيع أن نعصيه ، ولكننا لا نستطيع أن نسكت صوته ، ولا أن نقطع هتافاته المتواصلة .

الأدوار التى يمثلها معنا الضمير :

إن أول دور يمثله الضمير معناهو دور المكتشف المميز بين الطريقين : المستقيم ، والملتوى كما قدمنا ، فإذا أبرز نتيجة اكتشافه ، انتقل الى الدور الثانى وهو دور الناصح الأمين ، فإذا أتم مهمته ووقع العمل من الانسان بالفعل ، انتقل الى مرتبة القاضى العادل ، ثم الى مرتبة السلطة التنفيذية التى تتولى توزيع درجات المكافأة والعقاب ، فينعم بقسط وافر من الغبطة والسعادة على القائمين بالواجب والمستمسكين بالفضيلة ، ويحيل الدنيا فى نظرهم الى جنة وارفة الظلال ، دانية الثمار ، لايرى الانسان فيها إلا نورا وجمالا وغبطة وسعادة ، ويملأ قلوبهم بالأمل والتفاؤل والميل الى الاستزادة من الخير . وهكذا كل فضيلة تتولد مما قبلها حتى تصبح أعمال الشخص سلسلة فضائل لا تفصل حلقاتها رذيلة واحدة ، ولكن الانسان إذا اقترف رذيلة ، فإن فكرة قاسية حادة تشتعل فى داخل نفسه كأنها شعلة من نار لا تزال تأكل فى فؤاده حتى تقضى عليه قضاءها الأخير ، أو هى كما يقول أحد الأخلاقيين الفرنسيين : « إنها تجلس بالليل الى جانب وسادته ، لتجعل نعاسه سلسلة اضطرابات ومفزعات ، فاذا استيقظ تولت تعذيبه بقسوة ومن غير انقطاع ، وتتبعت خطواته حتى فى ساعات العمل الشاغل وفى لحظات التسلية والسرور ، وإن مثلها كمثل العثة تمزق أجزاء الفؤاد بلا شفقة ولا رحمة » .

جوامع كلم :

لما كان الفلاسفة الأوربيون قد وصفوا الضمير فى جمل صغيرة قيمة يصح أن تسمى بجوامع الكلم ، فقد أردت أن أترجم لك شيئاً منها :

(١) سئل سقراط يوما : من الرجل الذى يمكن أن يحيا سعيدا ؟ فأجاب : « إنه هو الذى لا يعمل ما يستوجب تأنيب الضمير » .

(٢) إن الضمير هو أصدق وأجل كتاب نملكه ، فيجب أن نسترشد بصفحاته ، ونستعين بجمله وكلماته كلما حزبتنا مهمة من مهمات الحياة « باسكال » .

(٣) اذهب الى حيث شئت ، فانك ستجد ضميرك أمامك .

(٤) إن كل القضاة معرضون للخطأ ما عدا قاضى القلب فانه معصوم .

(٥) ليس حكم الغير هو الذى نخشى ، وإنما هو حكم الوجدان « فيسيو » .

(٦) لا توجد سلطة أخرى تصدر أوامرها بحرية غير سلطة الضمير « جولى سيمون » .

مذهب بعض الأخلاقيين القائلين بجواز تغير الضمير ووجوب تربيته :

صرحنا أكثر من مرة بأننا نرى أن الضمير لا يربى ولا يهذب ، لأنه لا يفسد ولا ينحط ، وإنما الارادة والخلق هما اللذان يتغيران رفعة وانحطاطا ، ولكنا رأينا بعض الأخلاقيين يقول بجواز تأثر الضمير بمفاسد الشهوات الحيوانية تأثراً يفقده هداه ، ويحول بينه وبين الاستقامة والرشاد . وعندهم أن الحيلولة بين الضمير وبين هذا الفساد لا تتم إلا بالتربية والرقابة . وإنى لموجز لك هنا رأى أحد هؤلاء الفلاسفة القائلين بامكان انحطاط الضمير وبوجوب تربيته ورقابته ، فاذا أتينا على هذا الرأى وذكرنا لك وسائل تربية الضمير عند هذا الفيلسوف ، سددنا اليه بعد ذلك ما لدينا من سهام النقد فى هذا الموضوع . واليك ترجمة هذا الرأى فى شىء من التلخيص :

« إن حواسنا قد ربطتنا مع العالم الخارجى برباط بلغ من الدقة والاحكام الى حد أن اقتطعنا لهذا العالم الظاهر اسما من كلمة « الحواس » فسميناه بالعالم المحس ، ولكن الخير والشر والفضيلة والرذيلة والطيبة والخبث والحب والبغض والاحترام والاحتقار ، كل هذه الصفات تكوّن لها عالما آخر غير العالم الأول يسمى بالعالم المعنوى أو المعقول . ولكى نستطيع أن ندركه ونقدر قيمته ونحكم عليه ثم نستفيد منه كما استفدنا من العالم الخارجى ، قد منحنا الخالق قوة داخلية جديرة بادراكه ، وهى ما نسميه بالحاسة الخلقية أو الضمير أو الوجدان . فليس الضمير إذاً شيئا جديداً يكتسب بالخبرة أو المران ، وإنما هو فى داخل نفوسنا منذ

اللحظة الأولى لوجودنا ، لأنه لا يخرج عن كونه إحدى حركات النفس الناطقة التى هى المميز الوحيد للنوع الانسانى عما عداه من الأنواع .

والضمير هو القاضى الذى أجلسه البارى على منصةالقلوب الانسانية ، ليتولىإصدار الحكم على سلوك الحياة وأفعالها . غير أن الانسان لا يكون معصوما من الوقوع فى ضلال الأحكام الأخلاقية أو من السقوط فى هوة الخلط بين الرذيلة والفضيلة إلا إذا كان وجدانه على الفطرة التى خلقه الله عليها بحيث لم تستطع القوات الأخرى أن تلوى عنانه الى ناحية الشر فتصبح أحكامه خاطئة وسيره معوجا ، وتسلب منه الدقة فيمسى ولا أسهل عنده من الانخداع بالظواهر وتفضيل الأدنى على الأعلى ، وتندثر منه معالم الهدى والرشاد فيصبح ولا شىء يهمه سوى المنافع المادية التى تعظم فى نظره شيئا فشيئا حتى تصير هى مقياس الخير والشر المضبوط الذى لا يقام لغيره وزن .

أما الوجدان الفطرى الذى يتعهده صاحبه بدفع شرور النفس عنه ويتعود على طاعته والعمل بأوامره ولا يهمل فيه جانبى الدقة والقسوة المتأصلين فى طبيعته ، ويسير على ما يشرع له من قواعد ومناهج فيتلقى بسرور وسعادة ما يصدره إليه من أمر بالخير ، وينظر ببغض وارتياع الى ما يرسمه أمام عينيه من صور الشر الكريهة ، فهو الوجدان الصالح المستقيم .

تربية الوجدان عند هذا الفيلسوف :

قرر هذا الفيلسوف فيما سلف أن الوجدان فى أصله خيّر ومستقيم ، ولكن طوارئ الحياة المادية تستطيع أن تغيره ، فلنبحث فيما عساه أن يؤثر فيه ، ثم لننظر بعد ذلك فى وسائل الهدى . فأما المؤثرات السيئة على الوجدان فهى تتلخص كلها فى عامل واحد ، وهو أن يدع الانسان غرائزه الحيوانية تسير فى حرية لا حد لها ، ويطلق العنان لشهواته المادية فيطغى تيارها الجارف على كل عوامل الخير وأقباس النور الجاثمة فى نفس الانسان فيبددها ويحيلها الى ظلام دامس ، ويسلم القيادة العليا لتلك القوة الحيوانية ، فتسوء الحال ، ويصبح الوجدان ضالا غير قادر على تمييز أى شىء . وهنا يمسى الانسان معرى من كل خير ، مجردا من كل فضيلة ، لا يكترث إلا بالمنافع والشهوات ، ولا يحترم إلا المصالح المادية المنتجة الموصلة الى هذه الشهوات الحيوانية .

وسائل التربية والاصلاح فى رأيه :

هناك وسيلتان لا ثالثة لهما لتربية الضمير وإصلاح ما فسد منه بسبب طغيان تيار الشهوات عليه ، وهما : (١) الدين (٢) المدنية الصالحة . فأما الدين ، وهو القانون السماوى الطاهر

المعصوم الذى لا تستطيع الشهوات أن تطغى عليه ، فهو يعين مقدار ما للشهوات الجسمانية من سلطان يقفها عنده ، ولا يسمح لها بأن تتخطاه ، ثم يعيد الى الضمير سلطته الأولى وقوته البائدة . وأما المدنية الصالحة ، فنحن لا نقصد بها إلا الثقافة والعلم واستنارة الذهن وتمرين العقل على معاونة الضمير فى مغالبة الشهوة وكبح جماحها .

وعندى أن الكائنات تنقسم بالنسبة الى الضمير الى الدرجات الآتية : (١) الجماد ، وهو مفقود الحيوية والإحساس . (٢) النبات ، وهو متمتع بحيوية فقط . (٣) الحيوان ، وهو متمتع بحيوية وإحساس ، ولكنه إحساس مادى محدود لا يشْعِرُ صاحبه بأنه موجود ، ولا بأن عليه دورا فى الحياة يجب تمثيله. (٤) الانسان الناقص ، وهو مستمتع بحيوية وإحساس وشعور بوجوده وبتمثيل دوره فى الحياة فحسب . (٥) الانسان الكامل ، وهو ما يشتمل على كل مميزات الناقص ويزيد عليه بالضمير الأخلاقى المربى الذى لا يجدر بهذا الاسم إلا إذا توفرت له تلك التربية التى تمكنه من إصدار الحكم الحق على الأشياء ، وإلا فهو ضمير نفسى وهو يوجد عند الانسان الناقص » .

ومن الغريب أن هذا الأخلاقى الذى يجيز انخداع الضمير وضلاله ، ويوافق على تربيته وإصلاح ما فسد منه يعود فيقول عنه ما ترجمته : « إنه لصوت داخلى يلهمنا ما يجب أن نعمل وينذرنا بما ينبغى أن نتقى ونتجنب ، وإنه ليس شيئا آخر غير جزء من العدالة الالهيه . إنه لنور خالد ينبسط فوق أعمالنا فيكشفها لنا بوضوح وجلاء ، وإنه ليس إلا شعاعا من النور الأعلى » .

ولست أدرى كيف يتصور هذا الأستاذ ومن هم على شاكلته من الروحيين أن جزء العدالة الالهية أو شعاع النور الخالد يفسد وينحط الى حد أن يجوز عليه الضلال والانخداع ؟ ! أنا لا ألوم الماديين ولا « القرديين » أصحاب نظرية التطور على ما يقولونه من جواز فساد الضمير وضلاله ، لأنه فى رأيهم لا يزيد عن كونه خرافة خلقتها الضلالات الاجتماعية ، أو عادة دعت اليها المنافع العمرانية ، ومصالح الهيئة الاجتماعية . وإذاً ، فلا لوم عليهم إذا آمنوا بجواز فساده وانخداعه ماداموا قد أرجعوا أصله الى هذا العنصر الوضيع ، وأيقنوا بأن خالقه ومانحه كل هذه القوة الوهمية إنما هو الانسان ، ولكن الذى لا أستطيع أن أستسيغه ولا أن أفهمه هو تناقض هذا البعض من الفلاسفة الانسانيين والأخلاقيين الروحيين الذين كانوا يستطيعون أن يحفظوا مذاهبهم من الخلط والاضطراب ، وأن يجعلوها مستقيمة متزنة لو أنهم قرروا أن الضمير لا يفسد ولا يضل ، وإنما يتغلب عليه ضجيج الشهوات فيحول بين الانسان وبين سماع صوته ، فاذا خفت هذا الضجيج الشهوانى وهدأت ثورة الرغبات المادية ظهر هذا الصوت العلوى واضحا وإن لم يكن قد سكت لحظة واحدة ، وإنما كان السلطان لغيره فى أثناء هذه الثورة

كما قررنا ذلك مرارا . ولكن قد يقول لنا قائل : إذا كان الضمير من عالم الخلود فكيف استطاعت الشهوة أن تغلبه على أمره ؟ ونحن نجيبه بما أسلفناه غير مرة ، وهو : أن مبدع الكون قد حدد اختصاص الضمير ، وقصر سلطته على الحكم والأمر والنهى والانذار وإظهار الغبطة للطائعين ، وصب جامات السخط والتقريع على العاصين ، ولم يمنحه سلطة القضاء على كل شهوة ومحو كل رذيلة ، ولو أنه جلت حكمته فعل ذلك لقضى على نظام الكون الذى لا يمكن أن يكون على صورة أخرى غير التى هو عليها الآن ؟

« يتبع »

دكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

كلمات نابغة فى العقل

قال أبو هريرة رضى الله عنه : لو ازددت كل يوم مثقال ذرة من عقل ما باليت ما فاتنى من أنواع التطوع .

وقال وهب بن منبه : مثل العقلاء فى الدنيا مثل الليل والنهار لا تقوم الدنيا إلا بهما ، فكذلك المرء فى الدنيا لا حظ له إلا إذا كان عاقلا .

وقيل لأنو شروان ملك الفرس : أى الناس أولى بالسعادة ؟ قال أنقصهم ذنوبا . قيل فمن أنقصهم ذنوبا ؟ قال أتمهم عقلا .

وقال حكيم : إذا كان العقل فى النفس اللئيمة ، كان بمنزلة الشجرة الكريمة فى الأرض الذميمة ينتفع بثمرها على خبث المغرس ، فاجتن ثمر العقل وإن أتاك من لئام الناس .

وقال سعيد بن جبير : لم تر عيناى أفضل من فضل عقل يتردى به الرجل ، إن انكسر جبره ، وإن صرع أنعشه ، وإن ذل أعزه ، وإن اعوج أقامه ، وإن عثر أقاله ، وإن افتقر أغناه ، وإن عرى كساه ، وإن غوى أرشده ، وإن خاف أمنه ، وإن حزن أفرحه ، وإن تكلم صدقه وإن أقام بين ظهرانى قوم اغتبطوا به ، وإن غاب عنهم أسفوا عليه ، وإن بسط يده قالوا جواد ، وإن قبضها قالوا مقتصد (أى معتدل) ، وإن أشار قالوا عالم ، وإن صام قالوا مجتهد ، وإن أفطر قالوا معذور .

وقال شاعر :

ماوهب الله لامرىء هبة أشرف من عقله ومن أدبه
هما حياة الفتى فان عدما فان فقد الحياة أجمل به

سيرة الزبير بن العوام

نسبه رضى الله عنه :

هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، يجتمع مع النبى صلى الله عليه وسلم فى قصى ، وعدد ما بينهما من الآباء سواء . وأمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف بن قصى، فتجتمع مع ابنها وزوجها فى قصى، وعدد ما بينها وبين زوجها من الآباء سواء . ولما ولدته أمه أطلقت عليه اسم وكنية أخيها الزبير بن عبد المطلب ، وكان يكنى بأبى الطاهر ، وبقى معروفا بتلك الكنية حتى ولد له ابنه عبد الله ، وهو أول مولود ولد للمهاجرين بالمدينة المنورة بأنوار النبى صلى الله عليه وسلم ، فكان بعد ذلك يكنى بأبى عبد الله .

مولده ونشأته :

ولد رضى الله عنه بمكة المكرمة، ونشأ بها فى وسط متحضر متمدين ، لأن مكة كما وصفها الله كانت أم القرى ومثابة للناس وأمنا ، يفد الى كعبتها كافة الشعوب على اختلافهم فى اللغات وتفاوتهم فى الأخلاق والعادات ، فضلا عن أنها فى وسط عربى متحضر كبنى ثقيف بالطائف ، وبنى الأوس والخزرج بالمدينة ، وبنى غسان بالشام ، وكل هؤلاء وأمثالهم يؤمونها دائما لأداء نسكهم ، وعرض محاصيلهم وثمرات أفكارهم فى سوق الأدب والتجارة . فنشأة الزبير فى تلك البيئة أكسبته الأخلاق الفاضلة والعواطف النبيلة ، الى مافيه من كرم الأرومة وشرف العشيرة وكمال الفروسية التى نالت إعجاب النبى وتقديره العالى، حتى قال له صلى الله عليه وسلم يوما « فداك أبى وأمى » .

حياته وصفته :

كانت حياته رضى الله عنه فى الاسلام كلها ممتلئة بعمل الخير ، والجد والسهر على نصرة الدين وجماعته، وإعلاء كلمة الحق، فكم قاتل فى الله وكم بارز وكم قارع، وكم خاطر بنفسه امتثالا لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم. ولقد نوه الله بشأنه فأنزل الملائكة يوم بدر على صفته . وهو أحد العشرة الذين بشرهم النبى صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ولم يتخلف قط عن مشهد من مشاهد الخير . أسلم رضى الله عنه بدعاية أبى بكر ، وعمره إذ ذاك خمس عشرة سنة ، وقد نال شرف الهجرة مرتين : مرة الى الحبشة ثم عاد منها الى مكة وبقى بها ،حتى هاجر الى المدينة المنورة. وكان رضى الله عنه أسمر اللون ، ربعة القامة ، معتدل اللحم ، خفيف اللحية .

شرفه ومنزلته فى قومه :

حدث ما شئت عن شرفه من ناحية أبيه وأمه . فأمه عمة النبي صلى الله عليه وسلم ، وخديجة خير أمهات المؤمنين عمته . هذا الى ما ثبت فى المراجع المعتبرة من كتب السير أن عمر ابن الخطاب لما قتل استدعى ستة رجال من عظماء قومه وسرواتهم وهم الذين توفى النبي صلى الله عليه وسلم وهو راض عنهم ، فعهد اليهم بانتخاب أحدهم للخلافة ، وأوصاهم أن لا يمضى اليوم الرابع إلا وعليهم أمير منهم ، فكان الزبير أحد هؤلاء الزعماءالستة. وحدثنا البخارى فى صحيحه قال : أصاب عثمان رعاف شديد سنة الرعاف حتى حبسه عن الحج ، وأوصى فدخل عليه رجل من قريش قال استخلف ، قال : وقالوه ؟ قال نعم ، قال : ومن ؟ فسكت . فدخل عليه رجل آخر فقال استخلف ،فقال عثمان: وقالوا ؟ فقال نعم . قال : ومن هو ؟ فسكت . قال فلعلهم قالوا الزبير ؟ قال نعم . قال أما والذى نفسى بيده إنه لخيرهم ما علمت ، وإن كان لأحبهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد مدحه أمير الشعراء حسان بن ثابت الأنصارى ففضله على سائر الصحابة ، فمن ذلك قوله :

أقام على عهد النبي وهديه حواريه والقول بالفعل يعدل
إذا كشفت عن ساقها الحرب حشها بابيض سباق الى الموت يرفل
فما مثله فيهم ولا كان قبله وليس له فى الدهر قرن مماثل

كرمه ووفاؤه :

روى أنه لما نزل قوله تعالى فى القرآن الكريم : « ثم لتسالن يومئذ عن النعيم » قال الزبير : يارسول الله : وأى نعيم نسأل عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « أما إنه سيكون » . وقد حقق الله وعد نبيه الصادق الذى لا ينطق عن الهوى ، فقد ثبت فى كتب السير الصحيحة أنه كان للزبير ألف مملوك يؤدون اليه خراجهم ، فكان يتصدق بكل ما فضل عنه ولا يدخر منه شيئا فى بيته .

وروى عن هشام بن عروة أنه قال : أوصى الى الزبير سبعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان رضى الله عنه ينفق على أولادهم من ماله الخاص ويحفظ عليهم مالهم .

وأنا أقول : إن هذا منتهى الورع ، لأن الورع هو ترك الشبهات خوف الوقوع فى المحرمات ، فكيف بمن يترك المباحات خوف الوقوع فى الشبهات ؟ ومعلوم أن الزبير قد أحل الله له الانفاق على أولادهم من أموالهم ولكنه احتاط لنفسه فجعل بينه وبين الحرام حصنين : الشبهات ، وبعض المباحات. ومع هذا السخاء النادر فقدمات رضى الله عنه عن ثروة عظيمة، قال ابن عبدربه فى كتاب العقد الفريد: أخذ عبد الله بن الزبير لولده الثلث من تركة أبيه بوصية منه ثم قسم الباقى . وكان

للزبير أربع نسوة فأصاب كل امرأة ربع الثمن ألف ألف ومائة ألف . وأنا أقول سنداً لهذه الرواية : إنه لا غرابة فى ذلك ، فقد كانت أنصبة المجاهدين من الغنائم تكفى لتكوين أعظم ثروة لسروات أمثالهم ، فقد ذكر بدر الدين العينى على شرحه للبخارى أنه قد أصاب كل واحد من فرسان المجاهدين فى واقعة اليرموك على عهد أبى بكر أربعة وعشرين ألف مثقال من الذهب ومثلها من الفضة ، وهذه موقعة واحدة فى خلافة أبى بكر ذات المدة القصيرة فكيف بالغنائم التى أخذوها أيام عمر وعثمان ؟ وقد أدرك الزبير رضى الله عنه زمن عمر وعثمان وصدراً من خلافة على ، رضى الله عنهم أجمعين .

فروسيته وشجاعته :

هو أول من سل سيفا فى الله عز وجل ، وذلك أنه شاع بمكة أن النبى صلى الله عليه وسلم قد أخذه الكفار فأقبل الزبير رضى الله عنه عند ذلك يشق الناس بسيفه ، وكان النبى حينئذ بأعلى مكة فلما رآه قال له مالك يازبير ؟ قال : يارسول الله أخبرت أنك أخذت فعند ذلك صلى عليه النبى صلى الله عليه وسلم ودعا له ولسيفه .

وحدثنا البخارى فى صحيحه قال : « قال النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير : أنا ، ثم قال : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير أنا ، ثم قال : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير أنا . ثم قال إن لكل نبى حواريا وحوارىّ الزبير » .

وحدثنا البخارى أيضا فى صحيحه قال : « قال عبد الله بن الزبير: كنت يوم الأحزاب جعلت أنا وعمرو بن أبى سلمة فى النساء فنظرت فاذا أنا بالزبير على فرسه يختلف الى بنى قريظة مرتين أو ثلاثا ، فلما رجعت قلت: ياأبت رأيتك تختلف . فقال: أو هل رأيتنى يابنى ؟ قلت نعم. قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من يأت بنى قريظة فيأتينى بخبرهم ؟ فانطلقت فلما رجعت جمع لى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه فقال: فداك أبى وأمى » .

وناهيك بموقف واحد من مواقفه المشرفة صدّفيه وحده جيش الكفر جميعه : حدثنا البخارى فى صحيحه قال : « إن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا للزبير يوم اليرموك : ألا تشد فنشد معك ! فقال: إنى إن شددت كذبتم . فقالوا لانفعل ،فحمل عليهم الزبير حتى شق صفوفهم فجاوزهم وما معه أحد ثم رجع مقبلا ، فأخذوا بلجامه فضربوه ضربتين على عاتقه بينهما ضربة ضربها يوم بدر . قال عروة : كنت أدخل أصابعى فى تلك الضربات ألعب وأنا صغير .

ومن مفاخره أن عمر بن الخطاب قد عده بألف رجل فى الجيش الذى أرسله الى مصر مددا لعمرو بن العاص حيث كتب اليه يقول : « إنى قد أمددتك بأربعة آلاف على كل ألف رجل بمقام ألف » ، وكان الزبير رضى الله عنه أحد القواد الأربعة ، وكان جيش المسلمين إذ ذاك

بجانب جبل المقطم، وجيش الروم داخل حصن منيع حوله خندق محكم الأبواب، فلما طال المقام وأبطأ الفتح وضع الزبير سلما الى جانب الحصن وصعد عليه وتبعه كثير من المسلمين، وكان ذلك ليلا، فلما صاروا داخله كبر الزبير وكبر من خلفه ووضعوا السيف فى حاميته، وفر الباقون من أمامهم، وتم لهم فتح الحصن على يد الزبير بعد أن مكثوا حوله سبعة أشهر تقريبا .

مقتله رضى الله عنه :

روى أنه شهد وقعة الجمل مع عائشة أم المؤمنين مقاتلا لعلى بن أبى طالب، فناداه علىّ على انفراد وقال له : أتذكر إذ كنت أنا وأنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر الى وضحك وضحكت، فقلت أنت : لايدع ابن أبى طالب زهوه، يعنى كبره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمزه ولتقاتلنه وأنت له ظالم؟ فتذكر الزبير ذلك، فانصرف فى الحال عن القتال ونزل بوادى السباع ليصلى . فجاءه عمرو بن جرموز المجاشعى فقتله غدرا، ثم جاء بسيفه الى على فاستأذن فلم يؤذن له . ولما تناول على سيف الزبير نظر إليه مليا ثم قال : رحم الله الزبير لطالما فرج به الكرب عن وجه النبى صلى الله عليه وسلم! ثم قال بشروا ابن جرموز بالنار فانى سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : بشروا قاتل الزبير بالنار .

ولما مات رثته امرأته بقولها :

غدر بن جرموز بأشجع فارس ... يوم الهياج وكان غير معدد
ياعمرو لو نبهته لوجدته ... لا طائشا رعش الجنان ولا اليد
ثكلتك أمك إن قتلت لمسلما ... حلت عليك عقوبة المتعمد

وقال جرير ينعى على القاتل جرمه :

إنى تذكرنى الزبير حمامة ... تدعو ببطن الواديين هديلا
قالت قريش ما أذل مجاشعا ... جارا وأكرم ذا القتيل قتيلا
لو كنت حرا يا ابن قيس مجاشع ... شيعت ضيفك فرسخا أو ميلا

وكان مقتله رضى الله عنه يوم الخميس لعشر مضت من جمادى الأولى سنة ست وثلاثين من الهجرة، وعمره سبع وستون سنة . وقبره ناحية البصرة بوادى السباع . والله أعلم ؟

سيد أحمد متولى الشيخ
من علماء الأزهر برشيد

التطبيب فى الاسلام

بدأت جميع الأمم عهد التطبيب بالخلط بين هـذه الصناعة والعقائد الخرافية ، إلا الأمة الاسلامية ، فقد بدأتها على ما هى عليه اليوم من الاستقلال الفنى ، والدستور العلمى . وهذه ميزة من ميزات الأمة الاسلامية الـكثيرة ، وهى من أكبرها شأنا فى رأينا نظرا لاجماع الأمم القديمة على الخلط بين الطب والروحانيات والشعوذة .

نعم إن عامة الأمة الاسلامية فى عصور بعيدة وقريبة أخذوا إخْـذَ الأمم الأخرى فى هذا التخليط من طريق العدوى ، ولـكن خاصتهم ظلوا أوفياء لدينهم فلم يقعوا فى هذا الوهم .

ولما كان هـذا الموضوع شائعا من جهة أنه يرينا ناحيـة من نواحى العقلية الانسانية فى سذاجتها الأولى ، رأينا أن نلم بتاريخ الأمم حيال هذه الصناعة الـكريمة .

الطب عند المصريين القدماء :

كان للطب عند المصريين القدماء شأن عظيم ، وكان له أقطاب صرفوا العمر فى دراسته ، والتنقيب عن أسراره فى الهياكل والمعابد . وقد وصل الينا شيء كثير منه مدونا على ورق البردى . وقد عنى بأمره الباحثون فى قراءة الخط الهيروغليفى ، وترجمه الى العربية العلامة الأثرى أحمد كمال باشا رحمه الله .

قال العلامة كليمان الاسكندرى ، وهو ممن لهم اطلاع واسع على معارف المصريين القدماء : إن العلم المصرى كان مدونا فى دائرة معارف رسمية تقع فى اثنين وأربعين مجلدا ، وكانت الستة الأخيرة منها خاصة بعلم الطب ، وكانت عنواناتها هكذا : تركيب الجسم الانسانى ، الأمراض ، الأعضاء ، العلاجات ، أمراض العين ، أمراض النساء . وقـد ضاعت هـذه الـكتب ولم يبق منها شيء .

أما ماوجد من أوراق البردى فهما مجموعتان ، إحداهما ببرلين وكانت موضوع بحث دقيق من العلماء هنالك . وثانيتهما أوراق العالم (إيبر) وعدد صحفها ١٠٨ ، وقد ترجم منها صاحبها نفسه جزءا . أما الدكتور جوهاشيم فقد ترجمها كلها وجعل عليها تعاليق . من هذه الأوراق ما كتب نحو سنة ١٥٥٠ قبل عيسى عليه السلام ، ويؤكد الأستاذ إيبر أن أوراقه هـذه هى الجزء الرابع من دائرة المعارف المصرية القديمة ، وهى عبارة عن مجموعـة وصفات علاجية ، ولـكن الباحثين فى العلوم المصرية يخالف أكثرهم إيبر فى اعتقاده هذا .

أصل الطب فى اعتقاد المصريين : وحى إلهى ، أو علم ملـكى ، فيقولون : إن (توت) أى

(هرمس) الذى يشبه اسكولاب عنـد اليونان ، هو الذى أوحى العلوم ، ومنها علم الطب ، الى المصريين ، وكان يعرف بانه مستودع الأسرار السحرية .

كان فراعنة مصر كلفين بتعلم الطب ، فان الملك (نيتى) ابن الملك مينيس عرف بتأليفه كتابا فى علم التشريح ، وهو من ملوك الأسرة الأولى . واشتهر الملك نيخوروفس من الأسرة الثالثة بوضعه رسالة فى الطب .

كان جمهور أطباء المصريين من طائفة الكهنة ، كما كان الشأن فيما يتعلق بعلم الفلك والشريعة وغيرهما . وكان الطلبة ياخـذون العلم من المعابد ، وأشهرها معبـد منفيس وطيبة وسابيس وشينو . وكانوا يحملون المرضى الى الهياكل لأجل العناية بهم هنالك .

كان للاطباء المصريين امتيازات مثل إعفائهم من الضرائب ، وكان الناس يحملون اليهم هـدايا بدل الأجور . وكان منهم من هو موظف فى الحكومـة تنقده أجرة فى كل شهر ، وكان الناس يستشيرونهم بدون أجر . ولـكن عدم إمكان الطبيب المصرى تخطِّى ما فى الكتب المقدسة من الأصول ، تفاديا من عقوبة القتل ، كان حائلا دون تقدم علم الطب عما وصل اليه عند تدوينه فى الكتب .

كان علم التشريح متأخرا جـدا عند المصريين القـدماء ، وبراعتهم فى تصبير الجثث لم يكسبهم كبير شىء فى معرفة أعضاء الجسم الداخلية .فان المشتغلين بهذه الصناعة كانوا محتقرين جـدا فى نظر مواطنيهم ، وكان عملهم لا يتعدى استخراج أحشاء الجثث المهيأة للتصبير . وهذا لا يفيدهم شيئا من حقائق علم التشريح .

كان المصريون يعتقدون ، كسائر الأمم فى عصرهم ، أن أسباب الأمراض أرواح شريرة تستولى على الأجساد فتمرضها . وكانت مرامى الطب عندهم إخراج العامل المرضى من الجسم ثم إصلاح ما فسد منه ، ولذلك وصف لهم خواص النباتات ودعاهم لتعاطيها .

أما الرُّقَى فقد كانت أهم أركان الطب لابعاد الأرواح الشريرة عن الجسم .

الطب عند الكلدانيين والآشوريين والبابليين :

يوجد تشابه كبير بين الطب عند هذه الأمم وبينه عند المصريين ، فقد كانت الرقى والتعزيمات أساس الطب عندها ، كما كانت عندهم . ولـكن هنالك دلائل تدل على أن الطب عندها لم يكن مقصورا على الطرق السحرية فقط . فقد روى هيرودوت أن المريض عند البابليين كان يعرض على جمهور الناس ليصف له من يكون أصيب بمثل مرضه العلاج الذى شفى به . ولـكن ظهر فيما بعد أن كلام المؤرخ هيرودوت خطأ ، فإنه كان لدى البابليين والآشوريين أطباء من غير هؤلاء ، كما كان لدى المصريين .

أما الأطباء الكلدانيون فكانوا من طائفة السحرة ، وكانت قوتهم كلها تنحصر فى هذه

الصناعة ، فكان جل اهتمامهم موجها الى معالجة المريض بالرقى ، ولكنهم مع هذا كانوا يصفون له تعاطى بعض الأعشاب .

كانت عقيدة الكلدانيين أن الناس محاطون بالأرواح من جميع الجهات منهم الطيب والخبيث ، وكانت الطائفتان فى حرب مستمرة ، وكانت جميع الأمراض تعزى للأرواح الخبيثة .

الطب عند الصينيين واليابانيين :

يقول الصينيون : إن الطب ظهر عندهم من زمان بعيد جدا ، فانهم يزعمون أنه كانت لهم حدائق لتربية النباتات الطبية قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة . ويقولون بأن الامبراطور (هوانج تى) ألف لهم كتابا فى الطب حوالى سنة ٢٦٠٠ قبل المسيح . وهذا الكتاب باق عندهم الى اليوم فيما يدعون .

وقد استفاد الأوربيون من معارفهم الطبية ، فذكر القس (دوهالد) الاطباء الصينيين وأثنى عليهم ، وذكر (القس جروزييه) بأن العالم (بوردو) أخذ مباحثه فى النبض عن الكتب الصينية .

كان أكثر اهتمام الصينيين موجها الى إتقان علم المادة الطبية . وكتابهم المسمى (بنتاو) يذكر ١١٠٠ مادة ويسرد خصائصها العلاجية ، وهو يعتبر كنز المادة الطبية لديهم .

أما الطب عند اليابانيين فقد كان مقتبسا من طب أهل الصين ، وكان مختلطا بالعقيدة فى تأثير الأرواح الشريرة فى أجساد الناس .

الطب عند الهنديين :

كان الطب عن أهل الهند بيد الكهنة البراهمة ، وقد عرف اليونانيون القدماء أيام مدنيتهم بأن الطب الهندى أرقى من طبهم ، ولكنهم لم يبينوا وجوه هذا الرقى ، فقد تكلم ابقراط كثيرا عن علاجاتهم ، وكان تيوفراست اليونانى يذكر أعشابا طبية أخذها عنهم .

كان الطب عند الهنود بيد رجال الدين كما قلنا ، وكانت أركانه قائمة على قواعد وهمية ، وكتبهم الدينية تشهد بذلك ، فهى ملأى بالتعزيمات والرقى والوصفات السحرية .

وفى كتابهم المسمى (ريجفيدا) تنويه بخصائص شفائية لأعشاب كثيرة ، وتجد بجانبها دعوات تتلى لازالة كثير من الأمراض ، وهذه الدعوات يجب أن توجه لآلهة الشفاء ، أو الى العلاجات نفسها .

ثم ظهر لديهم العلم الطبى بمعناه الصحيح على يد جماعة البراهمة أنفسهم . أما زمن ظهور هذا العلم عندهم فما لا يستطاع تعيينه ، ولكنه مع ذلك لم يخل قط من الاختلاط بعقيدة الأرواح الشريرة ، فان عنها فصولا مطولة فى أكبر الكتب الطبية هنالك .

الطب عند الاسرائيليين :

كان الطب عندهم محتكراً لرجال الدين، ولم يكن لعلم التشريح عندهم من اعتبار، فان الاسرائيلى كان يستنكر أن يشرح جثة لتحريم الدين عليه ذلك ، بل كان لا يستطيع أن يلمس جثة إنسان أو حيوان ، وإلا اضطر أن يتطهر .

أما عقيدة اليهود فى الأمراض فى العهد الموسوى ، فكانت أنها عقوبة مرسلة من الله تعالى . فاذا انتشر الطاعون بينهم قالوا إن ذلك نتيجة عصيانهم للأوامر الالهية . وكان بعضهم ينذر بعضا بفشو الأمراض كلما ناقضوا الناموس الالهى ، وكان ذلك يقوم فى نظرهم مقام الانذار بالعذاب الأخروى الذى كانوا ينوهون به فى مواعظهم .

ومع هذا فقد كانوا يعزون بعض الأمراض لأسباب طبيعية ، كتراكم الصفراء أو فساد الهواء أو تغيرات الجو أو عصيان قوانين الصحة أو حلول عفريت بالجسم لا دواء لاخراجه إلا الرقى والتعزيمات .

وقد وجدت فى التلمود ، وهو كتاب الشرع اليهودى ، مبادىء علمية طبية لسير الأمراض وتشخيصها وأزماتها وغير ذلك .

الطب عند الفرس :

يصعد تاريخ الطب عند الفرس الى نحـو القرن الرابع قبل المسيح عليه السلام ، وأصوله الأولية مذكورة فى كتابهم المقدس المسمى زندا فستا ، وهذا الـكتاب أحدث عهدا من كتب الفيدا الهندية المقدسة . والذى يختص بالطب من كتاب زندا فستا فى الطب هو الفصل الذى عنوانه فنديداد ، وخاصة تحت عنوان فرجاد .

كان الطب عند الفرس خليطـا من التعزيمـات والرقى وشىء من المبادىء الطبية العلميـة . وعندهم أن إله الشر افريمان أطلق جميع الأمراض وسلطها على الناس ، وعارضه ارموزد إله الخير وعلم الناس جميع الأدوية الضرورية لحفظ صحتهم .

الطب عند اليونان :

لم يبدأ الطب عند اليونانيين بحياة أبقراط ، فقد كان موجودا قبله ، بدليل أن أبقراط نفسه كان ينقل عن مؤلفات سابقة عهده ، ولـكن فضل أبقراط ينحصر فى تخليص هذا العلم مما كان اختلط به من الشعوذة والعقائد بالأرواح الشريرة .

الـكتب التى ألفت قبل عهد أبقراط معدومة الآن ، فليس لنا أقدم من كتب هذا الطبيب .

والذى نعلمه أن الطب قبله كان فى أيدى كهان اسكلبياد فى هيكل اسكولاب، ولكن كان بجانب هؤلاء أطباء من غير طائفة الكهان ساعدوا على نشر صناعة الطب .

كان الطب فى مبدأ تكونه عند اليونانيين سحريا وسائله الرقى والتعزيمات، فكان من الصناعات السرية التى يحرص عليها رجال الدين . وكان المريض ينقل الى المعبد فيزوره فيه الاله فى زعمهم ، ويرى ليلته تلك من الرؤى ما يدل تعبيرها على دائه ودوائه .

ثم لما نبغ الفلاسفة من أمثال أناكزيماندر وبارامنيد وهيرا كليت وغيرهم، نظروا فى طبيعة الانسان وتناولوا الكلام على صحته ومرضه ، وما يصلح له من الأغذية والأهوية والأحوال وما لا يصلح .

فلما جاء فيثاغورس اشتغل بالطب، ويظن أن الفيلسوف أمبيدوكل كان طبيبا أيضا، ولكن لم يبق لنا من كتبه شىء .

ثم توالى فلاسفة بذلوا لعلم الطب معظم أوقاتهم ، فبحثوا فى خواص الأعشاب وتأثيرها على الجسم ، وفى آثار الأهوية ، ولم يهملوا النظر فى أدوار الأمراض ومضاعفاتها حتى بلغوا شأوا بعيدا ظهر بأجلى مظاهره فى مدرسة الاسكندرية التى أسسها بطليموس الأول والثانى ملكا مصر من اليونانيين ، وكان أنبغ طبيب ظهر منها جالينوس .

الطب عند الرومانيين :

لما قامت الدولة الرومانية انتحلت الطب اليونانى مختلطا بكثير من الخرافات .

أما الطب العلمى فلم يصل الى الرومانيين إلا على يد الطبيب اليونانى أركاجانوس بن ليزانياس سنة (١٩٢) قبل المسيح ، فقوبل باحتفاء كبير ، ولكنه لم يلبث أن سقط الى الحضيض لخطئه فى بعض الأعمال الجراحية . ولكن جاء بعده أطباء آخرون من اليونانيين أيضا فثبتت أصول الطب العلمى وأزهر فيها .

الطب عند العرب الجاهليين :

لم يكن العرب محصورين فى شبه جزيرتهم قبل الاسلام ، ولكنهم اتصلوا بالفنيقيين وسكان آسيا الصغرى والجزيرة ، وهاجر اليهم يهود من أقطار مختلفة كانوا على صلة بالعلوم . فتعلم الطب من الجاهليين أفراد إشباعا لشهوة علمية ، ولكنهم لم يستطيعوا نشر ماعرفوه فى أمتهم لانصرافهم عن غير ما ألفوه ، منهم الحرث بن كلدة ، كان تعلم الطب فى بلاد الفرس .

فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم وحض العرب على التعلم والأخذ بأسباب النهوض والارتقاء ، لم يدعوا شيئا بعد قيام دولتهم يمكن تعلمه إلا أخذوه وحذقوه وزادوا عليه .

فلم ينته القرن الثانى حتى كانت بلادهم مطمح أنظار المستفيدين فى كل فرع من فروع العلوم ، ومنه الطب الذى برزوا فيه وأوصلوه الى درجة من السمو لا يزال معها محل إعجاب الأطباء المعاصرين .

ولو كنا هنا بصدد الاتيان على تاريخ الطب لديهم لبيّنا مبلغ ما وصلوا اليه من إتقان هذه الصناعة ، ويكفى فى الدلالة عليها أن ملوك أوروبا وكبراءها كانوا يقصدون عواصم المسلمين للتطبب فيها بواسطة أطبائها .

ولكن الذى يعنينا أن الدين الاسلامى ، خلافا لما يروى عن سائر الأديان ، هو الذى جرد علم الطب من خرافاته للآخذين به ، وأن أئمته الأولين جروا على هذا السمت فلم يخلطوا بين الماديات والروحانيات فيما يتعلق به .

لقد فرض الله على الآخذين بدينه جميع الأصول التى يعتبرها الطب الرسمى اليوم القواعد الأولية التى تصلح لدفع جميع الأمراض البدنية ، كالنظافة الجسمية ، وتحرى الطيبات فى المأكل والمشرب وترك الخبائث ، وعدم الاسراف فى تناول الطيبات نفسها ، وعدم تعريض النفس للهلكة ، والاعتدال فى جميع المطالب الجسمية ، والأخذ باليسر حتى فى العبادات ، وكل هذه الأصول تعتبر قواعد مقررة لحفظ الصحة .

ولم ينوّه الكتاب الكريم فى أى معرض من معارض الشئون الى الأسباب الروحانية ، إلا فى ناحية الاغراء على الشرور والآثام ، ولكنه ناط علاجها بقوة الارادة الانسانية فقال تعالى : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون » أى تذكروا أوامر الله ونواهيه فأبصروا تضليل الشيطان فأقلعوا عنه . أما ما أمر به من الاستعاذة بالله ، فذلك باعتبار أنه مصدر كل قوة ، والالتجاء اليه يمده منها فيقوى على وسوسة الشيطان . ففزع الانسان فى كل هذا موجه لإرادته الشخصية لا لخاصة سحرية فى الألفاظ . وليس فى الكتاب آية واحدة تشير الى اللجأ الى التعزيمات والرقى لدفع الأمراض ، بل فيه ما يشير الى اللجأ الى بعض المواد لدفعها ، فقال عند ذكر العسل : « فيه شفاء للناس » .

أما السنة ففيها كل البيان فى هذا الشأن : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « تداووا أيها الناس فان الله لم يخلق داء إلا خلق له دواء » . وهذا تصريح بأن المرض لا يلجأ فيه إلا الى الدواء لا الى المعزمين والراقين . ولما مرض أبو بكر مرضه الأخير قالوا له : أنلتمس لك طبيبا ؟ ولم يقولوا له أنلتمس لك راقيا ؟

ومما نطرف به القراء هنا أن الاسلام أول من سن وجوب التمييز بين الطب المقرر المستمد من العلوم والتجارب ، وبين الدجل الذى يدعيه بعض الناس لاستدرار أموال الناس بالباطل ، فقال عليه الصلاة والسلام : « من تطبب ولم يعلم منه طب فهو ضامن » أى مطالب

بما يحدث من ضرر بالمريض ، وهذا بلا شك مبدأ يستند إليه فى تحريم مزاولة الطب على غير الذين درسوه فى كلياته الرسمية .

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم توصيات بتعاطى بعض العقاقير كالعسل وزيت الزيتون والشونيز وغيره ، ولم يروعنه شىء فى منفعة الرقى والتعزيمات .

نعم : إنه كان يرقى الأطفال ، ورقياه لا تخرج عن الدعاء لهم وتلاوة شىء من القرآن تبركا به ، باعتبار أنهم كائنات ضعيفة لا إرادة لهم ولا قوة . ولـكن لم يوجد فيما كان يرقى به اسم لشيطان أو ملك أو مناجاة لروح كوكب .

وليس الأمر فى الاسلام واقفا عند هذا الحد ، بل حرم النبى صلى الله عليه وسلم لبس الطلاسم والتمائم ، حرصا منه على مبدأ عدم التعويل إلا على الأسباب المعروفة ، وابتعادا عن وساوس الأقدمين وخزعبلاتهم .

فالطب ولد فى الاسـلام على الطريقة المثلى التى قام عليها فى العهود العلمية ، لذلك عول المسلمون إبان نهضتهم على كتبه المقررة ، فترجموها الى لغتهم ، وأخذوا بما فيها وزادوا مادتها .

نعم قد أخذ المسلمون من لدن القرن الثانى والثالث إخْذَ الأمم الخالية فى التعويل على التعاويذ والطلاسم والتمائم ، سرى اليهم ذلك مما ترجموه من كتب السريان والـكلدانيين والأنباط وغيرهم ، ولـكن ما اقترفوه من ذلك ليس من الاسلام ، وقد ذاقوا مرارته بما ابتلى على ذلك من انتشار الدجاجلة وفتكهم بالناس بأساليبهم المضللة ، والحـكومات الاسلامية جادة اليوم فى الأخذ على أيديهم ، ولا يشيننا وجودهم ، فأوربا وأمريكا لا تخـلوان من أمثالهم مع بلوغ علم الطب فيهما أوجه الأعلى ؟

محمد فريد وجدى

ما يصفو به ود المتوادين

قال عمر بن الخطاب أمير المؤمنين : ثلاث يصفو بها ود أخيك : تسـلم عليه إذا لقيته ، وتوسع له فى المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه اليه .

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : لا يكون الصديق صديقا حتى يحفظ أخاه فى ثلاث : فى نكبته ، وغيبته ، ووفاته .

وقال أبو العتاهية :

أحب من الاخوان كل مواتى ... وكل غضيض الطرف من عثراتى
يوافقنى فى كل أمر أريده ... ويحفظنى حيا وبعد مماتى
ومن لى بهذا ليت أنى وجدته ... فقاسمته مالى من الحسنات

الدروس الدينية

خطوة موفقة فى سبيل التوفيق بين المذاهب

إن السنة الكريمة التى سنها حضرة صاحب الجلالة الملك الفاروق فى الاستماع الى الدروس الدينية ، تعتبر بحق حادثا جللا فى العالم الاسلامى الحديث ، سيكون من آثارها المباشرة يقظة العاطفة الاسلامية فى نفوس الأمم الآخذة بهذا الدين ، والرغبة فى استجلاء روحه الصحيحة ، وأصوله العالمية القويمة ، ولفت الرجال الذين تضلعوا فى علومه الى القيام بواجباتهم الاجتماعية ، وتقريب مسافة التباين بينهم وبين الذين يتربون تربية دنيوية . ولما كان هذا لايمكن أن يكون إلا من طريق التناسب العقلى ، والترابط العلمى بين الفريقين ، فسيثمر هذا الجهد انقلابا خطيرا فى وسائل الفهم ، وطرائق تجلية الأغراض الاسلامية ، ودعمها دعما فلسفيا يستهوى عقول المستمعين ،ويستنزل إعجابهم واستحسانهم. والأصول الاسلامية متى جليت على هذا النحو أسرت النفوس ، وبهرت الألباب ، واستولت بسموها على الميول والعواطف ، ولا يكون لتيارها حد يقف عنده ، وخاصة فى هذا العصر حيث وهنت التعصبات المذهبية ، واسترخت عرى المعتقدات الوراثية ، وتطلعت الأرواح لعقيدة سامية يثلج عليها الصدر ، ويشهد لها العلم .

وكان من فضل الله أن وافقت رغبة جلالة الملك فى سن هذه السنة الكريمة عهدَ حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ المراغى ، فلقد قام من هذه الناحية بما اعتبر تجديدا باهرا فى حسن البيان ، وجمال الأداء ، وجلال الموضوع ، فكان عند ظن الناس بعلو كعبه فى المعارف الدينية ، وسعة اطلاعه فى العلوم الاجتماعية . وكان أثر هذا كله أن افتتن الناس قاطبة بهذه الدروس وعلى رأسهم كبار العلماء وشيوخ الكليات والطلبة . ولم يروا بدامن أن يولوا وجوههم شطر الأستاذ الامام طالبين اليه الاستمرار فى إلقاء هذه المحاضرات .

جال الأستاذ الامام فى دروسه فى نواحى شتى مما يهم النفوس من أسرار الدين ، وأصوله العلمية ، وفيما له صلة بالعالم الانسانى ومراميه الأدبية ، فتأدى من ذلك الى اختلاف المذاهب ، ونشوء الفرق ، وما ابتنى على ذلك من انفصام وحدة المسلمين ، ووقوع الشقاق بينهم ، فبين فضيلته الأسباب التى دعت الى ذلك ، والبواعث التى أوجبته ، ورأى أن هذا التخالف يمكن تداركه الآن ، أو على القليل حصره فى دوائر ضيقة لو تولى أمره مجمع شرعى يؤلف خصيصا لهذا الغرض من أعلام الدين ، وحفظة بيناته .

مطلب جليل القدر ، بعيد الأثر فى جمع كلمة المسلمين ، وتوحيد وجهاتهم ، وتعيين غاياتهم ، وإعداد نفوسهم لفهم مرامى الاسلام ، وتحقيق مقاصده ، وحسم ذريع لمادة الخلاف

التى لا يصح أن توجد إذا راعى المسلمون الأصول العلمية والفلسفية التى بثها الحق فى كتابه ، وطالب الناس بالأخذ بها .

إن الذين يعرفون تاريخ الاسلام يدركون أن هذا الخلاف الذى وقع فيه المسلمون من لدن القرن الأول للهجرة جر حروبا سالت فيها الدماء أنهارا تحت اسم حروب الخوارج . ولو أنعمنا النظر فى الخلافات التى أدت الى كل هذه المجازر، وجدناها خلافات سياسية ، تولدت من اختلافات فى وجهة النظر فيمن هو أحق بالخلافة : أبو بكر أم على ؟ وفى مسألة التحكيم بين على ومعاوية : هل يصح أم لا يصح ؟ وقد انقسموا الى ستة مذاهب رئيسية ، وهم الأزارقة والنجدات والصفرية والعجاردة والاباضية والثعالبة ،وهى أسماء منحوتة من أسماء زعمائها. وقد انقسمت هذه الفرق الى فروع كثيرة ، يجمعهم القول بالتبرؤ من عثمان وعلى ومن كل مرتكبى الكبائر من المسلمين . ومن الغريب أن الحوادث التى اقتضت ظهور هذه المذاهب قد انقضت ولم تنقض المجادلات حولها بين المسلمين ، وكثيرا ما حملتهم على تحكيم السيف بينهم وإزهاق الأرواح البريئة .

أليس مما لايتفق وأبسط أحكام المنطق أن يمضى على أبى بكر وعلى رضى الله عنهما أكثر من ألف وثلاثمائة سنة ، ولا تزال الأحقاد متأججة فى صدور أنصار كل منهما ؟ ألم يقرأ الناس بين حين وآخر أن قتالا قد حدث فى الهند بين الشيعة وأهل السنة فجرح من الطرفين وقتل كذا وكذا ؟ هل هذا من الاسلام ، بل هل هذا من العقل ؟ ألم يقل الكتاب وقد ذكر الانبياء السابقين : « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون » ؟ فلو كان لدينا هيئة شرعية مؤلفة من كبار أئمة الدين كما يرتئيه فضيلة الاستاذ الامام لنبهت أولئك المتعصبين الى خطئهم ، ووقتهم شر ما يجنون على أنفسهم ودينهم .

ثم جاء دور علم الكلام من لدن القرن الثانى للهجرة فأدى الى انفراج فى الآراء ، وخلافات فى وجهات النظر ، اشتغل بها أهلها أجيالا ، ودعت الى نشوء أكثر من سبعين فرقة ليس بينها وبين ما كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه أصغر صلة ، جمعت كل ما يمكن أن يطوف بالعقول من الخزعبلات ، حتى إن منها من زعم أن طول الخالق سبعة أشبار ،وأنه جالس على عرش ، وأن العرش ليئط من تحته . ومنها من وصل الى الاباحة الصرفة الخ الخ .

هذه المذاهب إن لم يكن لها أشياع ظاهرون فى مصر ، فهى موجودة فى بقاع أخر لاتزال تعمل على إفساد عقلية المسلمين الى اليوم .

بقيت المذاهب الفقهية ، وهذه لاغبار عليها ، أسسها رجال كانوا مُثلا عليا فى العلم والورع ، وهى التى تتوزع المسلمين اليوم فى جميع أقطار العالم ، ولكنها مع سلامة جوهرها من كل شائبة أدت الى فتن بين أشياعها فى أدوار شتى ، وسالت بين أهلها دماء غزيرة فى بقاع كثيرة من الأرض ، وقد كان حصة مصر منها موفورا ، فكثيرا ما أدى الجدال بين الشافعية والحنفية ، وبينهم وبين الحنابلة ، الى معارك سالت فيها الدماء . فاذا كانت قد هدأت هذه الثائرة بينهم منذ

نحو جيل فما ذلك إلا بسبب التطور الذى حدث فى العقول فى مدى القرن الأخير . وهـذا التطور نفسه هو الذى يلهم النفوس اليوم وجوب تضييق مسافة هذه الخلافات .

ولو تَعَرَّفنا حقيقة هذه الحاجة النفسية لوجدناها تعنى المطالبة بالعمل بحصتنا من النظر فى أمور الدين ، كما عمل أسلافنا بحصتهم منه . فاذا كانوا قد عملوا به فرادى جريا مع سنة العصر الذى كانوا فيه فبلغوا غايات بعيدة من الاصابة والتحقيق ، فنحن نرجى أن نعمل به مجتمعين جريا على سنة عصرنا الحاضر ، ليكون عملنا أدعى الى الرضاء العام ، وأفعل فى الوصول الى الحقائق الاجماعية . فاذا لم نستطع أن نحصل على توحيد المذاهب فاننا نستطيع أن نضيق شقة الخلاف بينها كما يقول فضيلة الأستاذ الامام .

الاسلام دين مبنى على النظر المستقل ، والرأى الحر ، فهو يكره التقليد وينعى على المقلدين ، ويطالب كل جماعة بالعمل فى حدود الأصول العامة التى رسمها لها ، وقد صرح جميع الأئمة بأنه لا يجوز للقادرين على النظر وتقدير الأدلة أن يأخذوا بما قالوه تقليدا دون نظر ولا تمحيص . فماذا يعنى بعد ذلك إهمالنا لذلك كله ، وتعطيلنا أشرف موهبة وهبها الله للناس وهى النظر والتعقل ؟ هل يعنى شيئا غير أننا نريد أن نعفى أنفسنا من القيام بنصيبنا من إقامة صرح الدين ، لنكون عالة على من تقدمنا ، فى عصر لا يغفر لأمة فيه أن تقوم على هذه الحالة ، اللهم إلا إذا كانت تريد من وراء هذا الاهمال أن يصبح الدين ، بسبب ما تسرب اليها من الشك فيه ، أثرا من آثار أسلافها ، لا عنصرا عاملا فى تكييف وجودها ؟

إن كل شىء فى الأمم الحية يحتاج للتجديد ، إن لم يكن فى جوهره ففى أسلوبه ، وفى عرضه ، وفى لهجته ، وفى أدلته ، وقد بدأنا نأخـذ حظنا من هـذه السنة فى لغتنا وآدابنا وعاداتنا ووجهات نظرنا ، أفنهمل هذا بالنسبة لأشرف حاجات النفوس وهو الدين ؟ وقد صرح النبى صلى الله عليه وسلم بأن التجديد من طبيعة الاسلام ، فقال : « إن الله يرسل على رأس كل مائة من يجدد لهذه الأمة دينها » . وكيف يحصل هـذا التجديد إذا لم يكن بالنظر فى كل ما تركه لنا الأولون ، والعمل على توحيده وتنسيقه وتقوية أدلته وتدارك ما جد مما لم يكن له وجود على عهدهم ؟

ومن الذى يستطيع هذا كله غير جماعة تقوم عليه تختار من أعلم الناس بالدين وعلومه من جميع الشعوب الاسلامية ؟

هذا ما أراده الأستاذ الامام فى أحد دروسه الدينية ، وأقسم أنه لم ترتفع دعوة إصلاح فى جِواء العالم الاسلامى فى أى عهد من عهوده أرفع من دعوة فضيلته هذه ، فعلى المسلمين أن يدركوا ما تعنيه هذه النزعة الشريفة ، وليعلموا أن هـذه الدعوة إن لم تثمر ثمرتها اليوم ، فستتحقق غدا ما دام المسلمون يريدون أن يبقى دينهم حيا ، يحفز الى المكانات العلى شعوبا حية ، وهو جدير بذلك وهم يشهدون .

محمد فريد وجدى

وفد علماء كلية الشريعة عند الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر :

عقـد علماء كلية الشريعة ، صبيحة ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٧ اجتماعا فى دار الـكلية ، ضم طائفة من حضرات أصحاب الفضيلة أعضاء جماعة كبـار العلماء ، وتباحثوا فى الموقف الذى يصح أن يقفه علماء الأزهر حيال استمرار فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر فى إلقاء الدروس الدينية فى المساجد العامة التى افتتحها فضيلته فى شهر رمضان المبارك ، ورغب جلالة الملك فى حضورها .

وقد ألفوا وفدا وضع التماسا يتضمن رغباتهم ، وقصد الوفد الى إدارة المعاهد الدينية ، حيث قابل أعضاؤه حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام شيخ الجامع الأزهر راجين أن يتفضل برفع شـكرهم لحضرة صاحب الجلالة على ندائه الـكريم للمسلمين يوم أول رمضان حثا لهم على القيام بفريضة الصيام ، وعلى حضوره الدروس الدينية .

وعلى أثر تقديم الالتماس وقف فضيلة الأستاذ الشيخ محمد هلال الأبيارى عضو جماعة كبار العلماء وألقى كلمة مستفيضة استهلها بتعداد ما أصاب الأزهر والأزهريين من مختلف الويلات والمصائب حتى كاد الأزهر يتردى فى الهاوية ، لولا أن قيض الله له إماما رفيع المـكانة عظيم القدر .

وأعقبه فضيلة الأستاذ الشيخ عبد اللطيف السبكى وألقى كلمة فى مثل هذه المعانى .

كلمة فضيلة الأستاذ الامام :

حضرات الإخوان :

أحييكم أطيب التحية . وبعد: فانه يسرنى جدا أن أرى فيكم هذا الشعور ، شعور الاعتراف بالجميل ، وإن كنت أعتقد أنى فيما أعمله وما عملته الى الآن لم يكن إلا القيام بالواجب على كل مسلم أن يقوم به ، ومع ذلك فهو الى الآن لم ينتج ثمره الذى يرجوه المسلمون .

نعم : أعتقد أننا فى بداية الطريق . وأقول لـكم إن القيام بواجب نشر دين الله لا يكفى فيه المجهود الفردى ، وإنما يحتاج الى تضافر جهـود المسلمين وأولى الرأى جميعا ، وإنه ليسرنى منكم هذا الشعور الذى جعلنى أعتقد أن مهمة نشر الدين تحل المحل اللائق بها ، وأنها آخذة فى الازدياد .

ولقد سمعت من خطبائكم ما يفيد أن ناسا لا يسرهم قيام المسلمين بنشر دينهم ويخشون شيوع الروح الدينى بين المسلمين .

وأنا لم يبلغنى هذا من طريق موثوق به ، لذلك فانى على فرض حصوله أتجاهله ولا أفرض وجوده ، لأنى لا أفهم أن مسلما يسوءه نشر دين الله فضلا عن أن يقيم العراقيل فى طريق ذلك .

إن لكل شىء مهمة فى هذه الحياة عليه أن يؤديها ، تلك هى طبيعة الوجود ، فاذا وجد شىء لا يقوم بتلك المهمة كان من الواجب أن يزول .

والأزهر كائن حى ، عليه واجب ، وله مهمة عليه أن يؤديها ، ولقد تلقى عن السلف الصالح ميراثا هو نشر كتاب الله ولغته وسنة رسوله ولغتها والعمل على إحيائهما . فإذا لم يقم بذلك وجب أن يزول من الحياة وكان من العبث بقاؤه .

واختتم فضيلته كلمته بقوله : إن مولانا الملك حفظه الله يسره ، ويرى من أجل أمانيه ، أن يكون الخادم لدينه ، والشديد العطف على أهله . وإنى أبتهل الى الله أن يحفظه ذخرا للدين وعاملا على إحيائه . وإنى أشكر لكم هذه الزيارة وهذا الشعور الطيب .

وفد كلية أصول الدين فى رياسة الأزهر لشكر جلالة الملك

خطبة جامعة لفضيلة الأستاذ الامام

وقصد الى رياسة الأزهر بعد ظهر ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٧ وفد من أصحاب الفضيلة علماء كلية أصول الدين نيابة عن علمائها لرفع شكر العلماء وولائهم لصاحب الجلالة الملك .

وكان الوفد برياسة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالى وكيل الكلية فالقى كلمة عن الدروس الدينية ، وعن العواطف الدينية الشريفة التى يبديها جلالة الملك ، وعن واجب الأزهر فى الدعوة الى دين الله وتنقية عقائد المسلمين مما يعلق بها من البدع والخرافات ، ويظهر دين الله على فطرته الأولى من الحق .

وألقى بعد ذلك فضيلة الأستاذ الشيخ على محفوظ المدرس بالكلية كلمة أشاد فيها بمناقب جلالة الملك ، وانتقل الى الحديث عن فضيلة الأستاذ الاكبر وذكر ما كان يقوم به السلف الصالحون من الواعظين فى عصور الاسلام :

ثم قدم الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالى التماس كلية أصول الدين موقعاً عليه من خمسين عالما

خطبة فضيلة الأستاذ الأكبر :

تحدث خطباؤكم عن صاحب الجلالة الملك فاروق ، ومن حقنا جميعا أن نتحدث بشكره وأن نشيد بفضله .

فلقد جاء جلالته ونفوس المسلمين فى مصر وغيرها متهيئة لليقظة وللاستفادة ، وقلوبهم متوثبة مستعدة للعمل لخير دينهم وأنفسهم ، معتقدين أن ما حاق بالمسلمين من عسف وذل وهوان لم يكن سببه إلا البعد عن الدين وعن العمل به .

جاء الملك فاروق فى هذا الوقت والنفوس متهيئة لذلك ، فقاد هذه الحركة قيادة رجل ماهر حكيم يقظ ، قيادة جاءت عن طبع فيه ، وعن سجية أنشأه الله عليها ولم يتكلفها . فهو ملك خيّر طيب ، مؤمن بالله وبدينه ، وبما فى الاسلام من جمال وجلال وحق . هذه السجايا الشريفة التى لا كلفة فيها، وهذا الاخلاص لله ولدينه ،سيجعلنا بقوة الله نصل الى ماتريده من توفيق وسعادة .

الدروس الدينية ودوامها :

أما الدروس الدينية فانى أعتقد أن إخلاصكم لى ومحبتكم إياى أكبرت من شأنها عندكم بأكثر مما تستحق . فهذه الدروس كانت شرحا لبعض الآيات الكريمة ، قصدت به أن يكون فى المستوى الذى يفهمه الجمهور لا فى المستوى الذى يستفيد منه العلماء . فاذا قابله الجمهور بالحمد والاطمئنان والرغبة فى الزيادة فانى أصدق ذلك وأحمد الله عليه وعلى أنهم أفادوا منه . أما إذا سمعت منكم أن هذه الدروس كانت محل إفادة للعلماء فهو ما أحمله على الظن وعلى محمل رضاكم وإخلاصكم ومحبتكم لى ، وأحمد الله على ذلك أيضا .

وإذا كان الجمهور متعطشا لمثل هذه الدروس ففيكم والحمد لله كثرة من أهل الفضل والعلم والقادرين على ذلك . فيكم كثيرون ممن يستطيعون أن يؤدوا لجمهور المسلمين ما أداه الشيخ المراغى وما لا يستطيع أن يداوم عليه لمشاغله التى تعلمون بعضها ويخفى عنكم كثير منها .

ولذلك أرجوكم وأطلب اليكم أن يقوم كل قادر منكم بواجبه لخدمة العلم والجمهور ، وخدمة هذا المعهد القديم . أرجو هذا منكم كأخ لكم وكشيخ للأزهر ، لا معتمدا على القانون ، بل معتمدا على تقاليد الأزهر لإفادة المسلمين . وأترك لكم أن تسلكوا طريق هذه الافادة الى الناس بما ترون من إلقاء الدروس أو المحاضرات أو المواعظ فى المجتمعات أو فى المساجد أو أمام المذياع .

وإنى لا أتخلف عن أداء واجبى فى ذلك مادمت قادرا عليه .

أيها العلماء :

ما دمنا جميعا نشعر بروابط المحبة والألفة بين قلوبنا ، وتشعر نفوسنا كلها وقلوبنا كلها وإخلاصنا كله بالتوجه الى الله وإلى خدمة دينه والاخلاص للمسلمين فنحن واصلون الى ماننبغى إن شاء الله .

المذاهب الاسلامية :

وبعد أن انتهى فضيلة الأستاذ الأكبر من كلمته السابقة تحدث الأستاذ الشيخ الجبالى(١) عن المذاهب الاسلامية وماتأوله بعض الناس فى كلام الأستاذ الأكبر عنها قائلا : إن هؤلاء

(١) كان الشيخ الجبالى رئيس بعثة الازهر الى الهند .

المتأولين لو شاهدوا ما شاهدنا من الخلافات بين طوائف المسلمين فى الهند لراعهم ما راعنا ولأحزنهم ما اشتد به حزننا على وجود هذه الخلافات بين أبناء ديننا حتى لتسيل الدماء بينهم فى الشوارع لأتفه الأسباب ، وحتى ليكفر بعضهم بعضا .

فقال الأستاذ الأكبر :

إن وجود المذاهب واختلاف الآراء شيء ضرورى لا بد منه ولا ضرر فيه ، ولكن الضرر كله والشر كله من التعصب للرأى والمذهب . وسمعتم وسمعنا ما قاله الأستاذ الجبالى عن الخلافات المذهبية فى الهند .

وقد جاءنى كتاب من العالم الكبير السيد عبد الكريم الزنجانى كبير علماء النجف الأشرف ، شرح لى فيه ما يرى من ضرر هذه الخلافات والخصومات بين المسلمين عن أشياء ما كان يجب أن يوجد عنها خصام .

فهذا الشعور بضرر التعصب للمذاهب والآراء يشترك فيه جميع العقلاء والمصلحين المخلصين فى كل بلاد الاسلام ، وعلى الأزهر واجب عظيم يطلبون منه أن يقوم به .

الانصاف العلمى :

تصوروا أيها العلماء الخلاف الذى وقع بين الشافعية والمالكية عن البسملة وهل هى جزء من القرآن أو ليست جزءاً منه .

تصوروا لو أن هذا الخلاف وقع فى هذه الايام فماذا تكون الحال ؟

كان أقل شيء يقع هو أن يكفر المختلفون بعضهم بعضا .

هذا خلاف عن القرآن والتواتر ، ومنكرها كافر . وخلاف يتعلق بالصلاة وهى فقار الاسلام . ولكنه حدث وقام بين السلف فلم يكفر بعضهم بعضا ، ولم يمنع أحدهم من الصلاة وراء مخالفه .

ذلك لانهم كان رائدهم جميعا الانصاف العلمى والاخلاص للحق . فكان المخالف يرى أن صاحب الرأى الآخر يبنى ما رآه على دليل قام عنده أو أثر صح لديه ، ولا يخطر له أنه خالف لشهوة أو غرض . وهذا الانصاف والاخلاص للعلم والحق هما الذى نسعى إليه ، فالخلاف مع الانصاف لا يجر الى التفرق . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من صلى صلاتنا وتوجه الى قبلتنا فهو منا » .

طريق الوحدة :

أمامنا أيها العلماء طريق سديد الى الوحدة : هو أن نعرض آراء المذاهب والفقهاء

على الكتاب والسنة ، وأنتم تعرفون أن كل إمام كان يقول إنه إذا صح حديث لم يكن يصح عنده فمذهبه ما يقضى به الحديث الصحيح .

فإذا فعلنا نحن ذلك وعرضنا ما نجد من آراء الفقهاء والمذاهب على كتاب الله والسنة الصحيحة ، فسنجد بعد حين أن المختلفين قد التقوا فى ساحة الامان والتوحد .

كان الامام ابن حنبل يقول : إذا كان أمامك مفت واحد فاعمل برأيه ، وإذا كان أمامك مفتيان فلا تتبع أحدهما مقلدا ، بل اعرض الأمر على قلبك ، فأيهما أحس قلبك منه الراحة فاتبعه .

وهذا هو أسلوب القرآن ، وهذه حكمته ، فى إعمال الفكر والنظر والرجوع الى موهبة الله بالعقل والبصيرة . والامام ابن حنبل يجعل راحة القلب قائمة مقام الرأى والدليل عند من لا يستطيعهما . وهذه كما ترون حكمة سامية من حكم التشريع والعبادات فى الاسلام .

الاسلام دين يكره التقليد ويدعو الى النظر ، ولكن هناك مسألة تستحق ان نتعرض لها لافادة الناس هى تقليد العوام من مقلدة المذاهب ، فأنا أرى أن المقلد لا يجوز له أن يتحول عن مذهب إمامه فى المسائل التى قلده فيها بالفعل بل عليه الالتزام بها .

فمن كان شافعيا مثلا : يصلى ويتوضأ على مذهب إمامه ، فلا يجوز له أن يعدل عن مذهبه الى مذهب آخر فى الصلاة ، بل يجب عليه الالتزام ، حتى لا يكون متتبعاً للرخص .

أما فى المسائل التى لم يعمل بها على مذهب إمامه فله أن يقلد فيها مذهباً آخر إذا رأى أن دليل هذا المذهب فى هذه المسألة أرجح من دليل مذهبه . ففى المثل السابق يستطيع هذا الشافعى ان يحج على مذهب آخر على الشرط الذى شرطناه .

مجمع تشريعى للمسلمين :

هذه أيها العلماء مسائل فى الفقه الاسلامى مما لم يترك سلفنا الصالح صغيرة ولا كبيرة فيه إلا و فاها بحثا .

ولكن هناك مسائل كثيرة جدت على حياة الأمم والأفراد لم تكن موجودة فى عصور التشريع القديمة ، فلم يتعرض لها الفقه ، ولم يبحثها الاصوليون . ومن رأيى أن مثل هذه المسائل وهى كثيرة هامة ، لا يصح أن نتركها للرأى الفردى ، بل يجب أن تعرض على هيئة من العلماء كمجمع تشريعى لنستطيع أن نسن لها تشريعا ، وأن ندخلها فى نطاق القواعد الاصولية ، ونكمل بها مايحتاجه المسلمون الآن فى حياتهم الخاصة والعامة .

مادام إمامنا فى كل ما نعمل هو الانصاف العلمى الذى ذكرناه والذى كان ديدن السلف الصالح ، فنحن نستطيع أن نفيد المسلمين ، وأن يصلح الله بسعينا وصفاء قلوبنا ما هو فاسد الآن من أحوالهم .

تاريخ الادب العربى

قبل الاسـلام (١)

تحيط البحار ببلاد العرب من ثلاث جهات ، وتفصلها صحراء الشام عن بلاد آسيا الصغرى وحضارتها القديمة ، ويتألف داخل البلاد من سطح مرتفع يبلغ مساحة غرب أوربا ، وتحيط به الجبال التى تعوق المرور الى البحر ، وأما السواحـل فقليلة التعاريج ولا تسمح باتخاذ المرافئ الهادية للملاحة البحرية إلا فى الجنوب .

والهضبة الداخلية محرومة من الأنهار دائمة الجريان ، فكانت زراعاتها تحت رحمة الأمطار القليلة التى تجود بها السماء فى أزمان متقطعة بغير انتظام ، ولذلك نرى أن المحصولات الزراعية لتفاهتها لم تستدع الاهتمام والعناية بها إلا فى مناطق ضيقة فى الغرب والجنوب ، وأما الجـزء الأكبر من البلاد فلم يكن ليجود بأكثر مما تعيش به الابل ، وهى أكثر حيوانات البدو قناعة ، وأقدرها على التنقل ، فاهتم العرب بتربيتها حتى أخذت فى حياتهم المنزلة الأولى . وكان البدو يحتقرون مواطنيهم من سكان الأقاليم الخصبة الذين استهوتهم المعيشة الآمنة المطمئنة مؤثريها عن مخاطر الصحراء والحياة الحرة بها .

وافتقرت جزيرة العرب كذلك الى المراكز التى تجتمع بها الأهالى أفواجا فتقوم بينهم حياة مدنية مشتركة ، فلم يوجد من هـذه المدن سوى ماعرف فى السواحل الغربية والجنوبية ، ولم تقم هذه الحواضر سدا لحاجة البلاد ، وإنما نشأت تبعا لمقتضيات التجارة العالمية التى تنقل محصولات الهند الى بلاد الغرب ، وكانت هذه التجارة فى أيام ازدهارها سببا فى قيام حضارة عظيمة فى جنوب جزيرة العرب ، تدهورت فى القرون الأولى من التقويم الميـلادى بدون أن يحفظ لنا التاريخ عنها شيئا من التراث الأدبى . وأما المدن التى على السواحل الغربية واشهرها مكة ، فـكانت أقل رونقا ولـكنها أثبت قدرا ، فانها لم تنشأ بسبب موقعها الطبيعى ، بل بفضل جاذبية الأماكن المقدسة بها التى يهرع الى مواسمها البدو من كل ناحية ، حيث يجتمعون آمنين فى حرمة المـكان ، ويتبادلون الزائد من محصولهم بمنتجات الحواضر الخارجية . ولقد استطاع رجالات هذه المدينة من آل قريش بسياستهم الحـكيمة أن يخضعوا الأسواق الأخرى المجاورة لسلطتهم ، حتى تمت لهم السيطرة على تجارتهم .

---

(١) مترجمة من الالمانية نقلا عن كتاب « تاريخ الادب العربى » للمستشرق الالمانى الـكبير الاستاذ الدكتور « بروكلمان » .

ولم يكن لسكان الحضر على البدو من امتياز إلا فى الناحية المادية ، أما الصحراء فكانت موطن الجزء الأسمى من الأمة العربية ، وهؤلاء هم الذين كانوا يمثلون الشعور الوطنى على قدر ماتسمح به الحياة وقتئذ . وأما سكان المناطق الشمالية من بلاد العرب فكانوا يتمتعون بحياة بلغت درجة عالية فى أنظمتها السياسية لمجاورتهم الأمبراطوريتين العظيمتين فى آسيا الصغرى : الأمبراطورية الفارسية ، والرومانية الشرقية ، واحتكاكهم المتواصل بهما ، وبهما نشأت الولايتان التابعتان للغسانيين واللخميين فى دمشق والحيرة لصد تيار البدو الجارف .

لم يكن الخلاف فى اللغة بين سكان بلاد العرب على تفاوتهم البائن ، بقدر ما يتوقعه الباحث فى تاريخهم الأدبى بارغم من اتساع البلاد التى جابها البدو وترامى أطرافها ، وفضلا عن تفرق قبائلهم وتعددها ، فاننا نجد أن لغة واحدة عمت جميع البلاد من أقصاها الى أقصاها ، اللهم إلا بين أهل الجنوب حيث نشات مع حضارتهم الممتازة طرائق خاصة للكلام فرقت بينهم وبين سكان الصحراء . وغنى عن البيان أنه كانت هناك لهجات متباينة يسهل على الباحث الآن استنتاجها دون الجزم بصحتها ، ولكن هذه اللهجات لم تكن بعيدة الأثر ، ولم تقو على فصل قبائل العرب بعضها عن بعض ، خصوصا أن حياة البدو الدائمة التنقل كانت تجمع بين قبائلهم ، وتوثق صلاتهم من آونة لأخرى .

ويستدل من الأنباء التى ترجع الى القرن السادس من الميلاد ، وهو أبعد عهد لنا بالرواية ، على أنه كانت هناك لغة فوق اللهجات المتعددة ، اشترك السواد الأعظم ، وخاصة السادة ، فى التفاهم بها ، تلك اللغة هى العربية على وجه الاجمال . والباحث اليوم لايستطيع أن يعرف عن أصل نشأتها إلا مايستند على الفرض والتخمين ، ولما كانت معلوماتنا عنها تقتصر على معرفتها لغة للشعر فحسب ، ولا علم لنا بها كأداة لقضاء حاجات الحياة ، فاننا نفترض تكونها وتطورها مع ظهور الشعر ونشأته الأولى ، وبما أن جميع القبائل على اختلاف لهجاتها اشتركت فى قول الشعر ، فان الأغلب على الظن أن اللغة العربية تغذت من جميع هذه اللهجات ، فأخذت منها ما راق سامعيه واتفقوا على قبوله ، أسوة بماجرى على الشعوب الأولى حيث نشات فيها لغة للأغانى فوق الخصائص المميزة لقبائلها .

ولغة الأغانى العربية القديمة تكوّن مع كل من اللغتين القحطانية والأمهرية ، الفرع الجنوبى للغات السامية ، وتأخذ بينها جميعا المنزلة الأولى بدون جدل ، وهى وإن سبقها غيرها من اللغات السامية فى قدم العهد على الاطلاق ، أو فى بعض التفاصيل ، فانها كانت بلا شك أقدرها جميعا على التطور ، وأكثرها توسعا وإلماما بالخصائص والمميزات المشتركة ، مع احتفاظها بالوضوح والجلاء التام .

ويرجع تاريخ الشعر فى جميع الشعوب الى عصور قديمة لا يذكرها التاريخ ، ولم تثبتها الرواية ، ولا يأمل الباحث فى تاريخ الأدب العربى أن يعرف شيئا عن أصل الشعر ونشأته عند العرب ، اللهم إلا ما يرجع الى التخمين بطريق المشابهة والمماثلة على وجه العموم .

ولقد ثبت لعلماء النفس أخيرا أن الكلام المنظوم المقفى ذا الأوزان الثابتة نشأ فى مختلف الشعوب مع الحركات الجسمانية المنتظمة التى يفرضها العمل على الانسان ، كعلاج نفسانى منعا للتعب والاجهاد ، وقياسا على هذا الرأى ذهب بعض المؤرخين الى أن بدء الشعر العربى يرجع الى الحركات المنتظمة فى وقع أقدام الابل ، وأن نشيد الرعاة يحتفظ حتى اليوم بالبذور الأولى للشعر العربى ، ومما يؤيد هذا الرأى أن شعراء الأغانى الفنية فى العصور التاريخية الأولى فى الأدب العربى كانوا ينتقلون بخيالهم الشعرى لتصوير حياة الانسان العائش فى البادية .

وبديهى أن هذا الرأى هو إحدى وجهات النظر لبيان العوامل التى دفعت العرب الى المقال الموزون المقفى ، ولكن هناك من التأثيرات النفسانية ما هو أبعث للانسان على التعبير عن مشاعره وأفكاره ، فقد كانت العاطفة الجنسية من أهم التأثيرات النفسية عند أغلب الشعوب ، وكذلك كانت الحال عند العرب ، ولو أن الغزل والتشبيب بالنساء لم يظهر فى الأدب العربى إلا متأخرا بالنسبة الى الحزن والحسرة على فراقهن بسبب رحيل قبائلهن ، إذ كانت تجتمع القبائل المختلفة صيفا حول المراعى والمروج التى تكلؤها الابل ، فيتخلص الأعرابى من همه ويرتاح من متاعب الحياة فيحلو له التقرب من النساء والتحبب إليهن ، حتى إذا ما أجدبت الأرض من حشائشها ، تفرقت القبائل وقطعت العلائق القريبة العهد، فتتمزق الأوصال الرقيقة ولا تترك سوى آلام الحب وشجونه التى ظهرت فى أشعارهم الأولى .

وأما عاطفة الحب نحو الأقرباء ، فلم تظهر فى الشعر العربى إلا بعد فقدهم ، ففى المراثى نجد كذلك أقدم مصادر الشعر العربى ، وكانت فى أول أشكالها — النحيب والعويل — محتكرا للنساء ، ولذا فاننا نراهن بعد التطور الفنى لهذه الناحية من الشعر ، قد فزن أيضا بالنصيب الأكبر ، فكان عدد الشعراء منهن فى هذا الميدان يفوق بكثير الشعراء من الرجال الذين ظهروا فيه . ودل تاريخ الأسرة العربية على أن حق الرثاء كان فى أغلب الأحوال من نصيب الأخت دون الزوجة . واقتصرت المراثى قبل كل شىء على إظهار التوجع ومدح المتوفى وذكر شمائله .

واعتاد العرب كذلك إظهار البغضاء والضغينة بالكلام المقفى تفريجا لصدورهم وإيذاء لغرمائهم ، وكانوا يرون فى الهجاء ، فضلا عن إهدار كرامة العدو وثلم شرفه ، قضاء على مستقبل حياته ، ولذلك نرى أن طبقة الشعراء ممن برزوا فى هذه الناحية من الشعر، قد زادت عند الأعداء رهبتهم ، وبالغ الأصدقاء فى إكرامهم .

والى جانب الحب والبغض كانت تجيش فى صدور العرب من التأثيرات النفسية الرغبة فى المفاخرة بالذات أو الأصدقاء أو العشائر ، ولقد امتازت عبارتهم فى هذه الناحية من الشعر بأنخم الألفاظ وأكثرها مغالاة ، وامتد ولعهم بالفخر الى مدح رفيق الصحراء والتغنى بمحاسنه ، فنالت الابل من أشعارهم الوصفية جانبا كبيراً ، وبلغت حماستهم فى هذه الناحية درجة يتعذر على غيرهم من الأجناس إدرا كها ، وذلك لقيمة الابل العظيمة فى الحياة البدوية .

وأما أشعارهم فى وصف الظواهر الطبيعية وأحوال الجِواء فكانت أقرب الى إدراكنا اليوم ، وكانت رحلاتهم الطويلة فى جوف الصحراء هى الباعث لهم فى أغلب الأحوال على قول الشعر فى وصف الطبيعة ومظاهرها المتعددة .

والأصقاع العربية القاحلة وقفارها الموحشة لم تدع للتغيير فى مناظرها سبيلا ، وكانت حيوانات الصحراء القليلة هى وحدها التى بعثت الحياة فى خيال البدو ، فظهرت فى أشعارهم فى وصف الصيد والقنص ببراعة فائقة ودقة بالغة .

وتلك كانت أهم البواعث النفسية التى غلبت فى أشعار العرب القديمة التى حفظها لنا التاريخ حتى اليوم ، وقد يسترعى النظر أن الرواية لم تأت بشيء عن مشاعرهم الدينية ، على أنه يمكننا القول على وجه اليقين بأن العرب لم تستعبدهم دياناتهم كما استعبدت من قبل غيرهم من الشعوب السامية كالبابليين مثلا ، خصوصا أن احترامهم لآلهتهم وتبجيلهم لمعبوداتهم كانا قد أخذا فى النقصان الى حد الزوال فى القرن السابق للاسلام ، ولم يبق لهم من العقائد الدينية إلا فكرة فناء العالم البشرى ، وكانت هى عزاءهم الوحيد فى متاعب العيش ومشقات الحياة ، ومع ذلك لا يبعد كذلك أن كانت لهم أشعار دينية لم تصل إلينا لا بسبب عدم اهتمام الأجيال الوثنية الأخيرة وقلة اكتراثهم بالشئون الدينية فحسب ، ولكن ــ وهذا أكثر ترجيحا ــ يحتمل أن تكون يد غلاة رجال الاسلام قد امتدت اليها ، وحرمت تاريخ الأدب العربي من روايتها .

ويختلف عادة المقال الذى يعبر به الانسان عن مشاعره القوية عن الكلام العادى ، بما يتطلبه أولا من تعديلات صوتية فى الالقاء ، ثم بما يدخل عليه من مميزات خاصة فى الألفاظ ، فانقسم المقال الى أجزاء لم يراع فى أول الأمر التماثل فى تركيبها ، ولكنها تنشد الانسجام فى الجمال الذوقى بواسطة تقريب التجانس بينها ، وأول حلية أدخلها العرب عليها هى السجع ، فنشأ بذلك النثر المسجوع الذى استطاع بعد ذلك أن يحتفظ بكيانه بعد تقدم تعبيرات اللغة الفنية ، وكان النثر المسجوع يلازم دائما أبدا الحالات الخطيرة والمناسبات الرهيبة أو الطقوس والحفلات الرسمية ، ولم يقصد به بعد التسلية أو إدخال السرور على النفوس ، وإنما قصد به وقتئذ الاستيلاء على قلوب السامعين وسحر أفئدتهم ، فاستخدمه العرافون والكهنة وشعراء الهجاء .

وتدرج العـرب من النثر المسجوع الى وزن تفعيلى بسيط بعد أن سيطرت على مشاعرهم القافية والتوقيع، بفضل الأسباب والتاثيرات الخارجية، وتطور هذا الوزن بعد ذلك الى أشكال فنية عديدة، ولم يبق له أثر إلا فى بعض الأشعار الشعبية.

تعددت بعد ذلك صور الأشعار العربية واختلفت أشكالها دون زيادة ظاهرة فى الجوهر أو البواعث، فعادت نفس العوامل السابقه الى الظهور فى المجموعات الشـعرية الـكبيرة التى عرفت بالقصائد، ولم يشذ عن ذلك الا أشعار الرثاء والهجاء التى استطاعت المحافظة على نوعها المستقل. وعلى تعاقب الأيام أخذت هذه القصائد تنسيقا ثابتا، فيبدؤها الشاعر عادة بذكر لوعته على فراق عشيقته، ثم ينتقل فجأة بعد أن يرى عقم ما يندبه من حظ ضائع الى وصف مطيته، وتتعاقب بعد ذلك صور مشاهد الطبيعة وأنباء الـكفاح، وأخيرا يختتمها بالأشعار التى تعين قصده منها ـ ولذا سميت قصيدة ـ وهى عادة فى المباهاة أو المفاخرة بعشيرته أو مدح ولى نعمته ممن يرجو عفوه أو يأمل عطيته.

ويغلب على الظن أن هـذا التعاقب فى البواعث الشعرية كان من المستحدثات المرغـوبة فى ذلك العهـد الذى ترجع إليه القصائد التى لدينا، وقد يرجع الأصل فيه الى أحـد الشعراء الأولين. ولم يتحد الرواة فى تحديد ترتيبها، خصوصا أن العلاقة بين أجـزاء القصيدة كانت مفـككة كل التفكك.

لم تكن الـكتابة فى شمال بلاد العرب أو فى أواسطها فى ذلك العهد مجهولة، ولو أن استعمالها لم يكن منتشرا انتشاره فى البلاد المجاورة فى الجنوب والشمال، ولـكننا لا نظن أن الـكتابة كانت تستعمل فى تلك العصور المتقدمة كأداة لتدوين الشعر، بل إنه كان يعتمد فى نقله على الرواية الشفوية، فـكانت مـنزلة الشاعر بين قبيلته واهتمامهم بأشعاره هما وحـدهما العاملان اللذان تتوقف عليهما درجة حفظ أشعاره وانتشارها، وكثيرا ما اتخذ كبار الشعراء من هواة هذا الفن من المبتدئين رواة يلازمونهم حرصا على إنتاج قرائحهم وصيانة لبنات أفـكارهم.

والرواية الشفوية، مهما افترضنا فيها أمانة الراوى وخلوص ذاكرته، لا يمكن الاعتماد عليها اعتمادا كليا، خصوصا أنه لم تعـرف وقتئذ حقوق شخصية للشاعر فى أعماله، بل وثبت لنا اليوم أن القوم لم يرعوا لذلك حرمة، فاجترءوا عليها بالاستعاضة عن بعض عبارات الشعراء بعبارات أخرى مرادفة لها، وما أغنى اللغة العربية بها.

فاذا كانت النصوص الأصلية لم تصدق الرواية فى نقلها فما أحرى أن يدخل الشك فى صحة ترتيب أبيات الشعر فى القصائد الـكبيرة، لاسيما وأن الشعراء أنفسهم لم يعنوا كثيرا بترتيب أجـزائها.

ولكننا على الرغم من اللبس الشائع فى هذه التفاصيل ، نجد فى الرواية الأخيرة التى حفظها لنا التاريخ صورة صادقة من فن الشعر القديم ، على أنه يتعذر جدا أن نرى اليوم بواسطتها مميزات كل شاعر على حدة ، كما يصعب علينا أن نخلص هذه المجموعات الشعرية على وجه اليقين من الزوائد الدخيلة عليها .

ويرجع الفضل فى حفظ الأشعار العربية القديمة الى النهضة الأدبية التى قامت فى القرنين الثانى والثالث من الهجرة ، حيث بدأ هواة الشعر فى جمعه فوجدوا فيما علق بأذهان البدو كنوزا لا تفنى لم يبق منها حتى الوقت الحاضر إلا جزء يسير بسبب عدم اكتراث علماء الاسلام المتأخرين بكل ما لا علاقة له بالدين ، فكانوا إذا لم يبيدوا شيئا من آثار الوثنية فانهم لا يهتمون ببحثه ودرسه ، ولقد أتت غزوات المغول بعد ذلك على أكثر دور الكتب فى آسيا الصغرى ، وعلى الأخص بالعراق مركز الدراسات العربية القديمة ، فضاع أغلب أعمال الشعراء ولم يبق منها كاملا إلا لنفر قليل منهم .

واجتهد المتأخرون بعد ذلك ، كل على حسب ذوقه ، فى جمع مختارات من دواوين الشعراء، وكانوا يأخذون لها إما قطعا شعرية كاملة ، وإما أجزاء منها ، واشتهر بين هذه المختارات مجموعتين : الأولى وهى المعلقات ، جمعها راو محترف هو حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ هـ ، والثانية وهى الحماسة ، جمعها أبو تمام المتوفى سنة ٢٣١ هـ .

والمجموعة الأولى عبارة عن سبعة قصائد طوال ، وسميت بالمذهبات لما احتمله اسم المعلقات من تفسير خاطىء ذاع عنها فى كتب التاريخ ، من أنها كانت مختارة فى العصور الوثنية ومعلقة على الكعبة ، والرواية الأصلية لهذه المجموعة تشمل قصيدة لكل من امرئ القيس وطرفة وزهير ولبيد وعنترة وعمرو والحارث .

وأما الحماسة فسميت كذلك تبعا لأول موضوعاتها وأطولها ؛ ويليه تسعة أبواب فى المراثى وفى الأدب وفى التشبيب وفى الهجاء وفى الأضياف والمديح وفى الصفات وفى السير والنعاس وفى الملح وفى مذمة النساء . وعنى أبو تمام فيها بجمع نماذج من الشعر لكل من عصرى الوثنية وفجر الاسلام فى أغلب البواعث التى ظهرت فى الشعر العربى على وجه العموم .

أما النثر فانه لم يكن له مظهر أدبى خاص بالنسبة الى حالة العرب المدنية قبل الاسلام . على أن التطور الذى صادفه بعد ذلك يكشف لنا عن بذور نشأته فى العصور الوثنية ، وإليها ترجع قبل كل شىء مجموعة الأمثال والحكم التى ظهرت منذ أزمان بعيدة ، وفيها تنعكس صور حياة البدو ، وترجع نشأتها الى مناسبات وأحوال خاصة فى الحياة القديمة ، جهلها الرواة الأولون وبقى معظمها محاطا بالابهام ، وتعذر على المفسرين المتأخرين تفسيرها على وجه اليقين .

ولم تخل كذلك الحكايات التى رويت عن دواعى الأشعار القديمة ، وذاعت بين القبائل المختلفة من بذور ساعدت على نمو النثر وتطوره بعد ذلك ، ولو أن أغلب هـذه القصص التى لدينا عن الأشعار القديمة قد استنبطها المتأخرون بالاجتهاد من الأشعار نفسها ، إلا أن البعض الآخر يحمل الطابع القديم الذى لا يدعو الى الريبة فى حقيقة أصله .

على أنه كانت هناك أيضا فى العصور الوثنية القديمة قصص عديدة ذائعة عن أعمال القبائل وبعض الأبطال ، وإن كنا لا نتوقع فيها كل الصدق والأمانة التاريخيـة ، فانها تدلنا على روحهم الشعبية على وجه العموم ، وقد تسربت الى البدو بجانب هذه القصص مواد أخرى مما عرفت فى العصور الوسطى وكانت جزءا هاما فى الأدب العالمى حينذاك ، إلا أنهم استطاعوا تعريبها الى حد بعيد . « يتبع »

أحسن ما قيل فى وصف الفاقة

وفى الصبر عليها

قال أبو العير الهاشمى الشاعر :

قنعت نفسى بما رزقت ... وتمطت فى العـلى هممى
ولبست الصـبر سابغة ... هى من قرنى الى قـدمى
فاذا ما الدهـر عاتبنى ... لم يجـدنى كافـر النعم
لا أقـول الله يظلمنى ... كيف أشكو غـير متهم

وذكر شاعر آخر للفقر حكمة فقال :

الحمـد لله ليس لى فـرس ... ولا على باب منزلى حـرس
ولا غـلام إذا هتفت به ... بادر نحـوى كأنه قبس
ابنى غلامى وزوجتى أمتى ... ملـكتها بالمـلاك والعرس
غنيت باليأس واعتصمت به ... عن كل فرد بوجهه عبس
فما يرانى ببـابه أبدا ... طلق المحيا سمح ولا شرس

ولـكن الحق أن الفقر مكروه ، فمن أصابه وجب عليه أن يسعى لتحسين حالته من خير الوجـوه ، وأكفلها بصيانة كرامته ، لا أن يقعد مع القواعد منتحلا لنفسه المعاذير . ولقد قيل : رب حسب دفنه الفقر .

وقال شاعر :

الفقـر يزرى بأقوام ذوى حسب ... وقـد يسـوّد غـير السيد المـال

السلطتان الدينية والدنيوية

يراها الاسلام

ليس فى الاسلام سلطتان تتنازعان الغلب كما هو الشان عند غير المسلمين ، وإنما هى سلطة واحدة ذات ناحيتين إحداها دينية والأخرى دنيوية . فالأولى هى التى تنظم علاقة الانسان بربه فى عباداته ومعاملاته الظاهرة والباطنة . والسلطة الدنيوية هى التى تنظم علاقة الانسان بالانسان وترسم لتلك العلاقة حدودا فى المعاملات بشتى ملابساتها . وتتالف هذه السلطة من سلطات ثلاث : التشريعية ، والقضائية ، والتنفيذية . وبدهى أن الاسلام دين روحى زمنى ينتظم فى أبلغ أوضاعه عملى الدنيا والآخرة ، فهو بطبيعة وجوده مصدر يصل بين حياتى المعاش والمعاد ، ويكل الى المضطلعين باعباء الحكم أن يستمدوا قوانينه ومبادئه من مستقر جميع الأصول الكاملة وهو القرءان .

فلو أغفل الاسلام الناحية الروحية لكان مزيجا من أخلاق متدافعة وعادات متناقضة ، ولكان قصارى جهد معتنقيه أن يخضعوا لنواميس هذا المجتمع فى علله وأوصابه وتدافع أسبابه ، وأن تكون الغلبة فيهم للقوى العاتى ، وأن توجد الفروق بين الطبقات والاسر .

من أجل ذلك امتزجت الناحية الدنيوية فى الاسلام بالناحية الدينية فى نظام الحكومة ، على معنى أن نظام الحكومة كان مستهديا فى جميع أدواره بنور القرءان .

حمل الاسلام فيما حمل من أسمى المبادئ مبدأ الشورى ، لتكون أساس الحكومة الصالحة ، ودعامة تتلاقى عندها سائر الرغبات والأمانى ، لأن الشورى فى أبسط أحكامها خير من رأى الفرد ، فهى وليدة آراء مستخلصة من قوة الجماعة لا يراد بها غير إسعاد المجموع وإشعاره بمبدأ العدالة والمساواة حتى يظل آمنا فى سربه حصينا فى أغراضه ومراميه ، وإن لم تكن الشورى القائمة بيننا الآن فى الشرق والغرب هى التى تعنيها مبادئ الاسلام. فالشورى التى تعنيها مبادئ الاسلام هى المستخلصة من قوة الجماعة كما قلنا ليس فيها أثارة من تشيع لهوى أو أخذ بنحيزة أو إصغاء الى ضغن فى سائر مرافق الدولة .

الناحية الدنيوية ترسم شكل الحكومة ومقاصدها المختلفة ، وتؤسس الأنظمة المتنوعة للافراد والأسر والجماعات والقبائل والأمم ، وتضع أحكام الحرب والسلم وسياسة القضاء والادارة ونواميس الاجتماع ، ثم هى تنساب بعد الى الأحوال الشخصية المتعلقة بذات الانسان فتنشئ علاقة زوجية صالحة بين الرجل والمرأة ، وترتب عليها حقوقا قبل المرأة وحقوقا قبل الرجل ، ثم تتناول أحكام الارث فتوزع الانصباء من تركة الميت على ذويها توزيعا قائما على أدق أنواع

الرعاية وأحكم مراميها ، ثم تتعهد الحاكمين بالوصايا الجامعة حتى لا يندّوا عن شريعة الحق ولا تصغى قلوبهم الى شوائب الهوى ، ثم تهيب بالمحكومين الى السمع والطاعة فيما أمر الله . وبهذا التساند بين الهيئتين ينتظم الأمةَ والحكومةَ عدل قائم على الاخلاص المتبادل ، وتسودهما روح طيبة فى مرافق البلاد وحيويتها .

لقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بين السلطة الروحية والسلطة الدنيوية ، فأقام بهاتين السلطتين خير حكومة من حكومات الأرض فى تاريخ البشرية ، وأسس للانسانية العامة أفضل المناهج فى الحكم حتى فاضت القلوب باليقين الراسخ والطمأنينة الشاملة . ولا أدل على ذلك من أقوال الرسول وأعماله وما ينزل به الملك من الآيات منجمة بحسب الوقائع ، سواء أكان ذلك متعلقا بأمر من أمور المعاش أم المعاد ، إذا استثنينا بعض مسائل تقليدية تافهة لا يتصل وجودها بقانون الحكومة أو الاجتماع ، ثم درج من بعده خلوفه على قدمه صلى الله عليه وسلم فكانوا نعم الخلف لنعم السلف . وناهيكم بعمر الفاروق الذى كثرت على يديه الفتوحات الاسلامية مؤسسة على الكتاب والسنة وهدى الرسول الأعظم ، فاستدام بذلك الناموس السماوى أصلح الطرائق فى أنواع الحكم ، وأهدى السبل فى إسعاد الأفراد والجماعات والأمم .

إن الشريعة الاسلامية السماوية هى شريعة الخلود والبقاء ، لأنها جمعت بين حلقات الزمن من دابر وحاضر ، فوضعت لكل عصر وجيل أحكامه وطرائقه ، فكانت شريعة الاسلام خير الشرائع وأمثل القوانين .

وغنى عن البيان بعد هذا التقرير أن الذين يقولون بضرورة فصل الدين عن السياسة قد جهلوا حقائق الاسلام أو على الأقل تجاهلوا نظام الحكم فيه فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وفى عهد خلوفه من بعده ، أولئك الغر الميامين الأطهار الذين حكموا دينهم فى الدولة فسادوا ، لأنهم قضوا بهذه السياسة العالية أوطار الأفراد والجماعات ، وحققوا لهم كل رغبة صالحة ، ثم اجتاحوا لوثة الوثنية ومستهجن العادات فى عهود الجاهلية .

ولعل النمط الذى جرى عليه توزيع الزكاة والصدقات وإقامة الولاة فى الدولة ورسم الحدود ووضع الخطط التى ينتهجونها فى أمثل حكومة عادلة بواسطة برامج تكشف لهم حقيقة حكم الشعوب الداخلة فى الاسلام وأخذهم بالهوادة فى موضعها وتيسير الأمور عليهم حين لا يضيق عنهم التيسير ونوع معاملة أولئك الولاة للذميين والمعاهدين والمحاربين والمدى الذى توزع به السلطات بين شئون الرعية ـ آية الآيات على أن الاسلام فى حقيقته دين يقوم على أهدى السبل وأعدل المناهج ، وأنه الوارث لجميع الأوضاع البشرية « ولتعلمن نبأه بعد حين » .

عباس طه
المحامى الشرعى

تقرير بعثة الهند

— ٦ —

٥ — العيد الألفى للأزهر :

وها هى ذى فرصة ذهبية تتيح للأزهر أن يخطو خطوة عملية فى هـذه السبيل ؛ فبعد سنوات معدودات يحتفل الأزهر احتفالا عالميا بعيده الألفى ، ومما لا شك فيه أنه سيتقدم للجامعات الأوربية والأمريكية بالدعوة لحضور هذا العيد؛ فهل يتاح لنا أن نرى فى مصر ممثلى جامعات الهند ورجال الفكر فيها ؟

أكبر ظننا أن الأزهر الشريف ، وعلى رأسه حضرة صاحب الفضيلة مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، لن تفلت من بين يديه هـذه الفرصة ، لاسيما وأن كثيراً من رجال العلم والفكر فى تلك البلاد قد طالعونا برغبتهم فى أن يتاح لهم حضور هـذا العيد الذى يجب ألا تستأثر به مصر وحدها ، خصوصا وقد أعلنت أن الأزهر جامعة عالمية ، لكل مسلم على وجه الأرض حق فيها .

٦ — مشروع تفسير القرءان الكريم :

وقد عنيت البعثة عناية كبرى بالتحدث الى زعماء الهند ، ومحاضرة الطلبة خاصة ، والمثقفين عامة ، على مشروع تفسير القرآن الكريم ، الذى يقوم به الأزهر الآن ؛ وقد شرحنا الضرورات التى استلزمت هذا التفسير الحديث ، كما أشدنا بالحكمة التى تجلت فى تأليف اللجنة من حيث إنها جمعت بين رجال تثقفوا ثقافة دينية كاملة ، ورجال آخرين ساهموا فى الثقافتين الدينية والمدنية ، وتلقنوا العلم على أحسن أساتذته بالجامعات الأوربية ؛ فآنسنا من الجميع ارتياحاً عظيما الى هذا المشروع الذى يرجى منه للاسلام فوائد تفوق الحصر .

وجميعهم يتوجهون بالشكر لله تعالى ، أن هيأ للازهر تلك الفرصة التى ستمكنه إن شاء الله من أداء خدمة كبرى للاسلام ؛ وكم من خطيب قام يعلق على خطبنا بازجاء جزيل الشكر الى فضيلة الأستاذ الأكبر ، لصائب تفكيره وثاقب نظره .

ولما أن تطرقنا بالحديث الى مشروع ترجمة هذا التفسير الى اللغات الأجنبية ، طولبنا بأن نرفع الرجاء صادقاً ، الى فضيلة الأستاذ الأكبر ، أن تكون اللغة الأردية من بين اللغات التى تترجم إليها تفسير القرآن الكريم ؛ فانها لغة عامة المسلمين فى الهند . وقد بلغ تشوقهم الى ذلك

المشروع أن طلبوا ألا يرجىء الأزهر الترجمة حتى ينتهى من التفسير ، بل الأوفق أن يترجم كل جزء تنتهى اللجنة من تفسيره .

ومما يذكر لحكومة صاحب السمو العالى « نظام حيدر آباد » بالشكر والثناء : ماورد على لسان معالى وزير المعارف عند ماسمع بمشروع الترجمة ، فقد قال : إنه يسره كثيراً أن يعلم تفاصيل ذلك المشروع ، حتى يتسنى لحكومته أن تساهم فى مشروع الترجمة الى لغة الأردو ، وأظهر استعداد الحكومة للقيام بمشروع هذه الترجمة لحسابها الخاص ، وكذلك بطبع عشرات الألوف من نسخ هذه الترجمة .

أما السير « روس مسعود » وزير معارف سمو « نواب بهوبال » ، فقد أبدى ارتياحاً عظيما للفكرة ، وطلب الاطلاع على تفاصيلها ؛ لأنه يرجو أن تبذل حكومته مساعدة تذكر فى هذه السبيل ، ولكنها لا تستطيع تحديد موقفها قبل أن تطلع على التفاصيل .

وقد أبديت إلينا بشأن هذا التفسير فكرة تستحق البحث ، هى أن الأزهر يجدر به أن يشرك بعض علماء الهند فيه ؛ ولكننا أجبنا على ذلك بأن ما يحق للهند يحق لغيرها من الدول الاسلامية ، فاذا اتسعت دائرة المفسرين هذا الاتساع تعرض المشروع للعطل الناشىء عن الجدل والنقاش ، ثم عن عدم تكامل الأعضاء ؛ ورأينا أن الأجدر من ذلك بالنظر ، هو أن يسمح بالحضور فى لجنة التفسير لاثنين أو ثلاثة من العلماء الهنود ، ليكونوا عونا لقسم الترجمة الى الأردو ، إذا خرج المشروع الى حيز التنفيذ .

ولما أن تذاكرنا هذا الأمر مع « نواب مهدى يارجنك » وزير معارف حيدر آباد ، أظهر استعداد حكومته لأن توفد العالمين اللذين يقع عليهما الاختيار على نفقتها تمهيداً لمشروع ترجمة التفسير .

٧ – مجلة الأزهر :

وقد كان لمجلة الأزهر نصيب من نشاط البعثة ولكنه محدود ؛ ذلك بأن المجلة غير ذائعة فى الهند الذيوع الذى يسمح للقوم بأن يتتبعوا حديثنا فى شأنها ، ولكن « السيد سليمان الندوى » وهو من كبار علماء الندوة ، ذكر لنا أنه يقرؤها بانتظام ، وقد كون رأيه فيها بأنها ينبغى أن تكون أرقى من حالها اليوم ، لتناسب ما للأزهر من مكانة سامية .

وقد شاءت الظروف أن يفتتح باب الكلام فى هذا الموضوع قبيل سفر القطار بحيث لم تتسع لنا فرصة لتفصيل الحديث ، على انه وعد بأن يكتب إلينا فى هذا الشأن .

وفى رأينا أن المجلة يجب أن ترسل الى كثير من الأمكنة فى الهند ، فانها خير مذكر للقوم بالأزهر ورسالته ، وهى الكفيل بأن يستمر الاتصال الروحى بين القطرين ، وحبذا لو عنيت

إدارة المجلة بان تطلب الى بعض عظماء الهند : أمثال السيد سليمان الندوى ، ومولانا أبى الكلام أزاد — أن يوافوها بالمقالات بين آن وآخر .

٨ — دور الكتب الدينية والعربية :

بالهند كثير من دور الكتب الدينية والعربية ، يحتوى عدد منها مؤلفات لايستهان به ؛ ومن أهمها مخطوطات يرجع عهدها الى العصر الاسلامى فى تلك البلاد ، وكثير منها استورده ملوك المسلمين من بلاد فارس .

ولم يتسع وقت البعثة لبحث مستفيض فى هذه الكتب ، غير أننا كونا فكرة عامة عنها ؛ ويجدر بالأزهر ، الذى يعتزم تنظيم مكتبته ، وتوسيع الانتفاع بها ، أن يعنى بدور الكتب التى أشرنا إليها . وحبذا لوفكر فضيلة الأستاذ الأكبر ، فى أن يوفد أحد المتخصصين فى شئون المكتبات ، يكون له إلمام بما فى المكتبة الأزهرية من المخطوطات ، لزيارة دور الكتب التى سنذكرها هنا ، عسى أن يجد فيها ما يكمل بعض المخطوطات ، أو يلقى بعض الضوء على تاريخها ، وإلا فلا أقل من أن يكلف بعض المصريين الذين يبعثون الى الهند ، فى شئون الثقافة الاسلامية ، بأن يطوفوا بتلك الدورطواف الباحث المدقق ، على أن يوافوا الأزهر بما يرون .

ومما أسفنا له أن كثيرا من هذه الدور ، لم تطبع لها فهارس منظمة ، ولذلك ما جاءت البعثة إلا بما استطاعت أن تحصل عليه من هذه الفهارس .

وفيما يلى بيان بهذه الدور :

١ — مكتبة بهو بال

٢ — مكتبة رامبور (وفيها أكبر عدد من المخطوطات) .

٣ — مكتبة جامعة البنجاب بلاهور .

٤ — مكتبة الأستاذ محمد شفيع مدير الكلية الشرقية بلاهور .

٥ — مكتبة الكلية الاسلامية فى بشاور

٦ — مكتبة بها ولبور الخاصة بسمو النواب .

٧ — المكتبة الآصفية بحيدر آباد .

٨ — المكتبة السعيدية بحيدر آباد .

آراء فى الثقافة الاسلامية :

لاشك فى أن مصر بلد اعترف له بالزعامة الثقافية بين امم الشرق قاطبة . وقد شهدنا بأعيننا

فى الهند ما يدل على سمو مكانتها بين هذه الأمم ، مما عرضنا له فى فصول سابقة من هذا التقرير ، غير أننا نشير هنا بوجه خاص الى ما تنتظره الهند الاسلامية من مصر فى عهدها الجديد ، ذلك بأن تساهم مصر فى رفع مستوى اللغة العربية فى المدارس والجامعات الهندية ، محافظة منها على هذه اللغة التى تصل بين أمم الاسلام فى العالم كافة .

فما قصدنا الى مؤسسة علمية ، ولا تحدثنا الى شخصية كبيرة ، دون أن يرد ذكر هذا الأمر . وهم يتطلعون الى مصر ، لأنها القطر الوحيد الذى يستطيع أن يقوم بهذا العمل الجليل اليوم .

وفيما يلى بيان بما وصلت إليه البعثة فى هذه السبيل :

أولا : فى إمارة بهوبال الاسلامية : عند ما كنا فى زيارة إمارة بهوبال الاسلامية ، وكان سمو النواب متغيبا ، تحدثنا فى هذه الشئون الى « السيرروس مسعود » وزير المعارف ، فقال : « إن البلاد هنا فى مسيس الحاجة الى طبقة من العلماء المصريين ، يجمعون بين علوم الدين وبين العلوم المدنية ، مع التمكن فى اللغة العربية وآدابها والطرق الحديثة لتدريسها ، وتقريب علومها الى الأذهان ؛ ولو استطاعت مصر أن تستغنى عن واحد أو أكثر من هؤلاء ، لاستخدمتهم حكومة بهوبال . ولكن الحكومة تشترط فيمن يبعث إلينا أن يكون مثلا عاليا للاسلام ، فى حياته العملية والعلمية ، وأن تكون حياته نبراسا يهتدى به العامة فى حركاته وسكناته » .

وقد قال السيرروس مسعود أيضا : إن الحكومة على استعداد لأن تمنح مثل هذا المبعوث كل التسهيلات اللازمة ، الى راتب يناسب مؤهلاته . وظهر من خلال الحديث أنهم على استعداد لدفع راتب شهرى قدره أربعون جنيها مصريا ، مع حق الاقامة فى منزل تعده له الحكومة فى حى كبار الموظفين ، فضلا عن امتيازات أخر يستطيع المبعوث الحصول عليها ، بما يكون له من مزايا ، تكون موضع تقدير ولاة الأمر بعد حضوره .

ولما دعينا لمقابلة سمو النواب فى أخريات أيام رحلتنا فى الهند ، فتح سموه الكلام فى نفس الموضوع ، ثم قال : إن حكومته قد تحتاج الى اثنين أو ثلاثة من هؤلاء ، بالشروط التى تكلم عليها السيرروس مسعود ، وإنه يرجو أن يعنى الأزهر بهذا العرض ، وقد صرح سموه بأنه قوى الأمل فى ألا يمضى عام واحد قبل أن يتحقق هذا المشروع ، كما أبدى سموه الرغبة فى أن يعمل الأزهر على إعداد طبقة من علمائه البارزين للخدمة فيما وراء البحار ، فان هذا أفضل عمل يستطيع الأزهر أن يقوم به لتدعيم أواصر الصلات العلمية والدينية بين مصر والأقطار الاسلامية الأخر .

ثانيا : فى جامعة عليكرة : عندما كنا فى زيارة جامعة عليكرة عرضنا مع الدكتور ضياء الدين ، حال قسم اللغة العربية بالجامعة ؛ ومن ثم قال الدكتور إنه يوافقنا على ما ذهبنا اليه ، ويرى أن

الطريق الوحدة للسير بهذا القسم الى الأمام ، هو الاعتماد على الأزهر فى تدريس اللغة العربية، والأخذ بالوسائل الحديثة التى تتبع فى تعليمها بمصر ، وفى تشجيع الطلبة على التخاطب بهذه اللغة ، وهذا لايتأتى إلا إذا كان بهذا القسم واحد أو اثنان من المدرسين المصريين ، وإن الجامعة على استعداد لأن تدفع راتب أستاذ واحد ، فاذا رأى الأزهر أن يرسل اليها اثنين ، وقبل أن يكون راتبهما مناصفة بين الأزهر وجامعة عليكرة ، فان الجامعة يسرها أن تتقدم بينها وبين الأزهر المحادثات فى هذا الشأن .

ثالثا : فى الجامعة الملية : لما كانت الجامعة الملية كما ذكرنا مؤسسة تقوم على تدعيم الدين الاسلامى واللغة العربية فيها ، وربطاً للهند الاسلامية بكافة الأقطار الاسلامية الآخر ، فقد عنيت الجامعة بالدين واللغة معاً ؛ ولكن مواردها ، كما ذكرنا ، لا تساعدها على التوسع . لكل هذه الاعتبارات ، تقدم الينا الدكتور « زاكر حسين » عميد الجامعة ، برجاء أن يساهم الأزهر فى هذا العمل الجليل ، فيقرر إيفاد مدرس أو مدرسين — على نفقته — لتعليم اللغة العربية والدين الاسلامى بالجامعة .

وتوسيعا للانتفاع بهؤلاء المبعوثين ، يقترح الدكتور زاكر حسين ألا ينحصر عملهم فى التدريس بالجامعة الملية ، بل يصح أن يتفق مع الجامعات والمؤسسات الاسلامية الآخر على أن يزورها المبعوثون زيارات دورية ، لإلقاء المحاضرات وتشجيع الاهتمام باللغة العربية والدين .

رابعا : فى إمارة رامبور : زرنا مدرسة للعلوم الدينية والعربية تديرها حكومة سمو النواب ، ولما تحدثنا على هذه المدرسة الى السيد « بشير الزيدى » رئيس الوزراء ، ألفينا منه استعدادا لإصلاح أحوالها وفق ما يشار به ، ثم حدثنا على حاجة المدرسة الى مدرس مصرى من خريجى الأزهر يقوم بالاشراف على شئونها ، فيساعد الرئيس الحالى ، على أن يحل محله حين ترى الحكومة إحالته الى التقاعد نظراً لكبر سنه .

خامسا : فى الجامعة العباسية : سبق أن تحدثنا على الجامعة العباسية فى بهاولبور ، فذكرنا أنها تريد أن تماشى الأزهر فى أحدث تطوراته ، غير أننا لم نتحدث الى رجال الحكومة هناك عما يمكن الأزهر أن يساهم به فى هذه السبيل . وفى رأينا أنه إذا عرض على الحكومة أن تستعين بواحد أو بأكثر من خريجى الأزهر ، فى تدريس العلوم العربية والدينية ، أو الاشراف على شئون الدراسة فى هذه الجامعة ، أو الالتحاق بوزارة المعارف للتفتيش على المدارس الدينية ومساعدة القائمين بالأمر فيها ، فان حكومة سمو النواب قد ترحب بهذا المقترح .

سادسا : فى إمارة حيدر آباد : رأينا حركة شاملة فى صالح اللغة العربية والدين الاسلامى فى إمارة حيدر آباد ، وأحسسنا من جميع من حادثناهم شعوراً طيبا وميلا ظاهرا نحو تأسيس

علاقات الود والصداقة بين مصر وبين تلك البلاد . وقوام اللغة العربية والدين الاسلامى فيها طائفة من الأساتذة تخرجوا جميعاً كما ذكرنا فى المدارس والمعاهد المصرية على اختلاف أنواعها ، ويعتبر هؤلاء تربة خصبة لإنماء علاقات الود بين حيدر آباد ومصر .

وقد تحدثنا الى وزير المعارف هناك فى شئون شتى ، نقتصر منها هنا على ما اقترحناه ، وهو أن تساهم حكومة حيدر آباد فى نفقات إنشاء قسم لتدريس لغة الأردو بالأزهر الشريف ، فتدرس فيه هذه اللغة كما كانت تدرس اللغة اليابانية فى « تخصص الوعظ والارشاد » بكلية أصول الدين ، او على مقياس أكبر من ذلك .

وهنا أدلى لنا معالى الوزير برغبته فى ان يكون إنشاء هذا القسم وإدارته على نفقة صاحب السمو العالى النظام ، وأن يسمى « كرسى حيدر آباد لتعليم الأردو » ، وقال : إن الحكومة مستعدة للتحدث فى الموضوع على هذا الأساس .

وفى رأينا أن القسم اذا افتتح وعين له أستاذ من أساتذة الجامعة العثمانية الذين يعرفون اللغة العربية ويقومون بتدريسها ، أو بتدريس بعض علوم الدين هناك ، فان الأزهر يستطيع عندئذ أن يرشح أحد خريجيه ليشغل الوظيفة التى تخلو فى الجامعة .

ولا نظن أن الاعتبارات المالية تحول دون تنفيذ هذا المقترح ، ولاسيما من ناحية حكومة حيدر آباد .

تقرير عن حال المنبوذين :

مقدمة :

يجدر بنا قبل أن نبدأ الكلام على المنبوذين ، أن نشير الى أن استقصاء أحوالهم ، قد أحاطت به ظروف محلية وملابسات كان من شأنها أن تضطر البعثة الى التانى فى هذه الدراسة ، وأن تعمد ، فى بعض الأمكنة ، الى الانكماش ، حيث لا تجد الجو صالحاً لهذه المباحثات ، كما تعمد فى أمكنة أخر الى بحث الموضوع فى غير حذر ، عند ما تجد الجو صالحا لذلك .

ولا نرى مندوحة من الإشارة الى أن وصول البعثة الى الهند ، قد أحاطت به ظروف شائكة ؛ فقد نشرت الجرائد الهندوسية ، بل بعض الجرائد الاسلامية أيضا ، أن البعثة قادمة للقيام بحركة بين المنبوذين ، بغية تحويلهم الى الاسلام ، فقامت القائمة ، وتكهرب الجو ، مما دعا البعثة الى إصدار بيان للصحافة ، قد أشرنا إليه فى صدر هذا التقرير .

وبهذه المناسبة تتقدم البعثة بجزيل الشكر الى جميع من أمدها بالمعلومات ، والى من ساهموا فى البحوث ، وتخص بالشكر « السير محمد إقبال » الذى ضحى بالكثير من وقته وصحته فى هذه

السبيل ، وكذلك تزجى الشكر الى الأستاذ الكبير « غلام بهيج نيرانج » الذى كان له أكبر قسط من النشاط فى هـذا العمل الجليل ، والذى عنى بأن يجيب البعثة على كل ما وجه إليه من الاستشارات ، وكذلك الأستاذ « فضل رحيم » ، والطبيب « أسرار أحمد » ، و « نواب محمد يارجنج » ، والأستاذ « محمود فاندرمان » ، وغير هؤلاء ؛ ممن لم تسع الذاكرة أسماءهم .

وتتقدم البعثة كذلك بجزيل الشكران الى حضرات من ساهموا بقسط وافر من العمل ، لإنجاح البعثة فى مهمتها ، ثم شاءت ظروف خاصة ألا تذكر أسماؤهم فى هذ التقرير .

إحصاء عام عن المنبوذين :

يبلغ عدد المنبوذين — وفق آخر إحصاء رسمى صدر منذ ست سنوات : ٥٠ر١٩٥ر٧٧٠ نسمة ، أى بنسبة ١٤ فى المائة من مجموع سكان الهند ، وبنسبة ٢١ فى المائة من تعداد الهندوس العام ، وتختلف نسبتهم الى عامة السكان ، ثم الى الهندوس ، بين إقليم وآخر ، وفيما يلى بيان ذلك :

أولا : فى الهند البريطانية :

الاقليم	عدد المنبوذين	نسبتهم للهندوس	نسبتهم العامة
الولايات المتحدة	١١ر٣٢٢ر٠٠٠	٢٨ فى المائة	٣٢ فى المائة
مدراس	٧ر٢٣٤ر٠٠٠	١٨ »	١٥ »
بنغال	٦ر٩٠٠ر٠٠٠	٣٢ »	١٤ »
بحار ، وأوريسا	٥ر٧٧٤ر٠٠٠	١٩ »	١٥ »
الولايات الوسطى، وبرار	٢ر٨١٨ر٠٠٠	٢١ »	١٨ »
آسام	١ر٨٢٩ر٠٠٠	٣٧ »	٢١ »
بومباى	١ر٧٥٠ر٠٠٠	١١ »	٨ »
البنجاب	١ر٢٨٠ر٠٠٠	٢٠ »	٥ »
دلهى	٧٣ر٠٠٠	١٨ »	١١ »
أجمير ، ومرواد	٦٧ر٠٠٠	١٨ »	١٤ »
كرج	٦٥ر٠٠٠	١٧ »	١٥ »
بلوخستان	٥ر٧٠٠	١٤ »	١ »
مقاطعة الحدود	٥ر٥٠٠	٤ »	٠ »
جزر أندمان ، ونيكوبار	٥١٠	٨ »	٢ »

ثانيا : فى الامارات :

الاقليم	عدد المنبوذين	نسبتهم للهندوس	نسبتهم العامة
حيدر آباد	٢٫٤٧٣٫٠٠٠	٢٠ فى المائة	١٧ فى المائة
ترافانكور	١٫٧٧٠٫٠٠٠	٥٦ »	٣٥ »
راجبوتانا	١٫٥٦٥٫٠٠٠	١٦ »	١٤ »
ميسور	١٫٠٠٠٫٠٠	١٧ »	١٥ »
إمارات الهند الوسطى	٧٨٠٫٠٠٠	١٤ »	١٢ »
جوايالور	٦٧٨٫٠٠٠	٢١ »	١٩ »
إمارات بحار، وأوريسا	٦٣٢٫٠٠٠	١٥ »	١٤ »
إمارات البنجاب	٣٩٣٫٠٠٠	٢١ »	٩ »
إمارات بومباى	٣٤٩٫٠٠٠	٩ »	٣ »
إمارات الهند الغربية	٣١٨٫٠٠٠	١٠ »	٨ »
الولايات الوسطى	٢٥٣٫٠٠٠	١٤ »	١٠ »
الولايات المتحدة	٢٠٩٫٠٠٠	٢٢ »	١٧ »
بارودا	٢٠٣٫٠٠٠	٩ »	٨ »
كشمير	١٧٠٫٠٠٠	٢٣ »	٥ »
كوشين	١٢٥٫٠٠٠	١٦ »	١٠ »
إمارات مدراس	٦٥٫٠٠٠	١٦ »	١٤ »
إمارات بنغال	٣١٫٠٠٠	٥ »	٣ »
سخيم	٢٫٠٠٠	٤ »	٢ »
إمارات آسام	١٫٤٠٠	١ »	—
إمارات الحدود	٥٤٠	٤ »	١ »
إمارات بلوخستان	٢٠	—	—

يستنتج من ذلك أن نسبة المنبوذين الى عامة السكان ، بل أن نسبتهم الى الهندوس ، تتفاوت تفاوتا كبيراً باختلاف الاقليم ؛ وقد حاولنا أن نصل الى قاعدة لتوزيع المنبوذين بين الهندوس فلم نستطع ، مما يدل على أن عوامل كثرتهم أو قلتهم لا ترجع الى طريق معيشتهم ؛

أو الى مدى استعدادهم ، أو مدى اعتمادهم على بقية الهندوس أو غـيرهم ، فى كسب قوتهم ، بل إن أكبر الظن أن توزيع المنبوذين على المقاطعات والولايات لا يخضع لقاعدة ما ، بل يستمد كيانه من الوراثة فحسب .

ولما كنا ندرس أحوال المنبوذين لغرض خاص ، هو الاطلاع على مدى استعدادهم لتغيير دينهم ، فى الآونة الحاضرة ، أو فى المستقبل القريب ، وكان التعليم من أهم العوامل التى تدعو القوم للتبصر فى أحـوالهم العامة ، وإدراك ما هم عليه من شقاء تحت نظامهم الحالى ، بحيث يصح القول إجمالا : إن استعدادهم لتغيير دينهم يتناسب تناسبا طرديا مع نسبة انتشار التعليم بينهم ، لذلك رأينا أن نقف القارىء على نسبة التعليم بينهم فى الولايات المختلفة :

١٤٩	فى الألف	فى ترافا نكور
١٢٩	«	« إمارات آسام
١٠٣	«	« إمارة بارودا
٦٩	«	« بلوخستان
٥٠	«	« بنغال
٤٨	«	« إمارة كوشين
٣٦	«	« مقاطعة الحدود
٣٥	«	« إمارات مدراس
٣١	«	« آسام
٢٨	«	« بومباى
٢٨	«	« إمارات بومباى
٢٥	«	« إمارات بلوخستان
٢٢	«	« أجمير
١٩	«	« إمارات الهند الغربية

وتلى تلك مجموعة من الولايات والامارات تتضاءل فيها نسبة التعليم بين المنبوذين ، حتى تصل فى بعض منها الى ٢ فى الألف فقط .

وسنرى فيما يلى من تاريخ ثورة المنبوذين على الديانة الهندوسية ، باسبابها ، ونتا ئجها ، والحال الحاضرة فيها ما يبعث على الاعتقاد بصحة هذا القياس .

الأصل فى الطبقات المنبوذة :

يرجع أصل حركة « النبذ » الى تقاليد الديانة الهندوسية منذ أقدم العصور ؛ ويرجعها عامة الكتاب الى عاملين : أحدهما تاريخى ، وثانيهما دينى .

الأصل التاريخى :

يروى لنا المؤرخون أن الجنس الآرى قد استوطن منذ أقدم عصور التاريخ الهضبة الأسيوية الوسطى ، فقد هاجر منها فى حقب مختلفة من التاريخ الى أوربا وايران والهند . وقبل قدوم الآريين الى الهند ، كانت البلاد آهلة بأجناس مختلفة ، ضرب بعضها بسهم وافر فى المدنية ، مما يستدل عليه بآثارهم العمرانية التى كشف عنها التنقيب فى أنحاء مختلفة من الهند .

وقد ظل الآريون يتوغلون فى الهند رويداً رويداً ، متغلبين على كل ما صادفهم من عقبات ، حتى ليقال إنهم لم يكتفوا بالتغلب على سكان البلاد الأصليين وإخضاعهم لسلطانهم الزمنى فحسب ، بل جردوهم من كل ممتلكاتهم ، ونزلوا بهم الى مستوى أحط من مستوى الأرقاء . وقد لجأ كثير من أفراد العنصر المغلوب الى الغابات والجبال المنيعة ، حيث لا يزال أحفادهم على قيد الحياة يعيشون عيشة المتوحشين الأقدمين ؛ فى حين لجا فريق آخر ، ممن جردوا من منازلهم وضياعهم ، الى معيشة التجوال ، ومنهم نشأت القبائل الرحل التى لاتزال تجوب أنحاء الهند لا تلوى على شىء . وقد اتخذ كثير من هؤلاء على مر الأيام السرقة والخطف مهنة يلتمسون الرزق من سبيلها . ولا يزال ذكر هؤلاء يرد حتى اليوم فى الاحصاءات الرسمية باسم « القبائل الاجرامية » ، ويرصد البوليس حركاتهم ويتتبع أحوالهم . وقد أنشأت الحكومة ادارة خاصة بقصد الحد من تصرفاتهم الاجرامية ، أما البقية الباقية ممن ذكرنا فقد ركنوا الى الاقامة بالقرب من المدن الكبرى فى حالة فقر مدقع ، يلتمسون الرزق من أحقر السبل كالزبالة ، والشحاذة ، واقتناص القردة وتدريبها على الرقص واللعب أمام جمهور محدود من النظارة يتصدق عليهم ببعض الحبوب أو ببضعة قطع من العملة النحاسية . والى هذا الفريق ينتسب عامة الحواة الذين يلعبون بالثعابين ؛ والراقصون على الحبل و (البهلوان) ؛ وقد دفعتهم الفاقة الى التهام كل ما يقع تحت أيديهم ، فاذا أعوزهم الطعام فتكوا بالثعالب وأبناء آوى والفيران ، وقد يأكلون الثعابين ؛ ويعيش معظمهم على الجيف ؛ أما ملابسهم فبالية قذرة ، إلا من عاش منهم فى المدن ، فان ملابسه قد تكون أحسن قليلا ؛ ويوجد ببلاد الهند من هذه الطبقات الوضيعة حوالى ثلاثمائة صنف .

الأصل الديني :

يوجد فى تقاليد الديانة الهندوسية قانون قديم جداً ، يعد مرجعاً من أهم مراجعهم ، ويعتقدون أن واضع ذلك القانون كان شخصاً عظيم الورع ، واسع العلم ، اسمه « مانو Manu » ، كما يعتقدون أنه وضع ذلك القانون شريعة لهم ، ولذلك لم ينكر سلطته بل لم يناقشها أحد من المتأخرين .

ولقد قسم « مانو » الهندوسيين بل عامة الجنس البشرى (إذ يظهر أنهم كانوا يعتقدون أن الهند هى كل المعمور ، وأن سكانها هم عامة الجنس البشرى) قسم هؤلاء الى أربعة أقسام :

أولا : البراهمة :

وهم من خلقوا من فم الإله ، وكانت وظيفتهم الوراثية ، هى العلم بكتابهم المقدس (الفيدا Vidas) . ولهم أن يمارسوا كل شئون العبادة ، فهم بذلك قساوسة الهندوسية ، وكانوا يعتبرون من أرقى مراتب الجنس البشرى ، وواجب على كل من لم يكن برهمياً أن يخصهم بأعظم قسط من الاحترام والتقدير ، وأن يتقدم إليهم بكافة أنواع الهدايا ؛ ولا يصح القيام بأى واجب دينى إلا على أيديهم ، أو بعبارة أدق : نراهم قد احتكروا الوساطة بين الانسان وربه .

ثانيا : الشاترى :

وهم من خلقوا من أذرع الإله ، ولذلك كانوا هم رجال الحرب والقتال ، وبيدهم صولجان الحكم الزمنى ، يتوارثون الوظائف أباً عن جد .

ثالثا : الفايشا :

وهم من خلقوا من فخذى الإله ، وينتمى الى هذه الطبقة : التجار ، ورجال المال والزراعة .

رابعا : السودرا :

وهم من خلقوا من أقدام الإله ، وتشمل هذه الطبقة الخدام الذين كتب عليهم ـ بالوراثة اللانهائية — أن يخدموا الطبقات الثلاث السالفة الذكر ، وأن يعيشوا معيشة كلها خضوع وعبودية ، يحيط بهم الفقر ، ويلازمهم الامتهان .

ويستطيع المجتهد فى قانون مانو ، وغيره من كتب الهندوس ، كما يستطيع المتتبع للسوابق التاريخية فى هذه الديانة ، وكذا من يبحث أمور أصحاب هذا الدين فى حاله الحاضرة ، أن يستنتج أن تقسيم النوع البشرى الى أربع طبقات ، قصد به أن يكون وراثياً ؛ فأبناء البرهمى

وأحفاده ، لابد لهم من أن يكونوا براهمة كما كان آباؤهم وأجدادهم ، وكذلك الحال فى كل من الطبقات الأخر .

ولكن العصر الحديث قد انجلى عن حملات شعواء ، يشنها المسلمون والمسيحيون على نظام الطبقات ؛ ولذلك نشأ من بين الهندوس جماعة من المثقفين والمفكرين ، يقولون بأن هذا التقسيم لم يقصد به أن يكون وراثياً ، بل إنه تقسيم قد دعت إليه الكفايات ؛ فالرجل المثقف الورع قد يكون برهمياً ، كما أن الجندى المحنك قد يكون (شاتريا) ، أما من اتجهت به مواهبه الى التجارة أو الزراعة فيكون (فايشا) ، ثم تتبقى بعد ذلك طبقة من الشعب ، تكاد تنعدم فيها المواهب السالفة الذكر ، وهؤلاء هم السودرا .

وبمقتضى هذا الرأى ، يجوز أن ينحدر ابن البرهمى الى أحط دركات المجتمع ، إذا لم يكن له من المواهب ما يستطيع أن يؤهل به نفسه لإحدى الطبقات الأخر ، كما يحتمل أن ينشأ ابن السودرا ، وقد وهبته الطبيعة المقدرة على إحراز المعرفة والتمسك باهداب الورع ، فيرتفع بذلك الى درجة البراهمة ؛ وقياساً على ذلك يجوز لابن الشاترى أو الفايشا أن يرقى الى درجة أعلى من درجته ، أو أن ينحط الى طبقة أدنى من طبقته ، وفق مؤهلاته . على أن الرأى الذى نادت به هذه الطبقة من المفكرين لم يعدو أن يكون رأيا نظريا ، لا تؤيده السوابق التاريخية ، ولا تصرفات الجيل المعاصر .

وتنقسم « السودرا » بعد ذلك الى قسمين : قسم يجوز لمسه ، وقسم يحرم لمسه ؛ فمن الفريق الأول حمالو الماء ، والخدم المكلفون بتنظيف الأوانى ؛ ويجوز لهؤلاء ان يلمسوا أجسام الهندوس من الطبقات التى تعلوهم ، كما يجوز للهندوس لمس أجسامهم ، دون أن يسبب هذا التلامس نجاسة ، ولكن سواد السودرا يعدون أنجاساً ، لا يسمح لهم بلمس أجساد الهندوس من الطبقات العليا ، بل لا يجوز لهم أن يلمسوا « السودرا » من الطبقة الأولى ، كما لا يسمح لأولئك بلمسهم ، وهؤلاء هم المنبوذون .

« يتبع »

رسالة أبى الربيع محمد بن الليث :

هذه رسالة كتبها أبو الربيع محمد بن الليث عن لسان الخليفة هرون الرشيد الى الامبراطور قسطنطين ملك الرومان لعهده ، يدعوه وقومه للاسلام ، وقد طبعها فى رسالة على حدتها حضرة الأستاذ الالمعى النابه أسعد لطفى حسن مؤلف كتاب الاسلام . ولست أرى أبلغ فى تقدمة هـذا العمل الجليل الى القراء من نقل كلمة حكيمة توجه بها حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى . قال فضيلته حفظه الله :

« اطلعت على كتاب الاسلام الذى ألفه حضرة الاستاذ أسعد لطفى حسن فوجدته كتابا يوضح مناحى الدين ، ويأخذ بحظ وافر من الأخلاق ، ويضرب بسهم غير منزور من الأدب والاجتماع ، بعبارة سهلة وأسلوب يشوق النفس ، تتشربه الأفهام ، وتشتهيه الأنفس الطيبة ، وقد أورد فيه من النصوص القرآنية ما فيه بلاغ لقوم يعقلون .

« وبعد أن أتى على ما أراد من هذه النواحى أورد رسالة من انشاء أبى الربيع محمد بن الليث كتبها عن الخليفة الخامس هرون الرشيد الى قسطنطين ملك الروم لعهده يدعوه وقومه فيها الى الاسلام ، وهى فى أسلوبها وجزالة ألفاظها ، وحسن تنسيقها ، ومسحة تأليفها ، تشبه ما كان يتعاطاه فحول الكتاب فى ذلك العهـد كسهل بن هرون وتلميذه الجاحظ . فهى وما كتب فى مشاورة المهدى كأنما يمتحان من قليب واحد ، إذ منشئهما واحد ، استهلها بحمد الله بمحامده والثناء بآلائه ، ثم انتقل الى بيان ما يحمل من أمانة وجوب تبليغ الدين والاعذار الى من لم تبلغه دعوة الاسلام ، وأنه يريد أن يحط عنه ثقل الامانة بتبليغه الاسلام على الوجـه الذى يدعو الى النظر ، اقتـداء برسول الله وامتثالا لأمر الله ، ورجاء أن يكون ممن قصد بقوله تعالى : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » .

« ثم أخـذ يجول فى ميادين الدعوة ، ويتنقل من برهان على التوحيد الى برهان آخر ، ومن حجة الى حجة ، باسطا ذلك كل البسط بالأدلة القوية المتينة .

« ثم تصدى لتوحيد الذات الالهية وبعـدها من التركيب ، وتعرض للعقيدة النصرانية بالأدلة العقلية ، وأتى من ذلك على ما شاء ، وما امتد به نفس القلم ، وكان من أواخر ما ورد من هذه الرسالة قوله :

« وكتاب أمير المؤمنين نذيره بين يدى جنوده ، ومقدمه إن شاء الله من جيوشه ، إلا أن تؤدى الجزية التى دعاك أمير المؤمنين اليها ، وحداك ومن قبلك عليها ، رحمة للضعفاء الذين لا ترحمهم ، وتوجعا للمساكين ممـن لا تتوجع منه لهم ، من الجلاء والسباء والقتل والأسر والقهر ، وقساوة من قلوبكم ، وأثرة لأنفسكم ، واعتصاما بخواصكم ، وإجلاء لعوامكم الضعفاء

الفقراء المساكين ، لا تمنعونهم بقوة ، ولا تدفعون عنهم بحيلة ، ولا تراقبون فى الرحمة لهم ، والتعطف عليهم أدب المسيح إياكم ، وقوله فى الكتاب لكم : « طوبى للذين يرحمون الناس فان أولئك أصفياء الله ونور بنى آدم »

« أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب سامعه وقارئه ، وأن يهدى به ، ويثيب مؤلفه ، إنه سميع الدعاء »

التهذيب فى علم الفقه :

لايزال حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ احمد كامل الخضرى يوالى عمله العظيم فى إعادة صوغ الكتب العلمية الأزهرية فى قوالب عصرية ، وهو عمل سبق لنا أن قلنا عنه إنه أوثق صلة يمكن أن يتوسل بها للتقريب بين الناس وكتب الدين ، واستفادتهم منها كما يستفيدون من جميع مصادر العلم . وقد أنجح الاستاذ فى مشروعه هذا نجاحا عظيما : فقد وصل إلينا من فضيلته أخيرا كتاب (التهذيب) وهو تهذيب كتاب (النهاية) للعلامة ولى الدين البصير رحمه الله ، وهو شرح لكتاب (عناية الاختصار) ، ولم يكن معروفا بل ولم يسبق طبعه .

قال الأستاذ وقد ذكر أنه عهد اليه تدريسه :

« فرأيت من واجبى أن أتابع خطتى فأجمع كتابا يشتمل على ما فى النهاية بالأسلوب الذى درجت عليه فى (تهذيب الكفاية) من تحرير الأحكام ، وتتميم المسائل ، وزيادة الفوائد ، وحسن التبويب ، وسهولة التراكيب ، وتخريج الأحاديث » .

وقد وفى فضيلته بكل ما وعد به ، وزاد بأن طبع كتابه على ورق جيد بحروف جديدة ، فجزاه الله خير ما يجزى به العالمين العاملين .

الفتح الربانى :

لترتيب مسند الامام احمد بن حنبل الشيبانى .

لا يزال فضيلة الأستاذ المفضال الشيخ احمد عبد الرحمن البنا الساعاتى يتابع جهوده فى طبع ما وفق لعمله من ترتيب مسند الامام أحمد مع شرح وضعه له ، وقد أتم طبع الجزء السابع منه .

إن مسند الامام احمد يشتمل على جميع الأحاديث الصحيحة المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا عددا محصورا منها أتى به الأستاذ فى المناسبات وهو بصدد الشرح ، وهذا يعتبر من أضخم الأعمال ، يقوم به فرد واحد بهمة لا تعرف الكلال .

وقد سار على توزيع هذا الكتاب كراريس وأجزاء ، فنرجو لكتابه الانتشار ، ولعمله التوفيق . وعنوانه بعطفة الرسام رقم ٩ بالغورية بالقاهرة .

تأدية حضرة صاحب الجلالة صلاة الجمعة

فى الجامع الأزهر المعمور

أبدى حضرة صاحب الجلالة الملك رغبته فى تأدية صلاة الجمعة فى اليوم الثانى عشر من شهر ذى القعدة سنة ١٣٥٦ فى الجامع الأزهر المعمور ، فأخذت وزارة الأوقاف أهبتها لذلك ، وأم المسجد فى ذلك اليوم أصحاب الفضيلة والدولة والمعالى العلماء والوزراء وأركان الحكومة من ملكيين وعسكريين ، فامتلا المسجد على رحبه بهم حتى لم يبق فيه متسع لقادم . وعندما أزفت ساعة التاذين أقبل جلالة الملك فى ركبه الحافل ، فاستقبله حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الازهر يحيط به جمهور من أعلام الشيوخ ورجال الدولة . فلما انتهى الى مكانه من الصف الأول صلى ركعتين تحية للمسجد وجلس. ولما أذن مؤذن الظهر رقى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر المنبر وألقى خطبة أعاد بها الى الأذهان تلك الخطب المغلغلة التى كان يهز بها بُناة النهضة الاسلامية أعواد المنابر فى أشهر العواصم الاسلامية . وإن الخطبة العصماء التى ألقاها فضيلة الأستاذ الامام لهى من ذلك المورد العِدّ الذى كيّف به الهداة الأولون نفسية هذه الأمة ، ودفعوها بها لطلاب زعامة العالم حتى حصلوها ، ووالوهم بامثالها ليحفظوها .

والذى شهد هذه الصلاة الجامعة فى الأزهر المعمور والأستاذ الإمام يفيض ببيانه السلسال على المنبر فيضا ، كان يقر فى نفسه أن الاسلام لا يزال فى أوج عظمته ، وأنه لا يفتا ينجب الأفذاذ من حملة أمانته ، وأن العقول حتى فى مثل هذا العصر المادى لا تزال تخضع لأدلته الساطعة ، وبيناته الباهرة ، وأنه لو احتكرت المنابر لأصحاب الألمعيات العالية ، والثقافات الراقية ، لاستعاد المسلمون مجدهم الأثيل ، ولاستردوا سلطانهم الأدبى على الأمم كافة . فلئن كان إيماننا قويا فى مستقبل الإسلام ، فلقد أصبح أقوى مما كان عليه على عهد حضرة صاحب الجلالة الفاروق ، وفى إبان نهضة رجال الدين هذه تحت قيادة الإمام العبقرى صاحب الفضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى .

إليك الآن نص هذه الخطبة الجليلة :

الخطبـــة

الحمد لله العلى القادر ، العزيز القاهـر ، الحـكيم الذى لا يضل ، الخبير الذى لا ينسى ، سبحانه الـكبير المتعال .

نحمده حمدا به نستأهل غفرانه ، ونستمنح عطفه ورضوانه .

ونشهد أن لا إله إلا الله توحـد بالربوبية المطلقة ، وتفرد بالجـلال والعزة ، وبرأ الخلق بقدرته ، وأمدهم باحسانه ورعايته .

ونصلى أفضل الصلوات وأتمها على أفضل الخلق وأكملهم ، من ختم الرسالة ، وأدى الامانة ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وكان أفضل قدوة لعباده ، سيدنا ومولانا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه الذين حملوا من بعده علم الهـداية ، فدانت لهم الأمم ، وخضعت لسلطانهم الرقاب ، وكان فضل الله عليهم عظيما .

أما بعد فيقول الله تعالى : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبلَ السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم » . ويقول الله تعالى : « من عمل صالحـا من ذكر أو أنثى وهـو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

على هـذا الاساس شبّ الاسـلام عزيزا لا يعرف الذل ، كريما لا يقبل الضيم ، وحمله كرام بررة رفعوا لواء عزه ، وشيدوا صروح مجده ، وطوفوا به فى الآفاق نافذ السلطان رفيع المـكان ، ثم خلف من بعدهم خلف فتنوا بعرض الحياة الأدنى ، واتبعوا الشهوات وضلوا السبيل . حسبوا الأمم مغانم تقسم ، وأسلابا توزع ، ودنيا مملوءة بالملذات ، فيها دعة وسكون ، وترف ومجون ، وطال عليهم الأمـد فى ذلك فقست قلوبهم ، وصرفتهم الأهـواء عن الهـدى الالهى فساءت حالهم ، وصبروا على الذل واطمأنوا اليه .

تحللوا من أصـول الاسلام وفضائله ، وسول لهم الشيطان أن التدين عار ، وأن الصلاة والصوم والعقائد وما شرع الله من أحـكام تهذب النفوس وقوانين تنظم الحيـاة وتسعدها ، ليست إلا بقية من قرون خلت ، لا يليق أن يستمسك بها الرجل المتمدين الذى عرف معنى الحياة وما فيها من لذة ومتعة .

سول لهم الشيطان أن التدين عار ، وأن الخمر والميسر والاسترسال فى الشهوات والانغماس فى الاباحية نوع من الحرية ، وخاصة من خواص المدنية .

سول لهم أن التدين عار ، فتركوا دينهم ، ونبذوا كتابهم ، وانصرفوا عن العمل الصالح ، والخلق الفاضل ، فصاروا نهبا للامم ، ومثلا للذلة .

توالت عليهم النذر فلم يتدبروا ، وتتابعت أمامهم العبر فلم يعتبروا ، فحقت عليهم الكلمة ، وأذيقوا لباس الجوع والخوف ، وسلط عليهم من لا يخاف الله فيهم « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

بهذا أصبح الإسلام فى ناحية والمسلمون فى ناحية ، وبينهما فجوة بعيدة المدى والأطراف . تركوا دينهم واستباحوا الشهوات ، ومهدوا لمن لا يعرفون الأديان إلا من حالة أهلها أن يقولوا : إن الإسلام دين لا يعرف العزة والكرامة ، ولا يميز بين الفضيلة والرذيلة ، فهو دين يبيح الميسر والبغاء والخمر ، ولأهله فى ذلك قوانين تنظمها وجرائد ومجلات تعلن عنها . دين يبيح الكذب والزور ، والرشوة والفجور ، والفوضى فى النظام ، والجور فى الأحكام . دين يتفنن فى الكيد والنفاق ، وأساليب التفريق والشقاق ، والبغى والعناد ، والإثم والالحاد .

بهذا ونحوه من الآثام والرذائل التى صارت بين المسلمين معروفة مألوفة ، وهى عند العقلاء وفى دين الإسلام منكرة مبغوضة ، يصوَّر الإسلامُ أخذا من حالة جمهور يدين بالإسلام ، وحكومة دينها بنص دستورها الإسلام .

أليس هذا أيها المسلمون جناية من المسلمين على الإسلام ؟ أليس هذا تناقضا لا يجمل بالعقلاء أن يصبروا عليه ، ولا يحسن بأمة تريد الحياة مرفوعة الرأس أن تسكن إليه ؟

«إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء ، أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين » .

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون » !

أيها المسلمون ! اسمعوا فى دينكم قول الله الحق وقول رسوله الكريم :

يقول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلّموا تسليما » . ويقول : « وإذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا » .

يقرر القرآن نفى الإيمان عمن لم يرض بأحكام الله رضا يزيل الحرج عن صدره ويملأ قلبه استسلاما وطمأنينة ، ويصف بالنفاق من يصد عن الداعى الى الله ورسول الله .

ويقول فى آية أخرى : « قل من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟

قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون . قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

إن الدين أيها المسلمون مهما امتدت آفاقه وتأول فيه المتأولون ، فهو لا يحتمل هذه البوائق ، ولا هذا الالحاد ، ولا هذه الاباحية الجامحة ، ولا هذه الشهوات التى لا تقف عند حد . وإنما يحتمل مدنية فاضلة تقوم على علم كامل ، وعمل صالح ، وخلق فاضل كريم . يحتمل التمتع بزينة الله وما هيأ لعباده من طيبات ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث .

هذا هو الاسلام أيها المؤمنون . فسارعوا الى مغفرة من ربكم ، وأنقذوا الناس من أسباب الدمار والتهلكة . واعلموا أن الله أهلك الأمم الغابرة لأقل من هذه الشرور والآثام .

خطوا للفضيلة طريقا واضحا ، وضعوا لها نهجا مستقيما ، وقوموا على حراسته كما أمر الله بالعدل وقوة السلطان : إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . وكان حقا علينا نصر المؤمنين .

أيها المسلمون ! إن الله وضع قواعد الحكم الصالح فى هذه الآيات البينة الواضحة : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعمّا يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا . يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تاويلا » .

والأمانة ما تجب المحافظة عليه . فالسر أمانة ، والتكاليف الشرعية أمانة ، وعلم العالِم أمانة ، وقول الحق فى الشهادة وغيرها أمانة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أمانة ، والعدل فى الأحكام والأفعال والأقوال أمانة .

كتاب الله قانون ، وسنة رسوله قانون ، وما اتفق عليه أهل الحل والعقد من المسلمين مما لا يخالف نصا فى الكتاب ولا فى السنة قانون ، والرد عند التنازع الى قواعد الدين العامة وأحكامه الكلية قانون . وكل هذه القوانين أمانة استودعكم الله إياها ، واستحفظكم عليها ، وأنزل عليكم فى محكم كتابه : « يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا آماناتكم وأنتم تعلمون » .

أيها المسلمون ! اسمعوا أدب نبيكم الكريم لأصحابه وأمته :

« شر ما فى الرجل شح هالع وجبن خالع — لن تزول قدم شاهد الزور حتى يوجب الله له النار ، ومن كتم شهادة دعى إليها كان كمن شهد الزور .

«الدين النصيحة . قلنا لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم — المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخـذله ولا يحقره ، التقـوى ها هنا (يشير الى صدره) كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه .

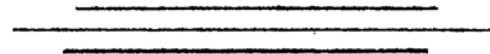
« من ولى من أمر المسلمين شيئا فأمّر عليهم أحدا بمحاباة فعليه لعنة الله ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله النار .

«اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فان الشح أهلك من قبلـكم ، حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم ، وإياكم والخيـانة فانها بئست البطانة .

« من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله الى الناس .

« اتقوا دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب » .

وفقنى الله وإياكم الى التمسك بدينه ، والعمل على مرضاته ، والتخلق بأخلاق نبيه الـكريم !



الزفاف الملكى الكريم

أراد الحق أن يكون الفاروق ملكا عظيما ، فجعل كل ما يتصل به عظيما ، وقد تجلت هذه العظمة فى زواجه الكريم الذى تم فى الثامن عشر من شهر ذى القعدة ، فكان مهرجانا فخما ، لم تر مصر له شبيها ولا فى أيام فراعنتها الأولين ، لا من ناحية ما افتنّ فيه مقيموه من ضروب الزينات ، وصنوف الشارات ، وكثرة الأنوار ، ومواكب الازهار ، وحركات الجنود ، وخفوق البنود ، فكل ذلك قد يوجده الطول والحول ، ولكنه بز جميع نظرائه فيما كان يصاحب كل تلك الحبات المتلألئة من حبات القلوب ، وما يخالط تلك التيارات الضوئية من تيارات النفوس . فلئن كانت شوارع القاهرة وميادينها تموج بمئين الألوف حتى لا يكاد يجد المختلفون إليها مكانا لقدم ، فقد كان جوها مشبعا بروح من الحب الخالص لا نعرف حدوث مثله فى حق مملك قديم أو حديث .

وقد اشتركت كل مدينة وكل قرية ، بل كل أسرة فى هذا المهرجان ، حتى اتصلت صيحات الابتهاج بعضها ببعض من منابع النيل الى مصبيه ، وتخطت مصر الى العالم كله ، فلم تصدر جريدة ولا مجلة فى تلك البقاع النائية إلا ووقفت أوجه صفحاتها لنقل أخبار هذا الزواج الكريم ، وطالع فيها مئات الملايين من القارئين أخبار هذا المهرجان الفخم محلى بالصور ، فكانوا كأنهم شاهدوه . فكم تستطيع أن تعد من عياهل العالم من اهتمت البشرية قاطبة بزفافه كل هذا الاهتمام ، وتوسعت فى قراءة تفصيلات حفلاته كل هذا التوسع ؟ هذا أثر الروح العالية من النبل والكرامة التى يتمتع بها حضرة صاحب الجلالة الفاروق ، وثمرة الصفات الممتازة التى أودعها قلبه الكبير .

ومن توفيق الله لجلالة الملك أن وقع اختياره على عقيلة من أكرم عقائل الأمة المصرية ، توافرت فيها جميع الصفات الفاضلة التى يجب أن تتحلى بها ملكة مصرية ، فقد شهد كل من تشرفوا بمعرفتها أنها مثال كامل للآداب العالية ، والمحامد السامية ، ونموذج صالح للتربية الراقية .

ومن مميزات هذا القران المبارك أن يكون متولى عقده رجل أشعرت نفوس المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أنه باعث روح النهضة الاسلامية ، ومدبرها بأعماله الاصلاحية ، حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الامام المصلح الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر ، فلا يسع مجلة الأزهر فى هذه الظروف الجليلة إلا أن تتمنى لجلالة الفاروق العظيم هناءة خالصة من الشوائب ، وأن يكون عهده فاتحة عظمة لمصر ، ورفاهة لأهلها ، وأن يبقيه محوطا بعناية الله وإمداده عمرا طويلا بمنه وكرمه ؟

محمد فريد وجدى

الزفاف الملكى الكريم

بك عاد للاسلام عهد شبابه ... يا فخر شيخته ، وزين شبابه
لما طلعت على الحمى ، سعد الحمى ... وأتى صريحَ المجد من أبوابه
عرش أناف على المجرة رفعة ... واخضرت الآمال تحت سحابه
الدين والدنيا لديه تلاقيا ... هذى بزينتها ، وذا بكتابه
فى موقف ضمن الخلودَ جلالهُ ... بالحق ، لا ابطِعانه وضِرابه
لم يحوه كسرى الملوك وقيصر ... فى زهو ملكهما ، ولا سمعا به
فاروق ألبسه مطارفَ عزة ... بالشمس قد وصلت عرا أنسابه
ملك أصاب على نضارة عوده ... فى الملك ما أعيا على أقطابه
العفو من آدابه ، والبذل من ... آرا به ، والعدل من ألقابه

***

النيل حين بدا سنا إملاكه ... غنت عنادله على أعنابه
وتطاول الهرم المدل بنفسه ... وازداد إعجابا على إعجابه
والازهر الثاوى بقنة مجده ... سطعت مباهجه على محرابه
نفح السرور به ، فهز رجاله ... من شيخه الاعلى الى طلاّبه
واستبشر الشرق الكريم بأسرة ... طُبعت خلائقها على آدابه
أنعم بتاج حاز خير فريدة ... زانت نفاستها كريم نصابه
حن الجلال الى الكمال ، فضمه ... والشىء منجذب الى أضرابه
إملاك فاروق المليك سعادة ... لبس الزمان بها ربيع شبابه
فشُعاع هذى الشمس من أنواره ... وأريج هذا الروض من أطيابه
والبدر أفرط فى السمو لأنه ... فى تِمِّه قد عد فى أترابه

***

فاروق : شعبك فى زِفافك سابح		فى يمن طالعه ، وفى إطرابه
وقفت ببابك أمـــة وثابةٌ		فياضةً ، كالسيل فى تَصخابه
إخلاصها السامى أجل هدية		لأجل من وقف الوفود ببابه
من مبلغ الليث المحجب أنه		فى شبله قد عاش خلف حجابه
أربى وزاد ؛ فهذه أعلامه		ملء الربا ، والنصر طوع ركابه
والغاب تنحسر المطامع دونه		من ذا يهيج غضنفرا فى غابه ؟
حاطته حبات القلوب لخاطها		وأعزها لجثت على أطنابه
وسما بها صعُدا الى متسنم		أعيت مطالعه على طلابه
نخر به الفاروق سلسلَ مجدَه		وأضاف أحسابا الى أحسابه
فلينعم الوادى السعيد وأهله		فى ظل رايته ، وخصب جنابه

عبد الجواد رمضان

مدرس

كلية اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحـــج

فى هذه الآونة ياخذ الذين أسعدهم الله بازماع الحج الى بيته المحرم فى السفر لأداء هذه الفريضة الجليلة ، ومنهم من بادر به ليطيل مكثه بتلك البقاع الطاهرة . وما يُرى من هذه الحركة هنا يوجد مثلها فى كل بلد إسلامية من مطلع الشمس الى مغربها ، ونحن إن كنا على بعد ثلاثة أيام من تلك البقاع الشريفة بحرا وبضع ساعات جوا ، فان من المسلمين من لا يكفيهم الشهر فى قطع هذه المساوف المترامية بينها وبين بلادهم برا وبحرا ، وقبل قرن من الزمان كانت لا تكفيهم السنة يتعرضون فيها الى إخطار لا يقوى على تحملها إلا كل من كتب له طول البقاء .

هذه العاطفة القوية التى كانت ولا تزال تهيب بالنفوس الى زيارة بيت الله ببكة ، لم تضعف بضعف العاطفة الدينية فى هذا القرن المادى ، ولكنها ازدادت قوة ، فأصبح اليوم يحج من لا كان يرد له الحج ببال ، من الرجال المثقفين والنسوة المتعلمات ، والفضل فى ذلك يرجع الى قوة بنية هذا الدين ، وازدياد تأثيره فى النفوس بازدياد ترقى العلم والحكمة . فانه بينما يشكو العالم كله من مجافاة المتعلمين للأديان ، يزداد متعلمو المسلمين تقربا من الاسلام وإقبالا عليه . ولايمكن أن يعلل هذا الأثر بفعل الوراثة ، ولابدافع التقليد ، فانهما لايتعديان حدود الجمود العقلى الى الأعمال الشاقة التى تكلف الانسان مالا وانتقالا .

الحج فى ذاته ليس خاصا بالاسلام ، فقد كان أهل الجاهلية يحجون ، واليهود والنصارى يحجون ، وكان أهل الهند والصين واليونانيون القدماء وغيرهم يحجون الى معابد وهيا كل مقدسة لديهم ، ولكن ليس الحج فى واحدة من هذه الأمم يشبه الحج فى الاسلام . فتلك أمم اعتبرت الحج غاية فكانت تؤديه لذاته ، ولذلك اعتقدت أنه كلما كان شاقا مرهقا كان ثوابه أكثر ، وعائدته أوفى ، ولكنه يعتبر عند المسلمين وسيلة لما يبتنى عليه من الفوائد الأدبية والمادية ، وذريعة لما يتولد عنه من العوائد الروحية والاجتماعية . ولذلك شرط الله له توافر الاستطاعة المالية والبدنية ، واستكمال أسباب الراحة الجسمية والانتقالية .

فالحج فى الاسلام فوق ما هو عليه من الصبغة العبادية ، تلازمه صبغة اجتماعية واضحة ، وهو كجميع العبادات الاسلامية تمازج فيه هاتان الصبغتان بحيث لايعرف الحد الفاصل بينهما ، وهنا موطن قوة هذا الدين الذى أدهش بها العالم ، وعلة حياته فى قلوب أهله حياة قابلة للتجدد على مر الأيام وتوالى الحوادث .

فيصح والحالة هذه أن تقول : إن الحج يلازمه قيام مؤتمر عام للمسلمين فى كل عام مرة . ومن يتأمل فى جزئياته يرى أن عناصر ذلك المؤتمر ماثلة فيه على أكمل وجه . فان المسلمين فى أول الاسلام كان يحج بهم أمير من اختصاصاته أن يبلغهم إذا اجتمعوا فى صعيد واحد ما كلفته السلطة العليا أن يبلغهم إياه مما له اتصال وثيق بأمر دينهم ودنياهم . والدين والدنيا فى نظر الاسلام مترابطان ، ترابط الروح والجثمان فى الانسان . فاذا كان الدين يمد الروح بالايمان الصحيح ، والآداب والأخلاق ، فان أمور الدنيا تمده بأسباب البقاء ، ودواعى الارتقاء ، وإتقان خلافة الله فى الأرض .

هذا وضع جلل فى نظر علم الاجتماع ، لا يعقل أن يبتكر بانى دولة أصلح منه لتوثيق روابط أمة من الأمم ، وإسعافها بالتقوية كلما أدركها ضعف أو أثارة من انحلال .

ثم إنه من ناحية أخرى ، إن روعيت جميع شروطه ، وسيلة عملية لتوحيد غايات المسلمين وتوجيههم الى مصادر الحياة الصحيحة ، بما يقتبسه بعض شعوبهم من ثقافات البعض الآخر مما يكونون قد هُدوا اليه دون غيرهم ، سواء أكان ذلك فى عالم العلم أم العمل . ولا يخفى ما فى استمداد الضعفاء من الأقوياء من خير يعود على الطرفين جميعا .

ويتبع هذا أيضا ناحية ليست تقل خطرا عن الأولى إن لم تكن تفوقها قيمة ، وتكبرها أثرا ، تلك هى الناحية الاقتصادية . فان لكل شعب من الشعوب الاسلامية صناعات ، ونبوغا فى بعض ضروب المحاولات ، ولبلادهم منتجات لا توجد فى غيرها ، فانه بوساطة هذا المؤتمر العام يمكن إبرام اتفاقات على تبادلها فيما بينهم ، وإن مثول أصحابها فى مجتمع عام يسهل عليهم تدارس الوسائل المختلفة لتسهيل أمر ذلك التبادل وجعله أمرا واقعا ، بتذليل ما عسى أن يقوم أمامه من العقبات .

هذا بعض ثمرات الحج من الوجهة الاجتماعية ، فهل يقوم المسلمون بما يحققها استكمالا للناحية الدنيوية من هذه الفريضة ؟

كل تجديد فى شأن من الشئون البشرية يجب أن تسبقه حاجة ماسة اليه ، فهل أشعرت نفوس المسلمين الحاجة الى الاستفادة من الحج لمصالحهم الأدبية والمادية ؟

ليس لدينا من شك فى حدوث هذا الشعور منذ نحو نصف قرن ، وقد كتب فى حكمة الحج من الناحيتين الروحية والاجتماعية عدد كبير من الباحثين ، ولكن كان يحول بين المسلمين وتحقيق هذه الأمنية سيادة الجهالة والأمية فى سوادهم الأعظم ، والصعوبة العظيمة التى كان يعانيها الخاصة فى شخوصهم الى الأماكن المقدسة ، لخلوها من ضروريات الإقامة ووسائل الانتقال . ولا تزال هذه الحوائل قائمة وإن كانت فى طريق الزوال . فالمسلمون اليوم يعملون جادين على قشع غياهب الأمية عن عقول عامتهم ، وقد تسهلت وسائل الانتقال بحرا

وجوا ، وتأسست فنادق كاملة العتاد هنالك ، فتيسر لكثير من رجال التفكير العالى زيارة البيت وتلك المشاهد الرائعة ، وازدادوا علما بأن الاستفادة من هذه الفريضة لمصلحة الاسلام والمسلمين يتناول أكثر مما أشرنا اليه . فقد رأوا أنه كما يتناول توحيد وجهة المسلمين وغايتهم ، قد يمتد فيتناول توحيد لغاتهم وتقاليدهم وعاداتهم ، وإزالة بدعهم وخزعبلاتهم . وصدور هذه الاصلاحات والتجديدات من البيئة نفسها التى نشأت فيها أول نواة لهذه الأمة ، ومنها استمدت عناصر حياتها ، وروح وجودها وعظمتها ، يطبعها بطابع التقديس فتخضع الرقاب لها صاغرة ، وتنحنى الرءوس أمامها خاشعة . ويزيدها هيبة وتأثيرا أن تلك البقاع أصلح لتمثيل جميع المذاهب الاسلامية من كل بقعة فى الأرض ، فيكون للتعاليم والوصايا التى تصدر منها صفة الاجماع ، فلا يقوى على الحط من شأنها متلاعب مبتدع فى أى بيئة من بيئات العالم .

هذه الأقوال ليست بالأمانى التى يتعزى بها المفكرون ، ولكنها حقائق لا بد من تولدها من فريضة الحج ما دامت مقامة لدى المسلمين ، ومادام هذا الجثمان الضخم من شعوبهم وجماعاتهم قد كتب له أن يعيش .

ومما يحسن بنا أن لا نختتم هذه العجالة حتى نستنزل عجب القارئ من هذا النظام البديع الذى بنى عليه الاسلام مجتمعه العظيم ، فقد وضعه على أسلوب وإن كان لا يمنعه من طروء الضعف عليه إذا قصر أهله فى أداء واجباتهم نحوه ، فإنه يحميه عوادى التحلل والفناء فى غيره . فان ضروب المناعات المبثوثة فى بنيته ، وصنوف الحوافظ المحيطة به ، لما تحار فيها العقول القوية ، وتدهش منها البصائر النافذة .

لقد وصلت بعض جماعات المسلمين وخاصة فى العهود الأخيرة الى حالة من الضعف أصبحت معها حرضا يرثى له ، نسيت معه كل شىء حتى وجودها ، ولكنها لم تنس شيئا واحدا وهو دينها ، فلم تزل تحبه وتحترمه وتعلق عليه آمالا كبارا . فكان الناظر اليها يعد ذلك منها جمودا ، لأنه فى قصر نظره وجهله بحقيقة الاسلام كان يظن أن ما هى فيه هو جناية هذا الدين عليها ، فأكثروا فيها من الدعاة للملهم ، وبثوا فيها روح النفور من عقائدها ، ولوحوا لها بما ينتظرها من المقاوم الكريمة ، والمكانات العلى إن صبأت عنه الى غيره ، ولكنها ظلت وفية له لا ترجو من حياتها إلا شيئا واحدا وهو أن تموت عليه .

لا نقول إن هذا الثبات من آثار الجمود على التقاليد ، والاستماتة فى الصبر على الموروثات ، لأن شعوبا كثيرة غير إسلامية صبأت عن أديانها فى عهود كثيرة من التاريخ ولم تصل الى مثل ما وصلت اليه بعض الجماعات الاسلامية من الضعف وسوء الحال ، فعدم حدوث هذه الظاهرة الاجتماعية فى هذه الجماعات خلافا لسواها يدل دلالة قاطعة على أن فى نظام الاجتماع على الأسلوب الاسلامى حوافظ خاصة ، ومناعات قوية ، تحميها شر التحلل والتلاشى فى جماعات أخرى .

ونحن وإن كنا نرى أن هذا الموضوع جدير ببحوث مستفيضة ، وتدقيقات عظيمة ، فاننا نستطيع أن نتعجل فنقول : إن فريضة الحج واحدة من حوافظ الاجتماع للشعوب الاسلامية .

وقد فطنت لذلك أمم استعمارية فعملت على تحريم الحج على الشعوب الاسلامية الخاضعة لسلطانها سنين كثيرة ، ولـكن وجود غير الحج من الحوافظ والمناعات فى بنية الجماعات الاسلامية أبقتها حافظة لتماسكها فى وجه جميع المغريات التى صبت عليها من مستعمريها الذين اضطروا فى النهاية أن يرفعوا هذا الحجر عنها .

واليوم توجد أمم تتطور فى اتجاه المدنية الأوربية ، وتتقمص العقلية الغربية عن اعتقاد راسخ بأنها إن لم تفعل ذلك لا تستطيع أن تلحق الدول المعاصرة فى توثباتها الحيوية . وكان كل متأمل فى تطور هذه الأمم فى هذه الوجهة يظن أن الاسلام سيلاقى منها ما لقى كل دين سواه لدى الذين سلـكوا مثل هذه السبيل من قبل من الجماعات الأجنبية ، ولـكن هؤلاء المتشائمون ما لبثوا أن رأوا هذه الأمم تزيد تعلقا بالاسلام ، وتشتد محافظة عليه . فمساجدها أصبحت أكثر حفولا بالمصلين ، ومواسم الدين صارت فيها أظهر مما كانت عليه . ولو امتدت بك حياة الى نحو ربع قرن آخر لترينّ رأى العين أن حوافظ هذا الدين وجواذبه قد عطفتهم اليه من أسمى ما يؤثر على شعورهم ، وأخفى ما يتسلط على عقولهم .

ولقد بدأت هذه القوى الظاهرة والخفية فى الاسلام تنتج آثارها فيهم ، فقد قاموا بترجمة القرآن الى لغاتهم ، فيقول قصار النظر هذه مقدمة لإلقاء نيره عن عواتقهم ، والحق أنهم ترجموه لشدة تعلقهم بكتابهم ، وحبهم زيادة الفهم عن ربهم . فان من يريد التخلص من سطوة كتاب على قومه ، يدعه على لغته التى لا يفهمونها ، ويزيدهم إيهاما بأنه مما لا تجوز ترجمته ، فلا يمضى عليهم عهد حتى تزول معالمه من أذهانهم فلا يعودون يتمسكون به .

الخلاصة أن للاسلام حوافظ ومناعات من ضروب شتى قد يخفى كثير منها على المتأملين السطحيين ، وهى فى الواقع ترتكز على أدخل قوى النفس ، وأخفى غرائزها ، كما يرتكز ظاهره على أظهر عواطفها ، وأوضح مراميها ، فليس لها على الحالين محيد عنه : « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » ؟

محمد فريد وجدى

السنة

كيف كان يجتهد الرسول وكبار الصحابة
فى الأحكام الشرعية

عن ابن عمر أنه قال : « لما توفى عبد الله بن أبى بن سلول جاء ابنه عبد الله الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم ساله أن يصلى عليه ، فقام رسول الله ليصلى عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : تصلى عليه وقد نهاك ربك ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنما خيّرنى الله فقال : « استغفرْ لهم أولا تستغفرْ لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفرَ الله لهم (١) » وسأزيده على السبعين . قال عمر : إنه منافق ! قال : فصلى عليه رسول الله ، فأنزل الله « ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبدا ولا تَقم على قبره (٢) » . رواه الشيخان .

يتعلق بشرح هذا الحديث أمور : (١) هل يدل الحديث على أنه يجوز للرسول صلى الله عليه وسلم أن يجتهد فى الأحكام الشرعية قبل نزول الوحى ؟ (٢) وإذا جاز له الاجتهاد فما فائدته مع اتصاله بالوحى : ألم يكن الأولى أن يتلقى الأحكام كلها عن الوحى ؟ (٣) يؤخذ من الحديث أن عمر قد خالف الرسول فى اجتهاده ، فهل لأحد أن يخالف الرسول فى حكم شرعى ، وكيف يتفق ذلك مع قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا (٣) » ؟ (٤) قد صرح الحديث بدليل الرسول الذى بنى عليه اجتهاده فقال : إنما خيرنى الله الخ فما دليل عمر الذى بنى عليه نهى النبى عن الصلاة عليه ؟ (٥) قد أقر الله اجتهاد عمر فى الظاهر حيث قال للرسول : « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا » فما هو السر فى ذلك ؟

(١) أما الجواب عن السؤال الأول فهو بالايجاب ، وذلك لأن الحديث صريح فى أن النبى صلى الله عليه وسلم قد اجتهد فعلا فى حكم شرعى . أما كونه حكما شرعيا فظاهر ، لأن جواز الصلاة على المنافق المتوفى وعدم جوازه حكم شرعى بلا ريب . وأما كونه صادرا عن الرسول باجتهاده لا بالوحى فذلك لأن عمر قد خالفه فيه ، ولو كان صادرا عنه بطريق الوحى لما جاز

---

(١) سورة التوبة : ٨٠ (٢) التوبة : ٨٤ (٣) الحشر : ٧

لعمر أن يخالفه فيه كما ستعرفه بعد ، فهذا دليـل واضح على أن للنبى صلى الله عليه وسلم أن يجتهد ، لأنه قد اجتهد فعلا ولم ينهه الله عن الاجتهاد .

على أن بعض علماء الأصول قال : ليس للرسول أن يجتهد . وقداستدل من قال ذلك بدليلين :

(أحدهما) أن رأى المجتهد يحتمل الخطأ والصواب ، ولهذا لا يجب على الناس أن يقـلدوا المجتهد ، وهذا المعنى لايتحقق فى الرسول لأن الله تعالى أوجب علينا اتباعه فى كل الأحكام التى يجىء بها بحيث لا يجوز لأحد مخالفته فيما يأمر به أوينهى عنه .

(ثانيهما) أن الرسول قد بعث ليبلغ الأحكام عن ربه ، فيجب أن تـكون شريعته كلها بنصوص من عند الله ، لأن الشأن فى المبلغ أن يقتصر على مايوحى إليه ، ومتى اجـتهد يخرج عن وظيفة التبليغ الى وظيفة الاجتهاد التى لم يبعث لها .

وقد أجيب عن الدليلين بأن النبى صلى الله عليه وسلم متصل بالوحى ، فلو أخطأ فى اجتهاده فان الله لا يقره على الخطأ بل يوحى اليه بالصواب الذى يجب العمل به . ولهذا كان اتباعه فى كل ما جاء به من الأحكام واجبا ، بخلاف غيره من المجتهدين . فالرسول وإن كان يوصف بالاجتهاد فى بعض الأحـكام فى أول الأمر ولـكن بعد أن يقر الوحى اجتهاده يصبح رأيه فى الحـكم صوابا جزما لا يحتمل الخطأ كالنص الموحى به بدون فرق . وبذلك تعلم أن الرسول لا يخرج باجتهاده عن وظيفة التبليغ ، لأن اجتهاده بعد إقـرار الوحى إياه يكون كالنص المـوحى به بلا فرق .

على أن هناك أدلة كثيرة من الـكتاب والسنة تدل على أن للرسول أن يجتهد .

منها قوله تعالى : « لتبين للناس مانـزّل اليهم (١) » . ولا يخفى أن البيان عام يتناول ما كان بطـريق الوحى وما كان بطريق الاجتهاد . بل لو قصرناه على ما كان بطريق الوحى لم يكن له كبير فائدة ، لأن البيان بطريق الوحى مأمور به ضمن الآيات الأخرى .

ومنها قوله تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار (٢) » . وليس من المعقول إخراج الرسول من أولى الأبصار المأمورين بالاعتبار أعنى الاجتهاد ، لأنه سيد أولى الأبصار وأجدرهم بالنظر والاعتبار .

ومنها قوله تعالى : « وشاوِرْهم فى الأمر (٣) » فانه لو لم يكن له رأى فاصل فى الأمور لم يكن لأمره باستشارتهم معنى ، فان الذى لا يملك البت فى أمر يكون عابثا إذا شاور غـيره فيه . ولا يصح أن يقال إنها شورى ظاهرية يقصد بها تطييب خاطرهم فقط لأن ذلك مما ينزه الله عنه ورسوله وأجلاء الصحابة ، فانهم إذا علمـوا أن الشورى لا فائدة لها مطلقا تهيج خـواطرهم

(١) النحل : ٤٤ (٢) الحشر : ٢ (٣) آل عمران : ١٥٩

لا تطيب . وأيضا لو صح هـذا لما كان لمخالفتهم إياه معنى ، مع أنه قـد ثبتت مخالفتهم إياه فى كثير من الحوادث ، وقد أقرهم الله على رأيهم فى كثير منها . وهذا الحـديث الذى معنا شاهد صدق على أن النبى قد اجتهد فعلا وخالفه عمر وأقر الله اجتهاد عمر فى الظاهر ، ولم ينه الرسول عن الاجتهاد . ومثله كثير فى السنة ، بل وفى كتاب الله تعالى .

ومنها قوله تعالى: « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يُثْخِنَ فى الأرض (١) » الآية . وحاصل ما قيل فيها أن المسلمين قد أسروا فى معركة بدر سبعين أسيرا ، منهم العباس عم الرسول ، وعقيل بن أبى طالب ، وسهيل بن عمر ، من فصحاء مكة وخطبائها البلغاء . فاختلف المسلمون فى أمر هؤلاء الأسرى ، فـكان من رأى الرسول صلوات الله عليه وأبى بكر ومعهما بعض الصحابة إطـلاق سراح هؤلاء الأسراء بفدية مالية ينتفع بها المسلمون . وكان من رأى عمر وسعد بن معاذ ومعهما بعض المسلمين قتلهم . وظاهر هذه الآية يؤيد عمر ومن معه ، ولـكن الواقع أن الله قد أيد الفريقين .

بيان ذلك : أن وجهة نظر عمر رضى الله عنه قد يقال فيها إن المسلمين كانوا فى بدء قوتهم فمن واجبهم أن يستمسكوا بـكل ما يزيد فى هذه القوة التى يتوقف عليها نشر الدعوة الى الله كى يرهبوا أعداءهم الذين يتربصون بهم الدوائر ، ويريدون القضاء عليهم وعلى الدعوة الى الله فى مهدها . فالسياسة الحربية يومئذ تقضى استئصال المحاربين وعدم إطلاق الأسرى فى نظير فـدية مالية ، خصوصا إذا كان الأسير ذا جاه ونفوذ ، فإن إطلاقه فى نظير فـدية من المال فى وقت ضعفهم قد يترتب عليه شر عظيم لا يوازيه مال كثير ، فلذا رأى عمر قتلهم لما فيه من إرهاب المشركين ، وقطع دابر بعض أئمـة الـكفر الذين أخرجوهم من ديارهم وأمـوالهم وآذوهم شر إيذاء .

وأما وجهة نظر الرسول عليه الصلاة والسلام وأبى بكر ، فقد يقال فيها : إن قتل هؤلاء لا فائدة فيه ، بل قد يثير أحقاد من وراءهم بحالة عنيفة ، فيتألبون على المسلمين قبل أن يقوى جانبهم وتشتد ساعدهم ، فتسوء الحال ؛ وأن الدين الاسلامى يرتـكز فى الواقع على قوة البرهان لا على البطش والارهاب ، وكثير من هؤلاء الأسرى مستعدون للإدراك الصحيح ، فلا بد أن تؤثر فيهم قوة البرهان القاطع ، فيؤمنوا بالله ورسوله ، ويكون للدين بهم قوة ، وذلك هو الغرض من الدعوة الى الله تعالى ، فضـلا عن أن المال الذى يأخـذونه فداء يمكنهم أن يؤسسوا به قوة ترهب الأعداء أكثر مما يرهبهم قتل هـؤلاء الأسرى ، والمسلمون وقتئذ كانوا فى أشد حاجة الى المـال .

وقد تحققت وجهة نظر النبى صلى الله عليه وسلم فى عاقبة الأمر من جميع جهاتها ، فقد دخل

---

(١) الانفال : ٦٧

معظم هؤلاء الأسرى فى الاسلام ، وكانوا من أشد أنصاره وأقوى أساطينه . روى أن عمر قال لرسول الله : إن سهيل بن عمر قد آذى المسلمين بخطبه وفصاحته فيحسن أن ننزع بعض أسنانه التى يتعطل بها لسانه فيستحيي من أن يقف موقف الخطيب الفصيح . فقال له رسول الله : عسى أن يقوم مقاما تمدحه عليه . وأطلقه بالفدية بدون أن يؤذيه ، فدخل سهيل الاسلام وكان من أقوى أنصاره ، ولما مات رسول الله عزم بعض ضعاف الايمان على الردة فقام سهيل هذا فيهم خطيبا فخولهم عن عزيمتهم ، وذلك هو الموقف الذى مدحه عليه عمر . وبذلك تحققت سياسة الرسول كاملة عليه الصلاة والسلام .

فهذا بعض ما قد يقال فى توجيه الرأيين ويؤخذ من فحوى تعليل كل واحد من الفريقين لرأيه . أما الله عز وجل العليم باحوال عباده وبما يؤثر فيهم ، فقد أيد الفريقين فى الواقع ، وذلك لأن الله قد أقر سياسة النبى فى إطلاق الأسرى وأخذ الفدية منهم ، ولو كان يريد قتلهم وعدم أخذ الفدية لأوحى به الى الرسول قبل أن يأخذ منهم شيئا وقبل أن يطلقهم ، كما وقع ذلك فى بعض الحوادث ، فإن النبى لما أراد أن يتفق مع بعض كبار المشركين على أن يقصى من مجلسه بعض ضعاف المؤمنين حرصا على إيمان هؤلاء الكبار ، وأراد أن يكتب لهم بذلك صكا ، نزل عليه الوحى فى الحال ونهاه عن ذلك ، فلم يفعل . وما ذاك إلا لأن الله تعالى عليم خبير بما قد يترتب على إطلاق هؤلاء الأسرى فى النهاية من الخير العظيم ، إذ لو لم يكن فيه سوى إسلام العباس وعقيل وسهيل وأمثالهم من أساطين المسلمين الذين أبلوا فى سبيل نصرة الاسلام البلاء الحسن لكفى . ولكن هذه النهاية لا يعلمها إلا الله عز وجل ، فلذا لم يمنع الرسول من تنفيذ اجتهاده ، ولو شاء لأوحى إليه بالمنع . فضلا عن ذلك فقد أباح سبحانه للمسلمين الانتفاع بالفدية ، وفى ذلك إقرار لسياسة الرسول صلى الله عليه وسلم فى الواقع ، ولكن هذه الحالة خاصة بالرسول المتصل بالوحى ، فهو الذى يمكنه أن يقدم على تنفيذ اجتهاده هذا وهو آمن مما يترتب عليه من شر ، راج لما يترتب عليه من خير . أما غيره من المسلمين فليس لهم أن يفعلوا هذا . فمن أجل ذلك خاطب الله رسوله بقوله « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » الآية . ومعنى الآية : ما كان ينبغى للنبى أن يتسامح مع الأسرى فيأخذ منهم الفداء ويطلق سراحهم من قبل أن يغزو المشركين ويثخنهم قتلا حتى يخضعوا للدعوة الى الله ويعز الاسلام ، فإذا عظمت قوة المسلمين وقويت شوكتهم وأصبحوا آمنين على الدعوة الى الله وعلى أنفسهم من بطش المشركين ، كان لهم أن يفعلوا ذلك ، بل كان لهم أن يطلقوا الأسرى بدون فدية أصلا . وهذا هو الذى وقع فعلا ، فإن الله خيرهم بعد فى أمر الأسرى فقال لهم : « فإما مَنًّا بعدُ وإما فِداءً (١) » فأباح لهم إطلاق الأسرى بدون مقابل مّنا منا عليهم .

---

(١) سورة محمد : ٤

ولا يخفى أن ذلك تأييد لاجتهاد عمر ومن معه فى الظاهر ، فكان الله سبحانه يقول : إن سياسة الرسول وأبى بكر ومن معهما حسنة فى ذاتها ولكنها سابقة لأوانها ، ومع ذلك فاذا فعلها الرسول فإنها لا تضر ، لأنه قد يترتب عليها فائدة فى المستقبل ، ولكن هذه الفائدة غير عادية ، فلا يعلمها إلا الله الذى لا يمنع رسوله منها إن كان فيها خير . أما سياسة عمر ومن معه فهى المطابقة للسنن الطبيعية ، وهى التى ينبغى للمسلمين أن يفعلوها . ففى خطاب الرسول بهذه الآية إشعار للمسلمين بما يجب أن يكونوا عليه فى مثل هذه الحالة .

والحاصل أن حال المشركين يومئذ كان يستدعى أن يظهر المسلمون بمظهر البطش والقوة ، لأن المشركين كانوا كثيرين أقوياء بالمال والرجال ، والمسلمون كانوا أقلية ضعيفة ، فان لم يشعروا بشدة بأسهم وقوة بطشهم فانهم لا يبالون بهم ، وهذا ما كان يراه عمر ومن معه ، وهو ما يجب على كل مجتهد ينظر فى شئون المسلمين الدينية المتعلقة بالمصالح العامة والخاصة . فواجب على المجتهد أن ينظر الى الظروف المحيطة به ، ويبنى اجتهاده على الحقائق الثابتة ، لا على ما عساه أن يقع ، خصوصا فى الأمور الحربية ، فانها تستدعى الشدة والحيطة من جميع الوجوه . وأما قوله تعالى : « لولا كتابٌ من الله سَبَقَ لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم (١) » فمعناه أن الله قد كتب على نفسه أن لا يؤاخذ المجتهدين على خطأ مهما عظم . بل قد ثبت أنه تعالى يثيب المجتهد وإن أخطا .

وبعد : فان كل هذا واضح الدلالة على أنه صلى الله عليه وسلم قد اجتهد فى أحكام شرعية لم ينزل بها الوحى ، وقد خالفه أصحابه فى بعضها ، وأقر الله اجتهادهم ولم ينههم عنه ، بل قال لهم إنه كتب على نفسه أن لا يؤاخذ المجتهد على خطأ . فهل بعد ذلك من دليل على صحة قول من يرى جواز اجتهاد الرسول صلوات الله وسلامه عليه ؟ فهو إمام المجتهدين ، ومرشدهم الأعظم بلا نزاع .

(٢) أما الجواب عن السؤال الثانى وهو : ما فائدة اجتهاد الرسول مع اتصاله بالوحى الخ ؟ فهو : إن له فوائد كثيرة : أهمها أن فى اجتهاد الرسول وكبار أصحابه أسوة حسنة لمن بعدهم من المجتهدين ، ومثلا كاملا لما يصح أن يختلف فيه المجتهدون ، فان كل المسائل التى اختلفوا فيها سواء كانت متعلقة بالمعاملات كما فى أسرى بدر ، أو بالعبادات كما فى الصلاة على المنافق المتوفى ، كان مدار اختلافهم فيها على أربعة أمور : أحدها توخى المصلحة العامة التى كان يعتقد كل فريق أنها الى جانبه . ثانيها : التمسك بالأدلة الواضحة التى لا تعسف فيها ولا خفاء فى مقدماتها بحيث لا يرتاب من سمع الحجة فى أنها صادرة عن قلب مخلص بعيد عن الهوى والشغب . ثالثها : عدم التعصب للرأى ، والبعد عن التشبث بالجدل متى وضح الحق وظهرت

---

(١) الانفال : ٦٨

النتيجة . رابعها : أنهم ما كانوا يجتهدون إلا عند عدم النص ، أما إذا وجد النص فانهم كانوا يعمدون الى المعنى المتبادر منه ويعملون به .

ومما لا ريب فيه أن الاجتهاد المبنى على ذلك لا غنى عنه للمسلمين فى جميع الأجيال ، لأن رسول الله مرسل للناس جميعا ، ولا بد من تجـدد الحوادث وتفاوت المصالح بحسب تفاوت الأزمنة والبيئات ، ولا بد من تطبيق ما يتجدد من ذلك على نصوص الدين الخاصة إن وجدت ، أو النصوص العامة إن لم يوجد نص خاص ، ولا بد من تفاوت أفهام الناس واختلاف أنظارهم ، فكان من اللازم الضرورى أن يجتهد الرسول وأصحابه ليكونوا قدوة حسنة للمجتهدين من بعدهم . ومن أجل ذلك تركهم الله يجتهدون بدون وحى ليعلموا من بعدهم ، ثم حكم الله فى اجتهادهم ليبين للمجتهدين وجه الصواب الذى يجب عليهم أن يتحروه بكل ما فى طاقتهم ، وليرشد الناس الى أن الاجتهاد ليس من الأمور الهينة ، فان الرسول وهو أرقى الناس ذكاء وفطنة خفيت عليه بعض العلل ، فيجب أن يكون المجتهد قادرا على استنباط الأحكام ؛ وليعلمهم أنه يجب عليهم أن يتبعـوا الرأى الصواب مهما كان مصدره ، وأنه يجب أن لا يجـد العظيم فى نفسه غضاضة إذا أخطأ هو وأصاب غيره ؛ وليشجعهم على الاجتهاد وترك التقليد ، لأن المجتهد لا يؤاخذ على الخطأ متى بذل الجهد وتمسك بكل الوسائل اللازمة .

فهذا هو اجتهاد الرسول وأصحابه ، فهل رأيتهم اختلفوا فى أصل من أصول الدين ، أو فى عقيدة من العقائد ، أو فى نص من نصوص كتاب الله الواضحة الجلية ؟ وهل رأيتهم ينتحلون فى اختلافاتهم دليـلا واهنا أو معنى بعيدا كى يصلوا بذلك الى غرض شخصى أو شهوة كامنة أو اعتقاد باطل ؟ وهل رأيت واحـداً منهم يتعصب لرأى أو يحاول الظهور بين الناس بالعـلم والذكاء والقدرة على إفحام مناظره ؟ أوهل رأيت أحدا منهم يضحى فى اجتهاده المصلحة العامة طمعا فى الحصول على مصلحة خاصة ، أو رأيتهم جميعا فى اجتهادهم على العـكس من ذلك : لا يجتهدون إلا للمصلحة العامة التى يترتب عليها إعزاز دينهم ووطنهم ، فلا يبغون بها بديلا ولو قطعت رقابهم ، وزهقت نفوسهم ؟

نعم : إنهم كانوا كذلك وأكثر من ذلك لمن يتأمل ، فكانوا خير قدوة لمن بعدهم من المجتهدين الذين درجوا على نهجهم ، وساروا فى طريقهم ، واتبعوا آثارهم فلم يخرجوا عنها قيد شعرة . فجزاهم الله عن دينهم ونبيهم أحسن الجزاء .

أما الذين أضلهم الله وأعمى أبصارهم فإنهم قد افترقوا فى أصول الدين واختلفوا فى العقائد التى نهاهم الله ورسوله عن التفرق فيها ، فأصبحوا بذلك خارجين على دينهم ونبيهم وهم مسلمون اسما ، فكان جزاؤهم عـذاب النار ، كما أخبر بذلك الرسـول صلوات الله عليه ، فقـد قال : « ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة كلها فى النار ، إلا واحـدة وهى ما أنا عليه وأصحابى » .

قال صاحب المواقف : وكان ذلك من معجزاته صلى الله عليه وسلم حيث وقع ما أخبر به . ثم عد الفرق المذكورة فى الحديث واحدة واحدة . فمن أراد معرفتها فليرجع الى المواقف .

فالناجى من هذه الفرق هو ما كان اجتهاده كاجتهاد رسول الله وأصحابه ومن على سنتهم ، يستمسكون بالنصوص الشرعية متى وجدت ، ويعمدون الى ما هو المتبادر الظاهر منها بدون تعسف أو تكلف ويطبقونها على مصالح العباد . فاذا لم يوجد نص فإنه يعمل بالقياس الصحيح . على أنه لا مانع من تفاوت الأفهام فى النصوص .

قال فى اعلام الموقعين :

« إن النصوص الشرعية تشمل جميع الأحكام فى جميع الأزمنة والأمكنة ، فلم يحدث جديد إلا ويمكن أخذ حكمه من نص شرعى ، ولكن للنص معنيان : معنى أصلى وهو الذى يقصده الشارع من اللفظ ، ومعنى إضافى وهو الذى يفهمه السامع . وبديهى أن الناس متفاوتون فى الادراك والفهم ، وللكلام نواح وجهات متعددة يختلف بسببها ذلك الادراك ، ولهذا قد اختلف الناس فى فهم النصوص فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يرجعون اليه فيقرر لهم المعنى الذى يريده الله تعالى ، ولم ينههم عن الفهم الذى يخالف مراد الشارع من اللفظ . وهذا التفاوت فى الادراك يظهر جليا عند الفتاوى فى الحوادث واستنباط الحكم ، فمن الناس من يهديه ذكاؤه الى استنباط حكم صريح خفى على غيره خفاء تاما ، كما وقع لعلى مع عثمان رضى الله عنهما ، فإن عثمان قرر أن المرأة التى ولدت لستة أشهر زانية وأراد رجمها ، فراجعه على ، وقال له : كلا إن المرأة قد تلد لستة أشهر ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا (١) » . ووجه الدلالة أن الله تعالى قال : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين (٢) » فاذا طرحنا الحولين — أربعة وعشرين شهرا — من ثلاثين كان الباقى ستة وهى مدة الحمل ، فاقتنع عثمان بهذا النص » اهـ ملخصا .

ومما يلفت النظر اقتناع عثمان بمجرد أن ظهر له معنى الدليل واضحا ، فلم يحاول أن يرد عليه أو يجادل فيه بأى جدل ، فذلك هو المثال الكامل فى الاجتهاد .

إن هذا المعنى الذى كتبته هو ما فهمته من درس الأستاذ الأكبر الامام المراغى بمسجد أبى العلاء فى شهر رمضان ، فانه حفظه الله قال ما معناه : إن الله قد أوحى الى رسوله بأصول الشرائع التى أوحى بها الى من قبله من كبار النبيين ، وهذه الأصول لا ينبغى لأحد أن يختلف فيها لأنها غير قابلة للاختلاف ، ومن يختلف فيها فهو فى شك مريب من دينه . ثم نعى على الذين يختلفون ويتفرقون فى دينهم على هذا الوجه الذى ذكرناه ، أما ما وراء هذا من المصالح التى تتطور بتطور الأمم وتختلف باختلاف الأحوال فانها تتبع الدليل ، فان وجد نص فانه

(١) الاحقاف : ١٥ (٢) البقرة : ٢٣٣

يجب الرجوع اليه بدون تعسف أو تكلف . وإلى هذا أشار الله بقوله : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » (١)

(٣) أما الجواب عن السؤال الثالث وهو مخالفة عمر للنبي صلى الله عليه وسلم فى الاجتهاد ، فانه لا منافاة بين هذه المخالفة وبين قوله تعالى : « وما آتاكم الرسول » الخ ، وذلك لأن هذه المخالفة كانت بامر النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، فقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول لأبى بكر وعمر : قولا فانى لم يوح الىّ فى هذه مثلكما . وعلى هذا يكون المراد من الآية النصوص الموحى بها أو المجتهد فيها بعد إقرار الوحى . أما قبل إقرار الوحى فالاجتهاد فيها مطلوب ، فان النبي كان يحث أبا بكر وعمر على الاجتهاد .

(٤) وأما الجواب عن السؤال الرابع ، وهو دليل عمر على منع النبي من الصلاة على رأس المنافقين ، فالظاهر أنه قول الله تعالى « ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم » (٢) فقد فهم عمر أن النهى عن الاستغفار نهى عن الصلاة عليهم من باب أولى .

وقد يقال فى بيان وجهة نظر الرسول أنه عليه الصلاة والسلام فهم من آية التوبة أنه لا يجوز له أن يستغفر لمن ثبت موته مشركا . ولا يثبت الشرك إلا بأحد أمرين : إما بالوحى كما هو الحال فى أبى لهب ، فان الله تعالى قد أخبر نبيه بأنه لا يؤمن ؛ وإما بطريق إعلان الكفر كما هو الحال فى المشركين الذين أعلنوا شركهم . أما المنافقون الذين يبطنون الكفر ويظهرون الايمان فان النبي صلى الله عليه وسلم قد عاملهم بمقتضى الظاهر كما هى القاعدة الاسلامية . وهم وإن كانوا قد جاهروا فى بعض الأحيان بمحاربة الله ورسوله إلا أنهم قد أظهروا الايمان وتبرءوا من الأعمال التى نسبت اليهم ، فكان الرسول يعاملهم معاملة المؤمنين الفاسقين ، فيستغفر لهم رجاء أن يغفر الله لهم ذنوبهم ويصلح حالهم .

والله لم ينه الرسول عن الاستغفار لشخص إلا إذا تأكد أنه من أصحاب الجحيم كما هو نص الآية ، فانها صريحة فى النهى عن الاستغفار بعد التحقق من أن الميت من أصحاب الجحيم ، وهذا لا يتأتى إلا إذا مات وهو معلن للكفر ، أو يوحى الى الرسول بأن فلانا لا يؤمن . أما المنافقون فقد خيره الله فى شأنهم بقوله « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » .

وحيث إن عبد الله بن أبى قد أظهر الإيمان ، وقد ورد أنه استشفع بابنه ليأتيه بقميص الرسول ويكفنه فيه ، وطلب من الرسول أن يصلى عليه ، فان كل ذلك يجعله مؤمنا فى الظاهر . أما كونه كافرا فى الباطن فذلك لا يمكن الجزم به إلا بالوحى . فاجتهاد النبي من هذه الجهة هو الظاهر المعقول ، بل لا يمكن أن يفهم سواه ، والله سبحانه لم يعب عليه هذا الفهم أو هذا

(١) سورة المائدة الآية ٤٨ (٢) سورة التوبة الآية : ١١٣

الاجتهاد مطلقا ، لأنه قال له بعد ذلك « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » . ومعنى هـذا أن الله قد أوحى اليـه بأنهم ماتوا وهم على كفرهم ، وقد عبر عنه بالفسق لأنهم كانوا فى الظاهر يظهرون الاسلام ، وبديهى أن الذى يموت كافرا لا تصح الصلاة عليه ، أما موتهم على الـكفر فهو موقوف على الوحى حتى ولو علم الرسول الحقيقة ، لأنه فى هذه الحالة بمنزلة القاضى الذى يحكم بما يظهر له ، فـكل من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، يكون مسلما ولو كان يبطن خلاف هذا .

أما اجتهاد عمر رضى الله عنه فقد كان مبنيا على علمه بالقرائن القاطعة أنه مات وهو منافق، فعمر كان يعتقد أنه قـد مات على الـكفر ، ويعتقد أن الرسول لا يخفى عليه حال الرجـل ، فالصلاة عليه فى هذه الحالة فيها مخالفة للنص ، وهو قوله تعالى : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » . ولـكن النبى صلى الله عليه وسلم رد على عمر فقال له : إن هـذه الآية فى المشركين الذين أعلنوا الشرك وماتوا عليه ، أما الذين أظهروا الايمـان وهم المنافقون فلم ينه الله عن الاستغفار لهم بل خيرنى فيهم فقال : استغفر لهم أولا تستغفر لهم » الخ ، وحيث إن لى الخيار فساستغفر له وأزيده على السبعين الذى قال الله إنه لا يغفر لهم بها . ولا يخـفى ما فى هذا من إيضاح جميل . فاقتنع عمر بهذا وسكت ، ولـكن الله تعالى قال لنبيه بعد ذلك : إنه لا أمل فى إيمان من بقى من المنافقين ، فهم سيموتون كفارا ، فلا تصل عليهم بعد ذلك . وليس فى هـذا رد لاجتهاد الرسول أو لدليله كما ذكرنا ، وإنما فيه إعلام له بأنهم سيموتون كفارا ، فمن مات منهم فلا تصل عليه بعد ذلك . وبذلك تبين له أنهم من أصحاب الجحيم .

ومن هذا البيان يتضح لك أن لـكل من اجتهاد النبى صلى الله عليه وسـلم واجتهاد عمر وجهةً لا تعارض الأخرى ، وأنه عندما اطلع عمر على وجهة نظر النبى اقتنع بها . وليس فى قوله تعالى « ولا تصل على أحد منهم » رد لاجتهاد الرسول وإقرار لاجتهاد عمر كما فهم الناظرون ، بل غايته أن الله تعالى أسرع بتنفيذ سياسة عمر باخبار النبى بأنهم كافرون وماتوا وهم كافرون .

والحاصل أن ها هنا أمورا ثلاثة : أحدها : نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الاستغفار لمن تبين له أنه من أصحاب الجحيم بموته كافرا . ثانيها : الاستغفار للمنافقين الذين يظهرون الايمان ويبطنون الـكفر ، ولـكن يبدو فى أقوالهم وأعمالهم ما يدل على نفاقهم ، وهؤلاء لم ينه الله رسوله عن الاستغفار لهم بل خيره فيهم . على أنه قال إن الاستغفار لا ينفع من مات منهم كافرا . ثالثها : الصلاة على من مات منهم على حاله ، وهـذا إن جاء الوحى بانه مات على الـكفر فانه يعامل معاملة الـكافرين ، وإلا عومل معاملة المسلمين فيصلى عليه .

(٥) أما الجواب عن السؤال الخامس ، وهو : لماذا أقر الله سياسة عمر فى الظاهر ؟ فذلك يتوقف على بيان وجهة نظـر اجتهاد الرسول عليـه الصلاة والسلام . ويفهم من سـيرته أنه

كان على أكبر جانب ممكن فى النوع الانسانى من العطف والرحمة، فقد كان صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى للنوع الانسانى فى التخلق بالأخلاق الكاملة، ولذا مدحه الله عز وجل بقوله: « وإنك لعلى خلق عظيم » (١) وقال له « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » (٢) وقال « ورحمةٌ للذين آمنوا منكم » (٣) فاجتهاده عليه الصلاة والسلام فى هذه القصة وأمثالها كان مبنيا على رحمته وعطفه، ورغبته فى هداية النوع الانسانى الى سواء السبيل، وحرصه الشديد على إخلاص الناس لربهم ليظفروا برضاته فتتم لهم السعادة الخالدة. ولاريب فى أن هذه القصة تصور لنا شيئا من رحمته، فان عبدالله بن أبى المنافق قد آذى النبى بكل مايستطيع من ضروب الايذاء، فكان دائما يعمل فى الخفاء على كل ما يقضى عليه وعلى الدعوة الى الله، وكان يسعى دائما لاثارة الفتن والحط من كرامة المؤمنين كلما سنحت له فرصة، وكان يجاهر برأيه فى بعض الأحيان فيصل علم ذلك الى الرسول، فاذا وقف أمامه وحلف له أنه لم يقل ولم يفعل فانه يتركه، ومع ذلك كله فقد غلبت عليه الرحمة والعطف فأخذ يجاهد من أجله ويتأول ما نزل عليه من ربه رجاء أن يغفر الله له ذنبه (على ظن أنه مات مؤمنا) ويرفع عنه العقاب الأخروى، ويجعله من المنعمين بجناته.

فمعاملة عبد الله بن أبى بهذه المعاملة تدل على ما تكنه نفسه الكريمة من الرحمة بعباد الله والشفقة عليهم وحب الخير لهم، حتى ولو أساءوا الى شخصه الكريم وآذوه فى سبيل الدعوة الى ربه؛ وتنادى كل عاقل منصف بأن من كان هذا شأنه فانه لا ينبغى لعاقل أن يتخذه عدوا أو يشك فى نصيحته أو يرتاب فى صدقه، لأن الذى يتصف بهذه الصفات العالية يجب أن يكون منزها عن الكذب والخديعة وتضليل عقول الناس وإرادة الشر لهم. وبديهى أن ذلك كان له أحسن الأثر فى نشر الدعوة الى الله. على أنه قد ورد فى هذه الحادثة أن عبد الله بن أبى لما طلب أن يكفن فى قميص النبى صلى الله عليه وسلم ورأى ذلك أتباعه من الخزرج أسلم منهم ألف، وكفى بذلك مدحا لسياسة الرسول واجتهاده.

أما اجتهاد عمر وسياسته فهى مبنية على الظروف الوقتية المحيطة بالمسلمين يومئذ، فإن ضررهم كان عظيما، إذ هم يتمكنون باظهار الاسلام من الاطلاع على مواطن الضعف من أنفس الضعفاء، فيحاولون التأثير عليهم وتشكيكهم فى إيمانهم وإفساد أخلاقهم. وأيضا فإنهم يمكنهم أن يرشدوا الأعداء المحاربين الى خطط المسلمين فيعرضونهم لأشد الأخطار والمحن، فكان من رأى عمر استعمال القسوة معهم الى أبعد مدى. أما معاملتهم بالرحمة، وتفهيم الناس أن الله قد يغفر لهم فإن فيه تشجيعا للمنافقين، وحملا للناس على الاستهانة بالنفاق.

ومن يتامل فى هاتين السياستين يجد أن كلا منهما لازم، وذلك لأن سياسة عمر وإن كانت

(١) سورة ن : ٤ (٢) آل عمران : ١٥٩ (٣) التوبة : ٦١

وجيهة فى بعض الظروف فانه قد يقال فيها أيضا إن الشدة المتناهية قد يترتب عليها استمساك المنافقين بما هم عليه ، فيزداد حقدهم على الرسول ، ويتضاعف بغضهم لدينه ، فلايفارق النفاق قلوبهم ، ويمعنون فى الكيد للمسلمين بالطرق الخفية الضارة بهم وهم غافلون .

أما معاملتهم بالرفق واللين ، واستعمال الرأفة بهم وإسداء المعروف اليهم المرة بعد المرة ، فإنه قد ينزع الحقد من أنفسهم ، ويقلل من بغضائهم لله ورسوله ، فيتوبون عن النفاق ، لأن النفوس الانسانية مهما كانت جامحة فإنها لابد أن تلين وتخضع بموالاة الاحسان وتكرار العطف والعفو .

والواقع الذى لاريب فيه أن طبائع الناس فى ذلك تختلف كل الاختلاف ، فمنهم من يصلحه العفو ، ومنهم من يطغيه ويغريه على التمادى فى الشر . فالواجب أن ينظر المجتهد فى الأمرين كى لا يفوته شىء منهما . ولذا قلنا إن كلتا السياستين ها هنا لازمة بحيث ينبغى استعمال كل منهما فى الظرف المناسب لها ، فسياسة الرسول صلوات الله عليه قبل أن ينزل عليه قوله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم » كانت هى المناسبة ، لأنها بعثت المستعدين للادراك الصحيح الى نبذ النفاق والتمسك بالايمان الصحيح .

أما من بقى من المنافقين بعد ذلك فقد ران على قلوبهم ، وأصبحوا غير مستعدين لسماع الحق ولا للايمان ، فلا فائدة حينئذ من معاملتهم بالرفق والرحمة ، فلهذا أوحى الله الى نبيه بأنهم سيموتون كفارا ، فلا تصل على أحد منهم .

هذا التفصيل الذى ذكرناه إنما هو بالنسبة للنبى صلى الله عليه وسلم المتصل بالوحى ، لأنه يمكنه أن يتقى شر المنافقين بالوحى ، فانهم إذا حاولوا عملا يضر المسلمين فان الله يطلع عليه نبيه فيحبطه ، كما وقع ذلك فعلا ، فان الله تعالى كان يوحى الى الرسول بما يعملون ، قال تعالى « قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم » (١) وقال مهددا لهم « ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم (٢) » فسياسة الرسول مع المنافقين حسنة من جميع الوجوه . أما إذا لم يكن وحى ولا رسول فان الواجب على المجتهد أن لا يأمن المنافق الذى ثبت نفاقه مطلقا ، بل يعامله بمنتهى الشدة والقسوة ، لأنه أضر على الدعوة الى الله من المشرك الذى يعلن الشرك ، اللهم إلا إذا ترتب على معاملته بالرفق إيمانه وإيمان غيره ، فانه يعامل فى هذه الحالة بالرفق مع الاحتياط التام . وهذا هو السر فى إقرار سياسة عمر فى الظاهر ، لأن الأصل فى معاملة المنافق هى الشدة ، ولا فائدة فى معاملتهم بالرحمة بعد ذلك ، فنزل قول الله « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا » .

والذى يتأمل فى كتاب الله تعالى فانه يتضح له هذا المعنى الذى ذكرناه . فان الله سبحانه

(١) سورة التوبة : ٩٤ (٢) التوبة ٧٨

لم ينه نبيه عن استعمال الرحمة بالمنافقين ، بل امتن على المنافقين بما للنبى من الرحمة بهم ، فقال : « ورحمة للذين آمنوا منكم » . أى وهـو رحمة للذين أظهروا الايمان منكم أيها المنافقون . وفى هـذا مديح له عليه الصلاة والسلام بالرحمة بهم . ثم إنه لم ينهه عن الاستغفار لهم بطريقة جازمة ، بل أبان له أن الاستغفار لن يقبله الله لمن مات منهم كافـرا . أما الاستغفار لمن يظهر الايمان فى الدنيا فانه لم ينهه عنه ، قال تعالى : « يحلفون لـكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » (١) . ومعنى الآية أن الله لا يمنعكم من قبولهم والرضا عنهم لأنـكم إنما تنظرون الى ظاهر أمرهم ، أما العليم بقلوبهم فانه لا يرضى عنهم ، وهم كاذبون فى إيمانهم منافقون بقلوبهم . وفى هذا تهديد لغير المخلصين مع عدم إغلاق الباب فى وجوههم لأنه قـد أباح لهم الاختلاط بالمسلمين ومشاركتهم فى المباحث الدينية ، والنظـر فى البراهين القاطعة التى أتى بها الله ورسوله . وفى كل ذلك فرصة لهم فى النظر الباعث الى الهـداية الحقة والايمان الصحيح . وفى هـذا من دقائق التشريع الاسلامى والحث على الاجتهاد فى المصالح العامة ما لا يخفى . والله يهدى من يشاء الى سواء السبيل .

عبد الرحمن الجزيرى

(١) التوبة : ٩٦

جود عثمان بن عفان

أصاب الناس قحطا فى خلافة أبى بكر حتى بلغ بهم الجهد ، فشكوا أمرهم الى أمير المؤمنين فقال لهم : أصبروا لعل الله أن يفرج كربكم . فلما كان آخر النهار ذاع فى المدينة أن عيراً لعثمان جاءت من الشام محملة قمحا وزيتا وزبيبا . فلما أصبحوا أقبلت العير وأناخت بباب عثمان رضى الله عنه ثم أدخلت الى داره . وكان قد بلغ ذلك التجار فاقبلوا إليه ليشتروها منه ، قائلين له : إنك لتعلم حاجة الناس إليها فى هذه الآونة .

فأجابهم : حبا وكرامة ، فكم تربحونى على شرائى ؟ قالوا : الدرهم درهمين . قال لهم أعطيت زيادة على هذا . قالوا له : أربعة . قال لهم أعطيت زيادة على هذا . قالوا له خمسة . قال لهم أُعطيت أكثر من هذا .

قال التجار : يا أباعمرو مابقى فى المدينة غيرنا فمن الذى أعطاك هذا الثمن ؟ قال لهم عثمان : إن الله أعطانى بكل درهم عشرة ، أعندكم زيادة ؟ قالوا : لا .

قال عثمان : فانى أشهد الله أنى جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين !

حدث جلل لا يمكن الصبر عليه

— ٤ —

رجاء للحكومة لمصلحة الحكومة

لنرجئ الكلام فى أدلة التوحيد مؤقتا ، وسنفيض القول فيه بعد . على أن مسألة ثبوت الصانع جلت قدرته كادت من وضوحها أن تخفى ، وأوشكت من مزيد حضورها أن تغيب . وليس لدى منكريها سوى المكافحة بالوهم والخيال ، ومقابلة اليقين بالاحتمال « معارضة الشراب بالسراب » . وكل من تكلم فى هذه المسألة التى هى أظهر من الشمس وأوضح من الحس بالانكار ، فقد أحيا جهله ، وأمات عقله ، وقتل وجدانه ، وأخمد إحساسه ، وخنق شعوره . فهى لدى العقلاء من أوضح الواضحات ، وإن خفيت على أنعام البشر الذين يجب إسقاطهم من سجل الانسانية وضمهم الى صفوف البهائم : « إن شر الدواب عند الله الصُّمُّ البُكْم الذين لا يعقلون » .

ولنوجه كلمتنا اليوم لحكومتنا الإسلامية ، وما يجب أن تعرفه من حال الملحدين وتقويضهم لبناء العمران ، وأثر دعايتهم على بنى الانسان . فما وُجدوا فى أمة إلا كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم ، وصاعقة مجتاحة لخير أممهم ، وصدعا متفاقما فى بنية جيلهم ، يميتون القلوب الحية بأقوالهم ، وينفثون السم فى الأرواح بآرائهم ، ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم . فما رزئت بهم أمة ولا منى بشرهم جيل إلا انتكث فتله ، وسقط عرشه حين تبددت آحاد الأمة وفقدت قوام وجودها . وكيف لا وهذه الطائفة الملعونة تحمل فى طيات تعاليمها وثنايا مبادئها الاجرام الخلقى ، والتهتك العلنى ، والمطاعن الهوجاء فى الديانات ، والسخرية الجهرية بخالق الأرض والسموات ، ولمز المعتقدات المقدسات .

إن الحكومة تعاقب من يتكلم فى الوزارة بما يمس شرفها أو ينقص من كرامة أشخاصها ، أو يمس القانون والدستور ، فما لها لا تهتم هذا الاهتمام ، أو شيئا من هذا الاهتمام ، بحماية دين الدولة من طعن الطاعنين وسفه الجاهلين ؟ ! وهل حماية الدستور أعظم فى نفوس الأمة من حماية دينها ؟ وهل الطعن فى الدستور آلم لعواطفها وأدمى لقلوبها من إهانة الدين والكلام فى نبى المسلمين ورب العالمين ؟ ولسنا نقول لا تحفظوا الدستور ولكن نقول : احفظوا الدين أيضا كما تحفظون الدستور الذى تفتخرون بصيانته ، فليس الدستور أضمن لسعادة الأمة من الدين .

يأيها الزعماء العظام والوزراء الفخام : إن لم تعملوا لدينكم فاعملوا لدنياكم ، فإن الملحدين الطاعنين على الأديان ما ظهروا فى أمة من الأمم إلا أفسدوا أخلاقها ، وأوقعوا الخلل فى عقولها ، وتخطفوا قلوب آحادها بأنواع من الحيل ، وألوان من التلبيس حتى تصبح تلك الأمة وقد وهى أساسها ، وتفطر بناؤها ، واغتالتها رذائل الأخلاق : من الأثرة وعبادة الشهوات ، والجرأة على ارتكاب الخيانات ، ولا يزال الفساد يتغلغل فى أحشائها حتى تضمحل ويمحى اسمها من صفحة الوجود ، أو تضرب عليها الذلة والصغار ، ويخلد أبناؤها فى الفقر والعبودية .

وانظروا الى الأمة الاسلامية أيام تمسكها بدينها كيف كان مجدها ورفعتها ، ثم انظروا حالها اليوم عندما ظهر فيها الماديون وكثر فيها الجاهلون الملحدون وقل فيها المخلصون ، الى آخر ما لا يمكننا شرحه فى هذه العجالة .

هل لا تحمون تلك العقائد المقدسة التى يسهل على ذويها أن يبذلوا وجودهم فى سبيلها ؟ ! عقائد هى أقوى دافع للامم الى التسابق لغايات المدنية ، وأمضى الأسباب الى طلب العلوم والتوسع فى الفنون والابداع فى الصنائع . وإنها لأبلغ فى سَوق الأمم الى منازل العلا ومقامات الشرف من كل شىء سواها « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

أما هؤلاء الملحدون الداعون لمحو الأديان فما مقصدهم إلا وضع أساس الاباحة والاشتراك فى الأموال والأبضاع بين الناس عامة . وقد كدحوا لاجراء مقصدهم هذا وبالغوا فى السعى اليه ، وتلونوا لذلك فى ألوان مختلفة ، وتقلبوا فى مظاهر متعددة ، وكلما وجدوا فى أمة أفسدوا أخلاقها ، وأنزلوها من علياء مجدها الى حضيض الذلة والمهانة ، حيث يكونون بالحيوان أشبه منهم بالانسان . ولهذا كله اجتمعت جميع الدول على مطاردة الشيوعيين ، علما بما تؤل اليه مبادئهم من الفساد الذى تأباه سنن الله فى خليقته ، وتمقته الشرائع السماوية كلها ، ويقضى العقل بمجافاته للحق ومنافرته للصواب .

ولنقل مرة أخرى لزعمائنا وحكامنا : إن لم تعملوا لدينكم فاعملوا لدنياكم .

أما حرية الأديان والمعتقدات التى يستند إليها الجاهلون فمعناها أن كل أحد يعتقد ما شاء ، ويتدين بما أراد ، لا أنه يجرح القلوب ، ويطعن فى العقائد ، ويسفه الأحلام ، وينشر النشرات ، ويؤلف المؤلفات ، ويهيء الجمعيات والدعايات كما فعل اسماعيل أدهم المعترف بذلك كله فى كتابه . فأين هذا من ذاك يارجال القانون ؟ !

وإن شئت فارم بنظر العقل الى قوم لايعتقدون بشىء ، ولا يقولون بحلال ولاحرام ، ولا حساب ولاعقاب ، ولارب ولا كتاب . بل يظنون أن الانسان حيوان كسائر الحيوانات جده القرد أوالكلب . ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل ، والى أى حد تصل بهم الشرور ، وبأى منزلة من الدناءة تكون نفوسهم ، وكيف أن السقوط الى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية والأذواق الوجدانية والمقامات الروحانية .

وبعد : فهذا الدين الذى نطالبكم بحمايته ، ويطالبكم الدستور أيضا بحمايته ، هو الدين الذى فتح أبواب الشرف فى وجوه الأنفس ، وكشف لها عن غايته ، وأثبت لكل نفس صريح الحق فى أى فضيلة ، وأنبأ كل ذى نطق بوفرة استعداده لأى منزل من منازل الكرامة ، ومحق امتياز الأجناس وتفاضل الأصناف ، وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلى والنفسى لاغير . فالناس فى نظره إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة « إن أكرمكم عندالله أتقاكم » « لا فضل لعربى على عجمى ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى »

والخلاصة : أن من أشربت هذه العقيدة عقيدة التوحيد قلبه ، ينبعث بحكمها وينساق بنورها وقوة روحها لإضاءة عقله بالعلوم الحقة والمعارف الصافية ، فلا يهبط به الجهل الى نقص يحول دون مطلبه ، ثم ينصرف همه لابراز ما أودع فيه من القوة السامية والمدارك العقلية والخواص الجليلة باستعمالها فيما خلقت له ، فينجلى كماله من عالم الكون الى عالم الظهور ، ويرتقى من درجة القوة الى مكانة الفعل ، فهو ينفق ساعاته فى تهذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذائل ، ولاينالـه التقصير فى تقويم ملكاته النفسية ، وينزع لكسب المال من الوجوه المشروعة ، متنكبا عن طرق الخيانة ووسائل الكذب والحيلة ، معرضا عن أبواب الرشوة ، مترفعا عن الملق الكلبى والخداع الثعلبى الذى لا يعرف هؤلاء غيره ، ثم ينفق ما كسب فى الوجه الذى يليق ، وعلى الوجه الذى ينبغى ، وبالقدر الذى ينبغى ، لايأتى فيه باطلا ، ولايغفل حقا عاما أوخاصا ، يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ، ولآخرته كأنه يموت غدا .

فهذه العقيدة أحكم مرشد ، وأهدى قائد للانسان الى المدنية المؤسسة على المعارف الحقة والأخلاق الفاضلة . وهذا الاعتقاد أشد ركن لقوام الهيئة الاجتماعية التى لا عماد لها إلا معرفة كل واحد حقوقه وحقوق غيره عليه ، والقيام على صراط العدل المستقيم .

هذا الاعتقاد أنجح الذرائع لتوثيق الروابط بين الأمم ، إذ لاعقد لها إلا مراعاة الصدق ، والخضوع لسلطان العدل فى الوقوف عند حدود المعاملات

هذا الاعتقاد نفحة من روح الرحمة الأزلية تهب على القلوب ببرد الهدوء والمسالمة ، فإن المسالمة ثمرة العدل والمحبة ، والعدل والمحبة زهر الأخلاق والسجايا الحسنة . وهى غراس تلك العقيدة التى تحيد بصاحبها عن مضارب الشرور ، وتنجيه من متائه الشقاء وتعاسة الجد ، وترفعه الى غرف المدينة الفاضلة ، وتجلسه على كرسى السعادة .

وقد يسهل عليك أن تتخيل جيلا من الناس حرم هذه العقيدة ، فكم يبدو لك فيه من شقاق وكذب ونفاق وحيل وخداع ورشوة واختلاس ، كما نشاهد ذلك فى كثير من مسلمينا الآن ! وكم يغشى نظرك من مشاهد الحرص والشره والغدر والاغتيال وهضم الحقوق والجدال ! وكم تحس فيه من جفاء للعلم وغشوة عن نور المعرفة !

وإن مسألتنا مسألة نشر ما يثير الفساد ويوجب الأحقاد ، ويحقر دين الدولة الذى يحترمه الدستور وتقدسه الأمة .

ولا يردع هؤلاء الطغمة إلا العقاب الصارم الذى يخرس ألسنتهم ويأخذ على أيديهم :

تمادوا فى الضلال بلا متاب ولو سمعوا صليل السيف تابوا

ولكننا فى زمان يضيق التعبير عن وصفه وبيان عقلية أهله :

ألا إنها الأيام قد صرن كلها عجائب حتى ليس فيها عجائب

ولا يزال لنا بقية أمل فى القائمين بالأمر ، أن يشفقوا على أمتهم من عبث العابثين وإفساد المفسدين ، وأن يحفظوا الأمانة التى جعلها الله فى أعناقهم للدين والوطن .

نسأل الله أن يرزقنا الرشد والبصيرة ، حتى لا نأتى ما يضحك الثكلى ، ويبكى الحليم ، بمنه وكرمه ؟

يوسف الدجوى
عضو جماعة كبار العلماء

الشدائد ولا الهوان

قال شاعر ألمعى فى هذا المعنى :

حلفت لأن ألقى الشدائد كلها وما لى بأن ألقى الهوان يدان
تذكرت أنى هالك وابن هالك فهانت على الارض والثقلان
فدع كل شىء خالف العزم إنه سيكفيكه جدان معتلجان
وما يدرك الحاجات مثل مثابر ولا عاق عنها النجح مثل توان

وقال شاعر آخر فيه أيضا :

على كل حال فاجعل الحزم عدة لما أنت باغيه وعونا على الدهر
فان نلت أمرا نلته عن عزيمة وإن قصرت عنك الحظوظ فعن عذر

وقال غيره :

يا إبنة القوم ما تريدين منى صارمى منطق ووجهى مجنى
ما يزور الكرى جفونى إلا جسوه الطائر الذى لا يثنى
فعلوى إذا استقل بعزم لم يعرج بليتنى ولوانى

الحسبة فى الاسلام (١)

طلب الىّ عزيز لدى أن أكتب كلمة فى ذلكم الموضوع الخطير « الحسبة فى الاسلام » تجلو حقيقتها وتشرح أغراضها ومقاصدها فى الدين الاسلامى خاتم الأديان السماوية ، والشريعة الصالحة لكل زمان ومكان . فأجبته لبّيك وسعدَيك ، فالموضوع شائق ، والبحث عنه فيه متعة . شائق لأنه يمت بصلة الى التاريخ الاسلامى فى تلك الحِقْبة من عصور الاسلام الأولى ، الى ماله من رحم وشيجة بحكمة التشريع الاسلامى . وفيه متعة لأنه يدلى بنسب الى شرعة التعاون والتناصر بين بنى آدم ، وهم تلك السلائل التى ورثت آدم خليفة الله فى أرضه ، يستمتع بها هو وبنوه ، ويستعمرونها فى المدى الذى قدر لبقاء العالم فى تلك الحياة الدنيا .

وإنا لنطرق فى كلامنا المباحث الآتية :

عناصر البحث :

الحسبة لغة . الحسبة شرعا . فيم كانت الحسبة أولا وإلام صار أمرها آخرا . سبب إحداث الحسبة . الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . الشروط التى يجب أن تتوافر فيمن يتولى القيام بهما . المحتسب . أصناف المحتسب . الفرق بين المحتسب وقاضى المظالم « القاضى الجنائى » وبين قاضى الحقوق « القاضى المدنى » . شروط المحتسب . أعمال المحتسب . الفرق بين المحتسب المولى والمحتسب المتطوع . هل للحاكم أن يسعر على الناس فى الأسواق . حكم الفندق والحمام والمخبز . التدليس فى الدين وحكمه . أعمال أخرى للمحتسب . الوظائف الدينية فى عصر الفاطميين . الوظائف الدينية فى الدولة الأيوبية وعصر المماليك بمصر . العقوبات الشرعية . عقوبة التعزير . عقوبة الحد والفرق بينهما . التعزير بالعقوبات المالية . جواز التصدق بالسلع المغشوشة على الفقراء . الأصل فى المثوبة والعقوبة فى التشريع الاسلامى :

الحسبة فى اللغة :

الحسبة لغة كما فى لسان العرب : اسم من الاحتساب وهو البدار الى طلب الأجر وتحصيله بالأخذ بأنواع البر والخير والقيام بها على الوجه المرسوم فيها ابتغاء الأجر المرجو منها . وفى حديث عمر : أيها الناس احتسبوا أعمالكم فان من احتسب عمله كتب له أجر عمله وأجر حسبته . واسم الفاعل المحتسب ، أى طالب الأجر .

---

(١) هذا بحث قيم لمسألة اجتماعية هامة انفرد بها الاسلام أنشأه حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ النابه الشيخ احمد المراغى واتحف به مجلة الازهر . وانا لننشره شاكرين له هذا الايثار ، اكثر الله من امثاله .

وفى القاموس : واحتسب عليه الأمر إذا أنكره عليه ومنه المحتسب . فظاهر عبارة اللسان تدل على أن المحتسب مأخوذ من احتسب الأجر عند الله إذا طلبه ، وصريح عبارة القاموس ترشد الى أنه من احتسب عليه الأمر إذا أنكره عليه . ومن البين أن المناسبة جلية فى أخذه من المعنى الأول ، كما أشار اليه صاحب اللسان . إذ طلب الأجر أسبق فى الفكر لدى المحتسب من إنكار عمل غيره ومنعه من فعله ، وإن كان هذا يحصل تبعا وعرضا لا قصدا أوليا من العمل

معنى الحسبة شرعا :

أصل الحسبة الشرعية : مشارفة السوق والنظر فى مكاييله وموازينه ، ومنع الغش والتدليس فيما يباع ويشترى من مأكول ومصنوع ، ورفع الضرر عن الطريق بدفع الحرج عن السابلة من الغادين والرائحين ، وتنظيف الشوارع والحارات والأزقة ، الى نحو ذلك من الوظائف التى تقوم بها الآن المجالس البلدية ، ومفتشو الصحة ، ومفتشو الطب البيطرى ، ومصلحة المكاييل والموازين ، وقلم المرور ، ورجال الشرطة الموكول اليهم المحافظة على الآداب العامة ، الى غير ذلك .

ثم اتسعت أعمالها فيما بعد حتى كانت من أهم الشئون التى عنى بها الخلفاء والسلاطين وصار لها ولاية خاصة (مصلحة خاصة) شملت كل أمر بمعروف ونهى عن منكر : كاقامة الصلاة فى مواقيتها ، والنظر فى أحوال أئمة المساجد والمؤذنين ، وإلزامهم بأداء وظائفهم على حسب مقتضى الشرع . ومن ثم قال بعض العلماء : الحسبة أمر بمعروف (١) ظهر تركه ، ونهى عن منكر ظهر فعله ، وإصلاح بين الناس .

وأول من أحدثها فى الاسلام عمر بن الخطاب ، فقد ولى عبد الله بن عقبة على النظر فى الأسواق ، والتفتيش على المكاييل والموازين ، ومنع الغش فيما يباع ويشترى . وقد كان الخلفاء والولاة فى الصدر الأول يباشرون أعمالها بأنفسهم ، ويبتغون إصلاح الرعية ، ويرجون جزيل الثواب . فقد كان عمر يقوم بوظائف المحتسب ، ويشارف السوق ، ويراقب المكاييل والموازين ، ويأمر باماطة الأذى عن الطريق . روى المسيب بن دارم قال : رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يضرب حمّالا ويقول : حمّلت جملك مالا يطيق « مفتش قلم المرور الآن » . وفى كنز العمال عن زيد بن فياض عن رجل من أهل المدينة قال : دخل عمر رضى الله عنه السوق وهو راكب فرأى دكانا « دكة » قد أحدث فى السوق فكسره .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : دعامة من دعائم الدين ، وبه بعث الله النبيين أجمعين . ولولاه لنشطت الضلالة وعمت الجهالة ، وانتشر الفساد ، وخربت البلاد ، وهلك العباد .

(١) المعروف : كل فعل او قول او قصد حسن شرعا . والمنكر كل فعل او قول اوقصد قبح شرعا . والانكار فى ترك الواجب وفعل الحرام واجب ، وفى ترك المندوب وفعل المكروه مندوب .

وإنا لنرى الآن الناس بعد أن استولت على القلوب مداهنة الخلق ، ومحيت مراقبة الخالق ، قد استرسلوا فى الشهوات ، وركنوا الى اللذات ، وقلّ أن تجد مؤمنا صادقا لا تأخذه فى الله لومة لائم . فمن شمر عن ساعد الجد وسد هذه الثغرة ، وأدى عمل الحسبة ابتغاء مرضاة ربه ، أو قلد وظيفتها وقام بأعبائها مراقبا ربه ، فقد قام بقسط وافر فى خدمة دينه ، ونال رضوان ربه « ورضوان من الله أكبر » .

سبب إحداث الحسبة :

السر فى إيجاد الحسبة فى الاسلام أن الناس لا تتم مصالحهم إلا بالاجتماع والتعاون على جلب المنافع، والتناصر على دفع المضار ، ومن ثم قيل : « الانسان مدنى بالطبع » . وبالاجتماع لا بد لهم من أمور يفعلونها يجلبون بها الخير لأنفسهم ، وأمور يجتنبونها لما فيه من الضرر عليهم .

ولا بد لهم من طاعة الآمر بالمنافع الناهى عن المفاسد ، كما قال تعالى فى صفة نبيه : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائثَ » . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مثلى ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة (طوبة) فكان الناس يطيفون بها ويعجبون من حسنها ويقولون : لولا موضع اللبنة ! فأنا تلك اللبنة » .

وقد وصف الله الأمة الاسلامية بما وصف به نبيها فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقال عز اسمه : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . وقال عز من قائل : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . وقال : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما » . وجاء رجل الى النبى صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال: من خير الناس يارسول الله ؟ قال : « آمَرُهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم لله» . وقال عليه السلام : « مروا بالمعروف وإن لم تعملوا به كله ، وانهوْا عن المنكر وإن لم تنتهوا عنه كله » . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وسباب المنافقين ، فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمنين، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافقين ، ومن أبغض الفاسق وغضب لله غضب الله له . وقال أبو الدرداء لتأمرنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما لايجل كبيركم ولا يرحم صغيركم ، ويدعو خيارُكم فلا يستجاب لهم ، وتستغفرون فلا يغفر لكم ، وتستنصرون فلا تنصرون . وقال عليه السلام : « إياكم والجلوس فى الطرقات! قالوا : مالنا بد، إنما هى مجالسنا نتحدث فيها. قال : فإن أبيتم إلا ذاك فأعطوا الطريق حقه . قالوا : وماحق الطريق ؟ قال : غض البصر، ورد

السلام ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر » . وروى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وهو أضعف الايمان » .

وروى الحسن البصرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أفضل شهداء أمتى رجل قام الى إمام جائر فأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر فقتله على ذلك ، فذلك الشهيد ، منزلته فى الجنة بين حمزة (عمه) وجعفر (١) (ابن عمه أخى على) .

الشروط التى يجب أن تتوافر فيمن يتولى القيام بهما :

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من أفضل القرب وأكثرها ثوابا وقبولا عند الله تعالى . وله شروط إذا لم تتوافر لا ينتج الثمرة المطلوبة :

(١) أن يعمل الواعظ بما ينصح ، لا أن يكون قوله مخالفا لفعله ، وإلا دخل فى الذم وكان ممن يصدق عليه قول الله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بالمقاريض فقلت من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم » .

(٢) أن يكون العمل طاعة لله ورسوله ، وهو العمل المشروع المأمور به إيجابا أو استحبابا ، وضده المعصية والفجور والظلم والسيئة .

(٣) أن يكون خالصا لوجه الله ، فالله لا يقبل من الأعمال إلا ما يراد به وجهه ، فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه وهو كله للذى أشرك » . وهذا هو أساس الاسلام والعمود الذى عليه بنى الدين . فحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . ومن ثم كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول فى دعائه : اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا .

وإذا كان العمل خالصا نشر الله عليه رداء القبول ، وصادف التوفيق ، وقدر لفاعله فى القلوب مهابة وجلالا ، وتقبّل الناس قوله بالسمع والطاعة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « من أرضى الناس بسخط الله وكله إليهم ؛ ومن أرضى الله بسخط الناس كفاه شرهم ؛ ومن أحسن فيما بينه وبين الله أحسن الله فيما بينه وبين الناس ؛ ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ؛ ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه .

(١) يلقب بجعفر الطيار ، وينسبون الى على أنه قال [وجعفر الذى امسى واضحى يطير مع الملائكة ابن امى]

ومما يؤثر فى هذا الباب أن أتابَكَ سلطان دمشق طلب محتسبا ، فذكر له رجل من العلماء فأمر باحضاره ، فلما مثل بين يديه قال له : إنى وليتك أمر الحسبة على الناس . فقال له : إن كنت تريدنى لما تقول فقم عن هذا الفراش وارفع هذا المتكا فانهما من حرير ، واخلع هذا الخاتم فانه من ذهب ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : هذان حرامان على ذكور أمتى حل لاناثها ! فقال السلطان : سمعا وطاعة ! ونهض عن الفراش وأمر برفع المتكأ وخلع الخاتم من أصبعه وقال : وقد ضممت إليك أمر الشرطة (حكمدار بوليس) فما رأى الناس محتسبا أهيب منه .

(٤) أن يأمر عن معرفة وعلم وفقه بالدين ، وإلا كان العمل جهلا وضلالا واتباعا للهوى ، كما قال عمر بن عبد العزيز : من عبد الله بغير علم كان ما يفسدأ كثر مما يصلح . وكما قال معاذ ابن جبل : العلم إمام العمل والعمل تابعه .

(٥) أن يكون النصح بالرفق والتؤدة حتى يؤتى ثمرته المرجوة ، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ياعائشة عليك بالرفق فانه ما كان فى شىء إلا زانه ، ولا كان العنف فى شىء إلا شانه » . وقال أيضا : « إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله ، ويعطى عليه ما لا يعطى على العنف » .

ومن نوادر المحتسبين وبارع قصصهم : أن رجلا دخل على المأمون وأمره بمعروف ونهاه عن منكر وأغلظ له فى القول ، فقال له المأمون : ياهذا إن الله أرسل من هو خير منك لمن هو شر منى ، فقال لموسى وهارون : « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » . ثم أعرض ونأى بجانبه .

(٦) أن يكون الناصح حليما صبورا على الأذى ، إذ العادة قد جرت بأن يناله الأذى من جراء عمله ، فان لم يحلم ويصبر كان الضرر أكثر من النفع ، كما قال لقمان لابنه وهو يعظه : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور » . ومن ثم أمر أنبياءه ورسله وهم القادة الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر بالاعتصام بالصبر ، كما قال تعالى لنبيه فى بدء رسالته : «يأيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرُّجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » . فاختتم الأمر بالانذار وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بطلب الصبر منه . وقد جاء هذا الطلب فى مواضع عدة كقوله تعالى : « واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا » وقوله « واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا » . وقوله « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » وقوله « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت » وقوله « واصبر وما صبرك إلا بالله »

فجماع الأمر بالمعروف ثلاثة : علم قبله ، ورفق معه ، وصبر بعده . وهذا معنى ما يروى عن بعض السلف : لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يامر به ، فقيها فيما ينهى عنه ؛ رفيقا فيما يأمر به ، رفيقا فيما ينهى عنه ؛ حليما فيما يأمر به ، حليما فيما ينهى عنه .

(٧) ألا يتضمن الأمر بالمعروف فوات ماهو أكثر منه نفعا ، أو حصول منكر فوقه ؛ وألا يتضمن النهى عن المنكر حصول ما هو أنكر منه ، أو فوات معروف أرجح منه . ولأجل هذا سكت النبى صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن أبىّ وأمثاله من أئمة النفاق والفجور لما كان لهم من الأعوان ، فلو أزال المنكر بعقاب هؤلاء غضب قومهم وأخذتهم الحمية حمية الجاهلية فينفرون منه حين يسمعون أن محمدا يقتل أصحابه . والمشاهدة التى أرانا الله إياها فى الآفاق وفى أنفسنا تدل على أن المعاصى سبب المصائب ، والطاعةَ سبب النعمة، كما قال تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . وقال عز اسمه : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك» . وقال: « إن الذين تولوا منكم يوم الـتقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم» . وقال : «أوَ لمـّا أصابتكم مصيبة قد أَصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم » . وإذا كان الفسوق والعصيان من أسباب الشر والعدوان فقد يذنب الرجل أو الطائفة من الناس ويسكت الآخرون عن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر فيكون ذلك محسوبا عليهم من ذنوبهم ، أو ينكرون عليهم إنـكارا منهيا عنه فيكون ذلك من ذنوبهم أيضا ، وبسبب ذلك يحصل التفرق والفساد ، وذلك من أعظم الشرور والفتن فى القديم والحديث . وإن من تدبر ما وقع من الفتنة بين أمراء الأمة وعلمائها علـم أن منشأ ذلك اتباع الأهـواء والشهوات ، والميل الى البدع والفجور .

المحتسب :

المحتسب من نصّبه السلطان أو نائبه للنظر فى أمور الرعية ، يأمرهم بما يوافق الشرع وينهاهم عما يخالفه ، فى أعمالهم الدينية والدنيوية ، مما ليس من اختصاص القضاة والولاة والجباة . وهو داخل فى باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فله النظر فى كل مايهم المسلمين فى أسواقهم ومجتمعاتهم ومعاملاتهم بعضهم مع بعض ، ويعين من يراه أهلا لذلك من الأعوان. فهو يبحث عن المنـكرات ويعزر عليها ، يعاقب بحسب أهميتها ومقدارها ، وعلى حسب منزلة مرتكبها ، كما سيأتى تفصيل ذلك بعد .

وشرط المنكر الذى يـكون للمحتسب التعرض له : أن يُفعل علانية على مرأى من الناس ومسمع . فمن ارتـكب معصية خفية فى داره وأغلق عليه بابه لايجوز للمحتسب أن يتجسس عليه ، إلا أن يكون ذلك فى انتهاك محرم بدئ فى الشروع فيه ولم يتم بعد ، كما إذا أخبره من يثق بصدقه أن رجلا خلا بامرأة ليزنى بها ، فيجوز له حينئذ أن يتجسس ويبحث ، حذرا من فوات مالا يستدرك من انتهاك المحارم وارتـكاب المحظورات .

أصناف المحتسب :

المحتسب صنفان :

(١) محتسب يعينه السلطان أو نائبه للنظـر فى شئون الرعية والـكشف عن أعمالهم ، فيأمر بما يوافق الشرع وينهى عما يخالفه ، كما تقدم ذلك .

(٢) محتسب متطوع يرى منكرا فينكره ، أو يأمر بمعروف يرى الناس قد تركوه .

وبينهما فرق من جهات عدة :

(أ) أن الأمر والنهى فرض عين على الأول بحكم ولايته ، وفرض كفاية على الثانى ، فاذا قام به غيره سقط عنه الحرج والاثم : كصلاة الجنازة ، ورد السلام على غيره .

(ب) أن قيام الأول به من واجبات عمله التى لا يجوز أن يتشاغل عنها بغـيرها ، وقيام الثانى به من النوافل التى يجوز أن يتشاغل عنها بغيرها .

(ﺟ) أن الأول له أن يتخذ على الانـكار أعوانا لأنه عمل هو له منصوب وإليه مندوب ، وليكون أقدر على القهر والغلبة ، وليس كذلك الثانى .

(د) أن الأول له أن يعزر فى المنكرات الظاهرة بضرب ونحوه ، ولا يتجاوز بها بحيث تصل الى الحدود الشرعية المقدرة ، وليس للثانى ذلك .

والفرق بين المحتسب والقاضى :

أنه لا يجوز للمحتسب النـظر فى الدعاوى الخارجة عن ظواهر المنـكرات . فـلا ينظر فى العقود والقروض ونحو ذلك ، إلا إذا كان معـترفا بها . أما ما يدخله الانـكار والجحـد ويحتاج الى البينـة أو شهادة الشهود ، فهـذا وظيفة القاضى لا وظيفة المحتسب .

ويزيد على القاضى معه وجوه عدة :

(أ) أن له أن يتعرض للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإن لم يحضر خصم يطلب منه ذلك . وليس للقاضى أن يتعرض لذلك إلا بحضور خصم يشتـكى ، ولو تعرض لذلك خرج عن حدود وظيفته .

(ب) أن له من القوة والجبروت ماليس للقاضى ، لأن الحسبة موضوعة على الرهبة والتخويف ، فاذا أغلظ المحتسب فى القول وكان سليط اللسان لا يعد هذا منه خروجا عن عمله .

(ج) أن له أن يبحث عن المنكرات التى ترتكب علانية ليقوم بأداء وظيفته بانـكارها ، وليس ذلك لغيره .

ويوافق عمل القاضى من ناحيتين :

(١) أنه يجوز تقديم الشكوى اليه وسماعه دعوى المشتكى فى حقوق العباد التى تتعلق ببخس فى ثمن أو تطفيف فى كيل أو وزن ، أو تدليس فى بيع أو ثمن ، أو تأخير دين مستحق مع إمكان دفعه .

فهذه كلها منكرات ظاهرة وظيفته إزالتها ، إذ من أعمال الحسبة إيصال الحقوق الى ذويها والمعونة على استيفائها .

(٢) أن له أن يلزم المدعى عليه بدفع الحق الذى وجب عليه باعتراف أو إقرار مع وجود اليسار ، لأن فى تاخيره منكرا ، لقوله عليه السلام : « مطل الغنى ظلم » .

والفرق بين المحتسب وقاضى المظالم (القاضى الجنائى) : أن النظر فى المظالم يكون فيما يعجز عنه القاضى ، والحسبة فيما يرفَّـه (١) عن القاضى . ويشتركان فى أن عمل كل منهما مبنى على الرهبة المستمدة من سلطان الحكومة ، وأن كلا منهما لا يتعرض إلا لعدوان ظاهر لاخفاء فيه .

« يتبع » احمد المراغى

(١) رفه عنه : وسع وخفف .

من أخبار الفصحاء

دخـل المأمون ديوانه يوما فمر بغلام وسيم الطلعة ، حسن البزة ، فاعجبه شكله . فقال له : من الشاب ؟ فقام وقال : الناشئ فى دولتك ، المؤمل لخدمتك ، والمتقلب فى نعمتك : الحسن ابن رجاء . فاستحسن المأمون جوابه وأمر له بجائزة .

يقال إن أبا العباس السفاح لام يوما خالد بن برمك وزيره على كثرة عطائه وصلاته ، فقال له خالد : لم أر شكرى يحيط بنعم أمير المؤمنين ، فاستعنت بألسنة الناس عليها .

وقف المنـذر ملك العراق على عجوز من العرب ، فقال لها ممن أنت ؟ قالت : من طىء . فقال : ما منع طيأ أن يكون فيهم مثل حاتم ؟ قالت : ما منع الملوك أن يكون فيهم مثلك .

فعجب المنذر من سرعة جوابها وأمر لها بصلة .

موقف الدعوة الاسلامية

من الشعر والشعراء

يحاول بعض الباحثين من المتأدبين العصريين أن يلصق بالاسلام دعوى منافرته للادب من الوجهة الفنية ، ولا سيما الشعر ، استناداً الى موقف الدعوة الاسلامية من فريق من الشعر والشعراء على عهد البعثة المحمدية . وهى دعوى لا تجد لها دليلا من التاريخ ولا شبهة من الواقع ، وإنما دفعهم اليها ما رأوه من عناية الاسلام القوية بالأخلاق الكريمة ، وإحاطتها بسياج من الحصانة التى كان من لوازمها مقاومة البذاء والتفحش فى الهجاء ، والكذب والافتراء فى المدح والاستجداء ، والاباحة الداعرة فى الغزل والتشبيب ، فالاسلام سلك للفن الأدبى طريق الفضيلة ليقيم للناس حياة فاضلة خيّرة لا تشوهها تلك النقائص النفسية والمعايب الخلقية . وإذا كان الاسلام قد اشتد بعض الشىء أمام نوع من الشعر وفريق من الشعراء كان لا يرى للاخلاق وزنا ،فله فى ذلك عذره الناصح ، الى جانب أنه شجع نوعا من الشعر وفريقا من الشعراء جعلوا فنهم مطية للكرائم الأدبية .

كان الشعر — كما يقول عمر بن الخطاب — علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه ، وكان الشعراء عند العرب هم أهل الحذق والثقافة الذين يصلون فى ميادين الأفكار وتسجيل الآراء ، واليهم يركن الناس فى الاحتجاج لهم والذب عن أحسابهم ونشر فضائلهم ، وقد كانوا شاعرين بهذه المنقبة لهم فى نفوس الجماهير مدلين بها عليهم ، فترى الأعشى يمن على ممدوحه بقوله :

قلدتك الشعر ياسلامة ذا فا　　ئش والشىء حيثما جعلا
والشعر يستنزل الكريم كما　　ينزل رعد السحابة السبلا

فلما جاء الاسلام بتعاليمه التى أشعرت العرب بحياة جديدة كل الجدة ، لم تألفها نفوسهم ولم يتعودها مجتمعهم ، وكانت تلك التعاليم أشد وقعا على نفوس الشعراء والمتزعمين ، لأنها تحمل فى ثناياها مايذهب بكبريائهم ويقوض سلطانهم ، ويزرى بمواضعاتهم ، فاشتدت الخصومة بين الدعوة الجديدة والعاكفين على التقليد ، وانتهض شعراؤهم لمناهضة القرآن الكريم الذى هتك ستر بلاغتهم ، ووضع بسمو براعته ونصاعة بيانه من قيمة فصاحتهم ؛ ورصد قوم منهم أنفسهم لهجاء النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فأقذع فى هذا أمية بن أبى الصلت ، ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن رواية شعره ، فيما يقول الرواة ، وكان طبيعيا أن يجد الاسلام فى أنصاره ألسنة حدادا ترد كيد المعتدين فى نحورهم ، وكان هؤلاء الأنصار يجدون من النبى صلى الله عليه وسلم رضاء واغتباطا ، لا بل أمرا وتحريضا ، فقد روى أصحاب السير عن جويرية

ابن أسماء قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى وأشفى .وعن جابر ابن عبد الله رضى الله عنه قال : لما كان عام الأحزاب وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا قال النبى صلى الله عليه وسلم : من يحمى أعراض المسلمين ؟ فقال كعب رضى الله عنه :أنا يارسول الله ، وقال عبد الله بن رواحة : أنا يارسول الله ، وقال حسان بن ثابت : أنا يارسول الله ، قال عليه السلام : نعم اهجهم أنت فانه سيعينك الله بروح القدس . ومن مواقف حسان رضى الله عنه التى نافح فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رده على الزبرقان بن بدر شاعر وفد بنى تميم الذين نزل فيهم قول الله تعالى : « إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون » فقد خرج اليهم النبى صلى الله عليه وسلم واستمع الى خطيبهم الأقرع بن حابس وشاعرهم الزبرقان ، وأمر خطيبه ثابت بن شماس فرد على خطيبهم ، وأمر شاعره حسان بن ثابت فقام فأنشد عينيته المشهورة ، وهى من رائع شعره ، وفيها يقول :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الاله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق — فاعلم — شرها البدع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم ... عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
إن كان فى الناس سباقون بعدهم ... فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم ... لا يطبعون ولا يزرى بهم طبع
ولا يضنون عن جار بفضلهم ... ولا يمسهم من مطمع طمع
يسمون للحرب تبدو وهى كالحة ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا يفرحون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع
كأنهم فى الوغى والموت مكتنع ... أسود بيشة فى أرساغها فدع
خذ منهم ما أتوا عفوا وما غضبوا ... ولا يكن همك الأمر الذى منعوا
فإن فى حربهم — فاترك عداوتهم — ... سما يخاض عليه الصاب والسلع
أكرم بقوم رسول الله قائدهم ... إذا تفرقت الأهواء والشيع
أهدى لهم مدحتى قلب يؤازره ... فيما أراد لسان حاذق صنع
وأنهم أفضل الأحياء كلهم ... إن جدّ بالناس جد القول أوسمعوا

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس : إن هذا الرجل لمؤتى له ، والله لشاعره أشعر من شاعرنا ، ولخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولأصواتهم أرفع من أصواتنا ، ثم قال : أعطنى يا محمد ، فأعطاه ، فقال : زدنى ، فزاده ، فقال : اللهم إنه سيد العرب !

فنحن نرى فى هذا الضرب من المحاورات الكلامية ، والمناظرات الأدبية ، مايدلنا دلالة صريحة على أن صاحب الدعوة الاسلامية جعل الأدب بعض أسلحته فى تأييد دعوته ، مجانسة لما كان عند خصومه من هذا القبيل ، فلما فلج عليهم أبوا الا لجًّا فى العناد حتى شاموا سيوفهم فى وجه الدعوة ، فأبى الله إلا نصرة دينه القويم .

ومن الشبه التى يتمسك بها هؤلاء المتادبون آية فى كتاب الله تعالى تصف الشعراء بالضلالة والبهتان ، وقد ردها على إخوان لهم من قبل صاحب العمدة فقال : « فأما احتجاج من لم يفهم وجه الكلام بقوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون » فهو غلط وسوء تأول ، لأن المقصود بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء ، ومسوه بالأذى ، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل فى شىء من ذلك ، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ونبه عليهم فقال : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ماظلموا » يريد شعراء النبى صلى الله عليه وسلم الذين ينتصرون له ويجيبون المشركين عنه »

على أننا إذا نظرنا الى التاريخ الأدبى فى هذه المرحلة وجدنا من القصص والحوادث الثابتة مايثبت اعتزاز الاسلام بالأدب وخاصة الشعر ، فقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم أقام لحسان منبرا فى مسجده وقال له : « اهجهم — أى المشركين — فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام فى غلس الظلام » . وقصة كعب بن زهير مشهورة ، فقد أنشد بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم قصيدته :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

وفيها يقول بعد أن تخلص من الغزل — على عادة الشعراء — الى المديح والاعتذار :

نبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم ... أذنب ولو كثرت فىّ الأقاويل
إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

فرضى عنه النبى صلى الله عليه وسلم وأثابه بردته . وهذا أيضا النابغة الجعدى : وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ومدحه بقصيدته الرائية :

خليلى عوجا ساعة وتهجرا ... ولوما على ما أحدث الدهر أوزرا
أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى ... ويتلو كتابا كالمجرة نيرا
أقيم على التقوى وأرضى بفعلها ... وكنت من النار المخوفة أحذرا

الى أن قال فيها مفتخرا بنفسه وقومه :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أين المظهر يا أبى ليلى ؟ » فقال : الجنة يارسول الله ، قال : « أجمل ! إن شاء الله » فلما بلغ قوله :

ولا خير فى حلم إذا لم تـكن له   بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له   حليم إذا ما أورد الأمر أصـدرا

قال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أجدت لا يفضض الله فاك » .

ويروى أن الزبير بن العوام رضى الله عنه مر بمجلس لأصحاب النبي صلى الله عليه وسـلم وحسان ينشدهم وهم غـير آذنين لما يسمعون من شـعره ، فقال : مالى أراكم غير آذنين لما تسمعون من شعر ابن القريعة ؟ لقد كان ينشد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحسن استماعه ويجزل عليه ثوابه ولا يشتغل عنه إذا أنشده ! ولعل هذا هو السبب فى مدحة حسان للزبير التى يقول فيها :

أقام على عهـد النبي وهـديه   حواريه والقول بالفـعل يعـدل

وقد مر عمر بن الخطاب بحسان وهو ينشـد الشعر فى المسجد فقال له : أرغاء كرغاء البكر ؟ ! فقال حسان : دعنى عنك ياعمر ، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشد فى هذا المسجد من هو خير منك فما يغـيّر علىّ !

وذكر الشيخ عبد القاهر أنه يروى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها أنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا مايقول لى : « أبياتك » فأقول :

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه   يوما فتـدركه العـواقب قد نما
يجزيك أو يثنى عليك وإن من   أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

ومما اشتهر عنها أنها كانت تحفظ شـعر لبيد جميعه . ودخل عليها حسان بعـد ما كان من أمره فى شأنها معتذرا فأنشدها قوله :

حَصان رَزان ما تُزَن بريبـة   وتصبح غرثى من لحـوم الغوافل
فان كنت قد قلت الذى قـد زعمتم   فـلا رفعت سوطى الىّ أناملى
فإن الذى قـد قيل ليس بلائط   ولـكنه قـول امرئ بى ماحل

ولو شئنا أن نتتبع الحوادث لما اتسع المقام لسردها . وهكـذا نجـد الاسلام فى شخص نبيه الـكريم وأعيان أنصاره وجنوده ، اعتز بالأدب وآخاه ، بيد أنه لم يرض أن يمد لغواة الشعراء فى حبل الضلالة ، بل حجزهم فى رفق تارة ، وفى صلابة تارة ، عن مزالق الشر والافساد فى الأرض ، وفتح لهم أبوابا من الفضيلة والخـير . والحق لو أنهم اتخذوها منافذ الى مظاهر الوجود لـكان الأدب العربى الآن ناموسا من نواميس الأخـلاق الفاضلة ، كما أنه الناموس الأعظم فى البراعة والبيان ؟

صادق ابرهيم عرجون

الدعوة الى الله

ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة

الدعوة الى الدين وتثبيت اليقين وإرشاد الناس ليخرجوا من الظلمات الى النور ، هى فى الأصل عمل الأنبياء والمرسلين ، يخلفهم فى ذلك صفوة عباد الله ممن اختارهم وقربهم اليه .

ولقد كان لها فى سلفنا الأول المقام الأول ، فكان يليها كبار الصحابة والتابعين ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . وكان الناس لا يزالون يذكرون ما كانوا عليه من جاهلية جهلاء وخطة عمياء ، ركبوا فيها العسف ، وتباهوا بالجبروت والظلم ، حتى عمتهم الفوضى ، وساءت بهم حال الحياة . فكانت ذكرياتهم عنها أكبر عون لمسارعتهم الى الجادة التى رحمهم الله بها « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

فلما طال عليهم الأمد ونسى الماضى السيء ، واستقر بهم العيش ، وأتتهم الحياة الطيبة بما نعموا به من الشريعة السمحة ، حسبوا ما غنموه من هذه الثمار حقا لازما لا يخشى عليه ضياع ولا يحتاج الى حراسة ، فسكروا بلذة النعيم ، وانغمسوا فى شهواتهم لاهين ساهين ، وبحر الشهوات لا ساحل له . وقد كان ذوو النفوذ والسلطان والجاه والثراء أوفر الناس قسطا من الاستهتار والاندفاع فى تيار اللذائذ ، واقتدت بهم الدهماء حتى تعرضوا لوعيد الآية الكريمة « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » . فكم من أمة من الأمم الاسلامية سقطت من شامخ رفعتها ، وذلت بعد عزتها ، وانتزعت من ملكها وسطوتها ، وتحكمت فيها أمم كان أعز أمانيها أن تكون من حاشيتها . ولولا ما وعد الله به هذه الأمة الكريمة من بقاء الخير فيها الى يوم القيامة لكان ما انغمست فيه كافيا للقضاء عليها ، ولكن الله اللطيف الخبير كان يتداركها على تعاقب الأحوال بمن يجدد لها أمر دينها .

وإن من أكبر ما يوجه القلوب الى الله بالحمد والشكر، ما نراه فى هذا العصر من نعمة الله على مصر ، بما حباها به من ملك صالح ، بوأه عرشها ، وسلمه زمامها ، وقد نشأ فى عبادة ربه وتحلى بحلية الدين من أول تنشئته ، وآتاه الله من الحكمة والحزم ونور البصيرة وقوة العزم ما ظهرت آثاره جلية فى توجيه أمته الى سعادتها ، وإرشادها الى التمسك بدينها ، والدين مدعاة الفضائل جميعها ، وفى التمسك بالفضائل من أمانة وصدق وحسن عشرة وعدل واستمساك بعزة وحمية ، فى هذه الفضائل صون الكرامة ، وعلو المكانة ، واكتساب الاحترام ، والجدارة بالثقة .

شهدت به مصر عهدا طالما تمنته وسألت الله أن يحققه لها ، فاستجاب لها ربها ، فكان أول ما بدأها به الكلمات الطيبة يوجهها إليها مشافهة ، يهنئها بشهر الصوم ، وينبهها الى ما فيه من فرصة اغتنام الخير ، وما بين يديها من سعادة تغتنمها باقبالها على أحكام دينها وطاعة ربها ، فتحرز بذلك سعادة الدنيا والآخرة ، تفتحت له قلوبها بالمحبة ، وتطلعت إليه عقولها تغتنم الرشاد من نصحه ، وأكبرت فيه مظاهر الدين تتوالى عليها .

وكان من أكبرها وأيمنها : أن عهد الى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الإمام المصلح الشيخ المراغى شيخ الجامع الأزهر ، بإلقاء دروس فى تفسير آى الذكر الحكيم ، بحيث ينتفع بها الخاصة ، ولا تعلو على أفهام العامة . وتفضل بحضورها والاستماع لها ، فأقبل عليها العظماء يتسابقون ، وتبعهم الجماهير متلهفين . وساعدت وسائل الاذاعة على نشرها لأوساط الأمة ، فكانوا يتلقفونها ما استطاعوا ، فكان النفع بها عظيما ، والتطلع إليها أعظم . وحسبك بدروس دينية يحضرها الملك الصالح بنفسه ، وينوه بشأنها ، ويعلى من قدرها . فكان فى هذا من تنبيه الشعور الدينى ما نحمد الله فيه على نعمة التوفيق ، ونسأله جل شأنه منه المزيد .

ولقد سمعنا من غير واحد من العظماء إلحافا فى طلب المزيد منها والمداومة عليها ، يقولون : إن فى عنق الأزهر حقا وأمانة للأمة فى هذا التذكير الذى جذب أرواحنا ، وأشبع قلوبنا ، وذكرنا بواجبنا ، والذكرى تنفع المؤمنين ، فلا يصح أن يهمل الأزهر هذا الأمر وهو الأدرى بقيمته عند الله . وإنا لنرجو أن تجاب هذه الرغبات الشريفة إن شاء الله .

بقيت كلمة لا بد من الالماع إليها بإشارة وجيزة :

تلك أن بعض صغار الأحلام أساء فهم كلمات وردت على لسان فضيلة الأستاذ الأكبر ، فبدلا من أن ينعم النظر فيها ، ويتامل سابقها ولا حقها ، أطلق لنفسه عنان الطيش ، وراح يرسل الكلمات فى غير ما روية ، ويقول : إن فضيلة الأستاذ الأكبر ينكر على الأئمة اجتهادهم فى مذاهبهم .

ياللعجب العجاب ! لم ندر كيف يخطر هذا الوهم فى نفس رجل له فهم ؟ وكيف يستقر عند من يزعم أنه من أهل العلم ؟ وكيف يجرى على لسانه ولا يتوارى خجلا من نفسه ! أليس هذا الذى تزعم عليه أنه ينكر الخلافات المذهبية هو الذى يتعهد دروس الفقه على المذاهب الأربعة ، ويطالب طلاب الجامعة الأزهرية وجميع المعاهد الدينية أن يحذقوا أحكام مذاهبهم ، ويطالبهم بتقرير أدلتها وبيان حكمة التشريع فيها ، وربط مصالح المجتمع بما يدرسونه منها ، كل على حسب درجته فى التعلم ؛ ولا يسمح لواحد من الطلاب الذين وضع الله أمانتهم فى عنقه أن ينتقل من سنة الى سنة أو أن يجاز فى النهاية باجازة التدريس والارشاد ، إلا بعد أن يكون قد أجاد فهم مذهب إمامه ومن انتصبوا لتقريره وبسط أدلته وتوجيه قواعده ؟ !

فكيف ينكر شيئا هو دائب على تعهده وتنميته ، وحريص كل الحرص على أن يبلغ غاية الكمال والاتقان ؟ !

هذا فى مركزه الرسمى . فاذا فاته التنبه الى هذا فكيف يغفل عما جاءت الآية التى يفسرها فضيلته لتقريره ؟ ألم يكن سياقها فى مذاهب الأمم الماضية من أهل الكتاب وغيرهم ، وأنها ابتدأت مذاهب مختلفة ثم تطورت الى أن صارت أديانا يكفر كل أهل مذهب منهم من خالفه فى مذهبه ، ويعتبره خلافا فى الدين لا اجتهادا مذهبيا ؟ أليس من واجب حراس الدين أن ينبهوا للحذر من هذا الاختلاف الذى وقع لمن قبلنا حتى لا يصيبنا ؟

لعلك تقول : ومالنا نحن وهذا التنبيه ولم نصَب بمثل ما وقعوا فيه ؟

ونقول لك : إن التنبيه على الخطر لا يتوقف على الوقوع فيه بالفعل ، بل يجب التحذير من الضرر قبل التردى فى هاويته ، حتى يكون التحذير مفيدا ، فان أبيت إلا أن ترى الضرر قد حصل بالفعل حتى يصح التعرض للتحذير منه ، فماذا تصنع فى فائدة ما قصه علينا القرآن الكريم والسنة النبوية من قصص الأولين !

على أن الذى تزعم نفيه عن الأمة الاسلامية وأن لا داعى للتعرض له ، قد وقع فيه الكثير من الطوائف فى غير مصر : فكم ترى من افتراق طوائف مسلمة افتراقا أشبه ذلك الافتراق الذى حصل لمن قبلنا من أهل الكتاب . وإذا كان الله قد نجى منه الأمة المصرية وله الحمد والمنة ، فقد ارتكست فيه طوائف فى غير مصر يكفر بعضهم بعضا ، والجميع من أهل القبلة يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ! وابحث إن شئت فى مصرك تجد جماعات تعمل دائبة فى مصر على خفية منك ، تعمل على تكفير غيرها . ولو اطلعت على ما تدعو اليه لسارعت بتكفيرها . وكم من فئة تمزق من الأمة ما جمعه الله ، فانا لله !

وبعد : فلم يخل المصلحون فى زمن ّما من التعرض لهم باللمز والتأويل وشتى الأقاويل ، فإن كانوا يعملون ليقال عنهم ، فترت همتهم ، وإن كانوا يعملون لله ولرسوله وليرضوا ضميرهم ويرضوا ربهم ، لجأوا الى قوله عز وجل : «فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

هذا ولقد رأى جمهرة من أهل الرأى وتقدير الأعمال بما تستحقها : أن يكون النفع بهذه الدروس عاما وثابتا مستقرا ، فاقترحوا على فضيلة الأستاذ الأكبر أن يأذن بطبعها لينتفع بها من فاتته فرصة استماعها ، فتفضل حفظه الله وأذن بذلك .

وإنا لنرجو أن تكون باكورة لثمار بستان يؤتى أكله كل حين بإذن ربه ، وأن تكون بداية طيبة لنفع متصل .

وإنا إذ ننوه بهـذه الآثار الجليلة التى هى فى غنى عن تنويهنا ، نغتبط أتم الاغتباط بان تكون هذه الآثار على يد ملك اصطفاه الله لـكـنانته ، وبوأه ملك مصر التى جمع الله لها من مزايا العـلم وحراسة الدين ما لم يجمعه لغيرها ، وعرف لها أمم الإسلام من جليل الآثار ما جعلهم يحلونها محل القيادة الدينية العامة ، ويعلقون آمالهم بها يرجون أن يكون بها جمع كلمة المسلمين على التمسك بفضـائل الدين ، حتى يحرزوا ماهم أهله من احترام الشعوب ومحبة الأمم ، والثقة الـكاملة لدى العالم أجمع .

ولقد نذكر بمجىء هـذه الآثار على يد جلالة الملك الصالح المحبوب الموفق الملك فاروق الأول ، ما روى لنا عن سميه الفاروق ثانى الخلفـاء الراشدين : من أن إسلامه كان بدء الجهر بالدعوة الى الإسلام ، وقد كانت قبل ذلك سرا ، فسماه عليه السلام بالفاروق ، فرق الله به بين الحق والباطل .

وكذلك فى عصرنا هـذا تستقبل مصر عزة دينية ، ويجهر رجال الدين بالدعوة الى الله فى حضرة الملك وبتشجيعه . فإن كان ملـكنا حفظه الله فاروقا الأول فى ملوك مصر ، فهو أيضا فاروق الثانى فيمن أعلى الله بهم كلمة الدين .

فاللهم أيد الإسلام بتأييده ، وأعل كلمة الحق باعلاء كلمته ، واجمع القلوب على الخير بجمعها على محبته — آمين !

ابراهيم الجبالى

عمر يقص من نفسه

حكى أبو الحسن المـاوردى فى كتابه الأحكام السلطـانية عن ابراهيم النخعى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى الرجال أن يطوفوا مع النساء ، فرأى رجلا يصلى مع النساء ، فضربه بالدرة . فقال : والله إن كان عملى هذا حسنا لقد ظلمتنى ، وإن كان سيئا فما علمتنى .

فقال عمر : أما شهدت عزمتى ؟ فقـال : ما شهدت لك من عزمة ، فألقى اليه عمر الدرة ، وقال له اقتص . قال لا أقتص اليوم . قال عمر : فاعف عنى . قال لا أعفو ، وافترقا على ذلك .

ثم لقيه من الغد فتغير لون عمر . فقال له الرجل : يا أمير المؤمنين كا نى أرى ما كان منى قد أسرع فيك . قال عمر : أجل . قال الرجل : فاشهد أنى قد عفوت عنك .

(من كتاب السمير الواعظ) .

أثر القرآن فى تحرير الفكر الانسانى

أول ماوجد الانسان على الأرض كان جاهلا كل الجهل ، وكان مع جهله هذا ليس بمجرد من عاطفة دينية كما يدل عليه كل ما وجد من آثار الأمم السابقة على التاريخ ، فلم تشاهد جماعة من جماعاته محرومة من دين ساذج يناسب الحالة العقلية التى كانوا عليها . ولا تزال توجد فى الأرض قبائل متوغلة فى التوحش تعطينا مثلا محسوسا على ما كان عليه الانسان فى أول وجوده . ومما هو محقق أن الخالق سبحانه وتعالى لم يحرم الانسان وهو فى ذلك الدرك الأسفل من وجوده من رسل يهدونه الى الحق بالقدر الذى يطيقه تعقله . ولكنه ما كان يلبث أن ينقاد لأوهامه فيؤلّه قوى الطبيعة ، أو يتخيل وراء ظواهرها روحا أو أرواحا تمنحه الخير متى رضيت عنه ، وتقذفه بالشر متى سخطت عليه ، فكان يستجلب رضاءها عليه بما تزينه له عقليته الناقصة ولو بتضحية فلذة كبده لاسترضائها . ولا شك أنه كان يصدر فى كل ذلك عن رجال نحلوا أنفسهم صفة الوساطة بينه وبين الآلهة . فكان يدين بما يوسوسون له به غير طالب على مايقولون دليلا ، لا لأنه كان يقدسهم فحسب ، ولكن لأنه لم يكن يميز بين ما هو حق وما هو باطل من العقائد ، فكل شىء كان عنده صحيحا ما دام يصدر عن المهيمنين على ديانته .

فلما حصل للانسان بعض العلم بالوجود الذى يعيش فيه ، وأخذت قواه العقلية تشعره شعورا ساذجا بأن من الأمور ما هو حق ومنها ما هو باطل ، ازداد تعويلا على قادته ، وتمسكا بما يفضون به اليه ، وتسليما منه بأن الحق لا يعدو ما يؤاتونه إياه على أية حال .

انتقل الانسان درجة بل درجات فى باحات العلم ، وقويت فيه غرائزه الأدبية ، واستعدت للقيام بحصتها من حياته العقلية ، فلم يؤثر هذا فى خضوعه لأوليائه ، لأنهم بما انقطعوا لمهمتهم الروحية كانوا يسبقونه الى التطور فيوفونه حاجته من الغذاء العقلى ، فكان يضطر للانقياد لهم ، إذ يصادف لديهم كلما حفزته الحاجة الى المزيد منه ، فيظل أسيرا فى قبضتهم .

تتابعت القرون والأجيال ، والناس جميعا على هذه الحال ، حتى ولدت الفلسفة اليونانية ونبغ بين أحضانها رجال وقر فى أنفسهم أن من حق عقولهم عليهم أن يناقشوا رجال الدين فيما يدلون به الى الناس من عقائد ، فكان جزاؤهم القتل ، وأكبر من ذهب منهم ضحية لهذه التهمة الفيلسوف سقراط عمدة الفلسفة اليونانية .

ولكن ما لبث هذا الحجر على الفكر أن خفت وطأته ، فتمكن فلاسفة كثيرون من الافضاء بمذاهبهم الى الناس ، وفى بعضها ما يخالف عقائد عامتهم ، بل منها مايفضى الى المادية الباحتة .

ولكن هذا العهد لم يدم طويلا ، فانه لما عمت الديانة المسيحية أوربا أصبح لحفظتها من السلطان ونفاذ الكلمة ماليس للملوك المتوجين ، فوضعوا حدودا للنظر لا يسمح لأحد بتعديها ، فوقفت حركة الفكر أكثر من ألف سنة لم ينبغ فى أثنائها على ما يقول المؤرخون عالم واحد فى أى فرع من فروع العلم ، وبقيت كتب الأوائل مكدسة فى المكتبات ترعى فيها الحشرات .

فكان العالم لا يخلو فى أثناء تلك القرون الراكدة من نبوغ عقول نيرة تبحث فى بعض الشئون الكونية ، وتأتى بما يعده القائمون بالأمور الدينية زيغا ، فكان هؤلاء المفكرون يحاسبون على ما أتوا به حسابا عسيرا ، فيستتابون ويعزرون إن كانت جريمتهم هينة ، فان عادوا لمثل ما أخذ عليهم فجزاؤهم كان القتل على أبشع حالة .

هذه الشدة المتناهية فى القسوة لم تمنع العقول القوية من الظهور آونة فآونة ، فكان حفظة العقائد يلتقطون أصحابها واحدا واحدا ويخمدون أنفاسهم ، حتى لا تسرى عدواهم لسواهم . ظلت الحال جارية على هذا النحو حتى بلغ عدد ضحايا الفكر الحر أكثر من ثلثمائة ألف ، أحرقوا بالنار ، أو ألقوا فى البحار ، أو ماتوا وخزا بالسفافيد المحماة الخ .

ومن عجب أنه كلما ازداد عدد هذه الضحايا كثر المترسمون لخطواتهم ، وكلما أمعن رجال الدين فى عنادهم ، استبسل رجال الفكر فى جهادهم ، وتيقظ الناس من سباتهم ، وبعد أن كان النزاع محصورا بين رجال الدين ورجال العلم ، تعداهم الى رجال الدين أنفسهم ، وما هى إلا فترة حتى انصدعت وحدتهم ، فأعلن جمهور كبير منهم عزلتهم ، مؤسسين مذهبا جديدا للمسيحية باسم البرتستانتية ، فيها تسامح كبير إزاء رجال العلم ، ومجال فسيح للفكر الحر والرأى المستقل ، وكان ذلك فى القرن السادس عشر ، أى بعد ظهور الاسلام بنحو ألف سنة .

الناظر فى هذه السلسلة الطويلة من التنازع يظنها تطورات أدبية محلية ، والحقيقة أنها تتصل بالنهضة التى أحدثها القرآن فى الشرق اتصالا وثيقا ، فإن المسلمين اتصلوا بأوربا من جهة غربها منذ أواخر القرن الثامن الميلادى بفتحهم للأندلس ، فأسسوا فيها دوراً للعلم ، وجروا فيه من حرية البحث واستقلال الرأى على ما يقضى به الدستور القرآنى ، فتأدوا الى مدى بعيد من المعارف والفنون ، وصارت جامعات قرطبة واشبيلية مثابة لطلاب العلم الغربيين ، فنهلوا من معينها الصافى ما لا يصلون الى مثله فى بلادهم ، ومرنوا على الأسلوب الذى كان يجرى عليه علماء المسلمين من الحرية والاستقلال ، فتشبعت به نفوسهم ، وارتاحت إليه عقولهم ، فلما عادوا الى بلادهم أخذوا يبثون فى مواطنيهم هذه الروح الجديدة ، فسرت فى أذكيائهم سريان النور فى الظلام ، وفتحت أمامهم آفاقا من النظر ، ووقفتهم على مواطن الفساد من نظمهم التعليمية ، وسلطاتهم الاستبدادية . ومتى أشعرت النفوس بنقصها اندفعت مضطرة بغرائزها لتكميله ،

فانتدب أفراد منها للتفكير والنظر، غير معتدين بالحدود التى أمرت السلطة الدينية بعدم تعديها، فحدث من جراء ذلك كل ما ذكرناه من ذلك التاريخ هنا .

أما دخول العلم الاسلامى الى أوربا من طريق الأندلس وطريق إيطاليا فأمر قد اعترف به مؤرخوهم، وأما استمدادها روح نهضتها من النهضة الاسلامية فحادث لا يمكن المراء فيه، لإجماع مؤرخيها أن علوم المسلمين وآدابهم هى التى أيقظت أهلها من سباتهم، ودفعتهم لبلوغ هـذا الشأو من المدنية التى هم عليها اليوم . ولست أحب أن أطيل الكلام بايراد الشواهد من كتب مؤرخيهم، فانه أصبح معلوما من الناس أجمعين، وقد أكثرنا من ذكره فى جميع بحوثنا السابقة .

أما بيان الأسلوب الذى تمكن به القرءان من كسر القيود الفولاذية التى كان يرسف فيها الفكر الإنسانى فى مدى سنين معدودة، بعد أن لبث عليها قرونا كثيرة، فإن فى بيانه عبرة للسائلين، وآية للناس أجمعين .

أنزل الله القرءان والناس على ما تعلم من عبادة الأهواء، والجمود على تقليد الآباء، والطاعة العمياء للزعماء، فلو كان جرى على الأسلوب البشرى فى بعث هذه العقليات الخامدة، وتنبيه هذه النفوس الهامـدة، لاستدعى ذلك قرونا وأجيالا . ولـكنه أتى فى هـذا الموطن بآية سيرفعها الناس الى أعلى من مستوى إحياء الموتى، حين يعرفون أن نقل النفوس عما ورثته طفرة، دونه نقل الجبال الشم من أماكنها .

تصدى الاسلام لتحرير العقلية الانسانية من طريق غير مباشر، فجاءها من الناحية التى يشتد شعورها بها، وهى ما ستؤول اليه بعـد الموت، فأفاض فى ذكر العذاب الذى ستلاقيه النفوس الـكافرة الجاحـدة إفاضة لم تؤثر عن سـواه، وبالغ فى تهويله على ضروب تنخلع لها القلوب وترتعد منها الفرائص، مؤكداً أن الانسان وهو فى تلك الحالة لا تجديه شفاعة شفيع ولو كان ملـكا مقربا، ولا قرابة قريب ولو كان رسولا مكرما، بل لا يجد من يتطوع لانجاده من أب أو أم أو صديق، لاشتغال كل امرىء بنفسه : « يوم يفـر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، لـكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » « يوم تكون السماء كالمُهْل وتكون الجبال كالعهن، ولا يسأل حميم حميا، يبصَّرونهم، يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه، وصاحبته وأخيـه، وفصيلته التى تؤويه، ومن فى الأرض جميعا ثم ينْجيه » « ليس للانسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » « إذ تبرأ الذين اتُّبِـعوا من الذين اتَّبَـعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » « وقالوا (أى أصحاب النار) ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا » « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولـكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » الخ الخ .

الناظر فى هذه الآيات ، وفى الكتاب عشرات من أمثالها ، يعجب من كثرتها ، ولكنه لو أدرك أن هذا كله تمهيد لأعظم إصلاح تم حدوثه فى الأرض ، وكان فاتحة لكل الاصلاحات التى تلتها من بعد ، ذلك الاصلاح الذى رمى لأن يرفع عن النفوس البشرية نير العبودية للاوهام والتقاليد التى أمسكتها فى الظلام أجيالا طويلة ، تبين له وجه الحكمة من الاكثار من هذه الزواجر .

ألا ترى أن النفوس متى تحققت أنه لا ينجيها من عذاب الآخرة شىء غير عملها الذاتى ، انساقت للنظر فى وجه خلاصها ، وما دام لن ينفعها شفاعة شفيع ، ولا قرابة قريب ، ولا اتباعها لمن تتخيل فيهم الهداية ، وتتوهم منهم الوساطة ، كرهت الجمود على الموروثات ، ومقتت التقليد للآباء ، وأيقظت فى نفسها خاصة النقد والتمحيص فى كل ما يعرض لها من العلم ، فلم تعد أسيرة أحد فيما تعتقده وما تأخذ به ؟ وهذا هو معنى حرية الفكر واستقلال الرأى الذى سعى لاقامة دولتيهما العباقرة أجيالا متطاولة ، وبذلوا فى تشييدها دماءهم رخيصة ، وأقامها الاسلام فى سنين معدودة ؟

وقد رأيت أن الاسلام قد جاء بهذا الاصلاح للآخذين به طفرة ، مؤسسا إياه على أرسخ غرائز النفس ، وأعمق نحائزها ، فنشأت أمة تنظر وتفكر ، وتدعو كل فرد منها ليفكر لنفسه ، ويعمل لها ، وقد خلد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأصل بكلمة من صميم العلم الالهى ، وهى قوله لابنته : « اعملى يافاطمة فانى لا أغنى عنك من الله شيئا » .

وقد نشأ فى هذه الأمة عدد لا يحصى من العلماء والحكماء فلم يقل واحد منهم : خذوا بما أقول لاتنظروا فيه ، بل قالوا كلهم كما قال مالك : « ما من أحد إلا وهو ماخوذ منه ومردود عليه إلا صاحب هذه الروضة » يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ؟

محمد فريد وجدى

ماقيل فى حفظ اللسان

لا تكشفن من مساوى الناس ماستروا ... فيكشف الله سترا من مساويكا
واذكر محاسن مافيهم إذا ذكروا ... ولا تعب أحدا منهم بما فيكا

وقال شاعر آخر :

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى ... ودينك موفور وعرضك صين
فلا ينطقن منك اللسان بسوأة ... فللناس سوآت وللناس ألسن
وعينك إن أبدت اليك مساويا ... لقوم فقل : ياعين للناس أعين
فعاشر بانصاف وكن متوددا ... ولا تلق إلا بالتى هى أحسن

الاخلاق الفلسفية

– ٧ –

(ب) الضمـــير

السريرة :

يرى بعض الأخلاقيين تعدد السريرة واختلاف أوصافها ، وتباين أفعالها ، فيقسمها الى سريرة صادقة وهى ما توافق أعمالها القانون الأخلاقى ، وسريرة ضالة وهى ما ترى الخير شرا والشر خيرا ، وسريرة موسوسة ، وهى ما تحظر المباح ، وسريرة مترددة ، وهى ما تتحير فى إصدار الحكم على الخير والشر

ولست أدرى ما هى الفروق التى صحت عند هذا البعض من الأخلاقيين فميزوا بها السريرة من الضمير ، وجعلوا الأولى متعددة ، والثانى واحدا لا يختلف ولا يتغير ؟ ثم لا أدرى كذلك ما هو المرجع الأخير الذى يلجؤن إليه فى الحكم بين هذه السرائر المختلفة حتى يتبينوا الصادق والكاذب منها : أهو العقل ، وقد علمنا مقدار ما يكتنفه من ضعف وانخداع بسبب خضوعه للحواس ؟ أم هى إحدى السرائر تتولى الحكم على بقية أخواتها ، وقد عرفنا أن تفضيل أحد المتساويين على الآخر وجعله حكما عليه بلا مبرر تحكم وخروج على ناموس العدالة ؟ أم هو القانون الأخلاقى ، وقد أصبحت ثقتنا فيه ضئيلة تافهة ، لأننا بدأنا نرتاب فى مشرعه وهو السريرة ما دمنا نوقن بأنها متعددة متغيرة خاضعة لظروف الحياة وطوارئها ؟ وليس أدعى الى الارتياب ولا أبعث على فقدان الثقة من هذه الحال المضطربة . وإذاً فرأيهم هذا مردود ، ولا يستطيع التسليم به عقل يسير على نظام المنطق المستقيم ، ولكن الرأى عندى هو أن الضمير والسريرة شىء واحد لا يتعدد ولا يتغير ، ولا يكذب ولا يوسوس ولا يتردد ولا يشك ، لأنه من عالم الأبدية كما قررنا ذلك مررا . وأما ما نشعر به أحيانا من تردد وارتباك فمصدره هو نشوب حرب داخلية بين هذا الضمير الصادق والناصح المتثبت من رأيه ، وبين إحدى القوتين الحيوانيتين الموجودتين فى النفس البشرية . وأما ما نشاهده من ضلال فى أعمالنا وسقوط فى هوى الشر والرذيلة ، فما هو إلا تغلب إحدى هاتين القوتين على ذلك الصوت الأعلى . وليس معنى هذا أن الانسان أثناء النضال الداخلى بين ضميره وشهوته يكون مرتديا ثوب السريرة المترددة ، فاذا انتصر الضمير نزع هذا الثوب واستبدل به ثوب السريرة الصادقة ، وإذا كانت الغلبة للقوة الشهوانية ، ارتدى ثوب السريرة الضالة ،

فاذا تعلم أو تهذبت أخلاقه عاد فألقى بالسريرة الأولى جانبا وتدثر بغيرها . ولو كان الأمر كذلك لكانت السرائر شيئا تافها لا يكلف المرء تغييرها إلا عناء استبدال القفاز كما يقولون ، ولكن الواقع أن التردد والشك والهوى والضلال ليست إلا حالات للنفس البشرية تعرض لها من تنازع القوى الثلاث التى تسيطر عليها ، وأيها كانت لها الغلبة فهى صاحبة الحكم والسلطان .

أما إذا كان هذا البعض من الأخلاقيين يقصد بالسريرة الخلق ، فإنا نوافقه على تغيره وتحسنه بوساطة الرياضة والثقافة والدين وتتبع سير العظماء والمصلحين ، ولا نخالفه فى أن هدى الخلق وضلاله مقرونان بالبيئات التى تحوط الانسان ، وبالعناصر التى تتكون منها ثقافته ، وبالعوامل التى تساهم فى تربيته ؛ ولكننا لا نسلم مطلقا بأن الصوت الأساسى الخفى يعتوره تغير أو نقص أو ضلال ، لأنه هو البرهان الأول على رفعة الانسان وجدارته بالاتصال بخالقه ، وعلى إمكان وصوله الى المثل الأعلى . فاذا جاز أن تتعرض هذه القوة العليا للتغير والنقص ، فقد سقطت قيمتها المعنوية ، واندثرت نتائجها المترتبة عليها ، وانقلب كل ما فى الكون من حقائق وعقائد وفلسفات ، لأن وجود هذه القوة فى الانسان ، وثبات عصمتها من الخطأ والضلال ، والاستيقان بأنها هى الصلة بين المطلق والمحدود ، لأكبر دليل وأصدق برهان على وجود الله وصدق الأنبياء وخلود الروح ، والعودة الى حياة أخرى تجرى فيها العدالة مجراها ، وإن كنا لا ندعى استقلال هذا البرهان باثبات كل هذه العقائد ، وإنما نحن مسلمون بأنه يستعين ببراهين أخرى ، ولكنه هو بينها قطب الرحى وبيت القصيد .

العواطف الأخلاقية :

أشرنا عند تحديد أفعال الضمير الأدبى الى أن الأفعال السلبية للضمير ، وهى ما تعقب الفعل ، تسمى بالعواطف الأخلاقية ، وقلنا : إن هذه العواطف تنقسم الى قسمين : قسم يعقب الفضائل والخيرات ، وهو السرور والغبطة والاستراحة ، والآخر يلى وقوع الرذائل والشرور ، وهو وخز الضمير والألم والندم ، وهذه العواطف بقسميها درجات ، فكما أن فاعل الخير يشعر على أثر هذا الفعل بالرضى عن عمله ثم بالغبطة ثم بالسكينة التامة والسعادة الشاملة ، كذلك فاعل الشر يشعر على أثر جريمته بتقريع من الضمير دونه وخز الابر ، ثم يحس بالألم ثم بالندم الذى يقود الى التوبة والانابة .

ولما كان بعض الفلاسفة الفرنسيين يرى أن العواطف الأخلاقية سلسلة متصلة الحلقات فقد قال : أول مراتب الفوز برضى الله تأنيب السريرة . ولكن « كانت » لا يوافق على أن العواطف الأخلاقية تبتدئ بعد الفعل ، بل هو يؤكد أنها تبدأ على أثر الحكم بخيرية الشىء أو بشريته فيقول : « إن الشعور بالالتزام يصحبه حتما إحساس بالاحترام » . والذى حدا « كانت » الى هذا اليقين بسابقية العواطف الأخلاقية إنما هو إيمانه بكمال الحرية فى داخل النفس البشرية .

ولا ريب أن هـذا رأى حكيم يسير مع المنطق الذى تخلف عنه « أفلاطون » حين زعم أن الانسان خيّر بفطرته ، وليس للشر فى نفسيته نصيب ، فأفقده بهـذا حريته وإرادته وجدارته بالاحترام ، لأن الشخص لا يعترف له بالانتصار إلا إذا خاض معمعان الحرب بالفعل وخرج منها فائزا على أعدائه الأشـداء ، وإلا لحمد الشخص على مالم يفعل ، وعـد منتصرا على غير عـدو . وإذاً فاول شرائط المسئولية الادبيـة هى الحـرية المطلقة ، والـكسب الاختيارى المستقل ، كما سنبين ذلك فى حينه .

المثل الأعلى :

يمتاز الانسان عن بقية أصناف الـكائنات الحية بميله الدائم الى الصعود والرقى ، وبشغفه الذى لا يفتر ولا يكل الى الرفعة والعلو ، ومحاولة اللحوق بالمثل الأعلى . وهذا دليل آخر يسوقه « كانت » على وجود الروح فيقول : « إن انفراد الانسان بهذا الشغف يدل على أن فى داخل نفسه عنصرا ساميا حكم عليه مبدع الـكون بالسجن وقتا ما فى دائرة الجسم الضيقة ، ولـكنه أباح له حرية التغلب على هذا الـكائن الحيوانى فجعله يميل دائما إلى الرفعة التى لو انتهى الى آخر حلقة من حلقاتها ، لا لتحق بأصله ، وهو العالم الأعلى . فميل الانسان إذا الى المثل الأعلى فطرى فى نفسه الناطقة لا يزال يصبو اليه حتى يلتحق به فى حياته ، أو ينقضى عمره وهو فى طريق السير اليه . غير أن هذا المثل الأعلى يختلف باختلاف الظروف والأحوال . فمثلك الأعلى بينك وبين نفسك هو أن تـكون خيراً ، وبينك وبين الناس أن تـكون غيريا مضحيا ، باحثا عن سعادة البيئة التى تعيش فيها ما استطعت الى ذلك سبيلا ، وبينك وبين ربك أن تعرف له حقه ، وتقدر عليك فضله ، وتذعن لأوامره ونواهيه ، لا رغبة فى جنة ، ولا رهبة من نار ، ولـكن لأن خالقك يحب أن تـكون كذلك .

وبهذه المناسبة نرى لزاما علينا أن نشير هنا الى مارمى به بعض أخلاقى الغربيين الاسلام من ظاهرة النفعية والتجارة فى أخلاقه . وقد استشهدوا على هذه التهمة بما يرد دائما فى القرآن من إحكام الصلة بين الفضيلة والجنة وما فيها من متع جسمية ولذات مادية ، وبين الرذيلة والنار وما فيها من عذاب وتنكيل ، وعلقوا على ذلك بقولهم : « إن دينا هذا شأنه من المـادية لا يمكن أن يـكوّن نفوسا عالية تعمل الخير لذاته ، وتحب الفضيلة لأنها فضيلة وكفى لا لغاية أخرى تسعى وراءها » .

ولـكننا إذا أنعمنا النظر مليا فى هذه المشكلة ألفينا قول أولئك الفلاسفة مبنيا على أسس سوفسطائيـة ، إذ أنه حين نزل القرآن الـكريم على النبى صلى الله عليه وسـلم كانت الحياة الأخلاقية والاجتماعية عند العرب منحلة انحلالا لايمكن معه لأمة من الأمم أن تسير الى الأمام ،

فرأى البارئ جلت إرادته أنه من الحكمة أن يفسح فى الشريعة الاسلامية مكانا عظيما للاخلاق وتمجيد الفضائل ، والحط من شأن الرذيلة بكل الوسائل الممكنة ، واستعمل لذلك أحكم أساليب الترغيب والترهيب اللذين هما ضروريان للجماهير . وليست الأخلاق الاسلامية ، كما يزعم بعض أخلاقيي أوربا ، مؤسسة على التجارة والنفعية الموجودتين فى الجنة التى ألح عليها القرآن ووصفها كثيرا واتخذها وسيلة لنشر الفضيلة ، وإلا فماذا يقولون فى تلك الحكمة المحمدية العالية : « نعم العبد صهيب : لولم يخف الله لم يعصه » ، أو فى تلك الجملة المنسوبة الى الامام أبى حنيفة رضى الله عنه : « اللهم اشهد أنى لا أعبدك رهبة من نارك ولا رغبة فى جنتك ، وإنما حبا فى رضاك عنى ، وطمعا فى تقريبى الى نورك الأعلى » !

وإذاً فالأخلاق الاسلامية مؤسسة على رضا الله والقرب منه ، لأنها دينية قبل كل شيء ، ولكن الاسلام قد بدأ مهمته الأخلاقية بالتبشير للفضيلة العملية كما قدمنا ، لأن البيئة التى نشأ فيها هذا الدين لم تكن تحمل أكثر من ذلك النموذج الذى رسمه القرآن الكريم وسارت عليه السنة الغراء .

« يتبع »

الدكتور محمد غلاب
أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

وصايا أمراء المؤمنين لرجالهم

قال معاوية بن أبى سفيان لمسلم بن زياد لما ولاه خراسان : إن أباك كفاك أخاه عظيما ، وقد استكفيتك صغيرا ، فلا تتكلن على عذر منى فقد اتكلت على كفاية منك ، وإياك منى قبل أن أقول إياى منك ، فان الظن إذا أخلف منى فيك ، أخاف منك فىّ وأنت فى أدنى حظك ، فاطلب أقصاه ، وقد أتعبك أبوك فلا تريحنّ نفسك

وكان الرشيد فى بعض غزواته فألح عليه الثلج ليلة ، فقال له بعض أصحابه : يا أمير المؤمنين أما ترى ما نحن فيه من الجهد والنصب ، ووعثاء السفر ، والرعية قارة وادعة نائمة ؟

فقال له أمير المؤمنين الرشيد : « اسكت فللرعية المنام ، وعلينا القيام ، ولا بد للراعى من حراسة الرعية ، وتحمل الأذية » والى هذا أشار مادحه فقال :

غضبت لغضبتك الصوارم والقنا ... لما نهضت لنصرة الاسلام
ناموا الى كنف بعدلك واسع ... وسهرت تحرس غفلة النوام

هل أقام سيدنا عمر بن الخطاب

الحد على ولده فى الزنا ؟

نشرت بعض المجلات الاسلامية المصرية لبعض كتابها قصة مطولة تتلخص فى أن فتاة أقبلت على عمر رضى الله عنه بينما هو جالس فى المسجد والناس حوله ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال : وعليك السلام ورحمة الله . فقالت : كنت مارة فى بعض الأيام بحائط بنى النجار إذ بولدك أبى شحمة يتمايل سكراً ، وكان قد شرب عند نسيكة اليهودى ، فراودنى عن نفسى ثم جذبنى بقوته ونال منى ما ينال الرجل من المرأة ، وقد أغمى علىّ فكتمت أمرى عن عمى وجيرانى حتى أحسست بالولادة ، فخرجت الى مكان كذا فوضعت هذا الغلام وهممت بقتله ، ثم ندمت على ذلك وأتيتك لتحكم بحكم الله بينى وبينه . وأن عمر رضى الله عنه أمر إذ ذاك مناديا أن ينادى فى الناس ، فأقبلوا الى المسجد يهرعون ثم أتى بابنه الى بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد وقال : صدقت المرأة . وأقر أبو شحمة بما قالت . ثم أمر بضربه فضرب سبعين وهو يستغيث ، ولما بلغ التسعين انقطع كلامه وضعف ، واستمر الضرب حتى إذا كان آخر سوط سقط ميتا ، فجعل عمر يهدر كالبعير ، ويقول : محص الله عنك الخطايا ! ثم جعل رأسه فى حجره وأخذ يبكى ويقول : بأبى من قتله الحق ... الخ

وهى بطولها قصة مكذوبة ساق حفاظ الاسلام متنها عن شيرويه الديلمى بسنده الى مجاهد عن ابن عباس ، وهم فى ذلك ما بين مطيل ومختصر ، وأبانوا وجه كذبها ووضعها .

ولا يبعد أن يكون الحامل على وضعها صاحب الثناء على عمر رضى الله عنه وعدله . ولو ثاب الواضع الى رشده ، وعقل سوء عمله لعلم أن الكذب على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرب من الكذب على رسول الله ، وذلك من أكبر الكبائر فى الدين ، وأفظع الخلال عند جميع المسلمين ، وأن عمر رضى الله عنه غنى بمنزلته وعلمه ، وورعه وأخلاقه وجلائل أعماله ، عن التحلى بهذه الأقوال المكذوبة .

والذى لفت نظرى الى كتابة هذا الرد على هذه القضية المزعومة ، قراءة بعض المنتسبين للمعرفة والفهم لها ، ووقوعها منه الموقع المقبول ، وحمله بعض أصحابه على قراءتها والتلذذ بها ، فقلت سبحان الله : إذا خدع بهذه القصة المكذوبة من ينتسب للعلم والمعرفة فغيره أجدر وأحرى ! لهذا بادرت بكتابة هذه الكلمة راجيا نشرها على صفحات مجلة الأزهر الغراء ، خدمة للحق ، ووفاء بالعهد الذى أخذه الله تعالى على خدمة دينه — لَيُبيننّه للناس ولا يكتمونه — وصونا لجمهرة قراء مجلتكم الزاهرة أن ينتشر بينهم ما يخالف الحقيقة . والله المسئول أن يتولى هدانا أجمعين .

الرد :

قلت : إن حفاظ الاسلام ذكروا هذه القصة ما بين مختصر لها ومطول ، وأبانوا أنها قصة مكذوبة ، وقضية مزعومة ، لا ينبغى الاعتداد بها ولا يصح نشرها إلا لبيان حقيقتها . وإلى القارىء نص عباراتهم فى ذلك :

قال الحافظ ابن الجوزى ، ووافقه على ذلك الحافظ السيوطى فى لآليه بعد أن ساق هذا الحديث مطولا : حديث موضوع فيه مجاهيل ، قال الدارقطنى :حديث مجاهد عن ابن عباس فى حديث أبى شحمة ليس بصحيح ، وقد روى من طريق عبد القدوس بن الحجاج عن صفوان عن عمر ، وعبد القدوس كذاب يضع ، وصفوان بينه وبين عمر رجال ، والذى ورد فى هذا ما ذكره الزبير بن بكار وابن سعد فى الطبقات وغيرهما أن عبد الرحمن الأوسط من أولاد عمر ويكنى أبا شحمة كان بمصر غازيا فشرب ليلة نبيذا فخرج الى السكر فجاء الى عمرو بن العاص فقال : أقم علىّ الحد ، فامتنع . فقال له : إنى أخبر أبى إذا قدمت عليه . فضربه الحد فى داره ولم يخرجه . فكتب عمر يلومه ويقول : ألا فعلت به ما تفعل بجميع المسلمين ؟ ! فلما قدم على عمر ضربه ، واتفق أنه مرض فمات ا هـ .

وقال الحافظ ابن حجر فى الاصابة ج ٤ ص ١٠٤ : أبو شحمة بن عمر بن الخطاب : جاء فى خبر واه أن أباه جلده فى الزنا فمات ا هـ .

وقال فى ج ٣ ص ٧٢ : ذكر ابن عبد البر أبا شحمة فى ترجمة أخيه فقال : هو الذى ضربه عمرو بن العاص فى الخمر ثم حمله الى المدينة فضربه أبوه أدب الوالد ثم مرض فمات بعد شهر . كذا أخرجه معمر عن الزهرى عن سالم عن أبيه ، وأما أهل العراق فيقولون إنه مات تحت السياط ، وهو غلط ا هـ .

وقال الحافظ ابن تيمية فى تفسير سورة النور : عاش عبد الرحمن بعد حد الشرب مدة ثم مرض ومات ، ولم يمت من ذلك الجلد ، ولا ضربه بعد الموت كما يزعمه الكذابون ا هـ .

وقال الحافظ أبو الفرج ابن الجوزى فى تاريخ عمر بن الخطاب ص ٢٣٨ بعد أن ذكر قصة الشرب ولم يذكر قصة الزنا أصلا ، مانصه :

قلت : ولا ينبغى أن يظن بعبد الرحمن بن عمر أنه شرب الخمر ، وإنما شرب النبيذ متأولا وظن أن ما شرب منه لا يسكر ، فلما خرج به الأمر الى السكر طلب التطهير بالحد ، وقد كان يكفيه مجرد الندم على التفريط ، غير أنه غضب لله سبحانه على نفسه المفرطة فأسلمها الى إقامة الحد . وأما كون عمر أعاد الضرب عليه فليس ذلك حداً ، وإنما ضربه غضباً ، وتأديبا ، وإلا فالحد لا يكرر . وقد أخذ هذا الحديث قوم من القصاص فأبدوا فيه وأعادوا ، فتارة يجعلون هذا

الولد مضروبا على شرب الخمـر ، وتارة على الزنا (تأمل) ويذكرون كلاما مرققا يبكى العوام لا يجوز أن يصدر من مثل عمر . وقد ذكرت الحديث بطرقه فى كتاب الموضوعات ونزهت هذ الـكتاب عنه اهـ .

هـذا ما عثرنا عليه من نصوص حفاظ الاسلام أثبتناه هنا ، وفيه غنية وكفاية لمن أنصف وتدبر .

محمود ياسين
الرئيس الثانى لجمعية الهداية الاسلامية بدمشق

العظمة للنفس لا للجسم

نظر أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب الى الأحنف بن قيس وهو فى وفد بين يديه وقد التف بعباءة ، فترك الخليفة الوفـد ووجه اليه الخطاب ، فأجابه بكلامه البليغ المصيب ، وذهب فيه مذهبه العجيب ، فلم يزل عنده فى الذروة العليا الى أن عقد له من الرياسة على تميم ما كان له ثابتا الى أن فارق الدنيا .

هذا الرجل الذى قيل فيه : إنه إن غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه فيما غضب ، كان كما قال عبد الملك بن عمير : أصلع الرأس ، متراكب الأسنان ، أشدق مائل الذقن ، ناتىء الجبهة ، جاحظ العينين ، خفيف العارضين ، أحنف ، ولـكنه كان إذا تكلم جـلى عن نفسه جميع العيوب .

خرج عثمان بن عفان وهو الخليفة الثالث من داره يوما ، فرأى عامر بن عبد قيس على بابه وقد ألقى رأسه بين ركبتيه ، وكان شيخا دميما ، فأنـكره وأنـكر مكانه ، فقال له زاريا به : يا أعرابى أين ربك ؟ قال : بالمرصاد . فيقال إن عثمان لم يفحمه أحد غيره .

وقال أبو عبيد البكرى فى لآلئه : وكان كُثَـيِّر كان لا يبلغ طوله ضروع الابل لقصره ، ولم يمنعه ذلك أن يلحق السماك الأعزل بجزيل شعره ، وجليل أدبه .

باب الأسئلة والفتاوى

فى الطلاق

جاء إلى لجنة الفتوى بالجامع الازهر الاستفتاء الآتى :

صدرت منى الألفاظ الآتية ، وهى : « علىَّ الطلاق بالثلاثة لا اعاشر والدتى طول حياتى » مع العلم بأننى عاقد العقد فقط ، ولم أدخل بزوجتى إلى الآن .

فأرجو إفادتى : هل هذه اليمين يمكن ردها ، أولا يمكن ؟ واذا كان يمكن فبأية طريقة ؟

محمد صادق

الجواب :

اختلف الفقهاءفى مثل هذه المسألة . ومذهب الامام على وطاوس وشريح وداود وأصحابه عدم وقوع الطلاق ، ولو حصل المحلوف عليه . ووافقهم على ذلك كثيرون من فقهاء المذاهب . وقد صدر مرسوم بقانون رقم ٢٥ سنة ١٩٢٩ باتباع هذا المذهب .

ومن المقرر شرعا أن ولى الامر إذا أمر بأمر فى غير معصية وجبت طاعته ، وتنفيذ أمره .

وعلى هذا لايقع الطلاق فى هذه الحادثة ولو عاشر الحالف والدته . والله أعلم ؟

رئيس لجنة الفتوى

محمد عبد اللطيف الفحام

الميراث فى الجاهلية والاسلام

وحال الناس منه الآن

نظام توريث المال بين الأقارب من النظم الاسلامية الهامة ، المؤسسة على خير الأسس الصالحة لكل الأزمان ، الموافقة لحاجات الجماعات والبيوت والشعوب ، لأنه تشريع الله الذى يعلم من أمر الخلق مالا يعلم الخلق من أمر أنفسهم ، فاذا كان قد ران على بعض القلوب جحود حجبها عن الحقيقة ، وحجبت الأبصار غشاوة حالت بينها وبين النور ، ووصلت الى العقائد أثارة من الالحاد والشك ، بعدت بها عن الرجوع الى حجز الايمان الثابت واليقين الصادق ، والطريق القويم ، مما أدى الى شيوع روح التمرد من بعض الذين يكمن فى طبائعهم التمرد والجموح على الدين ، والى ذيوع البحث فى هذه القاعدة الهامة من قواعد الدين الاسلامى بين كثير من المسلمين وغيرهم ، بحثا تعدوا فيه حدود الله ، وخرجوا على ما افترض ، وناقضوا ماوصى به — فانى أجلو الحقيقة فى نظام توريث المال فى الجاهلية والاسلام ، لعلى أحول بين هذه القلوب وبين الجحود والظلمة والشك والالحاد :

لقد كان أهل الجاهلية يتوارثون بشيئين : أحدهما النسب ، وثانيهما العهد ، أما توريثهم بالنسب فلم تكن تنتظمه المساواة الحقة بين الذكور والاناث والصغار ، فانهم ما كانوا يورثون الصغار ولا الاناث ، وإنما كانوا يقصرون الميراث على الرجال الذين يشنون الغارات ، ويقودون المعارك ، ويظفرون بالغنائم والاسلاب . وأما العهد فمن ناحيتين : الحلف والتبنى . أما الأول فقد كان الرجل فى الجاهلية يقول لصاحبه : دمى دمك ، وهدمى هدمك ، وترثنى وأرثك ، وتطلب بى وأطلب بك . فاذا تعاهدا على هذا الوجه فايهما مات قبل صاحبه كان للحى ما اشترط من مال الميت . وأما التبنى فان الرجل منهم كان يتبنى ابن غيره فينسب اليه دون أبيه من النسب ، فاذا مات مدعى البنوة ورثه الابن المتبنى . والتبنى نوع من أنواع التعاهد .

ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن الدعوة للاسلام بين الجاهليين لم يكن نظام الميراث بالشىء الذى يوضع له التشريع قبل تصحيح العقائد ، وإعداد النفوس ، فترك نظام التوريث على ما كانوا عليه فى الجاهلية . ورأى بعض العلماء أنه لا مانع من أن يكون الله سبحانه وتعالى قد أقرهم على ذلك ، لقوله تعالى : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون » ، ولقوله : « والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » ، إذ المفهوم من الآية الأولى التوارث بالنسب ، ومن الثانية التوارث بالعهد .

وقد وضع النبي صلى الله عليه وسلم للوراثة بين المسلمين الأولين نظاما وقتيا مبنيا على الهجرة والمؤاخاة .

فأما الهجرة فقد كان المهاجر يرث أخاه المهاجر ، على شريطة أن يكون كل منهما مختصا صاحبه بمزيد المخالطة والمخالصة . وأما المؤاخاة فقد كان المتآخيان اللذان يؤاخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم يرث أحدهما الآخر .

واستمر الحال على هذا المنوال فى الميراث الى أن استشهد سعد بن الربيع رضى الله عنه وترك ابنتين وزوجا وأخا ، فأخذ الأخ المال كله . فجاءت زوجه الى الرسول صلى الله عليه وسلم وقالت : يارسول الله هاتان ابنتا سعد ، وإن سعدا قد قتل ، وإن عمهما أخذ مالهما . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ارجعى فلعل الله سيقضى فيه » . وبعد فترة من الزمن عادت باكية الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى: « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك ، وإن كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس » الى آخر آيات التوارث . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمهما وقال له : أعط ابنتى سعد الثلثين وأمهما الثمن ومابقى فهو لك . وهذا أول ميراث وقع فى الاسلام . وقضى الله على التوارث بالتبنى بقوله جل شأنه : « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم » . وأبطل التوارث بالهجرة والمؤاخاة أيضا بقوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا ، كان ذلك فى الكتاب مسطورا » . بهذه الآيات بطل نظام التوارث فى الجاهلية وصدر الاسلام ، وقام النظام الجديد مقامه ، وهو المعمول به بين المسلمين الى اليوم .

وصية الله ووجوب تنفيذها :

فنظام توريث المال بين الأقارب كما قلنا أعدل نظام وأحكم دستور ، لأنه من صنع خالق البشر ، والمسيطر على القوى والقدر ، والعليم بحاجات الأسر ، وما يتركز فيها من عناصر النفع والضرر ، ولذا فقد صدره الله بكلمة الوصية فقال جل شأنه : « يوصيكم الله فى أولادكم » الآية ، وختم هذه الوصية بقوله : « تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » . وفى هذا بيان للناس أن التمرد على هذا النظام ، والخروج على قوانينه ، تمرد على المشترع الأعظم ، وخروج على وصيته التى داين بها الآباء نحو أبنائهم ، وفرضها على أولى الأرحام بعضهم نحو بعض .

الشاكون فى هذا النظام هم العادون :

ليس من شك فى أن الذى يعطل هذا القانون إنما يتعدى حدود الله التى حدها ، ويخرج على شريعته التى اشترعها ، سواء أكان أبا أو ابنا ، فالآباء الذين يحبسون أموالهم على أبنائهم الذكور ، والأبناء الذين يحملون آباءهم على حبس المال عليهم ، خارجون على وصية الله ، معطلون لأحكامه .

الاسلام أنصف المرأة فى الميراث :

يخطىء كثيرا أولئك الذين ينقمون من الاسلام حكمه بين الرجل والمرأة فى الميراث ، ولو تجردوا من تعصبهم وراموا الاقتناع والخضوع للحق ، لأيقنوا أن الاسلام أكرم المرأة بهذا التشريع وأغدق عليها من الفضل ما تستحقه ، يقول الله تعالى : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » ، هذه القوامة التى للرجال على النساء إنما راعى فيها الشارع أصل الطبيعة البشرية ، فان الرجل أكمل من المرأة فى الصفات الخلقية والعقلية ، وأصلح منها للاضطلاع بالوظائف العامة ، وأقبل منها على البذل فى المشروعات الكبيرة والمرافق الهامة ، وأقدر منها على تجشم المشاق فى سبيل إسعاد أسرته وأمته . ونصيب المرأة من الميراث سبيله الادخار والجمع ، ونصيب الرجل موزع على زوجه وأولاده ، فالرجل مكاف بالمرأة وليست المرأة مكافئة بالرجل ، فاذا جعل الاسلام نصيبها على النصف منه فقد أكرمها وساعدها ، ورفق بها وأسعدها .

عدل الاسلام فى الميراث يتجلى فى حظره المفاضلة والمحاباة فيه ، كما يؤخذ من الأحاديث الصحيحة المأثورة عن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم :

١ — فعن النعمان بن بشير قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اعدلوا بين أبنائكم ، اعدلوا بين أبنائكم ، اعدلوا بين أبنائكم » رواه أحمد وأبو داود والنسائى .

٢ — وعن جابر قال : قالت امرأة بشير : انحل ابنى غلاما وأشهدلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إن ابنة فلان سألتنى أن أنحل ابنها غلامى . فقال النبى : له إخوة ؟ قال نعم ، قال : فكلهم أعطيت مثل ما أعطيته ؟ قال بشير : لا . قال : فليس يفلح هذا وإنى لا أشهد الاعلى حق » رواه أحمد ومسلم وأبو داود . ورواه أبو داود من حديث النعمان بن بشير ، قال فيه : « لا تشهدنى على جور ، إن لبنيك عليك من الحق أن تعدل بينهم »

انقسم أولو الرأى فى النظر الى هذه الأحاديث وفهمها وتحرى وجه الحق فيها إلى قسمين : مجوزين للتفاضل ، وما نعين له ، أما المجوزون فقد سلكوا مسالك فى التأويل والتخريج سدها

المانعون عليهم بما أوضح الحق، وبين المعالم، وترجم عن الروح الحقيقى الذى قصد اليه الشارع، وقضى فيه بالنصر والظفر والسلامة من الضعف والتعصب .

طغيان المادة على العقيدة فى هذا العصر قد ولد حالة اجتماعية ينكرها الاسلام :

إن الذين تحرروا من قيود التعصب المذهبى أو الطائفى أو الجنسى من العلماء والباحثين، ليعتقدون عن حق لا مرية فيه أن الترقيات المادية التى تمت فى هذا العهد الأخير قد زجت بالناس فى حالة من الشذوذ والانحراف، والخروج على العقائد ومقومات الأخلاق، تجعلهم عرضة للفوضى الطاغية، وقذفت بهم الى معامى من التراحم والتناحر لا تتفق وشرف الانسانية، ولا المدنية الفاضلة، هذه الحالة الشاذة التى خلقها التنازع على المال قد عالجها الاسلام بنظامه المالى القيم، فجعل أمته متكافلة متعاونة فى الاستفادة والافادة من الثروة العامة، وسن للوراثة قسمة عادلة لا يستطيع المتمردون على الدين أن يجدوا فيها عوجا ولا حيفا .

على أن الاسلام لم يعتبر المال كل شىء فى الحياة، ولم يجعله الثمرة الشهية، والنتيجة الطيبة بعد هذه الحياة، بل إنه نظر اليه كقوام للحياة يدور به دولابها، ويتقدم به سيرها، وينال به ما فيها من متاع وعرض، وآمال ورغائب ومطالب، ولكن الاسلام جعل العقيدة والعمل الصالح الجواز الذى يوصل الى السعادة الحقيقية، والخلقَ الكريم العاملَ المهم فى الدنيا والآخرة . ولما كان مجال التوريث يمكن أن يتسرب منه شر مستطير، وضع الاسلام له نظاما محكما وحظر على أهله تعديه، فالذين يحبسون أموالهم على بعض أولادهم، والذين يستكتبون آباءهم فى الأيام الأخيرة لهم ليستأثروا بأموالهم، أو يزوروا عليهم وثائق، أو يطمعوا فى أخواتهم يمنعونهن النصيب الذى قدره الله لهن، إنما هم خارجون على وصية الله وحكم الله فى الأموال، مسيئون الى الانسانية، مقطعون أرحامها، عادون على قوانينها ونظمها، راجعون بها الى عهود البداءة والغارات، هادمون لدعائم المجتمع، لما يترتب على ذلك من حقد القلوب، وحنق الصدور، وتقطيع صلات المودة والقربى، وشيوع العداء بين الأسر والجماعات .

ولقد بين القرآن الكريم أن إيثار يعقوب عليه السلام ليوسف بالحب والحنان، قد دفع إخوة يوسف عليه السلام الى الجرأة على أبيهم وعقوقه حتى قالوا : « إن أبانا لفى ضلال مبين »، ودبروا القتل لأخيهم، فكيف بالتفضيل المادى فى أمة ملكها حب المال، وجعلت إلهها هواها، وأسرفت فى المتاع والشهوات ؟

وكذلك فان الدولة الاسلامية الأولى، وحياتها الاجتماعية، وما قام عليه الناس على عهدها من المثل العليا والسمو الروحى وما جبلت عليه نفوسهم، وامتلأت به قلوبهم من الانسانية الرشيدة المعرضة عن لذائذ الجسد، ومطامع النفس، وزخارف الدنيا، ووساوس الشيطان، كل ذلك

ليقوم دليلا على أن الأمة الاسلامية الأولى ، ورائدها كتاب الله وشرع رسوله ، لم تعبد المال كما يعبده أهل هذا العصر ، بل قصرت عبادتها على الله ، ولم تحكم بالمال كما يحكم به أهل هذا الجيل ، بل حكمت بكتاب الله ، ولم تشرع لأنفسها تبعا لهواها كما يشرع أهل هذا العهد لأنفسهم ، بل ارتضت وأذعنت وصدقت بشرع الله ، ولذلك مكن الله لها فى الأرض ، وسلمت لها كل عناصر الحياة وأسبابها ، وارتبطت كلها برباط واحد هو حب الله تعالى .

على أننا وقد أذن الله لمشيخة الاسلام أن يليها إمام مصلح صادق الايمان هو حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، نؤمل كثيرا أن يسترجع الاسلام سالف عهده ، ويصل الى سابق مجده ، ويكون الحكم بين الناس كتاب الله وسنة رسوله ، مما يكفل لأصول الدين الاسلامى التمكين والذيوع ، ولنظمه الاذعان والقبول والرضا ، ويقف من أوتوا المال عند قسمة الله له ، ونظامه فى توزيعه ، ووجوب التعديل بين أصحاب الحقوق فيه ؟

محمد مصطفى شادى

حد الجود والبخل

قال الحكماء : حد الجود أن يبذل الرجل ماله حيث يجب البذل ، ويحفظه حيث يمكن الحفظ . ومن بذل مكان الامساك فهو مبذر ، ومن أمسك مكان البذل فهو بخيل .

وقالوا : من الحزم أن تعلم أن مالك لا يسع الناس كلهم ، فتَوَخَّ به أهل الحق عليك ، وأن كرامتك لا تسع المقلين ، فاخصص بها أهل الفضل والمروءة ، ومن تمسه الحاجة اليك . والاعطاء بعد المنع ، أجمل من المنع بعد الإعطاء .

وقال صالح بن عبد القدوس :

لا تجد بالعطاء فى غير حق ليس فى منع غير ذى الحق بخل
إنما الجود أن تجود على من هو للبذل منك والجود أهل

وقال شاعر غيره :

لعمرك ما المعروف فى غير أهله وفى أهله إلا كبعض الودائع
فمستودع ضاع الذى كان عنده ومستودع ماعنده غير ضائع
ومالناس فى كفر الأيادى وشكرها الى أهلها إلا كبعض المزارع
فمزرعة أجدت فأضعف زرعها ومزرعة أكدت على كل زارع

مشاهداتنا فى الهند

دائرة المعارف بحيدراباد

لحضرة صاحب السمو العالى نظام حيدر اباد الدكن عناية عظمى وجهود موفقة فى ترقية شئون بلاده وإعلاء شأن أمته بين الأمم الهندية فى جميع مرافق الحياة : من عمرانية ، واقتصادية ، وثقافية ، وغيرها . وللناحية العلمية والدينية أكبر قسط من توجيه عنايته . وقد تجلى ذلك فيما أنشأه من الجامعة العثمانية الكبرى التى ضمت بين جنباتها الكليات المتعددة من طبية وهندسية ودينية وغيرها ، وقد أنشأ بها قسما للترجمة نقل الكثير من أمهات الكتب العلمية العظيمة النفع ، من انجليزية وفرنسية وفارسية وغيرها ، الى لغة البلاد اللغة الأوردية ، مراعاة للحكمة القائلة : إن تعليم العلم بلغة الأمة معناه نقل العلم الى الأمة ، وتعليمه بلغة أخرى معناه نقل الأمة الى العلم . وواضح أن الفائدة فى الطريقة الأولى أعم وأجدى ، بينما الثانية تعانى فيها الأمة من التخبط والتذبذب بين قديمها وبين ما يراد نقلها إليه صعوبات لا حد لها ، والفائدة مع ذلك تكون ضعيفة مقتصرة على فئة قليلة منها ، ولا سيما إذا كانت العلوم التى يراد بثها فى الأمة مقسمة بين لغات شتى ، حيث يتعذر نقل الأمة الى عدة أمم . لذلك كان لانشاء علم الترجمة بالجامعة العثمانية بحيدر اباد فائدة أى فائدة .

ومع عنايته بنقل العلوم الكونية الى لغة بلاده ، قد وجه اهتماما عظيما الى ترقية الشئون الدينية ، وأعطى علوم الدين أكبر قسط من التقدير . ولما رأى أن علوم الدين قد تركزت فى اللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وأن اللغة العربية مفتاح لكنوز عظيمة من التراث العلمى الذى خلفه الصدر الأول من الاسلام والقرون التى تليه ، اتجه اتجاها خاصا نحو إحياء اللغة العربية ، وشجع المشتغلين بها بكل أنواع التشجيع ، وأرسل الى مصر نخبة من نجباء الطلاب ، فدرسوا بالأزهر ودار العلوم وكلية الآداب ، وعادوا الى بلادهم بعد إتمام دراستهم هنا ، يساهمون فى إحياء اللغة العربية والعلوم الدينية بحيدراباد .

ولقد شهدنا ونحن هناك أن انتشار اللغة العربية وفصاحة النطق بها بحيدراباد يفوقان ذلك فى الأقطار الهندية الأخرى .

ومن المآثر التى امتازت بها حيدراباد منشأة دائرة المعارف التى تقوم باحياء أمهات الكتب النافعة الجليلة فى الحديث والرجال وعلوم الأدب واللغة وغيرها ، تنقب عنها فى مختلف دور الكتب ، ومتى ظفرت بكتاب قيم أحضرت منه نسخة وعرضته على أعضائها يفحصونه ويدرسونه ، حتى إذا استقر الرأى على عظم نفعه وجدارته بالنشر ، جدوا فى البحث والاستقصاء

فى مكاتب الأقطار المختلفة حتى يعثروا على نسخة منه أو عدة نسخ ، ليحكموا أمرهم فى التصحيح والتحرى، ويخرجوه على أصح ما يتسع له الامكان، ثم طبعوه ووزعوه على الديار الاسلامية بأثمان لا تزيد كثيرا على تكاليف طبعه ، يبتغون بذلك توسعة أفق العلم الدينى والعربى . وسمو النظام من ورائهم يشد أزرهم ويعينهم بما يحتاجون إليه . فهى من هذه الناحية تشبه دار الكتب المصرية فى انتقائها الكتب الأدبية والدينية النافعة وطبعها ، تعميما للثقافة وتوسعة لدائرة العلم . ولقد شهدنا من عنايتها بكتب الحديث والرجال ما يستحق كل إعجاب .

ولرجال دائرة المعارف مكانة محترمة فى نظر سمو النظام وبين الدوائر العلمية فى الهند ، وفى العالم الاسلامى . ولهم ولع شديد بتنمية أواصر المودة بينهم وبين الهيئات العلمية فى معظم البلاد الاسلامية .

ولقد كان من أثر ذلك أنه عند ماوصل إليهم نبأ زيارة البعثة الأزهرية للهند أخذوا يراسلونها مستفسرين عن موعد زيارتها لحيدراباد ، ليرتبوا حفلات استقبالها ويعدوا برنامجه وما يلقى فيه من قصائد وخطب ترحيب ، وبخاصة شرح الجهود العلمية التى يقومون بها ، علما منهم أن هذا العمل الأخير هو أعظم مايحكم الصلة بينهم وبين البعثة الأزهرية . ولما وصلنا الى حيدراباد كان أول حفلة لاستقبالنا هى حفلة دارة المعارف تحت رياسة حضرة صاحب الدولة أكبر حيدرى رئيس وزرائها . وقد تفضل سمو النظام فأرسل نطقا ساميا تلاه باسمه حضرة صاحب المعالى وزير المعارف يشرح فيه عناية سموه بترقية الشئون العلمية ممثلا فى هذه الدائرة ، وكأن سموه حفظه الله أراد أن يبالغ فى تكريم البعثة فلم يجد أحب إليها من شرح عنايته العظمى بالعلوم الدينية ونشر أنوارها ، فاعتبرت البعثة ذلك من أعظم صنوف التكريم وأجلها مغزى .

ولقد وردت علينا نسخة من النطق السامى ، وتعريبه ننشره فيما يلى :

ترجمة البلاغ السلطانى :

الى جمعية دائرة المعارف والعلماء والمستشرقين لصاحب الجلالة سلطان العلوم مير عثمان على خان نظام الملك آصفجاه السابع ملك الدولة الآصفية ، خلد الله ملكه وسلطانه .

عرض على أعتابنا السنية أن نبعث بمناسبة الترحيب بالبعثة الأزهرية بكلمة نافعة يذكرها تاريخ العصر الحاضر بلسان الفخر :

علماء الأزهر يشاهدون دائرة المعارف إحدى المؤسسات العلمية القديمة فى مملكتنا ، ذاع صيتها العلمى والأدبى فى مشارق الأرض ومغاربها ، وشيدت مطبوعاتها النافعة وتحقيقاتها الجديدة بناء علميا لمملكتنا شاهقا .

فنقدر هذه الخدمات العلمية حق قدرها، و نبجل خزائن الكتب والعلماء و المستشرقين الذين أفادوا دائرة المعارف بنفائس مكنوناتهم، و ندعو الله أن تفسح جمعية دائرة المعارف مجال أعمالها العلمية فى المستقبل، رامية الى مقاصد عالية وغايات سامية ، وكذلك ننظر بعين الاستحسان الى سائر الادارات العلمية المؤسسة فى الهند والبلاد الأخرى لاحياء العلوم والفنون ، لأن نشر العلوم والمعارف من أهم ما جعلناه نصب أعيننا .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ألقاها صاحب المعالى وزير المعارف والسياسة النواب مهدى يارجنك بهادر بالنيابة عن جلالته فى مؤتمر الدائرة المنعقد فى ٢٤ من شهر ذى الحجة سنة ١٣٥٥ هـ الموافق ٨ مارس سنة ١٩٣٧ م احتفالا بالبعثة الأزهرية

ابراهيم الجبالى

عزة النفس مع الحاجة

قال محمد بن الحنفية (هو ابن على بن أبى طالب من غير فاطمة الزهراء) : « ما كرمت على عبد نفسه إلا هانت عليه الدنيا » .

نقول : هذه كلمة نابغة ، فان فى كثير من الأحوال قد لا يصل الانسان الى مرغوبه إلا بالتسامح فى كرامته ، والتذرع بالملق والنفاق وما اليهما . فاذا كانت نفسه كريمة أبت عليه أن يشترى أعراض الدنيا بتدنيس نفسه بهذه الصفات ، فيدعها راضيا بما هو فيه من الخمول وشظف العيش متمثلا بقول الشاعر :

الحر حر عزيز النفس حيث ثوى ... كالشمس فى أى برج ذات أنوار

وهذا البيت فى تصويره الواقع ، مكانه من الابداع مستوى الحكمة السابقة ، فقد شبه النفس الحافلة بالفضائل ، الثرية فى العلم ، بالشمس المشرقة ، فكما لا يضير الشمس أن تكون فى أى برج من السماء ، كذلك لا يضير الانسان عزيز النفس أن يكون فى أية طبقة من طبقات الهيئة الاجتماعية .

وقال شاعر وقد أجاد :

لا أستعين باخوانى على الزمن ... ولا أرى حسنا ما ليس بالحسن

ذل السؤال وذل الشكر ما اجتمعا ... إلا أضرا بماء الوجه والبدن

له الثراء ولى عرض أوفره ... عنه ويقنعنى قوت يبلغنى

المحاماة قديما وحديثا

أول من أحيا طرائقها من الأمم — تطورها فى الأمة اليونانية
نجاحها فى الجمهورية الرومانية — تقاليد وأخلاق — أثرها فى المجتمع الانسانى

مقدمة وتمهيد :

يقترن حق الدفاع عن النفس والغير بأول حلقة من حلقات هـذا الوجود للانسان . فالانسان مفطور على حب المخاصمة والمجادلة تطبيقا لقوله سبحانه عز من قائل : « وكان الانسان أكثر شيء جدلا » . ولقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام « رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ، وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون » .

كان الناس فى بدء الخليقة يتقاضون بأنفسهم مستعينين أحيانا بأصدقائهم وذوى قرباهم ، فكان الخصم يحاط بأهل وده وأقربائه ، ويترافعون عنه بالتعاقب تبعا لا تفاق القاضى معهم على الطريقة الواجبة الاتباع فى مثل هذا الدفاع .

ثم تطور الأمر تطورا بعثت عليه ملابسات كل جيل ودعت اليه مقتضيات كل عصر . فكان لليهود فى زمن موسى عليه السلام رجال يشتغلون بما يشبه حرفة المحاماة اليوم أمام القضاء . وأظهر ظاهرة فى عصرهم حل المشاكل التى كانت تقوم عليها الخصومات بين الناس وفض ما بينهم من منازعات . وكانوا فى عملهم هـذا لايتقاضون ممن يدافعون عنه أجرا لأن حكومة ذلك العصر كانت قد جعلت لهم جعالة يتقاضونها من بيت المال على اعتبار أنهم عنصر قوى فى السلطة القضائية . فقد كان القضاة ينتخبون من بينهم بعد أن يمضى على الواحد منهم زمن يكفى لتكوين أهلية قضائية فيه ، وقد وجد عند المصريين والهنود والكلدانيين والفرس وأهل بابل رجال من أهل العلم والذكاء يلجأ الناس اليهم فى المشورة القضائية ، فكانوا أعلام تلك البلاد ومنارها إذا عميت السبل على الناس .

كان فيهم الخطيب الذى يخلب الألباب بسحر بيانه ، وفيهم البليغ الذى يدخل كلامه على القلوب بلا استئذان . وقد ظل الحال كذلك فى تلك الأمم حتى اخترع الفنيقيون فن الكتابة لتكون أداة للتخاطب وسبيلا الى التفاهم .

فكان بدهيا أن يحجروا على أولئك الرجال من هـذا الصنف الرشيد أن يترافعوا فى الخصومات فى ساحة القضاء إلا بالكتابة . وعلة ذلك الحجر أنهم خشوا أن المترافع يختلب

ألباب القضاة بسلامة منطقه وقوة بيانه ، واتساق حجته وبرهانه ، وجهورية صوته واتزانه ، حتى أن البعض كان يذرف الدموع سخينة ويرسل الصوت متهدجا إذا عن له أن يأخذ على القاضى سبيل تفكيره ، إرادة أن يوجهه فى سبيله ، وأن يقيده بتلك المؤثرات التى قد لا يجد القاضى عنها مفرا ولا حولا . ولما كانت الكتابة قد لا تتهيأ أسبابها لكثير من الناس وكان فى البلاد عاميون وأنصاف عاميين وأنصاف الأنصاف ، أوجبت الضرورة الملحة أن كل من يجهل القراءة والكتابة يستعين بمن يجيدها ويحذقها . ثم انتقل هذا الفن بعد ذلك من المصريين الى اليونانيين ، فأزهر فيها كما أزهرت جميع فروع العلم ، فانه ما من دولة نبغ فيها العدد الكثير من الفلاسفة والحكماء المشترعين مثل الذين نبغوا فى دولة اليونان .

وقد بلغت الشرائع المسنونة لديهم مبلغاً حفز الجمهورية الرومانية فى ذلك العهد إلى أن تبعث من لدنها بعوثا إلى البلاد اليونانية لتقتبس منها هذه الأنظمة وتلك القوانين فى مختلف مرافق الحياة العامة ، لتستنير باصولها وطرائق تفننها فى وضع قوانينها ، وكانت الفصاحة مهملة عند سواد الأمم ، فعنى بها اليونان وأضحت ذات أصول وقواعد ورواد فى مختلف أنحاء البلاد لا تنال إلا بالتلقى ، ولا تعرف حدودها ورسومها إلا بالمدارسة والعلم . وغدت لهم أساتذة برزوا فيها وبزوا قرناءهم فى الأمم الأخرى ، واتخذوا للخطابة منابر يرقون اليها ، ثم يتساجلون فيما بينهم الكلام والحجة ، ويتقارضون أبدع الأساليب وأملكها للقلوب وأفعلها بالنفوس . ودرج الخصوم على أن يستعينوا أمام محكمة تلك المدينة العظمى وسائر المحاكم المنبثة فى أنحاء البلاد ببعض مشاهير الخطباء ليؤدوا بهؤلاء حججهم فى ادعائهم ودفاعهم .

وقد بدأ هؤلاء الخطباء المحامون فى ساحة التقاضى عملهم بالقاء الخطب بانفسهم أمام المحاكم ، وكان الغرض من ذلك أن يستولوا على مشاعر القضاة بعد أن يكونوا قد مهدوا لموضوع خصومتهم بتلك المقدمة الرائعة التى تمسك بمشاعر القاضى وتوجهه توجيها خاصاً . واحياناً يقف القاضى عن إبداء رأيه إذا كان فى القضية خطيبان متماثلان فى القوة والدليل ، فهو يمسى حائراً بين طغيان موجتين متقابلتين يجد الباطل بينهما مدى فسيحاً وأملا رجيحاً . هكذا كان الخطباء الكبار من المحامين ، والأساتذة المشترعون (يتمستوكل وبركليس وأرستين) . كذلك كان أول من كتب مرافعة موكله ليتلوها ذلك الموكل بنفسه هو الأستاذ (أنطيفون) وتبعه فى ذلك الأستاذ ليزيلس وايزوكرات وديموستين ، وهذا لا ينفى أن يكون لهؤلاء أيضاً خطب بليغة جداً يلقونها بأنفسهم فى معرض الدفاع عن موكليهم ، وقد جمعوا بين فنى الخطابة والكتابة . وقد اشتهر الأخيران وهما الأستاذ (ايزوكرات وديموستين) شهرة مستفيضة . غير أنهما مع الأسف البالغ لم ينجوا من ملام للاعين على ما اقترفاه فى صميم مهنتهما ، فكثيراً ما حوكم (ايزوكرات) أمام المحاكم التأديبية فى اليونان على مخالفته لقوانين شرف المهنة . وكان اظهر تلك

المخالفات أن الحكومة عثرت على رسائل كتبها الى بعض موكليه يشير عليهم فيها أن يتخذوا وسائل غيرشريفة فى الانتصار على خصومهم ، وأولى تلك الوسائل أخذ الخصوم غيلة ، فلما تتابعت عليه الأحداث وتكشفت للناس أساليبه الملتوية وكثرت حيله فى كسب القضايا ، امتنع عن مزاولة صناعة المحاماة ، وا ثر أن يقبع فى بيته . وأما زميله الاستاذ (ديموستين) فانهم لاموه أشد الملام ، وانتصفوا منه للعدالة أبلغ انتصاف ، حين أخذوا عليه أن كتب دفاعين لخصمين فى قضية واحدة .

هذا وسنوالى لحضرات القراء ايراد شطر غير يسير عن تاريخ المحاماة وكرامتها وشرفها منذ القدم حتى الآن ، لنصل حلقة الماضى بحلقة الحاضر استتماما لأجزل الفوائد ، واستجماعا لأنبل الشوارد ، وخدمة للعدالة والمصلحة والقانون . فالى الغد القريب ؟ « يتبع »

عباس طه
المحامى الشرعى

كسب المال وبذله

أوصى قيس بن معد يكرب بنيه فقال : يابنى عليكم بهذا المال فاطلبوه اجمل الطلب ، ثم أخرجوه فى أجمل مذهب ، فصلوا به الارحام ، واصطنعوا به الكرام ، واجعلوه جنة لاعراضكم ، ووسيلة تصلون بها الى أغراضكم ، تحسن فى الناس مقالتكم ، فان بذله تمام الشرف ، وثبات المروءة ، وإنه ليسود غير السيد ، ويقوى غير الأيد ، حتى يكون فى الناس نبيلا ، وفى القلوب مهيبا جليلا .

وقال محمود الوراق الشاعر :

تمتع بمالك قبل الممات ... وإلا فلا مال إن أنت متا
شقيت به ثم خلفته ... لغيرك ، سحقا وبعدا ومقتا
يجود عليك بزور البكاء ... وجدت له بالذى قد جمعتا
وأوهبته كل ما فى يديك ... وخلاك رهنا بما قد كسبتا

وقال أبو الطيب المتنبي :

وأحسن شيء فى الورى وجه محسن ... وأيمن كف فيهم كف منعم
وأشرفهم من كان أشرف همة ... وأعظم إقداما على كل معظم
لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها ... سرور محب أو إساءة مجرم

تقرير بعثة الهند

— ٧ —

المنبوذون

إذا لمس جسم رجل من هندوس الطبقات العليا، أو لمست ملابسه، جسم رجل من المنبوذين أو ملابسه، أصبح جسم الهندوسى نجساً وكذلك ملابسه، ووجب عليه أن يطهرها جميعا، وأن يغتسل هو، بل يجب عليه فى بعض الأحيان أن يذهب الى حمام معترف به، على شاطئ الكنج المقدس، فيغتسل رسمياً وفقاً للتقاليد.

ومن المنبوذين طبقة لا يجوز الاقتراب منها، كما يجب عليهم أن يبتعدوا بأنفسهم عن هندوس الطبقات العليا مسافة محدودة (عشر ياردات أو أكثر) حتى لا تلوث أنفاسهم الهواء الذى تستنشقه الطبقات العليا، وحتى لا يلمس الهواء الملوث بملابس المنبوذين، ملابس الطبقات العليا فيلوثها؛ فاذا خرج منبوذ من هذه الطبقة عن هذه العادات، واقترب من هندوسى من الطبقات العليا، فانه يلوثه، ويعاقب المنبوذ على ما فعل عقاباً قد يكون صارما. ويوجد هذا الصنف من المنبوذين فى جنوبى الهند غالباً. والواقع أن المنبوذين يكثرون فى الجنوب، ويقلون نسبياً فى الشمال، كما تختلف القسوة فى المعاملة، فتزيد فى الجنوب، وتتضاءل فى الشمال.

لماذا احتمل المنبوذون هذا العسف؟

ظل المنبوذون يعانون هذا النوع من المعاملة المجحفة عصوراً لا تحصى؛ وقد كان من أثر مبادئ «مانو» أن سار هندوس الطبقات العليا وفق تعاليم دينهم، فعاملوا المنبوذين باحتقار، واعتبروهم أنجاساً، وتحاشوا الاتصال بهم وقد شاعت مبادئ مانو كذلك: ألا يتعلم المنبوذون، وأن يظلوا على جهالتهم الأبدية، حتى لا تتطرق الى بيئتهم اليقظة التى تدعوهم الى النزوع لتحسين حالهم؛ كما فرض مانو مجموعة من العقوبات القاسية على كل منبوذ يحاول أن ينال قسطاً من التعليم؛ وتقضى مبادئه أيضاً بأن يصب الرصاص المصهور فى أذنى المنبوذ الذى يسمع — ولو عن غير قصد — نصوص «الفيدا» وهى تتلى.

يظهر من ذلك أن الفكرة كانت متجهة الى اعتبار «الفيدا» كتابا بلغ من قدسيته أن أصبح مجرد استماع المنبوذ لتلاوته إهانة للكتاب نفسه، لا يمحوها إلا صارم العقاب.

ولـكن النية الحقيقية كانت تنطوى على أن يظل المنبوذون فى جهل مطبق وأمية لا مخرج منها . على أن الجاهل قد يستطيع فى وقت من الأوقات أن ينظم ثورة ، ولذلك كان من الضرورى أن تبتكر أساليب أخر لإخضاع المنبوذين ؛ فابتكر البراهمة مبدأ تناسخ الأرواح ، فدفعوا الناس بذلك الى الاعتقاد بأنهم ماولدوا أغنياء أو فقراء ينتمون الى بيئات عليا أو دنيا ، إلا جزاء وفاقا لما كانوا عليه فى الحياة التناسخية السابقة ، من خير أو شر ؛ وخير للرجل الذى يعيش اليوم — بدلا من أن يحسد صاحب مال أو جاه ، أو أن يحقد عليه — أن يتحمل المصاعب والامتهان بصبر وجـلد ، وأن يحاول أن يعيش عيشة راضية ، قوامها الاستقامة والاستسلام ، عسى أن يولد مرة جديدة فى مستوى أحسن من مستواه الحالى .

وخلاصة القول أن المنبوذين قد قنعوا بحظهم من الحياة للأسباب الآتية :

١ — حالة الفقر المدقع الذى يعانون ويلاته ؛ والفقر أكبر عامل على العجز .

٢ — الجهالة اللانهائية التى يعيشون فى كنفها .

٣ — اعتقادهم بتناسخ الأرواح .

٤ — شعورهم بالخنوع ، وجنوحهم الى الاستسلام .

وقد ظل المنبوذون على هذه الحال ، الى أن دخل المسلمون الهند فاتحين .

المنبوذون فى خلال الحكم الاسلامى :

إن لاعتناق الدين الاسلامى ، وجهود المسلمين فى هذه السبيل بالتبليغ ، قصة قائمة بذاتها ؛ فمن المعتقد أن أول من أسلموا فى تلك البـلاد كانوا معاصرين للنبى عليه الصـلاة والسلام ؛ وتروى فى (مالابار) قصة قديمـة جدا ، تذهب الى أن أحد ملوك الهند (راجا مالابار) قد شاهد معجزة شق القمر ، وأنه بدأ يتساءل عن سر تلك الظاهرة ؛ فقال له الفلـكيون فى بلاطه : « إن شخصية عظيمة قد ظهرت فى جزيرة العرب ، وإنها قد أتت بالمعجزات » ؛ وقد أيد أقوال هؤلاء الفلـكيين تجار من العرب ، كانوا يترددون على الشواطئ الجنوبية من الهند للتجارة . كما تذهب القصة الى أن الراجا أرسل بعض من يثق بهم الى بلاد العرب ليتحققوا صحة النبأ ، فذهب هؤلاء الى الجزيرة ومثلوا بين يدى النبى عليـه الصلاة والسلام ، ثم عادوا فقصوا على الراجا ما حدث ، فاعتنق دين الاسلام .

كما تذهب قصة أخرى الى أن بعض التابعين — رضوان الله عليهم أجمعين — وفدوا على (مالابار) فاسلم على يديهم جم غفير ؛ ومن هؤلاء التابعين مالك بن دينار ، وحبيب بن دينار .

وسواء أصحت قصة من هاتين القصتين أم لم تصح ، فما لاشك فيه أن المبلغين من المسلمين قد ظهر نشاطهم الاسلامى فى بلاد الهند منذ أقدم العصور ، وقبل أن يقوم المسلمون بفتح البلاد

بالسيف . وإن دخول الهنود فى دين الله أفواجا ، يعتبر من أقدم الأمور فى تلك البلاد . وكل مايمكن أن يقال إن سرعة دخول الناس فى ذلك الدين ، قد تفاوتت بين زمن وآخر ؛ ولكن مما لاشك فيه أنها لم تقف فى يوم من الأيام .

وقد قام بالدعاوة للاسلام على مر الأزمنة مشايخ الطرق ، والصوفيون . وفى مئات من الأمكنة المختلفة فى الهند ، لا تزال مقابر هؤلاء قائمة ، تشهد بما أبلوا فى سبيل الاسلام ، ولايزال الهنديون يحتفلون بموالدهم .

وقد كان دخول الناس فى دين الله فى بعض الامكنة ، بحيث إن قبائل بأكملها كانت هندوسية فاعتنقت الاسلام ؛ ولا نكاد نجد اليوم واحدا من رجال هذه القبائل على ديانة أجداده الأول من الهندوس .

أما القبائل الهندوسية الأخر ، فقد أسلم منها البعض ، وبقى البعض الآخر على ديانته القديمة . ولم تقتصر « عملية الاسلام » على طبقة من الهندوس دون طبقة أخرى ، بل عمت جميع الطبقات من البراهما الى السودرا .

وبمجرد أن أسلم هؤلاء ، وكانوا منبوذين فى الديانة الهندوسية ، ارتقوا الى مرتبة غيرهم من المسلمين على قدم المساواة ، بحيث لايستطيع اليوم أحد أن يميز بينهم وبين غيرهم ، بل إن كثيرا منهم يدعون اليوم أن أجدادهم جاءوا من بلاد العرب نازحين أو فاتحين ؛ ولا يتعرض مسلم كائنا من كان الى نقض هذه الدعوى .

وثمة أمر واحد لاشك فيه ، هو أن المسلمين لم يحاولوا قبل العصر الحديث ، أن يدخلوا المنبوذين خصيصا فى الاسلام ؛ ولو عنوا بذلك فى وقت من الأوقات ، لأسلم المنبوذون كافة منذ اجيال .

بعثات التبشير المسيحية :

وفد المبشرون المسيحيون على الهند ، قبل أن تتخذ الدول الاستعمارية أية خطوة فى سبيل الحصول على نفوذ سياسى ، ففى عصر الأمبراطور المغولى « جلال الدين أكبر » (١٥٥٦ — ١٦٠٥) ، تشرفت بعثة تبشيرية مسيحية بحضور حفلة البلاط . وقد اهتم الملك أكبر خان بالانجيل ، وأمر بترجمته الى الفارسية ، وتزوج زوجا مسيحية ، بنى لها كنيسة بالقرب من عاصمة ملكه فى أجرا ، ولا تزال الكنيسة قائمة الى الآن بالقرب من مقبرة الامبراطور فى سكندرا .

حدث بعد ذلك أن وفد على الهند كثير من الأوربيين للتجارة ، واستوطنوا كثيراً من الأمكنة فيها ، فوجد المبشرون الفرصة سانحة ، وبدءوا يوطنون أنفسهم على الاقامة ، ثم مالبثت صوالح الأوربيين الاقتصادية أن تلاطمت ، فتحولت الى معارك سياسية ، فانهدمت سياسة

الهولنديين رأسا على عقب ، وانسحب البرتغاليون من الميدان ، ولم يفوزوا إلا بمستعمرة صغيرة على الساحل بالقرب من (جوا) . أما المعركة السياسية بين الانجليز والفرنسيين فقد ظلت قائمة زمنا طويلا ، استطاع البريطانيون فى نهايته إجلاء الفرنسيين بعد نزاع دموى طويل ، فقنعوا بعده مضطرين برقعة من الأرض على ساحل خليج بنغاله (بندشيرى) ، وبثغر صغير اسمه (ماهو) على ساحل (مالابار) فى الجنوب الغربى ؛ وبذلك آلت هذه البلاد الشاسعة الأطراف الى البريطانيين .

وبينما كانت الدول جادة فى إحراز النفوذ السياسى ، كان المبشرون يمكنون لأنفسهم فى مختلف بلاد الهند ، فأنشأوا المدارس والكليات والمستشفيات ، وبنوا الكنائس ، وأسسوا مراكز للتبشير ، وترجموا الانجيل الى معظم لغات الهند ، ووزعوا الملايين من نسخه ، فكانوا واسطة الثقافة لمئات الألوف من الوطنيين رجاء أن يحولوهم الى المسيحية ، وقد نجحوا فى اجتذاب قليل من الناس الى حظيرتهم ، وعلى الأخص من هندوس الطبقات العليا ، ولكن المنبوذين كانوا هم الهدف المقصود ، ولذلك ركز المبشرون جهودهم فى هذه الناحية . و يصح أن يقال : إن بعثات التبشير المسيحية قد جنت ثمرة طيبة فى كفاحها الطويل بين المنبوذين .

على أن كل ما يعنينا من ذلك هو أن إدخال أساليب المدنية الغربية على يد المبشرين قد أحدث يقظة عامة بين طبقات المنبوذين ، إذ أتيحت لهم الفرصة — لأول مرة فى التاريخ — أن يتلقوا تعليما وتثقيفا ، فوضع المبشرون بذلك ، الأساس الذى يستطيع المبلغ الاسلامى أن يشيد عليه ما يريد .

حكومة الهند وتعليم المنبوذين :

وبتأسيس الأمبراطورية البريطانية فى الهند ، انتشر التعليم الغربى ، إذ قامت الحكومة بانشاء المؤسسات العلمية فى شتى الأمكنة ، فكان نفعها أعم من نفع مدارس المبشرين . ولما أتيحت الفرصة للمنبوذين ، لدخول هذه المدارس والكليات ، ازداد تفتح أعينهم ، وبدءوا يشعرون بسوء حالهم فى الماضى ، وأنهم قد سلبوا حقوقهم الانسانية قهراً . وقد اقتنعوا بأن ما أصابهم على ممر العصور والأجيال من المحن ، كان السبب فيه هندوس الطبقة العليا ، وأنهم لايزالون يرزحون تحت هذا العبء الثقيل ، ولذلك لم يقنعوا بحظهم من الحياة . وقد هدد كثير منهم — فى مناسبات شتى — بأن يهجروا الديانة الهندوسية ، ولكنهم كانوا يقنعون كلما استرضاهم الهندوس بأقل منحة .

دعاة إصلاح الحال بين الهندوس :

إزاء هذه الحال ، بدأ بعض الهندوس من رجال الطبقات العليا ، ممن تثقفت عقولهم تثقيفا

سياسياً ، يدركون الخطر الجاثم ؛ وهو أن المنبوذين قد يتركون حظيرتهم للارتماء فى أحضان المسيحية أو الاسلام ؛ وبذلك يضعف مركز البيئة الهندوسية من الناحية السياسية ، إذ ينقص عددهم بخروج المنبوذين من حظيرتهم .

لذلك قام هؤلاء بتمثيل « دور » المصلحين ، وبدءوا يعملون على رفع مستوى المنبوذين ؛ وقد بذل المستر « غاندى » جهودا عظيمة فى هذه السبيل ، فحمل المؤتمر الوطنى (كونجرس) على أن يجعل من بين مبادئه : إلغاء النبذ ، وجرد حملة كبيرة لهذه الدعاوة .

وكان من بين ما يعمل له هؤلاء المصلحون ، أن يحصلوا للمنبوذين على حق دخول المعابد ، وقد اتخذت فى هذه السبيل الخطوات الآتية :

١ — قدم للمجلس التشريعى فى دلهى مشروع قانون ، لو وافق عليه المجلس لأصبح منع المنبوذين من دخول المعابد جريمة يعاقب عليها القانون ؛ وقد قام الهندوس من الطبقات العليا ، فأحدثوا ضجة كبيرة ضد هـذا المشروع ، اضطر معها مقدمه الى سحبه من المجلس ، وبهذا فشل المشروع .

٢ — جرد المنبوذون حملة تلو أخرى لاقتحام معبد « راما » فى بلدة « نازك » بإقليم « بومباى » ، ولـكن أقفلت أبواب المعبد فى وجوههم ، وكان البوليس يحمل على المنبوذين ويقصيهم عن أبواب المعبد ، ولما استمرت حملات المنبوذين أشهراً دون جدوى ، عدل عنها ، ثم قامت حملة أخرى من نوعها لاقتحام معبد « فاى كام » بإقليم « ترافنكور » ، وكانت النتيجة أن ضرب المنبوذون وطردوا بعيداً عن أبواب المعبد .

٣ — قام المؤتمر الوطنى بدعاوة واسعة النطاق ، لحل مشكلة المنبوذين والمعابد ، ولـكن بغير جدوى أيضا .

مؤتمر المائدة المستديرة :

حدث فى خلال الحرب الـكبرى ، أن أدركت الحـكومة البريطانية احتمال قيام صعوبات فى الهند بشأن التجنيد وجمع المـال ، إذ أن بعض زعماء المؤتمر الوطنى هددوا برفض مساعدة انجلـترا جزاء عـدم اهتمامها بمطالبهم الخـاصة بالحـكم الذاتي ؛ ففى سنة ١٩١٧ أعلن المستر مونتاجيو ـ وكان وزير الهند فى الحـكومة البريطانية إذ ذاك ـ أن الهند ستمنح نظام حكومة ذاتية مسئولة ؛ ووفاء بذلك العهد ، منحت الهند فى سنة ١٩١٩ بعض امتيازات دستورية ، كما وعدت بأن تمنح امتيازات أخر بعـد عشر سنوات ؛ وطلب الى الهند أن ترسل الى لندن مندوبين يمثلون كافة الطبقات والبيئات ، لعقد مؤتمر المائدة المستديرة ، لبحث ما يمـكن أن يمنح لبـلادهم من الحقوق السياسية بعـد ذلك ؛ وقد وقع اختيار حكومة الهند على نائبين

من طبقات المنبوذين ، كان أحدهما « الدكتور أمبدكار » المحامى فى بومباى ، وحضر « المستر غاندى » المؤتمر نائبا وحيدا ومفوضا عن المؤتمر الوطنى ؛ وقدطلب ممثلو الأقليات أن يحتفظ لكل من البيئات بعدد خاص من المقاعد فى المجالس النيابية ، وأن تجرى الانتخابات على أساس طائفى .

وقد عارض « المستر غاندى » فى كل من الفكرتين ، وكانت كل آماله ألا ينفصل المنبوذون عن بقية الهندوس ، وأن تبقى حقوق الجميع مشتركة ؛ وقد طال الجدل والنقاش لحل هذه المعضلة ، وأخيرا اتفق الزعماء على تحكيم « المستر رمزى مكدونالد » رئيس الوزارة البريطانية إذ ذاك ، فكانت نتيجة هذا التحكيم : أن قرر المستر مكدونالد نظام التمثيل الطائفى ، وحدد عدد المقاعد التى تعطى لكل طائفة ، كما قرر مبدأ الانتخاب الطائفى ؛ فغضب جمهور الهندوس لهذا القرار ، واعتزم « المستر غاندى » أن يصوم حتى الموت ، إذا لم يلغ قرار التفرقة بين المنبوذين وبقية الهندوس ، لأنه اعتبر قرار المستر مكدونالد منطويا على شطر الطائفة الهندوسية شطرين .

ولما بدأ غاندى فى تنفيذ قراره بالصيام فى (بونا) ، هرع زعماء الهندوس من كافة أنحاء الهند إليها ، وجمعوا زعماء المنبوذين ـ ومنهم الدكتور أمبدكار ـ وتوسلوا إليه بكافة الوسائل أن يوافقوا على إدخال تعديل على قرار مستر مكدونالد ، الذى عرف باسم « المنحة الطائفية » ؛ وأخيرا وصل الجميع الى مايسمى « عهد بونا » ؛ وهو القائل بأن يزاد عدد مقاعد المنبوذين فى المجلس زيادة طفيفة ، فى مقابل أن تكون انتخاباتهم فى بعض الأمكنة مستقلة بهم ، وفى البعض الآخر مشتركة بينهم وبين الهندوس ؛ وعندئذ أقلع غاندى عن صيامه ، ونجا من الموت . على أن الهندوس مايزالون غير قانعين ، وهم الى اليوم حاقدون على المنحة الطائفية .

جمعية خدام المنبوذين العامة :

سبق القول بأن مستر غاندى بذل جهدا عظيما للقضاء على النبذ فى الهند ، محاولا تحسين حال المنبوذين . ويجدر بنا أن نذكر : أنه قام بسياحة جمع فى خلالها نحوا من ٢٥ لاك روبية (١٩٠ ألف جنيه تقريبا) لتحسين حال المنبوذين . وقد أنشأ إذ ذاك « جمعية خدام المنبوذين العامة » ، كما أنشأ لها فروعا فى معظم مدن الهند الهامة . ومن برنامج هذه الجمعية : إنشاء مدارس مجانية لتعليم أبناء المنبوذين القراءة والكتابة ، ومبادئ الحساب ، وبعض الصناعات ، وكذلك إنشاء مستعمرات « محلات » يتعودون فيها المعيشة النظيفة .

ومن مبادئ هذه الجمعية أيضا : مساعدة الكبار من المنبوذين على كسب قوتهم ، ومساعدة شبانهم الذين يتلقون العلم فى المدارس والكليات .

وقد شجع مستر غاندى بعض أصدقائه الأغنياء على إنشاء المصانع بارشاده ، لتشغيل

المنبوذين العاطلين ؛ ومعظم هذه المصانع من النوع الذى لا يحتاج الى رأس مال كبير ، عند ما يفكر الصانع فى الاستقلال بالعمل . وقد زرنا بعضا منها فى (واردا) ، فشاهدنا صناعة الورق والغزل والنسيج .

مؤتمر يولا :

وإذا كان المنبوذون قد نالوا حقوقا تشريعية — أشرنا إليها سابقا — فإن حالهم الاجتماعية والاقتصادية ظلت على ما كانت عليه من سوء ؛ ولا يكاد يمضى يوم حتى يحدث ما يذكرهم بشديد الاحتقار الذى يكنه لهم الهندوس .

فمن أمثال ذلك ما حدث فى سنة ١٩٣٥ ، إذ انتخب الدكتور أمبدكار — وهو من كبار المحامين ، ومن خيرة المثقفين — عميداً لكلية الحقوق فى بومباى ، فثارت ثائرة الهندوس ، لا لشىء إلا لأنه منبوذ ؛ وليس هذا إلا مثلا واحداً من آلاف مما يحدث فى كل يوم ، وفى كل مكان ، مما يطول بنا ذكره .

عندئذ أدرك المنبوذون أن موقفهم يتلخص فيما يلى :

١ — حاولوا لدى الهندوس ، أن يعاملوهم كآدميين ، ولكن بغير طائل .

٢ — طالبوا الحكومة مرة تلو مرة بتحسين حالهم ، ولكنها لم تكن لتتدخل فى مسائلهم ، إذ اعتبرتها مسألة دينية .

٣ — حاول المؤتمر الوطنى الهندى ، بكل الوسائل الممكنة ، أن يقضى على النبذ فلم يستطع .

٤ — أخفق الزعماء المصلحون من الهندوس ، فيما أخفق فيه المؤتمر .

٥ — حاول المنبوذون أن يصلوا بالطريق الإيجابية الى دخول المعابد ، فاستهدفوا لأفظع أنواع الإهانات ، ومع ذلك لم ينجحوا .

عندئذ دفعهم الفشل فى كل هذه الوسائل ، الى الجزم بأنه لا بد من عمل يقوم به المنبوذون ، لإنقاذ أنفسهم من هذه الحال المعيبة ، ففكروا فى تغيير ديانتهم .

ففى اكتوبر سنة ١٩٣٥ عقد مؤتمر المنبوذين فى مكان يسمى «يولا» بالقرب من «نازك» فى إقليم « بومباى » حضره عشرة آلاف منهم ، وتولى رياسته الدكتور أمبيدكار ، وألقى خطابا شاملا ، طلب فيه الى الحاضرين أن يتبعوا الطريق الوحدة لعلاج مرض «النبذ» المزمن ، ألا وهى ترك الديانة الهندوسية بتاتاً ؛ وقد وافقه على ذلك الحاضرون بالإجماع .

فلما أن نشرت الجرائد السيارة هذا القرار ، اضطرب له الهندوس أيما اضطراب ، وانهالت

الرسائل من كافة الزعماء ، يطلبون الى الدكتور أمبيدكار التانى فى غير غضب ولا عجلة ، إذ أن حال المنبوذين ستتحسن قريباً جـداً . أما بقية طبقاتهم فقـد توالت الاجتماعات بينهم فى كافة أنحاء الهند ، وأخذ من الحاضرين تأييد إجماعى لرأى الدكتور أمبيدكار .

وقد كان من شأن هذا القرار ، أن بعث النشاط فى نفوس زعماء الديانات الأخر ؛ فأرسل بعض الزعمـاء المسلمين الى الدكتور أمبيدكار ، يدعونه الى اعتناق الاسلام ، ويطلبون إليه أن ينصح لـكافة المنبوذين بأن يحذوا حذوه ، وقد اجتمع بعض زعماء المسلمين به شخصيا لهذا الغرض ، كما حاول المسيحيون أن يؤثروا فيه لصالح ديانتهم ، فى حين حاول جماعة « السيخ » ان يضموه الى حظيرتهم .

وفى ديسمبر سنة ١٩٣٥ دعا مهراجا باتيالا (وهو من أتباع ديانة السيخ) الدكتور أمبيدكار للقدوم عليه ، والنزول فى ضيافته ؛ وهناك اتصل بزعماء السيخ ، ودخلوا معه فى مفاوضات ؛ فاتفق على أن ترسل بعثة من مبشرى السيخ الى أقاليم المنبوذين للعمل بينهم ، واكتتب السيخ بمبلغ ٣ لاك روبيـة (٢٢٥٠٠ جنيـه تقريباً) ، وأرسلت بعثاتهم التبشيرية الى الولايات الوسطى والهنـد الجنوبية . وفى ابريل سنة ١٩٣٦ تضخم رصيد السيخ لتحويل المنبوذين الى دينهم ، حتى صار ٧ لاك روبية (أى ٥٠٠ ٥٢ جنيه تقريباً) . وقـد اتصل بنا — بعد عودتنا الى مصر — أن نشاطهم بدا واضحاً فى إقليم ناجبور ، فى شهر ابريل الماضى .

الحركة فى جنوبى الهند :

يطلق اسم « كيرالا » على رقعة من الأرض فى جنوبى الهند ، تشمل « مالابار » و « كوشين » و « ترافنكور » ؛ ومعنى « كيرالا » : أرض جوز الهند . وفى هذه البلاد جالية من المنبوذين تسمى (إزهافا Ezhavise) يقال إنهم يبلغون ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة ، ومنذ اثنتى عشرة سنة أعلن زعيم هـذه الطائفة أن طائفته اعتزمت تغيير دينها لتنجو من النبـذ ، فعقدت لهم مؤتمرات ، ولـكنهم لم يصلوا الى نتيجة ؛ ومنذ خمس سنوات قام فيهم زعيم جـديد ينادى بتغيير دينهم للدخول فى دين الإسلام ، ولـكن سرعان ما أخفت صوته .

فلما ارتفع صـوت الدكتور أمبيدكار ينـادى بتغيير الدين ، وأصبحت الحـركة عامة فى بيئات المتعلمين من المنبوذين — فى كثير من أنحاء الهند — نشطت قبائل الجنوب التى ذكرناها ، فعقدت فى فبراير سنة ١٩٣٦ مؤتمراً من منبوذى « ترافنكور » ، قرر ترك الديانة الهندوسية ؛ وقد أيد هذا القرار بآخر أصدره مؤتمر جديد فى مايو سنة ١٩٣٦ . وفى هذا المؤتمر الأخير خطب عظيمان من مسلمى البنجاب : أحـدهما الأستاذ « خالد لطيف جابا » وقد كان لخطابه أثر عظيم . وقد طاف بأنحاء ترافنكور ، يصحبه الدكتور طايل Dr Thail

زعيم المنبوذين هناك ، فخطب فى كثير من الأمكنة ، وهيأ جوا مناسبا للاسلام . وكان الدكتور طايل نفسه مبشراً بالاسلام ، فأعطى الأستاذجابا بياناً لينشره فى صحف الأقاليم الشمالية ، فلما أن نشرت الصحف هذا البيان ، وقرأه المهتمون بشئون الاسلام فى الهند ، تقدم الأستاذ غلام بهيج نيرانج ، فكتب الى الدكتور طايل ، ثم ذهب الى الجنوب برفقة بعض ذوى المكانة من المسلمين (وكان ذلك فى أواخر يوليه سنة ١٩٣٦) وهناك قابل الدكتور طايل وقضى معه أياما عدة ، كان لها من الأثر أن صمم على إعلان إسلامه ، وتم ذلك فعلا فى ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٦ . وقد أسلم اثنان وثلاثون من منبوذى الجنوب ، بعد إسلام الدكتور طايل الذى سمى نفسه « كمال باشا طايل » ؛ وبعد إسلامه طاف مع الأستاذ « نيرانج » بكوشين ومالابار طوافاً خلق جواً مناسبا للاسلام . ومنذ ذلك الحين أخذ الناس يدخلون فى دين الله بين آن وآخر . ولا تزال جمعية « أنجومان تبليغ الاسلام » بأمبالا ، جادة فى تنظيم أعمال التبليغ فى الجنوب .

راجا ترافنكور يأمر بدخول المنبوذين فى المعابد :

راع الهندوس فى هذه الامارة انتشار الاسلام بها حديثاً ، فحدث فى ديسمبر الماضى — بينما كانت البعثة فى طريقها الى الهند — أن أعلن الراجا ، وهو هندوسى ، جواز دخول المنبوذين فى المعابد التى تديرها الحكومة (تاركا المعابد التى تديرها أشخاص أو هيئات) .

وقد امتدح زعماء الهندوس — ذوو الخبرة السياسية فى كافة أنحاء الهند — ذلك التصرف وطلبوا الى الحكام الهندوس ، فى غير هذه الامارة ، أن يقتدوا براجا ترافنكور ، ولكن الهندوس المتعصبين رفعوا الصوت عاليا بالاحتجاج على ما جرى ، ولا تزال المشكلة متفاقمة ، ولكن يبدو لنا أن هذه الحركة التى قصد بها الى مصالحة المنبوذين والهندوس قد كتب لها الفشل ، وسيحكم الزمن وحده فيما إذا كانت أبواب المعابد ستفتح على مصراعيها أم لا ، وفيما إذا كان مجرد حق دخول المعابد سيقنع المنبوذين ويثنيهم عن ترك الديانة الهندوسية أم لا .

الدكتور أمبدكار :

لقد اشتهر الدكتور أمبدكار بأنه أول زعيم ذى مكانة بين المنبوذين ، استطاع أن يعلن أن لامندوحة لهم من ترك الديانة الهندوسية واختيار دين آخر يكفل لهم الحرية والاخاء والمساواة ، وقد ذاع صيته ـ بهذه المناسبة ـ حتى تجاوز حدود الهند الى مصر وأوربا وأمريكا ، وحتى لقد أصدرت مجلة تبشيرية شهرية عدداً خاصا ، على غلافه صورة للدكتور أمبدكار ، ولقبته « لنكولن الهند » أى محرر الهند ؛ واشتمل هذا العدد على ترجمة لحياته ، وتفنن بمدحه ، بأسلوب بارع .

على أننا قد سمعنا الكثير على الدكتور أمبدكار ، فقال قائلون : إنه يتلاعب بصوالح المنبوذين فيساوم عليها بين أصحاب الديانات المختلفة ، ولايصرح تصريحا حاسما بالدين الذى اختاره لهم ، بل يسلك فى ذلك سلوك الوسطاء المحترفين .

ومن الشواهد التى رويت لنا على ذلك : أنه عند ما ذهب فى سياحته الى الجنوب لعقد مؤتمر للمنبوذين ، أضافه وجماعته موظف مسلم كبير ، ثم ذهب به فى سيارته الى مقر المؤتمر ، وهو يعلم أنه سيعلن إسلامه فيه ، فاذا بأمبدكار يفاجئه بالاعتذار من إعلان اختياره دين الاسلام ، ويعلل ذلك بأنه يخشى إفلات المنبوذين من يده ، إذابادرهم بهذا الاعلان قبل أن تنضج الفكرة عندهم .

وحدث أن ذهب الدكتور أمبدكار الى المؤتمر العام لمبشرى السيخ ، حيث رفعوا من شأنه ، وتوطدت علاقته بهم ، وخطب فى مؤتمرهم ، فقال عن ديانتهم : إنها ديانة لا طباقات فيها ؛ عندئذ كتب إليه نيرانج خطابا ألحق به بعض مقطوعات من الجرائد مما كتبه السيخ ، مثبتا أن ديانتهم لم تنج من نظام الطبقات ، شأنها فى ذلك شأن الديانة الهندوسية سواء بسواء .

وزاد الأستاذ نيرانج على ذلك ، فدلل للدكتور أمبدكار على أن السيخ أنفسهم ليسوا إلا هندوسا ، وأن نظام النبذ منتشر بينهم ؛ ولكنه لم يحظ برد على خطابه .

وقد قرر لنا الأستاذ نيرانج أن الدكتور أمبدكار عقد عهدا سريا مع زعيم هندوسى ، هو الدكتور منجى ، على ألا يتحول المنبوذون إلا الى ديانة السيخ ، إذا أصر الهندوس على حرمانهم من الحقوق السياسية التى نالوها بالمنحة الطائفية .

وقد اعترض المستر غاندى وغيره من زعماء الهندوس على هذه الاتفاقية ، فى حين قام زعيم من المنبوذين هو « م . ك . راجا » فنشر على الملأ المكاتبات السرية الخاصة بهذا الموضوع ، وهنا انكشفت سياسة الدكتور أمبدكار ، ويقال إن شأنه قد قل فى نظر الجمهور وخاصة المنبوذين . هذا وإن نشاطه قد تضاءل فى الأيام الأخيرة ، ويعلل بعضهم ذلك بالحرب الانتخابية التى أخذت على الجميع نشاطهم فى إبانها .

الحركة الانتخابية وأثرها :

لقد أثرت المعركة الانتخابية فى الحركة أيما تأثير ، ونلخص ذلك فيما يلى :

١ — رشح كثير من زعماء المنبوذين أنفسهم للانتخابات الاقليمية ، ولذلك وجب عليهم أن يقفوا أوقاتهم وجهودهم ، ونشاطهم لها .

٢ — صعوبة قانون الانتخاب الخاص بممثلى الطبقات المنبوذة ، ذلك بأن المنبوذين وحدهم يرشحون عدداً منهم عن الدائرة الواحدة (٤ أو ٥) ، وبعد ذلك تدور الانتخابات العامة لانتخاب واحد فقط من هؤلاء ، وفى هذه الانتخابات يحق للهندوس ، بمقدار ما يحق

للمنبوذين ، أن يعطوا أصواتهم . ونتيجة ذلك أن المرشح المنبوذ — إذا لم يفز بالتزكية — يظل محتاجا الى تاييد الهندوس ، وهم لن ينتخبوا مرشحا يعلمون عنه أنه من أنصار الخروج على الديانة الهندوسية ، لهذه الأسباب تقاعس كثير من زعماء المنبوذين عن حركة تغيير الدين ، ولا يساهم فيها الآن إلا من لا تهمهم عضوية البرلمان . وعلى ذلك يمكن أن يقال إن المعركة الانتخابية قد أضرت — ولو الى حين — بالحركة التى يرمى بها المنبوذون الى تغيير دينهم .

على أن معركة الانتخابات قد أسفرت عن نجاح كثير من زعماء المنبوذين الذين كانوا فى نشاط جم فى حركة تغيير الدين ، كما أسفرت عن فشل البعض الآخر .

ولما كانت مدة النيابة خمس سنوات ، وكانت الكراسى البرلمانية موزعة توزيعا طائفيا ، فان أولئك الذين نجحوا ، يحتمل كثيراً أن ينصرفوا عن حركة تغيير الدين ، لئلا تسقط عنهم عضوية البرلمان التى يعلقون عليها أهمية كبرى .

أما أولئك الذين لم ينجحوا فى الانتخابات ، فقد كتب عليهم — وفقا لتقاليد بلادهم — أن يندفعوا فى حركة تغيير الدين ، إذ خلا لهم الميدان بخروج منافسين لهم الى دوائر البرلمان ، وبذلك كسبت الحركة وخسرت فى وقت واحد !

(يتبع)

الى حضرات المشتركين

بمناسبة انتهاء السنة الثامنة للمجلة ترجو إدارة المجلة حضرات المشتركين معاونتها على ضبط حساباتها بأداء بدلات اشتراكهم الى حضرات وكلائها ، وتامل أن يجد وكلاؤها منهم مثل ما وجدوه فى السنين الماضية من عناية ووفاء .

وقد نشرنا أسماء حضرات الوكلاء فى الصفحة الثالثة من الغلاف .

كتب قيمة

فؤاد الأول :

وضع حضرات الأساتذة الأجلاء: عبد العزيز الأزهرى افندى، وعلى عبدالله سرحان افندى، ومحمد مجاهد افندى ، تاريخا مطولا لملك مصر العظيم فؤاد الأول يقع فى نحو ٤٥٠ صفحة ، وإنه لعمل عظيم القيمة ، فان من يعلم أن جميع ما حصلته مصر من النظم الدستورية ، وكل ما دخلت فيه من التطورات السياسية ، تم فى عهد هذا العاهل الكبير ، يدرك أن الكتاب الحاوى لتاريخه يشتمل على تاريخ جميع هـذه التطورات الاجتماعية . ومما زاد هـذا التاريخ قيمة أن حضرات واضعيه لم يضنوا بالتوسع فى إيراد تواريخ هذه الشئون الهامة . فجاء كتابهم تاريخا حيا لوطنهم ، فى عهد يعتبر بعثا حقيقيا لمصر الحرة المستقلة .

أعدل الموازين فى تبيان حقوق الوارثين :

إن مسالة الوراثة من المسائل التى تهم الناس كافة ، ويهم أكثر الناس أن يكونوا على علم بها لما تتصل بحياة أسرهم اتصالا وثيقا ، وأنى لهم هذا العلم إذا راموا استمداده من الكتب الفقهية ، فتجدهم يضطرون أن يسألوا أهل العلم عنها ، وقد يتفق أنهم لايصادفون بها خبيرا . فانتدب فضيلتا الاستاذين الجليلين الشيخ محمد حسين النجار والشيخ أبو زيد شلبى المدرسين بمعهد أسيوط الدينى بهذه الحاجة العلمية ، فوضعا فيها رسالة فى نحو ٢٨ صفحة جعلا فيها القواعد الفقهية الورادة فى الوراثة فى أُطر ، والتطبيقات خارجها ، فجاءت رسالة حاوية لجميع حالات الوراثة يجد حاجته منها كل مستطلع بدون تكلف . ولو عمد العلماء الى كل مسائل الفقه فوضعوا لها أمثال هذه الجداول ، لأصبح العلم على طرف الثمام من طالبيه . فرحى لهذين العالمين العاملين مرحى !

السمير الواعظ — علم . أدب . أخلاق . تاريخ . وعظ . اجتماع . قصص

هذا كتاب يقع فى ٢٨٥ صفحة لفضيلة الأستاذ النابه الشيخ محمد محمد يوسف إمام مسجد الريدانية دقهلية . كتب فى مقدمته ما يأتى :

« وبعد فإنى أتقدم الى القارىء الكريم بذلك السفر الجامع لشتات ما تفرق فى بطون الكتب ، والذى سيرى منه موردا عذبا ، وأنيسا له فى وحدته ، وسميرا واعظا فى غفلته ، ورفيقا مواسيا فى غربته .

« بذلت فى عمله زهرة الشباب ، وجمعت فيه ما لذ وطاب ، وسهرت فيه طوال الليالى ،

وراجعت من أجله أمهات كتب الأدب والدين والأخلاق ، حتى برز والحمد لله الى عالم الوجود طرفة نفيسة وكتابا قيما » .

وقد وفى الاستاذ بما ذكر ، فله الشكر على ما صنع .

جمال الدين الافغانى باعث النهضة الفكرية فى الشرق :

هو أحفل كتاب بتاريخ حياة هذا الفيلسوف الاسلامى الجليل . وضعه الاستاذ الفاضل الشيخ محمد سلام مدكور الطالب بكلية الشريعة . فقد جمع فيه كل ما كتب فى جمال الدين من البحوث والتحليلات ، واستوعب كل ما حدث له من الحوادث ، وكل ما عمله فى حياته الفلسفية والسياسية ، فلم يدع لمن يريد التوسع فى معرفة سيرة هذا الرجل النابغة حاجة الى المزيد.

فنرجو لهذا الكتاب الرواج العظيم .

إحياء علوم الدين للامام أبى حامد الغزالى .

إن لهذا الكتاب من الشهرة المستفيضة ما يتفق وسمو موضوعه ، وحسن أسلوبه ، وسطوع أدلته ، ولا غرو فهو تأليف مَن أجمع أهل العلم على تسميته بحجة الاسلام ، وهو لقب لمن يتأمل فيه عظيم . ولقد رثت مؤلفات ، وأخلقت أساليب ، وابتذلت عبارات ، وخاصة فى نظر العقول المتمردة فى العصر الحديث ، ولكن هذا الكتاب لا يزال فى جدته الأولى حجة دامغة لسمو التعاليم الاسلامية ، وصلاحيتها لكل زمان ومكان ، معتقدات وعبادات ومعاملات .

كان هذا الكتاب لا تزال تتولاه المطابع الأهلية بالطبع ، فكان العصريون لا يقبلون عليه ، ولكن لجنة نشر الثقافة الاسلامية تولت طبعه على الطراز الشائق الحديث ، مضافا اليه تخريج الحافظ العراقى ، فجاء رائعا فى موضوعه ، جميلا فى طبعه ، معجبا فى وضعه .

تم طبع سبعة أجزاء منه ، والهمة مبذولة فى طبع الباقى . تخابر فى الحصول عليه (لجنة نشر الثقافة الاسلامية) بشارع الناصرية رقم ١٣ بالقاهرة .

تاريخ الفن المصرى القديم :

اشتهرت مجلة الهلال باصدار ملاحق تنتخبها من عيون الموضوعات العلمية والفنية . وقد أصدرت أخيرا منها ملحقا بالعنوان المتقدم ، تأليف الأستاذ النابه محرم كمال الأمين المساعد بالمتحف المصرى . وقد تصفحناه فوجدناه يأتى على تاريخ الفن المصرى تفصيلا ، محلى بالصور البديعة . فهذا الكتاب فى نفسه يعتبر قطعة علمية فنية لا يجوز أن تخلو منه مكتبة مصرية .

فنشكر مجلة الهلال على هذه الخدم المتوالية للعلم ، ونرجو لها المزيد .

الفهرس العام

للسنة الثامنة (١٣٥٦ هـ) من مجلة الأزهر

المقالات

الفتاوى

الخطأ والصواب

ص	س	خطا	صواب
٩١	٢٢	طسم	حم
٩٦	٣	ويريدن	ويريدون
٩٧	٢٧	بالرحمة	بالمرحمة
٥٦٦	١٢	خُلق	خلق

and on the manner of her perfoming the ghusl, and taking a perfumed rag [1] to wipe the last traces of blood.

We are informed by Yahyâ, who had it from Ibn cUyainah, through Mansûr b. Safiyyah, through his mother, through cA ishah that :

A woman [2] once questioned the Prophet (Allâh bless him and give him peace) about the manner of her perfoming the ghusl after her courses. He prescribed to her the manner in which she should wash herself, adding: "Take a perfumed rag and purify thyslef with it." "How am I to purify myself with it?" replied she. "Purify thyself with it," said he. "How ?" asked she again. "Good gracious !" replied he, "Purify thyself."

I accordingly drew her asid to me, and told her to wipe away the last traces of blood with it. [3]

تطهرتْ من المَحيض ، وكَيفَ تَغتَسلُ وتَأخذُ فِرصَةً مُمَسَّكَةً فَتتَبَّعُ أثرَ الدَّمِ :

حدثنا يحي قال حدثنا ابن عيينة عن منصور بن صفية عن أمه عن عائشة :

«أنّ امرَأةً سَألتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عَنْ غُسْلها مِنَ المَحيض ، فأمَرَها كَيفَ تغتَسل قالَ : خذِي فِرْصةً مِنْ مِسك فتَطَهَّرى بها ، قالتْ : كيفَ أتطهَّر؟ قال : تطهَّرى بها ، قالتْ : كيفَ ؟ قالَ : سبحانَ اللهِ تطهَّرى ! فاجتَبذْتُها إليَّ فقلْت تتبَّعى بها أثرَ الدَّمِ» .

---

1. ممسكة has also the meaning of old or worn.

2. The woman in question was Asmâ• bint Shakal, who was known as the spokeswoman of her sex (خطيبة النساء) . The prophet's reticence was due to embarrassment as will be seen in the following hadîth. cAsishah, in her capacity as teacher of the faithful women, took upon herself to draw the woman aside and explain matters to her.

3. For its elucidation, this hadîth should be compared with Muslim's fuller narrative which details the manner of ghusl as well as the rubbing of the head. Al-Bukhâri does not adopt it for his Collection as it fails to fulfil his criteria of genuineness, though he takes his title from it—his practice being to accept titles taken from hadîths that were not up to his standardt of genuineness. His reason for rejecting the fuller narraive accepted by Muslim is that it was transmitted by Ibrâhîm b. Muhâjir, whose reliability as a narrator was impugned. He accordingly preferred for his text the abridged form, which — in spite of its greate] authenticity — does not completely elucidate the title, to the other fuller but less reliable narrative.

Chapter 12.

On the use of perfume by woman performing the ghusl after her courses.

We are informed by cAbdullâh b. cAbdul - Wahhâb, who had it from Hammâd b. Zaid, through Ayyûb, through Hafsah (or—states Al-Bukhari—Hishâm b. Hassân, through Hafsah), through Umm cAtiyyah, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace). She said :

"We were forbidden to be in mourning for the dead more than hree days, except for a husband, when the mourning period was four months and ten days — during which we were not to use kohl or perfume, nor wear a dyed garment unless it were of ribbed Yamanite cloth. We were permitted when any one of us was performing her ghusl after being clear of her courses to use a pinch of Zafâr costus.[1] We were also forbidden to follow funeral processions."

Hammâd [2] stated that this hadîth was related by Hishâm b. Hassân through Hafsah, through Umm cAtiyyah, from the Prophet (Allâh bless him and give him peace).

— ١٢ —

بابُ الطِّيبِ للمَرْأةِ عِنْدَ غُسْلِها مِنَ المَحِيضِ :

حدثنا عبد الله بن عبد الوهاب قال حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن حفصة (قال أبو عبد الله : أو هشامِ بنِ حسان عن حفصة) عن أم عطيـة عن النبي صلى الله عليه وسلم قالت :

« كنَّا نُنْهَى أنْ نُحِدَّ على مَيِّتٍ فَوْقَ ثلاثٍ إلا على زَوْجٍ أرْبعَةَ أشهرٍ وعَشْراً ولا نَكْتَحِلَ ولا نَتَطَيَّبَ ولا نَلْبَسَ ثَوْباً مَصْبوغاً إلا ثَوْبَ عَصْبٍ ، وقَدْ رُخِّصَ لنا عِنْدَ الطُّهْرِ إذَا اغْتَسَلَتْ إحْدَانا من مَحِيضِها في نُبْذَةٍ من كُسْتِ أظفارٍ ، وكنَّا نُنْهى عنَ اتِّباعِ الجَنائزِ » .

قالَ رَوَاه هشام بن حسان عن حفصة عن أم عطية عن النبي صلى الله عليه وسلم .

Chapter 13.

On a woman rubbing herself when purifying herself after her courses ;

— ١٣ —

بابُ دَلْكِ المَرْأةِ نَفْسَها إذا

---

1. The commentators prefer قسط ظفار = an Indian aromatic herb imported through Zafâr in Yaman, used as incense. Although perfumes were forbidden then during mourning, they were allowed the use of incense after their courses.

2. According to Al-Karmâni this statement was made either by Al-Bukhâri or Hammâd, though Ibn Hajar and Al-cAini are in favour of the former.

2. We are informed by Qutaibah, who had it form Yazîd b. Zurai[c], through Khâlid, through [c]Ikrimah, through [c]A[s] ishah, who said :

"One of the Prophet's wives (Allâh bless him and give him peace) once joined him in a spiritual retreat, when she actually saw blood and a yellowish liquid which she caught in a basin under her while she was praying."

٢ — حدثنا قتيبة قال حدثنا يزيد ابن زُرَيع عن خالد عن عكرمة عن عائشة قالت :

« اعتَكَفَتْ مَعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم امرَأَةٌ من أزواجِهِ فكانت ترى الدَّمَ والصُّفْرَةَ والطَّستُ تحتَها وهي تُصَلِّي » .

3. We are informed by Musaddad, who had it from Mu[c]tamir, through Khâlid, through [c]Ikrimah, through [c]A[s] ishah that :

One of the Mothers of the Faithful once went into a spiritual retreat while she was afflicted with constant extra-menstrual discharge.

٣ — حدثنا مسدد قال حدثنا معتمر عن خالد عن عكرمة عن عائشة :

« أنَّ بَعْضَ أُمَّهَاتِ المؤمنينَ اعتَكَفَتْ وهيَ مُسْتَحَاضَةٌ » .

Chapter 11.

— ١١ —

Should a woman perform her prayer in a garment which she hath worn during her courses ?

بابٌ : هلْ تُصَلِّي المرأةُ في ثَوْبٍ حاضتْ فيه ؟

We are informed by Abu Nu[c]aim, who had it from Ibrâhîm b. Nâfi[c], through Ibn Abu Najîh through Mujâhid, who stated that [c]A[s]ishah said :

"Each one of us had only one garment [1], which she wore during her courses, so that if it was slightly soiled by blood she moistened the place with her saliva and rubbed it with her finger-nail."

حدثنا أبو نُعيم قال حدثنا ابراهيم ابن نافع عن ابن أبي نَجِيح عن مجاهد قال قالتْ عائشة :

« ما كانَ لإحدَانا إلاّ ثوبٌ واحِدٌ تحيضُ فيهِ ، فإذا أصابَهُ شيءٌ من دَمٍ قالتْ بريقِها فقصَعَتْهُ بظُفرِها » .

Jahsh. Ibn Al-Jauzi, however, holds that the woman in question was not one of the Prophet's wives mentioned, but a connection, and names UmmHabîbah bint Jahsh the Prophet's sister-in-law, and Zainab bint Umm Salamah the Prophet's step-daughter. This view is refuted by the two following narrations of the same hadîth which both state clearly that she was one of the Prophet's wives.

1. This was the case only in the early days of Islâm when poverty and hardship were the rule; but later, as Umm Salamah's hadîth shows, separate garments were kept for menstruation.

menstrual blood ?' 'If the garment of any of you is soiled with menstrual blood', replied he, 'let her rub it between her knuckles, and then rinse it with water, after which she may pray in it. "

الدَّمُ من الحَيْضَةِ كَيْفَ تصنعُ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذَا أصابَ ثَوْبَ إحدَاكُنَّ الدَّمُ مِنَ الحيضَةِ فَلْتَقْرُصْهُ ثمَّ لِتَنْضَحْهُ بماءٍ ثمَّ لِتُصَلِّى فيهِ » .

2. We are informed by Asbagh, who had it from Ibn Wahb, who received it from ᶜAmr b. Al-Hârith, through ᶜAbd-ur-Rahmân b. Al-Qâsim, through his father, through ᶜAˢishah, who said :

٢ — حدثنا أصبَغُ قال أخبرنى ابن وهب قال أخبرنى عمرو بن الحارث عن عبد الرحمن بن القاسم حدَّثَهُ عن أبيه عن عائشة قالت :

"When one of us had her courses she used to rub the blood-stains off her garment with her knuckles on purifying herself, then wash them and rinse the whole garment. After that she performed her prayer in it."

« كانتْ إحْدَانا تَحِيضُ ثُمَّ تَقْتَرِصُ الدَّمَ مِنْ ثوْبِها عِنْدَ طُهْرِها فَتَغْسِلهُ وَتَنْضَحُ على سائِرِهِ ثم تصَلِّى فيهِ » .

Chapter 10.

— ١٠ —

On the spiritual retreat of a woman subject to constant extra-menstrual discharge.

بابُ الاعْتِكافِ لِلْمُسْتَحاضَةِ :

1. We are informed by Ishâq, who had it from Khâlid b. ᶜAbdullâh, through Khâlid, through ᶜAˢ ishah that :

١ — حدثنا اسحاق قال حدثنا خالد بن عبد الله عن خالد عن عكرمة عن عائشة :

One of the Prophet's wives (Allâh bless him and give him peace) once joined him in a spiritual retreat when she was in a state of constant extra-menstrual discharge, actually seeing the blood—so much so that she placed a basin under her, presumably to catch the blood.

أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم اعتَكَفَ معه بَعْضُ نِسائِهِ وَهِيَ مستَحاضَةٌ تَرى الدَّمَ ، فَرُبَّما وَضَعَتِ الطَّسْتَ تَحْتَها من الدَّمِ .

ᶜIKrimah stated that ᶜAˢishah] seeing a safflower-like [1] juice said : "I suppose this is what such and such [2] was discharging."

وَزَعَمَ أنَّ عائِشَةَ رَأتْ ماءَ العُصْفرِ فقالت : كانَّ هَذَا شَيْءٌ كانتْ فلانَةُ تَجِدُهُ .

1. The simile is chosen here because the safflower plant yields a thin reddish liquid like the more tenuous blood of the post-menstrual flow.

2. This seems to have been Saudah bint Zamᶜah, or Ramlah Umm Habîbah, or Zainab bint

which Allâh hath allotted to the daughters of Adam' said he, 'so perform whatever a pilgrim should do, save that thou do not circumambulate the Kacbah until thou hast purified thyself.' "

شيءٌ كتبهُ اللهُ على بناتِ آدم ، فافعلي ما يفعَلُ الحاجُّ غيرَ أنْ لا تطوفي بالبيتِ حتَّى تطهُري » .

Chapter 8.

— ٨ —

On constant extra-menstrual discharge.

بابُ الاستِحاضةِ :

We are informed by cAbdullâh b. Yûsuf, who had it from Mâlik, through Hishâm b. cUrwah, through his father, through cAs ishah, who said :

"Fâtimah bint Abu Hubaish once said to the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) : 'O Messenger of Allâh, I am never in a state of ritual purity, *through constant extramenstrual discharge*. Am I then to give up prayer ?' 'That is only blood oozing from a vein', replied the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace , 'so when the time of thy courses cometh give up prayer, and when their period passeth wash the blood from off thee and perform thy prayer.' "

حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت :

« قالتْ فاطمةُ بنت أبي حبيْش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يارسولَ اللهِ إني لا أطهُرُ ، أفأدَعُ الصلاةَ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّما ذلِكِ عِرقٌ وليْسَ بالحيْضةِ ، فإذا أقبلَتِ الحيْضةُ فاتركي الصلاةَ ، فإذا ذهبَ قدْرُها فاغسِلي عنْكِ الدَّمَ وصلِّي » .

Chapter 9.

— ٩ —

On washing away stains of menstrual blood.

بابُ غسْلِ دمِ المحيضِ :

1. We are informed by cAbdullâh b. Yûsuf who had it from Mâlik, through Hishâm, through Fâtimah bint Al-Mundhir, through Asmâ'bint Abu Bakr, who said :

"A woman once asked the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) : 'O Messenger of Allâh, what dost thou consider any one of us should do if her garment is soiled with

١ — حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام عن فاطمة بنت المنذر عن أسماء بنت أبي بكر أنَّها قالتْ :

« سألَتِ امرأةٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالتْ : يا رسولَ اللهِ أرأيتَ إحدانا إذا أصابَ ثوبَها

the letter of the Prophet (Allâh bless him and give him peace), and when he read it he saw in it the words : "In the Name of Allâh the All-Loving the Most Merciful. O ye people of the Book, come to the call of a word which is common to us and you etc ; " [1]

^{c}Atâ^{s} related through Jâbir : " ^{c}A^{s}ishah, although in her courses, performed all the rites of the pilgrimage except the circumambulation of the Ka^{c}bah and the prayer ; [2] "

Al-Hakam said : "For my part I slaughter animals when I am in a state of ritual impurity, *mentioning the name of Allâh,* for He saith : 'Eat ye not of things over which the name of Allâh hath not been mentioned.' " [3]

We are informed by Abu Nu^{c}aim, who had it from ^{c}Abd-ul-^{c}Azîz b. Abu Salamah, through ^{c}Abd-ur-Rahmân b. Al - Qâsim, through Al - Qâsim b. Muhammad through ^{c}A^{s}ishah, who said :

"We set out with the Prophet (Allâh bless him and give him peace) with no other aim but the pilgrimage to Makkah. When we reached Sarif, my courses came upon me, and when the Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) entered my tent I was in tears. He said : 'Why art thou weeping ?' I replied : 'I wish by Allâh that I had not undertaken the pilgrimage this year !' He said ; 'Have thy courses perchance come upon thee ?' Yes', replied I. 'This is a matter

عليه وسلم فقرأ فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وَيَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ ... الآية ﴾ ،

وقال عطاءٌ عن جابرٍ : حَاضَتْ عائشةُ فنسكت المناسك كلها غيرَ الطواف بالبيت ولا تصلّي ،

وقال الحكمُ : إني لأذبح وأنا جُنُبٌ ، وقال الله « ولا تأكلوا مما لم يُذكر اسمُ الله عليه » .

حدثنا أبو نعيم قال حدثنا عبدالعزيز ابن أبي سلمة عن عبد الرحمن بن القاسم عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت :

« خرجنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم لا نذكر إلا الحجّ ، فلمّا جئنا سَرِفَ طَمِثْتُ فدخل عليّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي ، فقال ما يبكيكِ ؟ قلتُ : لوددتُ والله أني لم أحجّ العامَ ! قال : لعلّكِ نُفِسْتِ ؟ قلت نعم ، قال : فإنّ ذلكِ

1. See Surah 3 : 64. The point of this passage is that although Heraclius was, as a Christian, presumedly in a state of ritual uncleanness. there was no objection to his touching the Qur^{s}ân and reading two verses from it. This fact is the basis of the Companions' inference that one or two verses might be recietd by one in a state of janâbah.

2. The distinction must be observed between the صلاة (prayer ritual) and the دعاء (the saying of prayer or the making of invocation)—the former not being permissible to a menstruating woman or one in a state of janâbah, and the latter being permissible at all times.

3. Surah 6 : 122.

husbands. I have never seen anyone more apt to make a resolute man lose his reason than one of you womenkind who are imperfect in intellect and faith.'

'What is the imperfection in our intellect and faith, Messenger of Allâh?' asked they.

'Is not the testimony of a woman equal to half that of a man?' replied he.

'Certainly', said they.

'Then', added he, 'that is due to the imperfection of her intellect. Must she not cease to pray and fast when menstruating?'

'Certainly', said they.

'Then', added he, 'that leadeth to the imperfection of her faith.' "[1]

Chapter 7.

A woman in her courses performeth all the rites of the pilgrimage except the circumambulation of the Kaᶜbah;

Ibrâhîm declared that there was no harm in her reciting one verse of the Qurˢân;[2]

Ibn ᶜAbbâs saw no harm in a verse or two being recited by one in a state of ritual impurity through sexual intercourse;

the Prophet (Allâh bless him and give him peace) used to praise Allâh on every occasion of his life;

Umm ᶜAtiyyah said: "We were commanded to send out women in their courses *on the Feast day*, so that they might say the takbîr with the Faithful and make invocation;

Ibn ᶜAbbâs stated that he was informed by Abu Sufyân that Heraclius called for

أذهبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحازِمِ مِنْ إحداكُنَّ.

قُلنَ: وَمَا نُقصانُ دِينِنا وعَقلِنا يا رسولَ الله؟

قال: أليسَ شهادةُ المرأةِ مِثلَ نِصفِ شهادةِ الرَّجُلِ؟

قُلنَ: بَلَى،

قال: فذَلِكِ مِنْ نُقصانِ عقلِها، ألَيسَ إذا حاضَتْ لم تُصَلِّ ولم تَصُمْ؟

قُلنَ: بَلَى،

قال: فذَلِكِ من نُقصانِ دِينِها».

— ٧ —

بابٌ: تَقضي الحائضُ المناسكَ كلَّها إلاَّ الطَّوافَ بالبيتِ،

وقال ابراهيم: لا بأسَ أن تقرأَ الآيةَ،

ولم يَرَ ابنُ عبَّاسٍ بالقراءةِ للجُنُبِ بأساً، وكانَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَذكرُ اللهَ على كلِّ أحيانِهِ،

وقالت أمُّ عطِيَّةَ: كُنَّا نُؤمَرُ أن يَخرُجَ الحُيَّضُ فيُكبِّرنَ بتكبيرِهم ويَدعونَ،

وقال ابن عباس: أخبرَني أبو سفيان أنَّ هِرَقلَ دعا بكتابِ النبيِّ صلى الله

1. The interruption in prayer and fasting necessitated by a woman's weakness places her at a disadvantage with a man, whose religious exercises are subject to no such interruption.

2. An isolated verse may be recited, preferably being begun but not completed—as is expounded in a hadîth narrated by this Ibrâhîm.

AL-AZHAR REVIEW
PUBLISHED BY AL-AZHAR UNIVERSITY, CAIRO.

ترجمة جامع صحيح البخارى

للأستاذ ابراهيم حسن الموجى

AL-BUKHARI

A COLLECTION OF MUHAMMAD'S AUTHENTIC TRADITIONS

Translated into English

BY

I. H. EL-MOUGY, M.A., M.R.A.S.

The Book of Menstruation

(CONTINUED)

Chapter 6.

On a woman in her courses not keeping the fast.

We are informed by Saʿîd b. Abu Mariam, who had it from Muhammad b. Jaʿfar, who received it from Zaid b. Aslam, through ʿIyâd b. ʿAbdullâh, through Abu Saʿîd Al-Khudri, who said :

"The Messenger of Allâh (Allâh bless him and give him peace) once went out on the Feast of the Courban Sacrifice—or that of the Breaking of the Fast[1] — to the open air mosque.[2] When he passed by the women he said ; 'O ye women ! Give alms, for indeed it hath been shown me that ye form the greater part of the inhabitants of hell-fire.' 'What for, Messenger of Allâh ?' asked they. 'Ye are instant in cursing', replied he, 'and ye show ingratitude to your

كتاب الحيض (تابع ماقبله)

— ٦ —

بابُ : تَرْكِ الحَائِضِ الصومَ :

حدثنا سعيد بن أبى مريم قال أخبرنا محمد بن جعفر قال أخبرنى زيد هو ابن أسلم عن عياض بن عبد الله عن أبى سعيد الخدرى قال :

« خَرَجَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِى أضْحًى أوْ فِطْرٍ إلَى المُصَلَّى ، فَمَرَّ على النِّساءِ فقَالَ : يَا مَعْشَرَ النِّسَاء تَصَدَّقْنَ فإنِى أُرِيتُكُنَّ أكْثَرَ أهْلِ النَّار ، فَقلْنَ : وَبِمَ يارسولَ اللهِ ؟ قال: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ

1. Doubt on the part of the narrator.
2. A place in the cemetery where the Feast-prayer was performed.